فتوح الشام

تأليف

أبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي

المتوفى سنة ٢٠٧هـ

ضبطه وصححه

عبد اللطيف عبد الرحمن

١-٢

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية بيروت لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف

هو الإمام العلّامة أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الأسلمي مولاهم الواقدي المديني، صاحب التصانيف والمغازي وأحد أوعية العلم.

وُلِد بعد العشرين ومائة، وطلب العلم عام بضعة وأربعين، وسمع من صغار التابعين فمن بعدهم بالحجاز والشام وغير ذلك.

حدّث عن جماعة من العلماء، منهم محمد بن عجلان وابن جريج والأوزاعي وأبو بكر بن أبي سبرة. قال الذهبي: «وجمع فأوعى وخلط الغثّ بالسمين والخرز بالدرّ الثمين، فاطرحوه لذلك، ومع هذا لا يُستغنى عنه في المغازي وأيام الصحابة وأخبارهم».

وحدّث عنه محمد بن سعد كاتبه، وأبو بكر بن أبي شيبه ومحمد بن يحيى الأزدي ومحمد بن الفرج الأزرق وغيرهم عدّة.

قال البخاري في التاريخ الكبير: «مات الواقدي في ذي الحجة سنة سبع ومائتين». وقال ابن النديم: «مات عشيه يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خَلَت

من ذي الحجة سنة سبع ومائتين وله ثمان وسبعون سنة، ودفن في مقابر الخيزران، وصلّى عليه محمد بن سماعة.

له من المصنفات: كتاب التاريخ والمغازي والمبعث، كتاب أخبار مكة، كتاب الطبقات، كتاب فتوح الشام وهو الذي بين أيدينا، كتاب فتوح العراق، كتاب الجَمَل، كتاب مقتل الحسين، كتاب السيرة، كتاب أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، كتاب الردّة والدار، كتاب حرب الأوس والخزرج، كتاب صفّين، كتاب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، كتاب أمر الحبشة والفيل، كتاب المناكح، كتاب السقيفة وبيعة أبي بكر، كتاب ذكر القرآن، كتاب سيرة أبي بكر ووفاته، كتاب مداعي قريش والأنصار في القطائع ووضع عمر الدواوين وتصنيف القبائل ومراتبها وأنسابها، كتاب الترغيب في علم المغازي وغلط الرجال، كتاب مولد الحسن والحسين ومقتل الحسين، كتاب ضرب الدنانير والدراهم، كتاب تاريخ الفقهاء، كتاب الآداب، كتاب التاريخ الكبير، كتاب غلط الحديث، كتاب السُّنة والجماعة وذمّ الهوى وترك الخروج في الفتن، كتاب الاختلاف ويحتوي على اختلاف أهل المدينة والكوفة في الشفعة

والصدقة والهبة والعمرى والرقبى والوديعة والعارية والبضاعة والمضاربة والغصب والسرقة والحدود والشهادات وعلى نسق كتب الفقه ما بقي.

مقدمة التهذيب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فما أكثر الكنوز التي تحتوي عليها المكتبة الإسلامية مما صنفه وكتبه وجمع أبوابه سلفنا الصالح - رضي الله عنهم - الذين خلفوا لنا تراثًا حضاريًّا تعجز البشرية بكل طوائفها وأديانها أن تأتي مجتمعة بعشر معشاره، وتاريخًا مدوَّنًا موثَّقًا لو كان لدى أمة من الأمم غير المسلمة لتفاخرت به وعضَّت عليه بالنواجذ وربَّت أجيالها عليه، ولكن للأسف الشديد هذا التراث الضخم مهمل من المسلمين، لا يقرؤونه ولا يحترمونه فضلًا عن أن يطبقوه في حياتهم العملية فيعيد لهم الأمجاد التليدة والمفاخر الحميدة!

ومن بين الكتب التي ألفت في التاريخ ولم تحظ بالاهتمام الذي تستحقه الكتاب الذي بين أيدينا؛ رغم أنه طبع عشرات الطبعات إلا أنها لم تؤد الواجب نحو هذا الكنز من تهذيب بعض ألفاظه، واختصار الاستطرادات المطولة في بعض المواضع وأشعار الفخر التي قد تصيب القارئ بالملل خاصة لمن يفتقدون النفس الطويل في قراءة الكتب - وهم الغالبية العظمى من قراء اليوم -

، وكذلك لفت أنظار المسلمين للاستفادة من يقين صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتابعيهم وصدقهم في جهادهم وما فتح الله عليهم من الحنكة السياسية والعبقرية القيادية والالتزام والسمع والطاعة والحيل التي لجأ إليها المسلمون لفتح الحصون والقلاع مما يدل على إنه يجوز في الجهاد ما لا يجوز في غيره! ولذا يمكن إطلاق اسم «فتوح الحيل» والتطبيق العملي لقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «الحرب خدعة» على هذه الفتوح، هذا بجانب أبواب العلم والفقه التي تستفاد منه! وهناك أمور نحب أن نلفت الأنظار إليها ليتعلم منها المجاهدون خاصةً والقادة السياسيون والعسكريون عامةً ظهرت بجلاء من خلال التطبيق العملي لصحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والتابعين لهم – رضي الله عنهم – أجمعين من أهمها:

– الإمارة أمانة وتكليف ومسئولية أمام رب العالمين ثم عباده المؤمنين؛ ونذكر هنا كلمات سيدنا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين لعامله على جيوش المسلمين في الشام سيدنا أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما – بدون تعليق –: «اعلم يا أبا عبيدة أنَّ بانقطاع كتابك وإبطاء خبرك يكثر قلقي ويضنى

جسدي على إخواني المسلمين وما لي ليل ولا نهار إلا وقلبي عندكم ومعكم، فإذا لم يأت منكم خبر ولا رسول فإن عقلي طائر وفكري حائر، وكأنك لا تكتب إليَّ إلا بالفتح أو الغنيمة، واعلم يا أبا عبيدة أنَّني وإن كنت غائبًا عنكم فإن همَّتي عندكم وأنِّي داعٍ لكم، وقلقي عليكم كقلق الوالدة الشفوقة على ولدها».

– الالتزام الصارم بالأحكام الشرعية على الراعي والرعية وعلى المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب والمشركين ونكتفي بذكر وصية سيدنا أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – ليزيد بن أبي سفيان عندما أمَّره على ألف فارس من سائر الناس للسير إلى الشام: «إذا سرت فلا تضيِّق على نفسك ولا على أصحابك في مسيرك ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك وشاورهم في الأمر واستعمل العدل وباعد عنك الظلم والجور فإنه لا أفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم، وإذا لقيتم القوم فلا تولوهم الأدبار. وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولدًا ولا شيخًا ولا امرأة ولا طفلًا ولا تعقروا بهيمة إلا بهيمة المأكول، ولا تغدروا إذا عاهدتم ولا تنقضوا إذا صالحتم».

- تطبيق أحكام السياسة الشرعية على كل المستويات القيادية، ومواكبة القيادة السياسية الدائمة لما يجري على الساحة العسكرية والإلمام بتطورات المعارك وتوجيه القادة العسكريين بالخطوات التالية كدليل على الإحاطة بخط سير المعارك وكل دقائقها وسرعة اتخاذ القرارات المواكبة لتطورات الأحداث، وهذا يتضح بجلاء من كتب الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم - إلى قادتهم في الميادين رغم بعد المسافات وصعوبة الاتصالات في ذلك الزمان! وأما القيادة العسكرية فهي تلتزم بمبدأ الشورى وتقود المعركة من داخل الميدان وليس من غرف العمليات المبنية بالخرسانة المسلحة في أعماق الأرض! والتفاوض المباشر مع الأعداء، وأكثر من ذلك المشاركة في القتال والبراز كما حدث من مبارزة سيدنا أبي عبيدة لـ «جرجير» أحد ملوك الروم في معركة اليرموك! فإنَّ هذا له أكبر الأثر في تثبيت المجاهدين وإثارة الحمية في قلوبهم ودفعهم للاستقتال في الحرب وهم يرون قادتهم يحرصون على الشهادة كما يحرص عليها أصغر جندي من جنودهم!

- يتضح بجلاء من قراءة هذا الكتاب دور العلماء وأصحاب الرأي من الصحابة وآحادهم في شحذ الهمم وحل المشكلات التي تطرأ في الميدان طبقًا لأحكام الشريعة وكذلك التوسط بين القادة لدرء الانقسام والانشقاق في الصفوف كما حدث في التدخل بين سيدنا أبي عبيدة وسيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنهما عند فتح مدينة دمشق.

- من أعظم الدروس التي تستفاد من هذا الكتاب هي السمع والطاعة من الجنود والقادة على حد سواء والرجوع للحق مهما كان قائله والمقول له! ويكفينا قول سيدنا خالد بن الوليد لسيدنا أبي عبيدة رضي الله عنهما: «والله لو أمَّر عليَّ طفل صغير لأطيعن له، فكيف أخالفك وأنت أقدم مني إيمانًا وأسبق إسلامًا؟!».

- من أبرز ما يلحظه المطالع للكتاب هو دور المرأة المسلمة في الجهاد والفتوحات لتدحض بذلك الصحابيات رضي الله عنهن ما يشاع عن ذلك الجيل الفريد من هضم حقوق المرأة وأن الإسلام حولهنَّ إلى أدوات معطلة في البيوت لا يسمح لهن بالخروج إلا إلى بيت زوجها ثم إلى القبر! وتبرز هنا

التربية الإيمانية التي كان يرعاها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على عينه للرجال والنساء على حد سواء، وتبعه الخلفاء الراشدون - رضي الله عنهم -؛ وخاصة إعداد النسوة للقتال والدفاع عن النفس والعرض إن فُقد الناصر من الرجال فلا يستسلمن للأسر وانتهاك الأعراض! وما أحرى نساء المسلمين أن يتعلمن كيف يربين أنفسهن وبناتهن على الجرأة والشجاعة والدفاع عن النفس بما يتيسر من السلاح خاصة أن الجهاد الآن صار أيسر بكثير جدًّا عمَّا كان عليه زمن الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم - فبعد أن كان بالسيف والرمح وأعمدة الخيام، ويتطلب الفروسية وركوب الخيل وما شابه؛ أصبح الآن بالأسلحة النارية وغيرها وهي سهلة الاستعمال ولا تحتاج لقوة بدنية هائلة كما كان في السابق خاصة أن أعداء الله - عز وجل - يركِّزون حملات الإبادة على رجال المسلمين وفتيانهم ويستحيون نساءهم، والله تعالى لهم بالمرصاد.

- «انفروا تفقهوا» هذه القاعدة خلَّفت للمسلمين الآلاف من الفقهاء والعلماء الذين يجمعون بين العلم والعمل وإخلاص النوايا، وكذلك التطبيق العملي لقول النبي - صلى الله عليه وسلم - «وجعل رزقي تحت ظل رمحي»

فقد ملك المسلمون في سنوات معدودة كنوز كسرى وقيصر وفتحوا مدن الشام والعراق ومصر بكل ما فيها من الأموال والمنقولات والثروات والعبيد والإماء، وخرجوا من ضيق الجزيرة العربية وشظف العيش فيها إلى سعة الدنيا وزينتها نتيجة جهادهم - رضي الله عنهم -!

- ضرورة الرجوع في دراسة تاريخ المسلمين إلى المصادر الإسلامية العربية الموثوقة والابتعاد عن كتابات المستشرقين والأدباء وعلماء الغرب الذين يدسون السم في العسل، ويطعنون الأمة في أعز ما تملك، ويعرضون السيرة والتاريخ عرضًا يخدم أهدافهم الدنيئة ونواياهم الخبيثة ويحرم المسلمين من معرفة صحابة رسولهم - صلى الله عليه وسلم - على حقيقتها دون حصر الأمر في زهدهم وورعهم وعلمهم وإخفاء حقيقة أنهم كانوا أبطالًا في ميادين القتال حتى أن الواحد منهم كان يواجه ألفًا من المشركين مثل سيدنا عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - الذي لم يُعرف إلا بشدَّة اتباعه لسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - والزهد والعلم، وكذلك سيدنا أبو ذر الغفاري - رضي الله عنه - الذي قال عنه عمرو بن ساعدة: «فلقد رأيته مع كبر سنِّه

يضرب بسيفه ضربًا شديدًا في الروم وينتمي إلى قومه ويذكر عند حملاته اسمه ويقول: أنا أبو ذر»، وغيرهما من صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والتابعين! وكأن هذه الروح وهذا الفكر هو الذي يريدون نشره بين المسلمين ليفصلوا بين العلم والعمل، وبين الإيمان والجهاد بالنفس والمال!

عملي في هذا الكتاب

كما ذكرت في البداية أن الكتاب من الضخامة بحيث يصعب على القارئ المعاصر أن يتابع أحداثه ووقائعه ويربط بينها، أو يلحظ التكرار الذي وجد في بعض القصص والأحداث ربما سهوًا من المؤلف - رحمه الله - لصعوبة التدقيق والمراجعة في زمانه، بالإضافة إلى ما نظنُّ أنه امتد لأصل الكتاب من خرافات الصوفية وعبّاد القبور، وبعض القصص التي قد لا يستسيغها أصحاب «تفضيل العقل على النقل»، فتم تهذيب ذلك أو اختصاره أو إلغاؤه، مع حذف الأسانيد طلبًا للاختصار والاكتفاء بالراوي الأول - إلا ما ندر -، ومن أراد معرفة الإسناد كاملًا وما حُذف أو عُدِّل من فقرات الكتاب يمكنه الرجوع إلى

طبعة دار الكتب العلمية (بيروت - لبنان) الطبعة الأولى ١٤١٧ - ١٩٩٧ م والتي اعتمدنا عليها في المراجعة والتدقيق والمطابقة بين النسخة المعدلة التي بين أيدينا والنسخة الأصلية للكتاب، بالإضافة إلى ما سيلحظه المطالع للكتاب من البداية من تغييرات في الشكل والطباعة ورسم الآيات القرآنية وغيرها.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

حسام عبد الرؤوف

ربيع الآخر ١٤٢٩ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الأول

{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا}

إقبال الجند

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الإمام الواقدي رحمه تعالى... آمين والله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ما اعتمدت في أخبار هذه الفتوح إلا الصدق وما نقلت أحاديثها إلا عن ثقات وعن قاعدة الحق لأثبت فضائل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجهادهم حتى أرغم بذلك أهل الرفض الخارجين عن السنة والفرض إذ لولاهم بمشيئة الله لم تكن البلاد للمسلمين وما انتشر علم هذا الدين، فلله درهم لقد جاهدوا في الله حق جهاده ونصروا دينه، وثبتوا للقاء الأعداء وبذلوا جهدهم ونصروا الدين حتى زحزحوا الكفر عن سريره وتقهقر، لا جرم وقد قال فيهم الملك المقتدر: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا

اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» (الأحزاب:٢٣)

قال: حدثني أبو بكر بن الحسن بن سفيان بن نوفل بن محمد بن إبراهيم التيمي، ومحمد بن عبد الله الأنصاري، وأبو سعيد مولى هشام ومالك بن أبي الحسن وإسماعيل مولى الزبير ومازن بن عوف من بني النجار، كل حدَّث عن فتوح الشام بما كان، قالوا جميعًا: إنه لما توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واستخلف بعده أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - قتل في خلافته مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة، وقاتل بني حنيفة، وأهل الردة وأطاعته العرب، فعزم أن يبعث جيشه إلى الشام وصرف وجهه لقتال الروم فجمع أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المسجد وقام فيهم خطيبًا فحمد الله - عز وجل - ، وقال: يا أيها الناس رحمكم الله تعالى اعلموا أن الله فضلكم بالإسلام وجعلكم من أمة محمد عليه الصلاة والسلام، وزادكم إيمانًا ويقينًا ونصركم نصرًا مبينًا، وقال فيكم: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (المائدة:٣)، واعلموا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان عوَّل أن يصرف همته إلى الشام فقبضه الله إليه واختار له ما لديه، ألا وإنِّي عازم أن أوجه أبطال المسلمين إلى الشام بأهليهم ومالهم فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنبأني بذلك قبل موته، وقال: «زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها »، فما قولكم في ذلك؟ فقالوا: يا خليفة رسول الله مرنا بأمرك ووجهنا حيث شئت، فإن الله تعالى فرض علينا طاعتك. فقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ» (النساء:٥٩).

ففرح أبو بكر - رضي الله عنه - ونزل عن المنبر وكتب الكتب إلى ملوك اليمن وأهل مكة وكانت الكتب فيها نسخة واحدة. وهي: بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليكم أما بعد: فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد عزمت أن أوجهكم إلى بلاد الشام لتأخذوها من أيدي الكفار والطغاة فمن عوَّل منكم على الجهاد والصدام، فليبادر إلى طاعة الملك العلام، ثم كتب: «انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا

بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ» (التوبة:٤١)، ثم بعث الكتب إليهم وأقام ينتظر جوابهم وقدومهم، وكان الذي بعثه بالكتب إلى اليمن أنس بن مالك خادم رسول الله – صلى الله عليه وسلم –؛ فما مرت أيام حتى قدم أنس – رضي الله عنه – يبشره بقدوم أهل اليمن وقال: يا خليفة رسول الله وحقك على الله ما قرأت كتابك على أحد إلا وبادر إلى طاعة الله ورسوله، وأجاب دعوتك وقد تجهزوا في العدد والعديد والزرد النضيد، وقد أقبلت إليك يا خليفة رسول الله مبشرًا بقدوم الرجال، وأي رجال، وقد أجابوك شعثًا غبرًا وهم أبطال اليمن وشجعانها، وقد ساروا إليك بالذراري والأموال والنساء والأطفال، وكأنَّك بهم وقد أشرفوا عليك ووصلوا إليك فتأهب إلى لقائهم.

فَسُرَّ أبو بكر – رضي الله عنه – بقوله سرورًا عظيمًا، وأقام يومه ذلك حتى إذا كان من الغد أقبلوا إلى الصديق – رضي الله عنه – وقد لاحت غبرة القوم لأهل المدينة. فأخبروه فركب المسلمون من أهل المدينة وغيرهم وأظهروا زينتهم وعددهم ونشروا الأعلام الإسلامية ورفعوا الألوية المحمدية فما كان

إلا قليل حتى أشرفت الكتائب والمواكب يتلو بعضها بعضًا، قوم في أثر قوم وقبيلة في أثر قبيلة، فكان أول قبيلة ظهرت من قبائل اليمن حمير وهم بالدروع الداودية والبيض العادية والسيوف الهندية وأمامهم ذو الكلاع الحميري – رضي الله عنه –. فلما قرب من الصديق – رضي الله عنه – أحب أن يعرفه بمكانه وقومه وأشار بالسلام وجعل ينشد ويقول:

أتتك حمير بالأهلين والولد ... أهل السوابق والعالون بالرتبِ
أسد غطارفة شوس عمالقة ... يردوا الكماة غدًا في الحرب بالقضب
الحرب عادتنا والضرب همّتنا ... وذو الكلاع دعا في الأهل والنسب
دمشق لي دون كل الناس أجمعهم ... وساكنيها سأهويهم إلى العطب

فتبسم أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – من قوله، ثم قال لعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه –: يا أبا الحسن أما سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: «إذا أقبلت حمير ومعها نساؤها تحمل أولادها فأبشر بنصر الله على أهل الشرك أجمعين»؟ فقال الإمام علي: صدقت وأنا سمعته من رسول الله – صلى الله عليه وسلم –. قال أنس – رضي الله عنه –: وسارت حمير بكتائبها وأموالها وأقبلت من بعدها كتائب مذحج أهل الخيل العتاق والرماح

الدقاق، وأمامهم سيدهم قيس بن هبيرة المرادي - رضي الله عنه -، فلما وصل إلى الصديق - رضي الله عنه - جعل يقول: صلوا على طه الرسول:

أتتك كتائب منا سراعًا ذوو التيجان أعني من مرادِ
فقدِّمنا أمامك كي ترانا نبيد القوم بالسيف النجادي

فجزاه أبو بكر - رضي الله عنه - خيرًا، وتقدم بكتائبه ومواليه، وتقدمت من بعده قبائل طئ يقدمها حارث بن مسعد الطائي - رضي الله عنه -، فلما وصل همَّ أن يترجل فأقسم عليه أبو بكر - رضي الله عنه - بالله تعالى أن لا تفعل فدنا منه فصافحه وسلم عليه وأقبلت الأزد في جموع كثيرة يقدمها جندب بن عمرو الدوسي - رضي الله عنه -، ثم جاءت من بعدهم بنو عبس يقدمهم الأمير ميسرة بن مسروق العبسي - رضي الله عنه -، وأقبلت من بعدهم بنو كنانة يقدمهم غيشم بن أسلم الكناني وتتابعت قبائل اليمن يتلو بعضها بعضًا ومعهم نساؤهم وأموالهم، فلما نظر أبو بكر - رضي الله عنه - إلى نصرتهم سُرَّ بذلك وشكر الله تعالى.

وأنزل القوم حول المدينة كل قبيلة متفرقة عن صاحبتها واستمروا فأضرَّ بهم المقام من قلة الزاد وعلف الخيل وجدوبة الأرض فاجتمع أكابرهم عند الصديق - رضي الله عنه -، وقالوا: يا خليفة رسول الله إنك أمرتنا بأمر فأسرعنا لله ولك رغبة في الجهاد وقد تكامل جيشنا وفرغنا من أهبتنا، والمقام قد أضرَّ بنا لأن بلدك ليست بلد جيش، ولا حافر ولا عيش، والعسكر نازل فإن كنت قد بدلت فيما عزمت عليه فأمرنا بالرجوع إلى بلدنا. وأقبل الجميع وخاطبوه بذلك، فلما فرغوا من كلامهم قال أبو بكر - رضي الله عنه -: يا أهل اليمن، ومن حضر من غيرهم. أما والله ما أريد لكم الإضرار، وإنما أردنا تكاملكم! قالوا: إنه لم يبق من ورائنا أحد فاعزم على بركة الله تعالى.

وصية أبي بكر

قال المؤلف رحمه الله تعالى: لقد بلغني أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - قام من ساعته يمشي على قدميه وحوله جماعة من الأصحاب منهم عمر وعثمان وعلي - رضي الله عنهم - أجمعين، وخرجوا إلى ظاهر المدينة ووقع النداء في الناس وكبروا بأجمعهم فرحًا لخروجهم وأجابتهم الجبال لدوي

أصواتهم، وعلا أبو بكر على دابته حتى أشرف على الجيش فنظر إليهم قد ملئوا الأرض فتهلل وجهه، وقال: اللهم أنزل عليهم الصبر وأيدهم ولا تسلمهم إلى عدوهم: «إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (آل عمران:٢٦)، وكان أول من دعاه أبو بكر يزيد بن أبي سفيان وعقد له راية وأمّره على ألف فارس من سائر الناس. ودعا بعده رجلًا من بني عامر بن لؤي يقال له ربيعة بن عامر، وكان فارسًا مشهورًا في الحجاز فعقد له راية وأمّره على ألف فارس.

ثم أقبل أبو بكر على يزيد بن أبي سفيان، وقال له: هذا ربيعة بن عامر من ذوي العلى والمفاخر قد علمت صولته وقد ضممته إليك وأمّرتك عليه فاجعله في مقدمتك وشاوره في أمرك ولا تخالفه. فقال يزيد: حبًا وكرامة. وأسرعت الفرسان إلى لبس السلاح واجتمع الجند وركب يزيد بن أبي سفيان، وربيعة بن عامر وأقبلا بقومهما إلى أبي بكر – رضي الله عنه – فأقبل يمشي مع القوم. فقال يزيد: يا خليفة رسول الله الناجي من غضب الله ومن رضيتَ عنه لا نكن على ظهور خيولنا، وأنت تمشي!! فإمَّا أن تركب وإمَّا أن ننزل. فقال: ما أنا براكب وما أنتم بنازلين! وسار إلى أن وصل إلى ثنية الوداع فوقف هناك فتقدم إليه يزيد

فقال: يا خليفة رسول الله أوصنا، فقال: إذا سرت فلا تضيِّق على نفسك ولا على أصحابك في مسيرك ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك وشاورهم في الأمر واستعمل العدل وباعد عنك الظلم والجور فإنه لا أفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم، وإذا لقيتم القوم فلا تولوهم الأدبار: «وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» (الأنفال:١٦).

وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولدًا ولا شيخًا ولا امرأة ولا طفلًا ولا تعقروا بهيمة إلا بهيمة المأكول، ولا تغدروا إذا عاهدتم ولا تنقضوا إذا صالحتم، وستمرون على قوم في الصوامع رهبانًا يزعمون أنهم ترهبوا في الله فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم، وستجدون قومًا آخرين من حزب الشيطان وعبدة الصلبان قد حلقوا أوساط رؤوسهم فاعلوهم بسيوفكم حتى يرجعوا إلى الإسلام أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وقد استودعتكم الله. ثم عانقه وصافحه وصافح ربيعة بن عامر، وقال: يا عامر أظهر شجاعتك على بني الأصفر! بلغكم الله آمالكم، وغفر لنا ولكم.

وسار القوم ورجع أبو بكر - رضي الله عنه - بمن معه إلى المدينة قال: فجد القوم في السير، فقال ربيعة بن عامر: ما هذا السير يا يزيد، وقد أمرك أبو بكر أن ترفق بالناس في سيرك؟! فقال يزيد: يا عامر إن أبا بكر - رضي الله عنه - سيعقد العقود ويرسل الجيوش فأردت أن أسبق الناس إلى الشام فلعلنا أن نفتح فتحًا قبل تلاحق الناس بنا فيجتمع بذلك ثلاث خصال: رضاء الله - عز وجل -، ورضاء خليفتنا، وغنيمة نأخذها. فقال ربيعة: فسر الآن ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فأخذ القوم في السير على وادي القرى ليخرجوا على تبوك ثم على الجابية إلى دمشق. واتصل الخبر للملك هرقل من قوم من عرب اليمن المتنصرة كانوا في المدينة، فلما صح عند الملك ذلك جمع بطارقته في عسكره، وقال لهم: «يا بني الأصفر إن دولتكم قد عزمت على الانهزام، ولقد كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتقيمون الصلاة وتؤتون الزكاة التي أمركم بها الآباء والأجداد والقسس والرهبان، وتقيمون حدود الله التي أمركم بها في الإنجيل لا جرم أنكم ما قصدكم ملك من ملوك الوشاة ونازعكم على الشام إلا وقهرتموه ولقد قصدكم كسرى بجنود فارس فانكسروا على أعقابهم، والآن قد بدلتم وغيرتم فظلمتم وجُرْتُم، وقد بعث إليكم ربكم قومًا

لم يكن في الأمم أضعف منهم عندنا، وقد رمتهم شدة الجوع إلينا وأتى بهم إلى بلادنا وبعثهم صاحب نبيهم ليأخذوا ملكنا من أيدينا ويخرجونا من بلادنا!»، ثم إنه حدثهم بالذي سمعه من طرسيسه. فقالوا: «أيها الملك نردهم عن مرادهم ونصل إلى مدينتهم ونخرب كعبتهم»، فلما سمع مقالتهم وتبين اغتياظهم جرد منهم ثمانية آلاف من أشجع فرسانهم وأمّر عليهم خمسة من بطارقتهم، وهم البطاليق وأخوه جرجيس وصاحب شرطته ولوقا بن سمعان وصليب بن حنا صاحب غزة، وكانت هذه الخمسة بطارقة يضرب بهم المثل في الشجاعة والبراعة، ثم تدرعوا وأظهروا زينتهم، وصلَّت عليهم الأمة صلاة النصر. فقالوا: اللهم انصر من كان منا على الحق! وبخروهم ببخور الكنائس، ثم رشوا عليهم من ماء المعمودية وودعوا الملك وساروا وأمامهم العرب المتنصرة يدلونهم على الطريق.

حدثني رفاعة عن ياسر بن الحصين قال: بلغني أن أول من وصل إلى تبوك كان يزيد بن أبي سفيان وربيعة بن عامر ومن معهما من المسلمين قبل وصول الروم بثلاثة أيام، فلما كان في اليوم الرابع والمسلمون قد هموا بالرحيل إلى

الشام إذ أقبل جيش الروم، فلما رآه المسلمون أخذوا على أنفسهم وكمن ربيعة بأصحابه الألف وأقبل يزيد بأصحابه الألف ووعظهم وذكر الله تعالى وقال لهم: (اعلموا أن الله وعدكم النصر وأيدكم بالملائكة، وقال الله تعالى في كتابه العزيز: «كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» (البقرة:٢٤٩)، وقد قال - صلى الله عليه وسلم -: «الجنة تحت ظلال السيوف» -متفق عليه- وأنتم أول جند دخل الشام وتوجه لقتال بني الأصفر فكأنكم بجنود الشام، وإياكم أن تطمعوا العدو فيكم وانصروا الله ينصركم).

فبينما يزيد يعظ الناس وإذا بطلائع الروم قد أقبلت وجيوشها قد ظهرت فلما رأوا قلة العرب طمعوا فيهم وظنوا أنه ليس وراءهم أحد فبربر بعضهم على بعض بالرومية وقالوا دونكم من يريد أخذ بلادكم واستنصروا بالصليب فإنه ينصركم، ثم حملوا وتلقاهم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بهمم عالية وقلوب غير دانية ودار القتال بينهم وتكاثرت الروم عليهم وظنوا أنهم في قبضتهم إذ خرج عليهم ربيعة بن عامر - رضي الله عنه - بالكمين، وقد أعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير، وحملوا على الروم حملة صادقة،

فلما عاينت الروم من خرج عليهم انكسروا، وألقى الله الرعب في قلوبهم فتقهقروا إلى ورائهم ونظر ربيعة بن عامر إلى البطاليق وهو يحرض قومه على القتال فعلم أنه طاغية الروم فحمل عليه وطعنه طعنة صادقة فوقعت في خاصرته وطلعت من الناحية الأخرى، فلما نظرت الروم إلى ذلك ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار ونزل النصر على طائفة محمد المختار. حدثنا سعد بن أوس عن السرية التي أنفذها أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - مع يزيد بن أبي سفيان وربيعة بن عامر، قال: قد اجتمعا بعساكر الروم في أرض تبوك مع البطاليق وهزمهم الله تعالى على أيدينا، وكان جملة من قتل منهم ألفًا ومائتين، ومن قتل من المسلمين مائة وعشرين رجلًا. وإن القوم لما انهزموا قال لهم جرجيس وهو أخو المقتول: يا ويلكم بأي وجه ترجعون إلى الملك، وقد عملوا فينا عملًا ذريعًا، وملئوا الأرض من قتلانا ولا أرجع حتى أخذ بثأر أخي أو ألحق به. قال: واجتمع القوم وسمعوا منه ذلك ورجع بعضهم إلى بعض وعادوا إلى القتال، فلما استقروا في خيامهم بعثوا رجلًا من العرب المتنصرة اسمه القداح، وقالوا له: امض إلى بني عمك وقل لهم يبعثوا إلينا رجلًا من كبارهم وعقلائهم حتى ننظر ما يريدون منا. فركب القداح جواده وأقبل نحو جيش المسلمين، فلما

رأوه مقبلًا إليهم استقبله رجال من الأوس وقالوا له: ماذا تريد؟ قال لهم: إن البطارقة يريدون رجالًا من عقلائكم ليخاطبوهم فيما يريد الله من صلاح شأن الجمعين.

فأخبروا يزيد بن ربيعة بما قال المتنصر فقال ربيعة بن عامر: أنا أسير إلى القوم. فقال يزيد: يا ربيعة أنا أخاف عليك من القوم لأنك قد قتلت كبيرهم بالأمس. فقال ربيعة: «قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» (التوبة:٥١)، وإني أوصيك والمسلمين أن تكون همتكم عندي فإذا رأيتم القوم غدروا بي فاحملوا عليهم ثم ركب جواده وسار حتى أتى جيش الروم وقرب من سرادق أميرهم. فقال القداح: عظم جيش الملك وانزل عن جوادك. فقال ربيعة – رضي الله عنه –: ما كنت بالذي أنتقل من العز إلى الذل ولست أسلم جوادي لغيري وما أنا بنازل إلا على باب السرادق وإلا رجعت من حيث جئت لأننا ما بعثنا إليكم، بل أنتم بعثتم إلينا! قال: فأعلم القداح الروم بما تكلم به ربيعة بن عامر. فقال بعضهم لبعض: صدق العربي في قوله دعوه ينزل حيث أراد.

فنزل ربيعة على باب السرادق وجثا على ركبته وأمسك عنان جواده بيده وسلاحه معه. فقال له جرجيس: يا أخا العرب لم تكن أمة أضعف منكم عندنا وما كنا نحدث أنفسنا أنكم تغزوننا وما الذي تريدون منا؟ فقال ربيعة: نريد منكم أن تدخلوا في ديننا، وأن تقولوا بقولنا، وإن أبيتم تعطونا الجزية عن يد وأنتم صاغرون وإلا فالسيف بيننا وبينكم. فقال جرجيس: فما منعكم أن تقصدوا الفرس وتدعون الصداقة بيننا وبينكم؟ فقال ربيعة: بدأنا بكم لأنكم أقرب إلينا من الفرس، وإن الله تعالى أمرنا في كتابه بذلك قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً» (التوبة:١٢٣)، قال جرجيس: فهل لك أن تعقد الصلح بيننا وبينكم وأن نعطي كل رجل منكم دينارًا من ذهب وعشرة أوسق من الطعام وتكتبوا بيننا وبينكم كتاب الصلح لا تغزون إلينا ولا نغزوا إليكم؟ قال ربيعة: لا سبيل إلى ذلك وما بيننا وبينكم إلا السيف أو أداء الجزية أو الإسلام.

قال جرجيس: أما ما ذكرت من دخولنا في دينكم فلا سبيل إلى ذلك ولو نهلك عن آخرنا لأننا لا نرى لديننا بدلًا. وأما إعطاء الجزية فإن القتل عندنا أيسر

من ذلك، وما أنتم بأشهى منا إلى القتال والحرب والنزال لأن فينا البطارقة وأولاد الملوك رجال الحرب وأرباب الطعن والضرب. قال جرجيس لأصحابه: علي بـ «أنفس صقالبة» حتى يناظر هذا البدوي في كلامه. وكان الملك هرقل قد بعث معهم قسيسًا عظيمًا عارفًا بدينهم مجادلًا عن شرعهم.

فأتى الحاجب به، فلما استقر به الجلوس قال له جرجيس: يا أبانا أستخبر من هذا الرجل عن شريعتهم، وعن دينهم. فقال القسيس: يا أخا العرب إنا نجد في علمنا أن الله تعالى يبعث من الحجاز نبيًا عربيًا هاشميًا قرشيًا علامته أن الله تعالى يسري به إلى السماء أكان ذلك أم لا؟

قال: نعم أسري به، وقد ذكره ربنا في كتابه العزيز بقوله تعالى: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ» (الإسراء:١)، قال القسيس: إنا نجد في كتابنا أن ربنا يفرض على هذا النبي وأمته شهرًا يصومونه يقال له شهر رمضان. قال ربيعة: نعم، وقد قرأنا في القرآن العظيم: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ

فَلْيَصُمْهُ» (البقرة:١٨٥)، فقال القسيس: إنا وجدنا في كتابنا أن من أحسن حسنة تكتب بعشرة. قال ربيعة: نعم، قال الله تعالى: «مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ» (الأنعام:١٦٠)، قال القسيس: إنا نجد في كتابنا أن الله يأمر أمته بالصلاة عليه. قال ربيعة: نعم، وقد قال الله في كتابه العزيز: «إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (الأحزاب:٥٦).

فعجب جرجيس من كلامه وقال للبطارقة: إن الحق مع هؤلاء القوم! فقال بعض الحجاب: إن هذا هو الذي قتل أخاك. فلما سمع ذلك ازورَّت عيناه وغضب غضبًا شديدًا وهمَّ أن يثب على ربيعة ففهم ربيعة ذلك منه فوثب من مكانه أسرع من البرق وضرب بيده إلى قائم سيفه وعجل جرجيس بضربة فجندله صريعًا ووثب على فرسه فركبها فأسرعت البطارقة إليه وهو راكب فحمل فيهم ونظر يزيد بن أبي سفيان إلى ذلك فقال للمسلمين: إن أعداء الله قد غدروا بصاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدونكم وإياهم، فحمل المسلمون على المشركين واختلط الجيش بالجيش وصبرت الروم لقتال

العرب فبينما هم في القتال إذ أشرفت جيوش المسلمين مع شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فلما نظر المسلمون إلى إخوانهم في القتال حملوا على القوم حملة صادقة وحكمت سيوفهم في قمم الروم.

قال الواقدي: لقد بلغني أن الثمانية آلاف المذكورة من الروم لم ينج منهم أحد لأن العرب التقطوهم بسبق الخيل وبُعد الشام من تبوك، ثم إن المسلمين أخذوا أموالهم وخيامهم، ثم سلموا على شرحبيل ومن معه وجمعوا المال والغنائم. فقالوا: نبعث الجميع إلى أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - فرضوا بذلك وبعثوا الجميع إلا العدة والسلاح، وبعثوا مع الغنائم والأموال شداد بن أوس - رضي الله عنه - في خمسمائة فارس، ولما وصل بالمال إلى المدينة المنورة وعاين المسلمون أموال المشركين رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير، والصلاة على البشير النذير محمد - صلى الله عليه وسلم -، وسمع الصديق بقدوم شداد بن أوس - رضي الله عنه - ومن معه من المسلمين ففرح بذلك

فرحًا شديدًا، ثم أقبلوا إلى الصديق وأعلموه بالفتح بعد أن سلموا عليه فسجد لله – عز وجل –.

ثم كتب كتابًا إلى أهل مكة يستدعيهم إلى الجهاد مضمونه: بسم الله الرحمن الرحيم من أبي بكر إلى أهل مكة وسائر المؤمنين فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم –. أما بعد: فإني قد استنفرت المسلمين إلى الجهاد وفتح بلاد الشام، وقد كتبت إليكم وإلى المسلمين أن تسرعوا إلى ما أمركم به ربكم تبارك وتعالى: إذ يقول الله – عز وجل –: «انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ» (التوبة:٤١) وهذه الآية فيكم وأنتم أحق بها وأهلها، وأول من صدق وقام بحكمها من ينصر دين الله فالله ناصره، ومن بخل استغنى الله عنه والله غني حميد، فسارعوا إلى جنة عالية قطوفها دانية أعدها الله للمهاجرين والأنصار، فمن اتبع سبيلهم كتب من الأولياء الأخيار، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وختم الكتاب ودفعه إلى عبد الله بن حذافة، فأخذه وسار حتى وصل مكة وصرخ في أهلها، فاجتمعوا إليه فدفع إليهم الكتاب فقرؤوه على أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فلما سمعوه قال سهل بن عمرو والحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم: أجبنا داعي الله وصدقنا قول نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم –، فأما عكرمة فإنه قال: إلى متى نبسط لأنفسنا وقد سبقنا القوم إلى المواطن، وقد فاز من فاز بالصدق، وإن كنا تأخرنا عن السبق فاللحاق السباق فلعلنا نكتب في الحال.. ثم خرج عكرمة بن أبي جهل في بني مخزوم وخرج الحارث بن هشام معهم وتلاحق أهل مكة خمسمائة رجل، وكتب أبو بكر للطائف فخرجوا في أربعمائة رجل.

قال الواقدي: خرج بهم سعيد بن خالد بن سعيد بن العاص وكان غلامًا نجيبًا، وذلك أن سعيد بن خالد أتى إلى الصديق – رضي الله عنه –. فقال: يا خليفة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إنك أردت أن تعقد لأبي خالد راية ويكون قائدًا من قواد جيشك، فتكلم فيه المتكلمون فعزلته حين رجع من بعثتك، وقد حبس نفسه في سبيل الله – عز وجل – ولم أزل مجيبًا دعوتك في

بعثتك، فهل لك أن تقدمني على هذا الجيش، فوالله لا يراني الله وانيًا أبدًا ولا عاجزًا عن الحرب! قال: وكان سعيد بن خالد أنجب من أبيه وأفرس، فعقد له أبو بكر راية ودفعها إليه وأمَّره على ألفين من العرب.

فلما سمع عمر بن الخطاب كلام سعيد بن خالد وأنه خير من أن يكون أميرًا كره له ذلك وأقبل على الصديق - رضي الله عنه -. وقال: يا خليفة رسول الله عقدت هذه الراية لسعيد بن خالد على من هو خير منه، ولقد سمعته يقول عندما عقدتها: «على رغم الأعادي» والله لتعلم أنه ما يريد بالقول غيري، ووالله ما تكلمت في أبيه. قال: فثقل ذلك على أبي بكر وكره أن لا يعقد له، وكره أيضًا أن يخالف عمر لمحبته له ونصحه ومنزلته عند النبي - صلى الله عليه وسلم - ووثب قائمًا، ودخل على عائشة رضي الله عنها وأخبرها بخبر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، وما كان من كلامه. فقالت عائشة: قد علمت أن عمر ينصر الدين ويريد النصر لرب العالمين، وما في قلب عمر بغض للمسلمين. فقبل قول عائشة رضي الله عنها، ثم دعا بأزد الدوسي وقال له: امض إلى سعيد بن خالد

وقل له: رد علينا رايتك. فردها! وقال: والله لأقاتلن تحت راية أبي بكر حيث كان، فإني قد حبست نفسي في سبيل الله.

قال الواقدي: ولقد بلغني أن الصديق حال تفكره فيمن يقدم طليعة للجيش تقدم إليه سهل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وهشام بن الحارث، وقالوا: اشهدوا أننا قد حبسنا أنفسنا في سبيل الله فلا نرجع عن القتال أبدًا. فقال أبو بكر: اللهم بلغهم أفضل ما يؤملون. ثم إن أبا بكر دعا عمرو بن العاص فسلم إليه الراية وقال: قد وليتك على هذا الجيش، يعني أهل مكة والطائف وهوازن وبني كلاب فانصرف إلى أرض فلسطين، وكاتب أبا عبيدة وأنجده إذا أرادك ولا تقطع أمرًا إلا بمشورته: امض بارك الله فيك وفيهم.

فأقبل عمرو بن العاص على عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وقال له: يا أبا حفص أنت تعلم شدتي على العدو وصبري على الحرب، فلو كلمت الخليفة أن يجعلني أميرًا على أبي عبيدة، وقد رأيت منزلتي عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإني أرجو أن يفتح الله على يدي البلاد ويهلك الأعداء. قال عمر - رضي الله عنه -: ما كنت بالذي أكذبك وما كنت بالذي أكلمه في

ذلك، فإنه ليس على أبي عبيدة أمير، ولأبي عبيدة عندنا أفضل منزلة منك، وأقدم سابقة منك والنبي - صلى الله عليه وسلم - قال فيه: «أبو عبيدة أمين الأمة»! قال عمرو: ما ينقص من منزلته إذا كنت واليًا عليه. قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: ويلك يا عمرو إنك ما تطلب بقولك هذا إلا الرياسة والشرف فاتق الله ولا تطلب إلا شرف الآخرة ووجه الله تعالى، فقال عمرو بن العاص: إن الأمر كما ذكرت! ثم أمر الناس بالمسير تحت رايته فساروا، وتقدم أهل مكة وتبعهم بنو كلاب وطئ وهوازن وثقيف وتخلف المهاجرون والأنصار ليسيروا مع أبي عبيدة بن الجراح.

وصية الصديق لعمرو بن العاص

وتقدم عمرو بن العاص وسار. قال أبو الدرداء: كنت مع عمرو بن العاص في جيشه، فسمعت أبا بكر يقول وهو يوصيه: اتق الله في سرك وعلانيتك واستحيه في صلواتك فإنه يراك في عملك، وقد رأيت تقدمتي لك على من هو أقدم منك سابقة وأقدم حرمة فكن من عمال الآخرة، وأَرِد بعملك وجه الله وكن والدًا لمن معك وارفق بهم في السير فإن فيهم أهل ضعف، والله ناصر دينه

ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وإذا سرت بجيشك فلا تسر في الطريق التي سار فيها يزيد وربيعة وشرحبيل، بل اسلك طريق إيليا حتى تنتهي إلى أرض فلسطين، وابعث عيونك يأتونك بأخبار أبي عبيدة، فإن كان ظافرًا بعدوه فكن أنت لقتال من في فلسطين، وإن كان يريد عسكرًا فأنفذ إليه جيشًا في أثر جيش، وقدِّم سهل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام وسعيد بن خالد، وإياك أن تكون وانيًا عما ندبتك إليه، وإياك والوهن أن تقول: جعلني ابن أبي قحافة في نحر العدو ولا قوة لي به، وقد رأيت يا عمرو ونحن في مواطن كثيرة ونحن نلاقي ما نلاقي من جموع المشركين ونحن في قلة من عددنا ثم رأيت يوم حنين ما نصر الله عليهم.

واعلم يا عمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل نجد، فأكرمهم واعرف حقهم ولا تتطاول عليهم بسلطانك ولا تداخلك نجدة الشيطان فتقول: إنما ولاني أبو بكر لأني خيرهم، وإياك وخداع النفس وكن كأحدهم، وشاورهم فيما تريد من أمرك. والصلاة ثم الصلاة، أذِّن بها إذا دخل وقتها ولا تصل صلاة إلا بأذان يسمعه أهل العسكر، ثم ابرز وصل بمن رغب في الصلاة معك فذلك

أفضل له، ومن صلاها وحده أجزأته صلاته واحذر من عدوك وأمر أصحابك بالحرس ولتكن أنت بعد ذلك مطلعًا عليهم. وأطل الجلوس بالليل على أصحابك وأقم بينهم واجلس معهم ولا تكشف أستار الناس، واتق الله إذا لاقيت العدو، وإذا وعظت أصحابك فأوجز وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك فالإمام ينفرد إلى الله تعالى فيما يعلمه وما يفعله في رعيته وإنِّي قد وليتك على من قد مررت من العرب فاجعل كل قبيلة على حميتها، وكن عليهم كالوالد الشفيق الرفيق وتعاهد عسكرك في سيرك وقدِّم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك، وخلِّف على الناس من ترضاه، وإذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر فيكون ذلك منك فخرًا، وألزم أصحابك قراءة القرآن وانههم عن ذكر الجاهلية وما كان منها فإن ذلك يورث العداوة بينهم، وأعرض عن زهرة المنى حتى تلتقي بمن مضى من سلفك وكن من الأئمة الممدوحين في القرآن إذ يقول الله تعالى: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ» (الأنبياء:٧٣) فكان أبو بكر - رضي الله عنه - يوصي عمرو بن العاص وأبو عبيدة حاضرًا، ثم قال: سيروا على بركة الله تعالى وقاتلوا أعداء الله وأوصيكم بتقوى الله فإن الله ناصر من ينصره.

فسلَّم المسلمون عليه وودعوه وساروا في تسعة آلاف مع من ذكرنا يريدون أخذ فلسطين، فلما كان بعدهم بيوم واحد عقد العقود والرايات إلى أبي عبيدة بن الجراح وأمره بأن يقصد بمن معه أرض الجابية، وقال: يا أمين الأمة قد سمعت ما وصيت به عمرو بن العاص وودعه المسلمون، فلما عاد أبو بكر والمسلمون دعا بخالد بن الوليد وعقد له راية، وكانت له راية النبي – صلى الله عليه وسلم – وأمره على لخم وجذام وضم له جيش الزحف وكانوا شجعانًا ما منهم إلا من شهد الوقائع مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقال له: يا أبا سليمان قد وليتك على هذا الجيش فاقصد به أرض العراق وفارس وأرجو الله أن ينصركم. ثم إنه ودعه وسار خالد بمن معه يطلب العراق.

حدثني ربيعة بن قيس قال: كنت في الجيش الذي وجهه أبو بكر الصديق مع عمرو بن العاص إلى فلسطين وإيليا. وكان صاحب رايته سعيد بن خالد. وبعث أبو بكر مع كل جيش أميرًا وهو يدعو لهم بالنصر وأخذه القلق على المسلمين حتى عرف ذلك في وجهه. فقال له عثمان بن عفان – رضي الله عنه –: ما هذا الغم الذي نزل بك؟ فقال: اغتممت على جيوش المسلمين وأرجو الله أن

ينصرهم على عدوهم. فقال عثمان: والله ما خرج جيش سررت به إلا هذا الجيش الذي سار إلى الشام، وهذا الذي أوصى الله نبيه به، وليس في قوله خلف. وإنا سنظهر على الروم وفارس ولكن ما ندري متى يكون أفي هذا البعث أو غيره ولكن أحسن الظن بالله. وبات الصدِّيق فرأى في منامه كأن عمرو بن العاص في وجهه طرمة هو وأصحابه ثم قصد عمرو أرضًا خضرة سهلة وفرجة فحمل على فرسه، ثم اتبعه أصحابه، فإذا هم في أرض واسعة فنزلوا واستراحوا وانتبه أبو بكر من منامه فرحًا بما رأى. فقال عثمان: يدل على فتح إلا أنه يوشك أن يلقى عمرو في قتال المشركين مشقة عظيمة ثم يخلص منها.

قال الواقدي: كانت الساقطة تنزل المدينة في الجاهلية والإسلام يقدمون بالبر والشعير والزيت والتين والقماش، وما يكون في الشام، فقدم بعض الساقطة إلى المدينة، وأبو بكر ينفذ الجيوش وسمعوا كلام أبي بكر لعمرو بن العاص، وهو يقول: عليك بفلسطين وإيليا. فساروا بالخبر إلى الملك هرقل. فلما سمع ذلك جمع أرباب دولته وبطارقته وأعلمهم بالحديث الذي جرى وقال: يا بني الأصفر هذا الذي كنت حذرتكم منه قديمًا وإن أصحاب هذا النبي

لابد أن تملك ما تحت سريري هذا وقد قرب الوعد، وإن خليفة محمد قد أنفذ لكم الجيوش وكأنكم بهم وقد أتوكم وقصدوا نحوكم فحذروا أنفسكم، وقاتلوا عن دينكم وعن حريمكم، فإن تهاونتم ملكت العرب بلادكم وأموالكم. فبكى القوم، فقال لهم: دعوا عنكم البكاء! ثم قال له وزيره: أيها الملك قد اشتهينا أن تدعو بعض من قدم بهذا الخبر عليك فأمر هرقل بعض حجابه أن يأتي برجل من المتنصرة ممن قدم عليه بالأخبار فأتى برجل منهم، فقال له الملك: كم عهدك؟ قال: منذ خمسة وعشرين يومًا. قال: فمن المتولي عليهم؟ قال له: رجل يقال له أبو بكر الصديق وجه جيوشه إلى بلدك، قال: هل رأيت أبا بكر؟ قال: نعم وإنه أخذ مني شملة بأربعة دراهم وجعلها على كتفه وهو كواحد منهم، وهو يمشي في ثوبين ويطوف بالأسواق ويدور على الناس يأخذ الحق من القوي للضعيف.

قال هرقل: صفه لي. قال: هو رجل آدم اللون خفيف العارضين. فقال هرقل: وحق ديني هو صاحب أحمد الذي كنا نجد في كتبنا أنه يقوم بالأمر من بعده، ونجد في كتبنا أيضًا أن بعد هذا الرجل رجلًا آخر طويلًا كالأسد الوثاب

يكون على يديه الدمدمة والجلاء. فشهق المتنصر من قول هرقل وقال: إن هذا الذي وصفته لي رأيته معه لا يفارقه. قال هرقل: هذا الأمر والله قد صح وقد دعوت الروم إلى الرشد والصلاح، فأبوا أن يطيعوني، وأن ملكي سوف ينهدم، ثم عقد صليبًا من الجوهر، وأعطاه قائد جيوشه روبيس. وقال له: قد وليتك على الجيوش فسيروا لمنع العرب من فلسطين فإنها بلد خصب كثيرة الخير وهي عزنا وجاهنا وتاجنا، فتسلم روبيس الصليب وسار من يومه إلى أجنادين واتبعه جيش الروم.

عمرو بن العاص في فلسطين

قال الواقدي: لقد بلغني أن عمرو بن العاص توجه إلى إيليا، حتى وصل إلى أرض فلسطين هو ومن معه، فلما نزل المسلمون بفلسطين جمع عمرو المسلمين المهاجرين والأنصار وشاورهم في أمرهم فبينما هم في المشورة إذ أقبل عليهم عدي بن عامر، وكان من خيار المسلمين، وكان كثيرًا ما يتوجه إلى بلاد الشام، وداس أرضهم وعرف مساكنها ومسالكها. فلما أشرف على المؤمنين داروا به وأوقفوه بين يدي عمرو بن العاص. فقال عمرو بن العاص:

ما الذي وراءك يا ابن عامر؟ قال: ورائي المتنصرة وجنودهم مثل النمل. فقال له عمرو: يا هذا لقد ملأت قلوب المسلمين رعبًا وإنا نستعين بالله عليهم. فقال له: فكم حزرت القوم؟ فقال: أيها الأمير إني قد علوت على شرف من الجبال عال، فرأيت من الصلبان والرماح والأعلام ما قد ملأ الأجم، وهو أعظم جبل بأرض فلسطين وهم زيادة عن مائة ألف فارس، وهذا ما عندي من الخبر! فلما سمع عمرو ذلك قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم أقبل على من حضر من كبار المسلمين. وقال: أيها الناس أنا وإياكم في هذا الأمر بالسواء فاستعينوا بالله على الأعداء، وقاتلوا عن دينكم وشرعكم فمن قتل كان شهيدًا، ومن عاش كان سعيدًا، فماذا أنتم قائلون.

فتكلم كل رجل بما حضر عنده من الرأي. فقالت طائفة منهم: أيها الأمير ارجع بنا إلى البرية حتى نكون في بطن البيداء فإنهم لا يقدرون على فراق القرى والحصون. فإذا جاءهم الخبر إننا توسطنا البرية يتفرق جمعهم وبعد ذلك نعطف عليهم وهم على غفلة فنهزمهم إن شاء الله تعالى. فقال سهل بن عمرو: إن هذه مشورة رجل عاجز. فقال رجل من المهاجرين: لقد كنا مع رسول الله -

صلى الله عليه وسلم - نهزم الجمع الكثير بالجمع القليل، وقد وعدكم الله النصر وما وعد الصابرين إلا خيرًا، وقد قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» (التوبة:١٢٣) قال سهل بن عمرو: أما أنا فلا رجعت عن قتال الكفرة ولا رددت سيفي عنهم، فمن شاء فلينهض، ومن شاء فليرجع، ومن نكص على عقبيه فأنا وراءه بالمرصاد.

فلما سمع المسلمون أنَّ وافقه على ذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: قالوا أحسنت يا أبا الفاروق، ثم إن عمرو بن العاص عقد راية وأعطاها عبد الله بن عمر بن الخطاب وضم إليه ألف فارس فيهم رجال من الطائف ومن ثقيف وأمرهم بالمسير فسار عبد الله، وجعل يجد السير بقية يومه إلى الصباح، وإذا بغبرة القوم قد لاحت. فقال عبد الله بن عمر: هذه غبرة عسكر وأظنها طليعة القوم، ثم وقف ووقف أمامه أصحابه. فقال قوم من البادية: اتركنا نرى ما هذه الغبرة. فقال: لا تتفرقوا من بعضكم حتى نرى ما هي. فوقف الناس، وإذا بالغبرة قد قربت وانكشفت عن عشرة آلاف من الروم وقد بعث معهم

روبيس بطريقًا من أصحابه، وكانوا قد ساروا يكشفون خبر المسلمين. فلما نظرهم عبد الله بن عُمَر قال لأصحابه: لا تمهلوهم لأنهم لابد لهم منكم، والله ينصركم عليهم. واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف.

فأعلن القوم بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله. فلما جهروا بها أجابهم الشجر والمدر والدواب والحجر، وكان أول من حمل عكرمة بن أبي جهل وتبعه سهل بن عمرو والضحاك أيضًا بالجملة وصاح في رجاله وحمل المهاجرون والأنصار معهم، والتقى الجمعان، وعمل السيف في الفريقين. قال عبد الله بن عمر: وبينما أنا في الوقعة إذ نظرت من القوم بطريقًا عظيم الخلقة وهو كالحائر البليد، وهو يركض يمينًا وشمالًا، فقلت: إن يكن لهذا الجيش عين فهذا عين الجيش وصاحب الطلائع وهو مرعوب من الحرب. فلما حملت عليه ومددت قناتي إليه، نفر فرسه من الرمح فقربت منه وأوهمته أني أريد الانهزام، ثم عطفت عليه وطعنته، فوالله لقد خيل لي أنَّي ضربت بسيفي حجرًا، وسمعت طنين السيف حتى حسبت أن سيفي انفصل، وإذا هو صريع! ثم عطفت عليه وأخذت لأمته. فلما رأى المشركون صاحبهم مجندلًا داخلهم

الفزع والهلع وصدمهم المسلمون في الضرب والقتال فلله در الضحاك والحارث بن هشام، لقد قاتلا قتالًا شديدًا ما عليه من مزيد، فما كان غير قليل حتى انهزم الكفار من بين أيديهم هاربين. فرجع المسلمون واجتمع بعضهم على بعض وجمعوا الغنائم والأموال. وقال بعضهم لبعض: ما فعل الله بعبد الله بن عمر؟ قال قائل منهم: الله خبير بحسن زهده وعبادته. وقال آخرون: لقد أصبنا بابن عمر فما كان يساوي هذا الفتح شعرة من رأسه.

قال عبد الله بن عمر: وأنا مع ذلك أسمع كلامهم خلف الراية. فأعلنت بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير، وهززت الراية. فلما نظر المسلمون الراية سارعوا إليَّ وقالوا: أين كنت؟ فقلت: اشتغلت بقتال صاحبهم فقالوا: أفلح والله وجهك فهذا والله فتح قد رزقنا الله إياه ببركتك. قال عبد الله: وبوجوهكم، ثم حازوا الأموال والغنائم والخيل وستمائة أسير وقتل من المسلمين سبعة نفر فواروهم وصلى عليهم ابن عمر.

وانعطف الجيش إلى عمرو بن العاص وحدَّثوه بما جرى ففرح وحمد الله تعالى، ثم دعا بالأسرى واستنطق منهم بالعربية فما كان فيهم غير ثلاثة نفر من

أنباط الشام فسألهم عن خبرهم وخبر أصحابهم فقالوا: يا معشر العرب إن هذا روبيس قد أقبل في مائة ألف فارس، وقد أمره الملك أن لا يدع أحدًا من العرب يصل إيليا.. وإنه بعث بهذا البطريق طليعة، وقد قتل وكأنكم به. فقال عمرو: إن الله يقتله كما قتل صاحبكم، ثم عرض عليهم الإسلام، فما أحد منهم أسلم. فقال عمرو للمسلمين: كأنكم بصاحبهم، وقد أتى يأخذ ثأرهم وهؤلاء تركهم علينا بلاء، ثم أمر بضرب أعناقهم، وصاح بالمسلمين استعدوا فإني أظن أن القوم سائرون، فإن أتوا إلينا فهم في شدة وقوة وسنلقى منهم تعبًا في القتال وإن سرنا إليهم نرجو من الله النصر والظفر بهم كما ظفرنا بغيرهم وما عودنا الله إلا خيرًا.

قال أبو الدرداء: وبتنا مكاننا. فلما جاء الله بالصباح رحلنا فما بعدنا غير قليل حتى أشرفت علينا عشرة صلبان تحت كل صليب عشرة آلاف فارس. فلما أشرف الجيش على الجيش أقبل عمرو ورتب أصحابه وجعل في الميمنة الضحاك وفي الميسرة سعيدًا، وأقام على الساقة أبا الدرداء وثبت عمرو في القلب ومعه أهل مكة، وأمر الناس يقرأون القرآن. وقال لهم: اصبروا على

قضاء الله وارغبوا في ثواب الله وجنته، ثم إنه جعل يصفّهم ويعبيهم تعبية الحرب ونظر «روبيس» بطريق الروم إلى عسكر المسلمين، وقد صفّهم عمرو بن العاص لا يخرج سنان عن سنان ولا عنان عن عنان ولا ركاب عن ركاب، وهم كأنهم بنيان مرصوص، فشم منهم رائحة النصر وتبين من نفسه الجزع، وعلم أن كل من معه كذلك فوقف ينظر ما يكون من المسلمين وانكسرت حميته.

وكان أول من برز من جيش المسلمين سعيد بن خالد - رضي الله عنه -، وهو أخو عمرو بن العاص من أمه. فلما برز نادى برفيع صوته: ابرزوا يا أهل الشرك، ثم حمل على الميمنة فألجأها إلى الميسرة، وحمل على الميسرة فألجأها إلى الميمنة وقتل رجالًا وجندل أبطالًا، ثم اقتحم فيهم فشوشهم وزعزع جيشهم. فاجتمعوا عليه فقتلوه رحمة الله عليه. فحزن المسلمون على قتله حزنًا عظيمًا وأكثرهم عمرو بن العاص. وقال: واسعيداه! لقد اشترى نفسه من الله - عز وجل -. ثم قال: يا فتيان من يحمل معي هذه الحملة حتى ننظر ما يكون من أمرها وأنظر حال سعيد. فأسرع بالإجابة ذو الكلاع الحميري وعكرمة بن أبي جهل والضحاك والحارث بن هشام، ومعاذ بن جبل وأبو

الدرداء، وعبد الله بن عمر بن الخطاب – رضي الله عنهم – أجمعين. قال عبد الله: وكنَّا سبعين رجلًا، وحملنا حتى دنونا من القوم وهم لا يفكرون في حملتنا لأنهم جبال من حديد.

قال الواقدي رحمة الله عليه: فلما رأى المسلمون ثبات الروم صاح بعضنا ببعض: ابعجوا دوابهم فما هلاكهم غير ذلك! فبعجنا دوابهم بالأسنة فتنكسوا فبعد انتكاسهم تفرَّق بعضهم عن بعض وحملوا علينا وحملنا عليهم، وكنَّا فيهم كالشامة البيضاء في جلد البعير الأسود وكان شعارنا يوم فلسطين: لا إله إلا الله محمد رسول الله. يا رب انصر أمة محمد! – صلى الله عليه وسلم – قال أبو الدرداء: فلقد شغلتني الحرب عن مناشدة الأشعار، ولقد كان أحدنا لا يدري أهو يضرب أخاه أو عدوه من كثرة القتام فثبت المسلمون مع قلتهم وفوضوا أمرهم إلى الله – عز وجل –.

قال عبد الله بن عمر: فلم تزل الحرب بيننا إلى وقت الزوال وهبت الرياح والناس في القتام إذ نظرت إلى السماء وقد انفرج فيها فرج وخرجت منها خيول شهب تحمل رايات خضر أسنتها تلمع ومناد ينادي بالنصر أبشروا يا أمة محمد

– صلى الله عليه وسلم – فقد أتاكم الله بالنصر. فما كان غير قليل إذ نظرت إلى الروم منهزمين، والمسلمون في أعقابهم لأن خيل العرب أسبق من خيل الروم. قال ابن عمر: فقتلنا في هذه الواقعة قريبًا من خمسة عشر ألف فارس وأكثر ولم نزل في آثارهم إلى الليل وعمرو بن العاص قد فرح بالنصر وقلبه متعلق بالمسلمين لإسراعهم وراء العدو، وقال عمرو بن غياث: فنظرت إلى عمرو بن العاص والراية في يده، وقد أوفى القناة على عاتقه وهو يعركها بيده ويقول: من يرد الناس عليَّ رد الله عليه ضالته؟ إذ نظرت العرب قد عطفت راجعة كعطفة الأم على ولدها فاستقبلهم عمرو، وهو يقول: هنيئًا لهذه الوجوه التي تعبت في رضا الله تعالى أما كان لكم كفاية في أن خولكم الله حتى اتبعتم العدو؟! فقالوا: ما أردنا الغنيمة، بل القتال والجهاد!

ولما رجع المسلمون لم يكن لهم همَّة إلا افتقاد بعضهم بعضًا، ففقد من المسلمين مائة وثلاثون رجلًا ختم الله لهم بالسعادة منهم سيف بن عبادة ونوفل بن دارم والأهب بن شداد والباقي من اليمن ووادي المدينة. فاغتمَّ عمرو لفقدهم، ثم راجع نفسه وقال: قد نزل بهم خير، وأنت يا عمرو تأبى ذلك!

ثم ندب الناس إلى الصلاة كما أمره أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - فصلى ما فاته كل صلاة بأذان وإقامة. قال ابن عمر: ما صلى خلفه إلا قليل، بل صلى الناس في رحالهم من تعبهم ولم يجمعوا من الغنائم إلا القليل وبات الناس. فلما أصبح عمرو أذَّن وصلى بهم وأمر الناس بجمع الغنائم وأن يخرجوا إخوانهم المؤمنين من الروم فجعلوا يلتقطونهم. فأخرجوا مائة وثلاثين رجلًا ووجدوا سعيد بن خالد، فلما نظر عمرو إلى ما نزل به بكى، وقال: رحمك الله فقد نصحت لدين الله وأديت النصيحة ثم جعله في جملة المسلمين وصلى عليهم وأمر بدفنهم، وذلك قبل أن يخمس شيئًا من الغنائم ثم بعد ذلك جمعها إليه وكتب إلى أبي عبيدة كتابًا يقول فيه:

كتاب عمرو بن العاص إلى أبي عبيدة

بسم الله الرحمن الرحيم من عمرو بن العاص إلى أمين الأمة، أما بعد: فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - وإني قد وصلت إلى أرض فلسطين ولقينا عساكر الروم مع بطريق يقال له روبيس في مائة ألف فارس فمنَّ الله بالنصر وقتل من الروم خمسة عشر ألف

فارس وفتح الله على يدي فلسطين بعد أن قتل من المسلمين مائة وثلاثون رجلًا فإن احتجت إلي سرت إليك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. ودفع الكتاب إلى أبي عامر الدوسي وأمره أن يسير إلى أبي عبيدة. فأسرع أبو عامر بالكتاب فوجد أبا عبيدة وهو نازل بأرض الشام وجاهر بالدخول إليها غير أنه أمره كما أمره أبو بكر. فلما وصل أبو عامر قال له أبو عبيدة: ما وراءك؟ قال: خير! هذا كتاب من عمرو بن العاص يخبرك بما فتح الله على يديه، ثم سلم إليه الكتاب، فلما قرأه خر ساجدًا فرحًا بنصر الله ثم قال: والله قتل من المسلمين رجال أخيار منهم سعيد بن خالد. فكان خالد والده جالسًا، فلما سمع بأن ولده قد قتل قال: واابناه وجعل يبكيه حتى بكى المسلمون لبكائه، ثم إنَّ خالدًا أسرع إلى فرسه فركبها وعزم إلى أرض فلسطين لينظر إلى قبر ولده. فقال أبو عبيدة: كيف تسير وتدعنا. فقال: إنما أنظر قبر ولدي وأرجو الله أن يلحقني به! وكتب أبو عبيدة كتابًا لعمرو بن العاص يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم إنما أنت مأمور فإن كان أبو بكر أمرك أن تكون معنا فسر إلينا، وإن كان أمرك بالثبات في موضعك فاثبت والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. وطوى الكتاب وسلمه إلى خالد بن سعيد وسار مع أبي عامر إلى أن أتيا إلى جيش عمرو بن العاص فدفع له الكتاب

وهو يبكي فوثب عمرو وصافح خالدًا ورفع منزلته وعزاه في ولده سعيد وعزاه المسلمون.

فقال خالد: يا أيها الناس هل أروى سعيد رمحه وسيفه في الكفار؟ قالوا: نعم. فلقد قاتل وما قصر! ولقد جاهد في الدين ونصر. فقال: أروني قبره، فأروه إياه، فأقام على القبر وقال: يا ولدي رزقني الله الصبر عليك وألحقني بك وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، والله إن مكنني الله لآخذن بثأرك يا ولدي عند الله احتسبتك، ثم قال لعمرو بن العاص: إني أريد أن أسري بسرية في طلب القوم فلعلي أن أجد فيهم فرصة أو غنيمة وأكون قد أخذت بثأر ولدي، فقال عمرو: إن الحرب أمامك يا ابن الأم. فإذا رأيت الروم فلا تبق عليهم! فقال خالد: والله لأسيرن إليهم، ثم أخذ خالد أهبته للمسير وعزم أن يسير وحده فركب معه ثلاثمائة فارس من فتيان حمير فساروا يومهم ذلك أجمع وأرادوا النزول في الأودية ليعلفوا دوابهم ويسيروا ليلتهم إذ نظر خالد بن سعيد إلى أشباح على ذروة جبل هناك عال منيع. فقال لأصحابه: إني أرى أشباحًا على ذروة هذا الجبل ونحن في هذا الوادي، ثم قال: كونوا في أماكنكم ثم نزل عن فرسه وتقلد

سيفه والتحف بإزاره وقال: اعلموا أن القوم ما علموا بنا ولو نظروا إلينا ما ثبتوا في أماكنهم فمن منكم يبذل نفسه ويصنع كما أصنع قالوا: كلنا لك! فطافوا في الجبل حتى أشرفوا على القوم وهم في أماكنهم.

فعند ذلك قال: خذوهم بارك الله فيكم! فأسرع إليهم المسلمون فقتلوا منهم ثلاثين وأسروا أربعة فسألهم خالد بن سعيد عن حالهم فإذا هم من أنباط الشام فقالوا: نحن من أهل هذا البقيع والجامعة وكفار القرية وقد عظم علينا دخول العرب إلى بلادنا وقد فزعنا منهم فزعًا عظيمًا، وقد هرب أكثرنا إلى الحصون والقلاع، وقد اعتصمنا نحن بهذا الجبل، لأنه ليس في الرستاق أحصن منه فعلونا عليه وأنتم كبستمونا. قال خالد: فما بلغكم عن جيش الروم؟ قالوا: بأجنادين وهذا البطريق أقبل إلينا ليأخذ الميرة والعلوفة، وقد جمعوا له الدواب والبغال والحمير تحمل الميرة وهم مع ذلك خائفون أن تلحقهم خيل العرب، وهذا خبر قومنا ولا شك أنهم رحلوا من يومهم، فلما سمع خالد بن سعيد مقالتهم قال: غنيمة للمسلمين ورب الكعبة، ثم قال: اللهم انصرنا عليهم. ثم

سأل على أي طريق سار القوم قالوا: على هذه الطريق التي أنتم عليها لأنها أوسع الطرق كلها، وأما الميرة فإنها مجموعة من حول البلاد.

فلما سمع خالد كلامهم قال لهم: أسلموا! فقالوا له: ما نعرف إلا دين الصليب، ونحن فلاحون قال: فهمَّ خالد بقتلهم. فقال رجل من أصحابه: دعهم يدلونا على الطريق إلى ميرة القوم فأجابوهم إلى ذلك وساروا وهم يدلونهم إلى تل عظيم. قال: فتوافق القوم وهم يحملون دوابهم حول التل ومعهم ستمائة لابس من القوم، فلما نظر خالد إلى ذلك قال لأصحابه: اعلموا أن الله تعالى قد وعدكم بالنصر على عدوكم وفرض عليكم الجهاد وهذا جيش العدو أمامكم فارغبوا في ثواب الله تعالى واسمعوا ما قال الله - عز وجل -: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ» (الصف:٤)، وها أنا أحمل فاحملوا ولا يخرج أحد عن صاحبه. ثم إن خالدًا حمل وحمل أصحابه فلما رأونا استقبلونا وانهزم من كان مع الدواب من الفلاحين وصبرت الخيل لقتالنا ساعة من النهار؛ فبينما ذو الكلاع الحميري يشجع أصحابه ويقول: يا أهل حمير أبواب الجنة فتحت والحور العين قد تزخرفت وإذا بصاحب القوم

قد لقيه خالد فعرفه بلأمته وحسن زيه. فاستقبله وصرخ فيه فأرعبه ثم قال: يا لثأر ولدي سعيد وطعنه طعنة صادقة فجندله صريعًا كأنه برج من حديد.

فلما رأى الروم ذلك ولَّوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وقتل منهم ثلاثمائة وعشرون فارسًا وولى الباقون منهزمين وتركوا الأثقال والبغال والميرة وأخذ المسلمون الجميع بعون الله تعالى. قال: وأطلق سراح الفلاحين وعاد خالد ومن معه بالغنائم والميرة إلى عمرو بن العاص ففرح بسلامتهم وشكر فعلهم وكتب كتابًا إلى أبي بكر الصديق، وذكر له ما جرى مع الروم وبعث الكتاب مع أبي عامر الدوسي - رضي الله عنه - وأخذه وقدم به المدينة وأعطاه أبا بكر الصديق - رضي الله عنه -. فلما قرأه على المسلمين فرحوا وضجوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير، ثم إن أبا بكر استخبر عن أبي عبيدة. فقال له عامر: إنه قد أشرف على أوائل الشام ولم يجسر على الدخول إليها وإنه سمع أن جيوش الملك قد اجتمعت من حول أجنادين وهم أمم لا تحصى وقد خاف على المسلمين أن يتوسط بهم عدوهم.

خالد بن الوليد في الشام

فلما سمع أبو بكر ذلك علم أن أبا عبيدة لين العريكة لا يصلح لقتال الروم وعوَّل أن يكتب إلى خالد بن الوليد ليوليه على جيوش المسلمين وقتال الروم قال: واستشار المسلمين في ذلك فقالوا: الرأي ما تراه، وكتب كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عتيق بن أبي قحافة إلى خالد بن الوليد سلام عليك: أما بعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - وإني قد وليتك على جيوش المسلمين وأمرتك بقتال الروم وأن تسارع إلى مرضاة الله - عز وجل - وقتال أعداء الله، وكن ممن يجاهد في الله حق جهاده ثم كتب: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» (الصف: ١٠)، وقد جعلتك الأمير على أبي عبيدة ومن معه. وبعث الكتاب مع نجم بن مقدم الكناني فركب على مطيته وتوجه إلى العراق فرأى خالدًا - رضي الله عنه - قد أشرف على القادسية فدفع إليه الكتاب فلما قرأه قال: السمع والطاعة لله ولخليفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم ارتحل ليلًا وأخذ طريقه عن اليمين وكتب كتابًا إلى أبي عبيدة يخبره بعزله وبسيره إلى الشام، وقد ولاني أبو بكر على جيوش المسلمين فلا تبرح من

مكانك حتى أقدم عليك والسلام. وبعث الكتاب مع عامر بن الطفيل – رضي الله عنه –، وكان أحد أبطال المسلمين فأخذه وتوجه يطلب الشام.

وأما خالد فلما وصل إلى أرض السماوة قال: أيها الناس إن هذه الأرض لا تدخلونها إلا بالماء الكثير لأنها قليلة الماء ونحن في جيش عظيم والماء معكم قليل فكيف يكون الأمر؟ فقال له رافع بن عميرة الطائي – رضي الله عنه –: أيها الأمير إني أشير عليك بما تصنع. فقال: يا رافع أرشدك الله بما نصنع ووفقك الله مولانا جل وعلا للخير، قال: فأخذ رافع ثلاثين جملًا وعطشها سبعة أيام ثم أوردها الماء فلما رويت حزم أفواهها، ثم ركبوا المطايا وجنبوا الخيول وساروا فكانوا كلما نزلوا منزلًا أخذوا عشرة من الإبل يشقون بطونها ويأخذون ما يجدون من الماء في بطونها فيجعلونه في حياض الأدم، فإذا برد سقوه للخيل وأكلوا اللحم ولم يزالوا كذلك حتى تمت الإبل وفرغ الماء وقطعوا مرحلتين بلا ماء وأشرف خالد ومن معه على الهلاك. فقال خالد لرافع بن عميرة: يا رافع قد أشرفنا على الهلاك والتلف أتعرف لنا ماء ننزل فيه. وكان رافع رمدت عيناه.

فقال: أيها الأمير أتاني رمد كما ترى، ولكن إذا أشرفتم على أرض سهلة فأعلموني. فلما أشرفوا عليها أعلموا رافعًا بذلك. فرفع طرف عمامته عن عينيه، وسار على راحلته يضرب يمينًا وشمالًا والناس من ورائه إلى أن أقبل على شجرة من الأراك فكبر وكبر المسلمون، ثم قال: احفروا هنا. فحفرت العرب وإذ الماء قد طلع كالبحر، فنزل الناس عليه وشكروا الله تعالى وأثنوا عليه وعلى رافع خيرًا، ثم وردوا الماء وسقوا خيلهم وإبلهم، ثم جدُّوا في طلب من انقطع من المسلمين ومعهم القرب بالماء. فسقوهم فارتجعت قوتهم. ثم لحقوا بالجيش وأراحوا أنفسهم، ثم في ثاني يوم جدوا في المسير إلى أن بقي بينهم وبين أركة مرحلة واحدة، فبينما هم كذلك إذ أشرفوا على حلة عامرة وأغنام وإبل قد سدت الفضاء والمستوي، فأسرع المسلمون إلى الحلة وإذا براع يشرب الخمر وإلى جانبه رجل من العرب مشدود. فتبينه المسلمون وإذا هو عامر بن الطفيل الذي أرسله خالد بن الوليد. فأقبل خالد مسرعًا حتى وقف عليه، فلما رآه تبسم وقال: يا ابن الطفيل كيف كان سبب أسرك؟ قال عامر: أيها الأمير إني أشرفت على هؤلاء القوم في هذه الحلة وقد أصابني الحر والعطش فملت إلى هذا الراعي ليسقيني من اللبن فوجدته يشرب خمرًا. فقلت له: يا عدو الله أتشرب

الخمر وهي محرمة؟! فقال لي: يا مولاي إنها ليست بخمر وإنما هي ماء زلال، فانزل كي تراه واستنشق ما في الجفنة فإن كان خمرًا فافعل ما بدا لك! فلما سمعت كلامه أنخت المطية ونزلت عن كورها وجلست على ركبتي في الجفنة وإذا أنا بالعبد قد طلبني بعصا كانت إلى جانبه وضربني على رأسي فشجني شجة موضحة، فانقلبت على جانبي فأسرع العبد إليَّ وشدَّني كتافًا وأوثقني رباطًا وقال لي: أظنك من أصحاب محمد بن عبد الله ولست أدعك من بين يدي أو يقدم سيدي من عند الملك. فقلت له: ومن سيدك من العرب؟ فقال: القداح بن وائلة، وإني عند هذا العبد كلما شرب الخمر أحضرني كما ترى وألقى عليَّ فضلة من كأسه. فلما سمع خالد بن الوليد كلام عامر بن الطفيل اشتد به الغضب ومال على العبد وضربه ضربة هائلة فجندله صريعًا ونهب المسلمون المال والأغنام والإبل وقلعوا الحلة بما فيها وأطلق عامرًا وقال له: أين رسالتي يا عامر؟ فقال: يا مولاي هي في طرف عمامتي لم يعلم بها العبد.

فقال خالد: انطلق بها يا عامر على بركة الله تعالى. فركب عامر وسار يطلب الشام وارتحل خالد من موضعه ذلك فنزل بأركة وهي رأس الأمانة لمن يخرج

من العراق، وكانت الروم تمسك بها القوافل وكان عليها بطريق من قبل الملك فأغار خالد عليها وأخذ ما كان فيها وتحصن أهلها بحصنها وكان يسكن فيها حكيم من حكماء الروم وقد طالع الكتب القديمة والملاحم، فلما رأى المسلمين وجيشهم امتقع لونه وقال: اقترب الوقت وحق ديني! فقال أهل أركة: وكيف ذلك؟ قال: إن عندي ملحمة فيها ذكر هؤلاء القوم، وإن أول راية تشرف من خيلهم هي الراية المنصورة وقد دنا هلاك الروم، فانظروا إن كانت رايتهم سوداء وأميرهم عريض اللحية طويل ضخم بعيد ما بين المنكبين واسع الهيكل في وجهه أثر جدري فهو صاحب جيشهم في الشام وعلى يديه يكون الفتح. فنظر القوم وإذا الراية على رأس خالد وهي كما قال حكيمهم.

واجتمعوا على بطريقهم وقالوا له: أنت تعلم أن الحكيم سمعان لا ينطق إلا بالحق والحكمة وقد قال كذا وكذا. والذي وصفه لنا رأيناه عيانًا ونرى من الرأي أن نعقد بيننا وبين العرب صلحًا ونأمن على حريمنا وأنفسنا. فلما سمع ذلك بطريقهم قال: أخروني إلى غد لأرى من الرأي. فانصرفوا من عنده وبات البطريق يحدث نفسه ويدبر أمره وكان عارفًا عاقلًا خبيرًا بالأمور، وقال: إن أنا

خالفتهم خفت أن يسلموني للعرب، وقد تحقق أن روبيس سار بجيش عظيم فهزمهم العرب ولم يزل يراود نفسه إلى أن أصبح الصباح فدعا قومه. وقال: على ماذا عوَّلتم؟ قالوا: عوَّلنا على أننا نقيم الصلح بيننا وبين العرب. فقال البطريق: أنا واحد منكم مهما فعلتم لا أخالفكم. فخرج مشايخ أركة إلى خالد وكلموه في الصلح، فأجابهم إلى الصلح وألان الكلام لهم وتلقاهم بالرحب والسعة ليسمع بذلك أهل السخنة ويبلغ الخبر لأهل قدمة، وكان الوالي عليهم بطريق اسمه كوكب، فجمع رعيته وقال لهم: بلغني عن هؤلاء العرب أنهم فتحوا أركة والسخنة وأن قومنا يتحدثون بعدلهم وحسن سيرتهم وأنهم لا يطلبون الفساد وهذا حصن مانع لا سبيل لأحد علينا، ولكن نخاف على نخلنا وزرعنا، وما يضرنا أن نصالح العرب، فإن كان قومنا هم الغالبين فسخنا صلحهم، وإن كان العرب ظافرين كنا آمنين. ففرح قومه بذلك وهيئوا العلوفة والضيافة حتى خرج خالد - رضي الله عنه - من أركة ونزل عليهم فخرجوا إليه بالخدمة وصالحهم على ثلثمائة أوقية من الذهب وكتب لهم كتابًا بالصلح، ثم ارتحل عنها إلى حوران.

وبلَّغ عامر بن الطفيل كتاب خالد إلى أبي عبيدة، فلما قرأه تبسم وقال: السمع والطاعة لله تعالى ولخليفة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ثم أعلم المسلمين بعزله وولاية خالد بن الوليد، وكان أبو عبيدة وجَّه شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى بصرى في أربعة آلاف فارس. فسار على فنائها، وكان على بصرى بطريق عظيم الشأن والقدر عند الملك وعند الروم اسمه روماس، وكان قرأ الكتب السالفة والأخبار الماضية، وكان يجتمع إليه الروم من أقصى بلادها ينظرون إلى عظيم خلقته ويسمعون ألفاظ حكمته، وكانت آهلة بالخلق عامرة بالناس، وكان فيها ألف فارس، وكان العرب يقصدونها ببضائعهم وتجارتهم من أقصى اليمين وبلاد الحجاز، فإذا كان في أيام الموسم ينصب لبطريقهم كرسي ليجلس عليه ويجتمع الناس إليه، ويستفيدون من علمه وحكمته، فبينما هم قد اجتمعوا إليه وقعت الضجة بقدوم شرحبيل بن حسنة وعسكره فبادر إلى جواده فركبه وصاح في قومه فأجابوه وقال: لا تتحدثوا حتى نسمع كلام القوم وما عندهم، ثم سار حتى قرب من شرحبيل بن حسنة وجيشه، ونادى: معشر المسلمين أنا روماس وإني أريد صاحبكم. فخرج إليه شرحبيل، فلما قرب منه قال البطريق: من أنتم؟ قال

شرحبيل: من أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - النبي الأمي القرشي الهاشمي المنعوت في التوراة والإنجيل. فقال روماس: ما فعل الله به؟ فقال شرحبيل: قبضه الله إليه. فقال البطريق: فمن ولي الأمر بعده؟ قال: عتيق بن أبي قحافة بن بكر بن تيم بن مرة. فقال روماس: وحق ديني لقد أعلم بأنكم على الحق ولا بد لكم أن تملكوا الشام والعراق وأنا أشفق عليكم إذ أنتم في جمع يسير ونحن في جمع كثير، ولكن ارجعوا إلى بلادكم فإنَّا لا نتعرض لكم. واعلم يا أخا العرب أن أبا بكر هو صاحبي ورفيقي ولو كان حاضرًا ما قاتلني. فقال شرحبيل: لو كنت ولده أو ابن عمه لما عفا عنه إلا أن يكون من أهل ملته! وليس له من الأمر شيء لأنه مكلف، وقد أمره الله أن يجاهدكم ولسنا نبرح عنكم إلا بإحدى ثلاث: إما أن تدخلوا في ديننا أو تؤدوا الجزية، أو السيف!

فقال روماس: وحق ما أعتقده من ديني: لو كان الأمر إليَّ لا أقاتلكم لأني أعلم أنكم على حق، وهؤلاء طواغيت الروم والقوم مجتمعون، وإني أريد أن أرجع إليهم وأنظر ما عندهم. فقال شرحبيل: ارجع إليهم فلابد لكم بما ذكرت. ثم عاد روماس إلى قومه وجمعهم، وقال: يا أهل دين النصرانية وبني ماء

المعمودية الذي كنتم تعتقدونه في كتبكم من الخروج من بلادكم ودياركم ونهب أموالكم قد قرب وهذا وقته وزمانه ولستم بأعظم جيشًا من روبيس سار إلى شرذمة من العرب بأرض فلسطين فقتل وقتل من معه وانهزم الباقون، ولقد بلغني أن رجلًا منهم قد خرج من أرض السماوة صوب العراق اسمه خالد بن الوليد وقد فتح أركة والسخنة وتدمر وحوران، وهو عن قريب يحضر إليكم، والصواب أن تؤدوا الجزية عن يد إلى هؤلاء العرب وينصرفون عنكم.

فلما سمع قومه ذلك غضبوا وشوشوا وهموا بقتله. فقال روماس: يا قوم إنما أردت أن أختبركم، وأرى حمية دينكم والآن دونكم والقوم وأنا أولكم. قال: فرجعت الروم إلى عددها وعديدها وتظاهروا بالدروع البيض وقادوا الجنائب وتهيئوا للحملة. فلما رأى شرحبيل بن حسنة ذلك وعظ أصحابه. وقال: اعلموا رحمكم الله أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: «الجنة تحت ظلال السيوف» وأحب ما قرب إلى الله قطرة دم في سبيل الله أو دمعة جرت في جوف الليل من خشية الله؟. قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ» (آل عمران: ١٠٢) ثم حمل وحمل

المسلمون على جيش بصرى. قال عبد الله بن عدي: واجتمع علينا العدو وحملوا علينا في اثني عشر ألف فارس من الروم، ونحن فيهم كالشامة البيضاء في جلد البعير الأسود وصبرنا لهم صبر الكرام، ولم يزل القتال بيننا وبينهم إلى أن توسطت الشمس في قبة الفلك، وقد طمع العدو فينا، فرأيت شرحبيل بن حسنة قد رفع يده إلى السماء وهو يقول: يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، اللهم انصرنا على القوم الكافرين. قال: فوالله ما استتم شرحبيل كلامه ودعاءه حتى جاء النصر من عند الله العزيز الحكيم، وذلك أن القوم داروا بنا فرأينا غبرة قد أشرفت علينا من صوب حوران فلما قربت لنا رأينا تحتها سوابق الخيل، فلاحت لنا الأعلام الإسلامية والرايات المحمدية، وقد سبق إلينا فارسان: أحدهما ينادي ويزعق: يا شرحبيل يا ابن حسنة أبشر بالنصر لدين الله، أنا الفارس الصنديد والبطل المجيد، أنا خالد بن الوليد، والآخر يزعق ويقول: أنا عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وأشرفت العساكر من كل جانب. وأشرفت راية العقاب يحملها رافع بن عميرة الطائي. عن ميسرة بن مسروق العبسي قال: والله لقد خمدت أصوات الروم عند زعقة خالد - رضي الله عنه -، وأقبل المسلمون يسلم بعضهم على بعض، وأقبل

شرحبيل بن حسنة إلى خالد بن الوليد، وسلم عليه. فقال خالد: يا شرحبيل أما علمت أن هذه مينا الشام والعراق، وفيها عساكر الروم وبطارقتهم. فكيف غررت بنفسك وبمن معك من المسلمين؟! قال: كله بأمر أبي عبيدة. فقال خالد: أما أبو عبيدة فإنه رجل خالص النية، وليس عنده غائلة الحرب ولا يعلم بمواقعها، ثم أمر الناس بالراحة فنزلوا وارتاحوا من أوزارهم.

فلما كان في اليوم الثاني زحفت جيوش بصرى على المسلمين فقال خالد: إن الروم زحفوا لعلمهم بتعبنا وتعب خيولنا فاركبوا بارك الله فيكم، واحملوا على بركة الله تعالى. فركب المسلمون، وأخذوا أهبتهم للحرب فجعل في الميمنة رافع بن عميرة الطائي، وجعل في الميسرة ضرار بن الأزور وكان غلامًا فاتكًا في الحرب، وجعل على الدرك عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، ثم قسم جيش الزحف فجعل على شطره المسيب بن نجبة الفزاري، وعلى الشطر الآخر مذعور بن غانم الأشعري، وأمرهم أن يزفُّوا الخيل إذا حملت. قال: وبقي خالد في الوسط وهو يعظ الناس ويوصيهم، وقد عزموا على الحملة، وإذا بصفوف الروم قد انشقت وخرج من وسطها فارس عظيم الخلقة كثير الزينة

يلمع ما عليه من الذهب الأحمر والياقوت فلما توسط الجمعين نادى بلسان عربي كأنه بدوي: يا معشر العرب لا يبرز لي إلا أميركم، فأنا صاحب بصرى. قال: فخرج إليه خالد - رضي الله عنه - كالأسد الضرغام وقرب منه. فقال له البطريق: أنت أمير القوم؟ قال: كذلك يزعمون أنَّي أميرهم مادمت على طاعة الله ورسوله، فإن عصيته فلا إمارة لي عليهم.

قال البطريق: إنِّي رجل عاقل من عقلاء الروم وملوكهم وإن الحق لا يخفى عن ذي بصيرة، واعلم أنِّي قرأت الكتب السابقة والأخبار الماضية، فوجدت أن الله تعالى يبعث قرشيًا واسمه محمد بن عبد الله. قال خالد: والله نبينا. قال: أنزل عليه الكتاب؟ قال: نعم القرآن. قال روماس البطريق: أحرَّم عليكم فيه الخمر؟ قال خالد: نعم من شربها حددناه، ومن زنى جلدناه، وإن كان محصنًا رجمناه. قال: أفرضت عليكم الصلوات؟ قال: نعم خمس صلوات في اليوم والليلة. قال: أفرض عليكم الجهاد؟ قال خالد: ولولا ذلك ما جئناكم نبغي قتالكم. قال روماس: والله إني لأعلم أنكم على الحق وإني أحبكم وحذرت قومي منكم وإني خائف منكم، فأبوا. فقال خالد: فقل أشهد ألا إله إلا الله وأن

محمدًا رسول الله يكون لك ما لنا وعليك ما علينا. فقال: إنِّي أسلمت وأخاف أن يعجل هؤلاء بقتلي وسبي حريمي، ولكن أنا أسير إلى قومي وأرغِّبهم فلعل الله أن يهديهم. فقال خالد: وإن رجعت إلى قومك بغير قتال يكون بيني وبينك خفت عليك، ولكن احمل عليَّ حتى لا يتهموك وبعد ذلك اطلب قومك. فحمل بعضهما على بعض، وأرى خالد الفريقين أبوابًا من الحرب حتى أبهر روماس. فقال لخالد: شدِّد عليَّ الحملة حتى يرى الديرجان فإنِّي خائف عليك من بطريق بعث به الملك يقال له الديرجان. فقال خالد: ينصرنا الله عليه، ثم شدَّد على روماس الحملة حتى إنَّه انهزم من بين يديه إلى قومه. فلما وصل إلى قومه قالوا: ما الذي رأيت من العرب؟ قال: إن العرب أجلاد ما لكم بقتالهم طاقة ولا بد لهم أن يملكوا الشام، وما تحت سريري هذا فادخلوا تحت طاعتهم وكونوا مثل أركة والسخنة!

فلما سمعوا كلامه زجروه وأرادوا قتله، وقالوا له: ادخل المدينة والزم قصرك ودعنا لقتال العرب، فانصرف روماس، وقال: لعل الله ينصر خالدًا. ثم إن أهل بصرى ولوا عليهم الديرجان، وقالوا: إذا فرغنا من المسلمين سرنا معك

إلى الملك، ونسأله أن ينزع روماس ويوليك علينا. قال الديرجان: وما الذي تريدون؟ قالوا: نحمل ونطلب قتال العرب. فخرج الديرجان وطلب خالدًا.

فقال عبد الرحمن لخالد: يا أمير أنا أخرج إليه. فقال: دونك يا ابن الصديق، فخرج عبد الرحمن وحمل على الديرجان، فما لبثوا غير ساعة، حتى أحس الديرجان من نفسه بالتقصير فولى منهزمًا وراح إلى قومه. فلما رأوا ذلك منه نزل الرعب في قلوبهم وعلم خالد ما عند القوم من الفزع فحمل وحمل عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وحمل المسلمون. فلما نظر أهل بصرى إلى حملة المسلمين حملوا وتلاقى الفريقان، وضجت الرهبان بكلمة كفرهم. فقال شرحبيل بن حسنة: اللهم إن هؤلاء الأنجاس يبتهلون بكلمة كفرهم ويدعون معك إلها آخر لا إله إلا أنت ونحن نبتهل إليك بلا إله إلا أنت، وأن محمدًا عبدك ورسولك، إلا ما نصرت هذا الدين على أعدائك المشركين، ثم حملوا حملة واحدة، فلم يكن للروم ثبات مع العرب، فولى المشركون الأدبار، وركنوا إلى الفرار. فلما حطوا داخل المدينة أغلقوا الأبواب وتحصنوا بالأسوار، ورفعوا الصلبان، وعوَّلوا أن يكتبوا للملك ليمدهم بالخيل والرجال.

قال عبد الله بن رافع: فلما تحصنوا رجعنا عنهم وافتقدنا أصحابنا فوجدنا قد قتل منا مائة وثلاثون فارسًا، وقتل من الأعيان بدريان. وغنم المسلمون الأموال، وصلى خالد على الشهداء، وأمر بدفنهم. فلما كان الليل تولى الحرس عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ومعمر بن راشد ومائة من جيش الزحف. فبينما هم يدورون حول العسكر، وإذا بروماس صاحب بصرى قد أقبل عليهم وقال لهم: أين خالد بن الوليد؟ فأخذوه وأتوا به إلى خالد. فلما رآه رحب به. فقال: أيها الأمير بعد أن فارقتك طردني قومي، وقالوا: الزم قصرك وإلا قتلناك فلزمت قصري، وهو ملاصق للسور ولما وقع لهم ما وقع وانهزموا تحصنوا. فلما جن الليل أمرت غلماني بحفر السور وفتحوا فيه بابًا فأتيتك فأرسل معي من تعتمد عليه من أصحابك تستلمون المدينة. فلما سمع خالد هذا الكلام أمر عبد الرحمن بن أبي بكر أن يأخذ مائة من المسلمين ويسيروا مع روماس. قال ضرار بن الأزور: وكنت ممن دخل المدينة فلما صرنا في قصر روماس فتح لنا خزانة السلاح، فلبسنا من سلاحهم وقسمنا أربعة أقسام، كل جانب خمسة وعشرون رجلًا. وقال لنا عبد الرحمن: إذا سمعتم التكبير فكبروا. فلما سرنا حيث أمرنا أخذنا أنفسنا بالحملة على القوم.

قال الواقدي: بلغني ممن أثق به من الرواة أن عبد الرحمن لما فارق أصحابه لبس سلاحه وسار هو وروماس يطلبان الدرج الذي عليه الديرجان، وسار معهم ضرار ورافع وشرحبيل بن حسنة. فلما قرب عبد الرحمن من الدرج الذي فيه الديرجان، قال الديرجان: من أنتم؟ فقال: أنا روماس. فقال: لا أهلًا ولا مرحبًا بك، ومن الذي معك؟ قال: معي صديق لك ومشتاق إلى رؤياك، قال: ويحك، ومن هو يا روماس؟ قال: هذا ابن أبي بكر الصديق. فلما سمع الديرجان ذلك همَّ أن يقتله فلم تطاوعه نفسه فحمل عليه عبد الرحمن، وهزَّ سيفه في وجهه وضربه على عاتقه فتجندل صريعًا يخور في دمه، وعجل الله بروحه إلى النار. وكبَّر عبد الرحمن فأجابه روماس وسمع أصحابه التكبير فكبروا من جوانب بصرى. ووضعوا السيف في الروم، وسمع خالد التكبير فصرخوا، وإذا بغلمان روماس وأولاده قد فتحوا لهم الأبواب فعبر خالد ومن معه من المسلمين. فلما نظر أهل بصرى إلى الأبواب، وقد فتحت بالسيف قهرًا ضجوا بأجمعهم يقولون: الأمان الأمان. فقال خالد بن الوليد – رضي الله عنه –: ارفعوا السيف عنهم، وأقام خالد إلى الصباح واجتمع إليه أهلها. وقالوا: يا أيها الأمير لو صالحناك ما جرى شيء من ذلك، ولكن نسألك بالذي أيدك

ونصرك من الذي فتح لك أبواب مدينتنا. فاستحيا خالد - رضي الله عنه - أن يقول، فوثب روماس، وقال: أنا فعلت ذلك يا أعداء الله وأعداء رسوله، وما فعلته إلا ابتغاء مرضاة الله وجهادًا فيكم. فقالوا: أَوَلَست منَّا؟ فقال: اللهم لا تجعلني منهم، رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبالكعبة قبلة وبالقرآن إمامًا، وأنا أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. ففرح خالد بذلك. وأما أهل بصرى فغضبوا وأضمروا له شرًا، وعلم بذلك روماس. فقال لخالد: أنا لا أريد المقام عندهم، وإني أسير معك حيث سرت. فإذا فتح الله على يديك الشام وصار لكم الأمر ردوني إليها لأن الوطن عزيز.

قال الواقدي: حدثني معمر بن سالم عن جده قال: كان روماس يجاهد معنا جهادًا حسنًا حتى فتح الله على أيدينا الشام، فكان أبو عبيدة يكاتب به عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في أيامه فولاه على بصرى فلم يلبث إلا يسيرًا حتى توفي رحمه الله، وخلف عقبًا يذكر به، قال: وأمر خالد رجالًا يعينونه على إخراج رحله وماله من المدينة ففعلوا ذلك، وإذا بزوجته تخاصمه وتطلب فراقه. فقال لها المسلمون: ما الذي تريدين؟ قالت: أريد أمير جيشكم يحكم بيننا فجاءوا

بها إلى خالد، فقالت له: أنا أستغيث بك من روماس. فقال لها خالد: وكيف ذلك؟ فقالت: إني كنت البارحة نائمة إذ رأيت شخصًا ما رأيت أحسن منه وجهًا كأن البدر يطلع من بين عينيه، وكأنه يقول: إن المدينة فتحت على يد هؤلاء القوم والشام والعراق. فقلت له: ومن أنت يا سيدي؟. قال: محمد رسول الله، ثم دعاني إلى الإسلام فأسلمت، ثم علمني سورتين من القرآن.

فحدث الترجمان خالد بما كان منها فقال: إن هذا لعجيب! ثم قال خالد للترجمان: قل لها أن تقرأ السورتين فقرأت الفاتحة، و«قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ» (الإخلاص:١) ثم جددت إسلامها على يد خالد بن الوليد، وقالت: يا أيها الأمير إما أن يسلم روماس وإلا يتركني أعيش بين المسلمين. فضحك خالد من قولها، وقال: سبحان الله الذي وفقهما جميعًا. ثم قال للترجمان: قل لها إن روماس أسلم قبلها ففرحت بذلك. ثم إن خالدًا أحضر أهل بصرى وقررهم على أداء الجزية وولى عليهم من اتفق رأيهم عليه. ثم كتب إلى أبي عبيدة كتابًا يبشره بالفتح، ويقول له: يا صاحب رسول الله قد ارتحلنا إلى دمشق فالحقنا إليها. ثم كتب كتابًا آخر إلى أبي بكر الصديق يخبره برحيله، ويقول له: يوم

كتبت إليك هذا الكتاب ارتحلت إلى دمشق فادع لنا بالنصر والسلام عليك ومن معك ورحمة الله وبركاته. ثم بعث الكتابين كليهما، ثم ارتحل خالد إلى نحو دمشق حتى أشرف على موضع يقال له الثنية فوقف هناك وركز راية العقاب فسميت بذلك «ثنية العقاب» ثم ارتحل منها إلى الدير المعروف الآن بدير خالد، وكان أهل السواد قد التجئوا إلى دمشق، وقد اجتمعت خلائق وأمم لا تحصى من الرجال. وأما أصحاب الخيل فكانوا اثني عشر ألفًا، وقد زينوا أسوارهم بالطوارق والبيارق والصلبان، وأقام خالد على الدير ينتظر قدوم المسلمين.

قال الواقدي: ووصلت الأخبار إلى الملك هرقل وما فتح خالد من الشام، وكيف قدم على دمشق فغضب وجمع البطارقة وقال: يا بني الأصفر، لقد قلت لكم وحذرتكم فأبيتم وهؤلاء العرب قد فتحوا أركة وتدمر والسخنة وبصرى، وقد توجهوا إلى الربوة ففتحوها فواكرباه لأن دمشق جنة الشام وقد سارت إليها الجيوش وهم أضعاف العرب، ثم قال: أيكم يتوجه إلى قتال العرب ويكفيني أمرهم، فإن هزمهم أعطيته ما فتحوه ملكًا؟ فقال بطريق من البطارقة اسمه

كلوس بن حنا، وكان من فرسانهم، وقد عرفت شجاعته في عساكر الروم والفرس: أيها الملك أنا أكفيك وأردهم على أعقابهم منهزمين. فلما سمع الملك قوله سلم إليه صليبًا من الذهب وقدمه على خمسة آلاف فارس، وقال له: قدم صليبك أمامك فإنه ينصرك.

فأخذه كلوس وسار من يومه من أنطاكية إلى أن وصل حمص فوجدها مزينة بالسلاح، فلما بلغ أهلها قدومه خرجوا إلى لقائه، وقد خرجت القسس والرهبان واستقبلوه ودعوا له بالنصر وأقام بحمص يومًا وليلة، ثم ارتحل إلى مدينة بعلبك فخرج إليه النساء لاطمات الخدود وقلن: أيها السيد إن العرب فتحوا أركة وحوران وبصرى، فقال لهن: كيف قدرت العرب على حوران وبصرى؟. فقلن: أيها السيد إن الذين ذكرتهم لم يبرحوا من أماكنهم، وإن هذا الرجل قد أقبل من العراق، وهو الذي فتح أركة. فقال: وما اسمه؟ قلن: خالد بن الوليد. قال: في كم يكون من العساكر؟ قلن: في ألف وخمسمائة فارس. فقال: وحق المسيح لأجعلن رأسه على رأس سناني. ثم رحل فلم ينزل إلا بدمشق، وكان واليها بطريقًا من قبل الملك هرقل اسمه عزازير، فلما قدم

كلوس اجتمع عليه عزازير وأصحابه وقرأوا عليهم منشور الملك، ثم قال لهم: أتريدون أن أقاتل عدوكم وأصده عن بلادكم؟ قالوا: نعم. فقال: أخرجوا عزازير عنكم حتى أكون وحدي في هذا الأمر. فقالوا: أيها السيد وكيف ينبغي أن يخرج صاحبنا من بلدنا، وهذا العدو قاصد إلينا؟ فغضب عزازير في وجه كلوس من كلامه، وقد اتفق رأيهم على أن كل واحد يقاتل العرب يومًا فثبتت عداوة عزازير في قلب كلوس.

قال الواقدي: ولقد بلغني أنهم كانوا يخرجون كل يوم من باب الجابية مقدار فرسخ ينظرون قدوم أبي عبيدة بن الجراح فلم يشعروا حتى قدم إليهم خالد بن الوليد من نحو الثنية، قال: حدثنا يسار بن محمد. قال: أخبرنا رفاعة بن مسلم قال: كنت في جيش خالد بن الوليد لما نزل على الدير المعروف به، وإذا بجيش الروم قد زحف علينا وهو كالجراد المنتشر، فلما نظر خالد ذلك تدرع بدرع مسيلمة، ثم صرخ في وجه المسلمين. وقال: هذا يوم ما بعده يوم، وهذا العدو قد زحف بخيله فدونكم والجهاد فانصروا الله ينصركم وكونوا ممن باع نفسه لله - عز وجل - وكأنكم بإخوانكم المسلمين قدموا عليكم مع أبي

عبيدة بن الجراح، ثم بعد ذلك استقبل الجيش وصرخ بملء رأسه فأرعب المشركين من صرخته وحمل شرحبيل بن حسنة وعبد الرحمن بن أبي بكر وضرار بن الأزور، ومذ حمل ضرار لم يول عنهم بل قتل من الميمنة خمسة فرسان ومن الميسرة كذلك. ثم حمل ثاني مرة فقتل منهم ستة فرسان، ولولا سهام القوم لما رد عن قتالهم فشكره خالد بن الوليد وقال لعبد الرحمن بن أبي بكر - رضي الله عنه -: احمل بارك الله فيك.

فحمل عبد الرحمن وفعل كما فعل ضرار بن الأزور وقاتل قتالًا شديدًا. ثم حمل من بعده خالد بن الوليد ورفع رمحه وأرى العسكر من أمور الحرب حتى جزع الروم من شجاعته. فلما نظر إليه البطريق كلوس علم أنه أمير الجيش وعلم أنه يقصده فتأخر كلوس إلى ورائه من مخافته. فلما نظر خالد إلى قهقرة كلوس إلى ورائه حمل عليه ليرده فوقعت عليه البطارقة ورموه بالسهام فلم يلتفت إليهم خالد، ولم يعبأ بهم ولم يرجع حتى قتل عشرين. ثم انثنى بجواده بين الصفين وجال بجواده بين الفريقين وطلب البراز فلم يجبه أحد، وقالوا: أخرجوا غيره منكم. فقال: ويلكم ها أنا رجل واحد من العرب وكلنا في الحرب

سواء! فما منهم من فهم كلامه، فأقبل عزازير على كلوس، وقال: أليس الملك قد قدمك على جيشه وبعثك إلى قتال العرب؟! فدونك حام عن بلدك ورعيتك.

فقال كلوس: أنت أحق مني بذلك لأنك أقدم مني، وقد عزمت أنك لا تخرج إلا بإذن الملك هرقل فما بالك لا تخرج إلى قتال أمير العرب. فقال لهما العساكر: تقارعا فمن وقعت عليه القرعة فلينزل إلى قتال أمير العرب. فقال كلوس: لا بل نحمل جميعًا فهو أهيب لنا، قال: وخاف كلوس أن يبلغ الملك ذلك فيطرده من عنده أو يقتله. قال: فتقارعا فوقعت القرعة على كلوس. فقال عزازير: اخرج وبين شجاعتك، فقال كلوس لأصحابه: أريد أن تكون همتكم عندي، فإن رأيتم مني تقصيرًا فاحملوا وخلِّصوني. فقال أصحابه: هذا كلام عاجز لا يفلح أبدًا! فقال: يا قوم إن الرجل بدوي ولغته غير لغتي فخرج معه رجل اسمه جرجيس، وقال له: أنا أترجم لك فسار معه. فقال كلوس: اعلم يا جرجيس أن هذا رجل ذو شجاعة فإن رأيته غلبني فاحمل أنت عليه حتى نقضي يومنا معه، ويخرج له غدًا عزازير فيقتله ونستريح منه وأتخذك أنا صديقي. فقال

له: ما أنا أهل حرب، وإنما أخوفه بالكلام. فسكت وسارا حتى قربا من خالد فنظر إليهما.

فهمَّ أن يخرج إليهما رافع بن عميرة فصاح فيه خالد، وقال: مكانك لا تبرح فإني كفء لهما، فلما دنوا من خالد قال كلوس لصاحبه: قل له من أنت وما تريد وخوفه من سطواتنا فقرب جرجيس من خالد، وقال له: يا أخا العرب أنا أضرب لك مثلًا إن مثلكم ومثلنا كمثل رجل له غنم فسلمها إلى راع وكان الراعي قليل الجرأة على الوحوش فأقبل عليه سبع عظيم فجعل يلتقط منه كل ليلة رأسًا إلى أن انقضت الأغنام والسبع ضار عليها ولم يجد له مانعًا عنها. فلما نظر صاحب الغنم ما حل بغنمه علم أنه لم يؤت إلا من الراعي فانتدب لغنمه غلامًا نجيبًا فسلمه الغنم فكان كل ليلة يكثر الطوفان حول الغنم. فبينما الغلام كذلك إذ أقبل عليه السبع على عادته الأصلية واخترق الغنم فهجم الغلام على السبع وبيده منجل فضربه فقتله، ولم يقرب الغنم وحش بعدها وكذلك أنتم نتهاون بأمركم لأنه ما كان أضعف منكم لأنكم جياع مساكين ضعفاء وتعودتم أكل الذرة والشعير ومص النوى. فلما خرجتم إلى بلادنا وأكلتم طعامنا وفعلتم ما

فعلتم، وقد بعث لكم الملك رجالًا لا تقاس بالرجال ولا تكترث بالأبطال ولاسيما هذا الرجل الذي بجانبي فاحذر منه أن ينزل بك ما أنزل الغلام بالأسد، وقد سألني أن أخرج إليك وأتلطف بك في الكلام فأخبرني ما الذي تريد قبل أن يهجم عليك هذا الفارس.

فلما سمع خالد منه ذلك، قال: يا عدو الله والله لا نحسبكم عندنا في الحرب إلا كقابض الطير بشبكة، وقد قبضها يمينًا وشمالًا فلم يخرج إلا ما انفلت منه. وأما ما ذكرت من بلادنا وأنها بلاد قحط وجوع فالأمر كذلك إلا أن الله تعالى أبدلنا ما هو خير منه، فأبدلنا بدل الذرة الحنطة والفواكه والسمن والعسل. وهذا كله قد رضيه لنا ربنا ووعدنا به على لسان نبيه – صلى الله عليه وسلم – وأما قولك: ما الذي تريدونه منا؟ فنريد منكم إحدى ثلاث خصال: إما أن تدخلوا في ديننا أو تؤدوا الجزية، أو القتال. وأما قولك: إن هذا الرجل الذليل الذي هو عندكم مسكين فهو عندنا أقل القليل وإن يكن هو ركن الملك فأنا ركن الإسلام. أنا الفارس الصنديد، أنا خالد بن الوليد. أنا صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

قال الواقدي رحمه الله تعالى: فلما سمع جرجيس كلام خالد تأخر إلى ورائه وقد تغير لونه، فقال له كلوس: يا ويلك رأيتك في بدايتك تهيم كالسبع فما لك قد تأخرت؟ فقال: وحق المسيح ما أعلم أنه الفارس الجحجاح وبطلهم الفصاح، هذا صاحب القوم الذي ملأ الشام شرًا. فقال كلوس: يا جرجيس اسأله أن يؤخر الحرب بيننا إلى غد فالتفت إلى خالد، وقال له: يا سيد قومك هذا صاحبي يريد أن يرجع إلى قومه ليشاورهم. فقال خالد: ويحك أتريد أن تخدعني بالكلام وأقبل برمحه في وجه جرجيس.

فلما نظر جرجيس ذلك انعقد لسانه وولى هاربًا. فلما رأى خالد ذلك طلب كلوس وحمل عليه وتطاعنا واحترز البطريق من طعنات خالد، فلما نظر خالد احتراز البطريق حط يده في أطواقه وجذبه فقلعه من سرجه. فلما نظر المسلمون فعل خالد كبروا بأجمعهم وتسابق الفرسان إلى خالد، فلما قربوا منه رمى لهم البطريق، وقال أوثقوه كتافًا فصار يبربر بلسانه فأتى المسلمون بروماس صاحب بصرى، وقالوا له: اسمع ماذا يقول؟ فقال لهم: يقول لكم لا تقتلوني فإني أجبت

صاحبكم في المال والجزية! فقال خالد: استوثقوا منه ثم نزل عن جواده وركب جوادًا أهداه له صاحب تدمر وعزم أن يهجم على الروم. فقال ضرار بن الأزور: أيها الأمير دعني أنا أحمل على القوم حتى تستريح أنت. فقال: يا ضرار الراحة في الجنة غدًا.

ثم عوَّل خالد على الحملة فصاح به البطريق كلوس، وقال: وحق دينك ونبيك إلا ما رجعت إليَّ حتى أخاطبك! فرجع خالد إليه، وقال كلوس لروماس: اسأله ما يريد وأعلمه أني صاحب الملك، وقد بعثني إليكم في خمسة آلاف فارس لأردكم عن بلده وأهله ورعيته، وقد تحاججت أنا وعزازير متولي دمشق وقدم إليَّ معه كذا وكذا، وأنا أسألك بحق دينك إذا خرج إليك فاقتله، وإن لم يخرج إليك فاستدعه واقتله فإنه رأس القوم، فإن قتلته فقد ملكت دمشق. فقال خالد لروماس: قل له إنا لا نبقي عليك ولا عليه ولا على من أشرك بالله تعالى. ثم إنه بعد ذلك الكلام حمل، وهو ينشد ويقول:

لك الحمد مولانا على كل نعمة وشكرًا لما أوليت من سابغ النعمِ
مننت علينا بعد كفر وظلمة وأنقذتنا من حندس الظلم والظلم

وأكـرمـتـنـا بـالـهـاشـــمـي محـمـد وكشــفـت عنـا مـا نلاقي من الغمم

فـتـمـم إلـه الـعـرش مـا قـد تـرومـه وعجِّل لأهل الشـــرك بالبؤس والنقم

وألـقـهـم ربـي ســـريـعًـا بـبـغـيـهـم بحق نبيّ ســـيد العرب والعجم

قال الواقدي: لما ولى جرجيس هاربًا من بين يدي خالد إلى أصحابه رأوه يرتعد من الفزع. فقالوا له: ما وراءك؟ فقال: يا قوم ورائي الموت الذي لا يقاتل، والليث الذي لا ينازل، وهو أمير القوم، وقد آلى على نفسه أن يطلبنا أينما كنا، وماخلصت روحي إلا بالجهد فصالحوا الرجل قبل أن يحمل عليكم بأصحابه فلا يبقي منكم أحدًا، فقالوا له: ما يكفيك أنك انهزمت، وقد هموا بقتله، فبينما هم كذلك إذ أقبل أصحاب كلوس على عزازير وهم خمسة آلاف وصاحوا به وقالوا له: ما أنت عند الملك أعز من صاحبنا، وقد كان بيننا وبينك شر فاخرج أنت إلى خالد واقتله أو أسره وخلص لنا صاحبنا وإلا وحق المسيح والمذبح والذبيح شننا عليك الحرب فقال عزازير، وقد رجع به مكره ودهاؤه: يا ويلكم أتظنون أني جزعت من الخروج إلى هذا البدوي من أول مرة؟! ولكني ما تأخرت عن الخروج إليه وتقاعدت عن قتاله حتى يتبين عجز صاحبكم وسوف ينظر الفريقان أينا أفرس وأشجع وأثبت في مقام القتال إذا نحن تشابكنا

بالنصال. ثم إنه في الحال ترجل عن جواده ولبس لأمته وركب جوادًا يصلح للجولان، وخرج إلى قتال سيدنا خالد بن الوليد – رضي الله عنه –، فلما قرب منه قال: يا أخا العرب ادن مني حتى أسألك –وكان الملعون يعرف العربية–، فلما سمع خالد ذلك قال: يا عدو الله ادن أنت على أم رأسك! ثم همَّ أن يحمل عليه. فقال: على رسلك يا أخا العرب أنا أدنو منك فعلم خالد أن الخوف داخله فأمسك عنه حتى قرب منه. فقال: يا أخا العرب ما حملك أن تحمل أنت بنفسك.. أما تخشى الهلاك فلو قتلت بقيت أصحابك بلا مقدم! فقال خالد: يا عدو الله قد رأيت ما فعل الرجلان من أصحابي لو تركتهم لهزموا أصحابك بعون الله تعالى، وإنما معي رجال، وأي رجال يرون الموت مغنمًا والحياة مغرمًا، ثم قال له خالد: من أنت؟ فقال: أَوَما سمعت باسمي؟! أنا فارس الشام أنا قاتل الروم والفرس أنا كاسر عساكر الترك. فقال خالد: ما اسمك؟ فقال: أنا الذي تسميت باسم ملك الموت اسمي عزرائيل.

قال الواقدي: فضحك خالد من كلامه، وقال: يا عدو الله تخوفني أن الذي تسميت باسمه هو طالبك ومشتاق إليك ليرديك إلى الهاوية! فقال له البطريق:

ما فعلت بأسيرك كلوس؟ فقال: هو موثق بالقيود والأغلال. فقال له عزازير: وما منعك من قتله، وهو داهية من دواهي الروم. فقال خالد: منعني من ذلك أني أريد قتلكم جميعًا، فقال عزازير: هل لك أن تأخذ ألف مثقال من الذهب وعشرة أثواب من الديباج وخمسة رؤوس من الخيل وتقتله وتأتيني برأسه. فقال له خالد: هذه ديته فما الذي تعطيني أنت عن نفسك؟ فغضب عدو الله من ذلك، وقال: ما الذي تأخذ مني؟ قال: الجزية وأنت صاغر ذليل. فقال عزازير: كلما زدنا في كرامتكم زدتم في إهانتنا فخذ الآن لنفسك الحذر فإني قاتلك ولا أبالي، فلما سمع خالد كلام عزازير حمل عليه حملة عظيمة كأنه شعلة نار فاستقبله البطريق، وقد أخذ حذره وكان عزازير ممن يعرف بالشجاعة في بلاد الشام فلما نظر خالد إلى عدو الله أظهر شجاعته وبراعته تبسَّم. فقال عزازير: وحق المسيح لو أردت الوصول إليك لقدرت على ذلك ولكنني أبقيت عليك لأني أريد أن أستأسرك ليعلم الناس أنك أسيري، وبعد ذلك أطلق سبيلك على شرط أنك ترحل من بلادنا وتسلم لنا ما أخذت من بلاد الشام!

فلما سمع خالد كلام عزازير قال له: يا عدو الله قد داخلك الطمع فينا، وهذه العصابة قد ملكوا تدمر وحوران وبصرى وهُمْ ممَّن باعوا أنفسهم بالجنة، واختاروا دار البقاء على دار الفناء، وستعلم أينا من يملك صاحبه ويذل جانبه! ثم إن خالدًا أرى البطريق أبواب الحرب. فندم عزازير على ما كان منه من الكلام، وقال: يا أخا العرب أما تعرف الملاعبة؟ فقال خالد: ملاعبتي الضرب في طاعة الرب! ثم إن الملعون هاجم خالدًا ولوَّح إليه بسيفه وضربه به فلم يقطع شيئًا فذهل عدو الله من جولان خالد وثباته، وعلم أنَّه لا يقدر عليه ولا على ملاقاته فولَّى هاربًا، وكان جواده أسبق من جواد خالد.

قال عامر بن الطفيل - رضي الله عنه -: وكنت يوم حرب دمشق في القلب وشاهدنا ما جرى بين خالد وعزازير لما ولى هاربًا وقصر جواد خالد عن طلبه فوقع في قلبه الطمع، وقال: كأن البدوي خاف مني وما لي إلا أن أقف حتى يلحقني وآخذه أسيرًا ولعل المسيح ينصرني عليه، فلما وقع ذلك في نفسه وقف حتى لحق به خالد، وقد جلل فرسه العرق، فلما قرب منه صاح عزازير، وقال: يا عربي لا تظن أني هارب خوفًا منك، وإنما أبقيت عليك خوفًا على شبابك

فارحم نفسك، وإن أردت الموت أسوقه إليك أنا قابض الأرواح أنا ملك الموت، فعندما سمع ذلك ترجل عن جواده وسحب السيف وسار إليه كأنه الأسد الضاري.

فلما نظر عزازير إلى ذلك وإلى ترجل خالد زاد طمعه فيه وحام حوله وهمَّ إليه يريد أن يعلو رأسه بالسيف فزاغ خالد عنها وصاح فيه وضرب قوائم فرسه بضربة عظيمة فقطعها فسقط عدو الله على الأرض ثم ولَّى هاربًا يريد أصحابه فسبقه خالد. وقال: يا عدو الله إن الذي تسميت باسمه قد غضب عليك واشتاق إليك وها هو قد أقبل عليك يقبض روحك ليؤديك إلى جهنم، ثم هجم عليه وهمَّ أن يجلد به الأرض ونظرت الروم إلى صاحبها، وهو في يد خالد فهمُّوا أن يحملوا على خالد ويخلصوه من يده إذ قد أقبلت جيوش المسلمين، مع الأمير أبي عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه - حيث كان قد سار من بصرى فوجده، وقد أخذ عزازير في تلك الساعة، فلما نظرت عساكر دمشق إلى جيوش المسلمين قد أقبلت داخلهم الجزع والفزع فوقفوا عن الحملة.

عن هلال القشعمي قال: لما قدم الأمير أبو عبيدة سأل عن خالد فقالوا: إنه في ميدان الحرب، وقد أسر بطريق الروم فدنا أبو عبيدة إليه وهم أن يترجل فأقسم عليه خالد أن لا يفعل وأقبل عليه وصافحه، وكان أبو عبيدة يحب خالدًا لمحبة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – له. فقال أبو عبيدة لخالد: يا أبا سليمان لقد فرحت بكتاب أبي بكر الصديق حين قدمك عليَّ وأمَّرك عليَّ وما حقدت في قلبي عليك لأنِّي أعلم مواقفك في الحرب. فقال خالد: والله لا فعلت أمرًا إلا بمشورتك ووالله لولا أمر الإمام طاعة ما فعلت ذلك أبدًا لأنك أقدم مني في دين الإسلام وأنت صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وأنت قال فيك: أبو عبيدة أمين هذه الأمة! فشكره أبو عبيدة وقدم لخالد جواده فركبه، وقال خالد لأبي عبيدة: اعلم أيها الأمير أن القوم قد خذلوا ووقع الرعب في قلوبهم، وأهينوا بأخذ كلوس وعزازير! وسار مع أبي عبيدة يحدثه بما صار من البطريقين، وكيف نصره الله عليهما إلى أن أتيا الدير فنزلا هناك، وأقبل المسلمون يسلم بعضهم على بعض. فلما كان الغد ركب الناس وتزينت المواكب وزحف أهل دمشق للقتال وقد أمَّروا عليهم صهر الملك هرقل.

ولما أقبلوا قال خالد لأبي عبيدة: إن القوم قد انخذلوا ووقع الرعب في قلوبهم فاحمل بنا على القوم. قال أبو عبيدة: أفعل فحمل خالد وحمل أبو عبيدة وحمل المسلمون على عساكر الروم حملة عظيمة وكبروا بأجمعهم فارتجت الأرض من تكبيرهم ووقع القتل في الروم، وجاهد أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جهادًا عظيمًا، وذهلت منهم الكفار. قال عامر بن الطفيل: لقد كان الواحد منا يهزم من الروم العشرة والمائة. قال: فما لبثوا معنا ساعة واحدة حتى ولوا الأدبار، وركنوا إلى الفرار، وأقبلنا نقتل فيهم من الدير إلى الباب الشرقي. فلما نظر أهل دمشق إلى انهزام جيشهم أغلقوا الأبواب في وجه من بقي منهم. قال قيس بن هبيرة - رضي الله عنه -: فمنهم من قتلناه، ومنهم من أسرناه، فلما رجع خالد عنهم قال لأبي عبيدة: إن من الرأي أن أنزل أنا على الباب الشرقي وتنزل أنت على باب الجابية. فقال أبو عبيدة: هذا هو الرأي السديد.

عن أويس بن الخطاب أن الذي قدم مع الأمير أبي عبيدة من المسلمين من أهل الحجاز واليمن وحضرموت وساحل عمان والطائف وما حول مكة كان

سبعة وثلاثين ألف فارس من الشجعان، وكان مع عمرو بن العاص تسعة آلاف فارس، والذين قدم بهم خالد بن الوليد - رضي الله عنه - من العراق ألف وخمسمائة فارس فكان جملة ذلك سبعة وأربعين ألفًا وخمسمائة غير ما جهز عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في خلافته، وسنذكر ذلك إذا وصلنا إليه إن شاء الله تعالى، هذا وإن خالدًا نزل بنصف المسلمين على الباب الشرقي ونزل أبو عبيدة بالنصف الثاني على باب الجابية. فلما نظر أهل دمشق إلى ذلك نزل الرعب في قلوبهم، ثم إن خالدًا أحضر البطريقين بين يديه وهما كلوس وعزازير فعرض عليهما الإسلام فأبيا فأمر ضرار بن الأزور أن يضرب عنقيهما ففعل. فلما نظر أهل دمشق ما فعلوا بالبطريقين كتبوا إلى الملك كتابًا يخبرونه بما جرى على كلوس وعزازير، وقد نزلت العرب على الباب الشرقي وباب الجابية، وقد نزلوا بشبانهم وأولادهم وقد قطعوا أرض البلقاء وأرض السواد ووصفوا له ما ملك العرب من البلاد فأدركنا وإلا سلمنا إليهم البلد، ثم سلموا الكتاب إلى رجل منهم وأعطوه أوفى أجرة وأدلوه بالحبل من أعلى الأسوار في ظلمة الاعتكار.

قال الواقدي: وإن الرجل وصل إلى الملك هرقل، وهو بأرض أنطاكية فاستأذن عليه فأمر له بالدخول، فلما دخل سلم الكتاب إليه. فلما قرأه الملك رماه من يده وبكى، ثم إنه جمع البطارقة. وقال لهم: يا بني الأصفر لقد حذرتكم من هؤلاء العرب، وأخبرتكم أنهم سوف يملكون ما تحت سريري هذا فاتخذتم كلامي هزوا وأردتم قتلي وهؤلاء العرب خرجوا من بلاد الجدب والقحط وأكل الذرة والشعير إلى بلاد خصبة كثيرة الأشجار والثمار والفواكه فاستحسنوا ما نظروه من بلادنا وخصبنا وليس يزجرهم شيء لما هم فيه من العزم والقوة وشدة الحرب ولولا أنه عار عليَّ لتركت الشام ورحلت إلى القسطنطينية العظمى، ولكن ها أنا أخرج إليهم وأقاتلهم عن أهلي وديني.

فقالوا: أيها الملك ما بلغ من شأن العرب أن تخرج إليهم بنفسك وقعودك أهيب قال الملك هرقل: نبعث إليهم، قالوا: عليك أيها الملك بـ «وردان» صاحب حمص لأنه ليس فينا مثله في القوة وملاقاة الرجال، ولقد بين لنا شجاعته في عساكر الفرس لما قصدونا. فأمر الملك بإحضاره.

فلما حضر وردان قال له الملك: إنِّما قدمتك لأنك سيفي القاطع وسندي المانع فاخرج من وقتك وساعتك ولا تتأخر، فقد قدمتك على اثني عشر ألفًا، فإذا وصلت إلى بعلبك فأنفذ إلى من بأجنادين بأن يتفرقوا في أرض البلقاء وجبال السواد فيكونوا هناك ولا تتركوا أحدًا من العرب يلحق بأصحابه، يعني عمرو بن العاص - رضي الله عنه -، فقال وردان: السمع والطاعة لك أيها الملك وسوف يبلغك الخبر أني لا أعود إلا برأس خالد بن الوليد ومن معه أهزمهم جميعًا وبعد ذلك أدخل الحجاز ولا أخرج حتى أهدم الكعبة ومكة والمدينة. فلما سمع الملك هرقل قوله قال: وحق الإنجيل لئن فعلت ذلك ووفيت بقولك لأعطينك ما فتحوه حرثًا وخراجًا وكتبت كتاب العهد أنك الملك من بعدي، ثم سوَّره وتوَّجه وأعطاه صليبًا من الذهب وفي جوانبه أربع يواقيت لا قيمة لها، وقال: إذا لاقيت العرب فقدمه أمامك فهو ينصرك. فلما تسلم وردان الصليب من وقته دخل الكنيسة وانغمر في ماء المعمودية وبخروه ببخور الكنائس وصلى عليه الرهبان وخرج من وقته فضرب خيامه خارج المدينة. قال: وأخذت الروم على أنفسهم بالرحيل، فلما تكاملوا ركب الملك هرقل وسار لوداعهم وصحبته أرباب دولته فوصل معهم إلى جسر الحديد بها

فودعه الملك وسار إلى أن وصل إلى حماة فنزل بها وأنفذ من وقته كتابًا إلى من بأجنادين من جيوش الروم يأمرهم ليتفرقوا في سائر الطرقات ليمنعوا عمرو بن العاص ومن معه أن يصلوا إلى خالد، فلما سار الرسول بالكتاب جمع وردان إليه البطارقة وقال لهم: إني أريد أن أسير على حين غفلة على طريق مارس حتى أكبس على القوم ولا ينجو منهم أحد، فلما كان الليل رحل على طريق وادي الحياة.

حدثني شداد بن أوس قال: لما دخل خالد بن الوليد – رضي الله عنه – بعد قتل البطريقين أمر المسلمين أن يزحفوا إلى دمشق. فزحف منَّا الرجال من العرب وبأيديهم الحجف يتلقون بها الحجارة والسهام، فلما نظر أهل دمشق إلينا، ونحن قد زحفنا إليهم رمونا بالسهام والحجارة من أعلى الأسوار، وضيقنا عليهم في الحصار، وأيقن القوم بالدمار. قال شداد: فأقمنا على حصارهم عشرين يومًا، فلما كان بعد ذلك جاءنا ناوي بن مرة وأخبرنا عن جموع الروم بأجنادين وكثرة عددهم فركب خالد نحو باب المدينة الجابية إلى أبي عبيدة يخبره بذلك ويستشيره وقال: يا أمين الأمة إني رأيت أن نرحل من دمشق إلى

أجنادين، ونلقى من هناك من الروم، فإذا نصرنا الله عليهم عدنا إلى قتال هؤلاء القوم. قال أبو عبيدة: ليس هذا برأي! قال خالد: ولم ذلك؟ قال أبو عبيدة: إذا رحلنا يخرج أهل المدينة فيملكون مواضعنا.

فلما سمع خالد ذلك من أبي عبيدة قال: يا أمين الأمة إنِّي أعرف رجلًا لا يخاف الموت خبيرًا بلقاء الرجال قد مات أبوه وجده في القتال. قال: ومن هذا الرجل يا أبا سليمان؟ قال: هو ضرار بن الأزور بن طارق. قال أبو عبيدة: والله لقد صدقت ووصفت رجلًا باذلًا معروفًا فافعل. فرجع خالد إلى بابه واستدعى بضرار بن الأزور فجاء إليه وسلم عليه. فقال: يا ابن الأزور إني أريد أن أقدمك على خمسة آلاف قد باعوا أنفسهم لله - عز وجل - واختاروا دار البقاء والآخرة على الأولى، وتسيروا إلى لقاء هؤلاء القوم الذين وردوا علينا، فإن رأيت لك فيهم طمعًا فقاتلهم، وإن رأيت أنك لا تقدر عليهم فابعث إلينا رسولك.

فقال ضرار بن الأزور: وافرحتاه، والله يا ابن الوليد ما دخل قلبي مسرة أعظم من هذه فاتركني أسير وحدي. قال خالد: لعمري إنك ضرار! ولكن لا تلق نفسك إلى الهلاك وسر بمن ندب معك من المسلمين. فقام ضرار - رضي

الله عنه - مسرعًا فقال خالد: ارفق بنفسك حتى يجتمع عليك الجيش فقال: والله لا وقفت ومن علم الله فيه خيرًا أدركني ثم ركب ضرار وأسرع إلى أن وصل إلى بيت لهيا، وهو الموضع الذي كان يصنع فيه الأصنام فوقف هناك حتى لحق به أصحابه. فلما تكاملوا نظر ضرار، وإذا بجيش الروم ينحدر كأنه الجراد المنتشر وهم غائصون في الدروع وقد أشرقت الشمس على لاماتهم وطوارقهم. فلما نظر إليهم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالوا لضرار: أما والله إن هذا الجيش عرمرم والصواب أننا نرجع. فقال ضرار: والله لا زلت أضرب بسيفي في سبيل الله وأتبع من أناب إلى الله ولا يراني الله مهزومًا، ولا أولي الدبر لأن الله تعالى يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» (الأنفال:١٥ - ١٦)، وتكلم رافع بن عميرة الطائي وقال: يا قوم وما الخيفة من هؤلاء العلوج؟ أما نصركم الله في مواطن كثيرة والنصر مقرون مع الصبر ولم تزل طائفتنا تلقى الجموع الكثيرة والجموع اليسيرة فاتبعوا سبيل المؤمنين وتضرعوا إلى رب العالمين وقولوا كما قال قوم طالوت عند لقائهم جالوت «وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ

وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» (البقرة: ٢٥٠) فلما سمع ضرار كلامهم وأنهم اشتروا الآخرة على الأولى كمن بهم عند بيت لهيا وأخفى أمره وجلس عاري الجسد بسراويله على فرس له عربي بغير سلاح وبيده قناة كاملة الطول وهو يوصي القوم.

قال الواقدي: هكذا حدثني تميم بن أوس عن جده عمرو بن دارم. قال: كنت يوم بيت لهيا ممن صحب ضرار بن الأزور - رضي الله عنه - وهو بهذه الصفة رغبة منه في الشهادة. فلما قارب العدو كان أول من برز وكبر ضرار بن الأزور قبل فأجابه المسلمون بتكبيرة واحدة رعبت منها قلوب المشركين وفاجؤوهم بالحملة ونظروا إلى ضرار بن الأزور وهو في أول القوم وهو في حالته التي وصفناها فهالهم أمره، وكان وردان في المقدمة والأعلام والصلبان مشتبكة على رأسه. فما طلب ضرار غيره لأنه علم أنه صاحبهم فحمل عليه غير مكترث به وطعن فارسًا كان في يده العلم فتجندل من على فرسه قتيلًا، ثم إنه طعن آخر في الميمنة فأرداه وحمل يريد القلب، وكان قد عاين وردان والصليب على رأسه يحمله فارس من الروم والجواهر تلمع من أربع جوانبه فعارضه

ضرار وطعن حامله طعنة عظيمة فخرج السنان يلمع من خاصرته. فسقط الصليب منكسًا إلى الأرض. فلما نظر وردان إلى الصليب أيقن بالهلاك، وهمَّ أن يترجل لأخذه أو يميل في ركابه ليأخذه فما وجد لذلك سبيلًا لما قد أحدق به وترجل عليه قوم من المسلمين ليأخذوه وقد اشتغل كل عن نفسه ونظر ضرار إلى من ترجل لأخذ الصليب. فقال: معاشر المسلمين إن الصليب لي دونكم وأنا صاحبه فلا تطمعوا فيه فإني إليه راجع إذا فرغت من كلب الروم. فسمع ذلك وردان وكان يعرف العربية فعطف من القلب يريد الهرب. فقالت البطارقة: إلى أين أيها السيد أتفر من الشيطان فما رأينا أدنى من منظره ولا أهول من مخبره؟! ونظر إليه ضرار وقد عطف راجعًا فعلم أنه قد عزم على الهرب فصاح بقومه ثم اقتحم في أثره ومد رمحه وهمز جواده فتصارخت به الروم وعطفت عليه المواكب من كل جانب فأنشد يقول:

الموت حق وأين لي منه المفر وجنة الفردوس خير المستقر
هذا قتالي فاشهدوا يا من حضر وكل هذا في رضا رب البشر

ثم اخترق القوم وحمل عليهم وحمل المسلمون في أثره فأحدقوا بهم من كل مكان، ونظروا إلى ضرار وقد قصده وردان صاحب حمص عندما علم أنه

اخترق القوم فمد إليه رمحه وقد أحدقت به بطارقته وضرار يمانع عن نفسه يمينًا وشمالًا فما طعن أحدًا إلا أباده إلى أن قتل من القوم خلقًا كثيرًا، وهو يصرخ بقومه ويقول: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ» (الصف:٤) وأكبت عليه جيوش الروم من كل جانب ومكان واشتعلت الحرب بينهم ووصل همدان بن وردان إلى ضرار بن الأزور ورماه بسهم فأصاب عضده الأيمن فوصل السهم إليه فأوهنه! وأحس ضرار بالألم فحمل على همدان وصمصم عليه برمحه وطعنه فأصاب بالطعنة فؤاده فوصل السنان إلى ظهره فجذب الرمح منه فلم يخرج، وإذا به قد اشتبك في عظم ظهره فخرج الرمح من غير سنان فطمعوا فيه وحملوا عليه وأخذوه أسيرًا! فنظر أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى ضرار وهو أسير فعظم الأمر عليهم وقاتلوا قتالًا شديدًا ليخلصوه فما وجدوا إلى ذلك سبيلًا وأرادوا الهرب. فقال رافع بن عميرة الطائي: يا أهل القرآن إلى أين تريدون؟ أما علمتم أن من ولى ظهره لعدوه فقد باء بغضب من الله، وإن الجنة لها أبواب لا تفتح إلا للمجاهدين، الصبر الصبر، الجنة الجنة، يا أهل الكتاب كروا على الكفار

عبَّاد الصلبان، وها أنا معكم في أوائلكم، فإن كان صاحبكم أسر أو قتل فإن الله حي لا يموت، وهو يراكم بعينه التي لا تنام، فرجعوا وحملوا معه...

ووصل الخبر إلى خالد أن ضرارًا قد أسر بيد الروم، وأنه قتل من الروم خلقًا كثيرًا فعظم ذلك على خالد، وقال: في كم العدو؟ قالوا: في اثني عشر ألف فارس. فقال: والله ما ظننت إلا أنهم في عدد يسير، ولقد غررت بقومي، ثم سأل عن مقدمهم من يكون؟ فقيل وردان صاحب حمص، وقد قتل ضرار ولده همدان، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم أرسل إلى أبي عبيدة يستشيره فبعث إليه أبو عبيدة يقول له: اترك على الباب الشرقي من تثق به وسر إليهم فإنك تطحنهم بإذن الله تعالى. فلما وصل الجواب إلى خالد قال: والله ما أنا ممن يبخل بنفسه في سبيل الله ثم أوقف بالمكان ميسرة بن مسروق العبسي – رضي الله عنه – ومعه ألف فارس، وقال له: احذر أن تنفذ من مكانك. فقال ميسرة: حبًا وكرامة، وعطف خالد بالناس، وقال لهم: أطلقوا الأعنة وقوِّموا الأسنة فإذا أشرفتم على العدو فاحملوا حملة واحدة ليخلص فيها ضرار إن شاء

الله تعالى إن كانوا أبقوا عليه، والله إن كانوا عجلوا عليه لنأخذن بثأره إن شاء تعالى وأرجو أن لا يفجعنا به، ثم تقدم أمام القوم وجعل يقول:

اليـــوم فــاز فـيــه مــن صـــــدق | لا أرهـب الموت إذا الموت طرق
لأرويـن الـرمـح مـن ذوي الـحـدق | لأهـتـكـن الـبـيـض هـتـكًا والـدرق
عســـى أرى غـدًا مقـام من صـــدق | في جنـة الخلـد وألقى من ســـبق

خولة بنت الأزور

فبينما خالد يترنم بهذه الأبيات، إذ نظر إلى فارس على فرس طويل وبيده رمح طويل وهو لا يبين منه إلا الحدق والفروسية تلوح من شمائله وعليه ثياب سود وقد تظاهر بها من فوق لأمته وقد حزم وسطه بعمامة خضراء وسحبها على صدره ومن ورائه وقد سبق أمام الناس كأنه نار، فلما نظره خالد قال: ليت شعري من هذا الفارس وايم الله إنه لفارس شجاع؟! ثم اتبعه خالد والناس، وكان هذا الفارس أسبق الناس إلى المشركين. وكان رافع بن عميرة الطائي – رضي الله عنه – في قتال المشركين وقد صبر لهم هو ومن معه إذ نظر خالدًا وقد أنجده هو ومن معه من المسلمين، ونظر إلى الفارس الذي وصفناه وقد حمل

على عساكر الروم كأنه النار المحرقة فزعزع كتائبهم وحطم مواكبهم، ثم غاب في وسطهم فما كانت إلا جولة الجائل حتى خرج وسنانه ملطخ بالدماء من الروم، وقد قتل رجالًا وجندل أبطالًا وقد عرض نفسه للهلاك، ثم اخترق القوم غير مكترث بهم ولا خائف وعطف على كراديس الروم في الناس وكثر قلقهم عليه، فأما رافع بن عميرة ومن معه فما ظنوا إلا أنه خالدًا وقالوا: ما هذه الحملات إلا لخالد!! فهم على ذلك إذ أشرف عليهم - رضي الله عنه - وهو في كبكبة من الخيل، فقال رافع بن عميرة: من الفارس الذي تقدم أمامك فلقد بذل نفسه ومهجته؟! فقال خالد: والله إنني أشد إنكارًا منكم له ولقد أعجبني ما ظهر منه ومن شمائله. فقال رافع: أيها الأمير إنه منغمس في عسكر الروم يطعن يمينًا وشمالًا. فقال خالد: معاشر المسلمين احملوا بأجمعكم وساعدوا المحامي عن دين الله.

فأطلقوا الأعنة وقوموا الأسنة والتصق بعضهم ببعض وخالد أمامهم إذ نظر إلى الفارس وقد خرج من القلب كأنه شعلة نار والخيل في أثره، وكلما لحقت به الروم لوى عليهم وجندل، فعند ذلك حمل خالد ومن معه ووصل الفارس

المذكور إلى جيش المسلمين. فتأملوه فرأوه قد تخضب بالدماء فصاح خالد والمسلمون: لله درك من فارس بذل مهجته في سبيل الله وأظهر شجاعته على الأعداء، اكشف لنا عن لثامك. فمال عنهم ولم يخاطبهم وانغمس في الروم فتصايحت به الروم من كل جانب وكذلك المسلمون، وقالوا: أيها الرجل الكريم، أميرك يخاطبك وأنت تعرض عنه اكشف عن اسمك وحسبك لتزداد تعظيمًا فلم يرد عليهم جوابًا، فلما بعد عن خالد سار إليه بنفسه وقال له: ويحك لقد شغلت قلوب الناس وقلبي بفعلك، من أنت؟ فلما لج عليه خالد خاطبه الفارس من تحت لثامه بلسان التأنيث، وقال: إنني يا أمير لم أعرض عنك إلا حياء منك لأنك أمير جليل وأنا من ذوات الخدور وبنات الستور، وإنما حملني على ذلك أني محرقة الكبد زائدة الكمد. فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا خولة بنت الأزور أخت ضرار المأسور بيد المشركين، وإني كنت مع بنات العرب وقد أتاني الساعي بأن ضرار أسير فركبت وفعلت ما فعلت. قال خالد: نحمل بأجمعنا ونرجو من الله أن نصل إلى أخيك فنفكه.

قال عامر بن الطفيل: كنت عن يمين خالد بن الوليد حين حملوا وحملت خولة أمامه وحمل المسلمون وعظم على الروم ما نزل بهم من خولة بنت الأزور وقالوا: إن كان القوم كلهم مثل هذا الفارس فما لنا بهم من طاقة. ولما حمل خالد ومن معه إذا بالروم قد اضطربت جيوشهم ونظر وردان إليهم فقال لهم: اثبتوا للقوم فإذا رأوا ثباتكم ولوا عنكم ويخرج أهل دمشق يعينونكم على قتالهم. فثبت المسلمون لقتال الروم وحمل خالد بالناس حملة منكرة وفرق القوم يمينًا وشمالًا وقصد خالد مكان صاحبهم وردان عند اشتباك الأعلام والصلبان وإذا حوله أصحاب الحديد والزرد النضيد وهم محدقون به، فحمل خالد عليهم حملة منكرة واشتبك المسلمون بقتال الروم وكل فرقة مشغولة بقتال صاحبها. وأما خولة بنت الأزور فإنها جعلت تجول يمينًا وشمالًا وهي لا تطلب إلا أخاها وهي لا ترى له أثرًا ولا وقفت له على خبر إلى وقت الظهر وافترق القوم بعضهم عن بعض وقد أظهر الله المسلمين على الكافرين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة. وتراجعت كل فرقة إلى مكانها وقد كمدت أفئدة الروم بما ظهر لهم من المسلمين وقد همُّوا بالهزيمة وما يمسكهم إلا الخوف من صاحبهم وردان، فلما رجع القوم إلى مكانهم أقبلت خولة بنت الأزور على

المسلمين وجعلت تسألهم رجلًا رجلًا عن أخيها فلم تر من المسلمين من يخبرها أنه نظره أو رآه أسيرًا أو قتيلًا.

فلما يئست منه بكت بكاءًا شديدًا وجعلت تقول: يا ابن أمي ليت شعري في أي البيداء طرحوك أم بأي سنان طعنوك أم بالحسام قتلوك، يا أخي أختك لك الفداء لو أني أراك أنقذتك من أيدي الأعداء، ليت شعري أترى أنِّي أراك بعدها أبدًا؟! فقد تركت يا ابن أمي في قلب أختك جمرة لا يخمد لهيبها ولا يطفأ، ليت شعري لحقت بأبيك المقتول بين يدي النبي - صلى الله عليه وسلم - فعليك مني السلام إلى يوم اللقاء. فبكى الناس من قولها وبكى خالد وهمَّ أن يعاود بالحملة إذ نظر إلى كردوس من الروم قد خرج من ميمنة العقبان فتأهب الناس لحربهم وتقدم خالد وحوله أبطال المسلمين. فلما قربوا من القوم رموا رماحهم من أيديهم والسيوف وترجلوا ونادوا بالأمان. فقال خالد: اقبلوا أمانهم وائتوني بهم فأتوا إليه. فقال خالد: من أنتم؟ فقالوا: نحن من جند هذا الرجل وردان ومقامنا بحمص وقد تحقق عندنا أنه ما يطيقكم ولا يستطيع حربكم فأعطونا

الأمان واجعلونا من جملة من صالحتم من سائر المدن حتى نؤدي لكم المال الذي أردتم في كل سنة، فكل من في حمص يرضى بقولنا.

فقال خالد: إذا وصلت إلى بلادكم يكون الصلح إن شاء الله تعالى إن كان لكم فيه أرب، ولكن نحن هاهنا لا نصالحكم ولكن كونوا معنا إلى أن يقضي الله ما هو قاض! ثم إن خالدًا قال لهم: هل عندكم علم عن صاحبنا الذي قتل ابن صاحبكم؟ قالوا: لعله عاري الجسد الذي قتل منا مقتلة عظيمة وفجع صاحبنا في ولده. قال خالد: عنه سألتكم. قالوا: بعثه وردان عندنا أسيرًا على بغل ووكل به مائة فارس وأنفذه إلى حمص ليرسله إلى الملك ويخبره بما فعل. قال ففرح خالد بقولهم، ثم دعا برافع بن عميرة الطائي وقال: يا رافع ما أعلم أحدًا أخبر منكم بالمسالك وأنت الذي قطعت بنا المفازة من أرض السماوة وأعطشت الإبل وأوردتها الماء وأوردتنا أركة وما وطئها جيش قبلنا لمفازتها، وأنت أوحد أهل الأرض في الحيل والتدبير فخذ معك من أحببت واتبع أثر القوم فلعلك أن تلحق بهم وتخلص صاحبنا من أيديهم، فلئن فعلت ذلك لتكونن الفرحة الكبرى. فقال رافع بن عميرة: حبًا وكرامة، ثم إنه في الحال

انتخب مائة فارس شدادًا من المسلمين وعزم على المسير فأتت البشارة إلى خولة بمسير رافع بن عميرة ومن معه في طلب أخيها ضرار فتهلل وجهها فرحًا وأسرعت إلى لبس سلاحها وركبت جوادها وأتت إلى خالد بن الوليد، ثم قالت له: أيها الأمير سألتك بالله إلا ما سرَّحتني مع من سرَّحت فلعلي أن أكون مشاهدة لهم. فقال خالد لرافع: أنت تعلم شجاعتها فخذها معك. فقال له رافع: السمع والطاعة.

وارتحل رافع ومن معه، وسارت خولة في أثر القوم ولم تختلط بهم، وسار إلى أن قرب من «سليمة» فنظر رافع فلم يجد للقوم أثرًا. فقال لأصحابه: أبشروا فإن القوم لم يصلوا إلى هاهنا، ثم إنه كمن بهم في وادي الحياة، فبينما هم كامنون إذا بغبرة قد لاحت. فقال رافع لأصحابه: أيقظوا خواطركم وانتبهوا، فأيقظ القوم هممهم وبقوا في انتظار العدو وإذا بهم قد أتوا وهم محدقون بضرار، فلما رأى رافع ذلك كبر وكبر المسلمون معه وحملوا عليهم فلم يكن غير ساعة حتى خلص الله ضرارًا وقتلوهم جميعًا وأخذوا سلبهم. وإذا بعساكر

الروم قد أقبلت منهزمة وأولهم لا يلتفت إلى آخرهم، فعلم رافع أن القوم انهزموا فأقبل يلتقطهم بمن معه.

وكان خالد لما أرسل رافع بن عميرة في طلب ضرار ليخلصه ومعه المائة فارس صدم وردان صدمة من يحب الشهادة ويبتغي دار السعادة وصدم المسلمون الروم، فما لبثوا أن ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وكان أولهم وردان واتبعهم المسلمون وأخذوا أسلابهم وأموالهم ولم يزالوا في طلبهم إلى وادي الحياة، فاجتمع المسلمون برافع بن عميرة الطائي وضرار بن الأزور وسلموا عليهم وفرحوا بضرار - رضي الله عنه - وهنأوه بالسلامة. وأثنى خالد على رافع خيرًا ورجعوا إلى دمشق وفرح المسلمون بالنصر واتصل الخبر إلى الملك هرقل أن وردان قد انهزم وقتل ولده همدان. فأيقن بزوال ملكه من الشام فكتب إلى وردان كتابًا يقول فيه: أما بعد فإني قد بلغني أن جياع الأكباد عراة الأجساد قد هزموك وقتلوا ولدك رحمه المسيح ورحمك، ولولا أني أعلم أنك فارس الحرب ومجيد الطعن والضرب وليس النصر آتيك لحل عليك سخطي والآن مضى ما مضى، وقد بعثت إلى أجنادين تسعين ألفًا، وقد أمَّرتك عليهم

فسر نحوهم وانجد أهل دمشق وأنفذ بعضهم ليمنعوا من في فلسطين من العرب وحل بينهم وبين أصحابهم وانصر دينك وصاحبك. وأنفذ إليه الكتاب مع خيل البريد، فلما ورد عليه الكتاب وقرأه سُرِّيَ عنه بعض ما كان يجده وأخذ الأهبة إلى أجنادين فسار فوجد الروم قد تجمعوا وأظهروا العدد والزرد وخرجوا إلى لقائه وسلموا عليه وتقدموا بين يديه وعزوه في ولده، فلما استقر قراره قرأ عليهم منشور الملك فأجابوا بالسمع والطاعة وأخذوا على أنفسهم.

حدثني روح بن طريف قال: كنت مع خالد بن الوليد على باب شرقي حين رجعنا من هزيمة وردان وإذ قد ورد علينا عباد بن سعد الحضرمي، وكان قد بعثه شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من بصرى يعلم خالدًا بمسير الروم إليه من أجنادين في تسعين ألف فارس فخذ أهبتك للقائهم. فلما سمع خالد ذلك ركب إلى أبي عبيدة وقال له: يا أمين الأمة هذا عباد بن سعد الحضرمي قد بعث به شرحبيل بن حسنة يخبر أن طاغية الروم هرقل قد ولى وردان على من تجمع بأجنادين من الروم وهم تسعون ألفًا فما ترى من الرأي يا صاحب رسول الله؟ فقال أبو عبيدة: اعلم يا أبا سليمان أن

أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – متفرقون مثل شرحبيل بن حسنة بأرض بصرى، ومعاذ بن جبل بحوران، وبزيد بن أبي سفيان بالبلقاء، والنعمان بن المغيرة بأرض تدمر وأركة، وعمرو بن العاص بأرض فلسطين، والصواب أن تكتب إليهم ليقصدونا حتى نقصد العدو ومن الله نطلب المعونة والنصر. قال فكتب خالد إلى عمرو بن العاص كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فإن إخوانكم المسلمين قد عوَّلوا على المسير إلى أجنادين فإن هناك تسعين ألفًا من الروم يريدون المسير إلينا «يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» (الصف:٨)، فإذا وصل إليك كتابي هذا فاقدم علينا بمن معك إلى أجنادين تجدنا هناك إن شاء الله تعالى والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته، وكتب نسخة الكتاب إلى جميع الأمراء الذين ذكرناهم ثم أمر الناس بالرحيل فرفعت القباب والهوادج على ظهور الجمال وساقوا الغنائم والأموال.

فقال خالد لأبي عبيدة: قد رأيت رأيًا أن أكون على الساقة مع الغنائم والأموال والبنين والولدان وكن أنت على المقدمة مع خاصة أصحاب رسول

الله – صلى الله عليه وسلم –. فقال أبو عبيدة: بل أكون أنا على الساقة وأنت على المقدمة مع الجيش. فإن وصل إليك جيش الروم مع وردان يجدوك على أهبة فتمنعهم من الوصول إلى الحريم والأولاد فلا يصلون إلينا إلا وأنت قتلت فيهم وإلا كنت أنا ومن معي غنيمة لهم إذا كنت أنا في المقدمة. فقال خالد: لست أخالفك فيما ذكرت. ثم إن خالدًا قال: أيها الناس إنكم سائرون إلى جيش عظيم فأيقظوا هممكم، وإن الله وعدكم النصر وقرأ عليهم قوله تعالى: «كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» (البقرة:٢٤٩). ثم إن خالدًا أخذ الجيش وسار في المقدمة وبقي أبو عبيدة في ألف من المسلمين، ونظر إلى ذلك أهل دمشق فعطفوا عليهم وأقبلوا بسيوفهم وهم يظنون أنهم منهزمون لأجل ما بلغهم من الجيش العظيم الذي هو بأجنادين. فقال لهم عقلاؤهم: إن كانوا سائرين على طريق بعلبك فإنهم يريدون فتحها وفتح حمص، وإن كانوا على طريق مرج راهط فالقوم لاشك هاربون إلى الحجاز ويتركون ما أخذوا من البلاد.

وكان بدمشق بطريق يقال له بولص وكان عظيمًا عند النصرانية، وكان إذا قدم على الملك يعظِّمه، وكان الملعون فارسًا وذلك أنهم كان عندهم شجرة فرماها بسهم فغاص السهم في الشجرة من قوة ساعده. ثم إن من عجبه كتب عليها: إن كل من يدَّعي الشجاعة فليرم بسهمه إلى جانب سهمي! وكان قد شاع ذكره بذلك ولم يحضر قتال المسلمين منذ دخلوا دمشق، فلما اجتمعوا عليه قال لهم بولص: ما الذي حل بكم؟ فأعلموه بما جرى عليهم من المسلمين وقالوا له: إن كنت تريد حياة الأبد عند الملك وعند المسيح وعند أهل دين النصرانية فدونك والمسلمين فاخرج إليهم واخطف كل من تخلف منهم، وإن رأيت لنا فيهم مطمعًا قاتلناهم. فقال بولص: إنما كان سبب تخلفي عن نصرتكم لأنكم قليلو الهمة لقتال عدوكم فتخلفت عنكم والآن لا حاجة لي في قتال العرب. فقالوا: وحق المسيح والإنجيل الصحيح لئن سرت في مقدمتنا لنثبتن معك وما منا من يولي عنك وقد حكمناك فيمن ينهزم أن تضرب عنقه ولا يعارضك في ذلك أحد. فلما استوثق منهم دخل إلى منزله ولبس لأمته. فقالت له زوجته: إلى أين عزمت؟ قال: أخرج في أثر العرب فقد ولآني أهل دمشق عليهم. فقالت: لا تفعل والزم بيتك ولا تطلب ما ليس لك به حاجة فإني

رأيت لك في المنام رؤيا. فقال لها: وما الذي رأيت؟ قالت: رأيتك كأنك قابض قوسك وأنت ترمي طيورًا وقد سقط بعضها على بعض، ثم عادت صاعدة فبينما أنا متعجبة إذ أقبلت نحوك سحابة من الجو فانقضت عليك من الهواء وعلى من معك فجعلت تضرب هاماتهم ثم وليتم هاربين، ورأيتها لا تضرب أحدًا إلا صرعته ثم إني انتبهت وأنا مذعورة باكية العين عليك. فقال لها: ومع ذلك رأيتني فيمن صرع. قالت: نعم وقد صرعك فارس عظيم. فلطم وجهها وقال: لا بَشَّركِ المسيح بخير لقد دخل رعب العرب في قلبك حتى صرت تحلمين بهم في النوم فلابد أن اجعل لك أميرهم خادمًا وأجعل أصحابه رعاة الغنم والخنازير. فقالت له زوجته: افعل ما تريد فقد نصحتك. فلم يلتفت إلى كلامها وخرج من عندها وركب وسار معه من كان في دمشق من الروم، فعرضهم فإذا هم ستة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل من أهل النجدة والحمية وسار يطلب القوم.

معركة حول دمشق

وكان حنا أسد في المقدمة وأبو عبيدة يمشي مع الأموال والأغنام والجمال إذ نظر رجل من أصحابه، وهو يتأمل الغبرة من ورائهم، فسأله أبو عبيدة عن ذلك فقال: أظنها غبرة القوم. فقال أبو عبيدة: إن أهل الشام قد طمعوا فينا، وهذا العدو قاصد إلينا. فما استتم كلامه حتى بدت الخيل كأنها السيل وبولص في أوائلهم. فلما نظر إلى أبي عبيدة قصد ومعه الفرسان وأخوه بطرس قصد الحريم والمال فاقتطعوا منها قطعة. فلما احتوى عليها رجع بها بطرس نحو دمشق. فلما بعد جلس هناك لينظر ما يكون من أمر أخيه. وأما أبو عبيدة فإنه لما نظر إلى ما فاجأه من الروم. قال: والله لقد كان الصواب مع خالد لما قال دعني في الساقة فلم أدعه وإنه قد وصل إليه بولص وقصده والأعلام والصلبان على رأسه مشتبكة والنساء يولولن والصبيان يصيحون! والألف من المسلمين قد اشتغلوا بالقتال، وقد قصد عدو الله بولص أبا عبيدة واشتدت بينهم الحرب ووقع القتال بين أصحابه والروم وارتفعت الغبرة عليهم وهم في كرٍّ وفرٍّ على أرض سحورا. وقد بُلِيَ أبو عبيدة بالقتال وصبر صبر الكرام.

قال سهيل بن صباح: وكان تحتي جواد محجل من خيل اليمن شهدت عليه اليمامة فقومت السنان وأطلقت العنان فخرج كأنه الريح العاصف، فما كان غير بعيد حتى لحقت بخالد بن الوليد والمسلمين فأقبلت إليهم صارخًا وقلت: أيها الأمير أدرك الأموال والحريم. فقال خالد: ما وراءك يا ابن الصباح؟ فقلت: أيها الأمير الحق أبا عبيدة والحريم فإن نفير دمشق قد لحق بهم، وقد اقتطعوا قطعة من النسوان والولدان وقد بلى أبو عبيدة بما لا طاقة لنا به. فلما سمع خالد ذلك الكلام من سهيل بن صباح قال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، قد قلت لأبي عبيدة دعني أكون على الساقة، فما طاوعني ليقضي الله أمرًا كان مفعوّلًا، ثم أمر رافع بن عميرة على ألف من الخيل وقال له: كن في المقدمة! وأمر عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق على ألفين وقال له: أدرك العدو، وسار خالد في أثره ببقية الجيش.

فبينما أبو عبيدة في القتال مع بولص -لعنه الله- إذ تلاحقت به جيوش المسلمين وحملوا على أعداء الله وداروا بهم من كل مكان، فعند ذلك تنكست الصلبان، وأيقن الروم بالهوان، وتقدم ضرار بن الأزور كأنه شعلة نار وقصد

نحو بولص. فلما رآه عدو الله تبلبل خاطره ووقعت الرعدة في فرائصه، وقال لأبي عبيدة: يا عربي وحق دينك إلا ما قلت لهذا الشيطان يبعد عني وكان بولص قد سمع به ورآه من سور دمشق وما صنع بعسكر كلوس وعزازير وسمع بفعاله في بيت لاهيا، فلما رآه مقبلًا إليه عرفه. فقال لأبي عبيدة: قل لهذا الشيطان لا يقربني! فسمعه ضرار - رضي الله عنه - فقال له: أنا شيطان إن قصرت عن طلبك، ثم إنه فاجأه وطعنه، فلما رأى بولص أن الطعنة واصلة إليه رمى نفسه عن جواده وطلب الهرب نحو أصحابه فسار ضرار في طلبه. وقال له: أين تروح من الشيطان وهو في طلبك؟ ولحقه وهمَّ أن يعلوه بسيفه. فقال بولص: يا بدوي ابق عليَّ ففي بقائي بقاء أولادكم وأموالكم. فلما سمع ضرار قوله أمسك عن قتله وأخذه أسيرًا، هذا والمسلمون قد قتلوا من الروم مقتلة عظيمة.

عن أبي رفاعة بن قيس قال: كنت يوم وقعة سحورا مع المسلمين وكنت في خيل عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -. فدرنا بالروم من كل جانب وبذلنا أسيافنا في القوم، وكانوا ستة كتائب في كل كتيبة ألف فارس. قال رفاعة بن قيس: فوالله لقد حملنا يوم فتح دمشق وأنه ما رجع منهم فوق المائة

ووجه خبر لضرار أن خولة مع النسوان المأسورات فعظم ذلك عليه وأقبل على خالد وأعلمه بذلك، فقال له خالد: لا تجزع، لقد أسرنا منهم خلقًا كثيرًا، وقد أسرت أنت بولص صاحبهم وسوف نخلص من أسر من حريمنا ولابد لنا من دمشق في طلبهم، ثم أمر خالد أن يسيروا بالناس على مهل حتى ننظر ما يكون من أمر حريمنا. ثم إنه سار في ألف فارس جريدة وبعث العسكر كله إلى أبي عبيدة مخافة أن يلحقهم وردان بجيوشه فسار القوم وتوجه خالد بمن معه في طلب المأسورات، وقد قدم أمامه رافع بن عميرة الطائي وميسرة بن مسروق العبسي وضرار بن الأزور.

سمعت حبيب بن مصعب يقول: لما اقتطعوا من ذكرنا من نساء العرب سار بهم بطرس أخو بولص إلى أن نزل بهم إلى النهر الذي ذكرناه، ثم قال بطرس: أنا لا أبرح من هاهنا حتى أنظر ما يكون من أمر أخي، ثم إنه عرض عليه النساء المأسورات فلم يعجبه منهن إلا خولة بنت الأزور أخت ضرار. قال بطرس: هذه لي وأنا لها لا يعارضني فيها أحد، فقال له أصحابه: هي لك وأنت لها. وكل من سبق إلى واحدة يقول هي لي حتى قسَّموا الغنيمة على ذلك، ووقفوا

ينتظرون ما يكون من أمر بولص وأصحابه. وكان في النساء عجائز من حمير وتبع من نسل العمالقة والتابعة وكن قد اعتدن ركوب الخيل فقالت لهن خولة بنت الأزور: يا بنات حمير بقية تبع أترضين بأنفسكن علوج الروم، ويكون أولادكن عبيدًا لأهل الشرك، فأين شجاعتكنَّ وبراعتكنَّ التي نتحدث بها عنكن في أحياء العرب ومحاضر الحضر ولا أراكنَّ إلا بمعزل عن ذلك؟! وإني أرى القتل عليكنَّ أهون من هذه المصائب وما نزل بكنَّ من خدمة الروم الكلاب!

فقالت عفرة بنت غفار الحميرية: صدقت والله يا بنت الأزور! نحن في الشجاعة كما ذكرت، وفي البراعة كما وصفت، لنا المشاهد العظام والمواقف الجسام، ووالله لقد اعتدنا ركوب الخيل وهجوم الليل غير أن السيف يحسن فعله في مثل هذا الوقت، وإنما دهمنا العدو على حين غفلة، وما نحن إلا كالغنم، فقالت خولة: يا بنات التبابعة والعمالقة خذوا أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب ونحمل بها على هؤلاء اللئام فلعل الله ينصرنا عليهم أو نستريح من معرة العرب، فقالت عفرة بنت غفار والله ما دعوت إلا إلى ما هو أحب إلينا مما ذكرت، ثم تناولت كل واحدة عمودًا من أعمدة الخيام وصحن صيحة واحدة

وألقت خولة على عاتقها عمود الخيمة وسعت من ورائها عفرة وأم أبان بنت عتبة وسلمة بنت زارع ولبنى بنت حازم ومزروعة بنت عملوق وسلمة بنت النعمان، ومثل هؤلاء رضي الله عنهن.

فقالت لهن خولة: لا ينفك بعضكن عن بعض، وكنَّ كالحلقة الدائرة ولا تتفرقن فتملكن فيقع بكنَّ التشتيت وحطمن رماح القوم واكسرن سيوفهم. فهجمت خولة أمامهن، فأول ما ضربت رجلًا من القوم على هامته بالعمود فتجندل صريعًا والتفت الروم ينظرون ما الخبر، فإذا هم بالنسوة، وقد أقبلن والعمد بأيديهنَّ فصاح بطريق: يا ويلكنَّ ما هذا؟ فقالت عفرة: هذه فعالنا فلنضربنَّ القوم بهذه الأعمدة ولابد من قطع أعماركم وانصرام آجالكم يا أهل الكفر. فجاء بطرس وقال: تفرَّقوا عن النسوة ولا تبذلوا فيهنَّ السيوف ولا أحد منكم يقتل واحدة منهنَّ وخذوهنَّ أسارى ومن وقع منكم بصاحبتي فلا ينلها بمكروه، فتفرق القوم عليهنَّ وحدقوا بهنَّ من كل جانب وراموا الوصول إليهنَّ فلم يجدوا إلى ذلك سبيلًا ولم تزل النساء لا يدنو إليهنَّ أحد من الروم إلا

ضربنَ قوائم فرسه فإذا تنكَّس عن جواده بادرت النساء بالأعمدة فيقتلنه ويأخذن سلاحه..

قال الواقدي: ولقد بلغني أن النسوة قتلن ثلاثين فارسًا من الروم، فلما نظر بطرس إلى ذلك غضب غضبًا شديدًا وترجل وترجلت أصحابه نحو النساء، والنساء تحرض بعضهن بعضًا ويقلن متن كرامًا ولا تمتن لئامًا، وأظهر بطرس رأسه وتلهفه عندما نظر إلى فعلهن، ونظر إلى خولة بنت الأزور، وهي تجول كالأسد وتقول:

نحن بنات تبع وحمير ... وضربنا في القوم ليس ينكر

لأننا في الحرب نار تسعر ... اليوم تسقون العذاب الأكبر

فلما سمع بطرس ذلك من قولها، ورأى حسنها وجمالها، قال لها: يا عربية أقصري عن فعالك فإنِّي مكرمك بكل ما يسرك! أما ترضينَ أن أكون أنا مولاك وأنا الذي تهابني أهل النصرانية ولي ضياع ورساتيق وأموال ومواش ومنزلة عند الملك هرقل، وجميع ما أنا فيه مردود إليك! أما ترضين أن تكوني سيدة أهل دمشق، فلا تقتلي نفسك؟! فقالت له: يا ملعون ويا ابن ألف ملعون والله لئن

ظفرت بك لأقطعن رأسك! والله ما أرضى بك أن ترعى لي الإبل فكيف أرضاك أن تكون لي كفؤًا؟! فلما سمع كلامها حرَّض أصحابه على القتال، وقال: أترون عارًا أكبر من هذا في بلاد الشام أن النسوة غلبنكم؟! فاتقوا غضب الملك.

فافترق القوم وحملوا حملة عظيمة وصبر النساء لهم صبر الكرام، فبينما هم على ذلك إذ أقبل خالد بن الوليد - رضي الله عنه - ومن معه من المسلمين، ونظروا إلى الغبار وبريق السيوف، فقال لأصحابه: من يأتيني بخبر القوم؟ فقال رافع بن عميرة الطائي: أنا آتيك به. ثم أطلق جواده حتى أشرف على النسوة وهنَّ يقاتلن قتال الموت فرجع وأخبر خالدًا بما رأى، فقال خالد: لا أعجب من ذلك إنهنَّ من نسل التبابعة، وما بينهن وبين تبع إلا قرن واحد، وتبع بن بكر بن حسان الذي ذكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل ظهوره، وشهد له بالرسالة قبل أن يبعث، وقال:

شهدت بأحمد أنه رسول ... من الله بارئ كل النسم
وأمَّته سميت في الزبور ... بأمة أحمد خير الأمم
فلو مد عمري إلى عصره ... لكنت وزيرًا له وابن عم

بطولة النساء

قال خالد: لا تعجب يا رافع واعلم أن هؤلاء النسوة لهن الحروب المذكورات والمواقف المشهورات وإن يكن فعلهن ما ذكرت، فلقد سدن على نساء العرب إلى آخر الأبد، وأزلن عنهن العار، فتهللت وجوه النساء فرحًا ووثب ضرار بن الأزور عندما سمع كلام رافع، فقال خالد: مهلًا يا ضرار ولا تعجل فإنه من تأنى نال ما تمنى. فقال ضرار: أيها الأمير لا صبر لي عن نصرة بنت أبي وأمي، فقال خالد: قد قرب الفرج إن شاء الله تعالى. ثم إن خالدًا وثب ووثب أصحابه، وقال معاشر الناس إذا وصلتم إلى القوم فتفرقوا عليهم وأحدقوا بهم، فعسى أن نخلِّص حريمنا. فقالوا: حبًا وكرامةً. ثم تقدَّم خالد. فبينما القوم في قتال شديد مع النسوة إذ أشرفت عليهم المواكب والكتائب والأعلام والرايات، فصاحت خولة: يا بنات التبابعة قد جاءكم الفرج ورب الكعبة!

ونظر بطرس إلى الكتائب المحمدية وقد أشرفت فخفق فؤاده وارتعدت فرائصه، وأقبل القوم ينظر بعضهم بعضًا. فصاح بطرس: يا معاشر النسوة إن

الشفقة والرحمة قد دخلت في قلبي، لأن لنا أخوات وبنات وأمهات، وقد وهبتكن للصليب. فإذا قدم رجالكن فأخبروهن بذلك. ثم عطف يريد الهرب إذ نظر إلى فارسين قد خرجا من قلب العسكر، أحدهما قد تكمى في سلاحه والآخر عاري الجسد، وقد أطلقا عنانهما كأنهما أسدان وكانا خالدًا وضرارًا، فلما رأت خولة أخاها قالت له: إلى أين يا ابن أمي أقبل؟ فصاح بها بطرس انطلقي إلى أخيك فقد وهبتك له، ثم ولى يطلب الهرب. فقالت له خولة وهي تهزأ به: ليس هذا من شيم الكرام! تظهر لنا المحبة والقرب، ثم تظهر الساعة الجفاء والتباعد! وخطت نحوه. فقال: قد زال عنى ما كنت أجد من محبتك. فقالت له خولة: لابد لي منك على كل حال، ثم أسرعت إليه، وقد قصده ضرار. فقال له بطرس: خذ أختك عنى فهي مباركة عليك وهي هدية منى إليك. فقال له ضرار: قد قبلت هديتك وشكرتها، وإني لا أجد لك على ذلك إلا سنان رمحي فخذ هذه منِّي إليك. ثم حمل عليه ضرار، وهو يقول: «وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا» (النساء:٨٦)، ثم همهم إليه بالطعنة ووصلت إليه خولة فضربت قوائم فرسه فكبا به الجواد، ووقع عدو الله على الأرض فأدركه ضرار قبل سقوطه وطعنه في خاصرته فأطلع السنان من

الجانب الآخر، فتجندل صريعًا إلى الأرض، فصاح به خالد: لله درك يا ضرار هذه طعنة لا يخيب طاعنها! ثم حملوا في أعراض القوم وجميع المسلمين معهم؛ فما كانت إلا جولة جائل حتى قتل من الروم ثلاثة آلاف رجل.

قال حامد بن عامر اليربوعي: لقد عددت لضرار بن الأزور في ذلك اليوم ثلاثين قتيلًا، وقتلت خولة خمسة، وعفراء بنت غفار الحميرية أربعة. وانهزم بقية القوم ولم يزالوا في إدبارهم والمسلمون على أثرهم، إلى أن وصلوا إلى دمشق، فلم يخرج إليهم أحد بل زاد فزعهم واشتد الأمر عليهم، فرجع المسلمون وجمعوا الغنائم والخيل والسلاح والأموال. ثم قال خالد: الحقوا بأبي عبيدة لئلا يكون وردان وجيوشه قد لحقوا به، فسار ضرار والقوم، وقيل جعل ضرار رأس البطريق على سنان رمحه، ولم يزل القوم سائرين إلى أن لحقوا بأبي عبيدة في مرج الصفر، وقد تخلف أبو عبيدة حتى أشرف المسلمون عليه فكبر وكبر خالد بن الوليد – رضي الله عنه – ومعه المسلمون. فلما اجتمع الناس سلم بعضهم على بعض ورأوا المأسورات وقد خلصن، وأخبر خالد أبا عبيدة بما فعلت خولة وعفرة وغيرهن من الصحابيات، فاستبشر بنصر الله

وعلموا أن الشام لهم. ثم دعا خالد ببولص فقال له: أسلم وإلا فعلت بك كما فعلت بأخيك! فقال له: وما الذي صنعت بأخي؟ قال: قتلته، وهذه رأسه، ورماها ضرار قدامه. فلما رأى رأس أخيه بكى، وقال له: لا بقاء لي بعده حيًا، فألحقوني به. فقام له المسيب بن نجبة الفزاري – رضي الله عنه – فضرب عنقه بأمر خالد ثم رحل القوم.

حدثنا سعيد بن مالك قال: لما بعث خالد الكتب إلى شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وإلى يزيد بن أبي سفيان وإلى عمرو بن العاص قرأ كل واحد من الأمراء كتابه. قال فساروا بأجمعهم إلى أجنادين لعون إخوانهم وجاءوا بعددهم وعديدهم. قال سفينة مولى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: كنت في خيل معاذ بن جبل، فلما أشرفنا بأجمعنا على أجنادين كنا كلنا على سيارة واحدة في يوم واحد، وذلك في شهر صفر سنة ٢٠ من الهجرة وتبادر المسلمون يسلم بعضهم على بعض، ورأينا جيوش الروم في عدد لا يحصى. فلما أشرفنا عليهم أظهروا لنا زينتهم وعددهم واصطفوا مواكب وكتائب ومدوا صفوفهم، فكانوا ستين صفًا في كل صف ألف فارس،

قال الضحاك بن عروة: والله لقد دخلنا العراق ورأينا جنود كسرى فما رأينا أكثر من جنود الروم ولا أكثر من عددهم وسلاحهم. فنزلنا بإزائهم فلما كان من الغد بادرت الروم نحونا. قال الضحاك: فلما رأيناهم، وقد ركبوا أخذنا على أنفسنا وتأهبنا، وأن خالدًا ركب، وجعل يتخلل الصفوف: ويقول: اعلموا أنكم لستم ترون للروم جيشًا مثل هذا اليوم، فإن هزمهم الله على أيديكم فما يقوم لهم بعدها قائمة أبدًا فاصدقوا في الجهاد وعليكم بنصر دينكم وإياكم أن تولوا الأدبار فيعقبكم ذلك دخول النار وأقرنوا المواكب ومكنوا المضارب ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة وأيقظوا هممكم.

قال الواقدي: ولقد بلغني ممن أثق به أن وردان لما رأى أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد أجمعوا وعوَّلوا على حربهم جمع إليه الملوك والبطارقة وقال لهم: يا بني الأصفر اعلموا أن الملك يعوَّل عليكم، وإذا انكسرتم لا تقوم لكم بعدها قائمة أبدًا وتملك العرب بلادكم وتسبي حريمكم فعليكم بالصبر ولتكن حملتكم واحدة ولا تتفرقوا واعلموا أن كل ثلاثة منا بواحد منهم واستعينوا بالصليب ينصركم، فهذا ما كان من هؤلاء. وأما خالد –

رضي الله عنه – فإنه مشى على أصحابه وقال: معاشر المسلمين من فيكم يحذر لنا القوم وينفرهم. فقال ضرار بن الأزور: أنا أيها الأمير. فقال خالد: أنت لها والله، ولكن يا ضرار إذا أشرفت على القوم فإياك أن تحمل نفسك ما لا تطيق، وأن تغرر بنفسك وتحمل على القوم فما أمرك الله بذلك، فقد قال الله تعالى: «وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» (البقرة:١٩٥)، قال فأطلق ضرار عنان جواده حتى أشرف على جيش الروم فرأى أثاثهم وخيامهم وشعاع البيض والطوارق كأجنحة الطيور.

وكان وردان ينظر نحو جيش المسلمين إذ نظر إلى ضرار، وهو مشرف على القوم، فقال للبطارقة: إني أرى فارسًا قد أقبل ولست أشك أنه طليعة القوم فأيكم يأتيني به؟ فانتدب من القوم ثلاثين فارسًا طلبوا ضرارًا، فلما نظر إليهم ضرار ولى من بين أيديهم فتبعوه وظنوا أنه قد انهزم، وإنما أراد بذلك أن يبعدهم عن أصحابهم، فلما بعدوا علم أنه تمكن منهم فلوى رأس جواده إليهم وصوب السنان عليهم، فأول من طعن فارسًا من القوم أرداه وثنى على الآخر فأعدمه الحياة وصال فيهم صولة الأسد على الغنم ودخل رعبه في قلوبهم فولَّوا

منهزمين فتبعهم، وهو يصرع منهم فارسًا بعد فارس إلى أن صرع منهم تسعة عشر فارسًا. فلما رأوا ذلك وقرب هو من جيوش الروم لوى راجعًا إلى خالد ومعه أسلابهم وخيولهم وأعلمه بما كان، فقال له خالد: ألم أقل لك لا تغرر بنفسك ولا تحمل عليهم، فقال: إن القوم طلبوني فخفت أن يراني الله منهزمًا فجاهدت بإخلاص ولا جرم أن الله ينصرنا عليهم والله لولا خوفي من ملامك لأحملن على الجميع. واعلم أن القوم غنيمة لنا. فرتب خالد عسكره ميمنة وميسرة وقلبًا وجناحين فجعل في القلب معاذ بن جبل وفي الميمنة عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وفي الميسرة سعيد بن عامر وفي الجناح الأيسر شرحبيل بن حسنة، وفي الساقة يزيد بن أبي سفيان في أربعة آلاف فارس حول الحريم والبنات والأولاد، ثم التفت إلى النسوة وهن عفراء بنت غفار الحميرية وأم أبان ابنة عتبة وكانت عروسًا قد تزوج بها في هذا اليوم أبان بن سعيد بن العاص والخضاب في يدها والعطر في رأسها، وخولة بنت الأزور ومزروعة بنت عملوق وسلمة بنت زارع وغيرهن من النسوة ممن عرفن بالشجاعة والبراعة.

نصيحة خالد

فقال لهنَّ خالد: يا بنات العمالقة وبقية التبابعة قد فعلتنَّ فعلًا أرضيتن به الله تعالى والمسلمين، وقد بقي لكن الذكر الجميل، وهذه أبواب الجنة قد فتحت لكنَّ، وأبواب النار قد أغلقت عنكنَّ وفتحت لأعدائكنَّ، واعلمن أنِّي أثق بكنَّ. فإن حملت طائفة من الروم عليكنَّ فقاتلن عن أنفسكنَّ، وإن رأيتنَّ أحدًا من المسلمين قد ولى هاربًا فدونكنَّ وإياه بالأعمدة وأرمين بولده وقلن له: أين تولي عن أهلك ومالك وولدك وحريمك؟! فإنكنَّ ترضينَ بذلك الله تعالى. فقالت عفراء بنت غفار: أيها الأمير والله لا يفرحنا إلا أن نموت أمامك، فلنضربن وجوه الروم ولنقاتلن إلى أن لا تبقى لنا عين تطرف، والله ما نبالي إذا رمينا الروم كلهم. فجزَّاهن خيرًا، ثم عاد إلى الصفوف فجعل يطوف بينهم بفرسه، ويحرض الناس على القتال، وهو ينادي برفيع صوته: يا معاشر المسلمين: انصروا الله ينصركم، وقاتلوا في سبيل الله واحتسبوا نفوسكم في سبيل الله ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة، ولتكن السهام إذا خرجت من كباد القسي كأنها من قوس واحدة. فإذا تلاصقت السهام رشقًا كالجراد لم يخل أن يكون منها سهم صائب، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا

اللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (آل عمران:٢٠٠) واعلموا أنكم لن تلقوا بعد هذا عدوًا مثله، وأن هذه الفئة جملتهم وأبطالهم وملوكهم فجرِّدوا السيوف وأوتروا القسي وفوِّقوا السهام. ثم إن خالدًا أقبل ووقف في القلب مع عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر وقيس بن هبيرة ورافع بن عميرة وذي الكلاع الحميري وربيعة بن عامر ونظائرهم. قال فلما نظر وردان إلى جيش المسلمين قد زحف، زحفوا وكانوا ملء تلك الأرض في الطول والعرض من كثرتهم فترامى الجمعان وتلاقى الفريقان، وقد أظهر أعداء الله الصلبان والأعلام، ورفع المسلمون أصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير.

فلما قرب القوم بعضهم من بعض خرج من علوج الروم شيخ كبير وعليه قلنسوة سوداء فلما قرب من المسلمين نادى بلسان عربي: أيكم المقدم فليخاطبني وليخرج إليَّ وعليه أمان. فخرج إليه خالد بن الوليد. فقال له القس: أنت أمير القوم؟ فقال خالد: كذلك يزعمون مادمت على طاعة الله وسنة رسوله، وإن أنا غيَّرت أو بدَّلت فلا إمارة لي عليهم ولا طاعة. قال القس: بهذا نصرتم علينا، ثم قال: اعلم أنك توسطت بلادًا ما جسر ملك من الملوك أن

يتعرض لها ولا يدخلها، وأن الفرس دخلوها ورجعوا خائبين، وأن التبابعة أتوها وأفنوا أنفسهم عليها وما بلغوا ما أرادوا، ولكنكم أنتم نصرتم علينا وإن النصر لا يدوم لكم وصاحبي وردان قد أشفق عليكم وقد بعثني إليكم وقال: إنه يعطي كل واحد منكم دينارًا وثوبًا وعمامة ولك أنت مائة دينار ومائة ثوب ومائة عمامة وارحل عنا بجيشكم فإن جيشنا على عدد الذَّر ولا تظن أن هؤلاء مثل من لقيت من جموعنا، فإن الملك ما أنفذ في هذا الجيش إلا عظماء البطارقة والأساقفة.

قال خالد: والله ما نرجع إلا بإحدى ثلاث خصال: إما أن تدخلوا في ديننا، أو تؤدوا الجزية، أو القتال. وأما ما ذكرت من أنكم عدد الذَّر فإن الله تعالى قد وعدنا النصر على لسان محمد - صلى الله عليه وسلم - وأنزل ذلك في كتابه العزيز. وأما ما ذكرت من أن صاحبكم يعطي كل واحد منَّا دينارًا وعمامة وثوبًا فعن قريب إن شاء الله نرى ثيابكم وبلادكم وعمائمكم كل ذلك في ملكنا وبأيدينا. فقال الراهب: إني راجع إلى صاحبي أخبره بجوابك، ثم لوى راجعًا وأخبر وردان بما كان من جواب خالد. فقال وردان: أيظن أننا مثل من لقيه من

قبل وإنما هؤلاء لحقهم الطمع إذ تقاصرنا عن قتالهم والملك قد أرسل إليهم أكابر البطارقة وما بيننا وبينهم إلا جولة الجائل ثم نتركهم صرعى، ثم رتب أصحابه وزحف وقدم أمامه الرجالة صفًا أمام القوم والخيالة وبأيديهم المزاريق والقسي.

فصاح معاذ بن جبل - رضي الله عنه -: معاشر الناس إن الجنة قد زخرفت لكم والنار قد فتحت لأعدائكم والملائكة عليكم قد أقبلت والحور العين قد تزينت للقائكم فأبشروا بالجنة السرمدية، ثم قرأ: «إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ» (التوبة:١١١)، بارك الله فيكم الحملة. فقال خالد: مهلًا يا معاذ حتى أوصي الناس! ومشى في الصفوف ورتبها وقال: اعلموا أن هؤلاء أضعافكم فطاولوهم إلى وقت العصر، فإنها ساعة نرزق فيها النصر، وإياكم أن تولوا الأدبار فيراكم الله منهزمين، ازحفوا على بركة الله تعالى.

فلما تقارب الجمعان رمت الأروام سهامهم رمية واحدة فقتلوا رجالًا وجرحوا أناسًا، وخالد قد منع الناس من الحملة. فقال ضرار بن الأزور: وما لنا والوقوف والحق - سبحانه وتعالى - قد تجلى علينا، والله ما يظن أعداء الله

إلا أننا قد فشلنا عنهم وجزعنا، فأمرنا بالحملة حتى نحمل معك. قال: فأنت لها يا ضرار، فخرج ضرار بن الأزور، وقال: والله ما من شيء أشهى إلى قلبي من ذلك. ثم حمل ضرار وقد تدرع بدرع كان لبطرس أخي بولص، وألقى الزرد على وجهه وركب جواده، وكان عليه يومئذ جبتان من جلود الفيلة كان قد أخذهما أيضًا من بطرس، وقد أخفى نفسه عن الروم بلباسه ذلك، وقد أطلق عنانه وقوم سنانه وحمل في صفوف الروم فرشقوه بالسهام فلم يصل إليه منهم أذى، وهو يخترق صفوفهم، فما كان قدر ساعة حتى قتل من الروم عشرين فارسًا ومثلها رجالة.

قال عنان بن عوف النجبي: كنت ممن يعد قتلى ضرار بن الأزور، وكنت كلما قتل فارسًا من الروم أعده، فكان جملة من قتل ضرار في حملته هذه فرسانًا ورجالًا ثلاثين فارسًا. قال عمر بن سالم: هكذا حدثني نوفل بن زياد. ثم إنه رمى البيضة عن رأسه والزرد عن وجهه ونادى بأعلى صوته: أنا الموت الأصفر.. أنا ضرار بن الأزور.. أنا صاحبكم.. أنا قاتل همدان بن وردان.. أنا البلاء المسلط عليكم وعلى من أشرك بالرحمن. فلما سمعت الروم كلامه

عرفوه وتقهقروا إلى ورائهم، فطمع فيهم وحمل على أثرهم، فعند ذلك انطبقت عليه الروم. فقال وردان: من هذا البدوي؟ فقالوا: أيها الملك هذا الذي بقي طول عمره عاري الجسد، ومرة برمح ومرة بنبل. فلما سمع ذلك وبذكر ضرار بن الأزور تنفس الصعداء وقال: هذا قاتل ولدي! ولقد اشتهيت من يأخذ منه بثأري وله منى ما يريد. قال: فبرز إليه بطريق وكان صاحب طبرية، وقال لوردان: أنا آخذ لك بالثأر! ثم لوى عنانه وحمل على ضرار فجالا أكثر من ساعة، ثم طعنه ضرار طعنة صادقة خرق بها كبد عدو الله، فتجندل صريعًا، وقال وردان لهم: ما أتى به ولو أتي به عينًا ما صدقته، فإن هذا لا تطيق الإنس أن تقاتله، وأنا ما أرى لهذا غيري، ثم ترجل وغير لأمته، وألقى عليه درعًا، وجعل على رأسه التاج، وركب جوادًا من الخيول العربية وهمَّ أن يخرج إلى ضرار بن الأزور، فتقدم إليه بطريق اسمه «أصطفان» وهو صاحب عمان وباس ركاب وردان وقال: أيها السيد إن آخذ بثأرك من هذا الذميم أو أسرته لك أتزوجني ابنتك؟ فقال له وردان: هي لك وأشهد عليه من حضر من ملوك الشام. فلما سمع أصطفان ذلك خرج كأنه شعلة نار وحمل على ضرار وقال له: ويلك قد نزل بك ما لا قدرة لك به. فلم يدر ضرار ما يقول غير أنه أخذ حذره منه، وقد

أخرج أصطفان صليبًا من الذهب، وجعله في عنقه في سلسلة من الفضة، وجعل يقبله ويرفعه على رأسه، فعلم ضرار أنه يستنصر به عليه، فقال ضرار: إن كنت تستنصر عليَّ به فأنا أستنصر بالقريب المجيب الذي هو ممن دعاه قريب! ثم حمل عليه وأريا الناس أبوابًا من الحرب، حتى ضج الناس من قتالهما.

فصاح خالد: يا ابن الأزور ما هذا التكاسل والتغافل والجنة قد فتحت لك والنار قد فتحت لأعدائك؟! وإياك والكسل فإن الله – عز وجل – يعينك. فأيقظ ضرار نفسه وانقض من سرجه وحمل على خصمه، وتصايحت الروم بصاحبها تشجعه، وكلاهما في ضرب عظيم، وقد حميت الشمس، وتعب الجوادان. فأشار البطريق إلى ضرار أن ترجل حتى نتقابل، فهمَّ ضرار أن يترجل شفقة على الجواد، وإذا بصفوف الروم قد خرجت ورجل يقود جنيبًا أمامهم وكان ذلك غلام البطريق، فلما نظر إليه ضرار صاح في جواده وقال له: اجلد معي ساعة وإلا شكوتك إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –! فحمحم الجواد وشمر أجنحته جريًا واستقبل ضرار غلام البطريق بطعنة فقتله وأخذ الجنيب فركبه وأطلق جواده نحو عساكر المسلمين فتناولوه وعاد ضرار نحو البطريق. فلما

رآه أقبل إليه بعدما قتل غلامه وركب جواده أيقن عدو الله بالهلاك وعلم أنه إن ولى قتله بلا محالة، وأن وقف أهلكه. فلما نظر ضرار إلى عدو الله علم ما عنده فهجم عليه إذ نظر إلى الروم وقد خرج منهم كردوس، وذلك أن وردان لما نظر إلى صاحبه وقد أشرف على الموت علم أنه إن لم يدركه هلك، فقال لقومه: يا قوم إن هذا الشيطان قد أكل من كبدي قطعة، وإذا لم أقتله قتلت نفسي ولابد لي من الخروج إليه!

فخرج في عشرة من البطارقة وهم مدرَّعون، وفي أرجلهم أخفاف من الحديد وسواعد من الحديد، وبأيديهم أعمدة من الحديد، ووردان قد لبس لأمته وعلى رأسه تاج عظيم. فخرجوا ووردان أمامهم كأنه شعلة نار، ونظر أصطفان إلى من خرج فصرخ بضرار فلم يلتفت إلى من خرج إليه إلا أنَّه تأهب. فبينما هم كذلك إذ نظر خالد إلى القوم وخروجهم ونظر إلى التاج، وهو يلمع على رأس صاحبهم. فقال: إن التاج لا يكون إلا على رأس الملك ولاشك أنه صاحب القوم قد خرج إلى صاحبنا فما الذي يقعدنا عن نصرته؟ ثم قال لأصحابه: لا يخرج إلا عشرة حتى نساوي القوم. فخرج خالد في عشرة من

أصحابه، ووصل الروم إلى ضرار فاستقبلهم بقلب أقوى من الحجر الجلمود، فناداه خالد: أبشر يا ضرار فقد أسعدك الجبار ولا تجزع من الكفار. فقال ضرار – رضي الله عنه –: ما أقرب النصر من الله! وجاء خالد ومن معه والتقت الرجال بالرجال وانفرد كل واحد بصاحبه وطلب خالد وردان، ولم يبرح ضرار عن خصمه أصطفان، وقد كلَّ ساعده وارتعدت فرائصه عندما نظر إلى خالد ومن معه، فنظر يمينًا وشمالًا ليطلب الهرب، فعلم ضرار منه ذلك فهجم عليه بسنانه، فلما أيقن بالموت ألقى نفسه إلى الأرض وولى هاربًا، فبادر إليه ضرار وألقى نفسه عن جواده وطلب عدو الله حتى لحقه وتقابضا على وجه الأرض، وكان عدو الله كالصخر الجلمود، وكان ضرار نحيف الجسم غير أن الله تعالى أعطاه قوة الإيمان.

فلما طال بهم العراك ضرب بيده إلى مراق بطنه وقلعه من الأرض بحيلة وجلد به الأرض فصاح عدو الله وجعل يستنجد بوردان وقال بالرومية: أيها السيد انجدني مما أنا فيه فقد هلكت! فصاح وردان: يا ويلك ومن ينقذني أنا من هؤلاء السباع الكاسرة؟! فسمع خالد ذلك فطمع فيه وحمل على وردان، وهَمَّ

ضرار بخصمه ونظر إليهما الفريقان، وأقبل ضرار فلم يمهل على خصمه دون أن برك على صدره وذبحه مثل البعير، وكل واحد مشتغل عن نصرة صاحبه. فأخذ ضرار رأس عدو الله وهو ملطخ بالدماء وركب جواده وحملت الروم على المسلمين ونادى سعيد بن زيد: يا معشر الناس اذكروا الوقوف بين يدي الله الملك الجبار فإياكم أن تولوا الأدبار فتستوجبوا دخول النار، يا أهل الإيمان يا حملة القرآن اصبروا. فزاد الناس بقوله نشاطًا وتزاحم الفريقان. وجاء وقت العصر فافترقوا وقد قتل من الروم ثلاثة آلاف، وعشرة من ملوكهم منهم رومان صاحب الأميرة، ودمر صاحب نوى، وكوكب صاحب أرض البلقاء، ولاوي بن حنا صاحب غزة. ثم افترق القوم ورجع وردان إلى مكانه وقد امتلأ قلبه رعبًا مما ظهر له من المسلمين من شدة صبرهم وقتالهم. فجمع البطارقة وقال لهم: يا أهل دين النصرانية ما تقولون في هؤلاء العرب فإني أراهم غالبين علينا وقد رأيت أسيافهم قاطعة وخيلهم صابرة وسواعدكم بليدة، وإن القوم أطوع منكم لربكم وما خذلتم إلا بالظلم والجور والغدر، وما مرادي منكم إلا أن تتوبوا إلى ربكم، فإن فعلتم ذلك رجوت لكم النصر من عدوكم، وإن لم تفعلوا ذلك فأذنوا بحرب من المسيح وبهلاك أنفسكم، فإن الله عاقبكم أشد عقوبة إذ سلط

عليكم أقوامًا لا نفكر بهم ولا نعدهم، لأن أكثرهم جياع وعبيد وعراة ومساكين أخرجهم إلينا قحط الحجاز وجوعه وشدة الضرر والبلاء، والآن قد أكلوا من خبز بلادنا وفواكه أرضنا وأكلوا العسل والتين والعنب، وأعظم ذلك سبي نسائكم وأموالكم.

فلما سمع القوم ذلك بكوا وقالوا: نقتل عن آخرنا ولا يصل إلينا هؤلاء القوم وإنا نرى أن نقاتلهم بالرماح. فلما سمع وردان ذلك منهم صاح بالبطارقة وقال لهم: ما عندكم من الرأي؟ فقال رجل منهم: يا وردان اعلم أنك قد بليت بقوم لا تقوم لقتالهم، وقد رأيت الواحد منهم يحمل على عسكرنا ولا يبالي من أحد ولا يرجع حتى يقتل منهم، وقد قال لهم نبيهم إن من قتل منكم صار إلى الجنة ومن قتل من الروم صار إلى النار، والموت والحياة عندهم سواء وما أرى لكم من القوم مطمعًا إلا أن نتحيل على صاحبهم فنقتله فإن قتلتموه ينهزم القوم وإنك لا تصل إليه إلا بحيلة توقعه فيها. فقال وردان: وأي حيلة ندخل بها على القوم والحيل والخداع والمكر منهم؟! فقال له البطريق: أنا أقول لك شيئًا إن صنعته وصلت به إلى أمير العرب من حيث لا يصل إليك شيء ولا أذى، وذلك

أنك تنتخب عشرة من الفرسان من ذوي الشدة والبأس ويكمنون في مكمن من جهة العسكر قبل خروجك إليه وبعد ذلك تخرج إليه وتشاغله بالحديث ثم اهجم عليه وأخرج قومك يبادرون من المكمن ويقطعونه إربًا إربًا وتستريح منه وبعد ذلك تتفرق أصحابه ولا يجتمع منهم أحد.

فلما سمع وردان ذلك من البطريق فرح فرحًا عظيمًا وقال: ما هذا إلا رأي سديد فنعم ما أشرت به وقد أصبت فيما ذكرت غير أن هذا الأمر يعمل في جنح الليل ولا يأتي الصباح إلا وقد فرغنا مما نريد، ثم إن وردان دعا برجل من العرب المتنصرة اسمه داود وكان في سكنه. وقال له: يا داود أنا أعلم أنك فصيح اللسان وإني أريد أن تخرج إلى هؤلاء العرب وتسألهم أن يقطعوا الحرب بيننا وبينهم، وقل لهم لا يخرجون لنا بكرة النهار حتى أخرج بنفسي إليهم منفردًا عن قومي ولعلنا نصطلح مع العرب. فقال داود: ويحك وتخالف أمر الملك هرقل فيما أمرك به من الحرب وتصطلح أنت والعرب فإن الملك ينسبك إلى الجزع والفزع وما كنت بالذي أخاطب العرب في ذلك أبدًا فيبلغ الملك أني كنت السبب في ذلك فيقتلني. فقال له وردان: يا ويلك إنما دبرت حيلة على أمير

العرب حتى أصل بها إليه فأقتله وتتفرق هؤلاء العرب عنا ثم إنه حدثه بما عزم عليه من المكر بخالد بن الوليد. فقال لوردان: إن الباغي مخذول في كل فعل، فالق الجمع بالجمع واترك ما عزمت عليه. فقال وردان وقد غضب: ويلك أنت تعاندني فيما أمرتك به دع عنك المحاجة! فقال: حبًا وكرامة، ثم إنه مضى وقال في نفسه: إن وردان قد عزم أن يلحق بولده، ثم أقبل حتى إنه وقف قريبًا من المسلمين ونادى برفيع صوته، وقال: يا معاشر العرب حسبكم من القتل وسفك الدماء فإن الله تعالى يسألكم عن سفكها، وأريد أن يخرج إليَّ أمير العرب حتى أخاطبه بما أرسلت به. قال فما استتم كلامه حتى خرج إليه خالد - رضي الله عنه - وهو كأنه شعلة نار.

فلما نظر إليه داود النصراني قال له: يا عربي على رسلك فما خرجت أحارب ولا أنا من رجال الحرب وما أنا إلا رسول. فلما سمع خالد مقالته قرب منه. وقال: اذكر مسألتك واستعمل الصدق تنج فمن صدق نجا ومن كذب هلك! فقال: صدقت يا عربي، إن أميرنا وردان كاره سفك الدماء، وقد رأى شدتكم ولا يريد حربكم، وقد نظر إلى من قتل من جماعته فكره أن يحاربكم،

وقد رأى أن يدفع لكم مالًا ويحقن به دماء الناس لكن بشرط أن يكون بينك وبينه كتاب وتشهد عليك كبراء قومك أنك لا تتعرض له ولا لأحد من أصحابه ولا لحصن من حصونه، فإن فعلت ذلك وثق بقولك وهو يسألك أن تقطع الحرب بقية يومك، فإذا أصبحت فاخرج بنفسك ولا يكن معك أحد ويخرج هو أيضًا منفردًا فننظر ما تتفقان عليه عسى أن تحقنا دماء الناس بيننا وبينكم. فلما سمع خالد ما نطق به داود قال له: إن كان ما أخبر به صاحبكم يريد به حيلة أو مكيدة فنحن والله جرثومة الخداع وما مثلنا يؤتى بحيلة ولا بخديعة، فإن كان ذلك ضميره واعتقاده فما هو إلا قرب أجله وانقطاع عمره وهلاك جموعكم والانفصال بيننا وبينكم، وإن كان ذلك حقًا من قوله فلست أصالحه إلا إذا أدى الجزية عن جماعته. وأما المال فلست براغب فيه إلا على ما ذكرته لكم وعن قريب نأخذ أموالكم ونملك بلادكم.

فقال داود وقد عظم عليه كلام خالد: ما يكون الأمر إلا كما ذكرت فإذا توافقتم كان الانفصال بيننا، وها أنا راجع فأذكر له ما ذكرت ثم لوى راجعًا وقد امتلأ قلبه رعبًا من خالد وفزع منه فزعًا شديدًا، ثم قال في نفسه: صدق والله أمير

العرب وأنا أعلم والله أن وردان أول مقتول ونحن من بعده وما لي إلا أن أصدق أمير العرب وآخذ لي ولأهلي منه أمانًا. ثم رجع إلى خالد وقال له: يا أمير إني قد أضمرت على سر وأريد أن أبديه لك لأني أعلم أن البلاد لكم، إن وردان قد نوى على شيء! فقال خالد: وما هو؟ فقال: خذ لنفسك الحذر وكن مستيقظًا فإنه قد أضمر لك كيدًا، ثم أخبره بالقصة من أولها إلى آخرها، ثم قال لخالد: أريد منك الأمان لي ولأهلي. فقال خالد: الأمان لك ولأهلك ولأولادك إن أنت لم تخبر القوم ولم تغدر قال داود: لو أردت أن أغدر لما حدثتك. فقال خالد: وأين كمين القوم؟ قال: عند كثيب عن يمين عسكرهم. ثم إنه خلاه ورجع وأعلم وردان ففرح وقال: الآن أرجو أن يظفرني الصليب بهم، ثم إنه دعا بعشرة من الأبطال، وقال لهم: امضوا رجالة وأكمنوا وأمرهم أن يفعلوا ما دبروه.

وأما خالد فإنه رجع فلقيه أمين الأمة أبو عبيدة فرآه ضاحكًا. فقال: يا أبا سليمان أضحك الله سنك ما الخبر؟ فحدثه بما جرى. فقال أبو عبيدة: على ماذا عزمت؟ قال: عزمت أن أخرج إلى القوم وحدي. فقال: يا أبا سليمان لعمرك

إنك لكفء ولكن ما أمرك الله أن تلقي بنفسك إلى التهلكة والله تعالى يقول: «وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ» (الأنفال: ٦٠)، وقد أعد لك عشرة، وهو حادي عشر وما آمن عليك من اللعين ولكن اندب له رجالة كما ندب لك رجالة ويكمنون قريبًا من القوم، فإذا صرخ اللعين بقومه فاصرخ أنت بقومك ونكون نحن متأهبين على خيولنا، فإذا فرغت من عدو الله حملنا جميعًا ونرجو من الله النصر.

والمسلمون هم رافع بن عميرة الطائي، ومعاذ بن جبل، وضرار بن الأزور، وسعيد بن زيد، وقيس بن هبيرة، وميسرة بن مسروق العبسي، وعدي بن حاتم حتى استتم العشرة وأخبرهم خالد بما قد عزم عليه الروم من الحيلة والمكيدة التي قد دبرها وردان. وقال: اخرجوا رجالة بحيث لا يدري بكم أحد حتى إنكم تأتون الكثيب الذي عن يمين العسكر فاكمنوا هناك، فإذا صرخت بكم فبادروا وانفروا للقوم كل واحد لواحد واتركوني لعدو الله فإنني إن شاء الله تعالى كفء له فقال ضرار: أيها الأمير أخاف أن يكثر عليك الجمع الكثير فلا نأمن أن يصلوا بشرهم إليك، وقد كنت أدبر لك حيلة أننا نسير من وقتنا هذا إلى مكمن القوم

فإذا وجدناهم رقودًا قتلناهم وفرغنا منهم قبل الصباح ونكمن نحن في مواضعهم فإذا خلوت أنت بعدو الله خرجنا عليكم بغير مقالة.

فقال خالد: افعل يا أبا الأزور ما ذكرت إن وجدت إلى ذلك سبيلًا وخذ معك هؤلاء الذين ندبتهم وأنت الأمير عليهم، وأرجو أن يبلغك الله ما تطلبه، وخرج هو وأصحابه في جنح الليل رجالة وبأيديهم أسلحتهم وودعوا الناس، وكان وقت خروجهم قد مضى ثلث الليل، ثم سار ضرار حتى وصل الكثيب فأوقف أصحابه وقال: على رسلكم حتى أستخبر لكم خبر القوم. فلما أشرف عليهم من بعيد سمع غطيطهم وهم نيام سكارى غرقوا في النوم لما نالهم من التعب والنصب وقد أمنوا من أحد ينظرهم.

فقال ضرار في نفسه: إن أنا دنوت من القوم لأقتلهم خشيت أن يوقظ بعضهم بعضًا! فرجع إلى أصحابه وقال لهم: أبشروا فقد أتاكم الله بما تريدون، وأذهب عنكم ما تحذرون، فجردوا سيوفكم وسيروا إلى القوم فاقتلوهم كيف شئتم. ثم تقدم ضرار أمامهم وهم في أثره إلى أن وصل بهم إليهم فوجدوهم نيامًا كل واحد منهم سلاحه عند رأسه فانفرد كل واحد منهم بواحد، فلم يلبثوا

إلا وقد فرغوا منهم عن آخرهم وأخذ كل واحد سلاح غريمه وأخذوا كل ما معهم من الزاد وغيره، فقال لهم ضرار: أبشروا فإن هذا أول النصر إن شاء الله تعالى، وأقبلوا بقية ليلتهم يصلون ويدعون الله أن ينصرهم على عدوهم ولم يزل كل واحد منهم في مصلاه إلى أن أضاء الفجر فصلوا صلاة الفجر. فلما فرغوا من الصلاة لبس كل واحد ثياب غريمه ولباسه وغيبوا القتلى مخافة أن يرسل إليهم وردان خبراً..

معركة أجنادين

فلما أصبح الصباح صلى خالد بالناس ورتب أصحابه لأهبة الحرب، فبينما هم كذلك إذ خرج من القلب فارس وقال: يا معاشر العرب أريد أميركم ليخرج إلى صاحبنا وردان لننظر ما يتفقان عليه من أمر الجيشين وحقن الدماء بينهما. فخرج إليه خالد بن الوليد فقال له الفارس: إن وردان يريد أن تنتظره حتى تتكلم معه. فقال خالد: نعم ارجع وأخبره. فعند ذلك خرج وردان وقد تزين بقلادة جوهر وعلى رأسه تاج. فقال خالد عندما رآه: هذه غنيمة للمسلمين إن شاء الله تعالى! فلما نظر عدو الله إلى خالد ترجل عن جواده وكذلك خالد وجلس

كلاهما، وقد جعل عدو الله سيفه على فخذه فقال له خالد: قل ما تشاء، واستعمل الصدق والزم طريق الحق، واعلم أنك جالس بين يدي رجل لا يعرف الحيل. فقل ما تريد.

فقال وردان: يا خالد اذكر لي ما الذي تريدون وقرب الأمر بيني وبينكم، فإن كنت تطلب منا شيئًا فلا نبخل به عليك صدقة منا عليكم لأننا ليس عندنا أمة أضعف منكم، وقد علمنا أنكم كنتم في بلاد قحط وجوع تموتون جوعًا فاقنع منا بالقليل وارحل عنا. فلما سمع منه خالد هذا الكلام قال له: يا كلب الروم إن الله - عز وجل - أغنانا عن صدقاتكم وأموالكم وجعل أموالكم نتقاسمها بيننا وأحل لنا نساءكم وأولادكم إلا أن تقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، وإن أبيتم فالحرب بيننا وبينكم، أو الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وبالله أقسم أن الحرب أشهى لنا من الصلح. وأما قولك يا عدو الله لم تكن أمة أضعف منا عندكم فأنتم عندنا بمنزلة الكلاب؟ وإن الواحد منا يلقى ألفًا منكم بعون الله تعالى وما هذا خطاب من يطلب الصلح، فإن كنت ترجو أن تصل إليَّ بانفرادي عن قومي وقومك فدونك وما تريد.

فلما سمع وردان مقالات خالد وثب من مكانه من غير أن يجرد سيفه وتشابكا وتقابضا وتعانقا. فصاح عدو الله عندما وثق من خالد وقال لأصحابه: بادروا الآن الصليب قد مكنني من أمير العرب! فما استتم كلامه حتى بادر إليه الصحابة كأنهم عقبان يتقدمهم ضرار بن الأزور، وقد رموا النشاب عنهم وجردوا سيوفهم وضرار عاري الجسد بسراويله قابض على سيفه وهو يزأر كالأسد وأصحابه من ورائه فالتفت عدو الله ونظر إلى القوم وهم يتسابقون إليه وهو يظن أنهم قومه حتى إذا وصلوا إليه ونظر في أوائلهم ضرار بن الأزور قال لخالد: سألتك بحق معبودك أن تقتلني أنت بيدك ولا تدع هذا الشيطان يقتلني! فقال خالد: هو قاتلك لا محالة! فهز ضرار سيفه وقال: يا عدو الله أين خديعتك من خديعة أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟! فقال خالد: اصبر يا ضرار حتى آمرك بقتله. ثم وصل إليه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهزوا سيوفهم في وجهه ومرادهم أن يقتلوه ونظر عدو الله إلى ما دهمه فوقع إلى الأرض وهو يشير بإصبعه الأمان الأمان. فقال خالد: يا عدو الله لا نعطي الأمان إلا لأهل الأمان وأنت أظهرت لنا المكر والخديعة «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» (آل عمران:٥٤) فلما سمع ضرار كلام خالد لم يمهله

دون أن ضربه على عاتقه فخرج السيف يلمع من علائقه، ثم أخذ التاج من على رأسه وقال: من سبق إلى شيء كان أولى به! ولقد أدركته سيوف المجاهدين فقطعوه إربًا إربًا وتبادروا إلى سيفه فأخذوه، ثم إن خالدًا قال لأصحابه:

إني أريد أن تحملوا على الروم لأنهم مشتاقون إلى أصحابهم. فأخذوا رأس عدو الله وردان وتوجهوا نحو عسكر الروم. فلما وصل خالد الصفوف نادى: يا أعداء الله هذا رأس صاحبكم وردان.. أنا خالد بن الوليد أنا صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ثم إنه رمى الرأس وحمل عليهم وحمل المسلمون.

فلما رأى الروم رأس وردان ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار، ولم يزل السيف يعمل فيهم من وقت الصباح إلى الغروب. قال عامر بن الطفيل الدوسي: كنت مع أبي عبيدة ونحن نتبع المنهزمين إلى طريق غزة إذ أشرف علينا خيل فظننا أنها نجدة من عند الملك هرقل فأخذنا على أنفسنا وإذا بالغبرة قد قربت منا، فإذا هي عسكر قد أرسلها أبو بكر الصديق، وما رأوا أحدًا من المنهزمين إلا قتلوه ونهبوا جميع ما معه.

قال الواقدي: وكان الروم بأجنادين تسعين ألفًا فقتل منهم في ذلك اليوم خمسون ألفًا وتفرق من بقي منهم، فمنهم من انهزم إلى دمشق، ومنهم من انهزم إلى قيسارية وغنم المسلمون غنيمة لم يغنم مثلها وأخذوا منهم صلبان الذهب والفضة، فجمع خالد ذلك كله مع تاج وردان إلى وقت القسمة وقال خالد: لست أقسم عليكم شيئًا إلا بعد فتح دمشق إن شاء الله تعالى، وكانت الوقعة بأجنادين لليلة ست خلت من جمادى الأول سنة ثلاث عشرة من الهجرة النبوية، وذلك قبل وفاة أبي بكر بثلاث وعشرين ليلة.

ثم إن خالدًا - رضي الله عنه - كتب كتابًا إلى أبي بكر يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد المخزومي إلى خليفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، سلام عليك. أما بعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم -، وأزيد حمدًا وشكرًا على المسلمين ودمارًا على المتكبرين المشركين وانصداع بيعتهم، وإنا لقينا جموعهم بأجنادين وقد رفعوا صلبانهم وتقاسموا بدينهم أن لا يفروا ولا ينهزموا... فخرجنا إليهم واستعنا بالله - عز وجل - متوكلين على الله خالقنا

فرزقنا الله الصبر والنصر، وكتب الله على أعدائنا القهر فقاتلناهم في كل واد وسبسب، وجملة من أحصيناهم ممن قتل من المشركين خمسون ألفًا وقتل من المسلمين في اليوم الأول والثاني أربعمائة وخمسون رجلًا ختم الله لهم بالشهادة منهم عشرون رجلًا من الأنصار ومن أهل مكة ثلاثون رجلًا ومن حمير عشرون والباقي من أخلاط الناس، ويوم كتبت لك الكتاب كان يوم الخميس لليلتين خلتا من جمادى الآخر، ونحن راجعون إلى دمشق إن شاء الله تعالى فادع لنا بالنصر والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته، وطوى الكتاب وسلمه إلى عبد الرحمن بن حميد وأمره بالمسير إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام، وسار خالد بالمسلمين طالبًا دمشق.

قال الواقدي رحمة الله عليه: ولقد بلغني أن أبا بكر الصديق كان يخرج كل يوم بعد صلاة الفجر إذ أقبل عبد الرحمن بن حميد. فلما رآه تسابقت إليه أصحابه وقالوا له: من أين أقبلت؟ قال: من الشام وإن الله قد نصر المسلمين فسجد أبو بكر الصديق لله شكرًا، وأقبل عبد الرحمن بن حميد إلى أبي بكر وقال: يا خليفة رسول الله ارفع رأسك فقد أقر الله عينك بالمسلمين فرفع أبو

بكر رأسه وقرأ الكتاب سرًا، فلما فهم ما فيه قرأه على المسلمين جهرًا، فتزاحم الناس يسمعون قراءة الكتاب، فشاع الخبر في المدينة فهرعت الناس من كل مكان، فقرأه أبو بكر ثاني مرة.

وتسامع الناس من أهل مكة والحجاز واليمن بما فتح الله على أيدي المسلمين وما ملكوا من أموال الروم فتسابقوا بالخروج إلى الشام ورغبوا في الثواب والأجر، وأقبل إلى المدينة من أهل مكة وأكابرهم بالخيل والرماح وفي أوائلهم أبو سفيان والغيداق بن وائل، وأقبلوا يستأذنون أبا بكر في الخروج إلى الشام فكره عمر بن الخطاب خروجهم إلى الشام وقال لأبي بكر: لا تأذن للقوم فإن في قلوبهم حقائد وضغائن، والحمد لله الذي كانت كلمته هي العليا وكلمتهم هي السفلى وهم على كفرهم وأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ونحن مع ذلك نقول: ليس مع الله غالب. فلما أن أعزَّ الله ديننا ونصر شريعتنا أسلموا خوفًا من السيف فلما سمعوا أن جند الله قد نصروا على الروم أتونا لنبعث بهم إلى الأعداء ليقاسموا السابقين الأولين، والصواب أن لا نقرهم. فقال أبو بكر: لا أخالف لك قولًا ولا أعصي لك أمرًا.

وبلغ أهل مكة ما تكلم به عمر بن الخطاب فأقبلوا جميعهم إلى أبي بكر الصديق في المسجد فوجدوا حوله جماعة من المسلمين وهم يتذاكرون ما فتح الله على المسلمين وعمر بن الخطاب عن يساره وعلي بن أبي طالب عن يمينه والناس حوله، فأقبلت قريش إلى أبي بكر فسلموا عليه وجلسوا بين يديه وتشاوروا فيمن يكون أولهم كلامًا؟ فكان أول من تكلم أبو سفيان بن حرب فأقبل على عمر بن الخطاب وقال: يا عمر كنت لنا مبغضًا في الجاهلية، فلما هدانا الله تعالى إلى الإسلام هدمنا ما كان في قلوبنا لأن الإيمان يهدم الشرك وأنت بعد اليوم تبغضنا فما هذه العداوة يا ابن الخطاب قديمًا وحديثًا؟ أما آن لك أن تغسل ما بقلبك من الحقد والتنافر؟! وإنا لنعلم أنك أفضل منا وأسبق في الإيمان والجهاد، ونحن عارفون بمرتبتكم غير منكرين.

فسكت عمر - رضي الله عنه - واستحيا من هذا الكلام. فقال أبو سفيان: إني أشهدكم أنِّي قد حبست نفسي في سبيل الله، وكذلك تكلم سادات مكة. فقال أبو بكر: اللهم بلغهم أفضل ما يؤملون، واجزهم بأحسن ما يعملون وارزقهم النصر على عدوهم ولا تمكن عدوهم فيهم: «إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (آل

عمران:٢٦). فما تمت أيام قلائل حتى جاء جمع من اليمن وعليهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي - رضي الله عنه - يريد الشام فما لبثوا حتى أقبل مالك بن الأشتر النخعي - رضي الله عنه - فنزل عند الإمام علي - رضي الله عنه - بأهله، وكان مالك يحب سيدنا عليًا، وقد شهد معه الوقائع وخاض المعامع في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد عزم على الخروج مع الناس إلى الشام.

كتاب أبو بكر إلى خالد

قال الواقدي: واجتمع بالمدينة نحو تسعة آلاف، فلما تم أمرهم كتب أبو بكر كتابًا إلى خالد بن الوليد يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي بكر خليفة رسول الله إلى خالد بن الوليد ومن معه عن المسلمين. أما بعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - وأوصيكم وآمركم بتقوى الله في السر والعلانية، وقد فرحت بما أفاء الله على المسلمين من النصر وهلاك الكافرين وأخبرك أن تنزل إلى دمشق إلى أن يأذن الله بفتحها على يدك فإذا تم لك ذلك فسر إلى حمص وأنطاكية والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته، وقد تقدم إليك أبطال اليمن

وأبطال مكة ويكفيك ابن معد يكرب الزبيدي ومالك بن الأشتر وانزل على المدينة العظمى أنطاكية، فإن بها الملك هرقل فإن صالحك فصالحه وإن حاربك فحاربه ولا تدخل الدروب، وأقول هذا وإن الأجل قد قرب ثم كتب: «كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ» (آل عمران:١٨٥) ثم ختم الكتاب وطواه ودفعه إلى عبد الرحمن، وقال له: أنت كنت الرسول من الشام وأنت ترد الجواب فأخذه عبد الرحمن وسار على مطيته يطوي المنازل والمناهل إلى أن وصل إلى دمشق.

حدثني نافع بن عميرة قال: لما بعث خالد بن الوليد الكتاب إلى أبي بكر الصديق ارتحل يريد دمشق، وكان أهلها قد سمعوا بقتل بطريقهم وأبطالهم وانهزام جيوشهم ومن أرسلهم الملك بأجنادين فخافوا وتحصنوا بدمشق وأعدوا آلة الحصار ورفعوا السيوف والطوارق وعلوا على الأسوار ونشروا الأعلام والصلبان، فلما أخذوا على أنفسهم أشرف عليهم الأمير خالد بن الوليد والجيش قد زاد عمرو بن العاص في تسعة آلاف ويزيد بن أبي سفيان في ألفين وشرحبيل بن حسنة وعامر بن ربيعة في ألفين، وأقبل السواد من ورائهم

معاذ بن جبل في ألفين، فلما رأى أهل دمشق عسكر المسلمين مثل البحر الزاخر أيقنوا بالهلاك، وأقبل خالد في جيش الزحف فنزل على الدير المعروف به، وبينه وبين المدينة أقل من ميل، فلما نزل هناك دعا بالأمراء فأحضرهم، فقال لأبي عبيدة: أنت تعلم ما ظهر لنا من غدر هؤلاء القوم عند انصرافنا عنهم وخروجهم في أثرنا فامض بمن معك من أصحابك وانزل بهم على باب الجابية ولا تسمح للقوم بالأمان فيأخذوك بمكرهم ولتكن متباعدًا عن الباب وابعث إليهم فوجًا بعد فوج، واجعل قتال الناس دولًا ولا يضق صدرك من كثرة المقام ولا تبرح من مكانك واحذر من القوم الكافرين. فقال أبو عبيدة: حبًا وكرامة، ثم إنه خرج حتى نزل بباب الجابية ونصب له بيتًا من الشعر بالبعد من الباب.

حول دمشق

عن حجاج الأنصاري قال: قلت لجدي رفاعة بن عاصم، وكان ممن قاتل بدمشق، وكان في خيل أبي عبيدة فقلت: يا جداه ما منع أبا عبيدة أن ينصب له قبة من بعض قبب الروم مما أخذه من أجنادين ومن بصرى، فقد كان عندهم ألوف من ذلك؟! فقال: يا بني منعهم من ذلك التواضع ولم يتنافسوا في زينة

الدنيا وملكها حتى ينظروا الروم أنهم لا يقاتلون طلبًا للملك، وإنما يقاتلون رجاء ثواب الله تعالى وطلب الآخرة ونصرة للدين ولقد كنا ننزل فننصب خيامنا وخيام الروم بالبعد. فلما نزل أبو عبيدة على باب الجابية أمر أصحابه بالقتال. ثم إن خالدًا استدعى بيزيد بن أبي سفيان، وقال له: يا يزيد خذ أصحابك وانزل على الباب الصغير واحفظ قومك، وإن خرج إليك أحد لا يكون لك به طاقة فابعث إليَّ حتى أنجدك إن شاء الله تعالى. ثم استدعى بشرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقال له: انزل على باب توما. ثم توجه بقومه واستدعى بعمرو بن العاص وأمره أن يسير إلى باب الفراديس. ثم استدعى بعده بقيس بن هبيرة، وقال له: اذهب بقومك إلى باب الفرج. ثم نزل خالد إلى الباب الشرقي. ودعا بضرار بن الأزور – رضي الله عنه – وضم إليه ألفي فارس، وقال له تطوف حول المدينة بعسكرك، وإن دهمك أمر أو لاحت لك عيون القوم فأرسل إلينا. ثم سار ضرار واتبعه قومه وبقي خالد على الباب الشرقي. ثم قدم عبد الرحمن بن حميد من المدينة بكتاب أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – وعدل إلى ناحية خالد بن الوليد على الباب الشرقي وقد تقدم للقتال طائفة من أصحابه مع رافع بن عميرة. فلما رفع إليه الكتاب فرح بعد أن

قرأه على المسلمين واستبشر بقدوم عمرو بن معد يكرب الزبيدي وأبي سفيان بن حرب. قال وشاع الخبر عند جميع الناس وبعث خالد كتاب أبي بكر إلى كل باب فقرئ على الناس وبات الناس متأهبين للحرب يتحارسون إلى الصباح وضرار يطوف حولهم ولا يقف في مكان واحد مخافةً أن يكبسهم العدو.

قال الواقدي: ولقد بلغني أن أهل دمشق اجتمعوا إلى كبارهم من البلد وتشاوروا فيما بينهم فقال بعضهم: ما لنا إلا الصلح ونعطي العرب جميع ما طلبوه منا! وقال آخرون: ما نحن بأكثر من جموع أجنادين. فقال لهم بطريق من الروم: اطلبوا لنا صهر الملك توما نتشاور في هذا الأمر لنسمع ما يقول ونطلب منه أن يكشف عنا ما نحن فيه فإما أن يصالحهم، وإما أن يحامي عنا. فمضى القوم إلى توما وعليه رجال موكلون بالسلاح، فقالوا لهم: ما الذي تريدون؟ فقالوا: نريد صهر الملك نشاوره في هذا الأمر.

فأذنوا لهم فدخلوا عليه وقبَّلوا الأرض بين يديه. فقال لهم: ما الذي تريدون؟ فقالوا: أيها السيد انظر ما نزل ببلادنا، وقد جاءنا ما لا طاقة لنا به. فإما أن نصالح العرب على ما طلبوا. وإما أن نرسل إلى الملك فينجدنا أو يمانع عنا

فقد أشرفنا على الهلاك! فلما سمع ذلك منهم تبسم ضاحكًا وقال: يا ويلكم أطمعتم العرب فيكم وحق رأس الملك ما أرى القوم أهلًا للقتال ولا هم خاطرون لي على بال فلو فتح لهم الباب ما جسروا أن يدخلوا. فقالوا: أيها السيد إن أكبرهم وأصغرهم يقاتل العشرة والمائة وصاحبهم داهية لا تطاق. فإن كان ولابد فاخرج بنا لقتالهم! فقال لهم توما: إنكم أكثر منهم ومدينتنا حصينة ولكم مثل هذا العدد والسلاح، وأما القوم فهم حفاة عراة. فقالوا له: أيها السيد إن معهم من عددنا وأسلحتنا كثيرًا مما أخذوه من واقعة فلسطين ومما أخذوه من بصرى ومن يوم لقائهم بكلوس وعزازير ومما أخذوه من أجنادين، وأيضًا إن نبيهم قال لهم: إن من قتل منكم صار إلى الجنة فلأجل ذلك يبقون عراة الأجساد ليصلوا إلى ما قال لهم نبيهم. فضحك من قولهم، وقال لهم: لأجل ذلك أطمعتم العرب فينا ولو صدقتم في الحرب والصدام لقتلتموهم لأنكم أضعافهم مرارًا.

فقالوا: أيها السيد اكفنا مؤونتهم كيف شئت، واعلم أنك إن لم تمنعهم عنا فتحنا لهم الأبواب وصالحناهم. فلما سمع توما كلامهم فكر طويلًا وخشي أن

يفعل القوم ذلك. فقال: أنا أصرف عنكم هؤلاء العرب، وأقتل أميرهم وأريد منكم أن تقاتلوا معي. قالوا: نحن معك وبين يديك نقاتل حتى نهلك عن آخرنا. فقال لهم: باكروا القوم بالقتال فانصرفوا عنه وهم له شاكرون ولأمره منتظرون، وباتوا بقية ليلتهم على الحصن وأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مواضعهم ولهم ضجة بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير، وخالد بن الوليد عند الدير ومعه النساء والعيال والأموال والغنائم التي غنموها من أعدائهم، ورافع بن عميرة على الباب الشرقي في عسكر الزحف وغيرهم ولم يزل الناس في الحرس إلى أن برق الصباح وصلى كل أمير بمن معه من قومه وصلى أبو عبيدة بمن معه. ثم أمر أصحابه بالزحف، وقال لهم: لا تخلوا عن القتال واركبوا الخيل.

حدثني رفاعة بن قيس قال: سألت والدي قيسا، وكان ممن حضر فتوح دمشق الشام فقلت له: أكنتم تقاتلون في دمشق خيالة أو رجالة يوم حصار المسلمين؟ قال: ما كان أحد منَّا فارسًا إلا زهاء ألفي فارس مع ضرار بن الأزور، وهو يطوف بهم حول العسكر وحول المدينة وكلما أتى بابًا من

الأبواب وقف عنده وحرض أهله على القتال، وهو يقول صبرًا صبرًا لأعداء الله. وأقبل توما من بابه الذي يدعى باسمه، وكان عندهم عابدًا راهبًا وكان معظمًا عند الروم فخرج ذلك اليوم من قصره والصليب الأعظم على رأسه وعلا به فوق البرج وأوقف البطارقة حوله والإنجيل تحمله ذوو المعرفة ونصبوه بالقرب من الصليب ورفع القوم أصواتهم، وتقدم توما ووضع يده على أسطر من الإنجيل. وقال: اللهم إن كنَّا على الحق فانصرنا ولا تسلمنا لأعدائنا واخذل الظالم منا فإنك به عليم! اللهم إننا نتقرب إليك بالصليب ومن صلب على دينه، وأظهر الآيات الربانية والأفعال اللاهوتية انصرنا على هؤلاء الظالمين. وأمَّن الناس على دعائه. قال رفاعة بن قيس: هكذا حدثني شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والذي فسر لنا هذا الكلام روماس صاحب بصرى، وكان في جيش شرحبيل بن حسنة يقاتل على باب توما، وكلما قال الروم شيئًا بلغتهم فسره لنا. ونهض شرحبيل وقصد الباب بحملته، وقد عظم عليه قول توما اللعين، وقال له: يا لعين لقد كذبت إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب. أحياه متى شاء ورفعه متى شاء. ثم إن روماس ناوشه بالقتال، فقاتل توما قتالًا شديدًا وهشم الناس بالحجارة ورمى

النشاب رميًا متداركًا فجرح رجالًا. وكان ممن جرح أبان بن سعيد بن العاص أصابته نشابة، وكانت مسمومة فأحس بلهيب السم في بدنه فتأخر وحمله إخوانه إلى أن أتوا به إلى العسكر فأرادوا حل العمامة. فقال: لا تحلوها فان حللتم جرحي تبعتها روحي أما والله لقد رزقني الله ما كنت أتمناه. قال فلم يسمعوا قوله وحلوا عمامته. فلما حلوها شخص إلى السماء وصار يشير بإصبعيه أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، فما استتمها حتى توفي إلى رحمة الله تعالى.

بطولة المرأة

وكانت زوجته بنت عمه، وكان قد تزوجها بأجنادين، وكانت قريبة العهد من العرس ولم يكن الخضاب ذهب من يدها، ولا العطر من رأسها، وكانت من المترجلات البازلات من أهل بيت الشجاعة والبراعة، فلما سمعت بموت بعلها أتته تتعثر في أذيالها إلى أن وقعت عليه، فلما نظرته صبرت واحتسبت، ولم يسمع منها غير قولها هنئت بما أعطيت ومضيت إلى جوار ربك الذي جمع بيننا ثم فرَّق، ولأجهدن حتى ألحق بك فإني لمتشوقة إليك، حرام علي أن

يمسني بعدك أحد وإني قد حبست نفسي في سبيل الله عسى أن ألحق بك وأرجو أن يكون ذلك عاجلًا!

ثم حفر له ودفن مكانه فقبره معروف، وصلى عليه خالد بن الوليد، فلما غيب في التراب لم تقف على قبره دون أن أتت إلى سلاحه ولحقت الجيش من غير أن تعلم خالدًا بذلك، وقالت: على أي باب قتل بعلي؟ فقيل لها: على باب توما والذي قتله هو صهر الملك! فسارت إلى أصحاب شرحبيل بن حسنة فاختلطت بهم، وقاتلت مع الناس قتالًا لم ير مثله، وكانت أرمى الناس بالنبل، وكان قد جعل لها قوس وكنانة. قال شرحبيل بن حسنة: رأيت يوم حصار دمشق رجلًا على باب توما يحمل الصليب وهو أمام توما، وهو يشير إليه «اللهم انصر هذا الصليب ومن لاذ به، اللهم أظهر له نصرته وأعل درجته» وأنا أنظر إليه إذ رمته زوجة أبان بنبلة فلم تخطئ رميتها، وإذا بالصليب قد سقط من يده وهوى إلينا وكأني أنظر لمعان الجوهر من جوانبه فما فينا إلا من بادر إليه ليأخذه وقد استتر بالدرق وتزاحم بعضنا على بعض كل منا يسبق إليه ليأخذه، ونظر عدو الله توما إلى ذلك من تنكس الصليب الأعظم وإهوائه إلى المسلمين، فعند ذلك

كفر وعظم عليه الأمر، وقال: يبلغ الملك أن الصليب الأعظم أخذ مني وملكته العرب، لا كان ذلك أبدًا ثم إنه حزم وسطه وأخذ سيفه، وقال: من شاء منكم فليتبعني ومن شاء فليقعد فلابد لي من القوم عسى أن أشفي صدري، ثم انحدر مسرعًا وأمر بفتح الباب، وكان هو أول مبادر. فلما نظرت الروم إلى ذلك لم يكن فيهم إلا من انحدر في أثره لما يعلمون من شجاعته وخرجوا كالجراد المنتشر.

هذا والمسلمون محيطون بالصليب، فلما خرج الروم ووقع صياحهم حذر الناس بعضهم بعضًا، فلما نظر المسلمون إلى الروم سلموا الصليب إلى شرحبيل بن حسنة وانفردوا لأعدائهم وحملوا في أعراضهم وأخذهم النشاب والحجارة ومن كل مكان من أعلى الباب، فصاح شرحبيل بن حسنة: معاشر المسلمين تقهقروا إلى ورائكم لتأمنوا النشاب من أعداء الله العالين على الباب. قال: فتقهقر الناس إلى ورائهم إلى أن أمنوا من ضرب النشاب فاتبعهم عدو الله توما، وهو يضرب يمينًا وشمالًا وحوله أبطال المشركين من قومه، وهو يهدر كالجمل فلما نظر شرحبيل بن حسنة ذلك صرخ بقومه، وقال: معاشر الناس

كونوا آيسين من آجالكم طالبين جنة ربكم وأرضوا خالقكم بفعلكم. فإنه لا يرضى منكم بالفرار ولا أن تولوا الأدبار فاحملوا عليهم واقربوا إليهم بارك الله فيكم.

فحمل الناس حملة منكرة واختلط بعضهم ببعض وعملت بينهم السيوف وتراموا بالنبل، وتسامع أهل دمشق أن توما خرج إلى العرب من بابه وأن صليبه الأعظم سقط إليهم من كف حامله فجعلوا يهرعون إلى أن تزايد أمرهم وجعل عدو الله ينظر يمينًا وشمالًا وينظر الصليب فحانت منه التفاتة فنظر فرآه مع شرحبيل بن حسنة، فلما نظر إليه لم يكن له صبر دون أن حمل وصاح: هات الصليب لا أم لك، فقد لحقتك بوائقه.

ونظر شرحبيل بن حسنة إلى عدو الله، وهو مقبل فرمى الصليب من يده وصادمه. فلما رأى عدو الله الصليب مرميًا على الأرض صرخ بأصحابه صرخة هائلة ونظرت زوجة أبان بن سعيد إلى حملة عدو الله على شرحبيل. فقالت: من هذا؟ قيل: هو صهر الملك، وهو قاتل بعلك أبان، فلما سمعت ذلك منهم حملت حملة منكرة إلى أن قاربته ورمته بنبلة، وكان الروم أرهبوها فلم تلتفت

إليهم دون أن حققت نبلتها على صاحبها، وقالت: بسم الله وبركة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثم أطلقتها، وكان عدو الله واصلًا إلى شرحبيل إذ جاءته النبلة فأصابت عينه اليمنى فسكنت النبلة فيها فتقهقر إلى ورائه صارخًا وهمت بأن ترميه بأخرى فتبادرت إليها الرجال واستتروا بالطوارق وتبادر إليها قوم من المسلمين يحامون عنها، فلما أمنت من شر الأعداء أخذت ترمي بالنبل. ثم إنها رمت علجًا من الروم فأصابت صدره فسقط هاويًا إلى الأرض، وكان عدو الله توما أول من تقهقر ذلك اليوم هاربًا من شدة حرارة النبلة وصرخ صرخة عظيمة إلى أن دخل الباب ونظر شرحبيل إلى ذلك فصرخ بأصحابه: يا ويلكم دونكم وكلب الروم احملوا على الكلاب عسى أن تدركوا عدو الله.

فحمل الناس على الروم إلى أن أوصلوهم إلى الباب فحماهم قومهم من أعلى الباب بالحجارة والنشاب. قال فتراجع الناس إلى مواضعهم، وقد قتلوا من الروم مقتلة عظيمة وأخذوا أسلابهم وأموالهم وصليبهم. ودخل عدو الله توما إلى المدينة وأغلقوا الأبواب وجاء الحكماء يعالجون في قلع النبلة من عينه فلم تطلع فجذبوها فلم تنجذب، وهو يضج بالصراخ فلما طال على القوم ذلك

ولم يجدوا حيلة في إخراجها نشروها وبقي النصل في عينه ولم تزل في مكانها وسألوه المسير إلى منزله فأبى وجلس داخل الباب إلى أن سكن ما به وخف عنه الألم، فقالوا له: عد إلى منزلك بقية ليلتك، فقد نكبنا في يومنا هذا نكبتين نكبة الصليب ونكبة عينك كل هذا مما وصل إلينا من النبال، وقد علمنا أن القوم لا يصطل لهم بنار، وقد سألناك أن نصالح القوم على ما طلبوه منا! فغضب توما من قولهم، وقال: يا ويلكم يؤخذ الصليب الأعظم وأصاب بعيني وأغفل عن هذا ويبلغ الملك عني ذلك فينسبني للوهن والعجز ولابد من طلبهم على كل حال وآخذ صليبي وآخذ في عيني ألف عين منهم وسأوقع حيلة أصل بها إلى كبيرهم وآخذ جميع ما غنموه وبعد ذلك أسير إلى صاحبهم الذي هو في الحجاز وأقطع آثاره وأخرب دياره وأهدم مساكنه، وأجعل بلده مسكنًا للوحوش. ثم إن الملعون سار إلى أعلى السور، وهو معصوب العين وصار يحرض الناس لكي يزيل عن قلوبهم الرعب وأقبل يقول لهم: لا تفزعوا ولا تجزعوا مما ظهر لكم من العرب ولابد للصليب أن يرميهم وأنا الضامن لكم. فثبت القوم من قوله وحاربوا حربًا شديدة!

وبعث شرحبيل بن حسنة إلى خالد بن الوليد يخبره بما صنع مع القوم. فقال الرسول: إن عدو الله توما قد ظهر لنا منه ما لم يكن في الحساب ونطلب منك رجالًا لأن الحرب عندنا أكثر من كل باب، فلما سمع خالد ذلك الخبر حمد الله، وقال: كيف أخذتم الصليب من الروم. فقال الرسول: كان يحمل صليب الروم رجل وهو أمام توما صهر الملك فرمته زوجة أبان بنبلة فوقع الصليب إلينا وخرج عدو الله فرمته زوجة أبان بنبلة فاشتبكت في عين توما اليمنى. فقال خالد: إن توما عند الملك معظم وهو الذي يمنعهم عن الصلح ونرجو من الله أن يكفينا شره. ثم قال للرسول: عد إلى شرحبيل وقل له كن حافظًا ما أمرتك به فكل فرقة مشغولة عنك ولم تؤت من قبلهم وأنا بالقرب منك، وهذا ضرار بن الأزور يطوف حول المدينة وكل وقت عندك. فرجع الرسول فأخبره بذلك فصبر وقاتل بقية يومه ووصل الخبر إلى أبي عبيدة بما نزل بشرحبيل بن حسنة من توما وبما غنم من صليبه فسُرَّ بذلك.

ولما أصبح الصباح بعث توما إلى أكابر دمشق وأبطالهم. فلما حضروا بين يديه قال لهم: يا أهل دين النصرانية إنه قد طاف عليكم قوم لا أمان لهم ولا عهد

لهم وقد أتوا يسكنون بلادكم فكيف صبركم على ذلك وعلى هتك الحريم وسبي الأولاد وتكون نساؤكم جواري لهم وأولادكم عبيدًا لهم وما وقع الصليب إلا غضبًا عليكم مما أضمرتم لهذا الدين من مصالحة المسلمين وإذلالكم للصليب وأنا قد خرجت ولولا أنِّي أصبت بعيني لما عدت حتى أفرغ منهم ولابد من أخذ ثأري وأن أقلع ألف عين من العرب ثم لابد أن أصل إلى الصليب وأطالبهم به عن قريب. فلما سمعوا كلامه قالوا له: ها نحن بين يديك وقد رضينا بما رضيت لنفسك، فإن أمرتنا بالخروج خرجنا معك وإن أمرتنا بالقتال قاتلنا! فقال توما: اعلموا أن من خاض الحروب لم يخف من شيء! وإني قد عزمت على أن أهجم هذه الليلة وأكبسهم في أماكنهم فإن الليل مهيب وأنتم أخبر بالبلد من غيركم فلا يبقى الليلة منكم أحد حتى يتأهب للحرب ويخرج من الباب وأرجو أن لا أعود حتى تنقضي الأشغال فإذا فرغت من القوم أخذت أميرهم أسيرًا وأحمله إلى الملك يأمر فيه بأمره، فقالوا: حبًا وكرامة فعند ذلك فرق القوم على الباب الشرقي فرقة وعلى باب الجابية فرقة وعلى كل باب جماعة، وقال لهم: لا تجزعوا، فإن أمير القوم متباعد عنكم وليس هناك إلا الأراذل والموالي فاطحنوهم طحن الحصيد.

ودعا بفرقة أخرى إلى باب الفراديس إلى عمرو بن العاص وخرج توما من بابه وأخذ معه أبطال القوم ولم يترك بطلًا يعرف بالشجاعة إلا أخذه معه ورتب على الباب ناقوسًا، وقال لهم: إذا سمعتم الناقوس فهي العلامة التي بيننا فافتحوا الأبواب واخرجوا مسرعين إلى أعدائكم ولا تجدوا رجالًا نيامًا إلا وتضعون السيف فيهم. فإن فعلتم ذلك فرقتم جمعهم في هذه الليلة وانكسروا كسرة لا يجبرون بعدها أبدًا. ففرح القوم بذلك وخرجوا إلى حيث أمرهم وقعدت كل فرقة على بابها وأقاموا ينتظرون صوت الناقوس ليبادروا إلى المسلمين، ودعا توما برجل من الروم، وقال له: خذ ناقوسًا واعل به على الباب فإذا رأيتنا قد فتحنا الباب فاضرب الناقوس ضربة خفيفة يسمعها قومنا، وقد سار توما بقطعة من جيشه عليهم الدروع وبأيديهم السيوف وتوما في أوائلهم وبيده صفيحة هندية وألقى على رأسه بيضة كسروية كان هرقل قد أهداها له، وكانت لا تعمل فيها السيوف القواطع حتى وصل إلى الباب، ثم وقف حتى تكامل القوم، فلما نظر إليهم قال: يا قوم إذا فتحنا لكم الباب فأسرعوا إلى عدوكم وجدوا في سعيكم إلى أن تصلوا إلى القوم، فإذا وصلتم إليهم فاحملوا

ومكنوا السيوف فيهم ومن صاح منهم بالأمان فلا تبقوا عليه إلا أن يكون أمير القوم ومن أبصر منكم الصليب فليأخذه! فقالوا: حبًا وكرامة.

القتال من فوق الأسوار

ثم أمر رجلًا من أصحابه أن يسير إلى الذي بيده الناقوس ويأمره أن يضربه ضربة خفيفة ثم فتح الباب وتبادر الرجال إلى أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم في غفلة مما دبر القوم لهم إلا أنهم في يقظة، فلما سمعوا الصوت أيقظ بعضهم بعضًا وتواثبت الرجال من أماكنهم كالأسود الضارية فلم يصل إليهم العدو إلا وهم على حذر وحملوا عليهم وهم في غير ترتيب فتقاتل القوم في جنح الظلام وعمل السيف وسمع خالد بن الوليد فقام ذاهل العقل مما سمع من الزعقات فصاح: واغوثاه والإسلاماه! كيد قومي ورب الكعبة، اللهم انظر لهم بعينك التي لا تنام وانصرهم يا أرحم الراحمين. وسار خالد ومن معه وهم أربعمائة فارس من أصحابه، وهو بغير درع قد لبس ثوب كتان من عمل الشام مكشوف الرأس. ثم جد في السير والفرسان معه كأنهم الليوث العوابس إلى أن وصلوا إلى الباب الشرقي وإذا بالفرقة التي هناك قد هاجمت أصحاب

رافع بن عميرة الطائي. وأصوات المسلمين عالية بالتهليل والتكبير، والقوم من أعلى الأسوار قد أشرفوا وتصايحوا عندما استيقظ لهم المسلمون فحمل خالد بن الوليد على الروم ونادى برافع صوته أبشروا يا معشر المسلمين أتاكم الغوث من رب العالمين، أنا الفارس الصنديد، أنا خالد بن الوليد. وحمل في أوساط الناس بمن معه فجندل أبطالًا وقتل رجالًا، وهو مع ذلك مشتغل القلب على أبي عبيدة والمسلمين الذين على الأبواب وهو يسمع أصواتهم وزعقاتهم، قال وتصايح الروم والنصارى واليهود.

قال سنان بن عوف: قلت لابن عمي قيس: هل كانت اليهود تقاتلكم؟ قال: نعم يقاتلوننا من أعلى الأسوار ويرمون بالسهام وخشي خالد على شرحبيل بن حسنة مما وصل إليه من عدو الله توما لأنه ملازم الباب. ولقي شرحبيل بن حسنة من عدو الله توما أمرًا عظيمًا لم يلق أحد مثله وذلك أنه هجم عليه في تلك الليلة، وكان هو أول من وصل إلى المسلمين. فصبروا له صبر الكرام وقاتل عدو الله قتالًا شديدًا وهو ينادي: أين أميركم الذميم الذي أصابني؟! أنا ركن الملك الرحيم، أنا ناصر الصليب. فلما سمع شرحبيل صوته قصد جهته، وقد

جرح رجالًا من المسلمين، وقال: ها أنا صاحبك وغريمك، أنا مبيد جمعكم وآخذ صليبكم، أنا كاتب وحي رسول الله – صلى الله عليه وسلم –! فعطف عليه توما عطفة الأسد ورأى من شرحبيل بن حسنة أمرًا هائلًا ولم يزالوا كذلك إلى أن زال من الليل شطره وكل قرن مع قرنه وكانت زوجة أبان مع شرحبيل وكانت في تلك الليلة أحسن الناس صبرًا ورمت بنبالها، وكانت لا تقع نبلة من نبالها إلا في رجل من المشركين إلى أن قتلت من الروم مقتلة عظيمة بالنبال والروم يتحايدون عنها إلى أن لاح رجل من الروم فرمته بنبلة فبقيت معلقة في نحره. فصرخ بالروم فهاجموها وأخذوها أسيرة ومات عدو الله الذي رمته. ولقي شرحبيل من الروم ما لا يلقاه أحد وإنه ضرب توما ضربة هائلة فتلقاها الملعون بدرقته فانكسر سيف شرحبيل فطمع عدو الله فيه وحمل عليه وظن أنه يأخذه أسيرًا وإذا بفارسين قد أشرفا من ورائهما مع كبكبة من الفرسان فهجموا على الروم ونظروا وإذا بزوجة أبان قد خلصت وهجمت على الروم وهتفت فلحقها فارسان فبرز لهما عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه –، وأبان بن عثمان بن عفان – رضي الله عنه – فقتلا الرجلين ورجع عدو الله توما هاربًا إلى المدينة.

حدثني تميم بن عدي، وكان ممن شهد الفتوحات قال: كنت في خيمة أبي عبيدة وذلك أن أبا عبيدة كان يصلي فيها إذ سمع الصياح. فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم لبس سلاحه ورتب قومه ودنا من القوم فنظر إليهم وهم في المعمعة والحرب وعدل عنهم ميسرة وميمنة إلى أن جاوزهم وعطف نحو الباب وكبر وكبر المسلمون، فلما سمع المشركون تكبيرهم ظنوا أن المسلمين قد دهموهم من ورائهم في جمع كثير فولوا راجعين فتلقاهم أبو عبيدة وقومه وأخذوا عليهم المجاز وبذل أبو عبيدة السيف فيهم.

قال الواقدي: ولقد بلغني أنه ما سلم من الروم تلك الليلة أحد من الذين هم غرماء أبي عبيدة ولقد قتلوا عن آخرهم فبينما هم في القتال إذ أشرف عليهم ضرار بن الأزور، وهو ملطخ بالدماء. فقال له خالد: ما وراءك يا ضرار؟ فقال: أبشر أيها الأمير ما جئتك حتى قتلت في ليلتي هذه مائة وخمسين رجلًا وقتل قومي ما لا يعد ولا يحصى، وقد كفيتكم مؤنة من خرج من الباب الصغير إلى يزيد بن أبي سفيان، ثم عطفت إلى سائر الأبواب فقتلت خلقًا كثيرًا! فسُرَّ بذلك

خالد بن الوليد، ثم ساروا جميعًا حتى أتوا شرحبيل بن حسنة وشكروا فعله وكانت ليلة مقمرة ولم يلق مثلها الناس فقتلوا في تلك الليلة ألوفًا من الروم.

فاجتمع كبار أهل دمشق إلى توما وقالوا له: أيها السيد إنا قد نصحناك فلم تسمع لقولنا وقد قتل منا أكثر الناس وهذا أمير لا يطاق، -يعني خالدًا بن الوليد- فصالح فهو أصلح لك ولنا وإن لم تصالح صالحنا وأنت وشأنك. فقال: يا قوم أمهلوني حتى أكتب إلى الملك وأعلمه بما نزل بنا، فكتب من وقته وساعته كتابًا يقول فيه: إلى الملك الرحيم من صهرك توما، أما بعد فإن العرب محدقون بنا كإحداق البياض بسواد العين، وقد قتلوا أهل أجنادين ورجعوا إلينا وقد قتلوا منا مقتلة عظيمة، وقد خرجت إليهم وأصيبت عيني، وقد عزمت على الصلح ودفع الجزية للعرب فإما أن تسير بنفسك، وإما أن ترسل لنا عسكرًا تنجدنا بهم، وإما أن تأمرنا بالصلح مع القوم، فقد تزايد الأمر علينا ثم طوى الكتاب وختمه وبعث به قبل الصباح...

فلما أصبح الصباح باكرهم المسلمون بالقتال... وبعث خالد لكل أمير أن يزحف من مكانه فركب أبو عبيدة ووقع القتال واشتد الأمر على أهل دمشق

فبعثوا لخالد أن أمهلنا فأبى إلا القتال ولم يزل كذلك إلى أن ضاق بهم الحصار وهم ينتظرون أمر الملك واجتمع أهل البلد وقالوا لبعضهم: ما لنا صبر على ما نحن فيه من الأمر وإن هؤلاء إن قاتلناهم نصروا علينا وإن تركناهم أضرَّ بنا الحصار فاطلبوا من القوم صلحًا على ما طلبوه منكم.

فقال لهم شيخ كبير من الروم وقد قرأ الكتب السالفة: يا قوم والله إني أعلم أنه لو أتى الملك في جيشه جميعًا لما منعوا عنكم هؤلاء لما قرأت في الكتاب إن صاحبهم محمدًا خاتم المرسلين سيظهر دينه على كل دين فأطيعوا القوم وأعطوهم ما طلبوا منكم فهو أوفق لكم، فلما سمع القوم مقالات الشيخ ركنوا إليه لما يعلمون من علمه ومعرفته بالأخبار والملاحم. فقالوا: كيف الرأي عندك؟ فنحن نعلم أن هذا الأمير الذي على باب شرقي رجل سفاك للدماء. فقال لهم: إن أردتم تقارب الأمر فامضوا إلى الذي على باب الجابية، وليتكلم رجل يعرف بالعربية، ويقول بصوت رفيع، يا معاشر العرب الأمان حتى ننزل إليكم ونتكلم مع صاحبكم.

قال أبو هريرة – رضي الله عنه –: وكان أبوعبيدة قد أنفذ رجالًا من المسلمين مكثوا بالقرب من الباب مخافة الكبسة مثل الليلة التي خلت، وكانت النوبة تلك الليلة لبني دوس والأمير عليها عامر بن الطفيل الدوسي. فبينما نحن جلوس في مواضعنا من الباب إذ سمعنا أصوات القوم وهم ينادون، فلما سمعتُ بادرت إلى أبي عبيدة وبشرته بذلك فاستبشر وقال: امض وكلم القوم وقل لهم لكم الأمان، قال فأتيت القوم وبشرتهم بالأمان فقالوا: من أنت؟ فقلت: أنا أبو هريرة صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولو أن عبيدًا أعطوكم الأمان والذمام ونحن في الجاهلية لما غدرنا فكيف وقد هدانا الله إلى دين الإسلام؟! فنزل القوم وفتحوا الباب وإذ هم مائة رجل من كبرائهم وعلمائهم فلما قربوا من عسكر أبي عبيدة تبادر إليهم المسلمون وأزالوا عنهم الصلبان إلى أن وصلوا خيمة أبي عبيدة فرحب بهم وأجلسهم وقال: إن نبينا محمدًا – صلى الله عليه وسلم – قال: «إذا أتاكم عزيز قوم فأكرموه» وتكلموا في أمر الصلح وقالوا: إنا نريد منكم أن تتركوا كنائسنا ولا تنقضوا علينا منها كنيسة، فقال لهم أبو عبيدة: جميع الكنائس لا يؤمر بهدمها. وكان في دمشق كنائس واحدة تسمى كنيسة مريم وكنيسة حنا وكنيسة سوق الليل وكنيسة إنذار،

وهي عند دار عبد الرحمن ذرة فكتب لهم أبو عبيدة كتاب الصلح والأمان ولم يسم فيه اسمه ولا أثبت شهودًا وذلك لأنه لم يكن أمير المؤمنين، فلما كتب لهم الكتاب تسلموه منه وقالوا له: قم معنا إلى البلد. فقام أبو عبيدة وركب معه أبو هريرة ومعاذ بن جبل ونعيم بن عمرو وعبد الله بن عمرو الدوسي وذو الكلاع الحميري وحسان بن النعمان وجرير بن نوفل الحميري وسيف بن سلمة ومعمر بن خليفة وربيعة بن مالك والمغيرة بن شعبة وأبو لبابة بن المنذر وعوف بن ساعدة، وعامر بن قيس وعبادة بن عتيبة وبشر بن عامر وعبد الله بن قرط الأسدي وجملتهم خمسة وثلاثون صحابيًا من أعيان الصحابة - رضي الله عنهم -، وخمسة وستون من أخلاط الناس فلما ركبوا وتقدموا نحو الباب قال أبو عبيدة: أريد منكم رهائن حتى ندخل معكم فأتوه برهائن، وقيل إن أبا عبيدة رأى في منامه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول له: تفتح المدينة إن شاء الله تعالى في هذه الليلة، فقلت: يا رسول الله أراك على عجل قال: «لأحضر جنازة أبي بكر الصديق». فاستيقظت من المنام.

قال الواقدي: وقد بلغني أن أبا عبيدة لما دخل دمشق بأصحابه سارت القسس والرهبان بين يديه على مسرح الشعر وقد رفعوا الإنجيل والمباخر بالند والعود، ودخل أبو عبيدة من باب الجابية ولم يعلم خالد بن الوليد بذلك لأنه شد عليهم بالقتال. وكان هناك قسيس من قسس الروم اسمه يونس بن مرقص وكانت داره ملاصقة للسور مما يلي باب شرقي الذي عنده خالد وكان عنده ملاحم دانيال - عليه السلام - وكان فيها: إن الله تعالى يفتح البلاد على يد الصحابة ويعلو دينهم على كل دين، فلما كانت تلك الليلة نقب يونس من داره وحفر موضعًا وخرج على حين غفلة من أهله وأولاده وقصد خالدًا وحدثه أنه خرج من داره وحفر موضعًا والآن أريد أمانًا لي ولأهلي ولأولادي! فأخذ خالد عهده على ذلك وأنفذ معه مائة رجل من المسلمين أكثرهم من حمير، وقال لهم: إذا وصلتم المدينة فارفعوا أصواتكم بأجمعكم واقصدوا الباب واكسروا الأقفال وأزيلوا السلاسل حتى ندخل إن شاء الله تعالى. ففعل القوم ما أمرهم به خالد - رضي الله عنه - وساروا ومضى أمامهم يونس بن مرقص حتى دخل بهم من حيث خرج. فلما حطوا في داره تدرعوا واحترسوا ثم خرجوا وقصدوا الباب وأعلنوا بالتكبير. فلما سمع المشركون التكبير ذهلوا وعلموا أن أصحاب

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حطوا معهم في المدينة، وأن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قصدوا الباب وكسروا الأقفال وقطعوا السلاسل، ودخل خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين ووضعوا السيف في الروم وهم مختلفون بين يديه إلى أن وصل إلى كنيسة مريم وخالد بن الوليد يأسر ويقتل.

قال الواقدي: والتقى الجمعان عند الكنيسة جيش خالد وجيش أبي عبيدة وأصحابه سائرون والرهبان سائرون بين أيديهم وما أحد من أصحاب أبي عبيدة جرد سيفه، فلما نظر خالد إليهم ورأى أن لا أحد منهم جرد سيفه بهت وجعل ينظر إليهم متعجبًا. فنظر إليه أبو عبيدة وعرف في وجهه الإنكار. فقال: أبا سليمان! قد فتح الله على يدي المدينة صلحًا وكفى الله المؤمنين القتال.

قال الواقدي: ما خاطب أبو عبيدة خالدًا يوم فتح دمشق إلا بالإمارة فقال: أيها الأمير قد تم الصلح. فقال خالد: وما الصلح؟ لا أصلح الله بالهم وأنى لهم الصلح وقد فتحتها بالسيف، وقد خضبت سيوف المسلمين من دمائهم وأخذت الأولاد عبيدًا وقد نهبت الأموال. فقال أبو عبيدة: أيها الأمير اعلم أني

ما دخلتها إلا بالصلح. فقال له خالد بن الوليد: أنا ما دخلتها إلا بالسيف عنوة وما بقي لهم حماية فكيف صالحتهم؟! قال أبو عبيدة: اتق الله أيها الأمير، والله لقد صالحت القوم ونفذ السهم بما هو فيه وكتبت لهم الكتاب وهو مع القوم. فقال خالد: وكيف صالحتهم من غير أمري وأنا صاحب رايتك والأمير عليك ولا أرفع السيف عنهم حتى أفنيهم عن آخرهم. فقال أبو عبيدة: والله ما ظننت أنك تخالفني إذا عقدت عقدًا ورأيت رأيًا فالله الله في أمري، فوالله لقد حقنت دماء القوم عن آخرهم وأعطيتهم الأمان من الله – جل جلاله – وأمان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقد رضي من معي من المسلمين، والغدر ليس من شيمنا. وارتفع الصياح بينهما وقد شخص الناس إليهما وخالد مع ذلك لا يرجع عن مراده، ونظر أبو عبيدة إلى ذلك فرأى أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مع خالد وهم جيش البوادي من العرب مشتبكون على قتال الروم ونهب أموالهم.

فنادى أبو عبيدة: واثكلاه خفرت والله ونقض عهدي!! وجعل يحرِّك جواده ويشير إلى العرب مرة يمينًا ومرة شمالًا وينادي: معاشر المسلمين أقسمت

عليكم برسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن لا تمد أيديكم نحو الطريق الذي جئت منه حتى نرى ما نتفق أنا وخالد عليه، فلما دعاهم بذلك سكتوا عن القتل والنهب واجتمع إليهما فرسان المسلمين والأمراء وأصحاب الرايات مثل معاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وربيعة بن عامر وعبد الله بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهم - أجمعين ونظرائهم، والتقوا عند الكنائس واجتمع هناك الفرسان للمشورة والمناظرة.

فقالت طائفة من المسلمين منهم معاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان: الرأي أن تمشوا إلى ما أمضاه أبو عبيدة بن الجراح وتكفوا عن القتال للقوم. فإن مدن الشام لم تفتح بعد، وهرقل في أنطاكية كما تعلمون، وإن علم أهل المدن أنكم صالحتم وغدرتم لم تفتح لكم مدينة صلحًا ولأن تجعلوا هؤلاء الروم في صلحكم خير من قتلهم، ثم قالوا لخالد: أمسك عليك ما فتحت بالسيف ويعينك أبو عبيدة بجانبه واكتبا إلى الخليفة وتحاكما إليه، فكل ما أمر به فعلناه، فقال لهم خالد بن الوليد: قد أجبت إلى ذلك وقبلت مشورتكم، فأما أهل دمشق فقد أمنتهم إلا هذين اللعينين توما وهربيس، وكان هربيس هو المؤمر على

نصف البلدة ولاه توما حين خرج الأمر إليه. فقال أبو عبيدة: إن هذين أول من دخل في صلحي فلا تخفر ذمتي رحمك الله تعالى. فقال خالد: والله لولا ذمامك لقتلتهما جميعًا، ولكن يخرجان من المدينة فلعنهما الله حيث سارا. قال أبو عبيدة: وعلى هذا صالحتهما.

ونظر توما وهربيس إلى خالد وهو يتنازع مع أبي عبيدة فخافا الهلاك فأقبلا على أبي عبيدة ومعهما من يترجم عنهما وقالا له: ما يقول هذا -يعني خالدًا-؟ قال الترجمان لأبي عبيدة: ما تقول أنت وصاحبك فيه من المشاورة؟ إن صاحبك هذا يريد غدرنا فنحن وأهل المدينة دخلنا في عهدكم ونقض العهد ما هو من شيمكم، وإني أسألكم أن تدعوني أن أخرج أنا وأصحابي وأسلك أي طريق أردت. فقال: أنت في ذمتنا فاسلك أي طريق شئت، فإذا صرت في أرض تملكونها فقد خرجت من ذمتنا أنت ومن معك. فقال توما وهربيس: نحن في ذمتكم وجواركم ثلاثة أيام أي طريق سلكنا، فإذا كان بعد ثلاثة أيام فلا ذمة لنا عندكم، فمن لقينا منكم بعد ثلاثة أيام وظفر بنا فنحن لهم عبيد إن شاء أسرنا

وإن شاء قتلنا. فقال خالد: قد أجبناك إلى ذلك، لكن لا تحملوا معكم من هذا البلد إلا الزاد الذي تتقوتون به.

قال أبو عبيدة لخالد: هذا كلام داع لنقض العهد والصلح إنما وقع بيننا أنهم يخرجون برجالهم وأموالهم. فقال خالد: سمحت لهم بذلك إلا الحلقة يعني السلاح فإني لا أطلق لهم شيئًا من ذلك. فقال توما: لابد لنا من السلاح نمنع به عن أنفسنا في طريقنا إن طرقنا طارق حتى نصل إلى بلدنا، وإلا فنحن بين أيديكم فاحكموا فينا بما أردتم. فقال أبو عبيدة: أطلق لكل واحد قطعة من السلاح إن أخذ سيفًا فلا يأخذ رمحًا، وإن أخذ رمحًا فلا يأخذ سيفًا، وإن أخذ قوسًا فلا يأخذ سكينًا. فقال توما لما سمع منهم ذلك الكلام: قد رضينا بذلك وما يريد كل واحد منا إلا قطعة من السلاح لا غير!

ثم قال توما لأبي عبيدة: إني خائف من هذا الرجل -أعني خالدًا بن الوليد- فليكتب لي بذلك قال أبو عبيدة: ثكلتك أمك إنا معاشر العرب لا نغدر ولا نكذب وإن الأمير أبا سليمان قوله قول وعهده عهد ولا يقول إلا الصدق. قال فانطلق توما وهربيس يجمعان قومهما ويأمرانهم بالخروج. قال وكان الملك له

خزانة ديباج في دمشق فيها زهاء من ثلاثمائة حمل ديباج وحلل مذهبة فعزم على إخراجها وأمر توما فضربت له خيمة من القزِّ ظاهر دمشق، وأقبلت الروم تخرج الأمتعة والأموال والأحمال حتى أخرجوا شيئًا عظيمًا! فنظر خالد بن الوليد إلى كثرة أحمالهم. فقال: ما أعظم رحالهم، ثم قرأ قوله تعالى: «وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ» (الزخرف:٣٣) ثم نظر خالد إلى القوم كأنهم حمر مستنفرة ولم يلتفت أحد إلى أخيه من شدة عجلتهم، فلما نظر خالد إلى ذلك رفع يديه إلى السماء، وقال: «اللهم اجعله لنا وملكنا إياه واجعل هذه الأمتعة قوتًا للمسلمين» آمين إنك سميع الدعاء، ثم أقبل على أصحابه وقال لهم: إني رأيت أنا رأيًا فهل أنتم تتبعوني عليه. فقالوا: نتبعك ولا نخالف لك أمرًا، فقال خالد: قوموا بخيلكم حق القيام وأحسنوا إليها ما استطعتم وأنجزوا سلاحكم فإني أسير بكم بعد ثلاثة أيام في طلب هؤلاء القوم وأرجو من الله أن يغنمنا هذه الغنيمة والأموال التي رأيتموها. وإن نفسي تحدثني أن القوم ما تركوا في دمشق متاعًا ولا ثوبًا حسنًا إلا وقد أخذوه معهم.

فقالوا: افعل ما تريد فما نخالف لك أمرًا، ثم أخذوا في إصلاح شأنهم، وتوما وهربيس قد جمعوا مال الرساتيق وجميع المال، فلما جمعوه جاءوا به إلى أبي عبيدة. فقال لهم: وفيتم بما عليكم فسيروا حيث شئتم فلكم الأمان منا ثلاثة أيام. قال يزيد بن ظريف: فلما سلموا المال لأبي عبيدة ارتحلوا سائرين كأنهم سواد مظلم، وكان قد خرج من القوم خلق كثير من أهل دمشق بأولادهم وكرهوا أن يكونوا في جوار المسلمين. واشتغل خالد عن اتباعهم بخلاف وقع بينهم وبين أهل دمشق في حنطة وشعير وجدوا في المدينة منه شيئًا كثيرًا. فقال أبو عبيدة: هو للقوم دخل في صلحهم فكادت الفتنة أن تثور بين أصحاب خالد وبين أصحاب أبي عبيدة، واتفق رأيهم أن يكتبوا كتابًا إلى أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - في ذلك وليس عندهم خبر أنه مات يوم دخولهم دمشق.

قال عطية بن عامر: كنت واقفًا على باب دمشق في اليوم الذي سارت فيه الروم مع توما وهربيس ومعهم ابنة الملك هرقل. قال فنظرت إلى ضرار بن الأزور وهو ينظر إلى القوم شزرًا ويتحسر على ما فاته منهم، فقلت له: يا ابن الأزور ما لي أراك كالمتحسر أما عند الله أكثر من ذلك؟ فقال: والله ما أعني مالًا

وإنما أنا متأسف على بقائهم وانفلاتهم منا، ولقد أساء أبو عبيدة فيما فعل بالمسلمين! فقلت: يا ابن الأزور ما أراد أمين الأمة إلا خيرًا للمسلمين أن يحقن دمائهم وأزواجهم من تعب القتال فإن حرمة رجل واحد خير مما طلعت عليه الشمس، وإن الله – سبحانه وتعالى – أسكن الرحمة في قلوب المؤمنين وإن الرب يقول في بعض الكتب المنزلة إنَّ الرَّب لا يَرحم من لا يَرحم. وقال تعالى: «وَالصُّلْحُ خَيْرٌ» (النساء:١٢٨). فقال ضرار: لعمري إنك لصادق! ولكن اشهدوا علي أنِّي لا أرحم من يجعل له زوجة وولدًا.

عن واثلة بن الأسقع قال: كنت مع خالد بن الوليد في جيش دمشق، وكان قد جعلني مع ضرار بن الأزور في الخيل التي تجوب من باب شرقي إلى باب توما إلى باب السلامة إلى باب الجابية إلى باب الصغير إلى باب قيان إذ سمعنا صرير الباب وذلك قبل فتوح الشام وإذا به قد خرج منه فارس فتركناه حتى قرب منا فأخذناه قبضًا بالكف وقلنا: إن تكلمت قتلناك فسكت وإذا قد خرج فارس آخر قام على الباب وجعل ينادي بالذي قد أخذناه، فقلنا له: كلمه حتى يأتي.

فرطن له بالرومية إن الطير في الشبكة فعلم أنه قد أسر فرجع وأغلق الباب. فأردنا قتله، فقال بعضنا: لا تقتلوه حتى نمضي به إلى خالد الأمير.

فأتينا به خالدًا، فلما نظر إليه قال له: من أنت؟ قال له: أنا من الروم وإنِّي تزوجت بجارية من قومي قبل نزولكم عليهم وكنت أحبها، فلما طال علينا حصاركم سألت أهلها أن يزفوها عليَّ فأبوا ذلك، وقالوا إن بنا شغلًا عن زفافك وكنت أحب أن ألقاها ولنا في المدينة ملاعب نلعب فيها فوعدتها أن نخرج إلى الملاعب فخرجت وتحدثنا فسألتني أن أخرج بها إلى خارج المدينة ففتحنا الباب وخرجت أنظر أخباركم فأخذني أصحابك فنادتني. فقلت: إن الطير وقع في الشبكة أحذرها منكم مخافة عليها ولو كان غيرها لهان عليَّ ذلك. فقال خالد: ما تقول في الإسلام؟ فقال: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله! فكان يقاتل معنا قتالًا شديدًا، فلما دخلنا المدينة صلحًا أقبل يطلب زوجته. فقيل له: إنها لبست ثياب الرهبانية فأقبل إليها وهي لا تعرفه. فقال لها: ما حملك على الرهبانية. قالت: حملني على ذلك أنِّي غررت بزوجي حتى أخذته العرب وترهبت حزنًا عليه. قال: أنا زوجك وقد دخلت في دين العرب. فلما

سمعت ذلك قالت: وما تريد؟ قال: أن تكوني في الذِّمة. فقالت: وحق المسيح لا كان ذلك أبدًا وما لي إلى ذلك سبيل! وخرجت مع البطريق توما، فلما نظر إلى امتناعها أقبل إلى خالد بن الوليد فشكا له حاله.

فقال له خالد: إن أبا عبيدة فتح المدينة صلحًا ولا سبيل لك إليها! ولما علم أن خالدًا يسير وراء القوم قال: أسير معه لعلي أقع بها. وأقام خالد بدمشق إلى اليوم الرابع، ثم أقبل إليه يونس الدمشقي زوج الجارية وقال: أيها الأمير قد عزمت على المسير في طلب هذين اللعينين توما وهربيس وأخذ ما معهما؟ قال: بلى. فقال له: وما الذي أقعدك عن ذلك؟ قال: بعد القوم وبيننا وبينهم أربعة أيام بلياليها وهم يسيرون سير الخوف ما يمكن اللحاق بهم.

فقال يونس: إن كان تخلفك لبعد المسافة بيننا وبينهم فأنا أعرف الديار وأسلك طريقًا فنلحقهم إن شاء الله تعالى، ولكن البسوا زي لخم وجذام –وهم العرب المتنصرة– وخذوا الزاد وسيروا. فسار خالد وأخذ عساكر الزحف وهم أربعة آلاف فارس فأمرهم أن يسيروا ويخففوا حمل الزاد ففعلوا ذلك، وخالد ومن معه قد صاروا ويونس الدليل أمامهم وهو يتبع آثار القوم وقد أوصى خالد

أبا عبيدة على المدينة والمسلمين. قال زيد بن طريف: وكان يونس دليلنا. فرأى آثار القوم وأنهم إذا سقط منهم حمل جمل تركوه، وسار خالد ومن معه كلما دخلوا بلد من بلاد الروم يظنون أنهم من العرب المتنصرة من لخم وجذام حتى أشرف بهم الدليل على ساحل البحر ونوى أن يطلب الأثر وإذا بالقوم قد عدوا أنطاكية ولم يدخلوها خيفة الملك.

فوقع للدليل عند ذلك حيرة في أمره فعدل إلى قرية هناك، وسأل بعضًا من الناس فأخبروه أن الخبر قد اتصل إلى الملك بأن توما وهربيس قد سلما دمشق للعرب فنقم عليهما ولم يدعهما يأتيان إليه، وذلك أنه جمع الجيوش وأرسلها إلى اليرموك فخاف أن يتحدثوا بشجاعة العرب وأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتضعف قلوبهم فبعث إلى توما ومن معه أن يسيروا إلى القسطنطينية، فلما علم يونس أن القوم عدلوا وأخذوا في طلب التحيز فكر في ذلك وغاب عن المسلمين فوقف خالد وصلى بالناس وإذا بيونس قد أقبل وقال: أيها الأمير إنِّي والله قد غررت بكم وبلغت الغاية في الطلب. قال خالد: وكيف الأمر؟ قال: أيها الأمير بعثتني في آثارهم في هذا المكان رجاء أن ألحقهم،

وأن الملك منعهم من الدخول إلى أنطاكية لئلا يرعبوا عسكره وأمرهم أن يطلبوا القسطنطينية، وقد قطع بينكم وبينهم هذا الجبل العظيم وأنتم في جبل هرقل وهو يجمع عسكره ويسير إلى حربكم وإني خائف عليكم إن تركتم هذا الجبل خلف ظهوركم هلكتم وبعد هذا فالأمر إليك وكل ما أمرتني به فعلت.

قال ضرار بن الأزور: فرأيت خالدًا وقد امتقع لونه كالخضاب... وكان ذلك منه جزعًا وما عهدت به ذلك. فقلت: يا أمير على ماذا عوَّلت؟ فقال: يا ضرار والله ما فزعت من الموت ولا من القتل، وإنما خفت أن يؤتى المسلمون من قبلي وإني رأيت قبل فتح دمشق منامًا أفزعني وأنا منتظر تأويله وأرجو أن يجعل الله لنا خيرًا وينصرنا على عدونا. فقال ضرار: خيرًا رأيت وخيرًا يكون إن شاء الله تعالى فما الذي رأيت؟ قال: رأيت المسلمين في برية قفرة ونحن سائرون فبينما نحن كذلك وإذا بقطيع من حمر الوحش كثيرة عظيمة أجسامها مهزولة أخفافها وهي لا تكدم برماحنا ونحن نضربها بأسيافنا وهي لا تكترث فيما نزل بها من الأذى ولا تهلع مما ينزل فلم نزل مثل ذلك حتى اجتهدنا واجتهدت خيولنا وأني أقبلت على أصحابي وفرقتهم عليها من أربعة جوانب

البرية وحملت عليهم فجفلت من أيدينا إلى مضايق وتلال وأودية خصبة فلم نأخذ منها إلا اليسير فبينما نحن نطبخ ونشوي لحومها وإذا هي قد رجعت تطلب الحرب منا، فلما نظرت إليها وقد طرحت المضايق والآجام صحت بالمسلمين اركبوا في طلبها بارك الله فيكم فاستوى المسلمون على خيولهم وركبت معهم وطلبناها حتى وقعت بها وتصيدت منها بعيرًا عظيمًا فقتلته فجعل المسلمون يقتلون ويتصيدون فما بقي منها إلا اليسير فبينما أنا فرح وأنا أريد الرجوع بالمسلمين إلى وطنهم إذ عثرت فرسي فطارت عمامتي من على رأسي فهويت لآخذها فانتبهت من منامي وأنا فزع مرعوب، فهل فيكم أحد يفسره؟ فإنِّي أقول الرؤيا ما نحن فيه.

فصعب ذلك على القوم وجعل خالد يراود نفسه على الرجوع فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -: أما تفسير الوحوش فهؤلاء الأعاجم الذين نحن في طلبهم، وأما سقوطك عن فرسك فإنه أمر تنحط عليه من رفعة إلى خفضة، وأما سقوط العمامة عن رأسك فالعمائم تيجان العرب وهي معرة تلحقك. فقال خالد: أسأل الله العظيم إن كان ذلك تأويل ما رأيته أن

يجعله من أمر الدنيا ولا يجعله من أمر الآخرة وبالله أستعين وعليه أتوكل في كل الأمور. ثم سار خالد والدليل أمامهم حتى قطعوا الجبل، فلما كانت الليلة التي أردنا أن نصبح فيها القوم أتى مطر كأفواه القرب وكان من توفيق الله – عز وجل – أن حبس القوم عن المسير. قال روح بن طريف – رضي الله عنه –: ولقد رأيتنا ونحن نسير والمطر ينزل علينا كأفواه القرب طول ليلتنا، فلما أصبح الصباح وطلعت الشمس قال يونس: أيها الأمير قف حتى أنظر القوم لأنهم لا شك بالقرب منا وقد سمعت صياحهم. فقال له خالد بن الوليد: أحقًا سمعت صياحهم يا يونس. قال: نعم أيها الأمير وأريد منك أن تأذن لي بالمسير إليهم وآتيك بخبرهم. قال فعند ذلك التفت خالد بن الوليد إلى رجل اسمه المفرط بن جعدة وقال له: يا مفرط سر مع يونس وكن له مؤنسًا واحذر أن يأخذ خبركما القوم! فقال المفرط: السمع والطاعة لله ولك أيها الأمير، ثم انطلقا إلى أن صعدا على جبل يقال له الأبرش والروم تسميه جبل باردة. قال المفرط: فلما علونا عليه وجدنا مرجًا واسعًا كثير الجنبات كثير النبات وفيه خضرة عظيمة، وإن القوم قد أصابهم المطر حتى بل رحالهم وقد حميت عليهم الشمس فخافوا

إتلافها فأخرجوها وأخرجوا الديباج ونشروها في طول المرج، وقد نام أكثرهم من شدة السير والتعب والمطر الذي أصابهم.

قال المفرط بن جعدة: فلما رأيت ذلك فرحت فرحًا شديدًا ورجعت إلى خالد بن الوليد وتركت صاحبي يونس، فلما رآني خالد وحدي أسرع إلي وظن أن صاحبي كيد. فقال: ما وراءك يا ابن جعدة أخبرني وعجِّل بالخبر؟ فقلت: الخير والغنيمة يا أمير وإن القوم خلف هذا الجبل وقد أصابهم المطر وقد وجدوا الراحة بطلوع الشمس وقد نشروا أمتعتهم. فقال: بشرك الله بالخير! ثم ظهر لي من وجهه الخير والفرح والسرور.

فبينما نحن كذلك وإذا بيونس قد أقبل فقال له خالد: خيرًا! فقال له: أبشر أيها الأمير فإن القوم أمنوا على أنفسهم، ولكن أوص أصحابك أن كل من وقع بزوجتي فليحفظها فما أريد من الغنيمة سواها. فقال له خالد: هي لك إن شاء الله تعالى، ثم إن خالدًا قسم أصحابه أربع فرق فأمَّر ضرار بن الأزور على ألف فارس، وعلى الألف الثاني رافع بن عميرة الطائي، وعلى الألف الثالث عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وبقي هو في الفرقة الرابعة. وقال: سيروا على بركة

الله تعالى وإياكم أن تخرجوا إليهم دفعة واحدة، بل يخرج كل أمير منكم بينه وبين صاحبه قدر ساعة، ثم افترق القوم وحمل ضرار بن الأزور والروم مطمئنون وحمل من بعده رافع بن عميرة الطائي، ثم عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، ثم خالد بن الوليد سار في آخر القوم حتى وصلوا المرج. قال عبيد بن سعيد: والله لقد كدنا أن نفتن من حسن منظره فزعق فينا خالد بن الوليد وقال: عليكم بأعداء الله ولا تشتغلوا بالغنائم ولا بالنظر إلى المرج فإنها لكم إن شاء الله تعالى.

ثم عطف خالد بن الوليد - رضي الله عنه - على الروم، وقد نظرت الروم إلى الخيل وقد خرجت عليهم وخالد أمامهم، فعلموا أنها خيول المسلمين فبادروا إلى السلاح وركبوا الخيل وقال بعضهم لبعض: إنها خيل قليلة ساقها المسيح إليكم وجعلها غنيمة لكم فبادروا إليها. قال فتبادر الروم وهم يظنُّون أن ليس وراء خالد أحدًا، وإذا بضرار بن الأزور قد خرج عليهم في ألف فارس وطلع رافع بن عميرة الطائي بعده وطلع عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق بعدهم وطلبت كل كتيبة فرقة من الروم وتفرقوا من حولهم وطلبوا ما في أيديهم

وقد رفعوا أصواتهم يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله وانصبت خيل المسلمين على الروم كأنها السيل المنحدر ونادى «هربيس» برجاله قاتلوا عن نعمكم فما لهؤلاء القوم حيلة ولا يخلصون من هذا المكان أبدًا. فانقسمت الروم طائفة معه وطائفة مع «توما» فكان من طلب خالدًا «توما» وقد أحدق به خمسمائة فارس وقد رفع بين عينيه صليبًا من الجوهر مقمعًا بالذهب الأحمر فعدل خالد وحمل عليه وقال: يا عدو الله أظننتم أنكم تفلتون منَّا والله تعالى يطوي لنا البلاد؟! وكان توما أعور عورته امرأة أبان! فحمل عليه وطعنه في عينه الأخرى ففقأها وأرداه عن جواده، وحمل أصحابه على رجال توما ولله در عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -، فإنه لما نظر إلى توما وقد سقط عن جواده نزل وجلس على صدره واحتزَّ رأسه ورفعها على السنان ونادى قد قتل والله توما اللعين فاطلبوا هربيس. ففرح المسلمون بذلك.

قال رافع بن عميرة الطائي: كنت في الميمنة مع خالد بن الوليد إذ نظرت إلى فارس زيه زي الروم، وقد نزل عن جواده، وهو يقاتل علجة من نساء الروم وهي تظهر عليه مرة فدنوت أنظرها. فإذا هو يونس الدليل وهو يقاتل زوجته

ويصارعها صراع الأسد. قال رافع: فدنوت أن أتقدم إليهما فأعينه فقصد إليَّ عشرة من النساء يرمين قوسي بالحجارة فخرج حجر كبير من امرأة حسناء عليها ثياب الديباج. قال فوقع الحجر في جبهة جوادي فانكب على رأسه، وكان جوادًا شهدت عليه اليمامة فسقط الجواد «ميتا». قال فأسرعت في طلبها فهربت من بين يدي كأنها ظبية القناص وهربت النساء من ورائها فلحقتهن وقصدت قتلهن وزعقت عليهن وكنت أريد قتلهن وما لي قصد إلا الجارية التي قتلت حصاني فدنوت منها وعلوت بالسيف على رأسها فجعلت تقول الغوث الغوث فرجعت عن قتلها وأقبلت إليها، وإذا عليها ثياب الديباج وعلى رأسها شبكة من اللؤلؤ فأخذتها أسيرة من النساء وأوثقتها كتافًا، ورجعت على أثري فركبت جوادًا من خيل الروم.

ثم قلت: والله لأمضين وأنظر ما كان من أمر يونس فوجدته، وهو جالس وزوجته بجانبه وقد تلطخت بدمائها وهو يبكي عليها، فلما رأيتها قلت لها أسلمي، فقالت: لا وحق المسيح لا اجتمعت أنا وأنتم أبدًا. ثم أخرجت سكينًا كانت معها فقتلت بها نفسها. فقلت: إن الله - عز وجل - أبدلك من هي أعظم

منها وعليها ثياب الديباج وشبكة من اللؤلؤ وهي كأنها القمر فخذها لك بدلًا عن زوجتك. فقال: أين هي؟ فقلت: ها هي معي. فلما نظر إليها وإلى ما عليها من الحلي والزينة وتبين حسنها وجمالها راطنها بالرومية وسألها عن أمرها فرطنت عليه وهي تبكي فالتفت إليَّ، وقال لي: أتدري من هذه؟ قلت: لا. فقال: هذه ابنة الملك هرقل زوجة توما وما مثلي يصلح لها، ولابد لهرقل من طلبها ويفديها بماله.

وافتقد المسلمون خالدًا فلم يجدوا له أثرًا فقلقوا عليه قلقًا عظيمًا وخالد - رضي الله عنه - غائص في المعركة وقصد اللعين هربيس بعد قتل توما، فبينما هو يحمل يمينًا وشمالًا إذ نظر علجًا من علوج الرومان عظيم الخلقة أحمر اللون فظن خالد أنه اللعين فأطلق جواده نحوه وطلبه طلبًا شديدًا ليقتله، فلما نظر إليه العلج وإلى حملته فر هاربًا من بين يديه فوكزه خالد بالرمح، وإذا هو واقع على الأرض على أم رأسه فانقض عليه خالد كالأسد، وهو يقول: ويلك يا هربيس أظننت أنك تفوتني وذلك العلج يعرف العربية. فقال: يا عربي ما أنا هربيس فأبق عليَّ ولا تقتلني. فقال خالد: ما لك من يدي خلاص إلا إذا كنت

تدلني على هربيس. فإذا دللتني عليه أطلقتك. فقال له العلج: أئذا دللتك عليه تطلقني؟ فقال خالد: نعم لك ذلك. فقال العلج: يا أخا العرب قم من على صدري حتى أدلك عليه، فقام خالد من على صدره فوثب العلج ونظر يمينًا وشمالًا، ثم قال لخالد: أترى هذا الجبل وهذه الخيل الصاعدة اقصدها فإن هربيس فيها. قال فوكل خالد بالعلج واحدًا، وهو ابن جابر ثم أطلق عنان جواده حتى لحق بهم وصرخ عليهم، وقال: يا ويلكم أنَّى لكم مني خلاص. فلما سمع هربيس ذلك ظنه من بعض العرب فزعق فيه ورجع ورجعت البطارقة بالسلاح. فقال لهم خالد: يا ويلكم ظننتم أن الله لا يمكننا منكم أنا الفارس الصنديد أنا خالد بن الوليد. ثم طعن فارسًا فرماه وآخر فأرداه. فلما سمع هربيس كلام خالد، قال لأصحابه: يا ويلكم هذا الذي قلب الشام على أصحابه، هذا صاحب بصرى وحوران ودمشق وأجنادين دونكم وإياه قال فطمع القوم فيه لانفراده عن أصحابه، وكان المسلمون في قتال الروم ونهب الأموال وكل منهم مشتغل بنفسه.

فترجلت البطارقة حول خالد لأنهم في جبل كثير الوعر وأحاطوا بخالد بن الوليد فعندها ترجل عن جواده وأخذ سيفه وحجفته وصبر لقتالهم وقال: قد صحت الرؤيا! فلما ترجل أقبل يقاتل بنفسه وأقبل إليه هربيس، وهو مشتغل بالقتال وأتاه من ورائه وضرب خالدًا بالسيف فوقع السيف على البيضة فقدَّها، وقدَّ عمامته وانقض السيف من يد هربيس وخاف خالد أن يلتفت إلى ورائه فتهجم عليه الروم وخاف أن يفلت هربيس من بين يديه فعند ذلك صاح بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير كأنه مستبشر بشيء أغاثه أو أدركه وذلك خديعة منه وحيلة يريد بها أن يتمكن من الأعلاج. فبينما هو كذلك إذ سمع من المسلمين زعقات، وقد أخذت الروم من ورائهم وهم يصيحون بالتهليل والتكبير وقائل يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله أتاك النصر من رب العالمين أنا عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق. فلما سمع خالد صوته لم يلتفت إلى عبد الرحمن ولا إلى من معه ومضى يفرق الأعلاج ذات اليمين وذات الشمال، ولما أن سمع اللعين هربيس أصوات المسلمين أراد الهرب فلحقه سيدنا خالد وضربه ضربة فأرداه قتيلًا وعجل الله بروحه إلى النار. واستطال أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على أصحاب هربيس

ونزلوا فيهم بالسيف حتى أبادوهم عن آخرهم، وكان أكثرهم قتلى بيد ضرار بن الأزور.

فلما انكشف الكرب عن خالد ونظر إلى ما فعل ضرار. قال: أفلح الله وجهك يا ابن الأزور فما زلت مباركًا في كل أفعالك أنجح الله أعمالك وأصلح ربي حالك. ثم سلم على عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وعلى المسلمين، وقال: من أين علمتم مكاني هذا؟ فقال عبد الرحمن: يا أمير بينما نحن في قتال الروم، وقد نصرنا الله عليهم والمسلمون قد اشتغلوا بالغنائم إذ سمعنا هاتفًا من الهواء يقول: اشتغلتم بالغنائم وخالد قد أحاطت به الروم. فلما سمعنا ذلك لم ندر أي مكان أنت فيه، وفقدنا شخصك فدلنا عليك علج كان بيد رجل من أصحابك، وقال: إن صاحبكم أنا الذي دللته على هربيس وإنه معه في هذا الجبل فسرنا إليك. فقال خالد: لقد دلنا على عدونا؟ ودل علينا المسلمين، وقد وجب له الحق علينا! ورجع خالد وأصحابه إلى المسلمين، فلما رأوه بادروا وسلموا عليه فرد عليهم السلام. ثم إن خالدًا - رضي الله عنه - دعا بذلك العلج الذي دله على هربيس، وقال له: إنك وفيت لنا ونريد أن

نوفي لك بما وعدناك لأنك نصحت لنا فهل لك أن تكون من أصحاب دين الصلاة والصيام وملة محمد - صلى الله عليه وسلم - فتكون من أهل الجنة، فقال: ما أريد بديني بدلًا! فأطلق خالد سبيله. قال نوفل بن عمرو: فرأيته قد استوى على ظهر جواده يطلب بلاد الروم وحده.

ثم إن خالدًا - رضي الله عنه - أمر بجمع الغنائم والأسارى فجمع ذلك إليه، فلما رأى كثرته حمد الله تعالى وشكره وأثنى عليه ودعا بدليله يونس النجيب. ثم قال له: ما فعلت بزوجتك؟ فحدثه بحديثه معها، وما كان من أمرها فعجب من ذلك، فقال رافع بن عميرة: أيها الأمير إني أسرت ابنة الملك هرقل، وقد سلمتها إليه بدلًا من زوجته. فقال خالد: وأين ابنة الملك هرقل؟ فمثلت بين يديه فنظر إلى حسنها وجمالها وما منحها الله به من الجمال فصرف وجهه عنها، وقال: سبحانك اللهم وبحمدك تخلق ما تشاء وتختار. ثم قرأ قوله تعالى: «وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ» (القصص:٦٨)، ثم قال ليونس: أتريدها بدلًا من زوجتك؟ قال: نعم ولكني أعلم أن الملك هرقل لابد له أن يفديها بالأموال أو يخلصها بالقتال. فقال خالد: خذها لك الآن فإن لم يطلبها فهي لك، وإن

طلبها فالله يعوضك خيرًا منها. فقال يونس: أيها الأمير إنك في مكان ضيق ومكان صعب فاعزم على الخروج قبل أن يلحق نفير القوم. فقال خالد: الله لنا ومعنا وعطف راجعًا يجد في مسيره والغنائم أمامه والمسلمون في أثره فرحين بالغنيمة والسلامة والنصر.

قال روح بن عطية: فقطعنا الطريق كلها وما عرض لنا من الروم أحد ونحن نخوض في وسط ديار القوم خوضًا، فلما وصلنا مرج الصغير عند قنطرة أم حكيم نظرنا إلى غبرة من وراءنا.

فلما عايناها أنكرنا ذلك فأسرع رجال من المسلمين إلى خالد يخبرونه بالغبرة. قال: أيكم يأتيني بخبرها؟ فبادر بالإجابة رجل من غفار يقال له صعصعة بن يزيد الغفاري. قال: أنا أيها الأمير. ثم نزل عن جواده، وكان بجريه يسبق الفرس الجواد لقوة عزمه فورد الغبرة واختبرها ورجع على عقبه، وهو ينادي: أيها الأمير أدركنا الصلبان من ورائنا وهم مصفدون في الحديد لم يبن منهم غير حماليق الحدق، فدعا خالد بيونس الدليل عندما قاربته الخيل وقال: يا يونس اقصد نحو الخيل وانظر ما يريدون. فقال: السمع والطاعة. ثم دنا من

الخيل وقاربهم، ثم رجع إلى خالد، وقال له: ألم أقل لك أيها الأمير إن هرقل لا يغفل عن طلب ابنته وقد أنفذ هذه الخيل يريدون أن يأخذوا الغنيمة من أيدي المسلمين، فلما لحقوك هاهنا قريبًا من دمشق بعثوا رسولًا يسألك في الجارية إما بيعها وإما هدية، فبينما خالد يتحدث إذ أقبل إليه شيخ عليه لبس المسوح فأقبل حتى دنا من المسلمين فأوقفوه أمام خالد، وقال له: قل ما تشاء. فقال الشيخ: أنا رسول الملك هرقل وإنه يقول لك بلغني ما فعلت برجالي وقتلت توما زوج ابنتي وهتكت حرمتي، وقد ظفرت وسلمت فلا تفرط بمن معك، والآن إما أن تبيع ابنتي أو تهديها إليَّ فالكرم شيمتكم وطبعكم ولا يُرحم من لا يَرحم وإني أرجو أن يقع بيننا الصلح! فلما سمع خالد ذلك قال للشيخ: قل لصاحبك والله لا رجعت عنه وعن أهل ملته حتى أملك سريره وما تحت قدميه، كما في علمك، وأما إبقاؤك علينا فلو وجدت إلى ذلك من سبيل فما قصرت، وأما ابنتك فهي لك هدية منا! ثم إن خالدًا أطلق ابنة الملك هرقل وسلمها للشيخ ولم يأخذ في فدائها شيئًا، فلما بلَّغ ذلك الرسول إلى الملك هرقل قال لعظماء الروم: هذا الذي أشرت عليكم فلم تقبلوه وأردتم قتلي وسيكون الأمر أعظم، ولكن ليس هذا منكم بل هو من رب السماء! فبكت الروم بكاءً شديدًا!

وسار خالد حتى أتى دمشق، وكان المسلمون وأبو عبيدة قد أيسوا من خالد ومن معه فهم في أعظم القلق والإياس إذ قدم عليهم خالد - رضي الله عنه - والمسلمون فخرجوا إلى لقائه وهنئوه بالسلامة وسلم المسلمون بعضهم على بعض ووجد خالد في دمشق عمرو بن معد يكرب الزبيدي ومالك بن الأشتر النخعي ومن كان معهما وأقبل خالد إلى جانب أبي عبيدة، وهو يحدثه بما لاقى في غزوته وأبو عبيدة يتعجب من شجاعته وجسارته، فلما استقر بخالد مكانه أخذ الخمس من الغنائم وفرق الباقي على المسلمين ثم إن خالدًا أعطى من ماله ليونس، وقال: خذ هذا فتزوج به أو اشتر به جارية لك من بنات الروم. قال يونس: والله لا أتزوج في هذه الدار الدنيا زوجة أبدًا وما أريد إلا أن أتزوج في الآخرة بعيناء من الحور العين. قال رافع بن عميرة الطائي: فشهد معنا القتال إلى يوم اليرموك فما كنت أراه في حرب إلا ويجاهد جهادًا عظيمًا، وقد أبلى في الروم بلاء حسنا فأتاه سهم في لبته فخرَّ «ميتا» رحمه الله تعالى. قال رافع: فحزنت عليه وأكثرت من الترحم عليه فرأيته في النوم وعليه حلل تلمع وفي رجليه نعلان من ذهب وهو يجول في روضة خضراء، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وأعطاني بدلًا من زوجتي سبعين حوراء لو بدت واحدة منهن في

الدنيا لكفَّ ضوء وجهها نور الشمس والقمر فجزاكم الله خيرًا! فقصصت الرؤيا على خالد، فقال: ليس والله سوى الشهادة، طوبى لمن رزقها.

كتب خالد بالفتح

قال الواقدي: ولقد بلغني أن خالدًا - رضي الله عنه - لما رجع من غزوته ومسيره غانمًا ظن أن الخليفة أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - حي لم يقبض فهم أن يكتب له كتابًا بالفتح والبشارة وما غنم من الروم، وأبو عبيدة لا يخبره بذلك ولا يعلمه أن الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، فدعا خالد بدواة وبياض وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله خليفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من عامله على الشام خالد بن الوليد. أما بعد سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - ثم إنا لم نزل في مكابدة العدو على حرب دمشق حتى أنزل الله علينا نصره وقهر عدوه وفتحت دمشق عنوة بالسيف من باب شرقي، وكان أبو عبيدة على باب الجابية فخدعته الروم فصالحوه على الباب الآخر ومنعني أن أسبي وأقتل ولقيناه على كنيسة يقال لها كنيسة مريم وأمامه القسس والرهبان ومعهم كتاب

الصلح، وإن صهر الملك توما وآخر يقال له هربيس خرجا من المدينة بمال عظيم وأحمال جسيمة فسرت خلفها في عساكر الزحف وانتزعت الغنيمة من أيديهما وقتلت الملعونين وأسرت ابنة الملك هرقل، ثم أهديتها إليه ورجعت سالمًا، وأنا منتظر أمرك والسلام عليك، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وطوى الكتاب وختمه بخاتمه، ودعا برجل من العرب يقال له عبد الله بن قرط فدفع إليه الكتاب وسار إلى مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فوردها والخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقرأ عنوان الكتاب، وإذا هو: من خالد إلى خليفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال عمر: أما عرف المسلمون وفاة أبي بكر - رضي الله عنه -؟! فقال: لا يا أمير المؤمنين، فقال: قد وجهت بذلك كتابًا إلى أبي عبيدة وأمَّرته على المسلمين وعزلت خالدًا وما أظن أبا عبيدة يريد الخلافة لنفسه، فسكت وقرأ الكتاب.

قال أصحاب السير في حديثهم ممن تقدم ذكرهم وإسنادهم في أول الكتاب جميعًا في أخبارهم: إنه لما قبض أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - وولي الأمر بعده عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وله من العمر اثنتان وخمسون سنة

بايعه الناس في مسجد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بيعة تامة ولم يتخلف عن مبايعته أحد لا صغير ولا كبير، وانقطع في إمارته الشقاق والنفاق، وانحسم الباطل وقام الحق، وقوي السلطان في إمارته وضعف كيد الشيطان وظهر أمر الله وهم كارهون، ومن أمره أنه كان يجلس مع الفقير ويتلطف بالناس والمسلمين ويرحم الصغير ويوقر الكبير ويعطف على اليتيم وينصف المظلوم من الظالم حتى يرد الحق إلى أهله ولا تأخذه في الله لومة لائم، وكان في إمارته يدور في أسواق المدينة وعليه مرقعة وبيده درته وكانت درته أهيب من سيف الملوك وسيوفكم هذه، وكان قوته في كل يوم خبز الشعير وأدمه الملح الجريش، وربما أكل خبزه بغير ملح تزهدًا واحتياطًا وترفقًا على المسلمين ورأفة ورحمة لا يريد بذلك إلا الثواب من الله – سبحانه وتعالى – ولا يشغله شاغل عن أداء الفريضة وما أوجب الله عليه من حقوقه وسنة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام.

قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد تولى والله عمر بن الخطاب الخلافة فجد في التشمر وترك عن نفسه التكبر، ولقد كان أحرقه خبز الشعير والملح وأراد

أكل الزيت واليابس من التمر، وربما أخذ شيئًا من السمن، ويقول: أكلت الزيت وخبز الشعير والملح والجوع أهون غدًا من نار جهنم، من حل بها لم يمت ولم يجد فيها راحة أبدًا، قرارها بعيد وعذابها شديد وشرابها الصديد لا يؤذن لهم فيعتذرون! جنَّد الجنود في إمارته وبعث العساكر وفتح الفتوحات ومصَّر الأمصار، وكان يخاف عذاب النار، - رضي الله عنه -.

قال الواقدي رحمه الله تعالى: ولقد بلغني أن هرقل لما بلغه أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قد ولي الأمر من بعد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - جمع الملوك والبطارقة وأرباب دولته وقام فيهم خطيبًا على منبر قد نصب له في كنيسة القسيسين، وقال: يا بني الأصفر، هذا الذي كنت أحذركم منه فلم تسمعوا مني، وقد اشتد الأمر عليكم بولاية هذا الرجل الأسمر وقد دنا موعد صاحب الفتوح المشبه بنوح، والله ثم والله لابد أن يملك ما تحت سريري هذا، الحذر ثم الحذر قبل وقوع الأمر ونزول الضرر، وهدم القصور وقتل القسس وتبطيل الناقوس، هذا صاحب الحرب والجالب على الروم والفرس الكرب، هذا الزاهد في دنياه، وهذا الغليظ على من اتبع في غير ملته هواه، وإني

أرجو لكم النصر إن أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر وتركتم الظلم، واتبعتم المسيح في أداء المفروضات ولزوم الطاعات، وترك الزنا وأنواع الخطايا، وإن أبيتم إلا الفساد والفسوق والعصيان والركون إلى شهوات الدنيا يسقط الله عليكم عدوكم ويبلوكم بما لا طاقة لكم به، ولقد أعلم أن دين هؤلاء سيظهر على كل دين ولا يزال أهله بخير ما لم يغتروا ويبدِّلوا، فإما أن ترجعوا إليه، وإما أن تصالحوا القوم على أداء الجزية، فلما سمع القوم ذلك نفروا وبادروا إليه وهمُّوا بقتله فسكَّن غضبهم بلين كلامه ولاطفهم. وقال لهم: إنما أردت أن أرى حميتكم لدينكم وهل تمكن خوف العرب في قلوبكم أم لا؟

ثم استدعى برجل من المتنصرة يقال له طليعة بن ماران وضمن له مالًا، وقال له: انطلق من وقتك هذا إلى يثرب وانظر كيف تقتل عمر بن الخطاب، فقال له طليعة: نعم أيها الملك. ثم تجهز وسار حتى ورد مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكمن حولها، وإذا بعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - خرج يشرف على أموال اليتامى ويتفقد حوائجهم فصعد المتنصر إلى شجرة ملتفة الأغصان فاستتر بأوراقها، وإذا بعمر - رضي الله عنه - قد أقبل إلى أن

قرب من الشجرة التي عليها المتنصر ونام على ظهره وتوسد بحجر، فلما نام هَمَّ المتنصر أن ينزل إليه ليقتله، وإذا بسبع أقبل من البرية فطاف حوله وأقبل يلحس قدميه، وإذا بهاتف يقول: يا عمر عدلت فأمنت، فلما استيقظ عمر - رضي الله عنه - ذهب السبع ونزل المتنصر وترامى على عمر - رضي الله عنه - فقبَّل يديه، وقال: بأبي أنت وأمي أفدي من الكائنات من السباع تحرسه والملائكة تصفه والجن تعرفه، ثم أعلمه بما كان منه وأسلم على يديه.

قال الواقدي: ثم إنَّ عمرًا - رضي الله عنه - كتب كتابًا لأبي عبيدة بن الجراح يقول فيه: قد وليتك على الشام وجعلتك أميرًا على المسلمين وعزلت خالد بن الوليد والسلام. ثم سلم الكتاب إلى عبد الله بن قرط وأقام قلقًا على ما يرد عليه من أمور المسلمين وصرف همته إلى الشام.

تولية أبي عبيدة

قال الواقدي: حدثني عبد الله بن سالم الثقفي عن أشياخه الثقات قال: لما كانت الليلة التي مات فيها أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - رأى عبد الرحمن بن عوف الزهري - رضي الله عنه - رؤيا قصها على عمر - رضي الله عنه -،

وكانت تلك الليلة بعينها، قال: رأيت دمشق والمسلمون حولها وكأني أسمع تكبيرهم في أذني وعند تكبيرهم وزحفهم رأيت حصنًا قد ساخ في الأرض حتى لم أر منه شيئًا ورأيت خالدًا، وقد دخلها بالسيف وكأن نارًا أمامه وكأنه وقع على النار فانطفأت، فقال الإمام - رضي الله عنهم -: أبشر فقد فتح الشام هذه الليلة أو قال: يومك هذا إن شاء الله تعالى.

فبعد أيام قدم عقبة بن عامر الجهني صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومعه كتاب الفتح، فلما رآه قال: يا ابن عامر كم عهدك؟ قال: قلت يوم الجمعة. قال: ما معك من الخبر؟ فقلت: خير وبشارة وإني سأذكرها بين يدي الصديق - رضي الله عنه -. فقال: قبض والله حميدًا وصار إلى رب كريم، وقلدها عمر الضعيف في جسمه فإن عدل فيها نجا وإن ترك أو خلط هلك. قال عقبة بن عامر: فبكيت وترحمت على أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -، وأخرجت الكتاب فدفعته إليه، فلما قرأه نظر فيه وكتم الأمر إلى وقت صلاة الجمعة. فلما خطب وصلى ورقى المنبر واجتمع المسلمون إليه قرأ عليهم كتاب الفتح، فضج المسلمون بالتهليل والتكبير وفرحوا، ثم نزل عن المنبر

وكتب إلى أبي عبيدة – رضي الله عنه – بتوليته وعزل خالد، ثم سلمني الكتاب وأمرني بالرجوع.

فرجعت إلى دمشق فوجدت خالدًا قد سار خلف توما وهربيس فدفعت الكتاب إلى أبي عبيدة فقرأه سرًا ولم يخبر أحدًا بموت أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – ثم كتم أمره وكتم عزل خالد وتوليته على المسلمين حتى ورد خالد من السرية فكتب الكتاب بفتح دمشق ونصرهم على عدوهم وبما ملكوا من مرج الديباج وإطلاق بنت الملك هرقل وسلم الكتاب إلى عبد الله بن قرط، فلما ورد به إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –، وقرأ عنوان الكتاب من خالد بن الوليد إلى أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – أنكر الأمر ورجعت حمرته إلى البياض، وقال: يا ابن قرط أما علم الناس بموت أبي بكر – رضي الله عنه – وتوليتي أبا عبيدة بن الجراح؟ قال عبد الله بن قرط: قلت: لا، فغضب وجمع الناس إليه وقام على المنبر. ثم قال: يا معاشر الناس إني أمَّرت أبا عبيدة الرجل الأمين، وقد رأيته لذلك أهلًا، وقد عزلت خالدًا عن إمارته، فقال رجل من بني مخزوم: أتعزل رجلًا قد أشهر الله بيده سيفًا قاطعًا ونصر به دينه، وإن

الله لا يعذرك في ذلك ولا المسلمين إن أنت أغمدت سيفًا وعزلت أميرًا أمَّره الله لقد قطعت الرحم! ثم سكت الرجل، فنظر عمر - رضي الله عنه - إلى الرجل المخزومي فرآه غلامًا حدث السن، فقال شاب حدث السن غضب لابن عمه، ثم نزل عن المنبر وأخذ الكتاب وجعله تحت رأسه، وجعل يؤامر نفسه في عزل خالد.

فلما كان من الغد صلى صلاة الفجر وقام فرقي المنبر خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه وذكر الرسول - صلى الله عليه وسلم - فصلى عليه وترحم على أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -، ثم قال: أيها الناس إني حملت أمانة عظيمة وإني راع وكل راع مسؤول عن رعيته، وقد جئت لإصلاحكم والنظر في معايشكم وما يقربكم إلى ربكم أنتم ومن حضر في هذا البلد فإني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «من صبر على أذاها وشرها كنت له شفيعًا يوم القيامة» وبلادكم بلاد لا زرع فيها ولا ضرع ولا ما أوقر به الإبل إلا من مسيرة شهر، وقد وعدنا الله مغانم كثيرة وإني أريدها للخاصة والعامة لأولي الأمانة والتوقير للمسلمين... وما كرهت ولاية خالد على المسلمين إلا لأن

خالدًا فيه تبذير المال يعطي الشاعر إذا مدحه ويعطي للمجاهد والفارس بين يديه فوق ما يستحقه من حقه ولا يبقي لفقراء المسلمين ولا لضعفائهم شيئًا! وإني أريد عزله وولاية أبي عبيدة مكانه والله يعلم أني ما وليته إلا أمينًا فلا يقول قائلكم: عزل الرجل الشديد وولى الأمين اللين للمسلمين فإن الله معه يسدده ويعينه.

ثم نزل عن المنبر وأخذ جلد أدم منشور وكتب إلى أبي عبيدة كتابًا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - وبعد، فقد وليتك أمور المسلمين فلا تستحي فإن الله لا يستحي من الحق، وإني أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه والذي استخرجك من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، وقد استعملتك على جند ما هنالك مع خالد فاقبض جنده واعزله عن إمارته ولا تنفذ المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ولا تنفذ سرية إلى جمع كثير ولا تقل

إني أرجو لكم النصر فإن النصر إنما يكون مع اليقين والثقة بالله، وإياك والتغرير بإلقاء المسلمين إلى الهلكة، وغض عن الدنيا عينيك وأَلْهِ عنها قلبك.

وإياك أن تهلك كما هلك من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم وخبرت سرائرهم وإنما بينك وبين الآخرة ستر الخمار وقد تقدم فيها سلفك وأنت كأنك منتظر سفرًا ورحيلًا من دار قد مضت نضرتها وذهبت زهرتها! فأحزم الناس فيها الراحل منها إلى غيرها ويكون زاده التقوى. وراع المسلمين ما استطعت، وأما الحنطة والشعير الذي وجدت بدمشق وكثرت في ذلك مشاجرتكم فهو للمسلمين، وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس والسهام، وأما اختصامك أنت وخالد في الصلح أو القتال فأنت الولي وصاحب الأمر وإن صلحك جرى على الحقيقة أنها للروم فسلم إليهم ذلك والسلام ورحمة الله وبركاته عليك وعلى جميع المسلمين. وأما هديتك ابنة الملك هرقل فهديتها إلى أبيها بعد أسرها تفريط، وقد كان يأخذ في فديتها مالًا كثيرًا يرجع به على الضعفاء من المسلمين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وطوى الكتاب وختمه بخاتمه، ثم دعا بعامر بن أبي وقاص أخي سعد ودفع الكتاب إليه، وقال

له: انطلق إلى دمشق وسلم كتابي هذا إلى أبي عبيدة وأمره أن يجمع الناس إليه واقرأه أنت على الناس يا عامر وأخبره بموت أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - ثم دعا عمر - رضي الله عنه - بشداد بن أوس فصافحه، وقال له: امض أنت وعامر إلى الشام فإذا قرأ أبو عبيدة الكتاب فأمر الناس يبايعونك لتكون بيعتك بيعتي.

فانطلقا يجدَّان في السير إلى أن وصلا إلى دمشق والناس مقيمون بها ينتظرون ما يأتيهم من خبر أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وما يأمرهم به فأشرف صاحبا عمر - رضي الله عنه - على المسلمين، وقد طالت أعناقهم إليهما وفرحوا بقدومهما فأقبلا حتى نزلا في خيمة خالد - رضي الله عنه - وقال له عامر بن أبي وقاص: تركته -يعني عمر- بخير ومعي كتاب وإنه أمرني أن أقرأه على الناس بالاجتماع فاستنكر خالد ذلك واستراب الأمر وجمع المسلمين إليه فقام عامر بن أبي وقاص فقرأ الكتاب فلما انتهى إلى وفاة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - ارتفع للناس ضجة عظيمة بالبكاء والنحيب وبكى خالد - رضي الله عنه -، وقال: إن كان أبو بكر قد قبض وقد استخلف

عمر فالسمع والطاعة لعمر وما أمر به وقرأ عامر الكتاب إلى آخره، فلما سمع الناس بما فيه من أمر المبايعة لشداد بن أوس بايعوه، وكانت المبايعة بدمشق لثلاث خلت من شهر شعبان سنة ثلاث عشر من الهجرة.

قال الواقدي رحمه الله تعالى: قد بلغني أن خالدًا كان على العدو بعد عزله أشد فظاعة وأصعب جهادًا لاسيما في حصن أبي القدس.

ذكر حديث وقعة أبي القدس

قال الواقدي: سألت من حدث بهذا الحديث عن حصن أبي القدس قال: ما بين عرقا وطرابلس مرج يقال له مرج السلسلة وكان بإزائه دير وفيه صوامع وفيه صومعة راهب عالم بدين النصرانية وقد قرأ الكتب السالفة وأخبار الأمم الماضية المتقدمة وكانت تقصده الروم وتقتبس من علمه وله من العمر ما ينوف عن مائة سنة، وكان في كل سنة يقوم عند ديره عيد آخر صيام الروم وهو عيد الشعانين فتجتمع الروم والنصارى وغيرهم من جميع النواحي والسواحل ومن قبط مصر ويحدقون به فيطلع عليهم من ذروة له فيعلمهم ويوصيهم بوصايا الإنجيل، وكان يقوم في ذلك العيد سوق عظيم من السنة إلى السنة، وكان يحمل

له الأمتعة والذهب والفضة ويبيعون ويشترون ثلاثة أيام، وما كان المسلمون يعلمون بذلك ولا يعرفونه حتى دلهم عليه رجل نصراني من المعاهدين وقد اصطفاه أبو عبيدة وأمنَّه وأهله.

فلما ولي أبو عبيدة أمر المسلمين أراد ذلك المعاهد أن يتقرب إلى أبي عبيدة – رضي الله عنه – فعسى أن يكون فتح الدير والسوق على يديه فأقبل إليه وأبو عبيدة قد أطال الفكر فيما يصنع وأي بلد من بلاد الروم يقصد، فمرة يقول: أسير إلى بيت المقدس بالجيش فإنها أشرف بلدهم وكرسي مملكة الروم بها قيام دينهم، ووقتًا يقول: أسير إلى أنطاكية وأقصد هرقل وأفرغ منه، وبينما هو يفكر في أمره وقد جمع المسلمين إذ أقبل ذلك المعاهد وكان من نصارى الشام. فقال: أيها الأمير إنك قد أحسنت إليَّ وأمنتني ووهبتني أهلي ومالي وولدي وقد أتيتك ببشارة وغنيمة يغنمها المسلمون ساقها الله إليهم، فإن أظفرهم الله بها استغنوا غنى ولا فقر بعده. فقال أبو عبيدة: أخبرنا ما هذه الغنيمة وأين تكون؟ فما علمتك إلا ناصحًا! فقال: أيها الأمير إنها بإزائك على دير الساحل وهو حصن يعرف بأبي القدس وبإزائه دير فيه راهب تعظمه النصرانية ويتبركون

بدعائه ويقتبسون من علمه وله في كل سنة عيد يجتمعون إليه من كل النواحي والقرى والأمصار والضياع والأديرة ويقوم عنده سوق عظيم يظهرون فيه فاخر ثيابهم من الديباج والذهب والفضة يقيمون عنده ثلاثة أيام أو سبعة وقد قرب وقت قيام السوق فتأخذون جميع ما فيه وتقتلون الرجال وتسبون النساء والذراري، وهذه غنيمة يفرح بها المسلمون ويوهن لها عدوكم.

قال الواقدي: فلما سمع أبو عبيدة ما قاله المعاهد فرح رجاء أن يكون ما قاله المعاهد غنيمة للمسلمين. فقال للمعاهد: كم بيننا وبين هذا الدير؟ قال: عشرة فراسخ للمجد السائر. قال أبو عبيدة: وكم بقي إلى قيام السوق؟ قال: أيام قلائل. قال أبو عبيدة: فهل يكون لهم حامية يلي أمرهم ويصد عنهم؟ قال المعاهد: لسنا نعرف ما ذكرت في بلاد الملك لأنه لا يصيب بعضنا بعضًا لهيبة هرقل في قلوبهم، فلما سمع أبو عبيدة ذلك قال: هل بالقرب منه شيء من مدائن الشام؟ قال: نعم بالقرب من السوق مدينة تسمى طرابلس وهي مينا الشام إليها تقدم المراكب من كل مكان وفيها بطريق عظيم كثير التجبر وقد أقطعه الملك إياها من تجبره وهو يحضر السوق وما كنت أعهد أن لهذا السوق حامية من

الروم إلا أن يكون الآن لخوفهم منكم ولو سار إلى الدير والسوق أدنى المسلمين لرجوت لهم الفتح إن شاء الله تعالى.

فقال أبو عبيدة: أيها الناس أيكم يهب نفسه لله تعالى وينطلق مع جيش أبعثه فتحا للمسلمين فسكت الناس ولم يتكلم أحد، فنادى أبو عبيدة ثانية وإنما يريد خالدًا بقوله واستحيا أن يواجهه في ذلك لأجل عزله، فقام من وسط الناس غلام شاب نبت شعر عارضيه واخضرَّ شاربه وكان ذلك الشاب عبد الله بن جعفر - رضي الله عنه -، وكانت أمه أسماء بنت عميس الخثعمية وكان أبوه جعفر - رضي الله عنه - قد مات في غزوة تبوك وخلف ولده عبد الله صغيرًا فتزوجها أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -، فلما كبر وترعرع كان يقول لأمه: يا أماه ما فعل أبي؟ فتقول: يا ولدي قتله الروم وكان يقول: لئن عشت لآخذن بثأره، فلما مات أبو بكر وتولى عمر - رضي الله عنه - جاء عبد الله إلى الشام في بعث بعثه عمر مع عبد الله بن أنيس الجهني وكان فيه مشابهة من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في خلقه وخلقه وهو أحد الأصحاب الأسخياء، فلما قال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: أيها الناس من ينطلق إلى هذا الدير وثب عبد الله بن جعفر

الطيار - رضي الله عنه - وقال: أنا أول من يسير مع هذا البعث يا أمين الأمة. ففرح أبو عبيدة وجعل يندب له رجالًا من المسلمين وفرسان الموحدين وقال له: أنت الأمير يا ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعقد له راية سوداء وسلمها إليه، وكان على الخيل خمسمائة فارس منهم رجال من أهل بدر، وكان من جملة من سيره مع عبد الله أبو ذر الغفاري وعبد الله بن أبي أوفى وعامر بن ربيعة وعبد الله بن أنيس وعبد الله بن ثعلبة وعقبة بن عبد الله السلمي وواثلة بن الأسقع وسهل بن سعد وعبد الله بن بشر والسائب بن يزيد ومثل هؤلاء السادات - رضي الله عنهم - أجمعين. ولما أن اجتمع الخمسمائة فارس تحت راية عبد الله بن جعفر وما منهم إلا من شهد الوقائع وخاض المعامع عوَّلوا على المسير. وقال أبو عبيدة لعبد الله بن جعفر: يا ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا تقدم على القوم إلا في أول قيام السوق، ثم إنه ودعهم وساروا.

وكان في هذه السرية مع عبد الله بن جعفر واثلة بن الأسقع وكان خروجهم من أرض الشام وهي دمشق إلى دير أبي القدس في ليلة النصف من شعبان وكان القمر زائد النور. وقال وأنا إلى جانب عبد الله بن جعفر. فقال لي: يا ابن الأسقع

ما أحسن قمر هذه الليلة وأنوره، فقلت: يا ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه ليلة النصف من شعبان وهي ليلة مباركة عظيمة، وفي هذه تكتب الأرزاق والآجال وتغفر فيها الذنوب والسيئات وكنت أردت أن أقومها. فقلت: إن سيرنا في سبيل الله خير من قيامها والله جزيل العطاء. فقال: صدقت ثم إننا سرنا ليلتنا، فبينما نحن سائرون إذ أشرفنا على صومعة راهب وعليه برنس أسود، فجعل يتأملنا وينظر في وجوهنا فتفقدنا واحدًا بعد واحد، ثم جعل يطيل النظر في وجه عبد الله، ثم قال: أهذا الفتى ابن نبيكم؟ فقلنا: لا قال: إن نور النبوة يلوح بين عينيه فهل يلحق به؟ فقلنا: هو ابن عمه. فقال الراهب: هو من الورقة والورقة من الشجرة. فقال عبد الله: أيها الراهب وهل تعرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟ فقال: وكيف لا أعرفه واسمه وصفته في التوراة والإنجيل والزبور، وإنه صاحب الجمل الأحمر والسيف المشهر. فقال عبد الله: فلم لا تؤمن به وتصدقه؟! فرفع يده إلى السماء وقال: حتى يشاء صاحب هذه الخضراء! فأعجبنا كلامه. وسرنا والدليل بين أيدينا إذ أتى بنا إلى واد كثير الشجر والماء أمرنا أن نكمن فيه، ثم قال لعبد الله بن جعفر: إني ذاهب أجس

لكم الخبر. فقال له عبد الله: أسرع في مسيرك وعد إلينا بالخبر. قال فانطلق مسرعًا وأقام عبد الله بن جعفر يحرس المسلمين بنفسه إلى الصباح.

فلما أصبحنا صلينا صلاة الصبح وجلسنا ننتظر رجوع الرسول فلم يأت وأبطأ خبره علينا فقلق المسلمون عليه لاحتباسه وخافوا من المكيدة ووسوس لهم الشيطان وساءت بالدليل الظنون فما من المسلمين إلا من ظن بالمعاهد شرًا إلا أبا ذر الغفاري – رضي الله عنه – فإنه قال: ظنوا بصاحبكم خيرًا ولا تخافوا منه كيدًا ولا مكرًا إن له شأنًا تعلمونه. قال فسكت الناس بعد ذلك وإذا بصاحبهم قد أقبل. قال واثلة بن الأسقع: فلما رأيناه فرحنا به وظننا أنه يأمر بالنهوض إلى العدو فأقبل حتى وقف وسط المسلمين. وقال: يا أصحاب محمد وحق المسيح ابن مريم أني لا أكذبكم فيما أحدثكم به وإني رجوت لكم الغنيمة وقد حال بينكم وبينها ماء.

فقال له عبد الله – رضي الله عنه –: وكيف حيل بيننا وبينها؟ قال: حال بينكم وبينها بحر عجاج، وذلك أنِّي أشرفت على السوق وقد قام فيه البيع والشراء، فاجتمع فيه أهل دين النصرانية وقد دار أكثرهم بالدير دير أبي القدس واجتمع

إليه القسس والرهبان والملوك والبطارقة، فلما نظرت إلى ذلك لم أرجع حتى اختبرت ما السبب الذي تجمعت له الخلق زيادة على كل سنة، وذلك أني مضيت، واختلطت بالقوم وإذا بصاحب طرابلس قد زوج ابنته ملكًا من ملوك الروم، وقد أتوا بالجارية إلى الدير ليأخذوا لها من راهبهم قربانًا وقد دار بها فرسان الروم المتنصرة في عددهم وعديدهم، كل ذلك خوفًا منكم لأنهم يعلمون أنكم بأرض الشام يا معاشر المسلمين وما أرى لكم صوابًا أن تصلوا إلى القوم لأنهم خلق كثير وجم غفير وجمع غزير. فقال عبد الله بن جعفر - رضي الله عنه -: في كم يكون القوم وكم حزرتهم؟ فقال: أما السوق ففيه أكثر من عشرين ألفًا من عوام الروم والأرمن والنصارى والقبط واليهود من مصر والشام وأهل السواد والبطارقة والمتنصرة، وأما المستعدون للحرب فخمسة آلاف فارس فما لكم بالقوة طاقة، وإن وقع الصائح في بلادهم انضاف إليهم أمثالهم فإن بلادهم متصلة بهم، وأما أنتم فعددكم يسير، والعرب منكم بعيد.

قال الواقدي: فصعب ذلك على عبد الله بن جعفر وعلى المسلمين وسقط في أيديهم وهموا بالرجوع. فقال عبد الله بن جعفر: معاشر المسلمين! ما الذي تقولون في هذا الأمر؟ فقالوا:

نرى أن لا نلقي بأيدينا إلى التهلكة كما أمر ربنا في كتابه العزيز، ونرجع إلى الأمير أبي عبيدة - رضي الله عنه - والله لا يضيع أجرنا. قال فلما سمع عبد الله قولهم قال: أما أنا فأخاف إن فعلت ذلك أن يكتبني الله من الفارين وما أرجع أو أبدي عذرًا عند الله تعالى، فمن ساعدني فقد وقع أجره على الله، ومن رجع فلا عتب عليه! فلما سمعوا ذلك من عبد الله بن جعفر أميرهم وبَذْلُ مهجته استحيوا منه وأجابوه بأجمعهم وقالوا: افعل ما تريد فما ينفع حذر من قدر! ففرح بإجابتهم، ثم عمد إلى درعه فأفرغه عليه ووضع على رأسه بيضة وشد وسطه بمنطقة وتقلد بسيف أبيه واستوى على متن جواده وأخذ الراية بيده وأمر الناس بأخذ الأهبة فلبسوا دروعهم واشتملوا بسلاحهم وركبوا خيولهم وقالوا للدليل: سر بنا نحو القوم فستعاين من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عجبًا.

قال واثلة بن الأسقع: فرأيت الدليل قد اصفرَّ وجهه وتغير لونه وقال: سيروا أنتم برأيكم وما عليَّ من أمركم! وخرج. قال أبو ذر الغفاري فرأيت ابن جعفر يتلطف به حتى سار بين يديه يدله على القوم ساعة، ثم وقف وقال: أمسكوا عليكم فإنكم قد قربتم من القوم فكونوا في مواضعكم كامنين إلى وقت السحر ثم أغيروا على القوم. قال واثلة: فبتنا ليلتنا حيث أمرنا ونحن نطلب النصر من الله تعالى، فلما أصبح النهار صلى بهم عبد الله بن جعفر الصبح، فلما فرغوا من صلاتهم قال: ما ترون في الغارة؟ فقال عامر بن عميرة بن ربيعة: أدلكم على أمر تصنعونه؟ قالوا: قل. قال: اتركوا القوم في بيعهم وشرائهم وإظهار أمتعتهم، ثم اكبسوا عليهم على حين غفلة وغرَّة من أمرهم. فصوَّب الناس رأيه وصبروا إلى وقت قيام السوق، ثم أظهروا السيوف من أغمادها وأوتروا القسي وشرعوا لأماتهم، وعبد الله بن جعفر أمامهم والراية بيده، فلما طلعت الشمس عمد عبد الله إلى المسلمين فجعلهم خمسة كراديس كل كردوس مائة فارس وجعل على كل مائة نقيبًا وقال: تأخذ كل مائة منكم قطرًا من أقطار سوقهم ولا تشتغلوا بنهب ولا غارة، ولكن ضعوا السيوف في المفارق والعواتق! وتقدم عبد الله بن جعفر بالراية وطلع على القوم فنظر إلى الروم متفرقين في الأرض كالنمل

لكثرتهم وقد أحدق منهم بدير الراهب خلق كثير، والراهب قد أخرج رأسه من الدير وهو يعظ الناس ويوصيهم ويعلمهم معالم ملتهم وهم إليه شخوص بأبصارهم وابنة البطريق عنده في الدير والبطارقة وأبناؤهم عليهم الديباج المثقل بالذهب، ومن فوقهم دروع وجواشن تلمع وبيض وهم ينظرون صيحة بين أيديهم أو طارقًا يطرقهم من خلفهم.

ونظر عبد الله إلى الدير وإلى ما أحدق به، وإلى الراهب وما حول صومعته فهاله ذلك من أمرهم وصاح فيهم قبل الحملة وقال: يا أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - احملوا بارك الله فيكم، فإن كانت غنيمة وسرور فالفتح والسلامة ويكون الاجتماع تحت صومعة الراهب، وإن كان غير ذلك فهو وعدنا الجنة ونلتقي عند حوض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع الصحابة. قال وطلب عبد الله الجم العظيم فغاص فيهم وجعل يضرب بسيفه ويطعن برمحه ويحمل المسلمون من ورائه، وسمع الروم أصوات المسلمين مرتفعة بالتهليل والتكبير فتيقنوا أن جيوش المسلمين قد أدركتهم وكانوا لذلك منتظرين وعلى يقظة من أمرهم، فأما السوقة فإنهم تبادروا إلى أسلحتهم والمنع

عن أنفسهم وأموالهم وأخرجوا السيوف من الأغمدة وانعطفوا على قتال المسلمين عطفة الأسد الضاري، وطلبوا صاحب الراية ولم يكن في المسلمين راية غيرها فأحدقوا بالراية من كل جانب ومكان وقامت الحرب على ساق وثار الغبار وانعقد، وأحدق الروم بالمسلمين، فما كان المسلمون فيهم إلا كشامة بيضاء في جلد بعير أسود، وما كان أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعرف بعضهم بعضًا إلا بالتهليل والتكبير، وكل واحد مشتغل بنفسه عن غيره.

قال أبو سبرة، وكان من السابقين والمتقدمين بإيمانهم في الإسلام وصاحب الهجرتين جميعًا قال: شهدت قتال الحبشة مع جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - وشهدت المشاهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في بدر وفي أحد وفي حنين، وقلت إني لا أشهد مثلها، فلما قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حزنت عليه ولم أستطع أن أقيم بالمدينة بعد فقده فقدمت مكة فأقمت بها فعوتبت في منامي من التخلف عن الجهاد، فخرجت إلى الشام وشهدت أجنادين والشام وسرية خالد خلف توما وهربيس وشهدت سرية عبد الله بن

جعفر وكنت معه على دير أبي القدس فأنستني وقعتها ما شهدت قبلها من الوقائع بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وذلك أني نظرت إلى الروم حين حملنا عليهم في كثرتهم وعددهم وقلنا ما ثم غيرهم وليس لهم كمين عظيم. فرأينا أجسادهم هائلة وعليهم الدروع وما يبين منهم إلا حماليق الحدق لهم طقطقة وزمجرة عندما يحملون حتى نظرت إلى المسلمين قد غابوا في أوساطهم ولا أسمع منهم إلا الأصوات تارة يجهرون بها وتارة أقول هلكوا. ثم أنظر إلى الراية بيد عبد الله بن جعفر - رضي الله عنه - مرفوعة بذلك، وعبد الله يقاتل بالراية ويكر على المشركين ولا ينثني... ويجاهد على صغر سنه! ولم تزل الحرب بيننا كلما طال مكثها اشتد ضرامها وعلا قتامها والتهبت نارها، وصار عبد الله في وسط القوم وهم حوله كالحلقة الدائرة والروم يحدقون به! فجعل كلما حمل يمينًا حملتُ يمينًا وإن حمل شمالًا حملتُ شمالًا ولم نزل في الحرب والقتال حتى كلت منا السواعد وخدرت المناكب. وعظم الأمر علينا وهالنا الصبر وتثلم سيف عبد الله في يده وكادت تقع فرسه من تحته فالتجأ بأصحابه في موضع، فاجتمع أصحابه إليه فنظر المسلمون إلى رايته فقصدوها، وما منهم إلا مكلوم من المشركين! فضاق لذلك ذرعه وما نزل به في نفسه مثل

ما نزل بالمسلمين فألجأ إلى الله تعالى أمره وفوض إلى صاحب السماء شأنه ورفع يده إلى السماء وقال في دعائه: «يا من خلق خلقه وأبلى بعضهم ببعض وجعل ذلك محنة لهم أسألك بجاه محمد النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا ما جعلت لنا من أمرنا فرجًا ومخرجًا»، ثم عاد إلى القتال وأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقاتلون معه تحت رايته، فلله در أبي ذر الغفاري - رضي الله عنه - فإنه نصر ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجاهد بين يديه. قال عمرو بن ساعدة: فلقد رأيته مع كبر سنه يضرب بسيفه ضربًا شديدًا في الروم وينتمي إلى قومه ويذكر عند حملاته اسمه ويقول: أنا أبو ذر، والمسلمون يفعلون كفعله إلى أن بلغت القلوب الحناجر وظنوا أن في ذلك الموضع قبورهم.

قال الواقدي رحمه الله تعالى: حدثني عبد الله بن أنيس الجهني قال: كنت أحب جعفرًا وأحب من أولاده عبد الله، فلما قبض أبو بكر - رضي الله عنه - وكان قائمًا مقام أبيه نظرت إلى أمه أسماء بنت عميس حزينة فكرهت أن أنظر إليها في ذلك الحزن، وأيضًا أن أبا بكر - رضي الله عنه - كان يحب عبد الله حبًا

شديدًا فاستأذن عبد الله بن جعفر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في المسير إلى الشام، وقال لي: يا ابن أنيس الجهني أشتهي أن ألحق بالشام ومعنا عشرون فارسًا أكون مجاهدًا أفتصحبني؟ فقلت: نعم. فودَّع عمه عليًا - رضي الله عنه - وودع عمر - رضي الله عنه - وسار يريد الشام ومعنا عشرون فارسًا حتى أتينا تبوك. فقال: يا ابن أنيس أتدري موضع قبر أبي؟ فقلت: نعم. فقال: أشتهي أن أرى الموضع. فما زلنا حتى أتينا الموضع فأريته موضع مصرع أبيه وموضع الوقعة وقبر أبيه جعفر رحمه الله تعالى وعليه حجارة، فلما نظر إليه نزل ونزلنا معه وبكى وترحم فأقمنا عنده إلى صبيحة اليوم الثاني.

فلما رحلنا رأيت عبد الله يبكي ووجهه مثل الزعفران فسألته عن ذلك. فقال: رأيت أبي البارحة في النوم وعليه حلتان خضراوان وتاج وله جناحان وبيده سيف مسلول أخضر فسلمه إليَّ وقال: يا بني قاتل به أعداءك فما وصلت إلى ما ترى إلا بالجهاد، وكأني أقاتل بالسيف حتى تثلَّم. قال عبد الله بن أنيس وسرنا حتى أتينا عسكر أبي عبيدة - رضي الله عنه - بدمشق، فبعثه أمير تلك السرية إلى دير أبي القدس. فلما رأيتُ ما بينه وبين الروم، قلت يوشك أن

يذهب عبد الله فسرتُ كالبرق ورجعت إلى أبي عبيدة - رضي الله عنه -، فلما رآني قال: أبشارة يا ابن أنيس أم لا؟

فقلت: أنفذ المسلمين إلى نصرة عبد الله بن جعفر ومن معه، ثم حدثته بالقصة فقال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون أيصاب عبد الله بن جعفر ومن معه تحت رايتك يا أبا عبيدة وهي أول إمارتك.

ثم التفت إلى خالد بن الوليد - رضي الله عنه - فقال له: يا أبا سليمان سألتك بالله الحق عبد الله بن جعفر فأنت المعد لها! فقال خالد: أنا لها إن شاء الله وما كنت أنتظر إلا أن تأمرني! فقال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: استحييت منك يا أبا سليمان! فقال: والله لو أمر عليَّ طفل صغير لأطيعن له، فكيف أخالفك وأنت أقدم مني إيمانًا وأسبق إسلامًا سبقت بإسلامك مع السابقين وسارعت بإيمانك مع المسارعين وسماك رسول الله بالأمين، فكيف ألحقك أو أنال درجتك، والآن أشهدك أني قد جعلت نفسي حسيبًا في سبيل الله تعالى لا أخالفك أبدًا، ولا وليت إمارة بعدها أبدًا! فاستحسن المسلمون قوله، فقال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: يا أبا سليمان الحق إخوانك رحمك الله. فوثب

خالد - رضي الله عنه - كأنه الأسد وسار إلى رحله فأفرغ عليه درع مسيلمة الكذاب، وألقى بيضة على رأسه وأردفها قلنسوة وتقلد بحسامه وانصب في سرجه كأنه السيل، ونادى بجيش الزحف هلموا إلى جذب السيوف، فأجابوه مسرعين كأنهم العقبان وبادروا إلى طاعة الرحمن وأخذ خالد الراية بيده وهزها على ركابه ودار به عساكر الزحف من كل جانب وودع المسلمون بعضهم بعضًا وساروا وسار خالد وعبد الله بن أنيس يدلهم على الطريق.

قال رافع بن عميرة الطائي: كنت يومئذ من أصحاب خالد بن الوليد - رضي الله عنه - ولم يزل مجدًا في السير والله - عز وجل - يطوي لنا البعيد، فلما كان عند غروب الشمس أشرفنا على القوم والروم كالجراد المنتشر قد غرق المسلمون في كثرتهم. فقال خالد: يا ابن أنيس في أي جانب أطلب ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت له إنه واعد أصحابه أن يلتقوا عند دير الراهب أو موعدهم الجنة. فنظر خالد نحو الدير فشاهد الراية الإسلامية، وهي بيد عبد الله بن جعفر، وما من المسلمين إلا وقد أصيب بجرح، وقد أيسوا من الحياة الفانية وطمعوا في الحياة السرمدية، والروم تناوشهم بالحرب وتكثر

الطعن والضرب وعبد الله بن جعفر يقول لأصحابه: دونكم والمشركين واصبروا لقتال المارقين واعلموا أنه قد تجلى عليكم أرحم الراحمين، ثم قرأ الآية قوله تعالى: «كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» (البقرة:٢٤٩)، فلما نظر خالد - رضي الله عنه - إلى صبرهم وتجلدهم على قتال أعدائهم لم يطق الصبر دون أن حمل عليهم وهزَّ رايته، وقال لأصحابه: دونكم القوم القباح فأرووا من دمائهم السلاح، وأبشروا بالنجاح يا أهل حي على الفلاح!

فبينما أصحاب عبد الله بن جعفر في أشد ما يكونون فيه إذ خرجت عليهم خيل المسلمين وكتائب الموحدين؛ فلما نظر عبد الله وأصحابه إلى ذلك ظنوا أنها نجدة الأعداء فأيقنوا بالهلاك والفناء وجعلوا ينظرون إلى الخيل التي رأوها وإذا هي قاصدة إليهم ففزعوا وجزعوا وظنوا أن كمينًا من الروم قد خرج لقتالهم فعظم عليهم الأمر، وإذا بفارس على المقدمة ينادى بأعلى صوته: أبشروا يا معاشر حملة القرآن بالنصر المشيد أنا خالد بن الوليد! فلما نظر المسلمون الراية وسمعوا صوت خالد - رضي الله عنه - كأنهم كانوا في لجة

وأخرجهم فأجابوه بالتهليل والتكبير، وكانت أصواتهم كالرعود القواصف والرياح العواصف، ثم حمل خالد بن الوليد - رضي الله عنه - بجيش الزحف الذي لا يفارقه ووضع السيف في الروم. قال عامر بن سراقة: فما شبهت حملته إلا حملة الأسد في الغنم ففرقهم يمينًا وشمالًا. فثبت المسلمون، وكل علج من الروم شديد يمانع عن نفسه وخالد يطلب أن يصل إلى عبد الله بن جعفر.

قال واثلة بن الأسقع: لقد كنا آيسنا من أنفسنا وأيقنا بالهلاك حتى أتتنا المعونة من الله - عز وجل -، فحملنا بحملة إخواننا. فما اختلط الظلام حتى نظرت إلى خالد بن الوليد - رضي الله عنه - والراية بيده، وهو يسوق المشركين بين يديه سوق الغنم إلى المراعي والمسلمون يقتلون ويأسرون فلله در أبي ذر الغفاري وضرار بن الأزور والمسيب بن نجبة الفزاري لقد قرنوا المواكب وهزوا المضارب وقتلوا الروم من كل جانب والتقى ضرار بعبد الله بن جعفر - رضي الله عنه - فنظر إليه والدم على أكمام درعه كأكباد الإبل! فقال: شكرًا لله تعالى لك يا ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والله إنك لقد أخذت بثأر أبيك وشفيت غليلك! فقال عبد الله بن جعفر - رضي الله عنه -: من الرجل

المخاطب لي؟ وكان الظلام قد اعتكر وضرار ملثم لا يبين منه إلا الحدق فلم يعرفه عبد الله. فقال: أنا ضرار بن الأزور صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال: مرحبًا بطلعتك وبأخ منا عدل لنا وقام لنصرتنا.

معركة ضرار

قال عبد الله بن أنيس: فبينما هم على ذلك إذ أقبل خالد بن الوليد – رضي الله عنه – وجيش الزحف. فقال: شكر الله لك وأحسن جزاءك! ثم قال عبد الله: يا ضرار اعلم أن حامية الروم والبطارقة عند الدير لأجل ابنة صاحب طرابلس وما معها من الأموال، وقد أحاط بها كل فارس من الروم، فهل لك يا ابن الأزور أن تحمل معي؟ فقال: وأين هم؟ فقال: أما تنظر إليهم؟ فمد عينه، وإذا بحامية الروم وبطريق طرابلس وقد أحدقوا بالدير يمنعون عن الجارية والنيران مشتعلة والصلبان تلمع كضوء النار وكأنهم سد من حديد. فقال: أرشدك الله للخيرات فنعم المرشد أنت! احمل حتى أحمل معك بحملك.

فحمل عبد الله بن جعفر من جهته وحمل ضرار بن الأزور من جهته واتبعتهما الرجال وزعقوا في الروم وحماة المشركين وهم يمانعون عن أنفسهم

وكان أشدهم منعة بطريقهم فبرز أمام القوم وهو يهدر كالبعير ويزأر زئير الأسد يصيح بكلمة الكفر ويحمل حملات الشجعان فقصده ضرار بن الأزور وباطشه في الضرب والتقت الأقران ونظر ضرار إلى العلج وعظم خلقته وتمكنه في سرجه وشدة ضربه وحسن احترازه فأخذ ضرار منه حذره، واحترز منه البطريق وطلبه أشد الطلب وكل واحد منهما طامع في صاحبه، فانفرد ضرار بن الأزور مع صاحب القوم وكل قرن مع قرنه، وليس مع ضرار أحدًا من المسلمين فانبسط ضرار بين أيديهم ليمكر بهم وطلبه البطريق وأصحابه وقصدوه بحملتهم.

فلما نظر ضرار إلى ذلك قصد موضعًا يصلح لمجال الخيل فاعترضه واحد منهم في ظلمة الليل فكبا به الجواد فسقط على الأرض هاويًا ثم ثار من سقطته يروم أخذ الفرس فلم يجد إلى ذلك سبيلًا فوقف مكانه وسيفه وجحفته بيده وجعل يجاهدهم بسيفه، فخفق عليه بطريق الروم وأقبل يضربه بعموده فلما لازمه ورمى العمود عليه زاغ ضرار عن الضربة، ثم وثب إليه وثبة الأسد وضربه ضربة أزعجت فرس البطريق من تحته وقام على رجليه وشد بيديه، وضربه

الثانية فوقعت ضربة ضرار في عين جواده فانتكس الجواد إلى الأرض، ووقع العلج على ظهره، ولم يقدر أن يقوم لأنه مزرد في سرجه، فعالجه ضرار قبل وصول غلمانه إليه وضربه على حبل عاتقه فنبا سيفه ولم يعمل شيئًا فناهضه العلج وقد أيقن بالهلاك وقبض عليه وكان كالجبل العظيم فرماه ضرار تحته وملك صدره واستوى على نحره، وكان مع ضرار سكين من صنعة اليمن لا تفارقه فاستلها من غمدها وضرب صدر عدو الله إلى سرته فسقط قتيلًا.

ثم وثب ضرار وملك جواد عدو الله واستوى في سرجه، وكان على الجواد كثيرًا من الذهب والفضة والفصوص التي تساوي ثمنًا كثيرًا، فلما صار على ظهر الجواد حمل وكبر على المشركين ففرقهم يمينًا وشمالًا، وكان ضرار لما انبسط أمام القوم ملك عبد الله بن جعفر الدير ومن فيه ومن معه من المسلمين وأحدقوا به ولم يأخذوا منه شيئًا حتى رجع خالد - رضي الله عنه - من اتباع الروم، وذلك أن خالدًا اتبعهم إلى نهر عظيم كان بينهم وبين طرابلس الشام، والروم يعرفون مخاوضه فوقف خالد ورجع إلى أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فوجدهم قد ملكوا الدير وقتلوا العلج وانتشر الناس في جمع

الغنائم وما كان في السوق من المتاع والفراش والقماش والثياب والطعام وغيره. قال واثلة بن الأسقع: فجعلنا نجمعه ونأكل من الخيرات وأخرجوا ما كان في الدير من آنية الذهب والفضة والستور والمراتب وأخرجوا ابنة البطريق ومعها أربعون جارية لهن حلي وحلل، والمال على البراذين والبغال والحمير فانقلب أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالغنيمة والأموال الجسيمة.

قال الواقدي: فنسبت تلك السرية لثلاث: عبد الله بن جعفر صاحبها، وعبد الله بن أنيس مدركها، وخالد بن الوليد منجدها ولقي خالد فيها مشقة وجراحًا مؤلمة، فلما ساروا أقبل خالد إلى الدير فصاح بصاحبه يا راهب فلم يكلمه فهتف به مرة أخرى وهدده فاطلع عليه وقال: قل ما تشاء وحق المسيح ليطالبنك صاحب هذه الخضراء بدماء من قتلت. فقال خالد: كيف يطالبنا وقد أمرنا أن نقاتلكم ونجاهدكم ووعدنا على ذلك الثواب، ووالله لولا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نهانا أن نتعرض لكم لما تركتك في صومعتك بل كنت قتلتك أشر قتلة! فسكت الراهب عنه ولم يجبه وانقلب خالد والمسلمون

بالغنائم إلى دمشق وأبو عبيدة - رضي الله عنه - فيها فشكر لهم وسلم على خالد وعلى عبد الله بن جعفر - رضي الله عنهم - ورجع إلى مكانه فخمَّس الغنيمة وقسمها على الناس فدفع لضرار بن الأزور فرس البطريق وسرجه وما عليه من حلي الذهب والفضة والجواهر والفصوص فأتى به ضرار إلى أخته خولة - رضي الله عنه - فرأيتها تنزع فصوص الجوهر فتفرقها على نساء المسلمين وإن الفص منها ليساوي الثمن الكثير! وعرض السبي على أبي عبيدة - رضي الله عنه - وفي الجملة ابنة البطريق، فقال عبد الله بن جعفر: أريدها. قال أبو عبيدة: حتى استأذن أمير المؤمنين في ذلك فكتب إليه يعلمه بها وبمسألة عبد الله بن جعفر فكتب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: هي له، فأخذها عبد الله وأقامت زمانًا عنده وعلمها الطبخ، وكانت من قبل تعرف طبخ الفرس والروم وأقامت عنده إلى أيام يزيد فأخبر بها فاستهداها منه فأهداها له، وكانت عنده.

فلما رجع جيش المسلمين غانمًا كتب أبو عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه - إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كتابًا يخبره بما فتح الله على يديه

وما غنم المسلمون من دير أبي القدس ويمدح خالدًا ويشكره ويثني عليه ويخبره بما قال فيه وما تحلم به وسأله في كتابه أن يكتب إلى خالد يستشيره في المسير إلى هرقل أو إلى بيت المقدس وكتب إليه أيضًا أن بعض المسلمين يشربون الخمر، قال عاصم بن ذؤيب العامري، وكان ممن شهد قتال الروم بالشام وفتح دمشق من العرب الوافدين من اليمن فأخذوا في الشرب واستطابوا ذلك فأنكر ذلك الأمير أبو عبيدة. فقال رجل من العرب أظنه سراقة بن عامر: يا معاشر المسلمين خلوا شرب الخمور فإنها تزيل العقول وتكسب الإثم، وإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعن شارب الخمر حتى لعن حاملها والمحمولة إليه.

عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف الغفاري قال: كنت مع أبي عبيدة بالشام فكتب إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يخبره بفتح الشام وفي الكتاب: أن المسلمين يشربون الخمر واستقلوا الحد فقدمت المدينة فوجدت عمر - رضي الله عنه - في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالسًا وعنده نفر من الصحابة وهم عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف يتحدثون فدفعت

الكتاب إليه، فلما قرأه جعل يفكر في ذلك ثم قال: إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جلد من شربها، ثم سأل عمر عليًا – رضي الله عنه – في ذلك وقال: ما ترى في هذا؟ فقال علي – رضي الله عنه –: إن السَّكْران إذا سكر هَذِيَ، وإذا هذي افترى فكتب إليه عمر أن من شرب الخمر فعليه ثمانون جلدة ولعمري ما يصلح لهم إلا الشدة والفقر، ولقد كان حقهم يراقبوا ربهم – عز وجل – ويعبدوه ويؤمنوا به ويشكروه! فمن عاد فأقم عليه الحد.

قال الواقدي: فلما ورد كتاب عمر – رضي الله عنه – وقرأه نادى في المسلمين من كان في نفسه حد فليعط ذلك من نفسه وليتب إلى الله – عز وجل – ففعل ذلك كثير من الناس ممن كان شرب الخمر وأعطى الحد من نفسه، ثم قال أبو عبيدة – رضي الله عنه –: إني عزمت على المسير إلى أنطاكية وقصد قلب الروم لعل الله يفتح فتحًا على أيدينا. فقال المسلمون: سر حيث شئت فنحن تبع لك نقاتل أعدائك. فسُرَّ بقولهم وقال: تأهبوا للرحيل فإني سائر بكم إلى حلب فإذا فتحناها توجهنا منها إن شاء الله تعالى إلى أنطاكية، فأسرع المسلمون في إصلاح شأنهم وأخذوا أهبتهم، فلما فرغ أبو عبيدة – رضي الله

عنه – من جميع شغله أمر خالد بن الوليد – رضي الله عنه – أن يأخذ راية العقاب التي عقدها أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – وأمره أن يسير أمام الجيش بعسكر الزحف فسار خالد على المقدمة ومعه ضرار بن الأزور ورافع بن عميرة الطائي والمسيب بن نجبة الفزاري والناس يتبع بعضهم بعضًا وترك على دمشق صفوان بن عامر السلمي وترك عنده خمسمائة رجل وسار أبو عبيدة بالمسلمين ومعه ناس من اليمن ومضر.

ذكر فتح حمص

قال الواقدي: وسار أبو عبيدة على طريق البقاع واللبوة، فلما وصل إلى هناك بعث خالد بن الوليد – رضي الله عنه – إلى حمص قال: يا أبا سليمان انهض على بركة الله تعالى وعونه، ونازل القوم وشن الغارة على أرض العواصم وقنسرين وأنا أسير إلى بعلبك فلعل الله أن يسهل علينا فتحها، ثم ودعه وسار خالد – رضي الله عنه – بمن معه إلى حمص وتوجه أبو عبيدة – رضي الله عنه – إلى بعلبك إذ ورد بطريق جوسيه ومعه الهدايا والتحف وصالح المسلمين سنة كاملة وقال: إن فتحتم بعلبك فأنا بين أيديكم ولا نخالف لكم قولًا

فصالحهم أبو عبيدة - رضي الله عنه - على أربعة آلاف درهم وخمسين ثوبًا من الديباج.

فلما انبرم الصلح سار أبو عبيدة - رضي الله عنه -، يطلب بعلبك. فما بعد من اللبوة إلا وقد أشرف عليه راكب نجيب فإذا هو أسامة بن زيد الطائي، فقال: يا أسامة من أين أقبلت؟ فأناخ نجيبه وسلم على أبي عبيدة - رضي الله عنه - وعلى المسلمين وقال: أتيت من المدينة وسلم إليه كتابًا من عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ففضه أبو عبيدة - رضي الله عنه -، وإذا فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله، بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أمين الأمة: سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم -، أما بعد فلا مرد لقضاء الله وقدره، ومن كتب في اللوح المحفوظ كافرًا فلا إيمان له، وذلك أن جبلة بن الأيهم الغساني كان قدم علينا ببني عمه وسراة قومه، فأنزلتهم وأحسنت إليهم وأسلموا على يدي وفرحت بذلك إذ شد الله عضد الإسلام والمسلمين بهم، ولم أعلم ما كمن في الغيب وإنا سرنا إلى مكة حرسها الله تعالى وعظمها نطلب الحج، فطاف جبلة

بالبيت أسبوعًا فوطئ رجل من فزارة إزاره فسقط إزاره عن كتفه فالتفت إلى الفزاري، وقال: يا ويلك كشفتني في حرم الله تعالى، فقال: والله ما تعمدتك!

فلطم جبلة بن الأيهم الفزاري لطمة هشم بها أنفه وكسر ثناياه الأربع! فأقبل الفزاري إليَّ مستعينًا على جبلة، فأمرت بإحضاره وقلت له: ما حملك على أن لطمت أخاك في الإسلام وكسرت ثناياه الأربع وهشمت أنفه؟ فقال جبلة: إنه وطئ إزاري برجله فحله، والله لولا حرمة هذا البيت لقتلته، فقلت له: قد أقررت على نفسك فإما أن يعفو عنك وإما أن آخذ له منك القصاص. فقال: أيقتص مني وأنا ملك وهو من السوقة؟! قلت: قد شملك وإياه الإسلام فما تفضله إلا بالعافية. فقال: أتتركني إلى غد وتقتص مني؟ فقلت للفزاري: أتتركه إلى غد؟ قال: نعم. فلما كان الليل ركب في بني عمه وتوجه إلى الشام إلى كلب الطاغية، وأرجو أن الله تعالى يظفرك به. فانزل على حمص ولا تنفذ عنها فإن صالحك أهلها فصالحهم، وإن أبوا فقاتلهم وابعث عيونك إلى أنطاكية وكن على حذر من المتنصرة والسلام عليك ورحمة الله وعلى جميع المسلمين.

قال الواقدي: فلما قرأ أبو عبيدة الكتاب في سره جهر به مرة أخرى ثم لوى يطلب حمص، وكان خالد - رضي الله عنه - سبقه إليها بثلث الجيش فنزل عليها يوم الجمعة من شوال سنة أربع عشرة من الهجرة النبوية، وكان عليها واليًا بطريق من قبل هرقل اسمه «لقيطا» وكان قد مات قبل نزول خالد والمسلمين - رضي الله عنهم - أجمعين فاجتمع المشركون في كنيستهم العظمى، وقال كبيرهم: اعلموا أن صاحب الملك قد مات وليس عند الملك خبر من هؤلاء العرب وقد نزلوا علينا وما ظننا ذلك، ولقد حسبنا أنهم لا ينزلون علينا حتى يفتحوا جوسيه وبعلبك وإن أنتم قاتلتموهم وكاتبتم الملك أن يسيِّر إليكم واليًا وجيشًا، فإن العرب لا تمكن أحدًا من جنود الملك أن يسير إليكم ولا يصل لكم، وليس عندكم طعام يقوم بكم للحصار، فقالوا: أيها السيد فما الذي ترى؟ قال: تصالحون القوم على ما أرادوا وتقولون نحن لكم وبين أيديكم إن فتحتم حلب وقنسرين وهزمتم جيش الملك، فإذا توجه القوم عنا بعثنا إلى الملك أن يمدنا بجيش عرمرم ويولي من أراد علينا ويستوثق لنا من الطعام والعمد، وبعد ذلك نقاتلهم فاستصوب القوم رأيه وقالوا: دبرنا بحسن رأيك وتدبيرك، فبعث البطريق إلى أبي عبيدة - رضي الله عنه - جاثليقًا كان

عندهم معظمًا ليعقد الصلح بينهم وبين المسلمين فخرج الجاثليق ووصل إلى أبي عبيدة - رضي الله عنه - وتكلم في الصلح معه بما تحدث به البطريق من أمر سير المسلمين إلى حلب وقنسرين والعواصم وأنطاكية فأجابهم أبو عبيدة - رضي الله عنه - إلى ذلك وصالح أهل حمص على عشرة آلاف دينار ومائتي ثوب من الديباج وعقد الصلح معهم سنة كاملة أولها ذو القعدة وآخرها شوال سنة أربع عشرة من الهجرة. وانبرم الصلح وخرجت السوقة من حمص إلى عسكر المسلمين فباعوا واشتروا ورأى أهل حمص سماحة العرب في بيعهم وشرائهم وربحوا منهم ربحًا وافيًا.

ذكر حديث سرية خالد بن الوليد

قال الواقدي: إن أبا عبيدة دعا بخالد وضم إليه أربعة آلاف فارس وقال: يا أبا سليمان شن الغارة بهذه الكتيبة واقصد بها المعرة واقرب من معرة حلب وشن بها الغارة على بلدة العواصم وارجع على أثرك وأنفذ عيونك وانظر إن كان للقوم نجدة أو ناصر من قومهم أم لا. فأجابه خالد إلى ذلك وأخذ الراية وتقدم أمام الكتيبة، وسار إلى شيزر ونزل على النهر المقلوب، ودعا بمصعب

بن محارب اليشكري وضم إليه خمسمائة فارس وأمره أن يشن الغارة على العواصم وقنسرين... وسار خالد بن الوليد إلى كفر طاب والمراه وإلى دير سمعان وجعلت خيل المسلمين تغير يمينًا وشمالًا على القرى والرساتيق ويأخذون الغنائم والأسارى فرجعوا إلى خالد بن الوليد بالأسارى فسار بهم إلى أبي عبيدة - رضي الله عنه -، فلما نظر إلى خالد وما معه من الغنائم والأموال فرح فرحًا شديدًا وإذا خلف خالد سواد عظيم قد ارتفعت أصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير. فقال أبو عبيدة - رضي الله عنه - : ما هؤلاء يا أبا سليمان؟ فقال خالد: هذا مصعب بن محارب اليشكري وقد عقدت له راية على خمسمائة فارس من قومه، ومن أهل اليمن وإنه أغار بهم على العواصم وقنسرين وقد أتى بالغنائم والسبي والأموال، فالتفت الأمير أبو عبيدة فنظر إلى سرح عظيم من البقر والغنم وبراذين عليها رجال ونساء وصبيان ولهم دوي عظيم وبكاء شديد فقصدهم أبو عبيدة - رضي الله عنه - وإذا برجال مقرونين في الحبال وهم يبكون على عيالهم ونهب أموالهم، وخراب ديارهم. فقال أبو عبيدة - رضي الله عنه - لترجمانه: قل لهم ما بالكم تبكون ولم لا تدخلون في دين الإسلام وتطلبون الأمان والذمام لتأمنوا على أنفسكم

وأموالكم؟! فقال لهم الترجمان ذلك. فقالوا: أيها الأمير نحن كنا بالبعد منكم وكانت أخباركم تأتينا وما ظننا أنكم تبلغون إلينا فما شعرنا حتى أشرف علينا أصحابكم فنهبوا أموالنا وأولادنا وساقونا في الحبال كما ترى.

قال الواقدي: وكانت الأعلاج زهاء من أربعمائة علج. فقال لهم الأمير: إن مننا عليكم وأطلقناكم من أسركم ورددنا عليكم أموالكم وأهاليكم فهل تكونون في طاعتنا وتؤدون الجزية إلينا والخراج؟ فقالوا: أوف لنا بذلك ونحن نفعل جميع ما شرطته علينا، فعند ذلك أقبل أبو عبيدة - رضي الله عنه - إلى المسلمين، وقال لهم: قد رأيت من الرأي أن أؤمن هؤلاء من القتل وأرد عليهم أموالهم وعيالهم فيكونوا عبيدًا لنا ويعمروا الأرض والبلاد ونأخذ خراجهم وجزيتهم فما أنتم قائلون فما كنت بالذي أقطع أمرًا إلا بمشورتكم؟ فقالوا: الرأي رأيك في ذلك أيها الأمير إن رأيت صلاحًا للمسلمين. ففرض على كل واحد أربعة دنانير وبذلك كتب إليه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، فعند ذلك رد عليهم أموالهم وأولادهم وأقرهم على بلادهم وكتب أسماءهم وأمرهم بالرجوع إلى أوطانهم، فلما استقروا في خيامهم أخبروا من كان بالقرب

منهم بحسن سيرة العرب وما عاملوهم به من الجميل وقالوا: لقد ظننا أنهم يقتلوننا ويستعبدون أولادنا والآن قد رحمونا وأقرونا في بلادنا على أداء الجزية والخراج. فسمعت الروم ذلك فأقبلوا إلى أبي عبيدة - رضي الله عنه - في طلب الأمان وأداء الجزية والخراج.

ذكر فتح قنسرين

قال الواقدي: وبلغ الخبر إلى أهل قنسرين أن الأمير أبا عبيدة يعطي الأمان من قصده فأحبوا أن يأخذوا الأمان من أبي عبيدة - رضي الله عنه - وأجمعوا رأيهم على ذلك وأن ينفذوا رسولًا من غير علم بطريقهم. وكان على قنسرين والعواصم بطريق من بطارقة الملك من أهل الشدة والبأس اسمه لوقا، وكان أهل قنسرين يخافون منه، وصاحب حلب عسكره مثل عسكره وسطوته مثل سطوته، وكان الملك هرقل قد دعا بهما إليه، فقالا له: أيها الملك ما كنا نترك ملكنا من غير أن نقاتل قتالًا شديدًا فشكرهما الملك هرقل على ذلك ووعدهما أن يبعث إليهما جيشًا عرمرمًا وكانا منتظرين ذلك، وكان مع كل واحد منهما عشرة آلاف فارس إلا أنهما لا يجتمعان في موضع واحد.

فلما سمع صاحب قنسرين ما قد عزم عليه أهل قنسرين من الصلح مع أبي عبيدة غضب غضبًا شديدًا وعزم أن يمكر بهم فجمع أهل قنسرين إليه وقال لهم: يا بني الأصفر ما تريدون أن أصنع مع هؤلاء العرب وكأنكم بهم وقد أقبلوا إلينا يفتحون بلادنا كما فتحوا أكثر بلاد الشام. فقالوا: أيها السيد قد بلغنا أنهم أصحاب وفاء وذمة وقد فتحوا أكثر البلاد بالصلح والعدل، ومن قاتلهم قاتلوه واستعبدوا أهله وأولاده، ومن دخل تحت طاعتهم أقروه في بلده وكان آمنا من سطوتهم، والرأي عندنا أن نصالح القوم ونكون آمنين على أنفسنا وأموالنا. فقال لهم البطريق: لقد أشرتم بالصواب والأمر الذي لا يعاب، لأن هؤلاء العرب قوم منصورون على من قاتلهم، وها أنا أعقد لكم الصلح معهم سنة كاملة إلى أن توافينا جيوش الملك هرقل ونعطف عليهم وهم آمنون فنبيدهم عن آخرهم. فقالوا: افعل ما فيه الصلاح.

واتفق أهل قنسرين والبطريق على صلح المسلمين وفي قلوبهم الغدر. وإن لوقا البطريق دعا برجل من أصحابه اسمه اصطخر، وكان قسيسًا عالمًا بدين النصرانية فصيح اللسان قوي الجنان يعرف العربية والرومية، وقد عرف الدينين

اليهودية والنصرانية. فقال لوقا: يا أبانا سر إلى العرب وقل لهم يصالحونا سنة كاملة حتى نبعد القوم بالحيلة والخداع. ثم كتب الكتاب إلى الأمير أبي عبيدة - رضي الله عنه - فقال بعد كلمة كفره: أما بعد يا معاشر العرب إن بلدنا منيع كثير العدد والرجال فما تأتونا من قبله ولو أقمتم علينا مائة سنة ما قدرتم علينا، وإن الملك هرقل قد استنجد عليكم من حد الخليج إلى رومية الكبرى ونحن قد بعثنا إليكم نصالحكم سنة كاملة حتى نرى لمن تكون البلاد، ونحن نريد منكم أن تجعلوا بيننا وبينكم علامة من حد أرض قنسرين والعواصم حتى إذا همت العرب بالغارة بدت العلامة تريكم حد أرضنا، ونحن نصالحكم خفية من الملك هرقل لئلا يعلم فيقتلنا والسلام.

ثم خلع على اصطخر خلعة سنية وأعطاه بغلة من مراكبه وعشرة غلمان، وسار حتى وصل إلى حمص فرأى الأمير أبا عبيدة - رضي الله عنه - يصلي بالمسلمين صلاة العصر فوقف اصطخر ينظر ما يفعلون ويعجب من ذلك، فلما فرغوا من صلاتهم ونظروا إلى القسيس وثبوا إليه، وقالوا له: من أنت؟ ومن أين أقبلت؟ فقال: أنا رسول ومعي كتاب، فمثلوه بين يدي أبي عبيدة فهم القسيس

بالسجود له فمنعه أبو عبيدة - رضي الله عنه -، من ذلك، وقال له: نحن عبيد الله - عز وجل - فمنا شقي ومنا سعيد: «يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ» (هود: ١٠٥ - ١٠٦) فلما سمع اصطخر ذلك بهت وبقي لا يرد جوابًا، وهو متعجب مما تكلم به الأمير أبو عبيدة - رضي الله عنه -. فناداه خالد بن الوليد - رضي الله عنه - وقال له: ما شأنك أيها الرجل ورسول من أنت؟ فقال اصطخر: أأنت أمير القوم؟ فقال خالد: لا بل هذا أميرنا، وأشار إلى أبي عبيدة - رضي الله عنه -. فقال اصطخر: أنا رسول صاحب قنسرين والعواصم، ثم أخرج الكتاب ودفعه إلى أبي عبيدة - رضي الله عنه - فأخذه وقرأه على المسلمين.

فلما سمع خالد بن الوليد - رضي الله عنه - ما في الكتاب من صفة مدينتهم وكثرة عددهم ورجالهم وتهديدهم بجيوش الملك هرقل حرك رأسه وقال لأبي عبيدة: وحق من أيدنا بالنصر وجعلنا من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - الطاهر إن هذا الكتاب من عند رجل لا يريد الصلح بل يريد حربنا! ثم قال لاصطخر: تريدون أن تخدعونا حتى إذا جاءت جنود صاحبكم ورأيتم القوم

وقد جاؤوكم نقضتم صلحنا وكنتم أول من يقاتلنا، وإن رأيتم الغلبة لنا هربتم إلى طاغيتكم هرقل! فإن أردتم ذلك فنواعدكم الحرب مواعدة من غير أن يكون صلحًا سنة كاملة، فإن لحق بكم جيش هذه السنة من الملك هرقل، فلابد من قتاله فمن أقام في المدينة ولم يقاتل مع الجيش فهو على صلحنا لا نتعرض له. قال اصطخر: قد أجبناكم إلى ذلك فاكتبوا لنا كتابًا بذلك.

فقال خالد بن الوليد - رضي الله عنه -: أيها الأمير اكتب لهم كتابًا بمواعدة الحرب سنة كاملة أولها مستهل شهر ذي القعدة سنة أربع عشرة من الهجرة النبوية. فكتب له أبو عبيدة - رضي الله عنه - بذلك، فلما فرغ من الكتاب قال له اصطخر: أيها الأمير حد بلادنا معروف وبإزائنا صاحب حلب وبلاده بحد بلادنا ونريد أن تجعل لنا علامة فيما بيننا وبينكم حتى إذا طلب أصحابكم الغارة لا يتجاوزون ذلك. فرضي أبو عبيدة - رضي الله عنه - بذلك، وقال: أنا أبعث من يحدد لكم ذلك، قال اصطخر: أيها الأمير ما نريد معنا أحدًا من أصحابك نحن نصنع عمودًا وننصبه ويكون عليه صورة الملك هرقل، فإذا رآه أصحابك لا يجاوزونه. فقال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: افعل ذلك، ثم دفع

إليه الكتاب ونادى في عساكر المسلمين وأصحاب الغارات من نظر إلى العمود فلا يتعداه ولا يتجاوزه بل يشن الغارة على أرض حلب وحدها ولا يتجاوز العمود فليبلغ الشاهد الغائب. ورجع اصطخر إلى البطريق قنسرين وأعلمه بما جرى له مع خالد بن الوليد - رضي الله عنه - ودفع له الكتاب، ففرح بذلك وقصد إلى عمود عظيم وصنع عليه صورة الملك هرقل كأنه جالس على كرسي مملكته.

وكانت خيل المسلمين تضرب غارتها إلى أقصى بلاد حلب والعمق وأنطاكية ويحيدون عن حد قنسرين والعواصم ولا يقربون العمود. قال عمر بن عبد الله الغبري عن سالم بن قيس عن أبيه سعد بن عبادة - رضي الله عنه - قال: كان صلح المسلمين لأهل قنسرين والعواصم على أربعة آلاف دينار ملكية ومائة أوقية من الفضة وألف ثوب من متاع حلب وألف وسق من طعام.

قال الواقدي: حدثنا عامر قال: كنا في بعض الغارات إذ نظرنا إلى العمود وعليه صورة الملك هرقل فجئنا عنده وجعلنا نجول حوله بخيولنا ونعلمها الكر والفر، وكان بيد أبي جندلة قناة تامة فقرب به الجواد من الصورة، وهو غير

متعمد ذلك ففقأ عين الصورة، وكان عندها قوم من الروم وهم غلمان صاحب قنسرين يحفظون العمود فرجعوا إلى البطريق وأعلموه بذلك فغضب غضبًا شديدًا ودفع صليبًا من الذهب إلى بعض أصحابه وضم إليه ألف فارس من أعلاج الروم وعليهم الديباج الرومي وعليهم المناطق المجوفة وأمر اصطخر أن يسير معهم وقال له: ارجع إلى أمير العرب وقل له غدرتم بنا ولم توفوا بذمامكم، ومن غدر جُنْدِلَ، فأخذ اصطخر الصليب وسار مع ألف فارس من الروم حتى أشرف على أبي عبيدة - رضي الله عنه -، فلما نظر المسلمون إلى الصليب وهو مرفوع أسرعوا إليه ونكسوه فاستقبل أبو عبيدة القوم وقال: من أنتم؟ قال اصطخر: أنا رسول صاحب قنسرين إليك، وهو يقول لك غدرتم ونقضتم العهد الذي بيننا وبينكم! فقال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: وحق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما علمت بذلك وسوف أسأل عنه! ثم نادى: يا معاشر الناس من فقأ عين التمثال فليخبرنا بذلك، فقالوا: أيها الأمير أبو جندلة وسهل بن عمرو صنعا ذلك من غير أن يتعمداه.

فقال أبو عبيدة – رضي الله عنه – لاصطخر: إن صاحبنا فعل ذلك من غير أن يتعمد فما الذي يرضيك منا؟ فقالت الأعلاج: لا نرضى حتى نفقأ عين ملككم يريدون بذلك أن يتطرقوا إلى رقاب المسلمين. فقال أبو عبيدة – رضي الله عنه –: ها أنا فاصنعوا بي مثل ما صنع بصورتكم. قالوا: لا نرضى بذلك إلا بعين ملككم الأكبر الذي يلي أمر العرب كلها. فقال: إن عين ملكنا تمنع من ذلك. وغضب المسلمون حين ذكر الأعلاج عين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وهموا بقتل الأعلاج، فنهاهم أبو عبيدة – رضي الله عنه – عن ذلك فقال المسلمون: أيها الأمير نحن دون إمامنا فنفديه بأنفسنا ونفقأ عيوننا دون عينه. فقال اصطخر عندما نظر إلى المسلمين وقد هموا بقتله وقتل من معه من الأعلاج: لا نفقأ عين عمر ولا عيونكم، ولكن نصور صورة أميركم على عمود ونصنع به مثل ما صنعتم بصورة ملكنا. فقال المسلمون: إن صاحبنا فعل ذلك من غير تعمد وأنتم تريدون العمد. فقال أبو عبيدة – رضي الله عنه –: مهلًا يا قوم، فإذا رضي القوم بصورتي فقد أجبتهم إلى ذلك ولا يتحدث القوم عنَّا أننا عاهدنا وغدرنا فإن هؤلاء القوم لا عهد لهم ولا عقل، ثم أجابهم إلى ذلك. فصوروا أبا عبيدة – رضي الله عنه – على عمود وجعلوا له عينين من زجاج

وأقبل فارس منهم حنقًا ففقأ عين الصورة، ثم رجع اصطخر إلى صاحب قنسرين وأخبره بذلك، فقال لقومه: بهذا نالهم ما يريدون.

وأقام أبو عبيدة على حمص يغير يمينًا وشمالًا ينتظر خروج السنة لينظر ما بعد ذلك، وأبطأ خبره على عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ولم يرد عليه شيء من الكتب والفتح، فأنكر عمر ذلك وظن به الظنون وحسب أنه قد داخله خبر وقد ركن إلى القعود عن الجهاد، فكتب إليه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى أمين الأمة أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - وآمرك بتقوى الله - عز وجل - سرًا وعلانية، وأحذركم عن معصية الله - عز وجل - وأحذركم وأنهاكم أن تكونوا ممن قال الله في حقهم «قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ...» (التوبة:٢٤)، وصلى الله على خاتم النبيين وإمام المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

فلما وصل الكتاب إلى أبي عبيدة - رضي الله عنه - قرأه على المسلمين، فعلموا أن أمير المؤمنين عمر يحرضهم على القتال، وندم أبو عبيدة - رضي الله عنه - على صلح قنسرين ولم يبق أحد من المسلمين إلا بكى من كتاب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -. وقالوا: أيها الأمير ما يقعدك عن الجهاد؟! فدع أهل شيزر وقنسرين واطلب بنا حلب وأنطاكية، فلعل الله أن يفتحهما على أيدينا وقد انقضى أجل الصلح وما بقي إلا القليل، وما البقاء إلا للملك الجليل، فعزم أبو عبيدة على المسير إلى حلب وعقد راية لسهل بن عمرو، وعقد راية أخرى لمصعب بن محارب اليشكري، وأمر عياض بن غانم أن يسير على مقدمتهم واتبعه خالد بن الوليد وسار أبو عبيدة - رضي الله عنه - إلى أن نزل على الرشين وصالح أهلها وسار إلى حماة فخرج أهلها إليه ومعهم الإنجيل وقد رفعه الرهبان على أكفهم والقسس أمام القوم يطلبون منه الصلح والذمام، فلما رآهم أبو عبيدة - رضي الله عنه - وقف، وقال لهم: ما الذي تريدون؟ فقالوا: أيها الأمير نريد أن نكون في صلحكم وذمامكم فأنتم أحب إلينا. فصالحهم أبو عبيدة وكتب لهم كتاب الصلح والذمام وخلف رجلًا من المؤمنين وسار حتى نزل إلى شيزر فاستقبلوه فصالحهم وقال لهم: أسمعتم للطاغية هرقل خبرًا؟ فقالوا:

ما سمعنا له خبرًا غير أنه اتصل بنا الخبر أن بطريق قنسرين قد كتب إلى الملك هرقل يستنجده عليكم، وقد بعث بجبلة بن الأيهم الغساني من بني غسان والعرب المتنصرة ومعه بطريق عمورية في عشرة آلاف فارس وقد نزلوا على جسر الحديد فكن منهم على حذر أيها الأمير. فقال أبو عبيدة – رضي الله عنه -: حسبنا الله ونعم الوكيل.

قال الواقدي: وأقام الأمير أبو عبيدة على شيزر وبقي مرة يقول: أسير إلى حلب ومرة يقول أسير إلى أنطاكية فجمع أمراء المسلمين إليه. وقال: أيها الناس قد بلغني أن بطريق قنسرين قد نقض العهد وأرسل للملك هرقل والخبر كذا وكذا فما أنتم قائلون؟ فقالوا: أيها الأمير دع أهل قنسرين والعواصم وسر بنا إلى حلب وأنطاكية. فقال: خذوا أهبتكم رحمكم الله. وكان قد بقي من الصلح والعهد الذي بينهم وبين أهل قنسرين شهر أو أقل من ذلك، فأقام أبو عبيدة – رضي الله عنه – ينتظر انفصال العهد.

وكانت عبيد العرب يأتون بجراثيم الشجر من الزيتون والرمان وغير ذلك من الأشجار التي تطعم الثمار فعظم ذلك على الأمير أبي عبيدة – رضي الله عنه

– فدعا العبيد إليه وقال: ما هذا الفساد؟ فقالوا: أيها الأمير إن الأحطاب متباعدة منا وهذه الأشجار قريبة. فقال الأمير أبو عبيدة:

عزيمة مني على كل حر وعبد قطع شجرة لها طعم وثمر لأجازينه ولأنكلن به، فلما سمع العبيد ذلك النكال جعلوا يأتون بالأحطاب من أقصى الديار. قال سعيد بن عامر وكان معي عبد نجيب وكان اسمه «مهجعًا» وقد شهد معي الوقائع والحروب، وكان جريء القلب في القتال. وكان إذا خرج في غارة أو في طلب حطب يتوغل ويبعد فخرج هو وجماعة من العبيد ممن شهد الوقائع في طلب الحطب، فأبطأ خبره على سيده سعيد بن عامر، فركب جواده وخرج في طلبه وجعل يقفو أثره إذ لاح له شخص وقد سال دمه على وجهه وصبغ سائر جسده وما يكاد يمشي خطوة واحدة إلا ويهوي على وجهه. قال سعيد بن عامر: فنزلت إليه وقلت له: ما وراءك من الأخبار؟ فقال: هلكة ودمار يا مولاي! فقلت: عليك يا ابن الأسود حدثني بخبرك.

قال سعيد: فلم يكد يقف حتى سقط على وجهه، فنضحت على وجهه ماء فسكن ما به. فقال: يا مولاي انج بنفسك وإلا أدركك القوم يصنعون بك مثل

ما صنعوا بي. فقلت: من القوم الذين صنعوا بك ما أرى؟ فقال: خرجت يا مولاي أنا وجماعة من الموالي لنحتطب حطبًا، فتباعدنا كثيرًا في البر وإذا نحن بكتيبة من الخيل زهاء عن ألف فارس كلهم عرب وفي أعناقهم صلبان الذهب والفضة وهم معتقلون بالذهب والفضة والرماح، فلما نظروا إلينا أسرعوا نحونا وداروا بنا وعزموا على قتلنا. فقلت لأصحابي: دونكم وإياهم! فقالوا: ويحك ومن يقاتل وليس لنا طاقة بقتال هذه الكتيبة والخيل وما لنا إلا أن نلقي بأيدينا إلى الأسر فهو أهون من القتال. فقلت: لا والله ما سلمت نفسي إليهم دون أن أقاتل قتالًا شديدًا، فلما رأوا مني الجد فعلوا مثل فعلي فقاتلنا القوم وقاتلونا فقتلوا منا عشرة وأسروا عشرة، وأما أنا فأثخنت بالجراح حتى سقطت على وجهي فرجعوا عني وبقيت كما ترى. قال سعيد: فغمني والله ما نزل بالعبيد فأردفته ورائي ورجعت على أثري وإذا بالخيل قد طلعت من ورائي كأنها الريح الهبوب أو الماء إذا اندفق من ضيق الأنبوب، وإذا بخيل غسان أحدقت بالرماح الطوال وهم يقولون: نحن بنو غسان من حزب الصليب والرهبان. قال سعيد: فناديتهم أنا من أصحاب محمد المختار - صلى الله عليه وسلم -، فأسرع بعضهم إليَّ وهمَّ أن يعلوَّني بالسيف فناديته: يا ويلك أتقتل رجلًا من قومك؟

فقال: من أي الناس أنت؟ قلت: أنا من الخزرج الكرام. فرد السيف وقال: أنت طلبة سيدنا جبلة بن الأيهم وحق المسيح، فقلت: ومن أين يعرفني جبلة حتى يطلبني؟ فقال: إنه يطلب رجلًا من أهل اليمن من أنصار محمد بن عبد الله، ثم قال: سر بنا طائعًا وإلا سرت كرهًا. قال سعيد بن عامر: فسرت والجيش معي حتى أشرفنا على جيش عرمرم وعنده أعلام وصلبان قد رفعت فلم أزل مع القوم حتى أتوا بي إلى مضرب جبلة بن الأيهم وإذا به جالس على كرسي من ذهب أحمر وعليه ثياب الديباج الرومي وعلى رأسه شبكة من اللؤلؤ وفي عنقه صليب من الياقوت. فلما وقفت بين يديه رفع رأسه إليَّ وقال: من أي عرب أنت؟ قلت: أنا من اليمن. قال: أكرمت! من أيها؟ فقلت: أنا من ولد حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عبد الله بن الأزور بن عوف بن مالك بن كهلان بن سبأ. فقال جبلة: من أي الملأ أنت نسبًا؟ فقلت: أنا من ولد الخزرج بن حارثة من أنصار محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام. فقال جبلة: وأنا من قومك من بني غسان. فقلت: أنا من القبيلة التي نسبت إليها! فقال: أنا جبلة بن الأيهم الذي رجعت عن الإسلام فما رضي صاحبكم عمر بن الخطاب أن يكون مثلي لهذا الدين ناصرًا حتى يأخذ مني القود لعبد حقير وأنا

ملك اليمن وسيد غسان! فقلت: يا جبلة إن حق الله أوجب من حقك ودينا لا يقوم إلا بالحق والنصفة، وإن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – لا يخاف ولا تأخذه في الله لومة لائم، فقال لي: ما اسمك؟ فقلت: سعيد بن عامر الأنصاري، فقال: أوطئ يا سعيد. قال: فجلست. فقال: ألك عهد بحسان بن ثابت الأنصاري؟ فقلت: شاعر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن قال فيه المصطفى: «أنت حسان ولسانك حسام». فقال لي: كم لك منذ فارقته؟ فقلت: عهدي به قريب وقد دعاني إلى دعوة صنعها وأمر مولاته أن تنشد لي شعرًا فيك فأنشدت:

لله در عصابة نادمتهم | يومًا بجلق في الزمان الأول
يغشون حتى ما تهر كلابهم | لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة أنسابهم | شم الأنوف من الطراز الأول
الملحقين فقيرهم بغنيهم | المشفقين على اليتيم الأرمل
أولاد جفنة حول قبر أبيهم | قبر ابن مارية الكريم المفضل

ثم خرجنا إلى الشام وهذا آخر عهدي به. قال جبلة بن الأيهم: أَوَحفظ لي هذه المكرمة؟! قلت: نعم. قال: فأمر لي بثوب من الكتان الرومي وفيه شيء

من الوَرِق. وقال: أنا أمرت لك بالكتان كي تلبسه ولا تحرِّمه، ثم قال لي: بحق ذمة العرب ما كنت تصنع في المكان الذي أسرت فيه؟ فقلت: إن الصدق أوفى ما استعمله الرجل، أنا من أصحاب الأمير أبي عبيدة بن الجراح وقد قصدنا نريد حلب وأنطاكية. فقال جبلة: اعلم أن الملك قد بعثني أنا وهذا البطريق صاحب عمورية حتى ننصر صاحب قنسرين، فإنه قد كادكم بصلحه لكم وأنا منتظر أن يلاقينا بهذا المكان ولكن ارجع إلى صاحبك أبي عبيدة وحذره من أسيافنا وقل له يرجع من حيث قدم ولا يتعرض لبلاد هرقل وسوف ينزع من أيديكم ما قد ملكتموه من الشام. قال سعيد بن عامر: فركبت وأردفت غلامي وسرت حتى أتيت عسكر المسلمين، فأسرع الناس إليَّ وقالوا: أين كنت يا ابن عامر؟ فأتيت خيمة الأمير أبي عبيدة – رضي الله عنه – وحدثته بقصتي مع جبلة بن الأيهم فقال لي: لقد خلصك الله بذكرك لحسان بن ثابت الأنصاري!

ثم جمع أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – للمشورة، ثم قال: أيها الناس ما ترون من قصة هذا البطريق وقد وفينا له وكادنا. فقال خالد بن الوليد – رضي الله عنه –: إن البغي مصرعة وإن كادنا كان الله من ورائه

بالمرصاد وسوف نكيده أعظم مكيدة وأنا أسير إلى لقائه بعشرة رجال من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. فقال أبو عبيدة: أنت لها يا أبا سليمان ولكل كريهة فخذ من أحببت من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. فقال خالد بن الوليد - رضي الله عنه -: أين عياض بن غنم الأشعري؟ أين عمرو بن سعيد؟ أين مصعب بن محارب اليشكري؟ أين أبو جندلة بن سعيد المخزومي؟ أين سهل بن عمرو العامري؟ أين رافع بن عميرة الطائي؟ أين المسيب بن نجبة الفزاري؟ أين سعيد بن عامر الأنصاري؟ أين عمرو بن معد يكرب الزبيدي؟ أين عاصم بن عمرو القيسي؟ أين عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -؟ فأجابوه بالتلبية.

قال الواقدي: وكان ضرار بن الأزور - رضي الله عنه - رمد العينين لم يحضر هذه الوقعة، فقال لهم خالد بن الوليد: هلموا فوجدوه قد تدرع بدرع مسيلمة واشتمل بلأمة حربه وركب جواده، وقال لعبده همام: سر معي حتى ترى مني عجبًا! فسار معه وسار خالد بن الوليد - رضي الله عنه - والعشرة من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول: يا سعيد أما أخبرك

جبلة بن الأيهم من أين يأتي البطريق صاحب قنسرين إليه؟ فقال: نعم يا أبا سليمان أخبرني. فقال له: خذنا في الطريق إلى جبلة بن الأيهم حتى نكمن له فيه، فإذا أتى البطريق صاحب قنسرين كدناه كما كادنا ودمرناه ومن معه! فسار سعيد أمام القوم يدلهم ويجد السير طالبًا عسكر جبلة بن الأيهم، وكان مسيرهم ليلًا فلما وصلوا إلى قرب النيران وسمعوا أصوات القوم عدل بهم سعيد إلى صوب طريق البطريق وكمن بمن معه من الرجال إلى وقت الصباح فلم يأت أحد فصلى خالد بأصحابه صلاة الفجر وهم في المكمن؛ فبينما هم فيه إذ أشرف عليهم جيش جبلة بن الأيهم والعرب المتنصرة وصاحب عمورية وهم طالبون أرض العواصم وقنسرين. فقال المسلمون لخالد: يا أبا سليمان! أما ترى هذا الجيش الذي قد أشرف علينا في عدد الشوك والشجر؟ فقال خالد بن الوليد - رضي الله عنه -: فما يكون من كثرتهم إذا كان النصر لنا والله معنا؟! فاختلطوا بهم أنتم وكونوا في جملتهم كأنكم من جيشهم إلى أن نلتقي بالبطريق صاحب قنسرين ويفعل الله تعالى ما يشاء ويختار. فعند ذلك اختلطوا بهم وصاروا في جملتهم وهم لا يفترقون.

قال رافع بن عميرة الطائي: فلما أشرفنا على حد صلحنا ولاح لنا بلد العواصم وقنسرين إذا ببطريقها قد استقبلنا وقد رفع أمامه الصليب وأخرج بين يديه القسوس والرهبان وهم يقرأون الإنجيل وقد ارتفعت أصواتهم بكلمة الكفر ودنا بعضهم من بعض. وخرج البطريق أمام الصحابة ليأتي إلى جبلة بن الأيهم يسلم عليه فاستقبله خالد بن الوليد - رضي الله عنه - مواجهًا له وحوله أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما قرب البطريق منهم. قال: سلمكم المسيح وأبقاكم الصليب. فقال خالد: يا ويلك ما نحن من عبَّاد الصليب، بل نحن من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - محمد الحبيب وكشف خالد بن الوليد - رضي الله عنه - وجهه ونادى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله يا عدو الله أنا خالد بن الوليد أنا المخزومي صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وضرب بيده البطريق وقبض عليه وانتزعه من سرجه!

وبرز أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسلوا السيوف على أصحابه وارتفعت الضجة والجلبة وأعلن العدو بكلمة الكفر، وضج

المسلمون بكلمة التوحيد وسمع جبلة وصاحب عمورية أصوات المسلمين وقد ارتفعت بالتهليل والتكبير، فانزعجوا لذلك ونظروا إلى السيوف وقد جردت، والرماح وقد شرعت فبرزوا نحو أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأحاطوا بهم من كل جانب ومكان، فلما نظر خالد إلى ما دهمه ونزل بأصحابه الذين معه، والبطريق صاحب قنسرين لا يفارقه وقد ملك قيده وهو خائف أن ينفلت من يديه أو تجري عليه حادثة قبل أن يقتله همَّ خالد أن يقتله ورفع السيف ليعلوه به فتبسم البطريق من فعاله وعجب خالد من ضحكه، وقال: ويلك مم ضحكك؟! فقال البطريق: لأنك مقتول أنت ومن معك وتريد قتلي! وإن أنت أبقيت عليَّ فهو أصوب. فتركه خالد ولم يقتله ثم صاح بأصحابه: أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كونوا حولي واحموا عني واصبروا على ما نزل بكم ولا يكثر عليكم من أحدق بكم فإن أشد ما تخافون منه القتل! والموت منية خالد في سبيل الله وإني والله أهديت نفسي للقتل مرارًا لعلي أرزق الشهادة، واعلموا رحمكم الله أن حجتنا واضحة ومفوضة إلى الله - عز وجل - وكأني بكم، وقد وصلتم إلى ربكم وسكنتم دارًا

لا يموت ساكنها، ثم قرأ: «لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ» (الحجر:٤٨).

جبلة يحارب خالدًا

قال الواقدي: فاجتمع أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى خالد - رضي الله عنه - وداروا من حوله وسار عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - عن يمينه ورافع بن عميرة عن يساره وعبده همام من ورائه وأصحابه محدقون به وسلم خالد البطريق صاحب قنسرين إلى عبده همام وقال: أوثقه إلى جانبك ولا تبرح من مكانك وأبشر بالنصر من الله - عز وجل -. وأقبلت إليهم العرب المتنصرة يقدمهم جبلة بن الأيهم في عنقه صليب من الذهب الأحمر وفيه طوق من الجوهر وعليه ثياب الديباج المزركش ومن فوقه درع مذهب الزرد وعلى رأسه بيضة من الذهب وعلى أعلاها صليب من الجوهر، وفي يده رمح طويل وسنانه يضيء كالقنديل وصاحب عمورية كالبرج المشيد ومن حوله الأعلاج المدلجة وقد أحدق بهم الجيش من كل جانب. فلما نظر صاحب عمورية إلى خالد بن الوليد - رضي الله عنه - وقد ملك

صاحب قنسرين وهو في يده أسير خاف أن يعجل عليه خالد. فأقبل إلى جبلة وقال له: وحق المسيح ما هؤلاء العرب إلا شياطين! ألا ترى إلى هذا العربي ومن معه وهم عشرة رجال وقد أحدق بهم هذا الجيش العظيم وما يفكرون فيه وقد ملكوا صاحبنا وهو معهم أسير ولا يخلص من أيديهم وإني خائف عليه أن يقتلوه وهو عزيز عند الملك هرقل فاخرج إلى هذا العربي، وقل له يخلي صاحبنا ويوصله إلينا حتى نجود لهم بأنفسهم، فإذا أطلقوا صاحبنا حملنا عليهم وقتلناهم عن آخرهم.

قال رافع بن عميرة الطائي: فبينما نحن وقوف حول خالد بن الوليد – رضي الله عنه – وجيش الروم والعرب المتنصرة محدقون بنا ونحن لا نفكر في كثرتهم لأنا واثقون بالله – عز وجل – وإذا بجبلة بن الأيهم وهو ينادي برفيع صوته، ويقول: من أنتم من أصحاب محمد المعروفين؟ من أنتم من العرب التابعين؟ أخبرونا من قبل أن ينزل بكم الدمار! فكان المكلم له خالد وبادره بالخطاب وقال له: بل نحن من أصحاب محمد المختار المعروفين بأهل القبلة والإسلام والإكرام والإنعام. وأما سؤالك عن أنسابنا فنحن الآن من قبائل شتى وقد جعل

الله كلمتنا واحدة ونحن مجتمعون عليها، وهي قول لا إله إلا الله محمد رسول الله زاده الله تعالى شرفًا.

فلما سمع جبلة كلام خالد بن الوليد غضب غضبًا شديدًا إذ لم يفكر فيه ولا فيمن معه، ثم قال: يا فتى أنت أمير هؤلاء العرب؟ فقال خالد: لست أميرهم بل أخوهم في الإسلام، وهم إخواني المؤمنون. فقال جبلة: من أنت من أصحاب محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم –؟ فقال خالد: أنا المعروف بكبش بني مخزوم، أنا خالد بن الوليد صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وهذا الرجل الذي عن يميني هو عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه –، وهذا الذي عن شمالي من أهل اليمن من كرام طيء، وهو رافع بن عميرة الطائي صهري وفؤادي، وذلك أني أخذت من كل قبيلة شجاعها المعروف، وبطلها الموصوف، فلا تزدري بقتالنا، ولا تفرح بكثرتكم، فما أنتم في القتال إلا كطيور وقع عليها صائدها وهي كامنة في أوكارها فألقى القانص الشبكة عليها فما انفلت منها إلا النجيب.

قال الواقدي: فزاد غضب جبلة من كلام خالد، وقال له: ستعلم أن كلامك عليك ميشوم إذا دارت بك الأسنة وبقيت أنت ومن معك طعامًا للوحوش في هذه الفلاة تمزقكم بكرةً وعشيًا! فقال له خالد: ذلك لا يكثر علينا وهو سهل لدينا. فأنت من العرب التي قد نسبت لعبادة الصليب. فقال: أنا سيد بني غسان ومن ملوك همدان، أنا ملك غسان وتاجها، أنا جبلة بن الأيهم! فقال خالد: أنت المرتد عن دين الإسلام ومن اختار الضلالة على الهدى، وسلك سبيل الغي وضل وغوى. فقال جبلة: لست كذلك أنا الذي اخترت العزَّ على الذل والهوان. فقال خالد: فإنك على ذل نفسك حريص، وإنما الكرامة غدًا في دار البقاء والبعد عن دار الشقاء. فقال جبلة: يا أخا بني مخزوم لا تفرط علينا في المقال فإنما بقائي عليك وعلى أصحابك بسبب هذا الأسير الذي في يدك لأني أخاف إن حملت عليكم قتلته قبل قتلك وهو معظَّم عند الملك هرقل وقريب عنده في النسب، فأطلقه من يدك حتى أجود عليكم بأنفسكم. فقال خالد: أما أسيري فلا أطلقه من يدي حتى أقتله ولا أبالي بما صُنِع بي بعده! وأما قولك تحمل عليَّ وعلى من معي بهذه الجموع فما أنصفت في المقال! فإذا أردت النصفة في القتال فجمعكم عظيم وعددكم كثير، ونحن عشرة رجال وقد

أحدقت بنا أعنة خيولكم وأسنة رماحكم وطيال سيوفكم فأبرزوا فارسًا لفارس وهذا أميركم، فإن قتلتمونا فقد خلصتم أسيركم، وإن أظفرنا الله بكم -وما النصر إلا من عند الله- فما يعظم عليكم هلاك أسيركم إذا هلكت أنفسكم قبله.

قال الواقدي: فعند ذلك نكس جبلة رأسه وأقبل يحدث صاحب عمورية بجواب خالد بن الوليد - رضي الله عنه - فغضب صاحب عمورية غضبًا شديدًا وانتضى سيفه فلما نظر خالد بن الوليد إلى البطريق وقد جرد سيفه علم أنه يريد القتال، فلما همَّ صاحب عمورية بالحملة أمسكه جبلة ومنعه من الحملة وأوقفه تحت صليبه وأقبل جبلة على خالد بن الوليد، وقال: يا أخا بني مخزوم إن الحرب كما ذكرت تحتمل النصفة وهؤلاء بنو الأصفر أعلاج الروم غنم ما يعرفون النصفة في البراز وقد حدثتهم بحديثك معي وقد رضوا منك بالمبارزة فمن أرادها منكم فليبرز.

قال رافع بن عميرة الطائي: فعزم خالد بن الوليد أن يبرز فمنعه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -، وقال: يا أبا سليمان والله لا يبرز لهؤلاء القوم غيري وأبذل المجهود فيهم فلعلي ألحق بأبي بكر الصديق! فتركه خالد

وقال: اخرج شكر الله مقالك وعرف لك فعالك. فخرج عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -، وهو على فرس كان لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وكان دفعه له من قسمة غنيمة وقعة أجنادين، وكان الجواد كالطود العظيم وعبد الرحمن غارقًا في الحديد والزرد النضيد وبيده قناة تامة الطول، فجال عبد الرحمن بجواده بين عساكر الروم والعرب المتنصرة وقال: دونكم والقتال فأنا ابن الصديق ثم طلب البراز وجعل يقول:

أنا ابن عبد الله ذي المعالي ... والشرف الفاضل ذي الكمال
أبي المجيد الصادق المقال ... أدين هذا الدين بالفعال

قال رافع بن عميرة: فخرج إليه خمسة فوارس من شجعان الروم فما كان يجول عبد الرحمن على الفارس إلا جولة واحدة فيصرعه قتيلًا فلما قتل الخمسة فوارس توقفوا عنه فهمَّ بالحملة على عسكر الروم فخرج إليه جبلة بن الأيهم وقد اشتد في الغضب، فلما قرب من عبد الرحمن قال له: يا غلام قد تعديت علينا في فعالك وبغيت علينا في قتالك! قال عبد الرحمن: وكيف ذلك وما البغي من شيمتنا؟! قال جبلة: لأنك قد ملأت الأرض من قتلانا وما خرجت إليك أقاتلك لأنك لست لي كفؤًا في القتال، وإنما خرجت إليك لأن

رجلًا من أصحابك قد خرج يعينك، وليس هذا من شيم الأشراف والإنصاف! فلما سمع عبد الرحمن كلام جبلة تبسَّم، وقال: يا ابن الأيهم تريد أن تخدعني وأنا تربية الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –، وقد شهدت معه الوقائع والقتال! فقال جبلة: لست مخادعًا وما قلت إلا حقًا. فقال عبد الرحمن: فأخرج بإزاء من خرج معي فارسًا من قومك إن كنت صادقًا في مقالتك واحمل عليَّ فإني كفء كريم. فلما نظر جبلة بن الأيهم إلى عبد الرحمن وأنه لا يؤتى من قبل الخداع والحيل. قال: هل لك يا غلام أن تلقي بيدك إلينا وأغمسك في ماء المعمودية غمسة تخرج منها نقيًا من الذنوب كما خرجت من بطن أمك وتكون من حزب الصليب والإنجيل وتأكل القربان وتأخذ الجائزة العظيمة من الملك هرقل وأزوجك ابنتي وأقاسمك نعمتي وأتفضل عليك بإكرامي وإنعامي، وأنا الذي مدحني شاعر نبيكم حيث يقول:

إن ابن جفنة من بقية معشر ... لم تغذهم آباؤهم باللوم
يعطي الجزيل ولا يراه بأنه ... إلا كبعض عطية المذموم
لم ينسني بالشام إذ هو بارح ... يومًا ولا متنصرًا بالروم
إن جئته يومًا تقر بمنزل ... تسقى براحته من الخرطوم

فأسرع إلى ما عرضته عليك لتنجو من المهالك وتكون في النعم والعيش السليم. فقال عبد الرحمن: لا إله إلا الله وحده لا شريك له يا ويلك يا ابن اللئام أتدعوني من الهدى إلى الضلال ومن الإيمان إلى الكفر والجهالة، وأنا ممن وقر الإيمان في قلبه وعرف رشده من غيه وصدَّق نبي الله وأبغض من كفر بالله، فدونك والقتال ودع عنك الخديعة والمحال وتقدم إلى ما عزمت عليه حتى أضربك ضربة أعجل بها حمامك وأرغم بها أنفك وتستريح العرب من أن تنسب إليك لأنك كافر بالرحمن وعابد للصلبان. فغضب جبلة من كلام عبد الرحمن وحمل عليه وهمَّ به ورفع رمحه يريد أن يطعنه فزاغ عبد الرحمن من الطعنة، وحمل على جبلة حملة عظيمة، وتطاعنا بالرماح حتى كلَّ عبد الرحمن من حمل قناته فرماها من يده وانتضى سيفه وتعاركا في الحرب، فهجم عبد الرحمن على جبلة وضرب رمحه فبراه فرمى جبلة باقي الرمح من يده وانتضى سيفه من غمده وكان من سيوف كندة من بقايا عاد كأنه صاعقة بارقة ما ضرب منها شيئًا إلا براه وحمل على عبد الرحمن – رضي الله عنه – حملة عظيمة.

قال رافع بن عميرة الطائي: فعجبنا والله من عبد الرحمن وصبره على قتال جبلة ومنازلته على صغر سنه وقلة أعوانه، ثم التقيا بضربتين واصلتين فسبقه عبد الرحمن بالضربة فأخذها جبلة في حجفته فقطع الدرق ونزل السيف إلى البيضة فانثنى سيف عبد الرحمن عنها لأنها ذات سقاية عظيمة فجرحه جرحًا واضحًا أسال دمه وضربه جبلة ضربة واصلة فقطع ما كان عليه من الزرد والدروع والثياب ووصلت الضربة إلى منكبه فجرحته، فلما أحس عبد الرحمن - رضي الله عنه - الضربة قد وصلت إليه ثبت نفسه وأرى قرينه كأن الضربة لم تصله وحرك جواده وأطلق عنان فرسه حتى لحق بخالد بن الوليد - رضي الله عنه - وأصحابه، فلما وصل إليهم قال له خالد: قد وصل إليك عدو الله بضربته؟ فقال: نعم، وأظهر له ضربته وما لحقه فأخذوه عن فرسه وسدوا جراحه. فقال: يا ابن الصديق إن كان جبلة قد وصل إليك بضربته لأفجعنهم في أسيرهم كما فجعوني بك!

ثم صاح خالد بعبده همَّام وقال: قدِّم هذا العلج فقدَّمه بين يديه فضربه بسيفه فأطاح رأسه عن جسده، فلما نظرت الروم إلى صاحبهم وقد قتله خالد

فجعهم ذلك، وغضب جبلة وقال: أبيتم إلا الغدر وقتلتم صاحبنا ثم صاح في الروم والعرب المتنصرة وهموا بالحملة ونظر خالد إليهم وقد حملوا على المسلمين فقال لعبده همام قف أنت عند عبد الرحمن فامنع عنه من أراده بسوء، ثم قال لأصحابه: أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يخرج أحد منكم عن صاحبه وكونوا حولي فما أسرع الفرج والنصر من الله - عز وجل -، فوقف أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حول خالد بن الوليد - رضي الله عنه - كما أمرهم وما قصدهم إلا من آيس من نفسه وحملت الروم والعرب المتنصرة بأجمعهم وثبت لهم المسلمون الأخيار وعظم بينهم القتال ودارت بهم الأهوال. قال ربيعة بن عامر: والله لقد كان خالد بن الوليد كلما كثرت الخيل حولنا وازدحمت علينا يتقيها بنفسه ويفرقها بسيفه ولم نزل كذلك حتى أخذنا العطش والظمأ. قال رافع بن عميرة الطائي: فلما رأيت ذلك قلت لخالد بن الوليد: يا أبا سليمان لقد نزل بنا القضاء. فقال: والله لقد صدقت يا أبا عميرة لأني نسيت القلنسوة المباركة ولم أصحبها معي. وقد عظم عليهم الأمر وعزَّ منهم الصبر والأرض قد ملئت من قتلى المشركين وهم بين الروم كأنهم أسرى وإذ قد نادى بهم مناد وهتف بهم هاتف وهو يقول: خذل الآمن ونصر

الخائف أبشروا يا حملة القرآن جاءكم الفرج من الرحمن ونصرتم على عبدة الأوثان.

عن إسحاق بن عبد الله قال: كنت مع أبي عبيدة - رضي الله عنه - فبينما نحن في شيزر وأبو عبيدة في مضربه وإذا به قد خرج في بعض الليل وهو ينادي: النفير النفير يا معشر المسلمين لقد أحيط بفرسان الموحدين! فأسرعنا إليه من كل جانب ومكان وقلنا له: ما نزل بك أيها الأمير؟ فقال: الساعة كنت نائمًا إذ طرقني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجرَّني وقال لي معنفًا: يا ابن الجراح أتنام عن نصرة القوم الكرام، فقم والحق بخالد بن الوليد فقد أحاط به القوم اللئام؟! وإنك تلحق به إن شاء الله تعالى رب العالمين.

فلما سمع المسلمون قول أبي عبيدة - رضي الله عنه - تبادروا إلى لبس السلاح والزرد وركبوا خيولهم وساروا يريدون خالدًا ومن معه! فبينما الأمير أبو عبيدة - رضي الله عنه - على المقدمة في أوائل الخيل إذ نظر إلى فارس يسرع به جواده وهو أمام الخيل ويكر في سيره كرًا! فأمر أبو عبيدة - رضي الله عنه - رجالًا من المسلمين أن الحقوا به فلم يقدروا على ذلك لسرعة جواده!

فلما كلَّت الخيل عن إدراكه نظر أبو عبيدة إليه وظن أنه من الملائكة قد أرسله الله أمامهم غير أنه نادى به الأمير أبو عبيدة: على رسلك أيها الفارس المجد والبطل المكد ارفق بنفسك يرحمك الله! فوقف الفارس حين سمع النداء. فلما قرب أبو عبيدة منه إذا هي أم تميم زوجة خالد بن الوليد - رضي الله عنه -! فقال لها أبو عبيدة: ما حملك على المسير أمامنا؟ فقالت: أيها الأمير إني سمعتك وأنت تصيح وتضج بالنداء وتقول إن خالدًا أحاطت به الأعداء فقلت إن خالدًا ما يخذل أبدًا ومعه ذؤابة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - إذ حانت مني التفاتة إلى القلنسوة المباركة وقد نسيها فأخذتها وأسرعت إليه كما ترى. فقال أبو عبيدة: لله درك يا أم تميم سيري على بركة الله وعونه.

قالت أم تميم: كنت في جماعة نسوة من مذحج وغيرهم من نساء العرب والخيل تطير بنا طيرًا حتى أشرفنا على الغبرة والقتال ونظرنا الأسنة والصوارم تلوح في القتال كأنها الكواكب وما للمسلمين حس يسمع، فأنكرنا ذلك وقلنا: إن القوم قد وقع بهم عدوهم! فعند ذلك كبَّر الأمير أبو عبيدة - رضي الله عنه - وحمل وحمل المسلمون. قال رافع بن عميرة: فبينما نحن قد أيسنا من أنفسنا

إذ سمعنا التهليل والتكبير فلم تكن إلا ساعة حتى أحاط جيش المسلمين بعسكر الكافرين ووضعوا السيوف من كل جانب وعلت الأصوات وارتفعت الزعقات.

قال مصعب بن محارب اليشكري: فرأيت عبدة الصلبان وهم هاربون ورأيت خالد بن الوليد - رضي الله عنه - وهو ثابت في سرجه متشوف إلى الأصوات من أين هي، وإذا بفارس قد خرج من الغبار وهو يسوق فرسان الروم بين يديه ويهربون منه حتى أزاح من حوت الكتائب والرجال فأسرع خالد بن الوليد إليه، وقال: من أنت أيها الفارس الهمام والبطل الضرغام؟ فقالت: أنا زوجتك أم تميم يا أبا سليمان، وقد أتيتك بالقلنسوة المباركة التي تنصر بها على أعدائك فخذها إليك فوالله ما نسيتها إلا لهذا الأمر المقدر! ثم سلمتها إليه فلمع من ذؤابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نور كالبرق الخاطف.

قال الواقدي: والله ما وضع خالد القلنسوة على رأسه وحمل على الروم إلا قلب أوائلهم على أواخرهم وحمل المسلمون حملة عظيمة، فما كان غير بعيد حتى ولت الروم الأدبار وركنوا إلى الفرار ولم يبق من القوم إلا قتيل وجريح

وأسير، وكان جبلة أول من انهزم والعرب المتنصرة أثره. فلما رجع المسلمون من اتباعهم اجتمعوا حول راية الأمير أبي عبيدة - رضي الله عنه - وسلموا عليه وعلى المسلمين وشكروا الله على سلامتهم، ونظر أبو عبيدة - رضي الله عنه - إلى خالد بن الوليد وأصحابه وهم كأنهم قطعة أرجوان فصافحه وهنأه بالسلامة، وقال: لله درك يا أبا سليمان قد أشفيت الغليل وأرضيت الملك الجليل! ثم قال الأمير أبو عبيدة - رضي الله عنه -: يا معاشر الناس قد رأيت أن نسير من وقتنا هذا ونغير على قنسرين والعواصم ونقتل الرجال وننهب الأموال، فقال المسلمون: نعم ما رأيت يا أمين الأمة. فانتخب أبو عبيدة - رضي الله عنه - فرسانًا فجعلهم في المقدمة مع عياض بن غنم الأشعري وساروا حتى أشرفوا على قنسرين والعواصم فقال لأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: شنُّوا الغارات! فشنُّوا الغارات عليهم وسبوا الذراري وقتلوا الرجال، فلما نظر أهل قنسرين إلى ذلك غلقوا مدينتهم وأذعنوا بالصلح وأداء الجزية، فأجابهم أبو عبيدة - رضي الله عنه - إلى ذلك وكتب لهم كتاب الصلح وفرض على كل رأس منهم أربعة دنانير.

قال الواقدي: لما فتح أبو عبيدة - رضي الله عنه - قنسرين والعواصم قال لأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أشيروا عليَّ برأيكم رحمكم الله، فإن الله تعالى يقول لنبيه - صلى الله عليه وسلم -: «وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ»، فهل أسير إلى حلب وقلاعها وأنطاكية وملوكها وعساكرها أو نرجع إلى ورائنا؟ فقالوا: أيها الأمير كيف نرجع إلى حلب وأنطاكية، وهذه أيام انقضاء الصلح الذي بيننا وبين أهل شيزر وأرمين وحمص وجوسيه ولاشك أنهم قد أخذوا الحصار وقووا بلادهم بالأطعمة والرجال ونخاف أن يتغلبوا علينا فيما أخذناه من البلاد ويغيروا علينا لاسيما بعلبك وحصنها، فإنهم أولو شدة وعديد، ونرى من الرأي أنَّا نرجع إليهم ونقاتلهم فلعل الله - عز وجل - أن يفتح على أيدينا. فاستصوب ذلك ورجع على طريقه، فوجدوا البلاد كما قالوا، قد تحصنت بالعدد والرجال والطعام ولم يكن لأبي عبيدة قصد إلا حمص، وقد بعث إليها الملك هرقل بطريقًا من أهل بيته اسمه «هربيس»، وكان من أهل الشدة والبأس ومعه جيش عرمرم، فلما نظر أبو عبيدة إلى ذلك ترك على حمص خالد بن الوليد - رضي الله عنه -، وسار هو إلى بعلبك.

فلما قرب منها، وإذا بقافلة عظيمة فيها جمع من الناس ومعهم البغال والدواب وعليها من أنواع التجارات، وقد أقبلت من الساحل يريدون بعلبك، فلما نظر أبو عبيدة - رضي الله عنه - إلى سوادها قال لمن حوله من الفرسان: ما هذا إلا جمع كثير أمامنا! فقالوا: لا علم لنا بذلك. فقال: عليَّ بخبرهم. فسارت الخيل إليهم وأخذت أخبارهم ورجع البعض بخبرها والقافلة من قوافل الروم محملة متاعًا. قال شداد بن عدي: وكانت أحمال القافلة أغلبها سكر، وكانت لأهل بعلبك، فلما سمع أبو عبيدة ذلك قال: إن بعلبك لنا حرب وليس بيننا وبينهم عهد فخذوا ما قد ساقه الله إليكم، فإنها غنيمة من عند الله. فاحتوينا على القافلة، وكان فيها أربعمائة حمل من السكر والفستق والتين وغير ذلك وأخذنا أهلها أسارى، فقال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: كفوا عن القتل واطلبوا منهم الفداء فابتعناهم أنفسهم بالذهب والفضة والثياب والدواب وصنعنا من السكر العصيدة والفالوذج بالسمن والزيت ودعس المسلمون دعسًا وبتنا حيث حوتنا القافلة، فلما أصبح الصباح أمرنا أبو عبيدة - رضي الله عنه - بالمسير إلى بعلبك والنزول عليها، وكان قد هرب قوم من القافلة وأخبروا أهل بعلبك بها.

قال الواقدي: وكان على بعلبك بطريق عظيم يقال له «هربيس» وكان شديد البأس شجاع القلب، فلما أتاه الخبر بقدوم عساكر المسلمين جمع رجاله وأهل الحرب وأمرهم بلبس السلاح والعدد وخرج بعسكره وجعل يسير، وهو يعلم أن الأمير أبا عبيدة - رضي الله عنه - سائر إليهم بجيوش المسلمين، فلما انتصف النهار وتراءى الجمعان، وكان مع هربيس سبعة آلاف فارس سوى من اتبعه من سواد بلده، فلما نظر طوالع جيش أبي عبيدة - رضي الله عنه -، ونظر المسلمون إليه نادوا النفير النفير فعندها تبادرت الفرسان وشرعوا رماحهم وجردوا سيوفهم، وصفَّ هربيس رجاله وعبأهم تعبئة الحرب. فقال له بعض بطارقته: ما الذي تريد أن تصنع مع العرب؟ فقال: أقاتلهم لئلا يطمعوا فينا فينزلوا على مدينتنا! فقالوا له: الرأي عندي أن لا تقاتل العرب وارجع سالمًا أنت ورجالك! فإن أهل دمشق الشام ما قدروا عليهم ولا ردهم عساكر أجنادين ولا جيوش فلسطين، وقد بلغك ما فيه كفاية مما جرى لهم بالأمس مع صاحب قنسرين وصاحب عمورية والعرب المتنصرة، وكيف ردهم هؤلاء العرب على أعقابهم منهزمين والصواب أنك تفوز بنفسك وبمن معك وارجع.

فقال هربيس: لست أفعل ذلك ولا أنهزم أمام العرب، وقد بلغني أن عسكرهم الكبير على حمص مع خالد بن الوليد الذي كان فيه الأمير أبي عبيدة وهذه غنيمة ساقها المسيح لنا! فقال ذلك البطريق الناصح: أما أنا فلست أتبع رأيك ولا أقاتل العرب. ثم لوى عنان فرسه راجعًا إلى بعلبك واتبعه خلق كثير من القوم، وأما هربيس فإنه صفَّ رجاله وزحف يريد القتال، فلما نظر أبو عبيدة - رضي الله عنه - ذلك وأنهم قد عوَّلوا على الحرب قال: أيها الناس اعلموا - رحمكم الله تعالى- أن الله قد وعدكم وأيدكم بالنصر حتى هزم أكثر هؤلاء القوم وهذه المدينة التي أنتم قاصدون إليها وسط ما فتحتموه من البلاد وأهلها قد أكثروا من الزاد والعدد والقوة، فإياكم والعجب وانصروا الله ينصركم واعلموا أن الله معكم. ثم حمل الأمير أبو عبيدة وحمل المسلمون.

قال عامر بن ربيعة: والله ما كان بيننا وبينهم إلا جولة الجائل حتى ولوا الأدبار وطلبوا الأسوار ودخل «هربيس» المدينة مع أصحابه وفيه سبع جراحات فتلقاه الذي أشار عليه لا تقاتل العرب، وقال له: وأين غنائم العرب التي غنمتموها؟ فقال «هربيس»: قبحك المسيح أتهزأ بي، وقد قتلت العرب

رجالي، وقد جرحت هذه الجراحات! فقال له البطريق: ألم أقل لك إنك مهلك نفسك ورجالك.

قال الواقدي: ثم إن الأمير أبا عبيدة سار حتى نزل على بعلبك فنظر إلى مدينة هائلة وحصن حصين والقوم قد أغلقوا الأبواب، وقد أحرزوا أموالهم ومواشيهم في جوفها واطلع المسلمون على الأموال كأنها الجراد المنتشر. فلما نظر الأمير أبو عبيدة - رضي الله عنه - إلى البلد وتحصينه وامتناعه وكثرة رجاله وشدة برده وذلك أنه بلد لا يزايله البرد في الشتاء والصيف قال لخواص أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ما الرأي في ذلك؟ فاجتمع رأيهم على شورى واحدة، وهو أن يحاصروا القوم ويضيِّقوا عليهم. فقال معاذ ابن جبل - رضي الله عنه -: أصلح الله الأمير إني أعلم أن الروم ازدحم بعضهم ببعض من كثرتهم وأظن أن المدينة لا تسعهم، وإن طاولناهم رجونا من الله النصر وأن يفتحها الله على أيدينا، فقال الأمير: يا ابن جبل من أين علمت أن القوم يتضايقون في مدينتهم؟ فقال: أيها الأمير إني كنت أول من أسرع بجواده قبل وأشرفت على هذه المدينة والقلعة البيضاء ورجوت أن نلحق سوابق

الخيل فرأيت القوم يدخلون المدينة من جميع الأبواب مثل السيل المنحدر والمدينة مشحونة بأهل السواد والقرى والمواشي ودوابهم فيها، وقد ضاقت بهم وهذه أصوات القوم في المدينة كأنهم النحل من كثرتهم! فقال أبو عبيدة: صدقت يا معاذ ونصحت وايم الله ما عرفتك إلا مبارك الرأي سديد المشورة.

قال الواقدي: وبات المسلمون تلك الليلة يحرس بعضهم بعضًا إلى الصباح. ثم كتب أبو عبيدة - رضي الله عنه - إلى أهل بعلبك كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من أمير جيوش المسلمين بالشام وخليفة أمير المؤمنين فيهم أبو عبيدة بن الجراح إلى أهل بعلبك من المخالفين والمعاندين، أما بعد فإن الله - سبحانه وتعالى - وله الحمد أظهر الدين وأعز أولياءه المؤمنين على جنود الكافرين وفتح عليهم البلاد وأذل أهل الفساد، وإن كتابنا هذا معذرة بيننا وبينكم وتقدمة إلى كبيركم وصغيركم لأنا قوم لا نرى في ديننا البغي وما كنا بالذين نقاتلكم حتى نعلم ما عندكم. وإن دخلتم فيما دخلت فيه المدن من قبلكم من الصلح والأمان صالحناكم، وإن أردتم الذمام ذممناكم وإن أبيتم إلا القتال استعنا عليكم بالله وحاربناكم فأسرعوا بالجواب والسلام

على من اتبع الهدى. ثم كتب «إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى»، وطوى الكتاب وسلمه إلى رجل من المعاهدين وأمره أن يسير به إلى أهل بعلبك ويأتيه بالجواب فأخذ المعاهد الكتاب وأتى به إلى السور وخاطبهم بلغتهم، وقال: إنِّي رسول إليكم من هؤلاء العرب فدلوا حبلًا فربطوه في وسطه، وأخذه القوم إليهم وأتوا به إلى بطريقهم هربيس فناوله الكتاب فجمع هربيس أهل الحرب والبطارقة وقرأ عليهم كتاب أبي عبيدة - رضي الله عنه -، وقال: أشيروا عليَّ برأيكم!

فقال له بطريق من بطارقته، وهو صاحب مشورة الرأي: عندي أن لا نقاتل العرب لأنَّ ليس لنا طاقة بقتالهم ومتى صالحناهم كنا في أمن وخصب ودعة كما قد صار أهل أركة وتدمر وحوران وبصرى ودمشق، وإن نحن قاتلناهم وأخذونا في الحرب قتلوا رجالنا واستعبدونا وسبوا حريمنا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ من الحرب، فقال هربيس: لا رحمك المسيح فما رأيت أجبن منك ولا أقل جلدًا؟! يا ويلك كيف تأمرنا أن نسلم مدينتنا إلى أوباش العرب! ولاسيما وقد عرفت حربهم وقتالهم واختبرت نزالهم وإنِّي في هذه النوبة لو حملت في ميسرتهم كنت

هزمتهم! فقال له البطريق: نعم كانت الميسرة والقلب يخافون منك! ثم تخاصما وتشاتما وافترق أهل بعلبك فرقتين فرقة يطلبون الصلح وفرقة يطلبون القتال ورمى هربيس الكتاب إلى المعاهد بعد أن مزقه وأمر غلمانه أن يدلوه إلى ظاهر المدينة ففعلوا ذلك. ووصل المعاهد إلى عسكر المسلمين وأتى أبا عبيدة - رضي الله عنه - وحدثه بما كان من القوم، وقال: أيها الأمير إن أكثر القوم عوَّلوا على القتال، فقال أبو عبيدة - رضي الله عنه - للمسلمين: شدوا عليهم، واعلموا أن هذه المدينة في وسط أعمالكم وبلادكم، فإن بقيت كانت وبالًا على من صالحتم ولا تقدرون على سفر ولا على غيره، فلبس أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - السلاح والعدد ورجعوا إلى الأسوار وعطف أهل بعلبك عليهم وتراموا بالسهام والأحجار، وإن هربيس قد نصب كرسيه وسريره على برج من أبراج القلعة من ناحية النملة، وقد عصب جراحته ولبس سلاحه ولأمته ولبس على رأسه صليبًا من الجواهر وحوله البطارقة والديرجانية بالدروع المذهبة والعدد الكاملة وفي أعناقهم صلبان الذهب والجوهر وبأيديهم القسي والسهام.

قال عامر بن وهب اليشكري: شهدت حرب بعلبك، وقد زحف المسلمون إلى سورها، ونشاب الروم كالجراد المنتشر، وكان أناس من العرب بلا سلاح فأصابهم سهام القوم. ورأيتُ القوم يتساقطون علينا من السور تساقط الطير على الحب فذهبت إلى رجل سقط لأضرب عنقه فصاح: الغوث الغوث وكنَّا قد عرفنا من الحرب أن من قال: الغوث يعني الأمان، فقلت له: يا ويلك لك الأمان فما الذي ألقاك إلينا من سوركم؟ فجعل يكلمني بالرومية، وأنا لا أدري ما يقول. فسحبته إلى خيمة أبي عبيدة، وقلت له: أيها الأمير، اطلب من يعرف لغة هذا العلج فإني رأيتهم يرمي بعضهم بعضًا!

فقال أبو عبيدة – رضي الله عنه – لمن حضر من المترجمة: أخبرنا بخبر هذا العلج وما قضيته، ولم يرمي بعضهم بعضًا؟! فقال له الترجمان: يا ويلك قد أعطيناك الأمان فاصدقنا في الكلام وقل لنا لم يرمي بعضكم بعضًا؟ قال: إن بعضنا لا يرمي بعضًا ولكنا من أهل السواد والقرى، فلما سمعنا بمسيركم ورجوعكم عن أهل قنسرين التجأنا إلى هذه المدينة من جميع الرساتيق لنتحصن فيها لما نعلم من كثرة ما بها من الجيش فضيق بعضنا على بعض

وسددنا طرقات المدينة ومضى بعضنا إلى السور، فإذ ليس لنا موضع نأوي إليه ولا مسكن نسكن فيه فجعلنا الأبراج والأسوار مسكنًا لنا. فلما زحفتم إلى القتال برز إليكم أهل الحرب والنزال من هذه المدينة فجعلوا يدوسوننا بأرجلهم، وإذا اشتدت الحرب عليهم والقتال يدفع الرجل منهم الرجل منَّا فيلقيه إليكم.

فلما سمع الأمير أبو عبيدة - رضي الله عنه - ذلك فرح فرحًا شديدًا وقال: أرجو من الله أن يجعلهم غنيمة لنا! وأخذت الحرب مأخذها وطحنت رجالها وعلا الضجيج وحمى الروم أسوارهم فلم يقدر أحد من المسلمين أن يصل إليها من كثرة السهام والحجارة. قال غياث بن عدي الطائي: حاربنا أهل بعلبك في أول يوم فأصيب من المسلمين اثنا عشر رجلًا، وأصيب من الروم على السور خلق كثير من أهل الحرب وغيرهم، وانصرف المسلمون إلى رحالهم وما لهم همة إلى الطعام ولا الشراب ولا يريد أحد منا إلا الاصطلاء بالنار من شدة البرد. وبتنا ليلتنا نوقد النار ونتناوب في الحرس إلى الصباح، فلما صلينا الفجر نادى مناد من قبل أبي عبيدة - رضي الله عنه - يقول: عزيمة مني على كل رجل

من المسلمين لا يبرز إلى حرب هؤلاء القوم حتى ينفذ إلى رحله ويصلح له طعامًا حارًا يأكله ليكون بذلك شديدًا على لقاء العدو.

فابتدرنا لإصلاح أمورنا، فلما نظر أهل بعلبك إلى تأخرنا عن حربهم وقتالهم طمعوا فينا وظنوا أن ذلك فشل منا وعجز، فصاح هربيس في الروم وقال: اخرجوا لهم بارك المسيح فيكم. قال غياث بن عدي: فلم يشعر المسلمون إلا والأبواب قد فتحت والخيل والرجال قد طلعت إلينا كالجراد المنتشر. قال: وكان بعضنا قد مد يده إلى الطعام وبعضنا ينضج له القرص وإذا بمناد ينادي: يا خيل الله اركبي وللجهاد تأهبي، فدونكم والقوم قبل أن يدهموكم. قال حمدان بن أسيد الحضرمي: وكان لي قرص خبزته وقدمت شيئًا من الزيت لأجعله أدامي للقرص وإذا بالمنادي ينادي: النفير النفير! فوالله ما راعني ذلك حتى أخذت قطعة وغمستها في الزيت وهويت بها إلى فمي، سمعت النفير فقمت مسرعًا وركبت جوادي عريانًا من دهشتي لسرعة الإجابة وضربت بيدي على عمود من أعمدة الخيام وحملت على القوم، فوالله ما شعرت بما

صنعت ولا عقلت على نفسي حتى صرت في الروم فجعلت أحطمهم حطمًا وأهبرهم بالسيف هبرًا.

فنظرتُ إلى خيل الروم متفرقة والأمير أبو عبيدة قد نصب رايته والناس يهرعون إليها، ونادى أبو عبيدة - رضي الله عنه - برفيع صوته: اليوم يوم له ما بعده. وعندما نظر إلى شدة ضرب الروم وصبرهم على قتال المسلمين، حمل عليهم بالخيل العربية وأحاط بالروم من كل ومكان، وكان في جملة خيله عمرو بن معد يكرب الزبيدي وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وربيعة بن عامر ومالك بن الأشتر وضرار بن الأزور وذو الكلاع الحميري - رضي الله عنهم - فلله درهم فلقد قاتلوا قتالًا شديدًا وأبلوا بلاءً حسنًا، فلما نظرت الروم إلى فعلهم رجعوا على أعقابهم طالبين الأسوار وغلقوا الأبواب! ورجع المسلمون إلى عسكرهم وأضرموا نيرانهم ودفنوا من استشهد منهم، وأقبل رؤساء المسلمين إلى الأمير أبي عبيدة - رضي الله عنه - وقالوا: أيها الأمير ما الذي قد عزمت عليه وما عندك من الرأي يرحمك الله؟ فقال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: اعلموا أن الرأي أن نتأخر عن المدينة مقدار فرسخ ليكون ذلك مجالًا

لخيلكم ومنعة لحريمكم والنصر من عند الله تعالى.. ثم دعا أبو عبيدة - رضي الله عنه - بسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وعقد له راية وأمَّره على خمسمائة فارس وثلاثمائة راجل وأمرهم أن يهبطوا إلى الوادي وأن يقاتلوا القوم على الأبواب وأن يشغلوهم عن المسلمين. ثم دعا ضرار بن الأزور وعقد له راية وأمره على خمسمائة فارس ومائة راجل وسرحه إلى باب الشام، وقال: يا ابن الأزور أظهر شجاعتك على بني الأصفر فقاتل من هناك من الروم! فقال: حبًا وكرامة. ومضت كل فرقة إلى جهة من الجهات، فلما أصبح الصباح فتح الروم الأبواب وخرجوا في خلق كثير إلى أن تكاملوا حول بطريقهم هربيس. فقال لهم البطريق: اعلموا يا معاشر النصرانية أن أهل هذا الدين من قبلكم قد فشلوا عن قتال هؤلاء العرب وعجزوا عن قتالهم ونزالهم. فقالوا: أيها السيد طب نفسًا وقر عينًا فإنا كنا نخاف من العرب قبل أن نختبرهم ونعلم قتالهم، وقد علمنا أنهم إذا لاقوا حربنا لم يكونوا أصبر منا على الحرب، لأن أحدهم يلقى الحرب وعليه ثوب خلق خام أو فروة خلقة، ونحن علينا الدروع والزرد وقد وهبنا أنفسنا للمسيح.

قال الواقدي: فلما نظر أبو عبيدة إلى كثرتهم نادى برفيع صوته: يا معاشر المسلمين لا تفشلوا فتذهب ريحكم واصبروا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ. قال: وإن الروم داخلهم الخوف لما كانوا قد نالوه من غرة المسلمين بالأمس فحملوا حملة عظيمة.

قال سهل بن صباح العبسي: شهدت قتال أهل بعلبك، وقد خرج إلينا أهلها في اليوم الثاني وهم أطمع مما كانوا في اليوم الأول وقد حملوا علينا حملة عظيمة شديدة منكرة وكنت في ذاك اليوم أصابني جرح في عضدي الأيمن وما أطيق أن أحرك يدي ولا أحمل سيفًا فترجلت عن جوادي وجريت بين أصحابي وقلت في نفسي: إذا قصدني أحد من هؤلاء الأعلاج لم يكن لي أن أدفع عن نفسي فطلعت إلى ذروة الجبل فعلوته وأشرفت على العسكرين وجعلت أنظر إلى حربهم وقتالهم وقد طمعت الروم في العرب والمسلمون ينادون بالنصر، وأبو عبيدة يدعو لهم بالنصر والتحمت القبائل وافتخرت العشائر.

قال سهل بن صباح: وأنا على الجبل من وراء حجر أنظر إلى ضرب السيوف على البيض والحجف والشرر يطير من شعاعها وقد التقى الفريقان

واختلط الجمعان فقلت في نفسي: ويحي وما عسى أن ينفع المسلمين مقام سعيد بن زيد وضرار بن الأزور على الأبواب والأمير أبو عبيدة في مثل هذه الحرب؟! وإنهم والله على وجل أن ينكشفوا من عظم شدتهم وحربهم وهول ما يلقونه! فأسرعت إلى جراثيم الشجر فجعلت أكسرها وأعبي الحطب بعضه على بعض وعمدت إلى زناد كان معي فأوقدت النار وأضرمتها فيه وعبيت عليه حطبًا أخضر ويابسًا حتى علا منه دخان عظيم وكانت علامتنا إذا أردنا أن يجتمع بعضنا إلى بعض بأرض الشام في الليل وقود النار وإثارة الدخان. فما هو إلا أن علا الدخان وتصاعد إلى الأفق حتى نظر إليه سعيد بن زيد وضرار بن الأزور وأصحابهما فنادى بعضهم بعضًا الحقوا الأمير أبا عبيدة رحمكم الله فإن هذا الدخان ما هو إلا من شيء عظيم، والصواب أن نكون بخيلنا في موضع واحد، فأسرعوا بخيلهم وساروا حتى أشرفوا على المسلمين وهم في شدة الحرب وأعظم الكرب وقد بلغت القلوب الحناجر وعملت السيوف البواتر وإذا بمناد هتف بهم: يا حملة القرآن جاءكم النصر من الرحمن ونصرتم على عبدة الصلبان، وإذا قد أشرف عليهم سعيد بن زيد وضرار بن الأزور في أوائل خيلهم وقد شرعا سنانهما وحملا في الروم وقد أيقن الروم أنهم الغالبون إذ ظهرت

عليهم رايات المسلمين وكتائب الموحدين فالتفتوا ينظرون ما الخبر، وإذا بالمسلمين من ورائهم وقد حالوا بينهم وبين مدينتهم فنادوا بالويل والخراب وظنوا أنه قد أتى للمسلمين نجدة ومدد وقد غرر بهم البطريق، فلما نظر البطريق إلى تبلدهم زعق فيهم وقال: يا ويلكم لا ترجعوا إلى المدينة قد حيل بينكم وبينها وهذه مكيدة من مكايد العرب!

فلما سمعت الروم ذلك أحاطوا ببطريقهم كالحلقة المستديرة يحمي بعضهم بعضًا فعدل بهم البطريق نحو الجبل ذات الشمال. وكان سعيد بن زيد وضرار بن الأزور قد أقبلا بجيشيهما عن يمين الحصن وشماله فحملوا عليهم واتبعوا آثارهم حتى طلعوا إلى الجبل والتجأت الروم إلى ضيعة في الجبل حصينة خالية من أهلها فاستند الروم إليها وتحصنوا فيها وتبعهم سعيد بن زيد في الخمسمائة فارس الذين كانوا معه. وذلك أن الأمير أبا عبيدة – رضي الله عنه – لما نظر إلى هزيمة الروم نادى في المسلمين: معاشر الناس لا يتبعهم أحد ولا يفترق جمعكم لأني أخشى أن تكون هزيمة القوم مكيدة لكم حتى إذا تفرق

جمعكم زحفوا عليكم، قال وإن سعيد بن زيد لم يكن يسمع النداء، ولو سمع النداء ما تبع القوم.

قال الواقدي: لما تحصنت الروم في الضيعة قال سعيد بن زيد: هذه طائفة قد أراد الله هلاكها فدوروا بهم وحاصروا في كل مكان ولا تدعوا أحدًا يطلع رأسه إلى أن تلحق بكم المسلمون ويأتي إليكم أمر من الأمير أبي عبيدة ثم أقبل إلى رجل من عظماء المسلمين وقال له: اخلفني في قومي حتى أنظر رأي الأمير أبي عبيدة ومن معه ثم أخذ معه زهاء من عشرين فارسًا من أصحابه وسار حتى لحق بجيش المسلمين. فلما نظر إليه الأمير أبو عبيدة ومن معه قال: يا سعيد أين رجالك وما صنعت بهم؟ قال: أبشر أيها الأمير فإن المسلمين في خير وسلامة وقد حاصروا أعداء الله في ضيعة في هذا الجبل ثم أخبره بالقصة من أولها إلى آخرها. فقال أبو عبيدة: الحمد لله الذي هزمهم عن أوطانهم وجعلهم أشتاتًا، ثم أقبل أبو عبيدة على سعيد بن زيد وعلى ضرار بن الأزور وقال لهما: ما هذه المخالفة رحمكم الله ألم آمركم بالإقامة على أبواب المدينة والمشاغلة للقوم فما الذي ردكم إليَّ وقد أرعبتم قلبي وقلب من كان معي وظننت أن أهل

المدينة كادوكم وهو الذي منعنا أن نتبع المنهزمين! فقال سعيد بن زيد: أيها الأمير والله ما عصيت لك أمرًا ولا خالفتك في قول وإني قد وقفت حيث أمرتني إذ رأينا دخانًا قد علا قتامه ولاح لنا بيانه فقلنا: والله ما هذه إلا داهية من دواهي الروم أو نفير قد استدعانا به المسلمون فأسرعنا نحوك! فعندها نادى الأمير أبو عبيدة في المسلمين معاشر الناس: أيكم أوقد نارًا أو دخن دخانًا في هذا الجبل فليجب الأمير أبا عبيدة. قال سهل بن الصباح: فلما سمعت النداء أجبت المنادي وأتيت الأمير أبا عبيدة. فقال: ما الذي جرأك على ذلك؟ فقصصت عليه قصتي. فقال أبو عبيدة: لقد وفقك الله تعالى إلى الجنة فإياك بعدها أن تحدث حديثًا من غير إذن أميرك.

قال الواقدي: فبينما الأمير كذلك يحدث سهل بن صباح وإذا برجل من المسلمين منحدر من الجبل وهو ينادي: النفير النفير يا أمة البشير النذير أدركوا إخوانكم المسلمين فقد أحاط بهم الروم وهم في أشد ما يكون من القتال، وإنه قد دنا البطريق من المسلمين ونادى بأصحابه ورجاله وقال: يا عباد المسيح إليكم هذه الشرذمة اليسيرة والعصابة الحقيرة التي قد أحاطت بكم فاقتلوهم

وادخلوا المدينة فإنكم إن قتلتم القوم كسرتم بذلك حدة العرب وانصرفوا عنكم. قال مصعب بن عدي: وكنت في بعلبك من أصحاب سعيد بن زيد، وقد جعلنا محاصرين البطريق والروم في الضيعة ونحن دون الخمسمائة رجل فما شعرنا إلا والبطريق والروم قد تبادروا إلينا من كل مكان فنادى بعضنا بعضًا واجتمعنا، والله لقد كبوا علينا الخيل وأحاطوا بنا بعدما كنا أحطنا بهم وكان شعارنا في ذلك اليوم الصبر الصبر! فبينما نحن كذلك في أشد الحرب وأعظم الكرب إذ سمعنا صوتًا عاليًا قد ملأ الجبل ومناديًا ينادي ويقول: أما من رجل يهب نفسه في الله ويستنفر المسلمين فإنهم بالقرب منا ولا يعلمون ما نزل بنا. قال مصعب بن عدي: فلما سمعت الصوت همزت جوادي بكعبي، وكان جوادًا عتيقًا يسبق الريح، والله لقد خرج من تحتي كأنه البرق ولم تلحق منه الروم إلا الغبار بعدما قتلت منهم رجلين، ولقد نظرت إلى فرسي، وهو يشب إلى الصخرة ويسلك الوعرة حتى أشرفت على عساكر المسلمين فناديت النفير النفير يا أمة البشير النذير.

فلما سمع أبو عبيدة ذلك صاح بالرماة، فأجابه خمسمائة رام من أصحاب القسي العربية فضمهم إلى سعيد بن زيد، وقال له: أسرع يرحمك الله والحق بأصحابك قبل أن يأتي العدو عليهم. ثم نادى بضرار بن الأزور وأصحابه، وقال له: أدرك أخاك سعيد بن زيد. فسار المسلمون مثل الجراد المنتشر حتى علوا على شلة الجبل وأشرفوا على الروم وهم محدقون بأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. قال أبو زيد بن ورقة بن عامر الزبيدي: وكنت ممن شهد القتال على الضيعة مع أصحاب سعيد بن زيد، وقد أحاطت بنا الروم، وقد صبرنا لهم صبر الكرام. وقد صرع منا سبعون رجلًا ما بين جريح وقتيل، ونحن في أشد ما يكون من القتال والجراح، وقد طمعت الروم فينا حتى سمعنا التهليل والتكبير ولحقنا النفير، فلما أشرفت علينا راية المسلمين ورجعت الروم على أعقابهم مدبرين إلى الضيعة راجعين لحقنا من تأخر منهم وكثر فيهم القتل والجراح لكثرتهم وتحصن القوم في الضيعة فأحطنا بهم من كل جانب وما تركنا منهم أحدًا يخرج رأسه من كثرة النبل!

وورد الخبر إلى الأمير أبي عبيدة - رضي الله عنه - بمن استشهد من المسلمين ومن قتل من الكافرين، وأن القوم قد لزمهم الحصار، وأن لا زاد عندهم ولا ماء، فقال أبو عبيدة: الحمد لله. ثم قال للمسلمين: معاشر الناس ارجعوا إلى أموالكم واضربوا خيامكم حول المدينة، فإن الله - عز وجل - كاد عدوكم، وهو منجز لنا ما وعدنا من نصره. فعندها رجع المسلمون إلى أموالهم ومواضعهم التي كانوا فيها أول مرة وضربوا خيامهم وأنفذوا طوالعهم وأرسلوا إلى المرعى خيولهم وإبلهم وسرحوا إلى الحطب عبيدهم وأضرموا النيران في عسكرهم وذهب منهم الخوف وأتاهم الأمان، وإن أهل بعلبك افترقوا على السور وجعلوا يضربون على وجوههم ويصيحون بلغتهم، فقال الأمير أبو عبيدة لبعض التراجمة: ما يقول هؤلاء؟ فقال له الترجمان: أيها الأمير إنهم يقولون: يا ويلهم ويا عظم ما أصابهم ويا خراب ديارهم ويا فناء رجالهم حتى ظفرت العرب ببلادهم.

قال الواقدي: فلما دنا المساء أرسل الأمير أبو عبيدة إلى سعيد بن زيد يقول له: يا ابن زيد الحذر الحذر على من معك من المسلمين واجتهد رحمك الله أن

لا يفوتك من الروم أحد ولا تفسح لهم قدمًا واحدًا فيخرج منهم واحد... فيتبع أولهم آخرهم، فتكون كمن حصل في يده شيء فأضاعه! فلما وصل الرسول إلى سعيد بن زيد بهذه الرسالة، أمر المسلمين أن يحيطوا بالضيعة من كل جانب، وأن لا يخرجوا إلى الحطب إلا مائة بالسلاح ففعلوا ذلك وأضرموا نيرانهم وباتوا طول ليلتهم يهللون ويكبرون وبالضيعة يطوفون، فلما نظر البطريق «هربيس» إلى ذلك أقبل على أصحابه ورجاله وقال لهم: يا ويلكم لقد أيسنا من التدبير وأخطأنا الرأي وما لنا مدد ولا نجدة ولا نصير ولو اجتهدنا لما اجتهدت العرب على أن يحبسونا في هذه الضيعة، والآن قد حبسنا أنفسنا في حبس ليس فيه طعام ولا شراب، وإن دام علينا هذا يومًا ثانيًا أو ثالثًا ضعف قوينا ومات ضعيفنا وبطلت حيلتنا وسلمنا أنفسنا كارهين فنقتل عن آخرنا!

فقالت البطارقة: فما الذي ترى أيها السيد؟ فقال: قد رأيت من الرأي أن أخدع العرب وأحتال عليهم وأسألهم الصلح لنا ولأهل مدينتنا كما قد طلبوا وأضمن أن أفتح لهم المدينة، ونكون في ذمامهم فإذا دخلنا المدينة حاربناهم على سورنا ولعلنا نرسل إلى صاحب عين الجوز وإلى صاحب جوسية فلعلهما

يقدمان إلى نصرتنا فيكونان لقتال العرب من خارج المدينة ونحن من أعلى الأسوار، ويكفينا المسيح هذه النوبة. فقالت البطارقة: اعلم أيها السيد أن صاحب جوسية لا يجيبك إلى نجدة أبدًا لأنه مشتغل بنفسه وربما يكون محاصرًا مثل حصارنا هذا، فلقد بلغنا قبل نزول هؤلاء العرب علينا أنهم صالحوهم وليس لهم من القدرة والقوة أن يقاتلوا العرب، وأما أصحاب عين الجوز فإنهم في تجارتهم متفرقون في أقصى الشام وما أظن إلا أنهم في صلح العرب، فانظر لنفسك ورعيتك ما فيه الصلاح. فلما سمع البطريق هربيس قولهم أجابهم إلى ذلك.

فلما أصبح الصباح طلع البطريق على جدار الضيعة ونادى برفيع صوته: يا معاشر العرب أما فيكم رجل يعرف كلامي أنا هربيس البطريق! فلما سمعه بعض التراجمة أقبل على سعيد بن زيد وقال له: يا مولاي إن هذا العلج هربيس صاحب القوم وهو يستدعي كلامك. فقال له سعيد بن زيد: ادن منه وانظر ماذا يريد وما يقول. فدنا الترجمان منه، فقال له: ما الذي تريد؟ قال: أريد أن يؤمنني أميركم هذا في ذمامه وذمام أصحابه ويدنو مني حتى أخاطبه بما يعود صلاحه

على الفريقين. فقال الترجمان ذلك لسعيد بن زيد، فقال سعيد بن زيد: لا كرامة له حتى أدنو منه وأمشي إليه حتى يخاطبني فإن كانت له حاجة فليأت إليَّ خاضعًا ذليلًا صاغرًا حتى أسمع كلامه وأعلم مراده. فأعلم الترجمان هربيس بكلام سعيد بن زيد، فقال هربيس: فكيف أنزل إليه وأنا محارب له فأنا أخاف أن يقتلني؟! فقال له الترجمان: أنا أخذ لك منه الذمام فإن العرب لا تخون إذا أمنت. فقال البطريق: نعم قد تناهت إلينا أخبارهم ولكني أريد أن أستوثق لنفسي ولأصحابي وأهل بلدي لأنهم قوم قد لحقهم الحقد علينا وقد أصبنا منهم دمًا كثيرًا وإني أريد أن أرسل له شخصًا يأخذ لي منه أمانًا. فقال الترجمان: أنا أعرفه ذلك. ثم أقبل الترجمان على سعيد بن زيد وقال له: إن البطريق هربيس يريد أن يوجه إليك رجلًا من أصحابه يأخذ له منك أمانًا. فقال سعيد بن زيد دعه يوجه من يريد وأعلمه أن رسوله منَّا في أمان حتى يرجع إليه. فأعلمه الترجمان بذلك فأقبل البطريق على رجل من عظماء أصحابه، وقال له: ترى ما قد نزل بنا وكيف قد ملك العرب علينا الطريق وأن بلاد الشام قد أذن المسيح بخرابها وقد نصرت العرب علينا وأنا في شدة شديدة وإن لم نأخذ من القوم الأمان وإلا هلكنا وهلكت خيلنا، وبعد ذلك يتحكمون في أولادنا وحريمنا

ويقتسمون أموالنا وذرارينا وليس لنا نجدة لأن كل بلد مشتغل بنفسه عن نصرتنا فانزل إلى هؤلاء العرب وخذ لنا منهم أمانًا واستوثق لنا منهم، حتى أنزل أنا إليهم فلعلنا نجري معهم صلحًا ولعلي أمكر بهم حتى نرجع إلى المدينة، ولعلي أرغِّب صاحبهم في شيء من المال فلعله يرغب وينصرف عنَّا إلى أن نرى ما يكون بينهم وبين الملك هرقل.

قال الواقدي: فنزل الرجل ووقف أمام الأمير سعيد بن زيد وهمَّ أن يسجد له فمنعه من ذلك وتبادرت إليه المسلمون فأمسكوه ففزع الرجل وقال: لم تمنعوني أن أعظِّم صاحبكم؟! فقال الترجمان ذلك لسعيد بن زيد، فقال: إنما أنا وهو عبدان لله تعالى ولا يجوز السجود والتعظيم إلا لله الملك المعبود القديم! فقال الرجل: بهذا نصرتم علينا وعلى غيرنا من الأمم! فقال سعيد بن زيد: فما الذي جاء بك؟ قال: جئت لآخذ منك أمانًا لبطريقنا أن لا تنقض لنا عهدًا. فقال سعيد بن زيد: ليس من أخلاق الأمراء ومن يقود الجيوش أن يغدر بعد الأمان، ولسنا بحمد الله ممن ينقض عهدًا، وقد أعطيت صاحبك أمانًا ولمن معه ممن ألقى السلاح وخرج يطلب الأمان مستسلمًا. فقال الرجل: نريد منك

الأمان ومن أميرك وممن معك. فقال سعيد: لكم ذلك. فعند ذلك رجع الرجل إلى البطريق وأعلمه بجواب سعيد. وقال له: اخرج وإياكم والغدر فإنه يهلك صاحبه، وإن هؤلاء العرب لا يخونون أمانهم وعهدهم.

قال الواقدي: ولقد بلغني أن البطريق هربيس خلع ما كان عليه من الثياب والديباج وألقى السلاح ولبس ثياب الصوف وخرج حافيًا حاسرًا ذليلًا ومعه رجال من قومه حتى وقف بين يدي سعيد بن زيد فخرَّ سعيد لله ساجدًا وقال: الحمد لله الذي أزال عنا الجبابرة وملكنا بطارقتهم وملوكهم! ثم أقبل عليه وقال له: ادن مني. فدنا إلى أن جلس إلى جانبه وقال له: أهذا لباسك دائمًا أم غيرته؟! فقال: لا وحق المسيح والقربان ما لبست الصوف أبدًا غير الحرير والديباج وما لبست هذا إلا في وقتي هذا فإني ما أريد حربكم ولا قتالكم، ثم قال لسعيد: هل لك أن تصالحني على أصحابي هؤلاء وعلى أهل المدينة ومن فيها. فقال سعيد: أما أصحابك هؤلاء فإني أوفيهم على شرط أن من دخل في ديننا فله ما لنا، ومن اختار الإقامة على دينه وألقى السلاح كان آمنًا من القتل وعليه العهد أنه لا يحمل علينا سلاحًا ولا يكون لنا حربًا أبدًا، وأما المدينة فالأمير أبو عبيدة

عليها وقد فتحها إن شاء الله تعالى، ثم قال: إن أحببت أن تسير معي إلى أبي عبيدة حتى يسمع كلامك وتصالح عن قومك فسر وأنت في ذمامي، فإن اتفق بينكما الأمر؛ وإلا رددتك إلى موضعك هذا ومن أراد الرجوع معك من رجالك إلى أن يحكم الله وهو خير الحاكمين. فقال البطريق: أنا أفعل ذلك. فعندها دعا سعيد بن زيد بابن أبي وقاص بن عوف العدوي، وقال: يا ابن أبي وقاص كن بشيرًا للأمير أبي عبيدة بما سمعت وأسرع بالجواب. فأسرع ابن أبي وقاص وركب جواده وكان حصانًا شديد العدو وجعل يسير سيرًا حثيثًا حتى أشرف على الأمير أبي عبيدة - رضي الله عنه - ووقف بين يديه وسلم عليه، وقال: أصلح الله تعالى شأن الأمير أبشرك بأن البطريق هربيس قد أخذ

الأمان من سعيد بن زيد وهو يريد أن يقبل به عليك يسألك الصلح والأمان له ولأهل مدينته. فلما سمع الأمير ذلك سجد لله شكرًا ورفع رأسه، وقال: أيها الناس تقدموا الآن إلى قتال أهل المدينة وأظهروا أسلحتكم عليها وكبروا تكبيرة واحدة لكي ترعبوا بها القوم. ففعل المسلمون ذلك فارتجت المدينة وفزع أهل بعلبك وتداعوا للقتال وأحاط المسلمون بالمدينة من كل جانب،

وكان أول من سبق إلى المدينة وأعطاهم خبر البطريق؛ المرقال ابن عتبة وقال: حصنوا أنفسكم وأولادكم وأموالكم بالصلح فإن أبيتم ذلك فقد وعدنا الله تبارك وتعالى على لسان نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يفتح لنا بلادكم وأمصاركم وغيرها وإن الله تعالى منجز أمره. فلما سمع أهل بعلبك ذلك فزعوا فزعًا شديدًا واغبرت وجوههم ورعبت قلوبهم وكلَّت من الحرب أيديهم، وقالوا: أهلكنا البطريق وأهلك نفسه ولو كنا صالحنا العرب من قبل أن يوجد بنا هذا الحصار لكان خيرًا لنا! وشدد المسلمون عليهم القتال.

فلما علم أبو عبيدة أن نيران الحرب قد أضرمت على المدينة أرسل إلى سعيد بن زيد يقول له أسرع بالبطريق إلينا وله الأمان الذي أمنت أنت، فنحن لا ننقض لك عهدًا! فلما ورد رسول أبي عبيدة على سعيد بن زيد استخلف على الضيعة رجلًا من أصحابه وسار سعيد مع البطريق حتى وردا على الأمير أبي عبيدة - رضي الله عنه - فلما وقف البطريق بين يديه ونظر إلى زيه وزي من معه وشهد قتالهم وعظم ما تلقى المدينة من حربهم وقتالهم حرَّك البطريق رأسه وعضَّ على أنامله.

فقال أبو عبيدة لترجمانه: ما لهذا يحرك رأسه ويعض أنامله كأنه يتأسف على شيء فاته؟ فأعلمه الترجمان بذلك فأقبل على الترجمان، وقال له: وحق المسيح وما مسح وحق البيعة والمذبح لقد ظننت أنكم أكثر عددًا من الحصى وأكثر مددًا! ولقد كان يخيل لنا عند حربكم وشدة ما نلقى منكم أنكم على عدد الحصى والرمل من كثرتكم، ولقد كنا نرى خيلًا شهبًا وعليها رجال وبأيديهم رايات صفر وعليهم ثياب خضر فلما صرت بينكم لم أر من ذلك شيئًا وما أراكم إلا في قلة عدد وما أدري ما فعل جمعكم أبعثتموه إلى عين الجوز أو إلى جوسية أو مكان آخر؟ فأخبر الأمير الترجمان بذلك. فقال أبو عبيدة للترجمان: قل له يا ويلك نحن معاشر المسلمين يكثّرنا الله تعالى في أعين المشركين ويمدنا بالملائكة كما فعل بنا يوم بدر، وبذلك فتح الله تعالى بلادكم وحصونكم علينا وأذل ملوككم! فلما سمع البطريق كلام أبي عبيدة - رضي الله عنه - على لسان الترجمان قال: لقد وطئتم الشام الذي عجزت عنه ملوك الفرس والترك والجرامقة وما ظننا أن يكون ذلك أبدًا، وأما مدينتنا فهي حصينة لا تعبأ بالحصار لأنها مدينة ليس بالشام مثلها، بناها سليمان بن داود -عليهما السلام- لنفسه وعملها دار مقامه وخزانة لملكه ولولا ما سبق من تفريطنا وخروجنا عنها

إليكم وانحرافنا عنها ما صالحناكم أبدًا ولا هالنا حربكم ولو أقمتم علينا مائة سنة، والآن فقد كان ذلك فهل لكم أن تصالحونا حتى نصالحكم فتعدل فينا فهو أقرب رشدًا لنا ولكم، فوحق المسيح والإنجيل الصحيح لئن فتحنا لكم هذه المدينة لا يصعب عليكم في الشام حصن ولا مدينة!

فلما أخبر الترجمان الأمير أبا عبيدة - رضي الله عنه - بما قاله، قال أبو عبيدة للترجمان: قل له الحمد لله تعالى الذي ملكنا أرضكم ودياركم فلابد أن تؤدوا الجزية، وقد ظننت لنفسك أمانًا كاذبًا حتى أراك الله الذل والصغار بعد العز والاقتدار ولا بد لنا أن نملك مدينتكم إن شاء الله تعالى ونقتل الرجال ونأسر الأبطال، فمن أراد حربنا وقتالنا فلا يدخل في صلحنا أبدًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فقال البطريق لما سمع ذلك على لسان الترجمان: لقد تيقنت أن المسيح قد غضب على أهل هذه المدينة إذ بعث بكم إليها وملككم عليها، وقد اجتهدت في حربكم ومكرت بكم وما نفع مكري واجتهادي لأنكم قوم مسلطون، إنما طلبت منكم السلم وألقيت يدي في أيديكم بعد جهد مني، لا شفقة مني على نفسي ولا بقاء مني على ملكي ولكن أردت

صلاح البلاد لأن الله تعالى لا يحب الفساد، والآن فهل لكم أن تصالحوا على المدينة وما فيها وعلى أصحابي هؤلاء. فقال له أبو عبيدة - رضي الله عنه -: فما الذي تبذل لنا في صلحك؟ قال له البطريق: أيها الأمير انظر ما الذي تريده! فقال أبو عبيدة: لو أن الله فتح على المسلمين من الصلح على هذه المدينة بملئها ذهبًا وفضة ما كان أحب إليَّ من سفك دم رجل واحد، لكن الله تعالى أعطى الشهداء في الآخرة أكثر من ذلك. فقال البطريق: أنا أصالحكم على ألف أوقية من الفضة البيضاء وألف ثوب من الديباج.

قال الواقدي: فتبسم الأمير أبو عبيدة من كلامه وأقبل على المسلمين وقال لهم: أما تسمعون ما يقول هذا البطريق؟ قالوا: نعم. قال: فما رأيكم فيما شرط على نفسه؟ فقالوا: يزيد عليه وشرطه يرضينا، فأقبل الأمير على البطريق وقال له: أنا أصالحكم على ألفي أوقية من الذهب الأحمر وألفي أوقية من الفضة البيضاء وألفي ثوب من الديباج وخمسة آلاف سيف من مدينتكم وسلاح أصحابك الذين هم في الضيعة محاصرون، ولنا عليكم خراج أرضكم في العام الآتي وأداء الجزية في كل عام وأنتم بعد ذلك لا تحملون علينا سلاحًا ولا

تكاتبون ملكًا ولا تحدثون حدثًا ولا كنيسة وترون النصح للمسلمين. فلما سمع البطريق ذلك من شرط الأمير أبي عبيدة - رضي الله عنه - قال: لك ذلك كله علينا إلا أني أريد أن أشرط عليك وعلى أصحابك شرطًا. فقال له الأمير أبو عبيدة: وما شرطك؟ فقال: لا يدخل إلينا من أصحابك أحد وتنزل صاحبك الذي تستخلفه علينا خارج المدينة بأصحابه ويكون له الخراج والجزية وتدعني أنا من داخل المدينة من قبل الإصلاح بين الناس والنظر في أحوالهم، ونحن نخرج إلى من تخلفه علينا من أصحابك سوقًا يكون فيه من جميع ما في مدينتنا، ولا يدخلون إلينا مخافة أن يغلظوا بكلامهم على كبرائنا ويفسد الأمر بيننا وبينكم ويكون سببًا للغدر ونقض العهد.

قال أبو عبيدة: فإذا صالحناكم نجاهد عدوكم لأنكم تصيرون في ذمتنا ويكون الرجل الذي نخلفه عليكم مثل الواسطة والسفير بيننا وبينكم. قال البطريق هربيس: يكون خارج المدينة ويفعل ما يشاء أن يفعله من المحاماة. فقال أبو عبيدة: لكم ذلك وما لنا في الدخول إلى مدينتكم من حاجة. فقال البطريق: تم الصلح على ذلك، ثم سار البطريق إلى المدينة وأبو عبيدة معه،

فلما وصل إلى الباب حسر البطريق عن رأسه ورطن عليهم بلغة الروم فعرفوه عند ذلك، فقالوا له: وأين أصحابك ورجالك؟ فقص عليهم قصته وأخبرهم بخبره وخبر أصحابه وأعلمهم بالصلح، فبكى القوم وقالوا: تلفت النفوس وذهبت الأموال. فقال لهم البطريق: يا قوم وحق المسيح ما صالحتهم ولي وجه غير الصلح، فقالوا له: اذهب أنت وصالح عن نفسك، وأما نحن فلن نصالح العرب أبدًا ولن ندع أحدًا منهم يملكنا ولا يدخل بلادنا ومدينتنا وهي أحصن مدينة في الشام..

وكان الأمير أبو عبيدة - رضي الله عنه - قد أعلم المسلمين بمصالحة البطريق وأمرهم أن يكفوا عن القتال والحرب. فلما سمع الترجمان كلام أهل بعلبك لبطريقهم أخبر الأمير أبا عبيدة - رضي الله عنه - بذلك، فأقبل البطريق فقال له أبو عبيدة: هات ما عندك وإلا نرد الحرب كما كان. فقال البطريق: دعني والقوم، فوحق الإنجيل الصحيح وعيسى المسيح لو لم يقبلوا مني لأدخلنك بالكثرة إليهم فتضع السيف فيهم وتقتل رجالهم وتسبي نساءهم وتنهب أموالهم لأني خبير بعورات بلدهم وبطرقاتها. قال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: ما شاء

الله كان. وكانت الروم على سورهم يسمعون كلام البطريق لأبي عبيدة – رضي الله عنه – فدخل الرعب في قلوبهم، فعند ذلك أقبل البطريق على الروم وقال لهم: ما تقولون في صلح العرب. فإني أسير في أيديهم ورجالكم وبنو عمكم في قبضتهم، فإن لم تصالحوا العرب وإلا يقتلونا جميعًا ويرجعوا إليكم من بعدنا. فقالوا: أيها السيد إنا لا نطيق هذا المال! فقال: يا ويلكم عليَّ وحدي ربع ما طلبوا! فطابت قلوبهم بذلك وقالوا: إنا لا نفتح الباب إلا لك وحدك ولا يدخل معك أحد من العرب حتى نصلح مدينتنا ونرفع رحالنا ونخفي حريمنا. فقال البطريق: ويحكم فإني قد صالحت القوم على أن لا يدخل مدينتكم أحد منهم، وإن الرجل الذي يخلفونه عليكم يكون هو وأصحابه خارج المدينة وتخرجون إليه سوقًا يتسوقون منه. ففرحت الروم بذلك وفتحوا له الباب فدخل إليهم. وبعث الأمير أبو عبيدة إلى سعيد بن زيد أن يخلي عن الرجال المحاصرين في الضيعة، فخلى سعيد بن زيد سبيلهم وجاء بهم عند الأمير أبي عبيدة وأخذ سلاحهم وتركهم عنده رهائن على المال الذي عندهم لأنه خاف إن تركهم أن يرجعوا إلى المدينة ويغدروا بالمسلمين. فتركهم عنده في عساكره. هذا والبطريق في المدينة يجبي المال بعد اثني عشر يومًا، وهم مع ذلك يحملون إلى

عسكر المسلمين الزاد والميرة والعلوفة حتى كملت الأموال والثياب والسلاح وحملها البطريق إلى أبي عبيدة - رضي الله عنه - وقال له: تسلم الأموال على ما وافقتك عليه وخل عن الرجال، وانظر إلى من تخلفه علينا من أصحابك فأحضره لنا حتى نشرط عليه بحضرتك أن لا يجور علينا ولا يطالبنا بما لا نطيق ولا يدخل مدينتنا!

فدعا أبو عبيدة برجل من سادات قريش اسمه رافع بن عبد الله السهمي وقال له: يا رافع بن عبد الله استعملتك على هذه المدينة، وضم إليك خمسمائة فارس من بني عمك وعشيرتك وأربعمائة فارس من أخلاط المسلمين، وإني آمرك بما أمرك الله به فاتق الله حق تقاته ولا تكن إلا من الولاة العادلين، وإياك والظلم والجور فتحشر مع الظالمين. واعلم أن الله تعالى سائلك عنهم ومطالبك بما تصنع بغير الحق. واعلم أني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى موسى بن عمران - عليه السلام -: أن يا موسى لا تظلم عبادي أخرب بيتك من نفسك» فأقم الأرصاد في أطراف البلاد فإنك بين أعدائك، وبعد هذا ما عرفتك إلا مستيقظًا، وأحذرك من

السواحل وشن الغارة عليهم، ولتكن غارتك في المائة والمائتين، ولا تمكن أحدًا من المدينة يختلط بأصحابك في غارة حتى لا يطمع عدوكم فيه، وأحسن معاملة من ساعدك، وأصلح بينهم، وأمرهم بالعدل، وكن بينهم كأحدهم، وأمر أصحابك ومن معك أن يكفوا أيديهم عن الفساد والظلم للرعية، والله تعالى خليفتي عليك، والسلام عليك.

ذكر حديث نزول المسلمين على حمص

قال الواقدي: ثم همَّ أبو عبيدة - رضي الله عنه - بالرحيل إلى حمص، وإذ قد ورد عليه صاحب عين الجوز يطلب منه الصلح فصالحه على نصف ما صالحه عليه أهل بعلبك وولى عليهم سالم بن ذؤيب السلمي وأوصاه بمثل ما أوصى به رافع بن عبد الله ورحل الأمير أبو عبيدة - رضي الله عنه - يطلب حمص، فلما وصل إلى بين الرأس والكفيلة لاقاه صاحب الجوسية ومعه هدية كثيرة فقبلها منه وجدد معه صلحًا، وسار الأمير أبو عبيدة - رضي الله عنه - حتى نزل على حمص.

قال الواقدي: حدثنا حبان بن تميم الثقفي قال: كنت فيمن أقام مع رافع بن عبد الله السهمي في جملة أصحابه، وذلك أننا نصبنا بيوت الشعر على العمد وأقمنا خارج المدينة لا يدخل إليها أحد منا، ونحن مع ذلك نشن الغارة على سواحل الروم ونكبس على العرب التي لم تكن في صلحنا، وكنا إذا خرجنا في سرية نبيع الغنائم في بعلبك، ففرح أهلها ببيعنا وشرائنا ووجدونا قومًا ليس فينا كذب ولا خيانة ولا نريد ظلم أحد وطابت قلوبهم وربحوا في تلك المدة اليسيرة مالًا عظيمًا. فلما نظر البطريق هربيس إلى ما ربح أهل بعلبك منَّا في تجارتهم ورخص ما يشترونه منَّا جمعهم إليه في كنيسة المدينة -وهي الجامع اليوم- وكان ذلك بميعاد وعدهم فيه الاجتماع، فلما اجتمعوا عنده أقبل عليهم وقال للتجار والباعة والسوقة: لقد علمتم أني قد اجتهدت في أموركم وحرصت على سلامة نفوسكم وأهاليكم وأولادكم وأنتم تعلمون ما ذهب مني من المال، وأنا اليوم واحد منكم وقد سلمت مالي وسلاحي وقتل أكثر غلماني ورجالي وبنو عمي وأنتم قوم قد أصبتم مع هؤلاء العرب خيرًا كثيرا في هذه التجارات وقد أديت وحدي ربع المال! فقالوا: صدقت أيها البطريق وقد عرفنا كل ما وصفت

فما الذي تريد الآن؟ فقال: يا قوم إنما كنت قبل هذا اليوم بطريقكم وأنا اليوم واحد منكم وأريد أن تردوا علي بعض ما بذلت من المال للعرب.

فقالوا: أيها البطريق وأنَّى لك بذلك؟ فقال البطريق: يا قوم لست أكلفكم أن تخرجوا من أموالكم ولا مما حوته منازلكم شيئًا، وإنما أريد أن تجعلوا في هذه البيوع والأشربة العشر مما تأخذون وتعطون. قال فاضطرب القوم اضطرابًا شديدًا لذلك وعظم عليهم وأقبل بعضهم على بعض وقالوا: يا قوم هذا رجل منا وصاحب ملكنا وقد اجتهد في أمورنا وحامى بماله ونفسه عنا وما عسى يصيب منا في مالنا. قال فأجابوه إلى ذلك وجعلوا له عليهم العشر فنصَّب عليهم من قبله عشارًا، يأخذ منهم أعشارهم ويجمعها ويحملها إليه فأقام على ذلك أربعين يومًا، فلما نظر هربيس إلى كثرة ما قد اجتمع له من مال العشر قال: أنا أعلم أن هذه المدينة في كسب عظيم وتجارة رابحة ما رأى أهل بعلبك مثل هذا أبدًا! ثم جمعهم في الكنيسة مرة ثانية وقال لهم: يا قوم قد علمتم ما بذلت من المال على صلحكم وهذا الذي تعطوني إياه من العشر ليس يجزيني، فإن

أردتم أن تردوا علي مالي وتجعلوني كأحدكم اجعلوا لي الربع في أموالكم حتى يرجع إليَّ مالي سريعًا وإلا فمتى أخلف من هذا العشر مالي وسلاحي وغلماني.

قال الواقدي: فأبى القوم وضجوا عليه وأشهروا عددهم ووقفوا في الطريق بغلمانه وقطَّعوهم إربًا إربًا وارتفع ضجيجهم، فجزع المسلمون لذلك وهم لا يعلمون بالقصة فاجتمعوا إلى أميرهم رافع بن عبد الله السهمي وقالوا: أيها الأمير أما تسمع أصوات هؤلاء القوم في مدينتهم؟ فقال: يا قوم قد سمعت كما سمعتم فما عسى أن أصنع بهم ولا يحل لنا الدخول إليهم، وبهذا جرى الشرط بيننا وبينهم، ونحن أحق بمن أوفى بعهد الله تعالى، فإن هم خرجوا إلينا وأعلمونا بأمرهم صالحنا بينهم ونظرنا في أمورهم. فما استتم الأمير رافع بن عبد الله كلامه حتى خرج أهل بعلبك يهرعون إليه، فلما وقفوا بين يديه قالوا: إنا بالله وبك أيها الأمير، ثم أعلموه بقصتهم وما فعل البطريق بهم أول مرة وما فعل بهم ثاني مرة. قال رافع بن عبد الله: إنَّا لا نمكِّنه من ذلك، فقالوا: أيها الأمير إنا قد قتلناه وجميع غلمانه فصعب ذلك على أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. فقال لهم رافع: فما الذي تريدون؟ فقالوا: نريد أن تدخلوا إلى المدينة

فإنا قد أطلقنا لكم الدخول إليها. فقال رافع بن عبد الله: أنا لا أقدر أن أدخل المدينة إلا بإذن الأمير أبي عبيدة لأنه ما أذن لي بذلك، ثم كتب رافع بن عبد الله إلى الأمير أبي عبيدة يعلمه بالقصة وبحديث البطريق وبحديثهم الذي قالوه، فكتب له بالدخول إلى المدينة كما قد أذنوا له فدخل رافع وأصحابه.

حدثنا سالم بن عدي عن جده عبد الرحمن بن مسلم الربيعي، وكان ممن حضر فتوح الشام أوله وآخره قال: لما فتح الله بعلبك على يد المسلمين وترك أبو عبيدة رافع بن عبد الله وتوجه إلى حمص للحوق بخالد بن الوليد، فلما قرب من حمص وموضع يقال له الزراعة وجه على مقدمة جيشه ميسرة بن مسروق العبسي وعقد له راية سوداء معلمة بالبياض، وضم إليه خمسة آلاف فارس من المسلمين، فلما سار ميسرة حتى وصل إلى حمص خرج خالد بن الوليد - رضي الله عنه - إلى لقائه وسلم عليه وعلى من معه من المسلمين، ثم بعث أبو عبيدة بعده ضرار بن الأزور في خمسة آلاف فارس وبعث بعده عمرو بن معد يكرب الزبيدي. وقدم أبو عبيدة - رضي الله عنه - ببقية الجيش فلما أشرف عليها قال: «اللهم عجل علينا فتحها واخذل من فيها من المشركين».

واستقبلهم المسلمون بأجمعهم وسلموا عليه وعلى من معه، ونزل أبو عبيدة - رضي الله عنه - على النهر المقلوب، فلما استقر به القرار كتب إلى أهل حمص وبطريقها الجديد وهو هربيس كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي عبيدة عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على الشام وقائد جيوشه: أما بعد فإن الله تعالى قد فتح علينا بلادكم ولا يغرنَّكم عظم مدينتكم وتشييد بنيانكم وكثرة رجالكم، فما مدينتكم عندنا إذا أتاكم الحرب إلا كالبرمة قد نصبناها في وسط عسكرنا وألقينا اللحم فيها وجميع العساكر يتوقع الأكل منها وقد داروا بها ينتظرون نضجها وأكل ما فيها، ونحن ندعوكم إلى دين ارتضاه لنا ربنا - عز وجل -، فإن أجبتم إلى ذلك ارتحلنا عنكم وخلفنا عندكم رجالًا منا يعلمونكم أمر دينكم وما فرض الله تعالى عليكم، وإن أبيتم الإسلام قررناكم على أداء الجزية، وإن أبيتم الإسلام والجزية فهلموا إلى الحرب والقتال حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

ثم طوى الكتاب وسلمه إلى رجل من المعاهدين، وكان ذلك الرجل يحفظ بالعربية والرومية وقال له: انطلق إلى حمص وائتنا بالجواب، فأخذ المعاهد

الكتاب وسار حتى وصل إلى السور فهم أهل حمص أن يرموه بالسهام والحجارة. فقال لهم بالرومية: يا قوم أمسكوا عليكم فأنا رجل معاهد وقد جئتكم بكتاب من هؤلاء العرب. فدلوا له حبلًا فربط وسطه به وشالوه إليهم وأتوا به إلى بطريقهم، فلما وقف بين يديه خضع له وناوله الكتاب. فقال له البطريق: أرجعت عن دينك إلى دين هؤلاء العرب؟ قال: لا، ولكني في ذمتهم وعهدتهم أنا وأولادي وأهلي ومالي وما رأينا من القوم إلا خيرًا والصواب عندي أن لا تقاتلوهم، فإن القوم أولو بأس شديد لا يخافون ولا يرهبون الموت قد تمسكوا بدينهم والموت عندهم أفضل من الحياة، وقد أقسم القوم بدينهم لا يبرحون عن مدينتكم حتى تسلموها إليهم أو يفتحها الله على أيديهم، وحق ديني إنكم أحب إلي من العرب وأريد النصر لكم دون القوم، ولكني خائف عليكم من بأسهم وسطوتهم فسلموا تسلموا ولا تخالفوا تندموا.

فلما سمع البطريق هربيس كلامه غضب غضبًا شديدًا، وقال: وحق المسيح والإنجيل الصحيح لولا أنك رسول لأمرت بقطع لسانك على جراءتك علينا، فلما قرأ الكتاب وعلم ما فيه أمر كاتبه أن يكتب إلى الأمير أبي عبيدة بجواب

كتابه، فكتب كلمة الكفر. ثم قال: يا معاشر العرب إنه وصل إلينا كتابكم وعلمنا ما فيه من التهديد والوعد والوعيد ولسنا كمن لاقيتم من أهل الشام ولم يزل الملك هرقل يستنصر بنا على من عاداه وعلى من قصد إليه من العساكر والآن فلا بد لنا من الحرب والقتال، فإن سورنا شديد وأبوابنا حديد وحربنا عتيد والسلام. وطوى الكتاب وسلمه إلى المعاهد وأمر غلمانه أن يدلوه بالحبال من السور وسار حتى وصل إلى الأمير أبي عبيدة وسلمه الكتاب، ففضه وقرأه...

فلما سمع المسلمون ما فيه عوَّلوا على الحرب والقتال وقسَّم الأمير أبو عبيدة عسكر المسلمين أربع فرق، فبعث فرقة مع المسيب بن نجبة الفزاري فنزل بهم على باب الجبل مما يلي باب الصغير، وبعث فرقة أخرى مع المرقال بن هاشم بن عقبة بن أبي وقاص فنزل بهم على باب الرستق، وبعث فرقة أخرى مع يزيد بن أبي سفيان فنزل على باب الشام ونزل الأمير أبو عبيدة وخالد بن الوليد على باب الصغير وزحف المسلمون إليهم من كل مكان وقاتلوهم بقية يومهم هذا وسهام الروم تصل إليهم فيتلقونها بالحجف، ونبال العرب تصل إليهم وإلى من بأعلى السور فأثرت لأجل ذلك ضرًا فانفضوا عند المساء.

فلما كان الغد جمع خالد بن الوليد كل عبد كان في عسكر المسلمين وأمرهم أن يتقلدوا بالسيوف ويتنكبوا بالحجف ويزحفوا إلى سور حمص ويضربوا السور بأسيافهم ويتلقوا السهام بحجفهم. فقال الأمير أبو عبيدة: وما عسى أن يغني عنا هذا يا أبا سليمان؟! فقال خالد - رضي الله عنه -: على رسلك أيها الأمير ولا تخالفني فيما صنعت فإني عزمت أن أقاتلهم بالعبيد ونعلمهم أن ليس لهم عندنا من القدر شيء فما نقاتلهم بأنفسنا إلا أن يخرجوا إلينا! فقال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: افعل ما شئت فالله تعالى يوفقك، فعند ذلك أمرهم خالد بن الوليد - رضي الله عنه - بالزحف على الأسوار وكانوا أربعة آلاف عبد، وأمر خالد ألفًا من العرب أن تترجل معهم ففعلوا ذلك وزحفوا على السور، وقد استتروا بالحجف والعرب من ورائهم فرموا بالنبل وضربوا بسيوفهم فمنها ما تثلم، ومنها ما انكسر. وأشرف عليهم هربيس صاحب حمص، وقد دارت بطارقته وأصحاب الرتب فجعلوا يتأملون إلى أفعالهم، فقال هربيس: يا معاشر البطارقة وحق المسيح ما ظننت أن العرب بهذه الصفة وإذا هم كلهم سودان.

فقال له بعض من لحقه بأجنادين وسائر المواطن: لا أيها السيد بل هؤلاء عبيدهم وهذه من بعض مكايد العرب في الحرب وقد قدم هؤلاء السودان والعبيد إلى حربنا وقتالنا معناه أن ليس لنا عندهم من القدر أن يلقونا بأنفسهم أو نخرج إليهم، فقال هربيس: وحق المسيح إن هؤلاء أشد من العرب بأسًا وأقوى مراسًا واعلموا أنه ما لزق قوم بسور مدينتنا ولا دنوا منها إلا وقد هان عليهم أمرها واقترب على أيديهم فتحها.

قال الواقدي: ولقد بلغني أن العبيد قاتلوا يومهم قتالًا شديدًا وهجموا على الأبواب مرارًا ولم يزالوا بقية يومهم حتى أقبل الليل ورجعت الموالي إلى عسكر المسلمين وبعث هربيس من ليلته رسولًا إلى الأمير أبي عبيدة - رضي الله عنه - فأقبل الرسول والظلام معتكر فأحس جيش المسلمين به فهموا به، فقال: أنا رسول من البطريق هربيس صاحب حمص وأريد الجواب عن هذا الكتاب، فسلم إليهم كتاب هربيس فأخذه أبو عبيدة - رضي الله عنه - وقرأه، فإذا فيه: يا معاشر العرب أنا ظننا أن عندكم عقلًا تدبرون به الحرب وتستعينون به على الأمور، وإذا أنتم بخلاف ذلك لأنكم في أول حربكم لنا تفرقتم على

الأبواب، فقلنا: هذا أشد ما يكون من الحصار وأعظم ما يقدرون عليه من الإضرار.. فلما كان الغد تأخرتم عن حربنا وبعثتم هؤلاء المساكين إلى حربنا يقطعون أسيافهم ويكسرون سلاحهم فيا ليت شعري هل تصبر سيوفهم على فساد سورنا، وقد بان لنا عجز رأيكم وتدبيركم في القتال وملاقاة الرجال والآن فأنا أشير عليكم بأمر فيه الصلاح لنا ولكم، وهو أن تسيروا إلى الملك هرقل وتفتحوا ما بين أيديكم كما فتحتم ما وراءكم وإياكم واللجاج والبغي فإنهما قاتلان لمن اتبعهما وراجعان على من بدأ بهما أو نحن نخرج إليكم صبيحة هذه الليلة والله ينصر من يشاء منا ومنكم ممن على الحق.

فلما قرأ الأمير أبو عبيدة كتاب هربيس صاحب حمص استشار المسلمين فيما يصنع، وكان قد حضر عنده رجل كبير من أكابر خثعم وسيد من ساداتهم اسمه عطاء بن عمرو الخثعمي، وكان كبير السن قديم الهجرة سديد الرأي قد قاد الرجال وولى أمر الجيش وحزم العساكر، فلما سمع كتاب هربيس وثب قائمًا على قدميه، وقال للأمير أبي عبيدة - رضي الله عنه -: أقسمت عليك أيها الأمير برسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا ما سمعت مقالي، فإن فيه صلاحًا

للمسلمين فالله وفقني لمقالة وأيد المسلمين بها، قال أبو عبيدة – رضي الله عنه –: قل يا ابن عَمْرٍ فأنت عندنا ناصح للمسلمين. فدنا من الأمير أبي عبيدة وسارره، وقال له: أصلح الله الأمير اعلم أن خبرك عند هؤلاء منذ نزلت على هؤلاء اللئام وهذا البطريق أشد منعة وأعظم جولة ممن كان قبله، وقد علم بفتوح بعلبك وأنك لابد أن تنزل على حصارها، وقد استدعى بالطعام والعلوفة وآلة الحصار، وقد شحنها بالرجال وما ترك في رساتيقها وقراها طعامًا إلا وقد خزنوه عندهم ما يكفيهم أعوامًا، وإن نحن حاصرناهم يطول الأمر كما طال أمرنا على دمشق، والرأي عندي أن تخدعهم بخديعة وتحتال عليهم بحيلة. فإنْ تمت لنا عليهم الحيلة فتحنا المدينة عن قريب إن شاء الله تعالى. قال أبو عبيدة – رضي الله عنه –: وما الحيلة عندك يا ابن عَمْرٍ؟ فقال: الرأي عندي أن نكتب إلى هؤلاء القوم أن يجبرونا بالزاد والعلوفة ونضمن لهم أن نرتحل عنهم إلى أن يفتح الله تعالى عليك غير مدينتهم ونرجع إليهم، وقد قل زادهم وانتشروا في سوادهم وتفرقوا في أمصارهم وتجاراتهم ونشن عليهم غارة فنملك ما ظهر منهم ويهون عليك أمر من بقي في حمص مع قلة الزاد والعلوفة، فقال أبو عبيدة: أصبت الرأي يا ابن عَمْرٍ إني سوف أفعل ما ذكرته ونرجو من الله التوفيق والعون.

ثم دعا أبو عبيدة - رضي الله عنه - بدواة وبياض وكتب جواب الكتاب يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد فإني رأيت في قولك صلاحًا لنا ولكم ولسنا نريد البغي على أحد من عباد الله - عز وجل -. وقد علمت أن عسكرنا كثير وخيلنا وإبلنا كثير، فإن أردتم أن نرتحل عنكم فابعثوا لنا ميرة خمسة أيام وأنتم تعلمون أن الطريق الذي أمامنا بعيد وما نلقى بعدكم إلا كل حصن منيع وأبواب حديد فإذا مرتمونا رحلنا عنكم إلى بعض مدائن الشام، فإذا فتح الله علينا بعض مدائن الشام رجعنا عنكم كما زعمتم، فإن فعلتم ذلك كان صلاحًا لكم. وطوى الكتاب وسلمه إلى الرسول وسار إلى حمص، فلما قرأ هربيس الكتاب فرح بذلك وجمع الرؤساء والرهبان، وقال لهم: اعلموا أن العرب قد بعثوا يطلبون منكم الزاد والميرة حتى يرحلوا عنكم فإن العرب مثلهم كمثل السبع إذا وجد فريسته لم يرجع إلى غيرها، وهم قد لحقهم الجوع في مدينتكم، وإذا أشبعناهم انصرفوا عنَّا. فقالوا: أيها الأمير نخاف من العرب أن يأخذوا الزاد والعلوفة ولا يرحلوا عنَّا. فقال: إنا نأخذ لكم عليهم العهود والمواثيق أنكم إذا مرتموهم يرحلون عنكم. فقالوا: افعل ما بدا لك، واستوثق لنا ولك. فبعث هربيس وأحضر القسوس والرهبان وأمرهم أن يخرجوا إلى الأمير أبي

عبيدة – رضي الله عنه – ويأخذوا عليهم العهود والمواثيق إذا مرناهم يرحلون عنا.

فخرجوا وقد فتح لهم باب الرستق فساروا حتى وصلوا إلى الأمير أبي عبيدة وأخذوا عليهم ميثاقًا وعهدًا أن يرحلوا عنهم إذا هم ماروهم ولا يرجع عليهم حتى يفتح الله على يديه مدينة من مدائن الشام شرقًا أو غربًا، سهلًا كان أو جبلًا، فقال الأمير أبو عبيده – رضي الله عنه –: «قد رضيت بذلك وتم الصلح على ذلك»، وأخرج لهم أهل حمص مما كانوا قد ادخروه من الزاد والعلوفة شيئًا عظيمًا له ولعسكره ما يكفيهم مدة خمسة أيام، فأقبل أبو عبيدة عليهم، وقال: يا أهل حمص قبلنا ما حملتموه لنا من الزاد والعلوفة، فإذا رأيتم الآن أن تبيعوا من الزاد والعلوفة، فقالوا: نحن نفعل ذلك! فعندها نادى الأمير أبو عبيدة بشراء الزاد والعلوفة ولتكثروا من ذلك، فإن قدامكم طريقًا واسعًا قليل الزاد والعلوفة، فقالوا: أيها الأمير بماذا نشترى الزاد، وعلى أي شيء نحمله؟ فقال أبو عبيدة: من كان معه شيء من الذي غنمتموه من الروم فليشتر به الزاد والعلوفة. قال حسان بن عدي الغطفاني: خفف الله عن أبي عبيدة الحساب كما

خفف عنا ما كنا نحمله من البسط والطنافس مما كان قد أثقلنا وأثقل دوابنا فأخذنا به الزاد والعلوفة من القوم! وكانت العرب تسمح لهم في البيع والشراء ويشتري منهم أهل حمص ما يساوي عشرين دينارًا بدينارين، ورغب أهل حمص في شراء الرخيص، ولم يزل أهل حمص كذلك ثلاثة أيام وهم فرحون برحيل العرب عنهم.

وكان للروم في عسكر العرب جواسيس وعيون يأخذون لهم الأخبار، فلما نظرت الجواسيس إلى أهل حمص، وقد فتحوا مدينتهم وهم يميرون العرب ظنُّوا أنهم دخلوا في طاعتهم فسارت الجواسيس إلى أنطاكية طالبين وجعلوا كلما اجتازوا ببلد من البلد أو حصن من الحصون يقولون: إن أهل حمص قد دخلوا في طاعة العرب وفتحوا مدينتهم صلحًا فكان يعظم ذلك على الروم ويزيدهم خوفًا ورعبًا، وكان ذلك توفيقًا من الله - عز وجل - للمسلمين، وكانت الجواسيس أربعين رجلًا فدخل ثلاثة منهم إلى شيزر فأشاعوا فيها ذلك.

ذكر فتح الرستن

وسار الأمير أبو عبيدة بالعسكر حتى نزل على الرستن فرآها حصنًا منيعًا وماؤها غزير، وهي مشحونة بالرجال والعدد والعديد؛ فبعث إليهم رسولًا يأمرهم أن يكونوا في ذمته فأبوا ذلك، وقالوا: لا نفعل حتى نرى ما يكون من أمركم مع الملك هرقل، وبعد ذلك يكون ما شاء الله تعالى! فقال الأمير أبو عبيدة - رضي الله عنه -: فإنا متوجهون إلى قتال الملك هرقل ومعنا رجال وأمتعة وقد أثقلتنا واشتهينا أن نودعها عندكم إلى وقت رجوعنا، قال: فأتى أهل الرستن إلى بطريقهم، وكان اسمه «نقيطاس» وشاوروه في ذلك، فقال: يا قوم ما زالت الملوك والعساكر يودع بعضهم بعضًا وما يضرنا ذلك! ثم بعث إلى الأمير أبي عبيدة يقول له: مهما كان لك من حاجة فنحن نقضيها ونريد منكم المراعاة لأهل سوادنا حتى نرى ما يكون من أمركم مع الملك هرقل. فقال الأمير أبو عبيدة: ونحن نفعل إن شاء الله تعالى.

عن ثابت بن قيس بن علقمة قال: كنت ممن حضر عند أبي عبيدة - رضي الله عنه -، فعند ذلك دعا أهل الرأي والمشورة من أصحاب رسول الله - صلى

الله عليه وسلم – وقال لهم: إن هذا حصن شديد منيع ليس لنا إلى فتحه سبيل إلا بالحيلة والخديعة وأريد أن أجعل منكم عشرين رجلًا في عشرين صندوقًا وتكون الأقفال عندهم من باطنها، فإذا صاروا في المدينة فثوروا على اسم الله تعالى فإنكم تنصرون على من فيها من المشركين. فقال خالد بن الوليد: فإذا عزمت على ذلك فلتكن الأقفال ظاهرة ويكون أسفل الصناديق أنثى في ذكر من غير شيء يمسكها فإذا حل أصحابنا في حصن من هؤلاء القوم يخرجون جملة واحدة ويكبرون. فإن النصر مقرون بالتكبير. فأجابه أبو عبيدة إلى ذلك وأخذ صناديق الطعام المنتخبة عند الروم ففض أسافلها وجعلها ذكرًا في أنثى، فأول من دخل في الصناديق ضرار بن الأزور ثم المسيب بن نجبة وذو الكلاع الحميري وعمرو بن معد يكرب الزبيدي والمرقال وهاشم نجية وقيس بن هبيرة وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ومالك بن الأشتر وعوف بن سالم وصابر بن كلكل ومازن بن عامر والأصيد بن سلمة وربيعة بن عامر وعكرمة بن أبي جهل وعتبة بن العاص ودارم بن فياض العبسي وسلمة بن حبيب والفارع بن حرملة ونوفل بن جرعل وجندب بن سيف وعبد الله بن جعفر الطيار وجعله أميرًا عليهم، وسلّموا الصناديق إلى الروم! فلما حطت الصناديق في

الرستن ألقاها نقيطاس في قصر إمارته، وارتحل الأمير أبو عبيدة - رضي الله عنه - وسار حتى نزل في قرية يقال لها السودية، فلما أظلم الليل بعث خالد بن الوليد - رضي الله عنه - بجيش الزحف إلى الرستن ينظر ما يكون من أصحابه وما فعلت الصحابة - رضي الله عنهم - وسار خالد بن الوليد برجاله حتى وصل القنطرة وإذا بالصياح قد علا والتهليل والتكبير من داخل مدينة الرستن.

قال الواقدي: كان من أمر الصحابة أنه لما تركهم نقيطاس في دار إمارته ركب إلى البيعة مع بطارقته وأهل مدينته ليصلوا صلاة الشكر، لأجل رحيل المسلمين عنهم وارتفعت أصواتهم بقراءة الإنجيل وسمع أصواتهم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فخرجوا من الصناديق وشدوا على أنفسهم، وشهروا سلاحهم وقبضوا على امرأة نقيطاس وحريمه وقالوا: نريد مفاتيح الأبواب فسلمتها إليهم، فلما حصلت المفاتيح في أيديهم رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير وكبس القوم على أبواب مدينتهم فلم يجسروا عليهم لأنهم بدون عدة وسلاح وبعث عبد الله بن جعفر الطيار ربيعة بن عامر والأصيد بن سلمة وعكرمة بن أبي جهل وعتبة بن العاص

والفارع بن حرملة وسلم إليهم المفاتيح، وقال: افتحوا الأبواب وارفعوا أصواتكم بالتهليل والتكبير، فإن إخوانكم المسلمين من حول المدينة كامنون فتبادر الخمسة إلى الباب القبلي وهو باب حمص وفتحوه ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير وإذا هم بعسكر الزحف، وعلى المقدمة خالد - رضي الله عنه - فأجابوهم بالتهليل والتكبير ودخلوا المدينة وسمع أهل الرستن أصوات أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعلموا أنهم في قبضتهم وأن مدينتهم قد أخذت من أيديهم فاستسلموا جميعًا وخرجوا إليهم وقالوا لهم: إنا لا نقاتلكم ونحن الآن أسرى لكم فاعدلوا فينا فأنتم أحب إلينا من قومنا. فعرض خالد - رضي الله عنه - الإسلام عليهم فأسلم منهم كثير وبقي الأكثر يؤدون الجزية، وأما أميرهم نقيطاس فإنه قال: لا أريد بديني بدلًا.

فقال له خالد: الآن فاخرج بأهلك عنا وحدث قومك بعدلنا فأخرجوه من الرستن فتوجه بأهله وأمواله إلى حمص، وأعلم أهلها بفتح الرستن فصعب ذلك على أهلها وعلموا أن العرب تصبحهم أو تمسيهم بالغارة وبعث عبد الله بن جعفر الطيار إلى أبي عبيدة يخبره بالفتح والنصر، فسجد لله شكرًا وبعث

إليهم ألف رجل من اليمن ووصاهم بحفظ الرستن وأمَّر عليهم هلال بن مرة اليشكري. فلما استقروا بالرستن رحل خالد بن الوليد – رضي الله عنه – وعبد الله بن جعفر وأهلهم وعساكرهم وتوجهوا إلى حماة وكان أهل حماة في صلح المسلمين كما ذكرنا وكذلك أهل شيزر إلا أن بطريق أهل شيزر مات وبعث إليهم الملك هرقل بطريقًا عاتيًا جبارًا اسمه «نكس» ففسخ الصلح وأذاق أهل شيزر ضرًا وشرًا، وكان يصادر أموالهم ويحتجب عنهم لاهيًا في أكله وشربه! فلما بلغ الخبر الأمير أبا عبيدة بعث خيلًا جريدة إلى شيزر فغارت الخيل على بلدهم ووقعت الضجة بشيزر وسمع البطريق «نكس» الضجة فنزل إليهم من قلعته وأظهر لهم بعض حجابه وجلس في بيعتهم المعظمة عندهم وجمع الرؤساء منهم وقال لهم: «يا أهل شيزر أنتم تعلمون أن الملك هرقل قد استخلفني عليكم لحفظ مدينتكم وأمنع عن حريمكم وأموالكم»، ثم فتح خزانة السلاح وفرَّق عليهم العدد وأمرهم بالحرب والقتال، فبينما القوم كذلك إذ أشرف عليهم خالد في أصحابه ومعه جيش الزحف فنزلوا بإزائهم، وأشرف بعده يزيد بن أبي سفيان بأصحابه فنزل عليهم، وأشرف بعده الأمير أبو عبيدة في عساكره جميعهم!

فلما نظر أهل شيزر تلاحق العساكر بهم هالهم ذلك وعظم عليهم وحارت أبصارهم! فلما رأى أبو عبيدة - رضي الله عنه - ذلك كتب إلى أهل شيزر كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد يا أهل شيزر فإن حصنكم ليس بأمنع من حصن بعلبك ولا من الرستن ولا رجالكم أشجع فإذا قرأتم كتابي هذا فادخلوا في طاعتي ولا تخالفوني فيكون وبالًا عليكم وقد بلغكم عدلنا وحسن سيرتنا فكونوا مثل سائر من صالحنا ودخل في طاعتنا من سائر بلاد الشام والسلام. وطوى الكتاب وسلمه إلى رجل من المعاهدين وبعثه إليهم، فلما وصل الكتاب إليهم أعطوه بطريقهم نكس فقرئ عليه، فلما فهم ما فيه قال: ما تقولون يا أهل شيزر فيما ذكرت العرب؟ فقالوا: صدقت العرب أيها البطريق الكبير فإن حصننا ليس بأمنع من الرستن ولا بعلبك ولا دمشق ولا بصرى وأنت أعلم بشدة أهل حمص وحدة شجاعتهم، وقد صالحوا العرب وكذلك أهل فلسطين ومدنها والأردن وحصنها، فكيف تمنع عنهم شيزر وهي حصن لطيف فإن عصيت هؤلاء العرب فإنك معوَّل على هلاكنا وخراب مدينتنا.

قال الواقدي: وكثر فيهم الخطاب وعلا الكلام وأقبل البطريق «نكس» يسب أهل شيزر وأمر غلمانه بضربهم، فلما نظر أهل شيزر ذلك غضبوا وأظهروا سلاحهم عليه وعلى غلمانه ووقع القتال بين الفريقين فعرف المسلمون ذلك وقالوا: اللهم أهلكهم ببأسهم... ولم يزل أهل شيزر في القتال حتى نصروا على البطريق وعلى غلمانه وقتلوهم عن آخرهم، ثم أخرجوا إلى الأمير أبي عبيدة - رضي الله عنه - رجالًا إلى لقائه بغير سلاح، فلما وقفوا بين يدي الأمير أبي عبيدة سلموا عليه وقالوا: أيها الأمير إنا قتلنا بطريقنا في محبتكم، قال: يا أهل شيزر بيض الله وجوهكم وأدر رزقكم فقد كفيتمونا الحرب والقتال، ثم قال للمسلمين: ألا ترون إلى حسن طاعة هؤلاء الروم وفعالهم ببطريقهم في محبتكم والدخول في طاعتكم، وقد رأيت من الرأي أن أحسن إلى القوم وأنعم عليهم! فقال المسلمون: نعم ما رأيت حتى يصل ما تصنع إلى غيرهم ويفتح الله علينا البلاد إن شاء الله تعالى.

قال الواقدي: فأقبل على أهل شيزر، وقال: أبشروا فإنِّي لست أكره أحدًا منكم! فمن أحب منكم الدخول في ديننا فله ما لنا وعليه ما علينا، والخراج

موضوع عنكم سنتين ومن أقام على دينه فعليه الجزية وقد وضعنا عنه الخراج سنة كاملة، ففرح الروم بذلك، وقالوا: أيها الأمير سمعنا وأطعنا وهذا قصر بطريقنا فأنت أحق بما فيه وهو هدية منا إليك فدونك وإياه وما فيه من الرجال، والآنية والأموال، فأخرج أبو عبيدة - رضي الله عنه - منها الخمس وقسم الباقي على المسلمين بالسوية، ونادى أبو عبيدة - رضي الله عنه -: يا معاشر المسلمين قد فتح الله على أيديكم هذه المدينة أيسر فتح وأهونه، وقد خرج أهل حمص من ذمتكم ووفيتم لهم ما عاهدوكم عليه فارجعوا بنا عليهم رحمكم الله تعالى. فركب المسلمون ظهور خيولهم وهمُّوا بالمسير وإذ قد لاح لهم غبرة مرتفعة من وراء النهر المقلوب وهي منقلبة من طريق أنطاكية وقد أخذت عرضًا فأسرعت خيل المسلمين إليها، فإذا معها قسيس كبير من قسوس الروم ومعه مائة برذون موسوقة بالأحمال ومن حولها مائة علج من علوج الروم يحفظونها.

ولم يكن للقسيس خبر بنزول المسلمين على شيزر فصاح بهم خالد بن الوليد - رضي الله عنه - وكبر المسلمون معه وأحدقوا بهم من كل جانب وأخذوا العلوج أسرى وأخذوا البراذين، وأقبل خالد على القسيس، وقال له: يا

ويلك من أين أقبلت بهذه الأحمال؟ قال: فرطن القسيس بالرومية فلم يدر خالد ما يقول هذا القسيس الميشوم، فبدا إليه رجل من أهل شيزر وقال: يا أيها الأمير إنه يذكر أنه من القسوس المعظمة عند الملك هرقل، وقد بعثه وبعث معه إلى هربيس هذه الأحمال فيها ديباج أحمر منسوج بقضبان الذهب وعشرة أحمال مملوءة دنانير وباقي الأحمال مملوءة من الثياب والدنانير. فأخذوها وأخرجوا منها مالًا عظيمًا وغنم المسلمون غنيمة عظيمة لم يغنموا مثلها، وساق خالد بن الوليد الأحمال إلى الأمير أبي عبيدة - رضي الله عنه - فوجده على النهر المقلوب مما يلي شيزر وتحته عباءة قطوانية وعلى رأسه مثلها تظله من حر الشمس فأقبل خالد - رضي الله عنه - بالقسيس فأوقفه بين يديه. فقال أبو عبيدة: ما هذا يا أبا سليمان؟ فقال خالد: إنهم قوم من أنطاكية ومعهم هدية لهربيس صاحب حمص من ملك الروم هرقل.

وعرض عليه الغنيمة ففرح الأمير أبو عبيدة بها فرحًا شديدًا وقال: يا أبا سليمان لقد كان فتح شيزر علينا مباركًا، ثم دعا بترجمان كان معه لا يفارقه، وقال: اسأل هؤلاء عن ملك الروم الطاغية هرقل هل هو في جمع كثير أم لا.

فكلم الترجمان القسيس ساعة فقال القسيس: قل للأمير إن الملك هرقل قد بلغه أنكم فتحتم دمشق وبعلبك وجوسية وأنكم لم تنزلوا على حمص فبعث معي هذه الهدية إلى هربيس البطريق وكتب إليه يأمره بقتالكم ويعده بالنجدة وقدوم العساكر إليه لأن الملك هرقل قد استنجد عليكم كل من يعبد الصليب ويقرأ الإنجيل فأجابته الرومية والصقالبة والإفرنج والأرمن والدقس والمغليط والكرج واليونان والعلف والغزانة وأهل رومية وكل من يحمل صليبًا والعساكر قد وصلت إلى الملك هرقل من كل جانب ومكان!

فحدَّث الترجمان الأمير أبا عبيدة - رضي الله عنه - بكل ما أعلمه القسيس به فعظم ذلك على الأمير أبي عبيدة وعرض على القسيس الإسلام، فقال القسيس للترجمان: قل للأمير أبي عبيدة إني البارحة رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المنام وقد أسلمت على يديه! ففرح الأمير أبو عبيدة بذلك وعرض على الأعلاج الإسلام فأبوا فضربت رقابهم، ورحل أبو عبيدة - رضي الله عنه - متوجهًا إلى حمص، وقد سيَّر الخيل جريدة في مقدمته فما شعر أهل حمص إلا والخيل قد أغارت عليهم فرجع القوم إلى المدينة وقد غلقوا

الأبواب، وقالوا: غدرت العرب وحق المسيح. ونزل المسلمون حول المدينة وداروا بها من كل جانب ومكان، وقد نفذ الزاد من المدينة وأكثر أهلها قد خرجوا إلى تجارتهم وفي طلب الميرة، وقد تفرقوا في البلاد.

فلما نزل الأمير أبو عبيدة - رضي الله عنه - على المدينة، دعا بالعبيد والموالي وأمرهم أن يتفرقوا على الطرقات والمحارس وقال لهم: كل من وجدتموه قد رجع إلى حمص بزاد أو تجارة فائتوني به، ففعل العبيد ذلك، وصعب ذلك على هربيس صاحب حمص وكتب إلى الأمير أبي عبيدة كتابًا يقول فيه: أما بعد يا معاشر العرب فإنا لم نخبر عنكم بالغدر ولا بنقض العهد، ألستم صالحتمونا على الميرة فمرناكم، فطلبتم منا البيع فابتعناكم فلم نقضتم ما عاهدناكم عليه؟ فكتب الأمير أبو عبيدة - رضي الله عنه - يقول: أريد أن ترسل إليَّ القسوس والرهبان الذين أرسلتهم إليَّ حتى أوقفهم على ما عاهدتهم عليه ليعلموك أننا لم نغدر ولا مثلنا من يفعل ذلك إن شاء الله تعالى.

فلما قرأ هربيس الكتاب أحضر القسوس والرهبان وبعث بهم إلى الأمير أبي عبيدة، فخرجوا إليه وفتح لهم باب حمص وساروا إلى أن وصلوا للأمير

أبي عبيدة، فسلموا عليه وجلسوا بين يديه، فقال لهم أبو عبيدة – رضي الله عنه -: ألم تعلموا أني عاهدتكم وحلفت لكم أني منصرف عنكم حتى أفتح مدينة من مدائن الشام سهلًا كان أو جبلًا، ثم يكون الرأي لي إن شئت رجعت إليكم أو سرت إلى غيركم؟ فقالوا: بلى وحق المسيح! فقال لهم: إن الله تعالى قد فتح علينا شيزر والرستن في أهون وقت، وقد غنمنا الله مال بطريقهم «نكس» وغيره مما لم نؤمله في هذه المدة اليسيرة والآن فلا عهد لكم عندنا ولا صلح إلا أن تصالحونا على فتح المدينة وتكونوا في ذمتنا وأماننا! فقال القسوس والرهبان: لقد صدقت أيها الأمير ليس عليكم لوم وقد وفيتم بذمتكم، وقد بلغنا فتحكم شيزر والرستن والخطأ كان منَّا إذ لم نستوثق لأنفسنا والآن الأمر بيد بطريقنا ونحن نرجع إليه ونعلمه بذلك. ثم رجعوا إلى مدينتهم، ودعا الأمير أبو عبيدة – رضي الله عنه – بالرجال والأبطال وأهل الحرب، وقال: خذوا أهبتكم فإن القوم بلا زاد ولا مدد يأتي إليهم من عند طاغيتهم ولا نجدة فاستعينوا بالله وتوكلوا عليه...

فلبس المسلمون السلاح والعدد ورجعوا إلى الأبواب والأسوار واجتمع أهل حمص ببطريقهم هربيس وقالوا: ما عندك من الرأي في أمر هؤلاء العرب؟ فقال: الأمر عندي أن نقاتلهم ولا نريهم منَّا ضعفًا! قالوا: فإن الزاد قد نفد من مدينتنا، وقد أخذه القوم منا وما سمعنا بمثل هذه الحيلة! فقال هربيس: ما لكم تعجزون عن حرب عدوكم وما قتل منكم قتيل ولا جرح منكم جريح ولم تصبكم شدة ولا جوع؟! وإنما أصابوا منكم على غرة ولو دخلوا المدينة لما قدروا عليكم وأقل الرجال على السور يكفيكم إياهم وعندي من الزاد في قصري ما يعم كثيركم المدة الطويلة وما أحسب أن الملك هرقل يغفل عنا وسيبلغه خبركم ويوجه العساكر.

قال الواقدي: وكان عند البطريق هربيس في قصره جب عظيم مملوء طعامًا ففتحه وفرق الطعام على أهل حمص فسكنت بذلك نفوسهم وجعل البطريق يفرق على كبيرهم وصغيرهم بقية يومهم ذلك، وقد انحصر أهل حمص جميعهم فنفد ذلك اليوم نصف ما في الجب وقال لهم: اقنعوا بما أعطيتكم ثلاثة أيام وابرزوا إلى حرب عدوكم. ثم أخذوا أهبة الحرب وعرض عسكره

وانتخب منهم خمسة آلاف فارس من أولاد الزراوز والعمالقة لا يساويهم غيرهم، فيهم ألف مدبجة ملكية وفتح خزانة جده جرجيس وفرق عليهم الدروع والجواشن والبيض والمغافر والقسي والنشاب والحراب وأقبل يحرضهم على القتال ويعدهم بالمدد والنجدة من الملك هرقل... ثم دعا بالقسوس والرهبان وقال لهم: خذوا أهبتكم وادعوا المسيح أن ينصرنا على العرب فإن دعاءكم لا يحجب ولا يرد. فدخلوا كنيستهم المعظمة عندهم وهي كنيسة جرجيس -وهي الجامع اليوم- ونشروا المزامير وأقبلوا يبتهلون بكلمة الكفر وباتوا بقية ليلتهم على مثل ذلك.

فلما كان الصباح دخل هربيس إلى البيعة وتقرب وصلوا عليه صلاة الموتى فدخل قصره وقدم له خنوص مشوي فأكله حتى أتى على آخره وقدم بين يديه باطية الذهب والفضة فشرب حتى انقلبت عيناه في أم رأسه ثم لبس ديباجًا محشوًا بالفرو والزرد الصغار المضعف العدد ولبس فوقها درعًا من الذهب الأحمر وعلق في عنقه صليبًا من الياقوت وتقلد بسيف من صنعة الهند وقدم له مهر كالطود العظيم فاستوى على ظهره، وخرج من قصره طالبًا باب الرستن

فأحاطت به بطارقته من الروم من كل جانب، وفتحت أبواب حمص وخرجت الروم من كل مكان في عددهم وعديدهم وراياتهم وصلبانهم وبين يدي هربيس خمسة آلاف فارس من علوج الروم، فصفَّهم أمام المدينة كأنهم سد من حديد، أو قطع الجلمود، وقد وطَّنوا نفوسهم على الموت دون أموالهم وذراريهم! فتبادر المسلمون إليهم مثل الجراد المنتشر، وحملوا عليهم حملة عظيمة والعلوج كأنهم حجارة ثابتة ما ولَّوا عن مواضعهم ولا فكروا فيما نزل بهم، فعندها صاح البطريق هربيس على رجاله وزجرهم فتبادرت الروم وصاح بعضهم ببعض وركب المسلمون وحملوا عليهم ورشقوا الرجال بالسهام واشتبكت الحرب واختلط الفريقان واقتتلوا قتالًا شديدًا ما عليه من مزيد، إلا أن المسلمين رجعوا القهقرى، وقد فشا فيهم القتل والجراح...

فلما نظر الأمير أبو عبيدة إلى ذلك من هزيمة المسلمين عظم عليه وكبر لديه وصاح فيهم بصوته: يا بني القرآن الرجعة الرجعة بارك الله فيكم فهذا يوم من أيام الله تعالى فاحملوا معي بارك الله فيكم فتراجع الناس وحملوا على أهل حمص حملة عظيمة وشدوا عليهم الحملة، وحمل خالد بن الوليد - رضي الله

عنه - في جمع كثير من بني مخزوم وجعلوا يضربون فيهم بسيوفهم ويطعنون برماحهم حتى طحنوهم طحن الحصيد ووضع المسلمون فيهم السيف، وحمل ابن مسروق العبسي في طائفة من قومه من بني عبس، وقد رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير وصدموا الروم صدمة عظيمة فتراجعت الروم إلى الأسوار وقد فشا فيهم القتل، فبربرت الروم بلغاتها وتراجعت على المسلمين وأحاطوا بهم من كل جانب ومكان ورشقت العلوج بالنشاب وطعنوا في المسلمين بالحراب، وقد استتروا بالدرق والطوارق. قال فلما نظر خالد بن الوليد إلى ذلك برز باللواء وكان هو صاحب اللواء يوم حمص وصاح بأصحابه وقال: شدوا عليهم بالحملة بارك الله فيكم فإنها والله غنيمة الدنيا والآخرة.

فبينما خالد يحرِّض أصحابه على القتال إذ حمل عليه بطريق من عظماء الروم وعليه لأمة مانعة وهو يهدر كالأسد فحمل خالد بن الوليد عليه وضربه على رأسه فوقع سيفه على البيضة فطار السيف من يد خالد بن الوليد وبقيت قبضته في يده فطمع العلج فيه وحمل عليه ولاصقه حتى حك ركابه بركاب خالد وتعانقا جميعًا بالسواعد والمناكب فضم خالد العلج إلى صدره واحتضنه

بيده وشد عليه بقوته فطحن أضلاعه وأدخل بعضها في بعض فأرداه قتيلًا، وأخذ خالد سيف العلج وهزه في يده حتى طار منه الشرر ووضع رأسه في قربوس سرجه وحمل وصاح في بني مخزوم فحملوا حملة عظيمة وهاجوا في أوساطهم وخالد بن الوليد - رضي الله عنه - يفرقهم يمينًا وشمالًا وهو ينادي برفيع صوته: أنا الفارس الصنديد، أنا خالد بن الوليد صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ولم يزالوا في القتال الشديد حتى توسطت الشمس في كبد السماء وحمي الدرع على خالد - رضي الله عنه - فخرج من المعركة وبنو مخزوم يتقاطرون من خلفه والدم يسيل ملء دروعهم وسواعدهم كأنها شقائق الأرجوان، وخالد بن الوليد - رضي الله عنه - في أوائلهم وهو يقول:

ويل لجمع الروم من يوم شغب … إني رأيت الحرب فيه تلتهب

وكم لقوا منا مواقع النصب … وكم تركت الروم في حال العطب

فناداه الأمير أبو عبيدة: لله درك يا أبا سليمان! لله درك لقد جاهدت في الله حق جهاده! فلما نظر المرقال بن هاشم إلى غفلة الروم صاح في بني زهرة وحملوا في ميمنة الروم، وحمل ميسرة بن مسروق العبسي في قومه، وحمل

عكرمة بن أبي جهل وحوله جمع كثير من بني مخزوم، وحمل المسلمون بأجمعهم وقد اطلعوا على الشهادة وأيقنوا بالعناية.

معركة حمص

قال الواقدي: فلم يكن يوم حمص أشد حربًا ولا أقوى جلدًا من بني مخزوم! غير أن عكرمة بن أبي جهل كان أشدهم بأسًا وإقدامًا وهو يقصد الأسنة بنفسه فقيل له: اتق الله وارفق بنفسك. فقال: «يا قوم أنا كنت أقاتل عن الأصنام، فكيف اليوم وأنا أقاتل في طاعة الملك العلام؟! وإنِّي أرى الحور متشوقات إليَّ، ولو بدت واحدة منهنَّ لأهل الدنيا لأغنتهم عن الشمس والقمر، ولقد صدقنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيما وعدنا»، ثم سل سيفه وغاص في الروم ولم يزدد إلا إقدامًا وقد عجبت الروم من حسن صبره وقتاله. فبينما هو كذلك إذ حمل عليه البطريق «هربيس» صاحب حمص وبيده حربة عظيمة تضيء وتلتهب وهزها في كفه وضربه بها فوقعت في قلبه ومرقت من ظهره فانجدل صريعًا وعجل الله تعالى بروحه إلى الجنة، فلما نظر خالد بن الوليد إلى ابن عمه وقد وقع صريعًا أقبل حتى وقف عليه وبكى، وقال: يا ليت

عمر بن الخطاب نظر إلى ابن عمي صريعًا حتى يعلم إنا إذا لاقينا العدو ركبنا الأسنة ركوبًا.

ولم يزالوا في الأهوال الشديدة حتى هجم الليل عليهم وتراجعت الروم إلى مدينتهم وغلقوا الأبواب وطلعوا على الأسوار ورجع المسلمون إلى رحالهم وخيامهم وباتوا ليلتهم يتحارسون، فلما أصبح الصباح قال الأمير أبو عبيدة - رضي الله عنه -: يا معاشر المسلمين ما بالكم قد صدكم هؤلاء القوم؟ وبعد الطمع فيهم ما بالكم هزمتم وجزعتم منهم والله ألبسكم عافية مجللة وسلامة سابغة وأظفركم على بطارقة الروم وفتح لكم الحصون والقلاع، فما هذا التقصير والله تعالى مطلع عليكم؟! فقال خالد بن الوليد - رضي الله عنه -: هؤلاء فرسان الروم أشد الرجال ليس فيهم سوقة ولا جبان، وقد تعلم أنهم يكونون أشد في الحرب لأنهم يمنعون عن الذراري والنسوان! فقال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: فما الرأي عندك يا أبا سليمان يرحمك الله؟ فقال خالد بن الوليد - رضي الله عنه -: أيها الأمير قد رأيت من الرأي أننا ننكشف للقوم غدًا وندع لهم سوائمنا وإبلنا فإذا تباعدنا عن مدينتهم وتبعتنا خيلهم وتباعدوا عن

مدينتهم وصاروا معنا عطفنا عليهم ومزَّقناهم بالأسنة ونقطع ظهورهم لبعدهم عن مدينتهم. فقال أبو عبيدة: نعم الرأي ما رأيت يا أبا سليمان ولقد أشرت وأحسنت! وتواعد المسلمون على أن ينكشفوا بين أيدي الروم وأن يتركوا لهم سوائمهم، فلما أصبح الصباح فتحت أبواب حمص وخرجت الروم من جميع الأبواب وزحفوا يريدون القتال، فسألهم العرب أن يكفوا القتال وأروهم التقصير والخوف، وأطمعوهم في أنفسهم، وجعلوا ينحرفون عن قتالهم حتى تضاحى النهار وانبسطت الشمس وطابت الحرب، وطمعت الروم في المسلمين لما بان لهم من تقصيرهم فشدَّ الروم بالحملة عليهم، فانهزمت العرب من بين أيديهم وتركوا سوائمهم.

عن سراقة النخعي وكان ممن حضر يوم حمص قال: لما انهزمت العرب أمام الروم وتبعنا هربيس البطريق في خمسة آلاف شاب وكانوا أشد الروم، وانهزمنا أمام القوم كأننا نطلب الزراعة وجوسية، وأدركتنا البطارقة وبعضهم مال إلى السواد طمعًا في الزاد والطعام. وكان بحمص قسيس كبير السن عظيم القدر عند الروم قد حنكته التجارب وعرف أبواب الحيل والخداع، وكان عالمًا

من علماء الروم، فلما أشرف ذلك القسيس ونظر إلى العرب وقد ملك الروم سوادهم جعل يصيح وينادي: وحق المسيح إن هذه خديعة ومكر ومكيدة من مكايد العرب، وإن العرب لا تسلم أولادها وإبلها ولو قتلوا عن آخرهم. وجعل القسيس يصيح وأهل حمص قد وقعوا في النهب وليس يغنيهم سوى الزاد والطعام! والبطريق هربيس قد ألح في طلب المسلمين في خمسة آلاف فارس، فلما أبعدوا عن المدينة صاح الأمير أبو عبيدة - رضي الله عنه - برفيع صوته: اعطفوا على الروم كالسباع الضارية والعقبان الكاسرة فردوا عليهم كردوسًا واحدًا حتى أحاطوا بالبطريق وأصحابه من كل جانب وداروا بهم مثل الحلقة المستديرة وأحدقوا بهم كإحداق البياض بسواد العين، وبقيت الروم في أوساطهم كالشامة السوداء في الثور الأبيض فعند ذلك نصبت العلوج نشابها على العرب، والمسلمون يكرون عليهم مثل الأسود الضارية ويحومون عليهم كما تحوم النسور ويضربونهم بالسيوف ويصرعونهم يمينًا وشمالًا حتى انكسر أكثرهم.

قال عطية بن فهر الزبيدي: فلما نظرت الروم إلى فعلنا بهم تكالبت علينا، فلما حميت الحرب ابتدر خالد - رضي الله عنه - من وسط العسكر وهو على جواد أشقر وعليه جوشن مذهب كان لصاحب بعلبك أهداه له يوم فتح المدينة، وكان خالد - رضي الله عنه - قد عمَّم نفسه بعمامته الحمراء وجعل يهدر كالأسد الحردان وقد انتضى سيفه من غمده وهزه حتى طار منه الشرر ونادى برفيع صوته: رحم الله رجلًا جرَّد سيفه وقوَّى عزمه وقاتل أعداءه! فعندها انتضب المسلمون سيوفهم وصدموا الروم صدمة عظيمة ونادى الأمير أبو عبيدة: يا بني العرب قاتلوا عن حريمكم ودينكم وأموالكم فإن الله مطلع عليكم وناصركم على عدوكم.

وكان معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قد انفرد في خمسمائة فارس إلى السواد والأموال وانقض على الروم فما شعرت الروم والعلوج ممن انغمس في الغارة وحمل الزاد والرحال والأمتعة إلا والطعن قد أخذهم بأسنة الرماح من كل جانب كأنها ألسنة النار المضرمة ونادى مناد: يا فتيان العرب اطلبوا الباب لئلا ينجو أحد من الروم برجالنا وأولادنا، فجعل المسلمون يطلبون الأبواب

وكانت علوج الروم قد غرقت في رحال المسلمين، فلما نظروا إلى معاذ وقد حمل عليهم في رجاله عادت وقد رمت الرحال وطلبت الهرب فانفلت منهم من انفلت وقتل من قتل. قال صهيب بن سيف الفزاري: فوالله ما انفلت من الخمسة آلاف الذين كانوا مع هربيس صاحب حمص إلا ما ينوف عن مائة فارس. قال واتبعنا القوم إلى الأبواب فكان أعظم المصيبة قتلنا إياهم على الأبواب، لأن أكثر الرجال من العواصم وغيرهم كانوا في المدينة.

قال سعيد بن زيد: شهدت يوم حمص وكنت ممن أولع بعدد القتلى فعددت خمسة آلاف وستة غير أسير وجريح؛ فدنوت من الأمير أبي عبيدة – رضي الله عنه – وقلت: البشارة أيها الأمير فإني عددت خمسة آلاف وستة غير أسير وجريح. فقال الأمير أبو عبيدة: بشرت بخير يا ابن زيد فهل ترى قتل بطريقهم هربيس؟ فقال سعيد: أيها الأمير إذا كان بطريقهم هربيس قد قتل فما قتله غيري! فقال الأمير أبو عبيدة: وكيف علمت أنه قتيلك يا سعيد. فقال سعيد: أيها الأمير إني رأيت فارسًا عظيم الخلقة طويلًا ضخمًا أحمر اللون وبيده سيف وعليه لأمة حربه صفتهما كذا وكذا وهو في وسط الروم كأنه البعير الهائج

فحملت عليه وقلت في حملتي: اللهم إني أقدم قدرتك على قدرتي وغلبتك على غلبتي: اللهم اجعل قتله على يدي وارزقني أجره. فقال له أبو عبيدة: أما أخذت سلبه يا سعيد؟ قال: لا، ولكن علامتي فيه نبلة من كنانتي أثبتها في قلبه فخر يهوي عن جواده ونفرت عنه أصحابه فلحقته فضربته بسيفي ضربة فصرمت حقوته ونبلتي في قلبه. قال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: أدركوه رحمكم الله وسلموا سلبه إلى سعيد ففعلوا ذلك.

قال الواقدي: فلما أخذت الحرب أوزارها أخذ المسلمون الأسلاب والدروع والشهابي ومثلوا الجميع أمام الأمير أبي عبيدة - رضي الله عنه - فأخرج منها الخمس لبيت مال المسلمين وقسم الباقي على المجاهدين. قال ووقع الصياح والبكاء في حمص على من قتل منهم من فرسان الكفار ورجالهم. قال واجتمع مشايخ حمص ورؤساؤهم إلى بيعتهم وتحدثوا مع القسوس والرهبان على أن يسلموا حمص إلى المسلمين، وخرج علماء دينهم ورؤساؤهم إلى أبي عبيدة - رضي الله عنه - وصالحوه على تسليم المدينة إليه وأن يكونوا تحت ذمامه وأمانه، فصالحهم أبو عبيدة - رضي الله عنه -، وقال:

لست أدخل مدينتكم حتى نرى ما يكون بيننا وبين الملك هرقل وأراد أهل حمص أن يكرموا المسلمين بالإقامة والعلوفة فنهاهم الأمير أبو عبيدة عن ذلك ولم يدخل أحد من المسلمين إلى حمص إلا بعد وقعة اليرموك كل ذلك ليتقرب المسلمون إلى الروم بالعدل وحسن الصحبة.

حدثنا النجار وكان ممن يعرف فتوح الشام، قال: لما صالحنا أهل حمص بعد قتل هربيس خرج أهل حمص ودفنوا قتلاهم فافتقدنا القتلى الذين استشهدوا من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فوجدنا من استشهد من المسلمين مائتين وخمسة وثلاثين فارسًا كلهم من حمير وهمدان ومن أخلاط الناس، إلا ثلاثين رجلًا من أهل مكة: منهم عكرمة بن أبي جهل وصابر بن جرئ والريس بن عقيل ومروان بن عامر والمنهال بن عامر السلمي ابن عم العباس – رضي الله عنه –، وجمح بن قدم، وجابر بن خويلد الربعي.

ذكر وقعة اليرموك

قال الواقدي: واتصلت الأخبار إلى الملك هرقل أن المسلمين قد فتحوا حمص والرستن وشيزر، وقد أخذوا الهدية التي بعثها إلى هربيس البطريق فبلغ

ذلك منه دون النفس وأقام ينتظر الجيوش والعساكر من أقصى بلاد الروم لأنه قد كان كاتب كل من يحمل الصليب فما مضى عليه إلا أيام قلائل حتى صار أول جيوشه عنده بأنطاكية وآخرها في رومية الكبرى وأنه بعث جيشًا إلى قيسارية ساحل الشام يكون حفظه على عكاء وطبرية وبعث بجيش آخر إلى بيت المقدس وأقام ينتظر قدوم ماهان الأرمني ملك الأرمن، وقد جمع من الأرمن ما لا يجمعه أحد من أهالي الملك هرقل، وبعد أيام قدم على الملك هرقل للقائه في أرباب دولته، فلما قرب منه ترجل ماهان وجنوده وكفروا بين يديه ورفعوا أصواتهم بالبكاء والنحيب مما وصل إليهم من فتح المسلمين بلادهم فنهاهم عن ذلك، وقال: يا أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية قد حذرتكم وخوفتكم من هؤلاء العرب ولم تقبلوا مني فوحق المسيح والأنجيل الصريح والقربان ومذبحنا العمدان لابد لهؤلاء العرب أن يملكوا ما تحت سريري هذا والآن البكاء لا يصلح إلا للنساء، وقد اجتمع لكم من العساكر ما لم يقدر عليه ملك من ملوك الدنيا، وقد بذلت مالي ورجالي كل ذلك لأذب عنكم وعن دينكم وعن حريمكم، فتوبوا للمسيح من ذنوبكم، وانووا للرعية خيرًا ولا تظلموا، وعليكم بالصبر في القتال، ولا يخامر بعضكم بعضًا، وإياكم

والعجب والحسد فإنهما ما نزلا بقوم إلا ونزل عليهم الخذلان! وإني أريد أن أسألكم وأريد منكم الجواب عما أسألكم عنه! فقالت العظماء من الروم والملوك: اسأل أيها الملك عما شئت.

قال: إنكم اليوم أكثر عددًا وأغزر مددًا من العرب وأكثر جمعًا وأكثر خيامًا وأعظم قوة فمن أين لكم هذا الخذلان وكانت الفرس والترك والجرامقة تهاب سطوتكم وتفزع من حربكم وشدتكم، وقد قصدوا إليكم مرارًا ورجعوا منكسرين والآن قد علا عليكم العرب وهم أضعف الخلق عراة الأجساد جياع الأكباد ولا عدد ولا سلاح، وقد غلبوكم على بصرى وحوران وأجنادين ودمشق وبعلبك وحمص؟! قال: فسكت الملوك عن جوابه، فعندها قام قسيس كبير عالم بدين النصرانية، وقال: أيها الملك أما تعلم لم نصرت العرب علينا؟! قال: لا وحق المسيح. فقال القسيس: أيها الملك لأن قومنا بدَّلوا دينهم وغيَّروا ملتهم وجحدوا بإجابة المسيح عيسى ابن مريم صلوات الله وسلامه عليه، وظلموا بعضهم، وليس فيهم عدل ولا إحسان، ولا يفعلون الطاعات،، وأكلوا الربا وارتكبوا الزنا وفشت فيهم المعاصي والفواحش! وهؤلاء العرب طائعون

لربهم متبعون دينهم وليس فيهم ظلم ولا عدوان ولا يتكبر بعضهم على بعض! وإن حملوا علينا لا يرجعون، وإن حملنا عليهم فلا يولون، وقد علموا أن الدنيا دار الفناء، وأن الآخرة هي دار البقاء!

قال الواقدي: فلما سمع الملك هرقل ما قاله القسيس، قال: وحق المسيح لقد صدقت، بهذا نصرت العرب علينا لا محالة، وإذا كان فعل قومنا ما ذكرت فلا حاجة لي في نصرتهم وإنِّي قد عوَّلت أن أصرف هذه الجيوش والعساكر إلى بلادها وآخذ أهلي ومالي وأنزل من أرض سورية وأرحل إلى أسبوك -يعني القسطنطينية- فأكون هناك آمنًا من العرب! فلما سمع القوم ذلك من الملك صفُّوا بين يديه، وقالوا: أيها الملك لا تفعل ولا تخذل دين المسيح فيطالبك بذلك يوم القيامة وتعيرك الملوك بذلك ويستضعفون رأيك وأيضًا تشمت بنا أعداؤنا إذا أنت خرجت من جنة الشام وسكن بعدنا فيها العرب، وقد اجتمع لنا مثل هذا الجيش الذي ما اجتمع لملك من ملوك الدنيا، ونحن نلقى العرب ونصبر على قتالهم ولعل المسيح أن ينصرنا عليهم فاعزم وقدِّم من شئت واتركنا ننهض إلى قتال العرب.

ففرح الملك هرقل بقولهم ونشاطهم وعوَّل على أن يبعث الجيش مع خمسة ملوك من الروم، فأول ما عقد لواء من الديباج المنسوج بالذهب الأحمر وعلى رأسه صليب من الجوهر وسلمه إلى قناطير ملك الروسية وضم إليه مائة ألف فارس من الصقالبة وغيرهم وخلع عليه وتوجه ومنطقه وسوَّره، ثم عقد لواء آخر من الديباج الأبيض فيه شمس من الذهب الأحمر وعلى رأسه صليب من الزبرجد الأخضر وسلمه إلى جرجير وهو ملك عمورية وملورية وخلع عليه وسوره ومنطقه وضم إليه مائة ألف فارس من الروم والفردانة ومن سائر الأجناس الرومية، ثم عقد لواء ثالثًا من الدستري الملون وعليه صليب من الذهب الأحمر وسلمه إلى الديرجان صاحب القسطنطينية وضم إليه مائة ألف فارس من المغليط والإفرنج والقلن وخلع عليه ومنطقه وسوَّره.

ثم عقد لواء رابعًا مرصعًا بالدر والجوهر عليه قبضة من الذهب وعليه صليب من الياقوت الأحمر وسلمه إلى ماهان ملك الأرمن وكان يحبه محبة عظيمة لأنه كان من أهل الشجاعة والتدبير، وقد قاتل عساكر الفرس والترك وهزمهم مرارًا فلما عقد له لواء خلع عليه الثياب التي كانت عليه وتوجه وسوَّره

ومنطقه وقلده بالقلائد التي لا يتقلد بها إلا الملوك الأكابر، وقال له: «يا ماهان قد وليتك على هذا الجيش كله ولا أمر على أمرك ولا حكم على حكمك». ثم قال لقناطير وجرجير والديرجان وقورين وهم ملوك الجيش: «اعلموا أن صلبانكم تحت صليب ماهان وأمركم إليه فلا تصنعوا أمرًا إلا بمشورته ورأيه واطلبوا العرب حيث كانوا ولا تفشلوا، وقاتلوا عن دينكم القديم وشرعكم المستقيم وافترقوا على أربع طرق فإنكم إن أخذتم على طريق واحدة لم تسعكم وتهلكوا الأرض ومن عليها». ثم خلع على جبلة بن الأيهم الغساني وضم إليه العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام، وقال لهم: كونوا في المقدمة، فإن هلاك كل شيء بجنسه والحديد لا يقطعه إلا الحديد، ثم أمر القسوس أن يغموسهم في ماء المعمودية ويقرءوا عليهم ويصلوا عليهم صلاة الموتى.

وحدثنا جرير بن عبد الله عن يونس بن عبد الأعلى أن جملة من بعث الملك هرقل سوى جيش أنطاكية إلى اليرموك سبعمائة ألف فارس. قال راشد بن سعيد الحميري: كنت أحضر اليرموك من أوله إلى آخره، فلما أشرفت علينا

عساكر الروم باليرموك صعدت على محل من الأرض مرتفع وأقبلت الروم بالرايات والصلبان فعددت عشرين راية. فلما استقرت الروم باليرموك بعث الأمير أبو عبيدة – رضي الله عنه – روماس صاحب بصرى ليحزر عدد القوم. فتنكر روماس وغاب عنا يومًا وليلة، ثم عاد إلينا. فلما رأيناه اجتمعنا عنده وسأل أبو عبيدة روماس عن ذلك. فقال: أيها الأمير سمعت القوم يذكرون أن عددهم ألف ألف فلا أدري أهم يتحدثون بذلك ليسمع جواسيسنا ويحدثوا بذلك أم لا؟ فقال أبو عبيدة: يا روماس كم عهدك بهم وكم يكون تحت كل راية من عساكر الروم؟ فقال أيها الأمير: أما ما عهدت في عساكر الروم فتحت كل راية خمسون ألف فارس، فلما سمع أبو عبيدة ذلك. قال: الله أكبر أبشروا بالنصر على الأعداء، ثم قرأ الآية «كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» (البقرة:٢٤٩).

قال الواقدي: ثم إن الملك هرقل لما قلد أمر جيوشه ماهان ملك الأرمن وأمره بالنهوض إلى قتال المسلمين ركب وركبت الروم وضربوا بوق الرحيل وخرج الملك هرقل ليتبع عساكره على باب فارس وسار معهم يوصيهم، وقال

لقناطير وجرجير والديرجان وقورين: ليأخذ كل رجل منكم طريقًا، وأمر كل واحد منكم نافذ على جيشه. فإذا لقيتم العرب فالأمر فيكم لماهان، ولا يد على يده، واعلموا أنه ليس بينكم وبين هؤلاء إلا هذه الوقعة، فإن غلبوكم فلا يقنعوا ببلادكم بل يطلبونكم حيث سلكتم ولا يقنعون بالمال دون النفس ويتخذون حريمكم وأولادكم عبيدًا فاصبروا على القتال وانصروا دينكم وشرعكم. ثم وجه قناطير بجيشه على طريق جبلة واللاذقية، وبعث جرجير على طريق الجادة العظمى وهي أرض العراق وسومين، وبعث قورين على طريق حلب وحماة، وبعث الديرجان على أرض العواصم وسار ماهان في أثر القوم بجيوشه والرجال أمامه ينحتون له الأرض ويزيلون من طريقهم الحجارة، وكانوا لا يمرون على بلد ولا مدينة إلا أضروا بأهلها ويطالبونهم بالعلوفة والإقامات ولا قدرة لهم بذلك فيدعون عليهم ويقولون لا ردكم الله سالمين. وجبلة بن الأيهم في مقدمة ماهان ومعه العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام.

قال الواقدي: حدثني من أثق به أن الطاغية هرقل لما بعث جيوشه إلى قتال المسلمين، كان للأمير أبي عبيدة في جيوش الروم عيون وجواسيس من

المعاهدين يتعرفون له الأخبار، فلما وصل جيش الروم إلى شيزر فارقتهم عيون أبي عبيدة وساروا طالبين عسكر المسلمين فلم يجدوهم على حمص فسألوهم عنهم فأخبروهم أنهم رحلوا لأن الأمير أبا عبيدة - رضي الله عنه - لما فتح حمص ترك عندهم من يأخذ الخراج والذي تركه عندهم من كبرائهم ورؤسائهم، وجعل الجواسيس يسيرون حتى وصلوا إلى الجابية وحضروا بين يدي الأمير أبي عبيدة - رضي الله عنه - وأخبروه بما رأوه من عظم الجيوش والعساكر، فلما سمع أبو عبيدة ذلك عظم عليه وكبر لديه، وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وبات قلقًا لم تغمض له عين خوفًا على المسلمين، فلما طلع الفجر أذن فصلى بالمسلمين.

فلما فرغ من صلاته أقسم على المسلمين أن لا يبرحوا حتى يسمعوا ما يقول، ثم قام فيهم خطيبًا وحمد الله تعالى وأثنى عليه وذكر النبي - صلى الله عليه وسلم -، وترحم على أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - ودعا للمسلمين بالنصر، وقال: يا معاشر المسلمين اعلموا رحمكم الله أن الله ابتلاكم ببلاء حسن لينظر كيف تعملون وذلك عندما صدقكم الوعد وأيدكم بالنصر في

مواطن كثيرة، واعلموا أن عيوني أخبروني أن عدو الله هرقل استنجد علينا من كبار بلاد الشرك، وقد سيرهم إليكم وأثقلهم بالزاد والسلاح يُرِيدُونَ «أَن يُطْفِؤُوا نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» (التوبة:٣٢)، واعلموا أنهم قد ساروا إليكم في طرق مختلفة ووعدهم طاغيتهم أن يجتمعوا بإزائكم على قتالكم، واعلموا أن الله معكم وليس بكثير من يخذله الله تعالى وليس بقليل من يكون الله تعالى معه فما عندكم من الرأي رحمكم الله تعالى؟ ثم قال لبعض عيونه: قم وأخبر المسلمين بما رأيت فقام الرجل وأخبر الناس بما رأى من الجيوش الثقيلة وعددها وعديدها، فعظم ذلك على المسلمين وداخل قلوب رجال منهم الهيبة والجزع، وجعل بعضهم ينظر إلى بعض ولم يرد أحد منهم جوابًا، فقال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: ما هذا السكوت عن جوابي رحمكم الله فأشيروا عليَّ برأيكم! فإنَّ الله - عز وجل - يقول لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم -: «.. وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» (آل عمران:١٥٩). فتكلم رجل من أهل السبق وقال: أيها الأمير أنت رجل لك رفعة ومكان وقد نزلت فيك آية من القرآن، وأنت الذي جعلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمين هذه الأمة

فقال – عليه السلام –: «لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح»، أشر أنت علينا بما يكون فيه الصلاح للمسلمين. فقال الأمين أبو عبيدة – رضي الله عنه –: إنما أنا رجل منكم تقولون وأقول وتشيرون وأشير والله الموفق في ذلك. فقام إليه رجل من أهل اليمن، وقال: أيها الأمير الذي نشير به عليك أن تسير من مكانك وتنزل في فرجة من وادي القرى، فيكون المسلمون قريبًا من المدينة والنجدة تصل إلينا من الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وإذا طلب القوم أثرنا وأقبلوا إلينا كنا عليهم ظاهرين. فقال الأمير أبو عبيدة – رضي الله عنه –: اجلسوا رحمكم الله فقد أشرتم بما عندكم من الرأي وإني إن برحت من موضعي هذا كره لي عمر بن الخطاب ذلك وأخذ يعنفني ويقول تركت مدائن فتحها الله على يديك ونزحت عنها، وكان ذلك هزيمة منك، ثم قال: أشيروا علي برأيكم رحمكم الله تعالى.

فقام إليه قيس بن هبيرة المرادي وقال: يا أمير المؤمنين لا ردنا الله إلى أهلنا سالمين إن خرجنا من الشام، وكيف ندع هذه الأنهار المتفجرة والزروع والأعناب والذهب والفضة والديباج ونرجع إلى قحط الحجاز وجدبه وأكل

خبز الشعير ولباس الصوف ونحن في مثل هذا العيش الرغد؟! فإن قتلنا فالجنة وعدنا ونكون في نعيم لا يشبه نعيم الدنيا. فقال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: صدق والله قيس بن هبيرة وبالحق نطق، ثم قال: يا معاشر المسلمين أترجعون إلى بلاد الحجاز والمدينة وتدعون لهؤلاء الأعلاج قصورًا وحصونًا وبساتين وأنهارًا وطعامًا وشرابًا وذهبًا وفضة مع ما لكم عند الله - عز وجل - في دار البقاء من حسن الطعام؟! ولقد صدق قيس بن هبيرة في قوله لنا ولسنا ببارحين منزلنا هذا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. قال فوثب قيس بن هبيرة وقال: صدَّق الله قولك أيها الأمير وأعانك على ولايتك ولا تبرح من مكانك وتوكل على الله وقاتل أعداء الله، فإن فاتنا فتح عاجل فما يفوتنا ثواب آجل.

فقال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: شكر الله فضلك وغفر لنا ولك والرأي رأيك وتتابع قول المسلمين بحسن رأيه إلا خالد بن الوليد - رضي الله عنه - فإنه ساكت لا يقول شيئًا. فقال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: يا أبا سليمان أنت الرجل الجريء والفارس الشهم ومعك رأي وعزم فما تقول فيما قال قيس بن هبيرة؟ فقال خالد - رضي الله عنه -: نعم ما أشار به قيس إلا أن الرأي عندي

غير رأيه ولكن لا أخالف المسلمين، فقال: إن كان عندك رأي فيه صلاح فائت به وكلنا لرأيك تبع، فقال خالد: - رضي الله عنه - اعلم أيها الأمير أنك إن أقمت في مكانك هذا فإنك تعين على نفسك، لأن هذه الجابية قريبة من قيسارية وفيها قسطنطين ابن الملك هرقل في أربعين ألف فارس وأهل الأردن قد اجتمعوا إليه خوفًا منكم، والذي أشير به عليكم أن ترحلوا من منزلكم هذا وتجعلوا أذرعات خلف ظهوركم حتى ينزلوا اليرموك، ويكون الملأ من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قريبًا منكم متلاحقًا بكم وأنتم على فتح لقتال عدوكم وهي أرض واسعة لمجال الخيل. قال: فلما نطق خالد بن الوليد بهذا الكلام قال المسلمون: نعم ما أشار به خالد! وقال أبو سفيان بن حرب: أيها الأمير افعل برأي خالد - رضي الله عنه - وابعثه إلى ما يلي الرمادة فيكون بين عساكرنا وعساكر الروم المقيمة بالأردن لئلا ندهى منهم عند رحيلنا؛ فإنه سيكون لرحيلنا ورحيل عسكرنا بين هذه الأشجار ضجة عظيمة وجلبة هائلة فيداخل عدوكم فيكم الطمع فإن أقبلوا يريدون غارة ومكيدة لقيهم خالد بن الوليد - رضي الله عنه - بمن معه. فقال خالد بن الوليد: والله يا ابن حرب لقد نطقت عن ضميري وهكذا الرأي عندي.

فعند ذلك أمر أبو عبيدة - رضي الله عنه - الناس بالرحيل من الجابية فرحلوا ودعا أبو عبيدة بجيش الزحف الذي أقبل به خالد من أرض العراق وهو يومئذ أربعة آلاف فارس، وأمر خالدًا - رضي الله عنه - أن يسير بهم ويكون على طلائع المسلمين وحرسهم من وراء ظهورهم. ووقعت الضجة للمسلمين عند رحيلهم حتى سمع ضجيجهم من مسيرة فرسخين وطلبوا اليرموك وسمعت الروم المجتمعة بالأردن ضجة المسلمين عند رحيلهم فظنوا أنهم هاربون إلى الحجاز لما بلغهم من جيش هرقل فطمعوا فيهم وهموا بالغارة على أطرافهم فلقيهم خالد - رضي الله عنه - فصاح في رجاله وقال: دونكم والقوم فهذه علامة النصر! فانتضى المسلمون السيوف ومدوا الرماح وحمل خالد وضرار بن الأزور والمرقال وطلحة بن نوفل العامري - رضي الله عنهم - وغير هؤلاء من الفرسان المعدودين! والمسلمون يقتلون ويأسرون، فلم يكن للروم طاقة بهم فولَّوا منهزمين حتى وصلوا إلى الأردن فغرق منهم خلق كثير، ورجع خالد - رضي الله عنه -.

وأما الأمير أبو عبيدة فإنه نزل باليرموك وجعل أذرعات من خلفه وكان هناك تل عظيم فعمد أبو عبيدة - رضي الله عنه - إلى نساء المسلمين وأولادهم فأصعدهم على ذلك الجبل وأقام الحراس والطلائع على سائر الطرقات، فلما وصل خالد - رضي الله عنه - بالأسارى والغنائم فرح أبو عبيدة - رضي الله عنه - فرحًا شديدًا، وقال: أبشروا رحمكم الله تعالى هذه علامة النصر والظفر! وأقام المسلمون باليرموك وهم مستعدون لقتال عدوهم كأنهم ينتظرون وعدًا وعدوا به. وبلغ الخبر إلى قسطنطين ابن الملك هرقل بأن المسلمين قد نزلوا باليرموك، وأن ملوك الروم سائرون لقتالهم فبعث رسولًا إلى الملوك يستضعف رأيهم في إبطاء أمرهم ويحثهم على قتال المسلمين.

فلما ورد رسوله إلى ماهان دعا بالملوك والبطارقة وقرأ عليهم كتاب قسطنطين ابن الملك هرقل وأمرهم بالمسير، فسارت جيوش الروم يتلو بعضها بعضًا لا يمرون ببلد من مدائن الشام التي فتحها المسلمون إلا ويعنفون أهلها ويقولون لهم: يا ويلكم تركتم أهل دينكم وملتكم وملتم إلى العرب. فيقولون لهم: أنتم أحق بالملامة منَّا لأنكم هربتم منهم وتركتمونا للبلاء فصالحنا عن

أنفسنا! فيعرفون الحق فيسكتون ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى اليرموك فنزلوا بدير يقال له دير الجبل وهو بالقرب من الرمادة والجولان وجعلوا بينهم وبين عسكر المسلمين ثلاثة فراسخ طولًا وعرضًا، فلما تكاملت الجيوش باليرموك أشرفت سوابق الخيل على أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان جبلة بن الأيهم في المقدمة في ستين ألف فارس من العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام وهم على مقدمة ماهان، فلما نظر أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى كثرة جيوش الروم قالوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال عطية بن عامر: فوالله ما شبهت عساكر اليرموك إلا كالجراد المنتشر إذا سد بكثرته الوادي. ونظرت إلى المسلمين قد ظهر منهم القلق وهم لا يفترون عن قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأبو عبيدة - رضي الله عنه - يقول: «... رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» (البقرة:٢٥٠)، وأخذ المسلمون أهبتهم ودعا الأمير أبو عبيدة بجواسيسه من المعاهدين وأمرهم أن يدخلوا عساكر الروم يجسون له خبر القوم وعددهم

وعديدهم وسلاحهم، وقال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: أنا أرجو من الله تعالى أن يجعلهم غنيمة لنا. فلما نزل ماهان بعساكره بإزاء المسلمين على نهر اليرموك أقام أيامًا لا يقاتل ولا يثير حربًا.

جبلة بن الأيهم

قال الواقدي: وكان تأخير ماهان لأمر، وذلك أن رسولًا ورد عليه من الملك هرقل يقول له: لا تنجز الحرب بينك وبين المسلمين حتى نبعث إليهم رسولًا ونعدهم منَّا كل سنة بمال كثير وهدايا لصاحبهم عمر بن الخطاب ولكل أمير منهم، ويكون لهم من الجابية إلى الحجاز، فلما وصل الرسول إلى ماهان قال: هيهات هيهات إن كانوا يجيبون إلى ذلك أبدًا! فقال له جرجير وهو أحد ملوك الجيش: وما عليك في هذا الذي ذكره الملك هرقل من المشقة؟!

فقال ماهان: اخرج أنت إليهم وادع منهم رجلًا عاقلًا وخاطبه بالذي سمعت واجتهد في ذلك. فلبس جرجير ثياب الديباج وتعصب بعصابة من الجوهر وركب شهباء عالية بسرج من الذهب الأحمر المرصع بالدر والجوهر وخرج معه ألف فارس من المدبجة، وسار حتى أشرف على عساكر المسلمين،

وأوقف جرجير أصحابه وقرب من المسلمين ووقف بإزائهم وقال: يا معاشر العرب أنا رسول من الملك ماهان فليخرج إليَّ أميركم والمقدم عليكم حتى نعرض عليه مقالنا ولعلنا نصطلح ولا نسفك دم بعضنا. فسمعه المسلمون فأعلموا الأمير أبا عبيدة - رضي الله عنه - بذلك فخرج بنفسه إليه وعليه ثوب من كرابيس العراق وعلى رأسه عمامة سوداء وهو متقلد بسيفه وسار إلى أن وصل إلى جرجير ورفس فرسه حين التقت عنق فرسيهما والناس ينظرون إليهما.

فقال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: يا أخا الكفر قل ما أنت قائل واسأل عما تريد. فقال جرجير: يا معاشر العرب لا يغرنَّكم أن تقولوا هزمنا عساكر الروم في مواطن كثيرة وفتحنا بلادهم وعلونا أكثر أرضهم، فانظروا الآن ما قد أتاكم من العساكر فإن معنا من سائر الأجناس المختلفة، وقد تحالف الروم أن لا يفروا ولا ينهزموا وأن يموتوا عن آخرهم، وليس لكم على ما ترون من طاقة فانصرفوا إلى بلادكم وقد نلتم ما نلتم من بلاد الملك هرقل، وقد عوَّل الملك أن يتعود الإحسان إليكم وهو يهب لكم ما أخذتم من بلادهم منذ ثلاث سنين!

وقد أخذتم السلاح والذهب والفضة. وقد كنتم حين قدمتم الشام منكم على رجله ومنكم عريان فأجيبوا إلى ما دعوتكم إليه وإلا كنتم من الهالكين.

فقال الأمير أبو عبيدة: أما ما ذكرت من عساكر الروم وأنهم لا يفرون ولا ينهزمون، فلو رأت الروم شفار سيوفنا هربت ناكصة على أعقابها، وأما تهويلك لنا بكثرة عددكم فقد رأيت قلتنا وضعف أجسامنا، وكيف لقينا جموعكم وكثرتها وعظم عددها وسلاحها وأحب الأشياء إلينا يوم مشاجرتكم بالحرب والقتال حتى يعرف من الذي يثبت للحرب؟ فلما سمع جرجير كلام الأمير أبو عبيدة التفت إلى رجل من أصحابه يقال له بهيل. فقال يا بهيل: الملك هرقل كأنه أعرف بهؤلاء العرب منا، ثم لوى رأس جواده ورجع إلى ماهان وأخبره بما قال أبو عبيدة... فقال له ماهان: دعوتهم إلى الموعد. فقال: لا وحق المسيح إني لم أفاتحه في شيء من ذلك لكن ابعث لهم بعض العرب المتنصرة، فإن العرب يميل بعضهم إلى بعض. فعندها دعا ماهان بجبلة بن الأيهم الغساني. وقال: يا جبلة اخرج إلى هؤلاء وخوفهم من كثرتنا وتواتر عددنا وألق في قلوبهم الرعب وأحط بهم مكرك. فخرج جبلة بن الأيهم وسار حتى قرب من عساكر المسلمين

ونادى برفيع صوته: يا معاشر العرب ليخرج إليَّ رجل من ولد عمرو بن عامر لأخاطبه بما أرسلت به. فلما سمع الأمير أبو عبيدة - رضي الله عنه - كلام جبلة بن الأيهم قال: قد بعث إليكم القوم بأبناء جنسكم يريدون الخديعة بصلة الرحم والقرابة فابعثوا إليه رجلًا من الأنصار من ولد عمرو بن عامر.

فأسرع بالخروج إليه عبادة بن الصامت الخزرجي - رضي الله عنه - وقال لأبي عبيدة: أيها الأمير أنا أخرج إليه وأنظر ماذا يقول فأجيب عنه. ثم خرج عبادة نحوه بجواده إلى أن وقف أمام جبلة بن الأيهم فنظر جبلة إلى رجل أسمر طويل شديد السمرة كأنه من رجال شنوءة فهابه ودخل الرعب في قلبه من عظم خلقته! وكان عبادة بن الصامت من الخُطَّاط - رضي الله عنه -. فقال له جبلة: يا فتى من أي الناس أنت؟ فقال عبادة: أنا من ولد عمرو بن عامر. فقال جبلة: حييت فمن أنت؟ فقال: عبادة بن الصامت صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فاسأل عما تريد. فقال جبلة: يا ابن العم إنما خرجت إليكم لأني أعلم أن أكثركم من الرحم والقرابة فخرجت إليكم ناصحًا ومشيرًا، واعلم أن هؤلاء القوم الذين قد نزلوا بازائكم معهم جنود لا قبل لكم بها وخلفهم عساكر

وحصون وقلاع وأموال ولا تقولوا كسرنا وهزمنا عساكر الروم، واعلم أن الحرب دول وسجال، وإن هزمكم هؤلاء القوم لا يكون لكم ملجأ غير الموت، وهؤلاء القوم إن انهزموا يرجعون إلى بلادهم وعساكرهم والخزائن والحصون، وما قد نلتم نيلًا فخذوه وامضوا إلى بلادكم سالمين.

قال عبادة بن الصامت: يا جبلة أما علمت ما لقينا من جموعكم المتقدمة بأجنادين وغيرها وكيف نصرنا الله عليكم وهرب طاغيتكم ونحن نعلم من بقي من جموعكم قد تيسر علينا أمره ونحن لا نخاف ممن يقدم علينا من جموعكم وقد ولغنا في الدماء فلم نجد أحلى من دماء الروم، وأنا يا جبلة أدعوك إلى دين الإسلام وأن تدخل مع قومك في ديننا وتكون على شرفك في الدنيا والآخرة ولا تكون تابع علج من علوج الروم تفديه بنفسك من المهالك وأنت رجل من سادات العرب وملوكهم! وإن ديننا ظهر أوله وآخره يظهر كما ظهر أوله فاتبع سبيل من أناب إلى الحق وصدق به، فقل: لا إله إلا الله محمد رسول الله اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه وسلم. فغضب جبلة بن الأيهم من كلام عبادة بن الصامت، وقال: لست مفارقًا ديني. فقال عبادة بن الصامت: فإن أبيت إلا ما

أنت عليه من الكفر فإياك أن تلقاني في الموعد الأول فإن لنا وقعة عظيمة، فإن أخذتك شفار سيوفنا فلا تخلص من شفارها ودعنا وعساكر الروم فهم أهون علينا فإن أبيت إلا ما أنت عليه حل بك مثل ما حل بهم! فغضب جبلة بن الأيهم وقال: لماذا تخوِّفني من سيوفكم؟ أما نحن عرب مثلكم رجل لرجل؟! فقال عبادة بن الصامت: قد علمنا أنك إنما خرجت إلينا مخادعًا ومعينًا ولسنا مثلكم! يا ويلكم نحن على قلتنا نوحِّد ربنا - عز وجل - ونتبع سنة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وإن وراءنا عسكرًا يعلو الأقطار ويسد القفار.

فقال جبلة: لست أعرف وراءكم جيشًا غير هذا الجيش ولا من ينصركم غيرهم؟ فقال عبادة بن الصامت: كذبت والله يا ابن الأيهم في قولك وإن وراءنا رجالًا أنجادًا وأبطالًا شدادًا يرون الموت مغنمًا والحياة مغرمًا كل واحد بنفسه يلقي جيشًا حافلًا! يا ويلك أنسيت عليًا وسطوته، وعمر وشدته، وعثمان وبراعته، والعباس وطلعته، والزبير - رضي الله عنهم - مع ما يجتمع إليهم من فرسان المسلمين من مكة والطائف واليمن وغير ذلك؟! قال: فلما سمع جبلة ذلك من كلام عبادة بن الصامت قال: يا ابن العم أنا ما خرجت إلا أريد النصيحة

لكم فإن أبيتم ذلك فاسأل قومك يجيبونا إلى الصلح. فقال عبادة بن الصامت: لا صلح بيننا إلا بأداء الجزية أو الإسلام أو السيف وهو حكم بيننا وبينكم، والله لولا أن الغدر يقبح بنا لعلوتك بسيفي هذا! فلما سمع جبلة كلام عبادة وإنه قد حاف عليه في الكلام لم يرد عليه جوابًا... غير أنه ثنى رأس جواده وأتى إلى ماهان فزعًا مرعوبًا وقد امتلأ قلبه رعبًا من كلام عبادة بن الصامت، فلما وقف بين يدي ماهان تبين في وجهه الجزع والفزع. فقال لجبلة: ما وراءك؟ فقال: أيها الملك إني خوفت وأرعبت ومنيت فكان ذلك كله عندهم بالسواء وقالوا: ما بيننا إلا الحرب والقتال. فقال له ماهان: فما هذا الفزع الذي أراه في وجهك وهم عرب مثلكم وأنتم عرب مثلهم وقد بلغني أنهم ثلاثون ألف فارس، وأنتم ستون ألف فارس أما يقاتل الرجلان منكم الرجل الواحد منهم؟! دونك يا جبلة فسر أنت وأبناء عمك من العرب المتنصرة إلى قتالهم وأنا وراءكم، فإن ظفرتم بهم كان الملك مشتركًا بيننا وبينكم وتكون أقرب الناس إلينا ويسلم إليكم ما فتحه العرب من بلاد الشام.

قال الواقدي: وجعل ماهان يرغِّب جبلة في العطاء ويلينه ويحرضه على قتال المسلمين حتى أجابه إلى ذلك، وأخبر قومه وبني عمه من بني غسان ولخم وجذام وغيرهم من العرب المتنصرة وأمرهم بأخذ الأهبة للحرب والقتال ففعل القوم ذلك وركبوا في سابغ الحديد وهم ستون ألف فارس ما يخالطهم من غير العرب أحد يقدمهم جبلة بن الأيهم وعليه درع من الذهب الأحمر متقلد بسيف من عمل التبابعة وعلى رأسه الراية التي عقدها له الملك هرقل، فسار جبلة نحو الصحابة في جيشه حتى أشرف على عساكر المسلمين وأبو عبيدة يتحدث مع عبادة بن الصامت بما جرى بينه وبين جبلة بن الأيهم إذ أشرفت عليهم العرب المتنصرة. فلما رآهم المسلمون صاح بعضهم على بعض: يا معاشر المسلمين قد أقبلت عليكم العرب المتنصرة لقتالكم فما أنتم قائلون؟ قالوا: نقاتلهم ونرجو من الله تعالى الظهور والمعونة عليهم وعلى غيرهم، وهمُّوا بالحملة فصاح فيهم خالد بن الوليد - رضي الله عنه - وقال: اصبروا رحمكم الله ولا تعجلوا حتى أكيدهم بمكيدة يهلكون بها! وقال لأبي عبيدة - رضي الله عنه -: أيها الأمير إن القوم قد استعانوا علينا بالعرب المتنصرة وهم أضعاف عددنا وإن نحن نقاتلهم بجمعنا كله كان ذلك وهنًا منا

وضعفًا، وأريد أن أبعث لهم رسولًا من بني عمهم يكلمهم في شأن ردهم عنَّا فإن فعلوا كان ذلك كسرًا لهم وللمشركين ووهنًا عظيمًا، وإن أبوا إلا الحرب والقتال خرج منَّا نفر يسير يردونهم على أعقابهم بعزة الله – عز وجل –. قال: فتعجب أبو عبيدة – رضي الله عنه – وقال: يا أبا سليمان افعل ما تريد. فعند ذلك دعا خالد بن الوليد بقيس بن سعد وعبادة بن الصامت الخزرجي وجابر بن عبد الله وأبي أيوب (خالد بن يزيد) – رضي الله عنهم – أجمعين، فلما وقفوا بين يديه قال لهم: يا أنصار الله تعالى ورسوله – صلى الله عليه وسلم – هؤلاء العرب المتنصرة يريدون قتالكم وهم غسان ولخم وجذام وهم بنو عمكم في النسب فاخرجوا إليهم وخاطبوهم واجتهدوا في ردهم عن حربكم وقتالكم فإن فعلوا ذلك وإلا أخذهم السيف منا ومنكم وكنا لقتالهم كفؤًا.

قال الواقدي: فخرج أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى العرب المتنصرة فوجدوا جبلة بن الأيهم قد نزل بإزاء المسلمين يريد حربهم وقتالهم. فلما قربوا من بني غسان نادى جابر بن عبد الله وقال: يا معاشر العرب من لخم وغسان وجذام إننا بنو عمكم ونريد الدنو إليكم. فأذن لهم جبلة بالدنو

إليه فدخلوا عليه. فإذا هو في مضرب من الديباج، وقد فرش بالحرير الأصفر وهو جالس وحوله ملوكه وملوك جفنة فحيوه بتحية ملوك العرب فرفع جبلة أقدارهم وأدنى مزارهم وقال: يا بنى العم أنتم من الرحم من القرابة! وأني خرجت إليكم من جهة هذا الجيش الذي يرهقكم فخرج إليَّ رجل منكم فأفرط علي في المقال فما الذي أتى بكم إليَّ؟

فكان أول من كلمه جابر بن عبد الله وقال: يا ابن العم لا تؤاخذنا فيما تكلم به صاحبنا فإن ديننا لا يقوم إلا بالحق والنصيحة وإن النصيحة لك منا واجبة لأنك ذو قرابة ورحم، وقد أتينا إليك ندعوك إلى دين الإسلام وتكون من أهل ملتنا، ويكون لك ما لنا وعليك ما علينا فإن ديننا شريف ونبينا شريف فقال: ما أحب ذلك ولا غيره إنني ضنين بديني وأنتم يا معاشر الأوس والخزرج رضيتم لأنفسكم أمرًا ونحن رضينا لأنفسنا أمرًا لكم دينكم ولنا ديننا. فقال له الأنصاري: إن كنت لا تحب أن تفارق دينك الذي أنت عليه فاعتزل عن قتالنا لتنظر لمن تكون العاقبة والغلبة فإن كانت لنا وأردت الدخول في ديننا قبلناك

وكنت منا وأخانا، وإن أقمت على دينك قنعنا منك بالجزية وأقررناك على بلدك وعلى مواطن كثيرة لآبائك وأجدادك.

فقال جبلة: أخشى إن تركت حربكم وقتالكم وكانت الدائرة للقوم لا آمن أن يتقووا على بلدي، لأن الروم لا ترضى مني إلا أن أكون مقاتلًا لكم وقد رأسوني على جميع العرب وأنا لو دخلت دينكم كنت دنيئًا ولا أتبع، فقال الأنصاري: فإن أبيت ما عرضناه عليك فإن ظفرنا بك قتلناك فاعتزل عنا وعن سيوفنا فإنها تفلق الهام وتبري العظام فتكون الوقعة بغيرك أحب إلينا من الوقعة بك وبمن معك قال: وكانت الأنصار يريدون بهذا الكلام تخويفه وترغيبه كي ينصرف عنهم وجبلة يأبى ذلك. فقال: وحق المسيح والصليب لابد أن أقاتل عن الروم ولو كان لجميع الأهل والقرابة. فقال له قيس بن سعد: يا جبلة أبيت إلا أن يحتوي الشيطان على قلبك فيهوي بك في النار فتكون من الهالكين، وإنما أتينا لندعوك إلى دين الإسلام لأن رحمك متصلة برحمنا فإن أبيت فستعاين منا حربًا شديدًا يشيب فيه الطفل الصغير! ثم وثب قيس بن سعد وقال لقومه: انهضوا على بركة الله تعالى وعونه وحسن طاعته فبعدًا له وسحقًا! فقام جبلة

فاستعد للقتال بعدته. قال: فركب الأنصار خيولهم ورجعوا إلى الأمير أبي عبيدة وخالد بن الوليد رضي الله عنهما وأعلموهما بمقالة جبلة وأنه ما يريد إلا القتال.

فقال خالد - رضي الله عنه -: أبعده الله تعالى، فوالله لينظرن منَّا جبلة ما ينظر. ثم قال - رضي الله عنه -: اعلموا معاشر المسلمين أن القوم في ستين ألف فارس من العرب المتنصرة وهم حزب الشيطان، ونحن ثلاثون ألف فارس من حزب الرحمن، ونريد أن نلقى هذا الجمع الكبير! فإن قاتلنا جبلة بجمعنا كله كان ذلك وهنًا منَّا، ولكن ينتدب منَّا أبطال ورجال إلى قتال هؤلاء العرب المتنصرة. فقال أبو سفيان صخر بن حرب: لله درك يا أبا سليمان، فلقد أصبت الرأي فاصنع ما تريد وخذ من الجيش ما أحببت. فقال: إني قد رأيت من الرأي أن نندب من جيشنا ثلاثين فارسًا فيلقى كل واحد ألفي فارس من العرب المتنصرة! فلم يبق أحد من المسلمين إلا عجب من مقالة خالد - رضي الله عنه - وظنُّوا أنه يمزح بمقالته، وكان أول من خاطبه في ذلك أبو سفيان وقال: يا ابن الوليد هذا كلام منك جد أو هزل؟! فقال خالد - رضي الله عنه -: لا والله ما

قلت إلا جدًا. فقال أبو سفيان: فتكون مخالفًا لأمر الله تعالى ظالمًا لنفسك! وما أظن أن لك في هذه المقالة مساعدًا، ولو قاتل الرجل منَّا مائتين كان ذلك أسهل من قولك يقاتل الرجل منَّا ألفين، وإن الله - عز وجل - رحيم بعباده فرض علينا أن الرجل منَّا يقاتل الرجلين والمائة المائتين والألف الألفين، وإنك تريد أن تقود ثلاثين رجلًا منَّا تلقى الستين ألف فارس! فما يجيبك أحد إلى ذلك وإن أجابك رجل لما قلته فإنه ظالم لنفسه معين على قتلها!

فقال خالد - رضي الله عنه -: يا أبا سفيان كنت شجاعًا في الجاهلية فلا تكن جبانًا في الإسلام وانظر لمن أنتخب من رجال المسلمين، وأبطال الموحِّدين! فإنك إذا رأيتهم علمت أنهم رجال قد وهبوا أنفسهم لله - عز وجل - وما يريدون بقتالهم غير الله تعالى، ومن علم الله - عز وجل - ذلك من ضميره كان حقًا على الله أن ينصره ولو سلك مفظعات النيران. فقال أبو سفيان: يا أبا سليمان الأمر كما ذكرت وما أردت بقولي إلا شفقة على المسلمين فإذا قد صح عزمك على ذلك فاجعل القوم ستين رجلًا ليقاتل الرجل منهم ألف فارس من العرب المتنصرة.

فقال الأمير أبو عبيدة – رضي الله عنه –: نعم ما أشار به أبو سفيان يا أبا سليمان! فقال خالد – رضي الله عنه –: والله يا أيها الأمير ما أردت بفعلي هذا إلا مكيدة لعدونا لأنهم إذا رجعوا إلى أصحابهم منهزمين بقوة الله – عز وجل – ويقولون لهم من لقيكم فيقولون لقينا ثلاثين رجلًا يداخلهم الرعب منَّا ويعلم ماهان أن جيشنا كفء له. فقال أبو عبيدة – رضي الله عنه –: إن الأمر كما ذكرت إلا أنه إذا كان ستون رجلًا منا يكونون عصبة ومعينًا بعضهم بعضًا. فقال خالد – رضي الله عنه –: أنا أنتدب من المسلمين رجالًا أعرف صبرهم وقرارهم وإقدامهم في الحرب وأعرض عليهم هذه المقالة فإن أحبوا لقاء الله ورغبوا في ثواب الله – عز وجل – فإنهم يستجيبون إلى ذلك وإن أحبوا الحياة الدنيا والبقاء فيها ولم يكن فيهم من تطيب نفسه للموت فما بخالد إلا أن يبذل مهجته لله – عز وجل – والله الموفق لما يحبه ويرضاه.

حدثنا عمرو بن سالم عن جده برعي بن عدي قال: كنت بين يدي خالد بن الوليد – رضي الله عنه – فدعا بستين رجلًا من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأول ما دعا خالد قال: أين عمرو التميمي؟ أين شرحبيل بن حسنة

كاتب وحي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟ أين خالد بن سعيد بن العاص؟ أين يزيد بن أبي سفيان الأموي؟ أين صفوان بن أمية الجمحي؟ أين سهل بن عمرو العامري؟ أين ضرار بن الأزور الكندي؟ أين رافع بن عميرة الطائي؟ أين........ ؟ أين الصابرون يوم أحد، وقد ذكرهم الله تعالى في كتابه الآنَ «فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ..» (الأنفال:٦٦) قال الواقدي: وقد سمى خالد - رضي الله عنه - الرجال الذين دعاهم لقتال جبلة بن الأيهم، إلا أنِّي اختصرت في ذكرهم وقدمت ذكر الأنصار - رضي الله عنهم - لأن خالدًا - رضي الله عنه - انتخب أكثر الرجال من الأنصار. فلما كثر النداء فيهم قالت الأنصار: إن خالدًا اليوم يقدم ذكر الأنصار ويؤخر المهاجرين من ولد المغيرة بن قصي، ويوشك أنه يختبرهم أو يقدمهم للمهالك، ويشفق على ولد المغيرة! فلما سمع خالد - رضي الله عنه - ذلك من قولهم، أقبل يخطو بجواده حتى توسط جميع الأنصار؟ وقال لهم:

والله يا أولاد عامر ما دعوتكم إلا لما ارتضيته منكم وحسن يقيني بكم وبإيمانكم فأنتم ممن رسخ الإيمان في قلبه، فقالوا: إنك صادق في قولك يا أبا سليمان، ثم صافحه القوم.

قال الواقدي: فلما انتخب خالد من فرسان المسلمين ستين رجلًا كل واحد منهم يلقى جيشًا بنفسه قال لهم: يا أنصار الله ما تقولون في الحملة معي على هذا الجيش الذي قد أتى يريد حربكم وقتالكم، فإن كان لكم صبر وأيدكم الله بنصره مع صبركم وهزمتم هؤلاء العرب المتنصرة، فاعلموا أنكم لجيش الروم غالبون، فإذا هزمتم هؤلاء العرب وقع الرعب في قلوبهم فينقلبون خاسرين. فقالوا: يا أبا سليمان افعل بنا ما تريد والق ما تشاء فوالله لنقاتلن أعداءنا قتال من ينصر دين الله ونتوكل على الله تعالى وقوته ونبذل في طلب الآخرة مهجنا. فجزاهم خالد – رضي الله عنه – خيرًا، وكذلك الأمير أبو عبيدة – رضي الله عنه –، وقال لهم: تأهبوا رحمكم الله وخذوا أسلحتكم وعدتكم وليكن قتالكم بالسيف ولا يأخذ أحد منكم رمحًا فإن الرمح خوان ربما زاغ عن الطعن ولا تأخذوا السهام فإنها منايا منها المخطئ ومنها المصيب، والسيف والحجف

عليهما تدور دوائر الحرب واركبوا خيولكم السبق النواجي ولا يركب الرجل منكم إلا جواده الذي يصبر به، وتواعدوا أن الملتقى عند حوض المصطفى - صلى الله عليه وسلم -.

فقدموا على أهاليهم وودعوهم. فأما ضرار بن الأزور فإنه عمد إلى خيمته ليستعد بما يريد، ويسلم على أخته خولة بنت الأزور رضي الله عنها. فلما لبس لأمة حربه قالت له أخته خولة: يا أخي ما لي أراك تودعني وداع من أيقن بالفراق أخبرني ماذا عزمت عليه. فأخبرها ضرار بما قد عزم عليه وأنه يريد أن يلقى العدو مع خالد بن الوليد - رضي الله عنه - فبكت خولة وقالت: يا أخي افعل ما تريد أن تفعل والق عدوكم وأنت موقن بالله تبارك وتعالى، فإنه لكم ناصر وإن عدوك لا يقرب إليك أجلًا بعيدًا ولا يبعد عنك أجلًا قريبًا فإن حدث عليك حدث أو لحقك من عدوك نائبة فوالله العظيم شأنه لا هدأت خولة على الأرض أو تأخذ بثأرك فبكى ضرار بن الأزور لبكائها وأعد آلة الحرب وكذلك الستون من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يناموا طول ليلتهم، حتى ودعوا أولادهم وأهاليهم وباتوا في بكاء وتضرع وهم يسألون الله تعالى النصر

على الأعداء إلى أن أصبح الصباح فصلى بهم الأمير أبو عبيدة - رضي الله عنه - صلاة الفجر، فلما فرغ من صلاته كان أول من أسرع إلى الخروج خالد بن الوليد - رضي الله عنه - وحرض أصحابه على الخروج وهو ينشد ويقول:

هبوا جميع إخوتي أرواحا ... نحو العدو نبتغي الكفاحا
نرجو بذاك الفوز والنجاحا ... إذا بذلنا دونه أرواحا
ويرزق الله لنا صلاحا ... في نصرنا الغدو والرواحا

وخرج أمام المسلمين وأصحابه يقدمون إليه واحدًا بعد واحد حتى اجتمع إليه الستون رجلًا وكان آخر من أقبل عليه الزبير بن العوام - رضي الله عنه - ومعه زوجته أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها وهي سائرة إلى جانب أخيها عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وهي تدعو لهم بالسلامة والنصر وتقول لأخيها: يا أخي لا تفارق ابن عمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ووقت الحملة اصنع كما يصنع ولا تأخذكم في الله لومة لائم. وودع المسلمون الستين أصحابهم، وساروا بأجمعهم وخالد - رضي الله عنه - وسطهم كأنه أسد قد احتوشته الأسود ولم يزالوا حتى وقفوا بإزاء العرب المتنصرة فظنُّوا أنهم رسل يطلبون الصلح والمواعدة فصاح جبلة بالعرب

المتنصرة وحرضهم ليرهب المسلمين ونادى يا آل غسان أسرعوا إلى نصرة الصليب وقاتلوا من كفر به! فبادروا بالإجابة وأخذوا الأهبة للحرب ورفعوا الصليب واصطفوا للقتال ووقفوا ينتظرون ما يصنع أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى أن قاربوا صلبان العرب المتنصرة ونادى خالد بن الوليد – رضي الله عنه –: يا عبدة الصلبان ويا أعداء الرحمن هلموا إلى الحرب والطعان، فلما سمع جبلة كلام خالد – رضي الله عنه – علم أنهم ما خرجوا رسلًا، وإنما خرجوا للقتال فخرج جبلة من بين أصحابه وقد اشتمل بلأمة حربه وهو يقول:

إنَّا لَمَنْ عبدوا الصليب ومن به ... نسطو على من عابنا بفعالنا
ولقد علونا بالمسيح وأمه ... والحرب تعلم أنها ميراثنا
إنا خرجنا والصليب أمامنا ... حتى تبددكم سيوف رجالنا

ثم قال جبلة: من الصائح بنا والمستنهض لنا في قتالنا؟ فقال خالد بن الوليد – رضي الله عنه –: أنا فاخرج إلى حومة الحرب. فقال جبلة: نحن قد رتبنا أمورنا لحربكم وقتالكم وأنتم تتربصون عن قتالنا فوحق المسيح لا أجبناكم إلى الصلح أبدًا فارجعوا إلى قومكم وأخبروهم أننا ما نريد إلا القتال. فأظهر

خالد التعجب من قوله وقال له: يا جبلة أتظن أننا خرجنا رسلًا إليك؟ فقال جبلة: أجل. فقال خالد – رضي الله عنه –: لا تظن ذلك أبدًا فوالله ما خرجنا إلا لحربكم وقتالكم فإن قلتم إننا شرذمة فإن الله ينصرنا عليكم. فقال جبلة: يا فتى قد غررت بنفسك وبقومك إذ خرجت إلى قتالنا ونحن سادات غسان ولخم وجذام. فقال خالد بن الوليد – رضي الله عنه –: لا تظن ذلك وإننا قليلون فقتالكم رجل منا لألف منكم وتخلف منا رجال أشهى إليهم الحرب من العطشان إلى الماء البارد.

فقال جبلة: يا أخا بني مخزوم أغد كنت أفضلك في عقلك وأروم بك مرام الأبطال حتى سمعت منك هذا الكلام إنك أنت والستين رجلًا ترومون قتالنا ونحن سادات غسان وأبطال الزمان ها أنا أحمل بهذه الستين ألف فارس فلا يبقى منكم أحد، ثم صاح جبلة بقومه: يا آل غسان الحملة، فلما سمعوا كلام سيدهم حمل الستون ألف فارس في وجه خالد بن الوليد والستين رجلًا فثبت لهم أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – واشتبكت الحرب بينهم؛ فما كنت تسمع إلا زئير الرجال وزمجرة الأبطال ووقع السيف على البيض الصقال

حتى ما ظن أحد من المسلمين ولا من المشركين أن خالدًا ومن معه ينجو منهم أحد فبكى المسلمون وأخذهم القلق على إخوانهم وجعل بعضهم يقول: لقد غرر خالد بأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأهلكهم والروم تقول: إنْ أهلك جبلة هؤلاء القوم فهلاك العرب حاصل بأيدينا لا محالة! ولم يزل القوم في الحرب والقتال حتى قامت الشمس في كبد السماء.

قال عبادة بن الصامت - رضي الله عنه -: فلله در خالد بن الوليد والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق والفضل بن العباس وضرار بن الأزور وعبد الله بن عمر بن الخطاب رضوان الله عليهم أجمعين، لقد رأيت هؤلاء الستة قد قرنوا مناكبهم في الحرب وقام بعضهم بجنب بعض وهم لا يفترقون وزادت الحرب اشتعالًا وخرقت الأسنة صدور الليوث حتى بلغت إلى خزائن القلوب لانقطاع الآجال ولم يزالوا في القتال الشديد الذي ما عليه من مزيد. قال عبادة بن الصامت: فحملت معهم وكنت في جملتهم، وقلت: يصيبني ما يصيبهم! ونادى خالد بن الوليد وقال: يا أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هاهنا المحشر وقد أعطى خالد القلب مناه! فلما حمي بينهم القتال

حمل خالد بن الوليد وهاشم والمرقال وتكاثرت عليهم الرجال فلله در الزبير بن العوام والفضل بن العباس وهم ينادون: أفرجوا يا معاشر الكلاب وتباعدوا عن الأصحاب نحن الفرسان هذا الزبير بن العوام، وأنا الفضل بن العباس أنا ابن عم رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

قال عبادة – رضي الله عنه –: لقد أحصيت للفضل بن العباس عشرين حملة يحملها عن خالد بن الوليد حتى أزال عنه الرجال والأبطال وحملوا على المشركين حملة عظيمة ولم يزالوا في القتال يومهم إلى أن جنحت الشمس إلى الغروب، والمسلمون قد جهدهم القلق على إخوانهم. أما الأمير أبو عبيدة – رضي الله عنه – فإنه صاح بالمسلمين وقال: يا أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هلك خالد بن الوليد ومن معه لا محالة وذهبت فرسان المسلمين فاحملوا بارك الله فيكم لننظر ما كان من أمر إخواننا فكل أجاب إلى قوله وإشارته إلا أبا سفيان – رضي الله عنه – فإنه قال للأمير أبي عبيدة – رضي الله عنه –: لا تفعل أيها الأمير فإنه لابد للقوم أن يتخلصوا ونرى ما يكون من أمرهم! فلم يلتفت أبو عبيدة – رضي الله عنه – إلى كلامه وهمَّ أن يحمل وقد

أخذه القلق! فبينما هو كذلك وإذا جيش العرب المتنصرة منهزمون وأصوات الصحابة - رضي الله عنهم - قد ارتفعت بالتهليل والتكبير كل ينادي: أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله. والعرب المتنصرة منهزمة على أعقابهم كأنَّما صاح بهم صائح من السماء فبدد شملهم، وأقبل خالد بن الوليد - رضي الله عنه - من وسط المعمعة يلتهب مما لحقه من التعب، وكذا أصحابه الذين كانوا معه.

وإن خالدًا افتقد أصحابه الستين فلم يجد منهم إلا عشرين! فجعل يلطم على وجهه وهو يقول: أهلكت المسلمين يا ابن الوليد فما عذرك غدًا عند الرحمن وعند الأمير عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -؟! فبينما هو متحير في ذلك إذ أقبل عليه الأمير أبو عبيدة - رضي الله عنه - وفرسان المسلمين وأبطال الموحِّدين فنظر أبو عبيدة - رضي الله عنه - إلى خالد وما يصنع بنفسه، وقد اشتغل عن متابعة المشركين، فقال أبو عبيدة: يا أبا سليمان الحمد لله على نصر المسلمين ودمار المشركين. فقال خالد: اعلم أيها الأمير إن الله قد هزم الجيش، ولكن أعقبتك الفرحة ترحة! فقال أبو عبيدة: وكيف ذلك؟ فقال خالد: أيها

الأمير فقدت أربعين رجلًا من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيهم الزبير بن العوام ابن عمة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفيهم الفضل بن العباس وجعل خالد بن الوليد – رضي الله عنه – يسمي فرسان المسلمين واحدًا بعد واحد حتى سمى أربعين رجلًا فاسترجع أبو عبيدة – رضي الله عنه –، وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وقال لخالد: لابد لعجبك يهلك المسلمون. فقال سلامة بن الأحوص السلمي: أيها الأمير دونك والمعركة فاطلب فيها أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فإن رأيتموهم وإلا فالقوم أسرى أو قد تبعوا المشركين فأمر أبو عبيدة فأتوا بهوادئ النيران، وكان الظلام قد اعتكر فافتقدوا المعركة بين القتلى فإذا قتل من العرب المتنصرة خمسة آلاف فارس وسيدان من ساداتهم وهما رفاعة بن مطعم الغساني والآخر شداد بن الأوس ووجدوا من قتلى المسلمين عشرة رجال منهم اثنان من الأنصار أحدهما عامر الأوسي والآخر سلمة الخزرجي.

فقال أبو عبيدة – رضي الله عنه –: يوشك أن بعض الصحابة قد تبع المشركين! ثم قال: «اللهم ائتنا بالفرج القريب ولا تفجعنا بابن عمة نبيك الزبير

بن العوام ولا بابن عمه الفضل بن العباس»، ثم قال: معاشر المسلمين من يقفو لنا أثر القوم ويتعرف خبر الصحابة وأجره على الله. - عز وجل - فكان أول من أجابه خالد - رضي الله عنه -. فقال له الأمير أبو عبيدة: لا تفعل يا أبا سليمان لأنَّك تعبت من شدة الحرب. فقال خالد: والله لا يمضي في طلبهم غيري! ثم غيَّر جواده بفرس حازم بن جبير بن عدي من بني النجار فركبه وطلب آثار القوم وتبعه جماعة من المسلمين! فما سار خالد بعيدًا حتى سمع التهليل والتكبير فأجابهم بمثله فأقبل القوم وفي أوائلهم الزبير بن العوام والفضل بن العباس وهاشم والمرقال، فلما نظر خالد إليهم فرح فرحًا شديدًا ورحب بهم وسلم عليهم وقال خالد للفضل بن العباس: يا ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما كان أمركم؟ فقال: يا أبا سليمان هزم الله المشركين وردَّهم على أدبارهم خائبين فتبعنا آثارهم وإنَّ رجالًا منَّا أسروا فرجونا خلاصهم فلم نرهم ولاشك أنهم قتلوا! فقال خالد - رضي الله عنه -: إن القوم في الأسر لا محالة! فقال الزبير بن العوام: من أين علمت ذلك يا أبا سليمان؟ فقال خالد - رضي الله عنه -: إنَّا لم نجد في قتلى المعركة غير عشرة رجال ونحن عشرون وأنتم خمسة وعشرون، وقد أسر خمسة رجال لا محالة! وكان الأسرى رافع بن

عميرة وربيعة بن عامر وضرار بن الأزور وعاصم بن عمرو ويزيد بن أبي سفيان فعظم ذلك على المسلمين ورجعوا إلى أبي عبيدة - رضي الله عنه -.

فلما نظر إلى الفضل بن العباس وإلى الزبير بن العوام والمرقال بن هاشم وقد رجعوا سالمين فرحين بما نصرهم الله على الكافرين سجد على قربوس سرجه شكرًا لله تعالى. فقال خالد - رضي الله عنه -: معاشر المسلمين، لقد بذلت مهجتي أن أقتل في سبيل الله تعالى فلم أرزق الشهادة فمن قتل من المسلمين كان أجله قد حضر ومن أسر كان خلاصه على يدي إن شاء الله تعالى. قال: وباتت الفرسان في فرح وسرور، وبات الروم في نوح عظيم حين كسرت حامية عسكرهم.

قال الواقدي: حدثني من أثق به أن الأمير أبا عبيدة - رضي الله عنه - لما نظر إلى عساكر الروم معوَّلة على قتاله كتب إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أبي عبيدة عامر بن الجراح عامله، سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم -. واعلم يا أمير

المؤمنين أن كلب الروم هرقل قد استفز علينا كل من يحمل الصليب، وقد سار القوم إلينا كالجراد المنتشر وقد نزلنا باليرموك بالقرب من أرض الرماة والخولان والعدو في ثمانمائة ألف مقاتل غير التبع وفي مقدمتهم ستون ألفًا من العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام.

فأول من لقينا جبلة بن الأيهم في ستين ألف فارس وأخرجنا إليه ستين رجلًا، فهزم الله تعالى المشركين على أيديهم «وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» (آل عمران:١٢٦)، وقتل من أصحابنا عشرة رجال، منهم راعلة وجعفر بن المسيب ونوفل بن ورقة وقيس بن عامر وسلمة بن سلامة الخزرجي، وغيرهم، وأسر منهم خمسة رجال وهم: رافع بن عميرة وربيعة بن عامر وضرار بن الأزور وعاصم بن عمرو ويزيد بن أبي سفيان ونحن على نية الحرب والقتال فلا تغفل عن المسلمين وأمدنا برجال من الموحدين، ونحن نسأل الله تعالى أن ينصرنا وينصر الإسلام وأهله والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته. وطوى الكتاب وسلمه إلى عبد الله بن قرط الأزدي وأمره أن يتوجه إلى مدينة يثرب.

قال عبد الله بن قرط: فركبت من اليرموك يوم الجمعة بعد العصر، وقد مضى من شهر ذي الحجة اثنا عشر يومًا والقمر زائد النور فوصلت يوم الجمعة في الساعة الخامسة والمسجد مملوء بالناس فأنخت ناقتي على باب جبريل - عليه السلام -، وأتيت الروضة وسلمت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلى أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وصليت فيها ركعتين، ونشرت الكتاب إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -. فضج المسلمون عند رؤيته وتطاولت إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، وقبَّلت يديه وسلمت عليه، فلما فتح عمر الكتاب امتقع لونه وتزعزع كونه، وقال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون. فقال عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والعباس وعبد الرحمن بن عوف وطلحة وغيرهم من الصحابة: يا أمير المؤمنين أطلعنا على ما في هذا الكتاب من أمر إخواننا المسلمين! فقام عمر - رضي الله عنه - ورقى المنبر خطيبًا وقرأ الكتاب على الناس، فلما سمعوا ما فيه ضجُّوا بالبكاء شوقًا إلى إخوانهم وشفقة عليهم، وكان أكثر الناس بكاءً عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه -، وقال: يا أمير المؤمنين ابعث بنا إليهم ولو قدمت أنت إلى الشام لشدُّت بك ظهور المسلمين، فوالله ما أملك إلا نفسي ومالي وما أبخل بهما على المسلمين. فلما

سمع عمر بن الخطاب كلام عبد الرحمن بن عوف ونظر إلى إشفاق المسلمين وجزعهم على إخوانهم أقبل على عبد الله وقال: يا ابن قرط من المقدم على عساكر الروم؟ فقلت: خمسة بطارقة أحدهم ابن أخت الملك هرقل وهو قورين والديرجان وقناطير وجرجير وصلبانهم تحت صليب ماهان الأرمني وهو الملك على الجميع وجبلة بن الأيهم الغساني مقدم على ستين ألف فارس من العرب المتنصرة فاسترجع عمر وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم قرأ عمر: «يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُوا نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» (التوبة:٣٢) ثم قال: ما تشيرون به عليَّ رحمكم الله تعالى؟ فقال له علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: أبشروا رحمكم الله تعالى فإن هذه الوقعة يكون فيها آية من آيات الله تعالى يختبر بها عباده المؤمنين لينظر أفعالهم وصبرهم فمن صبر واحتسب كان عند الله من الصابرين واعلموا أن هذه الوقعة هي التي ذكرها لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التي يبقى ذكرها إلى الأبد هذه الدائرة المهلكة! فقال العباس: على من هي يا ابن أخي؟ فقال: يا عماه على من كفر بالله واتخذ معه شريكًا ولذا فثقوا بنصر الله - عز وجل -! ثم قال لعمر: يا أمير المؤمنين اكتب إلى عاملك أبي عبيدة كتابًا

وأعلمه فيه أن نصر الله خير له من غوثنا ونجدتنا فيوشك أنه في أمر عظيم! فقام عمر ورقى المنبر وخطب خطبة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وذكر فضل الجهاد ثم نزل وصلى بالمسلمين.

فلما فرغ من صلاته كتب إلى أبي عبيدة كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح ومن معه من المهاجرين والأنصار سلام عليكم فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - أما بعد فإن نصر الله خير لكم من معونتنا، واعلموا أنه ليس بالجمع الكثير يهزم الجمع القليل وإنما يهزم بما أنزل الله من النصر وأن الله - عز وجل - يقول: «وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ» (الأنفال:١٩)، وربما ينصر الله العصابة القليل عددها على العصابة الكثيرة وما النصر إلا من عند الله، وقد قال تعالى: «فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» (الأحزاب:٢٣) يا طوبى للشهداء ويا طوبى لمن يتكل على الله. فالق العدو بمن معك من المسلمين ولا تيأس بمن صرع من المسلمين، فقد رأيت من صرع بين يدي

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما عجزوا عن عدوهم في مواطن كثيرة حتى قتلوا في سبيل الله، ولم يهابوا لقاء الموت في جنب الله تعالى بل جاهدوا في سبيل الله حق جهاده وَمَا كَانَ «قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» (آل عمران:١٤٧) فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقرأه على المسلمين وأمرهم أن يقاتلوا العدو في سبيل الله - عز وجل - واقرأ عليهم «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (آل عمران:٢٠٠)، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

ثم طوى الكتاب وسلمه إلى عبد الله بن قرط، وقال له: يا ابن قرط إذا أشرفت على المسلمين وقد استوت الصفوف فسر بين صفوف الموحدين وقف على أصحاب الرايات منهم وخبرهم أنك رسولي إليهم وقل لهم إن عمر بن الخطاب يسلم عليكم ويقول لكم: يا أهل الإيمان اصدقوهم الحرب عند اللقاء وشدوا عليهم شد الليوث واضربوا هاماتهم بالسيوف وليكونوا عليكم أهون من الذباب فإنكم المنصورون عليهم إن شاء الله تعالى، ثم اقرأ عليهم:

«وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» (المائدة:٥٦). قال عبد الله بن قرط: قلت له: يا أمير المؤمنين ادع الله تعالى لي بالسلامة والسرعة في السير. فقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «اللهم ارحمه وسلمه واطو له البعيد إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير».

قال عبد الله بن قرط وخرجت من المسجد من باب الحبشة، فقلت في نفسي: لقد أخطأت في الرأي إذ لم أسلم على قبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فما أدري أراه بعد اليوم أم لا! قال عبد الله: فقصدت حجرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعائشة - رضي الله عنه - جالسة عند قبره، وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه والعباس جالسان عند القبر والحسين في حجر علي والحسن في حجر العباس - رضي الله عنهم - وهم يتلون سورة الأنعام وعلي - رضي الله عنه - يتلو سورة هود، فسلمت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال علي - رضي الله عنه -: يا ابن قرط عوَّلت على المسير إلى الشام؟ فقلت: نعم يا ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما أظن أن أصل إليهم إلا والجيش قد التقى والحرب دائرة وإذا أشرفت عليهم لا يرون

معي مددًا ولا نجدة خشيت عليهم أن يهنوا ويجزعوا وكنت أحب أن أصل إليهم قبل التقائهم بعدوهم حتى أعظهم وأصبرهم. فقال علي - رضي الله عنه -: فما منعك أن تسأل عمر بن الخطاب أن يدعو لك، أما علمت يا ابن قرط أن دعاءه لا يرد ولا يحجب وأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال فيه: «لو كان نبي ثان بعدي لكان عمر بن الخطاب» أليس هو الذي يوافق حكمه حكم الكتاب حتى قال المصطفى - صلى الله عليه وسلم -: «لو نزل من السماء إلى الأرض عذاب ما نجا منه إلا عمر بن الخطاب» أما علمت أن الله تعالى أنزل فيه آيات بينات، أما هو الزاهد التقي، أما هو العابد، أما هو المشبه بنوح النبي فإن كان هو قد دعا لك فقد قرن دعاؤه بالإجابة. فقال عبد الله بن قرط: ما ذكرت شيئًا إلا وأنا عارف به من فضل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ولكني أردت الزيادة من دعائك ودعاء العباس عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولاسيما عند قبر الرسول المعظم المكرم. فرفع العباس - رضي الله عنه - يديه وعلي - رضي الله عنه - كذلك وقالا: اللهم إنا نتوسل بهذا النبي المصطفى والرسول المجتبى الذي توسل به آدم فأجبت دعوته، وغفرت خطيئته إلا سهلت على عبد الله طريقه وطويت له البعيد وأيدت أصحاب نبيك

بالنصر إنك سميع الدعاء، ثم قال: سر يا عبد الله بن قرط فالله تعالى أكرم من أن يرد دعاء عمر وعباس وعلي والحسن والحسين وأزواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد توسلوا إليه بأكرم الخلق عليه.

قال عبد الله بن قرط: فخرجت من الحجرة وأنا فرح مستبشر واستويت على كور المطية وركبت الفلاة وأنا فرح بدعاء علي والعباس وعمر - رضي الله عنه - م أجمعين. قال عبد الله: خرجت من المدينة بعد العصر من يومي ذلك الذي دخلت فيه المدينة وأنا أرقب الطريق، فلما اختلط الظلام وأسبل الليل سجفه أرخيت زمام المطية فحسبت أنها تطير بي ولم أزل سائرًا ثلاثة أيام. فلما كانت صلاة العصر من اليوم الثالث أشرفت على اليرموك وسمعت ضجيج أذان المسلمين. قال عبد الله فقصدت خيمة الأمير أبي عبيدة - رضي الله عنه - وأنخت ناقتي وسلمت عليه وكان لي منذ فارقته عشرة أيام فأخبرته بدعاء عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب والعباس والحسن والحسين - رضي الله عنهم -. فقال أبو عبيدة: صدقت يا ابن قرط وإنهم لكرام على الله - عز وجل - وأن

دعاءهم لا يرد، ثم قرأ الكتاب على المسلمين فطابت قلوبهم بذلك، وقالوا: أيها الأمير ما منَّا إلا من يطلب الشهادة فالله تعالى يبلغنا إياها.

حدثنا ماجد عن الثقات قال: سار عبد الله بن قرط من المدينة يوم الجمعة، فلما كان يوم السبت وقد صلينا الصبح خلف عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ونحن نقرأ من القرآن ما تيسر، إذ سمعنا ضجة عظيمة وجلبة هائلة ففزعت قلوبنا فخرجنا مبادرين وإذا نحن بقوم من اليمن من صدوان وأرض سبأ وحضرموت واجتمعوا للجهاد، وهم ستة آلاف يقدمهم جابر بن خول الربعي، فترجلت ساداتهم وسلموا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فأمرهم بالنزول، فلما أقبل الظلام جاء ألف فارس من مكة والطائف ووادي نخلة وثقيف يقدمهم سعيد بن عامر وسلموا على عمر ونزلوا بإزاء أهل اليمن، فلما كان يوم الأحد حمل عمر ضعيفهم وزودهم وعقد راية حمراء على قناة تامة وسلمها إلى سعيد بن عامر.

قال سعيد بن عامر: فهممت بالمسير، فقال عمر: على رسلك يا ابن عامر حتى أوصيك. ثم أقبل عمر بن الخطاب يمشي راجلًا ومعه عثمان بن عفان

والعباس وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف، فلما قربوا من الجيش وقف عمر والناس حوله، وقال لسعيد بن عامر: يا سعيد إني وليتك على هذا الجيش ولست بخير رجل منهم إلا أن تتقي الله فإذا سرت فارفق بهم ما استطعت، ولا تشتم أعراضهم ولا تحتقر صغيرهم ولا تؤثر قويهم ولا تتبع هواك ولا تسلك بهم المفاوز واقطع بهم السهل ولا ترقد بهم على جادة الطريق والله تعالى خليفتي عليك وعلى من معك من المسلمين. فقال له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: اسمع وصية إمامك أمير المؤمنين الذي ختم الله تعالى به الأربعين وسميت به الأمة مؤمنين وهو الذي قال فيه رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «إن تطيعوه تهتدوا وترشدوا» فسر يا سعيد وإذا وصلت إلى أبي عبيدة والتقى بكم الجيش الذي لا تلقون مثله، وصعب عليكم أمره فاكتبوا إلى أمير المؤمنين عمر حتى يوجهني إليكم حتى أقلب أرض الشام على من فيها من المشركين إن شاء الله تعالى. فسار ابن عامر يجد السير وهو يقول:

نسير بجيش من رجال أعزة ... على كل عجعاج من الخيل يصبرُ
إلى شبل جراح وصحب نبينا ... لننصره والله للدين ينصر
على كل كفار لعين معاند ... تراه على الصلبان بالله يكفر

قال سعيد بن عامر: وكنت عارفًا ببلاد الشام وطرقه وكنت أسير إليه في السنة مرة أو مرتين عسفًا من غير جادة طريق أسير على الكواكب، فلما سرت من المدينة وأنا بين يدي المسلمين سلكت بهم على طريق بصرى فضللت عن الطريق وعدلت عن الجادة وأنا محترز من العدو وخائف على المسلمين فجعلت أحيد عن العمارات وأسلك الفلاة توفيقًا من الله وإكرامًا ولطفًا بعباده المؤمنين، فلما ضللت أشكل علي الطريق كأني ما سلكته يومًا قط فوقفت حائرًا حتى تلاحق بي المسلمون فلم أعلمهم بأمري، ولا أني ضللت عن الطريق، وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فسرت يومين وليلتين وأنا أتيه بالناس والمسلمون يسألونني عن ذلك، وأنا أقول لهم إني على طريق، فلما كان في اليوم العاشر من مسيرنا من المدينة لاح لي جبل عظيم فنظرت إليه وحققته فلم أعرفه، فقلت: غررت والله بالمسلمين، وأنا أقول في نفسي: أترى هذا جبل بعلبك وقد سهل علينا الطريق، وكان الجبل قد لاح لنا من بعيد من أول النهار وما أدركناه إلا والليل قد أقبل، فلما صرنا بقربه اعترضنا واد عظيم فيه شجرة عظيمة كبيرة فلما تأملتها عرفتها، وقلت لأصحابي: أبشروا فقد وصلنا إلى بلاد الشام! وفرح المسلمون ودخلنا الوادي؛ وإذا به وعر ليس فيه جادة ولا طريق

فلحق المسلمين من هوله تعب عظيم. قال سعيد وكان أكثر المسلمين رجالة، وإنما كان يحمل بعضهم بعضًا ويتعقبون على ظهور الخيل والإبل.

فلما نظر المسلمون إلى وحشة ذلك الوادي ووعورة مسلكه قالوا: يا سعيد إنَّا نظن أنك قد أخطأت الطريق وسلكت بنا غير طريقنا فأرحنا في هذا الوادي قليلًا فقد أضر بنا المسير قال فأجبتهم إلى ذلك، وكان في الوادي عين ماء غزيرة فنزل المسلمون عليها فشربوا وسقوا خيلهم وإبلهم ورعت الخيل والجمال ورق الشجر ونام أكثر الناس وبعضهم يصلي على محمد - صلى الله عليه وسلم -. قال سعيد: وكنت جلست في آخر الناس أحرسهم، وأنا أتلو القرآن العظيم، وأدعو الله لنا بالسلامة إذ غلبتني عيني فنمت فرأيت في منامي كأني في جنة خضراء كثيرة الأشجار والثمار وكأني آكل من ثمرها وأشرب من أنهارها وأجني من ثمرها وأناول أصحابي وهم يأكلون، وأنا فرح مسرور. فبينما أنا كذلك إذ خرج من بين تلك الشجر أسد عظيم فزأر في وجهي وهمَّ أن يفترسني. وأنا من ذلك فزع مرعوب إذ خرج على الأسد أسدان عظيمان فصرعاه في موضعه فسمعت له خوارًا عظيمًا فانتبهت من نومي وحلاوة ذلك الثمر في فمي،

والأسود تتمثل بين يدي. قال سعيد: ففسرتها أنها غنيمة يأخذها المسلمون ويمنعنا منها مانع ونظفر به. فقلت في نفسي: الجنة هي الشهادة. قال سعيد: ولم أزل جالسًا أتلو القرآن، وأنا قلق إذ سمعت هاتفًا يهتف بي عن يمين الوادي، وهو يقول:

يا عصبة الهادي إلى الرشاد ... لا تفزعوا من وعر هذا الوادي
ما فيه من جن ولا معادي ... ستعلمون معشر العباد
لطف الذي يرفق بالأولاد ... ويطرح الرحمة في الأكباد
سيصنع الله بكم رشاد ... وتغنموا المال مع الأولاد

قال سعيد: فلما سمعت شعر الهاتف وما يشير به من الغنيمة سجدت لله تعالى شكرًا واستيقظ المسلمون لصوت الهاتف وفرحوا بما سمعوا منه وطابت قلوبهم بالغنيمة، وأقام المسلمون في الوادي حتى أصبح الصباح وصلى بهم سعيد صلاة الفجر. فلما طلعت الشمس خرج المسلمون من الوادي وحققت تلك الأرض والجبل، وإذا به جبل الرقيم، فلما رأيته عرفته فرفعت صوتي بالتكبير وقلت: الله أكبر وكبرت المسلمون لتكبيري، وقالوا: ما الذي رأيت يا ابن عامر؟ فقلت: وصلنا إلى بلاد الشام، وهذا جبل الرقيم. قال سعيد:

وأكثر من معي جماعة العرب. قالوا: يا سعيد وما الرقيم أما تعرفه؟ فحدثتهم بحديث الرقيم، قال سعيد: فعجبوا من ذلك. ثم أقبلت بهم إلى الغار فصلُّوا فيه، ثم سرنا حتى أشرفنا على بلاد عمان.

فعدلتُ إلى قرية هناك يقال لها الجنان فنظرت إلى دهاقين القرية وهم خارجون منها ومعهم الأهل والأولاد، فلما رآهم المسلمون حملوا عليهم من غير إذن لهم وأخذوا بعضهم أسارى فرجع القوم إلى القرية، وكان فيها حصن منيع فتحصَّنوا فيه منَّا، قال سعيد: فقربت من الحصن وصحت بهم وقلت: يا ويلكم ما بالكم كنتم خارجين من قريتكم فرجعتم؟ فأشرف عليَّ واحد منهم وقال لي: يا معاشر العرب اعلموا أننا كنا خارجين من المدينة ففزعنا منكم وذلك أن صاحب عمان بعث إلينا وأمرنا بالمسير إلى عمان لنكون تحت كنفه في عمان، والآن يا معاشر العرب هل لكم أن نكون في ذمامكم وأمانكم. قال سعيد: نعم فوقع الصلح بيننا على عشرة آلاف دينار وكتبت لهم كتاب الصلح، فلما هممت بالمسير، قالوا: يا معاشر العرب قد صالحناكم ونحن خائفون من قومنا واعلموا أن نقيطاس صاحب عمان لابد أن نلقى منه شدة عظيمة فلو

ظفرتم به لكان خيرًا لنا ولكم! فقلت: فكيف نظفر به؟ فقالوا: إن الملك ماهان مقدم العساكر قد بعث بذلك إليه، وإن أنتم ظفرتم بصاحب عمان ملكتم غنيمة جسيمة. فقال سعيد: وفي كم يكون جيش عمان؟ فقالوا: في خمسة آلاف فارس، ولكن قد وقع خوفكم في قلوبهم فلن يفلحوا إذًا أبدًا. فقال سعيد: يا معاشر المسلمين ما تقولون في لقاء هذا البطريق صاحب عمان وأخذ غنيمته؟ فقالوا: افعل ما تريد فإن قتله الله على أيدينا كان ذلك صلاحًا للمسلمين ووهنًا على المشركين.

فقال سعيد لأهل القرية: على أي طريق يأتي القوم؟ فقالوا: على هذا الطريق. فدلونا على طريق عمورية. فسرنا إلى واد عظيم وكمنَّا فيه يومًا وليلة فلم يأتنا أحد، فلما أصبح الصباح قال سعيد: يا معاشر المسلمين إن الذي وجهنا إليه عمر بن الخطاب من نجدة أبي عبيدة والمسلمين أفضل من مقامنا هنا فاخرجوا -رحمكم الله- فإنا إن أشرفنا على المسلمين في سبعة آلاف فارس كان ذلك وهنًا على المشركين وذلة للكافرين! فقال المسلمون: يا ابن عامر إن قلوبنا توقن بالغنيمة فلا تحرمنا ذلك. قال: فبينما هم في المحاورة إذا أشرف

عليهم جماعة من القسوس والرهبان وعليهم ثياب الشعر وفي أيديهم الصلبان، وقد حلقوا أوساط رؤوسهم فابتدر المسلمون إليهم وأخذوهم وأوقفوهم بين يدي سعيد، فقال لهم: من أنتم؟ وكان فيهم قس كبير فكلم سعيدًا وقال: نحن رهبان هذه الأديرة والصوامع ونريد أن نصل إلى قسطنطين ولد الملك هرقل حتى ندعو للعساكر بالنصر. قال سعيد: فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال! فما وراءكم من الأخبار؟ قالوا: وراءنا صاحب عمان في خمسة آلاف فارس من فرسان النصرانية وعباد الصليب. فقال سعيد: اللهم اجعلهم غنيمة لنا.

ثم قال سعيد للقسيس الذي خاطبه: اسمع أيها الشيخ إن نبينا – صلى الله عليه وسلم – أمرنا أن لا نتعرض لراهب حبس نفسه في صومعة ولولا أنكم تنصرون العدو لخلينا سبيلكم، ثم أمر المسلمين أن يوثقوهم كتافًا فأوثقوهم بزنانيرهم التي في أوساطهم، فبينما نحن كذلك إذ أشرف علينا جيش عمان والرجالة أمامهم يعزلون لهم الحجر من الدروب، فلما أشرفوا على المسلمين حمل عليهم المسلمون من غير أهبة ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير ووضعوا فيهم السيف فقتلوا الرجالة عن آخرهم فأخبر صاحب عمان بذلك،

فلما نظر إلى صنع المسلمين أمر أصحابه بالحملة فحملوا عليهم حملة عظيمة واقتتلوا قتالًا شديدًا، قال سعيد: ونظرت إلى المسلمين وهم يقتلون الروم قتلًا ذريعًا ويضجون بالتهليل والتكبير، فلما نظر البطريق صاحب عمان ما صنع المسلمون بأصحابه ولى منهزمًا طالبًا عمان وتبعه قومه وتبعهم المسلمون وبعضهم مال إلى الغنيمة والبطريق نقيطاس صاحب عمان في الهرب، وكان قد سبق فوقف حتى تلاحق به المنهزمون من قومه.

فبينما هم كذلك إذ أشرفت عليهم خيل من ورائهم تسرع بركابها، وهم زهاء من ألف فارس يقدمهم فارسان كأنهما أسدان أحدهما الزبير بن العوام والآخر الفضل بن العباس فحملوا على الروم فقتلوهم قتلًا ذريعًا وحمل الزبير بن العوام على «نقيطاس» بطريق عمان وهو واقف تحت الصليب فطعنه الزبير فقلبه عن جواده! وأقبل الفضل بن العباس يجندل الفرسان وينكس الأبطال. وأشرف سعيد على الموضع فرأى الحرب قائمة فظن أنه وقع بينهم الخلف، فلما قربوا منهم سمعوا التهليل والتكبير، فقالوا: هذه دعوة الحق لمن قالها

فاقتحم سعيد المعركة فسمع الفضل بن العباس، وهو ينتمي باسمه، ويقول: أنا ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

قال سعيد بن عامر فقلت له: لله درك يا ابن العباس ومن معك من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! فقال: معي الزبير بن العوام ابن عمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. قال سعيد: فوالله ما انفلت من القوم أحد إلا بين أسير وقتيل وغنم المسلمون غنيمة عظيمة! وسلم بعضهم على بعض، وأقبل الزبير على سعيد وقال: يا ابن عامر ما الذي حبسك عن المسير جهتنا، وقد جاءنا سالم بن نوفل العدوي وأخبرنا بمسيرك إلينا؟! وقد ساءت بك ظنوننا فأرسلنا أبو عبيدة لنغير على عمان والحمد لله على سلامة المسلمين ودمار المشركين. ثم أمر الزبير برؤوس القتلى فسلخت وحملتها العرب على أسنة الرماح فكانت الرؤوس أربعة آلاف رأس والأسرى ألف أسير. وأطلق سعيد الرهبان وسار المسلمون حتى أشرفوا على أبي عبيدة - رضي الله عنه -، ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير وأجابهم جيش المسلمين بمثل ذلك فانزعجت قلوب الروم لذلك ونظروا إلى ثمانية آلاف فارس والرؤوس معهم

على الأسنة فبهتوا لذلك وحدَّث سعيد بن عامر أبا عبيدة بالنصر وغنيمتهم من الروم فسجد شكرًا لله - عز وجل - وأمر بالألف أسير فضربت أعناقهم والروم ينظرون إليهم. وأخبرت الروم أنه لم ينج أحد من جيش عمان.

قال الواقدي: لما أسر الخمسة من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اغتمَّ لفقدهم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان أكثرهم غمًّا أبو عبيدة بن الجراح وأقبل على البكاء والتضرع يدعو لمن أسر بالخلاص! وأما الخمسة فإنهم مثلوا بين يدي ماهان -لعنه الله-، فلما نظر إليهم استحقر شأنهم، وقال لجبلة بن الأيهم: من هؤلاء؟ قال: أيها الملك هؤلاء قوم من جيش المسلمين، وقد كانوا ستين رجلًا فقتلت أكثرهم وأسرت هؤلاء! وما بقي في عسكرهم من تخاف غائلته إلا رجل واحد وهو الذي يثبتهم ويرمي بهم كل المرامي، وهو الذي فتح أركة وتدمر وحوران وبصرى ودمشق، وهو الذي كسر عساكر أجنادين وتبع توما وهربيس وقتلهم في مرج الديباج وأسر ابنة الملك هرقل وهو خالد بن الوليد. فلما سمع ماهان ذلك قال: لابد لي أن أحتال على هذا الرجل حتى أحصله عندي وأقتله مع هؤلاء الخمسة الأسرى!

ثم دعا ماهان برجل من الروم اسمه جرجة وكان حكيمًا فاضلًا عند الروم فصيحًا بلسان العرب. فقال: يا جرجة أريد أن تمضي إلى هؤلاء العرب وتقول لهم يبعثوا لنا رسولًا وليكن هذا الرسول الرجل المسمى بخالد. فركب جرجة وسار نحو عساكر المسلمين فالتقى بخالد فقال له: ما الذي تريد؟ فقال: إن الملك ماهان قد بعثني إليكم حتى تبعثوا رجلًا منكم فلعل الله أن يحقن دماءنا ودماءكم فقال خالد - رضي الله عنه -: أنا أكون الرسول إليه! وأوقف رسول الروم بين يديه ويدي أبي عبيدة - رضي الله عنه - وأخبره أنه يريد المسير إلى ماهان. فقال أبو عبيدة: امض يا أبا سليمان سلمك الله تعالى فلعل الله تعالى أن يهديهم أو يدعونا للصلح وأداء الجزية، فتحقن الدماء على يدك فحقن دم رجل واحد أحب إلى الله تعالى من أهل الشرك جميعًا. فقال خالد بن الوليد - رضي الله عنه -: أنا أطلب من الله تعالى العون.

ثم وثب خالد - رضي الله عنه - إلى خيمته ولبس خفين حجازيين وتعمَّم بعمامة سوداء، وشد وسطه بمنطقة من الأديم، وتقلد سيفه الذي استلبه من مسيلمة الكذاب، وأمر عبده همَّامًا أن يأخذ قبته الحمراء وكانت من الأديم

الطائفي وفيها شمعات من الذهب الأحمر وحليتها من الفضة البيضاء وكان خالد قد اشتراها من امرأة ميسرة بن مسروق العبسي بثلثمائة دينار فحملها على بغل وركب خالد جواده. فلما همَّ بالمسير قال له أبو عبيدة: يا أبا سليمان خذ معك رجالًا من المسلمين يكونون لك عونًا. فقال خالد: أيها الأمير أحب ذلك ولكن لا إكراه في الدين، وليس لي عليهم طاعة فأمر من شئت، فلما سمع المسلمون كلام خالد بن الوليد - رضي الله عنه -. قال معاذ بن جبل: يا أبا سليمان إنك من أهل الفضل ولو أمرتنا بأمر امتثلناه لأنك سائر في طاعة الله تعالى ورسوله. فاستركب معه مائة فارس من المهاجرين والأنصار منهم المرقال بن عتبة بن أبي وقاص وشرحبيل بن حسنة وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي وميسرة بن مسروق العبسي وقيس بن هبيرة المرادي وسهل بن عمرو العامري وجرير بن عبد الله البجلي والقعقاع بن عمرو التميمي وجابر بن عبد الله الأنصاري وعبادة بن الصامت الخزرجي والأسود بن سويد المازني وذو الكلاع الحميري والمقداد بن الأسود الكندي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي رضي الله عنهم أجمعين، ولم يزل خالد ينتخب مثل هؤلاء السادات - رضي الله عنهم - حتى كمل منهم مائة فارس، كل فارس منهم يرد جيشًا وحده،

فأخذوا زينتهم واشتملوا بلباس الحرب، وتوشحوا بالأبراد، وتعمَّموا بالعمائم، وتمنطقوا بالخناجر، وتقلدوا بالسيوف، وركبوا الخيل العتاق، وسار خالد بن الوليد - رضي الله عنه - وعن يمينه معاذ بن جبل وعن شماله المقداد بن الأسود الكندي والمائة فارس محدقون به.

قال معاذ بن جبل - رضي الله عنه -: وسرنا ونحن نعلن بالتهليل والتكبير. قال نصر بن سالم المازني: فنظرت إلى أبي عبيدة - رضي الله عنه - حين سار خالد بمن معه يقرأ آية من القرآن ودموعه جارية على خده. فقلت: أيها الأمير ما يبكيك؟ فقال: يا ابن سالم هؤلاء والله أنصار الدين فإن أصيب رجل منهم في إمارة أبي عبيدة فما يكون عذري عند رب العالمين وعند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -؟!

فلما أشرف خالد بن الوليد - رضي الله عنه - ومن معه على عساكر الروم نظر المسلمون إلى عساكر الروم وهم خمسة فراسخ في العرض، وعن نوفل بن دحية أن خالدًا لما ترجَّل عن جواده وترجَّل المائة جعلوا يتبخترون في مسيرهم، ويجرون حمائل سيوفهم، ويخترقون صفوف الحجاب والبطارقة، ولا يهابون

أحدًا، إلى أن وصلوا إلى النمارق والفراش والديباج، ولاح لهم ماهان وهو جالس على سريره، فلما نظر أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى ما ظهر من زينته وملكه عظموا الله تعالى وكبروه وطرحت لهم الكراسي فلم يجلسوا عليها، بل رفع كل واحد منهم ما تحته وجلسوا على الأرض، فلما نظر ماهان إلى فعلهم تبسم وقال: يا معاشر العرب لم تأبون كرامتنا ولم أزلتم ما تحتكم من الكراسي وجلستم على الأرض ولم تستعملوا الأدب معنا ودستم على فراشنا. فقال خالد بن الوليد: إن الأدب مع الله تعالى أفضل من الأدب معكم وبساط الله أطهر من فرشكم لأن نبينا محمدًا – صلى الله عليه وسلم – قال: جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا ثم قرأ قوله تعالى: «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى» (طه:٥٥).

عن طرفة بن شيبة الخولاني عن عمه جرير وكان محالفًا لخالد بن الوليد – رضي الله عنه – قال: قال خالد يا ماهان إني أكره أن أبدأك بالكلام فتكلم أنت بما تريد فإني لست أبالي بما تتكلم ولكل كلام جواب فإن شئت فتكلم وإن شئت بدأتك! قال ماهان: أنا أبدؤكم، الحمد لله الذي جعل سيدنا الروح

المسيح كلمته وملكنا أفضل الملوك وأمتنا خير الأمم. فعظم ذلك على خالد بن الوليد فقطع كلامه، فقال الترجمان: لا تقطع كلام الملك يا أخا العرب واستعمل حسن الأدب! فأبى خالد أن يسكت وقال: الحمد لله الذي جعلنا نؤمن بنبينا ونبيكم وجميع الأنبياء، وجعل أميرنا الذي وليناه أمورنا كبعضنا لو زعم أنه يملك علينا لعزلناه، فلسنا نرى أن له فضلًا علينا إلا أن يكون أتقى لله - عز وجل - منَّا، وقد جعل الله أمتنا تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر وتقِّر بالذنب وتستغفر منه وتعبد الله تعالى وحده لا شريك له!

فاصفرَّ وجه ماهان وسكت قليلًا. ثم قال: الحمد لله الذي أبلانا وأحسن البلاء إلينا وعافانا من الفقر ونصرنا على الأمم وأعزنا ومنعنا من الضيم ولسنا فيما خولنا الله فيه من نعيم الدنيا بطرين ولا باغين على الناس. وقد كان يا معاشر العرب طائفة منكم يغشوننا ويلتمسون نائلنا ورفدنا وجوائزنا، ونحن نحسن إليهم ونكرمهم، ونكرم ضعيفهم، ونعظِّم قدرهم ونتفضل عليهم، ونفي لهم بالوعد! وكنا نظن أن العرب كلها تعرف لنا ذلك من جميع القبائل وتشكرنا عليه لما أسدينا من عطايانا الجميلة لهم! فما شعرنا حتى جئتمونا بالخيل

والرَّجْل وظنَّنا أنكم تطلبون منَّا طلب إخوانكم؛ فإذا أنتم على خلاف رأي أولئك، جئتم تقتلون الرجال وتسبون النساء وتغنمون الأموال وتهدمون الأطلال! وتطلبون أن تخرجونا من أرضنا وتغلبونا على بلادنا! وقد طلب منَّا ذلك من كان قبلكم ممَّن هو أكثر منكم عددًا وأكثر أموالًا وسلاحًا وظهرًا فرددناهم خائفين وجلين خائبين بين قتيل وجريح وطريد وطريح؛ فأول ما فعلنا ذلك بملك فارس فرده الله على عقبيه بالخيبة والذل، وكذلك فعلنا بملك الترك وملك الجرامقة وغيرهم، وأنتم لم تكن أمة من الأمم أصغر منكم مكانًا ولا أحقر شأنًا! لأنكم أهل الشعر والوبر والبؤس والشقاء، وإنَّكم مع ذلك تظلمون في بلادكم وبلادنا، وحوالينا أمة كثيرة العدد، وشوكتنا شديدة، وعصبتنا عظيمة، وإنما أقبلتم علينا لأنكم خرجتم من جدوبة الأرض وقحط المطر! فانجلبتم إلى بلادنا وأفسدتم كل الفساد، وركبتم مراكب ليست كمراكبكم، ولبستم ثيابًا ليست كثيابكم، وتمتعتم ببنات الروم البيض الأوانس فجعلتموهنَّ خدمًا لكم! وأكلتم طعامًا ليس كطعامكم، وملئت أيديكم من الذهب والفضة والمتاع الفاخر! ولقد لقيناكم الآن ومعكم أموالنا وما غنمتموه من قومنا وأهل ديننا وقد تركناه لكم لا نطالبكم به ولا ننازعكم فيه ولا نعتب

عليكم فيما تقدم من فعالكم والآن فاخرجوا من بلادنا فإن أبيتم الانصراف عنا عزمنا عليكم عزمة فنترككم كأمس الدابر، وإن جنحتم للصلح نأمر لكل واحد من عسكركم بمائة دينار وثوب ولأميركم أبي عبيدة بألف دينار ولخليفتكم عمر بن الخطاب بعشرة آلاف دينار على أنكم تحلفون لنا أن لا تعودوا إلى حربنا.

قال الواقدي: وماهان يرغِّب تارة ويرهِّب أخرى وخالد مطرق لا يتكلم حتى فرغ ماهان من كلامه. فقال خالد: إن الملك قد تكلم فأحسن وسمعنا كلامه ونتكلم ويسمع كلامنا. ثم قال خالد بن الوليد – رضي الله عنه –: الحمد لله الذي لا إله إلا هو، فلما سمع ماهان ذلك مد يده إلى السماء وقال: نعم ما قلت يا عربي. فقال: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المرتضى ونبيه المجتبى – صلى الله عليه وسلم –. فقال ماهان: ما أدري أمحمد رسول الله أم لا؟ ولعله كما تقول وتزعم وتذكر. فقال خالد – رضي الله عنه –: حسب الرجل دينه، ثم قال: أفضل الساعات وخيرها الساعات التي يطلع فيها الله رب العالمين فالتفت ماهان إلى قومه وقال بلسانه: إنه رجل عاقل

يتكلم بالحكمة. فقال خالد: ما الذي قلت لقومك؟ فأخبره بمقالته. فقال خالد: إن كنت أوتيتُ العقل فالله تعالى المحمود على ذلك، وقد سمعنا نبينا محمدًا - صلى الله عليه وسلم - يقول: (لما خلق الله تعالى العقل وصوَّره وقدَّره قال: أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر. فقال الله تعالى: «وعزتي وجلالي ما خلقت خلقًا أحب إليَّ منك بك تنال طاعتي وتدخل جنتي». فقال ماهان: إذا كنت بهذا العقل والفهم فلم جئت بهؤلاء معك؟! قال خالد بن الوليد - رضي الله عنه -: جئت بهم لأشاورهم.

قال ماهان: وأنت مع جودة عقلك وحسن رأيك وبصيرتك تحتاج إلى مشورة غيرك. قال خالد: نعم بهذا أمر الله - عز وجل - نبينا محمدًا - صلى الله عليه وسلم -. فقال الله تعالى في كتابه العزيز: «وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» (آل عمران:١٥٩) وقال - صلى الله عليه وسلم -: «ما ضاع امرؤ عرف قدره، ولا ضاع مسلم استشار» فأنا وإن كنت ذا رأي وعقل كما تزعم وكما بلغك، فإني لا أستغني عن رأي ذي رأي ومشورة أصحابي. قال ماهان: وهل في عسكركم من له رأي مثل رأيك وحزم

مثل حزمك؟ قال: نعم، إن في عسكرنا أكثر من ألف فارس لا يستغنى عن رأيهم ولا عن مشورتهم فقال له ماهان: ما كنا نظن ذلك فيكم، وإنما كان يبلغنا عنكم أنكم طمَّاعون جهال لا عقول لكم! يغير بعضكم على بعض وينهب بعضكم أموال بعض.

فقال له خالد - رضي الله عنه -: ذلك كان شأن أكثرنا حتى بعث الله - عز وجل - فينا نبينا محمدًا - صلى الله عليه وسلم - فهدانا لرشدنا وعرفنا سبيلنا، وفهمنا الخير من الشر، والهدى من الضلال. فقال ماهان: يا خالد إنك قد أعجبتني بما أراه من رأيك وبصيرتك، وقد أحببت أن أؤاخيك لتكون أخي وخليلي. فقال خالد - رضي الله عنه -: وافرحاه إن تمم الله مقالتك، فتكون إذًا سعيدًا ولا نفترق. فقال ماهان: وكيف ذلك؟ قال خالد: تقول أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله الذي بشر به عيسى ابن مريم: فإذا فعلت ذلك كنت أخي وكنت أخاك وتكون خليلي وأكون خليلك ولا نفترق إلا لأمر يحدث. فقال ماهان: أما ما دعوتني إليه من الترك لديني والدخول في دينكم فما لي إلى ذلك من سبيل. فقال خالد: وكذلك أيضًا لا سبيل إلى مؤاخاتي لك

وأنت مقيم على دينك دين الضلال. قال ماهان: أريد أن ألقي الحشمة بيني وبينك وأكلمك كلام الأخ لأخيه: فأجبني عن كلامي الذي دعوتك إليه حتى أسمع ما تقول.

قال خالد: أما بعد فإنك تعلم أن الذي ذكرته مما فيه قومك من الغنى والعز ومنع الحريم والظهور على الأعداء والتمكن في البلاد، فنحن عارفون به، وكل ما ذكرته من إنعامكم على جيرانكم من العرب فقد عرفناه، ولكن إنما فعلتم ذلك إبقاء لنعمتكم ونظرًا منكم لأنفسكم وذراريكم وزيادة لكم في مالكم وعزًا لكم فتستكثرون جموعكم وتلقون الشوكة على من أرادكم! وأما ما ذكرته من فقرنا ورعينا الإبل والشاة فما منَّا من لم يرع! وأكثرنا رعاة، ومن رعى منَّا كان له الفضل على من لم يرع. وأما قولك بأننا أهل فقر وفاقة وبؤس وشقاء، فنحن لا ننكر ذلك، وإنَّما ذلك من أجل أنا معاشر العرب أنزلنا الله تعالى منزلًا ليس فيه أنهار ولا أشجار ولا زرع إلا قليل؛ وكنا أهل جاهلية جهلاء لا يملك الرجل منَّا إلا فرسه وسيفه وأباعره وشياهه! ويأكل قوينا ضعيفنا، ولا يأمن بعضنا بعضًا

إلا في الأربع الأشهر الحرم! نعبد دون الله الأصنام والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ونحن عليها مكبُّون ولها حاملون.

فبينما نحن كذلك على شفا حفرة من النار: من مات منَّا مات مشركًا وصار إلى النار، ومن بقي منَّا كان كافرًا بربه قاطعًا لرحمه؛ حتى بعث الله لنا نبيًا نعرف حسبه ونسبه، هاديًا مهديًا رسولًا نبيًا وإمامًا تقيًا، أظهر الإسلام بدعوته ودحض المشركين بكلمته! جاءنا بقرآن مبين وصراط مستقيم. ختم الله تعالى به النبيين، وأمرنا بعبادة رب العالمين نعبده ولا نشرك به شيئًا ولا نتخذ من دونه وليًا، ولا نجعل لربنا صاحبة ولا ولدًا لا شريك له ولا ضد ولا ند له، ولا نسجد للشمس ولا للقمر ولا للنور ولا للنار ولا للصليب ولا للقربان، ولا نسجد إلا لله وحده لا شريك له ونقر بنبوة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وصحبه أنزل الله عليه كلامه الذي هدانا به مولانا فاستجبنا له وأطعنا أمره، فكان مما أمرنا به أن نجاهد من لا يدين بديننا ولا يقول بقولنا ممن كفر بالله واتخذ معه شريكًا جل ربنا وتعالى عن ذلك لا تأخذه سنة ولا نوم فمن اتبعنا كان أخانا وصار له ما لنا وعليه ما علينا ومن أبى الإسلام كانت عليه الجزية يؤديها إلينا

عن يد وهو صاغر فإذا أداها حقن بها ماله ودمه وولده ومن أبى الإسلام وأن يؤدي الجزية فالسيف حكم بيننا وبينه حتى يقضي الله - جل جلاله - بحكمه، وهو خير الحاكمين، ونحن ندعوكم إلى هذه الخصال الثلاث ليس غيرها إمَّا أن تقولوا: نشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله أو الجزية في كل عام على كل محتلم من الرجال وليس على من لم يبلغ الحلم جزية ولا على امرأة ولا على راهب منقطع في صومعته!

قال ماهان: فهل بعد قول: لا إله إلا الله غير هذا؟ فقال خالد: نعم، أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتحجوا البيت الحرام، وتجاهدوا من كفر بالله تعالى، وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر، وتوالوا في الله تعالى وتعادوا في الله، فإن أبيتم ذلك فالحرب بيننا وبينكم حتى يورث الله أرضه من يشاء والعاقبة للمتقين. قال ماهان: فافعل ما تشاء فإننا لا نرجع عن ديننا ولا نؤدي الجزية، وأما ما ذكرت من أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده فلقد صدقت فإنها لم تكن لنا ولا لكم بل كانت لقوم غيرنا وغيركم فقاتلناهم عليها حتى ملكناها منهم والحرب بيننا وبينكم فابرزوا على اسم الله تعالى، فقال خالد بن الوليد -

رضي الله عنه -: ما أنتم بأشهى منَّا إلى الحرب وكأنِّي بجيوشكم وقد انهزمت، والنصر يقدمنا، وتساق أنت والحبل في عنقك ذليلًا حقيرًا وتقدم بين يدي عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فيضرب عنقك. فلما سمع ماهان كلام خالد غضب غضبًا شديدًا! قال: فلما نظرت البطارقة والحجاب والهرقلية والقياصرة إلى غضب ماهان همُّوا بقتل خالد إلا أنهم صبروا ينظرون أمره، فقال ماهان لخالد وقد استشاط غضبًا: وحق المسيح لأحضرن أصحابك الخمسة الأسارى وأضربن أعناقهم وأنت تنظر إليهم! فقال له خالد: اسمع ما أقول لك يا ماهان! أنت أقل وأذل وأحقر من ذلك واعلم أن هؤلاء الذين في يدك هم منَّا ونحن منهم، فوالله لئن قتلتهم لأقتلنك بسيفي هذا ويقتل كل رجل منَّا من قومك بعددهم وزيادة! ثم وثب خالد - رضي الله عنه - من وضعه وانتضى سيفه من غمده وفعل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كفعله، وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله وجرَّدوا سيوفهم وهاجوا كالجمال أو كالسباع الضواري واستقتلوا وأيقنوا بالشهادة في ذلك المكان.

قال الواقدي: والله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ما اعتمدت في أخبار هذه الفتوح إلا الصدق وما نقلت أحاديثها إلا عن ثقات وعن قاعدة الحق لأثبت فضائل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجهادهم حتى أرغم بذلك أهل الرفض الخارجين عن السنة والفرض إذ لولاهم بمشيئة الله لم تكن البلاد للمسلمين وما انتشر علم هذا الدين، فلله درهم لقد جاهدوا في الله حق جهاده ونصروا دينه، وثبتوا للقاء الأعداء وبذلوا جهدهم ونصروا الدين حتى زحزحوا الكفر عن سريره وتقهقر، لا جرم وقد قال فيهم الملك المقتدر: «فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» (الأحزاب:٢٣)

قال الواقدي: حدثني مسلم بن عبد الحميد عن جده رافع بن مازن قال: كنت مع خالد يوم سرنا إلى ماهان وكنا في سرادقه، فلما جذبنا السيوف وهممنا بالقوم وما في أعيننا من جيوش الروم شيء، وقد أيقنا بالحشر من ذلك الموضع. فلما رأى ماهان الحقيقة منَّا ومن خالد وتبين الموت في شفار سيوفنا نادى: مهلًا يا خالد لا تكن بهذه العجلة تهلك! وأنا أعلم أنك ما قلت ذلك القول إلا أنك رسول والرسول يحمى ولا يقتل، وأنا إنّما تكلمت بما تكلمت

لاختبركم وأنظر ما عندكم، والآن فما أؤاخذك فارجع إلى عسكرك واعزم على القتال حتى يعطي الله تعالى النصر لمن يشاء، فلما سمع خالد ذلك أغمد سيفه، وقال: يا ماهان ما تصنع في هؤلاء الأسرى؟ فقال ماهان: أطلقهم كرامةً لك وأخلي سبيلهم فيكونون عونًا لك ولن تعجزونا في الحرب غدًا! ففرح خالد بذلك! وأمر ماهان بتخلية أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فأطلقوا من وثاقهم وهمَّ خالد بالمسير، فقال ماهان: يا خالد إني كنت أحب أن يصلح الأمر بيني وبينكم وإني أسألك حاجة، فقال خالد: سل ما تريده! فقال: إنَّ قبَّتك هذه الحمراء قد أعجبتني وإني أريد أن تهبها لي وانظر في عسكري ما أعجبك من شيءٍ فأهبه لك. فقال خالد: والله لقد فرحتني إذ طلبت ما أملكه وهي موهوبة لك، وأما ما عرضت علي من عسكرك فلا حاجة لي فيه، فقال ماهان: لله درك أنت تكرمت وأجملت. فقال خالد - رضي الله عنه -: وأنت أيضًا قد تكرمت علينا بما صنعت من إطلاق أصحابي من الأسر، ثم انثنى خارجًا من عند ماهان وأصحابه من حوله، وقدم له جواده فركبه وركب أصحابه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمر ماهان أصحابه وحجابه أن يسيروا معهم حتى يبلغوهم. قال: ففعل القوم ذلك ووصل خالد وأصحابه إلى

الأمير أبي عبيدة - رضي الله عنهم - أجمعين وسلموا عليه، وفرح المسلمون بخلاص أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحدث خالد أبا عبيدة بكل ما جرى لهم. ثم قال خالد: والله ما كان ماهان ليطلق لنا أصحابنا إلا فزعًا من سيوفنا.

فقال أبو عبيدة حين سمع ما مر لخالد ولماهان من الخطاب والجدال: هذا رجل حكيم إلا أن الشيطان غلب على عقله فعلام افترقتم؟ قال: على أننا نلتقي معهم ويعطى الله النصر لمن يشاء، فلما سمع أبو عبيدة - رضي الله عنه - ذلك جمع عظماء المسلمين وقام فيهم خطيبًا فحمد الله تعالى وأثنى عليه وذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - وأخبرهم أن العدو ينوي القتال في غداة غد وأمرهم بالأهبة، وأقبل فرسان المسلمين يحرِّض بعضهم بعضًا وأقبل خالد على أصحابه وهم عسكر الزحف، وقال لهم: اعلموا أن هؤلاء الكفرة الذين نصركم الله عليهم في المواطن الكثيرة قد حشدوا لكم جموع بلادهم، وإني دخلت إلى عسكرهم ونظرت إليهم فكأنهم النمل ولكنهم أصحاب عدة بلا قلوب ولا لهم من ينصرهم عليكم وهذه الوقعة بيننا وبينهم، وقد أيقنا أن القتال في غداة غد

وأنتم أهل البأس والشدة فما عندكم رحمكم الله تعالى؟ فتكلم أصحاب خالد وقالوا: أيها الأمير القتال بغيتنا والقتل في سبيل الله تعالى مسرتنا ولا نزال نصبر لهم على الحرب والطعن والضرب حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين ففرح خالد بقولهم، وقال لهم: وفقكم الله تعالى وأرشدكم.

قال الواقدي: فلم يبق أحد منهم تلك الليلة إلا وقد أخذ عدته وأهبته واستعد بآلة الحرب والقتال وباتوا فرحين بالجهاد والثواب وخائفين من العقاب. فلما أصبح القوم ولاح الفجر أذن المؤذنون في عسكر المسلمين حتى ارتفعت لهم جلبة عظيمة بالتوحيد وأسبغوا الوضوء لصلاتهم خلف أبي عبيدة، فلما صلوا ركبوا خيولهم إلى قتال عدوهم وعبوا صفوفهم للقتال وكانوا ثلاثة صفوف متلاصقة أول الصف لا يرى آخره، وأقبل خالد بن الوليد على أبي عبيدة - رضي الله عنه -، وقال: أيها الأمير من تجعل في الميسرة؟ قال كنانة بن مبارك الكناني أو قال عمرو بن معد يكرب الزبيدي والله أعلم أيهما كان فولاه وأمره أن يكون مكانه في الميسرة ففعل وضم إلى كنانة قيسًا.

حدثني موسى بن عوف عن جده يوسف بن معن قال: كان هذا الغلام من كنانة عارفًا بالحرب صاحب شجاعة وغارة، وقد ذكر أنه كان من شجاعته وشدة فراسته أنه كان يخرج من حي قومه بني كنانة وحده ويسير حتى يأتي أحياء العرب المعادين له، فإذا أشرف عليهم صرخ بهم وانتمى باسمه فتثور الرجال على أعناق الخيل، فلا يزال يقاتلهم ويقاتلونه، فإن ظفر بهم كان مراده وإن رأى منهم غلبة وعظم عليه أمرهم نزل عن جواده وسعى بين أيديهم فلا يلحقون منه إلا الغبار. فلما ولاه أبو عبيدة وقف حيث أمره أبو عبيدة - رضي الله عنه -. والتفت أبو عبيدة إلى خالد، وقال: يا أبا سليمان قد وليتك على الخيل والرجل فول أمر الرجالة من شئت. فقال خالد - رضي الله عنه -: سأولي أمرهم رجالًا لا يؤتى المسلمون من قبلهم. ثم نادى بهاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وقال له: ولاك الأمير على الرجالة، فقال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: انزل يا هاشم وكن معهم رحمك الله وأنا أوافقك.

قال الواقدي: ورتب أبو عبيدة صفوف المسلمين وعبأهم. قال خالد بن الوليد - رضي الله عنه -: ابعث الآن إلى أصحاب الرايات وقل لهم يسمعوا

مني، فدعا أبو عبيدة - رضي الله عنه - بالضحاك بن قيس، وقال له: يا ابن قيس أسرع إلى أصحاب الرايات، وقل لهم إن الأمير أبا عبيدة يأمركم أن تسمعوا لخالد وتطيعوا أمره! ففعل الضحاك ذلك، وجعل يدور على أصحاب الرايات حتى انتهى إلى معاذ بن جبل وقال له مثل ذلك. قال معاذ بن جبل: سمعًا وطاعة، ثم أقبل معاذ على الناس، وقال: أما إنكم قد أمرتم بطاعة رجل ميمون الغرة مبارك الطلعة، فإن أمركم بأمر فلا تخالفوه فيما يأمركم به، فما يريد غير صلاح المسلمين والأجر من رب العالمين! قال: فقلت لمعاذ بن جبل: إنك لتقول في خالد قولًا عظيمًا، فقال: ما أقول إلا ما قد عرفته فلله دره، وقال الضحاك: فرجعت إلى خالد وأخبرته بما تكلم به معاذ بن جبل وبما أثنى به عليه فأثنى عليه، وقال: هو أخي في الله تعالى، ولقد سبقت له ولأصحابه سوابق لا يفعلها خالد بن الوليد فمن يناله؟ قال الضحاك: فرجعت إلى معاذ بن جبل وأخبرته بما قال خالد وبما أثنى به عليه وما ذكره من أمره وبما أورده من علو شأنه، فقال معاذ: والله إني أحبه في الله تعالى، وأرجو من الله أن يكون قد أثابه بحسن نيته ونصيحته للمسلمين.

فلما وصى الضحاك بن قيس أصحاب الرايات بقول أبي عبيدة بالطاعة لخالد بن الوليد - رضي الله عنه - جعل خالد يسير بين الصفوف ويقف على كل راية، ويقول: يا أهل الإسلام إن الصبر قد عزم إن شاء الله تعالى على صحبتكم، والفشل والجبن سببان من أسباب الخذلان، فمن صبر كان حقًا على الله نصره على عدوه لأن الله معه، ومن صبر على حد السيوف فإنه إذا قدم على الله تعالى أكرم منزلته وشكر له فعله وسعيه والله يحب الشاكرين. قال: وما زال خالد - رضي الله عنه - يقول هذا الكلام لأهل كل راية حتى مر بجماعة الناس. ثم إن خالدًا جمع إليه خيل المسلمين من أهل الشدة والصبر ومن شهد معه الزحف، فقسمهم أربعة أرباع فجعل على أحدهم قيس بن هبيرة المرادي، وقال له: أنت فارس العرب فكن على هذه الخيل واصنع كما أصنع، وجعل على الربع الآخر ميسرة بن مسروق العبسي وأوصاه بمثل ذلك، ودعا عامر بن الطفيل على الربع الثالث وأوصاه بمثل ذلك ووقف خالد مع عسكر الزحف.

فلم تطلع الشمس إلا وقد فرغوا من تعبية صفوفهم للحرب. وأما ماهان فإنه أمر الروم بالزينة والأهبة للحرب ففعلوا ذلك، إلا أن المسلمين كانوا أسرع

في التعبية. وزحف الروم إلى أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونظروا إلى تعبيتهم فكان عسكر المسلمين صفوفًا كالبنيان المرصوص، وكأن الطير تظلهم والصفوف متلاصقة والرماح مشرعة مشتبكة. فلما رأى الروم ذلك داخلهم الفزع والجزع وألقى الله الرعب في قلوبهم، ثم إن ماهان عبى عسكره فجعل العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام في مقدمة الصفوف، وجعل عليهم جبلة وقدم أمامهم صليبًا من الفضة وزنه خمسة أرطال وهو مطلي بالذهب، وفي أربعة أركانه أربع جواهر تضيء كأنها الكواكب.

حدثني عدي بن الحارث الهمذاني، وكان ممن حضر الفتوح من أولها إلى آخرها. وكانت الصفوف التي صفها ماهان ثلاثين صفًا كل صف منها مثل عسكر المسلمين كله، وقد أظهر ماهان بين الصفوف القسوس والرهبان وهم يتلون الإنجيل ويترنمون وأكثر من الرايات والأعلام والصلبان، فلما تكاملت صفوفهم وإذا ببطريق عظيم الخلقة قد برز وعليه درع مذهب ولأمة حرب مليحة وفي عنقه صليب من الذهب مرصع بالجوهر وتحته فرس أشهب، وكان البطريق من عظماء الروم ممن يقف عند سرير الملك، فلما برز جعل يرطن

بكلام الروم بصوت كالرعد فعلم المسلمون أنه يطلب البراز، فتوقف المسلمون عن الخروج إليه فصاح خالد، وقال: يا أصحاب رسول الله هذا العلج الأغلف يدعوكم لقتاله وأنتم تتأخرون، فإن لم تخرجوا إليه وإلا خرج خالد! وهمَّ بالخروج وإذا بفارس قد خرج من المسلمين على برذون أشهب عظيم الخلقة يشبه برذون المشرك وعلى المسلم لأمة حسنة وعدة سابغة وقصد نحو البطريق فلم يكن في رجال خالد من يعرف الفارس الذي خرج!

فقال خالد لهمَّام مولاه: اخرج إلى هذا الفارس وانظر من هو من المسلمين؟ فمضى همام إليه وقد همَّ أن يقرب من البطريق فصاح به: من أنت يا ذا الرجل من المسلمين -رحمك الله-؟ فقال: أنا روماس صاحب بصرى! فلما أخبر خالد به قال: اللهم بارك فيه وزد في نيته! فلما صار بإزاء العلج كلمه بلسانه، فقال الرومي وقد عرفه: يا روماس كيف تركت دينك وصبأت إلى دين هؤلاء القوم؟ فقال روماس: هذا الدين الذي دخلت فيه دين جليل شريف، فمن تبعه كان سعيدًا ومن خالفه فقد ضل. ثم حمل روماس على العلج وحمل العلج على روماس وتقاتلا ساعة حتى عجب الجمعان منهما، فوجد العلج من

روماس غفلة فضربه ضربة أسال دمه. فأحس روماس بالضربة، وقد وصلت إليه فانثنى راجعًا نحو المسلمين فأتبعه العلج طالبًا له لا يقصر عن طلبه، وكاد أن يدركه فصاح به فرسان المسلمين من الميسرة والميمنة فقوي قلب روماس وداخل العلج الجزع والخوف من صياحهم والهلع وقصر عن طلبه، ودخل روماس عسكر المسلمين والدم على وجهه فائر فأخذه جماعة من المسلمين فشدوا جراحه وشكروه على فعله ووعدوه بالغفران من الله تعالى وهنئوه بالسلامة.

ولما رجع روماس منهزمًا أعجب العلج بنفسه وأظهر عناده وأغلظ في كلامه وطلب البراز فهم أن يخرج إليه ميسرة بن مسروق العبسي، فقال له خالد: يا ميسرة إن وقوفك في مكانك أحبَّ إلي من خروجك إلى هذا العلج وأنت شيخ كبير وهذا علج عظيم الخلق، والشاب شجاع ولا أحب أن تخرج إليه، فإنه لا يكاد الشيخ الكبير يقاوم الشاب الحدث، ولاسيما أن شعرة من مسلم أحب إلى الله تعالى من جميع أهل الشرك! فرجع ميسرة إلى مكانه وهم أن يخرج إليه عامر بن الطفيل، وقال: أيها الأمير إنك قد عظمت قدر هذا الرومي

الذميم وأدخلت في قلوب المسلمين منه الرعب فقال خالد: إن الفرسان تعرف أكفاءها في الحرب وما يخفى علي ما هو فيه من الشجاعة والشدة وأنت لا تقاومه لأنه ما برز بين أصحابه وبين شجاعته إلا وهو فارس في قومه فقف في مكانك. فوقف عامر بن الطفيل في مكانه ولم يخالف! والعلج يدعو إلى البراز والحرب.

فأقبل إلى خالد الحارث بن عبد الله الأزدي، فلما وقف بين يديه قال: أيها الأمير أخرج إليه؟ قال خالد: لعمري إن لك جسارة وقوة وشدة، فإن شئت أن تخرج فاخرج على اسم الله واعزم فأخذ الأزدي أهبته وهمَّ أن يخرج. فقال خالد - رضي الله عنه -: على رسلك يا عبد الله حتى أسألك. فقال: اسأل. قال خالد: هل بارزت أحدًا قبله؟ قال: لا. قال: فارجع يا ابن أخي ولا تخرج فإنك غير مجرب الحروب وهذا فارس قد جرب الحرب وجربته وعرف مصادرها؟ وما أحب أن يخرج إليه إلا رجل مثله بصير بالحروب! وجعل خالد يقول ذلك وينظر إلى قيس بن هبيرة... فقال: يا أبا سليمان! إني أظنك تعرض بي وإياي تعني أن أبرز إليه.. قال خالد: ابرز على اسم الله تعالى فإنه كفء والله تعالى

يعينك عليه. وخرج قيس بن هبيرة وأجرى جواده حتى لين عريكته وكسر حدته ثم سرحه نحو البطريق وهو يقول: بسم الله وعلى بركة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقرب من البطريق فلما نظر العلج إلى فعاله علم أنه فارس شديد من فرسان المسلمين فعدل نحوه وقصد إليه وتحاملا قال فبادره قيس بن هبيرة وضربه على هامته فتلقاها العلج في حجفته فَقَدَّ سيف ابن هبيرة الحجفة ووصل إلى البيضة فاشتبك فيها وهمَّ أن يخرج سيفه فامتنع عليه!

وضرب العلج قيس بن هبيرة على حبل عاتقه فثبت للضربة والتقيا بعد الضربتين فطرح العلج نفسه عليه يريد أسره وهو جبار من الجبابرة! وكان قيس بعد رجوعه من قتال أهل الردة قد عود نفسه الصيام والقيام وهو نحيف الجسم، فلما نظر قيس إلى العلج وقد ظهر عليه انجذب من يده وبعد عنه وجعل ينظر إليه شزرًا ويضمه له مكرًا إلا أن سيفه قد خرج من يده فثنى عنان فرسه يريد عسكر المسلمين ليأخذ سيفًا ويعود إلى القتال وقد أيس من نفسه، فلما عطف راجعًا صاح العلج في أثره وسعى في طلبه فقصر قيس في سيره وقال في نفسه: أنت مرادك الشهادة وتهرب من هذا العلج فرجع إلى العلج فصاح به خالد: يا

قيس سألتك بالله ورسوله إلا رجعت وتركت حدتها عليَّ! فقال قيس: يا خالد لقد أقسمت عليَّ بعظيمين ولكن إن رجعت إليك أتزيد في أجلي؟ قال: لا، قال: فلم اختار الفرار وأكون من أصحاب النار؟! بل أصبر وأفوز بالغفران من الله تعالى؛ ثمَّ إنه عطف على قرنه وليس في يده سيف بل استل خنجرًا كان معه على وسطه.

ونظر خالد إلى قيس بن هبيرة وليس في يده سيف فقال: من يأخذ هذا السيف ويدفعه إلى قيس ابتغاء ثواب الله تعالى. قال عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -: أنا يا أبا سليمان. فقال خالد: أنت والله لها يا ابن الصديق! ثم أخذ عبد الرحمن سيفه ولحق قيس بن هبيرة يريد أن يناوله السيف، فلما نظرت الروم إلى عبد الرحمن وقد لحق بقيس ظنوا أنه يريد أن يعاون قيسًا على صاحبهم فخرج عليه بطريق آخر وأقبل إلى صاحبه ووقف بإزائه، فدفع عبد الرحمن السيف إلى ابن هبيرة ووقف معه وجعل البطريق الآخر يتكلم بكلام لا يفهمه عبد الرحمن. فقال عبد الرحمن: يا ويلك ما الذي تقول فما نعرف كلامك؟! فخرج إليه ترجمان وقال له: يا معشر العرب ألستم

ذكرتم أنكم أصحاب نصفة وحق؟ قال عبد الرحمن: بلى. فقال الترجمان: فما رأينا من نصفتكم شيئًا يخرج فارسان إلى فارس؟! قال عبد الرحمن: إنما خرجت لأعطي صاحبي هذا السيف وأرجع ولو خرج إلينا منكم مائة لواحد ما كبر علينا ولا عظم لدينا! وها أنتم ثلاثة وأنا واحد وأنا لكم كفء! فأخبر الترجمان صاحبه بذلك فجعل ينظر إليه شزرًا، فقال عبد الرحمن: يا قيس قد تعبت فقف وتفرج عليَّ وانظر ما يكون مني ومنهم. ثم حمل عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - على الذي كان يخاطبه فطعنه في نحره فأخرج السنان يلمع من ظهره فوقع مجندلًا ونظر العلجان إلى صاحبهما مجندلًا فحملا على عبد الرحمن وقصداه فأراد قيس بن هبيرة أن يعاونه عليهما فقال له عبد الرحمن: سألتك برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبحق أبي بكر إلا تركت عبد الرحمن يصطلي بهما فإن قتلت فأنت شريكي في الثواب وأقرئ عائشة مني السلام وقل لها أخوك قد لحق ببعلك وأبيك، فتأخر قيس عنه وقد عجب من فعاله! فحمل عبد الرحمن على أحد العلجين وهو الأول فطعنه برمحه فاشتبك السنان في درعه فرمى عبد الرحمن الرمح من يده وانتضى سيفه. وقام في الركاب وضرب العلج بسيفه ضربة طرحه بها نصفين. ونظر

العلج الثالث إلى عبد الرحمن وجراءته فبقي حائرًا متعجبًا من حاله ونظر إلى البطريق وهو متحير باهت فبانت له فيه غفلة. فقال: ما يوقفك يا قيس؟! وحمل على البطريق وضربه ضربة هشم بها هامته فسقط إلى الأرض صريعًا، فلما نظرت الروم إلى أصحابهم قال بعضهم لبعض: ما هؤلاء العرب إلا شياطين.

وأخبر ماهان بفعالهم فقال لقومه: إن الملك كان أخبر بهؤلاء القوم وحق المسيح لقد أعلم أن لكم أمرًا فإن لم تحملوا عليهم بكثرتكم وإلا فما تقوم لكم قائمة! فأتاه بطريق من البطارقة وسارَّ ماهان في أذنه طويلًا ثم انزاح عنه، وقد أصفرَّ وجه ماهان وسكت كأنه أخرس! فاستخبروا ماهان عما حدَّثه البطريق فلم يخبرهم! قال: فحدَّث من رأى ذلك أنه سأل جبلة بن الأيهم فقال: لما أخبر ماهان بخبر الثلاثة وفيهم البطريق الأول. قال ماهان: إنهم منصورون عليكم! فقال له البطريق في أذنه: أيها الملك الحق ما قلت اعلم أني رأيت البارحة في منامي كأن رجالًا نزلوا من السماء إلى الأرض وهم على دواب بلق وشهب وعليهم كامل السلاح، وأحدقوا بهؤلاء العرب ونحن قيام بإزائهم، لا يخرج أحد من عسكرنا إلا قتلوه حتى أتوا على أكثرنا، وأظنُّ أنَّهم هؤلاء الذين نراهم

في اليقظة، لأن واحدًا منهم قتل ثلاثة منَّا وما هم إلا منصورون علينا من السماء! فكسر بهذا قلب ماهان فلم يرد جوابًا. فاجتمع القوم يسألونه عما قاله البطريق فلم يخبرهم، فلما أكثروا عليه السؤال تكلم فيهم كالخطيب، وقال: يا أهل هذا الدين إنكم إن لم تقاتلوا كنتم من الخاسرين وغضب عليكم المسيح وإن الله - عز وجل - لم يزل لدينكم ناصرًا ومظهرًا وإن لله الحجة عليكم إذ بعث فيكم رسولًا وأنزل عليه كتابًا ولم يتبع رسولكم الدنيا وأمركم أن لا تتبعوها وفي كتابه لا تظلموا فإنه لا يحب الظلم ولا الظالمين، فلما اتبعتم الدنيا وظلمتم وخالفتم نُصِرَ أعداؤكم عليكم فما عذركم عند خالقكم وقد تركتم أمر نبيكم وما أنزل عليكم في كتاب ربكم؟ وهؤلاء العرب بإزائكم يريدون قتل فرسانكم وسبي ذراريكم ونسائكم وأنتم على المعاصي والذنوب ولا تخافون من علام الغيوب؟ فإن نزع الله سلطانكم من أيديكم وأظهر عدوكم عليكم فذلك بحق منه وعدل لأنكم لا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر!

وكان ماهان لما سمع كلام البطريق الذي رآه في المنام أمره أن يكتمه، وأما قيس بن هبيرة وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق فأخذا سلاح القتلى وأسلابهم

ورجعا إلى المسلمين فدفعا السلب إلى أبي عبيدة فقال هو لكما، ومن قتل فارسًا فله سلبه فكذا عهد إلينا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -. فأخذا السلب ووقف قيس في موضعه الذي أقامه خالد فيه. ورجع عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق إلى ميدان الحرب فجال بين الصفين، وكان قد ركب أشهب البطريق الذي قتله فرآه لا ينبعث تحته كما عهد من خيل العرب فرجع وغيره بفرس غيره وحمل على ميمنة الروم فشوش صفوفهم وقتل منهم فارسين! ورجع فحمل على القلب ثم انثنى على الميسرة فرشق بالسهام فخرج إليه علج من علوج الروم فما جال غير ساعة حتى قتله فخرج آخر فقتله. فقال خالد: اللهم ارعه بعينك واحفظه فإن عبد الرحمن قد اصطلى اليوم الحرب بنفسه، ثم إن خالدًا صاح به: يا عبد الرحمن بحق شيبة أبيك وبيعته إلا رجعت إلى مكانك فرجع حين أقسم عليه! قال حزام بن غنم: قلت لرجل ممن شهد اليرموك: أكانت النساء معكم مشاهدات القتال. قال: نعم إحداهن أسماء بنت أبي بكر زوجة الزبير بن العوام وخولة بنت الأزور ونسيبة بنت كعب وأم أبان زوجة عكرمة بن أبي جهل وعزة بنت عامر بن عاصم الضمري مع زوجها مسلمة بن

عوف الضمري ورملة بنت طليحة الزبيري ورعلة وأمامة وزينب وهند ويعمر ولبنى وأمثالهن -رضي الله عنهن- فلقد كن يقاتلن قتالًا يرضين به الله ورسوله.

نساء المسلمين في المعركة

قال الواقدي: حدثني عبد الملك بن عبد الحميد وكان قد شهد وقعة اليرموك وقال: أولها شرر نار وآخرها ضرام الحرب، وإن كل يوم يأتي من القتال أصعب من اليوم الآخر، قال عمرو بن جرير: فشهدنا في اليوم الأول حربًا يسيرًا وذلك أن ماهان أمر عشرة من الصفوف أن تحمل على المسلمين بعد أن قتل عبد الرحمن من قتل وحمل المسلمون عليهم فالتقت الرجال بالرجال فنظر أبو عبيدة وكان واقفًا إلى ماهان ولم يحمل على المسلمين فعلم أن الأمر يصعب فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وجعل يتلو قوله تعالى: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

ولم تزل الحرب بين الفريقين من قيام الشمس في قبة السماء إلى أن همَّت بالغروب ولم ينفصل الجمعان حتى فرَّق الليل بينهم، وهم ما يعرفون إلا

بالشعار، وخرج كل قوم من العرب يهتفون بشعارهم وينادون بأنسابهم، ورجعت كل فئة إلى مكانها. واستقبل المسلمين نساؤهم فصارت تجعل المرأة مرطها تمسح به عن وجه زوجها وتقول له: «أبشر بالجنة يا ولي الله»، وبات المسلمون في خير وسرور وأوقدوا النيران. وذلك أن القتل في أول يوم لم يتبين في الفريقين، بل قتل من الروم يسير، ومن المسلمين عشرة: رجلان من حضرموت أحدهما يقال له مازن والثاني يقال له صارم، وثلاثة من عسفان: رافع ومجلي وعلي، وواحد من الأنصار وهو عبد الله بن الأخرم، وثلاثة من بجيلة، وواحد من مراد وهو سويد ابن أخي قيس بن هبيرة فحزن عليه قيس لما فقده فعلم أنه في القتلى!

فخرج قيس وخرج معه رجال من قومه حتى أتوا موضع المعركة وفتشوا عليه فلم يروه فلما همَّ بالرجوع نظر إلى نار قد أقبلت من جهة الروم يطلبون مكان الوقعة وهم يطلبون بطريقًا كان معظمًا عندهم. فقال قيس لجماعته: اخمدوا ناركم فوالله لآخذن بثأر ابن أخي من هؤلاء القوم. فأخمدوا نارهم ورقدوا بين القتلى وتأهبوا للقتال، وإذا بالروم قد أتوا وهم نحو مائة وهم في

زينة عظيمة وآلة وعدة وكان مع قيس سبعة من قومه فقالوا له: إن القوم مائة ونحن سبعة وقد تولانا التعب! فقال قيس: ارجعوا أنتم وإني والله أطلب الموت لا أريد غيره وأجاهد في الله حق جهاده. فعجبوا من قوله ووقفوا معه وقفة الكرام. وأقبلت الأعلاج يدورون بين القتلى، وقد وقفوا بالعلج الذي برز أولًا وقتله ابن أبي بكر الصديق، فلما احتملوه وولوا يريدون عسكرهم صاح فيهم قيس من ورائهم وتابعه أصحابه بالصياح فذهلوا ورموا البطريق، ووضع المسلمون السيف فيهم، وجعلوا يقتلونهم قتلًا ذريعًا! وكان قيس إذا ضرب فيهم يقول: هذا عن ابن أخي. فقتل منهم ستة عشر رجلًا وقتل أصحابه أكثر القوم وانفلت الباقون.

فلما فرغ قيس من القوم عاد يطلب ابن أخيه نحو عسكر الروم فسمع أنينًا فأقبل نحوه، فإذا هو ابن أخيه سويد بن بهرام المرادي، فلما عرفه بكى، فقال: ما أبكاك يا ابن أخي؟ فقال: يا عمَّاه إني تبعت القوم فرجع إليَّ واحد منهم وطعنني في صدري وإني لأعالج منها أمرًا عظيمًا، وهؤلاء الحور العين في حذائي ينتظرون خروج روحي، فبكى قيس وقال: يا ابن أخي لكل أجل كتاب

ولعل أن يكون في أجلك طول! فقال: هيهات والله يا عم! أفتقدر أن تحملني إلى عسكر المسلمين فأموت هناك؟ قال: أجل. قال: ثم احتملته على ظهري وأقبلت به إلى عسكر المسلمين وقصدت به إلى رحله وسجيته. وسمع أبو عبيدة بمجيء قيس فأتى إليه ورأى الغلام يجود بنفسه فجلس عند رأسه وبكى وبكت المسلمون فقال له أبو عبيدة: كيف تجدك يا ابن أخي؟ فقال: بخير والله وغفران. وجزى الله محمدًا عنَّا خيرًا، ولقد صدقنا في قوله وهذه الحور تنادي! وتشخَّص فمات، فما برحنا حتى واريناه بالتراب. وخبَّره قيس بمن قتل في تلك الليلة من المشركين ففرح فرحًا شديدًا وعلم أن ذلك علامة النصر. وبات الناس في ليلتهم يقرؤون القرآن ويصلُّون ويسألون الله المعونة والنصر.

وأما ماهان فإنه لما رجع إلى عسكره اجتمع إليه البطارقة والرهبان والقسوس فقدموا له طعامًا ومدوا له سماطًا فلم يأكل منه شيئًا مما وقع في نفسه من الرؤيا التي رآها البطريق وكان ماهان يود لو ترك الأمر وصالح على أداء الجزية ولكنه كان مغلوبًا على أمره! وأقبلت الملوك والقسوس والبطارقة والرهبان على ماهان وقالوا: ما بال الملك امتنع من الطعام؟ فإن كان ذلك من

غصة على من مات وعلى ما جرى عليه من الحرب فإن الحرب سجال فيوم لك ويوم عليك. واعلم أيها الملك أن القوم بنا ظافرون وما نملكهم إلا أن نحمل عليهم فلا يبقى منهم أحد. قال ماهان: ما أظنكم غير منصورين إلا من تغير أديانكم والجور في سلطانكم فبهذا نصرت العرب عليكم، فقام إليه رجل وقال: أيها الملك عشت الدهر وأنا رجل من أهل دينكم وكان لي مائة رأس غنم وكان فيها ولدي يرعاها فضرب عظيم من عظماء أصحابك الفسطاط إلى جانبها ثم إنه عدا عليها فأخذ منها حاجته وأخذ بقيتها أصحابه فجاءته زوجتي تشكو إليه انتهاب غنمي، فلما رآها أمر بها فأدخلت إليه فطال مكثها عنده فلما رأى ولدها ذلك دنا من الفسطاط فإذا هو يجامع أمه فصاح الغلام فأمر البطريق بقتل الغلام فقتل فأتيت أريد خلاص ولدي وزوجتي فأمر بي فضربت بالسيف فتلقيت الضربة بيدي فقطعها، ثم إنه أخرج يده فإذا هي مقطوعة!

فغضب ماهان عند ذلك غضبًا شديدًا وقال للمعاهد: أتعرف هذا البطريق الذي فعل بك ذلك؟ قال: نعم هو هذا وأومأ بيده إلى بطريق من البطارقة فنظر إليه ماهان مغضبًا! فغضب البطريق وغضب البطارقة لغضبه ومالوا على

المعاهد فضربوه بأسيافهم حتى قطعوه وماهان ينظر إليهم فزاد غضبه وقال: خذلتم وهلكتم وحق المسيح يا ويلكم ترجون النصر وأنتم تفعلون هذه الفعال أما تخافون القصاص غدًا وأن الله ينتقم منكم وينزع منكم صالح ما أعطاكم ويعطيه غيركم ممن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، فوالله أنتم الآن عندي كالكلاب وسوف ترون عاقبة هذا كله وإلى أي مصير يكون مصيركم. ثم إنه قام وتركهم، فلما انصرف القوم ولم يبق عنده إلا بطريق واحد قال له: أيها الملك والله إن القوم لكما تقول وما أظن إلا أننا مغلوبون! فأقبل ماهان يفكر طول ليلته فيما يصنع في أمر المسلمين، فلما أصبح الصباح عبى المسلمون صفوفهم ونظروا إلى عسكر الروم وإذا فيه ارتعاد وانزعاج فعلموا أن لهم أمرًا. قال أبو عبيدة: دعوهم ولا تبقوا عليهم فإن الباغي مخذول.

واجتمعت البطارقة والملوك الأربعة إلا ماهان، وهم قناطير وجرجير والديرجان وقورين وهم أصحاب الجيش يستأذنونه في الحرب فقال ماهان: وكيف لي أن أقاتل بقوم يظلمون؟! إن كنتم أحرارًا فقاتلوا عن سلطانكم وامنعوا عن حريمكم! فقالوا: الآن أحببنا الحرب فوحق المسيح لا نفارقهم

حتى ننفيهم من الشام إلى بلادهم أو يقتلونا أو نقتلهم فثق بقولنا وانهض بنا إليهم، فإذا عزمت على القتال فدع كل واحد منا يقاتل يومًا حتى تعرف منا من هو أفرس وأشد ويضجر المسلمون من المطاولة ونجمع عيالنا وأطفالنا وأموالنا، فإن كانت على العرب رددنا كل شيء إلى مكانه، وإن كانت للعرب علينا ألحقوا ببلادهم وقومهم ويكون الأمر بيننا وبينهم في يوم واحد أو يومين. فقال لهم ماهان -لعنه الله-: هذا هو الرأي أمهلوا إلى أن أكتب إلى الملك بمثل ذلك.

ثم إنه كتب إلى هرقل: أما بعد فأسأل الله لك أيها الملك ولجيشك النصر ولأهل سلطانك العز والنصر. وإنك بعثتني فيما لا يحصى من العدد. وإني قدمت على هؤلاء العرب فنزلت بساحتهم وأطمعتهم فلم يطمعوا وسألتهم الصلح فلم يقبلوا. وجعلت لهم جعلًا على أن ينصرفوا فلم يفعلوا! وقد فزع جند الملك منهم فزعًا شديدًا، وإني خشيت أن يكون الفشل قد عمَّهم والرعب قد دخل في قلوبهم وذلك لكثرة الظلم فيهم! وقد جمعت ذوي الرأي من أصحابي وذوي النصيحة للملك وقد أجمع رأينا على النهوض إليهم جميعًا في

يوم واحد ولا نزايلهم حتى يحكم الله بيننا فإن أظهر الله عدونا علينا فارض بقضاء الله، واعلم أن الدنيا زائلة عنك فلا تأسف على ما فات منها ولا تغتبط منها بشيء في يدك، والحق بمعاقلك وبدار ملكك بالقسطنطينية. وأحسن إلى رعيتك يحسن الله إليك، وارحم ترحم، وتواضع لله يرفعك الله فإنه لا يحب المتكبرين. ولقد عملت حيلة في إحضار أميرهم خالد ومنيته ورغبته فما أجاب! ورأيته على الحق مقيمًا فأردت أن أفتك به وأمكر فخفت عاقبة المكر والغدر وما نُصِرَ هؤلاء إلا بالعدل واتباع الحق بينهم، والسلام، ثم طوى الكتاب وبعث به مع أصحابه من العلوج.

قال الواقدي: وبقي ماهان سبعة أيام أخر بعد الوقعة الأولى لم يقاتل المسلمين ولم يقاتلوه، وبعث أبو عبيدة برجل من عيونه ينظر ما الذي أخر الروم عن القتال؟ فغاب الرجل يومًا وليلة ثم عاد وأخبر أبا عبيدة أن ماهان قد كاتب الملك وهو منتظر الجواب. فقال خالد بن الوليد: ما تأخر ماهان عن قتالنا إلا وقد وقع الفزع في قلبه فازحف بنا إليهم. فقال أبو عبيدة - رضي الله عنه -: لا تعجل فإن العجلة من الشيطان. وكان أبو عبيدة رجلًا ليِّن العريكة

يحب الرفق. فلما كان في اليوم الثامن نظر ماهان إلى تلهف أصحابه على الحرب والقتال فعزم أن يلقى بهم المسلمون وقد فرح بنشاطهم فدعا برجل من المتنصرة من لخم وقال له: اذهب فادخل هؤلاء العرب وتجسس لي أخبارهم وانظر ما عندهم. فمضى اللخمي حتى دخل عسكر أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأقام فيهم يومًا وليلة يطوف في عسكرهم وليس أحد من المسلمين ينكره وهم آمنون، وليس لهم همة إلا إصلاح شأنهم والصلاة والقرآن والتسبيح، وليس فيهم عدوان ولا ظلم ولا أحد يتعدى على أحد! وقصد الموضع الذي فيه أبو عبيدة - رضي الله عنه - فنظر إليه كأنه أضعف ضعيف في العرب: ساعة يجلس على الأرض، وساعة ينام عليها، فإذا كان وقت الصلاة قام وأسبغ الوضوء، وأذن المؤذنون وصلى بالناس!

ونظر المتنصر إلى المسلمين وهم يصنعون كصنعه، فقال المتنصر: إن هذه طاعة حسنة ويوشك أنهم ينصرون! فرجع إلى ماهان وحدَّثه بما رأى من القوم وما عاينه، وقال: أيها الملك إني جئتك من عند قوم يصومون النهار ويقومون الليل، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولو سرق واحد منهم ولو كان

كبيرهم قطعوه، ولو زنى رجموه! لا يغلب هواهم على الحق، بل الحق عندهم غالب، وأميرهم كأضعف من فيهم إلا أنه مطاع عندهم: إذا قام قاموا وإن قعد قعدوا. مناهم القتال، ومرادهم أن يموتوا شهداء في قتالكم؟ ما تأخروا عن قتالكم إلا ليكون البغي منكم إذا بدأتموهم. فقال ماهان: هؤلاء القوم منصورون غير أنِّي قد وجدت حيلة أعملها عليهم فقال المتنصر: ما الحيلة أيها الملك؟ فقال ماهان: ألست زعمت أنهم لا يبدؤون بالقتال حتى نقاتلهم فنكون نحن الباغين؟ قال: نعم. قال: فإنا لا نطلب الحرب بل نطول بيننا وبينهم وندهمهم على حين غفلة دون عدة منهم ولا أخذ حذرهم فعسى أن نظفر بهم.

ثم إن هامان جمع الملوك وجعل يعقد لهم الرايات والصلبان حتى عقد ستين ومائة صليب تحت كل صليب عشرة آلاف، وكان أول صليب عقد لقناطير وكان نظيره في الرتبة وأمره أن يكون في الميمنة. ثم عقد صليبًا للديرجان وضم إليه الأرمن والنجد والنوبة والروسية والصقالبة. ثم عقد لابن أخت الملك صليبًا على الإفرنج والهرقلية والقياصرة واليرفل والدوقس، وعقد لجبلة بن الأيهم عقدًا وضم إليه المتنصرة من لخم وجذام وغسان وضبة وأمره

أن يكون على المقدمة، وقال: أنتم عرب وأعداؤنا عرب والحديد لا يقطعه إلا الحديد، ثم فرَّق الأعلام في أجناد عسكره. فما بان الصباح وأضاء بنوره ولاح حتى فرغ من تعبية جيوشه وترتيب طلائعه وأمر بمضرب له فضرب على كثيب عال على جانب اليرموك يشرف منه على العسكرين، وأوقف عن يمينه ألف فارس عتاة حماة الروم شاكين السلاح وعن يساره كذلك وهم الملكية وأصحاب السرير وأمرهم باليقظة. وقال: أي كرب يكون على العرب أعظم من هذا فإنكم على تعبية وهم على غير أهبة، فإذا طلعت الشمس ورأيتم المسلمين على غير تعبية فاحملوا عليهم من كل جانب ومكان، فما هم في عسكرنا إلا كالشامة البيضاء في جلد الثور الأسود.

حدثني جواد بن أسيد السكاسكي عن أبيه أسد بن علقمة قال: فلما انشق الفجر أذَّن المؤذِّن وتقدم أبو عبيدة وصلى بالناس وهو لا يعلم بمكيدة ماهان فقرأ في أول ركعة «وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ»، حتى قرأ «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ» إذ هتف بهم هاتف وهم في الصلاة وهو يقول: «ظفرتم بالقوم ورب العزة وما يغني عنهم كيدهم شيئًا وما أجرى الله هذه الآية على لسان أميركم إلا بشارة لكم».

فلما سمع المسلمون كلام الهاتف عجبوا مما سمعوا، ثم قرأ في الركعة الثانية «وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا» إلى قوله: «فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۞ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا»، وإذا بالهاتف يقول: تم الفأل وصح الزجر وهذه علامة النصر. فلما فرغ أبو عبيدة من صلاته قال: يا معاشر المسلمين، هل سمعتم الهاتف؟ قالوا: نعم، سمعنا قائلًا يقول كذا وكذا، فقال أبو عبيدة: والله هذا هاتف النصر وبلوغ الأمل فأبشروا بنصر الله ومعونته فوالله لينصرنكم الله وليرسلن عليهم سوط عذاب كما أنزل على القرون الأول، ثم قال أبو عبيدة: معاشر القوم إني رأيت الليلة في منامي رؤيا تدل على النصر على الأعداء والمعونة من الملأ الأعلى. فقالوا: أصلح الله شأن الأمير فما الذي رأيت؟ قال: رأيت كأني واقف بإزاء أعدائنا من الروم إذ حف بنا رجال وعليهم ثياب بيض لم أر كهيئتها حسنًا، لبياضها إشراق ونور يغشى الأبصار، وعلى رؤوسهم عمائم خضر وبأيديهم رايات صفر وهم على خيول شهب، فلما اجتمعوا حولي قالوا: تقدموا على عدوكم ولا تهابوهم فإنكم غالبون، فإن الله ناصركم، ثم دعوا برجال منكم وسقوهم بكأس كان معهم فيه شراب، وكأني أنظر عسكرنا وقد دخل في عسكر الروم فلما رأونا ولوا بين أيدينا منهزمين!

فقال رجل من المسلمين: أصلحك الله أيها الأمير وأنا رأيت الليلة رؤيا! فقال أبو عبيدة: خيرًا تكون إن شاء الله تعالى ما الذي رأيت -يرحمك الله-؟ فقال: رأيت كأنا خرجنا نحو عدونا فصاففناهم للحرب، وقد انقضت عليهم من السماء طيور بيض لها أجنحة خضر ومخاليب كمخاليب النسور، فجعلت تنقض عليهم كانقضاض العقبان، فإذا جاءت للرجل ضربته ضربة فيقع قطعًا. ففرح المسلمون بتلك الرؤيا وقال بعضهم لبعض: أبشروا فقد أمنكم الله وأيدكم بالنصر وأمدكم بملائكته تقاتل معكم كما فعل بكم يوم بدر. فسُرَّ أبو عبيدة بذلك، وقال: هذه رؤيا حسنة، وهي حق وتأويلها النصر وإني أرجو من الله تعالى النصر وعاقبة المتقين! فقال رجل من المسلمين: أيها الأمير ما وقوفنا عن هؤلاء الكلاب الأعلاج وما انتظارك للحرب وعدو الله يريد كيدنا بمطاولته وما تأخر عنا إلا لبلية يريد أن يوقعنا بها.

قال أبو عبيدة: إن الأمر أقرب مما تظنون. قال سعيد بن رفاعة الحميري: فبينما نحن كذلك إذ سمعنا الأصوات قد علت والزعقات قد ارتفعت من كل جانب يهتفون بالقتال وأن الروم قد زحفت إلينا فظن أبو عبيدة أن المسلمين قد

كبسوا في وجه السحر فقام ليرى وكان على حرس المسلمين تلك الليلة سعيد بن زيد وعمرو بن نفيل العدوي رضي الله عنهما. إذ أقبل سعيد وهو ينادي: النفير النفير حتى وقف أمام أبي عبيدة ومعه رجل من المتنصرة، فقال: أيها الأمير! ماهان كاد المسلمين بتخلفه عن الحرب، وها هو قد عبى عساكره وصف جيوشه وزحف علينا زحف من يريد الكبسة بنا، ونحن على غير أهبة ولا عدة، وهذا الرجل قد أقبل إلينا راغبًا في الإسلام محذرًا لنا من بأسه ويزعم أن ماهان قد قدم إلينا حماة البطارقة، وقد اتفق رأيهم على أن يقاتلنا كل ملك من ملوكهم بمن معه وهذا أصعب القتال. ونظر المسلمون إلى رايات الروم تقرب منهم والصلبان تدنو. فقال أبو عبيدة: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم قال: أين أبو سليمان؟ فأجابه تلبيةً، فقال له: أنت لي يا أبا سليمان فابرز في أبطال المسلمين وصد عن الحريم إلى أن تأخذ الرجال صفوفها وتستعد بآلات حربها، فقال: حبًا وكرامة... فنادى خالد: أين الزبير بن العوام، أين عبد الرحمن بن أبي بكر، أين الفضل بن العباس، أين يزيد بن أبي سفيان؟ أين...... ؟ وجعل خالد يدعوهم رجلًا بعد رجل من أصحاب رسول الله –

صلى الله عليه وسلم - وكل رجل منهم يلقى جيشًا فاجتمعوا إلى خالد بأجمعهم واشتغل أبو عبيدة بترتيب الصفوف وتعبية العساكر.

فأقبل أبو سفيان إلى أبي عبيدة، وقال له: أيها الأمير مر نساءنا أن يعلون على هذا التل. قال: نعم الرأي ما رأيت! فأمرهنَّ بذلك ففعلن وعلون على التل وحصنَّ أنفسهن وأولادهن ومعهن الأطفال والأولاد، فقال لهن أبو عبيدة: خذن بأيديكن أعمدة البيوت والخيام واجعلن الحجارة بين أيديكن وحرضن المؤمنين على القتال، فإن كان الأمر لنا والظفر فكن على ما أنتن عليه وإن رأيتن أحدًا من المسلمين منهزمًا فاضربن وجهه بأعمدتكنَّ واحصبنه بحجارتكنَّ وارفعنَّ إليه أولادكن وقلن له: قاتل عن أهلك وعن دين الإسلام، فقالت النساء: أيها الأمير أبشر بما يسرك. فلما حصَّن أبو عبيدة النساء على التل أقبل يعبي جيشه وقد ابتدر الناس القتال بعدما عبَّاهم ميمنة وميسرة وقلبًا وجناحين وقدم أصحاب الرايات وكانت راية المهاجرين صفراء وفيها أبيض وأخضر وأسود وسائر القبائل أيضًا راياتهم مختلفة، وجعل المهاجرين والأنصار في القلب وأظهر المسلمون العدة والسلاح، وجعل عسكره ثلاثة صفوف؛ فصف

فيه النبلة من أهل اليمن، وصف فيه أصحاب الخيل والعدة، وقسَّم الخيالة ثلاثة فرق فجعلها في الثلاثة صفوف، واستعمل عليهم ثلاثة من المسلمين، أحدهم غياث بن حرملة العامري، والثاني مسلمة بن سيف اليربوعي، والثالث القعقاع بن عمرو التميمي ووقف المسلمون تحت راياتهم ووقف أبو عبيدة تحت رايته التي عقدها له أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يوم مسيره إلى الشام، وهي راية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصفراء التي سار بها يوم خيبر. ومع خالد راية العقاب وكانت سوداء وجعل على الرجالة شرحبيل بن حسنة، وعلى الجناح الأيمن يزيد بن أبي سفيان، وعلى الأيسر قيس بن هبيرة. فلما ترتبت الصفوف سار أبو عبيدة بين الصفوف وجعل يحرض المؤمنين على القتال ويقول «إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ»، والزموا الصبر فإن الصبر منجاة من الكرب ومرضاة للرب، ومقمعة للعدو فلا تزايلوا صفوفكم ولا تنقضوا نيتكم ولا تخطوا خطوة إلا وأنتم تذكرون الله ولا تبدؤوهم بالقتال حتى يبدؤوكم وشرعوا الرماح واستتروا بالدرق والزموا الصمت إلا من ذكر الله ولا تحدثوا حدثًا حتى آمركم، ثم رجع إلى مقامه من القلب فوقف فيه.

ثم خرج من بعده معاذ بن جبل - رضي الله عنه - فطاف على الناس محرضًا لهم يقول: يا أهل الدين ويا أنصار الهدى والحق اعلموا رحمكم الله تعالى أن رحمة الله لا تنال إلا بالعمل والنية ولا تدرك بالمعصية والتمني بغير عمل مرضي، ولا تدخل الجنة إلا بالأعمال الصالحة مع رحمة الله، ولا يؤتي الله الرحمة والمغفرة الواسعة إلا الصابرين والصادقين، ألم تسمعوا قوله جل من قائل: «وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا»، واستحيوا من الله أن يراكم في فرار من عدوكم وأنتم في قبضته ليس لكم ملجأ من دونه! ولم يزل معاذ يقول ذلك إلى أن رجع إلى مقامه.

ثم خرج سهل بن عمرو فمشى بين الصفوف وهو شاكي السلاح راكب فرسه متقلدًا سيفه وهو يقول مثله، ثم رجع وخرج من بعده أبو سفيان فطاف بين الصفوف وهو شاكي السلاح راكب فرسه متقلدًا سيفه معتقلًا رمحه وهو يقول: معاشر العرب الكرام السادة العظام قد أصبحتم في ديار الأعلاج

منقطعين عن الأهل والأوطان، ووالله لا ينجيكم منهم إلا الطعن الصائب في أعينهم والضرب المتدارك في هاماتهم، وبذلك تبلغون أربكم وتنالون الفوز من ربكم. واعلموا أن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجي به من الغم فاصدقوا القتال فإن النصر ينزل مع الصبر فإن صبرتم ملكتم بلادهم وأمصارهم واستعبدتم أبناءهم ونساءهم، وإن وليتم فليس بين أيديكم إلا مفاوز لا تنقطع إلا بالزاد الكثير والماء الغزير ولا ترجعوا إلى دور ولا إلى قصور فامنعوا بسيوفكم وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون، ثم خرج من بين الصفوف وأقبل على النساء وهنَّ على التل وفيهنَّ المهاجرات وبنات الأنصار وغيرهنَّ من نساء المسلمين ومعهنَّ أولادهنَّ. فقال لهنَّ: إنَّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: «إنَّ النساء ناقصات عقل ودين» فكنَّ ممَّن احتفظن بأديانهنَّ وقدمنَّ في ذلك النية، وحرضن أزواجكنَّ على القتال، ومن رجع منهم منهزمًا فاحصبن وجهه بالحجارة واضربن جواده بالعمد وأظهرن أولادكنَّ لأزواجكنَّ حتى يرجعوا.

فوقفت النساء وهنَّ مستعدات متنمرات مرتجزات بأشعارهنَّ، ورجع أبو سفيان إلى موضعه وهو يقول: معاشر المسلمين قد حضر ما ترون وهذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والجنة أمامكم والشيطان والنار وراءكم وأقبل حتى وقف مكانه! ولم تغن مكيدة ماهان شيئًا ورجعت الروم إلى ورائها حين نظروا خالدًا زحف إليهم في خمسمائة فارس، فخافوا لذلك ورجعوا حتى اصطفت الصفوف وعبى المسلمون كتائبهم. فقال ماهان: ما يوقفكم عن قتالهم فازحفوا إليهم! فزحف الروم إلى المسلمين فنظر خالد إلى جيش عرمرم. وكان ماهان قد أنفذ ثلاثين ألفًا من عظمائهم فحفروا لهم في الميمنة حفائر ونزلوا فيها وشدوا أرجلهم بالسلاسل واقترن كل عشرة في سلسلة التماسًا لحفظ عسكرهم وحلفوا بعيسى ابن مريم والصليب والقسيسين والرهبان والكنائس الأربع أن لا يفروا حتى يقتلوا عن آخرهم، فلما نظر خالد إلى ما صنعوا قال لمن حوله من جيش الزحف هذا يوشك أن يكون يومًا عظيمًا، ثم قال: اللهم أيد المسلمين بالنصر. ثم أقبل على أبي عبيدة وقال: أيها الأمير إن القوم قد اقترنوا في السلاسل وزحفوا إلينا بالقواضب ويوشك أن

يكون على الناس يومًا عظيمًا. فقال لهم: إن العدو عدده كثير وما ينجيكم إلا الصبر، ثم قال لخالد: فما الذي ترى من الرأي يا أبا سليمان؟

قال الواقدي: وكان ماهان قدم من الروم من عرفت شجاعته وعلمت براعته واشتهر بالثبات في بلادهم وهم مائة ألف. فلما نظر خالد إليهم شهد لهم بالفروسية وأنهم من أهل الشدة وقال لأبي عبيدة: إن الرأي عندي أن توقف في مكاننا الذي أنت فيه سعيد بن زيد وتقف أنت من وراء الناس في مائتين أو ثلثمائة من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فإذا علم الناس أنك من ورائهم استحيوا من الله ثم منك أن يفروا. قال فقبل أبو عبيدة مشورته ودعا سعيد بن زيد وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة فأوقفه أبو عبيدة مكانه، ثم انتخب أبو عبيدة مائتي فارس من اليمن وفيهم رجال من المهاجرين والأنصار ووقف بهم من وراء الجيش بحذاء سعيد بن زيد.

حدثني ورقة بن مهلهل التنوخي -وكان صاحب راية أبي عبيدة يوم اليرموك- قال: وكان أول من فتح باب الحرب يوم اليرموك في جيش السلاسل غلامًا من الأزد حدثًا كيسًا. فقال لأبي عبيدة: أيها الأمير إني أردت أن أشفي

قلبي وأجاهد عدوي وعدو الإسلام وأبذل نفسي في سبيل الله تعالى لعلي أرزق الشهادة، فهل تأذن لي في ذلك، وإن كان لك حاجة إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأخبرني بها. فبكى أبو عبيدة وقال: اقرئ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – السلام مني وأخبره أنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا. ثم دفع الغلام الأزدي جواده وحمل يريد الحرب فخرج إليه علج من الروم قام من الرجال على فرس أشهب، فلما رآه الغلام قصد نحوه وقد احتبس نفسه في سبيل الله تعالى فلما قرب منه قال:

لا بد من طعن وضرب صائب ... بكل لدن وحسام قاضب

عسى أنال الفوز بالمواهب ... في جنة الفردوس والمراتب

وبعد شعره حمل كل منهما على صاحبه وابتدأ الغلام الأزدي الرومي بطعنة فجندله صريعًا وأخذ عدته وجواده وسلم ذلك لرجل من قومه وعاد إلى البراز فخرج إليه آخر فقتله وثالث ورابع فقتلهم فخرج إليه خامس فقتل الأزدي فغضبت الأزد عند ذلك ودنت من صفوف المشركين؛ فعندها أقبلت الروم وزحفت كالجراد المنتشر حتى دنا طرفهم من ميمنة المسلمين. فقال أبو عبيدة: إن أعداء الله قد زحفوا عليكم فنكلوهم واعلموا أن الله معكم وثبتوا نفوسكم

بالصبر والصدق واللقاء والنصر من الله، ثم رمق إلى السماء بطرفه وقال: «اللهم إياك نعبد وإياك نستعين ولك نوحد ولا نشرك بك شيئًا! وأن هؤلاء أعداؤك يكفرون بك وبآياتك ويتخذون لك ولدًا! اللهم زلزل أقدامهم وأرجف قلوبهم وأنزل علينا السكينة وألزمنا كلمة التقوى وآمنا عذابك يا من لا تخلف الميعاد»، اللهم انصرنا عليهم يا من قال في كتابه العزيز: «وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ». فبينما هو يدعو بهذه الدعوات إذ حملت الروم على ميمنة المسلمين وكان فيها الأزد ومذحج وحضرموت وخولان فحملت عليهم الروم حملة منكرة فصبروا لهم صبر الكرام وقاتلوا قتالًا شديدًا وثبتوا ثباتًا حسنًا! وحملت عليهم كتيبة ثانية فصبروا صبرًا جميلًا! وحملت عليهم كتيبة ثالثة فأزالوا المسلمين عن الميمنة، فابتدر منهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي وهو المقدم على زبيد والأمير عليهم وهم يعظِّمونه لما سبق من شجاعته في الجاهلية وكان يوم اليرموك قد مر له من العمر مائة وعشرون سنة إلا أن همَّته الشجاعة!

فلما نظر إلى قومه وقد انكشفوا صاح فيهم: يا آل زبيد يا آل زبيد! تفرون من الأعداء وتفزعون من شرب كأس الردى؟! أترضون لأنفسكم بالعار والمذلة فما هذا الانزعاج من كلاب الأعلاج؟! أما علمتم أن الله مطَّلع عليكم وعلى المجاهدين والصابرين، فإذا نظر إليهم وقد لزموا الصبر في مرضاته وثبتوا لقضائه أمدهم بنصره وأيدهم بصبره فأين تهربون من الجنة؟! فلما سمعت زبيد كلام سيدهم عمرو بن معد يكرب رجعوا إليه وعطفوا عليه عطفة الإبل على أولادها فاجتمعوا حوله زهاء من خمسمائة فارس وراجل وشدوا على القوم شدة واحدة وحملت معهم حمير وحضرموت وخولان وحملوا حملة صعبة فأزالوا الروم عن أماكنهم وحملت دوس مع أبي هريرة وهز رايته وهو يحرض قومه على القتال ويقول: أيها الناس سارعوا إلى معانقة الحور العين في جوار رب العالمين، وما من موطن أحب إلى الله من هذا الموطن: ألا وان الصابرين قد فضلهم الله على غيرهم الذين لم يشهدوا مشهدهم!

فلما سمعت دوس كلامه طافوا به وحملوا على الروم حملة منكرة ودارت بينهم الحرب كما تدور الرحى وتكاثرت جموع الروم على ميمنة المسلمين،

فعادت الخيل تنكص بأذنابها راجعة على أعقابها منكشفة كانكشاف الغنم بين أيدي الأسد! ونظرت النساء خيل المسلمين راجعة على أعقابها فنادت النساء: يا بنات العرب دونكنَّ والرجال ردوهم من الهزيمة حتى يعودوا إلى الحرب. قالت سعيدة بنت عاصم الخولاني كنت في جملة النساء يومئذ على التل، فلما انكشفت ميمنة المسلمين صاحت بنا عفيرة بنت غفار وكانت من المترجلات البازلات ونادت: يا نساء العرب دونكنَّ والرجال واحملن أولادكنَّ على أيديكنَّ واستقبلنهم بالتحريض! فأقبلت النسوة يرجمن وجوه الخيل بالحجارة، وجعلت ابنة العاص بن منبه تنادي: قبَّح الله وجه رجل يفر عن حليلته! وجعل النساء يقلن لأزواجهن: لستم لنا ببعولة إن لم تمنعوا عنَّا هؤلاء الأعلاج.

قال العباس بن سهل الساعدي: كانت خولة بنت الأزور وخولة بنت ثعلبة الأنصارية وكعوب ابنة مالك بن عاصم وسلمى ابنة هاشم ونعم ابنة فياض وهند ابنة عتبة بن ربيعة ولبنى ابنة جرير الحميرية متحزمات وهن أمام النساء والمزاهر معهن، وخولة تقول هذه الأبيات:

يا هاربًا عن نسوة ثقات لها جمال ولها ثبات
تسلموهن إلى الهنات تملك نواصينا مع البنات
أعلاج سوء فسق عتات ينلن منا أعظم الشتات

ورجعت الفرسان تحرض الفرسان على القتال، فرجع المنهزمون رجعة عظيمة عندما سمعوا تحريض النساء وخرجت هند ابنة عتبة وبيدها مزهر ومن خلفها نساء من المهاجرات وهي تقول الشعر الذي قالته يوم أحد وهو هذا:

نحن بنات طارق نمشي على النمارق
مشي القطا الموانق قيدي مع المرافق
ومن أبى نفارق أن تَغلِبوا نمالق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق
هل من كريم عاشق يحمي عن العوانق

ثم استقبلت خيل ميمنة المسلمين فرأتهم منهزمين فصاحت بهم: إلى أين تنهزمون أين تفرون من الله ومن جنته وهو مطلع عليكم ونظرت إلى زوجها أبي سفيان منهزمًا فضربت وجه حصانه بعمودها، وقالت له: إلى أين يا ابن حرب! ارجع إلى القتال وابذل مهجتك حتى تمحص ما سلف من تحريضك على

رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. قال الزبير بن العوام: فلما سمعت كلام هند لأبي سفيان ذكرت يوم أحد ونحن بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. فعطف أبو سفيان عندما سمع كلام هند وعطف المسلمون معه ونظرت إلى النساء، وقد حملن معهم وقد رأيتهن يسابقن الرجال وبأيديهن العمد بين أرجل الخيل ولقد رأيت منهن امرأة وقد أقبلت إلى علج عظيم وهو على فرسه فتعلقت به وما زالت به حتى نكسته عن جواده وقتلته! وهي تقول: هذا بيان نصر الله المسلمين.

قال الزبير بن العوام: وحمل المسلمون حملة منكرة لا يريدون غير رضا الله ورسوله، وقاتلت الأزد مع أبي هريرة وفشا فيهم القتل وأصيب منهم خلق كثير لأنهم تلقوا الصدمة الأولى بأنفسهم واستشهد منهم ما لم يستشهد من غيرهم.

قال سعيد بن زيد: كان القتال في الميمنة شديدًا وكان المسلمون ينهزمون تارة ويعودون تارة وساعة نصبر وساعة نتأخر. ونظر خالد بن الوليد إلى الميمنة، وقد وصلت إلى القلب فصاح بمن معه من الخيل ومال عليهم فمالوا

وكانوا زهاء ستة آلاف فكبر وحمل على الروم فنكى بهم نكاية عظيمة حتى كشف أعداء الله عن الميمنة والقلب إلى أن ردت إلى مواضعها ووقف خالد أمامهم يطارد من كان قريبًا للمسلمين، فانكسر الروم أمام خالد! ونظر خالد إلى فرسانه فرآهم متبددين فنادى: يا أهل الإسلام والإيمان ويا حملة القرآن ويا أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - قد تبينت في الروم الكسرة العظيمة ولم يبق عند القوم من الجلد والقتال إلا ما رأيتم وقد كسر الله حدتهم فردوا عليهم الكسرة وشدوا عليهم الكرة رحمكم الله، فوالذي نفس خالد بيده إني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم! فنادى المسلمون من كل جانب احمل حتى نحمل معك. فانتضى خالد سيفه وحمل وحملت أصحابه معه. قال عبد الرحمن بن الحميدي الجمحي: كنت ممن حمل مع خالد فوالله لقد انكشفت الروم بين أيدينا وولت كما تولي الغنم بين يدي الأسد وتبعهم المسلمون وكانت الحملة على ميمنة الروم فانكشفوا انكشافًا قبيحًا، وأما المسلسلة فما برحوا من مواضعهم وكانوا يرمون بالسهام وهم حماة القوم.

الشعار

قال عبد الرحمن: وكان خالد أمامنا في حملته ونحن من ورائه، وكان شعارنا: يا محمد يا منصور أمتك أمتك فلم يزل خالد في حملته ونحن من ورائه حتى وصل إلى الديرجان وكان قائمًا في موضعه الذي أقامه فيه ماهان معه صليب من الجوهر ومعه أصحابه ينتظرون حملته فيحملون معه، فلما وصلت خيل خالد إلى موضعه. قال له البطارقة: أيها الملك أما آن لك أن تحمل فنحمل معك أو تولي فقد خالطتنا خيل العرب. فقال لأصحابه: اعلموا أن يوم السوء لا أحبه ولا أحب أن أراه ولا أحضره، وقد أحضرني الملك إلى هذا الموقف وأنا كارهه ولكن لفوا وجهي ورأسي في هذا الثوب حتى لا أرى الحرب. فلفوا وجهه ورأسه في ثوب ديباج والناس يقتتلون حتى انهزمت الروم بين أيدي المسلمين ووصلوا إلى الديرجان وهو ملفوف الرأس فحمل عليه ضرار بن الأزور فقتله.

قال الواقدي: وكان من حسن صنع الله تعالى بالمسلمين أن جرجير وقناطير اختلفا وتنازعا وكان جرجير في الميمنة مع الأرمن وقناطير في الميسرة

تحته، فقال جرجير لقناطير: احمل على العرب فما هذا وقت الوقوف؟ فقال قناطير: تأمرني أن أحمل وكيف لا تحمل أنت؟ فقال جرجير لقناطير: وكيف لا آمرك، وأنا أمير عليك. فقال قناطير: كذبت أنت أمير وأنا أمير عليك وفوقك وأنت مأمور لي بالطاعة! فاختلفا وغضب جرجير من قول قناطير فحمل على المسلمين حملة شديدة وكانت حملته على كنانة وقيس وخثعم وجذام وقضاعة وعاملة وغسان وهم يومئذ فيما بين الميسرة والقلب! فكشف الروم المسلمين حتى زالوا عن مصافهم ولم يبق منهم إلا أصحاب الرايات فقاتلوا من يليهم قتالًا شديدًا! وركب الروم أكتاف المسلمين المنهزمين إلى أن دخلوا معهم إلى معسكرهم، فاستقبلهم النساء بالعمد يضربن وجوه الخيل ويرمين وجوهها بالحجارة وينادين بهم: إلى أين تنهزمون يا أهل الإسلام عن الأمهات والأخوات والبنين والبنات أتريدون أن تسلمونا للأعلاج؟!

قال منهال الدوسي: فلقد كانت النساء أشد علينا غلظة من الروم فرجع المسلمون عن الهزيمة ونادى بعضهم بعضًا «وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ»، وعطفوا على الروم عطفة عظيمة. وكان قتامة بن أيشم الكناني أمام

المسلمين يضرب في عراض المشركين تارة بالسيف وتارة بالرمح حتى كسر ثلاثة رماح، وهو يقول:

سـأحمل في الروم الكلاب النوابح   وأضـربهم ضـربًا بحد الصـفائح

وأرضـي رسـول الله خير مؤمل   نبي الهدى للدين أشـرف نـاصـح

ثم حمل حتى كسر سيفين وجعل كلما كسر رمحًا أو سيفًا يقول: من يعيرني سيفًا أو رمحًا في سبيل الله وأجره على الله، ثم نادى: يا معاشر قيس خذوا نصيبكم من الأجر والصبر، فإن الصبر في الدنيا عز ومكرمة وفي الآخرة رحمة وفضيلة «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» فأجابه قومه ونشطوا للقتال.

قال قتامة: فما رأيت مثل حملة قناطير وقومه ولقد اختلطوا بنا واختلطنا بهم. ورجع خالد من دهمته ومعه ألفان من أصحابه، وقد وضعوا السيوف في الروم وقتلوهم قتلًا ذريعًا والقتل لا يبين فيهم لكثرتهم، وأقبل خالد على الناس من كرته فرأى الناس يقولون جزى الله قتامة بن الأيشم خيرًا عن الإسلام فشكره وجزّاه خيرًا. وأقبلت ذرعة ابنة الحارث منحدرة عن التل وهي تقول: ما فعل

خالد حتى وقفت بين يديه، وقالت: يا ابن الوليد أنت من العرب الكرام، وإنما الرجال بأمرائها، فإن ثبتوا ثبتت الرجال معهم وإن انهزموا انهزمت الرجال معهم، فقال لها خالد: ما كنت من المنهزمين وما كنا إلا نقاتل في الأعلاج. فقالت: قبح الله وجه عبد ينظر إلى أميره ثابتًا وهو منهزم عنه.

قال الواقدي: ونظر ماهان -لعنه الله- إلى الميمنة من عسكره وقد عركت عراك الأديم بعث إليهم يحرضهم على القتال. فعندها خرج علج من الروم وعليه درع سابغ السلاح كأنه قطعة جبل وهو على شهباء عظيمة الخلقة فبرز بين الصفين وجال على شهبائه وسأل القتال! فخرج إليه غلام من الأزد فما جال معه جولة حتى قتله العلج ثم دعا بالبراز فهمَّ أن يخرج إليه معاذ بن جبل، فقال أبو عبيدة: يا معاذ سألتك بحق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا ما ثبت مكانك ولزمت رايتك ولزومك الراية أحبُّ إليَّ من بروزك إلى هذا العلج! فوقف معاذ بالراية ونادى: يا معاشر المسلمين من أراد فرسًا يقاتل عليه في سبيل الله فهذا فرسي وسلاحي! فجاءه ولده عبد الرحمن فقال: أنا يا أبت! وكان غلامًا لم يحتلم، فلبس السلاح وركب الجواد وقال: يا أبت أنا خارج إلى هذا

العلج، فإن صبرت فالمنَّة لله عليَّ، وإن قتلت فالسلام عليك وإن كان لك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حاجة فأوصني بها. فقال له معاذ: يا بني أقرئه مني السلام وقل له: جزاك الله عن أمتك خيرًا. ثم قال: يا بني اخرج وفقك الله لما يحب ويرضى! فخرج عبد الرحمن إلى العلج كأنه شعلة نار وحمل على العلج وضربه بالسيف فمال عنه العلج ومال إليه وضربه على رأسه فقطع العمامة وشجه شجة فاضحة أسالت دمه، فلما رأى العلج ذلك الدم ظنَّ أنه قتل فتأخر إلى ورائه لينظر كيف يسقط عن جواده، فلما نظر عبد الرحمن إلى العلج وقد تأخر عنه انثنى راجعًا إلى المسلمين، فقال له معاذ: ما بك يا بني؟ قال: قتلني العلج! قال له: ما الذي تريد من الدنيا يا بني؟ ثم إنه شدَّ جرحه. فعندها صال العلج وحمل فردته الأزد.

قال أبو عبيدة: فمن له منكم؟ فخرج إليه عامر بن الطفيل الدوسي وكان من أصحاب الرايات ممن شهد اليمامة مع خالد بن الوليد وكان قد رأى يوم اليمامة في منامه في قتال مسيلمة الكذاب كأن امرأة لقيته ففتحت له فرجها فدخل فيه! ونظر إليه ابنه فأسرع ليدخل مكانه. ثم استيقظ وقص ذلك على المسلمين فلم

يدر أحد ما تأويله، فقال ابن الطفيل: أمَّا أنا فأعرف تأويلها قالوا: وما تأويلها يا ابن الطفيل؟ قال: تأويله أني أقتل لأن المرأة التي أدخلتني فرجها هي الأرض وابني سيصيبه جراح ويوشك أن يلتقي بي. فقاتل يوم اليمامة وأبلى بلاءً حسنًا وسلم ولم يلحقه أذى، فلما كان يوم اليرموك شهد فيه الحرب وخرج إلى قتال العلج وهو كأنه شعلة حريق أو صاعقة وطعن البطريق، وكانت قناته قد شهدت معه المشاهد فاندقت بين يديه وانتضى سيفه وهزه وضرب به العلج على عاتقه فخالط أمعاءه فتنكس العلج صريعًا عن جواده وأسرع عامر بن الطفيل فرمى به إلى المسلمين وسلمه إلى ولده، وانثنى راجعًا نحو الروم وحمل على الميمنة وعلى الميسرة وعلى القلب. ثم قصد المتنصرة فقتل منهم فارسًا ودعا للبراز وخرج إليه جبلة بن الأيهم وعليه درع من الديباج المثقل بالذهب وتحتها درع من دروع التبابعة وعليه بيضة تلمع كشعاع الشمس وتحته فرس من نسل خيول عاد.

فلما خرج جبلة إلى عامر بن الطفيل قال له: من أي الناس أنت؟ قال: أنا من دوس. قال جبلة: إنك من القرابة فأبق على نفسك وارجع إلى قومك ودع

عنك الطمع! فقال له عامر: قد أخبرتك من أنا ومن قبيلتي فأنت من أي العرب؟ قال: أنا من غسان وأنا سيدها جميعها أنا جبلة بن الأيهم الغساني، وإنَّما خرجت إليك حين نظرت إليك، وقد قتلت هذا البطريق الشديد وهو نظير ماهان وجرجير في الشجاعة فعلمت أنك كفء فخرجت لأقتلك وأحظى عند ماهان وهرقل بقتلك. فقال عامر: أما ما ذكرت من شدة القوم وعظم خلقهم فالله أشد منعة، وهو مهلك الجبابرة، وأما قولك إنك تحظى بقتلي عند مخلوق مثلك فإني أريد أن أحظى بجهادي عند رب العالمين بقتلك، وحمل عامر على جبلة بن الأيهم والتقيا بضربتين فخرجت ضربة عامر بن الطفيل غير ممكنة وخرجت ضربة جبلة ممكنة فقطعت من قرنه إلى كتفه فسقط عامر قتيلًا فجال جبلة على مصرعه ووقف يعجب بنفسه وبما صنع وطلب البراز فخرج إليه ولد المقتول، وهو جندب بن عامر بن الطفيل وكانت معه راية أبيه فأقبل إلى أبي عبيدة، وقال: أيها الأمير إن أبي قد قتل وأريد أن آخذ بثأره أو أقتل فادفع رايتك لمن شئت من دوس فأخذ أبو عبيدة الراية ودفعها لرجل من دوس فحملها وخرج جندب إلى قتال جبلة بن الأيهم، وهو ينشد ويقول:

سأبذل مهجتي أبدًا لأني أريد العفو من رب كريم
وأضرب في العدا جهدي بسيفي وأقتل كل جبار لئيم
فإن الخلد في الجنات حق تباح لكل مقدام سليم

ودنا من جبلة، وقال له: اثبت يا قاتل أبي لأقتلك به! فقال جبلة: ومن أنت من المقتول، قال: ولده. قال جبلة: ما الذي حملكم على قتل نفوسكم وأولادكم وقتل النفوس محرم؟ قال جندب: إن قتل النفس في سبيل الله محمود عند الله وننال به الدرجة العالية، فقال له جبلة: إني لا أريد قتلك، فقال جندب: وكيف أرجع وأنا المفجوع بأبي والله لا رجعت أو آخذ بثأر أبي أو ألحق به ثم حمل على جبلة وجعلا يقتتلان وقد شخصت نحوهما الأبصار، ونظر جبلة إلى الغلام وما أبدى من شجاعة فعلم أنه شديد البأس صعب المراس فأخذ منه حذره وغسان ترمق صاحبها فرأت الغلام جندبًا وقد ظهر على صاحبهم وقارنه في الحرب، فصاح بعضهم على بعض وقالوا: إن هذا الغلام الذي برز إلى سيدكم غلام نجيب وإن تركتموه ظهر عليه فانجدوه ولا تدعوه فتأهبت غسان للحملة ليستنقذوه ونظر المسلمون إلى جندب وما قد ظهر منه ومن شجاعته

وشدته ففرحوا بذلك ونظر الأمير أبو عبيدة إلى ذلك وما فعل. فبكى وقال: هكذا يكون من يبذل مهجته في سبيل الله اللهم تقبل منه فعله.

قال جابر بن عبد الله: شهدت قتال اليرموك فما رأيت غلامًا كان أنجب من جندب بن عامر بن الطفيل حين قاتله جبلة وبعد ذلك حمل على جبلة وضربه ضربة أوهنه بها وضربه جبلة فقتله وعجل الله بروحه إلى الجنة وتحقق منام أبيه عامر بن الطفيل، وجال جبلة على مصرعه وطلب البراز فصاح به قومه ارجع إلينا فقل قضيت ما يجب عليك فرجع وهو معجب بنفسه حتى وقف تحت صليبه. وبعث إليه ماهان يشكره. وأصيب المسلمون بعامر بن الطفيل – رضي الله عنه – وولده جندب؛ فعندها صاحت دوس: الجنة الجنة خذوا بثأر سيدكم عامر وساعدتها الأزد وكانوا أحلافهم وحملوا على غسان ولخم وجذام وتناشدوا الأشعار فصاح أبو عبيدة بالمسلمين، وقال: أيها الناس «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ»، ومعانقة الحور العين في جنات النعيم فما من موطن أحب إلى الله من هذا

الموطن ألا وإن الصابرين فضلهم الله على غيرهم ممن لم يشهد مشهدهم، هذا ولما سمعت الأزد ذلك حملت مع دوس وكان شعارهم يومئذ الجنة الجنة.

عن عطاء بن مراد قال: سألت رجالًا عدة ما كان شعار المسلمين يوم اليرموك فأخبرت أن شعار أبي عبيدة أمت أمت وشعار عبس: يا لعبس، وشعار اليمن من أخلاط الناس: يا أنصار الله، وشعار خالد ومن معه: يا حزب الله، وشعار حمير: الفتح الفتح، وشعار دارم والسكاسك: الصبر الصبر، وشعار بني مراد: يا نصر الله انزل، فهذه كانت شعارات المسلمين يوم اليرموك. فلما حملت دوس تبعها الأزد وقصدت العرب المتنصرة وطلبت صليبهم وفرقتهم تفريقًا صعبًا حتى وصلوا إلى الصليب، فطلب رجل منهم حامل العلم الذي لغسان فأرداه عن فرسه ووقع الصليب من يده منكوسًا وقتل من الأزد ودوس رجال إلا أنهم كانوا مثل الشامة البيضاء في جلد البعير الأسود. ثم كرت غسان تريد أخذ صليبهم فاقتتلوا عنده قتالًا شديدًا حتى قتلوا خلقًا كثيرًا.

عن عبد الله بن عدي قال: شهدت اليرموك فكان المسلمون خمسة وعشرين ألفًا، فغضب الحويرث وقال: كذب من حدثك بهذا الحديث. فإن

المسلمين كانوا يوم اليرموك أحدًا وأربعين ألفًا وقد أديت إليك ما سمعته ممن أثق به من الرواة. وهذا أثبت الأقاويل لأن المسلمين كانوا يوم أجنادين اثنين وثلاثين ألفًا وجاءت الأمداد بعد ذلك.

عن عبد الحميد بن سهل عن جده قال: لما حملت الأزد يوم اليرموك ودوس ودوخت المشركين دوخة عظيمة وحمل المشركون حملة هائلة انكشف المسلمون وكان صاحب لوائهم عياض بن غنم الأشعري فولى منهزمًا واللواء بيده، فصاح به الناس: إنما ثبات القوم وأهل الحرب بألويتهم، فابتدر لأخذه عمرو بن العاص وخالد بن الوليد كلاهما يتسابق إليه فأخذه عمرو ولم يزل يقاتل به حتى انهزمت الروم وفتح الله على أيدي المسلمين، وكان اليوم الثالث من اليرموك يومًا شديدًا انهزمت فيه فرسان المسلمين ثلاث مرات كل مرة تردهم النساء بالحجارة والعمد ويلوحون بالأطفال إليهم فيرجعون إلى القتال! ولم يزل القتال قائمًا إلى أن أقبل الليل بسواده، ورجعت الروم إلى مواضعها والقتل فيهم كثير وفي المسلمين قليل، إلا أن الجراح فيهم فاشية من

النشاب، فلما دخل الليل بسواده رجعت كل فرقة إلى أماكنها وباتوا تحت السلاح.

وأما المسلمون فما كانت همتهم إلا الصلاة وبعد ذلك شدوا الجراح، وصلى أبو عبيدة - رضي الله عنه - وقال: أيها الناس إذا عظم البلاء فانتظروا الفرج فإنه يأتي من عند الله فأضرموا نيرانكم وتحارسوا وأظهروا التهليل والتكبير، وقام أبو عبيدة يمشي في الناس هو وخالد بن الوليد يتفقدان الجرحى ويقولان: أيها الناس إن عدوكم يألم كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وباتا طول ليلهم كله وهما طائفان على المسلمين إلى أن أصبح الصباح. وانحازت الروم إلى جانب اليرموك مع ماهان الأرمني فجمع بطارقته ووبخهم وزجرهم. وقال لهم: قد علمت أنَّ هذا يكون منكم، وقد رأيت فشلكم وخوفكم وجزعكم من هؤلاء العرب الضعاف! فاعتذروا إليه وقالوا غدًا نبارزهم فإن فينا فرسانًا وشجعانًا لم يقاتلوا أصلًا وغدًا نصدقهم الحرب فتكون لنا العاقبة. فسكت عن توبيخهم وأمرهم أن يتأهبوا لذلك وبات الفريقان

يتحارسون، وقد رعبت الروم من كثرة القتل فيهم، وأما المسلمون فإنهم أقوى قلوبًا لشدة دينهم ويقينهم.

فلما أصبح الصباح صلى بهم أبو عبيدة صلاة الخوف وإذا بالصلبان قد بدت وبرايات القوم قد طلعت في عدد الشوك والشجر كأنهم لم يلاقوا قتالًا قط فوقفوا في مصافهم ونصب ماهان سريره على الكثيب الذي كان عليه بالأمس وهو يشرف منه على العساكر فأمرهم أن يعبوا مصافهم، فلما نظر أمير المؤمنين إلى سرعة الروم صاح كل أمير برجاله وحرضهم على القتال فانقلبوا من الصلاة إلى خيولهم ولبسوا السلاح وركبوا خيولهم ورجع كل أمير إلى مكانه وهو يعظ أصحابه ويوصيهم ويعدهم من الله بالنصر.

وسار أبو عبيدة بين الصفوف وهو يصف لهم فضل الجهاد وما أعد الله للمجاهدين الصابرين وخلف على الذراري والنساء والأموال والأولاد عمرو بن سعيد بن عبد الله وجعل من الرماة خمسمائة في الميمنة وخمسمائة في الميسرة وخمسمائة في القلب وطاف أبو عبيدة عليهم، وقال لهم: معاشر الرماة الزموا مراكزكم فإن رأيتم القوم زحفوا إلينا فارشقوهم بالنبال واذكروهم عند

رميكم ولا تتركوها مفرقة ولتخرج سهامكم كأنها من كبد قوس واحد، فإن هم زحفوا إليكم فاثبتوا مكانكم حتى يأتيكم أمري ففعلوا ما أمرهم به الأمير.

وتقدم أبو سفيان إلى ولده يزيد والراية في يده وحوله أصحابه وقد عزم على الحملة والجهاد. فقال: يا بني إن أحسنت أحسن الله إليك عليك بتقوى الله والصبر فاتق الله حق تقاته وانصر دين الله وشرع نبيه – صلى الله عليه وسلم –، وإياك والجزع فما قضاه ربنا قد أمضاه فاصبر مع أصحابك صبر أولي العزم، وإياك ثم إياك أن يراك الله منهزمًا فتبوء بغضب من الله. قال يزيد: سأصبر جهدي وطاقتي والله أسأله أن يكون معينًا لي وناصرًا. ثم صاح يزيد برجاله وهز الراية وندبهم إلى القتال وحمل على من يليه من الروم فقاتلوا قتالًا عظيمًا ولم يزالوا حتى نكوا في العدو نكاية عظيمة وأبلوا بلاء حسنًا، وكان قتالهم من جانب القلب ولم يزالوا كذلك حتى برز إليهم بطريق من البطارقة وبيده رمح عظيم وعليه صليب من الذهب وحوله زهاء من عشرة آلاف فارس من الروم فحملوا على الميمنة وكان فيهم عمرو بن العاص ومن معه فرجعوا على أعقابهم منهزمين حتى دخلت الروم في أوائل عسكر المسلمين مما يلي عَمْرًا ومن معه

وهم يتراجعون على الرجال فيكرون تارة ويرجعون تارة حتى تكاثرت عليهم الروم فكشفوهم حتى ألصقوهم بالتل الذي عليه النساء وأحاطوا بالتل فصاحت امرأة: أين أنصار الدين أين حماة المسلمين؟ وكان الزبير بن العوام جالسًا عند زوجته أسماء بنت أبي بكر الصديق يداوي عينه وكان أرمد، فلما سمع صوت المرأة وهي تنادي: أين أنصار الدين. قال: يا أسماء ما لهذه المرأة تصيح أين أنصار الدين؟ فقالت له عفرة ابنة عثمان: يا ابن عمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - انهزمت ميمنة المسلمين حتى ألجأهم الروم إلينا وأحاط بنا الأعلاج، وهذه نساء الأنصار مستصرخة بأنصار الدين. فقال الزبير: والله إني أنا من أنصار الدين ولا يراني الله جالسًا في مثل هذا الوقت. ثم طرح الخرقة عن عينه واستوى جالسًا على متن جواده فأخذ قناته وتسمى باسمه وقال في حملته: أنا الزبير بن العوام، أنا ابن عمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وجعل يطعن فيهم طعنًا متداركًا حتى ردهم على أعقابهم وخيلهم تنكص بأذنابها.

قال ليث بن جابر: فلله در الزبير بن العوام لقد رد الروم بنفسه وحما إذ حمل عليهم وما كان معه من العرب أحد حتى ردهم إلى عسكرهم وتراجعت

خيل عمرو ورجاله وهو ينادي: الرجعة الرجعة الحزم الحزم يا أهل الإسلام الصبر الصبر فتراجعوا بعد إدبارهم.

قال الواقدي: وحمل جرجير الأرمني في ثلاثين ألفًا من الأرمن على شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فانكشف أصحاب شرحبيل بن حسنة ولم يثبت غيره لقتال الروم في عصبة من قومه دون الخمسمائة فجعل شرحبيل يحمل على الأرمن وهو يقول: يا أهل الإسلام لا فرار من الموت الصبر الصبر. قال فتراجع أصحابه إليه وحملوا على الأرمن فردوهم على أعقابهم وجعلوا يضربون فيهم حتى أصابوا من الأرمن مالم يصبه الأرمن منهم، فرجع شرحبيل إلى مكانه ودار به أصحابه فجعل يعنفهم بالقتال ويقول لهم: ما الذي أصابكم حتى انهزمتم أمام هؤلاء الكفرة وأنتم الحماة البررة وأهل القرآن وعباد الرحمن أما سمعتم قوله - عز وجل -: «وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ»، وقال الله تعالى: «إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ»، وأنتم تهربون! فقالوا: يا صاحب رسول الله - صلى

الله عليه وسلم – زلة من الشيطان مثل يوم أحد وحنين وها نحن معك فاحمل حتى نحمل معك! فجزَّاهم خيرًا ووقف مكانه. وكان موقفه مما يلي سعيد بن زيد وقد لزموا مواقفهم لم يتحركوا التماسًا للحفيظة.

ونظر قيس بن هبيرة إلى خيل شرحبيل وقد تراجعت فحمل بمن معه ونادى هو وأصحابه بشعارهم وكان شعارهم يا نصر الله انزل يا منصور أمت أمت وكان هذا شعارهم يوم بدر وأحد، وحمل خالد بن الوليد بمن معه ذات اليمين، وحمل قيس من ذات الشمال فقاتلوهم قتالًا شديدًا ولله در الزبير بن العوام وهاشم بن المرقال وخالد بن الوليد: لقد حملوا حملة عظيمة حتى قربوا من سرادقات ماهان وتواقعت الروم على سرادقات ماهان وخيامه. فلما نظر ماهان إلى ذلك نزل عن سريره هاربًا وصاح بالروم وعنفهم فتراجعوا يطلبون القتال وصاح أبو عبيدة بسعيد بن زيد فحمل بمن معه وهو ينادي: لا إله إلا الله يا منصور أمت أمت فأقبلوا يقتلون في الروم قتلًا ذريعًا، فبينما المسلمون في حملتهم إذ سمعوا قائلًا يقول: يا نصر الله انزل يا نصر الله اقرب أيها الناس الثبات الثبات.

قال عامر بن أسلم: فتأملنا الصارخ فإذا هو أبو سفيان وتحت رايته ابنه يزيد. وشدت الأمراء بأجمعهم على من يليهم وقاتلوا قتالًا شديدًا ولم يكن في الروم أثبت من أصحاب السلاسل فإنهم ثبتوا في أماكنهم يمنعون من أتاهم، وأما الرماة وهم مائة ألف رام فكانوا إذا رشقوا سهامهم نحو العرب يسترون الشمس، فلولا النصر والمعونة من الله لكان المسلمون هلكوا وانفصل المسلمون فرحين مستبشرين والمشركون قد هلك أكثرهم وبرز علج من أعلاج الروم كأنه نخلة باسقة وعليه درع مذهب وعلى رأسه بيضة مذهبة وعليها صليب من ذهب مرصع بالجوهر وهو راكب على شهباء وعليه زرد من حديد وبيده رمح، فجال وأشهر نفسه وسأل البراز، فنظر المسلمون إلى عظم خلقته وهول جثته فجعلوا ينظرون إليه. فقال أبو عبيدة: لا يهولنكم ما ترون من خلقته فكم رأيتم من هو عظيم خلقة ولا قلب له فمن له منكم يخرج إليه واستعينوا بالله عليه.

فخرج إليه عبد من عبيد العرب وبيده سيفه وحجفته وهو راجل، فلما أراد أن يدنو من العلج صاح به مولاه ذو الكلاع الحميري، فلما رجع خرج إليه ذو

الكلاع وجال عليه وكان ذو الكلاع من أهل الشدة والبأس فتواقعا وكل منهما رامح فتطاعنا طعنًا شديدًا أشد من الجمر، ثم إنهما تجاذبا سيفيهما والتقيا فضرب ذو الكلاع العلج ضربة وضرب العلج ضربة، وكان سيف العلج قاطعًا وساعده قويًا فقطع سيفه درقة ذي الكلاع ودرعه وما تحته من الثياب ووصلت الضربة إلى عضده الأيسر فجرحته جرحًا بليغًا وثقلت يده. فلما نظر ذو الكلاع إلى ما لحقه من العلج عطف بجواده يريد المسلمين ونظر العلج إلى ذي الكلاع سابقًا فلم يلحقه حتى لحق بالمسلمين فأتى قومه والدم يفور من جرحه، فاجتمع فرسان قومه فقال لهم: يا فرسان حمير إياكم أن تتكلوا في قتالكم على السلاح ومنعته ولكن اتكلوا في قتالكم على الله - عز وجل -. قالوا: وكيف ذلك أيها السيد؟ قال: لأني رددت عبدي عن القتال شفقة عليه إذ ليس معه لأمة حرب وقلت: إني أفرس منه وأجود عدة ولأمة، فصنع بي هذا الأغلف ما ترون! والله ما لحقني قبلها في حرب مثلها قط فشدوا جرحه ووقف مكانه.

ثم إنه صاح بقومه: يا رجال حمير إن كان سيدكم قد رجع كلالًا فمن منكم يأخذ بثأره؟ فانتدب فارس من فرسان حمير وعليه صبائغ اليمن من الأبراد

والحبر كأنه جمرة نار وحمل نحو العلج مصممصمًا وجال جولة عظيمة وطعنه طعنة أثبتها في صدره فأرداه قتيلًا وعجل الله بروحه إلى النار، فهمَّ الحميري أن ينزل عن جواده ويأخذ سلبه فحمل عليه كردوس من الروم ليكشفوه عنه فردهم الحميري صاغرين، ثم رجع إليه وأخذ سلبه وأقبل به على أبي عبيدة فأعطاه إياه. فدفع السلب إلى قومه ورجع إلى مقامه في القتال، فخرج إليه آخر فقتله، وآخر فقتله، فخرج إليه علج رابع فقتل الحميري ونزل ليأخذ سلب الحميري فرماه رجل من رماة الأنصار بنبلة فوضعها في لبته فجندله صريعًا وعجل الله بروحه إلى النار.

فانقلبت الروم على وجوهها وهابوا جميع المسلمين، وكان ذلك البطريق الذي قتل بالنبلة من عظمائهم ويقال إنه كان صاحب نابلس فصاح بهم ماهان وسكنهم عن اضطرابهم وخرج إلى القتال ملك اللان واسمه مريوس وعليه لأمة الملوك وعليه ديباجة وفي وسطه منطقة مرصعة بالجوهر فجال بين الصفين وشهر نفسه وقال: أنا ملك اللان فلا يبرز لي إلا أميركم، فخرج إليه شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبيده لواؤه وعليه

درع من حديد وهو ممنطق بمنطقة من الأديم وهو على جواده. فقال أبو عبيدة: من هذا الذي خرج. قالوا له: شرحبيل بن حسنة فبعث إليه أبو عبيدة يقول له: ادفع الراية لمن شئت واخرج من غير راية، فلما سمع ذلك سلم الراية لرجل من قومه وقال له: قف بها موضعي، فإن قدر عليَّ فسلم الراية إلى الأمير أبي عبيدة يدفعها لمن يريد، وإن رجعت أخذتها فأخذها الرجل وخرج شرحبيل كاتب وحي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نحو ملك اللان وهو يقول:

سأحمل في اللئام بني الأعادي ... بكل مثقف لدن حداد
فيا بؤسًا لقيصر يوم نأتي ... وجمع الروم شُرِّد في البلاد

فسمع البطريق شعر شرحبيل فلم يفهمه وكان يفهم قليلًا بالعربية. فقال له: يا عربي ما الذي تقول؟ قال: أقول كلامًا تقوله العرب عند الحرب تشجع به نفوسها وتثق بوعد الله الذي وعد به نبينا. فقال ملك اللان: وما الذي وعدكم به نبيكم؟ فقال شرحبيل: وعدنا الله أن يفتح لنا الأرض في الطول والعرض ونملك الشام ونكون من الظافرين بنصر الله لنا. قال ملك اللان: إن الله لا ينصر من يبغي وأنتم تبغون علينا وتطلبون ما ليس لكم بحق. فقال شرحبيل: نحن قوم أمرنا الله أن نفعل ذلك والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين،

وإني أراك تعرف كلام العرب فلو تركت ما أنت عليه من عبادة الصليب ودخلت في دين الإسلام كنت من أهل الجنة وسعدت. فقال ملك اللان: ما أترك دين المسيح أبدًا فإن دينه حق. فقال شرحبيل: لا تقل إنه إله معبود ولا تقل صلب وقتل، فإن الله – سبحانه وتعالى – أحياه في الأرض ما شاء ثم رفعه إلى السماء ثم قال ملك اللان: لن أرجع عن قولي، ثم استخرج صليبًا من عنقه فرفعه ووضعه على عينه وأقبل يستنصر به فغضب شرحبيل من فعاله. فقال له: يا ويلك تبًا لك ولمن معك ولمن يقول بقولك، ثم حمل عليه وأخذا في القتال وجالا جولانًا عظيمًا فرمقتهما الأبصار وجعل المسلمون يدعون لشرحبيل بالنصر والمعونة، ونظر شرحبيل إلى شدة الكافر ففر بين يديه كأنه منهزم فتبعه عدو الله، فلما علم شرحبيل أنه قد قاربه ثنى عنان جواده فطعنه بقناته يريد أن يجعلها في نحره فزاغ المشرك عن الطعنة ونجا منها سالمًا، ثم قال: معاشر العرب أنتم لا تدعون الخديعة والمكر! فقال شرحبيل: ويلك أما علمت أن الحرب خدعة والمكر رأسه؟! فقال العلج: فما الذي نفعك من حيلتك؟ قال: فتضاربا حتى انقطع السيفان في أيديهما فاعتنقا معانقة شديدة وكان المشرك أعظم جثة وأشد منعة! وكان شرحبيل نحيف الجسم من كثرة الصيام والقيام؛

فضغط عليه المشرك ضغطة أوجعه بها وهمَّ أن يقتله في سرجه، والفريقان ينظران إليهما! قال ضرار بن الأزور: فداخلني والله الغيظ فقلت في نفسي: ويحك يا ضرار يقتل هذا العلج كاتب وحي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنت تنظر إليه فما يمنعك من نصرته؟!

فخرج ضرار نحوهما يسعى على قدميه كالظبية الخمصاء حتى قرب منهما ولا يعلمان به جميعًا وكان في يده خنجر فضرب به العلج من ورائه فأطلع الخنجر من قلبه فسقط العلج قتيلًا وخلص شرحبيل من الضغطة. قال: فلما سقط العلج عن ظهر جواده نزل إليه شرحبيل وسلب ما كان عليه من لأمة حربه، وركب ضرار جواده وانثنى راجعًا هو وشرحبيل نحو المسلمين فهنأ المسلمون شرحبيل وشكروا ضرارًا على فعله. وقال: ثم إن شرحبيل أخذ سلب العلج فنازعه ضرار فيه. فقال: السلب لي وأنا قتلته، وقال شرحبيل: أنا آخذ السلب، فأتيا أبا عبيدة فخاف أبو عبيدة أن يحكم بينهما فلا يرضون بحكمه، فكتب إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: يا أمير المؤمنين إن رجلًا خرج إلى البراز وقاتل علجًا من الأعلاج وبلغ معه الجهد جهيد،

فخرج آخر من المسلمين فأعان الرجل وقتل العلج، ولم يسم أبو عبيدة الرجلين فلمن السلب منهما؟ فجاء الجواب من عمر بن الخطاب إن السلب للقاتل فأخذ السلب أبو عبيدة من شرحبيل وأعطاه ضرارًا. فقال «ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ».

ولما قتل ضرار ملك اللان غضبت الروم، فخرج فارس شجاع وطلب البراز فخرج إليه الزبير بن العوام - رضي الله عنه - فقتله وأخذ سلبه وخرج إليه ثان وثالث ورابع فقتلهم وأخذ أسلابهم. فقال خالد لأبي عبيدة: إن الزبير قد تجرد للروم وبذل نفسه لله ولرسوله وأخاف عليه من التعب! فصاح عليه أبو عبيدة وأقسم عليه، فرجع الزبير إلى مقامه. وخرج من الروم بطريق فخرج إليه خالد بن الوليد وكان ملك الروسية فقتله خالد وكان زوج بنت ملك اللان فقوِّم سلبه وتاجه ومنطقته وصليبه ودرعه بخمسة عشر ألفًا. فأخبر ماهان بذلك فغضب وقال: سيدان منا قتلا في يوم واحد وإني أظن أن المسيح لا ينصرنا ثم أمر الرماة أن يرموا عن يد واحدة فرموا سهامهم وأطلقوا نحو المسلمين دفعة واحدة مائة ألف سهم، فكان النشاب يقع في عساكر المسلمين كسقوط البرد من

السماء فكثرت الجراح في الناس واعورَّ من المسلمين سبعمائة عين فسمى ذلك اليوم «يوم التعوير». وكان ممن أصيب بعينه المغيرة بن شعبة وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل التميمي وأبو سفيان صخر بن حرب وراشد بن سعيد وكان الرجل بعد ذلك يلقي الرجل فيقول له: ما الذي أصاب عينك؟ فيقول الآخر: لا تقل مصيبة بل هي محنة من الله. وعظم وقع السهام في عسكر المسلمين حتى ما كنت تسمع إلا من يصيح واعيناه وابصراه واحدقتاه وعظم اضطراب المسلمين من ذلك. فجذبت العرب أعنة خيولها راجعة.

ونظر ماهان اللعين إلى اضطراب جيش المسلمين فحرَّض الرماة والروم وصاح برجاله وزحفت المسلسلة نحو المسلمين فهالهم ذلك وحمل جرجير وقناطير وقورين، وقال ماهان: اثبتوا على الحملة وارموا العرب بالنشاب فزادت الرماة في رميها وزحفت المسلسلة بحديدها والبوارق تلمع من أكف الرجال كمقاييس النيران والحرب قائمة على ساق، وأخذ المسلمون على أنفسهم إشفاقًا مما نزل بهم ووصل إليهم من قلع الأحداق، قال عباد بن عامر: فنظرت إلى جيش الشرك وهو نحونا سائر وفرسان المسلمين متأخرة وخيولهم

ناكصة. فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم: «اللهم أنزل علينا نصرك الذي نصرتنا به في المواطن كلها»، ثم صحت في رجال حمير تهربون من الجنة إلى النار ما هذا الفرار أما تخافون العار؟! أَمَا أنتم بين يدي الجبار؟! قال: فما أجابني والله أحد كأنَّهم صم لا يسمعون. فقلت: كأن قبيلتك خرست عن الجواب! فجعلت أهتف بقبائل العرب فكل قد شغل بنفسه عن إجابتي! فجعلت أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فما كان غير بعيد حتى نزل النصر من الله. وذلك أن المسلمين قد انقلبوا راجعين نحو تل النساء ولم يثبت غير أصحاب الرايات.

قال عبد الله بن قرط الأسدي: شهدت القتال كله فلم أر قتالًا أشد من يوم التعوير ورجعت الخيل على أذنابها وقاتلت الأمراء بأنفسها والرايات بأيديهم حتى كان أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص والمسيب بن نجبة الفزاري وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق والفضل بن العباس يقاتلون قتالًا شديدًا قال عبد الله بن قرط: فقلت في نفسي: وكم مقدار ما يقاتل هؤلاء وهم نفر يسير؟! حتى ساعدتنا النساء اللاتي شهدن مع رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - المشاهد يداوين الجرحى ويسقين الماء ويبرزن إلى القتال، ولم أر امرأة من نساء قريش قاتلت بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا في اليمامة مع خالد مثل ما قاتلت نساء قريش يوم اليرموك حين دهمهنَّ القتال وخالط الروم المسلمين فضربنَّ بالسيوف ضربًا وجيعًا، وكان قد انضم النساء المهاجرات لغيرهنَّ وقامت الحرب على ساق! وتنادى النساء بأنسابهنَّ وأمهاتهنَّ وألقابهنَّ، وجعلن يقاتلن قتال الموت ويضربن وجوه الخيل بالعمد ويلوحن بالأطفال، وجعلت النساء بعضهنَّ يقاتلنَ المشركين وبعضهنَّ يقاتل المسلمين حتى رجعوا إلى قتال المشركين! وبعضهنَّ يسقي الماء، وبعضهنَّ يشد الجراح.

فبينما هنَّ يقاتلنَ وقد هجمت الرجال؛ إذ انهزمت نساء لخم وجذام وخولان فخرجت خولة بنت الأزور وأم حكيم بنت الحارث وسلمى بنت لؤي وجعلنَ يضربنَ في وجوههنَّ ورؤوسهنَّ بالعمد ويقلنَ: اخرجن من بيننا فأنتنَّ توهنَّ جمعنا! فرجعت نساء لخم وجذام يقاتلنَ قتال الموت، وقاتلت أم حكيم بنت الحارث أمام الخيل بالسيف! وما نسمع يومئذ صوت واحدة من النساء

غير صوت واعظة تعظ. وأمَّا أم حكيم فإنها جعلت تنادي: يا معاشر العرب احصدوا الغلف بالسيوف. وأمَّا أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما فإنها قرنت عنانها بعنان زوجها الزبير بن العوام - رضي الله عنه - فما كان يضرب إلا ضربت مثله! فتراجع المسلمون إلى القتال حين رأوا النساء يقاتلنَ قتال الموت! ويقول الرجل لمن يليه: إن لم نقاتل نحن هؤلاء.. وإلا فنحن أحق بالخدور من النساء! فلله در نساء قريش يوم اليرموك.

قال أبو عامر: وحملت خولة بنت الأزور على علج من الأعلاج كان قد حمل علينا فاستقبلته وجعلت تناوشه بالسيف فضربها العلج بسيفه على قصتها فأسال دمها وسقطت إلى الأرض فصاحت عفيرة بنت عفان حين نظرتها صريعة ونادت: فجع والله ضرار في أخته فأخذت رأسها على ركبتها والدم قد صبغ شعرها كالشقائق فقالت لها: كيف تجدك؟ قالت: أنا بخير إن شاء الله تعالى ولكني هالكة لا محالة فهل لك عليَّ بأخي ضرار؟ فقالت عفيرة: يا ابنة الأزور ما رأيته! فقالت خولة: اللهم اجعلني فداء لأخي ولا تفجع به الإسلام.

قالت عفيرة فجهدت أن تقوم معي فلم تقم فحملناها إلى أن أتينا بها موضعها، فلما كان الليل رأيتها وهي تدور تسقي الرجال وكأن ليس لها ألم قط ونظر إليها أخوها والضربة في رأسها. فقال لها: ما بك؟ فقالت: ضربني علج قتلته عفيرة. فقال لها: يا أختاه أبشري بالجنة فقد أخذت لك بثأر الضربة مرارًا وقتلت منهم أعدادًا. قال: ولم يزل الحرب من أول النهار وكلما قرب الليل يزيد ويشتعل ضرامها، وأبو عبيدة يقاتل برايته والأمراء يفعلون كفعله، إلى أن فصل بينهما الظلام، وقد قتل من الروم يوم التعوير أربعون ألفًا أو يزيدون! ونقل عن خالد أنه انقطع في يده ذلك اليوم تسعة أسياف ولقد أخبرنا عن خالد بن الوليد ممن حضر قتال اليرموك وشاهده قال: كان يعد قتال خالد بمائة رجل من شجعان الرجال.

قال حازم بن معن: وبرز من المشركين في قلب الوقعة أصحاب الديباج والحرير والتجافيف على الخيول الشهب والبلق كأنها من الجبال الراسيات، فلما برزوا غاصوا في القلب وكروا كرة واحدة ورفعوا في وسطهم صليبًا من الجوهر وحملت ميمنتهم على ميسرتنا وميسرتهم على ميمنتنا، وقد شردوا إلى

النساء والنساء يضربن وجوههن فجعلن يصحن بهم الله الله لا تغموا الإسلام بهزيمتكم واتقوا ربكم. قال كان بين يدي أبي عبيدة رجل من محرز اسمه نجم بن مفرح وكان من خطباء العصر وأفصح العرب لسانًا وأجرئها جنانًا وكان رفيع الصوت حسنه جدًا فقصده العرب والفصحاء يسمعون ما ينطق به من نظمه ونثره.

عن موسى بن عمران اليشكري قال: رأيت نصر بن مازن وهو بجامع النيل يحدث عن وقعة اليرموك قال: ما رد الناس عن الهزيمة بعد قضاء الله إلى نصرة الإسلام إلا غلام رجل من بني محارب يقال له نجم بن مفرح وكان لا يتكلم إلا بالسجع يؤلفه بحسن نظمه ولقد حفظنا منه يوم اليرموك ما نحن نذكره عنه، ولقد بلغني أن البلغاء الفصحاء المتأخرين مثل الأصمعي وأبي عبيدة اللغوي ينسجان على منواله في حسن كلامه فكان من جملة ما وعظ به المسلمين يوم اليرموك وقت هزيمتهم: أيها الناس هذا اليوم له ما بعده وقد عاينتم قربه من بعده ولن تنال الجنة إلا بالصبر على المكاره وتالله لا ينالها من هو للجهاد كاره وينشد:

ولله في عـرض الســـموات جنـة   ولـكـنـهـا مـحـفـوفـة بـالـمـكـاره

وأعلى الدرجات درجة الشهادة فأرضوا عالم الغيب والشهادة وهذا الجهاد قد قام على ساقه وكسد النفاق في أسواقه وأخفى نفاقه في نفاقه وأنتم أصحاب نبي العصر فأيستم من الثبات والنصر بشروا روح المصطفى بثباتكم وقوموا العزم بصفاء نياتكم وإياكم أن تولوا الأدبار فتستوجبوا عذاب النار وغضب الجبار، فوالذي قدر الأقدار، وأدار الفلك الدوار، وكل شيء عنده بمقدار لقد تزينت لكم الحور العين بأيديهن أباريق وكأس من معين، فمن طلب دار البقا هان عليه ما يلقى، فحققوا حملتكم تنالوا بغيتكم، واطعنوا الصدور تنالوا الحور، وشرِّعوا الأسنة تنالوا الجنة، واغتنموا الصبر يكتب لكم الأجر، بشِّروا المؤمنين بحسن عملكم، وإياكم أن تضلوا عن سبيلكم، لا توافقوا الكفار في جهنم واعدلوا عن طريق قولهم، ووافقوا من سلف من أسلافكم في فعلهم، واسمعوا ما نزل في القرآن من أجلهم «وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا»، سيروا فقد سبق

المفردون، واجتهدوا فقد فاز المجتهدون «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ».

وحمل خالد بن الوليد بعصابة حمراء وهو يفزع الروم باسمه ويقول: أنا خالد بن الوليد! فبرز إليه بطريق يقال له النسطور وعليه الديباج فأقبل يدعو خالدًا ويهمهم، وخالد في القتال لا يشعر به ولا يدري ما يقول! فعندما سمعه يرطن عطف عليه فاقتتلا قتالًا شديدًا؛ فبينما هما في أشد القتال إذ كبا بخالد الجواد فوقع الفرس على يديه وهوى خالد على أم رأسه فقال الناس: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وخالد يقول: حي حي فعلا البطريق على ظهر خالد في عثرته وقد سقطت قلنسوته من رأسه فصاح: قلنسوتي رحمكم الله فأخذها رجل من قومه من بني مخزوم وناوله إياها فأخذها خالد ولبسها فقيل له فيما بعد: يا أبا سليمان أنت في مثل هذا الحال من القتال وأنت تقول قلنسوتي! فقال خالد: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما حلق رأسه في حجة الوداع أخذت من شعره شعرات. فقال لي: ما تصنع بهؤلاء يا خالد. فقلت:

أتبرك بها يا رسول الله وأستعين بها على قتال أعدائي! فقال لي النبي - صلى الله عليه وسلم -: «لا تزال منصورًا ما دامت معك» فجعلتها في مقدمة قلنسوتي فلم ألق جمعًا قط إلا انهزموا ببركة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

ثم شدها بعصابة حمراء وحمل على النسطور وضربه على عاتقه فأخرج السيف من علائقه! وانحسر من بقي من ملوكهم وكرهوا البراز بعد ذلك! فكان يدعوهم إلى البراز فلا يخرج إليه أحد، ولم يزل يضرب فيهم بسيفه حتى كلَّ فأشفق عليه الحارث بن هشام المخزومي فقال لأبي عبيدة: أيها الأمير لقد قضى خالد ما يجب عليه وأدى السيف حقه فلم لا أمرته أن يريح نفسه قال فمشى أبو عبيدة إليه وجعل يعزم عليه أن لا يتقدم ويسأله أن يريح نفسه. فقال خالد: أيها الأمير: أما والله لأطلبن الشهادة بكل وجه فإن أخطأتني فالله يعلم نيتي وحمل فلم يرجع عن حملته حتى جلاها، وذلك أن كل المسلمين استعفوه في حملته وأقبلوا على القتال من بعد هزيمتهم والنساء أمام الرجال ولم يزل الحرب بين الفريقين حتى انقلبت الروم على أعقابها وقد قتل منهم ألوف عديدة، وأما أصحاب السلاسل فانحطم أكثرهم ووطئتهم الخيل بحوافرها ولم

يزل القتال بينهم حتى مالت الشمس بغروبها وانفصل الجمعان وقد جرت الدماء بينهم وفرشت الأرض بالقتلى والجراح فاشية في الجمعين لكن في الروم أكثر ورجع كل قوم إلى إصلاح شأنهم ومداواة جرحاهم.

وأما النساء فأصلحن الطعام وشددن الجروح وداوين السقام، ولم يقل أبو عبيدة لأحد من المسلمين من يكون الليلة على حرس المسلمين لما عندهم من التعب بل إنه تولى الحرس بنفسه ومعه جماعة من المسلمين، قال فبينما هو يدور إذ رأى فارسين قد لقياه وهما يدوران بدورانه فكلما قال: لا إله إلا الله قالا محمد رسول الله فقرب أبو عبيدة منهما فإذا هما الزبير بن العوام وزوجته أسماء بنت أبي بكر الصديق فسلم عليهما وقال: يا ابن عمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما الذي أخرجكما؟ قال الزبير: نحرس المسلمين، وذلك أن أسماء قالت لي: يا ابن عمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن المسلمين مشتغلون بأنفسهم في هذه الليلة عن الحرس بما لحقهم من التعب في الجهاد طول يومهم فهل لك أن تساعدني على حرس المسلمين؟ فأجبتها إلى ذلك.

فشكرهما أبو عبيدة وعزم عليهما أن يرجعا فلم يفعلا ولم يزالا كذلك إلى الصباح.

قال الواقدي: كان أبو الجعيد رئيسًا من رؤساء أهل حمص، فلما اجتمعت الروم على المسلمين في اليرموك دخلوا على حمص ونزلوا في بلدة تسمى الزراعة، وكان أبو الجعيد هذا قد جعلها مسكنه لطيب هوائها ومائها وانتقل من حمص إليها فنزل عسكر الروم على الزراعة عنده وكان فيها عرس لأبي الجعيد وزوجته تزف عليه في تلك الليلة. فتكلف أبو الجعيد بضيافة الروم وأكرمهم وأطعمهم وسقاهم الخمر، فلما فرغوا من أمورهم قالوا: هات امرأتك إلينا فأبى ذلك وسبهم فأبوا إلا أخذ العروس، فلما شنَّع عليهم بذلك عمدوا إلى العروس وأخذوها كرهًا منه وعبثوا بها بقية ليلتهم. فبكى أبو الجعيد من حزنه ودعا عليهم فقتلوا أولاده، وكان له ولد من زوجة غيرها! فأقبلت أم الفتى فأخذت رأس ولدها في خمارها وأقبلت به إلى مقدم ذلك الجيش ورمت الرأس إليه وشكت حالها، وقالت له: انظر ما صنع أصحابك بولدي فخذ

بحقي! فلم يعبأ بكلامها. فقالت له أم الفتى: والله لتنصرن العرب عليكم ورجعت وهي تدعو عليه! فما كان إلا يسير حتى هلكوا في أيدي المسلمين.

فلما كان يوم اليرموك بعدما قتل النسطور أتى أبو الجعيد إلى عساكر المسلمين، وقال لخالد: اعلم أن هذا الجيش النازل بازائكم جيش عظيم ولو سلموا أنفسهم إليكم للقتل لما فرغتم من قتلهم إلا في المدة الطويلة فإن كدتهم لكم في هذه الليلة مكيدة تظفرون بها عليهم ماذا تعطوني. قالوا: نعطيك كذا وكذا ولا تؤدي جزية أنت وولدك وأهل بيتك ونكتب لك بذلك عهدًا إلى آخر عقبك. فلما استوثق منهم لنفسه مضى إلى الروم وهم لا يعلمون وأتى إلى واد عظيم مملوء ماء فأنزل الروم إلى جانبه، وقال لهم: إن هذا المنزل به العرب وأنا سأكيد لكم العرب بمكيدة يهلكون بها. قال وجعل الناقوصة فيما بين الروم والعرب ولم يعلم أحد من الروم ما عمقها. قال فلما كان يوم التعوير وعلم أبو الجعيد أن النصر للعرب وأن العرب هم المنصورون، جاء أبو الجعيد إلى أبو عبيدة فوجده يطوف تلك الليلة هو وجماعة من المسلمين المهاجرين. فقال

لهم: ما قعودكم؟ قالوا: وما نصنع؟ قال: إذا كان ليلة غد فأكثروا من النيران. ثم رجع إلى الروم لينصب عليهم حيلة.

فلما كانت الليلة الثانية أوقد المسلمون أكثر من عشرة آلاف نار، فلما اشتعلت النيران أقبل إليهم أبو الجعيد، فقالوا: قد أشعلنا النيران كما أردت فما بعد ذلك؟ قال: أريد منكم خمسمائة رجل من أبطالكم حتى أشير عليهم بما يصنعون. فاختار من المسلمين خمسمائة رجل من جملتهم ضرار بن الأزور وعياض ورافع وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وغانم بن عبد الله ومثل هؤلاء السادات، فلما اجتمعوا سار بهم أبو الجعيد على غير المخاضة وقصد بهم عسكر الروم، فلما كادوا يخالطونهم أخذ أبو الجعيد منهم رجالاً ودلهم على المخاضة ولم يكن يعلم بها أحد سواه ممن سكن اليرموك وقال لهم: ناوشوهم الحرب، ثم انهزموا ودعوني وإياهم! ففعلوا ذلك وصاحوا فيهم وحملوا ثم انهزموا قدامهم نحو المخاضة، فعند ذلك صاح أبو الجعيد برفيع صوته: يا معاشر الروم دونكم ومن انهزم فهؤلاء المسلمون، قد أوقدوا نيرانهم وعوَّلوا على الحرب. فأقبلت الروم على حال عجلة يظنون أن ذلك حق،

فبعضهم ركب جواده عريانًا وبعضهم راجل وساروا في طلب المنهزمين وأبو الجعيد يعدو بين أيديهم إلى أن أوقفهم على الناقوصة وقال لهم: هذه المخاضة دونكم وإياهم فأقبلوا يتساقطون في الماء كتساقط الجراد حتى هلك في الماء ما لا يعد ولا يحصى عددًا ولا يدركه جنان فسمتها العرب «الناقوصة» لنقص الروم.

قال الواقدي: هذا ما جرى للروم، ولا يعلم الأول بما جرى للآخر حتى أصبحوا، فنظروا المسلمين في أماكنهم فعلموا أنهم قد دهموا في الليل وقل عددهم وتبدد شملهم فقال بعضهم لبعض: من كان الصائح في ليلتنا. قال الرجل الذي عبثتم بزوجته وقتلتم ولده وقد أخذ بثأره منكم! فلما أصبح ماهان وعلم الحقيقة وعلم ما نزل بأصحابه علم أنه هالك لا محالة وأن العرب ظافرون عليه، فبعث إلى قورين، فقال: ما ترى أن أصنع وقد ظهرت العرب علينا وإن حملوا علينا حملة لم ينفلت منَّا أحد؟! فهل لك أن تسألهم أن يؤخروا القتال حتى نحتال لخلاص أنفسنا؟ قال قورين: أفعل ذلك. فدعا ماهان برجل من لخم وبعثه إلى المسلمين يقول لهم: اعلموا أن الحرب سجال والدنيا زوال

وقد مكرتم بنا فلا تبغوا فالبغي له مصرع وأخروا الحرب عنا يومنا هذا، فإذا كان غد يكون الانفصال بيننا وبينكم. فأقبل اللخمي إلى أبي عبيدة وبلغه الرسالة فهمَّ أبو عبيدة أن يجيبهم إلى ذلك فمنعه خالد وقال له: لا تفعل أيها الأمير فما عند القوم خير بعد ذلك. فقال أبو عبيدة: ارجع إلى صاحبك وقل له لا نؤخر عنك القتال وإنَّا على عجل من أمرنا! فرجع الرسول إلى ماهان فأعلمه بجواب أبي عبيدة فعظم عليه وكبر لديه وكفر وتجبر وقال: لقد كنت أتربص بنفسي عن العرب أرجو بذلك الصلح فوحق الصليب لا يبرز لهم غيري! ثم صرخ بالروم وأصحاب سرير الملك، ومن كان يتكل عليه في الشدائد وأمرهم أن يأخذوا الأهبة فاستعدوا، وخرج ماهان في مقدمة الجيش والصليب أمامه وإذا بالمسلمين أخذوا مصافهم للقتل.

وذلك أن أبا عبيدة صلى بالمسلمين صلاة الفجر وأمرهم بالسرعة للقتال وأخذوا مواضعهم للحرب ففعلوا وقد أيقنوا أنهم منصورون على عدوهم. وصف أبو عبيدة أصحاب الرايات ووقف هو وخالد في الخيل المعروفة بخيل الزحف وطلعت الشمس وخرج جرجير هو وبعض ملوك الروم ودعا بالبراز

وقال: لا يبرز لي إلا أمير العرب! فسمعه أبو عبيدة فسلم الراية إلى خالد، وقال: أنت للراية يا أبا سليمان فإن عدت من قتاله فالراية لي وإن هو قتلني فأمسك رايتك حتى يرى عمر رأيه. فقال خالد: أنا لقتاله دونك! فقال أبو عبيدة: لا.. هو طلبني ولابد لي من الخروج إليه وأنت شريكي في الأجر! فخرج أبو عبيدة وما أحد من المسلمين إلا وهو كاره لذلك فأقبلوا يسألونه فأبى إلا الخروج فتركوه ورأيه، فلما قرب أبو عبيدة من جرجير وعاينه قال له: أنت أمير هذا الجيش؟ فقال أبو عبيدة: أنا ذلك وقد أجبتك إلى ما طلبت من أمر البراز فدونك وعرض الميدان، فإما هزمتك أو قتلتك وأقتل ماهان بعدك. فقال جرجير: أمة الصليب تغلبكم!

وحمل جرجير على أبي عبيدة وحمل أبو عبيدة على جرجير وطال بينهما القتال. وبقي خالد ينظر إلى أبي عبيدة ويدعو له بالسلامة والنصر وجميع المسلمين يدعون له. وفرَّ جرجير أمام أبي عبيدة وأخذ في عرض الجيش وطلب في فراره جيش المشركين في الميمنة، وتبعه أبو عبيدة على أثره. فعندها عطف عليه جرجير وخرج كأنه البرق والتقيا بضربتين فكان أبو عبيدة أسبق فوقعت

الضربة على عاتق جرجير فخرجت من علائقه! فكبَّر عند ذلك أبو عبيدة وكبَّر المسلمون! ووقف أبو عبيدة على مصرع جرجير وجعل يتعجب من عظم جثته ولم يأخذ من سلبه شيئًا! فنادى به خالد: لله درك أيها الأمير ارجع إلى رايتك فقد قضيت ما يجب عليك فلم يرجع أبو عبيدة فأقسم عليه المسلمون أن يرجع فرجع وأخذ الراية من يد خالد ونظر ماهان إلى جرجير فعظم ذلك عليه وكبر لديه لأنه كان ركنًا من أركانهم فهم بالهزيمة، ثم قال في نفسه: ماذا يكون عذري عند هرقل ولابد أن أبرز إلى الحرب، فإن قتلت فقد استرحت من العار وإن سلمت كان لي عند الملك عذر أحسن من أن أولي الأدبار! ثم إنه أعلم رجاله أنه يريد المبارزة بنفسه وأخذ عدَّته ولبس زينته وخرج كأنه جبل ذهب يلمع ثم جمع إليه البطارقة والقسوس والرهبان، وقال لهم: إن الملك هرقل كان أعلم منكم بهذا الأمر وأنه أراد الصلح فخالفتموه فها أنا أبرز إليهم بنفسي! فتقدم إليه بطريق من بطارقة السرير وكان فيه نسك ودين وكان يعظم الكنائس والرهبان ويتبع ما فرض عليه في الإنجيل وكان يقرب من جرجير في النسب، فلما علم بقتله عظم عليه وقال: وحق الصليب لأبرزن إلى المسلمين وآخذ بالثأر، فإما

أن ألحق به وإما أن أقتل قاتله... ثم قال لماهان: قد تعين عليَّ الجهاد وأنا أؤدي فرض المسيح ولابد لي من المبارزة!

فتركه ماهان فخرج وكان اسمه «جرجيس» وكان عليه درع، وعلى الدرع ثوب حديد متقلد بسيفه ومعه قنطارية وعوَّذته القسوس وبخروه ببخور الكنائس وأقبل إليه راهب عمورية وأعطاه صليبًا كان في عنقه وقال: هذا الصليب من أيام المسيح يتوارثه الرهبان ويتمسحون به فهو ينصرك! فأخذه جرجيس ونادى: البراز بكلام عربي فصيح حتى ظنَّ الناس أنه عربي من المتنصرة، فخرج إليه ضرار بن الأزور كأنه شعلة نار، فلما قاربه ونظر إليه وإلى عظم جثته ندم على خروجه بالعدة التي أثقلته فقال في نفسه: وما عسى يغني هذا اللباس إذا حضر الأجل ثم رجع موليًا فظن الناس أنه ولى فزعًا.

فقال قائل منهم: إن ضرارًا قد انهزم من العلج وما ضبط عنه قط أنه انهزم وهو لا يكلم أحدًا حتى صار إلى خيمته ونزع ثيابه وبقي بالسراويل وأخذ قوسه وتقلد بسيفه وحجفته وعاد إلى الميدان كأنه الظبية الخمصاء فوجد مالكًا النخعي قد سبقه إلى البطريق وكان مالك من الخُطَّاط إذا ركب الجواد تسحب

رجلاه على الأرض فنظر ضرار فإذا بمالك ينادي العلج تقدم يا عدو الله يا عابد الصليب إلى الرجل النجيب ناصر محمد الحبيب، فلم يجبه العلج لما داخله من الخوف منه! فجال عليه وهمَّ أن يطعنه فلم يجد للطعنة مكانًا لما عليه من الحديد فقصد جواده وطعنه في خاصرته فأطلع السنان يلمع من الجانب الآخر فنفر الجواد من حرارة الطعنة وهمَّ مالك أن يخرج الرمح فلم يقدر لأنه قد اشتبك في ضلوع الجواد، وهو على ظهره لم يقدر أن يتحرك لأنه مزرر في ظهر الجواد بزنانير إلى سرجه، فنظر المسلمون إلى ضرار وقد أسرع إليه مثل الظبية حتى وصل إليه وضربه بسيفه على هامته فشطرها نصفين وأخذ سلبه فأتاه مالك وقال: ما هذا يا ضرار تشاركني في صيدي!! فقال: ما أنا بشريكك، وإنما أنا صاحب السلب وهو لي. فقال مالك: أنا قتلت جواده. فقال ضرار: «رب ساع لقاعد آكل غير حامل» فتبسم مالك، وقال: خذ صيدك هنَّاك الله به. قال ضرار: إنما أنا مازح في كلامي خذه إليك فوالله ما آخذ منه شيئًا وهو لك وأنت أحق به مني! ثم انتزع سلب العلج وحمله على عاتقه وما كاد أن يمشي به وهو يتصبب عرقًا. قال زهير بن عابد: ولقد رأيته وهو يسير به وهو راجل ومالك فارس حتى

طرحه في رحل مالك. فقال أبو عبيدة: بأبي وأمي والله قوم وهبوا أنفسهم لله وما يريدون الدنيا!

فلما قتل البطريق قُصَّ جناح ماهان فصاح بقومه وجمعهم إليه وقال لهم: اسمعوا يا أصحاب الملك وبلِّغوه عنِّي أنِّي ما تركت جهدي في نصرة هذا الدين وحاميت عن الملك وقاتلت عن نعمته وما أقدر أن أغالب رب السماء، لأنه قد نصر العرب علينا وملكهم بلدنا والآن ما لي وجه أرجع به إلى الملك حتى أخرج إلى الحرب وأبرز إلى مقام الطعن والضرب وعزمت أن أسلم الصليب إلى أحدكم وأبرز إلى قتال المسلمين، فإن قتلت فقد استرحت من العار ومن توبيخ الملك لي، وإن رزقت النصر وأثرت في المسلمين أثرًا ورجعت سالمًا علم الملك أني لم أقصر عن نصرته! فقالوا: أيها الملك لا تخرج إلى الحرب حتى نخرج نحن إلى القتال قبلك فإذا قتلنا فافعل بعدنا ما شئت. فحلف ماهان بالكنائس الأربع لا يبرز أحد قبله، فلما حلف أمسكوا عنه وعن مراجعته، ثم إنه دعا بابن له فدفع إليه الصليب وقال: قف مكاني! وقدَّم لماهان عدة فأفرغت عليه.

قال الواقدي: بلغنا أنَّ عدته التي خرج بها إلى الحرب تقوَّمت بستين ألف دينار لأن جميعها كان مرصعًا بالجوهر! فلما عزم على الخروج تقدم له راهب من الرهبان، فقال: أيها الملك ما أرى لك إلى البراز سبيلًا ولا أحبه لك. قال: ولم ذلك؟ قال: لأني رأيت لك رؤيا فارجع ودع غيرك يبرز. فقال ماهان: لست أفعل والقتل أحب إليَّ من العار! فبخَّروه وودعوه وخرج ماهان إلى القتال وهو كأنه جبل ذهب يبرق وأقبل حتى وقف بين الصفين ودعا إلى البراز وخوَّف باسمه فكان أول من عرفه خالد بن الوليد فقال: هذا ماهان! هذا صاحب القوم قد خرج، ووالله ما عندهم شيء من الخير. وماهان يرعب باسمه فخرج إليه غلام من الأوس وقال: والله أنا مشتاق إلى الجنة وحمل ماهان وبيده عمود من ذهب كان تحت فخذه فضرب به الغلام فقتله. قال أبو هريرة – رضي الله عنه – : فنظرت إلى الغلام عندما سقط وهو يشير بإصبعه نحو السماء ولم يهله ما لحقه فعلمت أن ذلك لفرحه بما عاين من الحور العين.

فجال ماهان على مصرعه وقوي قلبه ودعا إلى البراز فسارع المسلمون إليه فكل يقول: «اللهم اجعل قتله على يدي»، وكان أول من برز مالك النخعي –

رضي الله عنه - وساواه في الميدان فابتدر مالك ماهان بالكلام وقال له: أيها العلج الأغلف لا تغتر بمن قتلته، وإنما اشتاق صاحبنا إلى لقاء ربه وما منا إلا من هو مشتاق إلى الجنة، فإن أردت مجاورتنا في جنات النعيم فانطق بكلمة الشهادة أو أداء الجزية وإلا فأنت هالك لا محالة. فقال له ماهان: أنت صاحبي خالد بن الوليد؟ قال: لا أنا مالك النخعي صاحب رسول الله! - صلى الله عليه وسلم - فقال ماهان: لابد لي من الحرب ثم حمل على مالك وكان من أهل الشجاعة فاجتهدا في القتال فأخرج ماهان عموده وضرب به مالكًا على البيضة التي على رأسه فغاصت في جبهة مالك فشترت عينيه فمن ذلك اليوم سمي بـ «الأشتر» فلما رأى مالك ما نزل به من ضربة ماهان عزم على الرجوع ثم فكر فيما عزم عليه فدبر نفسه، وعلم أن الله ناصره والدم فائر من جبهته وعدو الله يظنُّ أنه قتل مالكًا وهو ينظره متى يقع عن ظهر فرسه وإذا بمالك قد حمل وأخذته أصوات المسلمين: «يا مالك استعن بالله يعينك على قرينك» قال مالك: فاستعنت بالله عليه وصليت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وضربته ضربة عظيمة فقطع سيفي فيه قطعًا غير موهن فعلمت أن الأجل حصين، فلما أحس ماهان بالضربة ولَّى ودخل في عسكره.

قال الواقدي: ولما ولَّى ماهان بين يدي مالك الأشتر منهزمًا صاح خالد بالمسلمين: يا أهل النصر والبأس احملوا على القوم ماداموا في دهشتهم! ثم حمل خالد ومن معه من جيشه وحمل كل الأمراء بمن معهم وتبعهم المسلمون بالتهليل والتكبير فصبرت لهم الروم بعض الصبر، حتى إذا غابت الشمس وأظلم الأفق انكشف الروم منهزمين بين أيديهم وتبعهم المسلمون يأسرون ويقتلون كيف شاءوا! فقتلوا منهم زهاء من مائة ألف وأسروا مثلها وغرق في الناقوصة منهم مثلها وأمم لا تحصى وتفرق منهم في الجبال والأودية وخيول المسلمين من ورائهم يقتلون ويأسرون ويأتون من الجبال بالأسارى ولم يزل المسلمون يقتلون ويأسرون إلى أن راق الليل. فقال أبو عبيدة: اتركوهم إلى الصباح فتراجعت المسلمون وقد امتلأت أيديهم من الغنائم والسرادقات وآنية الذهب والفضة والزلازل والنمارق والطنافس. ووكَّل أبو عبيدة رجالًا من المسلمين بجمع الغنائم، وبات المسلمون فرحين بنصر الله حتى أصبحوا، فإذا ليس للروم خبر، ووقع أكثرهم في الناقوصة في الليل.

عن حامد بن مجيد قال: أراد أبو عبيدة أن يحصي عدد المشركين فلم يقدر أن يحصي ذلك فأمر بقطع القصب من الوادي وجعل على كل قتيل قصبة، ثم عدوا القصب فإذا القتلى مائة ألف وخمسة آلاف والأسارى أربعون ألفًا غير من غرق في الناقوصة وقتل من المسلمين أربعة آلاف ووجد أبو عبيدة رؤوسًا في اليرموك فلم يعلم أهم من العرب أم من الروم! قال: ثم إنه صلى على قتلى المسلمين وسار في طلبهم إلى الجبال والأودية وإذا هم براع قد استقبلهم فسألوه هل مر بك أحد من الروم. قال: نعم مر بي بطريق ومعه زهاء من أربعين ألفًا.

قال الواقدي: وكان ذلك ماهان -لعنه الله- فاتبعهم خالد بن الوليد وجعل يقفو أثرهم ومعه عسكر الزحف فأدركهم على دمشق، ولما أشرف عليهم كبر وكبر المسلمون وحملوا ووضعوا فيهم السيف فقتلوا مقتلة عظيمة، وكان ماهان قد ترجل عن جواده، وقيل إنه ترجل ينكر نفسه ويسلم من القتل فأتاه رجل من المسلمين فحامى عن نفسه فقتله الرجل، وكان قاتله النعمان بن جهلة الأزدي وعاصم بن خوال اليربوعي وقد اختلفوا في أيهما قتل ماهان.

وخرج أهل دمشق إلى لقاء خالد وقالوا له: نحن على عهدنا الذي كان بيننا وبينكم. قال خالد: أنتم على عهدكم! ومضى في طلب الروم يقتلهم حيث وجدوهم حتى انتهى إلى ثنية العقاب وأقام تحتها يومًا، ثم مضى إلى حمص ونزل بها وبلغ ذلك أبا عبيدة فسار حتى لحق به فيمن معه. والأمراء في طلب الروم من كل جهة من الشام ثم اجتمعوا وعادوا إلى دمشق وجمع أبو عبيدة الغنائم وأخرج منها الخمس وكتب إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كتاب البشارة والفتح: بسم الله الرحمن الرحيم وصلوات الله على نبيه المصطفى ورسوله المجتبى - صلى الله عليه وسلم -، من أبي عبيدة عامر بن الجراح: أما بعد فأنا أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأشكره على ما أولانا من النعم وخصنا به من كرمه ببركات نبي الرحمة وشفيع الأمة - صلى الله عليه وسلم -، واعلم يا أمير المؤمنين أني نزلت اليرموك ونزل ماهان مقدم جيوش الروم بالقرب منا ولم ير المسلمون أكثر جمعًا منه فأقصى الله تلك الجموع ونصرنا عليهم بمنه وكرمه وفضله فقتلنا منهم زهاء من مائة ألف وخمسة آلاف وأسرنا منهم أربعين ألفًا واستشهد من المسلمين أربعة آلاف ختم الله لهم بالشهادة ووجدت في المعركة رؤوسًا مقطوعة لم أعرفها فصليت عليها ودفنتها

وقتل ماهان على دمشق قتله عاصم بن خوال، وقد كان قبل وقعة الانفصال نصب عليهم رجل منهم يقال له أبو الجعيد من أهل حمص حيلة فألقاهم في موضع يقال له الناقوصة فغرق منهم ما لا يحصى عددهم إلا الله تعالى، وأما من قتل من المشركين في الأودية والجبال من المنهزمين وغيرهم وأخذت عدتهم فتسعون ألفًا! وقد ملكنا أموالهم وخيولهم وحصونهم وبلادهم وكتبنا إليك هذا الكتاب بعد الفتح ونزلنا في دمشق والسلام عليه ورحمة الله وبركاته وعلى جميع المسلمين. وطوى الكتاب وختمه ودعا بحذيفة بن اليمان ودفعه إليه وضم إليه عشرة من المهاجرين والأنصار وقال لهم: سيروا بكتاب الفتح والبشرى إلى أمير المؤمنين وبشروه بذلك وأجركم على الله! فأخذ حذيفة الكتاب وسار هو والعشرة من وقتهم وساعتهم يجدون السير ليلًا ونهارًا حتى قربوا من المدينة.

قال عبد الله بن عوف المالكي عن أبيه قال: لما هزم الله الروم في اليرموك وكان من أمرهم ما كان رأى عمر بن الخطاب ليلة هزيمة الروم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جالسًا في الروضة ومعه أبو بكر الصديق – رضي الله عنه

-، وكان عمر يسلم عليهما ويقول: يا رسول الله إن قلبي مشغول على المسلمين وما يصنع الله بهم، وقد بلغني أن الروم في ألف ألف وستين ألفًا. فقال: يا عمر أبشر فقد فتح الله على المسلمين وقد انهزم عدوهم وقتل كذا وكذا، ثم تلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ».

فلما كان من الغد صلى عمر بالناس صلاة الفجر وأعلم الناس بما رأى في منامه. فاستبشر المسلمون وفرحوا وعلموا أن الشيطان لا يتمثل بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وأرخوا تلك الليلة فكانت كما ذكره النبي - صلى الله عليه وسلم - فسجد عمر لله شكرًا! ووصله الكتاب فقرأه على الناس فارتفعت أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير. ثم قال: يا حذيفة فهل قسم أبو عبيدة الغنائم؟

فقال: يا أمير المؤمنين هو منتظر كتابك وأمرك. فدعا عمر بدواة وقرطاس وكتب إلى أبي عبيدة كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عامله بالشام سلام عليك. أما بعد فإني أحمد الله الذي لا إله

إلا هو وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد فرحت بما فتح الله على المسلمين من نصرتهم وانهزام عدوهم، فإذا وصل إليك كتابي هذا فاقسم الغنيمة بين المسلمين وفضل أهل السبق وأعط كل ذي حق حقه واحفظ المسلمين واكلأهم واشكرهم على صبرهم وفعالهم، وأقم بموضعك حتى يأتيك أمري، والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته، وطوى الكتاب وسلمه لحذيفة بن اليمان فأخذه حذيفة وسار حتى ورد على أبي عبيدة فوجده على دمشق، فسلم عليه وعلى المسلمين وناوله الكتاب.

فلما قرأه على المسلمين قسم الغنائم فأصاب الفارس أربعة وعشرون ألف مثقال من النصب الأحمر والراجل ثمانية آلاف وكذلك من الفضة وأعطى الفرس الهجين سهمًا والفرس العتيق سهمين وألحق القادمين على الخيل بالعراب، فلما فعل أبو عبيدة ذلك. قال أصحاب الحمر: ألحقنا بالعراب. فقال أبو عبيدة: إني قسمت عليكم بما قسم النبي - صلى الله عليه وسلم - الغنيمة بين أصحابه فلم يقبلوا قوله فكتب إلى عمر بذلك يعلمه باختلاف الناس في الخيل والهجين والعراب فكتب إليه عمر يقول: أما بعد فقد عملت بسنة رسول

الله - صلى الله عليه وسلم - ولم تتعد حكمه، فأعط الفرس العربي سهمين والهجين سهمًا، واعلم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عرب العربين وهجن الهجين يوم خيبر فجعل للهجين سهمًا وللعربي سهمين، فلما ورد الكتاب على أبي عبيدة وقرأه على المسلمين. قال: ما أراد أبو عبيدة أن يحقر رجلًا منكم، ولكن تبعت سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

قال الواقدي: فلما قسم أبو عبيدة الغنائم على المسلمين قال له خالد بن الوليد: إن رجلًا من المسلمين تشفَّع بي إليك أن تلحق فرسه الهجين بفرسه العتيق العربي وتعطيه سهمين. فأبى أبو عبيدة وقال: والله إنَّ سفَّ التراب أحب إليَّ من ذلك. وروى عثمان أن ابن الزبير قال: شهدت جدي الزبير بن العوام يوم اليرموك ومعه فرسان يتعقب عليهما للقتال ركب هذا يومًا وهذا يومًا، فلما كان وقت قسم الغنائم أعطاه أبو عبيدة ثلاثة أسهم له سهم ولفرسه سهمان. فقال الزبير: أما تصنع بي كما صنع بي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم خيبر كان معي فرسان فأسهمني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم خيبر خمسة أسهم لفرسي أربعة وأعطاني سهمًا، وقال المقداد بن عمرو: كنت أنا

وأنت يوم بدر ومعنا فرسان لا غيرهما فأعطى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سهمين سهمين للفرسين، قال أبو عبيدة: إنك لصادق يا مقداد أنا أتبع فعل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأعطي الزبير وأقبل جابر بن عبد الله الأنصاري فشهد عند أبي عبيدة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أعطى الزبير يوم خيبر خمسة أسهم، فلما فعل ذلك أتى رجال من رجال العرب لكل واحد منهم أربعة أفراس وخمسة أفراس فقالوا: ألحقنا بالزبير قال فاستأذن عمر في ذلك. فقال: صدق الزبير إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أعطاه يوم خيبر خمسة أسهم فلا تعط غيره مثله.

وروى عروة عن أبي الزبير قال: لقي الزبير غلامًا كان قد وقع بيده يوم غنيمة عمان فهرب منه، فلما كان يوم اليرموك قبل قسم الغنائم عرفه فقبض عليه وأخذ بيده فقال له الموكل على حفظ الغنيمة: لست أدعك فبينما هما في المحاورة إذ أقبل أبو عبيدة، فقال: ما بالكما. فقال الزبير: أيها الأمير هذا غلامي وصل إلي من غنيمة عمان وهرب مني وقد رأيته الآن فلابد لي منه فقال أبو عبيدة: صدق

ابن عمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو له وأنا سلمته له من غنيمة عمان فسلمه إليه فأخذه الزبير.

قال زيد المرادي: هربت منا جارية إلى العدو وظفرنا بها يوم اليرموك في قسم الغنائم فكلمنا أبا عبيدة فيها فكتب إلى عمر فرد إليه الجواب، إن كانت جارية حربية ففيها السهام وإلا فلا سبيل إليها وإن كان لم تجر فيها السهام فردُّوها فكأن القوم لا يرضون بهذا من أبي عبيدة. فقال أبو عبيدة: والله الذي لا إله إلا هو هذا كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يحكم بما أمرتكم! فقبل قوله ودفع الجارية إلى القسم.

قال الواقدي: لما هزم الله الروم باليرموك على يد أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبلغ الخبر إلى هرقل بهزيمة جيشه وقد قتل ماهان وجرجير وغيرهما، قال: علمت أن الأمر يصل إلى هنا! ثم أقام ينتظر ما يجري من المسلمين.

ذكر فتح مدينة بيت المقدس

قال الواقدي: وأما ما كان من المسلمين فإنهم أقاموا على دمشق شهرًا فجمع أبو عبيدة أمراء المسلمين وقال لهم: أشيروا علي بما أصنع وأين أتوجه؟ فاتفق رأي المسلمين إما إلى قيسارية وإما إلى بيت المقدس. فقال: فما الذي ترون منهما. فقالوا: أنت الرجل الأمين وما تسير إلى موضع إلا ونحن معك. فقال معاذ بن جبل: اكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فحيث أمرك فسر واستعن بالله. فقال: أصبت الرأي يا معاذ. فكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يعلمه أنه قد عزم على قيسارية أو إلى بيت المقدس وأنه منتظر ما يأمره به والسلام، وأرسل الكتاب مع عرفجة بن ناصح النخعي وأمره بالمسير فسار حتى وصل المدينة فأرسل الكتاب لعمر - رضي الله عنه - فقرأه على المسلمين واستشارهم في الأمر.

فقال علي - رضي الله عنه -: يا أمير المؤمنين مر صاحبك أن يصير إلى بيت المقدس فيحدقوا بها ويقاتلوا أهلها فهو خير الرأي وأكبره، وإذا فتحت بيت المقدس فاصرف جيشه إلى قيسارية فإنها تفتح بعدها إن شاء الله تعالى كذا

أخبرني رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. قال: صدقت يا أبا الحسن فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عامله بالشام أبي عبيدة. أما بعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه، وقد ورد علي كتابك وفيه تستشيرني في أي ناحية تتوجه إليها، وقد أشار ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالسير إلى بيت المقدس فإن الله - سبحانه وتعالى - يفتحها على يديك والسلام عليك، ثم طوى الكتاب ودفعه إلى عرفجة وأمره أن يعجل بالمسير.

فسار حتى قدم على أبي عبيدة فوجده على الجابية. فدفع الكتاب إليه فقرأه على المسلمين ففرحوا بمسيرهم إلى بيت المقدس، فعندها دعا أبو عبيدة بخالد بن الوليد وعقد له راية وضم إليه خمسة آلاف فارس من خيل الزحف وسرحه إلى بيت المقدس، ثم دعا بيزيد بن أبي سفيان وعقد له راية على خمسة آلاف وأمره أن يلحق بخالد إلى بيت المقدس، وقال له: يا ابن أبي سفيان ما علمتك إلا ناصحًا، فإذا أشرفت على بلد إيلياء فارفعوا أصواتكم بالتهليل والتكبير واسألوا الله بجاه نبيه ومن سكنها من الأنبياء والصالحين أن يسهل

فتحها على أيدي المسلمين، فأخذ يزيد الراية وسار يريد بيت المقدس. ثم دعا شرحبيل بن حسنة كاتب وحي النبي - صلى الله عليه وسلم - وعقد له راية وضم إليه خمسة آلاف فارس من أهل اليمن وقال له: سر بمن معك حتى تقدم بيت المقدس وانزل بعسكرك عليها ولا تختلط بعسكر من تقدم قبلك، ثم دعا بالمرقال بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وضم إليه خمسة آلاف فارس مع جمع من المسلمين وسرحه على أثر شرحبيل بن حسنة وقال له: انزل على حصنها وأنت منعزل عن أصحابك، ثم عقد راية خامسة فسلمها للمسيب بن نجبة الفزاري وأمره أن يلحق بأصحابه وضم إليه خمسة آلاف فارس من النخع وغيرهم من القبائل، وعقد راية سادسة وسلمها إلى قيس بن هبيرة المرادي وضم إليه خمسة آلاف فارس وسيره وراءهم، ثم عقد راية سابعة وسلمها إلى عروة بن مهلهل بن زيد الخيل وضم إليه خمسة آلاف فارس وسيره وراءهم، فكان جملة من سرحه أبو عبيدة إلى بيت المقدس خمسة وثلاثين ألفًا وسارت السبعة أمراء في سبعة أيام في كل يوم أمير، وذلك كله يرهب به أعداء الله فبقي كل يوم ينزل عليهم أمير بجيشه.

فكان أول من طلع عليهم بالراية خالد بن الوليد، فلما أشرف عليهم كبر وكبر أصحابه، فلما سمع أهل بيت المقدس ضجيج أصواتهم انزعجوا وتزعزعت قلوبهم وصعدوا على أسوار بلدهم، فلما نظروا إلى قلة المسلمين استحقروهم وظنوا أن ذلك جميع المسلمين فنزل خالد ومن معه مما يلي باب أريحاء، وأقبل في اليوم الثاني يزيد بن أبي سفيان، وفي اليوم الثالث شرحبيل بن حسنة، وأقبل في اليوم الرابع المرقال، وأقبل في اليوم الخامس المسيب بن نجبة، وأقبل في اليوم السادس قيس بن هبيرة فنزل، وأقبل في اليوم السابع عروة بن مهلهل بن زيد الخيل فنزل مما يلي طرف الرملة. قال عبد الله بن عامر بن ربيعة الغطفاني: ما نزل أحد من المسلمين على بيت المقدس إلا وكبر وصلى ما قدره الله عليه ودعا بالنصر والظفر على الأعداء، ويقال إن خالدًا كان هو وأبو عبيدة.

فلما مضى العسكر أقام أبو عبيدة وخالد وبقية المسلمين والذراري والسواد والغنم وما أفاء الله على المسلمين من المواشي والأموال فلم يبرحوا من مكانهم. قال: وأقام العسكر على بيت المقدس ثلاثة أيام لا يبارزوهم حربًا ولا ينظرون رسولًا يأتي إليهم ولا يكلمهم أحد من أهلها! إلا أنهم قد حصَّنوا

أسوارهم بالمجانيق والطوارق والسيوف والدرق والجواشن والزرد الفاخرة. قال المسيب بن نجبة الفزاري: ما نزلنا ببلد من بلاد الشام فرأينا أكثر زينة ولا أحسن عدة من بيت المقدس! وما نزلنا بقوم إلا وتضعضعوا لنا وداخلهم الهلع وأخذتهم الهيبة إلا أهل بيت المقدس نزلنا بإزائهم ثلاثة أيام فلم يكلمنا منهم أحد ولا ينطقون غير أن حارسهم شديد وعدتهم كاملة! فلما كان في اليوم الرابع قال رجل من البادية لشرحبيل بن حسنة: أيها الأمير كأن هؤلاء القوم صم فلا يسمعون أو بكم فلا ينطقون أو عمي فلا يبصرون ازحفوا بنا إليهم.

فلما كان اليوم الخامس وقد صلى المسلمون صلاة الفجر كان أول من ركب من المسلمين من الأمراء لسؤال أهل بيت المقدس يزيد بن أبي سفيان فشهر سلاحه وجعل يدنو من سورهم وقد أخذ معه ترجمانًا يبلغه عنهم ما يقولون، فوقف بازاءسورهم بحيث يسمعون خطابه وهم صامتون. فقال لترجمانه: قل لهم أمير العرب يقول لكم: ماذا تقولون في إجابة الدعوة إلى الإسلام والحق وكلمة الإخلاص وهي كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله حتى يغفر لكم ربنا ما سلف من ذنوبكم وتحقنون بها دماءكم، وإن أبيتم ولم

تجيبونا فصالحوا عن بلدكم كما صالح غيركم ممن هو أعظم منكم عدة، وأشد منكم، وإن أبيتم هاتين الحالتين حلَّ بكم البوار وكان مصيركم إلى النار.

فتقدم الترجمان إليهم وقال لهم: من المخاطب عنكم؟ فكلمه قس من القساوسة عليه مدارع الشعر وقال: أنا المخاطب عنهم ماذا تريد؟ فقال الترجمان: إن هذا الأمير يقول كذا وكذا ويدعوكم إلى إحدى هذه الخصال الثلاث: إما الدخول في الإسلام، أو أداء الجزية، وإما السيف. فبلغ القس من وراءه ما قال الترجمان فضجوا بكلمة كفرهم وقالوا: لا نرجع عن دين العزِّ والقبول وأن قتلنا أهون علينا من ذلك فبلَّغ الترجمان ذلك ليزيد. فمشى إلى الأمراء وأخبرهم بجواب القوم. وقال لهم: ما انتظاركم بهم؟! فقالوا: إن الأمير أبا عبيدة ما أمرنا بالقتال ولا بحرب القوم بل بالنزول عليهم ولكن نكتب إلى أمين الأمة فإن أمرنا بالزحف زحفنا، فكتب يزيد بن أبي سفيان إلى أبي عبيدة يعلمه بما كان من جواب القوم فما الذي تأمر؟ فكتب إليهم أبو عبيدة يأمرهم بالزحف وأنه واصل في أثر الكتاب، فلما وقف المسلمون على كتاب أبي عبيدة فرحوا واستبشروا وباتوا ينتظرون الصباح.

قال الواقدي: ولقد بلغني أن المسلمين باتوا تلك الليلة كأنهم ينتظرون قادمًا يقدم عليهم من شدة فرحهم بقتال أهل بيت المقدس، وكل أمير يريد أن يفتح على يديه فيتمتع بالصلاة فيه والنظر إلى آثار الأنبياء، فلما أضاء الفجر أذن وصلت الناس صلاة الفجر فقرأ يزيد لأصحابه «يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ»، فيقال إن الأمراء أجرى الله على ألسنتهم في تلك الصلاة أن قرأوا هذه الآية كأنهم على ميعاد واحد، فلما فرغوا من الصلاة نادوا: النفير النفير يا خيل الله اركبي. فأول من برز للقتال حمير ورجال اليمن وبرز المسلمون للحرب كأنهم أسود ضارية، ونظر إليهم أهل بيت المقدس وقد انشرحوا لقتالهم فنشطوا ورشقوا المسلمين بالنشاب فكانت كالجراد، فجعل المسلمون يتلقونها بدرقهم فلم ترای الحرب بينهم من الغد إلى الغروب يقاتلون قتالًا شديدًا، ولم يظهروا فزعًا ولا رعبًا ولم يطمعوهم في بلدهم!

فلما غربت الشمس رجع الناس وصلى المسلمون ما فرض الله عليهم وأخذوا في إصلاح شأنهم وعشائهم، فلما فرغوا من ذلك أوقدوا النيران

واستكثروا منها، لأن الحطب عندهم كثير فبقي قوم يصلُّون، وقوم يقرأون، وقوم يتضرعون، وقوم نائمون مما لحقهم من التعب والقتل، فلما كان الغد بادر المسلمون إليهم وذكروا الله كثيرًا وأثنوا عليه وصلوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وتقدم رماة النبل وأقبلوا يرمون ويذكرون الله وهم يضجون إلى الله بالدعاء.

قال الواقدي: ولم يزل المسلمون على القتال عدة أيام وأهل بيت المقدس يظهرون الفرح وأنه ليس على قلوبهم من هم ولا جزع، فلما كان اليوم الحادي عشر أشرفت عليهم راية أبي عبيدة يحملها غلامه سالم ومن ورائها فرسان المسلمين وأبطال الموحدين وقد أحدقوا بأبي عبيدة وخالد عن يمينه وعبد الرحمن بن أبي بكر عن يساره وجاءت النسوان والأموال وضج الناس ضجة واحدة بالتهليل والتكبير فأجابتهم القبائل ووقع الرعب في قلوب أهل بيت المقدس فانقلب كبارهم وعظماؤهم وبطارقتهم إلى البيعة العظمى عندهم وهي القمّامة، فلما وقفوا بين يدي جاثليقهم وكانوا يعظمونه ويبجلونه، فلما سمعوا تلك الضجة دخلوا عليه ووقفوا بين يديه وخضعوا له وقالوا: يا أبانا قد

قدم أمير القوم إلينا ومعه بقية المسلمين وهذه الضجة بسببه، فلما سمع بتركهم وجاثليقهم تغير لونه وتغير وجهه وقال: هي هي. قالوا: ما ذلك أيها البترك والأب الكبير. قال: وحق الإنجيل إن كان قدم أميرهم فقد دنا هلاككم والسلام. قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لأنا نجد في العلم الذي ورثناه عن المتقدمين أن الذي يفتح الأرض في الطول والعرض هو الرجل الأسمر الأحور المسمى بعمر صاحب نبيهم محمد، فإن كان قد قدم فلا سبيل لقتاله ولا طاقة لكم بنواله ولابد لي أن أشرف عليه وأنظر إليه وإلى صورته، فإن كان إياه عمدت إلى مصالحته وأجبته إلى ما يريد، وإن كان غيره فلا نسلم إليه قط لأن مدينتنا لا تفتح إلا على يد من ذكرته لكم والسلام.

ثم إنه وثب قائمًا والقسوس والرهبان والشمامسة من حوله وقد رفعوا الصلبان على رأسه وفتحوا الإنجيل بين يديه ودارت البطارقة من حوله وصعد على السور من الجهة التي فيها أبو عبيدة فنظر إلى المسلمين وهم يسلمون عليه ويعظمونه، ثم يرجعون إلى القتال كأنهم الأسد الضارية فناداهم رجل ممن كان يمشي بين يدي البترك. فقال: يا معاشر المسلمين كفوا عن القتال حتى

نستخبركم ونسألكم. قال فأمسك الناس عن القتال، فناداهم رجل من الروم بلسان عربي فصيح: اعلموا أن صفة الرجل الذي يفتح بلدنا هذا وجميع الأرض عندنا، فإن كان هو أميركم فلا نقاتلكم بل نسلم إليكم وإن لم يكن إياه فلا نسلم إليكم أبدًا.

قال الواقدي: فلما سمع المسلمون ذلك أقبل نفر منهم إلى أبي عبيدة وحدثه بما سمعوه. قال فخرج أبو عبيدة إليهم إلى أن حاذاهم، فنظر البترك إليه وقال: ليس هو هذا الرجل فأبشروا وقاتلوا عن بلدكم ودينكم وحريمكم، فلما سمعوا قوله رفعوا أصواتهم وأعلنوا بكلمة كفرهم وأقبلوا يقاتلون القتال الشديد وعاد البترك إلى القمامة ولم يخاطب أبا عبيدة بكلمة واحدة، بل أمر قومه بالحرب والقتال وعاد أبو عبيدة إلى أصحابه. فقال خالد: ما كان منك أيها الأمير. فقال: لا علم لي غير أني خرجت إليهم كما رأيت وأشرف عليَّ شيطان من شياطينهم الذي يضلهم، فما هو غير أن نظر لي وتأملني حتى ضجوا ضجة واحدة وولى عني ولم يكلمني. فقال خالد: يوشك أن يكون لهم في ذلك تأويل

ورأي فنقف عليه ونعلم نبأه، ثم قال: شدوا عليهم الحرب والقتال فشد عليهم المسلمون.

قال الواقدي: وكان نزول المسلمين على بيت المقدس في أيام الشتاء والبرد وظنت الروم أن المسلمين لا يقدرون عليهم في ذلك الوقت. وزحف المسلمون إليهم وبرزت النبالة من أهل اليمن، وصمم أصحاب القسي ورشقوهم بالنبل وكانوا غير محترزين من النبل لقلة اكتراثهم به حتى رأوا النبل ينكسهم على رؤوسهم من وراء ظهورهم وهم لا يشعرون. قال مهلهل: لله در عرب اليمن فلقد رأيتهم يرمون بالنبل الروم فيتهافتون من سورهم كالغنم! فلما رأوا ما صنع بهم النبل احترزوا منه وستروا السور بالحجف والجلود وبما يرد النبل.

ونظرت الروم إلى ضرار بن الأزور وقد أقبل نحو الباب الأعظم وعليه بطريق كبير وعلى رأسه صليب من الجوهر وحوله غلمان وعليهم الطوارق وبأيديهم القسي الموترة والعمد وهو يحرض القوم على القتال. قال عوف بن مهلهل فنظرت إلى ضرار وقد قصد نحوه وهو يختفي ويستتر إلى أن قرب من

البرج الذي عليه البطريق ثم أطلق إليه نبلة، قال عوف: فنظرت إلى النبلة مع علو هذا الجدار وقد خرجت من قوس ضرار والبرج عال رفيع. فقلت: وما تكون هذه النبلة مع علو هذا الجدار وما الذي تصنع في هذا العلج وعليه هذه اللأمة اللامعة؟! فأقسم بالله لقد وقعت هذه النبلة في فيه فتردى إلى أسفل برجه فسمعت للقوم ضجة عظيمة وجولة هائلة فعلمت أنه قتل.

ولم يزل أبو عبيدة ينازل بيت المقدس أربعة أشهر كاملة، وما من يوم إلا ويقاتلهم قتالًا شديدًا والمسلمون صابرون على البرد والثلج والمطر، فلما نظر أهل بيت المقدس إلى شدة الحصار وما نزل بهم من المسلمين قصدوا القمامة ووقفوا بين يدي بتركهم وسجدوا بين يديه وعظموه وقالوا له: يا أبانا قد طال علينا حصار هؤلاء العرب ورجونا أن يأتينا مدد من قبل الملك، ولاشك أنه اشتغل عنَّا بنفسه من أجل هزيمة جيشه، وأنهم أشهى منَّا للقتال وأنهم من يوم نزلوا علينا لم نخاطبهم بكلمة واحدة ولم نجبهم احتقارًا منَّا لهم، والآن قد عظم علينا الأمر وإنا نريد منك أن تشرف على هؤلاء العرب وتنظر ما الذي يريدون منا، فإن كان أمرهم قريبًا أجبنا إلى ما يريدون ويطلبون، وإن كان صعبًا

فتحنا الأبواب وخرجنا إليهم فإما أن نقتل عن آخرنا وإما أن نهزمهم عنا فأجابهم البترك إلى ذلك واشتمل بلباسه وصعد معهم على السور وحمل الصليب بين يديه واجتمع القسوس والرهبان حوله وبأيديهم الأناجيل مفتحة والمباخر حتى أشرف على المكان الذي فيه أبو عبيدة فنادى منهم رجل بلسان فصيح العربية: يا معاشر العرب إن عمدة دين النصرانية وصاحب شريعتها قد أقبل يخاطبهم فليدن منا أميركم فأخبروا أبا عبيدة بمقالهم فقال: والله إني لأجيبه حيث دعاني، ثم قام أبو عبيدة وجماعة من الأمراء والصحابة ومعه ترجمان، فلما وقف بإزائه قال لهم الترجمان: ما الذي تريدون منا في هذه البلدة المقدسة. ومن قصدها يوشك أن الله يغضب عليه ويهلكه! فأخبره الترجمان بذلك فقال: قل لهم نعم إنها شريفة ومنها أسري بنبينا إلى السماء ودنا من ربه كقاب قوسين أو أدنى وأنها معدن الأنبياء وقبورهم فيها ونحن أحق منكم بها ولا نزال عليها أو يملكنا الله إياها كما ملكنا غيرها.

قال البترك: فما الذي تريدون منَّا؟ قال أبو عبيدة: خصلة من ثلاث: أولها أن تقولوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، فإن أجبتم

إلى هذه الكلمة كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا. قال البترك: إنها كلمة عظيمة ونحن قائلوها إلا أن نبيكم محمدًا ما نقول إنه رسول. قال أبو عبيدة: كذبت يا عدو الله إنك لم توحد قط وقد أخبرنا الله في كتابه أنكم تقولون المسيح ابن الله: لا إله إلا الله - سبحانه وتعالى - عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا. قال البترك: هذه خصلة لا نجيبكم إليها فما الخصلة الثانية؟ فقال أبو عبيدة: تصالحوننا عن بلدكم وتؤدون الجزية إلينا عن يد وأنتم صاغرون كما أداها غيركم من أهل الشام.

قال البترك: هذه الخصلة أعظم علينا من الأولى وما كنا بالذي يدخل تحت الذل والصغار أبدًا. فقال أبو عبيدة: ما نزال نقاتلكم حتى يظفرنا الله بكم، ونستعبد أولادكم ونساءكم ونقتل منكم من خالف كلمة التوحيد وعكف على كلمة الكفر. فقال البترك: فإنا لا نسلم مدينتنا أو نهلك عن آخرنا، وكيف نسلمها وقد استعددنا بآلة الحرب والحصار، وفيها العدة الحسنة والرجال الشداد، ولسنا كمن لاقيتم من أهل المدن الذين أذعنوا لكم بالجزية فإنهم قوم غضب عليهم المسيح فأدخلهم تحت طاعتكم ونحن في بلد من إذا سأل المسيح ودعاه

أجاب دعوته! فقال أبو عبيدة: كذبت والله يا عدو الله «مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ»، فقال: أنا أقسم بالمسيح أنكم لو أقمتم علينا عشرين سنة ما فتحتموها أبدًا وإنما تفتح لرجل صفته ونعته في كتبنا ولسنا نجد صفته ونعته معك أبدًا، فقال أبو عبيدة: وما صفة من يفتح مدينتكم. قال البترك: لا نخبركم بصفته لكن نجد في كتبنا وما قرأناه من كلمنا أنه يفتح هذه البلدة صاحب محمد اسمه عمر يعرف بالفاروق وهو رجل شديد لا تأخذه في الله لومة لائم ولسنا نرى صفته فيكم! فلما سمع أبو عبيدة ذلك من كلام البترك تبسم ضاحكًا، وقال: فتحنا البلد ورب الكعبة! ثم أقبل عليه، وقال له: إذا رأيت الرجل تعرفه؟ قال: نعم وكيف لا أعرفه وصفته عندي وعدد سنينه وأيامه. قال أبو عبيدة: هو والله خليفتنا وصاحب نبينا. فقال البترك: إن كان الأمر كما ذكرت، فقد علمت صدق قولنا فاحقن الدماء وابعث إلى صاحبك يأتي فإذا رأيناه وتبيناه وعرفنا صفته ونعته فتحنا له البلد من غير هم ولا نكد وأعطنا الجزية. فقال أبو عبيدة: فإني أبعث إليه بأن يقدم علينا أفتحبونا القتال أم نكف عنكم. فقال البترك: معاشر العرب ألا تدعون بغيكم.. أنخبركم بأننا قد صدقناكم في الكلام طلبًا لحقن الدماء وأنتم تأبون إلا القتال! قال أبو

عبيدة: نعم، لأن ذلك أشهى إلينا من الحياة نرجو به العفو والغفران من ربنا. قال فأمر أبو عبيدة بالكف عنهم وانصرف البترك.

قال الواقدي: فجمع أبو عبيدة الأمراء والمسلمين إليه وأخبرهم بما قال البترك فرفع المسلمون أصواتهم بالتهليل والتكبير، وقالوا: افعل أيها الأمير واكتب إلى أمير المؤمنين بذلك فلعله يسير إلينا وبفتح هذا البلد علينا، فقال شرحبيل بن حسنة: اصبر حتى نقول لهم إن الخليفة معنا ويتقدم خالد إليهم. فإذا نظروا إليه فتحوا الباب وكفينا التعب وكان خالد أشبه الناس بعمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، فلما أصبح الصباح. قال له الترجمان: قد جاء الخليفة وكان قد قال أبو عبيدة لخالد فركبوا جميعًا، وقالوا: قد جاء الرجل الذي تطلبونه فعرفوا البترك فأقبل إلى أن وقف على السور، وقال له: قل له يتقدم بحيث نراه عيانًا فتقدم خالد فتبينه، وقال: وحق المسيح كأنه هو ولكن باقي العلامات ما هي فيه فبحق دينك من أنت؟ فقال: أنا من بعض أصحابه. فقال البترك: يا فتيان العرب كم يكون هذا الخداع فيكم وحق المسيح لئن لم نر الرجل الموصوف ما نفتح لكم ولا يرجع أحد منا يكلمكم ولو أقمتم علينا

عشرين سنة ثم ولى ولم يتكلم، فقال المسلمون عند ذلك: اكتبوا إلى أمير المؤمنين وعرفوه بذلك فعسى أن يأتي ويتشوف بهذه البقعة فكتب أبو عبيدة كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم إلى عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من عامله أبي عبيدة عامر بن الجراح. أما بعد السلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - واعلم يا أمير المؤمنين أنا منازلون لأهل مدينة إيلياء نقاتلهم أربعة أشهر كل يوم نقاتلهم ويقاتلوننا ولقد لقي المسلمون مشقة عظيمة من الثلج والبرد والأمطار إلا أنهم صابرون على ذلك ويرجون الله ربهم، فلما كان اليوم الذي كتبت إليك الكتاب فيه أشرف علينا بتركهم الذي يعظمونه، وقال: إنهم يجدون في كتبهم أنه لا يفتح بلدهم إلا صاحب نبينا واسمه عمر وأنه يعرف صفته ونعته وهو عندهم في كتبهم وقد سألنا حقن الدماء فسر إلينا بنفسك وانجدنا لعل الله أن يفتح هذه البلدة علينا على يديك، ثم إنه طوى الكتاب وختمه، وقال: يا معاشر المسلمين من ينطلق بكتابي هذا وأجره على الله فأسرع بالإجابة ميسرة بن مسروق العبسي، وقال: أنا أكون الرسول وأرجع مع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إن شاء الله تعالى.

قال أبو عبيدة: فخذ الكتاب بارك الله فيك فأخذه ميسرة واستوى على ناقة له كوماء ولم يزل سائرًا إلى أن دخل المدينة فدخلها ليلًا، وقال: والله لا نزلت عند أحد من الناس، فأناخ ناقته على باب المسجد وعقلها ودخل المسجد وسلم على قبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلى قبر أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -، ثم أتى مكانًا في المسجد فنام وكان له ليال عدة لم ينم فأخذته عيناه فما استيقظ إلا على أذان عمر وكان يغلس في الأذان، فلما أذن دخل المسجد وهو يقول: الصلاة رحمكم الله. قال ميسرة: فقمت وتوضأت وصليت خلف عمر صلاة الفجر، فلما انحرف عن محرابه قمت إليه وسلمت عليه، فلما نظر إلي صافحني واستبشر، وقال: ميسرة ورب الكعبة! ثم قال: ما وراءك يا ابن مسروق؟ قلت: الخير والسلامة يا أمير المؤمنين ثم ناولته الكتاب فقرأه على المسلمين فاستبشروا به، فقال: ما ترون رحمكم الله فيما كتب به أبو عبيدة؟ فكان أول من تكلم عثمان بن عفان - رضي الله عنه - فقال: يا أمير المؤمنين إن الله قد أذل الروم وأخرجهم من الشام ونصر المسلمين عليهم وقد حاصر أصحابنا مدينة إيلياء وضيقوا عليهم وهم في كل يوم يزدادون ذلًا وضعفًا ورعبًا فإن أنت أقمت ولم تسر إليهم رأوا أنك بأمرهم مستخف ولقتالهم مستحقر فلا

يلبثون إلا اليسير حتى ينزلوا على الصغار ويعطون الجزية! فلما سمع عمر ذلك من مقال عثمان جزَّاه خيرًا، وقال: هل عند أحد منكم رأي غير هذا؟

فقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: نعم عندي غير هذا الرأي، وأنا أبديه لك رحمك الله. فقال عمر: وما هو يا أبا الحسن؟ قال: إن القوم قد سألوك وفي سؤالهم ذلك فتح للمسلمين، وقد أصاب المسلمين جهد عظيم من البرد والقتال وطول المقام وإني أرى أنك إن سرت إليهم فتح الله هذه المدينة على يديك وكان في مسيرك الأجر العظيم في كل ظمأ ومخمصة، وفي قطع كل واد وصعود جبل حتى تقدم إليهم. فإذا أنت قدمت عليهم كان لك وللمسلمين الأمن والعافية والصلاح والفتح ولست آمن أن ييأسوا منك ومن الصلح ويمسكوا حصنهم ويأتيهم المدد من بلادهم وطاغيتهم فيدخل فلا يتخلفون عنه، والصواب أن تسير إليهم إن شاء الله تعالى.

ففرح عمر بن الخطاب بمشورة علي - رضي الله عنه - وقال: لقد أحسن عثمان النظر في المكيدة للعدو وأحسن علي المشورة للمسلمين فجزاهما الله خيرًا ولست آخذ إلا بمشورة علي فما عرفناه إلا محمود المشورة ميمون الغرة،

ثم إن عمر - رضي الله عنه - أمر الناس بأخذ الأهبة للمسير معه والاستعداد فأسرع المسلمون إلى ذلك واستعدوا وتأهبوا وأمر عمر أن يكونوا خارج المدينة؟ ففعلوا ذلك وأتى عمر المسجد فصلى فيه أربع ركعات ثم قام إلى قبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسلم عليه وعلى أبي بكر - رضي الله عنه - واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب وخرج من المدينة وأهلها يشيعونه ويودعونه.

قال الواقدي: وخرج عمر من المدينة وهو على بعير له أحمر وعليه غرارتان في إحداهما سويق وفي الأخرى تمر وبين يديه قربة مملوءة ماء وخلفه جفنة للزاد! وخرج ومعه جماعة من الصحابة قد شهدوا اليرموك وعادوا إلى المدينة منهم: الزبير وعبادة بن الصامت، وسار عمر نحو بيت المقدس فكان إذا نزل منزلًا لا يبرح منه حتى يصلي الصبح فإذا انفتل من الصلاة أقبل على المسلمين وقال: الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام وأكرمنا بالإيمان وخصنا بنبيه عليه الصلاة والسلام وهدانا من الضلالة وجمعنا بعد الشتات على كلمة التقوى وألف بين قلوبنا ونصرنا على عدونا ومكن لنا في بلاده وجعلنا إخوانا

متحابين فاحمدوا الله عباد الله على هذه النعمة السابغة والمنن الظاهرة. فإن الله يزيد المستزيدين الراغبين فيما لديه وبتم نعمته على الشاكرين. ثم يأخذ الجفنة فيملؤها سويقًا ويصف التمر حولها ويقرب للمسلمين ويقول: كلوا هنيئًا مريئًا فيأكل ويأكل المسلمون معه، ثم يرحل فلم يزل كذلك في مسيره.

قال عمرو بن مالك العبسي: كنت مع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين سار إلى الشام فمر على ماء لجذام وعليه طائفة منهم نزول والماء يدعى ذات المنار فنزل بالمسلمين عليه، فبينما هو كذلك وأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حوله إذ أقبل إليه قوم من جذام، فقالوا: يا أمير المؤمنين إن عندنا رجلًا له امرأتان وهما أختان لأب وأم. قال: فغضب عمر وقال علي به فأتي بالرجل إليه، فقال له عمر: ما هاتان المرأتان؟ قال الرجل: زوجتاي قال: فهل بينهما قرابة. قال: نعم هما أختان! قال عمر: فما دينك ألست مسلمًا؟ قال: بلى. قال عمر: وما علمت أن هذا حرام عليك والله يقول في كتابه «وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ»؟! فقال الرجل: ما علمت وما هما عليَّ حرام! فغضب عمر وقال: كذبت والله إنه لحرام عليك ولتخلين سبيل إحداهما وإلا

ضربت عنقك! قال الرجل: أفتحكم عليَّ. قال: أي والله الذي لا إله إلا هو! فقال الرجل: إن هذا دين ما أصبنا فيه خيرًا، ولقد كنت غنيًا عن أن أدخل فيه! قال عمر:

ادن منِّي فدنا منه فخفق رأسه بالدرة خفقتين، وقال له: أتتشاءم بالإسلام يا عدو الله وعدو نفسه، وهو الدين الذي ارتضاه الله لملائكته ورسله وخيرته من خلقه؟! خلِّ يا ويلك سبيل إحداهما وإلا جلدتك جلدة المفتري. فقال الرجل: كيف أصنع بهما وإني أحبهما، ولكن أقرع بينهما فمن خرجت القرعة عليها كنت لها وهي لي، وإن كنت لهما جميعًا محبًا فأمر عمر فاقترع فوقعت القرعة على إحداهما فأمسكها وأطلق سبيل الثانية، ثم أقبل عليه عمر، وقال له: اسمع يا ذا الرجل وَعِ ما أقول لك: إنه من دخل في ديننا ثم رجع عنه قتلناه! فإياك أن تفارق الإسلام وإياك يبلغني أنك قد أصبت أخت امرأتك التي فارقتها فإنك إن فعلت ذلك رجمتك!

قال الواقدي: وسار عمر حتى مر على حي من بني مُرَّة فإذا بقوم منهم قد أقاموا في الشمس يعذبون فقال لهم عمر: ما بال هؤلاء يعذَّبون؟ فقيل: عليهم

خراج فهم يعذبون. قال: فما يقولون؟ قال: يقولون: ما نجد ما نؤدي، فقال عمر: دعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون فإني سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: «لا تعذبوا الناس في الدنيا يعذبكم الله يوم القيامة» فخلى سبيلهم. ثم سار حتى إذا كان بوادي القرى أخبروه أن شيخًا على الماء وله صديق يوده، فقال له صديقه هل لك أن تجعل لي في زوجتك نصيبًا أكفيك رعي إبلك والقيام عليها ولي فيها يوم وليلة ولك فيها يوم وليلة. قال له الشيخ: قد فعلت ذلك ورضي. فلما أخبر عمر بذلك أمر بهما فأحضرا. فقال: ويلكما ما دينكما. قالا: الإسلام. قال عمر: فما الذي بلغني عنكما قالا: وما هو. فأخبرهما عمر بما سمعه من العرب، فقال الشيخ: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين. فقال عمر: أما علمتما أن ذلك حرام في دين الإسلام. قالا: لا والله ما علمنا ذلك. فقال عمر للشيخ: وما دعاك أن صنعت هذا القبيح. قال: أنا شيخ كبير ولم يكن لي أحد أثق به ولا أتكل عليه فقلت: يا هذا أتكفيني الرعي والسقي وتعينني على دوابي وأنا أجعل لك نصيبًا في امرأتي والآن علمت أنه حرام فلا أفعله فقال عمر: خذ بيد امرأتك فلا سبيل لي عليها، ثم قال للشاب: إياك أن تقرب منها فإنه إن بلغني ذلك ضربت عنقك!

ثم ارتحل عمر يريد بيت المقدس حتى دنا من أول الشام وأشرف عليه. قال أسلم بن برقان مولى عمر، فلما أشرفنا على الشام وأشرف عليه المسلمون نظرنا إلى طائفة من خيل المسلمين. فقال عمر للزبير: أسرع وانظر ما هذه الخيل فأسرع الزبير إليها، فلما قرب منها وإذا هي خيل من اليمن قد بعث بها أبو عبيدة يأخذون له خبر عمر - رضي الله عنه -، قال الزبير: فسلموا عليَّ وقالوا: يا فتى من أين أقبلت؟ فقلت: من مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالوا: كيف خلفت أهلها.

قلت: بخير، قالوا: فما فعل عمر هل قدم علينا أم لا؟ قال الزبير: من أنتم؟ قالوا: نحن من عرب اليمن قد وجهنا أبو عبيدة لنأخذ له خبر عمر، فرجع الزبير إلى عمر وحدَّثه قال: أصبت يا أبا عبد الله، فأقبل علينا جمع آخر فسلموا علينا وسألونا عن عمر. فقال لهم: ها أنا عمر فما تريدون؟ قالوا: يا أمير المؤمنين قد ذرفت العيون وطالت الأعناق بطول قدومك فلعل الله أن يفتح بيت المقدس على يدك.

قال الواقدي: ثم رجعوا على أعقابهم حتى أشرفوا على عسكر المسلمين وأبي عبيدة ونادوا بأصواتهم: أبشروا يا مسلمون بقدوم عمر قال فارتج الناس وهموا أن يركبوا لاستقباله بأجمعهم. فقال أبو عبيدة: عزيمة على كل رجل أن لا يخرج من مركزه! ثم سار أبو عبيدة في أناس من المهاجرين والأنصار حتى أشرف بمن معه على عمر. قال: ونظر عمر إلى أبي عبيدة وهو لابس سلاحه متنكب قوسه وهو راكب على قلوصه مغطى بعباءة قطوانية وخطام قلوصه من شعر، فلما نظر أبو عبيدة إلى عمر - رضي الله عنه - أناخ قلوصه وأناخ عمر بعيره وترجل كلاهما ومد أبو عبيدة يده فصافح عمر وتعانقا جميعًا وسلم بعضهما على بعض وأقبل المسلمون يسلمون على عمر ثم ركبا جميعًا وجعلا يسيران أمام الناس وهما يتحادثان ولم يزالا كذلك حتى نزلا ببيت المقدس، فلما نزل صلى عمر - رضي الله عنه - بالمسلمين صلاة الفجر ثم خطبهم خطبة حسنة فقال في خطبته: الحمد لله الحميد المجيد، القوي الشديد، الفعال لما يريد، ثم قال: إن الله تعالى قد أكرمنا بالإسلام وهدانا بمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وأزاح عنا الضلالة وجمعنا بعد الفرقة وألف بين قلوبنا من بعد البغضاء فاحمدوه على هذه النعمة تستوجبوا منه المزيد فقد قال الله تعالى:

«لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ»، ثم قرأ: «مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا».

فلما تلا عمر ذلك قام قس من النصارى كان حاضرًا بين يديه. فقال: إن الله لا يضل أحدًا! فلما كررها قال عمر: انظروا إن عاد إلى قوله فاضربوا عنقه فعرف القس ما قال عمر فأمسك ومضى عمر في خطبته.

فقال: أما بعد: فإني أوصيكم بتقوى الله - عز وجل - الذي يبقى ويفنى كل شيء سواه، الذي بطاعته ينفع أولياءه، وبمعصيته يفني أعداءه، أيها الناس أدوا زكاة أموالكم طيبة بها قلوبكم وأنفسكم لا تريدون بها جزاء من مخلوق ولا شكورًا. افهموا ما توعظون به فإن الكيس من أحرز دينه، وإن السعيد من اتعظ بغيره ألا إن شر الأمور مبتدعاتها وعليكم بالسنة سنة نبيكم - صلى الله عليه وسلم - فالزموها فإن الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة والزموا القرآن فإن فيه الشفاء والثواب، أيها الناس إنه قام فينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كقيامي فيكم وقال: الزموا أصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يظهر الكذب حتى يشهد من لم يستشهد ويحلف من لم يحلف فمن

أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، وتعوذوا من الشيطان، ولا يخلون أحد منكم بامرأة فإنهن من حبائل الشيطان، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن، والصلاة الصلاة، فلما فرغ من خطبته جلس فجعل أبو عبيدة يحدثه بما لقي من الروم وعمر باهت، فتارة يبكي وتارة يهدأ فلم يزل كذلك إلى أن حضرت صلاة الظهر.

فقال الناس: يا أمير المؤمنين اسأل بلالًا أن يؤذن لنا، وكان بلال مقيمًا ببلد، فلما بلغه أن عمر قد وصل سار مع أبي عبيدة حتى سلم على عمر فعظم قدره، فلما حضرت صلاة الظهر وسأل المسلمون عمر أن يسأل بلالًا. فقال له: يا بلال إن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يسألون أن تؤذن لهم وتذكرهم أوقات نبيهم - صلى الله عليه وسلم - فقال بلال: نعم فلما قال: الله كبر خشعت جلودهم واقشعرت أبدانهم، فلما قال: أشهد ألا إله إلا الله أشهد أن محمدًا رسول الله بكى الناس بكاء شديدًا حتى كادت قلوبهم أن تتصدع عند ذكر الله ورسوله.

فلما فرغ بلال من أذانه وجلس قال بلال: يا أمير المؤمنين إن أمراء المسلمين وأجناد الشام يأكلون لحوم الطيور والخبز النقي وما لا يلحق ضعفاء الناس وما لا تناله أيديهم وإن الكل يفنى ومآله إلى التراب ومصيرنا إليه. فقال له يزيد بن أبي سفيان: إن سعر بلادنا هذه رخيص وإنا لنصيب ما قاله بلال هاهنا مثل ما كنا نقوت به أنفسنا مدة من الزمان في الحجاز. فقال عمر: إن الأمر كما ذكرت فكلوا هنيئًا مريئًا، ولست أبرح من مكاني حتى تجمعوا إليَّ من في المنازل وأن تكتبوا إلى فقراء المسلمين ممن في المدن والقرى فأفرض لكل أهل بيت ما يجزيهم من البر والشعير والعسل والزيت وما يحتاجون إليه ولابد لهم منه، ثم قال عمر: هذا لكم من أمرائكم غير ما يأتيكم مني من بيت مال المسلمين، فإن قطعت عنكم أمراؤكم فآمروني حتى أعزلهم عنكم؛ ثم أمرهم بالرحيل، فلما همَّ بالركوب على بعيره وعليه مرقعة من صوف وفيها أربع عشرة رقعة بعضها من أدم. فقال له المسلمون: يا أمير المؤمنين لو ركبت بدل بعيرك جوادًا ولبست ثيابًا بيضًا؛ ففعل. قال الزبير: أحسب أنها كانت من ثياب مصر تساوي خمسة عشر درهمًا وطرح على عاتقه منديلًا من كتان ليس جديدًا ولا بالخلق دفعه إليه أبو عبيدة وقدم إليه برذون أشهب من براذين الروم.

فلما صار عمر على ظهره جعل البرذون يهملج به، فلما نظر عمر إلى البرذون وفعاله نزل عنه مسرعًا وقال: أقيلوا عثرتي أقال الله عثرتكم يوم القيامة، فقد كاد أميركم أن يهلك بما دخل قلبي من العجب والكبر وإني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من الكبر» ولقد كاد أن يهلكني ثوبكم الأبيض وبروذنكم المهملج، ثم إنَّ عمرًا - رضي الله عنه - نزع ما كان عليه ثم عاد إلى لبس مرقعته.

وسار عمر يريد العقبة ليصعد منها إلى بيت المقدس فلقيه قوم من المسلمين وعليهم ثياب الديباج مما أخذوه من اليرموك فأمر عمر أن يحثوا التراب في وجوههم، وأن تمزق عليهم، ولم يزل على ذلك حتى أشرف على بيت المقدس، فلما نظر إليها قال: الله أكبر، اللهم افتح لنا فتحًا يسيرًا، واجعل لنا من لدنك سلطانًا نصيرًا، ثم سار واستقبلته العشائر والقبائل وأصحاب العقود. وسار عمر حتى نزل بالموضع الذي كان فيه أبو عبيدة وضربت له خيمة من شعر وجلس فيها هناك على التراب، ثم قام يصلي أربع ركعات.

قال الواقدي: وعَلَت للمسلمين ضجة عظيمة وصياح مزعج بالتهليل والتكبير، فسمع أهل بيت المقدس الضجة والجلبة، فقال لهم البترك: يا ويلكم ما شأن العرب قد ارتفعت لهم جلبة من غير شيء فاشرفوا عليهم وانظروا ما شأنهم. فأشرف عليهم رجل ممن يعرف العربية، فقال: يا معاشر العرب أخبرونا ما قصتكم؟ قالوا: إن أمير المؤمنين عمر قد قدم علينا من مدينة نبينا - صلى الله عليه وسلم -، وهذه الضجة من فرح المسلمين به. فرجع وأعلم البترك فأطرق إلى الأرض ولم يتكلم.

فلما كان الغد وصلى عمر بالناس صلاة الفجر قال لأبي عبيدة: يا عامر تقدم إلى القوم وأعلمهم أني قد أتيت. فخرج أبو عبيدة وصاح بهم وقال: يا أهل هذه البلدة إن صاحبنا أمير المؤمنين قد ورد فما تصنعون فيما قلتم؟ فأعلموا البترك فخرج من كنيسته وعليه المسوح وترجل الرهبان والقسوس والأساقفة معه، وقد حمل بين يديه صليب لا يخرجونه إلا في عيدهم وسار معه الباطليق الوالي عليهم وهو يقول للبترك: يا أبانا إن كنت تعرفه معرفة حقيقية وإلا فلا تفتح له ودعنا وهؤلاء العرب فإما أن نبيدهم، وإما أن يبيدونا! قال البترك: أنا

أفعل ذلك، ثم صعدا على السور ووقف الباطليق إلى جانبه والصليب أمامهم وأشرف على أبي عبيدة وقال: ما تشاء أيها الشيخ الباهي. قال أبو عبيدة: هذا أمير المؤمنين عمر وليس عليه أمير قد أتى فاخرجوا إليه واعقدوا معه الأمان والذمة وأداء الجزية.

فقال البترك: يا ذا الرجل إن كان صاحبك الذي ليس عليه أمير قد أتى فدعه يدن منَّا فإنَّا نعرفه بنعته وصفته، وأفردوه من بينكم، وليقف بإزائنا حتى نراه. فإن كان صاحبنا الذي نعته في الإنجيل نزلنا إليه وعقدنا معه الأمان وأقررنا له بالجزية، وإن كان غير الذي نجد نعته في الإنجيل وصفته فما لكم عندنا غير القتال! فرجع أبو عبيدة إلى عمر - رضي الله عنه - وأخبره بما قاله البترك فهمَّ عمر بالقيام. فقال له أصحابه: يا أمير المؤمنين تخرج إليهم منفردًا، وليس عليك آلة حرب غير هذه المرقعة وإنا نخشى عليك منهم غدرًا أو مكرًا فينالون منك. فقال عمر: «قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ»، ثم أمر ببعيره فقدم إليه فاستوى في ركوبه عليه، وعليه مرقعة ليس عليه غيرها وعلى رأسه قطعة عباءة قطوانية وقد عصب بها رأسه وليس معه غير

أبي عبيدة - رضي الله عنه - وهو سائر بين يديه حتى قرب من السور ووقف بإزاء السور والبترك والباطليق عليه، فتكلم أبو عبيدة وقال: يا هؤلاء هذا أمير المؤمنين قد أتى فمسح البترك عينه ونظر إليه وزعق بأعلى صوته: هذا والله الذي نجد صفته ونعته في كتبنا ومن يكون فتح بلادنا على يديه بلا محالة! ثم إنه قال لأهل بيت المقدس: يا ويحكم انزلوا إليه واعقدوا معه الأمان والذمة، هذا والله صاحب محمد بن عبد الله.

فلما سمعت الروم كلام البترك نزلوا مسرعين وكانوا قد ضاقت أنفسهم من الحصار ففتحوا الباب وخرجوا إلى عمر بن الخطاب يسألونه العهد والميثاق والذمة ويقرون له بالجزية، فلما نظر إليهم عمر على تلك الحالة تواضع لله وخرَّ ساجدًا على قتب بعيره ثم نزل إليهم وقال: ارجعوا إلى بلادكم ولكم الذمة والعهد إذ سألتمونا وأقررتم بالجزية. فرجع القوم إلى بلدهم ولم يغلقوا الأبواب ورجع عمر إلى عسكره فبات فيه ليلة، فلما كان الغد قام فدخل إليها وكان دخوله يوم الاثنين وأقام بها إلى يوم الجمعة وخط بها محرابًا من جهة الشرق وهو موضع مسجده فتقدم وصلى هو وأصحابه صلاة الجمعة فهمَّت

الروم بغدرهم وكان أبو الجعيد الذي احتال على الروم باليرموك ببيت المقدس هو وأهله وماله فقالوا: ما ترى في غدر هؤلاء العرب إذا هم اشتغلوا بصلاتهم وليس معهم آلة حرب ولا ما يحترزون به من الضرب والقتل؟

فقال لهم أبو الجعيد: يا قوم لا تفعلوا ولا تغدروا بهم فإن فعلتم ذلك أخبرتهم بما تريدون أن تفعلوا بهم فقالوا: وما الذي نصنع فقال أبو الجعيد: أظهروا للعرب ما لكم من الزينة ومتاع الدنيا فإن متاع الدنيا وما فيها لا يصبر صاحبهما عنهما، فإن طلبوهما بغدر فشأنكم وما تريدون! فأقبل القوم على ما كانوا يقدرون عليه من المال والمتاع الحسن فأظهروه وصفُّوه في طريق المسلمين وشوارعهم، فجعل المسلمون ينظرون إلى ذلك في دخولهم وخروجهم وهم يعجبون منهم ولم يمل أحد منهم إليه ولم يلمسه وهم يقولون: الحمد لله الذي أورثنا ديار قوم مثل هذا، ولو ساوت الدنيا عند الله جناح بعوضة لما سقى كافرًا منها شربة ماء! قال عوف بن سالم: فوالله ما من المسلمين من جعل يده على شيء من متاعهم ولا لمسه. فقال لهم أبو الجعيد: هؤلاء القوم

الذين وصفهم الله في التوراة والإنجيل وأنهم لا يزالون على الحق ولا يقربهم أحد ما داموا على ما هم عليه.

قال شهر بن حوشب: سمعت كعب الأحبار يقول: إن عمر بن الخطاب لما صالح أهل بيت المقدس ودخلها أقام فيها عشرة أيام فأقبلت إليه وكنت في قرية من فلسطين، وتقدمت إليه لأسلم عليه وأسلم على يديه، وذلك أن أبي كان أعلم الناس بما أنزل الله على موسى بن عمران وأنه كان لي محبًا وعلي مشفقًا ولم يكتم علي شيئًا إلا أعلمني إياه مما كان يعلم الناس، فلما حضرته الوفاة، دعاني إليه وقال لي: يا بني إنك تعلم أني ما ادخرت عنك شيئًا مما كنت أعلمه لأني خشيت أن يخرج بعض هؤلاء الكاذبين وتتبعهم وقد جعلت هاتين الورقتين في هذه الكرة التي ترى فلا تتعرض لهما ولا تنظر فيهما إلى أن تسمع بخبر نبي يبعث في آخر الزمان اسمه محمد، فإن يرد الله بك خيرًا فأنت تتبعه، ثم مات بعد وصيته إياي. قال كعب: فدفنته، فما كان شيء أحب إلي بعد انقضاء العزاء من النظر في الورقتين وقراءة ما فيهما ففتحتهما، فإذا فيهما: لا إله إلا الله محمد رسول الله خاتم النبيين لا نبي بعده، مولده بمكة، ودار هجرته طيبة، ليس

بفظ ولا غليظ ولا صخاب، أمته الحامدون الذين يحمدون الله على كل حال، ألسنتهم رطبة بالتهليل والتكبير، وهم منصورون على كل من عاداهم من أعدائهم أجمعين. يغسلون وجوههم ويسترون أوساطهم، أناجيلهم في صدورهم، تراحمهم بينهم تراحم الأنبياء بين الأمم، وهم أول من يدخل الجنة يوم القيامة من الأمم.

قال كعب الأحبار: فلما قرأت ذلك قلت في نفسي: وهل علمني أبي شيئًا أعظم من هذا! ثم مكثت بعد وفاة والدي ما شاء الله إلى أن بلغني أن النبي - صلى الله عليه وسلم - الموصوف قد ظهر بمكة وهو يظهر مرة بعد أخرى. فقلت: هو والله لا محالة ولم أزل أبحث عن أمره حتى قيل إنه خرج ونزل بيثرب فجعلت أترقب أمره حتى غزا غزوات ونصر على أعدائه، فتجهزت أريد المسير إليه فبلغني أنه قد قبض - صلى الله عليه وسلم - وانقطع الوحي. فقلت في نفسي: لعله ليس الذي كنت أنتظره حتى رأيت في منامي كأن أبواب السماء قد فتحت والملائكة تنزل زمرة بعد زمرة وقائل يقول: قد قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وانقطع الوحي عن أهل الأرض فرجعت إلى دار قومي

وجاءنا الخبر أنه تقدم أمته خليفة اسمه أبو بكر فقلت: أقدم عليه فلم ألبث حتى جاءتنا جنوده إلى الشام ثم جاءتنا وفاته، ثم قيل إنه استخلف عليهم رجل اسمه عمر. فقلت: لا أدخل هذا الدين حتى أحققه ولم أزل متوقفًا حتى قدم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بيت المقدس وصالح أهلها ونظرت إلى وفائهم بعهدهم وما صنع الله بأعدائهم، وقلت: إنهم أمة النبي الأمي فحدثت نفسي بالدخول في هذا الدين، فوالله إني كنت ذات ليلة على سطحي وإذا أنا برجل من المسلمين يقول «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا». فلما سمعت هذه الآية خفت والله أن لا أصبح حتى يحول وجهي فما كان شيء أحب إلي من الصباح أن يرد، فلما أصبحت غدوت من منزلي وسألت عن عمر فقيل لي إنه ببيت المقدس فقصدت إليه وإذا به قد صلى بأصحابه صلاة الفجر عند الصخرة فأقبلت إليه وسلمت عليه فرد علي السلام، وقال لي: من أنت؟ فقلت له: أنا كعب الأحبار وإنني جئت أريد الإسلام والدخول فيه فإني وجدت صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - وأمته في الكتب المنزلة، وإن الله - عز وجل - أوحى إلى موسى - عليه السلام - أني

ما خلقت خلقًا أكرم علي من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - ولولاه ما خلقت جنة ولا نارًا ولا سماء ولا أرضًا، وأمته خير الأمم ودينه خير الأديان، بعثته آخر الزمان، أمته مرحومة، وهو نبي الرحمة، وهو النبي الأمي التهامي القرشي الرحيم بالمؤمنين، الشديد على الكافرين، سريرته مثل علانيته، وقوله لا يخالف فعله، القريب والبعيد عنده سواء، أصحابه متراحمون متواصلون، فقال عمر: أحقًا ما تقول يا كعب؟ قال: أي والله والله يسمع ما أقول ويعلم ما تخفي الصدور! فقال عمر: الحمد لله الذي أعزنا وأكرمنا وشرفنا ورحمنا برحمته التي وسعت كل شيء وهدانا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - فهل لك يا كعب في الدخول في ديننا؟

فقال كعب: يا أمير المؤمنين في كتابكم الذي أنزل إليكم في أمر دينكم ذكر إبراهيم. فقال عمر: نعم وقرأ «وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ». ثم قرأ «مَا كَانَ

إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»، ثم قرأ «أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ». ثم قرأ «وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ»، ثم قرأ «قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»، ثم قرأ «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ».

قال كعب: فلما سمعت هذه الآيات قلت: يا أمير المؤمنين أنا أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله. ففرح عمر بإسلام كعب الأحبار، ثم قال: هل لك أن تسير معي إلى المدينة فنزور قبر النبي - صلى الله عليه وسلم - وتتمتع بزيارته. فقلت: نعم يا أمير المؤمنين أنا أفعل ذلك. وارتحل عمر بعد أن كتب لأهل بيت المقدس كتابًا -أي عهدًا- وأقرهم في بلدهم على الجزية، وسار بمن معه من العساكر إلى الجابية فأقام بها، ودوَّن الدواوين، وأخذ الخمس الذي لله مما أفاء الله على المسلمين، ثم قسم الشام قسمين فأعطى أبا عبيدة من حوران إلى حلب وما يليها وأمره بالمسير إلى حلب وأن يقاتلوا أهلها

إلى أن يفتحها الله على يديه، وأعطى أرض فلسطين وأرض القدس والساحل ليزيد بن أبي سفيان، وجعل أبا عبيدة واليًا عليه وأمر يزيد أن يحارب أهل قيسارية إلى أن يفتحها الله على يديه، وكان قد أعطى أكثر الأجناد لأبي عبيدة مع خالد وسير عمرو بن العاص إلى مصر واستعمل على قضاء حمص عمرو بن سعيد الأنصاري ثم سار عمر - رضي الله عنه - يريد مدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأخذ كعب الأحبار معه وكان أهل المدينة يظنون أن عمر يقيم بالشام لما يرون من كثرة خيرها وطيب فواكهها ورخص أسعارها ولما يخبرون عنها أنها بلاد الأنبياء وهي الأرض المقدسة وفيها المحشر فبقي الناس يتطاولون نحوه ويخرجون في كل يوم ينظرونه حتى قدم عمر - رضي الله عنه - فارتجت المدينة يوم قدومه واستبشر أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - برؤيته وسلموا ورحبوا به وهنئوه بما فتح الله على يديه، فأول ما بدأ بالمسجد سلم على قبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلى أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -، ثم صلى ركعتين ودعا بكعب الأحبار. وقال: حدث المسلمين بما رأيت في الورقتين فازداد الناس إيمانًا.

قال أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي:.... والله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، ما اعتمدت في خبر هذه الفتوح إلا على الصدق وما حدثت حديثه إلا على قاعدة الحق لأثبت فضل أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وجهادهم حتى أرغم بذلك أهل الرفض الخارجين على أهل السنة، إذ لولاهم بمشيئة الله تعالى لم تكن البلاد للمسلمين وما انتشر علم هذا الدين فلله درهم لقد جاهدوا في الله حق جهاده لا جرم، وقد قال فيهم الملك المقتدر «فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا».

قال الواقدي: وذلك أنه لما بعث عمر بن الخطاب أبا عبيدة وجعله أمير الشام وأمره بالمسير إلى حلب وأنطاكية والمفرق وما يليهم من الحصون بعث عمرو بن العاص إلى مصر ويزيد بن أبي سفيان إلى ساحل الشام فنزلوا قيسارية وهي آهلة بالخلق كثيرة الجند وكان عليها قسطنطين ابن الملك هرقل وكان معه ثمانون ألفًا من الروم والعرب المتنصرة والروسية، فلما نظر قسطنطين إلى نزول يزيد بن أبي سفيان عليه بعث إلى أبيه يستنجده فبعث إليه هرقل بصاحب مرعش وعشرين ألفًا من أبطال الروسية وأنفذ له المراكب بالزاد والعلوفة، فلما

نظر يزيد إلى ذلك وأن لا قدرة له على ذلك كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، من يزيد بن أبي سفيان العامل على بعض الشام إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إني نازلت أهل قيسارية وهي مدينة آهلة بالخلق كثيرة الجند وليس إليها سبيل وإن قسطنطين قد استنجد بأبيه وقد أنجده بصاحب مرعش وعشرين ألفًا والمراكب ترد عليه كل يوم بالعلوفة والزاد وأريد النجدة والسلام. وبعث الكتاب مع عمرو بن سالم بن حميد النخعي فلما ورد المدينة وسلم الكتاب إلى عمر بن الخطاب. قال عمر: من أين هذا الكتاب؟ قال: من عاملك يزيد بن أبي سفيان فقرأه، فلما أتى على آخره تفكر في أمر يزيد وما وقع له حتى دخل عليه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فأراه كتاب يزيد من قيسارية الشام يطلب منه نجدة. فقال علي: لا تغتم على المسلمين فإن الله يفتحها على يديك رغمًا فأنجد يزيد وأنفذ إليه الكتاب.

ذكر فتح مدينة حلب وقلعتها

قال الواقدي: كان مع أبي عبيدة عشرون ألفًا ومع كل من يزيد وعمرو بن العاص عشرة آلاف. فلما وصل كتاب عمر إلى أبي عبيدة أنفذ إلى يزيد ثلاثة آلاف فارس مع حرب بن عدي وبقي أبو عبيدة في سبعة عشر ألفًا وأكثرهم من اليمن، وكان أبو عبيدة قد صالح أهل قنسرين والعواصم على خمسة عشر ألف مثقال من الذهب ومثلها من فضة وألف ثوب من أصناف الديباج وخمسمائة وسق من التين والزيت، فلما تم الصلح وجاءوا بما ضمنوه من مدينتهم كتب لهم كتابًا وشرط فيه الشروط ودخل أبو عبيدة وخالد في رجال من المؤمنين وسادات المسلمين فخطُّوا بها مسجدًا.

فبلغ ذلك أهل حلب من الصلح لقنسرين ومسير العرب فاضطربوا اضطرابًا شديدًا وكان عليهم رئيسان أخوان لأب وأم وكانا يسكنان في القلعة ولم تكن القلعة محيطة بالمدينة بل كانت المدينة منفردة بذاتها وكان البطريقان يقال لأحدهما يوقنًّا والآخر يوحنًّا وكان أبوهما ملك البلد وأعماله وضياعه ورساتيقه إلى حدود الدروب وإلى حدود الفرات، وقد ملك حلب سنين لا

ينازعه فيها منازع. وكان هرقل طاغية الروم يهابه ويوقره ولا يحاربه كل ذلك لبقاء ملكهم واجتماع كلمتهم لأنه كان قد انتزع من رومية إلى أقصى البلاد لئلا يجيِّش عليه أحد جيشًا ولا ينازعه في ملكه لكثرة شره وتدبيره وشدة بني عمه، فلما نزل بالعواصم استخلص لنفسه قلعة حلب وبناها وحصنها ومكن في البلاد، فلما هلك آل الأمر بعده لولده يوقنَّا وكان الكبير وكان شجاعًا بطلًا جامعًا للأموال مقدامًا للحروب لا يصطلى له بنار ولا يدفع شره وكان أخوه يوحنَّا دينًا قد نزع يده من الرياسة وترهب وكان أعلم الناس في أهل زمانه.

وأنه لما بلغهم الخبر أن أبا عبيدة قد قصد إليهم قال لأخيه يوقنَّا: على ماذا عوَّلت؟ قال: على قتال العرب ولا أدعهم يقربون من أرضنا وبلادنا حتى يرى العرب أنِّي لست كمن لقوا من بطارقة الشام ولا من غيرها، وكان يوحنَّا قد درس الإنجيل وقرأ المزامير، وليس له همة إلا عمارة الكنائس والأديرة وتشييد المواضع وكثرة الشمامسة والقسوس والرهبان والقيام بأمورهم، فلما بلغ هذين الأخوين فتح العواصم عنوة وقنسرين صلحًا، وأن العرب نازلون عليها وأن خيلهم تضرب إلى الفرات والعواصم والبقاع؛ فأقبل يوحنَّا على أخيه

الأكبر يوقنَّا وقال: يا أخي أريد أن أختلي بك الليلة وأشاورك وأطلعك على سري ورأيي وأشرف على سرك ورأيك. قال: نعم. فلما اجتمعا في الليل في دار كانت لأبيهما في القلعة وجلسا للمشورة أقبل يوقنَّا على أخيه يوحنَّا وقال: يا أخي ألا ترى ما نزل بنا من العرب الجياع الأكباد العراة الأجساد وما حل بأهل الشام منهم من القتل والنهب وأخذ الأموال! وأنهم لا ينزلون مدينة من مدن الشام إلا فتحوها وملكوا أهلها! فما ترى أن أصنع في أمر هؤلاء فكأنِّي بهم وقد أشرفوا علينا؟

فقال يوحنَّا: يا أخي إذ قد استشرتني في أمرك فإني أنصحك ولا أغشك إذا قبلت النصيحة وإن كنت أصغر منك سنًا فإني أعلم عنك بصيرة، فوحق المسيح والقربان لئن قبلت مشورتي ليعلون أمرك ويسلم لك مالك ونفسك. فقال يوقنَّا: يا أخي ما علمتك إلا ناصحًا فما عندك من الرأي. فقال: الرأي عندي أن ترسل رسولًا إلى العرب وتبذل لهم ما شاءوا وتسألهم الصلح وتتفق معهم على معلوم يدفع لهم في كل عام ما دامت الغلبة لهم! فلما سمع يوقنَّا ذلك من كلام أخيه يوحنَّا أقبل عليه وقد استوثق منه الغضب وقال: قبحك المسيح ما أعجز

رأيك!! ما ولدتك أمك إلا راهبًا أو قسيسًا ولم أقلدك لا ملكًا ولا محاربًا ولا مقاتلًا، والرهبان ليس لهم قلوب لأكلهم العدس والزيت والبقل ولا يأكلون اللحم ولا يعرفون النعيم وليس لهم بالقتال بصيرة ولا بملاقاة الرجال خبرة، وأما أنا فملك ابن ملك وليس بيني وبينهم إلا الحرب ولا ترى الملوك العجز. ويلك كيف نسلم ملكنا العرب ونعطيهم القياد من أنفسنا من غير حرب ولا قتال؟!

فلما سمع يوحنًّا ذلك من أخيه تبسم من كلامه وتعجب كل العجب وقال: يا أخي، وحق المسيح إن أجلك قد اقترب لأنك صاحب بغي تحب سفك الدماء وقتل النفس، وما أظن جموعك أكثر من جموع الملك هرقل التي جمعها باليرموك مع ماهان ويوم أجنادين، وهؤلاء القوم قد أيدهم الله علينا فاتق الله ولا تسع في قتل نفسك.

فلما سمع يوقنًّا كلام أخيه داخله الغضب وقال له: قد أكثرت وأطلت في مدحك العرب وإني لست كمن لاقوه من هذه الجموع التي ذكرتها ولا أقاس بهم ومع ذلك اعلم أن كل من ذكرت من أهل المدن وغيرها أسلم بلده عنوة أو

صلحًا قبل أن يقاتل بلا عذر في القتال ويبذل المجهود عن نفسه، وإنِّما جمعت الأموال من قبل إلى الآن لأدفع بها الأذى عن نفسي وإني مجمع على قتال العرب ومحاربتهم، فإن أظفرني الصليب بهم وأعانني المسيح عليهم طلبت العرب إلى أن أدخل خلفهم الحجاز وأسود على سائر الملوك وأرجع إلى الشام ملكًا فلا يقدر هرقل أن ينازعني، وإن هزمتني العرب طلعت إلى قلعتي هذه ولزمتها فإني قد عبيت فيها من الزاد والأطعمة ما يكفيني طول دهري وأكون فيها عزيزًا إلى أن أموت ولا ألقي يدي إلى العرب ولا أبذل أموالي من غير طلب فلا تعارضني في شيء من أمر العرب ولا تدعني إلى الصلح وإلا بطشت بك قبلهم! واحتوى الشيطان على قلب يوقنًّا وقد سولت له نفسه العمل. فلما سمع يوحنًّا من أخيه يوقنًّا هذا المقال قال له: كلامك عليَّ حرام أبدًا، حتى ترجع إلى رأيي وتعود إلى قولي ثم قام عنه مغضبًا!

فلما كان من الغد جمع يوقنًّا إليه جميع من التجأ إليه من العسكر من الأرمن والمتنصرة وغيرهم وعرضهم على نفسه، فمن أراد سلاحًا أعطاه وفرَّق فيهم الأموال وجعل يهون العرب عليهم ويقول: إنما هم قليل ونحن أكثر منهم، لأن

جموعهم قد تفرقت منها جماعة على قيسارية ومنهم من توجه إلى مصر. وعزم على قتال أبي عبيدة قبل أن يصل إليه وإلى بلده. ثم عمد إلى بطريق من بطارقته يقال له كراكس وضم إليه ألف فارس ووكله بحفظ بلده وسار يوقنًّا بمن معه يريد أن يلقى جيش أبي عبيدة والمسلمين هو وقومه في اثني عشر ألف مدرع غير من كان معه بغير درع ونشرت أمامه الأعلام والصلبان وكان فيها صليب من الذهب والجوهر ومن حوله ألف غلام عليهم ثياب الديباج المنسوج بالقصب.

قال ابن ثعلبة الكندي: فأقام أبو عبيدة على مدينة قنسرين بعد أن فتحها بالصلح وبعد أن أتاه يزيد بكتاب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يأمره أن يبعث إلى يزيد بن أبي سفيان طائفة من جيشه فبعث له بثلاثة آلاف فارس لابسين السلاح الكامل وعوَّل أبو عبيدة على المسير إلى حلب فدعا برجل من بني ضمرة وكان بطلًا مجربًا بشدة البأس وكان إذا ثبت على وجه الأرض للقتال لا يهاب الجحافل قلَّت أو كثرت فضم إليه ألف فارس وصيره على مقدمته

وقال: يا كعب لا تقاتل جيشًا لا تطيقه واختبر أمر هذا العلج واعرف خبره وأنا راحل من ورائك.

فسار كعب بن ضمرة يريد حلب وكان يوقنَّا قدم أمامه عيونًا يأتونه بالأخبار فأتته جواسيسه يخبرونه أن خيول العرب قد أتت تريد بلده وقتاله. فقال لهم: في كم أتت العرب؟ قالوا: في ألف فارس وهم على ستة أميال من بلدك نزول. فكمن يوقنَّا كمينًا ثم سار إليهم بجيوشه وبطارقته، فلما أشرف عليهم وهم نزول على نهر يسقون خيلهم ويتوضئون فبينما هم كذلك إذ أشرف عليهم يوقنَّا بجيوشه وبطارقته والصليب أمامه، فنادى المسلمون بعضهم بعضًا واستووا على متون خيولهم، وورد كعب بن ضمرة على فرسه وسبق في أول الخيل وأشرف على جيش يوقنَّا فحزره أنه في خمسة آلاف فارس وكان يوقنَّا قد قسم عسكره شطرين النصف معه والنصف مع الكمين، فلما نظر كعب إلى يوقنَّا وجيشه انقلب إلى أصحابه وقال:

يا أنصار دين الله إني نظرت عسكر عدوكم وحزرته فهو في خمسة آلاف وهم لكم مغنم ويقاتل الواحد منكم خمسة. قالوا: بلى والله، وأقبل أصحابه يشجع

بعضهم بعضًا فقربت الفئة من الفئة وصاح يوقنًّا بأصحابه ورجاله وغلمانه وعبيده وبطارقته وأمرهم بالحملة على المسلمين فحملوا بأجمعهم حملة صعبة وحمل عليهم المسلمون والتقى الجمعان وقاتلا قتال الموت وقد أيقن المسلمون بالظفر والغنيمة فطلع عليهم الكمين من ورائهم وأكبوا عليهم جميعًا.

قال مسعود بن عون العجي: شهدت الخيل التي بعثها أبو عبيدة طلائع مع كعب بن ضمرة وكنت فيها يوم التقى الجمعان وقد خرج علينا الكمين ونحن في القتال، ونحن لا نظن أن لهم كمينا يطلع من ورائنا وإذا بأصوات حوافر الخيل أكبت علينا وأيقنا بالهلكة بعدما كنا موقنين بالغلبة وصرنا في وسط عسكر الكفار فلم يكن لنا بد من القتال فافترقت المسلمون ثلاث فرق فرقة منهم منهزمة وفرقة قصدت قتال الكمين وفرقة مع كعب بن ضمرة قصدت قتال يوقنًّا ومن معه. فلله در كندة يومئذ لقد قاتلوا قتالًا شديدًا وأبلوا بلاءً حسنًا ووهبوا أنفسهم لله تعالى حتى قتل منهم ذلك اليوم مائة رجل في مقام واحد، وعمل أهل الكمين عملًا عظيمًا، وكعب بن ضمرة قلق على المسلمين فجاهد

عنهم وهو يجول بالراية وينادي: يا محمد يا محمد يا نصر الله انزل معاشر المسلمين اثبتوا إنما هي ساعة ويأتي النصر وأنتم الأعلون، فاجتمع المسلمون عليه والجراح فيهم فاشية! وقتل من المسلمين مائة وسبعون رجلًا، الأعيان: منهم عباد بن عاصم النخعي وزفر بن أم راضي وحازم بن شهاب المقري وسهل بن أشيم ورفاعة بن محصن وغانم بن برد، وسهيل بن مفلج وكان ممن شهد يوم السلاسل وتبوك بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وشهد قتال اليمامة مع خالد بن الوليد.

قال مسعود بن عون: والله لقد تأسفنا على قتله ووجدنا فيه أربعين ضربة كلها في مقدمه - رضي الله عنه - ولم نجد واحدة في ظهره وكان الأعيان أربعين رجلًا، لأن الرجل منا ما قتل حتى قتل عددًا من المشركين، فلما نظروا إلى ثبات المسلمين مع قلتهم وما هالهم من قتل منهم، همَّ المشركون أن ينهزموا فثبتهم يوقنًا وقال: ويلكم ما العرب إلا مثل الذئاب إن صدمت ولت وإن تركت طمعت! ولما نظر كعب بن ضمرة إلى من قتل تحت رايته اغتم لذلك غمًا شديدًا فنزل عن فرسه ولبس درعًا من فوق درعه وشد وسطه بمنطقة ومسح

وجه فرسه ومنخره وقبَّله بين عينيه وكان قد شهد معه المواطن وجاهد معه وبين يدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكان قد سماه الهطال. فقال: يا هطال هذا يومك المحمود عاقبته فاثبت للقتال في طاعة الله، ولما استوى على متنه وقف أمام المسلمين وجعل ينظر إلى القتلى وهو متفكر في أمره والراية بيده وهو ينتظر من أبي عبيدة جيشًا يقبل عليه أو طليعة تنجده فلم ير لذلك أثرًا.

وذلك أن أبا عبيدة ما قطعه عن المسير إليه إلا قدوم أهل حلب عليه، وذلك أنه لما سار يوقنَّا إلى حرب المسلمين اجتمع مشايخ أهل حلب والروسية بعضهم إلى بعض وقالوا: يا قوم تعلمون أن هؤلاء العرب قد أطاعهم أهل دين النصرانية والصليب ودخلوا في دينهم ومنهم من رجع إلى دينهم ومنهم من قاتلهم. فأما الذي قاتلهم فخسر فهل لكم أن تسيروا إلى أمير المؤمنين ونسأله الصلح ونصالح عن مدينتنا وندفع إليه ما أحب من أموالنا، فإن ظفر المسلمون بالبطريق يوقنَّا نكن نحن آمنين غير وجلين منهم ونقر عينا من بأسهم، وإن صالح يوقنَّا القوم نكن نحن قد سبقناه إلى الصلح، وإن غلب ورجع سالمًا لم نبلغه ولم نعلمه، واستوى رأيهم على ذلك فخرج منهم ثلاثون رجلًا من

رؤسائهم وسلكوا طريقًا غير طريق يوقنًّا حتى أشرفوا على عسكر المسلمين فنادوا: الغوث الغوث، فلما سمع المسلمون منهم ذلك أسرعوا إليهم وأوقفوهم بين يدي أبي عبيدة فقال خالد: يوشك أن هؤلاء يطلبون الصلح والأمان لأنفسهم وهم أهل حلب. قال أبو عبيدة: أرجو ذلك إن شاء الله تعالى، وإن صالحوني صالحتهم! وهو لا يعلم ما أصاب طليعة كعب بن ضمرة من الحرب الشديد والقتل العتيد وكان قدومهم عليه ليلًا والنيران تضرم بين يديه وكان في العسكر رجال قيام في صلاتهم يتلون القرآن فجعل بعضهم يقول لبعض بهذه الفعال ينصرون علينا، فلما سمع الترجمان مقالهم أخبر أبا عبيدة بما قد تناجوا بينهم. فقال أبو عبيدة: إنَّا قوم قد سبقت لنا العناية من ربنا وإنَّا رجال لا نريد عن الله ورسوله بدلًا ولن نجزع من قتال الأعداء!

فأخبرهم الترجمان بذلك، ثم قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن سكان حلب من تجارها وسوقتها ورؤسائها وقد جئنا نطلب منكم الصلح. فقال أبو عبيدة: فكيف نصالحكم وقد بلغنا أن بطريقكم قد صمم على قتالنا وقد حصن قلعته وجعل فيها ما يقوته سنين واتخذ الجند وأكثر من ذلك وما لكم عندنا صلح؟

فقالوا: أيها الأمير إن صاحبنا قد خرج من عندنا يريد حربكم وقتالكم. قال أبو عبيدة: ومتى خرج. قالوا: خرج سحرًا ونحن من بعده وسلكنا طريقًا غير طريقه وإنا نرجو أنه هالك لا محالة لأنه ركب البغي ولم يرض بالصلح وقد أطاع هواه فقد وقع في شرك الردى. فلما سمع أبو عبيدة بخروج البطريق خاف على طليعته منه فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم هلك والله كعب ومن معه إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ثم أطرق إلى الأرض فقالوا لبعض مشايخ أهل حلب: كلم لنا الأمير في الصلح فكلمه. فقال أبو عبيدة بضجر: لا صلح لكم عندنا، فخاف الشيوخ على أنفسهم وقالوا: إنا قد اجتمع عندنا من القرى والرساتيق خلق كثير، فإن صالحتمونا عمرنا لكم الأرض وكنا لكم عونًا على عمارتها وعشنا في ظلكم أيام عدلكم، وإن أنتم أبيتم ذلك فر الناس عنكم وطلبوا أقصى البلاد وشاع الخبر عنكم أنكم لا تصالحون فلا يبقى حولكم أحد.

فأعلمه الترجمان بما قالوا فجعل ينظر إليهم وإذا قد برز من القوم وصاح رجل أحمر الوجه وكان من حكماء الروم فصيحًا بلسان عربي فقال: أيها الأمير اسمع ما ألقيه إليك من العلم الذي أنزل الله في الصحف على الأنبياء. قال أبو

عبيدة: قل لنسمع فإن كان حقًا علمناه، وإن كان غير حق لا نسمعه ولا نعمل به! وكان اسمه دحداح. فقال: أيها الأمير إن الله - سبحانه وتعالى - أنزل على أنبيائه يقول: أنا الرب الرحيم خلقت الرحمة وأسكنتها في قلوب المؤمنين وإني لا أرحم من لا يرحم، من أحسن أحسنت إليه، ومن تجاوز تجاوزت عنه، ومن عفا عفوت عنه، ومن طلبني وجدني، ومن أغاث ملهوفًا أمَّنته يوم القيامة وبسطت له في رزقه وباركت له في عمره وأكثرت له أهله ونصرته على عدوه، ومن شكر المحسن على إحسانه فقد شكرني! وإنا قد أتيناك ملهوفين خائفين فأقل عثراتنا وآمن روعاتنا وأحسن إلينا! فبكى أبو عبيدة من قوله وقرأ «إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»، ثم قال: اللهم صل على محمد وعلى جميع الأنبياء، فبهذا والله أرسل نبينا أرسله الله إلى جميع الخلق والحمد لله على هدايته لنا، ثم أقبل على المسلمين وهم حوله وفيهم الرؤساء من المهاجرين والأنصار وقال لهم: الحمد لله على هدايته، ثم قال: إن هؤلاء أهل متجر وسوقة وضياع وهم مستضعفون وقد رأينا أن نحسن إليهم ونصالحهم ونطيب قلوبهم ومتى كانت المدينة في أيدينا والسوقة معنا فإنهم يميروننا بالعلوفة ويعلموننا بما يعزم عليه عدونا ويكونون عونًا لنا عليه.

فقال رجل من المسلمين: أصلح الله الأمير إن مدينة القوم بالقرب من القلعة، ولا نأمن أن القوم يدلون على عوراتنا ويخبرون بأحوالنا وما أتى القوم إلا ليخدعونا ألا ترى إلى بطريقهم وقد خرج يبغي قتالنا وحربنا فكيف يطلب هؤلاء الصلح منا؟! ولاشك أنهم مكروا بكعب بن ضمرة ومن معه من المسلمين! س فقال أبو عبيدة: أحسن ظنك بالله وثق بالله فإن الله ينصرنا ولا يسلط علينا عدونا، فرحم الله من قال خيرًا أو صمت وإذًا أشرط عليهم النصيحة في صلحهم للمسلمين. ثم أقبل على القوم وقال: إني أريد أن تبذلوا في صلحكم ما بذله أهل قنسرين. فقالوا: أيها الأمير إن قنسرين أقدم من مدينتنا وأكثر جمعًا ومدينتنا خالية من السكان لجور صاحبنا لأنه قد أخذ أموالنا وغلاتنا وأصعد الكل إلى قلعته وما بقي عندنا إلا الضعفاء ومن لا مال له! وإنا نسألك الترفق بنا والعدل فينا والإحسان إلينا. فقال أبو عبيدة: فما الذي تريدون أن تبذلوا في صلحكم؟ قالوا: نعطي نصف ما أعطى أهل قنسرين! فقال أبو عبيدة: قد قبلت منكم ذلك على أننا إذا نزلنا بصاحبكم أعنتمونا بالميرة والعلوفة وتبيعون وتشترون في عسكرنا ولا تكتموا عنا خبرًا تكونون تعلمونه من أعدائنا ولا تتركوا جاسوسًا يتجسس علينا وإن رجع إليكم بطريقكم منهزمًا تمنعوه أن

يصل إلى القلعة. فقالوا: أيها الأمير أما قولك هذا أن نمنع البطريق أن لا يصعد إلى القلعة فما نجد إلى ذلك من سبيل ولا نقول لك ما لا نفعله، ما لنا به طاقة ولا بمن معه من أعوانه وجنوده.

قال أبو عبيدة: فلا تمنعوه من الصعود إلى القلعة وعليكم عهد الله وميثاقه والأيمان المؤكدة الغليظة أن لا تقولوا هذا القول وأن توفوا لنا كل شرط تم عليكم، ثم حلفهم بالأيمان التي يعرفونها فحلف القوم عن آخرهم وصالحوا عن رجالهم ودوابهم وأبنائهم ونسائهم وعبيدهم وسائر أهاليهم وانتهوا على ذلك. فقال أبو عبيدة: إنكم قد حلفتم وقد قبل قولكم وأيمانكم فإن أصبنا أحدًا قد أخلف أو علم من البطريق علمًا ولم يعلمنا به فقد وجب عليه القتل، وأخذ ماله وولده حلال لنا لا يطلبنا الله بذمته، ومتى نقضتم ما شرطنا عليكم فلا عهد لكم عندنا ولا ذمة لكم علينا ولنا عليكم الجزية في العام المتقبل. فرضي أهل حلب بما شرطه عليهم أبو عبيدة وأخذوا عهدهم وكتب أسماءهم وعزم القوم على الانصراف إلى ديارهم، وقال لهم أبو عبيدة: على رسلكم حتى أبعث معكم من يسير معكم إلى مأمنكم فقد وجب علينا حفظكم إلى أن تعودوا

سالمين إلى بلدكم. فقال له الدحداح: أيها الأمير! إننا نرجع من الطريق الذي جئنا منه وما نريد أحدًا يسير معنا، فتركهم أبو عبيدة وبات بقية ليلته قلقًا على كعب بن ضمرة ومن معه.

قال الواقدي: ورجع القوم من ليلتهم إلى حلب وانفجر الصبح ولم يصلوا، فلما أشرفوا على حلب نظر إليهم بعض أعلاج البطريق وهم راجعون فأقبل إليهم وسألهم: من أين أقبلتم، وما صنعتم؟ فظنُّوا أنه من أهل حلب فأخبروه بصلحهم مع أبي عبيدة فتركهم ومضى. وأنَّ القوم استقبلهم أهل حلب فسألوهم فأخبروهم بالصلح ففرحوا بذلك! وأقبل العلج حتى أشرف على عسكر يوقنَّا وهو نازل على أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد أحاط بهم وهو يظن أنه قد ملكهم إذ أتى عليه العلج فقال له: أيها البطريق إنك غافل عما نزل بك ودهمك! قال له: وماذاك يا ويلك؟ قال له: إن أهل بلدك قد صالحوا العرب وكأنك بهم وقد ملكوا القلعة وأخذوا الأموال والنسوان، فلما سمع يوقنَّا ما أخبر به العلج خشي على قلعته أن يملكوها في غيبته فانعكس عليه ما كان يؤمل أن يفوز به من الظفر بأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم

-، وكان قد قتل من المسلمين نيف عن المائتين، وكعب قد أجهد نفسه في الحرب وأيقنوا أنهم هالكون لا محالة.

قال كعب بن ضمرة: وكنت ذلك اليوم صاحب القوم وأنا أثبتهم في الحرب، وإلى الحرب أنهض بهمتي وأدفع عنهم بمهجتي فإذا أجحفني القتال وركبني الحرب التجأت إلى أصحابي وأنا مع ذلك أتوقع فرجًا من الله تعالى وأترقب راية أبي عبيدة أن تطلع فبعد علينا ذلك ولم تزل الحرب بيننا يومًا وليلة إلى الصباح من اليوم الثاني، فأقسم بالله إن كان أحدنا ليصلي ولا حصل له زاد يأكله ولا ماء يشربه وأنا بين اليأس والرجاء أترقب طريق قنسرين أن تطلع منه علينا راية الإسلام فما أرى لها أثرًا، فرأيت عند الصباح جيش العدو وقد اضطرب من جوانبه وقد علت لهم ضجة عظيمة من جميع جوانبه فقلت: ما هذا إلا مدد لحقهم من البلد أو من الملك فالتجأت إلى كلمة الشدائد، وهي لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. قال كعب بن ضمرة: فوالله ما قلت الكلمة حتى رأيت جيش العدو وقد انكشف عنا على عقبه فقلت: الحمد لله حمد الشاكرين وإني أظن أن صائحًا صاح بهم من السماء فبددهم أو ملائكة نزلت

عليهم كيوم بدر فلم أر لهم أثرًا! فهممت أن أتبعهم فصاح المسلمون إلى أين يا كعب؟! أما كفاك ما نحن فيه انزل بنا إلى الأرض وارض بما نحن فيه من التعب والنصب، ونؤدي فرضنا ونريح خيولنا فما رد الله هؤلاء القوم إلا بمشيئته وقدرته.

قال الواقدي: وأبطأ خبر كعب على أبي عبيدة، فلما صلى الصبح انفتل من صلاته وأقبل على المسلمين وخاطب من بينهم خالدًا، وقال: يا أبا سليمان إن أخاك أبا عبيدة ما رقد الليلة غمًّا، وإنه كان يجب علينا الشكر بما فتح الله علينا، وأن نفسي تحدثني بأنَّ ألفًا مع كعب بن ضمرة قد قتلوا لما أخبرني هؤلاء الذين يسألون الصلح أن صاحبهم يوقنًا قد سار إليهم ولم أر أثرًا وأظن أنه صادف أصحابنا وقتلهم وأفناهم عن آخرهم! فقال خالد: والله إنِّي ما نمت مثلك من الغم عليهم فما الذي عزمت أن تصنع؟ قال: الرحيل، ثم أمر الناس بالرحيل، وارتحلوا، وساروا يريدون حلب، وعلى المقدمة خالد بن الوليد، وعلى الساقة أبو عبيدة، فما كان غير بعيد حتى أشرف خالد على المسلمين وهم نيام، وقد أقاموا لهم من الديدبان من يحرسهم.

فلما أشرف عليهم خالد والراية في يده رفعها فوق رأسه، فلما رآها الديدبان صاح: النفير يا أنصار الدين فثاروا عن مضاجعهم كأنهم أسد ثائرة واستووا في متون خيولهم واستقبلوا صاحب الراية فعرفوه فصاح بعضهم ببعض: هذه والله راية الإسلام والمسلمين، فنزل خالد وسلم عليهم واتصلت بهم الساقة وأقبل أبو عبيدة فلما نظر كعب بن ضمرة حمد الله وأثنى عليه ونظر إلى موضع القتلى مطروحين وما كان من المسلمين ورأوهم، فلما نظروا إلى ذلك عاد فرحهم ترحًا واسترجعوا وقالوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم إنا لله وإنا إليه راجعون، وسأل كعبًا: كيف قتل أصحابك هؤلاء ومن قتلهم؟ فأخبره كعب بقتال يوقنًا وأنه أشرف هو وقومه ومن كان معه على الهلاك حتى لم يبق فيهم حركة ونمنا ليلتنا هذه، فلما أصبحنا وإذا هم قد صاحوا وانقلبوا راجعين عنَّا من غير قتال، فقال أبو عبيدة: فسبحان مسبب الأسباب ليت أبا عبيدة قتل أمامهم ولم يقتلوا تحت رايته، ثم أمر بدفن المسلمين بعدما جمعهم زمرًا زمرًا وصلى عليهم ودفنوهم بأسلابهم ودمائهم، ثم قال: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: «يحشر الله الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله يوم القيامة

ودماؤهم على أجسادهم: اللون لون الدم، والريح ريح المسك، والنور يتلألأ عليهم ويدخلون الجنة»!

فلما واروهم في حفرهم قال لخالد: إن كان عدو الله يوقنًّا رجع إلى القوم، وعلم بصلحهم لنا فيلقون منه تعبًا عظيمًا فالحق بهم فقد وجب علينا أن نذب عنهم لأنهم تحت ذمتنا! وارتحل أبو عبيدة يريد حلب، فلما وصل إليها رأى البطريق وجنوده قد أحدقوا بأهل البلد وهم يريدون قتلهم، ويقول لهم: يا ويلكم صالحتم العرب عن أنفسكم وصرتم عونًا لهم علينا؟! قالوا: قد فعلنا ذلك وأنهم قوم منصورون! فقال: يا ويلكم إن المسيح لا يرضى بفعلكم فوحق المسيح لأقتلنكم عن آخركم أو تخرجون معي إلى قتالهم وتنقضون ما بينكم وبينهم من العهد والميثاق فأخبروني من بدأ بهذا الأمر حتى أبدأ به، فلم يطيعوه على ذلك. فقال لعبيده ادخلوا عليهم وائتوني بهم لأقتلهم، فقد أخبرني فلان أنه لقيهم وعرفني بهم، فهجم العبيد عليهم وجعلوا يقتلونهم على فرشهم وأبواب منازلهم! فسمع أخوه يوحنًّا الضجة في البلد وهم في القلعة فنظر إلى أخيه وقد

قتل من أهل البلد ثلثمائة، فصاح بهم وبأخيه: على رسلك لا تفعل فإن المسيح يغضب عليك وقد نهانا أن نقتل عدونا فكيف بمن هو على ديننا؟

فقال يوقنًّا لأخيه: إنهم صالحوا العرب عن البلد وصاروا لهم عونًا علينا. فقال يوحنًّا: وحق المسيح لا أبقت عليك العرب أبدًا وأنَّ لهم من يقتص منك. قال: ومن يقتص مني؟ قال: المسيح يقتلك كما قتلتهم بغير ذنب! فقال يوقنًّا: أنت حملتهم على ذلك وأنت أول من أبطش به، ثم عمد إلى أخيه وقبض عليه وجرد سيفه ليعلوه به، فلما نظر يوحنًّا إلى أخيه وقد جرد سيفه وعلم أنه هالك رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم اشهد على أني مسلم وأني مخالف لدين هؤلاء القوم، وأنا أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، ثم قال لأخيه: اصنع ما أنت صانع فإن كنت قاتلي فإني صائر إلى جنات النعيم! فورد على يوقنًّا من إسلام أخيه مورد عظيم ومن أهل بلده ومن فزعه من المسلمين فحمله الغيظ على أن يرمي برأس أخيه عن جسمه والتفت إلى أهل البلد فوجدهم يستغيثون فلا يغاثون ويسألونه فلا يجيبهم ولا يكف عنهم فكثر منهم الضجيج وعلت الجلبة، وقد أخذوا عليهم البلد من سائر جوانبها، وقد أيس

أهل حلب من نفوسهم، وإذا بالفرج وقد أتى، والمعونة وقد أدركتهم وأشرفت عليهم رايات المسلمين وأبطال الموحدين وهم ينادون بكلمة التوحيد ويقدمهم خالد بن الوليد، فلما نظر خالد إلى أهل حلب ولهم ضجيج بالصياح والبكاء قال لأبي عبيدة: أيها الأمير هلك والله أهل صلحك وذمامك كما ذكرت فصاح بجواده وحمل الراية وزعق في القوم وقال: أفرجوا معاشر الأعلاج عن أهل صلحنا ثم أجاد فيهم الطعن وحمل المسلمون معه، وبذلوا السيف في الأعلاج، فلما نظر يوقنًا إلى ذلك انهزم إلى القلعة ومعه بطارقته.

قال محصن بن عترة: فرج الله عن أهل البلد بقتل الأعلاج يوم حلب في البلد فمن لجأ إلى القلعة سلم ومن طلب الهرب قتلناه، فكان جملة من قتل يوقنًا من أهل صلحنا ثلثمائة، وقتلنا نحن من أصحابه ثلاثة آلاف أو يزيدون فكانت وقعة عجيبة فرح المسلمون بها.

قال الواقدي: صعد يوقنًا إلى القلعة هو ومن معه من جنده واستعد للحصار ونصب المجانيق ونشر السلاح على الأسوار وكثر آلة الحصار، وأما أهل حلب فإنهم أخرجوا لعساكر المسلمين أربعين أسيرًا من البطارقة. فقال لهم أبو

عبيدة: لأي سبب أسرتم هؤلاء؟ قالوا: لأنهم من أصحاب يوقنَّا هربوا إلينا فلم نر أن نخفيهم عنك لأنهم ليسوا منا ولا معنا في الصلح قال فعرض عليهم الإسلام فأسلم منهم سبعة، أما الباقون فأبوا فضرب رقابهم وقال لهم: لقد نصحتم في صلحكم وسترون منا ما يسركم وصار لكم ما لنا وعليكم ما علينا، وهذا بطريقكم قد تحصن في هذه القلعة فهل تعرفون لها عورة تدلونا عليها حتى نقاتلهم منها فإن فتحها الله علينا جعلناها لكم غنيمة مع ما غنمتم من قومكم حتى نكافئكم بفعلكم الجميل؟

فقالوا: أيها الأمير: والله ما نعرف لها عورة وأن يوقنَّا قد شحن طرقاتها وقطع مسالكها، ووعَّر فجاجها، وهذا ما نعلمه ولولا أنه قتل يوحنَّا لكان أخذها سهلًا لكم. فقال أبو عبيدة:

وما جرى له؟ فأخبروه بخبره وحديثه مع أخيه وأنه أسلم بعدما رفع يديه إلى السماء وما ندري ما قال غير أننا سمعنا طرف كلامه وهو يقول: اللهم إني أشهد ألا إله إلا أنت وأن عيسى عبدك ورسولك ومحمدًا عبدك ورسولك ختمت به الأنبياء وجعلته سيد المرسلين ولا دين أعلى من دينه فاصنع ما أنت

صانع، فلما أسلم قتله. فلما سمع أبو عبيدة ذلك قال: في أي موضع قتله؟ ثم وثب وأخذ خالدًا معه وجماعة من المسلمين وأتوا إلى موضع قتله وهو رأس سوق الساعة فوجده ملقى على ظهره وكأنه البدر ليلة تمامه مشيرًا بإصبعه إلى السماء وقد مات وأصبعه قائمة فأخذه أبو عبيدة وكفنه وصلى عليه ودفنه في مقام إبراهيم. فلما واروه أتى إلى أبي عبيدة رجل من المسلمين، فقال: أصلح الله الأمير انظر إلى هؤلاء القوم فإن كانوا من حزبنا نصحوا ودلونا على عورات قومهم. فقال: لا والله ما يفعلون ذلك أبدًا! فعندها أقبل أبو عبيدة على المسلمين، وقال: أشيروا عليَّ رحمكم الله، فقال له ذلك الرجل وكان اسمه يونس بن عمرو الغساني وكان رجلًا بصيرًا بالشام وجباله ومدنه وجميع أرضه وعارفًا بطريق الشام: أصلح الله الأمير انظر إلى ما أعرفه من البلد وما عندي من الرأي. قال أبو عبيدة: تكلم يا أبا عمرو فأنت عندنا ناصح للمسلمين. فقال: إن الله قد فتح على يدك الشام وسهله وجبله وحزنه ووعره وقتل طاغية الكفر وحاميته، وأما بقايا عساكرهم فهي من وراء الدروب وهي جبال وعرة ومضايق والقوم قد رعبت قلوبهم مما أباد الله منهم، وليس لهم قلوب يقاتلون بها

المسلمين فحاصر هذه القلعة وبث الخيل وشن الغارات في بقايا البلاد وشاطئ الفرات فما لهم زاد يقوم بهم.

فتبسَّم خالد من كلام الغساني، وقال: هذا والله هو الرأي وأنا أشير عليكم بمشورة أخرى: أن نزحف نحو القلعة فلعل الله أن يفتحها في وقتنا هذا فإني أخشى إن طال بنا المقام أن تعطف علينا جيوش الروم من جهة أخرى فيحولوا بينها وبيننا. قال أبو عبيدة: يا أبا سليمان لقد أشرت فأحسنت وقلت فصدقت! ثم أمر أبو عبيدة بالزحف إلى القلعة فترجلت الفرسان عن خيولهم واختلط العبيد والسادات وافتخرت القبائل وانبثت العشائر وتجاوبوا بالأشعار وتداعوا بالأنساب.

قال مسروق بن مالك: فوالله ما رأيت في قتال حصون الشام يومًا كان أعظم من ذلك اليوم لأننا كنا نشبه دوران الحرب كدوران الرحى تهشم ما دارت عليه وقد برزنا إليهم في أول حربهم، وتبادرت أبطال اليمن وسادات ربيعة ومضر يتلو بعضهم بعضًا وجعلوا يطلبون القلعة من حيث لا طريق عليها. فإذا دنوا منها أخذتهم الحجارة من كل جانب ورموهم بالمجانيق والغرازات، وكنت أنا

وأصحابي أقرب الناس إلى الأرض ففزعنا راجعين على أعقابنا يدفع بعضنا بعضًا لا نظن أن ينجو منا أحد فوقعت الخذلة في المسلمين وقد شدخت منا الحجارة خلقًا كثيرًا، فقتلت بعضنا وبعضنا رمته فكان من جملة من قتل يوم حصار قلعة حلب بالحجارة عامر بن الأصلع الربعي، ومالك بن خزعل الربعي وحسان بن حنظلة ومروان بن عبد الله وسليمان بن فارغ العامري وعطاف بن سالم الكلابي وسراقة بن مسلم بن عوف العدوي ورجال من أهل اليمن من آل عامر ومن بني كلاب وغيرهم وسبعة من بني عبد الله.

فعندها نصب أبو عبيدة رايته خارج المدينة وجعل ينادي بالمسلمين فاجتمعوا إليه. فقال: أيها الناس إنكم قاتلتم اليوم على غرَّة فادفنوا الشهداء وشدوا كل من أصابه جرح فانتدب المسلمون إلى ذلك وفرح الروم بهزيمة المسلمين وما قد نزل بهم. فقال لهم يوقنَّا: إن العرب لا تدنوا من القلعة بعد هذا اليوم أبدًا، وإن حاصرونا فلأكيدنهم ولأهبطن إلى عسكرهم. ثم انتخب ألفين من خيار بطارقته وأبطاله، وقال لهم: انزلوا مسرعين وليحذر بعضكم بعضًا وميلوا على طرف عسكر المسلمين إذا خمدت نيرانهم واغتنموا غرتهم

وأمر عليهم وزيره، فنزلوا ليلًا من القلعة وجعلوا يدورون حول العسكر إلى أن أتوا إلى مكان، وقد خمدت نيرانهم، وكان القوم بادية من أهل اليمن مثل مراد وبني كلاب وعبيدهم.

قال عبد الله بن صفوان البكي: كنا تلك الليلة غادين من عدونا آمنين لكثرتنا وقد غفل حرسنا، فلم نشعر إلا وجماعة الروم قد هجموا علينا وهم ينادون بلغتهم وقد أعلنوا التبهرج بزينتهم فلا نعلم ما يقولون ووضعوا السيف فينا فكان النجيب منا من استوى على جواده وطلب النجاة وهو لا يعلم من أين هي ولا كيف يخلص، وقد وقعت الجندلة في أبطال المسلمين وعساكرهم والقوم ينادون النفير النفير دهينا ورب الكعبة، وهم يسرعون إلى خيمة أبي عبيدة وينادون: أيها الأمير كبسنا يوقنًا، فعندها ركب الأمير في بعض الرجال وجعل يدور حول العسكر فنظر صاحب الروم إلى العرب وقد لحقته، فصاح بأصحابه: من كان أخذ شيئًا فليتركه ويطلب نجاة نفسه. وأخذوا من رجالنا نحو خمسين رجلًا من أخلاط الناس وأكثرهم من ربيعة ومضر ومضوا يجمع بعضهم بعضًا ويطلبون القلعة! فلما نظر خالد إلى ذلك حمل في أصحابه

واقتطع من الروم زهاء من مائة رجل ووضع فيهم السيف فقتلهم عن آخرهم فلما وصل أصحاب يوقنَّا إلى القلعة فتح لهم وأدخلهم.

فلما أضاء الفجر وطلعت الشمس دعا يوقنَّا بالمسلمين الخمسين رجلًا وهم موثقون بالحبال، فقربهم إلى موضع ينظرهم المسلمون ويسمعون أصواتهم وهم يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله حتى قتلوا عن آخرهم! فلما نظر أبو عبيدة إلى ذلك أمر مناديًا ينادي في عسكره عزيمة من الله ورسوله ومن الأمير أبي عبيدة: على كل رجل لا يكل حرسه إلى غيره، وليكن كل رجل منكم حارس نفسه، ولا يتكلم بعضكم مع بعض. فأخذ القوم حذرهم وأعدوا حرسهم، وأقبل يوقنَّا يدبر أمره في مكيدة أخرى ليكيد بها المسلمين إذ علم أنهم محاصرون ومع ذلك جواسيسه تأتيه بالأخبار في الليل والنهار وكان أعظم جواسيسه من متنصرة العرب لأنهم كانوا يحسنون لسان الرومية.

فبينما يوقنَّا ذات يوم جالس في قلعته والبطارقة من حوله وقد أضر بهم الحصار وأشد ما كان عليهم من أهل المدينة لأنهم لا ينظرون إلى رجل من أصحابه يعرفونه إلا أخذوه وسلموه للمسلمين، وإذا بجاسوس قد أقبل وهو

من عيونه، فقال له: أيها السيد إن أردت أن تكيد العرب فهذا وقتك، فقال له يوقنَّا: وكيف ذلك. وما الذي عندك من الخبر؟ قال: إن العلافة منهم قد خرجوا إلى وادي بطنان وقد صالحوا أهله وعلوفة العرب وميرتهم منه، وقد رأيت منهم جمالًا وبغالًا ومعهم طائفة منهم وعليهم القمصان الخلقة وبأيديهم الرماح المشبعة وهم يقصدون القرى في طلب الميرة وهم قليلون وليس هم في كثرة. فلما سمع يوقنَّا ذلك من جاسوسه، اختار ألفًا من أصحابه وقال لهم: أصلحوا شأنكم فوحق المسيح لأضيقنَّ على العرب مسالكهم! ولأقطعنَّ عليهم طرقاتهم! فلما أقبل الليل فتح لهم الباب، وسار الجاسوس أمامهم حتى استقاموا على الجادة وجعلوا يسيرون تحت جنح الليل فبينما هم كذلك، إذا هم براع ومعه سرح من البقر يريد بها بلده، وهو يسير بها سيرًا عنيفًا، فلما نظروا إليه أسرعوا نحوه وقالوا: أحسست بأحد من العرب قد عبر عليك؟ قال: نعم والشمس عند الغروب قد اصفرَّت وهم نحو مائة رجل على خيول وهم مسرعون ومعهم جمال وبغال وهم يريدون الميرة من هذا الوادي ممَّن هم في صلحهم ولسنا نخاف منهم.

فقال له المقدم عليهم: الآن قد ألقيت علينا من صلح أهل هذا الوادي ما لم يكن عندنا منه خبر فبحق المسيح أخبرنا بأي طريق ذهبت العرب؟ فقال: من هاهنا وأومأ بيده إلى الشرق فصار البطريق بمن معه ولم يعرفوا أن صاحب البقر منهم حتى إذا قرب الصبح أشرفوا على خيل المسلمين وكان الأمير عليها يقال له مناوش، فلما نظر مناوش إلى خيل الروم قد أقبلت أقبل على أصحابه وقال: يا بني العرب هذا بطريق من بطارقة الروم قد أقبل إلينا فدونكم إياه والجهاد والصبر على الشدة تنالوا الجنة ثم حمل وحمل معه أصحابه فحملت عليهم الروم فثبت لهم المسلمون واقتتلوا قتالًا شديدًا وقتل مناوش بن الضحاك والغطريف بن ثابت ومنيع بن ثابت ومنيع بن عاصم وكهلان بن مرة فقتل من المسلمين ثلاثون رجلًا كلهم من طيء وانهزم الباقون وملكت الروم ما كان مع المسلمين من الإبل والبغال وعاد المسلمون منهزمين! فعند ذلك أقبل البطريق على أصحابه، وقال: ارموا الأحمال عن هذه الدواب واعقروها وسوقوا بقية الدواب بما عليها فإنها لنا ميرة واطلبوا الجبل واختفوا عن أعين العرب وإلا ففي هذه الساعة تطلع علينا خيول العرب كالرياح تهزمكم فاكمنوا حتى إذا جاء الليل طلبنا القلعة واعتصمنا بها ففعلوا ذلك وقتلوا الجمال وساقوا الدواب

والتجؤوا في الجبل إلى قرية فأقاموا بقية يومهم يرقبون الليل ليرجعوا إلى القلعة وأقاموا لهم ديدبانًا.

قال عوف بن صباح الطائي: كنت في الخيل لما قتل عمي مناوش، ونحن في قلة وقد دهمتنا الخيل، فلما نظرنا إلى كثرة الروم وشدة بأسهم مع قلتنا أخذنا على أنفسنا وأتينا المسلمين فبادر إلينا أبو عبيدة، وقال لنا: ما وراءكم؟ قلنا: الحرب والطعان، قتل منا مناوش وقتل معه خلق كثير من فرساننا وأخذ ما كان معنا من الزاد والدواب. فقال أبو عبيدة: وما الذي دهاكم وقد حاصر الله الروم وما يجسر أحد أن يخرج منهم؟ قالوا: لا علم لنا غير أنا رأينا بطريقًا عظيمًا قد أشرف علينا وهو في عدة حسنة وخيول كثيرة مستعدين للقتال لا نعلم عددهم ولا من أين أتى مددهم فهجموا علينا ونحن سائرون فأصيب أميرنا وقتل رجالنا وأخذوا ما كان معنا من الدواب والزاد!

فلما سمع أبو عبيدة ذلك دعا بخالد بن الوليد إليه وقال: يا أبا سليمان أنت لها والمعد لمثلها وأنا واثق بالله ثم بك مع أني أستخير الله في جميع أموري، سر على بركة الله تعالى وخذ معك من المسلمين من أردت لعلك أن تقفو القوم

وتعاني موضع أثر الوقعة وتتبع آثارهم عسى الله أن يوقعنا بهم واطلبهم أينما كانوا وحيث ساروا لعلك تأخذ بثأر المسلمين، واعلم أننا صالحنا أهل الوادي وأننا لا ننقض عهدنا ولا نحول عن قولنا إلا أن يكون القوم قد مكروا بنا فنجد إلى قتالهم سبيلًا فاتق الله فيهم، سر يرحمك الله. فأسرع خالد إلى خيمته ولبس سلاحه واستوى على متن جواده وهم بالمسير وحده. فقال له أبو عبيدة: إلى أين يا أبا سليمان؟ قال له: أسارع إلى ما أمرتني به. فقال له: خذ من أردت معك من المسلمين. فقال خالد: أنا أمضي وحدي وما أريد أحدًا! فقال له أبو عبيدة: كيف تمضي وحدك وعدوك في عدد كثير. قال خالد: لو كانوا في ألف أو ألفين ألقاهم بمعونة الله تعالى. فقال له أبو عبيدة:

إنك كذلك ولكن خذ معك رجالًا قال فأخذ ضرارًا وأمثاله وسار حتى أتى إلى موضع الوقعة فرأى القتلى مطروحين ورأى حولهم أهل الوادي وهم يبكون خوفًا من المسلمين على أنفسهم وذراريهم وأن العرب تطالبهم بهم.

فلما طلع عليهم خالد ومن معه كأنهم شعلة نار تصارخ القوم في وجهه وألقوا أنفسهم بين يديه، فقال لهم خالد: من هؤلاء القوم الذين قتلوا أصحابنا.

قالوا: إنا نحن بريئون من دماء أصحابكم ونحن في صلحكم فاستحلفهم خالد أنهم لا يعلمون من قتلهم فحلفوا له فقال لهم: من الذي أوقع بأصحابي. فقالوا: بطريق بعثه يوقنَّا من القلعة ومعه ألف فارس من أشد قومه وأن لهم في عسكركم عيونًا يخبرونه بما أنتم فيه كل ساعة، فقال لهم: وفي أي طريق قصدوا. قالوا: في هذا الطريق، فقال خالد: أو ما حلفتم أن ما عندكم علم بهم، قالوا: هذا الذي يخبرك من أهل حلب قد أتى يشتري طعامًا ولولا أنك أقبلت في هذه الساعة ما كنا عرفنا من قتلهم، فقال له خالد: أعلى هذا الطريق أخذوا؟ فقال له الرجل: نعم ورأيتهم يطلبون الجبل، فقال خالد لأصحابه إن القوم علموا أنهم لابد لهم من خيل تطلبهم وتتبعهم وقد عدلوا عن طريقنا حتى إذا هجم عليهم الليل رجعوا إلى قلعتهم فعوَّلوا على المسير في طلبهم. ثم إنهم أرخوا الأعنة وخالد يقدمهم وقد أخذ معه رجالًا من المعاهدين يقفون بهم أثر الطريق والقوم، فلما حصلوا على الطريق. قال خالد لواحد من المعاهدين: ألهم طريق إلى قلعتهم غير هذا؟ قال: نعم ولكن كن هاهنا فإنك تفوز بهم إن شاء الله تعالى.

فنزل خالد ومن معه في الوادي، وهم يرقبون الطريق فما مضى من الليل إلا قليل إذ سمع وقع حوافر الخيل والبطريق أمامهم والخيل من ورائه وهو يزجرهم ويحثهم على المسير، فلما توسطوهم صاح خالد صيحة شديدة ووثب خالد كأنه الأسد وخرج عليهم هو وأصحابه فما كان قصد خالد غير البطريق وظن أنه يوقنًّا فضربه ضربة رماه نصفين وقد وضعوا السيف فيهم وجعلوا يطلبونهم وهم في الهرب فلم ينج منهم إلا من أطال الله أجله وحازوا جميع ما معهم وأتوا برأس البطريق إلى أبي عبيدة على رأس رمح فوجدوه متلهفًا على قدومهم، فلما أشرف خالد بمن معه من الأسارى والأسلاب والدواب هللوا وكبروا، فأجابهم العسكر بالتهليل والتكبير. قال وأتى خالد ومن معه بالرأس والأسلاب ورؤوس القتلى سبعمائة، وأما الأسارى فكانوا أزيد من ثلثمائة أسير فعرضوا عليهم الإسلام فأبوا، وقالوا: نحن نعطيك الفداء.

فقال خالد: نضرب رقابهم قبال القلعة لنوهن بذلك عدو الله. قال فضربت رقابهم قبال القلعة. فقال خالد: إنا كنا نظن أنا محاصرون القوم وإذا نحن بخلاف ذلك وهم يرقبون غفلتنا وينتظرون غرتنا، وقد قتلوا جمالنا والدواب

والصواب أن نجعل عليهم حرسًا في كل طريق يمكننا ولا يمكنهم أن يخرجوا من قلعتهم ونضيق عليهم ما استطعنا، وقال أبو عبيدة جزاك الله خيرًا يا أبا سليمان ما أبصرك بالأمور!

فلما كان من الغد وصلى أبو عبيدة بالناس صلاة الفجر دعا بعبد الرحمن بن أبي بكر وضرار بن الأزور وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وقيس بن هبيرة وميسرة بن مسروق ففرقهم حول القلعة ومعهم من اختاروا وأمرهم أن يمسكوا الطريق والمسالك على يوقنًّا حتى لو طار طائر منها أو إليها اقتنصوه وأقام القوم على ذلك مدة، فلما طال عليهم ذلك ضجر أبو عبيدة لطول مقامه فأمر الناس بالرحيل عنهم وعزم أن يتباعد عنهم: أي عن القلعة لعل أن يجد منهم غفلة فينتهزها. فبعد عن المدينة فنزل بقرية بقرب منها يقال لها النيرب وهو يريد حيلة يصل بها إلى يوقنًّا. ويوقنًّا لا ينزل من القلعة ولا يفتح بابها. ففكر أبو عبيدة غاية الفكرة، وقال لخالد: يا أبا سليمان إن جواسيس عدو الله تكشف أخبارنا وتوصل إليه وتخوفه فإني أقسم عليك يا أبا سليمان إلا ما جلت في عسكرنا جولة واختبرت أمم الناس فلعلك تقع بأحد من جواسيسه. فركب خالد وأمر

الناس إن يدوروا في عسكرهم وأن يقبضوا على كل من أنكروه. فبينما خالد في طوافه إذ نظر إلى رجل من العرب المتنصرة وبين يديه عباءة يقلبها فجعل خالد يرقبه فاستراب الرجل منه فناداه، وقال: من أي الناس أنت يا أخا العرب؟ قال: أنا رجل من اليمن. قال: من أيها؟ فأراد أن يقول وينتمي إلى غير قبيلته فجرى الحق على لسانه، فقال: أنا من غسان، فلما سمع خالد كلامه قبض عليه، وقال له: يا عدو الله أنت عين علينا لعدونا! قال: وما أنا متنصر وأنا مسلم! فأتى به إلى أبي عبيدة، وقال: أيها الأمير قد رابني أمر هذا لأنني ما رأيته قط إلا يومي هذا وقد ذكر أنه من غسان ولاشك أنه من عباد الصليب. فقال أبو عبيدة: اختبره يا أبا سليمان. قال: وكيف أختبره؟ قال: اختبره بالقرآن والصلاة، فإن أجابك وإلا فهو كافر. فقال له خالد: فصل ركعتين واجهر بالقراءة فيهما! فلم يدر ما يقول. فقال له خالد: أنت يا عدو الله عين علينا. ثم استخبره عن شأنه فأخبره وأقر أنه عين عليهم، فقال له خالد: أنت وحدك. قال: لا ولكنا ثلاثة أنا أحدهم والاثنان قد ذهبا إلى القلعة ليخبرا يوقنًا بخبركم، وأنا قد تخلفت لأنظر ما يكون من أمركم. فقال أبو عبيدة: أخبرني أيهما أحب إليك: القتل أو الإسلام؟ فليس بعدهما شيء. فقال الغساني: أنا أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول

الله. ثم رجع أبو عبيدة إلى حلب وما زالت القلعة محاصرة أربعة أشهر، وقيل خمسة أشهر.

وأبطأ خبر أبي عبيدة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فكتب إلى أبي عبيدة يقول: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر إلى عامله أبي عبيدة سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم -، يا أبا عبيدة أن بانقطاع كتابك وإبطاء خبرك يكثر قلقي ويضنى جسدي على إخواني المسلمين وما لي ليل ولا نهار إلا وقلبي عندكم ومعكم، فإذا لم يأت منكم خبر ولا رسول فإن عقلي طائر وفكري حائر، وكأنك لا تكتب إلي إلا بالفتح أو الغنيمة، واعلم يا أبا عبيدة أنني وإن كنت غائبًا عنكم فإن همَّتي عندكم وأنِّي داعٍ لكم، وقلقي عليكم كقلق الوالدة الشفوقة على ولدها، فإذا قرأت كتابي هذا فكن للإسلام والمسلمين عضدًا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعث الكتاب إلى أبي عبيدة. فلما ورد عليه وقرأه عليهم. قال: معاشر المسلمين: إذا كان أمير المؤمنين داعيًا لكم وراضيًا عنكم في فعالكم فإن الله ينصركم على عدوكم.

ثم كتب جواب الكتاب يقول: بسم الله الرحمن الرحيم: إلى عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، من عامله بالشام أبي عبيدة: سلام عليك، وإني أحمد الله تعالى وأصلي على نبيه، وبعد يا أمير المؤمنين فإن الله تعالى له الحمد قد فتح على أيدينا قنسرين، وقد شننا الغارة على العواصم وقد فتح الله علينا مدينة حلب صلحًا، وقد عصت علينا قلعتها وبها خلق كثير مع بطريقها يوقنَّا، وقد كادنا مرارًا وذكر له ما جرى له مع أخيه يوحنَّا وأنه قتل منا رجالًا ورزقهم الله الشهادة على يديه. ثم إنه ذكر له من قتل والله تعالى من ورائه بالمرصاد، وقد أردنا الحيلة عليه فلم نقدر وأردت الرحيل عنه وعن محاصرته إلى البلاد التي بين حلب وأنطاكية، وأنا منتظر جوابك والسلام عليك وعلى جميع المسلمين.

وبعث الكتاب مع عبد الله بن قرط وجعدة بن جبير فسارا إلى أن أخذا في طريق «هيشت» العتيقة وجدًّا في السير حتى قطعا أرض الجفار إلى سكاسكة وهي حصن العرب قريبة من «تيما»، فلما وصلا إليها عارضهما فارس وعليه درع سابغ وعلى رأسه بيضة تلمع، وهو معتقل برمح كأنه قد برز إلى عدوه أو قاصد إلى قتال. فلما نظر إليهما قصدهما. فقال عبد الله بن قرط لجعدة بن جبير: يا ويلك أما ترى هذا الفارس، وقد عارضنا في مثل هذا المكان على مثل هذه

الحالة؟! فقال له جعدة: وما عسى أن نتخوف من فرسان العرب ورجالها، وليس في هذا الموضع من رفع عمودًا أو ضرب وتدًا إلا وأصبح معنا ودخل تحت طاعتنا وفي شريعتنا؟!

فلما قرب الفارس منَّا سلم علينا، وقال: من أين أقبلتما وإلى أين قاصدان؟ فقالا له: نحن رسولان من الأمير أبي عبيدة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فمن أنت أيها الرجل؟ قال: أنا هلال بن بدر الطائي. فقالا له: ما لنا نرى عليك آلة الحرب! قال: إني خرجت في طوائف من قومي وجماعة من أصحابي نريد الشام للجهاد، لكتاب ورد علينا من عمر بن الخطاب. فلما رأيتكما في بطن الوادي قصدتكما لأنظر ما قصتكما، ولي أصحاب من ورائي مقبلون. ثم سلم عليهما وولى فركبا مطيتيهما وسارا وإذا بالخيل قد أشرفت، والإبل قد أقبلت تتبع هلال بن بدر أرسالًا يتبع بعضها بعضًا إلى أن لحقوه فأخبرهم بقصة صاحبي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ففرحوا بذلك وساروا يريدون الشام. وأما عبد الله بن قرط وجعدة بن جبير فإنهما وصلا المدينة ودخلا المسجد وسلما على عمر بن الخطاب وعلى المسلمين ودفعا

له الكتاب، فلما قرأه استبشر ورفع كفيه إلى السماء، وقال: اللهم اكف الناس شر كل ذي شر. ثم أمر مناديًا في الناس الصلاة جامعة. فلما اجتمع الناس قرأ عليهم كتاب أبي عبيدة، فلما قرأه قدم عليه من حضرموت وأقاصي اليمن من همدان ومدان وسبأ ومأرب يسألونه أن ينفذهم إلى الشام، فقال لهم عمر: في كم أنتم بارك الله فيكم؟ قالوا: نحن زهاء من أربعمائة فارس وثلثمائة مطية مردفين ومعنا أناس يمشون على أقدامهم لا ركاب لهم، فإن كان عند أمير المؤمنين ما يحملهم عليه حتى نصل إلى عدونا! فقال لهم عمر: وكم يبلغ الرجال الذين معكم؟ قالوا: أربعين ومائة رجل، فقال لهم: عرب أو موال؟ قالوا: عرب وموال أذن لهم ساداتهم في الجهاد والمسير إلى الأعداء، فعندها دعا عمر بعبيد الله ابنه - رضي الله عنه -، وقال: امض إلى مال الصدقات فأت القوم بسبعين راحلة ليعتقبوا عليها ويحملوا زادهم وميرتهم على ظهورها. فأسرع عبيد الله بن عمر وأتى بسبعين بعيرًا وسلمها إليهم، وقال لهم: جدوا رحمكم الله إلى إخوانكم المسلمين وأسرعوا إلى حرب عدوكم.

ثم كتب إلى أبي عبيدة: أما بعد فقد ورد علي كتابك مع رسلك فسرني ما سمعت من الفتح والنصر على أعدائكم ومن قتل من الشهداء، وأما ما ذكرته من انصرافك إلى البلاد التي بين حلب وأنطاكية وتترك القلعة ومن فيها فهذا رأي غير صواب تترك رجلًا قد دنوت من دياره وملكت مدينته، ثم ترحل فيبلغ إلى جميع النواحي أنك لم تقدر عليه ولم تصل إليه فيضعف ذكرك ويعلو ذكره ويطمع من يطمع ويجترئ عليك أجناد الروم خاصتهم وعامتهم، وترجع إليه الجواسيس وتكاتب ملوكها في أمرك! فإياك أن تبرح عن مجاهدته حتى يقتله الله أو يسلم إليك إن شاء الله تعالى أو يحكم الله، وهو خير الحاكمين. وبُثَّ الخيل في السهل والوعر والضيق والسعة... وأكناف الجبال والأودية... وشن الغارات في حدود المفازات، ومن صالحكم منهم فاقبل صلحه ومن سالمك فسالمه والله خليفتي عليك وعلى المسلمين. وقد أنفذت كتابي إليك ومعه عصبة من حضرموت وغيرهم وأهل مشايخ اليمن ممن وهب نفسه لله تعالى ورغب في الجهاد في سبيل الله وهم عرب وموال فرسان ورجال والمدد يأتيك متواترًا إن شاء الله تعالى والسلام. وختم الكتاب وسلمه لابن قرط وجعدة.

وجعل القوم يجدون في سيرهم ومع ذلك يسألون عبد الله بن قرط وصاحبه عن بلاد الشام وفتح البلاد، وقتل الروم إلى أن سألوهما عن مستقر العسكر، فقال لهم عبد الله: إن جميع المسلمين وأميرهم محاصرون قلعة حلب وفيها عظيم من عظماء الروم ومعه أعلاج من أصحابه، وقد تحصنوا في رأس قلعته، فقالوا له: يا ابن قرط ما لهؤلاء لا يدخلون في جملة من صالح من أصحابهم، فقال لهم: يا معاشر العرب إنا لم نر بعد وقعة اليرموك رجالًا أشجع من هذا فلقد قتل رجالًا وجندل أبطالًا! وإنه ليغير على أطراف العسكر في وقت صلاتهم فيقتل رجالهم وينهب أموالهم ويرجع إلى قلعته وربما أنه يستتر في سواد الليل في طلب العلافة فيقع بهم فيأمر بهم ويأخذ دوابهم وجميع زادهم وميرتهم، ثم يعود إلى قلعته ونحن لا نعلم به، وأن المسلمين له محاصرون ومنه خائفون حذرون.

وكان فيمن سمع كلامه وفهمه مولى من موالي بني طريف من ملوك كندة ويقال له دامس ويكنى بـ «أبي الهول» مشهور باسمه وكنيته وكان أسود كثير السواد بصاصًا كأنه النخلة السحوق، إذا ركب الفرس العالي من الخيل تخط

رجلاه بالأرض، وإن ركب البعير العالي تقارب ركبتاه رجلي البعير! وكان فارسًا شجاعًا قويًا قد شاع ذكره وفشا أمره وعلا قدره في بلاد كندة وأودية حضرموت وجبال مهرة وأرض الشجرة وقد أخاف البادية ونهب أموال الحاضرة، وكان مع ذلك لا تدركه الخيل العتاة! وكان إذا أدركته العرب في باديتها تعجبت من صولته وشجاعته وبراعته.

فلما سمع دامس أبو الهول ذكر يوقنًا وما فعل بالمسلمين كاد أن يتمزق غيظًا وحنقًا، وقال لعبد الله بن قرط: أبشر يا أخا العرب فوالله لأجتهدن في أن يخذله الله على يدي! فلما سمع عبد الله كلامه جعل ينظر إليه شزرًا، وقال: يا ابن السوداء! لقد حدثتك نفسك آمالًا لا تبلغها وأشياء لا تدركها! يا ويلك ألم تعلم أن فرسان المسلمين وأبطال الموحدين بأجمعهم له محاصرون ولأصحابه محاربون ومع ذلك لا يقدر أحد له على شر وقد كاد ملوكًا وقهرها؟! فلما سمع دامس كلام عبد الله بن قرط غضب، وقال: والله يا عبد الله لولا ما يلزمني لك من أخوة الإسلام لبدأت بك قبله فاحذر أن تزدري بالرجال وإن أحببت أن تعرفني فسل عنِّي من حضر من أهلي وما قد تقدم من فعلي الذي

من ذكره تطيش العقول وتضيق الصدور! كم من عساكر قتلتها وجموع فرقتها ومحافل بددتها وغارات شننتها ولا يضام لي جار ولا يلحقني عار وبحمد الله أنا فارس كرار غير فرار. ثم تركه مغضبًا وسار أمام الناس!

وإن قومًا من العرب قالوا لعبد الله بن قرط: يا أخا العرب ارفق بنفسك فإنك وايم الله تخاطب رجلًا يقرب إليه البعيد ويهون عليه الصعب الشديد وإنه لجليد فريد لا تهوله الرجال، ولا تفزعه الأبطال إن كان في حرب كان في أوله لا يدركه من طلب ولا يفوته من هرب، فقال عبد الله: لقد كثر وصفكم وأطنبتم في ذكركم وأرجو أن يجعل الله فيه خيرًا وفرجًا للمسلمين! ثم أخذ القوم في جد السير حتى قدموا حلب إلى أبي عبيدة، وهو منازل أهل قلعة حلب ومحاصرها وقد أحاط المسلمون بالقلعة من كل جانب. فلما أشرف القوم عليهم أخذوا في زينتهم وجردوا سيوفهم وأشهروا سلاحهم ونشروا راياتهم وكبروا بأجمعهم وصلوا على نبيهم - صلى الله عليه وسلم -. فأجابهم أهل العسكر بالتكبير من كل جانب واستقبلهم أبو عبيدة وسلم عليهم وسلموا عليه ونزل كل قوم عند بني عمهم وعشيرتهم.

ويوقنَّا ما زال في كل ليلة ينشط إليهم برجاله ويناوشهم وذلك أنه كان لا يقاتلهم إلا قليلًا ولا يظهر من القلعة نهارًا أبدًا وكان أكثر خروجه في وقت خروج الناس، فلما بات المسلمون القادمون في تلك الليلة ونظرت طيء وشنبس ونبهان وكندة وحضرموت إلى شدة الحرس وعظم حرسهم وحذرهم أقبل دامس أبو الهول على أهله الذين نزل عليهم من طريف وكندة، فقال لهم دامس: والله ما أنتم محاصرون لا محالة؟ فقالوا له: وكيف ذلك؟ قال: لأن العدو في رأس قلعة وأنتم قدام العدو من الأرض لقربكم ولا عسكر بإزائكم تخافونه فما هذا الخوف؟ قالوا: يا أبا الهول إن صاحب هذه القلعة علج ميشوم يرتقب غفلتنا ويغير على أطرافنا ويأتينا من مأمننا! فبينما دامس يخاطب القوم وإذا بالضجة قد وقعت في طرف عسكر المسلمين ولها جلبة عظيمة فوقف دامس منتضيًا حسامه متنكبًا حجفته وطلب الناحية التي سمع منها الصوت حتى بلغ إليها وإذا بيوقنَّا في خمسمائة رجل أبطال أنجاد وليوث شداد وقد وجد فرقة من القوم، فلما نظر دامس إلى الروم وقع في وسطهم، وجعل يقول:

أنا أبو الهول واسمي دامس ... أكر في جمعهم مداعسُ

ليث هزبر بطل ممارس ... مدمر كل عدو ناكس

وجعل يضرب في أعراضهم بسيفه ومعه طائفة من بني طريف من شجعانهم وفرسانهم، فلما نظر يوقنًّا ما نزل به تقهقر إلى ورائه، وقد قتل من رجاله مائتان ودامس يكر عليهم ويتبعهم إلى رأس درب القلعة وكندة من ورائه فناداهم أبو عبيدة: عزيمة مني عليكم أن لا يتبعهم منكم أحد في ظلمة هذا الليل، فقال الناس: يا أبا الهول إن الأمير يعزم علينا وعليك بالرجوع فارجع رحمك الله فرجع دامس إلى رحله، وتراجع القوم إلى رحالهم، وقد أبلت كندة بلاءً حسنًا والناس قد خرجوا. فلما أصبح الناس اجتمعوا للصلاة مع أبي عبيدة، فلما قضيت الصلاة تفرَّقوا ولم يبق إلا نفر يسير من أمراء المسلمين فجعلوا يذكرون ليلتهم. فقال خالد: أصلح الله الأمير لقد رأيت كندة وقد أبلت بلاءً حسنًا، وقد تقدمت رجالها وثبتت أبطالها، وما زالت تضرب حتى أزالت عنَّا حامية الكفر والعدو، فقال أبو عبيدة: صدقت والله يا أبا سليمان! والله لقد أسعدت الناس كندة بثباتها والله لقد سمعتهم يقولون: أحسن دامس وأجاد أبو الهول! فقام إلى أبي عبيدة رجل من رؤساء كندة يقال له سراقة بن مرداس بن يكرب، فقال: أصلح الله الأمير «دامس» هو «أبو الهول»، وهو مولى ظريف قدم مع هذا الوفد الذي ورد بالأمس، وهو رجل يفخر ويهول على الأبطال ويفضح الشجعان

ويذل الأقران، لا يهوله جمع ولا يصعب عليه غارة! فقال أبو عبيدة لخالد: أما تسمع كلام سراقة في عبدهم دامس؟!

فقال خالد: يوشك أن يكون صادقًا في قوله، ولقد سمعت بذكره وحديثه وشجاعته وبراعته، ولقد أخبرني رجل يقال له النعمان بن عشيرة المهري أن دامسًا قد أغار وحده وهم على ساحل البحر في سبعين رجلًا من أهل مهرة، وكان دامس هذا يطلبهم لأجل ثأر كان له عند القوم، وكانوا يخافون منه ومن شره وبأسه فكانوا مع ذلك يفتدون بأموالهم ودوابهم ويهربون إلى أطراف الجبال وسواحل البحر حذرًا منه، وكان مع ذلك يسأل عن أخبارهم ويطلع على آثارهم، فلما صح عنده نزولهم على ساحل البحر استصرخ قومه للغزو فتشاغلوا ولم ينفر منهم أحد معه، وكان خبيرًا بالبلاد سهلها ووعرها، برها وبحرها، فلما أيس من قومه دخل إلى خبايته واحتمل رزمة على عاتقه فأتاه أناس من قومه وقالوا له: إلى أين تريد وما هذا الذي معك؟ فقال: يا قوم أنا أريد الغارة على بني الشعر وآخذ بالثأر وأكشف العار. فقال له مشايخ الحي: ما رأينا أعجب من أمرك وأنت تعلم أن بني الشعر سبعون، فمن يريد أن يغير عليهم

وحده ويأخذ منهم بالثأر؟! وما سمعنا بهذا أبدًا، وإنا نرى أن تقصد جوادًا، وكانت جواد هذه أمة لبني حياس من الحضارمة، وكانت بقرية من قرى حضرموت يقال لها أسفل، وكان دامس هذا يهواها وكل ما يأخذه من الأموال والخيل والإبل يدفعه إليها ولا يعظم عليه كثرته، وكان لا يرضى لها بالقليل ولا يشبع لها بالكثير؛ فظن القوم أنه ماض إليها وقاصد نحوها بحملته التي معه من رزمته، فقال لهم: وايم الله إني بطل فما تظنون؟! وسوف تعلمون أن ما أفعله الحق واليقين.

فرجع قومه وتركوه وسار إلى أن أتى إلى مرعى قومه فأخذ راحلته من إبلهم ورحَّلها وأخذ سيفه وحجفته، وجعل الرزمة تحته وسار بقية يومه وليلته، حتى إذا كان آخر الليل عطف بالراحلة إلى بعض الأودية فأبركها وحل رحلها وعقلها، ودوَّرها ترعى معقولة، ثم كمن بين حجرين، وكان قريبًا من القوم ويخاف أن يدوروا به، فلما مضى عليه نهاره وأقبل ليله أتى إلى راحلته وأبركها ورحَّلها واستوى في كورها، وسار حتى أشرف على نار القوم فعدل بناقته حتى أشرف على الحي، وكان في ذلك الشرف شجر من الطلح فأبرك ناقته وزمَّ

شدقها لئلا ترغو فيسمع القوم رغاءها؛ ثم عمد إلى رزمته فحلها واستخرج منها الثياب، وأتى إلى تلك الشجرة فجعل على كل عود منها مثل عمامة الرجل، ويأتي بالعود ينصبه ويسنده بالحجارة ويطرح عليه الإزار، ولم يزل حتى أقام أربعين عودًا على هذه الصفة، وجعل عليه حلة حمراء أرجوانية وهبط من ذلك الشرف الذي عليه الثياب وقصد الحي ودار حول بيوتهم وتفكر في أمره، وكيف يحتال وقد مضى أكثر الليل. ثم صبر إلى أن طلع الفجر وسار نحو الساحل، فلما قرب منهم صاح فيهم وقال: دنا أجلكم! أنا أبو الهول ولقد أصبحتم بالويل وأخذتم من البر والبحر، وجعل ينادي: يا لثأر طريف يا آل طريف يا آل كندة، فلما وقع صوته في أسماعهم ذهلت رجالهم وتصارخت نساؤهم وفزع القوم بين يديه من البيوت هاربين وإلى الساحل نحو الجبل طالبين وهو من خلفهم، فلما رأوه وحده شجع بعضهم بعضًا ورجعوا إليه يقاتلونه وطمعوا فيه لما لم يروا أحدًا من ورائه أخذوا في طلبه، فجعل يكِرُّ عليهم ويرجع عنهم ويقتل رجلًا بعد رجل!

فلما نظروا إلى شدة بأسه وعظم مراسه وهول صولته وشدة حملته، أرادوا أن يسبقوه إلى الشرف ليأتوا إليه من ورائه، فلما علم أنهم قد قاربوا الأعواد التي عملها وعليها الثياب خاف أن ينظروا إليها ويعلموا ما فعله من المكر، فسبقهم إلى الشرف وسار أمامهم وأقبل على الأعواد مخاطبًا لها كأنه يخاطب الرجال وهو يقول: «يا أهل كندة يا أهل طريف إياكم والقوم، قد أتتكم الرجال فلا تحملوا عليهم وأنا أفديكم بنفسي، فإن رأيتم علي الحيف فاحملوا على القوم»، فمدَّ القوم أبصارهم إليه فوجدوا عنده الثياب على الأعواد في انشقاق الفجر فلم يشكُّو أنهم رجال فانقلبوا راجعين نحو البحر، وجعل دامس ينادي: «ألا يا قوم أقسمت عليكم أن لا تبرحوا من أماكنكم وأنا أكفيكم مؤنة القوم وحدي فرجعت بنو مهرة ناكصين على أعقابهم». هذا قد أردف زوجته، وهذا أولاده، وهذا أمته، وهذا أخذ ما قدر عليه من أثاثه! ورجع أبو الهول إلى الحي، فلم يصادف فيه إلا العبيد والصبيان والمشايخ والعجائز فأمر العبيد أن يوقروا الجمال فحمَّلوها وكتفهم وساق الجميع قدامه، وعاد وأخذ الثياب من على الأعواد ولحقهم وأتى بهم ديار قومه فعجبوا منه ومن فعاله!

فلما سمع أبو عبيدة ذلك من خالد أقبل على سراقة وقال له: ادع لي عبدكم حتى أنظر إليه وأسمع كلامه. فأتى به سراقة فقال له أبو عبيدة: أنت دامس؟ قال: نعم أصلح الله الأمير. فقال له: بلغني عنك عجائب وأنت وايم الله أهلها، لأنك جزل من الرجال واعلم أنك وقومك تقاتلون في بلاد سهلة لا تأتون الجبال ولا القلاع، ولقد اقتحمت البارحة أثر القوم اقتحامًا منكرًا فارفق بنفسك واحذر من هذا البطريق يوقنًّا.

فقال له دامس: أصلح الله الأمير لقد غزوت مهرة وأخذت أموالها، وأن جبالها منيعة شامخة رفيعة ذات وعر وحجر، وما هذه بأمنع من تلك الجبال، فقال أبو عبيدة: أنا أراك نجيبًا فهل حدثتك نفسك من أمر هذه القلعة بشيء؟ فقال دامس: أصلح الله الأمير إني لما قدمت عليك في هذا الوقت كنت رأيت في نومي رؤيا! فقال أبو عبيدة: وما الذي رأيت؟ أراك الله الخير. قال: رأيت كأني سائر في وطأة من الأرض وأني مجد أطلب قومي، فبينما أنا في مسيري إذ أشرفت عليهم وهم حائرون لا يتقدمون ولا يتأخرون فناديتهم: يا قوم ما شأنكم وأي شيء عرض لكم في طريقكم؟ فقال لي القوم: ما ترى هذا الجبل كيف قد عرض

لنا في آخر هذا الطريق وليس لنا فيه مسلك ولا مطلع؟! فقلت: على رسلكم ألا ترون هذه الفجوة في هذا الجبل. فقالوا: هيهات ليس لنا فيه مسلك ولا مطلع، فقلت: ولم ذلك؟ قالوا: لأن فيه ثعبانًا عظيمًا لا يمر به أحد إلا وأهلكه، فقلت: يا قوم ألا تهجمون عليه بأجمعكم؟ قالوا: لا نقدر على ذلك لأن النار تخرج من أنفاسه وليس لنا عليه من سبيل، فقلت لهم: فالتمسوا لكم طريقًا من وراء ظهره. فقالوا: لا نقدر على ذلك من عظم جثته فتركتهم والتمست لي طريقًا فلم أجد إلا طريقًا صعبًا حرجًا فاقتحمته فما سلكته إلا بعد المشقة وأتيت إلى الثعبان من ورائه فقتلته، ثم أشرفت على قومي فاتبعوني، فما وصلوا إلا بعد جهد جهيد وهم آمنون من عدوهم، ثم استيقظت فرحًا مسرورًا.

فقال أبو عبيدة: خيرًا رأيت وخيرًا يكون يا دامس. أما رؤياك هذه فإنها للمسلمين بشارة، ولعدونا خسارة، ثم قال له: اجلس مكانك. وأمر أبو عبيدة أن ينادى المسلمون فحضر رؤساء المسلمين وأعيانهم، فلما حضروا قال أبو عبيدة: الله أكبر فتح الله ونصر، وحبانا بالظفر، وخذل من كفر، ثم قال: يا معاشر المسلمين اسمعوا رؤيا أخيكم دامس فإنها عبرة لمن اعتبر. فأقبلوا يسمعون له،

فعندها قام أبو عبيدة على قدميه وقال: الحمد لله وصلى الله على رسوله وسلم، ثم قال: يا معاشر الناس إن الله - سبحانه وتعالى - له الحمد قد وعدنا في كتابه على لسان نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - الغلبة على أعدائنا والظفر بمرادنا، وما كان الله ليخلف وعده، وإني نذرت إن فتح الله هذه القلعة على يدي أصنع من البر ما استطعت، والآن قد هجس في نفسي ووقع في قلبي أنا ظافرون بهذه القلعة ومن فيها إن شاء الله تعالى، لأنه قد دلني على ذلك رؤيا هذا الغلام، ثم قبض بكفه على زند أبي الهول وقال له: رحمك الله حدِّث إخوانك بما رأيت في منامك فقام دامس قائمًا وقال: اعلموا أني رأيت في منامي كذا وكذا وجعل يقص على الناس رؤياه من أولها إلى آخرها، فلما فرغ منها أقبل المسلمون على أبي عبيدة قالوا له: أيها الأمير ما تأويل رؤياه؟

قال أبو عبيدة: اعلموا رحمكم الله، أما الجبل الذي رآه عاليًا شامخًا شديد الامتناع بين الشعاب والقلاع فذلك دين الإسلام بلاشك وسنة محمد - صلى الله عليه وسلم -، وأما الثعبان الذي رآه وقد منع الناس وقد هجم عليه بسيفه فأمر حسن هو أن يفرج الله على يديه على المسلمين! ففرح الناس بتأويل أبي

عبيدة. وقالوا: أيها الأمير فما الذي تأمرنا به؟ فقال: آمركم بتقوى الله سرًا وجهرًا. ثم المكيدة على الأعداء طوعًا وصبرًا فارجعوا إلى رحالكم حفظكم الله وأصلحوا شأنكم وآلة حربكم وما تحتاجون إليه فإني أقدمكم غداة غد إلى أعاديكم إلى أن يحدث لي رأي غير هذا، فإني لست أدع الاجتهاد في الرأي والمشاورة لمن أثق به وبرأيه من المسلمين، فقالوا بأجمعهم: وفق الله رأيك أيها الأمير وظفرك بأعدائك إنه سميع عليم، فعَّال لما يريد. ومضوا إلى رحالهم، فجعل هذا يحد سيفه، وهذا يصلح آلة حربه وفرسه، وهذا يتفقد درعه، وهذا قوسه ونشابه، وما زالوا كذلك بقية يومهم، فلما أصبحوا دعا أبو عبيدة بدامس، فقال له: أيها الولد المبارك! ماذا ترى في أمر هذه القلعة وما عندك من الحيلة؟ فقال دامس: اعلم أيها الأمير أنها قلعة منيعة شامخة حصينة تعجز الوافد وتمنع القاصد، في أهلها محاصرة ولا تضيق صدورهم من قتال، غير أني أفكر في حيلة أحتالها أو بلية أعملها وأرجو من الله أن يتم ذلك عليهم، فيكون تبديدهم، ونملك بمشيئة الله ديارهم، ونقلع آثارهم، فقال أبو عبيدة: يا دامس وما هي؟ فقال: أصلح الله الأمير أنت تعلم ما في إذاعة الأسرار من الشر

والإضرار، «ومن كتم سره كانت الخيرة فيما لديه»، ويقال إن دامسًا هذا أول من تكلم بهذه الكلمة فصارت مثلًا.

فقال أبو عبيدة: فما الذي تشير إليه، وما الذي تعتمد عليه؟ قال: تزحف بعسكرك وجملة من معك من أصحابك حتى تنزلوا بإزاء القلعة ليظهر لهم منك الحرص والهيبة واعلم أن في ذلك من الحيل ما أرجو من الله أن يتمها إن شاء الله تعالى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فأمر أبو عبيدة عسكره بالرحيل فارتحلوا ونزلوا تحت القلعة وهللوا وكبروا وأظهروا سلاحهم وأرهبوا أعداء الله تعالى، قال فأشرف عليهم الروم ونظروا إلى جمعهم فهابوهم وألقى الله الرعب في قلوبهم حتى أنهم اضطربوا في قلعتهم وماجوا وجعل كبراؤهم يستشيرون فيما بينهم: فقال قوم نقاتلهم، وقال قوم بل نقعد في قلعتنا فإنهم لا يقدرون علينا، ثم اجتمع رأيهم على القتال من فوق القلعة وقعدوا على الأبراج والبنيان وجعلوا يرمون المسلمين بالحجارة والسهام وقد أقاموا على ذلك ليلًا ونهارًا ودامس مع ذلك يعمل حيلة يصل بها إليهم بسوء. فلما كان بعد السبعة والأربعين يومًا أقبل دامس على أبي عبيدة وقال له: أيها الأمير قد

عجزت وأنا أعمل حيلًا فما صدر من يدي في حقهم شيء وقد افتكرت في شيء وأرجو من الله أن يكون به الظفر والظهور على أعداء الله. فقال أبو عبيدة: وما الذي دبرت؟ قال: تضيف إليَّ من صناديد الرجال ثلاثين رجلًا وتأمرهم بالطاعة وترك المخالفة والاعتراض علي فيما آمرهم به وأفعله وأراه.

فقال أبو عبيدة: سأفعل ذلك، ثم ضم إليه ثلاثين رجلًا من الشجعان حتى إذا اجتمعوا قال لهم أبو عبيدة: معاشر المسلمين إني قد أمَّرت دامسًا عليكم وأمرتكم بالطاعة والقبول لأمره واعلموا رحمكم الله أني ما أمَّرته عليكم لكونه أجل منكم حسبًا ونسبًا ولا أعظم موكبًا ولا أشد بأسًا ولا أكثر مراسًا فلا يقل أحدكم إني قد أمَّرت عليكم عبدًا احتقارًا بكم، وبالله أحلف مجتهدًا لولا ما يلزمني من تدبير هذا العسكر لكنت أول من ينطلق معه في جمعكم وأنا أرجو من الله أن يفتح على أيديكم، فأقبلوا عليه بجمعهم، وقالوا: أصلح الله الأمير ما نشك في إعظامك لنا ومعرفتك بسابقتنا، ولقد كان كلامك الأول أثر في نفوسنا، وها نحن لك وبين يديك ولو أمَّرت علينا علجًا أغلف لم نخرج لك من أمر ولا رأي إذ علمنا أنك لا تريد إلا نصحًا للدين وحياضه، فالسمع والطاعة لله ثم لك

ثم لمن وليته علينا من قبلك كائنًا من الناس أجمعين. ففرح أبو عبيدة بما قالوه ووثق بكلامهم وجزَّاهم خيرًا، وقال لهم:

اعلموا رحمكم الله تعالى أن نفسي تحدثني أن الله تعالى يفتح هذه القلعة على يد هذا العبد المقبل لأنه دقيق الحيلة حسن البصيرة فسيروا معه وثقوا بالله وتوكلوا عليه وقد تعلمون أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد ولى قوادًا على سادات العرب من المسلمين والأشراف من عشيرته.

ثم أقبل على دامس فقال له: يا دامس ما الذي تحب بعد هذا؟ قال: ترحل أنت بجيشك من وقتك هذا فتكون منا على مسيرة فرسخ فتنزل بالعسكر وتأمرهم بقلة الحركة وأن يختفوا ما استطاعوا أو يكون لك رجال تثق بشدتهم ونصحهم للمسلمين يتجسسون عن أخبارنا وآثارنا من غير أن يعلم بهم وبنا أحد ويكونون بغير سلاح سوى الخناجر، فإذا عاينوا منَّا الظهور على أعدائنا والظفر بهم لحقوك وبشروك بذلك فتلحق بنا إن شاء الله تعالى وليكونوا متفرقين في موضع واحد، فإن ذلك أسلم لهم وأبلغ لما يريدون من أمورهم والله المستعان في جميع الأمور والأحوال. فعلم أبو عبيدة أنه نصيح من الرجال

صاحب رأي وبصيرة. ثم إن دامسًا أقبل على رفاقه الذين وليَّ عليهم وقال لهم: يا فتيان العرب انهضوا بنا بارك الله فيكم حتى نكمن في بعض هذا الوادي ما دام الناس عازمين على الرحيل لئلا تشرف الروم فينظروا إلى رحيلنا فلا يتفق لنا أن نطلب لنا مكمنًا إذا أشرفوا من أعلى حصنهم وليكن مع كل رجل منكم سيفه وحجفته وخنجره لا غير.

ففعلوا ذلك، فلما تكاملوا لبس دامس لأمة حربه وجعل خنجره تحت أثوابه وأخذ جماعته وخرج بهم حتى إذا فارق العسكر جعلوا يخفون آثارهم وأشخاصهم وهو سائر بهم حتى أتى بهم كهفًا في الجبل فأمرهم بالدخول إليه وجلس على بابه.

قال: وأما أبو عبيدة فإنه أمر الناس بالرحيل بعدما رتب الرجال كما وصاه أبو الهول فارتحل العسكر وأشرف عليهم أهل القلعة فرأوهم يرحلون ففرحوا بذلك وسروا سرورًا عظيمًا وصاروا يصيحون على المسلمين من أعلى القلعة وقالوا لبطريقهم: أيها السيد افتح لنا الباب حتى نخرج وراء العرب فلعل أن نقتل أحدًا أو نأسره فنهاهم عن ذلك. وداموا بقية يومهم إلى العشاء. فقال

دامس لأصحابه: من فيكم ينهض إلى تحت القلعة ويأتينا بخبر منها إذ يقدر على رجل يأسره فيأتينا به فنأخذ منه خبرًا؟ فلم يجبه أحد، فقال: أنا أعلم أن ما في هذه الجماعة إلا من هو ضنين بنفسه كاره للموت وأنا لكم الفداء فانظروا كيف تكمنون. ثم تركهم دامس ومضى فغاب عنهم ساعة وإذا به قد أتى ومعه علج وقال لهم: يا فتيان العرب دونكم هذا فاسألوه! فسألوه فلم يفقهوا قوله. فقال: على رسلكم فغاب غير بعيد وأتى بثلاثة أخر، فلم يكن فيهم من يفهم بلغة العرب! فقال دامس: لعن الله هؤلاء ما أفظع لغتهم وأكثر طمطمتهم! ثم أوثقهم كتافًا وغاب إلى أن مضى من الليل نصفه ولم يأت فقلق عليه أصحابه قلقًا شديدًا واغتموا عليه وقال بعضهم لبعض: أنا أقول إن دامسًا قد فطن به فقتل أو أسر وماجوا في ذكره وهموا أن يرجعوا إلى العسكر فبينما هم في ذلك إذ دخل إليهم دامس وهو يقود رجلًا من الروم فتواثبوا إليه وقبَّلوه بين عينيه وسألوه عن إبطائه وقالوا له: يا دامس لقد حدثتنا نفوسنا بالعظائم وصعب علينا إبطاؤك عنا. فقال: اعلموا رحمكم الله تعالى أني لما فارقتكم سرت إلى قريب من سور القلعة وكمنت لهم وهم يمرون علي وهم يرطنون بلغتهم وأنا لا أتعرض للقوم كل ذلك، وأنا أطلب من يتعرض للعربية ويتكلم بها فلم أر أحدًا

حتى أيست وهممت بالرجوع خائبًا إذ سمعت هدة شديدة قد وقعت من أعلى السور فأسرعت إليها لأنظر إليها ما هي فإذا أنا بهذا الرجل وقد ألقى بنفسه من القلعة إلى أسفل السور فبادرت إليه وأخذته وأتيت به إليكم فانظروا ما هو. فدنوا إليه وخاطبوه فلم يكلمهم إلا بلغته وإذا به قد انفتحت جبهته. فقال لهم دامس: اعلموا أن له شأنًا وأي شأن؟! وإني أظنه هاربًا من القوم وليس فيكم من يفهم ما يقول ولكن على رسلكم فأنا آتيكم بمن يتكلم بلسانه وبالعربية.

ثم أسرع دامس من عندهم فلم يكن إلا قليل وإذ به قد عاد ومعه رجل قد نزلت عمامته في رقبته وهو يقوده حتى مثله عندنا. فقالوا له: من المدينة أنت أم من القلعة؟ فقال له دامس: ممن أنت تكون أمن الروم أم من العرب المتنصرة؟ قال: ولكني مع العرب المتنصرة. فقالوا: يا هذا هل لك أن تطلعنا على عورات القلعة أو عورة من عوراتها، ونحن نطلق سبيلك ولا يتعرض إليك أحد بسوء. فقال: يا هؤلاء لست أعرف لهذه القلعة عورة ولا طريقًا ولو عرفت لما وسعني في ديني ولا رأيت أن أدلكم عليها وحق المسيح. قال فاغتاظ منه دامس وقال له: اسأل هؤلاء الأسارى هل فيهم أحد من أهل الربض فإن بيننا وبينهم صلحًا.

قال: فسألهم فلم يجد فيهم أحدًا من أهل الربض بل كلهم من أهل القلعة وأنا أعرفهم.

فقال له دامس: فاسأل هذا الرجل لم طرح نفسه من السور وما دعاه إلى ذلك؟ فسأله فقال له: إنه يقول إن الملك يوقنًّا غضب على أهل الربض لأجل صلحهم لكم وبعث يتهددهم، فلما انصرفت العرب نزل يوقنًّا فجمع رؤوسهم وأصعدهم إلى القلعة وأنا في جسملتهم وطلب منا من الأموال ما لا طاقة لنا به ولا نقدر عليه، فلما رأيت ما قد نزل بنا هربت وألقيت نفسي من القلعة أطلب الفرج وأنجو من العقوبة فلم أشعر إلا وأنت قد قبضت عليَّ وأنا من أهل الربض، فإن كنتم من العرب فأنا في ذمتكم وأمانكم فلا تنكثوا ولا تغدروا وإن كنتم من غيرهم، فاطلبوا مني ما أردتم من الفداء فإني قد هربت من العقوبة. فقال له دامس: قل له نحن من العرب ولا بأس عليك ولا خوف ولا ينالك منا سوء! وأراد دامس أن يرى الربض ما يفعل بأعدائه، فأخرج الروم والمتنصرة وضرب رقابهم ولم يدع غير الربضي، ثم أطلقه!

واستمروا إلى الليل وعمد دامس إلى مزوده فاستخرج منه جلد ماعز وألقاه على ظهره وأخرج كعكًا يابسًا وقال لأصحابه: بسم الله استعينوا بالله وتوكلوا عليه وأخفوا نفوسكم وقدموا الحزم في أموركم فإنِّي معوَّل على فتح هذه القلعة إن شاء الله تعالى. فقالوا: سر على بركة الله تعالى. فقاموا مسرعين، وتقدم دامس وبعث رجلين من أصحابه يعلمان أبا عبيدة بشأنهم ويقولان له: ابعث الخيل عند طلوع الفجر. فانطلق الرجلان وصعد دامس ومن معه تحت الظلام ودامس على المقدمة يمشي على أربعة والجلد على ظهره وكلما أحس بشيء قرض في الكعك كأنه كلب يقرض عظمًا وهم من ورائه يقفون أثره، وهم يستترون بين الأحجار فلا زالوا كذلك حتى لاصقوا السور وسمعوا أصوات الحرس وزعقات الرجال من أعلى القلعة والحرس شديد، فلم يزل دامس دائرًا بهم حول السور إلى أن أتى إلى مكان لم يجد به حسًا وإذا بحرسه قد ناموا وراء المكان ولم يروا في السور أقرب منه.

فقال دامس لأصحابه: أنتم ترون هذه القلعة وعلوها وتحصينها وليس فيها حيلة لشدة الحرس ويقظة القوم فما الذي ترون من الرأي أن نصنع بها؟ وكيف

الحيلة في الصعود إليها إلى أن نحصل في وسطها؟ فقالوا: يا دامس إن الأمير أمَّرك علينا وأنت أدرى منَّا وأجرأ جنانًا ونحن لك بين يديك فمهما رأيت فيه الصلاح للمسلمين فلا تأخر عنه ووالله إن قتل نفوسنا وذهاب أرواحنا أسهل علينا من الرجوع بغير فائدة فمنك الأمر ومنا السمع والطاعة فليس منا من يتأخر عنك ولا نموت إلا تحت ظلال السيوف وفي طاعة الله ونصرة دين الإسلام. فقال دامس: شكر الله فضلكم ورزقكم النصر على أعدائكم، فإن كانت هذه نيتكم فالتصقوا بنا إلى هذا المكان. وكانوا ثمانية وعشرين رجلًا واثنان كانوا أرسلوهما إلى الأمير.

فقال لهم دامس: أفيكم من يقدر على الصعود إلى هذه القلعة؟ فقلنا له: يا أبا الهول وكيف لنا أن نرقى إليها وعلى أي شيء نصل إلى أعلاها بغير سلم؟! فقال: على رسلكم، ثم إنه اختار منا سبعة رجال كالأسد الضواري لو كلفوا حمل ذلك البرج على مناكبهم لما عظم ذلك عليهم، ثم جلس على قرافيصه وقال لأحد السبعة: اجلس على منكبي وارم بحبلك إلى الجدار واجلس كما أنا جالس ففعل الرجل ما أمر به، وأمر آخر أن يفعل ويصعد على منكبي الآخر

وأن يرمي بقوته على الجدار، قال ففعل، ثم إنه لم يزل يصعد واحد بعد واحد إلى أن صعد الثامن بقوته على الجدار وهم متمسكون به، فعند ذلك أمر الأعلى أن يقوم قائمًا وان يطرح حبله على الجدار فقام الأول وقام الثاني ثم قام الثالث ثم قام الرابع والخامس والسادس وكل واحد منهم قد طرح نفسه على الجدار، ثم قام دامس آخرهم فإذا الأعلى قد وصل إلى شرافة السور وتعلق بها فاستوى على السور، ونظر إلى حارس ذلك المكان فوجده نائمًا وهو ثمل من الخمر فأخذ بيده ورجله ورماه، فلما وصل إلى الأرض قطعوه وأخفوا جسده ووجد من أصحابه اثنين سكارى وهم رقود فذبحهم بخنجره ورمى بهم، ثم أرخى عمامته لصاحبه ونشله إليه فإذا هو معه على السور وكان دامس قد أعطاه حبلًا فبقوا ينشلون به بعضهم، إلى أن تكاملوا على السور وأصعدوا من بقي معهم على الأرض، وكان آخر من صعد أبو الهول.

فقال لهم: مكانكم حتى أقفو الخبر وأكشف لكم الأثر، ثم إنه أتى إلى دار البطريق وهو في وسط القلعة وإذا عنده سادات البطارقة وأكابرهم وهم جلوس وبين أيديهم بواطي الخمر، ويوقنًّا جالس في وسطهم على بساط من الديباج

منسوج من الذهب وعليه بدلة من اللؤلؤ ومعصب بعصابة من الجوهر، والقوم يشربون، والمسك والبخور يفوح عندهم فعاد دامس إلى أصحابه وقال: اعلموا أن القوم خلق كثير وإن هجمنا عليهم فلا نأمن الغلبة من كثرتهم ولكن ندعهم فيما هم فيه، فإذا كان وقت السحر هجمنا على يوقنًّا ومن معه من الملوك نقتلهم بسيوفنا، فإذا ظفرنا بهم وذللهم الله لنا وعلى أيدينا فهو الذي نريد، وإن كان غير ذلك فيكون الصباح قد قرب، ولا شك أن الرجلين من أصحابنا قد أعلما خالد بن الوليد فيأتينا. فقالوا: ما نخالف لك أمرًا ونحن قد صرنا في قلعة هؤلاء الأعداء وليس ينجينا إلا صدق جهادنا والعزم والشدة من قوتنا. فقال لهم: مكانكم فلعل أن يفتح الباب.

وكان للقلعة بابان وبينهما دهليز والبوابون داخلهما والرجال تنام عندهم بالنوبة، فلما وصل دامس إلى الباب وجده مغلقًا وإذا بالقوم رقود من السُّكر فعاجلهم بالذبح، ثم فتح البابين وتركهما مردودين ورجع إلى أصحابه وقد قرب الفجر، فقال لهم: أبشروا فإني قد فتحت البابين وقتلت من كان وراءهما فدونكم والباب فاسبقوهم إليه وخذوه عليهم فقد بقي القوم حصيدًا بأسياف

المسلمين إن شاء الله تعالى. وأرسل من يستعجل خالدًا ويبشره بذلك، ثم أرسل خمسة من أصحابه يمسكون الباب وأخذ الباقين ومشى نحو دار يوقنًّا فصاحوا عليه ووقع الصياح في القلعة فرجعوا بأجمعهم إلى الباب وأخذ كل واحد منهم مكانًا يحميه فعندها جاءت الأبطال وصاحت الروم ويلاه كيف تمت علينا هذه الحيلة وصرخ يوقنًّا بأصحابه فأتوا من كل جانب. فعندها كبر المسلمون ونادوا بلسان واحد: الله أكبر فخيِّل للروم أن القلعة ملآنة منهم. قال ابن أوس: وقاتلت الروم قتالًا شديدًا، وأما المسلمون فكانوا كالأسد الضارية فما رأيت أقوى بأسًا ولا أشد مراسًا من دامس أبي الهول في ذلك اليوم فلقد عددنا في بدنه بعدما انفصلنا ثلاثة وسبعين جرحًا كلها في مقدم بدنه. فبينما نحن في أشد القتال ونحن يحمي بعضنا بعضًا وقد بقي منا ثلاثة وعشرون وقتل منا أربعة وهم أوس بن عامر الحزمي من بني حزم وأبو حامد بن سراقة الحميري والفارع بن مسيب التميمي وفزارة بن مراد العوفي.

قال الواقدي: حدثني نوفل بن سالم عن جده غويلم بن حازم وكان ممن صحب دامسًا في قلعة حلب قال: لما قتل من قتل منا، وقد قتل أيضًا ملاعب بن

مقدام بن عروة الحضرمي وكان ممن حضر مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الحديبية وتبوك ومرارة بن ربيعة العامري وهلال بن أمية وهو ابن أخي كعب الذي تخلف عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في تبوك، قال وبقينا عشرين رجلًا وتكاثرت الروم علينا في أزيد من خمسة آلاف وهم سد من حديد، قال ونحن قد أيسنا من الحياة إذ دخل علينا خالد بن الوليد ومعه جيش الزحف فوجدنا ونحن في أشد ما يكون من القتال، فلما دخلوا علينا صاح فيهم خالد فجفلت الروم عنَّا. قال أوس: فلما رأينا ذلك وانفرج عنَّا ما كنَّا فيه اشتدت قلوبنا فعندها كبرت المسلمون. ودخل ضرار وأمثاله يضربون رقابهم، فلما رأى الروم ذلك وعلموا أنهم لا طاقة لهم بما وقع بهم ألقوا السلاح ونادوا الغوث الغوث، وكفوا أنفسهم عن القتال فكفت المسلمون أيديهم عنهم؛ فبينما هم كذلك إذ أقبل أبو عبيدة ومعه عساكر الإسلام فأخبروه أن الروم يطلبون الأمان وأن المسلمين قد رفعوا عنهم القتل إلى أن تأتي وترى فيهم رأيك، فقال أبو عبيدة: قد وفقوا وسددوا فأمر بإحضار رجالهم ونسائهم وعرض عليهم الإسلام فكان أول من أسلم بطريقهم «يوقنَّا» وجماعة من ساداتهم. فرد عليهم

أموالهم وأهاليهم واستبقى منهم الفلاحين وعفا عنهم من القتل والأسر وأخذ عليهم العهود أن لا يكونوا إلا مثل أهل الصلح والجزية وأخرجهم من القلعة.

ثم أخرج المسلمون من الذهب والأواني ما لا يقع عليه عدد فأخرج منه الخمس وقسم الباقي على المسلمين، وأخذ الناس في حديث دامس وحيله وعجائبه وعالجوا جراحته حتى برأت قال وأعطاه أبو عبيدة سهمين؛ ثم إن أبا عبيدة طلب أمراء المسلمين وأكابرهم وشاورهم في أمره وقال: إن الله وله الحمد قد فتح هذه القلعة على أيدي المسلمين وما بقي لنا موضع نخافه، فهل نقصد أنطاكية، وهي دار الملك وكرسي عزهم وفيها بقية ملوكهم مع هرقل فما ترون من الرأي؟ قال فعندها قام البطريق يوقنًا وتكلم بلسان عربي فصيح وقال: أيها الأمير إن الله تبارك وتعالى قد أيدكم وأظفركم بعدوكم ونصركم وما ذاك إلا أن دينكم هو الدين القويم والصراط المستقيم ونبيكم هو المشهور في الإنجيل، وهو لا محالة الذي بشر به المسيح ولا شك فيه ولا مراء، وهو الفاروق الذي يفرق بين الحق والباطل وهو النبي الكريم اليتيم الذي يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه فهل كان ذلك أم لا أيها الأمير؟

فقال أبو عبيدة: نعم هو نبينا - صلى الله عليه وسلم - وإنِّي يا يوقنَّا قد حِرْتُ في أمرك وأنت بالأمس تقاتلنا ومرادك أن تكسر عسكرنا وتقطع الطريق على علوفتنا واليوم تقول مثل هذا القول، وقد بلغني أنك لا تفهم بالعربية شيئًا فمن أين لك حفظها؟ فقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله وإنك تعجب أيها الأمير من هذا الأمر؟ قال: نعم! قال له: اعلم أيها الأمير أني كنت البارحة مفكرًا في أمركم وقد وصلتم إلى قلعتنا ونصرتم علينا وإنه لم يكن عندنا أمة أضعف منكم وتوسوستُ في ذلك، فلما نمت رأيت شخصًا أبهى من القمر وأطيب رائحة من المسك الأذفر ومعه جماعة فسألت عنه فقيل لي: هذا محمد رسول الله فكأني أقول إن كان نبيًا حقًا فليسأل ربه أن يعلمني العربية وكان يشير إليَّ وهو يقول: يا يوقنَّا أنا محمد الذي بشر بي المسيح وأنا لا نبي بعدي وإن أردت فقل لا إله إلا الله وإنِّي محمد رسول الله فأخذت يده فقبلتها وأسلمت على يديه واستيقظت وفمي من تلك الليلة كالمسك الأذفر وأنا أتكلم بالعربية!

ثم إني قمت إلى منزل أخي يوحنَّا وفتحت خزانة كتبه فوجدت في بعض الكتب صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - وما يكون من أمره ووجدت كل

الصفات صحيحة وإن أبغض الخلق إليه اليهود أكان ذلك أيها الأمير أم لا؟ فقال أبو عبيدة: نعم كانت اليهود تطلبنا أشد الطلب حتى نصرنا الله عليهم وأخذنا حصونهم وقتلنا أبطالهم. قال يوقنًّا: وجدت هذا في سيرته وجملة أخباره وأن الله تعالى كان يوصيه بأصحابه وبالمسلمين وبالأيتام والمساكين أكان ذلك أم لا؟ قال أبو عبيدة: نعم، أما وصيته من الله على أصحابه. فقد قال الله تعالى: «وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»، وقال في حق اليتيم والمسكين: «فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ». فقال يوقنًّا: هكذا قرأته في كتب أخي يوحنًّا وهو مذكور في الإنجيل والتوراة ثم خرَّ ساجدًا وقبَّل الأرض شكرًا، وقال: الحمد لله الذي هداني إلى هذا الدين والله لقد رسخ هذا الدين في قلبي وعلمت أنه الحق، وسأقاتل في الله كما كنت أقاتل في طاعة الشيطان! والله لأنصرن هذا الدين حتى ألحق بأخي يوحنًّا! ثم إنه بكى بكاءً شديدًا على ما فرط في أمر أخيه. فقال له أبو عبيدة: قال الله في حق إخوة يوسف «قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»، وقال له: إن أخاك في عليين مع الحور العين، وأما أنت فساعة أسلمت خرجت من ذنوبك كيوم ولدتك أمك! فبكى لذلك وقال: أُشهد المسلمين أنِّي كلما جاهدت

وقتلت من المشركين فثوابه في صحيفة أخي يوحنَّا! ولابد أن أقاتل في سبيل الله وأمحو ما سلف من الفعال.

فقال أبو عبيدة: يا عبد الله دلنا أين نسير. فقال يوقنَّا: اعلم أيها الأمير أن حصن عزاز حصن منيع وهو قوي بالرجال والعدد والزاد وفيه ابن عم لي اسمه دراس بن جوفناس وهو ذو شدة وبأس وقوة ومراس، جلد في الحرب قوي عند الطعن والضرب! وإن أنتم تركتموه ومضيتم إلى نحو أنطاكية أغار على حلب وقنسرين وأذاقهم شرًا. فقال أبو عبيدة: يا عبد الله قد أنطق الله لسانك بالحق والصواب فما عندك من الحيلة؟ فقال يوقنَّا: عندي من الرأي أن أركب جوادي وتضم إليَّ مائة فارس من المسلمين ولكن على زي الروم ولباسهم وأتقدم بهم، ثم يتقدم أمير من العرب ومعه ألف فارس على خفاف الخيل وأنا في المقدمة بالمائة فارس على مقدار فرسخ كأننا هاربون منكم وأوائل الخيل الألف في طلبنا فإذا أشرفنا على عزاز نلقي الصوت، فإذا نظر إلينا صاحبها دراس لابد أن ينزل إلينا ويلقانا، فإذا سألني أخبرته أني أسلمت زورًا ثم هربت فخرجت العرب في طلبي فإذا سمع مني ذلك يصعد بنا إلى حصنه وليكن مقدم

الألف بالقرب منَّا في قرية هناك فإذا كان نصف الليل سرنا في وسط الحصن ونضع السيف في أعدائنا فإذا كان عند صلاة الفجر يأتينا أمير العرب بالألف الذي معه.

فلما سمع أبو عبيدة ذلك استنار وجهه واستشار خالدًا ومعاذًا في ذلك فقالا: يا أمين الأمة رأي سديد إن لم يغدر هذا الرجل ويرجع إلى دينه. فقال أبو عبيدة «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ». فقال يوقنَّا: أنا والله رجعت عن ديني إلى دينكم بعدما كنت أعظم من تلك الصور والصلبان وما بقي في قلبي سوى محبة الرحمن ومحمد سيد ولد عدنان والجهاد عن أفضل الأديان والله على ما أقول وكيل، وحق الذي لا إله إلا هو، وحق محمد عبده ورسوله - صلى الله عليه وسلم - الذي رأيته وعاينته في المنام إن كنتم تظنون في غير ذلك فلا تتركوني أفعل شيئًا مما ذكرته لكم. فقال أبو عبيدة: يا عبد الله إن أنت نصحت للمسلمين ولم تغدر بهم كان الله لك معينًا في كل ما تحاوله فاتبع الصدق تنج به فإن ديننا مبني على الصدق، واتبع سنن إخوانك المؤمنين، واعلم أن المؤمن الصادق قوته ما وجد ولباسه ما ستر ومسكنه ما وجد فلا يحزنك ما تركت من ملكك

وحكمك وإمارتك فإن الذي تركته فان، والذي تطلبه باق لأن نعمة الدنيا فانية والآخرة خير وأبقى.

قال شهر بن حوشب عن جده عامر بن زيد قال: كنت ممن شهد فتوح الشام وكنت في فتوح قنسرين وحلب مع أبي عبيدة وكنت كثيرًا ما أصحب الروم الذين دخلوا في ديننا فلم أر منهم أشد اجتهادًا، ولا أخلص اعتقادًا، ولا أعظم نية ولا أحسن في الجهاد حمية ولا أبلغ في قتال الروم من يوقنًّا! ولقد نصح والله للمسلمين وجاهد في الكافرين وأرضى رب العالمين، ولقد فعل في الروم ما لم يقدر أحد عليه من أبناء جنسه من بعدما قاسى المسلمون منه على قلعة حلب وما تركهم ينامون ولا يقرّون ليلًا ولا نهارًا وما قتل من المسلمين - رضي الله عنهم - أجمعين.

ذكر فتح عزاز

قال الواقدي: لما وعظ أبو عبيدة يوقنًّا وفرغ من وعظه ضم إليه مائة فارس وألبسهم زي الروم قال: وكان كل عشرة من قبيلة وهم من طيء وفهر وخزاعة وشنيس ونمير والحضارمة وحمير وباهلة وتميم ومراد وجعل على كل عشرة

نقيبًا، فلما كملوا قال لهم أبو عبيدة: اعلموا رحمكم الله أني مرسلكم مع هذا الرجل الذي وهب نفسه لله ورسوله وكل طائفة منكم عليها نقيب وقد وليته عليكم فاسمعوا له وأطيعوا ما دام في مرضاة الله – عز وجل –، فلبسوا وركبوا وساروا معه، فلما بعدوا بفرسخ أرسل وراءهم ألف فارس وأمَّر عليهم مالكًا الأشتر النخعي وقال له: سر في أثر القوم وانظر ما يكون من أمر هذا العبد الصالح فإذا قربت من هذا الحصن فاكمن إلى وقت السحر ثم تظاهر لإخوانك، سر وفقك الله وأرشدك! فسار مالك يقدم قومه فساروا بقية يومهم، فلما جن عليهم الليل كمنوا في قرية بالقرب من الحصن وهي خالية من السكان. وأما ما كان من يوقنَّا فإنه أخذ على غير طريق وسار طالبًا عزاز.

قال الواقدي: حدثني سليمان بن عبد الله اليشكري حدثني الشديد بن مازن عن جده خزعل بن عاصم قال: كنت في خيل يوقنَّا لما وجهنا أبو عبيدة معه. فلما شارفنا عزاز قال لنا يوقنَّا: اعلموا يا فتيان العرب أنَّا قد شارفنا هذا العدو فإياكم أن يتكلم أحد منكم فإن لغتكم لا تخفى على الروم وأنا المترجم عنكم

وكونوا على يقظة من أمركم. فإذا رأيتموني وقد بطشت بصاحب الحصن فثوروا على اسم الله تعالى، ثم ساروا وليس عنده خبر من تواتر القدر.

قال الواقدي: حدثني الأكوع بن عباد المازني قال: كنت مع مالك الأشتر من جملة الألف حين سرنا في أثر يوقنًّا صاحب حلب حتى إذا كنا في تلك القرية ونحن ننتظر الصباح، وإذا نحن بجيش من ورائنا من غربي القرية فسار مالك وقصد الحصن فغاب عنا غير بعيد وعاد ومعه رجل من العرب المتنصرة وقد أقبل به، فلما صار بيننا قال: يا فتيان اسمعوا ما يقول هذا الرجل. فقلنا: وما الذي يقوله؟ قال: اسألوه فإنه يخبركم. فسألناه وقلنا: من أي الناس أنت؟ قال: من غسان من بني عم جبلة بن الأيهم. فقال له مالك: ما اسمك؟ قال: اسمي طارق بن شيبان. فقال له: يا طارق بحق ذمة العرب لا تكتمنا أمرًا تعرفه من أعدائنا قال: والله لا أكتم أمرًا أعرفه ولكن خذوا على أنفسكم قبل قدوم عدوكم. قال مالك: وكيف ذلك؟ قال: لأن البارحة ورد علينا جاسوس من عندكم وهو منَّا اسمه عصمة بن عرفجة، وكان يسمع ما تناجيتم به من الحيلة التي أرادها يوقنًّا على صاحب عزاز، فلما سمع الجاسوس منكم ذلك كتب

رقعة وربطها تحت جناح طير كان معه وأطلقه إلى صاحب عزاز، فلما قرأها أرسلني إلى صاحب الراوندات لوقا بن شاس يستنجده عليكم فمضيت إليه بالرسالة وهو قادم في خمسمائة فارس وكأنكم بهم، وقد هجموا فخذوا حذركم.

وأما ما كان من أمر يوقنَّا فإنه سار حتى وصل إلى الحصن فوجد صاحبه قد تجهز بنفسه ومعه أصحابه وهو خارج الحصن وكان اللعين يركب في ثلاثة آلاف فارس من الروم وألف من العرب المتنصرة غير من التجأ إليه من السواد، فلما قدم عليه يوقنَّا لم يوهمه في شيء من أمره بل استقبله وترجل إليه وأقبل كأنه يقبِّل ركابه وكان في يده سكين أمضى من القضاء فقطع به حزام فرس يوقنَّا وجذبه إليه وإذا به قد وقع على أم رأسه فأطبق الأربعة آلاف على أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولم يمهلوهم حتى أخذوهم قبضًا بالكف وشدوهم كتافًا وبصق دراس في وجه يوقنَّا، وقال: لقد غضب عليك المسيح والصليب إذ فارقت دينك ودخلت في دين أعدائك، وحق المسيح لابد لي أن

أبعثك إلى الملك الرحيم هرقل يصلبك على باب أنطاكية بعدما أضرب رقاب هؤلاء العرب، ثم إنه أصعدهم إلى الحصن.

قال الواقدي: ومن خيرة الله للمسلمين أن الجاسوس لم يكتب لصاحب عزاز في مكاتبته بسير مالك الأشتر. قال: وإن مالكًا الأشتر لما سمع كلام المتنصر أيقظ أصحابه وربط المتنصر عنده وأقاموا ينتظرون صاحب الراوندات، فلما راق الليل سمعوا وقع حوافر الخيل فلم يكلمهم مالك حتى توسطوا الكمين وأطبقوا عليهم، فكل اثنين ربطوا واحدًا من الروم وأخذوهم بالكف ولم ينفلت منهم أحد، ولبسوا ثيابهم ورفعوا رايتهم وصليبهم كما كانت، ثم إن مالكًا قال للمتنصر: هل لك أن ترجع إلى دين الله – عز وجل – ودين نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – فيمحو عنك ما سلف من الكفر بالإيمان وتبقى لنا من جملة الإخوان. فقال: إن قلبي ولبي عندكم فلا جزى الله من ألجأنا إلى الدخول في هذا الدين خيرًا وأنا والله من الطائفة التي هي أول من أسلم على يد عمر بن الخطاب وقد سمعنا عن محمد – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: من بدَّل دينه فاقتلوه. فقال له مالك: لقد صدقت في قولك ولكن

انسخ هذا الحديث بقول لا إله إلا الله، فقد قال الله تعالى: «إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ»، وقبل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – توبة وحشي قاتل عمه حمزة فأنزل الله فيه الآيات، فلما سمع الغساني ذلك فرح وقال: أنا أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله والآن والله يا مالك قد طاب قلبي وانجبر كسري أخذ الله بيدك وأنقذك الله يوم القيامة. ففرح مالك بإسلامه، وقال له: وفقك الله وثبت إيمانك! ثم قال له: يا عبد الله إني أريد أن تمحو ما سلف منك بما تفعله. فقال: وما تريد أيها الأمير؟ قال: تمضي إلى صاحب عزاز وتبشره بقدوم صاحب الراوندات إلى نصرته. فقال: أفعل ذلك إن شاء الله تعالى وإن كنت في شك من أمري فأرسل معي من تثق به حتى يسمع ما أقول فإن الليل قد تنصف والحرس شديد وباب الحصن مقفول وأنا أخاطبهم من شفير الخندق، فأرسل معه مالك ابن عم له يقال له راشد بن مقبس ووصاه أن يكون مستيقظًا فسارا جميعًا إلى أن وصلا إلى الحصن فوجدا الحرس شديدًا والروم تضرب بوقاتها والصوت عال في وسط الحصن. فقال طارق لابن عم مالك: ما هذا وحق أبي إلا قتال وضرب وحرب فأنصتا فإذا هو كما قال طارق.

قال الواقدي: وكان السبب في ذلك أن ابن صاحب عزاز شاب شجاع يقال له لاوان كان أبوه دراس في وقت يرسله إلى يوقنًّا بالهدايا والتحف لما بينهم من القرابة وكان يقيم عنده أشهرًا في أعز مكان، وإنه حضر عنده في بعض المرات في عيد الصليب في البيعة التي هي اليوم الجامع، وكان يدخل في كل وقت فرأى يوما ابنة يوقنًّا وهي بين جواريها وخدمها وحشمها فوقع بقلبه حبها فكتم أمرها وعاد إلى عزاز وشكا حاله إلى أمه وما كان لأبيه ولد غيره وهي تجد له محبة عظيمة فقالت له: أنا أخاطب أباك في ذلك وألزمه أن يرسل ليخطبها من أبيها ويزوجك بها ونبذل له من المال ما أراده وطلبه، واشتغل قلب الشاب بحب الجارية، وفي أثناء ذلك جاءت العرب إلى بلادهم واشتغلت خواطرهم، فلما وقع يوقنًّا في يد أبيه وكان من أمره ما كان وقبض عليه وعلى المائة من المسلمين وحبسهم جميعًا في دار ولده لاوان ووصاه بحفظهم.

فقال لاوان في نفسه وحق ديني إن ابن عمنا يوقنًّا أعلم من أبي بالأديان ولولا أنه رأى الحق مع هؤلاء العرب ما تبعهم بعدما قاتلهم أشد القتال وأيضًا إن جيوش الملك ما ساوتهم، وإن الله قد نصرهم على ضعفهم، وأنا قلبي متعلق

بابنته وإني أرى من الرأي السديد أن أحل هؤلاء القوم من الوثاق وأرجع إلى دينهم بعد أن أثق من ابن عمي أن يزوجني ابنته فإنه على الحق، وأنال ما أطلب بعدها وأتزوج ابنته، فلما حدثته نفسه بذلك أقبل إلى يوقنًّا وجلس بين يديه وقال له: يا عم إني عوَّلت على أن أحل وثاقك أنت وأصحابك، وقد اخترتك على أهلي وأبي وملكي وأنت تعلم أن فراق الأهل صعب واخترت الإيمان على الكفر وقد علمت أن دين هؤلاء صحيح، ولكن لي عليك شرط أن تزوجني ابنتك ومهرها عتقك أنت وهؤلاء الناس الذين معك.

فقال يوقنَّا: يا بني ما لك إلى زواجها من سبيل إذا كنت تدخل فيه لأجل غرض الدنيا، وليكن دخولك فيه خالصًا من قلبك حتى إن الله يأجرك على ما تفعله وأنا إن شاء الله تعالى أبلغك ما ترومه وتنال عزَّ الدنيا والآخرة. فقال: وأنا أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله! ثم حل وثاق يوقنًّا وأعطاه سلاحه وحل المائة وأعطاهم سلاحهم، وقال لهم: كونوا على أهبة وأنا أمضي إلى أبي وهو ثمل بالخمر فأقتله وثوروا على بركة الله تعالى! فعندها قال يوقنَّا للمائة: اشهدوا علي أني زوجته ابنتي وجعلت صداقها عتقنا، فقبل منه ومضى

إلى دار أبيه فوجد أباه مقطوع الرأس وإخوته عنده، فقال لهم: من فعل هذا بأبي؟ قالوا: نحن. قال: ولم ذلك؟ قالوا: أردنا بذلك وجه الله وقد سمعناك وما تحدثت به مع يوقنًّا وأصحابه فخفنا عليك أن لا يتم لك هذا الأمر ويتكاثر الجمع على القوم ويبلغ أبانا خبرك فيقتلك فبطشنا به قبلك!

ففرح لاوان بذلك ورجع إلى يوقنًّا وأصحابه وأعلمهم بما جرى فخرجوا من دار لاوان وتوسطوا الحصن ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير والسراج المنير ووضعوا السيف في الروم، ووقع الصائح في الحصن كما وصفنا وتبادرت الروم لقتال المسلمين، وفي تلك الساعة قدم طارق ورفيقه فسمعنا الأصوات فرجعنا إلى مالك وأعلمناه بما سمعناه. فقال مالك لأصحابه اركضوا لأصحابكم فركَّضوا خيولهم وخلف منهم مائة يحفظون الأسرى، فلما قربوا من الحصن وكان يوقنًّا قد قال للاوان: إن نجدة من المسلمين تأتينا فأتى لاوان فرأى المسلمين قد أتوا ففتح لهم باب الحصن من باب السر وأدخلهم، فلما حصل مالك الأشتر في حصن عزاز نادى هو ومن معه الله أكبر فتح الله ونصر وخذل من كفر، فلما رأى أهل الحصن ذلك رموا

سلاحهم ونادوا الغوث الغوث فرفعوا عنهم السلاح وأخذوهم أسارى وشكروا ليوقنًّا ومن معه، فحدَّث يوقنًّا مالكًا الأشتر بحديث الغلام لاوان فقال مالك: إذا أراد الله أمرًا هيأ أسبابه.

عن جبير عن أبيه قال: سألت أبا لبابة بن المنذر وكان ممن حضر فتوح الشام كيف كانت فتوح عزاز وقتل دراس فإن نفسي تنكر هذا وأريد صحته. فقال: لما وضعت الحرب أوزارها وجمع مالك الأشتر الأسارى والمال والثياب والذهب والفضة والآنية، وأمر بإخراج ذلك من الحصن وكَّل به قيس بن سعد، وكان ممن حضر وأصابه سهم فعوره، وكذلك أبو لبابة بن المنذر وكلاهما حضر بدرًا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم يبق أحد في عزاز. ثم قام مالك فمشى في الحصن وتفقد دراسًا فوجده مقتولًا، فقال: من قتل هذا اللعين؟ فقال لاوان: قتله أخي لوقا وهو أكبر مني سنًا فأمر مالك بإحضاره، وقال: لم قتلته وهو أبوك؟ وما سمعنا ولدًا قتل أباه من الروم سواك؟

فقال: حملني على ذلك محبة دينكم، لأن في بيعة هذا الحصن قسًا من المعمرين، وكنا نقرأ عليه الإنجيل ويعلمنا بعلم الروم، وإني كنت في بعض

الأيام في البيعة أنا وهو وليس عندنا أحد وكان اسمه أبا المنذر، فقلت له: يا أبا المنذر ألا ترى إلى بلاد الشام كيف استولت عليها العرب وملكوا أكثرها وهزموا جيوش الملك؟ وما كنا نظن أن العرب تقدر على ذلك لأنه ليس في الأمم أضعف منهم وأن الله تعالى نصرهم على ضعفهم، فهل قرأت ذلك في كتب الروم أو ملاحمهم أو ملاحم اليونانيين. فقال: يا بني نعم إني قرأت ذلك، ولقد أخبرنا الملك هرقل بذلك قبل وقوع هذا الأمر! وجمع إليه الملوك والأساقفة والبطارقة وغيرهم، وأخبرهم أن العرب لابد أن يملكوا ما تحت سريري هذا! ولقد بلغنا عن نبي القوم أنه قال: «زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»، فقلت له: يا أبانا فما تقول في نبي القوم؟ قال له: يا بني إن في كتبنا أن الله تعالى يبعث نبيًا بالحجاز وقد بشر به المسيح عيسى بن مريم، ولا ندري أهو هذا أم لا! فعلمت أنه كتم عني أمره مخافة أن أذيع سره فكتمت ما قال لي البارحة!

فلما رأيت يوقنًّا وأصحابه أسرى قلت: هذا يوقنًّا قد قتل أخاه يوحنًّا وعاند العرب وقاتلهم، ثم إنه رجع إلى دينهم، وما ذاك إلا أنه قد علم أن الحق معهم،

فقلت أنا لنفسي: قم أنت واقتل أباك وخلص يوقنًّا وأصحابه وارجع إلى دين هؤلاء فهو الدين الحق لاشك فيه! فلما نام أبي بعدما شرب الخمر وسكر قتلته وسرت إلى خلاص يوقنًّا ومن معه فوجدت أخي لاوان قد سبقني إلى ذلك، فقال له مالك: يا غلام لم فعلت ذلك؟ قال: محبة في دينكم وأنا أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فقال له مالك: قبلك الله ووفقك. ثم خرج مالك من الحصن وولاه سعيد بن عمرو الغنوي وترك معه المائة الذين كانوا مع يوقنًّا، وقدَّموا إليه صاحب الراوندات ومن معه فعرض عليهم الإسلام فأبوا فضرب رقابهم.

قال الواقدي: ثم إن مالكًا الأشتر أراد أن يرحل فعُرض عليه سبي عزاز فكان ألف رجل من الشباب ومائتين وخمسة وأربعين رجلًا من الشيوخ والرهبان وألفي امرأة من النساء والبنات ومائة وثمانين عجوزًا، ونظر إلى شيخ من الرهبان مليح الشيبة واضح الهيبة، فقال: إن صدقت الفراسة فهذا القس الذي أخبرني به لوقا وأخوه لاوان فدعا بهما وقال: هذا هو القس الذي أخبرني به لوقا؟ فقال: نعم فقال له: يا شيخ إذا كنت عن علماء أهل الكتاب فكيف تكتم

الحق عن مستحقيه؟ فقال: والله ما كتمت الحق عن مستحقيه، وإني خفت من الروم أن يقتلوني، لأن الحق ثقيل وقد قتلوا الأبناء والإخوة وذلك لأجل الحق فكيف أنا. فقال له مالك: أفتدخل في ديننا؟ فقال: لست أدخل فيه إلا إذا سألتكم عن مسائل وجدتها في الإنجيل. فقال له مالك: هات ما عندك.

فلما أراد القس أن يتكلم وقع الصياح في الحصن فارتاع الناس ووثب مالك لينظر ما خبر الناس، وظن أن الروم قد غدرت بهم وإذا بأناس من المسلمين الذين بالحصن يقولون: أيها الأمير خذوا حذركم فإنا نرى غبرة على طريق منبج وبزاعة ولا ندري ما هي؟! فركب مالك ومن معه ووقفوا ينتظرون ما ذاك وإذا قد لاح من تحتها خيول الإسلام وهم يسوقون السبايا والأموال والرجال وهم مشدودون في الحبال ووراءهم ألف فارس من المسلمين وأميرهم الفضل بن العباس - رضي الله عنه -، وكان قد أرسله أبو عبيدة حتى غزا منبج والباب وبزاعة فوقع الكثير في الفريقين وسلم بعضهم على بعض وسأل الفضل مالكًا عن قصته فحدثه أن الله قد فتح عزاز وأذل من فيها، وحدثه بما كان من حديث يوقنًّا، وأنني ما منعني من الرحيل إلا هذا القس وسؤاله.

فقال له الفضل: أيها القس قل ما أنت قائل. فقال القس: أخبرني عن أي شيء خلقه الله تعالى قبل خلق السموات والأرض. فقال الفضل: أول ما خلق اللوح والقلم............ فلما سمع القس ذلك من كلام الفضل بن العباس قال: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، هذا هو العلم الذي استأثر به أنبياء الله تعالى. فلما نظر أهل عزاز إلى قسهم وقد أسلم أسلموا عن آخرهم إلا قليلًا منهم والله أعلم.

عن دارم بن عياش عن جده قال: لما أسلم أهل عزاز بإسلام قسهم الذي كان معتقدهم عوَّل الفضل ومالك على المسير إلى حلب، فقال يوقنَّا. أنا والله ما لي وجه أقابل به المسلمين، لأني كنت قلت قولًا ودبرت أمرًا فلم يتم لي وإني سائر إلى أنطاكية فلعل الله أن يظفرني بالأعداء وينصرني عليهم، فقال له الفضل: إن الله تعالى قال لنبيه - صلى الله عليه وسلم - «لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ»، فلا تحمل قلبك همًا، فقال: ودين الإسلام لا أرجع إلا بأمر يبيض الله به وجهي عند إخواني المسلمين، فنظر وقد صحبه مائتان من بني عمه كان قد رسخ في قلوبهم الإيمان ولهم عيال وأولاد في حلب فأخذهم يوقنَّا وسار يريد أنطاكية،

فلما قرب من أرضها أخذ منهم أربعة وأمر الباقي أن يتعوقوا خلفه أربعة أيام، ثم يأتوا كأنهم هاربون من العرب ليتم ما دبره في خاطره وسار هو والأربعة على طريق حارم والباقي على طريق أرناح، وقال لهم: الميعاد بيننا أنطاكية فافعلوا ذلك، وساروا وسار هو إلى أن أشرف على دير سمعان المشرف على البحر، فوجد هناك خيلًا ورجالًا يحفظون الطرقات، فلما رأوا يوقنًّا والأربعة معه بادروا إليهم واستخبروهم عن حالهم فقال لهم يوقنَّا: أنا صاحب حلب وقد هربت من العرب فوكل بهم صاحب الدرك جماعة وأمرهم أن يسيروا بهم إلى الملك فأخذتهم الخيل وأتوا بهم إليه فوجدوه في كنيسة الفتيان يصلي، فوقفوا حتى فرغ من صلاته فأوقفوا يوقنًّا بين يديه، وقالوا: أيها الملك إن بطرس صاحب الحرس الذي عند دير سمعان قد وجه بهذا ومن معه إليك ويزعم أنه صاحب حلب!

فلما سمع هرقل ذلك قال له: يا يوقنًّا ما الذي أتى بك وقد بلغني أنك دخلت في دين العرب؟! فقال: أيها الملك لقد بلغك الحق، وذلك أني ما أسلمت إلا لمكيدة القوم حتى أتخلص من شرهم ومن كراهة منظرهم ونتن

رائحتهم، وإني قلت لهم: أسلم إليكم حصن عزاز وأقتل صاحبها وأخذت منهم مائة سيد من ساداتهم وسرت بهم، وأمرت أن ينفذ ورائي ألف حتى إذا صاروا داخل الحصن أقبض عليهم وأرسلهم إليك فعجل دراس عليَّ ولم يفهم ما أضمرته ووثق بكلام جاسوسه ولم يثق بكلامي، فقبض علينا فأتت العرب ووضعت السيف في أهلها، فلما اشتغلوا بالقتال والنهب هربت أنا وهؤلاء الأربعة وجئنا إليك، ولولا محبتي في ديني ما كنت قتلت أخي يوحنًّا وصبرت على قتال العرب وحصارهم سنة كاملة. فأعانته البطارقة والملوك الذين كانوا حاضرين، وقالوا: صدق يوقنًّا أيها الملك، وسيظهر لك فعله وعمله وجهاده! فانبشَّ وجه الملك لذلك وخلع عليه من لباسه الذي هو عليه وسوَّره ومنطقه وتوَّجه، وقال له: إن كانت حلب أخذت منك فإني وليتك على أنطاكية وأعطاه وظيفة دمستقها يعني واليها. فسمع يوقنًّا له ودعا له.

فبينما هو كذلك إذ أتى إليه الموكل بجسر الحديد وأخبر الملك أنه قد قدم عليهم مائتا بطريق من فرسان حلب، وهم يزعمون أنهم من بيت واحد من الرومية من بني عم يوقنًّا، وأنهم قد هربوا من العرب، فلما سمع ذلك قال ليوقنًّا:

أيها الدمستق والسكندر قم واركب وأشرف على هؤلاء القوم، فإن كانوا من بني عمك فأهلًّ بهم وضمهم إليك ليكونوا عسكرك، وإن كانوا غير ذلك فأت بهم لأرى فيهم ما أرى، وإياك أن يكونوا من قبل العرب ممن رجع إلى دينهم من أهل سيجر وحماة والرستن وجوسية وبعلبك ودمشق وحوران! فقال: نعم أيها الملك فركب وركبت معه الفرسان من الملكية والسريرية، وأتوا إلى جسر الحديد وأمر أصحاب الدرك أن يأتوا بالمائتين، فلما رآهم يوقنًّا رحب بهم ونظروا إليه وهو في ذلك الزي والحشمة وخلعة الملك عليه، فترجلوا وقبلوا ركابه، فقال لهم: كيف خلصتم من أيدي العرب؟ فقالوا: أيها السيد إننا خرجنا مع أمير من أمرائهم وأغرنا على منبج وبزاعة، فلما رجعنا نريد حلب أخذنا على عزاز فوجدناهم قد ملكوها، فلما كان الليل تركناهم وأتينا.

هذا كله وحجَّاب الملك يسمعون، فلما حضروا أخبروا الملك بذلك ودخل يوقنًّا بهم على الملك فخلع عليهم وأنزلهم وأمرهم أن يكونوا في خدمة يوقنًّا وأعطاه دارًا بإزاء قصره، فقال يوقنًّا: أيها الملك أنت تعلم أن هذه الدار لا يدوم نعيمها، وأن السيد المسيح شبهها بالجيفة، وطلابها بالكلاب يتجاذبونها.

كما روي عن المسيح أنه رأى طائرًا حسنًا مزينًا بكل زينة، فنزع جلده فرآه أقبح ما يكون منظرًا، فقال له: من أنت؟ قال: أنا الدنيا ظاهري مليح وباطني قبيح، وإنما ضربت لك هذا المثل أيها الملك لتعلم أنه ما خلا جسد من حسد، وإذا أقبلت الدنيا على أحد كثرت حساده، وأنا أخاف من الحساد أن يتكلموا فيَّ عند الملك ويرموني بالبهتان وبما لا أفعله، فإن كان الملك ينفر مني فليول هذه الوظائف غيري وأنا ما أبرح على ركابك. ثم إنه بكى!

فقال له الملك: أيها الدمستق ما وليتك هذا الأمر إلا وقلبي وخاطري واثق بك، ومن تكلم فيك بشيء سلمته إليك تفعل به ما تريد. فشكره يوقنًّا وأراد الخروج إلى وظيفته التي ولاه إياها، وإذا بخيل البريد قد أقبلت من مرعش وهم رسل ابنته زيتونة، وأنها خائفة من العرب، وهي تريد القدوم عليك حتى ترى ما يؤول من الأمر، وأنها تسألك أن ترسل لها جيشًا يوصلها إليك، فلما سمع الملك ذلك قال: ليس لهذا الأمر إلا الدمستق يوقنًّا، فقبَّل الأرض وقال: السمع والطاعة لأمرك فضم إليه ألف فارس ومائتين من أصحابه من المدبجة والقياصرة. فسار بهم وقد رفع الصليب فوق رأسه وجنبت الجنائب عليها

الرخوة المذهبة، وسار يجد السير إلى أن وصل إلى مرعش وأخذ زيتونة بنت هرقل الصغرى، وكان الملك قد ولاها على تلك البلاد وزوجها «بنوسطير بن حارس»، وكانوا يسمونه سيف النصرانية لشجاعته، وكان قد قتل في اليرموك من جراحات أصابته.

فلما أخذ يوقنَّا ابنة الملك وعاد يطلب بها أنطاكية أخذ على الجادة العظمى لعله يلقى أحدًا من جواسيس المسلمين أو يرى معاهدًا فيرسله ليعلم أبا عبيدة أنه قد تمكن من الملك ومن البلد، فلما وصل مرج الديباج، وكان ليلًا وإذا بخيله التي على مقدمته قد أتته وهم مذعورون، فقال لهم: ما بالكم؟ فقالوا له: أيها السيد الدمستق هناك عسكرًا نازلًا فقربنا منهم فإذا هم عرب وهم نيام ولاشك أنهم مسلمون! فقال لهم: خذوا أهبتكم وأيقظوا خواطركم وانصحوا لدينكم وجاهدوا عدوكم وقاتلوا عن ابنة الملك ولا تسلموها إلى أعدائها وكونوا خير جند قاتل عن نعمة صاحبه، وإذا تمكنت الحرب بيننا وبينهم فاعتمدوا على الأسر وإياكم والقتل واعلموا أن العرب وأميرهم لابد لهم أن يقصدوا الملك ومن معه، فإن أسروا منا أحدًا يكن عندنا الفداء، فقد وجدت في

كتاب حرفناس الحكيم: «إن من نظر في عواقب زمانه توشح بوشاح أمانه، ومن أهل أمره خاف حذره، ومن أكثر الغدر حل به الأمر، سيروا على بركة الله».

قال الواقدي: فقصدوا ذلك العسكر، فلما أحسوا بهم بادروا إليهم واستقبلوهم وهم ينادون بعيسى ابن مريم والصليب المفخم: من أنتم؟ فقال لهم يوقنًّا: ومن أنتم؟ فقالوا: نحن أصحاب جبلة بن الأيهم. فلما سمع يوقنًّا ذلك ترجل عن دابته وسلم عليهم وسلمت العرب المتنصرة على الروم فقال جبلة: من أين جئتم؟ فقال له: من مرعش ومعي ابنة الملك وأنتم من أين جئتم؟ فقال جبلة: من العمق وقد أتينا بميرة أهلها فلما رجعت ووصلت إلى مرج دابق لقيت كتيبة من فرسان المسلمين وهم زيادة عن مائتي فارس وهم لابسون زينا فلما وصلنا إليهم ابتدرونا بعزم شديد وحرب عتيد وإذا مقدمهم لا يصطلى له بنار، فلقد أباد منا رجالًا وجندل منا أبطالًا ونحن في ألفي فارس وهم مائتان وكان فينا كالنار المحرقة فما زلنا نقاتلهم حتى أسرناهم بعدما قتل الفارس منهم الفارس والاثنين والثلاثة منا وبقي أميرهم إلى آخر الناس فقصدنا جواده بالسهام حتى قتلناه ووقع فهجمنا عليه وأخذناه أسيرًا فإذا هو من أصحاب

محمد وهو ضرار بن الأزور ونحن قاصدون بهم إلى الملك هرقل ليرى فيهم رأيه فأظهر لهم يوقنَّا الفرح وقال: وحق ديني لقد فزت بالفخر بأسرك لهؤلاء وهذا الغلام فلقد بلغني عنه ما فعل بأبطال الشام وفرسان الروم، ثم سار القوم جميعًا يطلبون أنطاكية.

قال الواقدي: لما فتح المسلمون حصن عزاز وترك مالك الأشتر عليها سعيدًا بن عمرو الغنوي والتقى بالفضل بن العباس ورجعا بالغنائم إلى حلب استبشر أبو عبيدة بسلامة الناس وبفتح عزاز فسأل مالكًا عن يوقنَّا فحدثه فيما بينه وبينه سرًا وأنه قصد أنطاكية ليدخل على كلب الروم بحيلة ولم يكن له وجه يعود إليك به، فقال أبو عبيدة: الله ينصره ويظفره ويغفر له، فلقد ظهر لنا منه ما لم يكن لنا في حساب!

ثم إنه كتب إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي عبيدة عامر بن الجراح إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سلام عليك. فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - أما بعد: فإن الله سبحانه له المنة علينا التي يستوجب

بها الحمد من جميع المسلمين إذ فتح علينا مستصعب قلاع الكفر وحصونه وأذل لنا ملوكهم وأورثنا أرضهم وديارهم وأنه سبحانه قد فتح علينا قلعة حلب وأردفها بحصن عزاز وأن البطريق يوقنًّا صاحب حلب قد أسلم وحسن إسلامه وقد صار عونًا للمسلمين على الكافرين من بعد ما قاسينا منه ما الله عالم به فالله يجازيه فلقد نصر الله به الدين ونصح للمسلمين وأباد المشركين، وقد دخل أنطاكية يدبر حيلة على كلب الروم، وقد ألقى بنفسه إلى الهلاك في طاعة الله ورسوله، ولقد كتبت هذا الكتاب ونحن معوَّلون على المسير إلى أنطاكية نقصد طاغية الروم فما بقى حصن سواه لأعدائنا قريبًا منَّا ونحن طامعون في أخذه وأخذ سريره وكنوزه كما وعدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فزوِّدنا بالدعاء منك فإنه سلاح المؤمنين ودمار الكافرين، والسلام عليك وعلى من معك عن المسلمين ورحمة الله وبركاته.

ثم إنه أخرج الخمس وسلمه إلى رباح بن غانم اليشكري وضم إليه مائتي فارس من المسلمين فيهم قتادة وسلمة بن الأكوع وعبد الله بن بشار و...... ومثل هؤلاء - رضي الله عنهم - فأخذوا الخمس وساروا.

ثم إن أبا عبيدة دعا بضرار بن الأزور وضم إليه مائتي فارس وأمره أن يشن الغارة فركب ضرار وكان معهم سفينة مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عين ولم يزل ضرار سائرًا هو ومن معه ومعهم رجال من المعاهدين يدلونهم على الطرق حتى وصلوا إلى مرج دابق، وكان وقت السحر، فقال لهم المعاهد: ارفقوا على خيولكم فنزلوا وأراحوها بقية يومهم وليلتهم حتى إذا كان وقت السحر فما شعروا إلا وجبلة كبسهم، فلما وقع الصياح ركب ضرار وركب معه نحو مائة فارس وأما المائة الأخرى فقد دهمتهم خيول المتنصرة فلم يتمكنوا من الركوب فقاتلوا رجالًا فنفرت خيولهم ووصل إليهم عدوهم حتى إنه قتل كل واحد خصمه وتكاثرت عليهم الخيل فأسروا المائة وأما ضرار فإنه صاح بالمائة الثانية، وقال: يا فتيان العرب إن أعداءكم قد هاجموكم على حين غفلة منكم وهم عرب مثلكم وهذه أفضل الساعات عند الله فقووا عزمكم ولا تفشلوا فأنتم تعلمون أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «الجنة تحت ظلال السيوف» وقد قال الله تعالى: «كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ».

قال ميسرة بن عامر: وكان من جملة من حضر معنا في مرج دابق ربيعة بن معمر بن أبي عوف وهو ابن عمر بن ربيعة الشاعر وكان ربيعة من فصحاء العرب لا يتكلم إلا بالسجع كلامه ينظم بحسن مقاله وكنا نصغي إليه إذا سجع ونحفظ منه، فلما سمع ضرارًا وهو يحرضنا قال: يا فتيان العرب لن تنالوا الجنة إلا بالصبر على المكاره، ووالله لن يدخلها من هو للجهاد كاره!

ولله في عـرض الســمـوات جـنـة ولـكـنـهـا مـحـفـوفـة بـالـمـكـاره

وأعلى الدرجات درجة الشهادة، فأرضوا عالم الغيب والشهادة! فهذا الجهاد قد قام على ساقه وكسد النفاق في أسواقه واختفى بنفاقه في أنفاقه. أَمَا أنتم أصحاب نبي العصر؟ ولم يئستم من الثبات والنصر؟! بشِّروا روح المصطفى بثباتكم وقووا العزم بصفاء نياتكم، وإياكم أن تولوا الأدبار فتستوجبوا غضب الجبار، واعلموا أن النصر والثبات جندان منصوران، فمن طلب دار البقا هان عليه الملتقى، فصححوا طلبتكم تنالوا رحمة ربكم، وحققوا حملتكم تنالوا بغيتكم واطعنوا النحور تنالوا الحور وتسكنوا القصور، وقوموا الأسنة تنالوا الجنة واعتمدوا على الصبر تنالوا النصر، وإياكم أن توافقوا الكفار

في حالهم واعدلوا عن طريق قولهم. قال العالم بحالهم وفعلهم «وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ». قال سمرة بن غانم: والله لقد دهشت أنفسنا بقوله وحملنا على المتنصرة وضرار ينشد:

ألا فاحملوا نحو اللئام الكواذب ... لترووا سيوفًا من دماء الكتائبِ
وردوا عن الدين المعظم في الورى ... وارضوا إله العرش رب المواهب
فمن كان منكم يبتغي عتق ربه ... من النار في يوم الجزا والمآرب
فيحمل هذا اليوم حملة ضيغم ... ويرضي رسولًا في الورى غير كاذب

ثم حمل ضرار ونحن من ورائه وبذلنا نفوسنا وروينا سيوفنا ورماحنا من المتنصرة وجرى الحرب بما لا يوصف وضرار فيهم كأنه النار في الحطب اليابس، وجبلة بن الأيهم يتعجب من حملاته وضرباته فأمر قومه أن يقصدوا جواده بسهامهم ففعلوا ذلك فانصرع الجواد ووقع ضرار فتكاثروا عليه وأخذوه أسيرًا وأخذوا بقية أصحابه وساروا يريدون أنطاكية فالتقوا بيوقنًا وابنة الملك كما ذكرنا.

عن خزامة بن عمرو وعن أبي المنذر أن سفينة مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان في حرب ضرار بن الأزور أسيرًا، فلما كان الليل انطلق هاربًا يلتمس الوصول إلى أبي عبيدة، فإذا هو بأسد عارضه. فقال سفينة: يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان من أمري كيت وكيت فقرب منه وهو يبصبص بذنبه حتى وقف إلى جانبه وأشار إليه برأسه أن سر فسرت وهو إلى جانبي حتى أتى بي إلى بلد من صلحنا فتركني ومضى. فلما وصل سفينة الجيش حدث الناس بأسر ضرار ومن معه فصعب ذلك على المسلمين وبكى أبو عبيدة وخالد بن الوليد على أسرهم، وقالا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وبلغ ذلك أخته خولة فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، يا ابن أمي ليت شعري في السلاسل أوثقوك، أم بالحديد قيدوك، أم في البيداء طرحوك، أم بدمائك خضبوك!

قال الواقدي: ولما ورد الخمس على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وكتاب أبي عبيدة مع رباح بن غانم اليشكري وقع الصائح في المدينة بقدومه، فاجتمع الناس إلى المسجد ليسمعوا ما تجدد من أمر

المسلمين، فلما دخل رباح المسجد بدأ بالسلام على قبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعلى قبر أبي بكر وصلى ركعتين وأتى عمر وقبل يده وعرض عليه الكتاب فقرأه على المسلمين فضجوا بالتهليل والتكبير وصلوا على البشير النذير، وأخذ الخمس وكتب إلى أبي عبيدة يأمره بالمسير إلى أنطاكية ولا يصده عن ذلك شيء ورد الجواب مع رباح اليشكري.

قال الواقدي:.... عن مروان بن الجرير أن الجواب لما ورد على أبي عبيدة سار من يومه يطلب أنطاكية. وأما ما كان من أمر يوقنًّا –رحمه الله تعالى– وجبلة بن الأيهم –لعنه الله– فإنهم ساروا إلى أنطاكية وسبق البشير إلى الملك هرقل بقدوم ابنته مع يوقنًّا وقدوم يوقنًّا ومعه المائتا أسير من المسلمين فأمر بتزيين البلد والبيع، فأظهرت الروم زينتها ودفعت الصدقات إلى الفقراء، وأخرج موكب الروم إلى لقائهم مع ابن أخيه في زينة عظيمة ودخل القوم وهم في زيهم وحشمهم وكان يومًا مشهودًا وقد ترجلت الملكية والسريرية بين يدي ابنة الملك وخرج كل من بأنطاكية وقدموا أصحاب رسول الله – صلى الله عليه

وسلم – أمامها وهم مشدودون والروم تشتمهم وتبصق عليهم وقد دارت بهم الرجال والبطارقة ودخلت ابنة الملك إلى قصر أبيها.

ودخل جبلة بن الأيهم ويوقنًا على الملك فخلع عليهما وعلى كبار أصحابهما، ثم إنهم أحضروا الصحابة وأوقفوهم بين يديه وهم في الحبال، فلما وقفوا صاحت بهم الحجاب اسجدوا إلى الأرض تعظيمًا للملك فلم يلتفتوا إلى قولهم ولا اعتنوا به. فقال لهم الحاجب الكبير: ما منعكم أن تعظموا الملك بالسجود بين يديه؟ فقال لهم ضرار: لا يحل لنا أن نسجد لمخلوق وقد نهانا نبينا – صلى الله عليه وسلم – عن ذلك. ولما وقف ضرار والصحابة بين يدي هرقل خاطبهم من غير ترجمان وأراد الملك أن يسمع بطارقته وحجابه بما كان يحدثهم به حين بعث النبي – صلى الله عليه وسلم –، وذلك أنه جمعهم إليه لما بلغه أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قد ظهر وقال: هذا هو النبي المبعوث الذي بشر به عيسى بن مريم وهو صاحب الوقت ولابد لدينه أن يظهر حتى يملأ المشرق والمغرب! ثم إن هرقل دعاهم لأداء الجزية فأرادوا قتله فأراد ذلك اليوم أن يبين لهم حقيقة قوله وأنه أراد بذلك الإصلاح لهم ولحالهم.

فقال لضرار ومن معه: من يخاطبني منكم عما أسأله من العلم؟ فأشاروا إلى قيس بن عاصم الأنصاري - رضي الله عنه - وكان شيخًا معمرًا وقد شاهد جميع أحوال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومعجزاته وغزواته، فلما أشاروا إليه قال للملك: قل ما أنت قائل أيها الملك. قال هرقل: كيف نزل على محمد الوحي أول مبتدأ أمره؟ فقال قيس: سأل هذا السؤال لنبينا - صلى الله عليه وسلم - رجل من مكة يقال له الحارث بن هشام. فقال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «يأتيني أحيانا مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليَّ فينفصم عني وقد وعيت عنه، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول».

قال قيس: ولقد كان ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليرفض عرقًا، فأول ما بدئ به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه -أي يتعبد- الليالي ذوات العدد، فلم يزل كذلك حتى جاءه الملك وقال له: اقرأ. فقال: لست بقارئ! قال:

فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني وقال لي: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ! فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني وقال لي: اقرأ. فقلت: لست بقارئ فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»، فرجع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يرجف بها فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها. فقال: زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فأخبر خديجة وقال لها: لقد خشيت على نفسي، فقالت له خديجة: كلا لا يخزيك الله أبدًا إنك تصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الدهر والحق، وذكر الحديث بطوله.

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء فرفعت بصري فإذا أنا بالملك الذي جاءني بحراء وهو جالس على كرسي بين السماء والأرض فخشيت منه رعبًا فرجعت إلى خديجة فقلت: دثروني دثروني فأنزل الله تعالى «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ»، ثم حمى الوحي

وتتابع! فقال هرقل: بحق دينك ما الذي رأيت من معجزاته؟ قال: كنت معه في سفر فأقبل إليه أعرابي فدنا منه، فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم -: أتشهد ألا إله إلا الله وأني محمد رسول الله. قال الأعرابي: ومن يشهد بما تقول؟ فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: هذه الشجرة، ثم إن النبي - صلى الله عليه وسلم - دعا الشجرة وهي بشاطئ الوادي فأقبلت إليه وهي تخط الأرض حتى قامت بين يديه فاستشهدها ثلاث مرات؛ فقالت: أنت محمد رسول الله، ثم أمرها فرجعت إلى منبتها.

فقال هرقل: إنا نجد في كتابنا أن الرجل من أمته إذا عمل السيئة كتبت عليه واحدة وإن عمل الحسنة كتبت له عشرًا. قال قيس بن عاصم: هذا في كتابنا. قال الله تعالى: «مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا»، فقال هرقل: اعلم أن النبي الذي بشر به عيسى المسيح هو الشاهد على الناس يوم القيامة. فقال قيس: هو نبينا، قال الله تعالى في كتابه العزيز: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا»، أما شهادته في العقبى فهو قول ربنا في كلامه القديم: «وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء

شَهِيدًا». فقال هرقل: إن الذي وصفته لك هو الذي يأمر العباد أن يمضوا إليه في حياته ويصلوا عليه في حياته وبعد وفاته. فقال قيس: هو نبينا - صلى الله عليه وسلم -. قال الله تعالى في كتابه العزيز: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا»، قال هرقل: إن الذي وصفه المسيح يعرج به إلى السماء ويخاطبه العلي الأعلى. فقال قيس: هو والله نبينا - صلى الله عليه وسلم -. قال - جل جلاله - في حقه: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى».

وكان في ذلك الوقت بترك الروم وهو رأس دينهم جالسًا يستمع هذا الكلام فالتفت هذا البترك إلى الملك وقال له: أيها الملك إن الذي ذكره عيسى لم يبعث بعده ولا قبله بل هي تآويل كاذبة. فقال ضرار بن الأزور: كذبت في وجهك وكذبت هذه اللحية الملعونة المخزية يا كلب الروم أنت من أمثالك من يكذِّب عيسى - عليه السلام - وينكر بعث نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، أَمَا تعلم أن عيسى قرأه في الإنجيل وموسى قرأه في التوراة وقرأه داود في الزبور؟! وأن نبينا المبعوث بخير الأديان المشهود له بالنبوة والرسالة في كتاب

الله العزيز وجميع الكتب المنزلة على الأنبياء من قبله، وهو نبينا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب المكي، ولكن حجاب الكفر منعكم عن معرفته! فلما أن سمع هرقل من ضرار هذا الكلام قال له: لقد أسأت الأدب في المجلس إذ خرقت بعمدة دين النصرانية فمن أنت؟ فقال له قيس بن عامر: هذا صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذا ضرار بن الأزور لا تتكلم في حقه بكلام قبيح! فقال الملك: هذا الذي بلغني عنه أنه يقاتل مرة راجلًا ومرة فارسًا ومرة عاريًا ومرة لابسًا! قال: نعم فعندها سكت ولم يتكلم.

قال الواقدي -رحمه الله-: ولقد بلغني أن البترك لما سمع خرق ضرار به أبدى الغضب بعد الابتسام ولحقه غيظ شديد ما عليه من مزيد وقام من حضرة الملك! وغضب البطارقة والحجاب لغضب البترك فلما رأى الملك غضبهم خاف على نفسه منهم فقال: قطعوه بسيوفكم وامحوا أثره! فنزلوا عليه بالسيوف وضربوه ضربات شديدة وكانت عدة تلك الضربات مائة وأربع عشرة ضربة إلا أنها غير قاتلة لما يريده الله من لطفه الخفي في حياته ونجاته فلما رأى البترك هذه الفعال سكن غضبه وقال: اقطعوا لسانه! فلما أن رأى يوقنًا ذلك الأمر وتحقق

هذا الكلام منهم قال في نفسه: والله لا أترك هذا اللعين يتمكن من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتقدم إلى الملك وقبَّل الأرض ودعا بدوام الملك والنعم، وقال: أيها الملك! إن هذا ليس بصواب وإن من الرأي السديد عندي أن تترك هذا الغلام حتى يصح فإذا عاد إلى صحته أخرجناه إلى باب المدينة وصلبناه لتشفى صدور الروم لأنه قد أثر فيهم كلامه الذي تكلمه، وقد قتل من آبائهم وأبنائهم وإخوانهم، وأيضًا يبلغ الخبر إلى المسلمين بإهانته وضربه فيوهنوا بذلك. وإنما أراد يوقنًّا بذلك أن يخلص ضرارًا منه، وقال في نفسه إذا بات تلك الليلة انكسرت حدة الغيظ من الملك فيطلقه! فقال الملك ليوقنًّا: خذه واحفظه إلى غد فأخذه يوقنًّا إلى داره وافتقد جراحاته فإذا بها كلها سليمة ما قطع له عصب ولا عرق وذلك من لطف الله الخفي.

ولما أن رأى يوقنًّا جراحاته خاطها وداواها وأطعمه وأسقاه ففتح عينيه فرأى يوقنًّا وولده ولم يكن عنده علم بأن يوقنًّا قد أتى إلى هذا المحل ليحتال على الملك؛ فلما أن رآهما قال لهما: إن كنتما كافرين فقد سخركما الله لي حتى داويتماني! وإن كنتما مؤمنين فمرحبًا بكما وهنيئًا لكما ولعل الله ببركتكما يجمع

شملي بعجوز في الحجاز قد أعلَّها البكاء والعويل ليلًا ونهارًا من أجلي وأجل أختي خولة وهي في العسكر ولقد كانت تحسب هذا الحساب لأنني بقية من مضى لها من الأحباب ولقد خفي عليها خبري وأمري فإن قدرتما أن تبلغاها سلامي وتعلماها مقامي وكيف كان للكافرين كلامي فهي ترسل وتعلم أمي وتكاتبها بأمري فلما استراح في الليل قال بالله عليكما اكتبا عني ما أقول لكما فكتب عنه ابن يوقنَّا وهو يملي له ويكتب حرفًا بحرف شعرا:

ألا أيها الشخصان بالله بلِّغا ... سلامي إلى أهلي بمكة والحجر
تلقيتما ما عشتما ألف نعمة ... بعزٍّ وإقبال يدوم مع النصر
ولا ضاع عند الله ما تصنعانه ... فقد خف عني ما وجدت من الضر
بصنعكما لي نلت خيرًا وراحة ... كذلك فعل الخير بين الورى يجري
وما بي وايم الله موتي وإنَّما ... تركت عجوزًا في المهامة والقفر
ضعيفة حال ما لها من جلادة ... على نائبات الحادثات التي تجري
وإني أردت الله لا شيء غيره ... وجاهدت في جيش الملاعين بالسمر
وأرضيت خير الخلق أعني محمدًا ... لعلي أنال الفوز في موقف الحشر
فمن خاف يوم الحشر أرضى إلهه ... وقاتل عباد الصليب بني الكفر

كـذا جلـت يوم الحرب في كـل كـافر ... وجنـدلتـه بـالطعن في الكر والفر
تـقـول وقـد حـان الـفـراق لـحـيـنـه ... ألا يا أخي ما لي على البين من صبر
ألا يـا أخـي هـذا الـفـراق فـمـن لـنـا ... بحسن رجوع قـادم منـك بـالبشـر
إذا سـافر الإنسـان عن أرض أهله ... فـإمَّا رجوع أو هلاك مـدى الـدهر

قال الواقدي: لما كتب ابن يوقنًّا هذه الأبيات كتب أبوه يوقنًّا إلى أبي عبيدة يعلمه بما يريد أن يدبره وسلمه إلى رجل يثق به وبعثه إلى المسلمين.

حدثني جابر بن عمران الدوسي ونحن في أرض يقال لها البلاط إذ جاء معن بن أوس من آل مخزوم، ولقد تركه أبو عبيدة في المقدمة فجاء برجل من الروم فقال لأبي عبيدة: خذ هذا إليك فهو يزعم أنه رسول فاستخبره أبو عبيدة في السر. فقال: أنا رسول إليك بكتاب. فقال: ممن؟ قال: من يوقنًّا ومن أسير لكم بأنطاكية يقال له ضرار بن الأزور، فأخذ أبو عبيدة الكتاب وقرأه على من يعز عليه فبكوا من أبيات ضرار وبلغ الخبر أخته فأتت إلى أبي عبيدة وقالت: يا أمين الأمة أسمعني أبيات أخي فقرأ البعض عليها ولم يتمها فاسترجعت وقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فوالله لآخذن بثأره

إن شاء الله تعالى، وحفظ الناس أبيات ضرار وتداولوها بينهم فكان أشد الناس عليه حزنًا خالد بن الوليد.

عن دارم بن عياش أن أهل حازم فتحوا قلاعًا كثيرة وحصونًا منها الراوندات وما سواها من قورص وباسوطا، ولم يزل أبو عبيدة سائرًا بالمسلمين إلى أن نزل على جسر الحديد وبلغ الخبر هرقل فتمكن الخوف من قلبه وأمر بطارقته بالتأهب للقتال ونصب سرادقاته مما يلي جسر الحديد، وضربت الملوك خيامها، وفتح الملك هرقل خزائن السلاح وفرَّقها على رجاله وأبطاله وخلع على يوقنَّا وقال له: أيها الدمستق قد وليتك على جيشي هذا كله فكن أنت مدبره وسلم إليه صليبًا كان في بيعة القيسان لا يخرجونه إلا في الأيام العظام عندهم وقال له: أيها الدمستق قدِّم هذا الصليب بين يديك واعتمد على نصرته فهو ينصرك فأخذه وسلمه إلى ولده وأمره أن يحمله بين يديه.

فعندها ركب الملك هرقل إلى كنيسة القيسان ومعه الملوك والحجاب حتى يصلي صلاة النصر، فلما وصلوا وصلى الملك جلس وأمر بإحضار المائتين من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليقربهم قربانًا فقبَّل

يوقنَّا يده وقال له: يا عظيم الروم ما ولاك الله على البلاد والعباد إلا وقد علم أن عقلك يسع ذلك وقد قال ديسقور الحكيم: إن العقل مرقى جليل وصاحبه نبيل، لأنه عز الإنسان ومصباح الأنام، واعلم أيها الملك أن العرب قد قصدتنا بعددها وعديدها وقد نزلوا على جسر الحديد ولابد لنا من القتال والمصاف معهم ولا ندري على من تكون الدائرة، فإن قتلت هؤلاء الأسرى ووقع أحد منا بأيديهم فإنهم لا يبقون عليه، والصواب تركهم إلى أن نرى ما يؤول من أمرنا، فإن أسروا من أصحابنا أحدًا أو من أعياننا نفاديه، فقال أرباب الدولة: صدق الدمستق في قوله.

قال البترك: أيها الملك أحضرهم إلى هذه الكنيسة فإنها أحسن كنائس بلدنا وأمر النساء والبنات يتزين ويحضرن هنا فإذا هم نظروا إلى نسائنا وحسنهن وجمالهن وطيب رائحتهن مالت أنفسهم إليهن فيرجعون إلى ديننا فيكون ذلك وهنًا على المسلمين. فأمر بذلك، فلما حضروا رفعت القسوس أصواتهم بقراءة الإنجيل فرفع المسلمون أصواتهم بالتهليل والتكبير وقالوا: كذب الجاحدون وضلوا ضلالًا بعيدًا ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله. وكان في الأسرى

رجل من اليمن من فضلائهم وعلمائهم ممن علم علم الحميريين وقرأ الكتب السالفة وكان اسمه رفاعة بن زهير يقول الشعر وينظم الكلام وأنه لما نظر الكنيسة ملآنة بأهل الكفر ورآهم يعظمون الصلبان ويسجدون للصور قال: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله كذب العادلون عن الله أصحاب الشيطان ولا إله إلا الله الواحد الرحمن الذي ليس له أب محسوب، وأنه فرد صمد لا إلى شيء منسوب، ليس له ضد ولا ند ولا حد. أوجد الموجودات، وصوَّر المخلوقات، وخلق الكائنات، ودبر الأرض والسموات. أول لا افتتاح لوجوده، وآخر لا عدم لشهوده، لا يموت ولا يفنى، ولا يزول ولا يبلى، لا شريك له، ولا وزير له، ولا صاحب له، ولا مشير له، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. فاضطربت الكنيسة لقوله ومالت القسوس بعكاكيزها إليه فأشارت الحجاب إليهم أن لا يكلموه ويتركوه فتفرقوا عنه.

فقال له الملك هرقل: ما اسمك يا أخا العرب؟ قال: أيها الملك وما تريد من اسمي ولست من جنسكم فتستخبروني؟! فقال البترك: صدق أيها الملك ليس هو من جنسنا ولا له علم ولا خبرة فعلام تسأله إنما هو بدوي يعلم بسكنى

القفار وصحبة الأشرار والحكمة من بلادنا ظهرت، وفي حكمائنا اشتهرت، لأنها نبعت من اليونانيين ووعاها جدودنا السريانيون من أين للعرب حكمة يتوارثونها وعلوم يتدارسونها والفضائل كلها من علمائنا والعدل في ملوكنا؟! وإنّما تكلم البترك بهذا الكلام بين يدي هرقل وهو يظنُّ أنه يطعن في العرب ليسمع جبلة بن الأيهم حكمته، وكان جبلة وولده حاضرين؛ وكان بين البترك وبينه عداوة سببها أن البترك كان بنى له ديرًا عظيمًا وجعل له عيداُ في السنة تقصده الروم من كل مكان بالنذور والأموال والستور والشموع، وكان ذلك كله برسم البترك فأعطى الملك لجبلة تلك الأرض التي فيها الدير فتغلب جبلة على الدير وبنى حوله مدينة وسماها باسمه وهي جبلة هذه.

أخبرني يحيى بن عمارة بن أبي الحسن قال: لما سمع رفاعة بن مهير كلام البترك تبسم من قوله وقال: أيها البترك لقد مدحت أقوامًا ليس لهم إلى الفضل سبيل، ولا فيهم فاضل ولا نبيل، ولا من وحد الملك الجليل الذي ليس له مثيل ولا عديل، وما الفضل إلا لولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل، الذين لهم البيت الحرام وزمزم والمقام والمشعر الحرام، ومنهم التبابعة والأقيال والحماة

والأشبال الذين ملكوا الأرض في الطول والعرض، وقد ختم الله شرفنا ورفع قدرنا إذ جعل محمدًا – صلى الله عليه وسلم – منا فنحن السادة وأنتم العبيد.

قال الواقدي: وكان لرفاعة بن زهير الجرهمي ولد جاهل. وكان قد أسر معه وكان قلبه يميل إلى الكفر وكان رفاعة يدعو عليه، فلما حضر الأسارى في كنيسة القيسان واشتغل رفاعة مع البترك بالمناظرة أقبل ولد عامر يحدق بنظره إلى البيعة وزينتها وصورها وصلبانها ويتأمل نساء الروم وزينتهن فبادر إلى تقبيل الصلبان والإشراك بالرحمن، فلما رأى أبوه رفاعة ذلك بكى، وقال: يا ويلك أكفرت بعد الإيمان؟! يا ويلك طردت عن باب الرحمن، يا ويلك كفرت بالملك الديان؟! فقيل له: إن ولدك قد أغلق الباب عليه وأرخى الحجاب، فأمر به البترك فحل من الوثاق، وأمر به إلى جرن ماء المعمودية فغمسوه فيه، ودارت به القسوس والشمامسة وبخروه ووقعت عليه الخلع من البطارقة والملوك، ووهب له البترك مركبًا وجارية ومنزلًا وضمه إلى عسكر جبلة بن الأيهم. ثم قال البترك: يا هؤلاء ما منعكم أن تدخلوا في ديننا كما فعل صاحبكم؟ قالوا: منعنا من ذلك صحة ديننا وثبات يقيننا، وما نحن من الذين يبدِّلون إيمانهم

بالكفر ولو قتلنا! فقال لهم البترك: طردكم المسيح عن بابه وأبعدكم عن جنابه. فقال له رفاعة: الله يعلم أينا المطرود ومن هو عن رحمة ربه مبعود.

فقال هرقل: يا معاشر العرب قد وصل إلينا أن خليفتكم وأميركم يلبس مرقعة وقد وصل إليه من أموالنا وذخائرنا ما يكل عنه الوصف فما منعه أن يتزيا بزي الملوك؟! فقال رفاعة: يمنعه من ذلك طلب الآخرة والفزع من جبار الجبابرة. فقال هرقل: ما صفة دار إمارته؟ فقال رفاعة: مبنية بالطين خالية من الحُجاب آنسة بالفقراء والمساكين. قال: فما بساطه؟ قال:

العدل والتمكين. قال: فما سريره؟ قال: العقل واليقين، قال: فما بدلة ملكه؟ قال: الزهد والدين. قال: فما خزائنه؟ قال: الثقة برب العالمين. قال: فمن جنده؟ قال: أبطال الموحدين. أما علمت أيها الملك أن جماعته قالوا له: يا عمر قد ملكت كنوز القياصرة وذللت البطارقة والأكاسرة فهلا لبست ثيابًا فاخرة؟! قال: أنتم تريدون زينة الحياة الظاهرة، وأنا أريد رب الدنيا والآخرة، فلما أبدى هذا القول وأضمر أشار إليه منادي القدرة وبشر «الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ». ثم

إن الملك هرقل أمر بهم إلى السجن الذي هو في كنيسة القيسان وخرج إلى عسكره ليشرف على الخيام فرأى السرادقات قد ضربت لأن البطارقة ضربت سرادقاتها عند خيامه ونونية الملوك قد نصبت بإزاء كل نونية كنيسة من الخشب المدهون بسائر الأصانيع والنواقيس على أبوابها وكان زي الروم ذلك، وهذه البيع والخشب كانوا يتنافسون فيها وفي صنعتها وتكون معهم في أسفارهم وعساكرهم. وطاف هرقل على عسكره جميعه وأراد الدخول إلى أنطاكية وإذا بفوارس تركض إليه، فقالت لهم الحجاب وأصحاب السرير ما وراءكم؟ قالوا: مُلِكَ جسر الحديد منَّا وقد حصلت العرب على داخل الجسر. فأيقن الملك بزوال ملكه، وقال: وكيف ملكت العرب الجسر والبرجين وفيها ثلثمائة من البطارقة الشداد؟! قالوا: أيها الملك إن المقدم الذي على الأبراج هو الذي سلمهم.

قال الواقدي: ومن حسن لطف الله بالمسلمين أن صاحب الملك كان في كل يوم يمضي إلى الجسر ويوصي من في البرجين باليقظة والحرس الشديد وأنه مضى في بعض الأيام على عادته فوجدهم يشربون الخمر وليس عندهم

حفظ ولا حرس فأخذهم وضرب كبراءهم وهم بقتل مقدمهم. ثم إنه أمسك عنه خوف الملك فعمل الحقد في قلوبهم فجاءهم يوقنًّا في بعض الأيام يتجسس ليدبر فيه حيلة فرآهم حانقين من صاحب الملك فسألهم فأنكروا منه، فقال لهم: أطلعوني على خبركم، فقالوا له: أتعطينا منك أمانًا؟ فأعطاهم، فقالوا: نحن نسلم هذا الجسر للعرب. فلما صح عنده ذلك، قال لهم: ما مرادكم؟ قالوا: نأخذ أمانًا من المسلمين، فقال يوقنًّا: أنا أكتب لكم كتابًا إلى أميرهم بأن يعطيكم أمانًا، وإن دخلتم في دينهم فهو خير لكم! فقالوا له: وكيف أنت دخلت في دينهم. ثم رجعت، فقال: حاش لله وإنما أتيت أدبرهم على تسليم أنطاكية لهم، فلما صح عندهم ذلك. قالوا: ونحن نسلم إليهم الجسر، فلما وافقهم على ذلك كتموا أمرهم، فلما قدم المسلمون مضى إليهم صاحب الجسر من غير أن يعلم به أحد وأخذ له ولمن معه أمانًا وناوله كتاب يوقنًّا ففرح المسلمون بذلك بأن يأخذوا جسر الحديد من غير قتال فأعطوا للمقدم أمانًا، فلما وصل عسكر المسلمين إلى الباب الذي على الجسر فتح لهم فدخلوا، فلما سمع هرقل بذلك أمر الناس أن يتأهبوا للحرب ففعلوا ذلك.

عن منازل بن نزاف الصيدلاني وكان أعرف الناس بفتوح الشام قال: بلغني أنه لما صار المسلمون بأرض أنطاكية. قال أبو عبيدة لخالد: يا أبا سليمان قد صرنا بأرض أنطاكية بلد كلب الروم والساعة يأتينا عسكره فما ترى من الرأي؟ قال خالد: إن الله - سبحانه وتعالى - قال: «وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ»، فأمر أصحابك أن يتأهبوا ويظهروا زينة الإسلام وقوة الإيمان وسيِّر كل أمير بجيشه ولتكن الكتائب والمواكب يتلو بعضها بعضًا. ففعل أبو عبيدة ذلك، وأول من سيَّر سعيد بن زيد أحد العشرة ومعه ثلاثة آلاف فارس فيهم المهاجرون والأنصار وجعله على مقدمة الجيش، وسيَّر وراءه رافع بن عميرة الطائي ومعه ألف فارس، وسيَّر وراءه ميسرة بن مسروق العبسي في ثلاثة آلاف فارس، وسار وراءه خالد في جيش الزحف.

وسار وراءهم أبو عبيدة في بقية العسكر، وكان معه عمرو بن معد يكرب الزبيدي وذو الكلاع الحميري وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر ومثل هؤلاء السادات وسار وراءهم النساء اللاتي لهن الأسرى وفيهم خولة بنت الأزور وعفيرة ابنة عفان ومزروعة ابنة عملوق وأم أبان بنت عتبة وليس فيهم

أشد حزنًا من خولة بنت الأزور. فسار أبو عبيدة في مواكبه كما ذكرنا، فبينما الروم في خيامها وعسكرها إذ وقع فيهم الصائح بقدوم العرب، فركزوا خيولهم وصفوا صفوفهم، فأول من أشرف عليهم برايته سعيد بن زيد وبعده المسيب بن نجبة الفزاري، وبعده ميسرة بن مسروق العبسي، وبعده أتى خالد بن الوليد، وبعدهم أبو عبيدة في مواكبه، فنزل كل أمير بقومه فلما نظر هرقل إليهم وأنهم قد نزلوا بفنائه وبنائه ترك على حفظ جيشه صاحبه الأكبر «نسطاروس بن روميل» وكان من شجعان الروم، ودخل إلى كنيسة القيسان وجمع الملوك والبطارقة والسريرية والحجاب، وقام هرقل فيهم خطيبًا وقال: يا أهل دين النصرانية ويا بني ماء المعمودية قد قرب ما حذرتكم منه من زوال ملككم وذهاب عزكم من أرض سورية، وقد كنت حذرتكم من زوال ملككم ومن هذا المقام فلم تقبلوا مني وأردتم قتلي، وهؤلاء القوم قد دخلوا بدار ملككم ورياح عزكم فقاتلوا عن حريمكم وأموالكم وأنفسكم، وإياكم والفشل لا يلحقكم في الجهاد فقد جاهدت عنكم جهدي وأتلفت أموالي وخزائني ورجالي عن ديني وملككم، فلم تصادفني مساعدة، ولا أدركت من القوم فائدة!

فإن أنتم فشلتم وتقاعستم ولم تجردوا لهؤلاء العرب سيوف العزم، وإلا كان العار عليكم، والذلة تصل إليكم، أين أبناؤكم ومن سلف من آبائكم؟ ماتوا كرامًا غير لئام وسكنت ديارهم العرب اللئام، وكنائسهم صيروها جوامع، وأخربوا البيع والصوامع وأذلوا ملوككم واستعبدوا أبناءكم ونساءكم وملكوا قلاعكم واستولوا على حصونكم ومدائنكم، وقد مضى ما مضى فاستأنفوا الأمر وقاتلوا: فكم هلك من الأمم قبلكم على ممالكهم وعلى الغيرة على حريمهم، ولقد كانت حكمتي أنتجت لكم أن تنسجوا على منوال المصالحة بينكم وبين هؤلاء العرب فأبيتم ذلك، لأن ظلمة جهلكم قد أطفأت نور الحكمة. أما علمتم أنه قد وجد لوح من الحجر على قبر «طيماون تلميذ أفيانوس» وفيه مكتوب: الحكمة سلم العالم الأعلى، من عدمها فقد عدم القرب إلى بارئه، الحكمة حياة القلوب، وبغية الأذهان، ونزهة النفوس، ونور العقول، من لم يكن حكيمًا لم يزل سقيمًا، من تدبر نظر، ومن نظر عرف، ومن عرف عمل، ومن عمل انفتح ذهنه وعقله، ومن انفتح عقله صفت نفسه.

عن شهر بن عباس البيروتي أنَّ عمرًا حدَّثه عن نزول أبي عبيدة بالمسلمين على أنطاكية قال: وعظ هرقل قومه بكنيسة القيسان واستحلفهم أنهم لا ينهزمون أو يموتوا عن دم واحد فحلفوا وخرجوا مع الملك إلى عسكره، وقد رفعت الصلبان وقرأت القسوس والرهبان وارتفع الضجيج من أهل الكفر والطغيان واصطفوا للقتال، وكان المسلمون قد رتبوا صفوفهم وأوقفوا كل أمير في مكانه ونشرت الرايات والأعلام. قال الواقدي رحمه الله:...... كان أول من خرج من الروم للبراز شجاع الروم «نسطاروس بن روبيل» وهو كأنه برج من حديد، فلما توسط الميدان طلب البراز فخرج إليه دامس أبو الهول مولى بني طريف فاتح قلعة حلب، وهو يومئذ فارس غطريف فحملا على بعضهما، فلما اشتعلت نار الحرب بينهما عثر جواد دامس فسقط على ظهره فانقض عليه نسطاروس وأخذه أسيرًا ورجع إلى الميدان، فخرج عليه الضحاك بن حسان الطائي، وكان يشبه خالدًا في حملاته وخفَّته، فلما برز قال قائل من الروم -ممَّن شاهد قتال خالد في المواطن وعرفه-: هذا فارس الشام والمسلمين الذي فتح بلادنا! فصار كل من في أنطاكية ينظر إليه وهم يظنون أنه خالد، فازدحمت خيل

المشركين من كثرة النظر إليه فقطعت حبال السرادقات التي لنسطاروس وغيروا سريره!

فخاف الغلمان على أنفسهم وسرادقاته على ذلك وإذا رآها على تلك الحالة قتلهم، ولم يجدوا أحدًا يعينهم على رفع السرادق لأن كل من في العسكر مشغول بالفرجة على نسطاروس مع خصمه فاتفق اثنان من الفراشين وكانوا ثلاثة على حل دامس أبي الهول، وقالوا له: نحن نحلك من وثاقك وتعيننا على شيل عمود هذا السرادق ونعيدك إلى الوثاق، فإذا جاء البطريق نشفع فيك فإنه يخلي سبيلك. فقال: نعم فحلوه من وثاقه، فعندها قبض على الاثنين كل واحد بيد وضرب واحد بواحد فصرعهما فماتا فهجم على الثالث فقتله وفتح صندوقًا من الصناديق فوجد فيه ثياب نسطاروس فلبسها وركب من الطوالة جوادًا من خيارها وأخذ بيده قنطارية وسيفًا ولثَّم وجهه وقصد عسكر المتنصرة ووقف إلى جانب حازم بن عبد يغوث وهو ابن عم جبلة، وكان قدمه على عسكر المتنصرة وجبلة وولده وبنو عمه في موكب الملك.

قال الواقدي: ولم يزل القتال بين نسطاروس والضحاك بن حسان إلى أنْ كلَّ الجوادان ولم يقدر أحد منهما على صاحبه فافترقا، وعاد نسطاروس إلى سرادقاته ليستريح فوجد السرادق على الأرض والفراشين قتلى ولم ير دامسًا فعلم أن المصيبة من قبله فمضى إلى الملك وأعلمه بذلك، فقال: وحق المسيح ما هؤلاء العرب إلا شياطين! قال: وهرج العسكر بصنع أبي الهول، فقال الملك: هو الآن في عسكرنا وما رأيناه خرج وما هو إلا مختف في عسكر المتنصرة لأنه من جنسهم، فلما رأى دامس هرج عسكر الروم، وأن ذلك بسببه انتضى سيفه على حين غفلة وضرب به حازم بن عبد يغوث فرمى رأسه عن بدنه فبهتت المتنصرة من فعله وأمسك الله عنه أيديهم ودهشوا لذلك وأطلق جواده وطلب عسكر المسلمين، فلما رأوه صاحوا بالتهليل والتكبير فأتى إلى أبي عبيدة وأخبره بما وقع له مع القوم. فقال: لا شلت يداك. قال: وبلغ الخبر جبلة من قتل ابن عمه حازم فغضب وأتى إلى هرقل وصقع له، وقال: يا عظيم الروم أنا لا أقدر على الصبر ولابد لنا من الحملة على هؤلاء الذين قد تعدوا طورهم وجهلوا قدرهم!

فأراد الملك أن يأمرهم بالحملة، وإذا قد أقبلت عليه خيل تركض، فقال لهم: ما وراءكم؟ قالوا: أيها الملك إنه قد قدم إلى نصرتك «فلنطانوس بن سطانيوس بن أرمونيا» صاحب المدائن وورومية الكبرى وقد اختار من جيشه في رومية ثلاثين ألفًا وهم الكرجية وولى في موضعه ولده «استفليوس». وركب الملك هرقل في موكبه إلى لقائه وضربت سرادقاته بازاء سرادقات هرقل وفرحت الروم وتفاءلت بالنصر وضربت النواقيس ووقعت ضجة عظيمة في جيوشهم وارتفعت أصواتهم وجاءت عيون المسلمين فأخبروهم بقدوم صاحب رومية فرفع أبو عبيدة كفه إلى السماء، وقال: اللهم إن أعداءك يستنصرون علينا بكثرة عددهم وتزايد مددهم فشتت كلمتهم ودمر جيوشهم وزلزل أقدامهم وعسر أيامهم واجعل كلمتنا العليا وكلمتهم السفلى وانصرنا كنصر نبيك - صلى الله عليه وسلم - في يوم الأحزاب: اللهم رد كيدهم في نحرهم وانصرنا عليهم قال: وأمنت المسلمون على دعائه.

عن جعفر بن ميسرة قال: قال لي عمي لما قدم صاحب رومية بجنوده خاف المسلمون ولكن ثبتهم الله وبعث أبو عبيدة معاذ بن جبل ومعه ثلاثة آلاف وقال

له: يا صاحب رسول الله إن الروم قد تجمعت من سواحل البحر لنصرة دينها فانهض وشن الغارات على بلاد السواحل واحتفظ أن تؤتى المسلمون من قبلك! ففعل ذلك معاذ وسار إلى جبلة واللاذقية فاحتوش أموالها، وأخذ غنائمها، ووجد على باب جبلة عنان بن جرهم الغساني ابن عم جبلة بن الأيهم ومعه ألف دابة محملة بُرًا وشعيرًا لعسكر الكفر، وقد جمعها من طرابلس وعكا وصور وصيدا وقيسارية وقد بعث بها قسطنطين بن هرقل إلى أبيه، فلما وصلت مدينة جبلة سلمها العرب المتنصرة لابن عم جبلة وعادوا فوقع بها معاذ – رضي الله عنه – فأخذها ورجع قافلاً إلى عسكر المسلمين، فلما رأوها رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير!

فسأل هرقل عن ذلك فأخبروه بما وقع فغضب على أخذ الميرة التي تتقوت بها عسكر أعدائه. فقال لبطارقته ما بقي بيننا وبين هؤلاء إلا المصاف ويعطي الله النصر لمن يشاء. ثم إنه أمر عساكره بالأهبة للقتال ثم إنه ركب وإلى جانبه فلنطانوس صاحب رومية وصاحب مرعش وصاحب قلعة اسكبادنيس وهي قلعة الروم وصاحب طرطوس وصاحب مصيصة وصاحب قونية وصاحب

ماصر وصاحب اقصرا وصاحب قيسارية الروم الأقصى وصاحب قوماط وصاحب انطرانه وصاحب طبرزند وجبلة بن الأيهم. وأقبل يوقنَّا يرتب الصفوف في الحرب، فلما وقف كل ملك بجيشه وكل بطريق بأصحابه؛ أراد فلنطانوس ملك رومية أن يتقرب إلى هرقل بمبارزة العرب فصقع له على قربوس سرجه وقال: أيها الملك ما تركت ملكي وأتيت إلى خدمتك من مائتي فرسخ إلا حتى أرضي المسيح وأخدمه بين يديك وأن كل عسكرك قد قاتلوا وجاهدوا وأريد أن أبرز في هذا اليوم إلى هؤلاء المحمديين وأشفي فؤادك وفؤادي منهم! فأراد الملك أن يطيب قلبه فقال له: الزم مكانك ولا تخرق بحرمتك وحشمتك حشمة الملوك فأنت أقدم مني في المملكة فدع غيرك يكون لهذا الأمر فما بلغ من شأن العرب أن تخرج أنت إليهم بنفسك.

فقال فلنطانوس: أيها الملك وأي حشمة بقيت لنا مع هؤلاء وقد أهملوا عزنا وأذلوا أعز ديننا والجهاد مفروض على كبيرنا وصغيرنا، أما علمت أيها الملك أنه لما علم القديم الأزلي بركون أنفسكم المحجوبة بحجاب الغفلة إلى طلب ما يفنى سلط عليكم أضعف أمة قد أخرجتكم من دياركم وأبعدتكم عن

أوطانكم، وما ذاك إلا لخلودكم إلى الأهواء الجاذبة إلى مهاويكم وإلى إدراك المهالك لأنكم حكمتم بغير الحق واجترأتم على الرعية بطلبكم منهم ما ليس لكم بحق، والجور في أخذ أموالهم وفساد أحوالهم وكثرة الزنا واتباع الخنا فلأجل ذلك لم تنصروا، ودارت دائرة السوء عليكم!

فتكلم صاحب الملك هرقل الكبير واسمه سروند وصاح عليه وقال له أيها السيد لا تحمل على قلب الملك من كلامك ما لا يطيق في مثل هذه الساعة، فقد وعظه من هو أكبر منك فلم يسمع قوله. قال فغضب فلنطانوس من صياح الحاجب عليه وكتم أمره إلى الليل، فلما مضى من الليل ربعه طلب حجابه وخواصه، وقال لهم: أرضيتم أن يزعق عليَّ حاجب هرقل ويوبخني بين الملوك وأنتم تعلمون أن بيتي أعظم من بيته ونسبه أدنى من نسبي وملكي أقدم من ملكه!! ولقد قال قسيس حكيم بلاد الذكر المشهور بحكمته: لا تسع بقدمك إلى من يراك دونه فتصغر عنده واجعل عز نفسك في مقابلة كبرياء عجبه، فإن عزة النفوس تقابل جاه الملوك ولا تصنع صنيعك لغير مستحقه لأنها تجلب عليك السوء من قبل ذلك، فإن ذلك الإحسان لا يزكو إلا عند ذوي الأصول

فإنه يندمج عند السفهاء والأرذال لا تصنع إليهم النصيحة، فإنك أنت تطلب منفعته وهو يريد هوى نفسه بأذيتك وقد جئنا من مائتي فرسخ وأكثر إلى خدمة رجل يرى أننا قد قصدنا داره وتاج عزِّه وأننا نحن من جملة خدمه!

وقد عوَّلت أن أسير إلى هؤلاء العرب واختبر ملتهم فإنها هي الملة الواضحة بالحق المؤيدة بالصدق، ومن كان عليها أمن في معاده من الهول الأكبر فما أنتم قائلون؟ قالوا: أيها الملك وكيف تطيب نفسك بترك دينك وملكك وعزك وتتبع هؤلاء وهم لا فضل لهم ولا عندهم حكمة؟! فقال فلنطانوس: أما الحكمة البالغة فعندهم مقرها وفي نفوسهم موطنها..... فلما سمعوا قوله قالوا: أيها الملك نحن ما نمنعك من عز دائم يخرجنا من الذل ومهانة الغلبة، فإذا كنت تطلب بنا طريقًا يؤدي إلى البقاء ويذهب بالشقاء فالحق اتباع الحق ونفي الباطل فنحن لك وبين يديك. قال: فخذوا على أنفسكم فإذا كانت ليلة غد ركبنا كأنَّا نطوف حول البيت نحرسه ونطلب جيش العرب. ففعلوا ذلك وأخذ فلنطانوس في أمره.

عن أبي موسى الأشعري قال: لما عزم فلنطانوس أن يسير إلى جيش المسلمين أتى إليه يوقنًّا برسالة الملك هرقل، فلما أدى الرسالة وهمَّ بالقيام قال له فلنطانوس: من أنت من الحجاب؟ قال: أنا يوقنًّا صاحب حلب. قال: وكيف تركت بلدك؟ قال: استولت عليها العرب وحدَّثه بحديثه. فقال فلنطانوس: وما الذي ظهر لك من هؤلاء العرب؟ قال: أيها الملك إني دخلت في دينهم واطلعت على أمرهم وكشفت سرهم فرأيت القوم لا يستمعون إلى الباطل ولا يحيدون عن الحق ولا ينامون الليل من كثرة اجتهادهم ولا يتكلمون بغير ذكر ربهم ينصفون المظلوم من الظالم ويواسي غنيهم فقيرهم، الأمراء منهم في زي المساكين، والعزيز والذليل عندهم سواء. فقال له فلنطانوس: فإذا وقفت على سرهم ورأيت فضلهم فما منعك أن تقيم عندهم وبينهم؟! فقال يوقنًّا: منعني من ذلك صحة ديني وصحبة قومي لأني لم أر فراقهم. قال فلنطانوس: إن النفوس الزكية الباقية إذا رأت الحق جذبها جاذب اليقين إلى حضرة طلب الإخلاص من المعيشة الذميمة إلى أن ترقى إلى أعلى عليين. فخرج يوقنًّا وقد رسخ كلام فلنطانوس في قلبه، فقال: والله ما تكلم بشيء إلا وهو منقوش على صفحة صدري وكلامه يشهد بقبول عقله لصحة دين الإسلام! وأقام يوقنًّا على

قلق من ذلك حتى أقبل الليل فأتى إلى فلنطانوس فرآه وهو على نية الركوب إلى ما ذكرناه، فلما وقف بين يديه صقع له. فقال له فلنطانوس: بأي حجاب حجب الله الظالمين عن اتباع سبيل المتقين فالحق واضح لمن طلبه والباطل خفي عمن اتبعه؟! فقال يوقنًّا: أيها الملك ما معنى هذا الكلام الذي أشرت إليه؟ فقال: لو أنك رأيت بعين البصيرة لما رجعت عن ملتهم ولا أردت بدلًا غيرهم وإنما أنت طلبت نعيمًا يؤول إلى الزوال ويفضي بصاحبه إلى النكال.

فسكت يوقنًّا وخرج من عنده وجعل يتجسس عليه ومضى ووقف على الطريق الذي يمضي إلى المسلمين فركب فلنطانوس وخرج من سرادقه فوجد بني عمه قد أخذوا أهبتهم وهم أربعة آلاف فارس وقدموا عزمهم وساروا يدًا واحدة يطلبون جيش الموحدين وقد تركوا عزهم وفارقوا دينهم، فلما قربوا من جيش المسلمين ظهر لهم يوقنًّا وبنو عمه المائتان. فقال يوقنًّا لفلنطانوس: أيها الملك عوَّلت على أن تكبس المسلمين؟ فقال: لا والقديم الأزلي وإنما أنا قاصد إليهم وداخل في دينهم وملتهم وأكون من جملتهم، فمن نظر إلى الدنيا بعين الفناء عمل للآخرة فما الذي يمنعك يا يوقنًّا مما نحن عوَّلنا عليه؟!

فقال يوقنَّا: أيها الملك لقد جذبك جاذب الحق عن طريق الضلال ثم إنه حدثه بحديثه وأنه عازم على أن يغدر بالروم فقبَّله فلنطانوس وفرح بمقالته، وقال له: كيف تقدر على ذلك وما أرى معك إلا نفرًا يسيرًا؟ فقال: أيها الملك إن في داخل بيتي مائتين من المسلمين من أكابر أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في مقام عشرين ألفًا من الروم! ولقد رأيت أن تعود أنت وقومك ولا تستعجل ونبعث رجلًا إلى أمير المسلمين يخبره بما نحن معوَّلون عليه فإذا كان غدًا تقف أنت وجيشك حول الملك هرقل وأدخل أنا البلد وأطلق المائتي أسير وأعطيهم سلاحًا، ويحمل جيش العرب، وتحمل أنت وعسكرك على موكب هرقل وتقصده بنفسك فتقبض عليه وتكون قد جاهدت، وأسير أنا ومن معي في داخل البلد فنملكها إن شاء الله تعالى. وإن أردت أن ترجع إلى دار ملكك ويكون أمرك مكتومًا علينا فحوِّل أمر جيشك لمن تثق به من بني عمك. قال فلنطانوس: ما فعلت هذا ولي نية في ملكي ولا في ملك الدنيا، بل إذا قضي هذا الأمر ونصر الإسلام قصدت مكة فأحج وأزور قبر النبي – صلى الله عليه وسلم –، ثم أرجع إلى بيت المقدس فأقيم فيه إلى أن أموت، فمن يذهب إلى أمير العرب برسالتي ويخبرهم بما قد عوَّلنا عليه؟ فقال له يوقنَّا: اعلم أن لهم

عندنا عيونًا وجواسيس ممن هم تحت ذمتهم وأنا أعلمهم بما قد وقع. فبينما هم في الكلام تحت ستر الليل وإذا بشيخ قصد إليهما فتأمله يوقنًّا فإذا هو عمرو بن أمية الضمري ساعي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسلم على يوقنًّا وعلى من معه، وقال ليوقنًّا: إن الأمير أبا عبيدة يقول لك: جزاك الله خيرًا عن الإسلام وإنه رأى في المنام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول: «يا أبا عبيدة أبشر برضوان الله ورحمته وغدًا تفتح أنطاكية صلحًا وإن صاحب رومية والمدائن الكبرى قد جرى من أمره كيت وكيت هو ويوقنًّا صاحب حلب وهما بالقرب منك فأنفذ إليهما بنجاز الأمر» فتهلل وجه فلنطانوس فرحًا واقشعر جلده وارتعدت فرائصه وقال: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، وأشهد أن هذا الدين هو الحق اليقين!

ثم إنهم عادوا وطافوا بجيش الملك كأنهم يحرسون! فبينما قد ذهب يوقنًّا بأصحابه من عند صاحب رومية وقد قوي عزمهم على ما ذكرنا من أمر كبسهم الملك، إذا بالحاجب قد لقيه والمشاعل بين يديه وقد خرج من أنطاكية، ومعه ضرار بن الأزور ورفاعة بن زهير والمائتا أسير، وقد عوَّل على قتلهم وأن يرمي

غدًا برؤوسهم إلى المسلمين! فلما سمع يوقنًّا ذلك ضاقت الدنيا عليه وقال له: أيها الحاجب الكبير أنت تعلم أن المصاف غدًا واقع بيننا وبينهم فإن أنتم قتلتم هؤلاء ورميت برؤوسهم إلى المسلمين فإنهم لا يقعون بأحد منًّا فيبقون عليه فاتق الله ولا تعجل بذلك ودعهم عندي وراجع الملك في أمرهم إلى أن نرى ما يؤول أمرهم إليه. قال: فتركهم الحاجب عند يوقنًّا ومضى إلى الملك وأخبره بما قال يوقنًّا. فقال له: دعهم عند الدمستق فرجع إليه وقال له: الملك يقول لك احتفظ عليهم فأمرهم لك، فأخذهم يوقنًّا وسار بهم إلى خيمته وصعب عليه إخراجهم من أنطاكية لأنه كان قد عوَّل على أن يملك بهم البلد، فلما حلوا في خيمته حلهم من الوثاق وسلم إليهم العدد وأخبرهم بما قد عزم عليه هو وصاحب رومية من القبض على الملك هرقل. فقال ضرار: والله لأرضين الرب غدًا بجهادنا، وكانت قد ختمت جراحاته لأنه كان في الأسر ثمانية أشهر، وفرقهم مع بني عمه.

قال الواقدي: حدثنا أبو محمد عن سعيد بن أبي مريم عن يحيى بن أيوب عن عبد الله بن مسعود أن الذي أمر بإخراج الأسرى لم يكن هرقل وإنما كان

مملوكه الخاص واسمه تاليس بن ربنوس وكان قد ألبسه تاجه ومنطقته وكان أشبه الخلق به وقال له: كن غدًا مكاني فإني أريد أن أكيد العرب وأكمن خلفهم وما ذاك إلا أنه رأى في نومه كأن شخصًا قد نزل من السماء وقلبه عن سريره وكأن تاجه قد طار من على رأسه، وكأن شخصًا يقول له: قد قرب ما بعد وقد زال ملكك من سورية وقد ذهبت دولة الشقاق والنفاق وجاءت دولة الوفاق! وكأن ذلك الشخص قد نفخ في عسكره فأوقد نارًا! فاستيقظ مرعوبًا وفسَّر منامه على نفسه بزوال ملكه، وكان قبل نزول العرب قد عبى خزائنه وجمع ما يخاف عليه من التحف ووضعها في المراكب من حيث لا يعلم بذلك أحد من دولته وعبى الزاد والماء، ثم إنه أرسل أهل بيته في تلك الليلة بعدما رأى في المنام ولم يدع من حريمه وأولاده وعياله أحدًا وبعده أمر مملوكه تاليس بن ربنوس بما أمره أن يفعله. فلما ركب تاليس ما كان من أمره إلا أن قال للحاجب أخرج الأسارى واضرب رقابهم، فأخرجهم وأخذهم يوقنًّا كما وصفنا.

قال الواقدي: وأما ما كان من أمر تاليس، فإنه لما أصبح ركب ورتب عساكر الروم عن آخرها ودارت المواكب حوله، وكان كل من رآه يظن أنه هرقل ولا

يشك فيه ودار بمواكبه عسكر فلنطانوس صاحب رومية وركب يوقنَّا ومن معه وهم متنكرون تحت السلاح، فكان أول من حمل خالد بن الوليد بجيش الزحف، وتبعه سعيد بن زيد ثم قيس بن هبيرة ثم ميسرة ثم عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وذو الكلاع الحميري وأمثالهم وأطبق الناس بعضهم على بعض! فلما اشتبكت الحرب هجم يوقنَّا ومن معه، وحمل ضرار فلله دره لقد أعطى السيف حقه وأخذ بثأره من الروم، وكلما قتل واحدًا صاح: واثارات أسر ضرار بن الأزور! وكان قد قصد عسكر المتنصرة هو وأصحابه ورفاعة بن زهير يشجعهم ويوبخهم ويقول: خذوا بثأركم ممن أسركم واحملوا، وإياكم أن تفشلوا واعلموا أن الجنة قد فتحت أبوابها! ثم صاح: يا فتيان العرب أيكم يرغب في زواج الحور فإن بذل النفوس هي المهور؟! من يريد عرشًا في الجنان ويقوم في خدمته الولدان؟! من يرغب فيما قال الملك الديان «مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ»؟!

قال الواقدي: فبينما ضرار يحمل في الأعداء ويذيقهم شراب الردى وإذا هو بفارس يطحطح الكتائب ويفرِّق المواكب ويصيح واثارات ضرار بن الأزور،

فتأمله فإذا هو أخته خولة فناداها: «دارك يا بنت الأزور أنا والله أخوك»، فأقبلت لتسلم عليه فقال لها: إليك عنِّي ما هذا وقت سلام! وإن قتال الكفر أفضل من كلامك يا بنت الأزور فاجعلي عنانك مع عناني وسنانك مع سناني وجاهدي في سبيل الله، فإن قتل أحدنا فالملتقى في الحشر عند حوض سيد البشر، فبينما هم في ذلك إذ نظر إلى جيوش الروم وقد تقهقرت وفرسانهم قد انهزمت، وكان السبب في ذلك أن صاحب رومية -رحمه الله- لما رأى الحرب قد أضرمت نيرانها وعلا دخانها حمل بأصحابه وقصد تاليس بن رينوس فقبض عليه وهو يظن أنه هرقل فصاح الصائح: إن الملك هرقل قد قبض عليه فلنطانوس ملك رومية وغدر به فولَّت الروم الأدبار، وقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة لم يقتل مثلها إلا بأجنادين واليرموك، وقتل من العرب المتنصرة زهاء من اثني عشر ألفًا وطلب جبلة ولده فلم ير لهم خبرًا فقيل إنهم وأكابر قومهم ركبوا مع الملك هرقل في المراكب، وكان جملة من هرب من سادات المتنصرة مع جبلة وابنه خمسمائة فسكنوا جزائر البحر فمن نسلهم هذه الإفرنج.

قال: وأخذ المسلمون ما كان من السرادقات والخيام والديباج والمتاع والخزائن وأسروا ثلاثين ألفًا، وقتلوا من الروم سبعين ألفًا، وولت العرب المتنصرة منهزمين، فمنهم من أخذ نحو الدروب ومنهم من طلب قيسارية إلى قسطنطين بن هرقل! فلما وضعت الحرب أوزارها وخمدت نارها جمعوا الأموال والأثقال والأسرى بين يدي أبي عبيدة، فلما نظر إلى ذلك سجد لله شكرًا وسلم المسلمون بعضهم على بعض، وجاء ضرار وأصحابه ويوقنَّا وفلنطانوس وأصحابهما وسلموا على المسلمين وفرحوا بهم، فلما وصل فلنطانوس قام إليه المسلمون وقال كبار الصحابة: سمعنا نبينا - صلى الله عليه وسلم - يقول: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه». فنظر فلنطانوس إلى تواضعهم وحسن سيرتهم وكثرة عبادتهم فقال: هؤلاء والله القوم الذين بشر بهم عيسى - عليه السلام -، فأسلم بنو عمه عن آخرهم، وبعدها مضى فلنطانوس إلى مكة فحج، وزار قبر النبي المختار - صلى الله عليه وسلم -، وسلم على عمر - رضي الله عنه -، فلما رآه وثب إليه قائمًا وصافحه هو وجميع المسلمين، وعاد إلى بيت المقدس فجلس يعبد الله فيه حتى أتاه اليقين.

قال الواقدي: ونظر أبو عبيدة إلى جيش أنطاكية وقد تحصنوا فيها وهم لا يحصون فقال: اللهم اجعل لنا إلى فتحها من سبيل وافتح لنا فتحًا مبينًا. قال: وكان على أنطاكية بطريق اسمه صليب بن مرقس، وكان جاهلًا في رأيه فعزم على القتال من داخل السور فاجتمع أكابر البلد إلى البترك في الليل وقالوا له: اخرج إلى هؤلاء العرب وصالح بيننا وبينهم على ما تقدر عليه. قال: فخرج البترك إلى أبي عبيدة وحدثه في الصلح فأجابه إلى ذلك، فكان جملة ما صالح عليه أهل أنطاكية ثلثمائة ألف مثقال من الذهب! فلما تقرر الصلح قال له أبو عبيدة: احلف لنا أنَّكم لا تغدرون بنا فإن مدينتكم مانعة كثيرة الجبال والوعر. فقال خالد: ومن يحلِّفه؟ فقال أبو عبيدة: يوقنًّا. فوضع يوقنًّا يده على رأس البترك فوق يده وقال: قل والله والله والله أربعين مرة،...... إننا لا نغدر بكم ولا كنَّا إلا معكم. فعندها قام أبو عبيدة ودخل أنطاكية وكان دخوله لخمسة أيام مضين من شعبان سنة ١٧ من الهجرة فدخلها وبين يديه اللواء الذي عقده له أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – وعن يمينه خالد بن الوليد وعن يساره ميسرة بن مسروق ودخلها والقراء بين يديه يقرؤون سورة الفتح، فلم يزل سائرًا حتى

وصل إلى باب الجنان فنزل هناك وخط هناك مسجدًا وأمر ببنائه وبه يعرف إلى يومنا هذا.

قال ميسرة بن مسروق فنظرنا إلى بلد رطب طيب الهواء كثير الماء والخيرات، فاستطابه المسلمون ووددنا لو أقمنا فيه شهرًا لنستريح، فما تركنا أبو عبيدة فيه غير ثلاثة أيام، ثم إنه كتب إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: سلام عليك وإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، وأصلى على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - وأشكره على ما فتح علينا ورزقنا من الغنيمة والنصر وأعلمك يا أمير المؤمنين أن الله - عز وجل - قد فتح على المسلمين كرسي النصرانية -مدينة أنطاكية-، وكسر الله عسكرها، ونصرنا الله عليهم وهرب هرقل في البحر وإنِّي لم أقم بها لطيب هوائها، وإنِّي خشيت على المسلمين أن يغلب حب الدنيا على قلوبهم فيقطعهم عن طاعة ربهم، وإنِّي معوَّل على المسير إلى حلب وإنِّي منتظر أمرك، فإن أمرتني أن أسير إلى داخل الدروب فعلت، وإن أمرتني بالمقام أقمت، واعلم يا أمير المؤمنين أن العرب قد نظرت إلى بنات الروم فدعتهم أنفسهم إلى التزوج فمنعتهم من ذلك، وإنِّي أخشى عليهم

الفتنة -إلا من عصمه الله-، فعجل إليَّ بأمرك والسلام عليك وعلى جميع المسلمين. وطوى الكتاب وختمه.

وقال: معاشر المسلمين من يسير بكتابي هذا إلى أمير المؤمنين؟ فأسرع بالإجابة زيد بن موهب مولى عمير بن سعيد مولى عمرو بن عوف، فقال: أنا أيها الأمير أوصله إن شاء الله تعالى، فقال أبو عبيدة: يا زيد أنت لست مالك نفسك، فإن أردت المسير فسل مولاك أن يأذن لك في ذلك! فأسرع زيد إلى مولاه عمير فانكب على يديه يقبلهما فمنعه من ذلك، وذلك أن عميرًا كان رجلًا زاهدًا في الدنيا راغبًا في الآخرة ما يملك من الدنيا سوى سيفه ورمحه وفرسه وبعيره ومزادته وقصعته ومصحفه، وكان الذي يصيبه من الغنائم لا يدخر منه ولا يأخذ إلا ما يقوته، وكان يفرق الباقي على قرابته وقومه، فإن فاض شيء يرسله إلى عمر - رضي الله عنه - يفرقه على فقراء المسلمين المهاجرين والأنصار. فلما أراد زيد أن يقبل يد سيده منعه، وقال له: ما الذي تريد؟ فقال: يا مولاي تأذن لي أن أكون رسولًا للمسلمين بشيرًا إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -. فقال عمير بن سعيد: تريد أن تكون بشيرًا للمسلمين وأمنعك

من ذلك. إني إذًا لآثم، امض فأنت حر لوجه الله تعالى، وأرجو بعتقك أن يجيرني الله من النار. ففرح زيد بذلك وعاد إلى أبي عبيدة فأخبره أن ببركة كتابه صار حرًا فسر أبو عبيدة وسار زيد على نجيب من نجب اليمن دفعه إليه وكان سابقًا. فجعل زيد يطلب أقرب الطرق حتى قدم المدينة ودخلها، وإذا بها ضجة عظيمة ولأهلها ضجيج وهم يهرعون نحو البقيع وقباء، فقلت لنفسي: إنَّ لهم أمرًا فتبعتهم لأرى ما شأنهم وأنا أحسب أنهم يريدون حربًا فرأيت رجلًا فعرفته فسلمت عليه فعرفني، وقال: أنت زيد؟ قلت: نعم. قال: الله أكبر ما وراءك يا زيد؟ قلت: البشارة والغنيمة والفتح.

قلت: ما فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب؟ قال: إنه خارج يريد الحج ومعه أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - يحج بهن والناس يشيعونه. قال زيد: فأنخت بعيري وعقلته وأسرعت مهرولًا حتى وقفت بين يدي عمر - رضي الله عنه - وهو يمشي راجلًا ووراءه مولاه يقود بعيره وقد رحله بعباءة قطوانية وزاده وجفنته عليه، والهوادج بين يديه سائرة، وعن يمينه علي بن أبي طالب، وعن يساره العباس بن عبد المطلب، ومن ورائه المهاجرون والأنصار

وهو يوصيهم بالمدينة. فلما وقفت بين يديه ناديت: السلام عليك يا أمير المؤمنين أنا زيد بن وهب مولى عمير بن سعيد أتيتك بشيرًا. قال عمر: بشرك الله بخير فما بشارتك؟ قلت: هذا كتاب من عاملك أبي عبيدة يخبرك أن الله قد فتح على يديه أنطاكية. فلما سمع عمر ذكر أنطاكية وأن الله فتحها خرَّ لله ساجدًا يمرغ خديه على التراب، ثم إنه رفع رأسه من سجوده وقد تترب وجهه وشيبته، وهو يقول: اللهم لك الحمد والشكر على نعمك السابغة، ثم قال: هات الكتاب رحمك الله فناولته إياه، فلما قرأه بكى، فقال له عليٌّ كرم الله وجهه: مم بكاؤك؟! قال: مما صنع أبو عبيدة بالمسلمين وبما استعقب رأيه في الموحدين، ثم قال: إن النفس لأمارة بالسوء ودفع الكتاب إلى عليٍّ فقرأه على المسلمين إلى آخره.

قال زيد بن وهب: ثم رأيت عمرًا قد هدأ من بكائه، وقد زاد فرحه وأقبل عليَّ وقال: يا زيد إذا عدت فأمعن النظر في أتيانها وأعنابها واحمد الله كثيرًا، فقلت: يا أمير المؤمنين ليس هذا أوانه! ثم جلس عمر على الأرض ودعا بدواة وقرطاس وكتب إلى أبي عبيدة كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد

الله عمر إلى عامله بالشام أبي عبيدة عامر بن الجراح، سلام عليك وإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه، وأشكره على ما وهب من النصر للمسلمين، وجعل العاقبة للمتقين ولم يزل بنا لطيفًا معينًا. وأما قولك لم نقم بأنطاكية لطيبها، فإن الله - عز وجل - لم يحرم الطيبات على المؤمنين الذين يعملون الصالحات، فقال: «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا»، وقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ»، فكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون في مطعمهم ويريحون أبدانهم من نصب القتال مع من كفر بالله، وأما قولك إنك منتظر أمري فالذي آمرك به أن تدخل وراء العدو وتفتح الدروب فإنك الشاهد وأنا الغائب، وقد يرى الشاهد ما لا يراه الغائب، وأنت بحضرة عدوك وعيونك تأتيك بالأخبار، فإن رأيت أن دخولك إلى الدروب بالمسلمين صواب فابعث إليهم بالسرايا وادخل معهم إلى بلادهم وضيق عليهم المسالك، ومن طلب منك الصلح فصالحهم ووفِّ لهم بما تقدر.

وأما قولك إنَّ العرب أبصرت نساء الروم فرغبت في التزوج، فمن أحبَّ ذلك فدعه إن لم يكن له أهل بالحجاز، ومن أراد أن يشتري الإماء فدعه فإنَّ ذلك أصون لفروجهم وأعف لنفوسهم! وما تحتاج أن أوصيك في أمر فلنطانوس صاحب رومية أوسع عليه في النفقة وعلى من معه فإنه قد فارق أهله وملكه وأمره ونهيه والسلام عليك وعلى جميع المسلمين. وطوى الكتاب ودفعه لزيد بن وهب، وقال له: انطلق رحمك الله وأشرك عمر في ثوابك! فأخذ زيد الكتاب وهمَّ أن يسير فأمره أن يقف، وقال له: على رسلك حتى يزودك عمر من قوته، ثم أناخ راحلته وأخرج له تمرًا وأعطاه صاع تمر وصاع سويق وقال: يا زيد اعذر عمرًا فهذا ما أمكنه! ثم إنَّ عمر قبَّل رأس زيد بن وهب فبكى زيد، وقال: يا أمير المؤمنين أَوَبَلَغَ من قدري أن تقبَّل رأسي وأنت أمير المؤمنين وصاحب سيد المرسلين، وقد ختم الله بك الأربعين!! فبكى عمر وقال: أرجو أن يغفر الله لعمر بشهادتك. قال زيد بن وهب: فاستويت على كور ناقتي وهممت بالمسير فسمعته يقول: اللهم احمله عليها بالسلامة واطو له البعيد وسهل له القريب إنك على شيء قدير.

قال زيد بن وهب: ففرحت بدعوة عمر - رضي الله عنه - وعلمت أن الله لا يرد دعوته إذ كان لربه طائعًا ولنبيه تابعًا، فجعلت أسير والأرض تطوى لي تحت أخفاف مطيتي فكنت والله في اليوم الثالث عند أبي عبيدة، وقد رحل عن أنطاكية وقد نزلت على حازم. فلما وصلت إلى عساكر المسلمين سمعت ضجة وجلبة وقد ارتفعت الأصوات فسألت رجلًا من أهل اليمن: ما سبب ذلك؟ قال: فرحًا بما فتح الله على المسلمين. وهذا خالد قد أتى وكان قد ضرب على شاطئ الفرات وأغار بخيله، وقد صالحه أهل منبج وبزاعة وبالس وأتى برجالهم وأموالهم وافتتحها صلحًا، في العشر الأوسط من المحرم سنة ثماني عشرة من الهجرة وصالحهم بعد رد أموالهم على مائة ألف وخمسين ألف دينار وأخذها بعد أن نزل صاحبهم جرفناس وسار بأموالهم وعبيده وخيوله إلى بلاد الروم وولى على منبج عباد بن رافع التميمي، وعلى الجسر نجم بن مفرج، وولى على بزاعة أوس بن خالد الرابعي، وعلى بالس بادر بن عوف الحميري، وبنى له بها قلعة إلى جانب بالس من الشرق وسماها باسمه، وعاد خالد بالأموال والأثقال يوم قدوم زيد بن وهب. قال: فأتيت أبا عبيدة وهو جالس وخالد إلى جانبه، وقد قدم مال الصلح فأنخت ناقتي وسلمت عليهم ودفعت

الكتاب إلى أبي عبيدة ففضه وقرأه على المسلمين، فلما سمعت المسلمون ما فيه. قال أبو عبيدة: معاشر المسلمين إن أمير المؤمنين قد جعل أمر الدخول إلى الدروب إليَّ، وقال: أنت الشاهد وأنا الغائب وأنا لا أفعل شيئًا إلا برأيكم فما تشيرون عليَّ أن أفعل رحمكم الله؟ فلم يجبه أحد، وأعاد القول ثانية فلم يجبه أحد، والله أعلم.

ذكر غزوة مرج القبائل داخل الدروب

فقال أبو عبيدة: معاشر المسلمين هذا الشام قد ملكتموه وملككم الله إياه وأخرج عدوكم منه بالذل والهوان، وأورثكم أرضهم وديارهم، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز، فما تشيرون به عليَّ؟ أندخل في هذه الدروب وراء أعدائنا؟ فلم يجبه أحد فأعاد كلامه، ثم قال: ما هذا السكوت؟! أفشل بكم بعد الشجاعة، أم كسل بعد النشاط؟! أم قد انتقيتم من الحسنات ولم يبق عليكم من الذنوب، وإن الحسنات لكم كثيرة، ولم يبق لديكم خطيئة؟! فالرغبة إلى الله أن يعينكم على الجهاد، فهو خير لكم من الدنيا وما فيها!

فكان أول من تكلم ميسرة بن مسروق العبسي، فقال: أيها الأمير إنا لم نسكت لجزع لحقنا ولا لفزع رهقنا، وإنما بعضنا ينتظر بعضًا إجلالًا وأدبًا، واعلم أيها الأمير أنه ما لنا تجارة ولا عمل غير الجهاد في أعداء الله، وها نحن لك وبين يديك، ومنك الأمر ومنا الطاعة لله ولرسوله ولك، وأما أنا فلا أملك إلا نفسي فوجهني حيث شئت تجدني طائعًا! فقال أبو عبيدة: معاشر المسلمين من له رأي وحضرته مشورة فليقلها ويظهر ما عنده، فقال خالد: أيها الأمير إن إقامتنا عن طلب القوم وهن وعجز منا في ديننا وطلبهم هو الغنيمة، والنصر من عند الله، والذي أشير به أيها الأمير أن تبعث الجيوش في كل درب من هذه الدروب؛ فإن ذلك يوهن العدو وتقر به أعين المسلمين. فجزَّاه أبو عبيدة خيرًا، وقال: يا أبا سليمان! إني قد رأيت أن أعقد لميسرة عقدًا وأسير معه رجالًا لأنه هو أول من سارع إلى هذا الأمر وأشار به، فيفتح الله لهم الدروب ويغير على ما قرب من البلاد، ويرجع فيخبرنا عن خبرها فنعمل على حسب ما نرى. فقال خالد: هذا الصواب.

فعقد لميسرة وانتخب له من القبائل ثلاثة آلاف فارس من الشجعان وألف عبد من السودان، وجعل من كل قبيلة نقيبًا، وجعل على العبيد دامسًا أبا الهول، وقال: فلبسوا أكمل السلاح وكل منهم يقول إنه يلقى الكتيبة وحده، وجعل أمير القوم ميسرة، وقال أبو عبيدة: يا أبا الهول كن أنت بجماعتك في أوائل العسكر ولا تخالف ميسرة فيما أشار به، فإنه مبارك الطلعة. فقال: سمعًا وطاعة. وتجهز القوم. ثم إن خالدًا قال: أيها الأمير أرسل معهم أدلاء يعرفونهم الطريق ويكونون لهم عيونًا على أعدائهم، فطلب لهم من أهل حلب من المعاهدين من يكون ناصحًا لهم، فاختاروا لهم أربعة وأعطاهم أبو عبيدة وأحسن إليهم وطرح عنهم الجزية، وقال لهم: في أي درب يكون دخول المسلمين في طلب العدو؟ فاجتمع رأيهم على أن يدخلوا في الدرب الأعظم من بلد «قورص». ثم إنهم قالوا: أيها الأمير إن هذه الدروب ليست كمثل البلاد التي فتحتموها بل هي بلاد شديدة البرد، كثيرة الشجر والمدر والحجر، وفيها مضايق وشعاب وأودية وكهوف وعقبات، فقال أهل اليمن: سيروا أنتم أمامنا فإنكم ترون منا عجبًا، فسار أبو الهول والمعاهدون أمامه، وسار ميسرة في أعقابهم بعدما ودعوا الناس

ومضوا وهم بالتهليل والتكبير وقراءة القرآن، والمسلمون يدعون لهم بالنصر والسلامة.

قال عطاء بن جعيدة: وسرنا والدليل أمامنا حتى أتينا عقبة «حنداس» فقطعناها، وعبرنا نحو «الساجور» وأتينا «قورص» فنزلنا فيها وبتنا، فلما أصبحنا ودخلنا الدروب وجدنا بها أرضًا وعرةً وأشجارًا ومياهًا جاريةً ومضايق ليس للفرس فيها مجال، فهالنا وحشة ذلك المكان إذ ليس للعرب فيه مجال ولا فسحة، فقلت في خاطري: إن طالت علينا هذه الأودية خشيت على المسلمين أن يظفر بهم عدوهم، والأدلاء أمام المسلمين، وقد تعلقوا في جبال شامخة صعبة الصعود فلم يبق أحد إلا وترجل عن فرسه! ومشينا حتى تقطعت نعالنا وسال الدم من أرجلنا، فلم نزل على ذلك ثلاثة أيام والأدلاء يقولون لنا: كونوا على يقظة، فإن أخذ عليكم المجاز هلكتم، فلما كان في اليوم الرابع خرجنا إلى أرض واسعة، وكان دخولنا إلى بلاد الروم في أول الصيف ونحن مخففون من الثياب ولما دخلنا إلى تلك الأرض وجدنا بردًا كثيرًا، ونظرنا إلى الثلج وهو على الجبال عن يميننا وشمالنا. وكان دامس أبو الهول لم يأخذ معه

ثيابًا تدفئه فحصل له من البرد فقال الدليل: يا أبا الهول ما لي أراك ترتعد؟ فقال: أخذني البرد وليس معي ما يدفئني. فدفع إليه فروة فلبسها فدفئ. فقال: كساك الله من ثياب الجنة.

قال الواقدي: وساروا إلى أن وصلوا إلى أرض طيبة كثيرة المياه قليلة الشجر فنزلوا فيها، ثم إنهم ساروا فلم يروا أحدًا لأن الروم كانوا قد نزحوا عن البلاد لحذرهم من المسلمين. فلما كان في اليوم الخامس ونحن سائرون إذ لاحت لنا قرية فقصدها المسلمون... وإذا هي خالية ولكن سمعوا أصوات الديوك والغنم فدخلوها فلم يجدوا عندها مانعًا ولا دافعًا فعرفنا أنهم تواروا عنَّا فصاح ميسرة، وقال: خذوا حذركم فإن القوم قد انهزموا. فدخل الناس إلى القرية فأخذوا ما كان فيها من طعام وأثاث ومتاع. قال سعيد بن عامر: فرأيت أبا الهول، وهو يحمل على عاتقه ثلاثة أكسية وقطعتين. فقلت له: يا أبا الهول ما هذا؟ فقال: أستعد به لبرد هذه البلاد الخبيثة فما أنساها أبدًا. وأخذوا ما كان في القرية من طعام وعلوفة وساروا إلى أن وصلوا إلى مرج يقال له مرج القبائل، وهو مرج واسع، فانبعثت الخيل فيه يمينًا وشمالًا ونزل الجيش هناك، وميسرة

يراود نفسه في الرجوع إلى حلب، وذلك أن أبا عبيدة كان قد أمره أن لا يبطئ عنه، وأن يكون حذرًا.

فبينما هو كذلك والخيل منبثة والناس آمنون من عدو يدهمهم، إذ أقبل بعض الخيالة ومعه علج يقوده. فلما وصل إلى ميسرة، قال له: ما شأن هذا ومن أين أخذته؟ فقال: اعلم أيها الأمير أنِّي سبقت أصحابي فرأيت شخصًا يلوح مرة ويختفي مرة فأسرعت إليه، فإذا هو هذا فأتيته وسقته إليك. فتقدم إليه رجل من المعاهدين فسأله فحدَّثه فأطال معه الكلام والناس سكوت، فلما أطال، قال ميسرة: ويلك ما الذي يقول هذا العلج؟ فقال: أيها الأمير إنه يقول إن الملك هرقل لما ركب البحر وخرج من أنطاكية ووصل إلى قسطنطينية قصدته الروم من كل مكان من المنهزمين وغيرهم، وبلغه أن أنطاكية قد فتحت صلحًا وأنه قتل من كان فيها من المقاتلة فصعب عليه وبكى ثم قال: «السلام عليك يا أرض سوريا إلى يوم اللقاء»، وقد تجمع عنده من البطارقة والحجاب وغيرهم خلق كثير، فقال لهم: إنِّي أخاف من العرب أن ترسل في طلبنا. ثم إنه جهز ثلاثين ألفًا مع ثلاثة بطارقة وأمرهم أن يحفظوا له الدروب. فقال له ميسرة: قل له كم بيننا

وبينهم؟ قال: يقول لكم فرسخان. فلما سمع ذلك ميسرة أطرق إلى الأرض لا يرد جوابًا ولا يبدي خطابًا.

فقال له رجل من آل سهم يقال له عبد الله بن حذافة السهمي، وكان من أبطال الموحدين وشجعانهم، وكان له عمود من حديد، لا يقل في الحرب سواه وكان ذميم الخلقة، فقال لميسرة بن مسروق: ما لي أراك أيها الأمير مطرقًا إلى الأرض إطراق الحصان لصلصلة اللجام والرجل منا يقابل ألفًا من الروم؟! فقال: والله يا عبد الله ما أطرقت خوفًا ولا جزعًا، ولكن خوفًا على المسلمين أن يصابوا تحت رايتي وهي أول راية دخلت الدروب فيلومني عمر بن الخطاب، وكل راع مسؤول عن رعيته. فقال المسلمون: والله ما نبالي بالموت ولا نفكر في الفوت لأننا قد بعنا أنفسنا بجنة ربنا ومن يعلم أنه ينقل من دار الفناء إلى دار البقاء فلا يبالي بما وصل إليه من الكفار، ثم إنه قال: أيها الناس أترون أن نلقاهم في موضعنا هذا أو نسير إليهم؟ فسألوا المعاهد، وقالوا: إن كان موضعهم أفسح من هذا رحنا إليهم. فقال: ليس في هذه البلاد بعد عمورية أفسح من هذا المكان، فإن عوَّلتم على لقائهم فاثبتوا مكانكم، وإن عدتم إلى ورائكم

كان خيرًا لكم من قبل أن يشرف عليكم عدوكم. فعرض ميسرة على العلج الإسلام فأبى، فضرب عنقه. فبينما هم على ذلك إذ أشرفت عليهم الروم فنزلوا بإزائهم وكانوا كالجراد المنتشر. وكان قد مضى النهار فأضرمت النيران.

فلما أصبح الصبح صلى ميسرة بالناس صلاة الفجر، فلما فرغ قام في الناس خطيبًا، فقال: أيها الناس هذا يوم له ما بعده، وإن رايتكم هذه أول راية دخلت الدروب، واعلموا أن إخوانكم مطاولون لفعلكم، واعلموا أن الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر واسمعوا ما قال نبينا - صلى الله عليه وسلم -: «الجنة تحت ظلال السيوف» ولا تنظروا إلى قلتكم وكثرة أعدائكم، فقد قال تعالى: «كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ». فقال المسلمون: اركب بنا يا ميسرة على بركة الله والقهم بنا، وإنا لنرجو من الله النصر عليهم.

فاستبشر بقولهم وركبوا وانفصلت العبيد من العرب ووقفوا تحت راية أبي الهول وأخذوا على أنفسهم قتال عدوهم واستنصروا بربهم، وميسرة يوصيهم، وجعل على الميمنة عبد الله بن حذافة السهمي وعلى الميسرة سعد بن أبي سعيد الحنفي وقدَّم العبيد مع أبي الهول فلم ينطق بكلمة، وركب جيش الروم

ومدوا صفوفهم ثلاثة صفوف كل صف عشرة آلاف وأمامهم الصلبان وهم في عددهم وعديدهم، فلما استوت الصفوف خرج رجل من الروم من المتنصرة وقرب من المسلمين، وقال: إن الباغي بغيه يرديه، أما كفاكم ما ملكتموه من الشام العظيم حتى اقتحمتم هذه الجبال؟! وإنما ساقتكم الآجال وهنا ثلاثون ألف عنان، وقد حلفوا بالصلبان أن كلًا منهم لا ينهزم وإن وقع «ميتا»، فإن أردتم أن نبقي عليكم فاستسلموا للأسر حتى يحكم الملك هرقل فيكم بما يريد.

فخرج أبو الهول والراية بيده، وقال له: صدقت في قولك إن الباغي يرديه بغيه. وأما قولك: إنا نلقي إليكم بأيدينا لتبقوا علينا فأنت إذًا باغ بقولك هذا إذ نطقت بغير تجربة منكم وها أنا عبد من عبيد العرب لا قدر لي ولا قيمة عند ذوي الرتب فاقرب مني حتى أجندلك صريعًا تخور في دمك، ثم إن دامسًا همز حصانه إليه وطعنه فأرداه عن فرسه قتيلًا. ثم جال على فلوه وهز رايته، وقال: الله أكبر فتح الله ونصر وجاءنا بالظفر. ونظرت الروم إلى أبي الهول، وقد قتل صاحبهم وكان من شجعانهم، فغضبوا لذلك فخرج إليه آخر فما تركه يقرب منه حتى طعنه في نحره فأخرج السنان من ظهره. ونظر الروم إلى ذلك، فقالوا: هذا

عبد من عبيد العرب قد فعل ما ترون! فلم يجسر أحد أن يخرج إليه فأغار عليهم وقتل من القلب واحدًا ورجع. فحمل عليه صف من الصفوف وهم عشرة آلاف ودهموه بالخيل فحمل العبيد وحمل المسلمون والتقى الجمعان. قال ميسرة: فلله در العبيد لقد أبلوا بلاءً حسنًا واستنقذوا أبا الهول من عين الهلاك وهم يقولون: «نحن عبيد لعباد الله، وضربنا مثل الحريق في سبيل الله، ونقتل من كفر بالله»، ولم تزل الحرب بينهم حتى قامت الشمس في قبة الفلك وحمي عليهم الحر وافترق الجمعان. والمسلمون موقنون بالظفر والنصر، والروم قد أيقنوا بالهلاك، وقد قتل منهم زهاء من ألف وأسر تسعمائة.

فلما انفصل الجمعان افتقد المسلمون أبا الهول فلم يجدوه، فقال ميسرة: إن كان أبو الهول قد قتل أو أسر فقد أصبنا به وإلى الله تعالى أشكو ما أصبنا من فقد أبي الهول! وأسر من المسلمين عشرة. ثم إن ميسرة قال: من فيكم يكشف لنا خبرهم؟ وإذا بالروم قد عادوا للقتال وحملوا بأجمعهم فقاتلوا قتالًا شديدًا فكان الرجل من المسلمين يجتمع عليه العشرة والعشرون والخمسون إلى أن يقتلوه أو يأسروه وكانت العرب في أربعة آلاف والروم في ثلاثين ألفًا، فعظمت

بينهم الحرب وهاج الطعن والضرب، فلله در ميسرة بن مسروق العبسي، لقد جاهد في الله حق جهاده وهو مع ذلك ينادي: أيها الناس اذكروا الدار الآخرة واعلموا أنها أقرب لأحدكم من رجوعه لأهله، فاستقبلوها استقبال الوالدة لولدها ولا تولوا الأدبار عنها، فإن أصاب القوم منا فإني أخشى أن ذلك وهن بنا. ثم إنه نادى: حطموا أجفرة سيوفكم فذلك طريق النجاة. فلم يبق أحد من المسلمين حتى رمى بجفير سيفه، فلما رأت الروم ذلك فعلوا مثلنا ورمى كل منهم بجفير سيفه. وسميت تلك الواقعة باسمين: «وقعة مرج القبائل» و«وقعة الحطمة»، لأجل حطم أغمدة السيوف. واقتتلوا حتى أن الرجل يقول إن سيفه ما بقي يقطع، والمسلمون يبتهلون إلى الله والكفار تعبئ بكلمة كفرهم. والمسلمون يطلبون الفرج من الله، والسودان تقاتل قتال الموت! وكان شعار العرب في ذلك اليوم النصر النصر، وشعار السودان يا محمد يا محمد. قال ابن ثابت: وكنت قد أخذني القلق على المسلمين، ونحن في ركب عظيم إذ سمعت في الروم ضجة هائلة وإذا بهم يقاتلون أناسًا من ورائهم وهم في وسط عسكرهم والزعقات منهم قد علت وسمعت قائلًا يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. فقلت: هذه أصوات الملائكة فاتبعت الصوت، فإذا هو صوت دامس أبي

الهول، وهو بارك تحت حجفته ومعه العشرة المأسورين وهم يقاتلون معه ويحمون بعضهم إلى أن خلصوا من بينهم، وسمعته يقول هذه الأبيات:

يوثقني الأعداء في الحديد | وناصري وسيدي المبيدِ
مهلك عاد وبني ثمود | أغاثني بعونه الشديد
محمد الطاهر الرشيد | فحل عني القيد والحديد
ذاك رسول الملك المجيد | صلى عليه الناصر الحميد

فحمل المسلمون وكشفوا عنهم فخرجوا وكأنهم قد غرقوا في بحر دم، ووالله ما قتل من المسلمين أكثر من خمسين رجلًا بواحد أو باثنين، وقتل من المشركين نيف عن ثلاثة آلاف غير ما قتله أبو الهول وأصحابه في وسط عسكر الكفر. فلما نظر ميسرة إلى دامس أراد أن يترجل إليه فأقسم عليه أن لا يفعل وافترق الجيشان فضم ميسرة دامس إلى صدره وقبَّله بين عينيه وقال له: كيف كان أمركم؟ قال: اعلم أيها الأمير أن الروم كانوا قد تكاثروا على فرسي فقتلوه ووقعت فأخذوني أسيرًا وجعلوني في الحديد وفعلوا بأصحابي مثلي وقد أيسنا من أنفسنا، فلما جن الليل رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو يقول: «لا بأس عليك يا دامس اعلم أن منزلتي عند الله عظيمة»، ثم إنه أمرَّ يده الكريمة

على الحديد فسقط مني وفعل ذلك مع أصحابي وقال لنا: «أبشروا بنصر الله فأنا نبيكم محمد رسول الله». وقال لي: «أقرئ عني ميسرة السلام وقل له جزاك الله خيرًا»، ثم غاب عني فانتبهت فوجدت الموكلين بنا نيامًا مما لحقهم من التعب وقد رموا سلاحهم فأخذنا سيوفهم وطوارقهم وقتلناهم وحملنا فيهم ونصرنا الله عليهم ببركة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقتلنا منهم من قتلنا، وخرجنا من بينهم سالمين وهذا حديثنا. فضج المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير.

النَّجدة

قال الواقدي: ثم إن بطريق الروم كان اسمه «جارس»، فلما رأى ما قد حل بأصحابه قال: وحق المسيح خاب ملك أنتم حماته، فإن لم تقاتلوا بعزم وشدة وإلا قتلتكم! فتحالفوا أن لا ينهزموا أو يقتلوا عن آخرهم! فلما وثق منهم أمر أن تضرم النيران على شواهق الجبال وأمر أن ينفذ النفير إلى البلاد بأسرها، فأتت إليه الروم من كل جانب فأتى إليه عشرون ألفًا، ولكن المسلمين لم يكترثوا بذلك. فلما كان الغد صلى ميسرة بالمسلمين صلاة الخوف وهو أول

من صلاها داخل الدروب، وأول راية دخلت كانت رايته، فلما فرغ من صلاته قام في الناس خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه وقال: أيها الناس اثبتوا لما نزل بكم فالصبر عند نزول المصائب، وهذه رحمة من الله لنا إذ نحن في صدور الأعداء وقد دارت بنا هذه الجيوش، ونحن لا نقاتل إلا بنصر الله لنا وأن الأمير أبا عبيدة كان قد أمرني أن لا أبعد بكم عنهم ولنا منهم الآن سبعة أيام وما يظن أبو عبيدة أننا نلاقي جيشًا.

فقال له سعيد بن زيد: يا ميسرة ما الذي تريد بهذا الكلام؟ إن كنت تريد أن تحرِّضنا فنحن أشوق إلى لقاء الله من الظمآن إلى الماء البارد. فقال ميسرة: ما أردت بذلك إلا مشورتكم، وقد رأيت أن ننفذ إلى أمير المسلمين رجلًا نعلمه بما قد بلينا به وأن مدد القوم يزيد فلعله ينجدنا بإخواننا. فقال سعيد: نعم ما قد أشرت به. فدعا برجل من الأربعة المعاهدين ووعده بكل خير وأمره أن يأخذ معه آخر وأن يسير إلى أبي عبيدة ويعلمه أن نفير القوم قد لحقنا من الحصون والقرى وسائر البلاد، وقد نزلوا بإزائنا وأن يحدِّثه بما قد رأى. فسار المعاهد والرجل إلى حلب وأجهدا نفسيهما في السير في طرق يعرفانها إلى أن وصلا

جيش المسلمين فسقطا كأنهما البغال الهرمة من شدة السير والتعب، فأمروا أن يرشق عليهما الماء، فلما أفاقا قال لهما: ما وراءكما أَهَلَكت الكتيبة؟ قالا: لا والله ولكن نفر عليهم العدو من كل مكان... وأخبراه بما كان من الحرب والقتال وكيف حطموا أجفرة سيوفهم وكيف أسر أبو الهول وكيف خلص وما هم فيه. فقلق أبو عبيدة عند ذلك وقام مسرعًا وأتى قبة خالد بن الوليد فوجده يصلح درعه، فلما رآه قام إليه قائمًا وقال له: خيرًا أيها الأمير فأخذ بيده وسار به إلى أن أتى رحله وقال للرجلين: قوما فحدثا الأمير بما عاينتما فحدثاه بما كان من أمر المسلمين. فقال خالد: إن الله - سبحانه وتعالى - منذ نصرنا ما خذلنا فلله الحمد على ذلك وقد أمرنا بالصبر على الشدائد فقال عزَّ من قائل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»، وقال: «إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ». وأما أنا فأحبس على الجهاد في سبيل الله ولا أبخل على الله ورسوله فلعل الله أن ينجيني من النار ويرزقني الشهادة! ثم أسرع إلى خيمته ولبس لأمته وقلنسوته المباركة وركب جواده، فوقع النفير في الناس. قال: فأقبلوا من كل جانب فلولا أن منعهم أبو عبيدة كانوا ساروا بأجمعهم. فانتخب منهم ثلاثة آلاف فارس وأردفهم بألفين آخرين.

عن عياض عمَّن حدثه قال: لما سار خالد بالجيش لمعونة ميسرة بن مسروق ومن معه، رفع خالد يديه إلى السماء وقال: «اللهم اجعل لنا إليهم سبيلًا واطو لنا البعيد ويسر لنا كل صعب شديد»، وسار نحو الدروب. وأما أبو عبيدة فقد سجد سجدة أطال فيها، وقال: «اللهم إني أسألك بمن جعلت اسمه مع اسمك وعرَّفت فضله لأنبيائك ورسلك إلا طويت لهم البعيد، وسهلت لهم كل صعب شديد، وألحقتهم بأصحابهم يا قريب يا مجيب». وأما ميسرة ومن معه فإنهم دارت بهم الروم من كل جانب وهم يقاتلون في كل يوم أشد القتال إلى أن يقبل الظلام فيفترقون، وفي كل يوم يزيد عددهم وملأهم وقد لحق المسلمون من التعب والجراح ما لحقهم ولكن من غير فشل، وكأنهم قوم قد حجب عنهم الموت بإذن الله تعالى.

عن سليمان بن عامر الأنصاري قال: كنت مع ميسرة في وقعة مرج القبائل ويوم حطمنا أغمدة السيوف والروم تقبل من كل جانب ومكان إلى المسلمين ونحن نباكر القتال ونروح رواحًا! فخرج يومًا من الأيام بطريق من الروم قد لبس درعين وعليه سواعد من الحديد وعلى رأسه بيضة تلمع فوقها صليب من

الجوهر وبيده عمود من الحديد كأنه ذراع بعير فجال بين الصفوف وطلب البراز وكان أحد الثلاثة المقدمين على الثلاثين ألفًا. فجعل يدعو إلى البراز ويطمطم، فقال ميسرة للترجمان: ما يقول هذا الأغلف؟ قال: إنه يذكر أنه فارس شديد ويطلب شجعانكم وأبطالكم. فقال ميسرة: من يبرز إليه؟ فأسرع إليه رجل من المسلمين من قبيلة النخع وعليه درع من دروع الروم وثياب من ثيابهم. فقلنا: إنه من المتنصرة وقد عاد إلى الإسلام. فجعل العلج يتكلم وهو يظن أنه يفهم كلامه، فلما رآه لا يبرز إليه حمل عليه وضربه بعموده فزاغ النخعي عنها وعطلها عليه فوقع العمود على رأس جواده فصرع الجواد براكبه، وسار النخعي على قدميه فناداه ميسرة: يا أخا النخع ارجع، فرجع القهقرى والعلج يطلبه، والنخعي راجل والعلج فارس، فسار إليه عبد الله بن حذافة السهمي وصاح بالعلج فأدهشه، فالتفت إليه وسار النخعي إلى أن وصل عسكر المسلمين. وحمل عبد الله بن حذافة على العلج وحمل العلج عليه وصعب بينهما المجال وصار عبد الله كلما ضرب العلج لا يقطع فيه شيئًا والعلج كلما ضرب عبد الله يأخذها بحجفته فتوهن ساعده من ثقل العمود وطال بينهما القتال والتقيا بضربتين فبادر عبد الله بالضربة تحت لحيته فطلب بها نحره فلحق

رأس سيفه رقبة العلج فطار رأسه عن بدنه، وأراد الفرس أن يرجع إلى عسكر الروم فأخذه عبد الله ونزل إليه وأخذ سلبه ورجع إلى المسلمين فعظم ذلك على الروم وكان عندهم وعند الملك معظَّمًا! فبرز بطريق آخر وقال: هذا صاحب الملك قد قتل ولابد لي من أخذ ثأره من الذي قتله إما بقتله أو أسره وأبعث به إلى الملك يصنع به ما يريد. ثم أنه أتى البطريق المقتول ورأسه طائح عن بدنه فبكى عليه وقال بلسان فصيح: معاشر العرب لاشك أن الله سيهلككم ببغيكم علينا وفعالكم بنا فليبرز إليَّ قاتل هذا البطريق حتى آخذ منه بثأره. فلما همَّ عبد الله بن حذافة بالخروج منعه ميسرة شفقة عليه لأجل راحته فإنه تعب، وأراد أن يلقاه بنفسه. فقال عبد الله: يدعوني أيها الأمير باسمي وأتخلف، إنني إذًا لعاجز! فقال له ميسرة إنني أشفق عليك. فقال عبد الله: أتشفق عليَّ من تعب الدنيا ولا تشفق عليَّ من حر النار؟!

ثم برز إليه وتحته فرس المقتول وما غيَّر من لأمته شيئًا وبيده سيفه وحجفته، فلما التقيا ورأى البطريق فرس صاحبه علم أنه قاتله فلم يمهله حتى نفر إليه وحمل على عبد الله كأنه جبل قد انهدَّ من علو وتشبث به وجذبه فأخذه

أسيرًا وذهب به إلى قومه وقال: «أوثقوه بالحديد واحملوه على خيل البريد واذهبوا به إلى الملك في هذه الساعة»، ففعلوا ذلك وساروا به، ورجع البطريق إلى الميدان وهو يفتخر بما صنع فأراده ثلاثة من المسلمين كل منهم يريد أن يخرج إليه فقال ميسرة: ما يخرج لهذا اللعين غيري واستدعى سعيد بن زيد وسلم الراية إليه، وقال له: كن للراية حافظًا حتى أخرج إلى هذا اللعين، فإن عدت أخذتها، وإن قتلني فأجري على الله. فأخذ سعيد الراية وخرج ميسرة إلى البطريق، وهو يقول:

قد علم المهيمن الجبار ... بأن قلبي قد كويَ بالنار

على الفتى القائم بالأسحار ... سيعلم العلج أخو الأشرار

أني منه آخذ بالثأر

وحمل عليه وتجاولا طويلًا وعظم الأمر بينهما وتدانيا وتقاربا وتباعدا وغابا عن الأبصار تحت الغبار وكل فرقة تنظر إلى صاحبها وتدعو له، ثم انكشفا وهما للتفرق أقرب منهما للتقارب فقال العلج لميسرة: بحق دينك ما هذه الراية التي طلعت من وراء عسكركم فلم يلتفت إلى كلامه بل قال له: «وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ» (إبراهيم:٢٠)، فقال: وحق ديني ما قلت إلا حقًا -وهو

يحلف كاذبًا- فالتفت ميسرة لحرصه أن يأتي الله بالفرج وينظر تحقيق ما قاله اللعين فحمل البطريق عليه ومكنَّ يده منه ليأخذه أسيرًا، وإذا قد طلعت راية وهي مشرقة بالنور وهي في يد خالد بن الوليد. وكبر المسلمون تكبيرة واحدة فمن عِظم تكبيرهم ارتجت يد العلج فقبض عليه ميسرة وهمَّ أن يقلعه فلم يقدر لأنه كان مرفلًا في السرج، فجعل يجذبه فلم يقدر وقرب خالد منهما، فرفع البطريق سيفه يريد أن يضرب به ميسرة ليطلقه من يده فحاد السيف عن ميسرة ووقع على يد العلج الشمال فقطعها، وانتخع ميسرة، وانثنى البطريق إلى أصحابه ويده مقطوعة وهو يئن فالتقى به غلمانه فأخذوه وكووه، وأما خالد فإنه التقى بميسرة وتسالما وحدثه بما وقع له من الروم وكيف أسروا عبد الله بن حذافة السهمي فتأسف خالد واسترجع وقال يؤسر مثل عبد الله بن حذافة والله لا يفارقهم خالد أو يخلصه إن شاء الله تعالى.

وأقام خالد بقية ذلك اليوم، فلما كان من الغد أتاهم من جيش الروم شيخ وعليه مسوح السواد حتى وقف بإزائهم وأومأ بالسجود فمنعه خالد، وقال: ما الذي تريد؟ قال: إن كبير هؤلاء القوم يريد صلحكم ويطلق أسيركم ويدفع ما

تريدون وترجعون. فقال خالد: ما نرجع إلا على انفصال، وأما الأسير فإذا لم تطلقوه طوعًا أطلقتموه كرهًا. قال: أنت أمير هؤلاء؟ قال: نعم. قال: وإن رأيت أن تؤخر القتال بقية يومنا هذا وليلتنا فافعل لندبر ما بيننا وبينكم ويبرد وجع هذا البطريق ونجيبكم إلى ما تريدون. قال له: أجبناكم إلى ذلك. فرجع الشيخ إلى قومه، وقال للبطريق: قد أجابوا ووضعت الحرب أوزارها، ونزل خالد والمسلمون بإزائهم في أماكنهم، وأضرم الروم النيران وزادوا فيها وحملوا أثقالهم وساروا من أول الليل، فلما كان الغد ركب المسلمون فلم يجدوا للروم أثرًا فعلموا أنهم قد ولوا الأدبار. فتأسف خالد على ما فاته فأراد أن يتبعهم فمنعه ميسرة، وقال له: إنها بلادهم وهي وعرة وإن الصواب رجوعنا إلى عسكر المسلمين. فأخذوا ما تركه الروم ورجعوا منصورين ولكنهم حزينون على أسر عبد الله بن حذافة السهمي وساروا حتى أتوا حلب فلقيهم أبو عبيدة وفرح بسلامتهم، وأقبل ميسرة يحدثه بما جرى لهم وكيف أسر عبد الله بن حذافة، فتأسف عليه، وقال: اللهم اجعل له من أمره فرجًا ومخرجًا. وكتب إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يخبره بما وقع له من أمر السرية إلى الدروب وما كان من المسلمين وأخبره بأسر عبد الله بن حذافة وبعث الكتاب.

كتاب عمر

فلما وصل الكتاب إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فرح بسلامة المسلمين واغتمَّ على عبد الله بن حذافة وأسره لأنه كان يحبه حبًا شديدًا، فقال:... لأكتبن إلى هرقل بأن يرسل عبد الله بن حذافة، فإن لم يفعل وإلا سرت إليه بالجيوش والعساكر. ثم إنه كتب: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، وصلى الله على نبيه محمد المؤيد، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين. أما بعد، فإذا وصل إليك كتابي هذا فابعث إليَّ بالأسير الذي عندك وهو عبد الله بن حذافة. فإن فعلت ذلك رجوت لك الهداية، وإن أبيت بعثت إليك رجالًا -وأي رجال-؟! رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، والسلام على من اتبع الهدى وخشي عواقب الردى. ثم إنه طوى الكتاب وبعث به إلى أبي عبيدة وأمره أن ينفذه إلى هرقل. فلما وصل الكتاب إلى هرقل، قال له: من أين كتابك هذا؟ قال: من أمير المؤمنين أمير العرب. فقرأه، فإذا هو من عند عمر بن الخطاب. فدعا بعبد الله بن حذافة إليه. قال عبد الله بن حذافة: فدخلت عليه والتاج على رأسه والبطارقة حوله، فلما وقفت بين يديه، قال لي: من أنت؟ قلت: رجل من المسلمين من قريش. قال:

أنت من بيت نبيك؟ قلت: لا أنا من بني عمه. قال: هل لك أن تتبع ديننا وأزوجك ابنة بطريق من بطارقتي وأجعلك من أخصائي؟ فقلت: لا والله الذي لا إله إلا هو، لا فارقت دين الإسلام أبدًا وما جاء به محمد - عليه السلام -. فقال: أجب إلى ديننا، وأنا أعطيك من المال كذا وكذا، ومن الغلمان كذا وكذا، ومن الجواري كذا وكذا.

قال عبد الله: ثم دعا بسفط من الجوهر وقال: إذا دخلت في ديني أعطيتك إياه. فقلت: لا والله لو أعطيتني ملكك وملك قومك ما فارقت دين الإسلام أبدًا ولو أعطيتني كل ما تملكه. فقال: إذا لم ترجع إلى ديني قتلتك شر قتلة. فقلت: لست أفعل ولو قطّعتني قطعًا ولو أحرقتني بالنار لا رجعت عن ديني فاصنع ما أنت صانع! فغضب من كلامي وقال: اسجد لهذا الصليب سجدة وأخلي سبيلك! فقلت: لست أفعل. قال: فكل من لحم الخنزير وأنا أطلقك. قلت: حاشا لله ما كنت بالذي أفعل. قال: فاشرب من هذا الخمر شربة واحدة وأطلقك. قلت: لا والله لا أشرب أبدًا. قال: وحق ديني لتأكلن وتشربن قهرًا.

ثم أمر بي فجعلني في بيت، وجعل عندي من ذلك اللحم والخمر، وقال: إذا أضر به الجوع والظمأ أكل وشرب. وأغلقوا عليَّ الأبواب.

عن سفيان بن خالد عمن يثق به أن هرقل كان قد مات بعد هزيمته في أنطاكية بأيام قلائل مما دخل على قلبه من القهر ويقال إنه مات مسلمًا والذي فعل ذلك بعبد الله بن حذافة ولده نسطيوس وكانوا لقبوه باسم هرقل. فلما كان في اليوم الرابع طلب عبد الله بن حذافة وقال للغلمان: ما فعل؟ قالوا: لم يأكل شيئًا ولم يشرب وهو على حاله. فقال له وزيره: أيها الملك اعلم أن هذا الرجل شريف في قومه لا يرى الذل فكل ما تفعله في هذا الرجل تفعله المسلمون إذا قبضوا على ملك منَّا. قال: فاستدعاه، وقال له: ما فعلت باللحم؟ قال: هو على حاله. فقال: ما منعك أن تأكل؟ قال: فزعًا من الله ورسوله، وأيضًا إنَّه قد حل لي بعد ثلاثة أيام، ولكن ما أردت أن يشمت بي الملحدون. وورد كتاب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فلما قرأه أعطى عبد الله مالًا كثيرًا وثيابًا، وأعطاه لؤلؤًا كثيرًا هدية لعمر بن الخطاب، وبعث معه خيلًا إلى أن أخرجوه من الدروب ووصل إلى حلب، ولقي المسلمين ففرحوا به. ثم إنه سار إلى عمر بن

الخطاب، فلما رآه سجد لله شكرًا وهنأه بالسلامة وحدثه بما كان من هرقل وأخرج له اللؤلؤ، فلما رآه عمر عرضه على التجار، فقالت التجار له: هذا ما يقوَّم ومن جاءك به؟! فقالت له الصحابة: خذه إليك بارك الله لك فيه. فقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، إذا كنتم قد جعلتموني منه في حل فكيف أصنع بمن غاب من المسلمين ومن في بطون الأمهات وأصلاب الرجال من أولاد المهاجرين والأنصار والمجاهدين في سبيل الله، ولا طاقة لعمر بمطالبتهم يوم القيامة؟! ثم باعه وجعل ثمنه في بيت المال.

عن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله، قالوا جميعًا: إنه لما فتح أبو عبيدة أنطاكية صلحًا، وكان من أمر سرية ميسرة بن مسروق ما ذكرناه أقام أبو عبيدة بحلب ينتظر ما يأتي إليه من عمرو بن العاص لما مضى إلى قيسارية في خمسة آلاف من المسلمين فيهم عبادة بن الصامت وعمرو بن ربيعة وبلال بن حمامة وربيعة بن عامر.

فتح قيسارية الشام بساحل البحر

قال سبيع بن ضمرة الحراني: كنت مع عمرو بن العاص حين سار إلى قيسارية فدخلنا قرية من قرى الشام، وكان البرد شديدًا ونظرنا إلى كرومها ونظرت إلى كرمة في دار من دور القرية وفيها عناقيد مدلاة أكبر ما يكون فأخذنا منها وأكلنا فبردنا ولحقنا البرد الشديد من شدة برد ذلك العنقود. فقلت: قبَّح الله هؤلاء الملاعين بلدهم بارد وعنبهم بارد وماؤهم بارد وأنا أخاف الهلاك من شدة برد بلادهم! فسمعني رجل من أهل البلد فأراد أن يقرب إليَّ لأداعبه، فقال لي: يا أخا العرب إن كنت تجد البرد من العنب فاشرب من مائه. قال سبيع: ثم إنه دلنا على دن كبير فيه خمر فشربت أنا وجماعة من عرب اليمن فسكرنا فجعلنا نتمايل سكرًا فأخبر بذلك عمرو بن العاص، فكتب إلى أبي عبيدة يعلمه بذلك فكتب إليه أبو عبيدة: أما بعد، فمن شربها فحدَّه عليها وأقم حدود الله كما أمر، ولا تخش لومة لائم. فلما وصل الكتاب إلى عمرو دعا بسبيع بن ضمرة وأصحابه فجلدهم بالسياط.

قال سبيع: فلما ضربني عمرو وأوجعني قلت: والله لأقتلن العلج الذي دلنا على الخمر حتى شربناها وأكلنا الحد! فأخذت سيفي ودخلت القرية أطلب العلج فلما رأيته ووقعت عيني عليه أردت قتله فولى هاربًا فتبعته وهو يقول: ما ذنبي عندك؟ فقلت: أنت دللتني على ما يغضب الله حتى أكلت الضرب، فقال: والله ما علمت أنه محرم عليكم. فناداني عبادة بن الصامت وقال: يا سبيع إياك أن تقتله فإنه تحت الذمة. فتركته ومضى العلج وأتى إليَّ بتين وجوز وزبيب وقال: كل هذا بذاك فإنه يدفئك. فأكلته فوجدته طيبًا فقلت: لحاك الله أين هذا كان قبل أن أضرب بالسياط؟

قال الواقدي: ثم إن عَمْرًا ارتحل فنزل بموضع يقال له «محل» وبلغ الخبر فلسطين بن هرقل، وكان قد أتاه المنهزمون من عسكر أبيه ولجؤوا إليه واكتمل جيشه في ثمانين ألفًا، ثم إنه دعا برجل من المتنصرة وقال له: امض واحزر لي عسكر العرب واكشف لي أخبارهم، فوصل إليهم ولجأ إلى قوم من اليمن وهم يصطلون حول النار، فجلس بينهم يسمع حديثهم، فلما أراد القيام عثر في ذيله فقال: باسم الصليب كلمة أجراها الله على لسانه، فلما سمعوا قوله علموا أنه

متنصر جاسوس للروم فوثبوا إليه وقتلوه ووقع الصائح في العسكر فسمع عمرو الضجة. فقال: ما الخبر؟ قيل: إن قومًا من اليمن وقعوا بجاسوس من الروم فقتلوه. فغضب عمرو وطلبهم، وقال: ما حملكم على قتل الجاسوس، وهلا أتيتموني به لأستخبره؟ فكم من عين تكون علينا ثم إنها ترجع فتصير لنا، لأن القلوب بيد الله يقلبها كيف شاء. ثم إنه نادى في جيشه: من وقع بغريب أو جاسوس فليأت به إليَّ.

وإنَّ فلسطين استبطأ الجاسوس فعلم بقتله فأرسل غيره فأشرف على القوم من فوق شرف عال وحزرهم وعاد إليه فأخبره أنهم في خمسة آلاف، إلا أنهم كالأسود الضارية أو كالعقبان الكاسرة، فلما سمع ذلك قال: وحق المسيح والقربان لابد من قتالهم. فإما أن أبلغ المراد أو أموت صبراً، ثم إنه جمع عسكره واختار منهم عشرة آلاف فارس شدادًا وولى عليهم بطريقًا اسمه «بكلاكون» وهو صاحب جيشه وقال: سر بهؤلاء فأنت طليعة جيشي! فسار من ساعته. ثم إنه عقد صليبًا آخر وسلمه إلى دمستق العسكر واسمه «جرجيس بن باكور» وضم إليه عشرة آلاف وقال له: الحق بصاحبك. فسار في أثره. فلما كان

في اليوم الثاني خرج فلسطين ببقية الجيش وترك ابن عمه «قسطاس» في قيسارية يحفظها وترك عنده عشرة آلاف. قال بشار بن عوف: فبينما نحن نازلون إذ أشرف علينا البطريق الأول في عشرة آلاف فارس، فلما قربوا منَّا رأيناهم فحزرناهم فإذا هم عشرة آلاف. ففرحنا وقلنا: نحن خمسة آلاف وعدونا في عشرة آلاف، فكل رجل منَّا يقاتل اثنين.

فبينما نحن كذلك إذ أشرف علينا البطريق الثاني في عشرة آلاف، فقال عمرو – رضي الله عنه –: اعلموا أن من أراد الله واليوم الآخر فلا يرتاع من كثرة العدو ولو تزايد المدد، فإن الجهاد أوفر متجرًا وأعز قدرًا، وأي فخر عند الله ممن يقتل في سبيل الله وصفوف الكفار ويكون حيًا عند الله يرتع في مروج الجنة وينال من الله سابغ النعمة والمنة؟! فقد قال الله تعالى: «وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ...»، ولو أن الجاسوس الذي قتلتموه لم تعجلوا عليه لأخبرنا بمسير هذا الجيش إلينا وكثرته، وكنا قد أخذنا حذرنا على أنفسنا واحتطنا، ولكن أمر الله لا يرد. ثم إنه جمع أبطال الموحدين، وقال: قد رأيت أن ننفذ إلى أبي عبيدة نعلمه ليمدنا

بالخيل والرجال، فإن هذا جيش عظيم. ثم قال: أيها الناس من يركب ويسير إلى الأمير أبي عبيدة ويعلمه بما قد صرنا إليه، فلعله أن ينجدنا كما أنجد يزيد بن أبي سفيان وهو محاصر قنسرين وأجره على الله.

المعارك في فلسطين

فقال له ربيعة بن عامر: يا عمرو الق بنا العدو وتوكل على الله، فإن الذي نصرنا في مواطن كثيرة ونحن في قلة ينصرنا اليوم على بقية القوم الكافرين. فقنع عمرو بكلام عامر بن ربيعة، وقال: والله صدقت! وأمر الناس بالتأهب إلى لقاء العدو، فركب المسلمون ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير... فأجابتهم الجبال والتلال والأوعار والأشجار والأحجار، فارتاع عسكر الكفار لما سمعوا في الجو هذه الأصوات، وكان فلسطين قد أتى وسمع ذلك ونظر إلى جيش العرب وقد زاد في عينيه أضعافًا فقال: وحق ديني لما أشرفت على القوم ما كانوا في هذه الكثرة وما كانوا أكثر من خمسة آلاف، وقد زاد الآن عددهم وتزايد مددهم، ولاشك أن الله قد أمدهم بالملائكة، ولقد كان أبي هرقل على بصيرة من أمر هؤلاء العرب، وليس جيشي هذا بأعظم من جيش ماهان الأرمني

لما لقيهم باليرموك في ألف ألف، ولقد ندمت على خروجي إليهم، ولكن سوف أدبر حيلة على هؤلاء العرب! ثم إنه دعا بقس عظيم القدر عند النصرانية، وهو قس «قيسارية» وعالمها وقال له: اركب إلى هؤلاء القوم وكلمهم بالتي هي أحسن، وقل لهم: إن ابن الملك يسألكم أن تنفذوا إليه أفصحكم لسانًا وأجرأكم جنانًا فابعثوا به ولا يكون من طغام العرب. فركب القس وعليه ثوب من الديباج الأسود وعليه برنس من الشعر فركب بغلة شهباء وأخذ بيده صليبًا من الجوهر وسار حتى وصل إلى المسلمين فوقف بحيث يسمعون كلامه. فقال: يا معشر العرب إنِّي رسول إليكم من الملك فلسطين بن هرقل يسألكم أن تنفذوا إليه أفصحكم لسانًا وأجرأكم جنانًا، وإنه والله يريد صلحكم ولا يبغي قتالكم، لأنه عالم بدينه بصير بأموره، وليس يحب سفك الدماء ولا فساد الصور، فلا تبغوا علينا فالباغي مقهور والمبغي عليه منصور، وقد قال لنا المسيح: لا تقاتلوا إلا من بغى عليكم، وإن الملك يريد أن تبعثوا إليه رجلًا من أفصحكم لسانًا وأجرأكم جنانًا، ثم سكت. فلما سمع عمرو كلامه قال: أيها الناس قد سمعتم ما قاله هذا الأغلف، فمن منكم يبادر إلى مرضاة الله تعالى ورسوله وينظر ما يتكلم به مع ملك الروم؟

فتقدم إليه بلال بن حمامة مؤذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وكان غلامًا أسود طويلًا من الرجال كأنه النخلة السحوق بصاص من السواد، عيناه جمرتان كأنهما العقيق، جهوري الصوت، عريض المنكبين كأنه من رجال شنوءة، وكان من عظم خلقته إذا نظر إليه أحد يهابه. فقال: يا عمرو أنا أسير إليه، فقال: يا بلال إنك قد حطمك الحزن على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وأيضًا إنك من جنس الحبش ولست من العرب، لأن العرب لهم الكلام الجزل والخطب والفصاحة. فقال بلال: بحق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا تركتني أمضي إليه. فقال عمرو: لقد أقسمت عليَّ بعظيم اذهب واستعن بالله ولا تهبه في الخطاب وأفصح في الجواب وعظم شرائع الإسلام. فقال بلال: ستجدني إن شاء الله حيث تريد. فخرج بلال نحوهم وكان لابسًا يومئذ قميصًا من كرابيس الشام وعلى رأسه عمامة من صوف متقلدًا بسيف ومزودة على عاتقه وبيده عصا.

فلما برز بلال من عسكر المسلمين ونظر إليه القس أنكره، وقال: إن القوم قد هنًّا عليهم فإنا دعوناهم نخاطبهم فبعثوا إلينا بعبيدهم لصغر قدرنا عندهم.

ثم قال: أيها العبد أبلغ مولاك وقل له إن الملك يريد أميرًا منكم حتى يخاطبه بما يريد، فقال بلال: أيها القس أنا بلال مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومؤذنه ولست بعاجز عن جواب صاحبك، فقال له القس: قف مكانك حتى أعلم الملك بأمرك وعاد القس إلى الملك، وقال له: أيها الملك إنهم قد بعثوا بعبد من عبيدهم يخاطبك، وما ذاك إلا استصغارًا لأمرنا عندهم، وهو عبد أسود. فأرسل له رجلًا يقول له: أيها العبد أبلغ مولاك وقل له إن الملك إنما يريد أميرًا منكم حتى يخاطبه. فقال له بلال: أيها الرجل أنا بلال بن حمامة مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولست بعاجز عن جواب صاحبكم. فقال فلسطين: ارجع إليهم وقل لهم بعث إليكم ملك النصرانية أيليق أن تبعثوا له بعبد من عبيدكم. فرجع الترجمان إلى بلال وقال له يا أسود: إن الملك يقول لك: لسنا ممن نخاطب العبيد بل يأتينا صاحب جيشكم أو المؤمر عليكم، فرجع بلال وهو منكسر وأخبر عَمْرًا بذلك. فقال لشرحبيل: أنا أمضي إليه. فقال شرحبيل: يا عبد الله إذا مضيت أنت فلمن تدع المسلمين؟ فقال عمرو: الله لطيف بعباده وهو أرحم الراحمين بخلقه، ولكن خذ الراية واخلفني في

قومي؛ فإن غدر الروم فالله الخليفة عليكم، فوقف شرحبيل في مقام عمرو وأخذ الراية.

وخرج عمرو نحو القوم وعليه درعه ومن فوقه جبة صوف وعلى رأسه عمامة من صنع اليمن مصبوغة صفراء قد أدارها على رأسه كورًا وأرخى لها عذبة، وفي وسطه منطقة، وقد تقلد سيفه واعتقل رمحه وسار عمرو حتى وقف بإزاء الترجمان الذي أرسله «فلسطين بن هرقل»، فلما رآه الترجمان ضحك، فقال: مم تضحك يا أخا النصرانية؟ قال: من دناءة رؤيتك وحملك هذا السلاح، ما الذي تصنع به ولم تحمله معك وما نريد حربًا؟ فقال عمرو: إن العرب حمل السلاح شعارهم ووطاؤهم ودثارهم، وإنما حملت السلاح معي استظهارًا، ولعلي أن ألقى عدوًا فيكون ذلك حصنًا من عدوي وأحامي به عن نفسي. قال الترجمان:

شيمتكم أيها العرب الغدر والمكر فكن مطمئن الجانب. ثم عطف الترجمان إلى فلسطين بن هرقل وأخبره بما سمع من مقالة عمرو بن العاص،

وقال: أيها الملك إن أمير العرب قد قدم علينا وعليه من اللباس كذا وكذا فتبسم الملك من قول القس، وقال: قل له يتقدم إلينا.

فلما قدم أخذ الملك في التأهب لقدوم عمرو عليه، وزين ملكه وأوقف القسوس عن يمينه وشماله والحجاب بين يديه، وأقبل عليه الترجمان، وقال له: يا أخا العرب قد أذن لك الملك، فسار عمرو على جواده وعسكر قيسارية تتعجب منه ومن زيه إلى أن وقف على قبة الملك، ثم ترجل ومشت الحجاب أمامه حتى وقعت عينه على عين فلسطين فأدناه ورحب به وبش في وجهه، وقال: مرحبًا بأمير قومه، وأراد أن يجلسه على السرير فامتنع عمرو من ذلك، وقال: بساط الله أطهر من بساطك، لأن الله تعالى جعل الأرض بساطًا وأباحنا إياها فنحن فيها سواء، وما أريد أن أجلس إلا على ما أباحه الله، ثم جلس على الأرض باركًا وترك رمحه أمامه وسيفه على فخذه الأيسر، فقال له فلسطين: ما اسمك؟ قال: اسمي عمرو وأنا من العرب الكرام أرباب الحزم المعظمين في القوم. قال فلسطين: إنك لفتى كريم من عرب كرام، يا عمرو إن كنت من العرب

فنحن من الروم وبيننا قرابة وأرحام متصلة، ونحن وأنتم في النسب متصلون ومن يكونون متصلين في النسب ما لهم يسفك بعضهم دم بعض!!

فقال عمرو: إن أنسابنا لاحقة من أبينا ونسبنا الأعلى هو دين الإسلام، وإذا كان أخوان قد اختلفا في الدين كان حلالًا أن يقتل أحدهما أخاه، وقد انقطع النسب بيننا! وقد ذكرت أن نسبك لاحق بنا فكيف يكون نسبك ونسبنا واحدًا ونحن قريش وأنتم بنو الروم.. قال: يا عمرو أليس أبونا آدم ثم نوحًا ثم إبراهيم وعيصو بن إسحاق وإسحاق أخو إسماعيل وكلاهما ولد إبراهيم، ولا ينبغي للأخ أن يبغي على أخيه بل يجود عليه. فقال: إنك لصادق في قولك الذي قلت وإن عيصو ونحن بنو أب واحد وأبونا نحن إسماعيل صلوات الله عليه وإن نوحًا – عليه السلام – قسم الأرض بين أولاده الثلاثة سام وحام ويافث وأعطى ولده سامًا الشام وما حوله إلى اليمن إلى حضرموت وإلى غسان، والعرب كلهم ولد سام، وأعطى حامًا الغرب والساحل وأعطى يافث ما بين المشرق والمغرب و«إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»، ونريد أن نرد هذه القسمة فنأخذ ما في أيديكم من العمارة والأنهار عوضًا عما نحن فيه

من الشوك والحجارة والبلد القفر، فلما سمع فلسطين كلام عمرو بن العاص علم أنه رجل ماكر. فقال له: صدقت في قولك إلا أن القسمة قد جرت، فإن نقضتموها كنتم من الباغين علينا، واعلم أنه ما حملكم على ذلك وأخرجكم من بلادكم إلا الجهد العظيم.

فقال له عمرو: أيها الملك أما زعمك أن الجهد أخرجنا من بلادنا، فنعم كنا نأكل خبز الشعير والذرة فإذا رأينا طعامكم واستحسناه فلن نبارحكم حتى نأخذ البلاد من أيديكم وتصيروا لنا عبيدًا ونستظل تحت أصول هذه الشجرة العالية والفروع المورقة والأغصان الطيبة الثمار، فإن منعتمونا مما ذقناه من بلادكم من لذيذ العيش، فما عندنا إلا رجالًا أشوق إلى حربكم من حبكم الحياة، لأنهم يحبون القتال كما تحبون أنتم الحياة. قال: وأفحم فلسطين من جوابه، فرفع رأسه إلى قومه وقال: إن هذا العربي صادق في قوله وحق......... ما لنا معهم ثبات!

قال عمرو: فوجدت إلى وعظهم سبيلًا، وقلت: معاشر الروم إن الله – عز وجل – قد قرب عليكم ما كنتم تطلبون. إن كنتم تريدون بلدكم فادخلوا في ديننا

وصدقوا قولنا، فإن الدين عند الله الإسلام. قال فلسطين: يا عمرو إنا لا نفارق ديننا وعليه مات آباؤنا وأجدادنا. قال عمرو: فإن كرهت الإسلام فأعطنا الجزية منك ومن قومك وأنتم صاغرون. قال فلسطين: لا أجيبك إلى ذلك، لأن الروم لا تطاوعني إلى أداء الجزية ولقد قال لهم أبي ذلك من قبل فأرادوا قتله! فقال: هذا ما عندي من الأعذار، ولقد حذرتكم ما استطعت ولم يبق بيننا حكم إلا السيف، والله يعلم أني دعوتكم إلى أمر فيه النجاة فعصيتموه!..... فقال له: يا عمرو وهل في أصحابك رجل بيِّنٌ كلامه سريع الجواب إذا سئل. فقال له: اعلم أني والله أحب أن أمضي وآتيك بهم لتقف على صحة قولي، ثم وثب وسار إلى عسكره وأتى جيشه فحمد الله المسلمون على سلامته وباتوا يتحادثون، فلما صلى عمرو بالناس صلاة الفجر أمرهم بالركوب إلى قتال عدوهم. فأسرعوا إلى ذلك واستووا على متون خيولهم، واصطفوا للحرب والقتال.

المعركة

قال الواقدي: حدثنا عروة بن زيد عن موسى مولى الحضرميين عن موسى بن عمران وابن الصباح لما كان يوم الحرب صف فلسطين جيشه ثلاثة صفوف

وقدم المشاة وعدل الميمنة والميسرة، ورفع الصليب أمامه وتقدم أمام الجيش، فنظر عمرو إلى فلسطين وقد رتب عساكره وعزم على الحرب فهيأ المسلمين، وصفَّهم صفًا واحدًا وجعل في الميمنة الحماة من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومعهم شرحبيل بن حسنة كاتب الوحي وصابوب بن جباية الليثي عن شماله وكان أحد فرسان المسلمين. فبينما الناس كذلك إذ خرج فارس من الروم وعليه ديباج ودرع وجوشن، وفي عنقه صليب من الذهب فحمل حتى خطى برمحه من الميمنة إلى الميسرة ومن الميسرة إلى الميمنة، ثم إلى القلب ثم وقف بإزاء جيش المسلمين وركز رمحه بازائه وأخذ القوس بيده وفوَّق سهمها ورمى رجلًا من الميمنة فأثبت السهم فيه فجرحه، ورمى آخر من الميسرة فقتله!

فنظر إليه عمرو وما قد صنع فصاح بالمسلمين: ألا ترون هذا العلج اللعين وما يصنع بقوسه؟! فمن يكفينا أمره ويزيل عن المسلمين شره، فخرج إليه رجل من ثقيف وعليه بردة دنسة وبيده قوس عربية قد فوَّق سهمها، وخرج إلى العلج يريده فنظر إليه العلج وليس عليه شيء من الحديد يستره إلا فروة دنسة، وما

معه من السلاح غير القوس فازدرى به وبلبسه وأطلق سهمًا من كبد قوسه فوقع سهمه في صدره فاشتبك في الفروة ووقع غير مصيب، فغضب لذلك وهمَّ أن يرميه بسهم ثان فامتعط الثقفي نبلة ورمى بها نحوه فلم يرها لصغرها وخفاء موقعها فاشتبكت النبلة في حلق العلج فخرجت من قفاه، فما تمالك العلج إلا أن وقع صريعًا فأسرع الثقفي إلى جواده فأخذه واستوى على متنه ونزع بيضة المشرك عن رأسه، وجعل يسحبه نحو جيش المسلمين فاستقبله ابن عم له وكلمه فلم يجبه من فرحه بما صنع. ثم أقبل إلى عمرو فأعطاه إياه فنظرت الروم إلى فعل الثقفي فغاظهم ذلك، وجعلوا يشيرون إلى السماء فعلمنا أنهم يقولون إن الملائكة تنصرنا.

ونظر فلسطين إلى ذلك فعظم عليه وقال لبعض البطارقة: اخرج إلى هؤلاء العرب وحام عن دينك فخرج البطريق وعليه ديباجة خضراء ودرع حصين ومن تحت الدرع جوشن منيع وفي عنقه صليب من الذهب الأحمر ومعه غلام من ورائه يجنب جنيبة وعليه سيفه ودرقته فخرج حتى وقف بين الصفين فجعل يسأل القتال، فلما نظر المسلمون إليه لم يخرج إليه أحد! فقال عمرو: معاشر

العرب من يخرج إليه ويهب نفسه لله - عز وجل -؟ فخرج إليه رجل من العرب وهو يقول: أنا أكون ذلك. فقال عمرو: بارك الله فيما تريد. وحمل صاحب المسلمين عندما خرج مصممًا واستقبله البطريق وجعلا يتجاولان ساعة وهما يتعانقان بالسيوف إلى أن خرجت لهما ضربتان فسبقه البطريق بالضربة فأخذها الرجل بالدرقة فقدَّها نصفين وكانت جلد بعير بطانة واحدة فلم يصل إليه من الضربة شيء وجعل الرجل ضربة في أثرها فقطعت البيضة وسلكها فتقهقر البطريق إلى ورائه ولم يصل إليه أذى، فلما رجعت إليه روحه حمل على المسلم وضربه فجرحه جرحًا فاحشًا فألوى إلى أصحابه فصاح به رجل من العرب: من وهب نفسه لا يرجع من بين يدي عدوه! فقال الرجل: أما كفاك هذه الضربة حتى توبخني إن الله ليلومني بأن ألقي بيدي إلى التهلكة، ثم شدَّ جراحه، وعظم عليه ما قال ابن عمه، فلما خرج قال له الذي خاطبه: ارجع فخذ هذه البيضة واجعلها على رأسك. فقال: ثقتي بالله أعظم من حديدك، ثم دلف نحو البطريق وهو يقول:

يقول لي عند الخروج للقا ... دونك هذا الترس فاجعله وقا
من علج سوء قد بغى وقد طغى ... أقسمت بالله يمينًا صادقا

لأتــركــنَّ الــبــيــض فــوق الــمــرتــقــى وأدخــل الــجــنــة دار الــمــلــتــقــى

فدعا له المسلمون بالنصر، وحمل على البطريق وضربه ضربة هائلة فوقعت على عاتقه وخرجت من علائقه ثم حمل في جيش الروم فقتل رجالًا وجندل أبطالًا ولم يزل كذلك حتى قتل رحمه الله تعالى. فقال عمرو: هذا رجل اشترى الجنة من الله بنفسه: اللهم أعطه ما تمنى.

البطريق «قيدمون»

قال الواقدي: وكان هرقل حين بعث ولده فلسطين إلى قيسارية بعث معه بطريق كل البطارقة وكان اسمه «قيدمون» وكان من أفرس الروم ويقال إنه خال فلسطين، وقد كان لقي عسكر الفرس وعسكر الترك وعسكر الجرامقة. وكان يحفظ سائر اللغات. فقال لفلسطين: لابد لي من قتال العرب! وخرج وعليه لأمة مبارزًا، فلما رآه المسلمون قد خرج وكأنه جبل قد انهد من أعلاه إلى أسفله وهو يلمع من بريق الجوهر ضج المسلمون بقول «لا إله إلا الله»، فلما وقف في الميدان أقبل يرطن بلغته ويطلب البراز فأقبل العرب يهرعون إليه من كل جانب ومكان يريدون قتاله لأجل ما عليه، فقال عمرو: ثواب الله خير لكم مما عليه

فلا يخرج أحد لطلب سلبه فيكون خروجه لأجل ذلك، وإن قتل مات في سبيل ما خرج إليه، وقد سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»!

وكان غلام قد خرج من اليمن ومعه أمه وأخته يريدون الشام، وأخته تقول له: يا ابن أمي جد بنا في السير لنصل إلى الشام فنأكل من خيره ونعمه. فقال لها أخوها: إنما أذهب لأقاتل لمرضاة الله - عز وجل -. وقد سمعت معاذ بن جبل - رضي الله عنه - يقول: إن الشهداء عند ربهم يرزقون. فقالت له أخته: كيف يرزقون وهم أموات؟! قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «إن الله تعالى يجعل أرواحهم في حواصل طيور الجنة فتأكل تلك الطيور من ثمار الجنة وتشرب من أنهارها فتغدو أرواحهم في حواصل تلك الطيور، فهو الرزق الذي جعله الله لهم». فلما كان قتال قيسارية خرج ذلك الغلام إلى القتال بعد أن ودع أمه وأخته وداع الموت وقال لهم: نجتمع على حوض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم خرج وبيده قناة وهي موصولة كثيرة العقد وتحته

جواد هجين. فلما خرج الغلام حمل على البطريق من ساعته وطعنه بسنانه، فاشتبك السنان في درع البطريق فلم يقدر على انتزاعه فضرب البطريق قناة الغلام بسيفه فقطعها وحمل على الغلام وضربه على هامته فشطرها فوقع الغلام «ميتا» -رحمه الله- وجال قيدمون على مصرعه، ثم طلب البراز، فخرج إليه ابن قثم فقتله البطريق.

فلما نظر إلى ذلك شرحبيل بن حسنة - رضي الله عنه - أقبل يعاتب نفسه ويقول: تتفرجين على قتل المسلمين! ثم خرج والراية بيده التي عقدها له أبو بكر - رضي الله عنه - يوم خروجه إلى الشام، فلما رآه عمرو قد عوَّل على الخروج قال: يا عبد الله اركز الراية لئلا تشغلك. فركزها شرحبيل فوقفت كالنخلة وغاصت في حجر كأنها منه فتفاءل بالنصر، وخرج إلى لقاء قيدمون والمسلمون يدعون له بالنصر على عدوه فلما رآه البطريق ضحك من زيه، وكان للملعون صوت عال وهو ضخم من الرجال، وكان شرحبيل نحيف الجسم من كثرة الصيام والقيام بالليل والبطريق في ميدانه فحمل كل واحد منهما على صاحبه واختلفا بضربتين، وكان السابق شرحبيل فلم يعمل السيف

في لأمة البطريق شيئًا وثبت السيف في بيضته وحمل قيدمون على شرحبيل فشجه ثم تجاولا على الجوادين. قال سعيد بن روح: وكان ذلك اليوم كثير البرد والسحاب فبينما هما في المعركة إذ نزل المطر كأفواه القرب! فنزلا عن الجوادين وجالا يتصارعان في وسط الطين وذلك أن قيدمون حمل على شرحبيل فضرب يده في مراق بطنه فاقتلعه من الأرض، ورمى به على ظهره ثم استوى على صدره وهمَّ أن ينحره فنادى شرحبيل: يا غياث المستغيثين فما استتم كلامه حتى خرج إليه فارس من الروم وعليه لأمة مذهبة ومن تحته جواد من عتاق الخيل، فقصد موضع البطريق وشرحبيل فظنَّ قيدمون أنه إنما خرج ليعطيه جواده ويعينه، فلما قرب منهما ترجل وأمال البطريق برجليه عن صدر شرحبيل. وقال: يا عبد الله قد أتاك الغوث من غياث المستغيثين فوثب شرحبيل قائمًا ينظر إليه متعجبًا من قوله وفعله، وكان الفارس متلثمًا ثم جرد سيفه وضرب البطريق ضربة قطع بها رأسه، وقال: يا عبد الله خذ سلبه.

فقال شرحبيل: والله ما رأيت أعجب من أمرك! وإني رأيتك جئت من عسكر الروم فقال: أنا الشقي المبعد أنا طلحة بن خويلد الذي ادَّعى النبوة بعد رسول

الله – صلى الله عليه وسلم – وكذب على الله وزعم أن الوحي كان ينزل عليه من السماء. فقلت له: يا أخي «إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ»، وقد وسعت رحمته كل شيء ومن تاب وأقلع وأناب قبل الله توبته وغفر له ما كان منه، والنبي – صلى الله عليه وسلم – يقول: «التوبة تمحو ما قبلها» أما علمت يا ابن خويلد أن الله – سبحانه وتعالى – لما أنزل على نبيه »وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ»، طمع فيها كل شيء حتى إبليس فلما نزل قوله تعالى: «فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ»، قالت اليهود: نحن نؤتي الزكاة ونتصدق، فلما نزل قوله تعالى: «وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ»، قالت اليهود: نحن مؤمنون بما أنزل الله في الصحف والتوراة فأراد الله أن يعلمهم أنها خاصة بأمة محمد – صلى الله عليه وسلم – بقوله: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ».

فقال طلحة بن خويلد: ما لي وجه أرجع إلى الإسلام وهمَّ أن يسير على وجهه فمنعه شرحبيل وقال له: يا طلحة لست أدعك تمضي، بل ترجع معي إلى العسكر قال: ما يمنعني من المسير معك إلا الفظ الغليظ خالد بن الوليد، وإني أخاف أن يقتلني! فقلت: يا أخي إنه ليس معنا وهذا الجيش لعمرو بن العاص.

فرجع معي فلما قربنا من المسلمين تبادروا إلينا وقالوا: يا شرحبيل من هذا الرجل معك فلقد صنع معك جميلًا! ولم يعرفوه! لأنه كان متلثمًا بفضل عمامته. فقلت: هذا طلحة بن خويلد الذي ادَّعى النبوة فقالوا: أَوَتاب ورجع إلى الله؟ فقال: أنا تائب إلى الله - سبحانه وتعالى -. قال شرحبيل: فأتيت به إلى عمرو بن العاص فسلم عليه وبش في وجهه ورحَّب به.

حدثنا حسان بن عمر الربعي عن جده أن طلحة بن خويلد لما ادَّعى النبوة وجرى له ما جرى من الحرب مع خالد بن الوليد - رضي الله عنه - وسمع أن خالدًا قتل مسيلمة الكذاب وقتل الأسود العنسي أيضًا لأنه قال إنه نبي خاف طلحة على نفسه من خالد فهرب بالليل ومعه زوجته للشام واستجار برجل من آل كلب فأجاره الكلبي وأنزله في داره، وكان الكلبي مؤمنًا وبقي عنده مدة أيام إلى أن استخبره عن حاله فحدثه طلحة بجميع أحواله مع خالد بن الوليد ووقائعه معه وكيف ادعى النبوة فغضب الكلبي لكلامه وطرده من جواره فأقام طلحة بالشام وقد تاب من أمره، فلما بلغه أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - قد قبض قال: ذهب من جردت السيف في وجهه فمن ولي بعده. قالوا: عمر بن

الخطاب، قال: الفظ الغليظ!.. وهاب أن يمضي إليه وفزع من خالد بن الوليد أن يراه بالشام فيقتله، فقصد قيسارية ليركب في المراكب ويطرح نفسه في بعض جزائر البحر، فلما نظر إلى جيش فلسطين قد خرج إلى قتال العرب قال: أسير مع هذا الجيش فلعلي أنكب نكبة وأغسل بها شيئًا من أوزاري وتكون لي قربة إلى الله تعالى وإلى المسلمين، فلما نظر شرحبيل في عين الهلكة قال: لا صبر لي عنه فخرج واستنقذه كما ذكرناه، فلما وقف بين يدي عمرو بن العاص شكره وبشَّره بقبول التوبة.

فقال: يا عمرو إني أخاف من خالد بن الوليد أن يراني بالشام فيقتلني! فقال عمرو: فإني أشير إليك بشيء تصنعه وتأمن به على نفسك في الدنيا والآخرة. قال: وما هو؟ قال: أكتب معك كتابًا بما صنعت وشهادة المسلمين فيه وتنطلق به إلى عمر بن الخطاب وتدفعه إليه وأظهر التوبة فإنه يقبلها وسيندبك إلى الفتوح وقتال الروم فتمحو عنك ما سلف من خطاياك. فأجابه طلحة إلى ذلك فكتب له عمرو كتابًا إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بما صنع وأخذه طلحة ومشى به إلى مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم يجد عمرًا

في المدينة وقيل له هو بمكة فمضى حتى وردها فوجد عمر متعلقًا بأستار الكعبة فتعلق معه وقال: يا أمير المؤمنين إنِّي تائب إلى الله – عز وجل – وحق رب هذا البيت مما كان مني. قال عمر: من أنت؟ قال: أنا طلحة بن خويلد. فنفر عمر منه وقال: يا ويلك إن أنا عفوت عنك فكيف الأمر غدًا بين يدي الله – عز وجل – بدم ابن محصن الأسدي؟! قال طلحة: يا أمير المؤمنين عكاشة رجل أسعده الله على يدي وشقيت أنا بسببه وأرجو أن يغفر الله لي بما عملته قال عمر: وما عملت؟ فأخرج له كتاب عمرو بن العاص، فلما قرأه عمر وفهم ما فيه فرح به وقال: أبشر فإن الله غفور رحيم وأمره عمر أن يقيم بمكة حتى يرجع إلى المدينة فأقام معه أيامًا، فلما رجع عمر إلى المدينة وجه به إلى قتال أهل فارس.

قال الواقدي: لما قتل البطريق قيدمون على يد طلحة ونجا شرحبيل مما كان قد لحقه ورجع إلى عمرو وكان المطر شديدًا، فقطع الناس القتال ولحق الناس الأذى لأن أكثرهم بلا أخبية ولا بيوت، والتجؤوا إلى الجابية وتستروا بدورها. وكان من رحمة الله بالمسلمين أن وقع في قلب فلسطين الفزع والرعب لما قتل قيدمون البطريق وكان ركنه ودعامته فشاور أصحابه في الرجوع إلى

قيسارية وقال: يا معاشر الروم أنتم تعلمون أن جيوش اليرموك ما ثبتت لهؤلاء العرب، وإن أبي قد ولى إلى القسطنطينية من خوفهم وقد ملكوا الشام جميعه وما بقي غير هذا الساحل وإني أخاف أن نُدهى من قبلهم ويملكوا قيسارية والرحيل أوفق من المقام هاهنا فأجابوه إلى ذلك، فلما كان الليل ارتحل القوم والمطر ينزل.

قال سعيد بن جابر الأوسي: وكان ذلك كله رحمة للمسلمين من الله - عز وجل -. فلما كان في اليوم الرابع ارتفع المطر وطلعت الشمس فخرجنا من الجابية نطلب قتال الروم فلم نر لهم أثرًا، فوالله لقد فرحنا بطلوع الشمس أكثر من فرحنا برحيل الروم، فكتب عمرو بذلك إلى أبي عبيدة كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عمرو بن العاص السهمي إلى أمير جيوش المسلمين أبي عبيدة عامر بن الجراح، سلام عليك ورحمة الله وبركاته، أما بعد فيا صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فإن فلسطين بن هرقل قد أخرج إلى لقائنا ثمانين ألفًا من الروم وكان لقاؤنا معهم على موضع يقال له نخل وأخذ شرحبيل بن حسنة وكان الذي ملك أسره قيدمون ابن خالة هرقل، ثم خلَّصه الله على يد

طلحة بن خويلد الأسدي وقتل قيدمون، ثم وجهته بكتاب إلى عمر بن الخطاب وقد انهزم عدو الله فلسطين، وأنا منتظر جوابك والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته. وبعث الكتاب مع جابر بن سعيد الحضرمي، فلما قرأ أبو عبيدة الكتاب فرح بسلامة المسلمين وسير الجواب وقال: إذا قرأت كتابي فانزل على قيسارية وأنا في أثر الكتاب معوَّل على السير إلى صور وعكاء وطرابلس والسلام. ثم سلم الكتاب إلى جابر بن سعيد وأمره بالرجوع.

فتح صور وعكاء وطرابلس الشام وقيسارية

وعوَّل أبو عبيدة على النهوض إلى الساحل، فقام إليه عبد الله يوقنَّا وقال: أيها الأمير اعلم أن الله – عز وجل – قد أباد المشركين ورفع علم الموحدين وإني أريد أن أسير قبلك إلى الساحل لعلي أفوز من القوم بغزوة. فقال: يا عبد الله إن أنت عملت شيئًا يقربك إلى الله تجده بين يديك فافعل. فوثب يوقنَّا قائمًا وأخذ أصحابه وكان قد انضاف إليه من كان يخدمه بحلب وكلهم رجعوا إلى الإسلام وكانوا أربعة آلاف، وفي عسكر العرب أيضًا ممن أسلم من البطارقة ما يزيد عن ثلاثة آلاف فارس من البطارقة المعدة وعليهم وال يقال له «جرفاس».

ولما انهزم فلسطين إلى قيسارية وتحصن بها بعث إلى أهل طرابلس أن يبعثوا له بنجدة فبعثوا له بثلاثة آلاف فارس.

وساروا يطلبون قيسارية، فلما كانوا بالقرب منها نزلوا في مرج ليعلقوا على خيولهم، فبينما هم كذلك إذ أشرف عليهم «يوقنَّا» وأصحابه وكان قد صحبهم «فلنطانوس» صاحب رومية وأصحابه وكانوا معوَّلين على زيارة بيت المقدس والمقام بها، فلما أشرفوا على المرج وهم بزيهم ما غيروا منه شيئًا ورآهم جرفاس ركب بنفسه يختبر حالهم، فلما قرب منهم سلم عليهم ورحب بهم وقال: من أنتم؟ قالوا: نحن الذين لجأنا إلى هؤلاء العرب واستكفينا شرهم وظننا أنهم على شيء فإذا هم طغاة لا دين لهم فهربنا بديننا ونحن أصحاب حلب وقنسرين وعزاز ودارم وأنطاكية ونحن قاصدون إلى الملك هرقل لنكون في جانبه. فلما سمع «جرفاس» من القوم ذلك فرح بهم وأنس لكلامهم، وقال انزلوا عندنا كي تستريحوا ساعة من التعب فلاشك أنكم سرتم الليل والنهار وخافت أنفسكم من العرب، قال يوقنَّا: أين أنتم سائرون؟ قال: بعث إلينا فلسطين لنكون في طرابلس. فقال يوقنَّا: تيقظوا لأنفسكم فإن أمير العرب أبا

عبيدة تركناه على نية القدوم إلى الساحل. فقال جرفاس: وماذا ينفع حذرنا ودولتنا قد اضمحلت وأيامنا قد ولت ولسنا نرى الصليب يغني عن أهله شيئًا؟! فنزلوا عندهم ساعة وقدَّموا لهم أزواد فأكلوا ثم ركبوا، وهمَّ جرفاس أن يركب لركوبهم فقال يوقنَّا: اشتغل بأصحابك وألبسهم أفخر ثيابهم، فإن ذلك مما يظهر الرعب في قلوب أعدائكم.

قال الواقدي:.... عن جرير بن البكاء وكان أعرف الناس بفتوح الشام، قال: ما دخل يوقنَّا إلى ساحل البحر حتى أتقن الحيلة! وذلك أنه قد نزل فيه الحرث بن سليم مع بني عمه يرعون إبلهم وكانوا في مائتي بيت من العرب فأغار عليهم يوقنَّا وأخذهم وشدهم كتافًا ودخل بهم إلى بلاد الساحل. فلما جن الليل جمعهم إليه وقال: لا تظنوا أني رجعت عن الإسلام وإنما فعلت بكم هذا كي تسمع الروم بسواحلها أني غدرت بالعرب وأخذتهم! قال: فاطمأنت العرب إلى كلامه وقالوا له: إن كنت تريد إقامة دين الله فالله ينصرك وبالأعداء يظفرك، قال: ووكل يوقنَّا رجالًا تسوق الأموال وإنما اطمأن جرفاس وأصحابه إلى يوقنَّا لما رأى الأسارى من العرب والجمال والأنعام، فلما ركب يوقنَّا وأصحابه ورأى

أنهم طالبون لساحل البحر نكب عن طريق طرابلس وكمن في الليل على طريق القوم، قال: وإن جرفاس فرق خزائنه التي كانت عنده على أصحابه وقعد حتى جن الليل وأكلت الخيل عليقها ثم ركبوا واستقاموا على الطريق، فلما توسطوا أطبق عليهم يوقنًا وأصحابه وداروا بهم ولم يمهلوهم بالقتل وأخذوهم أخذًا بالكف وانتشرت الخيل في تلك الأرض لئلا يكون قد انفلت من الروم أحد!

فلما حصلوا في قبضتهم وتحت أسرهم أرادوا أن يطلقوا الحرث بن سليم وأصحابه فقال الحرث: إني أرى من الرأي أن تتركونا على حالنا فإن ثواب الله قد حصل وصبحوا بنا بلاد العدو فإنكم ما تشرفون على بلد من بلاد الساحل إلا فتحه الله لكم. قال يوقنًا: هذا رأي صحيح. ثم أمر أصحابه أن يستوثقوا من الأسرى، وكمن ألفين من أصحاب فلنطانوس مع الأسرى وهم ثلاثة آلاف فارس وقال: إذا جاءتكم رسلي فاقدموا. ثم ألبس أصحابه زي الروم مثل أصحاب قيسارية الذين أخذوهم وساروا نحو طرابلس فلما خرج كل من في البلد إلى لقائهم كان كتاب فلسطين قد وصل إليهم إني قد بعثت إليكم بثلاثة آلاف فارس مع «جرفاس بن صليبا» ودخل يوقنًا مع أصحابه حتى استقر قراره

ودخل عليه دار الإمارة ودخل عليه شيوخ طرابلس والبطارقة وأهل الحشمة منهم.

فلما حصلوا عنده أمر بهم وقبض عليهم وقال: يا أهل طرابلس إن الله سبحانه قد نصر الإسلام وأهله وقد كنَّا في عيش مظلم نسجد للصلبان ونعظم الصور والقربان ونجعل لله زوجة وولدًا حتى بعث لنا هؤلاء العرب فهدانا وألحقنا بهم ببركة نبيهم - صلى الله عليه وسلم - وهو النبي المبعوث الذي ذكره الله في التوراة وبشر به عيسى المسيح! وإن الإسلام حق وقوله الصدق. يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وينطقون بالحق ويتبعون الصدق، ويوحدون الله وينزهونه عن الصاحبة والولد، ويجاهدون في سبيله، وهو الذي أمر به أنبياءه ورسله! فإما أن ترجعوا إلى دين الإسلام أو تؤدوا الجزية وإلا بعثتكم عبيدًا للعرب، وهذا ما عندي والسلام. فلما سمعوا كلامه علموا أن يوقنَّا اجتاز عليهم وأخذ أصحاب الملك في الطريق، فقالوا: أيها السيد نحن نفعل ما أمرتنا به، فمنهم من أسلم ومنهم من رضي بالجزية وعدل يوقنًّا وبعث إلى أصحاب الكمين فحلوا الأسرى فعرض

عليهم الإسلام فأبوا فأمر بحبسهم وبعث إلى أبي عبيدة بالخبر وما جرى له وبعث الكتاب مع الحرث بن سليم من وادي بني الأحمر وقال: يا عبد الله كن للأمير مبشرًا بهذا الفتح. قال: سأفعل ذلك إن شاء الله تعالى وسار بالكتاب حتى وصل إلى أبي عبيدة وسلم عليه وناوله الكتاب، فلما قرأه وعلم معناه فرح وقال للحرث بن سليم: ألم تستأذني أن تسير أنت وبنو عمك إلى وادي بني الأحمر فمن أوصلك إلى طرابلس؟ قال: أوصلني القضاء والقدر، وذلك أن يوقنَّا أغار علينا وأخذنا أسرى.. وحدثه بحديثهم فعجب من ذلك أبو عبيدة وقال: اللهم ثبتهم وأيدهم بنصرك.

حدثني موسى بن مالك قال: إنَّ عمرو بن العاص لما ارتفع المطر رحل من الجابية ونزل على أبواب قيسارية، وأما ما كان من أمر يوقنَّا فإنه لما ملك طرابلس واحتوى عليها واستوثق من سورها وأبوابها ترك أصحابه على الأبواب وقال: لا تدعو أحدًا يخرج من الأبواب! وكان في المرسى مراكب كثيرة فرفع آلاتها وأخذها كل ذلك ولا يعلم أحد من أهل الساحل بما صنع، قال: وبعد أيام جاءت مراكب كثيرة زهاء من خمسين مركبًا، فتركهم يوقنَّا حتى

نزل أكثرهم إلى المدينة فأمر بهم إليه فاستخبرهم عن حالهم وقال: من أين جئتم؟ قالوا: جئنا من جزيرة قبرص ومن جزيرة أقريطش. وقالوا: معنا العدد والسلاح مضروبة للملك فلسطين فأراهم الفرح والسرور وسلم عليهم وقال: إني أريد أن أسير معكم! ثم أمر بهم إلى دار الضيافة وبعث إلى قواد المراكب فأنزلهم وقدم لهم السماط، فلما أكلوا قال إني أريد أن أسير إليكم الزاد والعلوفة وعدة السلاح إلى خدمة الملك ولكن تقيمون عندي ثلاثة أيام. فقالوا: أيها البطريق إنَّا على عجل من أمرنا نخاف من لوم الملك ولسنا نقدر على ذلك ولم يزل بهم حتى أذعنوا له.

فقال: أريد أن تنزلوا الشراعات والمقاذيف فتكونوا في المدينة ليطمئن قلبي بذلك ففعلوا وألصقوا المراكب بالسور ونزل كل من في المراكب وما بقي في المراكب إلا ثلاثة رجال، فلما دبر هذا التدبير قبض على الجميع فلما كان الليل سلم طرابلس لبني عمه وللحرث بن سليم وفلنطانوس وعمَّر المراكب برجاله وهمَّ بالصعود إليها وإذا عند غروب الشمس قد أقبل خالد بن الوليد – رضي الله عنه – في ألف فارس من أصحابه، فلما رآهم يوقنَّا سجد لله شكرًا وسلم على

خالد وسلم له المدينة وحدثه بما جرى له وما قد عزم عليه فقال: نصرك الله وأيدك! ثم إن يوقنًّا ركب من ليلته وسار وكان على سور دمشق جيش فلسطين وهو «أرمويل بن نشطة» ومعه أربعة آلاف فما أصبح يوقنًّا إلا وهو في مدينة صور فأمر بالبوقات فضربت والرايات فنشرت ووقف الدمستق يختبر خبرهم فعاد صاحب البحر إليه فقال: هؤلاء أهل قبرص وجزيرة أقريطش قد أقبلوا بالعلوفات والطعام والعدد يريدون قيسارية في خدمة الملك، ففرح أهل صور بذلك وأمروهم بالنزول فنزل يوقنًّا وأصحابه فصنع لهم الدمستق طعامًا ومد لهم سماطًا عظيمًا وأحضر لقوادهم الخلع ويوقنًّا ينتظر الليل حتى يثور بأصحابه، وكان جملة من نزل معه تسعمائة رجل وترك الباقين في المراكب، وقال: إن لم يتم لنا ما نريد ولم نظفر بهم فلا تبرحوا من مراكبكم وأنفذ إلى خالد وأخبره بالقصة.

عن عمار بن ياسر الربعي قال: لما حصل يوقنًّا والتسعمائة بمدينة صور وأكلوا سماط الملك وخلع على كبرائهم... أقبل عليهم في السر رجل من بني عم يوقنًّا ممن استحكمت الضلالة قلبه واحتوى الكفر على أقانيم جسده فأقبل

إلى الدمستق وحدثه بأمر يوقنًّا وما قد عزم عليه وأنه مسلم وأنه يقاتلكم مع العرب وقد فتح طرابلس وأخذ البطريق «جرمانس» صاحب الملك، فلما سمع الدمستق بذلك لم يكذب خبرًا دون أن ركب بأصحابه وقبض على يوقنًّا وأصحابه ووقع الصياح وكثر الضجيج وسمع بذلك أصحاب يوقنًّا فعلموا أن ذلك بسبب أصحابهم وأنه قبض عليهم فاغتموا لذلك غمًّا شديدًا وأخذوا على أنفسهم من عدو يقبل عليهم قال: فلما استوثق عليهم الدمستق أرمويل بن نشطة وكل بهم ألف رجل وقال: سيروا بهم إلى الملك يفعل فيهم ما يريد، وأقبلوا يعنِّفون يوقنًّا وأصحابه ويقولون لهم: ما الذي رأيتم في دين العرب حتى تبعتموهم وتركتم دينكم ودين آبائكم؟! قد طردكم المسيح عن بابه وأبعدكم عن جنابه، فلما هموا أن يسيروا بهم وقع الصياح من الأبواب ونفر أهل القرى، ومن كان بالقرب من صور فسألوهم عن أخبارهم. فقالوا: قدمت العرب عليكم.

وكان عمرو بن العاص لما نزل على قيسارية وجه يزيد بن أبي سفيان في ألفي فارس إلى صور، فلما سمع الدمستق أمر بالأبواب فأغلقت وصعدت

الرجالة على الأسوار وعمروا الأبراج ونصبوا المجانيق، وأدخل الدمستق يوقنّا إلى قصر صور واستوثق منهم لئلا يتم عليه أمر منهم، وبات القوم يحرسون وأضرموا نيرانهم على الأسوار فأقبلوا يرقصون ويشربون طول ليلتهم، فلما كان الغد أشرف عليهم يزيد بن أبي سفيان فنظر إليهم الدمستق، فلما رآهم قليلًا استحقرهم وطمع فيهم وقال: «وحق المسيح لابد لي من الخروج إليهم وهزم هذه الشرذمة اليسيرة». ثم لبس اللباس وأمرهم بالخروج وترك على حفظ يوقنّا وأصحابه ابن عمه باسيل.

وكان باسيل هذا ممن قرأ الكتب السالفة والأخبار الماضية وكان قد رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - في دير بحيرا الراهب وكان باسيل قد مضى إلى زيارة بحيرا، فلما قدمت عير قريش وجمال خديجة بنت خويلد وفيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نظر بحيرا إلى القافلة ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - في وسطها والسحابة على رأسه تظله من حر الشمس، فلما تبينه قال: والله هذه صفة النبي الذي يبعث من تهامة ثم انتظروا وإذا بالركب قد نزل ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - نزل وحده تحت شجرة يابسة واستلقى

إليها فأورقت الشجرة بين يدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم –! فلما عاين بحيرا ذلك صنع طعامًا لقريش واستدعاهم فدخلوا الدير وبقي هو مع الإبل ليرعاها، فلما نظر بحيرا إليهم ولم يره في جملتهم قال: يا معشر قريش هل بقي منكم أحد؟ قالوا: نعم بقي فينا من تخلف لحفظ القافلة ورعي الإبل. قال: ما اسم من يرعى الإبل؟ قالوا: محمد بن عبد الله. قال: هل مات أبوه وأمه؟ قالوا: نعم. قال: هل كفله جده وعمه. قالوا: نعم، قال: يا قريش هو والله سيدكم وبه يعظم في الدنيا مجدكم، قالوا: من أين علمت ذلك؟ قال: لما أشرفتم عليَّ من البرية لم يبق صخر ولا مدر إلا خرَّ له ساجدًا. فبقي باسيل في حيرة من أمره وكتم سره وعلم أن بحيرا لا يتكلم إلا بالحق، فلما وقع يوقنًا وأصحابه ووكله الدمستق على حفظهم قال: إن الإسلام هو الحق وقد بشر به بحيرا الراهب، ولعل الله يغفر لي إذا حللت هؤلاء القوم.

وكان من حسن تدبير الله لعباده المؤمنين أنه لما خرج الدمستق إلى لقاء يزيد بن أبي سفيان لم يتأخر أحد من شباب المدينة لا صغير ولا كبير إلا وخرج معه وبقيت العوام ينتظرون على الأسوار ما يكون بينهم وبين العرب، فلما نظر

باسيل إلى المدينة وخلوها واشتغال أهلها بالحرب أخذ رأيه على خلاص يوقنَّا ومن معه فأقبل إليهم بالليل والتفت إلى يوقنَّا وأصحابه وقال: أيها البطريق كيف تركت دين آبائك وأجدادك من قبل وعوَّلت على دين هؤلاء العرب وما الذي رأيت من الحق حتى تبعتهم وقد كانت الروم تتخذك عضدًا لها وعونًا؟ قال له يوقنَّا: يا باسيل ظهر لي من الحق ما ظهر لك من الحق فعرفته وقد هتف بي هاتف يقول لي: إن الذي هداك إلى دينه يخلصك وبشرني بالخلاص على يديك. فلما سمع ذلك زاد إيقانه وتحقق إيمانه وقال ليوقنَّا: لقد أنطق الله لسانك بالحق وإن الله كشف حجاب الغفلة عن قلبي منذ رأيت نبي هؤلاء القوم بدير بحيرا الراهب وهو في قافلة لأهل مكة ورأيت من دلائله أنه لا يسير على الأرض إلا والشجر تسير إليه والسحابة على رأسه تظلله ولقد استند إلى شجرة يابسة فأورقت في الحال وأنبأني بحيرا الراهب أنه وجد في العلم أن جماعة من الأنبياء استندوا إليها وجلسوا حولها فلم تورق، فلما استند بظهره إليها أورقت أغصانها وأينعت فعجبت من ذلك، وسمعت بحيرا يقول: هذا والله الذي بشر به المسيح فطوبى لمن تبعه وآمن به وصدقه، فلما عدت من زيارة بحيرا سافرت إلى القسطنطينية بتجارة وطفت في بلاد الروم وأقمت ما شاء الله. ثم عدت إلى

قيسارية فرأيت الروم في هرج ومرج فسألت عن أحوالهم فقيل قد ظهر نبي في الحجاز اسمه محمد بن عبد الله وقد أخرجه قومه من مكة. وقد أتى إلى المدينة التي بناها تبع وقد ظهر على قومه ونصر عليهم فما زلت أسأل عن أخباره وهي في كل يوم تنمو وتزيد حتى مات، ثم ولي صاحبه أبو بكر الصديق وأنفذ جيوشه إلى الشام فلم يلبث إلا يسيرًا ثم مات! وولي هذا الرجل عمر بن الخطاب ففتح بلادنا وهزم جيوشنا وأنا مع ذلك أنتظر قدومهم إلى هذا الساحل حتى أتى الله بهم.

فقال له يوقنًّا: وما الذي عزمت عليه؟ قال: عزمت والله أن أفارق قومي وأتبعكم فإن الحق بينٌ؛ ثم حل يوقنًّا وأصحابه وسلم إليهم العدد والسلاح وقال ليوقنًّا: اعلم أن مفاتيح الأبواب عندي والعسكر خارج المدينة مشتغل بقتال العرب، وليس في المدينة من يخاف جانبه فانهض على اسم الله. فقال يوقنًّا: جزاك الله خيرًا فلقد هداك الله إلى دينه وسلك بك طريق النجاة وختم لك بخير. ويجب الآن علينا أن نظهر أنفسنا ونبعث في المراكب حتى ينزلوا إلينا ونكون نحن يدًا واحدة. فقال باسيل: سأفعل ذلك! ثم إنه خرج في حال الخفاء

وفتح باب البحر ومعه رجل من بني عم يوقنَّا وركبا زورقًا حتى وصلا إلى البحر والمراكب وحدثاهم بما قد كان فأقبل كل مركب برجاله إليهما وساروا إلى أن نزل الجميع وحصلوا داخل المدينة -أعني مدينة صور- وأعمى الله أبصار الكفار، فلما هموا أن يثوروا قال يوقنَّا: ليس هذا من الرأي وأين من يهب نفسه لله - عز وجل - ويخفي أمره ويخرج من الباب ويدور إلى عسكر المسلمين ويتوصل إلى أميرهم ويعلمه بما كان منا ويكون على أهبة، وإذا سمع بنا أحد لا يهوله وليصدم جيش العدو؟

فقال رجل من القوم: أنا أكون ذلك الرجل، ثم خرج متنكرًا وأغلق باسيل خلفه الباب، ووصل إلى يزيد بن أبي سفيان وحدَّثه بالأمر على حقيقته وبما كان من أمر يوقنَّا فسجد لله شكرًا وبعث من ساعته إلى المسلمين ليأخذوا على أنفسهم في الكبسة على القوم ففعلوا ذلك. وأما يوقنَّا -رحمه الله-، فلما علم أن الخبر وصل إلى المسلمين قال لأصحابه: ليصعد منكم خمسمائة رجل إلى السور ويقتلوا من عليه. قال باسيل: ليس هذا رأيًا فإن العوام لا اعتبار لهم ولعل الله أن يهديهم إلى الإسلام ولكن مر أصحابك أن يلزموا مطالع السور حتى لا

ينزل أحد منهم ويزعقوا بالأمان. فاستصوب رأيه! ووكَّل الرجال بالمطالع ثم زعق يوقنًّا وأصحابه بصوت مزعج وقالوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله!

فسمع كل من في المدينة ومن على السور ذلك فعلموا أن يوقنًّا وأصحابه تخلصوا من الأسر ووثبوا في المدينة، وطارت عقولهم وانزعجت أفئدتهم على أولادهم وأهاليهم، فبقوا في حيرة! فسمع يزيد بن أبي سفيان الضجة فعلم أن المسلمين قاموا في المدينة فكبر وكبرت المسلمون وهلل الموحدون فسمع الدمستق الضجة من المدينة فعلم أن يوقنًّا وأصحابه تخلصوا من الأسر وهم الذين فعلوا ذلك فوقع الرعب في قلوبهم ونظروا إلى النيران قد اشتعلت في عسكر المسلمين وتأهبوا للحملة عليهم فلم يبق لهم صبر وقد انقطعت قلوبهم من أجل أموالهم وأولادهم الذين في داخل المدينة وقيسارية محاصرة، وليس لهم مدد من ولد الملك فولَّوا الأدبار، واتبع المسلمون آثارهم وملكوا خيامهم وما كان فيها.

فلما أصبح الصباح فتح يوقنًّا باب المدينة ودخل يزيد بن أبي سفيان ومن معه من المسلمين واحتووا على أموال الروم ونادى من كان على السور:

الغوث! فأمَّنهم المسلمون ونزلوا بأجمعهم، فقال لهم يزيد: إن الله – عز وجل – قد فتح لنا مدينتكم عنوة وأنتم الآن لنا عبيد، فما شئنا حكمنا فيكم، ولكن نحن إذا عاهدنا وفينا، وإذا قلنا صدقنا، وقد أعطيناكم الأمان من أنفسنا ولكن عليكم الجزية على من لم يدخل في ديننا، ومن أسلم منكم فله ما لنا وعليه ما علينا، فأجاب القوم إلى ذلك وأسلم أكثرهم وبلغ الخبر إلى فلسطين بأن صور قد فتحت، فعلم أنه لا بقاء له فأخذ الفرصة وانهزم وأخذ خزائنه وأمواله وذخائره وخدمه وأركبهم في المراكب بالليل وأقلع يريد اللحوق إلى القسطنطينية. فلما نظر أهل قيسارية إلى ذلك خرجوا إلى عمرو بن العاص وصالحوه على أن يسلموا له المدينة فصالحهم على مائة ألف درهم وما ترك الملك من خزائنه ورجاله فأجابوه إلى ذلك وكتب لهم كتاب الصلح فعندها دخل عمرو بن العاص إلى قيسارية وأخذ بقية ما ترك الملك وضرب الجزية عليهم من السنة الآتية كل رجل أربعة دنانير. وبعث عمرو جيشًا إلى صور مع ياسر بن عمار بن سلمة وكان شيخًا كبيرًا قد شهد مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حنينًا والنضير فبعثه عمرو إلى صور ومعه رجل من أصحابه، قال: ودخلها يوم الأربعاء في العشر الأول من رجب الفرد سنة تسع عشرة من الهجرة

ووصل الخبر إلى الرملة وعكاء وعسقلان ونابلس وطبرية فعقدوا كلهم صلحًا مع المسلمين وكذلك أهل بيروت وجبلة واللاذقية، ومَلَّكَ الله الشام كله للمسلمين ببركة سيد المرسلين - صلى الله عليه وسلم -.

تم الجزء الأول

والحمد لله رب العالمين.

{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا}

ذكر فتوح مصر

بسم الله الرحمن الرحيم وهو حسبي. قال زياد بن عامر:.... لما فتح عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قيسارية صلحًا كان لعمر في الخلافة أربعة أعوام وستة أشهر وبلغ الخبر إلى أهل الرملة وعكاء وبلقاء وعسقلان وصيدا وغزة ونابلس وطبرية فأتى كبراؤهم إلى أبي عبيدة وأصلحوا أمرهم معه على مال لا يحصى وكذلك أهل بيروت وجبلة واللاذقية وأنفذ أبو عبيدة لعمرو بن العاص أن يسير إلى مصر بأمر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، وملك المسلمون أقاصي البلاد ببركة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وعظَّم وكرَّم. قال: وسكنها العرب وتفرقوا في البلاد والمدن ودانت لهم العباد وكل يوم يزدادون فلم يبق في الشام وأعمالها مركز من مراكز الروم إلا أخذه المسلمون وتوالدوا وتناسلوا وكثروا ببركة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم -.

قال محمد بن إسحق الأموي رحمه الله تعالى:.... أخبرني يحيى بن ساكن المدني قراءة عليه يوم الجمعة، ونحن عند منبر يونس بن متى قال: لما فتح الله ساحل الشام على المسلمين في سنة تسع عشرة من هجرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كتبوا بذلك إلى أمير جيوش المسلمين أبي عبيدة عامر بن الجراح: بسم الله الرحمن الرحيم. من عمرو بن العاص إلى أمين الأمة. أما بعد: فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - وأن الله - جل جلاله - قد فتح ما كان قد بقي من الساحل وأخذنا قيسارية صلحًا وهرب منها فلسطين بن هرقل بأمواله وعياله ونحن بها ننتظر أمرك والسلام. وكتب أيضا يزيد بن أبي سفيان بما تم لـ «يوقنَّا» في صور وأن الله قد عضد الدين ووصل الكتابان إلى أبي عبيدة وقد رحل من حلب يريد طبرية فوصل إليه الخبر وهو نازل على الزراعة، فلما قرأ الكتابين تهلل وجهه فرحًا وضج المسلمون بالتهليل والتكبير وكتب من وقته وساعته إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يبشره بما فتح الله على المسلمين وبما فعله «يوقنَّا» ووجه الكتاب مع عرفجة بن مازن فركب ناقته وسار حتى وصل المدينة.

قال عرفجة بن مازن: وعليَّ من ديباج الروم قباء فاخر وعلى رأسي مطرف خز مذهب. قال: فلما أتيت المدينة ودخلتها يوم الجمعة أول ليلة من شهر رمضان قبل مغيب الشمس، وعمر - رضي الله عنه - قد أتى يريد المسجد، فلما أبركت ناقتي وعقلتها وجئته لأسلم عليه نظر إليَّ شزرًا وقال: من الرجل؟ قلت: عرفجة بن مازن. فقال: يا ابن مازن أما كان لك برسول الله أسوة حسنة وأنَّ هذه ثياب الجبارين ومن جعل الله لهم الدنيا جنة، وهذا الديباج حرام على الرجال منَّا ولا يصلح إلا للنساء، وهذا الذي عليك تصدق به على فقراء المدينة. أما والله لقد دخلت يومًا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو نائم على سرير مرمل بشريط، وليس بين جلده وبين الشريط شيء، وقد أثر الشريط في نعومة جلد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فلما رأيت ذلك بكيت. فقال لي: يا عمر ما الذي أبكاك؟ فقلت: يا رسول الله إن كسرى وقيصر يعيشان في ملك الدنيا وأنت رسول الله بهذه المثابة. فقال: يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة.

قال عرفجة: فسلمت إليه الكتاب، فلما قرأه تهللت أسارير وجهه. ثم نزلت على خالتي عفراء بنت أبي أيوب الأنصاري وبت عندها ليلتي، فلما أصبحت لم أقدر أن أقابل عمر بذلك الزي فأعطيت الثوب والعمامة لخالتي فباعتهما وتصدقت بثمنهما على فقراء المدينة! وسرت إلى عمر وعليَّ ثوب من كرابيس الشام كان تحت ثيابي فلما رآني تبسم في وجهي، وقال: يا ابن مازن ما فعلت بديباجتك؟ قلت: يا أمير المؤمنين باعتها خالتي وتصدقت بثمنها على المسلمين فقرأ عمر «وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّٰهُ»، ثمَّ إنَّه كتب إلى أبي عبيدة يقول: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح أما بعد: فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد فرحت بما فتح الله على المسلمين وما وعدنا به رسول الله من كنوز قيصر وسيفتح علينا من كنوز كسرى، والحمد لله على ذلك كثيرًا وقد بلغني أن بادية الأعراب قد استلذوا الدنيا وزينتها، وقد نصبت لهم شباك محبتها، وقد تمسكوا بذيل غرورها ونسوا نعيم الجنة وقصورها ورفلوا في ثياب الديباج والخز وأكلوا الحلواء وخبز الحنطة ولهاهم ذلك عن الآخرة!

وقد بلغني يا ابن الجراح أنهم قد تهاونوا بالصلاة ونسوا المفترضات، فجرد عليهم عتاق الخيل ذوات الهمم وأغلظ عليهم، ولا تكن لهم خاملًا فيطمعوا فيك، ومن أخل منهم بشيء مما فرض عليهم فأقم فيهم حدود الله، واعلم بأنك راع ومسؤول عن رعيته. قال الله - عز وجل -: «الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ»، وقد قال فيك رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «أبو عبيدة أمين هذه الأمة» فأعط الأمانة حقها! ومن ترك صلاته فاضربه عليها، ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه اشتغالًا بالصلاة وبعظمة الله، وعنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «إن الله - عز وجل - يقول: إن بيوتي في الأرض المساجد وإن زارني فيها عمارها بالعبادة فطوبى لعبد تطهر في بيته، ثم زارني فحق على المزور أن يكرم زائره» وقال - صلى الله عليه وسلم -: «جميع المفترضات افترضها الله علي في الأرض إلا الصلاة فإن الله افترضها عليَّ في السماء» وإذا قرأت كتابي هذا فأمر عمرو بن العاص أن يتوجه إلى مصر بعسكره ويقدمهم عامر بن ربيعة العامري ومشايخ من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يفضي بهم عند مشورته، وأنفذ من قدرت

عليه من أرض ربيعة وديار الجد بن صالح والله أسأل أن يكون لكم عونًا ومعينًا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وسلَّم الكتاب إلى عرفجة بن مازن وأمر له بنفقة من بيت المال.

قال عرفجة: فأخذت الكتاب وسرت به على طريق تيماء فلقيت عند «بيت لحم» ركبًا من أهل وادي القرى، فسألتهم عن أبي عبيدة فأخبروني أنه على غباغب وهو طالب طبرية، فالتقيت بأبي عبيدة على الأردن، فسلمت عليه وناولته كتاب عمر - رضي الله عنه - فلما قرأه جمع المسلمين وقرأه عليهم، فلما فرغ قال: ما من رجل ترك الصلاة أو أخلَّ بشيء مما افترضه الله عليه إلا جلدته، ومن الغد أتى خالد بن الوليد من طرابلس فقرأ عليه الكتاب وأنفذه إلى عمرو بن العاص وأرسل يحثه على المسير إلى أرض مصر، فلما وصل إلى عمرو أخذ على نفسه بالمسير وسار معه يزيد بن أبي سفيان وعامر بن ربيعة العامري وجماعة من الصحابة وسار معه «يوقنَّا» في أربعة آلاف من أصحابه وقد وهبوا أنفسهم لله ورسوله، فسار عمرو على البيداء من وراء العريش، وكانت أرض مصر وريفها عامرة بالديور والصوامع وكان دير الزجاج في مملكة

القبط، وكان معهم يومئذ «المقوقس بن راعيل» وكان هذا الملك من أهل الرأي والتدبير والفضل والحكمة، وكان تلميذ الحكيم «أعاشادمون»، وكان المقوقس من أعلم أهل زمانه وكانت القبط معه في عيشة مرضية وكان يتوقع ظهور رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

وكان حكيم ذلك الزمان بمصر يقال له «عطماوس» وهو الذي صنع دواليب الريح ورحى الهواء، وكان عمَّر في الأجيال واطلع على مكنون الحكم والأسرار، وعرف عمل صنعة الإكسير وعمل الذهب والفضة والجوهر والحركات المتحركة من نفسها بهبوب الريح وأجناس الأهوية في أجسامها، وكان يجد في علمه أن الله يبعث نبيًا من أرض تهامة ينشر دينه وتعلو كلمته وتملك أصحابه البلاد، فعمل في أيام «راعيل أبي المقوقس» هيكلًا عظيمًا على أعمدة من نحاس، بمكان يعرف بـ «عين شمس» وجعل عليه أشخاصًا مجوّفة جعل وجهها إلى جهة مصر وكتب عليها بالقبطية إذا دارت هذه الأشخاص إلى جهة الحجاز فقد قرب ملك العرب قال: فبينما المقوقس راكب في بعض الأيام للصعيد وقت هجرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقد انتهى سيره إلى

«عين شمس» إذ هو سمع أصواتًا من الأشخاص قد علت ثم إنها حولت وجهها نحو الحجاز، فأيقن بتلف ملكه وزواله، فعاد من ركوبه وهو قلق ودخل «قصر الشمع» وجلس على سريره وجمع القسوس والرهبان وكبراء القبط، وقال لهم: يا أهل دين النصرانية اعلموا أن زمانكم قد مضى وهذا النبي المبعوث لاشك فيه وهو آخر الأنبياء ولا نبي بعده، وقد بعث بالرعب ولابد لرجل من أصحابه أن يملك ما تحت سريري هذا! فانظروا إلى ملككم وأصلحوا ذات بينكم وارفقوا برعيتكم ولا تجوروا في حكمكم، وأمنوا ضعفاءكم، وإياكم واتباع الظلم فإن الظلم وبيل ومرتعه وخيم، وأعطوا الحق من أنفسكم، ولا يستطل قويكم على ضعيفكم، وما دامت الدنيا لأحد من قبلكم حتى تدوم لكم! وكما ملكتموها ممن كان قبلكم كذلك يأخذها منكم من كان بعدكم، فأصلحوا نياتكم فيما بينكم وبين خالقكم فإن فعلتم ذلك رجوت لكم النصر على أعدائكم ومن يريدكم، وإن اتبعتم أهواءكم تبين هلاككم.

عن أبي إسحق راوي المغازي مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: لما جاء النبي – صلى الله عليه وسلم – من مكة إلى المدينة وبايعه الأوس

والخزرج كتب إلى ملوك الأرض، وفي الجملة كتابًا إلى المقوقس ملك مصر وكان الذي كتب الكتاب إليه أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -، ونسخة الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم من عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى صاحب مصر. أما بعد: فإن الله أرسلني رسولًا وأنزل عليَّ كتابًا قرآنًا مبينًا، وأمرني بالإنذار والأعذار، ومقاتلة الكفار حتى يدينوا بديني ويدخل الناس فيه، وقد دعوتك إلى الإقرار بوحدانية الله تعالى فإن أنت فعلت سعدت، وإن أنت أبيت شقيت والسلام، ثم طوى الكتاب وختمه بخاتمه. قال أنس بن مالك: فاستخرجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أصبعه وكان فصه عليه ثلاثة أسطر: السطر الأول محمد، السطر الثاني رسول، السطر الثالث الله ولا نقش أحد على خاتمه كنقشه. وقد حدثنا أنس بن مالك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يتختم في يساره، وحدثنا جعفر بن محمد عن أبيه قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن والحسين - رضي الله عنهم - جميعًا يتختمون في اليسار.

قال الراوي: فلما طبع الكتاب بخاتمه قال: أيها الناس أيكم ينطلق بكتابي هذا إلى صاحب مصر وأجره على الله. قال: فوثب إليه حاطب بن أبي بلتعة القرشي وقال: أنا يا رسول الله. فقال له: «بارك الله فيك يا حاطب». قال: فأخذت الكتاب من يد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وودعته وأصحابه وسرت إلى منزلي وشددت راحلتي وودعت أهلي واستقمت على الطريق إلى نحو مصر. فلما بعدت عن المدينة بثلاثة أيام أشرفت على ماء لبني بدر فأردت أن أورد ناقتي الماء وإذا على الماء رجلان ومعهما ناقتان ومعهما رجل آخر راكب على جواد أدهم، فلما رأيتهم وإذا بالفارس أتى إليَّ، وقال لي: من أين أقبلت، وأين تريد؟ فقلت: يا هذا لا تسأل عما لا يعنيك فتقع فيما يحزنك ويخزيك. أنا رجل عابر سبيل وسالك طريق. فقال: ما إياك أردنا ولا نحوك قصدنا نحن قوم لنا دم وثأر عند محمد بن عبد الله وقد جئت أنا وهذان الرجلان وتحالفنا على أن ندهمه على غفلة فلعلنا نجد منه غرة فنقتله. قال حاطب: والله لقد أمكنني الله منهم فلأجعلن جهادي فيهم ولو بالخديعة، فقد سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: الحرب خدعة.

فبينما أنا أخاطب الفارس وإذا بالراكبين قد وصلا إليَّ وقالا لي بغلظة وفظاظة: ويحك لعلك من أصحاب محمد؟ فقلت لهما: لقد كاد أن يتبدل لكما الطريق عن سبيل التحقيق، وإني رجل مثلكم أطلب ما تطلبون وأنا قاصد يثرب، وقد عوَّلت على صحبتكم لأكون معكم، ولكن سمعت في طريقي هذا ممن أثق به أن محمدًا أنفذ رسولًا من أصحابه إلى مصر بكتاب فلعله في هذا الوادي فإن وقعنا به قتلناه. فقال صاحب الفرس: أنا أسير معك ثم إنه تقدم أمامي وتركنا صاحبيه واقفين ينتظران.

قال حاطب: فلما بعدت به عن أصحابه وغبنا عنهما، قلت: ما اسمك. قال: اسمي سلاب بن عاصم الهمداني، قلت: يا سلاب اعلم أنه لا يقدر أن يدخل على يثرب إلا من كان له جنان وقلب وغدر ومكر لأن بها سادات الأرض وأبطالها مثل عمر وعلي، ولكن كيف سيفك؟ قال: سيفي ماض، قلت: أرني إياه فاستله من غمده وسلمه إليَّ فأخذت السيف من يده وهززته وقلت: سيف ماض، ثم قلت: سيوف حداد يا لؤي بن غالب... مواض ولكن أين للسيف ضارب؟! فقال: ما معنى هذا الكلام؟ قلت: يا ابن عاصم إن سيفك هذا من

ضرب قوم عاد من ولد شداد، وما ملكت العرب سيفًا مثله ولا أمضى من هذا السيف، ولكن وجب علي إكرامك وأريد التقرب إليك بحيلة أعلمك إياها تقتل بها عدوك. فقال: بذمة العرب افعل ذلك. فقال حاطب: إذا كنت في مقام حرب وقتال وخصمك بين يديك وتريد قتله فهز هذا السيف حتى يهتز هكذا وتلتئم مضاربه واضرب عدوك بحرفه فإنه أسرع للقتل والقطع، وملت بالسيف على عنقه وإذا برأسه طائر عن بدنه، فنزلت إليه وأمسكت الجواد لئلا ينفلت فينذر أصحابه، وتركته مربوطًا إلى شجرة وأسرعت إلى صاحبيه وإذا هما ينتظراننا.

فلما رأياني أقبل أحدهما إلي فقال: ما وراءك وأين سلاب؟ فقلت: أبشر بأخذ الثأر وكشف العار واعلم بأننا وجدنا رجلين من أصحاب محمد وهما نائمان، وقد وجهني سلاب بأن يمضي أحدكما حتى نتمكن منهما ويقف أحدكما ههنا، فإن هذا الوادي ما خلا ساعة من أصحاب محمد. فقال: نعم الرأي الذي أشرت به وسار معي، فلما غيبته عن صاحبه قلت: ما اسمك. قال: عبد اللات، قلت: كن رجلًا وإياك الخوف فإنك إن رأيتنا وقد هجمنا على الرجلين فاستيقظ. فقال: لابد أن أفعل ذلك، فقلت له: إني أرى غبرة ولاشك

أن تحتها قومًا ممن صبأ إلى دين محمد، فجعل يتأمل كأنه الواله الحيران فعاجلته بضربة على غفلة فرميت رأسه عن بدنه.

وعدت إلى الثالث، فلما رآني وحدي تيقن بالشر فقارعني وقارعته وصدمني وصدمته، إلا أن الله أعانني عليه فقتلته، وأخذت الراحلتين والفرس وأسلابهما ووضعت الجميع عند رجل من أصحابي، وكان رفيقًا لي من زمن الجاهلية وهو من عبد شمس، ثم توجهت أريد مصر ولم أزل إلى أن أتيتها، فلما وصلت إلى باب الملك، قالوا: من أين جئت؟ قلت: أنا رسول إلى ملككم، فقالوا: من عند من؟ قلت: من عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فلما سمعوا بذلك أحاطوا بي وأوصلوني إلى قصر الشمع بعد أن استأذنوا لي وأوقفوني على باب الملك فأمرهم بإحضاري بين يديه، فعقلت راحلتي وسرت معهم عند المقوقس وإذا هو في قبة كثر الجوهر في حافتها ولمع الياقوت من أركانها، والحجاب بين يديه. فأومأت بتحية الإسلام.

فقال حاجبه: يا أخا العرب أين رسالتك؟ قال: فأخرجت الكتاب فأخذه الملك من يدي بيده. فباسه ووضعه على عينيه، وقال: مرحبًا بكتاب النبي

العربي، ثم قرأه وزيره «الباكلمين»، فقال له: اقرأه جهرًا فإنه من عند رجل كريم، فقرأه الوزير إلى أن أتى إلى آخره. فقال الملك لخادمه الكبير: هات السفط الذي عندك فأتى به، ففتحه واستخرج نمطًا ففتح ذلك النمط وإذا فيه صفة آدم وجميع الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وفي آخره صفة محمد - صلى الله عليه وسلم -. فقال لي: صف صاحبك حتى كأنني أراه. قال حاطب: ومن يقدر أن يصف عضوًا من أعضاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. فقال: لابد من ذلك. قال: فوقفت بعدما كنت جالسًا وقلت: إن صاحبي وسيم قسيم معتدل القامة، بعيد الهامة، بين كتفيه شامة، وله علامة كالقمر إذا برز، صاحب خشوع وديانة وعفة وصيانة، صادق اللهجة وواضح البهجة، أشم العرنين، واضح الجبين سهل الخدين، رقيق الشفتين، براق الثنايا، بعينيه دعج، وبحاجبيه زجج، وصدره يترجرج، وبطنه كطي الثوب المدبج، له لسان فصيح ونسب صحيح وخلق مليح! والملك ينظر في النمط.

فلما فرغت قال: صدقت يا عربي هكذا صفته، فبينما هو يخاطبني إذ نصبت الموائد وأحضروا الطعام، فأمرني أن أتقدم فامتنعت فتبسَّم وقال: وقد علمت

ما أحل لكم وحرَّم عليكم، ولم أقدم لك إلا لحم الطير. فقلت: إني لا آكل في هذه الصحاف من الذهب والفضة فإن الله قد وعدنا بها في الجنة، قال: فبدلوا طعامي في صحاف فخار فأكلت. فقال: أي طعام أحب إلى صاحبك؟ فقلت: الدباء -يعني القرع- فإذا كان عندنا شيء منه آثرناه على غيره. فقال: ففي أي شيء يشرب الماء؟ فقلت: في قعب من خشب. قال: أيحب الهدية؟ قلت: نعم فإنه قال - صلى الله عليه وسلم -: «لو دعيت إلى كراع لأجبت، ولو أهدي إلي ذراع لقبلت». قال: أيأكل الصدقة؟ قلت: لا بل يقبل الهدية ويأبى الصدقة، وقد رأيته إذا أتي بهدية لا يأكل منها حتى يأكل صاحبها. فقال الملك: أيكتحل؟ قلت: نعم، في عينه اليمنى ثلاثًا وفي اليسرى اثنتين، وقال: «من شاء اكتحل أكثر من ذلك أو أقل» وكحله الإثمد، وينظر في المرآة، ويرجل شعره ويستاك.

فقال المقوقس: إذا ركب ما الذي يحمل على رأسه؟ فقلت: راية سوداء ولواء أبيض وعلى اللواء مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله. فقال: أله كرسي يجلس عليه أو قبة؟ قلت: نعم له قبة حمراء تسع نحو الأربعين. قال: فما الذي يحب من الخيل؟ قلت: الأشقر الأرتم الأغر المحجل في الساق، وقد

تركت عنده فرسًا يقال لها المرعد. فلما سمع كلامي انتخب من خيله فرسًا من أفخر خيول مصر الموصوفة، وأمر به فأسرج وألجم فأعده هدية لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو فرسه المأمون وأرسل معه حمارًا يقال له عفير، وبغلة يقال لها دلدل، وجارية اسمها بريرة وكانت سوداء، وجارية بيضاء من أجمل بنات القبط اسمها مارية، وغلام اسمه محبوب، وطيب وعود وند ومسك وعمائم وقباطي، وأمر وزيره أن يكتب إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كتابًا يقول فيه: باسمك اللهم من المقوقس إلى محمد. أما بعد: فقد وصل إليَّ كتابك وفهمته، وأنت تقول: إن الله أرسلك رسولًا وفضلك تفضيلًا وأنزل عليك قرآنًا مبينًا، فكشفنا يا محمد خبرك، فوجدناك أقرب داع إلى الله وأصدق من تكلم بالصدق، ولولا أنني ملكت ملكًا عظيمًا لكنت أول من آمن بك لعلمي أنك خاتم النبيين وإمام المرسلين، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته مني إلى يوم الدين. قال: وسلم الكتاب والهدية إليَّ وقبَّلني بين عيني وقال: بالله عليك قبِّل بين عيني محمد عني هكذا، ثم بعث معي من يوصلني إلى بلاد العرب وإلى مأمني. قال: فوجدنا قافلة من بلاد الشام وهي تريد

المدينة فصحبتها إلى أن وردت المدينة فأتيت المسجد وأنخت ناقتي ودخلت وسلمت على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأنشأت أقول:

أنعم صباحًا يا وسيلة أحمد ... نرجو النجاة غدًا بيوم الموقف
إني مضيت إلى الذي أرسلتني ... أطوي المهامه كالمجدّ المعنف
حتى رأيت بمصر صاحب ملكهم ... فبدا إليَّ بمثل قول المنصف
فقرأ كتابك حين فكّ ختامه ... فأطلَّ يرعد كاهتزاز المرهف
قال البطارقة الذين تجمعوا ... ماذا يروعك من كتاب مشرف
قال اسكتوا يا ويلكم وتيقنوا ... هذا كتاب من نبيٍّ المصحف
قالوا وهمت فقال لست بواهم ... إني قرأت بيان لفظ الأحرف
وبكل سطر من كتاب محمد ... خط يلوح لناظر متوقف
هذا الكتاب كتابه لك جامعًا ... يا خير مأمول بحبك نكتفي

قال الراوي: ورجعنا إلى الفتوح، قال: حدثني أحمد بن عبيد عن عبد الله بن عمر السلمي عن محمد الزهري عن عبد الله بن زيد الهذلي عن أبي إسحق الأموي وهو المعتمد عليه في فتوح مصر وأرض ربيعة والفرس.

حدثنا عمر بن حفص:.... أن عمرو بن العاص لما انفصل من ساحل الشام وكتب الله سلامة المسلمين وسار متوجهًا يريد أرض مصر؟ فلما كان بمكان يقال له رفح قال له «يوقنَّا»: يا عمرو أنت تريد أن تدهم مصر على حين غفلة من أهلها، وأنا ممن يمكنني ذلك لأن ثواب الله أجل غنيمة، فإن قلبي ملوث بحب الدنيا وإني كنت ممن أشرك بالله سواه، وأنا أجتهد في الخلاص وأقاتل من كنت أنصره على الكفر وعبادة الصلبان والسجود للصور من دون الله، وقد أخذت الإسلام بنية وقبول لأنه الحق وأريد أن أتقدم إلى أرض مصر فلعلي أجد لكم بالحيلة سبيلًا. فقال عمرو: وفقك الله وأعانك وحفظك وصانك.

فسار «يوقنَّا» ليلًا من رفح يطلب «الفرماء» ولم يقرب من «العريش» ولا «القاربا» وكلها حصون عامرة وقد سكنها أقوام من العرب المختلطة، وكانوا يؤدون المال إلى الملك المقوقس بن راعيل، وسنذكر فتوحها فيما بعد إن شاء الله تعالى. قال: وإن «يوقنَّا» أشرف على الفرماء، وكان بها وال من قبل المقوقس اسمه «الرندبان»، والفرماء على جانب بحيرة تنيس من الشرق، فرأى «يوقنَّا» خيامًا منصوبة وقبابًا مضروبة، فلما رأوا «يوقنَّا» وقع الصائح، فركب

من كان هناك وكانت الأخبار ترد عليهم كل وقت بما صنع الصحابة، فلما بلغهم أن «قيسارية» فتحت اغتموا لذلك، لأن «فلسطين بن هرقل» قد كان تزوج بابنة المقوقس «أرمانوسة»، وكان قد جهزها أبوها وأرسلها مع غلمانها وأموالها إلى بلبيس، ثم إنها وجهت حاجبها «تميلاطوس» إلى الفرماء في ألفي فارس لحفظ ذلك المكان.

الاستعداد

قال ابن إسحق: حدثني رجل من القبط رأيته وقد دخل في دين الإسلام فقربت إليه وسألته فأخبرني أنه من قبط مصر من جند المقوقس فقلت له: كيف كان من أمركم لما سمعتم بقدوم المسلمين من الشام وكسر جيوش هرقل؟ قال: لما بلغنا ذلك بعث المقوقس رسله إلى جميع أطراف بلاده مما يلي الشام بأن لا يتركوا أحدًا من الروم ولا غيرهم يدخل أرض مصر، كل ذلك لئلا يتحدثوا بما صنع المسلمون بجنود هرقل فيدخل الرعب في قلوب قومه فلأجل ذلك أنه لما دخل «يوقنًا» أرض مصر لم يعلم به أحد فلما ركبوا إلى لقائه ورأوا حشده وعسكره وكانوا بزي الروم سألوه عن مكانه وكان قد أخبر في طريقه من

حصن كيفا وأعلموه بابتعاد فلسطين عن زوجته أرمانوسة..، وأن أباها قد جهزها وهي على مدينة بلبيس. فقال «يوقنَّا»: ومتى تزوجها؟ قالوا: تزوجها والمسلمون على حصن حلب. فقال لهم: إنه قد ركب في البحر وترك قيسارية وقد أرسلني حتى آخذها في المراكب من دمياط، ومضى «يوقنَّا» يقول: أنا قد جئت رسولًا من الملك فلسطين إلى الملك المقوقس حتى يرسل معي ابنته إلى زوجها، فلما سمعوا كلامه قالوا: إن الملكة في بلبيس وقد أنفذها إليه، وما منعها من السير إلا خوف العرب وهروب فلسطين من قيسارية، فسار «يوقنَّا» حتى قرب من بلبيس فنزل هناك وسار حاجبها إليها وعرفها بما قاله «يوقنَّا». فقالت: عليَّ به، فأتى إليه الحاجب، وأمره بالمسير فركب وركب أصحابه وهم بأحسن زي وأتوا إلى عسكر أرمانوسة وإذا به عسكر كبير أكثر من عشرة آلاف، قال: فترجل «يوقنَّا» وترجل قومه ووقفوا على باب قصرها واستأذنوا عليها فأذنت لهم بالدخول، فلما وقفوا بين يديها خضعوا لها فأمرت لهم بكراسي فوضعت لهم، فأمرتهم بالجلوس فجلسوا، ووقف الحجاب والمماليك والخدم.

فقالت الملكة أرمانوسة له من غير ترجمان: كم لكم عن الملك؟ فقال: شهر. فقالت: أكان رحل من المراكب أم قبل رحيله. فقال «يوقنَّا»: بل قبل رحيله وحين ركب منهزمًا، ولما وصلت إلى غزة بلغني أنه سار وقد قال لي في السر بيني وبينه: لا طاقة لنا بقتال هؤلاء العرب، فإن أبي هرقل ترك أنطاكية وذهب، وقد قاتلهم بجميع جنوده، واستنصر عليهم بجميع دين النصرانية، وأنفذ إليهم ماهان الأرمني إلى اليرموك في ألف ألف فهزموه وقتلوه، وإني أريد أن آخذ خزائني وأطلب القسطنطينية، ثم إنه وجهني إليك أيتها الملكة لتركبي في المركب إليه. قال: فلما سمعت ذلك أطرقت برأسها إلى الأرض ثم رفعت رأسها وقالت: إني لا أقدر أن أصنع شيئًا إلا بأمر الملك أبي وإني مرسلة إليه. قال: فقام «يوقنَّا» وصقع لها ودعا ثم خرج من عندها فوجد غلمانه قد ضربوا خيامه فنزل بها وأرسلت إليه العلوفة والضيافة.

قال ابن إسحق الأموي - رضي الله عنه -: ولقد بلغني أنه لما جنَّ الليل أتت إليها الجواسيس وأعلموها بفتح قيسارية ومدائن الساحل جميعها وبتوجه عمرو بن العاص إلى مصر وبحديث «يوقنَّا» صاحب حلب وحذروها منه

وعرفوها بجميع الأخبار مفصلة وأنه هو الذي فتح طرابلس وصور وجبلة. قال: فلما سمعت ذلك دخل في قلبها الرعب وعلمت أنه محتال فطلبت حاجبها وقالت له: مر العسكر بلبس السلاح وأن يكونوا مستيقظين فقد جرى من الأمر كذا وكذا ثم إنها أوقفت مماليكها وغلمانها وقالت لهم: إذا دخل هذا الرجل وخواصه فاقبضوا عليهم فإذا نحن ملكناهم انخذل عسكر المسلمين، فلما رتبت هذا أرسلت تطلب «يوقنَّا» فذهب حاجبها إليه وقال له: أيها البطريق الكبير إن الملكة تطلبك لتوصيك بما تقوله لأبيها، فقال له: السمع والطاعة ها أنا راكب وأصحابي، فذهب الحاجب. فقال «يوقنَّا» لأصحابه: اعلموا أن الملكة شعرت بنا والقوم قد عوَّلوا على قتلنا فإن حصلنا في أيديهم قتلونا لا محالة وتضرب بنا الأمثال لمن يأتي بعدنا فموتوا كرامًا ولا تلقوا بأيديكم إلى القتل بأيدي الكفار، وكونوا نصرة لدين الإسلام، وما عسى نرجو من هذه الدنيا الغدارة التي ما صفت لأحد إلا وغيرته بالكدر فاعمروا دار البقاء وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده فلعلكم ترضونه بذلك. قال: فأخذ القوم على أنفسهم واشتدوا وركبوا وتوكلوا على الله في جميع أمورهم.

حدثنا ابن إسحق قال: لقد بلغني أن الملكة أقامت تنتظر قدومهم لتقبض عليهم فاستبطأتهم فبعثت رسولًا ثانيًا تستحثهم. فقال له «يوقنَّا»: ارجع إلى صاحبتك وقل لها ما جرت بذلك عادة الملوك يبعثون يطلبون الرسل إلا لأمر يحدث وقد كنت عندها فما الذي تريده نصف الليل مني؟! فعاد الرسول وأخبرها بما قاله فركبت من وقتها وتقدمت وتقدمها حاجبها وأمرت الجيش كله أن يركب ودارت بـ «يوقنَّا» وأصحابه ولم تحدث بشيء إلى الصباح فأقبل صاحب الملكة إليهم وقال: ما حملكم أن تركتم دين آبائكم وهجرتم دين المسيح وأمه وقد جئتم تحتالون علينا؛ ألا وإن المسيح قد غضب عليكم. فقال «يوقنَّا»: إن المسيح عبد من عبيد الله لا يقدر على شيء لأنه مأمور ومكلف وقد أنطقه الله بذلك وهو في المهد فقال:

«إِنِّي عَبْدُ اللهِ»، وقال: «وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا»، «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا»، ومن يؤمر بالصلاة والزكاة ويموت فليس بإله إنما هو عبد الله مكلف بالعبادة مثل واحد منا، وأن الله لا

يتشبه بأحد منا، وأن الله لا يشبهه شيء ولا يتشبه بأحد، ولقد أضلكم من صدكم عن ذلك، وزاغ بكم عن طريق الحق بقوله على الله والمسيح!

ولقد كنا مثلكم نسجد للصلبان ونعظم القربان ونسجد للصور ونجعل مع الله إلهًا آخر إلى أن تبين لنا دين محمد - صلى الله عليه وسلم - فشفانا بعد العمى وشرح صدورنا للهدى، ودين الإسلام هو الدين الواضح وكنا نقول مثل قولكم إن المسيح ابن الله، وإن إبراهيم وإسحق كانا نصرانيين فكذبنا الله بقوله في كتابه: «مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»، وقال سبحانه: «وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ»، وها نحن قد جئناكم لنجاهدكم إما أن تقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله وإما الجزية وإما القتال! فلما سمع الحاجب كلامه قال لقومه: دونكم وهؤلاء قد جاؤوا يريدون قتلكم وأخذ أموالكم وأولادكم وحريمكم، قال: فحملوا على «يوقنًا» وأصحابه وعمل السيف بينهم بقية يومهم، فلما كان من الغد ركبوا وداروا بهم وتصايحت عليهم القبط، وقتلوا هم

من القبط خلقًا كثيرًا ولكنهم صبروا لأمر الله وقالوا: والله لا نسلم أنفسنا أو نموت كلنا فقد حصل لنا ما كنا نطلب من رضا ربنا.

قال ابن إسحق: لما أخبرت الجواسيس أرمانوسة بقصة «يوقنَّا» أنفذت كتابًا إلى أبيها المقوقس تعلمه بذلك وأنها مغلوبة معهم وأن العرب متوجهون مع رجل يقال له عمرو بن العاص وأنا منتظرة جوابك. فلما وصل الكتاب إليه دعا أرباب دولته وقال لهم: قد تم من الأمر علي كذا وكذا فما تشيرون به عليَّ؟ قالوا: أيها الملك نرى لك من الأمر أن تنفذ جيشًا إلى الملكة ينصرها على عدوها، وتنفذ إلى «جلباب» ملك البرية تستنصر به على هؤلاء العرب، وتنفذ إلى «مازع بن قيس» ملك البجاوة ينفذ لك جيشًا، وتنفذ إلى من بالإسكندرية يأتون، وإلى من بالصعيد يأتون، فإذا اجتمعت إليك هذه الأمم فالق بهم العرب ولا تأمن لهم فيطمعوا فيك.

فقال: يا أهل دين النصرانية اعلموا أن الملك محتاج إلى سياسة، ومن ملك عقله ملك رأيه ومن ملك رأيه أمن من حوادث دهره وليست الغلبة بالكثرة وإنما هي بحسن التدبير، والله لقد كان قيصر أكثر مني جهدًا وأوسع بلادًا

وأعظم عدة وقد جمع من بلاد الروم إلى اليونانية ومن أقاليمه ومن القسطنطينية ومن سائر البلاد وبلاد الأندلس، واستنصر بنا وبغيرنا فما أغنى عنه جمعه شيئًا، ولا قدر أن يرد القضاء والقدر عنه، واعلموا أن العقل أساس الآدمي المخاطب المكلف المفضل به على سائر ما خلق على الأرض، فمن ملك عقله ملك أمره ومن لم يجد منه حالًا كان بجهله أرضيًا، ولن تنال الحكمة إلا بالعقل.

قال الحكيم ماسوسي: إن الحكمة مرقى جليل وطالبها نبيل وتاركها ذليل لأنها غذاء الأرواح وقوت القلوب، واعلموا أني لست أتكلم إلا بالصدق وأنتم تعلمون أن محمدًا في أيامه بعث إلينا، يدعونا إلى دينه فاستدليت على صدق قوله بكتابه وما ظهر من معجزاته وقد سمعتم أنه لما بعث ما سمع أحد بذكره إلا وخاف منه، وقد سمعتم أن القمر انشق له والذراع المسموم كلمه وقال: يا رسول الله إني مسموم فلا تأكلني وقد كلمه الضب والحجر والشجر والمدر وعرج به إلى السماء وركب أوج الماء وأول من تغلب عليه قومه وحاربه عشيرته حين أنكروا قوله وفعله فنصر عليهم وقهرهم وقد تبين لهم الحق فاتبعوه ونصروه، وهم هؤلاء الذين فتحوا الشام وما أنكرت من أمرهم شيئًا

فإنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون حدود الله التي أمر بها، وما في كتابهم شيء إلا وفي الإنجيل مثله.

وقد أضلكم «بولص» وأغواكم حين غرَّ بكم وبدَّل شرعكم وسمَّاكم باسم لا يليق بكم، وكيف وقد عاد بكم من الطريق الواضح وأحل لكم جميع ما حرم عليكم من قبل، وهذا هو عين المحال وداعية العمى أن تتعدوا ما قال نبيكم! وكيف نبغي لروح الله عيسى ابن مريم أن يكلمكم بما لم يرسله الله إليكم. ثم إن «بولص» قال لكم: إنه أحل لكم الخنزير وشرب الخمر وارتكاب المعاصي ما ظهر منها وما بطن فأطعتم أمره وصدقتم قوله! وحاشا المسيح أن يفعل ذلك، وما كان أحد من الأنبياء إلا على ما جاء به محمد، وهؤلاء الحكماء الأولون ما منهم إلا من يتكلم بوحدانية الله تعالى. فأطرقوا برؤوسهم إلى الأرض غيظًا على الملك.

وما تكلم المقوقس بهذا الكلام حتى أوقف عنده من مماليكه ألف غلام فوق رأسه بالسيف، لأنه كان قد سمع ما جرى لقيصر وهرقل مع بطارقته لما جمعهم ونصحهم فوثبوا عليه وأرادوا قتله. أما المقوقس فإنه استوثق بمماليكه

حتى لا يُطمع فيه. قال: فلما تكلم بذلك قال له وزيره: أيها الملك رأيك راجح وأنا أول من يؤمن بما تقول. فقال للوزير: اكتب إلى ابنتي كتابًا تأمرها فيه أن تتلطف بالقوم وتعطيهم الأمان وتنفذهم إلينا حتى نخلع عليهم ونطيب قلوبهم ويكونوا معنا يقاتلون من يريد قتالنا، وما أراد بذلك إلا أن يَسْلم مثل «يوقنَّا» وأصحابه إذ هم على الحق. قال: فكتب الوزير إلى الملكة كتابًا بما قاله أبوها، فلما وصل الكتاب إليها وقرئ عليها أمرت أصحابها أن يرجعوا عن قتل «يوقنَّا» ومن معه فرجعوا، وأرسلت إلى «يوقنَّا» تعلمه بكتاب أبيها وأرسلت إليه الكتاب، فلما قرأه قال لرسولها: امض إليها حتى أستخير الله تعالى في ذلك. ثم قال لأصحابه: إن الله قد كشف حجاب الغفلة عن قلب هذا الملك وقد ظهر له ما ظهر لنا من الحق فما الذي ترون من الرأي؟ قالوا: نحن نسمع من رأيك. فقال: دعوني هذه الليلة.

فلما جنَّ عليه الليل قام يصلي وأمر أصحابه أن لا ينزلوا عن خيولهم مخافة من غدر القوم فبينما هو يصلي وإذا بشخص قد دخل فارتاع منه ثم تأمله فإذا هو عمرو بن أمية الضمري ساعي رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فلما رآه

«يوقنَّا» فرح وكان قد رآه مرارًا فقال له: مرحبًا يا عمرو من أين؟ فقال: إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعثني إلى عمرو بن العاص لأحثه على المسير إلى مصر فوجدته قد وصل وها هو منك قريب وقد أرسلني إليك لأعرفه خبرك، فأخبره بما وقع له وقال له: امض يا عمرو ودعه يعجل بالمجيء يعيننا على هؤلاء القوم، وحدِّثه بجميع ما جرى علينا. فرجع عمرو مسرعًا إلى عمرو بن العاص وأعلمه بقصة «يوقنَّا»...

فترك عمرو بن العاص الأثقال ومعها من يحفظها وركب وسار بجرائد الخيل وترك مع الأثقال عامر بن ربيعة العامري، فما كان قبل طلوع الفجر إلا وهو عند «يوقنَّا» فدار بالقوم فلما أحس بهم «يوقنَّا» كبر هو ومن معه ورفع الجميع أصواتهم بالتهليل والتكبير ووضعوا السيف في القبط، فما طلعت الشمس إلا وقد قتل من القبط أكثر من ألف وأسر منهم خلق كثير وولى الباقي منهزمين، وأخذت أرمانوسة ابنة الملك وجميع ما معها من الأموال والرجال والجواري والغلمان. فقال عمرو بن العاص لأصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: إن الله – سبحانه وتعالى – قد قال: «هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا

الْإِحْسَانُ»، وهذا الملك قد علمتم أنه كاتب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبعث له بهدية ونحن أحق من كافأ عن نبيه - صلى الله عليه وسلم - هديته وكان يقبل الهدية ويشكر عليها، وقد رأيت أن ننفذ إلى المقوقس ابنته وما أخذنا معها ونحن نتبع سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد سمعته يقول: «ارحموا عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر» فاستصوبوا رأيه فبعث بها مكرمة مع جميع ما معها مع قيس بن سعد - رضي الله عنه -.

ذكر فتح مدن مصر

قال ابن إسحق الأموي - رضي الله عنه -: لما ورد المنهزمون على الملك وأخبروه بما تم عليهم وعلى ابنته... ضاق صدره وبقي متفكرًا فيما يصنع وليس له نية في القتال مع الصحابة فبينما هو متفكر إذ جاءه البشير بقدوم ابنته وما معها فخفف عنه بعض ما كان يجده، فلما دخل عليه قيس رفع مجلسه فوق الملوك والحجاب وأرباب دولته وكانوا قد اجتمعوا يهنئونه بابنته، فلما حضر قيس بن سعد سأله الملك عن أشياء لعل أصحابه أن تلين قلوبهم إلى الإسلام. فقال: يا أخا العرب أخبرني عن صاحبكم ما الذي كان يركب من الخيل؟ قال:

الأشقر الأرتم المحجل في الساق وكان اسمه المترجل. فقال: لقد بلغنا أنه كان لا يركب إلا الجمال. فقال قيس: إن الله أكرم الإبل وشرفها قال لها: كوني فكانت وأخرج ناقة من الصخر وخص بها العرب من دون غيرهم من بني آدم وكان يركبها لكونها قد جعلها الله مباركة تقنع بما تجد وتصبر على الحمل الثقيل والسير الشديد وتصبر على الماء أيامًا وقد ذكرها ربنا في قوله في كتابه العزيز، فقال: «وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ»، وقال: «وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللهِ».

ولما غزا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من غزواته غزوة بدر كان معه مائة ناضح من الإبل وكانمعه فرسان يركب أحدهما المقداد بن الأسود الكندي ويركب الآخر مصعب بن عمير وإنَّا لقينا قريشًا في عددها وعديدها فهربوا ببركة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وكان أصحابه يتعاقبون في الطريق، وكان عليه الصلاة والسلام وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد حليف حمزة بن عبد المطلب وغيرهم يتعاقبون شامخًا، وكان أيها الملك يركب الحمار الذي أهديته إليه ويردف وراءه معاذ بن جبل، وعلى الحمار ركاب من ليف وخطامه

ليف، واعلم يا ملك القبط أنه كان يخصف نعله ويرقِّع ثوبه ويقول: «من رغب عن سنتي فليس مني»، وكان قميصه من القطن قصير الطول والكفين ليس له أزرار، ولقد أهدى إليه ذو يزن جبة اشتراها له قومه بثلاثة وثلاثين بعيرًا فلبسها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مرة واحدة وأهدى له جبة من الشام فلبسها حتى تخرقت، وخفين فلبسهما حتى تخرقا، وكان له رداء طوله أربعة أذرع وعرضه ذراعان ونصف، وكان له ثوب خز يلبسه للوفد إذا قدموا عليه، وكان أفصح الناس إذا تكلم بكلمة يرددها ثلاثًا، وكلما رأى قومًا سلم عليهم، ورأيته كلما تحدث تبسم في حديثه، وكان إذا اجتمع إليه أصحابه وأراد أن ينهض. قال: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، قلنا: يا رسول الله إن هذه الكلمات اتخذتهن عادة. قال: أمرني بهن جبريل وأخرجت لنا زوجته لما قبض كساء وإزارًا غليظين، وقالت: قبض رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فوق هذين!

فقال المقوقس: هذه والله أخلاق الأنبياء فطوبى لمن اتبعه، فإن أمته هي الأمة الموصوفة في الإنجيل، فقال بعض من حضر: أيها الملك ما تكون أمة عند

الله أفضل من هذه الأمة وهُمْ نحن فغضب الملك من قوله، وقال: وبأي شيء أنتم أفضل عند الله؟! أبأكلكم الحرام وارتكابكم الآثام وصنعكم المنكرات وتجنبكم الحسنات، وظلمكم في الرعية وميلكم إلى الدنيا!! أين أنتم من قوم عبر عليهم الإسكندر فرآهم ليس بينهم قاض ولا حاكم ولا أمير قائم عليه ولا فيهم من يختص بالغنى دون أخيه، بل هم سواء في كل ما هم فيه، أكلهم وشربهم واحد غير متناف، ولا متضاد وملبسهم غير متناف ولا متباعد، فتعجب الإسكندر منهم وسأل الأكابر منهم عما رآه من أحوالهم.

فقالوا: أيها الملك إنا وجدنا جمجمة وعليها مكتوب: يا ابن آدم ما خلقت إلا من التراب، وقد خلوت بما قدمت إما صالحًا فيسرك، وإما طالحًا فيضرك فتندم حيث لا ينفعك الندم ولم يكن لك إلى الدنيا مرجع، فطوبى للكيس العاقل الذي ليس ببليد ولا غافل، يتزود إلى ما إليه يصير ولا يلقي الاتكال على التقصير، فبادر إلى الخير قبل الموت، واغتنم حياتك قبل الفوت، وكأنك بالحي وقد هلك وترك كل ما ملك، فلما قرأنا هذا اعتبرنا أيها الملك بهذه الموعظة البالغة ولبسنا أثوابها السابغة! فقال المقوقس لقيس بن سعد: يا أخا

العرب ارجع إلى أصحابك وأخبرهم بما سمعت وبما رأيت وانظر فيما يستقر عندكم وبينكم. فقال قيس: أيها الملك لابد لنا منكم ولا ينجيكم منا إلا الإسلام أو أداء الجزية أو القتال. فقال المقوقس: أنا أعرض ذلك عليهم واعلم أنهم لا يجيبون لأن قلوبهم قاسية من أكل الحرام.

حدثنا ابن إسحق - رضي الله عنه - حدثنا عبد الله بن سهل عن علي بن حاطب عن سليمان بن يحيى قال: إن الملك المقوقس كان من عادته أنه في شهر رمضان لا يخرج إلى رعيته، ولا يظهر لأحد من أرباب دولته، ولا أحد منهم يعلم ما كان يصنع، وكانت مخاطبته لقيس بن سعد في أواخر شعبان سنة عشرين من الهجرة، فخرج قيس من عنده ومضى إلى عمرو بن العاص وحدثه بما كان منه.

قال ابن إسحق: وكان ولي عهد الملك ولده «أسطوليس» وكان جبارًا عنيدًا وأنه لما سمع ما تحدث به أبوه رأى ميله إلى الإسلام وعلم أنه لا يقاتلهم وربما أسلم وسلم إليهم ملكه، فصبر إلى أن دخل أبوه إلى خلوته التي اعتاد أن يدخلها ويختلي فيها كل سنة فجمع أرباب الدولة في الخفية لئلا يدري به أحد فيُعْلِم

أباه وقال لهم: اعلموا أنكم قد ملكتم هذا الملك وأن أبي يريد أن يسلمه إلى العرب لأنني فهمت من كلامه ذلك. فقالوا: أيها الملك أنت تعلم أن هذا الأمر مرجعه إليك، وأنت ولي عهده فاعمل أمرًا يعود صلاحه عليك وعلينا. قال: فطلب صاحب شراب أبيه وأعطاه ألف دينار ووعده بكل جميل وأعطاه سمًا وقال له: ضعه في شرابه. قال: ففعل الساقي ما أمر به وسقى الملك فمات فأتى الساقي إلى «أرسطوليس» وأعلمه أن أباه قد مات فذهب إليه ودفنه في الخفية، وقتل الساقي وجلس على سرير الملك كأنه نائب عن أبيه إذا غاب كعادته في كل عام ولم يُعلم أحد بموته.

هذا ما كان منه وأما عمرو بن العاص فإنه ارتحل من بلبيس ونزل على قليوب وبعث إلى أهل البلاد والقرى وطيب خواطرهم وقال لهم: لا يرحل أحد من بلده، ونحن نقنع بما توصلونه إلينا من الطعام والعلوفة فأجابوا إلى ذلك وارتحل من قليوب ونزل على «بحر الحصى» فارتجت بنزولهم إليها ووقع التشويش فيهم وعلا الضجيج وأغلقوا الدروب والدكاكين، ووقف أهل كل درب على دربهم بالسلاح ليحموا حريمهم.

أما عمرو بن العاص فإنه أمر أهل اليمن ومن معه من العربان أن يحدقوا بالبلد، وأن أهل البلاد أقبلت إليهم بالعلوفة والطعام والخيرات وهم يردون عليهم من كل فج. ثم إن عمرًا أراد أن يرسل إلى صاحب مصر رسولًا، وكان عنده غلام له من أهل الرملة، وكان اسمه وردان، وكان يعرف سائر الألسن، فقال له عمرو: يا وردان إنني أريد أن أرسلك إلى هؤلاء القبط فإنك تعرف بلسانهم ولا تظهر لهم أنك تعرفه، فقال: سمعًا وطاعة، فقال: أريد أن أكتب معك كتابًا، وهمَّ أن يكتب وإذا برسول «أرسطوليس» قد أقبل وقال: يا معاشر العرب إن ولي عهد الملك يريد منكم أن تبعثوا له رجلًا منكم ليخاطبه بما في نفسه فلعل الله أن يصلح ذات بينكم. فقال عمرو ليزيد بن أبي سفيان وغيره: اعلموا أني قد ضربت على ملوك الروم ولست أرى من يتكلم مثلي وما يسير إلى هؤلاء إلا أنا فإني أريد أن أرد القوم وأنظر حالهم وما هم فيه من القوة وأن لا يخفى علي شيء من أمرهم، فقالوا: يا صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قوَّى الله عزمك! وما عندنا إلا النصيحة للدين والنظر في مصالح المسلمين فافعل ما أردت تعان. فقال لشرحبيل: قد قلدتك أمور المسلمين

فكن مكاني حتى أمضي إلى القوم وآتيكم بما فيه. فقال له شرحبيل: الله يوفقك ويسددك.

فلبس عمرو ثوبًا من كرابيس الشام وتحته جبة صوف وتقلد بسيفه وركب جواده وسار ومعه غلامه وردان، وسار الثلاثة إلى قصر الشمع، وإذا هم بالمواكب مصطفة والعساكر واقفة وهم بالدروع والجواشن والعدد، وقد أظهروا ما أمكنهم من القوة، فلما وصلوا إلى قصر الملك أخبروا «أرسطوليس» أن رسولك أتى بواحد من العرب فأمرهم بإحضاره فدخل عمرو راكبًا وهو متقلد بسيفه، فأراد الحجاب أن ينزلوه عن جواده فأبى وأن يأخذوا سيفه فأبى، وقال: ما كنت بالذي أنزل عن حصاني ولا أسلم سيفي. فإن أذن صاحبكم أن أدخل على حالتي وإلا رجعت من حيث أتيت فإننا قوم قد أعزنا الله بالإيمان ونصرنا بالإسلام فما لنا أن ننزل لأهل الشرك والطغيان، وأنتم طلبتمونا ونحن لم نطلبكم! فأعلموا الملك بما قاله. فقال «أرسطوليس»: دعوه يدخل كيف شاء، فخرجوا إليه وقالوا له: ادخل كيف أردت فدخل عمرو وهو راكب حتى وصل إلى قبة الملك ورأى السريرية والحجاب وقوفًا والبطارقة وهم في زينة

عظيمة، فلما رأى عمرو ذلك تبسم وقرأ «فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

وكان قصر الملك قد بناه «الريان بن الوليد بن أرسلاوس» وهو الذي استخلف يوسف – عليه السلام – على مصر بعد العزيز. ثم خرب وأقام خرابًا خمسمائة سنة وما بقي إلا أثره، فلما بعث عيسى وانتشرت دعوته ورفعه الله إليه وافترقت فيه فرقًا وادعوا فيه ما ادعوا من الإلهية وتقول الكذب ولي مصر «رجاليس بن مقراطيس» بنى ذلك القصر الخراب، وهو في وسط قصر الشمع، وإنما سمي قصر الشمع لأنه لا يخلو من شمع الملوك.

فلما بناه أحضر الحكماء الذين كانوا قد بنوا في برية أخميم، كان المقدم عليهم «قربانس» فقال لهم: إني قرأت كثيرًا من الكتب التي أنزلت على الأنبياء من الله وقرأت صحف موسى، ورأيت أن الله يبعث نبيًا قوله حق ودينه صدق، أخلاقه طاهرة وشريعته ظاهرة، وقد بشّر به المسيح فما تقولون فيه؟ فقال «قربانس» حكيم: إن الذي قرأته هو الصحيح. قال: فثم من يخالف ذلك؟ قالوا: نعم. قال الحكيم: أريد أن أصنع تمثالًا من الحكمة ونجعله بيتًا للعبادة،

ونجعل على هيكلها تماثيل يكون وجوهها مما يلي التمثال بأعلى قصرك. فإذا جاء وقت مبعث هذا النبي يحول كل تمثال وجهه عن صاحبه. وأما الذي يجعل على الكنيسة. فإنه عند مبعث النبي العربي يقع على وجهه ويكون موضع عبادة القوم وإقامة شرعهم. فأخذوا في عمل الحكمة وأقاموا التماثيل على ما ذكرنا، فلما بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - حوَّل كل تمثال وجهه عن صاحبه وسقط الذي كان على سطح الكنيسة، -وهي الجامع اليوم-.

وأما التمثال العالي فبقي على حاله بأعلى القصر، فلما دخل عمرو بجواده سمعوا من التمثال صوتًا عظيمًا. ثم إنه سقط على وجهه فارتاع له الملك وأرباب دولته وصكوا وجوههم ودخل الرعب في قلوبهم، وقالوا بلسانهم: ما وقع هذا التمثال إلا عند دخول هذا العربي وما جرى هذا إلا لأمر عظيم، ولاشك أنه هو الذي يقلع دولتنا ويأخذ ملكنا فأمروا عمرًا أن ينزل عن جواده فنزل وترجل وجلس حيث انتهى به المجلس وأمسك عنان جواده بيده ويده اليسرى على مقبض سيفه ونظر إلى زينتهم وزخرفة قصرهم فقرأ «وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ

وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ».

ثم قال: اعلموا أن الدنيا دار زوال وفناء، والآخرة هي دار البقاء. أما سمعتم ما كان من نبيكم عيسى وزهده وورعه كان لباسه الشعر ووساده الحجر وسراجه القمر، وقد قال نبينا - صلى الله عليه وسلم -: «إن الله أوحى إلى عيسى أن نُحْ على نفسك في الفلوات، وعاتبها في الخلوات، وسارع إلى الصلوات، واستعمل الحسنات، وتجنب السيئات، وابك على نفسك بكاء من ودع الأهل والأولاد، وأصبح وحيدًا في البلاد، وكن يقظان إذا نامت العيون خوفًا من الأمر الذي لابد أن يكون» فإذا كان روح الله وكلمته خوف بهذا التخويف فكيف يكون المكلف الضعيف، وأول من تكلم في المهد قال: إني عبد الله فإذا كان أقر لله بالعبودية فلم تنسبون إليه الربوبية، تعالى الله ما اتخذ صاحبة ولا ولدًا ولا أشرك في حكمه أحدًا، جل عن الصاحبة والأولاد، والشركاء والأضداد، ليس لأوليته ابتداء ولا لآخريته انتهاء، ولا يحويه مكان، ليس بجسم فيمس ولا بجوهر فيحس لا يوصف بالسكون والحركات، ولا

بالحلول والكيفيات، ثم إنه قرأ «إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا».

فقال له الوزير: أصح عندكم معاشر العرب أن المسيح تكلم في المهد؟ قال: نعم. قالوا له: فهذه فضيلة قد انفرد بها عن جميع الأنبياء، فقال عمرو: قد تكلم في المهد أطفال منهم صاحب يوسف وصاحب جريج وصاحب الأخدود وغيرهم، فقالوا: يا عربي أتكلم نبيكم بغير العربية؟ قال: لا، قال الله في كتابه: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ» (إبراهيم:٤)، قالوا: أبعث الله منكم أنبياء غير نبيكم؟ قال: نعم. قالوا: من؟ قال: صالح وشعيب ولوط وهود. فلما سمعوا كلام عمرو وفصاحته وجوابه الحاضر، قالوا بالقبطية للملك: إن هذا العربي فصيح اللسان جريء الجنان، ولاشك أنه المقدم على قومه وصاحب الجيش فلو قبضت عليه لانهزم أصحابه عنًّا. وغلام عمرٍ وردان يسمع ذلك، فقال الملك: إنه لا يجوز لنا أن نغدر برسول، لاسيما ونحن استدعيناه إلينا! فقال وردان بلسان آخر ما قالوه ففهم عمرو كلامه.

ثم إن الملك قال: يا أخا العرب! ما الذي تريدون منا؟ وما قصدنا أحد إلا ورجع بالخيبة، وإنا قد كاتبنا النوبة والبجاوة وكأنكم بهم قد وصلوا إلينا. فقال عمرو: إننا لا نخاف من كثرة الجيوش والأمم، وإن الله قد وعدنا النصر وأن يورثنا الأرض. ونحن ندعوكم إلى خصلة من ثلاث: إما الإسلام، وإما الجزية، وإما القتال. فقالوا: إنا لا نبرم أمرًا إلا بمشورة الملك المقوقس، وقد دخل خلوته، ولكن يا أخا العرب ما نظن أن في أصحابك من هو أقوى منك جنانًا ولا أفصح منك لسانًا. فقال عمرو: أنا ألكن لسانًا ممن في أصحابي ومنهم من لو تكلم لعلمت أنِّي لا أقاس به. فقال الملك: هذا من المحال أن يكون فيهم مثلك! فقال: إن أحب الملك أن آتيه بعشرة منهم من يسمع خطابهم. فقال الملك: أرسل فاطلبهم. فقال عمرو: لا يأتون برسالة، وإنما إن أراد الملك مضيت وأتيت بهم. فقال الملك لوزرائه: إذا حضروا قبضنا عليهم والأحد عشر أحسن من الواحد ووردان يفهم ذلك، ثم إن الملك قال لعمرو: امض ولا تبطئ عليَّ، فوثب عمرو قائمًا وركب جواده، فقال الملك بالقبطية: لأقتلنهم أجمعين.

فلما خرج من مصر، قال له وردان ما قاله الملك، فلما وصل إلى الجيش أقبلت الصحابة وسلموا عليه وهم يقولون: والله يا عمرو لقد ساءت بك الظنون، فأقبل يحدثهم بما وقع له معهم وبما قالوه وبما قاله وردان فحمدوا الله على سلامته وكان أقبل الليل، فلما أصبح صلى عمرو بالناس صلاة الفجر وأمرهم بالتأهب للقتال وإذا برسول الملك قد أقبل وقال له: إن الملك ينتظرك أنت والعشرة، فقال عمرو: إن الغدر يهلك أصحابه وأهله وإن على الباغي تدور الدوائر، يا ويلكم ينفذ صاحبكم يطلب منا رسولًا، فلما أتيته أراد أن يقضي عليَّ، وقال كذا وكذا فأنت يا ويلك ما الذي يمنعني عنك إذا أردت قتلك ولسنا نحن ممن يخون ويغدر! ارجع إليه وقل له: إني فهمت ما قاله وما بقي بيننا وبينه إلا الحرب.

قال ابن إسحق رحمه الله ورضي عنه: هكذا وقع له مع القبط، وكان عمرو إذا ذكر ذلك يقول: «لا والذي نجاني من القبط». قال: وعاد الرسول وأخبر الملك بما قاله عمرو، فعند ذلك قال: أريد أن أدبر حيلة أدهمهم بها، فقال الوزير: اعلم أيها الملك أن القوم متيقظون لأنفسهم لا يكاد أحد أن يصل إليهم

بحيلة ولكن بلغني أن القوم لهم يوم في الجمعة يعظمونه كتعظيمنا يوم الأحد، وهو عندهم يوم عظيم وأرى لهم من الرأي أن تكمن لهم كمينًا مما يلي الجبل المقطم. فإذا دخلوا في صلاتهم يأتي إليهم الكمين ويضع فيهم السيف. قال: فأجابه الملك إلى ذلك وأقاموا ينتظرون ليلة الجمعة. قال: وأما عمرو فإنه أرسل «يوقنَّا» إلى القرى التي صالحوها ليأتيه منها بما يأكلونه ويعلفون به خيلهم.

فركب «يوقنَّا» إلى القرى التي صالحوها وسار في عسكره وبني عمه إلى ما يأتي به ومضى نحو الجرف، وكان معهم جواسيس الملك في عسكرهم فأتوا إلى الملك وأخبروه بما جرى من المسلمين، فعندها دعا بابن عمه «ماسيوس» وهو المقدم على جيوش مصر، وقال له: اختر من جيوشنا أربعة آلاف وامض بهم واكمن وراء عسكر المسلمين من جهة الجبل، وإياك أن يظهر عليكم أحد وليكن لكم ديدبان. فإذا دخل القوم في صلاتهم فاحملوا عليهم وضعوا فيهم السيف. قال: ففعل «ماسيوس» ما أمره به الملك ومضى في الليل من نحو مغارة السودان ولم يعلم بهم أحد، فلما كان وقت صلاة الجمعة أتاهم الديدبان

وأعلمهم أنهم دخلوا في الصلاة وكانوا قد أخذوا بغالًا ودواب وحملوها برًا وشعيرًا وكان قد قال لهم: إذا أردتم أن تحملوا عليهم فقدموا الحمول أمامكم فإنهم يأمنون ويحسبون أنها هي التي مضى صاحبهم يأتي بها، قال: ففعلوا ذلك.

هكذا دبر عليهم القبط وكان بين القوم وبينهم نصف ميل، وليس عند المسلمين خبر ما صنع المشركون! وكان سعيد بن نوفل العدوي يقول لعمرو: أيها الأمير ما الذي يمسكنا عن قتال هؤلاء القبط؟ فيقول: والله ما تأخري جزع وإنما قد علمتم قصد هذا الملك المقوقس وما عليه من الدين والعقل وهو مقر بنبوة نبينا - صلى الله عليه وسلم -، وقد دخل إلى خلوته التي سنها لنفسه في هذا الشهر المعظم، وقد بقي منه خمسة أيام ويظهر ونبعث إليه رسولًا ونرى ما يكون جوابه. فإما الصلح، وإما القتال. قال: فبينما هم يتحادثون في ذلك إذ أتاهم رسول من عند «أرسطوليس بن المقوقس»، وقال لهم: معاشر العرب إن ولي عهد الملك يسلم عليكم ويقول لكم إني لا أقدر أن أحدث أمرًا حتى يخرج الملك من خلوته، وقد بقي له خمسة أيام وهو يدبر في رعيته بما يشاء. فقال له عمرو: قد علمنا ذلك ولولا الملك وما نعلم منه أنه يحب نبينا وأنه مؤمن به ما

أمهلناكم طرفة عين، فمضى الرسول. قال ابن إسحق: وما بعث هذا اللعين هذا الرسول إلا ليطمئن المسلمون وليقضي الله أمرًا كان مفعولا وإذا جاء القدر لا ينفع الحذر وإذا أراد الله أمرًا هيأ أسبابه.

قال الراوي: فكأن المسلمين قد اطمأنت قلوبهم بذلك الخبر وقربت الصلاة فقام عمرو وخطبهم خطبة بليغة حذَّر فيها وأنذر، فلما فرغ أقيمت الصلاة وأقاموا مواليهم يرقبون مخافة العدو أن يكبسهم في صلاتهم. قال صابر بن قيس ونحن لا نرى أحدًا من أهل مصر لا فارسًا ولا راجلًا قال: فاصطففنا خلف عمرو للصلاة، وليس يبين لنا عدو نخافه، فلما أحرمنا وقرأ عمرو ركعنا وأومأنا للسجود إذ أشرفت الدواب والبغال وعلى ظهورها الأحمال والعسكر من ورائها وهم أهل الكمين الذي أكمنه أعداء الله وهم على عدد أصحابنا الذين مع «يوقنَّا» فلما رآهم موالينا ظنوا أنهم أصحابنا وقد أقبلوا بالعلوفة فرفعوا أصواتهم بالفرح وقالوا: جاء «يوقنَّا» وأصحابه ولم يكلمهم العدو حتى أتونا ونحن في الصلاة ووضعوا السيف فينا ونحن ساجدون السجدة الأخيرة ونحن بين يدي الله تعالى. قال: وإذا بالسيوف تقرقع في لحومهم، وما أحد منهم قام

من سجوده، وكان القتل في آخر صف من المصلين والصف الذي يليه وهم من اليمن ومن بجيلة ومن وادي القرى ومن الطائف ومن وادي نخلة.

ثم قال ابن عتبة: وكنت قد شهدت وقائع الشام وحضرموت واليرموك فوالله ما قتل منا في وقعة من الوقائع مثل ما قتل منا يوم بحر الحصى في أرض مصر بالحيلة التي دبرها عدو الله علينا، وقال: والله ما منَّا من انحرف عن صلاته ولا حول وجهه عن ربه وقد أيقنا بالهلاك عن آخرنا حتى أشرف علينا «يوقنَّا» بأصحابه، فلما نظروا ما حل بالمسلمين صاحوا ورموا ما على رؤوسهم من العمائم وقال «يوقنَّا» لبني عمه: والله من قصَّر منكم عن عدوه فالله يطالبه به يوم القيامة وما أرى إلا أن الأعداء قد غدروا وكبسوا المسلمين فدوروا من حولهم وضعوا السيوف فيهم واحذروا أن ينفلت منهم أحد، فحملوا وأطبقوا على القبط فدفعوهم عن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ولم يزل القتال بينهم حتى فرغ عمرو من الصلاة هو ومن معه وثاروا ثوران الأسد وركب عمرو ومعاذ وسعيد بن زيد وجميع الصحابة وحملوا في العدو وطحنوهم طحنًا. قال جابر بن أوس: وحلنا بينهم وبين الوصول إلى مصر فوالله ما نجا

منهم أحد، وبقوا كأنهم طيور وقعت عليهم شبكة صياد، فلما وضعت الحرب أوزارها هنأ المسلمون بعضهم بعضًا بالسلامة، وشكروا الله على ما أولاهم من نصره وأثنوا على «يوقنَّا» خيرًا، وافتقدوا قتلاهم فكانوا أربعمائة وستة وثلاثين قد ختم الله لهم بالشهادة.

واتصل الخبر إلى «أرسطوليس» بقتل ابن عمه ومن معه، وأنهم لم ينج منهم أحد فصعب عليه ذلك وأيقن بهلاكه، فدعا ببطارقته وأرباب دولته وشاورهم في أمره فقالوا: أيها الملك أنت تعلم بأن الدنيا مادامت لأحد ممن كان قبلك حتى تدوم لك، وما زالت الملوك تنكسر وتعود وما أنت بأكثر ممن انهزم من ملوك الأرض، وقد سمعنا أن «داونوس بن أردين بن هرمز بن كنعان بن يزحور» الفارسي هزمه الإسكندر الرومي سبعين مرة! فاخرج إلى لقاء القوم واضرب معهم مصاف ولا تيأس، وهؤلاء القسوس والرهبان والشمامسة والمطران والبترك يدعون لك بالنصر. فعوَّل على لقاء المسلمين وفتح خزائن أبيه وأنفق على الجند وأعطاهم السلاح وطلب شباب مصر وأمرهم بالخروج وبعث يستنجد بملك النوبة وملك البجاوة وأقام مدة ينتظر قدومهم.

عن عبد الرحمن بن جبير عن أبيه قال: لما كان من أمر المسلمين ما ذكرنا مما قدَّره الله عليهم من كبسة عدوهم كتب بذلك عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –: بسم الله الرحمن الرحيم. من عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، سلام عليك وإني أحمد الله إليك وأصلي على نبيه. أما بعد فقد وصلت إلى مصر سالمًا وجرى لنا على بلدة «بلبيس» مع ابنة المقوقس كذا وكذا ونصرنا الله عليهم، ورحلنا إلى بحر الحصى، وقد كنا صالحنا قومًا من أهل قرى بلاد مصر ببلاد يقال لها «الجرف» حتى يعينونا بالعلوفة والميرة ويجلبوا إلينا الطعام، وإني أرسلت عبد الله «يوقنًّا» ليشتري لنا منهم طعامًا ومضى في خيله، وسرت بنفسي رسولًا إلى مخاطبة القوم فهمَّوا بالقبض علي ونجاني الله منهم، وأنهم أكمنوا لنا كمينًا من الليل وأشغلونا برسول والكمين كان من الليل، فلما استوت صفوفنا للصلاة كبسوا علينا ونحن في الصلاة فلم نشعر حتى بذلوا فينا السيف وقتلوا منا أربعمائة وستة وثلاثين رجلًا والأعيان منهم ستون ختم الله لهم بالشهادة، ونحن الآن في بحر متلاطم أمواجه من كثرة القوم والعساكر فأنجدنا يا أمير المؤمنين وأدركنا بعسكر ليعيننا على

عدونا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وختم الكتاب وأعطاه عبد الله بن قرط.

فسار من ساعته وجدَّ في السير إلى أن وصل المدينة فقدمها في العشر الأوسط من شوال سنة اثنتين وعشرين من الهجرة فأناخ مطيته بباب المسجد ودخل فرأى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عند قبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. قال ابن قرط: فدفعت الكتاب إليه فنظر إليَّ، وقال: عبد الله؟ قلت: نعم. قال: من أين أتيت؟ قلت: من مصر من عند عمرو بن العاص. قال: مرحبًا بك يا ابن قرط! ثم فك الكتاب وقرأه وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم قال: «من ترك الحزم وراء ظهره تباعدت عنه فسيحات الخطا»، ووالله ما علمت عَمْرًا إلا حازم الرأي مليح التدبير، ضابط الأمر، حسن السياسة ولكن إذا نزل القضاء عمي البصر! ثم إنه كتب كتابًا إلى أبي عبيدة وذكر له ما جرى لعمرو بن العاص بمصر وأمره أن ينفذ إليه جيشًا عرمرمًا، وأنفذ الكتاب مع سالم مولى أبي عبيدة.

قال عبد الله بن قرط: فأقمت في المدينة يومين واستأذنته في المسير فزودني من بيت المال وكتب إلى عمرو يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص. أما بعد: فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي وأسلم على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم -، وقد بلغني ما جرى لكم بمصر من غدر عدوكم كما سبق في أم الكتاب، وكان يجب عليك يا ابن العاص أن لا تطمئن إلى عدوك ولا تسمع منه حيلة، وما كنت أعرفك إلا حسن الرأي والتدبير ولكن ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، فاستعمل النشاط في أمرك ولا تأمن لعدوك واستعمل الحذر فإن الإمام ما يكون إلا على حذر، والله يعيننا وإياك على طاعته، وقد أنفذت إلى أبي عبيدة أن يرسل إليكم جيشًا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وختمه وسلمه لعبد الله بن قرط. قال: فأخذته وسرت وأنا أجد السير حتى أتيت مصر، ودفعت الكتاب لعمرو بن العاص فقرأه على المسلمين ففرحوا بذلك وأقاموا ينتظرون إخوانهم.

كبسة الجيش

حدثني ابن إسحق حدثني سهل بن عبد ربه عن موسى عن عبد الرزاق. قال: لما كبس ابن المقوقس جيش المسلمين ورجعت دائرة السوء عليه وقتلوا عن آخرهم وبلغه الخبر بكى على ابن عمه وحلف بما يعتقده من دينه أنه لابد له أن يأخذ بثأرهم، ثم إنه أمر أرباب دولته أن يجتمعوا بالكنيسة المعلقة في داخل «قصر الشمع» فاجتمعوا فجلس على سرير عند المذبح وقام فيهم خطيبًا. فقال: يا أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية اعلموا أن ملككم عقيم وبلدكم عظيم وهذه بلاد الفراعنة ممن كان قبلكم وقد ملكها عدة ملوك ممن احتوى على الأقاليم وملكها مثل الملك المعظم من آل حمير ومثل مستفان والبستق والملحان وهو باني هذه الأهرام، ونمروذ بن كنعان ولقمان بن عاد، وذي القرنين الملك العظيم وانقضى ملكهم منها ورجع إلى سبأ وأرضها وحضرموت وقصر عمان.

ثم تولى هذه الأرض القبط من آبائكم وأجدادكم «أطسليس» و«بلينوس» و«الريان بن الوليد» وهو الذي استخلص يوسف لنفسه، والوليد وهو المكنى

بـ «فرعون»، وبعدهم «طبلهاوس» ثم جدي «راعيل»، ثم أبي «المقوقس» وجميع ملوك الأرض تحسدنا على ملك مصر وهؤلاء العرب الطماعة، وليس في العرب أطمع منهم. فإني أراكم قد كسلتم وفشلتم عن لقائهم فطمعوا فيكم وفي ملككم كما طمعوا في ملك الشام وانتزعوه من أيدي القياصرة، فقاتلوا عن أموالكم وحريمكم وأولادكم، وأما أنا فواحد منكم، واعلموا أن الملك المقوقس قد أمرني بلقاء هؤلاء العرب وقال: إنه لا يظهر إليهم حتى أرى ما يظهر من قومي وأرباب دولتي فما تقولون وما الذي اجتمع عليه رأيكم؟ فقالوا: أيها الملك إنما نحن عبيد هذه الدولة وغلمانها فإنها قد استعبدت رقابنا بنعمتها وإحسانها، ونحن نقاتل لمحبتها فإما أن نرزق النصر من المسيح وإما أن نموت فنستريح. قال: فشكر قولهم وخلع على أكابرهم وقال لهم: اخرجوا واضربوا خيامكم ظاهر البلد مع القوم وطاولوهم بالمبادرة إلى أن يأتي إلينا نجدة من ملك النوبة والبجاوة فأجابوا إلى ذلك، وأمروا غلمانهم بأن يضربوا الخيام خارج البلد فضربوها مما يلي النور والرصد.

قال ابن إسحق: وفي ليلتهم تلك جاءتهم الأخبار بأنه وقع بين ملك النوبة وملك البجاوة حرب وأنه ما يجيبكم منهم أحد وأخرجوا للملك «أرسطوليس» سرادقًا معظمًا وسط جيش القبط. وأخذ المسلمون على أنفسهم وأقبلوا يحرِّضون بعضهم بعضًا ويحرسون قومهم بالنوبة، فكان عمرو في أول الليل يطوف حول العسكر ومعاذ إذا انتصف الليل ويزيد بن أبي سفيان في آخر الليل والنور على عسكرهم والإيمان لائح عليهم وأصواتهم مرتفعة بالقرآن وبذكر الله وبالصلاة على نبيه – صلى الله عليه وسلم –.

فلما وصل كتاب عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – إلى أبي عبيدة وقرأه على المسلمين قال لخالد بن الوليد: يا أبا سليمان ما ترى من الرأي؟ فقال: إذا كان أمير المؤمنين أمرك أن تنجد عمرو بن العاص فأنجده. فقال أبو عبيدة: إن الطريق إلى مصر بعيد وإن أنا أرسلت جيشًا كبيرًا خفت عليه من بعد الطريق ومن المشقة فقال خالد: كم جهدك أن ترسل؟ قال: أربعة آلاف فارس. فقال خالد: إن الله كفاك ذلك. قال: وكيف ذلك يا أبا سليمان؟ قال: إن عزمت على ما ذكرت فابعث أربعة من المسلمين فهم مقام أربعة آلاف فارس. فقال أبو

عبيدة: من الأربعة؟ قال خالد: أنا أحد الأربعة والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر ومالك بن الحرث، فلما سمع أبو عبيدة ذلك تهلل وجهه وقال: يا أبا سليمان افعل ما تراه، فدعاهم خالد وأعلمهم بما عزم عليه، فقالوا: سمعًا وطاعة. فقال: خذوا على أنفسكم فنحن نسير هذه الليلة. فلما صلى أبو عبيدة بالناس صلاة المغرب قدم الثلاثة إلى قبة خالد فركبوا وودعوا أبا عبيدة والمسلمين وأخذوا معهم دليلًا يدلهم على الطريق إلى وادي موسى والشوبك وأخذوا معهم ما يحتاجون إليه وساروا يريدون مصر، فما زالوا يجدُّون إلى أن قربوا من عقبة «أيلة» وإذا هم بخيل ومطايا تزيد على ألف فأسرعوا إليهم فإذا هم من ثقيف وطيء ومرداس قد وجههم عمر بن الخطاب إلى مصر مع رفاعة بن قيس وبشار بن عون، فلما رأوهم سلموا عليهم ورحبوا بهم واستبشروا بالنصر لما رأوا خالدًا وعمارًا والمقداد ومالكًا وارتفعت أصواتهم بالتهليل والتكبير وساروا بأجمعهم.

عن نصر بن ثابت قال: كنت في جملة الوفد الذي وجهه عمر – رضي الله عنه – مع رفاعة وبشار والتقينا بخالد بن الوليد وأصحابه عند عقبة «أيلة» وسرنا

معهم حتى وصلنا أرض مصر وقربنا وبقي بيننا وبينها يومان، فبينما نحن نسير في بعض الليالي وكانت ليلة مظلمة لا يكاد الرجل أن يرى من شدة الظلام إذ سمعنا حسًا بالبعد منا فوقفنا. فقال خالد: أيكم يأتينا يا فتيان العرب بخبر هؤلاء الذين في هذا الجيش. قال نصر: وكنت راكبًا فقفزت من ظهر الراحلة وسعيت على قدمي وأخفيت حسي إلى أن تبين لي جيش كبير فتحققت أمرهم فإذا هم جيش من العرب المتنصرة وهم يزيدون على ثلاثة آلاف وهم ركبان المطايا والخيل. فقلت: والله لا عدت إلى أصحابي إلا بالخبر اليقين. فاتبعت أثرهم لأسمع ما يقولون وما يتحدثون فمشيت معهم قليلًا فأسمعهم يقولون: أذل الصليب أعداءنا فإنا قد أصابنا التعب ولحقنا الجهد ومن وقت خروجنا من مدين لم نجد أحدًا ومصر قد قربنا منها فانزلوا لنأخذ راحة ونريح مطايانا ونعلق على خيلنا وإذا بمقدمهم يقول: وحق المسيح ما بغيتنا إلا في الخلع والأموال من ملك مصر ولكن إذا عوَّلتم على الراحة فانزلوا.

فنزل القوم على ماء يعرف بالغدير وأقبلوا يجمعون الشيح ويصنعون لهم الزاد وعلقوا على خيولهم وتركوا إبلهم ترعى. قال نصر: فعلمت أن القوم من

متنصرة العرب فتركتهم وأتيت إلى أصحابي وحدثتهم بذلك فحمدوا الله كثيرًا وأثنوا عليه وقالوا لخالد: ما الذي ترى؟ فقال: «أرى أن تركبوا خيولكم الآن وتستعدوا للحرب ونسير إليهم ونكبسهم فإنهم قد أتوا لنصرة صاحب مصر وما أتوه إلا بمكاتبه لهم يستنجد بهم على أصحابنا»، فلبسوا سلاحهم وركبوا الخيل وتركوا مواليهم مع المطايا والرجال وساروا خيلًا ورجالًا إلى أن قربوا من نيران القوم فصبروا حتى خمدت وناموا فتسللوا عليهم كتسلل القطاة. فقال خالد: دوروا بالقوم ولا تدعوا أحدًا منهم ينفلت من أيديكم فيثير عليكم عدوكم، قال فداروا بهم كدوران البياض بسواد الحدق وأعلنوا بالتهليل والتكبير ووضعوا فيهم السيف فما استيقظ أعداء الله إلا والسيف يعمل فيهم ووقعت الدهشة في القوم وهم في أثر النوم فقتل بعضهم بعضًا، ووقف ابن قيس ومعه جماعة على البعد منهم وبشار ورفقته وكل من انهزم أخذوه.

فلما أصبحنا رأينا القتلى منهم ألفًا وأسرنا منهم ألفًا فعرضوهم على خالد فقال: حدثوني من أين جئتم وإلى أين مقصدكم؟ فقالوا: إنا قوم من متنصرة العرب وكلنا كنا أصحاب الشام، فلما هزمتم الملك هرقل رحلنا من أرض

الشام ونزلنا أرض مدين ونحن على خوف منكم وكاتبنا صاحب مصر وهو المقوقس لعله أن يأذن لنا أن نكون من أصحابه ونكون له عونًا عليكم، فلما أجابنا إلى ذلك بعثنا الخيل العربية إلى ولي عهده وصاحب الأمر من بعده، فلما كان في هذه الأيام جاءتنا خلعة ورسالة بالدخول إلى مصر فرحلنا إليهم فوقعتم بنا! فلما سمع خالد منهم ذلك قال: «من حفر لمسلم قليبًا أوقعه الله فيه قريبًا» ثم عرض عليهم الإسلام فأبوا فأمر بقتلهم فقتلناهم عن آخرهم وقسمنا رحالهم وما كان معهم، ووجدنا معهم الخلع التي وجهها إليهم ابن المقوقس ففرَّقها خالد على المسلمين، وفيها خلعة سنية وكانت لمقدم القوم فأعطاها رفاعة. وساروا حتى قربوا من الجبل المقطم فرأوا جيش القبط فأرسل خالد نصر بن ثابت وقال له: امض إلى هذا الملك وقل له: إن العرب أصحاب مدين قد أتوا لنصرتك. فمضى ابن ثابت إلى أن وصل إلى عسكر القبط فأخذه الحرس وقالوا له: من أنت؟ قال: أنا مبشر الملك بقدوم العرب المتنصرة إلى نصرته.

قال ابن إسحق: فأخذوه وأتوا به إلى سرادق الملك. قال نصر: فلما وقفتُ بين يديه ناداني الحجاب أن أسجد للملك ففعلتُ وأنا أسجد لله تعالى حتى لا ينكروا عليَّ، وكان قد صح عندهم أنه من امتنع من السجود فهو مسلم. فلما رفعتُ رأسي قال لي الوزير: يا أخا العرب أَوَصَل أصحابك إلى نصرة الملك؟ فقلت: نعم وهاهم في دير الجبل المقطم. فلما سمع الملك ذلك أمر من حجابه أناسًا أن يمضوا إلى لقائهم وسرت في جملتهم وأخذوا معهم الجنائب وأظهروا زي الفراعنة وخلع عليَّ عوض بشارتي، وساروا إلى لقاء المتنصرة.

عن موسى بن عون عن جده نعيم بن مرة قال: كنت فيمن وجه عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – من أهل نخلة وكان خالد يحبني ويقربني لأن أبي كان يسافر له ببضاعة إلى سوق بصرى. فلما رأى خالد أصحاب الملك قد أتوا قال لي: يا ابن مرة أريد أن أوصيك. فقلت: بماذا؟ قال: اعلم أن العدو قد أرسل يلاقينا وهو يظن أننا من متنصرة العرب ولاشك أن عمرو بن العاص ومن معه تجفل قلوبهم منا وأريد أن تنزل عن فرسك وتكمن خلف هذه الحجارة فإذا خلا لك الطريق فانسلَّ نحو عسكر المسلمين وحدِّثهم بأمرنا وما قد عزمنا عليه

من غدر القوم. فإنَّ عَمْرًا لا يطمئن لغيرك وأقرئه سلامي، وقل له يكن على أهبة فإذا سمع تكبيرنا يأمر أصحابه أن يرفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير، فإن ذلك مما يزيد في رعب أعدائنا، وفعلت كما أمرني خالد ونزلت عن فرسي وأسلمته لغلامي دارم ومضيت نحو الجبل وكمنت بين الأحجار. وأما خالد فقد أمر أصحابه بلبس الخلع التي أرسلها لهم ابن المقوقس فلبسوها فوق دروعهم ولبس رفاعة بن قيس وبشار بن عون أحسنها وغيَّر خالد زيه والمقداد وعمار ومالك الأشتر. فلما وصل مقدم جيش القبط قال خالد لرفاعة وبشار: ترجلوا له واصقعوا بين يديه وصلِّبوا على وجوهكم فليس عليكم في ذلك حرج واحلفوا بالمسيح والسيدة مريم! وإياكما والغلط بأن تذكروا محمدًا - صلى الله عليه وسلم - فيفطن القوم لنا! واجعلوا الجهاد نصب أعينكم، وتوكلوا على الله في جميع أموركم، ففعلوا ما قال لهم خالد وترجلوا عند رسول القبط وصقعوا له.

عن عامر بن هبار قال: يا عم اعلم أن الله إذا أراد أمرًا هيأ أسبابه، وذلك أننا لما أشرفنا على أول ديار مصر نزلنا على دير يقال له دير مرقص وكان ديرًا عامرًا

بالرهبان فلما نزلنا عليه أشرف علينا أهله وقالوا: من أنتم؟ قلنا: نحن من أصحاب الملك هرقل ملك الشام وقد جئنا لنصرة صاحبكم فإنه قد أرسل إلينا يستنفرنا لأجل هؤلاء العرب. ففرحوا بنا ودعوا لنا، وكان كبيرهم والمقدم عليهم في دينهم شيخًا كبيرًا وكان من قسوس الشام وكان من أعلم القوم بدينهم وأعرف الناس بآل غسان وكانت «الضيحا» قد أقطعها هرقل للملك جبلة بن الأيهم وكان قد جعل على جبايتها ولد هذا القس وكان اسمه «نونلس بن لوقا»، وأن المسلمين لما فتحوا بعلبك وحمص هرب هذا القس بأمواله وأولاده إلى طرابلس وركب البحر في مركب وتوصل إلى مصر، وبلغ خبره المقوقس فأحضره وسأله عن حاله فحدثه بأمره فخلع عليه وجعله قيمًا في الكنيسة المعلقة التي في «قصر الشمع» وصار من أصحاب سكناه في دير مرقص ولا يدخل مصر إلا في أمر مهم، فلما نزل عمرو بمن معه عليهم وقتل ابن المقوقس أباه احتاج إلى رأي البترك فأرسل إليه وأنزله في الكنيسة، وولى البترك مكان هذا القس «نونلس» فكان في الدير فلما نزل خالد بن الوليد ومن معه على الدير.

قال عامر بن المبارك الثعلبي: فأشرف علينا وتأملنا وكان أعرف الناس بخالد بن الوليد لأنه رآه في مواطن كثيرة من الشام، وكان صاحب حمص قد أرسله رسولًا إلى أبي عبيدة ليصالحوهم. فجعل يتفقدهم وينظر في وجوههم، ثم قال: وحق المسيح ما أنتم من آل غسان وما أنتم إلا من عرب الحجاز وقد جئتم لتحتالوا علينا فإني رأيت إمامكم الذي فتح الشام وقتل ملوكها وسوف أكاتب الملك بقصتكم ليقبض عليكم، فقالوا: ما عندنا خبر من الذي تقوله وقد خيل لك ذلك! أَمَا علمت أن المسلمين ما خلوا لنا حالًا وقد نهبونا وأصبحنا بالذل بعد العز والفقر بعد الغنى؟! وقد كتب إلينا ملك مصر بأن نجيء إليه فأرسل إلينا بالخلع وطيب قلوبنا.

قال عامر: فضحك اللعين من قولي وقال لي: إن آل غسان أكثرهم يعرف بكلام الروم وحق ديني ما أنتم منهم وقد صح قولي: إنكم مسلمون. فقلنا له: يا ويلك لو كنَّا من الذين تقول عنهم ما كنا نأتيكم بالنهار وكنا نكمن ونسير في الليل حتى نصل إلى أصحابنا وإنك استحقرت المسيح إذ جعلتنا من أصحاب محمد فقد وقعت في ذنب عظيم! ثم إننا بالقرب منهم. فقال أصحابه: يا أبانا

ليس هؤلاء القوم ممن ذكرت فلو كانوا مسلمين ما جسروا أن يدخلوا أرض مصر في ضوء النهار ولا يقربوا العمران. فقال: وحق ديني أنا أعرف الناس بهم وإنهم مسلمون بلاشك، فامتنعوا منهم ولا تخرجوا لهم طعامًا ولا ماءً، وسأنفذ خبرًا للملك بذلك فيكون منهم على حذر.

قال عامر: وكان من لطف الله بنا أن الرهبان الذين بالدير لما سمعوا كلامه قال بعضهم لبعض: يجب علينا أن نأخذ لنا منهم صلحًا فنكون آمنين من غائلتهم ولا نبرح من ديرنا هذا. فقال أكبرهم: إن أنتم فعلتم ذلك فإننا لا نعلم من ينتصر من الفريقين: أصحابنا أم العرب؟ فان كان النصر لأصحابنا خفنا من هذا القس أن يعلم بنا الملك أننا صالحنا المسلمين بغير أمره فإنه يقتلنا، وإنَّ هذا اللعين تعلمون أنه على غير مذهبنا وهو في كل يوم يكفرنا لأنه نسطوري ونحن يعقوبية، فإن أنتم أردتم صلح هؤلاء العرب فدونكم وهذا القس فاقبضوا عليه وسلموه لهم وخذوا منهم أمانًا. فقبضوا عليه وأشرفوا علينا وقالوا لنا: بحق ما تعتقدون من دينكم أنتم من أصحاب محمد أم لا؟ فإنا قد قبضنا على هذا اللعين ونريد أن نسلمه لكم وأنكم تعطوننا أمانًا فإنا قوم لا نعرف حربًا ولا

قتالًا. فقال لهم مالك الأشتر: يا هؤلاء أما ما زعمتم من صلحنا فإنا نصالحكم وما كان أمرنا بالذي يخفى ولا نرضى بالكذب فإنه أشنع شيء عندنا، ولاسيما أن الإسلام يمنعنا من استعماله، ولو أن السيف على رأس أحدنا إذا سئل عن دينه أجاب به وتكلم بوحدانية الله تعالى، ونحن من أصحاب محمد – صلى الله عليه وسلم – ولكم الأمان وهذا أمان الله ورسوله. فلما سمع الرهبان من مالك ذلك نزلوا وفتحوا الباب وسلموا لنا القس. فقال له خالد: يا عدو الله أردت أمرًا وأراد الله خلافه! ثم إنَّه عرض عليه الإسلام فأبى وقال: أنا هربت منكم من الشام ثم أوقعني المسيح في أيديكم وما أظن إلا أن المسيح مسلم فافعل ما أردت! فضربوا عنقه.

قال عامر: وخرج إلينا أهل الدير بأجمعهم ومعهم الطعام والعلوفة فأكلنا وأقمنا عندهم إلى الليل. فقال شيخهم الذي أشار عليهم بقبض القس الرومي لخالد: أيها السيد إني قد تفرست فيك الشجاعة فبالله من أنت من أصحاب محمد؟ فقال: أنا خالد بن الوليد المخزومي. فقال: أنت وحق ديني الذي فتحت بلاد الشام وأذللت ملوكها وبطارقتها وإن صفتك عندي ثم إنه دخل

الدير وأتى ومعه سفط ففتحه وإذا فيه بين أوراقه ورقة وفيها صفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، وزيه وصورته وصورة أبي عبيدة وصورة خالد بن الوليد والسيف في يديه مشهور. قال: ما زلت أسمع أخبارك كلها فلم عزلك عمر بن الخطاب وولى غيرك؟!

فقال خالد: اعلم أن عمر هو الإمام وهو الخليفة ومهما أمرنا فلا نخالفه فإن الله أمرنا بذلك في كتابه فقال تعالى: «أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ»، فطاعته فرض علينا، لأنه يحكم بالعدل ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وإنا قد وجهنا إليه خمس الغنائم من الفتوح كلها من الأموال فما ازداد في الدنيا إلا زهدًا، ولا آثر الدنيا على الآخرة؛ بل مجلسه على التراب ولبسه المرقعة ويمشي في سوق المدينة متواضعًا راجلًا، فالتواضع لباسه والتقوى أساسه والذكر شعاره والعدل في الرعية دثاره وما زال يعطف على اليتيم ويرفق بالأرملة والمسكين ويرفد أبناء السبيل، فظ في دين الله غليظ على أعداء الله، قائم بشعائر الله، لا يستحيي من الحق ولا يداهن الخلق. فقال القس: أكانت له الهيبة على عهد نبيكم؟

قال خالد: نعم سمعت سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – يقول: استأذن عمر فأذن له فدخل ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – يضحك. فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله. قال: «عجبت من هؤلاء اللواتي كن عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب». فقال عمر: أنت أحق أن يهبنك وقال لهن: يا عدوات أنفسكن أتهبنني ولا تهبن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –؟! فقلن: نعم أنت فظ غليظ دون رسول الله – صلى الله عليه وسلم –. فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غيره». فلما سمع القس ذلك قال: بركة نبيكم عادت على إمامكم وعليكم. فقال خالد: وما يمنعك من الدخول في ديننا؟ فقال: حتى يشاء صاحب هذه الخضراء! ثم قال لخالد: أريد أن أعطيكم من صلبان هذا الدير حتى تكمل حيلتكم. وأخرج لهم صلبانا كثيرة فأخذها خالد ودفعها لرفاعة بن قيس وبشار بن عون، وتزيوا بزي الذين قتلوهم من آل غسان، وارتحل خالد بعدما وكَّل بالدير عشرة من أهل وادي القرى لئلا يخرج أحد بأخبارهم ويقربوا للملك بذلك.

فلما أشرف أصحاب ابن المقوقس عليهم رأوهم وقد لبسوا خلع الملك وعلقوا الصلبان وشدوا الزنانير ورفعوا صليبًا من فضة كان قد أخرجه لهم القس فلما صقعوا للحجاب ركبوا وساروا حتى وصلوا إلى سرادق الملك فترجلوا، وأخذوا لهم إذنًا فأذن لهم فدخلوا ودخل أولهم رفاعة وبشار ومن معه وخدموا الملك وسجدوا له، ولم يدخل خالد ومن معه ووقفوا مع بقية العرب خارج السرادق، وإن الملك لما رآهم قال لهم: يا معاشر العرب أنتم تعلمون محبتنا لكم وتقريبنا لكم وقد طلبتم أن تكونوا لنا عونًا على هؤلاء العرب فإن نصحتم لنا في دولتنا شاركناكم في مملكتنا وقاسمناكم في ملكنا ونعمتنا. فقال له رفاعة: أبشر أيها الملك سوف ترى ما نبذله في محبتك يوم الحرب! فخلع عليه وخرج من عنده وأمر لهم بخيام ضربت في عسكرهم.

عن سهل بن مسروق قال: لما قدم الجيش الذي وجه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مع رفاعة وبشار وكان من أمرهم ما ذكرناه، ونظر إليهم عمرو بن العاص ومن معه من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أقبلوا ينظرون إليهم وإلى زيهم. فقال معاذ لعمرو: ما هؤلاء من المتنصرة وإن نفسي

تأبى ذلك! فقال عمرو: والله يا أبا عبد الرحمن لقد نظرت بنور الله وإنني نظرت فيهم واحداُ واحدًا ورأيتهم بزي وادي القرى وزي الطائف. فقال شرحبيل بن حسنة: وأنا نظرت أعجب من ذلك إني رأيت خالد بن الوليد في جملتهم ولاحت لي عمامته وقلنسوته وثيابه التي كانت عليه يوم دخول طرابلس. فقال يزيد بن أبي سفيان: أنا والله رأيت مالكًا الأشتر النخعي وعرفته بطول قامته وركبته على فرسه، ثم قالوا: لابد أن ينكشف لنا خبرهم على جليته! فهم في الحديث إذ قد أتاهم نعيم بن مرة، فلما رأوه تهللت وجوههم فرحًا وسرورًا، فلما وصل إليهم وسلم عليهم وحدثهم بالحديث كله سجدوا لله شكرًا، وقال بعضهم لبعض: أيقظوا هممكم وكونوا على يقظة من أمركم، فإذا سمعتم التكبير في عسكر العدو فبادروا إليهم.

قال ابن إسحق: ولله في خلقه تدبير، وذلك أنه لما جنَّ الليل جمع «أرسطوليس بن المقوقس» أرباب دولته، وقال لهم: قد ضاق صدري من هؤلاء العرب؟ وقال لهم: قد غلا السعر عندنا، لأن أهل البلاد قد أجلت من خوفهم، وإن خيلهم تضرب إلى الريف من هذا الجانب وإلى الصعيد من هذا

الجانب والنوبة والبجاوة ما يأتينا منهم أحد للفتنة التي هي بينهم والرأي عندي أن نحارب هؤلاء العرب صبيحة عيدهم. قالوا: أيها الملك هذا هو الرأي. فقال: أخرجوا السلاح وفرقوه على من ليس معه سلاح.. هذا ما جرى عنده، وليس عنده خبر بما جرى في قصره بعد.

نتائج المعركة

قال ابن إسحق: وكان من حسن تدبير الله تعالى لعباده المؤمنين أنه كان للمقوقس أخ شقيق واسمه «أرجانوس» وكانا متحابين وكان «المقوقس» لا يقطع أمرًا دونه، وكانا إذا ركبا لا يفترقان، وإذا جلسا يجلسان معًا على السرير، وكان المقوقس قد دخل في خلوته التي ذكرنا وكان أخوه من محبته قد رتب هناك من يعرِّفه لما يخرج من خلوته، فلما كان في هذه النوبة استبطأه فأتى إلى ابن أخيه فرآه على السرير. فقال له: ما فعل الملك؟ قال: إنه في خلوته إلى الآن وقد رأى أن طالعه ضعيف مع هؤلاء العرب وقد أمرني أن أكون مكانه حتى يرى ما يريد من قتالهم أو صلحهم.

فكتم «أرجانوس» الأمر في نفسه وعلم أن أخاه قد قُتل! وكان «أرجانوس» ممن يعتقد نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ويعلم أن دعوته تطوف المشرق والمغرب، وأن الملوك تضمحل في أيام أصحابه، وسينزلون على البلاد، فترك الأمر موقوفًا ولم يبد ما في نفسه لأحد، فلما خرج ابن أخيه مع العسكر جمع الذين تركهم ابن أخيه لحفظ البلد في قصر الشمع، وقال لهم: اعلموا أن العقل هو عمدة قوى ابن آدم، لأن الله قد خصه به دون سائر المخلوقات وإن أخي قد قتله ولده لا محالة وقد كان محبًا لكم ومشفقًا عليكم، واعلموا أن هؤلاء العرب قد كان قدامهم من مُلْكه أعظم من مُلْككم وما ثبت بين أيديهم، وليس بين دولتكم وبين أن تزول وتضمحل إلا أن يلتقي الجيشان، وإن ظفر بكم هؤلاء العرب قتلوكم ونهبوكم وسكنوا في مساكنكم وأيتموا أولادكم.

فقالوا: أيها الملك فما يكون عندك من الرأي وما تفعل؟ قال: إني أرى من الرأي أن تستيقظوا لأنفسكم وتغلقوا أبواب هذا القصر ولا تدعوا أحدًا يدخل عليكم من جند الملك ولا هو نفسه، فإنهم لا يقدرون أن يقاتلوكم والعرب من

ورائهم، وأنه يعدِّي الجانب الغربي ويمضي إلى إسكندرية ونعقد لنا صلحًا مع هؤلاء العرب على أنفسنا وأولادنا وحريمنا ونسلم لهم بعد ذلك. فمن أراد يتبعهم ومن أراد يعطيهم الجزية. فاستصوبوا رأيه وعلموا أنه نطق بالحق! وكان لـ «أرجانوس» ألف مملوك في سرايته، فاحتوى على قصر الملك وأخذ الخزائن والأموال وغلَّق أبواب قصر الشمع، وفعل ما فعل وليس عند ابن أخيه خبر إلى أن ذهب من الليل نصفه أو أكثر فجاء إليه بعض خدمه وأخبره بما فعل عمه فأيقن بتلفه وخروج ملك مصر منه. فبينما هو في حيرة من أمره إذ كبَّر خالد بن الوليد ومن معه في وسط عسكره فسمع عمرو وأصحابه التكبير فكبروا ووقعت الخذلة على الكفار وحمل فيهم المسلمون ووضعوا فيهم السيوف، فلما نظر «أرسطوليس» إلى ما نزل به والكبسة التي وقعت بعسكره لم يكن له دأب إلا أن ركب وأحدقت به مماليك أبيه وأرباب دولته وطلبوا بالهزيمة وقصدوا البحر وعدوا الجانب الغربي وطلبوا إسكندرية فجازوا على مدينة مريوط وفيها الموبذان الساقي ومعه ثلاثة آلاف من عسكره، فلما أن صاح الصائح في مصر بأن الملك انهزم وما ثبت أحد من عسكر القبط، ولَّوا والسيف يعمل فيهم وغرق منهم في البحر خلق كثير ونصر الله المسلمين.

قال ابن إسحق: قتل في تلك الليلة من عسكر القبط خمسة آلاف وغنم المسلمون أثقالهم وما كان فيها من الأموال، فلما أقبل الصباح اجتمع خالد بالمسلمين وسلم بعضهم على بعض وهنوهم بالسلامة ودخلوا مصر وملكوا دورها وأحاطوا بقصر الشمع فأشرف عليهم «أرجانوس بن راعيل» أخو «المقوقس»، وقال لهم: يا فتيان العرب اعلموا أن الله قد أمدكم بالنصر وقد فعلت في حقكم كذا وكذا ولولا حيلتي على ابن أخي لما انهزم منكم، وقد ظفرتم الآن ونحن نسلم إليكم على شرط أنكم لا تتعرضون لنا ولا تمدون أيديكم لنا بسوء، ومن أراد منا أن يبقى على دينه يؤدي الجزية، ومن أراد أن يتبعكم يتبعكم. فقال له معاذ بن جبل: قد نصرنا الله على الكفار بصدق نياتنا وصلح أعمالنا واتباعنا للحق، وإنا ما قلنا قولًا إلا وفيناه ولا استعملنا الغدر ولا المكر، وأنتم لكم الأمان على أنفسكم وأموالكم وحريمكم وأولادكم، ومن بقي منكم على دينه فلن نكرهه، ومن اتبع ديننا فله ما لنا وعليه ما علينا!

فلما سمع «أرجانوس» ذلك نزل إليهم بالمفاتيح فأمَّنوه وأمَّنوا من كان معه في القصر، وجمعوا أكابر مصر ومشايخها وقالوا لهم: إن الله قد نصرنا عليكم،

وقد انهزم ملككم منا وأنتم الآن في قبضتنا وقد صرتم مماليكنا ومن أسلم منكم قبلناه ومن أبى استعبدناه، فقالوا: أيها الملك ما هكذا بلغنا عنكم. قال: وما الذي بلغكم عنا؟ قالوا: سمعنا عنكم أن الله قد أسكن الرحمة في قلوبكم وأنتم تعفون عمن ظلمكم وتحسنون إلى من أساء إليكم! وأنت تعلم أننا قوم محكوم علينا ولو كان الأمر إلينا لاتبعناكم فارفقوا بنا وانظروا في أحوالنا! فقال عمرو لأصحابه وللأمراء: ما ترون من الرأي في أمر هؤلاء القوم؟ فقال شرحبيل بن حسنة: اصنع ما أمر الله به من العدل فيهم وأحسن إليهم وطيب خواطرهم فإننا إذا قصدنا غير هذه المدينة وسمع أيها الأمير عنك أهل المدينة الأخرى ما فعلته مع أهل مصر يسلمون بغير منازعة ولا حرب! فقال معاذ بن جبل وغيره: القول الذي قاله كاتب وحي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هو المعمول به. فقال عمرو لأهل مصر: قد أمَّناكم على أنفسكم وأولادكم وحريمكم منة منا عليكم وقد وضعت عنكم جزية هذه السنة، وفي السنة الآتية نأخذ منكم الجزية من كل محتلم أربعة دنانير، ومن أسلم منكم قبلناه! فلما سمع «أرجانوس بن راعيل» كلام عمرو، قال: لقد أنصفت وإن الله بهذا نصركم وقد وقفت الآن على صحة دينكم وأنا أشهد أن الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، واشهدوا

على أن كل ما تركه أخي من الأموال والأصول والثياب والمتاع هو هبة مني إليكم بما فعلتم مع أهل بلدي.

فلما نظر أهل مصر إلى «أرجانوس» وقد أسلم دخل أكثرهم في الإسلام، وعمد عمرو إلى الكنيسة وعملها جامعًا وهو المعروف به إلى يومنا هذا، وجمع الأموال التي أخذها من وراء القبط المنهزمين ومن منازلهم وما كان في قصر الملك، وأخرج الخمس، وأعطى كل ذي حق حقه، ثم كتب كتابًا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وبعث الخمس والكتاب مع علم بن سارية، وسير معه مائة فارس وأمره بالمسير إلى المدينة، وسار حتى قدمها وسلم المال والكتاب لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، فلما قرأه سجد لله شكرًا وأمر بالمال إلى بيت المال. فقال علم بن سارية: يا أمير المؤمنين إنَّ عَمْرًا يسلم عليك ويقول لك: إن القبط كانوا استنُّوا سنة في نيلهم في كل سنة وذلك أنهم كانوا إذا أبطأ عليهم الوفاء في النيل يأخذون جارية من أحسن الجواري ويزينونها بأحسن زينة ويرمونها في البحر فيأتي الماء ويفي النيل وقد قرب ميقات ذلك، ولا يفعل عمرو شيئًا إلا بإذنك. فكتب عمر بن الخطاب: بسم الله

الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد: فإن كنت مخلوقًا لا تملك ضرًا ولا نفعًا وأنت تجري من قبل نفسك وبأمرك فانقطع ولا حاجة لنا بك، وإن كنت تجري بحول الله وقوته فاجر كما كنت والسلام. وأمره أن يدفعه لعمرو بن العاص يرميه فيه وقت الحاجة إليه ثم إنه كتب: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فالسلام عليك وإني أحمد الله إليك وأصلى على نبيه، وإذا وصل إليك كتابي فاطلب أعداء الله حيث كانوا، وإياك أن تلين جانبك لهم، وانظر في أحوال الرعية واعدل فيهم ما استطعت، واطلب العفو بالعفو عن الناس، وأجر الناس على عوائدهم وقوانينهم، وقرر لهم واجبًا في دواوينهم، وأعل رسوم العافية بالعدل فإنما هي أيام تمضي ومدة تنقضي، فإما ذكر جميل وإما خزي طويل!

ثمَّ إنَّه سلم الكتاب إلى علم بن سارية فسار هو ومن معه إلى أن قدموا مصر وسلم الكتاب إلى عمرو، فأما كتابه فقرأه على المسلمين، وأما كتاب النيل فإنهم قد كانوا عدوا ليالي الوفاء وتوقف النيل عن الوفاء، وقد يئس الناس منه في تلك السنة، فمضى عمرو إلى النيل وخاطبه ورمى فيه كتاب عمر بن الخطاب

- رضي الله عنه -. فلما رماه فيه هاج البحر وزاد فوق الحد، وانقطعت عن أهل مصر تلك السنة السيئة ببركة عمر - رضي الله عنه -.

حدثنا محمد بن يحيى بن سالم عن عدي بن يحيى بن عوف قال: لما بلغنا أن عمرو افتتح مصر وأتى إلى الكنيسة المعظمة عندهم وجد في مذبحها بيتًا مغلقًا وإذا فيه صورة من الفضة وأمام الصورة شخص آخر وفي يده أعلام وهي على صفة الصورة التي وجدها النبي - صلى الله عليه وسلم - في الكعبة لما فتح مكة، فدعا عمرو بالقسوس، وقال لهم: ما هذه الصورة. قالوا له: هذه صورة إبراهيم وأبيه آزر، فتبسم عمرو وقال: «مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»، فقال معاذ بن جبل: لما قدمت من اليمن سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجهه قترة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول آزر: اليوم لا أعصيك! فيقول إبراهيم: يا رب أنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من هذا؟ فيقول الله: حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقول له: يا إبراهيم انظر إلى ما تحت قدميك،

فينظر إلى الريح وقد أخذت أباه فتلقيه في النار». ثم أمر عمرو بالصورتين فكسرتا، وعبر عسكر المسلمون إلى الجانب الغربي، وقد تقدم خالد فترجل إلى نحو الإسكندرية وتقدم على مقدمته عبد الله «يوقنًّا» وسار يومًا وليلة هو وبنو عمه وهم بزي الروم.

فتوح مدينة مريوط

قال ابن إسحق: كان قد بلغ الموبذان الذي مع الثلاثة آلاف ما حصل وهم في مدينة مريوط وقد حصَّنها، فلما قدم عليه «يوقنًّا» قال له الموبذان: ما الذي أقدمك علينا؟ فقال «يوقنًّا»: إن المسلمين وجهوني إليك وهم يحرضونك على خلاص نفسك ويأمرونك بتسليم هذه المدينة إليهم ولك الأمان على نفسك وأهلك ومالك ومن أردت، ولك الخيار في المقام تحت يد الإسلام أو الانفصال فإن اخترت المقام فلا مانع يمنعك وإن أردت المسير أوصلناك إلى أي موضع أردت! فلما سمع الموبذان ذلك قهقه ضاحكًا وقال: وحق ديني إن الغدر شعاركم والمكر دثاركم، فلا أفلح من آمن لكم! وأمَّا أنا فلا أخون الملك في بلده وأنا وهو في أرض واحدة وسوف أبعث إليه بأن أقدم إليه وأساعده

عليكم جزاءً بما عملتموه من الخديعة، وستعلمون على من تدور الدائرة ومن يكون المغبون في الآخرة، وأنتم يا معشر الروم قد كفرتم بالمسيح وجحدتم السيدة أم النور وخرجتم من ملة الحواريين وأردتم هؤلاء العرب الجياع الأكباد العراة الأجساد ولن يغنوا عنكم شيئًا، وحق المسيح لأبعثن بكم إلى الملك فيقتلكم على كفركم!

وكان «يوقنَّا» قد ترك جماعته ومضى في عشرين رجلًا منهم لعله يعمل عليه حيلة! فلما دخل عليه أنزله في دار الضيافة فوضعوا سلاحهم، فلما أكلوا الطعام وتحادثوا، وكان قد فطن بهم وأمر غلمانه أن يكونوا على حذر، وأن يهجموا عليهم فيقبضوهم يريد بذلك أن يرسلهم إلى الملك في الإسكندرية، ورماهم في بيت مظلم في دار إمارته، وأقام ينتظر غفلة من عسكره وكانوا قد أحاطوا بالبلد ووكل بهم جارية اسمها «رينا» وهي أخت مارية التي أرسلها المقوقس إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وكانت شقيقتها، وسلم إليها المفاتيح لمعزتها عنده وقال لها: احفظي عليهم لأرى ما أنظر فيهم.

فلما جنَّ الليل واشتغل عدو الله الموبذان بالشراب، صبرت «رينا» إلى أن غرق في سكره هو ومن معه وناموا وأمنت على نفسها مالت إلى الباب وفتحت على «يوقنَّا» وأصحابه وقالت لهم: أبشروا لا خوف عليكم فإن الله قد جعل رحمتكم في قلبي وأنا أخت مارية التي أهداها المقوقس لنبيكم وإني أريد منكم أن توصلوني عند أختي مارية. فقال لها «يوقنَّا»: أبشري بما يسرك، ولكن أخاف عليك من عدو الله فما ترين؟ فقالت: والله ما جئتكم حتى سكر ونام. فقال «يوقنَّا»: فعرفينا الطريق التي نسلكها إلى قومنا. قالت: إن هذا المكان فيه سرب يخرج إلى ظاهر البلد وهو مبني من قديم الزمان وبابه الخارج مبني عليه قبة على أعمدة وتحتها قبر بين المقابر فكل من رآه يظن أنه قبر، وإن الذي بنى هذه المدينة امرأة يقال لها «فمعمان بنت عاد» وصنعت هذه المقابر التي وراء التل وهي كأنها قصور مشيدة، وكان فيها أناس يسكنوها. فقال «يوقنَّا»: افعلي بنا ما يقربك إلى الله تعالى ورسوله ولعلك أن تنزلينا من هذا السرب حتى نذهب إلى أصحابنا ونأتي بهم منه مادام الموبذان سكران وهو نائم، فقالت: سأفعل ذلك غير أنِّي أريد أن أفتح لكم باب السرب قبله حتى لا تتعوقوا. قال الراوي: وقد مضت رينا أخت مارية وأشرفت على الموبذان. فإذا هو ومن معه صرعى من

الخمر فتركتهم وعادت إلى باب السرب لتفتحه، وإذا هي تسمع وراءه حسًا ففزعت ووقفت تسمع.

عن أوس بن ماجد، وكان ممن شهد فتوح مصر والإسكندرية قال: لما نزل خالد بن الوليد على مريوط بجيشه تفقد «يوقنَّا» وقال لأصحابه: إنه من وقت أن بعثته برسالتي إلى مريوط للموبذان ما عاد قالوا: أيها الأمير إنه من وقت ما دخل إليه ما خرج ونحن في انتظاره، فعلم خالد أن «يوقنَّا» مقبوض عليه فبات مهمومًا من أجله، وكان خالد صاحب همة وعزيمة لا ينام من خوفه على المسلمين، وكان معه جواسيس قد أخذهم معه من كل أقليم، وقد اصطفاهم لنفسه وهو يحسن إليهم، وأينما ذهب يكونوا معه ليأتوه بالأخبار؛ فبينما هو في غم بسبب «يوقنَّا»، وإذا هو بواحد منهم قد دخل عليه وأعلمه أن ولد «الموبذان» قد أتى من إسكندرية من عند «أرسطوليس» ومعه خلع وهدايا لأبيه ومعه خمسمائة فارس، وقد بلغه أنكم محاصرون أباه فترك العسكر وما معه بالبعد وانفرد ومعه خادمان وأتى وما نعلم ما يريد.

فلما سمع خالد ذلك قام وأخذ معه غلامه همامًا وأربعة ممن يعتد بهم وأبعد وقعد على سفح التل من نحو إسكندرية وإذا بولد الموبذان ومعه الخادمان قد قصدوا إلى وراء التل عند تلك المقابر التي وصفت رينا لـ «يوقنَّا» وقصدوا القبة فمشى خالد وراءهم وفرَّق جماعته من أربع جهات القبة وكبسهم وإذا هم قد فتحوا طبقًا في وسطها فأخذهم خالد فلما رآهم ولد الموبذان ارتعدت فرائصه وخاف فقال خالد: إن صدقتموني أمنتكم وإن لم تصدقوني رميت رقابكم. فقال الغلام: أنا أصدقك أنا ولد الموبذان وكنت عند الملك في إسكندرية وقد أنفذ معي خمسمائة فارس عونًا لأبي وحفظًا لهذه المدينة فنحن في الطريق، وإذ قد جاءتني الجواسيس بأنكم نازلون على البلد فأوقفت العسكر وأتيت إلى هذه القبة! فقال له خالد: وما الذي تريد من هذه القبة ألكم فيها سلاح أم مطلب فيه مال؟ قال: لا. قال: فما تريد منها؟ قال الغلام: إن أمنتني قلت لك الحق. فقال له خالد: قد أمنتك على نفسك فقبَّل يده وقال: يا مولاي أريد أمانًا لأبي، ومن يلوذ به فأعطاه! فقال: اعلم أن هذه القبة على سرب والسرب ينتهي إلى دار الإمارة ودار الإمارة في وسط هذه المدينة. فلما سمع خالد ذلك تهلل وجهه فرحًا وسرورًا وقبض على الغلام وعلى

الخادمين وأمرهما مع واحد آخر ممن معه أن يفتحوا السرب ففتحوه فأرسل همامًا إلى العسكر وأمره بأن يأتي بهم في السرب وأن يأتوا معهم بالنار والزيت والقناديل وأن يسرع بذلك، وكان ذلك التل عاليًا والذين في المدينة لا ينظرون ما وراءه، فلما أقبل همام بما طلبه خالد أوقدوا المسارج ونزلوا في السرب وابن الموبذان أمامهم فوصلوا إلى الباب وإذا بـ «رينا» عند الباب تريد فتحه لـ «يوقنَّا» ومن معه، فلما سمعت حسهم قالت: من أنتم؟ فقال خالد لابن الموبذان: كلمها، فقال: أنا فلان بن الموبذان افتحي ولا تعلمي أبي.

فلم يبق لها بد أن تفتح الباب ففتحت فصعد خالد ومن معه فقبضوا على «رينا». فقالت لهم: يا قوم دعوني فإني أردت أن أخلص أصحابكم وجئت لأفتح لهم هذا الباب وأنزلهم إليكم وتملكوا هذه المدينة من هاهنا، وقد أتى بكم رب العالمين وأنا «رينا» أخت مارية زوجة نبيكم، فلما سمع خالد ذلك فرح وقال لها: وأين أصحابنا؟ فأتت بهم عندهم فحلُّوا وثاقهم وأتوا إلى دار الإمارة فوجدوا الموبذان لا يشعر بنفسه من الخمر فوكل به جماعة، وأمر الباقي أن يملكوا السور وقبضوا على الحرس ونزلوا إلى الأبواب، وكان لها بابان

فكسروا أقفالهما وفتحوهما، وأرسل إلى بقية العسكر فدخلوا المدينة والكل في حالك الليل.

فلما أصبح الصباح استيقظ الموبذان ومن معه وإذا بالمسلمين حولهم، وكل من في المدينة قد أسر. فقال له خالد: يا عبد الله لولا أنِّي أعطيت ولدك الأمان كنت قتلتك شر قتلة، ولكن خذ أهلك وانصرف فإننا قوم إذا قلنا قولًا نعمل به! وفهم الموبذان أن ولده قد دلهم على السرب، فلما خرج الموبذان بأهله قال ولده لخالد: يا مولاي إن أنا مضيت معه قتلني ولست أريد بغيركم بدلًا، وأنا أقول: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فقال له خالد: إن قصر أبيك وما فيه لك، وعرض خالد الإسلام على أهل مريوط فأسلم أكثرهم! ثم إن خالدًا قال لـ «يوقنَّا»: أبشر من الله بالرضوان والغفران والثواب فبصبرك على الشدائد فتح الله علينا هذه المدينة، فقال: والله ما فتحها إلا بفضله وببركة نبيه - صلى الله عليه وسلم -! فكتب إلى عمرو بن العاص يبشره بفتح مريوط ونحن معولون على الدخول إلى إسكندرية وأرسل الكتاب إليه. وأقام خالد بمريوط لأجل ذي الكلاع الحميري لأنه مرض معه، وكان مرضه شديدًا

فجلسوا عنده شهرًا، ولم يفارقه خالد فقدَّر الله بالوفاة فحزنوا عليه حُزنًا عظيمًا، فقد كان ذو الكلاع ملك حمير، وكان قبل دخوله في الإسلام يركب له اثنا عشر ألف مملوك سود سوى غيرهم. قال أبو هريرة الدوسي - رضي الله عنه -: ولقد رأيته بعد تلك الحشمة يمشي في سوق المدينة وعلى كتفه جلد شاة لما قدم عليه من اليمن إلى الجهاد في أيام أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -، فلما مات رثاه ولده «تنوخ» بما رثى به حمير أباه سبأ بن يشجب في الزمن المتقدم وهو:

عجبت ليومك ماذا فعل	وسلطان عزّك كيف انتقل
وسلّمت مُلكك ذا طائعًا	وسلّمت للأمر لمّا نزل
فيومك يوم رفيع النزال	ودورك في الدهر دور رحل
فلا يبعدنّك فكل امرئ	سيدركه بالسنين الأجل
لئن صحبت نائبات الزمان	وشت مع الدهر وجه الأمل
لقد كنت بالملك ذا قوة	لك الدهر بالعزِّ عان وجل
بلغت من الملك أقصى المدى	نقلت وعزَّك لم ينتقل
فطحطحت آفاقه والمدى	وجئت من العرب حول الدول
حويت من الدهر إطلاقه	ونلت من الملك ما لم ينل

وحمّلت عزمك ثقل الأمور فقام بها حازم واستقل

صحبت الدهور فهنأتها وما مرّ عيشك فيما فعل

بنيت القصور كمثل الجبال ذهبت فلم يبقَ إلا الطلل

نعمنا بأيامك الصالحات ومشربنا بك وبل وطل

تؤمل في الدهر أقصى المنى ولم تدرِ بالأمر حين نزل

فزالت لعزمك شمّ الجبال ولم يكُ حزمك فيها هبل

ذكر فتوح إسكندرية

عن معمر بن الرشيد قال: لما نزل خالد بعد رحيله عن مريوط، قالت له عيونه: إنه لما انهزم ابن المقوقس وأتى إلى إسكندرية وبلغه فتح مصر صعب عليه، وكانت إسكندرية عامرة، كان فيها الخلق كثيرًا والمراكب، فأرسل مراكب وعمرها بالرجال وأمرهم أن يكبسوا سواحل بلاد الشام على المسلمين، فقالوا: سمعًا وطاعة ومضوا إلى ساحل الرملة فوجدوا بالليل نيرانًا كثيرة فسألوا من كان خبيرًا بالبلاد، فقالوا: هذه نيران المسلمين النازلين هاهنا. فقالوا: هذه حاجتنا التي جئنا في طلبها، فنزلوا وقصدوها وإذا بها حلل من حلل دوس بني عم أبي هريرة، وكان معهم طائفة من بجيلة وفي جملتهم ضرار بن

الأزور وهو مريض وأخته خولة معه تمرضه، وكان أبو عبيدة أمرهم بالنزول هناك لأجل كثرة المرعى وهم آمنون مطمئنون من الروم وغيرهم، لأن دولة الروم قد انصرمت وأيامهم قد ولَّت، فما فطن القوم إلا وقد كبسهم القبط في حندس الليل ووضعوا فيهم السيف فقتلوا منهم رجالًا، وأخذوا منهم أسارى ومن جملتهم ضرارًا وأخته، وأخذوا ما قدروا على حمله وأتوا بهم المراكب، وكان جملة من أسروه من الرجال والنساء والأولاد والعبيد ألف ومائة فوضعوهم في المراكب، وأقلعوا بهم من ليلتهم وساروا طالبين إسكندرية.

قال ابن إسحق: وكان أبو عبيدة قد استوطن طبرية لكونها في وسط البلاد وهي قريبة من الأردن والشام والسواحل، وإن أبا هريرة قد أتى ليزور قومه في تلك الأيام ويسأل عن حال ضرار، وكانوا يحبونه لشجاعته! فأتى أبو هريرة ومعه حليف له من بني بجيلة فأصبحا تلك الليلة في الحي، وإذا بهم قد أخذهم القبط، وبيوتهم مطروحة والرجال مقتولة وآثارهم منبوذة، ووجدوا من الذين انهزموا أناسًا مجروحين فسألوهم فقالوا: ما عندنا خبر حتى كبسنا قوم نصارى

وما نعلم من أي الطوائف هم ولم نفق حتى وقعوا فينا بالسيوف فقتلوا ما ترون وأسروا الباقين وأخذوهم في مراكبهم.

فقال أبو هريرة: لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، وساروا إلى ساحل البحر فلم يروا لهم أثرًا، فلما عوَّلوا على الرجوع إذا بلوح من ألواح المراكب تلعب به الأمواج، وعليه شخص فوقفوا له حتى أقبل وخرج الرجل وإذا به أمير دوس وحيان ابن عم أبي هريرة، فلما رآه ترجَّل له وعانقه وهنأه بالسلامة وقال له: يا ابن عم ما وراءك؟ فقال: هجم العدو علينا ليلًا وأسرونا وساروا، فلما توسطنا البحر بعث الله بريح فغرقت مركبنا، وقد نجاني الله على هذا اللوح. فقال له: ومن أعداؤكم؟ قال: من قبط مصر، وإني سمعتهم يذكرون إسكندرية كثيرًا. فرجع أبو هريرة يطلب طبرية وأتى ابن عمه إلى مكان الحلة حتى يلم شعث الناس ويداوي المجروحين، فجمع ما تركوه وأتى بهم إلى الرملة. وأما أبو هريرة فأتى أبا عبيدة وأخبره بما جرى فاسترجع وبكى، وقال: أعوذ بالله من الساعات الرديئة، ثم قال: والله لئن وصلوا إلى إسكندرية ما يبقيهم صاحبها طرفة عين ويموت ضرار ويمضي دمه هدرًا! وكتب إلى عمرو بن العاص يعلمه

بذلك ويحذره من صاحب الإسكندرية وأنه أسر ألفًا ومائة من جملتهم ضرار وأخته، وكانت تداويه وهي عنده، فإذا وصل إليك كتابي هذا فاجتهد في خلاصهم وإن وقع في أيديكم أحد من القبط ففادوهم به، ودفع الكتاب لزيد الخيل وأمره أن يسير إلى مصر، فلما قدم زيد الخيل إلى مصر دفع الكتاب لعمرو بن العاص، فلما قرأه صعب عليه، وكان يحب ضرارًا فأرسل الكتاب إلى خالد بن الوليد، وكتب إليه يحثه بالمسير إلى الإسكندرية وأن يتفقد حال الأسرى! فلما وصل الكتاب إلى خالد وقرأه صعب عليه أمر ضرار وأخته خولة.

عن عبد العزيز عن أبيه قال: لما أخذت النصارى حلل دوس وضرارًا وأخته وعصفت عليهم الريح وغرق أحد المراكب ووصل الباقي إلى الإسكندرية أوقفوهم أمام ابن المقوقس فأراد قتلهم فقال له أرباب دولته: أيها الملك لا تعجل عليهم واعلم أن العرب متوجهة إلينا ولابد لنا من قتالهم فإن أسر أحد منا ممن يعز عليك يكون عندنا من نفادي به ولعل أن نصالح العرب! فاستصوب رأيهم وقال: ادفعوا هؤلاء الأسرى إلى «دير الزجاج»، وأرسل

معهم ألفي فارس يوصلونهم إلى الدير، فجاءت عيون خالد وأخبروه بما وقع فقام وأخذ معه أصحابه وسار يطلب «دير الزجاج» فوصل إليه قبل وصول الأسارى ومن معهم، فلما أحدقوا بالدير أشرف عليهم راهب كبير السن وكان اسمه فباحًا وكان تلميذًا لبحيرا راهب بصرى، وكان مؤمنًا بالله وبأنبيائه. فقال له خالد: يا راهب كيف ترى الدنيا؟ قال: تنحف البدن، وتبدد الأمل، وتقرب المنية، وتقطع الأمنية. قال: فما حال أهلها؟ قال: من نال منها شيئًا نفضته ومن فاته منها شيء حسرته. قال: فما خير الأصحاب فيها؟ قال: العمل الصالح والتقي. قال: فما شر الأصحاب فيها؟ قال: اتباع النفس والهوى.

قال خالد: صدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذ قال: «الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها». ثم قال: كيف طابت لك الوحدة؟ قال: ألفتها. قال: فهل نلت منها فائدة؟ قال: نعم، الراحة من مداراة الناس. قال: فما أحسن هذا الاعتقاد لو كان في دين الإسلام والتوحيد! قال: فما أعرف غيره! قال: فما تقول في محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم –؟ قال: سيد الرسل وخاتم الأنبياء وصفي الأصفياء وحجة الجبار على الورى. قال: فلم لا تكون

في بلاد الإسلام فهي أصلح لك من هاهنا؟ قال: قلبي ملوث بحب الدنيا. قال خالد: أعندك خبر بالعرب الأسرى الذين أرسلهم الملك هنا؟ قال: لا والله، ولكن مرَّ بي البارحة بطريق وأسقف واستقيا ماء من بئر هذا الدير فسألتهما من أين أتيتما؟ فقالا: من الإسكندرية وإننا رسل الملك «كيماويل» صاحب أرض «برقة» وأنه أرسلنا إلى ملك القبط يسأله أن يرسل له أسرى من عرب المسلمين حتى يراهم ويسمع كلامهم فأجاب أنه يرسل منهم جماعة وإنَّا ماضون نعلم صاحب برقة بذلك. فقال لخالد: لعلكم من المسلمين الذين فتحوا بلاد الشام؟ قال خالد: نحن هم.

فقال الراهب: إن أخباركم عندي في كل وقت وأعلمك أني رأيت نبيكم وهو في قافلة قريش وأنا عند بحيرا، فلما مات بحيرا انتقلنا إلى هذا الدير، واعلموا أنه ما بقي من أرض الكنائس ولا بأرض العقبة ولا بأرض الرمادة أحد ولا راهب ولا قس إلا وقدم لزيارتي ويسألني عنكم وعن نبيكم، ويقولون لي: أنت كنت على طريقهم ورأيت نبيهم وشرحت لهم دينكم وأوصلتهم إلى ما ظهر من معجزات نبيكم، ولقد جرى بيني وبين راهب منهم بالقرب مناظرة، وقال

لي: إن النبي الذي بشر به عيسى المسيح ابن مريم ليس هذا، فقلت له: بلى هو والله النبي العربي. فقال لي: إننا سمعنا في العلم أن الرسول الذي يظهر من أرض الحجاز يعرج به إلى السماء، وما سمعنا أن هذا عرج به، فقلت: بلى والله أنا سمعت بأنه عرج به إلى السماء وخاطب العلي الأعلى، وأصبح فأعلم بذلك قريشًا.

ثم قال لخالد: اعلم أن في وسط هذا الجبل ديرًا يقال له «دير المسيح»، وقد استوى عليه بطريق ومعه جماعة وهو يقطع الطريق على قوافل العرب، وأنه منذ زمان قطع الطريق على قافلة وفيها شخص من بلادكم وهو مسلم، فأخذ القافلة وعزى أهلها وأطلقهم وقبض على ذلك المسلم وأخذ ماله، ووضعه عنده في العذاب الشديد، والرجل يستجير فلا يجار، ويقول له: ما أطلقك حتى تكفر بالرحمن وتسجد للصلبان، ثم إنه يأتيه بصورة من نحاس وعلى رأسه عمامة سوداء، ويقول له هذه صفة نبيكم وينصبه قباله ويصب فضلة كأسه على رأس هذه الصورة، وذلك الرجل يستجير من فعاله. فلما سمع خالد ذلك أخذ معه شرحبيل بن حسنة وعامر بن ربيعة ويزيد بن أبي سفيان وهاشم بن سعيد

والقعقاع ورفاعة - رضي الله عنهم -، وترك بقية العسكر محيطة بالدير ومضوا إلى وسط الجبل فوجدوا الدير فوصلوا إليه، وإذا بالبطريق قد أقبل ومعه وحش مذبوح، وقد قصد إلى شجرة بالقرب من الدير وتحتها عين، فنزل على العين وصاح بغلمانه فأتوا إليه وأضرموا النار وجعلوا يشوون له وهو يأكل ويشرب الخمر، وقال لهم: هاتوا المحمدي، فأتوه برجل قد ركبه الذل وغلبه القهر، فلما رآه قال له: أنت قد غلبتني بتجلدك على العذاب، وحق ديني لا أرفع عنك العقوبة حتى ترجع عن دينك إلى ديني! فقال له: اصنع ما بدا لك فإني أعلم أن الكل بمشيئة الله وبإرادته، وإني صابر على مر البلاء وما أرجع عن دين محمد المصطفى - صلى الله عليه وسلم -.

فهمَّ أن يقوم إليه يضربه فصاح به خالد بن الوليد وحمل عليه وطعنه فأخرج السنان من ظهره وقتلوا غلمانه وخلصوا المسلم ونزلوا على العين، ولم يكن لأهل الدير شرب إلا من تلك العين، فأشرف عليهم الرهبان من أهل الدير، وقالوا: ما نحن أهل سيف حتى نقاتلكم، وقد نهاكم نبيكم عن قتل الرهبان! فقال خالد: سلموا لنا مال هذا البطريق وعياله وأطفاله ونحن نترككم في ديركم.

ففتحوا لهم وسلموا لهم جميع موجوداته، وأخذوا الأسير وساروا، وسأله خالد بن الوليد: من أين أنت؟ فقال: أنا أمية بن حاتم أخو عدي، وقد أخذني هذا في أواخر أيام أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - فإني كنت طالب برقة مع قافلة ومعي بضاعة نأخذها وأخذني، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا! فرجعوا عند أصحابهم ولم يأتوا القبط فما لحقوا أن ينزلوا عن خيولهم إلا والراهب قد صاح، وقال لهم: استعدوا للقاء عدوكم فإنهم قربوا منكم! فتجهزوا للقاء العدو وإذا بهم قد أقبلوا، وضجيج الأطفال وبكاء الناس وأنين الرجال وصراخ المأسورات، وصياح القبط عليهم يسوقونهم من ورائهم، والعربيات، تنادي بالويل والهوان، وخولة بنت الأزور على مقدمة الأسارى وهي تقول:

جلَّ المصاب وزاد الويل والحرب ... وكل دمع من الأجفان ينسكب
ومادت الأرض مما قد بليت به ... حتى توهمت أن الأرض تنقلب
جالت يد القبط فينا عند غفلتنا ... واستحكم القبط لمّا زالت العرب
لهفي على بطل قد كان عدَّتنا ... فيه العفاف وفيه الدين والأدب
قد كان ناصرنا في وقت شدّتنا ... أعني ضرار الذي للحرب ينتدب
فيه الحمية والإحسان عادته ... فيه التعصب والإنصاف والحسب

لـو كـان يـقـدر أن يـرقـى مـراكـبـه		كـان الـعـدو فـني والـحرب تلتهـب
أو كـان خـالـد فيـنـا حـاضـرًا وطنًـا		لزال عنّـا الـذي نشــكو ونـنتحب
لو كان يسـمع صـوتي صاح بي عجلًا		مهلًا فقد زال عنك البؤس والعطب

فلما سمع خالد نداءها، قال: لبيك يا بنت الأزور، قد جاءك الفرج وذهب عنك الحرج! فأطبقوا على القبط، فما كان ببعيد حتى قتلوا منهم سبعمائة وأسروا ألفًا وثلثمائة، وخلصوا الأسرى وسلموا على ضرار، وهنئوه بالسلامة، وودعوا الراهب بعدما كتب له خالد كتابًا بأن له من طعام الإسكندرية صاعًا، ولكل من سكن الدير من أهله وقبيلته، ثم إنهم ساروا طالبين الإسكندرية وهم سائقون الأسرى من القبط بين أيديهم.

وكان الملك «أرسطوليس» لما سمع بأن العرب قد أتوه أخرج عسكره، وضرب خيامه خارج باب السدرة. فلما قدم المسلمون وقع الصايح بقدومهم ووقع الخوف في قلب الملك وعسكره وقالوا له: أيها الملك ما الذي تدبر في أمر هؤلاء العرب؟ قال: وما عسى أن أدبر والخوف قد ملأ قلوبكم، وهم طمعوا فيكم ورأوا أنكم تنهزمون ولا تخافون العار، وإذا قاتلتموهم كانت قلوبكم متفرقة وأهواؤكم غير متفقة، وقد أسروا رجالًا ولم يرهبوا قتالكم ولا

مانع يمنعهم، ولو أن أصحابهم الذين أرسلتهم إلى دير الزجاج عندي لكنت صالحتهم بإطلاقهم ودفعناهم عنا! وقد فرطنا أيضًا في الألفين الذين أرسلتهم معهم، فلو كانوا فينا لقاتلوا معنا! فقال له وزيره: أيها الملك هل لك أن ترسل إليهم وتتحدث معهم في أمر الصلح، ونحن نسلم إليهم أصحابهم. فقال: إنهم لن يقبلوا منكم رسولًا منذ صبأنا عليهم بـ «بحر الحصى»! فبينما هم في ذلك وإذا بصاحب البحر، قد أتى إليه وهو الموكل بالنَّار، وأخبره أنه رأى مركبًا قد ظهر من قبل الغرب، ولا أعلم من أين أتى! فقال: لاشك أنه من صاحب برقة الملك «كيماويل»، وقد أنجدنا، فأقبل المركب ورمى مراسيه ونزل منه شيخ مهيب، مليح الشيبة ظاهر الهيبة، وعليه ثياب من الصوف الأسود، ونزل معه عشرون شخصًا من القسوس والرهبان، فلما نزلوا إلى البر جاءتهم الخيول بالمراكب المذهبة والغلمان والحجاب وعظموا شأنهم وأركبوهم وساروا بين أيديهم إلى أن أوصلوهم إلى الملك وأدخلوهم عليه، فقام لهم وعظم شأنهم وأجلس ذلك الشيخ معه على السرير.

قال الراوي: وكان «أرسطوليس» قد أرسل هدية إلى الملك صاحب برقة، وأرسل إليه يعلمه بما فعله العرب في مدن قيصر وأنهم قد أتونا، ومن جملة ما أرسل له يقول: أيها الملك اعلم أن الدنيا دار زوال وانتقال، فما وهبت إلا واستردت، ولا فرَّحت إلا وأحزنت، فالمغرور من تشبث بذيلها واطمأن إليها، والسعيد من لبس ثياب الحذر منها وعمل لدار المقر، أما ترى أيها الملك إلى هرقل ملك الشام كيف هرب وزال ملكه. وذلك عندما رمته الدنيا بمصائبها، وشتتته بسهام نكائبها بعدما كانت في وجهه مشرقة ولا يخطر له هم الأعداء على بال، وما ضربت لك هذا المثال إلا لعلمي أن الدنيا لا تبقى على حال، وهؤلاء العرب قد استولوا على البلاد، وأذلوا بسيوفهم العباد، وقد أقاموا لهم شرعًا بالسيوف الحداد، وقد ملكوا القياصرة وقد جاءنا طائفة إلينا، وأخذوا مصر منا وأخذوا ملكنا وحكموا على بلادنا بعدنا ولابد لهم منك ولا غنى لهم عنك، والصواب أن تشمر لهم عن الهمم وتنجدنا على من بغى وأجرم، فنحن جيرانك وكلنا جندك وأعوانك والسلام.

قال الواقدي: فلما وصلت الهدية والكتاب عرضه على أرباب دولته وقال لهم: ما ترون فيما كاتبكم به صاحب مصر والإسكندرية؟ فقالوا له: أيها الملك ما زالت الملوك يستنصر بعضها ببعض، والذي أشار إليه هو الحق، وأن العرب إذا ملكت ملك القبط فلابد لهم منا والعبور إلى بلادنا، فابعث إليه بنجدة ونكون نحن وهو يدًا واحدة، فالمسيح يعطي النصر لمن يشاء!

فأجابه إلى ذلك وأمر ابن أخيه «أسطفانوس» أن يمضي في أربعة آلاف وأمره أن يسير لمعاونة صاحب إسكندرية، ثم إنه أرسل خادمه إلى عالم أرضهم والمشار إليه في علم النصرانية البترك «سطيس»، وكان عمره مائة وعشرين سنة، وكان تلميذ «زيروسا»، و«زيروسا» تلميذ «مرقس»، و«مرقس» تلميذ «يوحنا»، و«يوحنا» أحد حواري عيسى المسيح، وكان البترك «سطيس» مؤمنًا بالله وموحدًا وسمع بأخبار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومعجزاته وهو مؤمن من قبل مبعثه وظهوره حتى بلغته أخباره - صلى الله عليه وسلم - وأنه مات فبكى لموته ولزم زاوية الحزن ولم يظهر خبره لأحد مدة من الزمان، وقد بنى له صومعة وانفرد بها وجعلها على قارعة الطريق فما مرت به قافلة إلا

واستخبرها عنه ويسأل عمن جلس بعده للمسلمين خليفة. فقالوا: أبو بكر الصديق وبلغه موته وولاية عمر، ثم بلغه فتوح الشام وقدوم الصحابة إلى مصر وفتحها، فلما أرسل صاحب مصر يستنجد صاحب برقة وأرسل أخاه أرسل هذا البترك في مركب يبشره بقدوم «أسطفانوس» إلى نصرته!

فلما وصل إليه وبشره فرح بذلك وقال: يا أبانا أريد من إنعامك أن تسير إلى هؤلاء العرب وتختبر دينهم ونبيهم وتدعوهم إلى الصلح وتعلمهم أن في أيدينا جماعة منهم أخذناهم من ساحل الرملة وقد أنفذت بهم إلى دير الزجاج، فإن أرادوا أصحابهم أطلقناهم لهم ونعطيهم شيئًا من مالنا واعقد لنا معهم الصلح بأنهم لا يرجعون إلينا ولا يتعرضون لنا. فقال البترك: سأفعل ذلك وإني قد قرأت في الكتب السالفة فوجدت فيها أن الله يبعث نبيًا من أرض تهامة تعرض عليه مفاتيح الأرض وكنوزها فلا يلتفت إليها ولا يعيرها نظره، ولا يختار إلا الفقر على الغنى، وأن أصحابه يتبعون سنته وأنا أستخبر حالهم قبل سيري إليهم.

فقال الملك: وكيف تستخبر حالهم يا أبانا؟ قال: أيها الملك أرسل بغلة من مراكبك وعليها مركب من ذهب وهو مرصع بالمعادن وتأمر غلمانك أن يسيروا

بها ويرسلوها نحو عسكر المسلمين، فإن أخذوها فنعلم أنهم يحبون الدنيا ولا يريدون الآخرة وإن ردوها فنعلم أنهم يطلبون ما عند الله. ففعلوا ذلك وأرسلوها؟ وكانوا في حندس الليل، وكان في الحرس شرحبيل بن حسنة، فلما رأى البغلة وما عليها من الزينة ضحك وقال: إن أعداء الله يريدون اختبارنا ومعرفة أحوالنا إن كنا نطلب الدنيا أو الآخرة، فوالله ما منا من يميل إلى ما يفنى وإنما بغيتنا فيما يبقى ثم قرأ «اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ»، ثم أمسك بعنان البغلة وأطلقها نحو عسكر القبط. فلما رأوها صلَّبوا على وجوههم، وقال الملك: والله بهذا نُصِروا وخذلنا الله! إن أبي كان على بصيرة من أمرهم!

ثم أمر البترك «سطيس» أن يتوجه إليهم فمضى، فلما قرب منهم رأى أقوامًا قد هجروا الدنيا، فمنهم القارئ، ومنهم الذاكر، صغيرهم يوقر كبيرهم، وكبيرهم يرحم صغيرهم، وصوت أحدهم لا يعلو على الآخر، فلما دخل على

عسكرهم سأل عن أميرهم فدلوه على موضع خالد فقصده. فلما وصل إليه وجده في ذكر الدين والقيامة فنزل عن بغلته ووقف أمامه وأومأ إليه بالسجود فمنعه خالد. فقال له: أنت أمير هؤلاء القوم؟ قال: كذا يزعمون أني أميرهم ما دمت على الحق واتباع العدل والإنصاف والخوف من الله محسنًا للمحسنين منهم مشدادًا على المسيئين منهم فمتى حدت عن هذه الأشياء فلا إمارة لي عليهم. فقال البترك: أنتم والله القوم الذين بشر بكم عيسى ابن البتول، وإن الحق معكم لا يفارقكم، فأمره خالد بالجلوس فجلس وقال: يا معاشر العرب أخبروني عن نبيكم. فقال خالد: إن الله اختار من ولد آدم العرب واختار من العرب مضر واختار من مضر كنانة واختار من كنانة قريشًا واختار من قريش بني هاشم واختار من بني هاشم عبد المطلب واختار من بني عبد المطلب عبد الله محمدًا - صلى الله عليه وسلم - وقال: «كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين» وقال: لما خلق الله العرش كتب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله، فلما وقع آدم في الزلة رأى على ساق العرش لا إله إلا الله محمد رسول الله. فقال: يا رب من هذا؟ قال: ولدك يا آدم الذي لولاه ما خلقتك. قال: يا رب فبرحمة هذا الولد

ارحم هذا الوالد. فقال: يا آدم لو تشفعت إلينا بمحمد في أهل السموات والأرضين لشفعناك؟

ثم إنَّ الله جعل اسمه مقرونًا باسمه وذكره مع ذكره ووسمه بما وسم به نفسه فقال: «إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ»، وقال في حقه: «بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ»، وقال: «مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ»، وقال: «النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ»، وقال: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ»، وإن الله – عز وجل – رفع ذكره وعظَّم فخره وأعزَّ قدره فقال تعالى: «وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ»، وهذا غاية الشرف والتعظيم والتبجيل والتكريم وقال: يا محمد لا أذكر حتى تذكر فمن أحبك فقد أحبني، ومن سبك فقد سبني، ومن جحدك فقد جحدني، ومن أنكر نبوتك فما عرفني وها أنا أشهد على نبوتك. فقال عز من قائل: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ»، وقال في موضع آخر: «وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا».

فلما سمع البترك ذلك من خالد فرح وقال: لقد نجا من اتبعه وخسر من فارقه ثم جدد إسلامه على يد خالد وحدثهم بأمره من أوله إلى آخره، ثم

حذرهم من أخي صاحب برقة وأنه واصل، ومعه أربعة آلاف فارس، وإني قد سبقته في البحر، وهذا الملك القبطي يريد صلحكم ويقرر لكم على أنكم تصالحونه أن يعطيكم شيئًا من المال ويسلم إليكم قومًا من أصحابكم قد أخذوهم من ساحل الرملة. فقال خالد: إن أصحابنا قد فك الله أسرهم وجمع بنا شملهم وقد نصرنا الله على القبط الألفين الذين كانوا مع الأسارى فإننا أخذنا ألفًا وثلثمائة أسير وقتلنا سبعمائة ثم إنه عرضهم عليه وعرض الإسلام عليهم فأسلم بعضهم وأبى أكثرهم فأمر خالد بضرب رقابهم بين العسكرين، ثم أن البترك عاد إلى صاحب إسكندرية وقال له: هؤلاء لا نملك غرتهم لأنهم حذرون من أعدائهم وعرفه بقصة أصحابه وأنهم هؤلاء الذين ضربوا رقابهم قبالك فقال له: يا أبانا ومن أين هؤلاء؟ قال: قد وقعوا بهم وخلصوا أصحابهم وأسروا من أصحابك ألفًا وثلثمائة وقتلوا سبعمائة. فلما سمع ابن المقوقس ذلك سقط في يده وأيقن بإتلاف ملكه، وقال لأرباب دولته وعسكره: خذوا أهبتكم للقتال وكأنكم بعسكر الملك «كيماويل» صاحب برقة وقد أقبل عليكم، ونقاتل هؤلاء العرب بقلوب قوية وأسرار نقية ويعطي الله النصر لمن يشاء، وباتوا وهم معولون على القتال.

قال ابن إسحق: ولقد بلغني أن الملك نام بقية ليلته فرأى في منامه كأن شخصًا أشقر عريض الصدر قد خرج من حمام ومعه شخص آخر مليح الوجه حسن الخلق وسيم قسيم في عينيه دعج وله نور يسطع كأنه قمر. فقال ابن المقوقس للأشقر: من أنت؟ قال: ابن العذراء البتول أنا المسيح ابن مريم، وهذا الذي بشرت به من قبل مبعثه هذا محمد رسول الله العربي الأمي من آمن به فقد اهتدى، ومن جحد نبوته فقد اعتدى، وقد جئنا لنصرة أصحابه ومقامنا على القبة. ثم إن عيسى - عليه السلام - قال للملك في نومه: «إن كنت من أمتي فاتبع شريعة هذا النبي» وذهب عنه، فلما أصبح حدث أرباب دولته بما رأى في نومه فقالوا: أيها الملك هذه أضغاث أحلام وما كان عيسى المسيح يماشي العربي وهو عدوه، وإنما الشيطان قد خيل لك ذلك فلا تلتفت إليه! فأصغى الملك إلى كلامهم ثم إنه أمر عسكره بالقتال فركبوا وصافوا المسلمين. وأما الملك فإنه نظر إلى برج القبة وإذا بالقبة يسطع منها نور فدخل الوهم في قلبه مما رأى في منامه، وقال: والله ما هذا النور إلا نور المسيح ومحمد وإن هذا هو الحق لا شك فيه.

عن الأحوص قال: كنت في خيل خالد بن الوليد يوم قتالنا على إسكندرية فلما وقفنا في ميدان الحرب وقف يقاتلنا فارس وهو بطريق عظيم الخلقة وعليه لبس يلمع وتحته جواد عربي فنادانا بالعربية بلسان فصيح، وقال: يا عرب انصرفوا عنا فإنا لا نريد حربكم وقد ملكتم منَّا مصر والصعيد وأكثر الريف وقد بقي في أيدينا هذه الجهة وما نحن منازعوكم فيما أخذتموه منا، ونحن لا نقلدكم في البغي ونصالحكم صلحًا نعود منه عن ظلم أنفسنا ونعدل في رعيتنا، وإن أبيتم صلحنا لقيناكم بأسرار نقية وقلوب للجهاد قوية، فنردكم على أعقابكم منهزمين، لأنه ما عدا أحد على أهل هذا الدين إلا ذل وانهزم لأننا قوم لنا الكنائس الأربع والصوامع والبيع والقسوس والرهبان والمذابح والقربان والإنجيل والصلبان! ثم سكت عن كلامه. وكان هو الملك ابن المقوقس فكان أول من بادر إلى رد جوابه شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال له: لقد افتخرت بما يؤدي بصاحبه إلى البوار، ويعقبه سوء الدار، يا ويلكم أتفتخرون علينا بالشرك والطغيان وعبادة الصلبان والكفر بالرحمن؟! يا ويلكم كيف طال لكم الكفر بإلهيته والإشراك بربوبيته وأن تجعلوا له ولدًا من خلقه وبريته؟! وتسجدون للصلبان في دار مملكته ولا

تفزعون من عظمته ثم إنه قرأ «وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۞ حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»، ثم قال شرحبيل: إن لله عبادًا لو أقسموا على الله أن يدكدك لهم هذا السور لفعل، وكانت إشارته إلى سور المدينة فغار السور في الأرض وبانت المنازل والدور. فارتعدت فرائص الملك لما عاين ذلك من عظيم القدرة فلوى عنان جواده إلى عسكره وأفئدتهم قد طارت وأفكار القبط قد حارت.

فلما جنَّ الليل أخذ الملك خزائنه وأمواله وحريمه وعياله وركب في المراكب وسار يريد جزيرة «أقريطش»، فلما أصبح الصباح وقع الصايح بالمدينة بأن الملك قد انهزم فاجتمع الأكابر وقالوا: إن الملك قد انهزم وما لنا من يدفع هؤلاء العرب! فخرجوا بأجمعهم إلى أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ووقفوا بين يدي خالد، وقالوا: إن الله قد نصركم بحق وأيدكم

بصدق، وإنا نريد منكم أن تعاملونا بالنصفة وتنظروا إلينا بعين الرحمة، والعدل سنة من كان قبلنا معكم من الروم!

فقال خالد: ما فعل ملككم؟ قالوا: انهزم بأهله وماله في البحر. فقال قوم: قد أسكن الله الرحمة في قلوبنا وبصرنا بمعالم ديننا، وأظهرنا على أعدائنا، وفضلنا على سائر من كان قبلنا من الأجناس. فقال تعالى: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ»، ونحن نجريكم على أحسن عوائدنا مع سائر من فتحنا بلادهم، وقد أمسكنا عنكم ولو أردنا أن نملك البلد بالسيف لهان علينا، ولكن خير الناس من قدر وعفا ونريد منكم مائة ألف مثقال ذهبًا صلحًا عن أنفسكم وأهاليكم وندعوكم بعد ذلك إلى الإسلام، فمن أجاب منكم كان له ما لنا وعليه ما علينا، ومن عدل عن ذلك أخذنا منه الجزية عن السنة الآتية من كل رجل وغلام بلغ الحلم أربعة دنانير! ونشرط عليكم شروطًا أن لا تركبوا دابة، ولا تعلوا دوركم على دور المسلمين، ولا ترفعوا أصواتكم عليهم، ولا تبنوا كنيس ولا صومعة ولا ديرًا، ولا تجددوا ما دثر، وتلقوا المسلمين بالذل والانكسار، وتسارعوا في قضاء حوائجهم وما يريدون من إصلاح شأنهم لا تعدلوا عن

تعظيم أشكاله، ومن أذنب منكم ذنبًا حددناه، ومن ارتد عن قولنا قتلناه، وأن تشدوا الزنانير على خصوركم إظهارًا لدينكم، وأن لا تظهروا ناقوسًا ولا صليبًا، ولو آمنتم بالله ورسوله لكان خيرًا لكم. فقالوا: أيها الأمير ما نترك ديننا فقرأ «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ *وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ * وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ»، فقالوا: أيها الأمير نريد أن تولي علينا رجلًا منا حتى يجمع المال الذي تقرر علينا فيلمه بالعدل وليكن معه رجل منكم من أصحابكم، فقال خالد: إني لا أعرف أحدًا من أجاويدكم فاختاروا لأنفسكم برضاكم من أوليه عليكم فأشاروا إلى رجل منهم اسمه «شيعا بن شامس»، وكان مقدمًا في القبط فولاه خالد على جمع المال ورياسة البلد وندب معه قيس بن سعد وأوصاهم، وقال: خذوا من كل واحد ما يحتمل حاله من كان معسرًا ضعيفًا فدعوه، وأحسنوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ. ولا تظلموا يتيمًا ولا فقيرًا ولا

أرملة! فتعجب القبط من حسن وصيته وكلامه فدخل القوم واجتمعوا في دار الإمارة وبعث «شيعا» غلمانه يجمعون الناس.

عن سليمان بن عوف عن جده مازن بن سعيد قال: وقع القسط على أهل إسكندرية فكان أكبرهم في الحشمة وأغزرهم في المال يزن عشرة قراريط وأوسطهم حالًا يزن قيراطين ولقد أتي برجل من أغنيائهم اسمه «براس» لا يدري ما يملك من المال والدواب والغنم وكان أبخل أهل زمانه، فقال له شيعا: قد وجب عليك في هذا المال دينار، قال: وحق المسيح ما أنا بالذي يؤديه ولو مت إن تصدقت به كان أفضل من عطيتي للعرب. فقال له قيس بن سعد: إن في الذي نأخذه منكم صونًا لأنفسكم وحفظًا لدمائكم، ونحن ما نأخذه على وجه الصدقة منكم بل نأخذه حلالًا لا حرامًا! يا ويلك لو دخلنا مدينتكم بالسيف ألست كنت أنت أول من قتل ومالك أول ما نهب؟! وقال له شيعا: خذلك الله ولعنك! كل من في إسكندرية يعلم أنك كنت أولًا فقيرًا لا تقدر على شيء من أمور الدنيا وقد آتاك الله من فضله ووسع عليك رزقه. فقال: ألست ورثته عن آباء كرام وأجداد عظام وما لله علي من فضل؟! فغضب قيس وقام إليه وقمعه

بمقرعة كانت معه، وقال له: كذبت يا عدو الله ورسوله، الفضل والحمد والمنة لله لأنه رزقنا من فضله وأسبغ علينا من نعمه «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا»، ثم قال قيس: «اللهم إنَّه جحد نعمتك فأزلها عنه». فوالله ما مضى يومه حتى جاء الخبر بأن أغنامه قد هلكت جميعًا وبساتينه يبست ودياره قد تهدمت وأمواله ذهبت. قال الراوي: وجعلوا المال ومضوا به إلى خالد وبنى فيها المساجد، وأخذ كنيستهم العظمى فجعلها جامعًا وترك لهم أربع كنائس، وكتب إلى عمرو بن العاص يعلمه بفتح إسكندرية ففرح وركب وترك موضعه أبا ذر الغفاري وذهب إلى الإسكندرية وبنى فيها جامعًا في الربض، وهو معروف بجامع عمرو إلى يومنا هذا.

ذكر فتح مدينة دمياط وما والاها

قال الراوي: وأتت إليه أهل رشيد وفوة والمحلة ودميرة وسمنود وجرجة ودمنهور وأبيار والمجيرة وصالحوه على بلادهم. ثم إنه بعث المقداد ومعه أربعون فارسًا منهم ضرار وكعب وسعيد ويزيد وصعصعة وغيرهم وأمرهم بالمسير إلى دمياط وأمر عليهم المقداد بن الأسود الكندي فساروا إلى البرلس،

ودمياط كان بها خال الملك المقوقس، وكان عسكره اثني عشر ألفًا، وكان قد حصَّن البلد وجمع فيها من آلة الحصار من الزاد وغيره، فلما أشرف عليه الصحابة ونظر إلى قلتهم ضحك وقال: إن قومًا ينفذون إلينا منهم أربعين ليملكوا بلدنا إنهم لفي عجز وقلة عقل! وكان ولده الأكبر فارسًا مشهورًا في جميع بلاد النيل وكان اسمه «هريرا» وكان يثق به وبشجاعته وبراعته وليس في عينيه الفرسان شيئًا، فلما رأى الصحابة وهم أربعون قفز إليهم وهو لابس لأمة حربه وطلب البراز فخرج إليه ضرار بن الأزور وحمل عليه فطعنه فقتله وحمل على عسكر دمياط فألجأهم إلى حيطان البلد وهو كأنه النار في الحطب فاستعاذ منه الجيش.

ثم إن خال الملك وكان اسمه «البامرك» اجتمع بأرباب دولته وقد صعب عليه قتل ولده وكان عندهم حكيم يثقون به وبرأيه ويعتمدون على عقله فأحضروه، وقالوا له: أيها الحكيم العالم ما الذي تشير به علينا في أمر هؤلاء العرب؟ فقال: أيها الملك إن جوهر العقل لا قيمة له وما استضاء به أحد إلا هداه إلى سبيل نجاته وقاده إلى معالم مصالحه، وهؤلاء القوم لا تذل لهم راية

ولا تلحق لهم غاية، قد فتحوا البلاد وأذلوا العباد، واشتهر أمرهم وعلا ذكرهم، وفشا خبرهم وعلت كلمتهم، وطافت الأرض دعوتهم، فما أحد يقدر عليهم، ولا يصل إليهم، وما نحن بأشد من جيوش الشام ولا أمنع بلدًا وهؤلاء القوم قد أيدوا بالنصر وغلبوا بالقهر وقد بلغك ما هم عليه من الدين والصيانة، والصدق والأمانة، والرأي عندي أن تصالحهم لتنال بذلك الأمن وحقن الدماء وصون الحريم ودفع الأمر العظيم ونكون قد صالحناهم ودفعناهم بشيء من مالنا.

فلما سمع «البامرك» ذلك من الحكيم أمر بضرب عنقه فلما عرف الحكيم أن المنية قد غشيته قال: اللهم إني بريء مما يشركون بك لا شريك لك ولا ولد ولا صاحبة لك، وأنا أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. فلما سمع البامرك كلامه ضربه فقتله وأمرهم بأن يأخذوا على أنفسهم للحرب. فلما كان الغد خرجوا إلى ظاهر دمياط ونصبوا خيامهم. وكان للحكيم ولد ورث فضائل أبيه، وكان فيه فطنة وعقل وتدبير، فلما قتل أبوه أظهر الفرح والدعة للملك البامرك، وقال: لقد أراحني الملك منه ومن شره فبلغ البامرك ما قاله ابن

الحكيم فأرسل إليه وخلع عليه وطيب قلبه! فلما كان الليل قال: والله لآخذن بثأر أبي من هذا اللعين ومن أولاده، وكانت داره ملاصقة للسور فنقب نقبًا واسعًا وخرج منه وقصد الصحابة، فلما رأوه قالوا له: من أنت؟ قال: إن أبي قد قتل من أجلكم وقد نقبت نقبًا وخرجت منه فقوموا حتى تملكوا المدينة منه. فقال له ضرار: يا ويلك، وإن الذي بعثك بهذه الحيلة أراد قتلك أما علمت أن الحذر شعارنا واليقظة دثارنا، وهمَّ بقتله!

فقال له المقداد: أمهل يا ضرار وفقك الله إلى الخير ووقاك الألم والضير. ثم قال المقداد: إني رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المنام وهو يشير إلى شخص بين يديه وكأنما يقول على زي هذا الغلام، وكأنما أتأمل إلى هذا الغلام فرأيته على ما هو عليه الآن وكان على وسطه منطقة من الأديم وفيها حلق فضة وهي تحت أثوابه. ثم إن المقداد قال: يا غلام اكشف عن أثوابك فكشف عن أثوابه وإذا المنطقة بعينها، فقال: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فقام المسلمون فصافحوه ومضى الغلام أمامهم إلى أن دخل بهم النقب ووسعوه بأيديهم حتى دخلت خيولهم ثم ردوا الحجارة والطين

والبناء على حاله وأعمى الله أبصار القوم عنهم؟ فلما كان الغد نظر أعداء الله فلم يروا للصحابة أثرًا ولا خبرًا فضجوا بكلمة كفرهم وماجوا. وقالوا: هربت العرب، ووقع الصائح في العسكر فظهر أهل البلد ليقفوا على صحة الخبر، ولم يبق في البلد سوى النساء والأطفال.

قال ابن إسحق: وكان للحكيم بنو عم ثمانون رجلًا وأن ولده طاف عليهم بالليل وأعلمهم بما فعل فأقبلوا معه وأسلموا عن آخرهم، فلما كان الغد وخرج كل من في البلد بادر بنو عم الحكيم وإخوته إلى الأبواب فأغلقوها وأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير فوقعت الخمدة على النساء والصبيان واستوثق القوم من المدينة بالثمانين رجلًا فأمسكوهم الأبواب، وخرج الصحابة - رضي الله عنهم - ورفعوا أصواتهم يكبرون ويدعون الله - عز وجل -، فلما نظر لهم أهل البلد علموا أنهم قد ملكوها وأن الذي فعل ذلك بنو عم الديرجان الحكيم وقد أغلقوا الأبواب وقفلوها وملكوا السور، فوقف الملك ينظر إلى ما فعله الصحابة وعلم أن المدينة أخذت منهم وكان في أولاده ولد عاقل لبيب وكان منذ نشأ يتبع العلماء ويجالسهم ويطلب العلم ومنذ ملك

عقله ما أكل لحم خنزير ولا سجد لصورة ولا لصليب، وكان قد همَّ أن يبني صومعة وينفرد فيها فلم يمكنه أبوه من فرط محبته له وكان لا يستطيع فراقه وهذا الغلام اسمه «شطا» وكان يحب أن يسمع أخبار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويبحث عنها، فلما نظر إلى الصحابة وقد ملكوا منهم البلد وشطا عن يمين أبيه نظر إلى الصحابة وإلى زيهم وإلى نور الإيمان وهو ساطع منهم. فشخص نحو السماء ببصره وصاح وسقط عن قربوس فرسه بوجهه. فارتاع أبوه وجميع عسكره من تلك الصيحة، فلما أفاق قال له أبوه: يا بني ما وراءك؟ قال: ظهر والله الحق وبان وقد تبينت لي حقيقة الإيمان، وقد نظرت إلى عسكر هؤلاء العرب وعليهم نور عظيم ومعهم رجال عليهم ثياب خضر وهم على خيول شهب وبينهم قبتان معلقتان في الجو بلا علاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها وفيها رجال ما رأيت أحسن من وجوههم، ولاشك أنهم الشهداء ورأيت في إحدى القبتين حورًا لو برزن لأهل الدنيا لماتوا شوقًا إليهن، وإن الله تعالى ما كشف عن بصري وأراني ذلك إلا وقد أراد لي الخير، وما كنت بالذي بعد هذه الرؤيا أبقى على الضلال وأتبع المحال، وأنا أشهد ألا إله إلا الله، وأن

محمدًا رسول الله، وحرَّك جواده وقال: من أحبني من رجالي وغلماني فليتبعني.

فتبعه من القوم ألف رجل ولحقوا بالصحابة وألقوا سلاحهم وأعلنوا بكلمة التوحيد. فلما نظر البامرك إلى ما فعل ولده شطا قال: والله ما فعل ولدي ذلك إلا وقد رأى الحق ولست أشك في عقله ودينه. ثم إنه أسلم ولحق بولده، فلما نظر أرباب دولته ذلك، قالوا: إذا كان الملك وولده قد أسلما فما وقوفنا نحن! فأسلموا جميعًا على يد أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودخلوا المدينة، فمن أسلم تركوه ومن أبى أخرجوه إلى بلاد الأرياف. وفتح المقداد النقب الذي دخلوا منه وأمر ببنائه بابًا فسماه «باب اليتيم» وهو ابن الحكيم، وترك عندهم المقداد يزيد بن عامر - رضي الله عنه - يعلمهم شرائع الإسلام ورجع هو وأصحابه إلى إسكندرية وحدثوا عَمْرًا بما فتح الله عليه من دمياط ففرح بذلك وكتب كتابًا إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بفتح مريوط والإسكندرية ودمياط ورشيد وفوة والمحلة ودميرة وسمنود وجرجة ودمنهور وأبيار والبحيرة وبعث الكتاب مع عامر بن لؤي.

ذكر فتح جزيرة تنيس

عن نصر بن مسروق قال: لما فتحت دمياط وكان من أمرها ما كان قال البامرك لولده: يا بني إن الله قد أنقذنا من نار الجحيم وقد هدانا إلى الصراط المستقيم وذلك لسابقة سبقت لنا في القدم، وهذه تنيس بالقرب منا وهي جزيرة ولا يمكن التوصل إليها إلا في المراكب، والصواب أننا نكاتب صاحبها أبا ثوب وندعوه إلى الله وإلى دين نبيه، فإن أجاب وإلا قصدناه والله ينصرنا. فقال شطا: هذا هو الرأي وأنا أكون الرسول إليه بنفسي. فقال: يا بني اعزم على بركة الله وعونه. فركب شطا في مركب وأخذ معه أربعة من غلمانه الخواص، فلما نظر يزيد بن عامر إلى ذلك، قال: وأنا أسير معك إلى صاحب تنيس، فإنه لو سألك عن ديننا ومعالمه لم يكن عندك به علم بأن تكلمه ونحن بحمد الله ما فينا من يتكبر ولا من يتجبر وما طلبتنا إلا الآخرة والعمل بما يقربنا إلى الله. ثم سار معه حتى وصلوا إلى الجزيرة وفيها رجال يحفظونها، فلما نظروا إلى شطا وغلمانه وبينهم رجل بدوي، قالوا: من أنتم؟ قال لهم شطا: أنا ابن الملك البامرك صاحب دمياط ومعنا هذا الرجل من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقد جئناكم رسلًا! فأرسلوا منهم واحدًا يستأذن لهم فأذن لهم أبو ثوب.

فنزلوا من الزورق وإذا به قد أرسل لهم دوابًا ليركبوها فامتنع يزيد عن الركوب ووافقه شطا على ذلك وساروا كلهم رجالًا إلى أبي ثوب فاستأذنوا عليه فأذن لهم، فلما دخلوا قصر أبي ثوب وإذا به في حشمه وخدمه وزينته والحجاب والغلمان بين يديه وهو في مرتبة إمارته، وكان قد تكبر وتجبر منذ نزل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على مصر ومنع المال والخراج أن يؤدِّيه للمقوقس وولده، وقد اجتمع عنده مال عظيم، فلما دخل عليه يزيد صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وشطا وغلمانه ونظروا إلى أبي ثوب وغلمانه وتجبره بدأ يزيد بالسلام، فقال: السلام على من اتبع الهدى «إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى».

قال الواقدي:.... عن ابن جرير وكان أعلم الناس بقصة فتوح مصر والمغرب قال: كان أبو ثوب هذا من أرض العريش من متنصرة العرب من آل غسان، وهو قريب جبلة، وكان صاحب مال ورجال، وأنه لما وقعت الهزيمة على الروم وفتح الشام وانهزم الملك هرقل وهرب معه جبلة، هرب معهم أبو ثوب هذا بماله وأهله وإخوته إلى أرض الجفار، ونزل في البرية ما بين العريش

ورفح، وأن المقوقس خرج في بعض الأيام يريد الصيد في عسكره فانتهى في سرحته إلى أرض العريش، فانطرد قدامهم وحش كبير فطلبه الملك وتبعه ولم يتبعه أحد من عسكره وهو وراءه وحده إلى أن رماه في حلل العرب في حلة أبي ثوب، فقام إليه وعظمه وبجله وعلم أنه الملك فأمسك ركابه وأنزله في بيته وذبح له الأغنام ووضع له الطعام وتلاحق الجيش. فأضافهم أبو ثوب ثلاثة أيام، فلما كان في اليوم الرابع، ركب في خدمة الملك وشيعه وعاد، فلما دخل المقوقس إلى مصر أمر وزيره بأن يكتب إلى أبي ثوب بولاية تنيس وأعمالها وأرسل له الخلع والأموال والمماليك والغلمان، فلما وصل إليه منشور الملك وخلعه فرح أبو ثوب وركب وسار إلى الفرماء وركب منها في المراكب إلى تنيس، فلما مكث في ولايته بعث إلى أهله وإخوته فأتوا إليه، فولى أخاه أبا سيف على جزيرة الصدف، وولى أخاه الثاني أبا شق على جزيرة الطير، وولى ولده على «دنيوز».

ومرت الأيام والليالي حتى قدم أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى أرض مصر، ورأى نفسه في تلك الجزيرة فتحصن بها وقال: ما أحد يقدر

أن يصل إليَّ، فلما قدم شطا ويزيد بن عامر ونظر إليهم أبو ثوب أظهر الإعجاب والتكبر ولم يلتفت إليهم ولم يجسر أحد من جماعته أن يأذن لهم بالجلوس، فلما نظر إلى ذلك يزيد بن عامر قرأ «إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»، وجلس إلى جانبه شطا، ونظر يزيد إلى سرير أبي ثوب فإذا هو من الذهب وفيه صورة النخلة ومن تحتها صورة مريم والمسيح في حجرها فقرأ «فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا»، إلى قوله: «قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا». فلما سمع أبو ثوب كلام يزيد، التفت إليه بغضب وحنق وقال: ما هذا الكلام الذي نطقت به؟ قال يزيد: هذا كلام الله - جل جلاله - الذي أنزله على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - الذي لا تفنى عجائبه، ولا تنفذ غرائبه، ولا تبدل كلماته، ولا تمل آياته. فقال: ما معنى الذي ذكرت ونطقت به، وما تفسيره؟ فقال يزيد: أما قول الله إخبارًا عن عيسى حين قال: «إِنِّي عَبْدُ اللهِ» فإنه يعلم الخلق أنه عبد الله وليس بولد، جل الواحد

الأحد الفرد الصمد. وأما قوله: «آَتَانِيَ الْكِتَابَ» فمعناه أعلمكم الأحكام وأعرفكم الحلال والحرام، وأما قوله: «وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ» فمعناه أني مأمور بالطاعة والخدمة والزكاة مثلكم فإن في مالي حقًا لله، وأما قوله: «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ» فيعلمهم أنه يموت ومن يموت لا يكون له العزة والجبروت، وأما قوله: «وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا»، فيعلمهم أنه وإياهم مبعوثون في يوم القيامة وقوف يوم الحشر والندامة، ولو كانا إلهين لهما إرادتان وقع الخلف بينهما، وأن الحكمة غير ذلك، وهي على وحدانيته شاهدة.

فلما سمع أبو ثوب من يزيد بن عامر هذا المقال، قال: لقد مثلتم بالأباطيل وغرقتم في بحر الأضاليل! فقال يزيد: الله أعلم من هو تائه في تيه المحال مشرك بالملك المتعال، الذي لا سماء تظله ولا أرض تقله، ولا ليل يؤويه ولا نهار يأتيه، ولا ضياء يظهره ولا ظلام يستره، ولا يقهره سلطان، ولا يغيره زمان، كل يوم هو في شأن، أَمَا لكم بصائر؟ أَمَا منكم من ينظر ويعتبر في قدرة الله القادر؟ أَمَا منكم من يعظ نفسه بذهاب النهار وإقبال الليل؟ أما آن لكم أن تنزهوه؟! أما آن لكم أن توحِّدوه؟! أما سمعتم ممن تعبدونه، وتبرؤون إليه وتعظمون، فإن

المسيح قد أقر له بالعبودية وتبرأ من دعوى الربوبية! وقال: إِنِّي عبد الله، ولقد بشر بنبينا قبل مبعثه وعرف بني إسرائيل بقربه من الحق وكرامته، أما سمعتم بمعجزاته. أما هو من أطيب بيت من مضر؟!

فعجز أبو ثوب عن رد الجواب، ولم يكن له ما يزيل حجته إلا أن قال ليزيد بن عامر: لقد علمنا ما فعل، ولكنه كان ساحرًا، وإن كان قولك هذا حقًا، فادع الله وتوسل إليه بمحمد أن يسقينا الغيث، فإن جاء الغيث علمنا أن قولك ليس فيه شك، ونؤمن بالله ونصدق برسالة محمد. قال يزيد: إنَّ الله يقدر على ما ذكرت، فإن الله على كل شيء قدير، إن العبد المخلص إذا دعاه أجاب دعوته، ولكنه يفعل ما يشاء، وأنا أتوسل إلى الله بخير خلقه وصفيه وهو الفعال لما يريد، ثم إن يزيد قام وخرج من مجلس أبي ثوب. فقال له: إلى أين؟ قال: أدعو الذي لو شاء أنزل عليكم رجزًا من السماء ثم قرأ ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

عن ابن جبير قال: إنما طلب أبو ثوب الغيث واقتصر عليه لأنه كانت له مزرعة بالبعد من النيل، ولا يقدر أن يسقيها ولا يصل إليها ماء، وكانت قد

أشرفت على الهلاك واليبس، وكانت منه ببال، وكان قد غرس فيها من جميع الثمار والأشجار وصنع لها مصانع تمتلئ بماء المطر فيسقيها وقت الحاجة إليها، وكان المطر قد أمسك عنها والمصانع نشفت، فلما خرج يزيد إلى البحر توضأ وصلى ركعتين، ثم رفع رأسه نحو السماء وقال: اللهم إنك قد أمرتنا بالدعاء ووعدتنا بالإجابة، فقلت وأنت أصدق القائلين: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ»، وقد دعوت كما أمرت، فاستجب كما وعدت يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبدًا ولا يحصيه غيرك.

قال ابن جبير: لقد بلغني ممن أثق به أنَّ يزيد بن عامر ما برح يدعو حتى ارتفع السحاب من الجو ووقف وقفة الخاضع، وارتفعت سحابة وتألقت، والرعد يصول حولها صولة الغاضب، ونزل المطر يسكب بقية يومهم وليلتهم، فلما كان من الغد حضر يزيد بن عامر مجلس أبي ثوب وقال له: كيف رأيت صنع الله الصانع المتكفل بأرزاق العبيد. قال: فضحك أبو ثوب، وقال: إن سحركم لعظيم وإن مكركم لجسيم وإن سحركم يفعل أكثر من هذا! فقال: إنما ذلك رحمة من الله، قد أبرَّ من أقسم باسمه عليه، فلما رأى نزول المطر وظهرت

بركات صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال على سبيل المكر: الآن تحققت أن دينكم الحق وقولكم الصدق وأنا مؤمن بالله، ومصدق برسالة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وسوف أعرض دين الإسلام على أهل جزيرتي وأصحابي وأهلي، وأبني المساجد وآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر. فقال يزيد: إن أنت فعلت ذلك رشدت، وإن نافقت فإن ربك لبالمرصاد! ثم خرج من عنده هو ومن كان معه شطا وغلمانه ومضوا إلى دمياط إلى البامرك وحدثوه بما كان من أبي ثوب. فقال: والله لقد خدعكم بخديعته ورماكم بسهم مكيدته. فقال يزيد بن عامر: «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ»! فما لبثوا أيامًا قلائل حتى وصل الخبر أنَّ أبا ثوب جمع من سائر الجزائر وهو قادم عليهم، فلما سمع البامرك بذلك قال ليزيد بن عامر: ما الذي ترى من الرأي في أمر هذا العدو؟ فقال يزيد: نستعين بالله ونتوكل عليه، ومن قاتلنا قاتلناه.

قال ابن إسحق: وإن البامرك أرسل ولده شطا إلى البرلس ودميرة وطناح ومن تحت يده يطلبهم فجاؤوا من كل جهة، وكتب يزيد إلى عمرو بن العاص يعلمه أن أبا ثوب قد جمع الجموع، فلما وصل إليه الكتاب أرسل إليهم هلال

بن أوس بن صفوان بن ربيعة أحد بني لؤي ومعه ألف فارس وأمره بالمسير إلى دمياط، وذلك في العشر الأول من شعبان سنة عشرين من الهجرة.

وأما ما كان من أبي ثوب، فإنه لما نفر إليه العساكر أخرجهم بظاهر تنيس فكانوا عشرين ألفًا من الرجال، ومن الخيل خمسمائة فارس من القبط ومتنصرة العرب وعداهم في المراكب وأتوا نحو دمياط فخرج شطا ابن البامرك فقتل رجالًا وجندل أبطالًا، وأنه اشترى الجنة من الله بنفسه، ولم يزل يقاتلهم بقية يومه، ثم إنه عاد من قتال اللئام إلى الصلاة والصيام، فلما كان وقت الغلس وقرب الصبح وتنفس استيقظ شطا وهو باكي العين فقال له أبوه: يا بني ما الذي أبكاك؟ فقال: رأيت شيئًا في منامي أبصرته وسمعت منه كلامًا وعاينته وحفظته وحررته والدنيا هي طالق وإنِّي بعون ربي واثق، ولاشك أنِّي لك مفارق. فقال أبوه: أعوذ بالله يا بني ما هذا الكلام. ولعل ذلك أضغاث أحلام.

قال: لا والله ما هي أضغاث أحلام لكنه أمر من الملك العلام، وإني رأيت في منامي كأن أبواب السماء قد فتحت، وأنوار الهداية قد سطعت ولمعت، ثم تفتحت، أبواب السماء الثانية ثم رأيت ملائكتها سجودًا على جباههم لا

يقومون وركعًا لا ينتصبون وقيامًا من هيبة ربهم لا يقعدون وباكين لا تجف لهم دموع، ثم كذلك رأيت سماء بعد سماء إلى السماء السابعة، ثم رأيت قبة من زمرد أخضر وفيها قناديل من الجوهر وهي تسرج من الأنوار وتوقد من غير نار وفيها أربعون حوراء عليهن حلل ما رأيت قط مثلها ولا أبصرت شكلها بوجوه تفتن الإنس وفي أرجلهن نعال الياقوت الأحمر يطأن بها على النمارق والزرابي فصاحت بي إحداهن وهي كبيرتهن. وقالت: «يا مفتونًا بدار الدنيا أما آن لك أن تذكرنا فقد خلقنا الله لك منذ خلقك، وجعل مهرنا منك الجهاد في مرضاة رب العباد، وقد ألفت الجفاء، وما هكذا صنع أهل الوفاء، انظر إلى ما أعد لك وللشهداء»، فنظرتُ وإذا بقباب معلقة حيث لا يدرك لها نهاية بعدد النجوم وقطرات الغيوم، وقد نفد الميقات، وانقضت الساعات والأوقات، فتيقظ في المنام وارحل إلى دار السلام، وقالت: في كل قبة مثل ما رأيت، فقلت: ما هذه القباب؟ فقالت: هذه قباب قوام الليل والشهداء يأوون إليها في جنة المأوى.

فقال أبوه: اعلم يا ولدي أن من المنام ما يصدق وما يكذب فلا تشغل نفسك بما رأيت. فقال: لا والله يا أباه ما بقي لي في الدنيا طمع ثم ودع شطا أباه

وأهله وخرج إلى الحرب فتعلق به أبوه وقال له: يا بني بحقي عليك لا تبلني بفراقك. فقال شطا: دع عنك العتاب، فقد قرب لقاء الأحباب، فعندها أقبل البامرك يودع ولده ويقول: يا بني إن صح منامك وضربت في دار السلام خيامك فاذكرنا بحسن طريقة الوفا وأقرئ سلامي على النبي المصطفى، فبرز شطا إلى الحرب ودعا للبراز فخرج إليه واحد فقتله وثان وثالث حتى قتل اثني عشر فارسًا.

قال ابن إسحق: فلما رأى أبو ثوب ما فعل شطا بفرسانه لم يطق الصبر دون أن خرج إليه بنفسه وكان من الفرسان المذكورة، فلما سار إلى شطا في الميدان قال له: يا شطا كيف تركت الدين المستقيم وعدلت عنه وصغيت إلى هؤلاء اللئام واتبعت دين الإسلام؟ لقد عمل فيك القوم واستوجبت العتب واللوم يا فتى عد إلى الدين الصحيح والقول الرجيح وهو دين المسيح فأي شيء رأيت من هؤلاء المساكين حتى تبعت دينهم؟! فلما سمع شطا كلام أبي ثوب أقبل عليه مغضبًا وقال له: يا لئيم أتأمرني أن أدع الدين المستقيم الذي كان عليه الخليل والكليم، وأنّى لي بذلك وقد رأيت الليلة ما لي من الكرامة عند الله، وقد

طلقت الدنيا ثلاثًا، فلما سمع أبو ثوب كلامه حمل عليه ومد سنانه إليه فتلقاه بقلب قوي وتقاتلا نصف نهار فعطش شطا فأراد الله أن يطيب قلبه فكشف عن بصره فرأى القبة التي رآها في المنام والحوراء وفي يدها كأس وهي تقول: يا شطا هذا شراب من شرب منه لا يسقم ولا يفيق والساعة تصل إلينا وتقدم علينا.

فلما نظر شطا إلى ذلك وسمع منها ما قالت صاح الله أكبر «هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ»، وأخذه الدمع والبكاء خوفًا من الله. فقال له أبو ثوب: مم بكاؤك؟! قال: رأيت كذا وكذا، فضحك أبو ثوب من كلامه وحمل عليه فتقاتلا قتالًا شديدًا أعظم من الأول إلا أن أبا ثوب سبق شطا بطعنة في صدره فأطلع السنان من ظهره فخرَّ صريعًا، فلما نظر البامرك إلى ولده مطروحًا لم يأخذه صبر دون أن حمل عليه هو وأصحابه. وأظلمت آفاق تلك الأرض من الغبار وترادف القتال فوقعت الهزيمة على البامرك وأصحابه فألجأهم إلى أبواب دمياط وطمع فيهم عدو الله أبو ثوب، وإذ قد أتاهم هلال بن أوس بن صفوان بن ربيعة فوضعوا أيديهم في أبي ثوب وأصحابه وهم ينادون بالتهليل والتكبير وتحامى أصحاب البامرك وحملوا من قبلهم.

وأما أبو ثوب وأصحابه فإنهم أيسوا من أنفسهم، فهم في ذلك إذ التقى يزيد بن عامر بأبي ثوب. فقال له: يا عدو الله أما اتعظت بآيات الله. أما ظهر لك الحق من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –؟! وأطبق عليه فأخذه أسيرًا وصاح الصائح أن أبا ثوب أسر فاستسلم قومه للقضاء فأخذوهم عن آخرهم بعدما قتل منهم خلق كثير، ثم إنهم عزوا البامرك في ولده شطا. فقال: احتسبته عند الله فقال له يزيد بن عامر: إن في الجنة درجات لا ينالها إلا الصابرون، قال الله تعالى: «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ». ودفنوا شطا في ثيابه بعدما صلوا عليه. فلما كان الغد أقبل البامرك إلى يزيد بن عامر، وقال: رأيت الليلة ولدي في النوم وهو في القبة والحور بين يديه. فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: قبلني بأحسن قبول وجاد عليَّ وأنزلني بجوار الرسول.

حدثنا ابن إسحق حدثنا عمر بن الأسقع عن جده عامر بن خويلد قال: إن هلال بن أوس نزل وأحضر أبا ثوب وعرض عليه الإسلام فأسلم، وأسلم من الأسرى أناس، وأبى منهم أناس وبقوا على دينهم وقرروا عليهم الجزية، ودخل

المسلمون في المراكب إلى تنيس وبنوا موضع الكنيسة جامعًا وبنوا في جميع الجزائر جوامع، وأن هلال بن أوس نزل على التل الأحمر بظاهر تنيس وأقر أهل الجزائر في أماكنهم. فقالوا أيها الأمير: قد أمنتنا من جانبك وبقي علينا الخوف من جانب آخر. قال هلال: من أين؟ قالوا: من أصحاب القلعة المسماة الفرماء. قال: وأين هي؟ قالوا: على جانب بحيرة تنيس مما يلي شرقها وفيها أقوام وعليهم الصامت بن مرة من آل مرداس، فلما سمع هلال بن أوس ذلك مضى إليها بجميع من معه، فلما وصلوا إليها أشرف عليهم الصامت بن مرة وأمر أصحابه أن يرموهم وكان بها ألف رجل وغالبهم رماة النبل فرموا عن قوس واحد ألف سهم فسمعتها العرب من الفرماء فأقام عليها هلال بن أوس عشرين يومًا فلم يقدر عليها فبعث إلى عمرو يعلمه بما وقع ويستنجده فأرسل إليه المقداد بن الأسود الكندي في خمسمائة من عسكر الإسلام وأرسل معه ثلاثة آلاف ممن أسلم من القبط.

ذكر فتوح الفرماء والبقارة والقصر المشيد

فلما نزل المقداد على الفرماء تأهب أهلها للقتال فنزل بالصامت بن مرة ما نزل به فعلم أنه بيد القوم، لأنه ليس له ناصر ولا معين فصالح المقداد على أن يؤدي لهم أربعة آلاف مثقال من الذهب وأربعمائة ناقة وألف رأس من الغنم وأن يمهلوه إلى تمام السنة فإن شاء دان إلى الإسلام وإلا ارتحل بأمانه، فأجابه المقداد إلى ذلك، وارتحل المقداد وهلال بن أوس ونزلوا على البقارة وكان عليها ابن الأشرف فأسلم هو ومن معه، ومضوا إلى القصر المشيد ففتحوه صلحًا، ثم ارتحلوا ونزلوا على الوردة وكان اسمها الواردة فسلمها أهلها، وارتحلوا إلى العريش فصالحهم أهلها وكذلك أهل رفح وليدا ومياس ونخلة وعسقلان.

ذكر فتوح ديار بكر وأرض ربيعة

حدثنا عدنان بن يحيى الحرثي... أنَّه لما فتح الله الشام على يد أبي عبيدة عامر بن الجراح وعلى يد خالد بن الوليد وفتح أرض مصر على يد عمرو بن العاص بن وائل السهمي - رضي الله عنهم - كتب أمير المؤمنين عمر بن

الخطاب إلى أبي عبيدة يقول له: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عامر بن الجراح سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم -. أما بعد: فقد أجهدت نفسك في قتل الكفار وسارعت إلى رضا الجبار، وقدمت لك ما تجده يوم عرضك ولم نر منك يومًا إعراضًا عن أداء فرضك، وقمت بسنة نبيك وجاهدت في الله حق جهاده، تقبل الله منا ومنك وغفر لنا ولك، فإذا قرأت كتابي هذا فاعقد عقدًا لعياض بن غنم الأشعري وجهز معه جيشًا إلى أرض ربيعة وديار بكر وإني أرجو من الله - سبحانه وتعالى - أن يفتحها على يديه وأوصه بتقوى الله والجهاد والاجتهاد في طاعته ولا يلحقه التواني في الجهاد ويتبع سنن المؤمنين المجاهدين وما أمر به سيد المرسلين مما أنزل عليه رب العالمين «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ»، والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته. ثم كتب كتابًا آخر إلى عياض بن غنم بالولاية والمسير إلى أرض ربيعة الفرس وديار بكر.

وبعث بالكتاب مع ساعدة بن قيس المرادي وزوده من بيت مال المسلمين وأمره بالمسير فسار إلى أن ورد على أبي عبيدة في طبرية فسلم إليه كتاب عمر وسلم الكتاب الثاني إلى عياض بن غنم الأشعري، فلما قرأه أبو عبيدة قال: السمع والطاعة لله ولأمير المؤمنين وهيأ عياضًا بمسيره إلى الجهاد وعقد له عقدًا على ثمانية آلاف منهم ألف صحابي من جملتهم خالد بن الوليد والنعمان بن المنذر وضرار بن الأزور وضمرة وعمرو بن ربيعة والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر - رضي الله عنهم - وعبد الله «يوقنًّا» وكانوا قد قدموا على أبي عبيدة بعد فتوح مصر، وسار عياض بن غنم من طبرية في الثمانية آلاف يريد الجزيرة وعلى مقدمته خيل سهيل بن عدي فلم يزل سائرًا حتى نزل على «بالس»، وكان خالد قد فتحها صلحًا فأقام عليها، وسرح سهيل بن عدي إلى الرقة فنزل على حصارها وكان عليها بطريقًا اسمه «يوحنًّا» وكان من قبل صاحب رأس العين، وكان قد استعد للحرب وعلى آلة الحصار، فلما رأى أهل الرقة أن صاحبهم معوِّل على الحصار اجتمع بعضهم ببعض وقالوا: أي شيء أنتم بين أهل الشام وأهل العراق ولا مقام لكم بين يدي هؤلاء القوم؟! فمشوا إلى عياض بن غنم بالصلح فرأى أن يقبل منهم فبعث إلى سهيل بن عدي أن

يصالحهم على ما وقع عليه الاتفاق وارتحل عياض بن غنم عن بالس ونزل على الرقة البيضاء وفي ذلك قال سهيل بن عدي:

وصادفنا الغزاة غداة سرنا ... بجود الخيل والأسل الطوال
أخذنا الرقة البيضاء لما ... رأتنا الشهب نلعب بالتلال
وأزعجت الجزيرة بعد خفض ... وقد كانت تخوف بالزوال
سنقصد رأس عين بعد حين ... أجد بحملتي جيش الضلال
وقصدك يا سهيل تبيد جيشًا ... وتقتل في البطارق لا تبالي
فنحن أُولو التقية والمعالي ... ونحن الصابرون لكل حال
صحابة أحمد خير الموالي ... رقى العلياء والرتب العوالي
إلى ربّ السماء دنا علوًا ... وخاطبه شفاهًا بالمقال

ذكر فتح القلعتين زبا وزلوبيا

قال الواقدي: لما فتحت الرقة صلحًا عول عياض بن غنم على المسير إلى «رأس العين» وكان يملك يومئذ الجزيرة ملك من ملوك الروم يقال «شهرياض بن فرون» وكان جيشه مائة ألف وتحت يده وفي عماله من العرب المتنصرة السلطان بن سارية التغلبي وهبيرة وهم ثلاثون ألفًا من الأبطال وأنهم لما

اتصلت لهم الأخبار بفتح الرقة وأن المسلمين قاصدون إليهم مع عياض بن غنم وخالد والمقداد أتوا إلى الملك شهرياض برأس العين وقالوا له: اعلم أيها الملك أن أصحاب محمد قد أتوا ديارنا وقصدوا نحونا، ونحن علينا الطلب أكثر منكم ومطلب القوم إننا ندخل في دينهم فاضرب خيامك بظاهر البلد واظهر بجيشك حتى نلقاهم، فإما لنا وإما علينا، فأجابهم إلى ذلك وقال: غير أني أخاف أن تنهزموا عنِّي! فأعطوه رهائن واستوثق منهم ورتب آلة الحصار وأخرج الخزائن والأموال ورتب الحرس على الأسوار، وزاد في عمق الخندق وعرضه وأرسل إلى جملين وكفر توتا ودارا وماردين وحران والرها وتل مرزة والسن والموزر وأقام ينتظر عياض بن غنم.

عن يزيد بن أبي حبيب عن راشد مولاه قال: لما عوَّل عياض بن غنم الأشعري على المسير إلى رأس العين إلى قتال الملك شهرياض بعث قبل مسيره أشعث بن عويلم وعبد الله بن غسان إلى القلعتين المعروفتين بـ «زبا» و«زلوبيا»، فقال عبد الله «يوقنَّا» لعياض بن غنم: اعلم أيها الأمير أن هاتين القلعتين اللتين ذكرتهما حصينتان منيعتان إحداهما من الجانب الشرقي

والأخرى من الجانب الغربي وهما كانتا تحت ولايتي وأن صاحبهما كان من قبلي وهو أحد بني عمي واسمه «أشفكياص بن مارية» كنِّي باسم أمه، وكنتُ قد زوَّجته ابنتي فأخذتُ في صداقها الحصن الشرقي من الفرات، وقد رأيت أنك تأمرني بالتقدم على هذين الحصنين حتى أحل في القلعة الغربية فإن فتحتها كانت الأخرى في قبضتنا. فقال له: لله درك يا عبد الله لقد نصحت الإسلام وأهله فجزاك الله خيرًا أحسن ما جازى به أولياءه، سر على بركة الله وعونه فإذا استقر بك المقام ثلاثة أيام أنفذت إليك شعيبًا وعبد الله ومن معهما من المسلمين، وبعد الفتح إن شاء الله تنزلون إلينا. فقال «يوقنَّا»: استعنا بالله وتوكلنا عليه، ثم إنه أخذ معه من صناديد جماعته مائة ولم يأخذوا معهم ثقلًا سوى جنيب من الخيل واحد وسار من أول الليل وترك عياض بن غنم على الباسل فجدُّوا السير بقية ليلتهم.

فلما كان قبل الفجر أشرفوا على الخانوقة فوجدوا فيها ألفًا من الأرمن وهم بالعدة الكاملة، فلما أشرف عليهم «يوقنَّا» ومن معه وهم يتحدثون بلغة الروم أنسوا بهم وسألوهم عن خبرهم فقالوا: هذا البطريق المعظم «يوقنَّا» صاحب

حلب قد هرب من العرب وأقبل لنصرة صاحب هذه القلعة! فلما سمعوا بذلك فرحوا وصقعوا بين يدي «يوقنَّا» وأرسل المقدم عليهم خيالًا وأمره بالسرعة ليبشر «أشفكياص» بقدوم «يوقنَّا» إليه وهروبه من العرب، وأنه يستأذن عليه فمضى الرجل وأخبر أشفكياص فأطرق إلى الأرض، ثم قال لوزيره: وحق المسيح والإنجيل ما جاء إلا لينصب علينا ويملك هاتين الواحتين منا كما فعل بطرابلس وصور وما أنا بالذي يأمن، فما ترى أيها الوزير؟

قال ابن إسحق: ولقد بلغني أن هذا الوزير كان من أهل القراءة، وكان أديبًا عاقلًا لبيبًا ممن قرأ الكتب السالفة والأخبار الماضية وقرأ ملاحم دانيال، وكان منذ بعث النبي – صلى الله عليه وسلم – يسكن في دير مترهبًا وهو ما بين السر وحلب فتعبد فيه زمانًا طويلًا حتى شاع ذكره بين أهل دين النصرانية، ثم بعد ذلك أخبر الروم بأنه قد وقع بحافر من حوافر حمار المسيح فكانت الروم ينذرون له النذور والصدقات وشاع خبره وسما ذكره فسمي ذلك الدير بـ «دير حافر»، ولم يزل شوجوان في الدير حتى أخذ المسلمون حلب فانتقل إلى أشفكياص فاستوزره. فلما استشاره في أمر «يوقنَّا» قال له: اعلم أيها الملك أن

«يوقنَّا» من الملوك وأبناء الملوك، وقد قرأ الكتب وأخوه كان أفضل منه في الدين وقد صحب هؤلاء العرب واطلع على سرائرهم ونظر إلى دينهم، وربما أنه علم عند النظر أن دين المسيح أفضل من دين هؤلاء العرب وقد هرب من أيديهم إليك. فإن كان الرجل قد أتى بغير حمل ولا ثقل فاعلم أنه هارب من القوم إليك فيجب عليك أن تخرج إلى لقائه وتعظم شأنه وترفع مكانه! فلما سمع أشفكياص ذلك خرج بعسكره للقائه وبقي الوزير في القلعة.

فسمعت ابنة «يوقنَّا» أن أباها قد أتى فنزلت تسبح في سرب لها تحت الأرض مع جواريها وخدمها وقصدت القلعة الثانية فوجدت أشفكياص قد خرج للقاء أبيها والوزير شوجوان في مرتبة وزارته فقام إليها وصقع بين يديها وخدمها فجلست تتحدث معه. فقال لها: خذي على نفسك الحذر، فإن الملك قد خرج وأخاف أن يبطش بأبيك واعلمي أنه ما تبع هؤلاء العرب إلا وقد تحقق عنده أن دينهم الحق وقولهم الصدق، فقالت له الجارية: فما تقول أنت في دين القوم؟ قال: هو والله الحق، والدين الصدق، وإني كنت كاتم هذا السر، فلما

سمعت ذلك تبسمت وقالت: والله لقد رضيت لنفسي ما رضيه أبي، ولكن أنت اكتم هذا عني.

قال الواقدي: وإن أشفكياص لقي عبد الله «يوقنَّا» وسلم بعضهما على بعض وترجل كل منهما لصاحبه وشكا كل واحد منهما ما يجده من الشوق. ثم ركبا وسارا إلى القلعة فنزل «يوقنَّا» فيها ومن معه وأتت ابنته وسلمت عليه وبكت وبكى، وأما أشفكياص، فإنه معول على القبض على «يوقنَّا»، وقال له: أيها الملك كيف رأيت هؤلاء العرب في دينهم وعدلهم وسياستهم في ملكهم؟ فقال «يوقنَّا»: إن القوم يزعمون أنهم لا يريدون ملك الدنيا وإنما يريدون ملك الآخرة ومع هذا قد ملكوا الشام وأرض مصر وما تغيروا عن طباعهم وأنفسهم الدنيئة وأول الأمر وآخره أنهم أظهروا الناموس حتى ملكوا البلاد، ولما كشفت أسرارهم وتحققت أخبارهم ورأيت بيان ما هم عليه هربت منهم وبعدت عنهم بعد أن ظننت أنهم على الحق ونصحت لهم وملكتهم طرابلس وصور وغيرهما وأنطاكية، وقد علمت أن المسيح قد غضب عليَّ إذ تركت دينه وما أمر به من

القربان وما أوصى به يوحنا المعمدان، ولست أظن أن لي تطهيرًا من دون الذنوب ومساوي العيوب. ثم إنه أظهر البكاء والتوجع والشكوى.

فلما عاين أشفكياص ما فعله وسمع كلامه انطلى عليه، وقال له: أيها الملك إذا كنت قد ندمت على قبيح فعالك ورجعت إلى الدين الصحيح بقلبك فأبشر بقبول التوبة وزوال الحوبة، واعلم أن باب التوبة مفتوح، وهذا مرقس الراهب بدير السكرة، وهو من أعظم أهل دين النصرانية فسر إليه ليغمسك في ماء المعمودية فتخرج نقيًا من الذنوب. فقال «يوقنًّا»: أفعل ذلك، ولكن من يضمن أن يعيش فعندها قامت ابنته وصقعت، وقالت: والله يا أبت ما أدعك تمضي حتى أتملى منك بالنظر وقبلت يد أشفيكاص، وقالت: يا سيدي أريد أن تأذن لأبي أن يسير معي إلى حصني، فقال: هو الليلة عندي وليلة غد يكون عندك فعلم «يوقنًّا» أنه لابد من الأكل معه ولابد في سماطه من لحم خنزير ولابد من الخمر، فقال: أيها السيد أينما كنت فأنا في نعمتك وخيرك. فقال شوجوان لأشفيكاص: اعلم أيها الملك أن الملك «يوقنًّا» كثير الشوق إلى ابنته ولهما زمان ما رأيا بعضهما وما يخفى عليك ذلك، والصواب أن يكون الليلة عندها

وليلة غد يكون عندك، فقال: افعلوا ذلك. فأخذت أباها ونزلت في السرب إلى القلعة الشرقية وعبر أصحابه إليه في المركب، فلما جنَّ الليل قالت الجارية لأبيها: يا أبت كيف تركت العرب بعد صحبتك لهم ونصحك لدينهم، أرأيت أن القوم على باطل وأن دينك الأول أفضل منه فرجعت إليه؟! فقال «يوقنَّا»: أي بنية والله ما أتيت إليك إلا من شفقتي عليك وقد افترقنا في الدنيا وأخاف أن يكون الفراق في الآخرة أيضًا؟ وقد علمت وتيقنت أن هذين الحصنين نصب أعين المسلمين، وأنت تعلمين أن قلعتي كانت أمنع من كل قلعة بالشام، وقد ملكتها العرب ونزعت ملوكها عن أرضهم وبلادهم فاتقي الله يا بنية في نفسك واعملي لخلاص نفسك من الزبانية والخلود في الهاوية وارجعي إلى الله من قريب واكفري بدين الصليب، فوالله ما ثم دين أفضل من دين الإسلام، وعليه كان المسيح والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإنما غرر بالنصارى وحيدهم عن طريق الحق رجل يقال له «بولص» كان من اليهود أضلهم عن الطريق المستقيم وشرع لهم الضلال القديم حتى كفروا بما جاء به الخليل إبراهيم وهؤلاء العرب قد اتبعوا ما أمر الله به وأمر نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - ولديهم القول الراجح والفضل الصالح فارضي لنفسك ما رضي أبوك لنفسه.

فقالت: والله ما قلت شيئًا إلا وأنا به عارفة وقد رضيت لنفسي ما رضيت لنفسك، وأنا أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

ففرح بإسلامها؛ ثم قال: أي بنية ما الذي نصنع في أمر هذا الكافر اللعين الفاجر؟ قالت: والله لقد قال لي الوزير شرجوان إنه مصر على قبضك، وقال: إنك ما أردت إلا لتنصب عليه. فقال «يوقنًّا»: إذا كان الأمر كذلك فاصنعي لنا سماطًا وسيري إليه واستدعيه هو وخواصه فأنا آمر أصحابي أن يقبضوا عليهم وعليه إذا اشتغلوا بالطعام والشراب، فإذا فعلنا ذلك كانت القلعتان في قبضتنا ونسلمهم إلى أصحاب نبينا، ثم إني أريهم أننا هربنا منهم إلى أن نحصل في قرقيسيا فلعل الله أن يفتحها على أيدينا وهذا هو الرأي.

قال الواقدي: فلما ذهب الليل وأتى النهار أمرت جماعتها بصنع الطعام والحلويات وغيرها، فلما صنعوا ذلك وصفُّوا الموائد وعليها من كل حار وبارد نزلت في السرب وقصدت أشفكياص في قلعته ووقفت بين يديه وصقعت له فقام لها إعظامًا وقال لها: كيف الملك «يوقنًّا» وأحواله؟ فقالت: أيها الملك إنه ما نام الليل، وهو متفكر في القيامة وأحوالها والجحيم ومآلها، ولقد أراد اليوم

المسير إلى مدينة «قرقيسيا»، وأن يقصد الراهب المعظم «قرياقوس» وقد أخرته إلى أن تحضروا معه على السماط وتمضي أنت وهو إلى «جرجيس» حتى يرجع إلى دينه، وقد جئت إليك لتحضر سماطي وضيافتي أنت وأصحابك وخواصك وتأكلوا من طعامي وتشربوا من شرابي ومدامي، والكل من فضلك وإنعامك وإحسانك، وتجبر خاطري. فأبى أشفكياص مما دخل على قلبه من «يوقنَّا» إذ لم يبت عنده وخاف أن يقبضه، فقال له الوزير شرجوان: أيها الملك ليس هذا برأي، وإذا امتنعت نفر قلبه منك وما يدريك أيها الملك أنه ندم على ما سلف منه وقد أقر بالذنب واعترف وأنك إذا أكلت على سماط ابنته ودعوتهم أنت إلى سماطك فافعل بعد ذلك فيهم ما شئت.

قال: وكان هذا الكلام من شرجوان لأشفكياص سرًا من ابنة «يوقنَّا» فقام عند ذلك وقال لوزيره: احفظ مكاني حتى آتي إليك، ولم يكن له ولد يرثه في الملك. قال فأخذ معه خواصه من قومه وحجابه وبني عمه ونزل في السرب والجارية أمامهم وجواريها بين يديه بالشمع، وقد علم الوزير أنه ما بقي يعود إليه بعدها، فلما حصل أشفكياص في قلعة زلوبيا وثب للقائه «يوقنَّا» وأصحابه

وكان قد أوصاهم بما يفعلونه، فلما وقعت العين على العين، أقبل «يوقنَّا» إليه ليعانقه وضمه إلى صدره وقبض عليه قبضة الأسد على فريسته، وفعل أصحابه كما فعل، وضربوا في الحال رقابهم، ولم ينتطح فيها شاتان، ولم يعلم بما فعلوه أحد، ثم نزلوا من فورهم من السرب ومضوا إلى زبا، فوجدوا شرجوان ينتظرهم، فلما رآهم تبسم وأعلن بكلمة التوحيد وقال لله درك يا عبد الله فقد شرح الله صدرك للإيمان وأرضيت الملك الديان فجزاه «يوقنَّا» خيرًا، وملك قلعة أشفكياص وجعل يدعو بالرجال ويعرض عليهم الإسلام، فمن أسلم تركه وضم بعضهم بعضًا حتى لا ينهزم أحد منهم ويروح إلى صاحب قرقيسيا ويخبره بما صنع «يوقنَّا».

وبعد أيام أشرف عليهم عبد الله بن غسان، وسهيل بن عدي في ألفي فارس، فأراهم «يوقنَّا» التمنع والإعراض وناشبهم القتال خمسة أيام، وقد عرفوا أن ذلك منه حيلة وأرسل يعلمهم في السر أن القلعتين في يده، والليلة أسلمهما إليكم وأظهر الهرب إلى قرقيسا فلعل الله أن يفتحها على يدي، فلما كان من الليل أمر شرجوان أن يسلمهما إليهم، ثم إن المسلمون أعلنوا بالتهليل والتكبير

ووقع الصائح من كل جانب وشهروا القواضب، وكان في يومه هذا قد وصل الرسول من صاحب قرقيسيا بالهدايا والتحف إلى «يوقنَّا» يهنئه بالسلامة والخلاص من العرب والرجوع إلى دينه، فقبل «يوقنَّا» الهدية وأنزل الرسول في خيام وأصحابه وكانوا قد ضربوا لهم وطافًا في الجانب الشرقي، فلما صار أصحابه المسلمين في قلعة زبا أظهر «يوقنَّا» الفزع والهلع، وقال: وحق ديني ما هؤلاء العرب إلا شياطين! ثم إنه أخذ بعض ثقل ابنته في الليل وساروا يطلبون قرقيسيا.

حدثنا سيف بن عمرو التميمي، قال: لما كان من أمر «يوقنَّا» وأشفكياص ما ذكرناه وأرى من نفسه الهرب، سار مع ابنته وأصحابه والرسول معهم، يرومون قرقيسيا وكأنهم منهزمون فوصلوها مساء ودخلوا معه على شهرياض وأعلموه بأخذ القلعتين، وكيف فعل معهم العرب، فأيقن بهلاكه وأخذ بلاده. فقال له «يوقنَّا»: أيها السيد لا تخف فنحن نقاتل بين يديك حتى نموت، وإن نزلت العرب علينا يريدون حصارنا، لأرينك العجب بقتالهم، ولن يصلوا إليك بسوء، فوثق بقوله وخلع عليه وطيب قلبه، وأنزله بدار جواره وبعث شهرياض

من ليلته إلى خاله وهو يومئذ ملك أرض ربيعة برأس العين فأرسل يستنصر به على العرب ويعلمه أن العرب قد أخذوا قلعتي زبا وزلوبيا، وأن الرجل المعظم «يوقنّا» ملك حلب قد هرب منهم بعد خدمته لهم وهو عندي.

فسار الرجل الرسول إلى دير مريع ومنه إلى المجدل إلى رأس العين، فوجد رسول شهرياض الملك بأعظم تحصين قد أعد آلة الحصار وزاد في عرض خندقها، ونصب خيامه ومضاربه على مغاربها وعلى طريق النقب، وهو معول على لقاء عياض بن غنم ومن معه. وقد جمع عنده سائر عرب الجزيرة من بني تغلب وغيرهم، وقد صنع لهما سماطًا واستدعى بأمرائهم، وقال لهم: يا فتيان العرب لم نزل نرعى صغيركم وكبيركم وحريمكم وعبيدكم، وقد أبحناكم أرضنا ترعون في حزنها وسهلها ونرضى منكم بما تؤدون إلينا من أوباركم، فأنتم آمنون، وهؤلاء بنو عمكم قد ملكوا الشام ومعاقله وأرض مصر وما معها ولم يكفهم ذلك، حتى أقبلوا إلينا يريدون أن يزاحمونا على ملكنا ويخرجونا من أرضنا، وقد علمتم أن القوم إن ظفروا بكم لا يبقون عليكم، ولا يرضون منكم إلا أن تدخلوا في دينهم أو تقاتلوا عن دينكم وأهلكم وأموالكم،

فكونوا يدًا واحدة لا ينفصل منكم شيء كما كان جبلة بن الأيهم وآل غسان مع الملك هرقل، فإن نحن نصرنا على القوم فالأرض لنا ولكم على السواء، وإن كانت الأخرى فنموت على دين واحد ويبقى ذكرنا إلى الأبد.

فأجابوه إلى ذلك وتحالفوا وتعاقدوا أن يموتوا على سيف واحد، فأعطاهم الأموال والعدد والسلاح، وساروا معه. ثم إن رسول صاحب قرقيسيا قدم عليه، وأعطاه كتاب ابن أخته شهرياض، فلما قرأه وفهم ما فيه، وأنه يطلب منه النجدة أرسل إليه «يوريك» الأرمني وهو الذي بنى تل المؤزر والسن وتل عرب وعابدين والسوائد فأرسله ومعه أربعة آلاف، فلما قدم الأرمني ومن معه إلى قرقيسيا، وكانوا قد قطعوا جسرهم الذي كان على الخابور وكان الجسر على أعمدة من حديد وعليها سلاسل وعلى السلاسل أرماح، وكذلك أيضًا من ناحية الفرات وحفروا حول مدائنهم خندقًا عميقًا عريضًا وحصنوا مدائنهم غاية التحصين وأقاموا ينتظرون عسكر الصحابة - رضي الله عنهم -.

ذكر فتح قرقيسيا

ولما ملك عبد الله بن غسان القلعة الغربية حين سلمها إليه شرجون بأمر «يوقنَّا»، وترك «يوقنَّا» العرب وهرب إلى قرقيسيا دلهم الراهب «شرجون» على الطريق نحو السرب إلى القلعة الشرقية فملكوها واحتووا على ما كان لـ «أشفكياص» فيها، وبعثوا إلى عياض بن غنم وأرسلوا يعلمونه في السر بما صنع «يوقنَّا»، فدعا له المسلمون وشكروه، وأرسل يقول لعبد الله بن غسان ولسهل بن عدي: احتفظا على ما في القعلة الثانية ولا تأخذا منها قيمة الدرهم الواحد حتى يسلمه «يوقنَّا» لبنته واتركا في القلعة من يحفظها واطلبا قرقيسيا وأنزلا عليها والسلام. قال فلما وصل الكتاب إليهما، فعلا ما أمرهما به عياض ووليا على القلعة الغربية الأحوص بن عامر ومعه مائة فارس، وعلى الشرقية زياد بن الأسود في مائة فارس ومضى عبد الله بن سهل إلى قرقيسيا، فحال بينهم وبينها الفرات، فدلهم بعض سكان تلك الأرض على المخاضة، فعبروا في الليل، وأصبحوا على أرض واحدة مع أعداء الله، وأرسلوا إلى ماجن والمحولة والبديل والصور وبعثوا إليهم الأمان وأقروهم في منازلهم وقالوا: إن كانت لنا

فقد أحسنا فيكم الصنيع، وإن كانت علينا انصرفنا عنكم مشكورين على عدلنا فيكم. قال: فأجاب القوم إلى ذلك وباعوا عليهم الميرة.

قال: حدثنا هلال بن عاصم عن يحيى بن جبير عن سوار بن زيد قال: لما بعث عبد الله بن غسان إلى أهل تلك القرى وطيب قلوبهم، بعث بعد أيام سهل بن إساف التميمي وكان من الصحابة الأول ومعه مائة من المسلمين ليأتوهم بالطعام والعلوفة من ناحية ماسكين، فسار سهل ومن معه، فلما وصلوا إلى «السمسانية» شن عليها الغارة واستاق أموالها فخرج عليه نوفل بن مازن في خمسمائة فارس، واستخلصوا منهم ما أخذوه ووقع بينهم القتال، فحملوا بأسرار صافية، وقلوب تنزهت بالإيمان، وألسنة تنطق بذكر الرحمن، ولم يزالوا في قتال إلى أن قتل من المسلمين ثلاثون، وانهزم سبعة وأربعون، وأسر سبعة وعشرون من جملتهم سهل بن إساف بن عدي وحدثوا أصحابهم بما كان من المتنصرة ومنهم، فعظم ذلك عليهم.

قال الراوي: حدثني نوفل بن عامر، عن سالف بن عاصم، عن سالم عن الدوسي قال: كنت مع سهل بن إساف حين قدمنا على السمسانية وخرج علينا

نوفل بن مازن، فقال: والله لقد قاتلنا قتالًا شديدًا ما شهدنا مثله حتى كان من أمر الهزيمة ما كان! قال سالم بن عبد الله: لما أسرهم نوفل بن مازن شدهم في الحبال وقرن بعضهم إلى بعض ورجلهم عن خيولهم وسار بهم يطلب رأس العين، فأخبروه أن الملك شهرياض على «مرج الطير» من جانب النقب فقصد إليه ومعه من بني عمه أربعون رجلًا وساقوا أصحاب رسول الله إلى أن أوقفوهم بين يديه وحدثوه بأمرهم، فأمر بضرب رقابهم وكان آخر من بقي أميرهم سهل بن إساف وكان أحسن الرجال وجهًا.

فشفع فيه بعض البطارقة، فوهبه له وكان ذلك البطريق اسمه «توتا بن لورك» وهو صاحب «كفر توتا» فأخذه وأتى به إلى قصره في كفر توتا. قال فنظرت إليه ابنته، فسألت أباها عنه. فقال: أي بنية إن المسيح قد طرح رحمة هذا الشاب في قلبي فسألت الملك فيه، فوهبه لي فخذيه إليك، فأخذته وأدخلته في بستان. قال فلما كان بعض الأيام دخلت البستان، فنظرت إلى سهل بن إساف وهو يقرأ «مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ»،

فلما سمعت قراءته أخذت بمجامع قلبها، فقالت: ما أفصح هذا الكلام وأطيبه وألينه للأفهام! فقال لها: هذا كلام الملك العلام الذي أنزله على سيد الأنام. فقالت له الجارية، وكان اسمها «أبريتا»، وكانت تكتب بقلم التوراة والإنجيل وتتكلم بكلام العرب، وكثيرًا ما كانت تسأل علماء دينهم عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فلا يعطيها أحد منهم خبرًا حتى وقع بيدها سهل بن إساف. فقالت له الجارية: لقد سمعت من نيسا راهب دير قنا أن الله ينشر دعوة نبيكم في المشرق والمغرب ويملك المشرق والمغرب، وأنهم يفضلونه على الآباء والأمهات والأخوة والأخوات وأنهم بعد موته يسيرون إليه، وإذ ذكر يكثرون الصلاة عليه. فقال لها سهل: أما علمت أنه كان في حياته يدعو لهم ويستغفر لهم ولمن دخل في دينه وأقر به.

قال الراوي: وما ذكر سهل للجارية هذه المناقب إلا لأن ترجع إلى دين الإسلام. فلما سمعت كلامه قالت: فما جزاء من يدخل في دينه ويقول بقوله. فقال: يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وتمحى عنه سيئاته ويكون جزاؤه الرضوان في الجنان، ثم قرأ قوله تعالى: «وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ

يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا»، فلما سمعت الجارية ما تكلم به سهل وقع بقلبها وصغت إليه بلبها وقالت: أنا أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، ففرح سهل بإسلامها. فقالت له اكتم أمرك إلى الليل حتى أخلصك وأسير معك إلى عسكر الإسلام.

قال الراوي: وإن الجارية مضت واستدعت بجواريها، وأخذت من مال أبيها ألف دينار، فلما جنَّ الليل فتحت باب السر بعدما تجسست فرأت كل من في قصر أبيها نيامًا فأتت إلى سهل وحلَّته من وثاقه وقالت له: قم على اسم الله وبركة نبيه فقام سهل بن إساف إلى الباب وأعطته لأمة حرب ولبست هي مثلها وخرجا من الباب وإذا هما بجوادين فركبا وخرجا وسارا.

حدثنا صفوان بن عامر عن خويلد بن ماجد عن عبد الرحمن بن النعمان عمن حدثه عن فتوح الشام وأرض ربيعة الفرس قال: لما نزل عسكر المسلمين على قرقيسيا مع عبد الله وسهل خندقوا على أنفسهم خندقًا وتركوا لهم موضعًا يدخلون منه ويخرجون. واتصلت الأخبار بعياض بن غنم وهو بجانب الرقة، وهو يتروى فيمن يبدأ بحربه بـ «شهرياض» وجنوده أو بـ «حران» و«الرها». فقال

له خالد بن الوليد - رضي الله عنه -: أتترك جيشًا قد تهيأ واحتفل لقتالك وتمضي لسواه، والرأي أن تلقى هذا العدو. فإذا أنت هزمته وأوقعت الهيبة هنا فاقصد ما شئت من البلاد فإنها تفتح إن شاء الله تعالى. فعوَّل عياض على ذلك وإذا قد أتته جواسيسه وأخبروه أنه قد تهيأ لحربكم الملك شهرياض ونوفل و«طرباطس» صاحب دارا و«المؤزر» صاحب جملين و«أرمانوس» صاحب تل سماوي و«أرجو» صاحب البارعية و«شهرياض» صاحب ماردين و«رودس» صاحب حران والرها وقد صارت جريدتهم مائتي ألف وقد ضمنوا للملك لقاءكم، وقالوا: لا نلقى العدو إلا بأهالينا وأولادنا وأموالنا وحريمنا حتى لا ينهزم منا أحد، وقد تقدم إليكم الأرمن وبعدهم الروم وهم دون الفرات!

فلما سمع عياض ذلك بعث إليهم الوليد بن عقبة ووصاه بما أراد فقدم على بني تغلب وجمع أمراءهم وهم نوفل بن مازن وعاصم والأشجع وميسرة وحزام وقارب وقال: يا فتيان العرب اعلموا أن من نظر في العواقب أمن من المعاطب، وليس أنتم أحد سننا ولا أقوى جنانًا ولا أجرأ في الجولان ولا أوسع

ميدانًا من بني غسان، وليس فيكم من يشبه جبلة بن الأيهم وكان في ستين ألفًا، وقد نصرنا الله عليهم وقتلنا ساداتها، والصواب أن ترجعوا إلينا وتكونوا من حزبنا. فأجابوه بأجمعهم إلا طائفة إياد الشمطاء فإنهم ارتحلوا إلى بلاد الروم ووصل عرب بني تغلب إلى جيش ابن غنم مسلمهم وكافرهم فرحب بهم وطيب قلوبهم، وقال لهم: يا معاشر العرب إن الله - سبحانه وتعالى - قد أراد بكم خيرًا بوصولكم إلينا ونزوعكم عن عبدة الصليب، وقد أراكم الله إعزاز دينه وشرف نبيه وقد وعدنا ووعده الحق بملك كسرى وقيصر وأخذ كنوزهما وما كان ينطق عن الهوى وقال الله في حقنا: «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ»، فأسلم كافرهم وبقوا جميعهم مسلمين.

قال الراوي: أخبرنا سيف عن خالد بن سعيد قال: لما علم عياض بهروب إياد الشمطاء إلى بلاد الروم كتب إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بذلك فأرسل عمر - رضي الله عنه - إلى هرقل وولده قسطنطين يقول لهم: إن لم تصرفوهم عن أرضكم لأفنين كل نصراني عندنا. فلما وصلت رسالة عمر إلى هرقل وولده أنفذ بهم إليه. وعزم عياض على لقاء الملك شهرياض.

وأما ما كان من شهرياض صاحب قرقيسيا فإنه جمع بطارقته وقال لهم: اعلموا أنه قد بلغني عمن تقدم من الملوك أنهم كانوا يجيشون الجيوش ولا يستغنون عن الحيل وأنا أريد في غداة غد أن أخرج إلى لقاء العرب، فإذا اصطفت الصفوف فرجلوني عن جوادي وأشهروا علي سلاحكم كأنكم تريدون قتلي فأقول لكم: أنا معتذر إنما أردت أن أجرب خبر حميتكم لدينكم وظننت أنه قد أخذكم الخوف من هؤلاء فإذا سمعتم مني ذلك فأرجعوني إلى إجلالي وإعظامي، ثم ناوشوهم الحرب فأهرب أنا إليهم وأقول لهم إني أردت أن أسلمكم البلد فهاش القوم علي كما رأيتم وهموا بقتلي وقد جئت إليكم راغبًا في صحبتكم فإذا أمَّنوني وغفلوا عنِّي قتلت أميرهم في الليل وأنا أعلم أن القوم بعده يهون علي أمرهم ثم أعول على انهزامهم! فقال له وزيره الأرمني: وكيف تسمح بنفسك وتلقيها في أضيق المسالك وإن أنت فعلت ذلك لا نأمن عليك من العرب ويعتبنا خالك ويقول لنا كيف تركتموه يمضي إلى العرب؟ فقال عبد الله «يوقنَّا»: لقد صدق السيد في قوله وكيف نتركك تمضي إليهم وأنا أدبر لك مع هؤلاء القوم تدبيرًا يكون أقرب من هذا وأهون.

فقال شهرياض والوزير الأرمني: وما هذا التدبير أيها الملك؟ قال: أن نخرج غدًا بأجمعنا ونلقاهم ونريهم الجد من أنفسنا ونقاتل بحسب الطاقة ثم ننهزم إلى المدينة ونستوثق من أبوابها ونصعد على السور فربما قربوا منا فلا نقاتل. فإذا فعلنا ذلك طمعت العرب فينا ودنوا منَّا واعلموا أن في عسكرهم جماعة من الروم ممن صبأ إلى دينهم فربما قربوا منَّا فإذا أرادوا ذلك كتبنا إليهم نطيب قلوبهم ونرسل رسولًا في طلب الصلح ونقول: أرسلوا إلينا عشرة من عقلائكم حتى نرى ما تريدون منا ولعلنا نعقد معكم صلحًا فإذا فعلوا ذلك وحصلوا عندنا قبضنا عليهم ونشهر سيوفنا عليهم ونقول لهم: إمَّا أن ترحلوا عنَّا وإلا ضربنا رقابهم فإن القوم إذا أرادوا الجد منا طلبوا صلحنا بأصحابهم ورحلوا عنا، والعرب إذا قالوا قولًا وفوا به، فإن هزموا الملك شهرياض واحتووا على بلاده دخلنا بعدها تحت طاعتهم وارتحلنا عنهم إلى بلاد الروم.

وإنما أراد «يوقنَّا» بهذا الكلام أمرين: أحدهما أن يبرأ عندهم من التهمة حتى يطمئنوا إليه. والثاني أن يحصل من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عشرة في المدينة فيحتال أن يكونوا تحت يده ليثور بهم فيملك بهم

المدينة. فقال له وزيره الأرمني: وإن كان العرب يبعثون إلينا صعاليكهم أو مواليهم فنقبض عليهم ونهددهم بالقتل فلا يلتفتون إلى ذلك ويقع الجد منهم في قتالنا ولا يرحلون عنا فكيف تصنع. قال: فأراهم «يوقنًّا» أنه غضب وحول وجهه، وقال: وحق المسيح لقد دخل رعب القوم في قلوبكم ولن تفلحوا بعدها أبدًا، وحق ما أعتقده لقد قاتلتهم في قلعتي بحلب قتالًا سارت به الركبان إلى سائر البلدان مدة سنة كاملة، ولولا أن عبدًا أسود من عبيدهم اسمه دامس أبو الهول وعشرين معه نصبوا حيلة عليَّ حتى ملكوا قلعتي لما قدروا عليها أبدًا، وكانوا قد نزلوا علي بجميع عسكرهم وأبطالهم فكيف بكم وما نزل عليكم إلا شرذمة يسيرة وبلدكم حصين، ليس عليه قتال إلا من موضعين من صوب الجبل ومن الغرب وما لكم عذر، ومن أراد رضا المسيح والأجر قاتل عن دينه وصان أهله وحريمه من هؤلاء العرب، وإن خفتم أن القوم يرسلون إلينا مواليهم أو من لا قدر له عندهم ولا شأن فأنا أعرف الناس بهم وبفرسانهم وأبطالهم ومواليهم وخاصة أصحابهم فأنفذوا مع رسولكم كتابًا بأسماء القوم الذين أريد منهم، قال فضحك الوزير الأرمني وقال: وحق ديني إن العرب لا يسمحون بهؤلاء قط إلا أن يطالبوا رهائن منكم!

فقال «يوقنَّا»: ما أفشل رأيكم وأضعف قلوبكم انفذوا إلى القوم فإن أجابوا كانت بركة السيد المسيح، وإن طلبوا رهائن أرسلنا أضعفنا من أهل المدينة ومن أولادهم وألبسناهم أفخر الثياب وقلنا هؤلاء أكابرنا من أهل المدينة، قال شهرياض: وحق القربان ما نفعل إلا ما أمرتنا، ثم أنه أمر بطارقته وأرباب دولته أن يأمروا الناس بالتأهب للحرب ففعلوا ولبسوا سلاحهم واستعدوا للقتال، وأمر سهل بن عدي أصحابه بالركوب فركبت العرب وخرجت من باب الخندق، واستقبلوا العدو بهمم عالية، وقالوا اللهم انصرنا عليهم كنصر نبيك يوم الأحزاب وعبوا صفوفهم ثم وعظهم وقال في آخر وعظه: ها أنا حامل نحو طاغية الروم وصليبه فاتبعوني، فإن فتح الله بقتله أو أخذ صليبه فالقوم لا ثبات لهم فقالوا: أيها الأمير لقد دعوتنا إلى شيء هو أحب إلينا فاحمل حتى نحمل.

قال محمد بن عبد الله: فحمل هو ومن معه على عسكر قرقيسيا وكان أمير المسلمين عبد الله بن غسان وسهل بن عدي، فلقد قاتلوا قتالًا شديدًا وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ وبذلوا رماحهم وسيوفهم في أعداء الله، والتقى عبد الله بن مالك الأشتر بـ «يورنيك» الأرمني فلما عاين زيه علم أنه من ملوكهم فطعنه في

صدره فأخرج السنان من ظهره، والتقى النعمان بن المنذر بـ «شهرياض» وقد طحطح الجموع ولم يعلم النعمان بأنه صاحب البلد بل عرف أنه من الملوك فحمل عليه النعمان وهو يقول هذه الأبيات:

وإنّا لقوم في الحروب ليوثها وتنفر منّا عند ذلك أُسودها
نحامي عن الدين القويم نصونه ونرغم آناف العدا ونذودها
لنا الفخر في كل المواطن دائمًا بأحمدنا الهادي فذاك سعيدها
ملكنا بلاد الشام ثم ملوكها إلى أن تبدي بالنكال عديدها
وسوف نقود الخيل جردًا سوابقا إلى شهرياض ذلك شديدها
ونملك دارًا ثم جملين بعدها كذا رأس عين والجيوش نقودها
ونمضي إلى حرّان ثم سروجهم كذا الرّها للمسلمين نعيدها
وإني أنا النعمان ذاك ابن منذر أبيد ليوث الحرب ثم أسودها

ثم أطبق عليه وفاجأه بطعنة فألقاه صريعًا، فلما نظر جيش قرقيسيا إلى هلاك ملكهم انحرفوا إلى مدينتهم وتحصنوا في بلدتهم، وخافت أرمانوسة ودخل الرعب في قلبها. ثم إنها قالت للعبد الصالح «يوقنًا»: يا عبد المسيح ما بقي لي

أحد سواك يسوس ملكنا ويدبر حالنا. فقال: أيتها الملكة أنا لك وبين يديك. ثم إنها خلعت عليه وعلى أصحابه وقالت: اعلموا أن هذه المدينة والمملكة لكم.

فقال «يوقنًّا»: يجب علينا أن نقوم بحقها ونقاتل بين يديها، ثم إنه رتبهم على الأسوار فدنا المسلمون ورجالهم وهم يرمون بالمقاليع فكانت حجارتهم لا تخطئ أبدًا، وكان المقدم على الرجال والموالي المنذر بن عاصم ولم يكن بالحجاز ولا باليمن قاطبة أرمى منه بالمقاليع وكان من قوة ساعده إذا خرج حجره يجاوز البرج الأعظم فلم يزل يرمي فيه كل يوم فيصيب الرجل والرجلين فسمته العرب «برج المنذر»، وكانوا قد ضايقوا أهل قرقيسيا مضايقة شديدة. فقالت أرمانوسة: أين ما وعدت به الملك شهرياض من تدبيرك في هؤلاء العرب؟ فقال: أنا في الأمر متفكر. ثم إنه صعد على السور مما يلي المسلمين ونادى: يا معاشر العرب قد طال الأمر بيننا وبينكم ولا نسلم لكم إلا أن تهزموا الملك وتملكوا رأس العين ونحن لكم بعد ذلك، واطلبوا منا من المال ما تريدون فقد علمنا أنكم إذا قلتم فعلتم ووفيتم، فلما رآه عبد الله بن غسان وسهل بن عدي والصحابة ونظروا إليه علموا أنه يريد أن ينصب حيلة على أهل

قرقيسيا، فقال سهل بن عدي: يا عدو نفسه مكرت بنا وتممت منصوبك علينا بدخولك في ديننا حتى اطمأننا إليك، ثم غدرت ورجعت إلى دينك الأول فأين تهرب منا أو تولي عنا؟! ونحن لك في الطلب وسوف نملك هذه المدينة بالسيوف ونضرب عنقك، وهذا أيضًا من تمام الحيلة.

فقال: يا معاشر العرب لقد نصحتكم وخدمتكم وما رأيت منكم إلا خيرًا ولكن طالبتني نفسي بديني فرجعت إليه والآن فقد مضى ما مضى وهذه المدينة ما لكم إليها وصول ولا تقدرون عليها لأنها حصينة وفيها رجال الحرب والقوت عندنا كثير، ولكن أنفذوا إلينا منكم عشرة من أعز أصحابكم ممن نثق بهم يحلفون لنا ونحلف لهم إذا فتحتم رأس العين سلمنا هذه المدينة إليكم ويكون الصلح بيننا بقية هذه السنة فقد بقي منها أربعة أشهر أولها شهر رمضان. فقال له عبد الله بن غسان: قد أجبناك إلى ذلك فمن هم العشرة الذين تريدهم حتى نرسلهم إليك؟ فقال: أريد المقداد بن الأسود والأسود مولى قيس وخالد بن جعفر ورواحة بن قيس وهمام بن الحرب وسلامة بن عامر وابن نعيم فهؤلاء نريدهم فإنه لا يقع الصلح إلا بهم. قال: فوجه عبد الله هؤلاء الذين ذكرهم له

«يوقنَّا» وفتح لهم الباب، فقال عبد الله: نحن ما نسمح بأصحابنا بلا رهائن فمضى «يوقنَّا» إلى الملكة أرمانوسة وأخبرها أن القوم يريدون رهائن، فقالت: أرسل لهم من أولاد السوقة.

قال «يوقنَّا»: أيتها الملكة إن الحيل في الحرب من عند العرب خرجت والملوك من شأنها إذا قالت قولًا وفت به واعلمي أنه قد قال حكيم الفرس: إذا كان الغدر طباع قوم فالثقة بكل أحد عجز، واعلمي أن أهل بلدك فيهم رؤساء وملوك وهم يعظمون شأنك بعد الملك، ولكن ينظرون إليك بعين التأنيث وينظرون إليَّ بعين الغربة ولا هيبة لي عندهم، وربما سمعوا بصلحنا مع العرب فلا يملكونا من ذلك ولا يتم لنا ما نريده، وربما يرسلون يستنجدون علينا بمثل ملك الموصل وصاحب الهنكارية ويعظم الأمر. قالت: فما الذي تراه من الرأي؟ قال: الرأي أن نبعث الرؤساء رهائن عند العرب! وإنما فعل ذلك «يوقنَّا» حتى لا يتعرض له متعرض في المدينة وإذا سلمهم لا يكون فيها رئيس من رؤسائهم، فأجابته إلى ذلك وأنفذت الرؤساء منهم رهائن إلى عبد الله بن غسان، فلما وصلوا إليه دخل العشرة من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه

وسلم -، فلما حصلوا في المدينة أمر بهم إلى البرج الكبير وهو المعروف ببرج المنذر، وإنما فعل ذلك حتى لا يعصى من في البرج، لأن فيه مال أهل البلد، فلما حصلوا هناك رجع إلى الملكة أرمانوسة وقال: قد حصلتهم في البرج وغدًا نوقفهم بأعلى البرج ونقول لهم: إما أن ترحلوا عنا أو نقتلهم. قالت: وكيف نصنع برهائننا وإن نحن فعلنا بأصحابهم ما ذكرت يفعلوا بأصحابنا كذلك؟

قال لها «يوقنَّا»: إذا كنت تفزعين على أهل البلد فصالحي القوم. قالت: دبرنا بحسن رأيك. فقال: السمع والطاعة، وأنا أمضي إلى هؤلاء العشرة مع ما وصاهم به أميرهم وننظر ما الذي يطلبونه منا، ثم إنه مضى إلى الصحابة وحدثهم بما عزم عليه من تسليم البلد وقال لهم: إذا سمعتم الضجة فدونكم ومن في البرج، ثم رجع إلى أصحابه ورتبهم على السور، ولم يترك معهم أحدًا من أهل البلدة، فلما أظلم الليل سار عبد الله «يوقنَّا» مع أصحابه المائتين وأعلنوا بالتهليل والتكبير وبادروا إلى الباب ففتحوه وأرسل إلى عبد الله بأن يأتي إليهم بعسكره فأتوا ووضعوا السيف في أهل البلد! فما أفاق أهل قرقيسيا إلا والمسلمون قد مكنوا منهم القواضب فقصدوا البرج الأعظم فثار عليهم

العشرة الصحابة فعلمت الملكة أرمانوسة أن الحيلة قد تمت عليها من قبل «يوقنَّا»، وسمعت أهل البلد ينادون الغوث الغوث فأمنهم عبد الله بن غسان وسهل بن عدي واحتووا على ما في المدينة وأخذوا جميع ما كان فيها من الأموال وما في البرج الأعظم من الذخائر، فأخرجوا منه الخمس وقسموا الباقي على المسلمين، وعرضوا عليهم الإسلام فمن أسلم منهم وهبوا له أهله وماله ومن أبى ضربت عليه الجزية، ثم اجتمع الذين أسلموا وأتوا إلى الأمراء وقالوا: نحن قد دخلنا في دينكم فسلموا لنا كرومنا وبساتيننا. فقال لهم عبد الله بن غسان بن وسهل بن عدي: هي بحكم الإمام، يعني عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، وهو الذي يسكن فيها من أراد ويأخذ خراجها ممن هي في يده، فإن حكم الخراج والخمس والجزية بأمر الإمام يأخذ حاجة منه ويصرف الباقي في صالح المسلمين.

قال الواقدي: وأسلمت أرمانوسة ومن كان يلوذ بها فأقرهم عبد الله في أماكنهم وأحسن إليهم غاية الإحسان وجدد لهم الأمان كل ذلك ليتصل الخبر بأهل البلاد فيدخلوا في الإسلام. قال عطية بن الحرث، وكان ممن أدرك ذلك:

كان فتح قرقيسيا أول ليلة من شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين من الهجرة، وبنوا الكنيسة العظمى وهي «بيعة جرجيس» جامعًا ولم يبرحوا حتى صلوا فيه، وأطلقوا الرهائن وتسلم ولايتها شرحبيل بن كعب في مائة وخمسين رجلًا، وعولوا على المسير إلى «ماكسين» والتفت الأمير إلى عبد الله «يوقنَّا»، وقال: مر ابنتك أن ترجع إلى قلعتها فقد جاءت الوصية إلينا من قبل الأمير عياض. قال: فرجعت والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

ذكر فتح ماكسين والشمسانية

عن القيل بن ميسور قال: لما ارتحل عبد الله عن قرقيسيا ونزل على ماكسين فتحها صلحًا على أربعة آلاف درهم وكذلك بلادهم وألف حمل طعام حنطة وشعير فقلقوا من ذلك فترك لهم النصف وكذلك أهل الشمسانية، ثم نزل على عربان فجاؤوا إليه وصالحوه بما صالح به أهل ماكسين، ثم ارتحل إلى المجدل فملكها، وأقام ينتظر ما يرد عليه من أخبار أميره عياض بن غنم وهو نازل على نهر البلخ فكتب إليه يعلمه بما فتح الله على يديه، فلما وصل الكتاب إليه كتب إليه أن الزم مكانك حتى يأتيك أمري والسلام.

ذكر فتوح قلعة ماردين

عن المثنى بن عامر عن جده قال: لما فتحت مدائن الخابور صلحًا بلغ قتل الملك شهرياض صاحب أرض ربيعة وعين وردة ورأس العين فعظم عليه وكبر لديه، فجمع أرباب دولته وهو نازل على أرض الطير وقال لهم: هذه ثلاث مدائن من بلادنا قد ملكت وقلعتان والعرب المتنصرة قد مضت عنا. فقال له البطريق توتا: أيها الملك إنه لابد للعرب منا ولابد لنا منهم ويعطي الله النصر لمن يشاء، غير أنه كان من الرأي أنك لو زوجت ابنك عمودا الملكة مارية بنت أرسوس بن جارس صاحب ماردين ومرين لأعانتنا قلعة المرأة.

وكان السبب في بناء القلعتين المذكورتين أن هذا الرجل «أرسوس بن جارس» كان من أهل «طبرزند»، وكان بطلًا شجاعًا، وكان أول من بنى المملكة بأرمينية وكان منفردًا بطبرزند، وكان يغير في بلاد الروم حيث شاء حتى كتب أهل تلك البلاد إلى الملك الأعظم يستغيثون به من يده فأرسله الملك هرقل من أنطاكية إلى ديار ربيعة وقال له: ابن لك حصنًا تسكن فيه، فلما توسط أرض جبل ماردين نزل تحته ونظر، وإذا على قلة الجبل موضع نار وكان فيه عابد من

عباد الفرس وكان مشهورًا عندهم بالعبادة، وكانت الهدايا تقبل إليه من أقصى بلاد خراسان والعراق، وكان اسمه «دين»، فلم يمر به «أرسوس» حتى صادقه، وكان يحمل إليه الهدايا والتحف، وكان العابد لا يحتجب عنه ولم يزل معه حتى إنه وقع به منفردًا فقتله وغيَّبه، فلما عدمه أهل تلك الأرض قالوا: مات دين، ثم إن أرسوس بنى بيت النار وجعله حصنًا، وكانت له ابنة يقال لها مارية، فلما رأت أباها بنى له مكانًا وتحصن فيه بنت أيضًا قلعة بإزائه وحصنتها وجعلت فيها أموالها وذخائرها ورجالها، وكانت كلما خطبها أحد تراه دونها لأنها من بيت المملكة.

وكان بالقرب من قلعتها دير بسفح الجبل وفي الدير راهب قد انقطع فيه وكان من أجمل الناس وجهًا وكان اسمه «فرما»، قال: فأتت إليه زائرة، فلما رأته وقعت محبته في قلبها فلم تزل تتردد إليه وتتجاسر عليه إلى أن صارت بينهما صحبة فسلمت نفسها إليه فحملت منه، فلما تكامل حملها ولدت في خفية ولدًا ذكرًا فسلمته إلى دايتها وقالت لها: انظري كيف تفعلين بهذا الغلام فإني أحبه ولا أريد قتله، لأنه إن علم أبي بقصتي قتلني، ثم أخرجت له ذخائر نفيسة

وجعلتها في قماطه وخيطت عليها وقالت: من وقع به ينفقها على تربيته، ثم إنها افتقدت بدنه وإذا على خده الأيمن شامة سوداء بقدر الظفر، ورأت أذنه اليمنى وفيها زيادة. قال: فأخذته الداية ونزلت به ليلًا ومعها خادم وكان مطلعًا على أسرار الملكة فأتت به إلى أسفل القلعة في الطريق الأعظم وهناك عمود من رخام وغالبه غائص في الأرض وقائم على رأس ذلك العمود قاعدة من الرخام فوضعت ذلك المولود على القاعدة خوفًا عليه من الوحش أن يقربه فيأكله ثم رجعت هي والخادم إلى القلعة.

قال الراوي: وكان من قضاء الله وقدره أن صاحب الموصل الملك «الأنطاق» قد بعث رسولًا لـ «شهرياض» ثم «أرسوس بن جارس» صاحب ماردين فجاز سحرًا في الطريق الذي فيه العمود فسمع بكاء الطفل فدنا منه وهو على جواده فنظر عصابة الذهب فأخذه وسلمه إلى جارية كانت معه في السفر وقال لها: احتفظي على هذا المولود فلاشك أن له شأنًا، ثم أوصل الرسالة إلى صاحب ماردين وارتحل إلى رأس العين وأعاد الجواب على الملك شهرياض، وأجرى الله على لسانه بأن حدَّث الملك شهرياض بقصة الطفل الذي وجد على

العمود فقال: أعطني إياه فإنه ليس لي ولد يرثني ويخلفني في ملكي فدفعه إليه فأخذه الملك ودفعه إلى الحواضن والدايات فربوه إلى أن ركب الخيل ونشأ وترعرع فسماه الملك عمودا، وسماه الناس ولد الملك، وتربى في النعمة وتعلم طريقة الملوك من ركوب الخيل والرماية والقتال والمعالجة والصراع إلى أن سما ذكره وانتشر في الناس فخره، وكان لا يأوي إلى «عين ورعة» بل أكثر زمانه في الصيد والقنص، وبنى له قصرًا على رأس المغارة يأوي إليه وسمي القصر باسمه عمودا، وليس عند أمه مارية خبر بما فعل الزمان به، وانقضت الأيام واندرجت الأعوام حتى قدم عسكر المسلمين يريد فتح أرض الجزيرة.

فلما شاور الملك أرباب دولته في أمر العرب أشار عليه توتا أن يزوج ولده عمودا من الملكة فإنها لا تصلح إلا له... وهي بكر ولها من العمر ثلاثون سنة وقد خطبها الملوك وأبناؤهم فلم ترض بهم لأنها تراهم دونها وأنت إذا طلبتها لولدك لم يمتنع من ذلك أبوها ويفرح بمصاهرتك، فأجابه إلى ذلك وبعث إلى أرسوس بن جارس هدية عظيمة وقال لتوتا: كن أنت الواسطة في ذلك، فسار توتا إلى أرسوس وسلم عليه ودفع إليه الهدية فقبلها وتحدث معه فيما ذكرناه

فأجابه إلى ذلك وطلب منه الصداق مائة ألف دينار والبارعية وجملين وعشرين أميرًا من العرب ليقتلهم قربانًا للمسيح ليلة زفافها، فأجابه توتا إلى ذلك، فركب أرسوس إلى قلعة ابنته ودخل عليها وأعلمها بالخبر فرضيت فخرج من عندها وجمع القسوس والشمامسة وزوج ابنته لعمودا وليس عندهم خبر من أحكام القدر.

ورجع توتا إلى الملك شهرياض وأعلمه أن الأمر قد انبرم وأعلمه بما اشترط عليه أرسوس من القلعتين البالاعية وجملين ومائة ألف دينار وعشرين أميرًا من العرب ليقربهم ليلة زفافها ففرح بذلك وأنفذ الأموال وقال: إذا زُفَّت إليه سلمت إلى أبيها القلعتين، ثم إنه طلب عمودا وأخبره أنه قد زوجه ابنة «أرسوس بن جارس» وقال له: اعلم يا بني أن من جملة الصداق عشرين من فرسان العرب فتجهز وخذ العسكر واقصد العرب وأمر أن يخرج معه توتا الوزير و«رودس» صاحب حران وقال لهم: إن قدرتم أن تكبسوا العرب فافعلوا ومضوا في عشرين ألفًا. وأتت عياضا عيونه وأخبرته بما جرى وأنهم قد أقبلوا

إليك وهم رودس صاحب حران وصاحب كفر توتا وعمودا ابن الملك في عشرين ألفًا وهم يريدون كبسكم في الليل فاستيقظوا لأنفسكم.

فجمع عياض وجوه الصحابة واستشارهم. فقال خالد بن الوليد: اكتب من وقتك إلى عبد الله بن غسان وسهل بن عدي أن يسيروا إلينا من وقتهم ويعلمهم بما قصد العدو فيكونون منهم على حذر. فإذا قربوا منهم يكمنون لهم حتى يعبروهم ويصير أصحابنا من ورائهم ونكمن نحن عن يمينهم وشمالهم ثم نطبق عليهم. فقالوا كلهم: هذا هو الرأي المصيب وخرج خالد في ألفين وكتب في الحال إلى عبد الله وسهل يأمرهما باللحوق بعسكر خالد ويوصيهما بما يفعلان، وبعث الكتاب مع سراقة بن دارم فوصل إليهما في يومه على ناقة له، فلما وصل وقرأوا الكتاب ارتحلوا من ساعتهم واطَّلع الصحابة على الخبر فركبوا، وأنفذ عبد الله عيونه يتجسسون له خبر العدو. وأما خالد فإنه انفصل من عياض في ألفين ولم يأخذ بهم على الجادة، بل أرسل ألفًا عن يمين الطريق وأمَّر عليهم ابن سعد، وألفًا عن يسار الطريق مع خالد، وأمر سعدًا أن لا يبعد عن الطريق، وأرسل عيونه.

قال الواقدي: إنه لما سار عمودا وتوتا ورودس في العشرين ألف فارس لم يزالوا سائرين إلى أن بقي بينهم وبين عسكر عياض بن غنم عشرة فراسخ.. فنزلوا في مكان يستريحون ويعلقون على خيلهم ويلبسون لامة الحرب. وسار جيش عبد الله بن غسان من ورائهم وسار خالد بن الوليد عن يمينهم ونجبة بن سعد عن يسارهم وليس عند الروم خبر من ذلك، فلما علم خالد أن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أحدقوا بالقوم أرسل يعلم المسلمين أن يتأهبوا إلى وقوع الصوت. فتأهبوا، ثم إن خالدًا أخذ خمسمائة من أبطال المسلمين وترك خمسمائة مع عدي بن سالم الهلالي وقال له: إذا رأيت الحرب قد اشتعل نارها وتطاير شرارها فاخرج من كمينك، ثم إن خالدا لما قصد جيش العدو بمن معه وتظاهر لهم رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير، فسمعت الروم أصواتهم فلبسوا سلاحهم ولم يركب منهم سوى رودس وأصحابه وهم خمسة آلاف ولم يكن فيهم مستيقظ سواه، وتوتا مشغول مع عمودا.

وإن صاحب حران استقبل خالدًا واستصغر شأنه لما رآه في شرذمة قليلة وطمع فيه، واشتغلت الروم بالنظر إليهم وقالوا: رودس يكفينا أمرهم. قال:

فبينما هم ينظرون إذ صاح خالد بعدو الله رودس وانحط عليه انحطاط السحاب وهو يقول هذه الأبيات:

وإنا لقوم لا تكلّ سيوفنا ... من الضرب في أعناق سوق الكتائب
سيوف دخرناها لقتل عدونا ... وإعزاز دين الله من كل خائب
قتلنا بها كل البطارق عنوة ... جلاء لأهل الكفر من كل جانب
إلى أن ملكنا الشام قهرًا وغلظة ... وصلنا على أعدائنا بالقواضب
أنا خالد المقدام ليث عشيرتي ... إذا همهمت أسد الوغى في المغالب

وفاجأ رودس بطعنة فألقاه على وجه الأرض فأوثقه غلامه همام وحمل في أصحابه هو ومن معه. فهم في ذلك إذ خرج عليهم نجبة بن سعد وعدي بن سالم، وأشرف من بعدهم عبد الله بن غسان فامتلأت الأرض بالزعقات وارتخت سائر الجهات وصدموهم على الخيل العربيات، ونادوا باسم جبار الأرض والسموات وأطبقوا عليهم من كل جانب، وكان التوفيق للصحابة مصاحبًا، فما لحقت الروم أن تركب على خيلها إلا والسيف يعمل فيهم فطحطحوهم وفرقوا مواكبهم واستوثقوا منهم أسرى، وأخذوا عمودا وتوتا فكانت الأسارى أربعة آلاف والقتلى ألفًا وسبعمائة وستة وستين، وولى الباقي

الأدبار فوصلوا إلى الملك شهرياض فأعلموه بما وقع فضاقت عليه الأرض بما رحبت، وعلم أن دولته قد انقرضت وأن أيامه قد اضمحلت ومضت، فأحضر من بقي من أرباب دولته فاستشارهم فيما يفعل.

فقالوا: أيها الملك إن مقامنا على رأس العين سفه فإن بينها وبين حران والرها وسروج بعيد، يطمع العرب في بلادنا، بل الرأي أن نرحل ونتوسط البلاد وتكون قلاعنا أقرب منَّا والميرة تصل إلينا من كل جانب، فإن كانت لنا وانهزمت العرب أخذنا عليهم سائر الطرقات، وإن كانت علينا انهزمنا إلى ماردين وقلعة مازن وكفر توتا وقصدنا جملين وتل توتا والبارعية وتل سماوي وتل القرع والصور ودجلة الجبل ونأمن على أنفسنا. قال: فأجابهم إلى ذلك وارتحل من برج الطير وقصد رأس العين ورتب آلة الحصار، وترك في المدينة عشرة آلاف فارس مع «مرتودس» وكان من الفرسان المشهورة وهو متزوج بابنة الملك شهرياض، فلما رتب أمره رحل إلى «مرج رغبان».

ولما نزل الملك شهرياض على مرج رغبان بجيوشه ارتحل عياض في أثره بعدما كتب بخبر الوقعة وفتح زبا وزلوبيا والخابور إلى أمير المؤمنين عمر بن

الخطاب - رضي الله عنه - وسأله الدعاء وبعث الكتاب والخمس وما أخذه من القلاع وأرسله مع حبيب بن صهبان وضم إليه مائة فارس فسار إلى المدينة، وأما عياض بن غنم ومن معه من عساكر المسلمين فإنهم تبعوا شهرياض إلى أن نزلوا مع العدو بمرج رغبان قال: فنزلوا في مقابلتهم، قال واتصلت الأخبار بـ «أرسوس بن جارس» صاحب ماردين بأسر عمودا فأحضر ابنته إليه وقال لها: أي بنية اعلمي أن بعلك قد أسر وهو ابن الملك ونحن نخاف العار بأن يقال مارية بنت أرسوس ما كانت موافقة على ابن الملك وأنه لما تزوج بها أسر وقد حرت في أمري. فقالت له مارية: يا أبت وحق المسيح لقد قلت الحق وتكلمت بالصدق فما عندك من الرأي؟ قال لها: وما عندك أنت؟

قالت: أريد أن أتنكر وأدخل إلى عسكر المسلمين وآتي أميرهم وأقول له إني قدأتيت أسلم على يديك لرؤيا رأيتها وهو أني رأيت المسيح في النوم ومعه الحواريون وكأني أشكو للمسيح ما نزل بنا منكم، وكأنه يقول لي أسلمي فإن القوم على الحق وقد جئتكم لأسلم وأملككم قلعة أبي وتتركوني أنا في قلعتي، فإذا قال أميرهم: كيف تملكيننا قلعة أبيك وهي أمنع الحصون وأحصن القلاع،

فأقول له: يرسل معي من فرسانهم مائة فارس من صناديدهم وأدخلهم في قلعتي وأجعلهم في صناديق وأرسلهم إلى قلعة أبي وأسير معهم إلى والي قلعة أبي وأقول هذه الصناديق فيها أموالي وأريد أن أجعلها في خزانة أبي، فإذا حصل القوم عندي رميتهم في المطامير وأقول لهم لست أدعكم حتى ترسلوا إلى أميركم يرسل إلي بعلي.

فقال لها أبوها: إنك تريدين أن تلقي نفسك في الهلاك، وإن العرب لا تتم عليهم الحيل لأنهم هم أربابها! قالت: وإن طلبوا مني رهائن، فإذا وقع الفداء بأصحابهم طلبت الرهائن مع بعلي. فقال لها: دبري ما تريدين فلعل أن يكون فيه المصلحة. فنزلت في الليل وقصدت مرج رغبان ومعها خادم وأربعة مماليك يسوقون بغلتها وعليها من الهدايا والتحف والطرف. فلما وصلت إلى تنيس التقت بغلمان أبيها وحاجبه ومعهم أربعون أسيرًا من العرب: منهم عبد الله بن غسان وأمثاله.

وكان السبب في ذلك أن عياض بن غنم لما ارتحل يطلب رأس العين مع هؤلاء السادة الذين مع عبد الله بن غسان بحسب العادة في سيرهم إلى حران

وسروج والرها ليأتوا بالطعام والميرة للعسكر فساروا، فلما توسطوا البلاد لقيهم «السائس ابن نقولا» و«جرجيس بن شمعون» وقد أقبل بميرة عظيمة لعسكر الملك شهرياض ومعهم ثلاثة آلاف غائصون في الحديد، فلما رأوا قلة المسلمين طمعوا فيهم فأقبلوا وأطبقوا عليهم من كل جانب فأخذوهم قبضًا بالكف وأحضروهم بين يدي الملك شهرياض فهمَّ بقتلهم. فقال له وزيره: أيها الملك ليس هذا برأي لأن ولدك عمودا في يد العدو وورودس صاحب حران وتوتا صاحب الحجاب، فإن أنت قتلتهم قتلوا أصحابك وولدك والصواب أنك ترسلهم إلى قلعة ماردين -يعني قلعة المرأة- وتسلمهم إلى الملكة مارية ويكونون عندها، فإذا طلبتهم العرب تقول لهم إنهم بقلعة ماردين وليس هم في أسرنا ونحن لا نبالي بمن هم عندهم فيكون أعظم لحرمتك وهيبتك، فاستصوب رأيه وأرسلهم إلى مارية مع صاحب أبيها فالتقت بهم على تنيس كما ذكرنا، فأمرت الحاجب أن يوصلهم إلى قلعتها ففعل. ثم إنها سارت حتى أتت إلى عسكر المسلمين في حندس الليل فكان يطوف في العسكر سهل بن عدي ونجبة بن سعد في جماعة، فلما رأوها أتوا إليها وسألوها عن حالها. فقالت: أريد أميركم فأتوا بها إلى عياض بن غنم. فلما وقفت بين يديه قدمت له

الهدايا وهمت أن تسجد له فنهاها، وقال: إن الله قد أعزنا بالإسلام وأنقذنا من الضلال بمحمد - صلى الله عليه وسلم -، فأزال عن قلوبنا الغل والحسد واتباع الهوى وشرفنا بالتحية ونزهنا أن يسجد بعضنا لبعض وما يرغب في ذلك إلا الجبابرة من ملوك الأرض وإن الله يقول: العظمة ردائي والكبرياء إزاري، فمن نازعني فيهما قصمته ولا أبالي، ومارية تفهم ما يقوله!

فلما انتهى قالت: أيها الملك إن الله بهذا نصركم علينا. قال لها: فمن أنت؟ قالت: أنا «مارية بنت أرسوس بن جارس» صاحب «ماردين»، وإن الذي بأيديكم أسيرًا هو بعلي عمودا ولا صبر عليه، فلما كثرت فكرتي فيه واشتد شوقي إليه رأيت المسيح في نومي والحواريين، وقد أمرني باتباعكم وقد أتيت إليكم بهذه النية بأن أتبع دينكم وأسلم لكم القلعتين قلعتي وقلعة أبي على شرط أن تبقوني في قلعتي ولا تغيروا من أمري شيئًا، وأقيم أنا وبعلي فيها وأكون الحاكمة على أهل بلدي.

فتبسَّم عياض - رضي الله عنه - من قولها وقال: يا مارية أما إنك ما أتيت إلينا إلا لتنصبين علينا بسبب بعلك وكيف يكون هذا بعلك وهو ولدك! وحديثه

كذا وكذا. فلما سمعت الجارية الحديث من عياض بن غنم امتقع لونها وتغير كونها وقالت له: يا سيدي ومن أين لك هذا وأن عمودا ولدي وهو ولد الملك شهرياض؟! قال لها رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الليلة وحدثني بذلك كله. فقالت: إني أريد أن أراه، فإن كان ولدي فإن لي فيه علامة! فأمر عياض بن غنم بحضوره فأتى به سعيد بن زيد، فلما نظرت إليه ووقعت عينها عليه ورأت الشامة التي على خده وزيادة صاحت صيحة عظيمة أذهلت من حضر وترامت عليه والتزمته وقالت: لاشك ولدي، وقد صدق محمد – صلى الله عليه وسلم – في قوله. ونظر الغلام إلى أمه فتحرك الدم في بدنه فغشيَ عليه من البكاء، فلما أفاق بكى بكاءً شديدًا هو وأمه.

فلما سكتا قال لهما عياض: قد وجب عليكما أن توحِّدا الله شكرًا على ما أنعم عليكما فإنه يزيد الشاكرين ورحمته قريب من المحسنين ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين! فلما سمع عمودا ما قاله عياض قال: والله ما في قولك زور ولا محال، وأنا أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله. فلما نظرت أمه مارية إليه وقد أسلم وافقته في الحال وشهدت لله

بالوحدانية ولنبيه بالرسالة. فقال عياض بن غنم ومن حضر من المسلمين: تقبل الله منكما إسلامكما ووفقكما، واعلما أن الله قد طهر قلوبكما وغفر ذنوبكما فاستأنفا العمل، ولكن كيف السبيل إلى هذه القلعة المنيعة؟! فقالت: أبشر فإن أصحابكم أسروا عند حران وقد وجههم شهرياض إليَّ لأفدي بهم منكم هذا الغلام عمودا وقد سيرتهم إلى قلعتي، وها أنا أسير إليهم وأحصلهم في قلعة أبي وأفك أسرهم وأملك بهم القلعة إن شاء الله تعالى.

فقال لها عياض: وفقك الله في كل حال، وصرف وجهك عن المحال! ولقد صعب عليَّ أسر أصحابي، ولكن قد طاب قلبي بما قلت من الصواب، فدعي ولدك عندنا وارجعي إلى أبيك، فإذا رأيتيه فقولي له: قد طلت حيلتك علينا، فإذا حصلت عند أصحابنا فافعلي ما فيه الصلاح. فقالت: السمع والطاعة، ثم ودعت زوجها -أي ولدها- والمسلمين، وسارت من ليلتها إلى ماردين، فوجدت أباها قد نزل إلى خدمة الملك إلى مرج رغبان، ووجدت الحاجب الذي كانت معه الأسرى، قد أوصلهم إلى قلعة أبيها وتركهم تحت قبضته، وكان هذا الحاجب من عقلاء الناس، ممن قرأ التوراة والإنجيل والزبور، وكان

راهبًا في مبدأ أمره، وكانت له صومعة على عمود رخام قائم طويل، وصنع على رأس العمود قائمة عظيمة، وعقد عليها قبة وكان يصعد إليها بسلم أبريسم معلق بأعلى القبة، وله سكَّتان في الأرض، فإذا حصل في القبة، انتزع السكتين وأخذ السلم إليه. فشاع خبره ونما ذكره بالعبادة والرهبانية، فلما توجه إلى بلادهم وفتحت الخابور صلحًا، اجتمع حول ذلك العمود أمم، وقالوا: يا أبانا ما الذي تشير به علينا، فإن العرب قد توجهت إلينا وقد فتحوا الشام وأكثر العراق وحصلوا في أرضنا فما الذي نصنع؟ فاطلع عليهم من القبة وقال: يا معاشر النصرانية، ما زالت النعم عليكم ظاهرة وباطنة، مطمئنين في البلاد، وقد ذلت لكم رقاب العباد ونصركم المسيح على سائر الأمم، ورد عنكم سائر الغمم، ومهد لكم الأرض في الطول والعرض؛ إذ كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتردون المظالم إلى أهلها، وتحكمون بالحق وتتبعون شريعتكم، وتزجرون أنفسكم عن أكل الحرام واتباع الزنا، فلما غيرتم غير بكم، وفي إنجيل يحيى وإنجيل مرقص مكتوب: من اتبع سنن الحق وعوَّد لسانه طريق الصدق وفعل بأوامر ربه وألزم نفسه بما يعنيه ولم يبخس الناس أشياءهم، وداوم على صلاته، وعمل بأوامر شريعته، ولم يتبع هواه بلغه زهده ما تمناه، ومن جار

وبغى وظلم وتجبر وحاد عن طريق الحق، كان فناؤه عاجلًا ولنفسه بيده قاتلًا وخربت داره، ونفد ادخاره، وكان الخوف شعاره، والجحيم دثاره، وفي التوراة مكتوب: لا تظلموا إنه لا يحب الظالمين.

وقد بلغني أن في القرآن مكتوب «إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ»، فأصلحوا ذات بينكم، واجعلوا تقوى الله نصب عيونكم، وقاتلوا عن أهلكم وحريمكم واتبعوا شريعة نبيكم، وأخرجوا إلى جهاد عدوكم، فإن الجهاد اليوم أفضل من جميع العبادات المأمور بها فإنه من جاهد أعداءه، كانت الجنة مأواه، ألا وإني نازل من صومعتي هذه فلا يتخلف أحد منكم، ثم إنه أرسل سلمه ونزل، فلما رأوه وقد نزل أقبلوا عليه بالسلام وقبلوا يديه ورجليه، فأتى بهم إلى كنيسة دمائر وكنيسة باذا، فصلى بهم ودعا، ثم أمرهم بالجهاد وقصد «دير ملوخ» وكان فيه راهب فناداه باسمه وقال له: ليس هذا وقت العبادة فأنزله من صومعته وسار إلى نصيبين، فخرج إلى لقائه الملك «قرقياقس»، فترجل إليه وصافحه، وسار بين يديه إلى البيعة وزار دير يعقوب، وهرع إليه أهل نصيبين فوعظهم وأمرهم بالجهاد، وقصد رأس العين وبلغ خبره لأرسوس بن جارس،

فلما أسر عبد الله بن غسان ومن معه بعثهم مع الراهب «ميتا» بن عبد المسيح ولقيته مارية في الطريق كما ذكرنا وأمرته بأن يسير بهم إلى قلعتها، فلما أبعد عنها لقي أباها في عسكره فسأله عما هو فيه فأخبره أن الملك شهرياض أرسله بهؤلاء الأسرى. فقال له: من أنت؟ قال: «ميتا بن عبد المسيح»، فلما سمع «أرسوس» قوله فرح به وقال: وحق ديني لي زمان أرقبك ولست أستغني عن رأيك، ولكن انطلق بهؤلاء إلى قلعتي وتول أنت حفظهم حتى يأتيك أمري وخذ خاتمي هذا.

فانطلق وأوصلهم إلى القلعة ووضعهم في الاعتقال وتولى حفظهم بنفسه وجعل ينظر إلى حسن عبادتهم وجودة تلاوتهم فأقبل عليهم، وقال لهم: أخبروني كم فرض عليكم في اليوم والليلة. فقال عبد الله بن غسان: خمس صلوات فمن أتى بها بركوعها وسجودها على الكمال لا يرد على النار قال الله تعالى في كتابه: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلّهِ قَانِتِينَ»، وقال نبينا – صلى الله عليه وسلم –: «الصلاة صلة ما بين العبد وربه فيها إجابة الدعاء وقبول الأعمال وبركة الرزق وراحة الأبدان وستر بينه وبين النار وثقل في الميزان وجواز على الصراط ومفتاح الجنة» وقال نبينا – صلى الله عليه وسلم

-: «فرضت الصلاة مثنى مثنى فزيدت في الحضر وتركت صلاة السفر على حالها». ولما حضرت عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سمعته يقول: «من حافظ على الصلوات الخمس كانت كمثل نهر عذب يغتسل فيه أحدكم كل يوم خمس مرات فهل يبقى من درنه شيء فكذلك الصلوات الخمس لا تبقي على العبد خطيئة».

فلما سمع الراهب «ميتا» كلام عبد الله قال: أشهد أنكم على الحق وأن دينكم حق وقولكم صدق، ثم أسلم، وبعده بقليل وصلت مارية لما علمت أن الصحابة في قلعة أبيها، فلما صارت في أعلى القلعة ونزلت في دار أبيها باتت على قلق بسبب الصحابة فلما دخل عليها «ميتا» وسلم عليها قالت له: يا «ميتا» ما الذي صنعت بالعرب؟ قال: استوثقت منهم حتى يرى الملك فيهم رأيه. فقالت: والله ما قصَّرت، ولكن اجعلهم معنا في البيعة حتى يروا حسن عبادتنا وقراءتنا الإنجيل فلعلهم أن يدخلوا في ديننا. فقال: السمع والطاعة ثم إنه نقلهم إلى البيعة فلما كان الليل أتت البيعة فرأت أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم في القيود ولم يكن هناك سوى «ميتا»، فقالت له: يا «ميتا» أنت من

علماء ديننا وما يخفى عليك الحق اطلعت على دين هؤلاء القوم فالحق معنا أو معهم. فقال: أيتها الملكة ليس على الحق من غطاء، الحق مع هؤلاء العرب والذي قد جئتني به فانجزيه من قبل أن تطلبيه فلا تقدري عليه وقد رأيت بيان صدق القوم وصدق دينهم حتى جمع الله بينك وبين ولدك عمودا، قال فلما سمعت كلام «ميتا» بقيت باهتة فيه فقالت له: ومن أين لك هذا؟ قال: رأيته في نومي، وحدثها بما كان كأنه كان حاضرًا فسجدت شكرًا لله، فلما رفعت رأسها وثبت قائمة وحلتهم من وثاقهم ودفعت إليهم السلاح وأمرت «ميتا» أن يكرمهم، وقالت له: أنا أدبر كيف تقبض على الوالي ونملك القلعة، ثم أنها سارت إلى قلعتها وولت عليها من هي به مطمئنة الفكرة وأخرجت منها من تخشى جانبه واستوثقت منها، وأما «ميتا» فإنه جعل الصحابة في البيعة في بيت المذبح، وقال لهم: إذا كانت غداة غد وأتى الوالي وأصحابه إلى الصلاة فاخرجوا عليهم فإن الله ينصركم عليهم.

فلما كان الصبح أقبل الوالي وخواصه ليصلوا وضربت النواقيس وأتى القس ليفتح باب المذبح ويقرب القربان، فلما فتح الباب خرج عبد الله بن

غسان وأصحابه الأربعون وكبروا تكبيرة واحدة ارتجت لها القلعة وما فيها، وبذلوا السيف فيهم فقتلوهم عن آخرهم واحتووا على القلعة وما فيها، وسمع أهل الربض التكبير فعلموا أنهم قد ملكوا القلعة فولوا على وجوههم هاربين، قال فلما سمعت مارية التكبير والصياح علمت أن قلعة أبيها قد ملكت فغلقت أبواب قلعتها وأرسلت من تثق به إلى عياض بن غنم وأخبرته بما جرى فشكر الله على ذلك. ووصل أكثر المنهزمين إلى الملك شهرياض وأعلموه أن قلعة ماردين ملكها العرب فصعب عليه وأيقن بتلف ملكه ووقع الرعب في قلبه وقلوب عسكره وبلغ أرسوس الخبر أن قلعته ملكت وخزائنه أخذت فكتم أمره إلى الليل وأخذ من يثق بهم، وسار يطلب حران فوصل إليها في الليلة الثانية، فلما قرب من الباب قام إليهم الحرس فصاح بهم أصحابه وقالوا: افتحوا، هذا البطريق رودس يعنون بطريقهم الأول وقد تخلص من العرب ففتحوا لهم فدخل أرسوس وملك المدينة وفشا الخبر في تلك البلاد أن أرسوس صاحب ماردين قد ملك حران بالحيلة فقصد إليه جميع من يطلب الديوان فصار عنده جيش عظيم.

ذكر فتوح الرّها وحرّان

قال الراوي: وكان لرودس هذا صاحب حران المقبوض عليه ولد وكان قد قبض أبوه عليه لأنه خاف منه وكان شجاعًا اسمه «أرجوك» فقبض عليه وحبسه في العمق وكان له أم اسمها «ست العسكر» وهي صاحبة «سميساط»، وكانت قد مضت إلى زيارة أهلها وهي غضبانة للقبض على ولدها، فلما بلغها أن أرسوس ملك حران صعب عليها وركبت من سميساط وجاءت العمق وخلت بولدها وأخبرته أن حران ملكها أرسوس فأخرجته وسلمت إليه الأموال وقالت: أنفق على الفرسان واجمع لك جيشًا وامض إلى هذا الرجل الذي فعل ما فعل، فأنفق المال وأتت إليه الرجال وبقي في جيش عظيم وعبر الفرات وقصد حران وبلغ أرسوس الخبر فخرج إلى لقائه والتقى الجمعان وكان قد قدم أمام جيشه بطلًا من الأرمن في ثلاثة آلاف فوقعت الهزيمة على الأرمني.

عن محمد بن عمر الواقدي قال: لما بلغت الأخبار إلى عياض بن غنم بمسير أرجوك الأرمني إلى أرسوس أحضر رودس صاحب حران وأخبره بما انتهى إليه من خبر أرسوس وكيف ملك حران وأن ولده يريد أن يلقى أرسوس

وإني قد عولت على قتلك إلا أن تدخل في ديننا، فقال: إن أنت أطلقتني سلمت إليك ما تحت يدي من القلاع ولعلي أخلص حران لأن أهلها يحبونني لأني كنت محسنًا في حقهم، وأنا أقول إنهم إذا رأوني سلموا إلي البلد، وأنا أسلمها إليكم على أن تعطيني السويداء ونصيبين الصغرى، وأنا أعطيكم الجزية كل عام. قال: فأجابه على ذلك وأمر عبد الله «يوقنًّا» أن يستحلفه فحلف وأجاب إلى ذلك فأطلقه وبعث معه «يوقنًّا» في جماعته، ورد على رودس خيامه وثقله وجماعته وانسلوا من الليل من مرج رغبان طالبين حران، فلما قربوا منها أرسلوا عيونهم فوجدوا العسكر نازلًا خارجًا منها وعسكر ولده بإزائه غير أنه قد أسر أرجوك وأخذ أرسوس، وأن عسكره باق على حاله وقد بعث إليهم أرسوس رسولًا يدعوهم أن يكونوا من حزبه وينعم عليهم وأن ينزل بهم وبعسكره على الرها ليأخذها وتصير من تحت يده، قالوا: حتى نرى لأنفسنا في ذلك.

فلما قدم رودس و«يوقنًّا» ونظرا إلى العسكرين والنيران تتقد، قال رودس لـ «يوقنًّا»: هذه النار القريبة لاشك أنها لعسكر ولدي فأرسل إليهم من يختبرهم،

فسار الرجل وعلم من هم وعاد فأخبره أن القوم معولون على أن يحلف لهم أرسوس وأن يكونوا جنده، وقد تقرر الحال على أنه في غداة غد يخرج في مائة فارس من أصحابه إلى دير فرها بين الرها وحران ومن عسكر ولدك خمسون من أكابرهم ويتعاهدون هناك.

فلما سمع «يوقنًّا» ذلك تهلل وجهه فرحًا، وقال لرودس: أبشر فقد صار القوم في قبضتنا! ثم مضوا يطلبون الدير وكمنوا بالقرب منه ثم إن «يوقنًّا» أرسل غلامًا له، وكان نجيبًا قد رباه وكان اسمه شامس، فقال: يا شامس انطلق إلى صاحب الرها وهو «كيلوك» وقل له إن مقدمي صاحب أرجوك قد بعثني إليك لكي يكونوا من رجالك فإنك منهم وإليهم وأرسوس من الروم، وإن رجالًا منا يأتون إلى دير فرها وأرسوس معهم حتى يحلف لهم ويحلفوا له ويريد منك أن تخرج في مائة وتكمن لنا بالقرب من الدير. فإذا قدمنا فاخرج علينا، فانطلق شامس إلى أن قدم على صاحب الرها وحدثه بما ألقى إليه صاحبه «يوقنًّا»، وكان من قضاء الله وقدره أن الحيلة التي دبرها «يوقنًّا» وبعث بها إلى صاحب الرها قد بعث بها أكابر جيش «أرجوك»، فلما قدم شامس عليه من قبل «يوقنًّا»

وحدثه بالحديث الذي ذكرنا تأكد عنده ذلك وخرج في أربعمائة من قومه في أكمل سلاح وساروا طالبين «دير فرها».

وكان «يوقنَّا» قد كمن بالقرب منهم واختلس شامس وأتى إلى «يوقنَّا» وأخبره بأنهم كامنون في المكان الفلاني وهم منكم قريب، وأما ما كان من أمر أرسوس فإنه لما أرسل رسوله إلى الأرمن من عسكر أرجوك أتى رودس، وقال لهم إنه يحلفه لهم ويحلفون أنهم لا يخامرون عليه ووقع الاتفاق على أن يكون الحلف في دير فرها، فلما كان آخر الليل مضوا وهم متباعدون من بعضهم خوفًا من الغدر، وكان خاطرهم طيبًا بصاحب الرها بما قرروا عنده. ثم إنه قبل خروجهم أعلموا ألفًا من شجعانهم بأن ينسلوا من العسكر في خفية وأن يلحقوهم ليكونوا عونًا لصاحب الرها، وقالوا لهم: لا تتكلموا دون أن تروا صاحب الرها قد خرج عليه بكمينه. فإذا خرجتم فازعقوا بشارة كأنكم من أصحابه حتى يطمئن إليكم فلعل أن تقبضوا عليه حتى يخلص أميرنا «أرجوك»، فانسلوا من أول الليل ولم يعلم بهم أحد.

ولما أشرف «أرسوس» على الدير إذا به قد خرج عليه مائتا فارس من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكان المقدم عليهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي، وكان السبب في ذلك أن عياض بن غنم لما بعث رودس و«يوقنَّا» معه وأصحابه ساء ظنه من جانب رودس، وقال: لقد فرطت وأذهبنا ولي الله مع عدو الله. قال خالد: أيها الأمير لا تشغل سرك من قبل رودس فإن ملوك الروم إذا قالت وفَّت ويرون العار في أن يقول أحدهم قولًا ولا يفي به، فقال: يا أبا سليمان إنه لا ينبغي لنا أن نغفل عن صاحبنا ومن معه. ثم إنه أرسل عمرو بن معد يكرب الزبيدي في مائتي فارس وساروا طالبين حران فلقوا في طريقهم أرسوس وهو خارج إلى الدير فقبضوا عليه وعلى من كان معه.

وأما «يوقنَّا» فإنه قبض على «كيلوك» وكمن إلى الليل وتوجه إلى الرها، وكانوا قد لبسوا الثياب التي كانت على «كيلوك» وألبس جماعته ثياب جماعة صاحب الرها، فلما قربوا منها وكانوا قد أوقدوا لهم مشاعل وفتحوا لهم الباب فدخلوا، فلما حصلوا داخلها رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير والثناء على رب العالمين فما جسر أحد من العوام أن يتكلم واحتوى «يوقنَّا» على ما كان فيها

من ذخائر وتحف وخزائن «كيلوك» وأمواله وترك عليها من يثق به بعدما قبض على من يخافه من رؤسائها وأكابرها، وكان قد استأمنه ابن عم «كيلوك» فأمَّنه فدله على جميع ما كان لـ «كيلوك».

ثم أخذه أمامه وساروا طالبين حران فوجدوا رودس قد فتحها وذلك أنه لما قبض عمرو بن معد يكرب على أرسوس سار رودس ومعه بقية عسكر المسلمين حتى وصل إلى حران ونادى الناس الذين على السور، فلما عرفوه فتحوا له الباب وصقعوا وساروا معه إلى دار إمارته فملكها وأتى له عظماء البلد وهنئوه بالسلامة فقام فيهم خطيبًا، وقال لهم: اعلموا أن الله تعالى أنقذني وأنجاني وقد جرى من حديثي كذا وكذا وأني عاهدت أمير القوم أن أسلم إليهم هذه المدينة ويوليني على نصيبين الصغرى والسوداء وحلفت له على ذلك، وأني سوف أوفي بعهدي وأشهدكم أن كل دين يخالف دين الإسلام فهو باطل، وأنا أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله. قال فلما سمع أهل حران ذلك، قالوا: لقد أراد الله بك خيرًا ونحن نوافقك على إسلامك فأسلموا إلا قليلًا منهم.

ذكر فتح قلعة رأس العين

قال الراوي: حدثنا ربيعة بن هيثم عن عبد الله التنوخي عن عبدان بن عطية قال: ما أسلم من أهل الجزيرة إلا حران، فلما رآهم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد دخلوا في الإسلام، قالوا: اللهم ثبتهم على دينك ولا تمكن من بلدهم عدوًا، وأعادوا الكنائس مساجدًا وجوامع، وسلموا الصحابة ما حول حران والرها تسليمًا، وأتى «يوقنًّا» من الرها إلى حران واجتمع بأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وشاورهم في أمر الرها وكيف يكون حكمها، فقال سعيد بن زيد: إنك قد أخذت هذا البلد بحيلتك، وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «الحرب خدعة» وقد صار كل من فيها عبيدًا للمسلمين هم وأموالهم. فقال «يوقنًّا»: أنتم تعلمون أن أكثر الجزيرة ما ملكتموه، وثم إلى الآن حصون وموانع والصواب أن تصنعوا جميلًا وخيرًا يعلو به ذكركم ويرتفع به فخركم! فقال له سعيد: إذا كان الأمر على ما ذكرته فاتركوهم على حالهم حتى نرى ما يرى فيهم الأمير عياض بن غنم. ففعلوا ذلك؛ ثم إن الأخبار اتصلت بالملك شهرياض أن حران والرها وسروج

والسخن وأكساس والعمق قد صارت كلها للعرب فأيقن بزوال ملكه، فدخل إلى رأس العين هو ومن يثق به، وصلوا في بيعة نسطوريا وهي الجامع اليوم.

فلما فرغوا من صلاتهم قال: يا معاشر الروم اعلموا أن العرب قد شاركونا في بلادنا، وقد صار لهم معاقل يجتمعون فيها وتقوم بأودهم، ويصل إليهم منها الميرة والعلوفة وتجيئهم منها الأموال والخابور، وفيها كلها حكمهم، وما بقي بيننا وبينهم إلا هذا المصف، فإن كان لنا فلا مقام للعرب بيننا وإن كان للعرب فالبلاد لهم من دوننا وقد رأيت رأيًا فيه السداد. فقالوا: وما هو؟ قال: أرى أن أماطلهم بالمصف ونكتب للملكين المعظمين شقر وزعفرة فلعلهما ينجدوننا بعسكرهما ونكاتب الملك «حرفتاس» بن فارس ونكاتب الملك «الأنطاق» صاحب نينوى وبلادها وإلى «الحبرا» ابن صاحب الهكارية. فإذا أرسلوا إلينا عسكرهم نستعين بالمسيح ونلقى المسلمين والله يعطي نصره لمن شاء، فقالوا: هذا رأي جيد فكتب الكتب وأرسل الرسل إلى الملوك المذكورة وعاد إلى عسكره.

قال الواقدي: وما منع عياض بن غنم عن حرب القوم إلا أنه رأى أن البلاد تفتح لأصحابه بدون قتال فلم يستعجل لأنه قوي ظهره بالبلاد التي فتحت، وأيضًا أنه كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح يطلب منه خبرًا يأتيه، قال ووصلت كتب الملك شهرياض إلى أصحاب الأقاليم فما منهم إلا من عين عسكرًا لنصرته. قال ووصل مكتوبه إلى صاحب أخلاط وكان له بنت ذات جمال فائق وكانت من الشجاعة على جانب عظيم، وكان اسمها «طاريون» وكان مستقرها بجبل سموه باسمها، وكان كل من خطبها لا ترضى به إلا أن تلقاه في الميدان فإن قهرها كانت له زوجة. قال وإنها غلبت جميع خطابها، وكان من جملة من خطبها غلام اسمه سوسى بن سلنطور صاحب جبل السناسنة، وكان قد قدم إلى أخلاط بهدية من أبيه إلى أبيها، فقالت هي: على شرط معروف فبارزته في الميدان فقهرته وجزَّت ناصيته!

ومرت الأيام والليالي، فلما بعث الملك شهرياض يستنجد الملوك وأرسل إلى صاحب أخلاط أرسل إليه أربعة آلاف فارس وأمَّر عليهم ابنته «طاريون»، وقال لها: أي بنية قد قدمتك على الجيش وأريد منك أن تظهري على العرب ما

كنت تظهرين به على الفرسان حتى تشكري عند أمة المسيح. قال وأرسل معها ملك السناسنة نجدة وهم ألف رجل وكان المقدم عليهم ولده «سوسي بن سلنطور» فسار في صحبتها وكان الغلام قد كمل شأنه وحسن كماله وابتدر هلاله ولم يكن أحد في زمانه يوصف بجماله، فلما نظرت «طاريون» إلى حسنه وجماله نظرته بعين المحبة فوقع قلبها في شبكة عشقه فسيرت رجالها مع رجاله.

قال الواقدي: وأحسن ما رأيت في هذه الفتوح أنه كان لهذه الجارية ابن عم اسمه «يرغون» وكان يحبها ولا يستطيع أن يسمع بذكرها، وكان من أهل الشجاعة والشدة، وكان تحت يده من المعاقل حيزان والمعدن وأبزون وقف وأنظر وأيدليس وآرزن، وأنه سار ينجد شهرياض في ثلاثة آلاف، فلما عبر جيش ابنة عمه «طاريون» بيدليس اهتم لها وأكرمها وأهدى لها الهدايا والتحف وسار معها إلى أن عبروا حصن كيفا وأخذوا طريقهم على الموزر، ونزلوا على حصن يعرف بالهتاج على طريق النهر، وكان لابن عمها عيون يطلعونه على أخبارها.

فلما نزلت على النهر أرسلت إلى الغلام «سوسى» الذي تحبه وهي تقول له: اعلم أن المحبة الصادقة لا تكون إلا بعد العداوة المفرطة وقد ندمت على ما فات وما كان مني إليك وقد رأيت أنك بعد رجوعنا من قتال العدو ترسل إلى أبي وتطلبني منه، ولكن أريد منك أن تصل إليَّ ليلًا وفي خفية من ابن عمي «يرغون» حتى تحلف لي أنك ترسل إلى أبي وتطلبني منه، وأحلف لك أني لا أريد سواك وبعثت له بهدايا مع بعض خدمها، وأرسلت معه شيئًا من الحلوى، وأرسلت مثل ذلك لابن عمها ولكل أمير صحبها حتى لا ينكر عليها. وإن ذلك الخادم قد علم بما جرى وكان هذا الخادم قد ربى ابن عمها على كتفه وكان يحبه محبة شديدة فأعلمه بما وقع من حديثها مع الغلام «سوسى » وهي تريد أن تجتمع به الليلة حتى تحلف له أنها ما تريد غيره. فكتم يرغون أمره.

فلما جنَّ الليل طلب عظماء جيشه، وقال لهم: اعلموا أني ما وليت عليكم إلا وقد علم المسيح أن عقلي أوفر من عقلكم! قالوا: أيها الصاحب أعلمنا بما تريد حتى نقبل قولك ونطيع أمرك. قال: يا قوم اعلموا أننا سائرون على غزة وعن قليل ترون الخيل تنوشنا والرماح تحوشنا، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لأن

العرب لا تنام ولا ترام، وقد عاد النصر إليهم، واعلموا أن الملك شهرياض ليس بأعظم همة ولا أكثر جنودًا من هرقل ولا من ملوك الأرض، وقد ملكت العرب دولتهم وأخذوا معاقلهم وأذلوا ملوكهم، وأنا أعلم أن شهرياض لا ثبات له مع العرب يوم المصف، وقد ملكت بلاده وهي: حران والرها وسروج والبيرت والخابور، وقد أخذوا ماردين وقلعة ماردين، وأخذوا أرسوس وابنته مارية، وكأنكم بالعرب قد ملكت ديار شهرياض وعادت إليكم وملكت دياركم، وسبت حريمكم!

واعلموا أن الحق مع العرب وأنهم إذا قالوا قولًا وفّوا به، ومن أسلم إليهم أمن على نفسه وأهله وماله، سواء رجع إلى دينهم أو أقام على دينه، واعلموا أن بقلبي النار من هذه الجارية «طاريون»، وقد أرسلت إليها لتكون لي أهلًا وأكون لها بعلًا، فأبت ذلك وهي تحب ابن ملك الغساسنة، فإن تزوجت به وصاروا يدًا واحدةً أخذوا معاقلنا وملكوا حصوننا ولا يكون لنا معهم مقام، وقد رأيت أنني في هذه الليلة أقبض عليها، ثم إنه أخبرهم بما حدثه به الخادم. قالوا: أيها الملك إذا أخذتها فأي أرض تؤويك وأي حصن يحميك. قال: نقصد

إلى عسكر العرب ونأخذ لنا منهم أمانًا. قالوا: إذا كنت عوَّلت على ذلك فاعزم. قال: فخذوا على أنفسكم وتأهبوا للرحيل ففعلوا.

قال الواقدي: فلما جنَّ الليل، تزيا «يرغون» ابن عمها بزي الغلام «سوسى»، وسار إلى سرادق الجارية، فلما رأته ظنت أنه «سوسى» فوثبت إليه قائمة وسلمت عليه وصقعت له، وكانت قد أبعدت الحرس عنها والغلمان والحجاب حتى لا يطَّلع أحد على سرها، قال ثم إنها تحققت أنه ابن عمها فاستحيت منه ووجلت، فلم يمكنها إلا أن تخدمه بأعظم خدمة. فقال لها: يا «طاريون» أظننت أنِّي لا أقف على سرك ولا أبحث عن أمرك؟! يا ويحك أي مناسبة بين الروم والأرمن، حتى أنك ملت إلى ابن ملك الغساسنة وتركت مثلي؟! ثم إنه مال عليها بشدته وقبض عليها وألقمها أكرة وكتفها وخرج بها إلى عسكره، فوجد أصحابه قد لبسوا وركبوا ورموا المضارب، وشالوا ثقلهم، فلما وصل إليهم حملها على بغل وساروا ونظر أصحاب «سوسى» إلى رحيل يرغون، فقال لهم: أمهلوا أنتم بالرحيل إلى أن يطلع الفجر، فإن هذا طريق ضيق

تزدحم فيه الخيل والبغال، قال ففعلوا ذلك وجدَّ يرغون في السير، فما أصبح إلا وهو على «مرج السور»، فنزل هناك.

وأما الغلام «سوسى» فإنه لم يمض إلى الجارية ولا سأل عنها ولا سار إليها، لأنه خاف أن يكون ذلك منها مكرًا به، فتقبض عليه، فلما أصبح أمر غلمانه بالرحيل وركب وأتى إلى سرادق الجارية «طاريون»، فوجد قومها ينتظرون خروجها من سرادقها، فدخل عليها خادمها وخرج وقال لهم: إن الملكة ما كان من أمرها ولا سبب لغيبتها. فماج أصحابه وأرادوا الرجوع، فقال لهم صاحبها: إن عدنا إلى الملك فلا نأمن أن يرمي رقابنا ويقول كيف غفلتم حتى أخذت ابنتي من بينكم، وما عندكم خبر وما أخذ الملكة إلا يرغون ابن عمها لأن في قلبه شيئًا، ثم إنهم ركبوا وجدوا في طلبه.

وإن «يرغون» لما نزل في «مرج السور» واستراح، وهم بالمسير إذ بالقوم قد أشرفوا عليه، وهم يزعقون: يا ويلك اترك الملكة من يدك، قبل حلول منيتك! فاستقبلهم هو ومن معه من بني عمه وأقاربه فعندها قال لبني عمه: اعلموا أن العرب ما نصروا على أعدائهم إلا بالصدق في دينهم وقتالهم عن دين الله،

واعلموا أن هؤلاء القوم الذين طلبناهم لا يبخلون لاسيما إذا علموا أننا قصدناهم وأردناهم من غير قهر، لكن من طريق العقل أن دينهم أفضل من ديننا لأنهم يشيرون إلى الله بالوحدانية، ونحن نسجد للصلبان والصور ونقول إنَّ للخالق زوجةً وولدًا وهو واحد أحد فرد صمد! وقد بلغني أنَّهم يقولون إنَّه من قتل منهم صار إلى الجنة، ومن قتل منَّا صار إلى النار لأننا عندهم من الكفار، فإن كنتم تريدون النصر على أعدائكم فأقروا لله بالوحدانية وقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله. فأعلنوا بكلمة التوحيد فدوَّت من أصواتهم الجبال والتلال والرمال والشجر والحجر!

فلما سمع أعداء الله ما نطقوا به علموا أنهم دخلوا في دين الإسلام، فتقدم سوسى وقد داروا بيرغون وأصحابه وقالوا له: يا ويلك يا يرغون أما كفاك أن تكون غادرًا حتى تكون بدين النصرانية كافرًا؟! أتظن أن برجوعك إلى دينهم ينصرونك علينا، وأين العرب وما يصل صائحك إليهم إلا ونحن فرغنا منك. وقتلناكم شر قتلة عن آخركم. فقولوا لمحمد ينصركم، ثم إنهم حملوا على يرغون ومن معه، فاستقبلوهم بنية صادقة، وهمم متوافقة، وأعلنوا بكلمة الحق،

والصلاة على سيد الخلق، وبذلوا صوارمهم في العدا وأوردوهم شراب الردى. ودارت بهم الأوغاد، وشرعوا نحوهم الصعاد، وأشرف يرغون وأصحابه على الهلاك، وإذا بباب السور قد فتح، وخرج منه مائة فارس كالليوث العوابس، وقد رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير، ونادوا: يا من تعلقوا بكلمة التوحيد أبشروا بالنصر والتأييد.

قال الواقدي: وكان هذا السور حصنًا من الحصون وكان قد سلمه «ميتا» لأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان قد أرسل عياض بن غنم عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق في مائة فارس ليأتوه بالميرة، وكان فيهم المقداد بن الأسود وضرار بن الأزور، وسعد بن غنيم الأسدي، ومثل هؤلاء السادات - رضي الله عنهم - أجمعين، فلما وصلوا إلى السور تلقاهم طالوت صاحب الحصن وأنزلهم وأكرمهم وأمر لهم بالطعام وأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى جاء يرغون، وكان من أمره ما كان، فلما سمعوهم يكبرون قالوا: هؤلاء قد دخلوا في ديننا، وقد وجب علينا نصرتهم فخرجوا كما ذكرنا وحملوا على

أعداء الله الذين انهزموا في الليل إلى مرج رغبان إلى الملك شهرياض فأخبروه بما جرى عليهم. فأيقن بذهاب ملكه.

فلما أصبح «يرغون» أتى إلى الصحابة وشكر الله إذ نجاه ومن معه على أيديهم، وقد ازدادوا إيمانًا وحدَّث الصحابة بما كان من أمرهم وسار معهم إلى عياض بن غنم، فلما جازوا على ماردين نزل إليهم «ميتا» وكان قد بلغه ما جرى فسلم عليهم وهنأهم بالسلامة وقال لـ «يرغون» وأصحابه: إن كنتم تريدون الثواب الجزيل من الملك الجليل فتمموا إسلامكم بما ألقيه عليكم. فقال «يرغون»: وكيف العمل؟ قال «ميتا»: انزل هاهنا أنت ومن معك فإذا غربت الشمس فسيروا على بركة الله وعونه واقصدوا كفر توتا. فإذا جئتم إليها ليلًا فقولوا لأهلها: نحن قد وجهنا الملك إليكم لحفظ المدينة، فإذا صرتم داخلها فثوروا على اسم الله وبركة نبيه. ففعل ذلك «يرغون» وجلس إلى أن جن الليل وارتحل بجيشه وثقله وودعوا الصحابة وساروا بالميرة وسار «يرغون» إلى أن وصل إلى كفر توتا، وكان آخر الليل والفجر بدر، فلما وصل إليها أمر أصحابه أن يرفعوا أصواتهم بذكر شعارهم حتى لا ينكر عليهم القوم وجاءت الأثقال

والبغال وسمع أهل كفر توتا ضجة العسكر فأشرفوا عليهم من أعلى السور وسألوهم من أنتم؟ قالوا: نحن من عسكر الملك شهرياض وقد بعثنا لنكون عونًا لكم.

قال الواقدي: وأعجب ما في هذه القصة أن الملك شهرياض قد بعث إليهم يعرفهم أني مرسل إليكم جيشًا مع الحاجب، فإذا وصلوا إليكم فافتحوا لهم الباب فإن العرب في آثارهم. فلما وصل إليهم يرغون ومن معه وقالوا لهم نحن من عسكر الملك فتحوا لهم ودخلوا، ولم يتكلم حتى أنه نزل في دار الإمارة. فلما استقر به الجلوس وثق من الأبواب وصعد إلى السور وقال لأهل البلد: استريحوا، لأن الملك قد وصاني بالحرس على البلد فقالوا: أيها السيد إن كتاب الملك قد جاءنا بغير ما قلته بأن لا يتولى حفظ البلد إلا الحاجب.

فلما سمع «يرغون» قولهم علم أن الملك يريد أن يرسل لهم جيشًا فقال لهم: انصرفوا إلى منازلكم وإياكم أن يظهر منكم أحد في الليل فإني إن وقعت بأحد منكم قتلته، قال فانصرفوا ولم يبق عنده سوى الوالي الذي كان من قبل توتا هو وغلمانه، فقبض عليهم يرغون وضرب رقابهم وتركهم في بعض الأبراج

المهجورة وقال لأصحابه: كونوا على حذر فإن شهرياض يريد أن يرسل جيشًا إلى هذه المدينة فإذا رأيتموهم قد وصلوا فانزلوا وافتحوا لهم درقة واحدة من الباب، وكلما دخل فارس فابعدوا به عن الباب وأنزلوه عن فرسه وخذوا عدته وكتفوه وألقوه في البرج.

فبينما هو يوصيهم إذ وصل الجيش وهم ألف فارس والمقدم عليهم صاحب الملك الكبير فصاحوا عليهم: افتحوا لجيش الملك فتبادرت أصحاب يرغون ففتحوا درقة الباب الواحدة وقالوا: لا نمكن أحد يدخل إلا واحدًا واحدًا مخافة من «يوقنًا» وأصحابه فإنا نخاف أن يدخلوا في جملتكم، فبقي كلما دخل فارس رجَّلوه بعد أن يبعدوا به عن الباب ويأخذوا سلاحه وجواده ويكتفوه إلى أن أدخلوا الألف والحاجب بعدهم، فلما اجتمعوا نادوا بأعلى أصواتهم الله أكبر الله أكبر فتح الله ونصر وجاءنا بالظفر. فارتج كفر توتا ووقع الرعب في قلوب أهلها وعلموا أنهم ملكوا بلدهم فلم يجسر أحد منهم أن يظهر في المدينة ومن ظهر قتل، فلما أصبح طلب «يرغون» أكابر البلد ومشايخها وبطارقتها، فلما حضروا قبض عليهم، وأنفذ إلى عياض بن غنم يعلمه بما

صنع، فلما وصلت إليه الرسالة سجد لله شكرًا، وكان عبد الرحمن بن أبي بكر وأصحابه لما وصلوا بالميرة أخبروا المسلمين والأمير بما وقع وأن «يرغون» مضى إلى كفر توتا فكان منتظرًا لما يأتي إليه من خبره، فلما جاء الخبر بالفتح حمد الله تعالى وتفاءل بالنصر.

قال الواقدي: قال عياض بن غنم للصحابة - رضي الله عنهم -: اركبوا ودونكم والقوم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأمر خالد بن الوليد - رضي الله عنه - أن يكون بأصحابه في الميمنة من القوم وأمر عمر بن سالم أن يكون على يسار القوم وقال لهم: لا تخرجوا حتى تشب نار الحرب وتشتعل بالطعن والضرب فاحملوا واعتمدوا على السيوف فإنها أقرب للحتوف وليكن شعاركم التهليل والتكبير. فسار أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نحو الجهات التي ذكرنا وزحف الموحدون ونشرت الرايات ووقع الصائح في عسكر الروم أن المسلمين قد زحفوا وأشرفوا. فتبادروا إلى القتال ورفعوا رايات الطغيان وتلت عليهم الإنجيل القساوسة والرهبان، فلما نظر المسلمون إلى كثرة من اجتمع من قومهم استسلموا لحكم القضا وقالوا: نرضى بما قدر

وقضى! ولم يزالوا في قتال الكفار إلى أن مضى النهار وأقبل الليل بالأستار، فلما مضى الليل بغياهبه، وأقبل الصباح بجانبه بادروا إلى الحرب والطعن والضرب ولم يمهل بعضهم بعضًا دون أن وقعت الحملة على المسلمين فانهزم الجناح الأيمن، وكان فيه أخلاط العرب. وانهزمت ميسرة العدو ووقع فيهم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يزل القتال فيهم إلى أن غلبهم الليل فانفصلوا.

فلما كان اليوم الثالث تولى الحرب خالد بن الوليد - رضي الله عنه - ورتَّب الناس ترتيبًا جيدًا وجعل في الميمنة باهلة وطبا، وجعل في الميسرة عديًا ونميرًا وفزارة، وفي الجناحين كندة وعاملة ومُرّة، وفي القلب أبطال الأنصار من ذوي الشدة والانتصار وجعل راية الميمنة بيد عامر بن سراقة، وراية الميسرة بيد ضرار بن الأزور وراية الجناح الأيمن بيد عبد الرحمن الأشتر، وراية القلب بيد عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، فلما رتبهم قال لهم: اتقوا الله الذي إليه مصيركم، واعلموا أنه متكفل بتأييدكم ونصركم، وإياكم أن يؤتي المسلمون من قبلكم واتبعوا سنن الذين فتحوا الشام من قبلكم، واثبتوا في هذا الموطن كما

ثبتم في المواطن الكبار وإياكم والفشل فتذهب ريحكم، وها أنا أنفرد بجماعة من إخوانكم إلى صليب القوم ولست براجع إلا بحطم من حوله من الكفرة والمشركين. قال - جل جلاله -: «وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ». فلما وعظهم خالد رتب كل صاحب راية في موضعه، وانتخب من انتخب من أبطال المسلمين وقال للناس: إذا رأيتم الصليب قد وقع فاحملوا والله ينصركم وحمل هو ومن معه وقصدوا لواء شهرياض الأعظم فما ردهم عن حملتهم كثرة العساكر.

قال الواقدي: ولقد بلغني ممن أثق به أنهم لما حملوا طحطحوا العساكر وزعزعوا الدساكر وأزالوا الأبطال عن مراكزها والبطارقة عن مراتبها، وما اعتمدوا إلا على السيوف واستقبلوا بها الصفوف، فلما رأى شهرياض فعل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رمى التاج عن رأسه وزعق بالبطارقة والأراجية والقياصرة وقال: يا معشر الروم من بني الأصفر اعلموا أنه ما بين ذهاب دولتكم إلا هذا اليوم فإما أن تقاتلوا عن دينكم وحريمكم وملككم

وذراريكم وأولادكم وإلا أخذت منكم، فإياكم أن تولوا الأدبار فمن تولى غضب عليه المسيح وأدخله النار.

قال الراوي: وبلغني أنه في ذلك اليوم وصل إليهم بتركهم الكبير المشار إليه في دينهم ومعه كل قس وشماس وراهب بأرض الجزيرة جاء ليحرض الروم على القتال، وكان هذا البترك اسمه «دين الديروم»، وكان يسكن بدير يقال له «دير قرقوت» وأنهم وصلوا قبل أن يحمل المسلمون فوعظهم بين الصفوف وقال: من انهزم منكم حرمته فلا يقبله المسيح أبدًا، ثم انفصل من القوم هو ومن معه، وعلوا على رابية تشرف على القوم ورفعوا الصلبان وفتحوا الأناجيل وأشركوا بالملك الجليل.

حدثنا بشر بن عامر وكان ممن حضر وقعه مرج رغبان وكانت الواقعة يوم الثلاثاء ٣ صفر سنة ١٧ وكان شهرياض قد أرسل إلى رأس العين وسائر بلاده فأتوا بحريمه وحريم سائر الأجناد والبطارقة وأولادهم وأقامهن يوم المصف على أبواب الخيام وقال لهن: ما من امرأة إلا ترفع ولدها وتصيح باسم بعلها وأخيها، إنما فعل ذلك ليثبتوا في القتال فأوقعوا الصياح من كل جانب وعملت

القواضب، وثبت الروم ثباتًا عظيمًا لأجل حريمهم وأولادهم ولأجل البترك، ووقف في مقابلتهم رجال من اليمن يرمونهم بالنبل، وأما خالد بن الوليد فلما حمل بأصحابه وهو يريد صليب القوم سمع عياض بن غنم وهو يقول هذه الأبيات:

سنحمل في جمع اللئام الكواذب ... ونفري رؤوسًا منهم بالقواضب
ونهزم جيش الكفر منّا بهمّة ... تطول على أعلى الجبال الراسب
وننصر دين الله في كل مشهد ... بفتيان صدق من كرام الأعارب
فيا معشر الأصحاب جدّوا وجندلوا ... وكرّوا على خيل كرام المناصب
فدونكم قصد الصليب وبادروا ... لنرضي إله الخلق معطي المواهب

ثم قصدوا الصليب وكان اللعين شهرياض لما صف الصفوف أقام حول الصليب الأعظم اثني عشر ألف فارس كلهم لبس الزرد، وترك أمامهم حسكًا من حديد حتى لا يصل إليهم أحد، فلما حمل خالد وأصحابه وقربوا من الصليب داست خيولهم على ذلك الحسك فانكبت على وجوهها فوقعوا عن ظهورها فانكبت عليهم الروم بغيظهم وحنقهم فأخذوهم عن آخرهم بالأكف، لأنهم وقعوا عن ظهور خيولهم من الحسك وارتفعت العطاعط من كل جانب

وعملت المرهفات القواضب. فلما نظر الأمير عياض بن غنم ما نزل بخالد ومن معه صعب عليه واشتد لديه، وقال في نفسه: يا ابن غنم ما يكون عذرك بين يدي الله وقد مضت هذه السادة تحت رايتك! فصاح بأعلى صوته: يا معاشر المسلمين احملوا ولا تمهلوا أيقظوا هممكم وعجلوا واستخلصوا السادة من الأسر واطلبوا من الله النصر.

فلما صاح عياض أوقفوا خالدًا ومن معه أمام الصفوف فتأسف ابن وضاح.... بن النابغة الذبياني وكان من أفصح الناس لسانًا، وأجرأهم جنانًا وأحدهم لسانًا، وأعلمهم بيانًا وكان حليفًا لخالد بن الوليد - رضي الله عنه -، فبرز يومه بمرج رغبان وقال: أيها الناس إن الصبر والثبات جندان لا يغلبان، وهذا يوم يا له من يوم وما ترون من نخواتكم ومروءتكم ودينكم أن تدعوا أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في يد العدا فاستنقذوهم من الردى، واتقوا الله الذي إليه مصيركم، واعلموا أن ترك الأشياء النفيسة لا يليق إلا بالنفس الخسيسة، أما تحققتم أن الدنيا تؤول إلى الزوال والفناء، والآخرة هي دار النعيم والبقاء؟!

فعندها حملوا بأسرار صافية وهمم وافية، وطعنوا في صدور الرجال، ورفرفت على رؤوسهم طيور الآجال ووضعوا السيف في الروم وجعلوه عليهم يومًا مشؤومًا. ولم يزل القتال بينهم بقية يومهم إلى الليل وانفصلوا عن القتال، ورجع المسلمون وهم متأسفون على أسر خالد ومن معه، فإنهم لما وقعوا في الأسر وانفصل الناس من القتال وجنَّ الليل أرسلهم الملك شهرياض إلى رأس العين مع حاجبه نقيطا بن عبدوس ومعه ألف فارس وأمره أن يسير بهم في الليل ويجد بهم في السير، وأن يسلمهم إلى والي رأس العين. فسار بهم ولم يطلع الفجر إلا وقد وصل بهم إلى رأس العين وأرسل من يعلم الوالي بالقصة، فخرج في موكبه للقائهم ووضع الصايح في رأس العين بقدومهم فما تخلف أحد وكان لهم يوم مشهود فألقاهم الوالي في الكنيسة العظمى التي هي جامع اليوم وأوثقوهم في الحديد!

عن خزيمة بن عازم عن جده عبد الله بن عامر قال: إنه لما فتح الرها وحران وسروج صلحًا اجتمع «يوقنًّا» بـ «رودس» ومعه أصحابه. فقال: اعلموا أن الله - سبحانه وتعالى - قد فتح علينا هذه البلاد، وأن رأس العين مدينة عظيمة

وأهلها قد استعدوا للقتال وآلة الحصار، وربما صعب أمرها وعسر فتحها على المسلمين، وإني معول أن أهب نفسي لله وأسير مع أصحابي فلعلي أن أحصل في داخل المدينة، ولعل الله أن يفتحها على يدي. فقال له سعيد بن زيد: قوى الله وسدد أمرك. قال وعول على المسير في تلك الليلة وإذا بعيون المسلمين قد أقبلت إلى حران يخبرون أنه قد أتى عاصم بن رواحة المتنصر في خمسمائة فارس من قومه من إياد الشمطاء.

وكان قد وصل مع قومه إلى قسطنطينية وقد ورد على الملك هرقل كتاب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بأن يبعدهم عن دياره فأبعدهم عن أرضه فتفرقوا في كل موضع وأتى منهم عاصم بن رواحة إلى هذا الملك شهرياض في خمسمائة فارس وكان الملك يحبه، ولما وصل إلى البرية كتب إلى الملك يعرفه أنه خرج من بلاد القسطنطينية وأتى قاصدًا إلى بلاده وخدمته. وبعث الكتاب مع رجل من بني عمه اسمه رفاعة بن ماجد فوصل إلى الملك وأعطاه الكتاب ففرح الملك بقدومه وأمره أن يعجل في الحضور وأرسل إلى والي رأس العين بأن يخلي له دارًا ينزل فيها إذا قدم مع أصحابه، فلما سمع «يوقنَّا» ذلك

الخبر بان من عيونه فرح وقال: من أي طريق يأتون؟ قال: من طريق سروج وبقي بينكم وبينه ليلة واحدة.

فخرج «يوقنَّا» ومن معه وصحبهم عمرو بن معد يكرب وسعيد بن زيد ومن معهم وكمنوا لهم في موضع قد علموا أنهم لابد لهم من العبور فيه، فلما ضرب الليل سرادقات ظلامه ونصب على الخافقين أعلامه إذ أقبلت خيول القوم وسمعوا حسهم، فصبروا حتى توسطوهم من كل جانب، وقصد كل واحد واحدا فأخذوهم عن بكرة أبيهم ولم ينفلت منهم أحد، واحتووا على أثقالهم ورحالهم ورجعوا إلى مكمنهم ونزلوا عن خيولهم. فقال لهم سعيد: من أميركم حتى أخاطبه؟ فأشاروا إلى عاصم بن رواحة. فقال له سعيد بن زيد: يا ابن رواحة أي مناسبة بينكم وبين الروم حتى لذت بهم وملت إلى جانبهم وتركت العرب العرباء؟! فأنت منا وإلينا وحسبك حسبنا ونسبك نسبنا. لأن أنمارًا وإيادًا وربيعة ومضر كلها ترجع إلى نزار بن معد بن عدنان، وأن الله تعالى قد اختارهم لسكنى حرمه وجوار بيته وقد كنا نعبد الأصنام ونستقسم بالأزلام ونتبع طرق الحرام حتى بعث الله نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - وأنزل

عليه «وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»، وأمره بالمقام في دار الخيزران، ثم دعاهم إلى عبادة الملك الديان وقال لهم: أنتم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل وقد فضلكم بارئ النسيم بسكناكم البلد الحرام والبيت المعظم وزمزم والمقام فما لي أراكم على الأصنام عاكفين وبالأزلام حالفين وفي ثياب الكفر رافلين، أما لكم عقول تردكم؟!

أَمَا علمت يا ابن رواحة أن ديننا هو الحق وقولنا هو الصدق وما بعث الله نبيًا إلا وأمر أمته باتباع دين الإسلام؟ قال الله تعالى في القرآن: «مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»، وقال تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا»، وقال تعالى: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ»، وأنت تعلم الآن أنكم في قبضتنا وأسرنا، فإن آمنتم بالله وصدَّقتم برسالة نبيه - صلى الله عليه وسلم - كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا وإن أبيتم ضربنا أعناقكم.

فلما سمع عاصم بن رواحة ذلك من كلام سعيد بن زيد قال: وإن نحن رجعنا إلى قولكم واتبعنا دينكم يغفر لنا ربنا ما سلف من الإشراك في ربوبيته والسجود لغيره؟! قال سعيد: نعم، لأن الإسلام يهدم ما كان قبله وجميع ما كنتم فيه لا يطالبكم الله به وتخرجون من الذنوب كما خرجتم من بطون أمهاتكم إلى الدنيا، ثم تلا قوله تعالى: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»، فلما سمع عاصم كلام سعيد قال: أنا أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فلما نظر أصحاب عاصم إليه وقد أسلم أسلموا عن آخرهم، ففرح المسلمون بذلك وقالوا قد وجب علينا أن نطيب قلوب هؤلاء القوم ثم ساروا إلى حران وأنزلوهم وخلعوا عليهم.

فقال «يوقنَّا»: الآن فتحنا رأس العين ورب الكعبة! فقال سعيد: فكيف ذلك يا عبد الله؟ قال: سوف أريك بيان ذلك، ثم إنه قال لعاصم بن رواحة في السر بينه وبينه: أريد منك أن تشدني كتافًا أنا وأربعين من أصحابي وتجعلنا على ظهور الجمال التي تحمل أثقالكم وتركب مع هؤلاء الأربعين من أصحاب

رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتسيروا من ليلتكم هذه إلى رأس العين وتقولوا لواليها لما عبرنا الفرات خرج هؤلاء علينا فنصرنا المسيح عليهم فقتلنا من قتلنا وأسرنا هؤلاء وأتينا بهم إليكم وإياك أن تمكنه أن يقتل واحدًا منا، وإذا أراد ذلك تقول له إن المصف بين يدي الملك وبين العرب ولا ندري من يؤخذ من أصحابنا فيكون عندنا الفداء، وتترك أصحابك في حران.

قال عاصم: ولم لا نسير بأجمعنا وبأصحابي كلهم؟ فقال «يوقنًا»: إن الإسلام لم يتمكن بعد من قلوب القوم ونخاف أن أحدًا منهم يغمز علينا فيفسد حالنا، والثقة بكل أحد عجز. فقال: والله لقد صدقت في قولك فنزل ببني عمه الخمسمائة في حران، وإنما قال «يوقنًا» ذلك ودبره ليكونوا على سبيل الرهائن. فكتَّفوا «يوقنًا» والأربعين من بنى عمه وتزيا الصحابة بزي إياد الشمطاء، وخرجوا من حران في الليل وطلبوا رأس العين، فلما وصلوا إلى مكان يعرف بعلوا إذا بقرع حوافر الخيل فأخذوا أمرهم حتى وصلوا إليهم، وإذا هم بأربعمائة وخمسين عبد أسود وهم يقرؤون القرآن وبعضهم يسبح فاستقبلهم سعيد بن زيد ومن معه وكبروا مثل تكبيرهم وقربوا منهم فإذا هم موالي

أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمقدم عليهم دامس أبو الهول رحمه الله تعالى. وكان السبب في قدومهم أنه لما بعث عياض بن غنم كتابًا إلى أبي عبيدة يستنجده على القوم ويعلمه بمن قد اجتمع من الكفار بمرج رغبان أرسل دامسًا ومن معه لنصرة الإسلام، وكانوا بسميساط وبلادها، ومنذ فتحوها استمروا بها حتى جاءهم كتاب أبي عبيدة: فترك دامس على سميساط وبلادها من يثق به، وجاء في العدة التي ذكرناها، فلما لقيهم سعيد بن زيد سلم بعضهم على بعض وفرحوا باجتماع الشمل، ونظر دامس إلى الجمال وعليها «يوقنًّا» وأصحابه. فقال: أظفرتم بهؤلاء في طريقكم؟ فقال سعيد: هذا «يوقنًّا» عبد الله وأصحابه قد باعوا نفوسهم لله. فلما سمع أبو الهول كلام سعيد سجد لله على قربوس فرسه وأتى إلى عبد الله «يوقنًّا» وسلم عليه. فقال له: مرحبًا بقوم طلقوا الدنيا بتاتًا وزهدًا، وطلبوا مرضاة الله. ثم إنه قال لسعيد بن زيد: يا صاحب رسول الله أشركونا معكم في هذه الحيلة. قال: نعم، ولكن اسحبوا هذه الجمال وأخفوا الدروع والعدد واحتزموا فوقها وسوقوا الجمال أمامكم كأنكم عبيدنا فإنه لا ينكر عليكم من رآكم.

ففعلوا كما أمرهم سعيد وأخفوا سلاحهم في وسط الجمال وأقبلوا على سوقها، فلما وصلوا إلى الزليخة نزلوا هناك ولبسوا وتدرعوا ونشرت الأعلام والصلبان التي كانت مع إياد الشمطاء، وداروا بـ «يوقنَّا» وأصحابه وجعلوهم بينهم وساروا حتى قربوا من رأس العين فبعث سعيد رجلًا من حلفائهم إلى والي رأس العين يبشره بقدوم عاصم بن رواحة وإياد الشمطاء. فلما وصل إليه الرسول خرج بالمواكب إلى لقائهم، وقد أعلمه الرسول بقدوم «يوقنَّا» أسيرًا ومعه أربعون من أصحابه، فصاح الصائح بذلك، فما بقي أحد إلا وخرج أمام الوالي والتقوا بالصحابة، وهم بزي أصحاب إياد الشمطاء، وقد داروا بعاصم بن رواحة وكان الوالي يحبه ويعرفه فترجل إليه وترجل عاصم وتعانقا، وأقبلت المواكب يسلم بعضها على بعض.

فقال الوالي: كيف أخذت هؤلاء وهذا المارق -يعني يوقنَّا-؟ فقال له: إنا لما وصلنا إلى الفرات وعدينا خرج علينا برجاله فقاتلناه وقاتلنا فنصرنا المسيح عليهم بعد ما قتلنا منهم خمسين رجلًا وأخذنا هؤلاء وانهزم الباقي. ففرح الوالي وأقبل على «يوقنَّا» يوبخه بكلام وهو لا يرد عليه والروم تشتمه وتسبه

وهو لا ينظر إليهم ولا يكلمهم إلى أن دخلوا رأس العين وأمرهم أن يجعلوهم عند الأسارى في بيعة نسطوريا، وقال لهم: احتفظوا بهم حتى نكاتب الملك ويرى فيهم رأيه. فجعلوهم عند خالد وأصحابه. ثم إن عاصمًا قال للوالي: أنت تعلم ما بيننا وبين هؤلاء القوم من العداوة وإن كانوا عربًا مثلنا، ونخاف أنك تجعل على حفظهم أحدًا من الروم أو من الأرمن، وأن يتحدثوا معهم بإطلاقهم وتدخل المضرة على الملك وعليكم، والصواب أن نجعل بعضنا في البيعة وبعضنا خارجًا فإنه من أتى إلى الجهاد لا يركن إلى الراحة، ومن تعب في الدنيا قليلًا استراح في الآخرة طويلًا. فاستصوب الوالي رأيه وأنزله في البيعة هو وأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأضاف «يوقنَّا» إلى خالد. فحصل ستمائة فارس من المسلمين.

قال الراوي: فلما استقروا في البيعة وجنَّ الليل قام سعيد بن زيد إلى خالد وسلم عليه وبشره بالفرج. فقال: يا ابن زيد لقد علمت بذلك منذ قيل إن «يوقنَّا» قد أُتِيَ به ومعه أربعون فنظرت بنور الإيمان فعلمت صحة ذلك. وإن الوالي بعث إلى الملك يبشره بأخذ «يوقنَّا» ومعه أربعون من أصحابه وقدوم عاصم

بن رواحة ومعه خمسمائة من أصحابه، فلما بلغه الخبر أمر بالبوقات فضربت فسمع المسلمون بذلك، فقالوا: ما ضربت البوقات إلا لأمر مهم! إذ أقبل عباد بن بشير وهو متنكر وأتى إلى عياض بن غنم، فلما رآه قام إليه وسلم عليه وقال: يا ابن بشير بم تبشرني أقر الله عينيك؟ فلم يرد عليه شيئًا حتى خلا به وحدثه بجميع ما جرى. فلما سمع عياض بشارة عباد بن بشير سجد شكرًا لله. فقال عباد: أيها الأمير إن سعيد بن زيد ومن معه يسلمون عليك وعلى من معك ويقول لك أنجز المصف فلعل أن يفتح على يديك فما بينك وبين فتح رأس العين إلا أن تهزم القوم وقد فتحت. فقال عياض: توكلنا على الله... فلما جن الليل جمع أصحاب الرايات وحدثهم، وقال لهم: لا تعلموا أحد مخافة من جواسيس الروم ولا يصبح الصباح إلا وأنتم على أهبة الحرب! فما أصبح الصباح إلا والمسلمون قد أخذوا أهبة الحرب، فلما طلعت الشمس وانبسطت على الأرض علت على الخيل ركابها وحملت بأصحابها، وشنت من الحرب نارها وطار شرارها.

والتقى عبد الله بن عياض وعبد الله بن قرط بالملك شهرياض وقد عوَّل على الهرب وكل من في جيشه قد اشتغل بنفسه عن نصرته وليس عنده سوى عشرة من غلمانه فأطبق عليه عبد الله بن قرط وعبد الله بن عياض. ولم أدر أيهما كان أسبق بالطعنة فطعنه في صدره فأخرج السنان من ظهره! فلما نظر غلمانه إلى ملكهم مجندلًا ولَّوا على أدبارهم، ونزل عبد الله فاحتزَّ رأسه وجعله على رمحه وركب وصاح: ألا وإن الملك قد قتلته فمن كان منكم يثبت للحرب فليثبت! وصال المسلمون على أعداء الله ووضعوا فيهم السيوف؛ فقتل من قتل، وانهزم الباقون بعدما أسروا منهم من أسروه، وقد تركوا الأثقال على حالها والأموال والسرادقات فاحتوى عليها المسلمون.

قال جديد بن ناشب الضميري: كنت مولعًا إذا سكنت الحرب بعدِّ من قتل من الروم فأخذت مخلاة على عاتقي، وملأت حجري حصى، فكنت لا أمر بمقتول إلا وطرحت عليه حصاة، ثم عددت الحصى، فإذا هي ثمانون ألفًا وسبعمائة وخمسون، وأما الأسرى فلا يحصيهم عدد، فلما وضعت الحرب

أوزارها أمر عياض بالأثقال والأسرى إلى كفر توتا، وبعثها مع الصلت بن مازن ومعه ألف فارس، وأمره أن لا يبرح منها، حتى تفتح رأس العين.

ثم ارتحل عياض في أثر الوقعة إلى رأس عين ورأس وردة، وكان قد وصل المنهزمون إليها وهم بأسوأ حال، ووقع الصائح بجوانب المدينة بهزيمة الجيش، وقتل الملك شهرياض فعظم عليهم، وكبر لديهم، واستوثق الوالي «مرسيوس» من المدينة والأسوار وعوَّل على أنه في غداة غد يضرب رقاب المأسورين، وكان من عادة الروم إذا قتل منهم ملك يقتلون عليه مائة أسير من أعدائهم، فلما كان الغد ركب عدو الله «مرسيوس» إلى وسط المدينة وأمر أن يؤتى بالأسرى وهم خالد ومن معه ليضرب رقابهم فأرادوا أن يأتوا بهم وإذا بعياض قد صبحهم صباحًا فأشغلهم عن ذلك، ونزل على باب «أسطاحون» وهو الباب الشرقي، وكان قد ضرب على الباب المذكور قبة من الديباج برسم عدو الله «مرسيوس»، وإلى جانب القبة منجنيق عظيم يتعلق في حباله مائة رجل، وكان صاحبه ابن عم الملك، وكان اسمه «مترقي بن أشفكياص»، وكان أبوه هو الملك قبل شهرياض، وهو صاحب الدنانير الأشفكياصية.

وإنَّما تقدم عياض بالمسلمين للقتال، حتى يشغل أعداء الله عن خالد ومن معه بالمدينة، فصاروا يرمون بمجانيقهم وسهامهم، وكان قد وصل مع عياض غلام من أهل المدينة اسمه جميل بن سعد الداري، وكان أرمى خلق الله بالنبل، وكان قد شاع ذكره بين العرب، وأنه كان ينظر إلى الطائر في الجو فيقول: إنني قد عوَّلت أن أضرب هذا الطائر في موضع كذا، فيضربه فيقع الطائر والضربة في المكان الذي ذكره، فلما كان يوم قتال عين وردة تقدم وجعل يضرب البطارقة في أعلى السور، فلا يقع سهمه إلا في فؤاد أو في حدقة، حتى قتل ثلاثين بطريقًا، منهم من وقع إلى المدينة ومنهم من وقع إلى الخندق.

وكان عدو الله مترقي المتقدم ذكره أرمى خلق الله، فجعل يعبي ويرمي. فقال الناس لجميل بن سعد: أيها الغلام ابعد لئلا يصل إليك حجر المنجنيق فإنَّا نخاف عليك منه! فقال: يا قوم «أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ»، ولابد أن أثبت لهم، ثم إنه رمى رجلًا من الذين يجرُّون الحبال فقتله، وثانيًا وثالثًا فقتلهما، فهربت البطارقة عن الحبال، وقالوا: لا طاقة لنا بالوقوف في هذا المكان من هذا الغلام. فقال مرسيوس: البسوا الدروع

واستتروا، ففعلوا وقعدوا في الحبال، ورمى «مترقي» بحجر فوقع في رجل من بجيلة فقتله، ولم يزل حتى قتل ستة رجال!

وكان جميل بن سعد يرمي فلا تخطئ نباله وهو يقول: واشوقاه إلى الشهادة وأن أصل إلى دار العلم والشهادة، فبينما هو كذلك إذ عبر عليه عدو الله ورماه، وكذلك جميل قصده بنبلة فوقعت في صدره ومرت من ظهره ونظر جميل إلى الحجر وقد قصده، فعلم أنه ميت. وعلم عياض بقصته فبكى، وأمر به فدفن بعدما صلى عليه، وبلغ خبره إلى أمه فصبرت صبر الكرام وقالت: «يا بني عشت سعيدًا ومت شهيدًا وسلكت سبيل آبائك فرحمك الله وآنس غربتك ونفعني بك يوم القيامة!» ثم قرأت «الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ».

حدثنا معمر بن الجون النهائي، وكان ممن حضر مع جده سراقة فتح رأس العين قال: لما قتل ابن سعد فرحت الروم، وإن عدو الله «مرسيوس» صاحب الأمر بعد «شهرياض» لما رأى أن المسلمين معولون على حصاره مضى في الليل إلى بيعة «نسطوريا» وصلى بها وقرب القربان، وكان من بغضه للمسلمين

قد صور على باب البيعة صورة رجل من العرب وكتب عليه هذا نبي العرب، فكل من دخل البيعة يبصق عليه، وكان في داخل البيعة صورة القيامة والميزان والصراط والجنة والنار وصور عيسى وبيده الصليب وأمه تحت لوائه على باب الجنة. فلما صلى قال لعاصم بن رواحة: لقد أردت الليلة أن أقرب عشرة من هؤلاء العرب الأسرى في بيت المذبح. فقال له عاصم: ليس هذا برأي أيها الملك حتى ترى ما يكون من أمر العرب وهذا بين يديك. قال فسكت وخرج، وإن عاصمًا لم يترك في البيعة أحدًا من الروم واستوثق من أبواب البيعة، ودخلت الصحابة إلى بيت المذبح، فوجدوا فيه سلاحًا كثيرًا مما كان يجتمع من النذور، فأخذوه وعولوا على أنهم في صبيحة غد إذا اشتغل أهل المدينة بالقتال يورثون فيها.

ولما دخل الليل قاموا يذكرون الله وينظرون إلى تلك الصور المصورة وصفة القيامة والصراط والجنة والنار. فقال عاصم بن رواحة لسعيد بن زيد: الهرب إلى دين رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يزيد في الإيمان. قال: نعم. فلما كان وقت السحر، وثبت الصحابة على أقدام الحزم والعزم، وخرجوا على

أهل المدينة، فاستعانوا بالله وقالوا: اللهم انصرنا كنصر نبيك يوم الأحزاب، وقال خالد: إياكم أن تفترقوا فتذهب ريحكم واتقوا الله الذي إليه مصيركم، واعلموا أن الأعداء يجتمعون عليكم والنساء يرجمنكم، والشباب يقاتلونكم وإياكم أن تطمعوا أحدًا في دار الحرب، بل اصبروا على مر الكرب والضرب، والصبر عاقبته النصر، واعلموا أن هذه البيعة هي بيعتهم المعظمة، ولابد لهم من القدوم إلى الصلاة، فإذا حصل واليهم هاهنا ومقدم عساكرهم أطبقنا عليهم من كل جانب، وقصدناهم بالقواضب، فإنه إذا قتلت الملوك وعظماء البطارقة فما يجسر بعدهم أحد أن يرفع يده، وأما العوام فلا اعتبار بهم. فقال عاصم بن رواحة: لله درك أيها الأمير ما أخبرك بالأمور والحرب! ولقد تكلمت بالصواب وأحسنت في الخطاب، فليقر كل واحد منكم في مكانه وأخفوا سلاحكم في أعبابكم، فإذا اشتغل القوم في صلاتهم ثرنا عليهم ومددنا أيدينا إليهم، فاستصوبوا رأيه.. وكانت الصحابة في بيت كبير في البيعة كان برسم النذور وفيه شيء من الأمتعة لا يثمن لكثرته.

قال الواقدي: كان من قضاء الله السابق في خلقه، أنه كان للوالي أخ عاقل لبيب له رأي وتدبير، وكان يعرف من الحكمة التي وصاه بها فهرايس أحد حكماء اليونانيين، وقد عرف من علم الملاحم، وكان صاحب سر «شهرياض»، فما كان يفعل شيئًا إلا بمشورته وكان قد نهاه عن قتال العرب وقال له: ما أرى لك في قتالهم خيرًا والأمر عليك لا لك! فلما كان من الملك ما كان، وقتل جيشه، ورجع الأمر إلى مرسيوس، قال له أخوه الحكيم، وكان اسمه «أسالوس» -معناه حكيم زمانه-: اعلم يا أخي أنه ليس ينبغي للعاقل اللبيب الفاضل الأديب أن يرمي نفسه في غير مراميها ولا ينقاد بزمام شهوة النفس، فإنه من أطاع نفسه هوى في مهاوي الذل ونسب إلى الجهل. واعلم أن من جملة ما ذكر لنا عن عيسى ابن مريم - عليه السلام - أنه قال: «عجبت لغافل ليس بمغفول عنه، ومؤمل إتمام الشيء والموت يطلبه»! وإنَّما ضربت لك هذه الأمثال لتتعظ بها وبما نزل بالملك شهرياض، كان بالأمس على السماط واليوم نزل على الصراط! بالأمس كان في سلطانه وملكه يباهي، واليوم صار في الحفر واهي! ما أفاده الغنى أذهبه الفنا، وذهب الفرح بالترح، ما نفعه الجيش وكثرته، ولا الخزائن وعدته؛ أصبح والله ذليلًا، وبعد الكثرة قليلًا! وأنت تريد أن تسلك

مسلكه، وتتبع سبيل ما أهلكه، فما أحد ينفعك ولا عمل يتبعك، اتق الله في نفسك وفي أهل ملتك وبلدتك واعقد لك مع هؤلاء العرب صلحًا، واقبل ما قلت لك نصحًا، واحقن الدماء وارحم النساء والإماء وأسلم تسلم، وهؤلاء القوم ما قالوا قولًا إلا وفوا به، ما هم ممَّن يطلبون الملك فينازعون عليه ولا يميلون إليه، بل طلبهم الآخرة وما عند الله!

وبالأمس وفوا لرودس صاحب حران، ورجع عن دينه ودخل في دينهم وكذلك الملكة مارية بنت أرسوس، وقد دخل في دينهم جبابرة الروم مثل «يوقنَّا» و«يرغون» و«عمودا» و«ميتا» الذي هو أعلم منَّا بديننا وقد ملكوا الأرض في الطول والعرض، وإنما يحاصر عن نفسه من له ميرة وعدد وجيش وسلاح وعدد يقدر على محاصرة البلد، وهذا بلد عظيم وما فيه ما يقوم بأهله سنة أو أقل فإن لم تسلم أنت سلم أهله وسلموك إليهم برقبتك، وهذه حران لهم وكفر توتا والرها وسروج وسجستان وماردين والصور والخابور وما عدا الفرات إلى الشام إلى أرض مصر، وجيوشهم قد طبقت العراق وملأت الآفاق، وقد بلغني أن الملك كسرى قد عاد إلى المحاق! فابعث إلى أمير هؤلاء العرب

واطلب منه الصلح فإنه يعطيك وتربح نفسك ومالك وأهلك وولدك! وعش في ظل القوم إن شئت على دينهم وإن شئت على دينك فإنهم لا يغصبونك. فلما سمع «مرسيوس» كلام أخيه الحكيم «أرسالوس» غضب عليه وضربه بمقرعة كانت في يده وقال: أنت ما خلقك المسيح إلا ذليلًا، وكيف تأمرني أن أسلم ملكي للعرب، وتعرضني للعطب؟! اخرج يا ويلك عني، فإن وقعت عيني عليك بعدها قتلتك. فخرج من عنده وهو غضبان!

وأما اللعين «مرسيوس» فإنه أمر أرباب دولته أن يجتمعوا في كنيسة بيعة «نسطوريا» حتى يحلِّفهم فمضى شاويشه فجمعهم وجمع مشايخ البلد وكبراءها وأحضر القسوس والرهبان والشمامسة وبترك دير مقرب حتى يستحلف أهل المدينة. فلما حصلوا في البيعة أغلقوا أبوابها حتى لا يدخل إليهم أحد من العوام. فلما حصلوا كلهم جلس الملك والبترك وشرعوا يحلفونهم وهم آمنون مطمئنون إذ خرج عليهم أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بكل سيف مسلول وعزم غير محلول وصاحوا بالتهليل والتكبير، ووضعوا فيهم السيوف، وعجلوا بهم الحتوف، وقتلوا البطارقة بالنية الصادقة فماتوا عن

آخرهم، فلما رأت الروم ما نزل بهم ضجوا وبأصواتهم عجوا، فقال خالد: أولياء الله جوِّدوا الضرب في أعداء الله وأهريقوا دماء من أشرك بالله! فقتلت الطرامخة وذوو الحشمة الشامخة، فلما بلغ الخبر العوام انهزموا عن الأسوار لما حل بقومهم البوار ودهمتهم الأقدار فذهب دامس إلى الأبواب ففتحها فدخل المسلمون بالتهليل والتكبير ولم يزل القتل يعمل في رأس العين وقد وردوا موارد الحين وناح عليهم غراب البين وأيدت شريعة سيد الكونين.

قال الواقدي: ولم يؤخذ من ديار بكر بالسيف إلا رأس العين، وأخرج الخمس من المال وأرسله إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وكتب له كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عياض بن غنم الأشعري إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه. أما بعد: فإن الله قد فتح علينا يسير ما كان عسيرًا وكان لعدة الفتيان شعاع يخطف العيان، فلما تضايفوا أمامي وازدحموا قدامي عاينت جيشًا كثيفًا وسدًا منيفًا قد أقبلوا من الأفواج وتتابعوا كالأمواج وتناصروا من كل صوب واشتهروا في كل ثوب، والحديد يتألق

كالحريق، وقد تطايرت السيوف فللًا والأرماح كعوبًا وانقضت المدة وقد وضعت الحرب أوزارها وانطفأت نارها بعدما قتل المسلمون أهل الطغيان الفاسقين ونصر الله الكفاة وخذلت العتاة وولت الأعداء الأدبار وأراحنا الله من مضرتهم وظهرت البلاد من كفرهم وكان زعيمهم الخائن، وملكهم أول مخذول، وأهون مقتول، وبعد ذلك فتحنا رأس العين ونحن بعد ذلك معوِّلون على ديار بكر والله المعين وبه نستعين والسلام عليك وعلى جميع المسلمين واقرأ سلامنا على قبر سيد المرسلين - صلى الله عليه وسلم -.

ثم طوى الكتاب وختمه وسلمه مع الخمس لعبد الله بن جعفر الطيار وضم إليه مائة فارس من المهاجرين والأنصار فسار عبد الله ومن معه، وأقام المسلمون على رأس عين شهرًا وعمل بيعة نسطوريا جامعًا وصلوا فيه وبنوا الكنائس مساجد وترك عرفجة بن مازن العامري عليها واليًا ومعه مائة فارس وأخذ مال الرها وكفر توتا فأخرج منه الخمس وأرسل بعد عبد الله بن جعفر سلامة بن الأحوص ومعه خمسون فارسًا.

ذكر فتح دارا وبيرحا وباعماء

ورحل عياض بن غنم - رضي الله عنه - من رأس العين ونزل على كفر توتا وأقبل إليه الغلام «يرغون» فرحب به وولاه على المدينة وعرض الإسلام على الجارية «طاريون» فأسلمت وزوَّجها بابن عمها، وبنى البيعة جامعًا، وارتحل منها إلى دارا فنزل عليها وخرج إليه أهلها واعتقبوا لهم منه صلحًا وكان جملة ما صالح عليه أهل دارا عشرين ألف مثقال ذهبًا وثلاثين ألف مثقال فضة وأن لا يبقوا سلاحًا فأجابوا إلى ذلك، وبنى كنيستهم جامعًا، وما أسلم منهم إلا القليل، وأقرَّهم على أداء الجزية، وارتحل عن دارا وقصد بيرحا فصالح أهلها على ربع ما صالح عليه أهل دارا ورحل عنها، وكانت بنو إسرائيل تعظمها وتقصد إليها بالنذور، وكان بانيها «حزقيا بن تورخ بن بازيا» أحد أنبياء بني إسرائيل فخرجوا إلى عياض وصالحهم على قدر ما صالح به أهل دارا؛ غير أن مقدمهم قال: إنني لم أزل أملك البلد حتى يأتيني الموت ومن أراد أن يدخل في دينكم من أهل بلدنا فلا مانع يمنعه.

فقال له عياض: ما اسمك؟ قال: اسمي «طرياطس». فقال: يا «طرياطس» إنا نحكمكم على العدل فما فتح الله علينا إلا باتباع الحق وسلوك طريق الصدق والعدل في الرعية. وإنا نتجنب البغي والظلم وما قصدنا قاصد إلا وجدنا وأنتم منذ خرجتم إلينا ووردتم علينا فنحن نجيبكم إلى سؤالكم ونصالحكم على ما صالحنا عليه أهل دارا. فقال طرياطس: وتصالحون أهل معرين على ما صالحتم عليه أهل بيرحا فأجابهم عياض إلى ذلك ونزل على باعما ودير. وإنما أجابه عياض إلى ذلك وألان له العريكة حتى يبلغ الخبر أهل ديار بكر فيجيبون طائعين ويسلمون له من غير منازعة. وكان قد بلغه تحصن بلادهم وامتناع قلاعهم. فدخل «طرياطس» وأخرج المال من خزائنه ولم يأخذ من أهل بلده شيئًا ودفعه لعياض فقبله منه وكتب له كتاب الصلح وشرط عليهم الجزية كما فعل أهل دارا من العام القابل، فلما تم ذلك دخل المسلمون إليه وبنوا جامعًا، فلما بلغ أهل نصيبين حسن سيرتهم وعدلهم وجودة أحكامهم أسلم أكثرهم، وكان في جملة من أسلم أصحاب النذور وأخربوه وبنوه جامعًا وأقام عياض على نصيبين شهرًا، فلما أراد الرحيل جاءه «طرياطس» وقال: قد زدتم في أعيننا بما رأينا من صلاتكم وعبادتكم فأسلم وحسن إسلامه ولم يزل ملكًا حتى مات

في خلافة عثمان، ونزل في مسجد كندة أسامة بن عامر الكندي وعشرة من بني عمه، وارتحل عياض ونزل تحت قلعة المرأة وفيها مارية وولدها عمودا فأنزلوا له الإقامة والضيافة وسار إلى أن نزل على آمد لسبع خلون من شهر جمادى الأولى.

ذكر فتوح ميافارقين وآمد

وكان بآمد أخوان شديدا البأس اسم أحدهما «بطرس» والآخر «يوحنَّا»... وكان «بطرس» في شرقي البلد و«يوحنَّا» في غربيها، وكان ليوحنا بنت اسمها رغوة، ولبطرس بنت اسمها صفورا، وكل واحد مشغول بما هو فيه، ويوحنَّا أراد أن يتزوج فأرسل إلى صاحب دارا وهو «مرطاوس» فزوَّجه لبنته مريم وحملت من بلد أبيها إليه، وكانت صاحبة حيلة ومكر، فلما حصلت بآمد نظرت إلى المدينة وكثرة مالها ونعمها وتحصن أهلها وسورها وغزارة بساتينها، فقالت لدايتها في السر يا دايتي: ما رأيت أحسن من هذه المدينة ولا أحصن منها ولا أمنع ألا ترين إلى الأعين المخترقة في وسطها وإلى الجبال التي قد دارت بها، تعني سورها الأسود، فمن بناها على الحقيقة؟ قالت لها: اعلمي

أنه قد ملك بلاد الروم أجمع من أول بلاد اليونان إلى بلاد عمورية ملك يقال له طيماوس بن أرسالوس بن ميهاط بن مكلاوكن بن الأصفر بن العيص بن إسحق وكان أول من بنى بيت الحكمة في بلده رومية الكبرى، وكان قد فتحت له المطالب ونشر في الأرض العجائب وأنه حدثته نفسه بملك الأرض لكثرة المال فانتهى إلى سويقة، وكان له ولد اسمه «إسطنبول» فقال لأبيه «طيماوس»: أريد أن أبني لي هاهنا مدينة أذكر بها. قال: يا بني افعل! وأمده بالمال والرجال فأدار سورًا على ستة فراسخ وسماها باسمه وعاش أربع سنين ومات وخلف ولدًا اسمه «قسطنطين» فأتم بناءها فسميت باسمين «إسطنبول» باسم أبيه و«القسطنطينية» باسم ابنه.

وأما أبوه فإنه صار يفتح البلاد حتى وصل إلى هاهنا فرأى هذه الأعين والدجلة فاستحسن المكان فطلب أرباب دولته وكانوا اثنين وسبعين ملكًا وقال: قد اخترت أن أبني هنا مدينة لا يكون على وجه الأرض مثلها ولا أحسن منها ولا أمنع، وأريد أن كل واحد منكم يبني لنفسه مدينةً وبرجًا، فقالوا جميعًا: نفعل أيها الملك فركبوا واختطوا المدينة وشرعوا في بنائها، وأتوا بالصنَّاع من

أقصى البلاد، واختص كل ملك بمدينة وبرج وحمام وكنيسة، فلما أتموا بناءها مات الملك فسميت «آمد» لانقضاء أمده بها، وما زال الملوك يتوارثونها إلى أن انتهت إلى هذين الأخوين «بطرس» و«يوحنا». فتعجبت مريم من قول دايتها وكتمت الأمر!

وكان لبطرس ولد اسمه لاون فطلب من أخيه ابنته صفورا لولده وقال له: زوِّج ابنتك لولدي حتى أزوِّج ابنتي لولدك! فامتنع ووقع الشر بينهما حتى كان في وسط البلد سور وأبواب فأغلقت وصار كل واحد منهما مشغولًا بناحيته، فلما رأت مريم ذلك دخلت بينهم بالصلح وقالت: هذا لا يجوز وأنتما أخوان ويطمع فيكما ملوك ديار بكر! وركبت بنفسها وأصلحت بينهما وفتحت الأبواب التي داخل المدينة وصنعت وليمة عظيمة ودعت إليها بطرس وولده لاون وابنته صفورا، فأكلوا وليمتها وقدمت لهم الخمر ممزوجًا بالسم، فلما تمكن منهم قتلوا عن آخرهم؛ وكذلك فعلت بزوجها وولده! وصارت ملكة، وبنت بيعة لم ير ببلاد الروم مثلها، وفرشت أرضها بالفصوص والرخام الملون، وزخرفت الحيطان بالذهب والفضة، وعلقت فيها ستور الديباج المذهب،

وطلبت كل عالم مشهور، وأزالت عن أهل البلد جميع ما كان عليهم من الحيف وعدلت فيهم، فأحبَّها أهل البلد وشكروا سيرتها، واستخدمت الرجال وزادت في إكرامها، وقصدها الناس من كل مكان لأجل عدلها، وأقامت في ملك آمد اثنتي عشرة سنة وبعدها نزل عليها عياض بن غنم، ومن معه وأحاط بالمدينة.

قال الواقدي: بلغني أن عياضًا نزل على التل ونزل سعيد بن زيد على باب الروم ونزل معاذ على باب الجبل ونزل خالد على باب الماء، فلما نظرت الملكة مريم إلى ذلك ورأت أن الصحابة قد عولوا على حصارها ركبت إلى كنيستها وجمعت أرباب دولتها وقالت: اعلموا أن هؤلاء العرب قد حلوا بساحتكم ونزلوا على مدينتكم، وقد طمعت أنفسهم في أخذها وأنتم تعلمون أن هذه قفل ديار بكر ومتى فتحوها فقد أخذوا ديار بكر عن بكرة أبيها واضمحل دين المسيح ولا يبقى له ذكر في هذه البلاد وأنا أعلم أن الملوك ومن يشار إليهم من أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية كلهم ينتظرون ما يكون منا... ويعلمون أن مدينتكم لو أقاموا عليها مائة سنة ما قدروا عليها فقاتلوا عن

حريمكم وأموالكم واصعدوا فوق الأسوار وقاتلوا هؤلاء العرب... وطلبت القسوس والشمامسة والرهبان وأمرتهم أن يحلفوهم على أن يكونوا يدًا واحدة ولا يخامروا عليها ففعلوا ذلك وصعدوا على الأسوار وشهروا السلاح وآلة الحرب وأقاموا الصلبان والرايات والأعلام وتولت كل طائفة بحفظ برج من الأبراج.

فلما نظر عياض إلى ذلك وأنهم قد عولوا على القتال من أعلى الأسوار جمع أمراء جيشه إليه وقال لهم: إن هذه المدينة حصينة وهي عين ديار بكر ومتى فتحها الله علينا ملكنا ديار بكر، فما الذي ترون من الرأي. وكيف يكون قتالها وأعداء الله قد تحصنوا بهذا الحصن المنيع؟ فقال خالد: أيها الأمير اعلم أننا ما ملكنا الله البلاد بقوة ولا بكثرة مدد ولا بعدد بل بتيسير الله لنا نرجو الله أن يفتحها ببركة نبينا - صلى الله عليه وسلم - وبذلك وعد الله نبيه وأن هؤلاء القوم إن باطشونا على ظاهر مدينتهم بالقتال رجونا تسهيلًا للأمر وإن أقاموا على ما هم عليه فالصبر، فإن عاقبة الصبر النصر، ولعل أن يأتي في العرضيات ما

لم يكن في الحساب واكتب إلى هذه المرأة كتابًا وخوِّفها، ثم مَنِّها بكل جميل فلعل الله تعالى أن يلين قلبها للإيمان أو تسلم لنا صلحًا!

فدعا عياض بدواة وبياض وكتب إليها يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، وصلواته على سيدنا محمد وآله، من عياض بن غنم أمير جيوش المسلمين بأرض ربيعة وديار بكر إلى مريم الدارية. أما بعد: فإن الله – سبحانه وتعالى – قد نصرنا وعلى جميع الكفار قد ظفرنا، وعلى قبض ملوكها أيدنا وما نزلنا على بلد إلا ملكناه ولا قابلنا جيشًا إلا هزمناه والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين وليس حصنك بأمنع من تدمر ولا هو الحصن المنيع الذي بناه سليمان بن داود، وما هو إلا أن نزل عليه المسلمون حتى ملكوه، وكذلك بعلبك وحلب وأنطاكية – دار الملك هرقل–! ولم يبق بين أيدينا صعب إلا سهَّله الله علينا، وبذلك وعدنا الله في كتاب العزيز فقال: «الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ»، فإذا وصل إليك كتابي هذا فسلمي تسلمي وإياك أن تخالفي تندمي ومهما أردت بلغناك ولسنا نكرهك على فراق دينك ولا أحدًا من أهل بلدتك قال تعالى: «لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ»، وإن تمسكت بالهوى فستعلمون من أضعف

ناصرًا وأقل عددًا، وسلام على عباده الذين اصطفى! ثم طوى الكتاب وختمه وسلمه إلى رجل من المعاهدين وقال له: ادن من الحصن وناولهم الكتاب وقف حتى يردوا عليك الجواب. فذهب ودنا من السور وناداهم بلغتهم وأشار إليهم بالكتاب فأدلوا له حبلًا فربطه لهم ووقف ينتظر الجواب.

فأوصلوا الكتاب إلى الملكة مريم فقرئ عليها، فلما فهمت ما فيه قالت لأرباب دولتها: ما تقولون فيما كتب إليَّ أمير العرب؟ قالوا: أيتها الملكة الرأي لك فمهما أمرتينا به امتثلناه. فقالت: يا قوم أنتم تعلمون أن النار ولا العار ومتى سلمنا لهؤلاء العرب عيرتنا الروم ويقولون كيف سلمتم مدينتكم وما حوصرتم سنة ولا عشرة أيام ومدينتكم أحصن بلاد الروم، وإذا شئتم كان لكم موضعًا تزرعون فيه والمياه عندكم وكل ما تحتاجون إليه؟! وقد وصلت إليَّ الكتب من جميع ديار بكر ووعدوني أن يرسلوا عساكرهم لنصرتنا، فقالوا: أيتها الملكة هذا هو الرأي الرشيد، فاكتبي للقوم كتابًا أن يقطعوا طمعهم منا!

فكتبت تقول: أما بعد: فقال وصلني كتابك وفهمت خطابك، فأما ما ذكرت من نصر الله لكم، أما علمت أن المسيح يمهلكم ولا يهملكم، وإنما ذلك

استدراج لكم ثم يأخذكم بعد ذلك! وكأنكم بالملوك وأبناء الملوك وقد أقبلت عليكم بسواعد شداد وسيوف حداد وجيوش وأمداد فيأخذون منكم بالثأر ويكشفون عن عباد المسيح العار، وما كنا بالذي نسلم حصننا إليكم أبدًا، فإن شئتم المقام وإن شئتم الرحيل والسلام. وربطوه بالحبل وأعطوه للمعاهد فأخذه وأتى به إلى عياض، فلما قرأه وفهم ما فيه قال: توكلنا على الله وفوضنا أمرنا إليه ثم قرأ «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا». وعوَّل عياض أن يقيم على آمد وخيله تغير على الهتاج وميافارقين وسائر تلك البلاد. فأقام عليها أربعة أشهر فخرج من جيشه الحكم بن هشام واستأذن عياضًا أن يشن الغارات على ميافارقين فأذن له، فأخذ معه من الصحابة مائة من المهاجرين والأنصار فخرجوا بعدما صلوا الظهر وعبروا الدجلة وساروا والأرض تطوى لهم! فما مضى قليل من الليل إلا وهم على ميافارقين فداروا بها إلى أن وصلوا إلى برج يعرف ببرج الشاة، فقال الحكم بن هشام وددت من الله لو فتح لنا هذه المدينة بلا قتال!

فما استتم كلامه حتى انفتح لهم باب من حائط البرج فدخلوا وهم يخترقون الطرق إلى وسط المدينة إلى كنيستهم العظمى وتعرف ببيعة ماريا وكانت تلك الليلة عيدًا عند النصارى، فلما أقبلوا إلى الصلاة وجدوا أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهم نزول على باب البيعة فصاحوا وتسامع الناس فأتى صاحب البلد وكان اسمه «أسلاغورس»، فلما رآهم قال: من أنتم؟ قال له الحكم: نحن أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –. قال: ومن أين جئتم؟ قالوا: من عسكرنا. قال: ومتى جئتم؟ قالوا: بعدما صلينا الظهر. قال: ومن فتح لكم مدينتنا؟ قال له الحكم: فتح لنا من بيده مقاليد الأمور. قال: أَوَمَا تفزعون منَّا؟ فقال الحكم: وكيف نفزع من مخلوق لا يضر ولا ينفع وهو تحت أحكام القهر. وقد قال ربنا في كتابه: «فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

فقال «أسلاغورس»: إن دينكم دين محدث وديننا دين قديم والقديم أفضل من المحدث. فقال له الحكم: إذا كان ما قلته حقًا ففضل إبليس على آدم لأنه أقدم منه، وقد قال الله تعالى: «أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ»! وإنَّ «أسلاغورس» أمرهم أن يدخلوا البيعة. فقال الحكم بن هشام: وما

الذي نصنع في بيعتكم؟ قال: تذكرون فيها ربكم. قال: ما كنَّا ندعى إلى ذكر ربنا فنتأخر عنه! فربطوا خيلهم ودخلوا وما أراد «أسلاغورس» بذلك إلا أنه قد زخرفها وصور فيها بيت المقدس والصخرة وقبة السلسلة ومحراب ثواب ومهد عيسى وصورته وأمه مريم، فلما توسطها أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قرأ الحكم بن هشام «وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ»، ورفع بها صوته. فقال: لا والله. وإنما أقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله! فوالله لقد ماجت بيعة القوم وتزلزلت وصفقت القناديل بعضها ببعض! وكان للبيعة شيخ عالم بالأديان والشرائع وكان اسمه عبد المسيح، فلما نظر ما حل بالبيعة والقناديل صلَّب على وجهه وكذلك كل من كان فيها، وقالوا لملكهم: أنت ما أردت إلا هلاكنا إذ أدخلت هؤلاء العرب إلينا أما ترى كيف غضب المسيح علينا! فقال البطريق: لا وحق المسيح ما هو إلا توحيدهم لله وذكر نبيهم أظهر لكم من معجزة نبيهم ما رأيتموه! يا ويلكم إذا كان قد فتح لهم باب في السور ودخلوا منه علينا فكيف لا تهتز البيعة وتصفق القناديل لما دخلوها، وأنا كنت في شك مما ذكرت والآن فيا طوبى لمن كان على دينهم!

قال الواقدي: وكان هذا خادم بترك بيت المقدس، وكان في المدينة يوم فتحت على يد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وسمع من البترك في بيت المقدس وهو يقول هذا الذي يفتح الأرض في طولها والعرض، ومحمد هو الذي بشر به المسيح ابن مريم، ولقد سأله رجل لما رأى المسلمين يعظِّمون الصخرة ويقبِّلون القدم الذي فيها، فقال للبترك: نرى المسلمين يقبلون قدم المسيح! فقال له: يا بني نحن نقول إنَّه قدم المسيح، وإنَّما هو قدم نبيهم محمد بن عبد الله لما عرج به إلى السماء. قال: أَوَعُرج به؟! فقال: نعم، أُسريَ به من مكة إلى بيت المقدس وصلى بالنبيين.

فلما سمع البطريق ميافارقين هذا الكلام من الحكم بن هاشم قال: والله ما في دينكم مراء وأنتم على الحق، ولقد كنت أسلمت على يد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ببيت المقدس، ثم جئت إلى هذه المدينة وكان عليها وال فمات ووليت الأمر من بعده فرجعت إلى ديني الأول. فإنْ أنا تبتُ إليه ورجعت إلى دينكم أيقبلني على ما ارتكبت من المعاصي؟ فقال له الحكم: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول يوما لأصحابه «بأي شيء يكون ابن

آدم أشد فرحًا»؟ فقالوا: بالأهل، فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسكت الناس! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «لا يكون ابن آدم أشد فرحًا منه إذا كان في مفازة ومعه راحلته عليها زاده وماؤه ومنافعه. فإذا كان في بعض المفازة اشتد عليه الحر فأوى إلى ظل فنزل عن راحلته وتوسد ذراعه فنام ثم انتبه وقد ذهبت راحلته وعليها طعامه وشرابه وغذاؤه ومنافعه فانطلق في طلبها يمينًا وشمالًا فلم يجدها فرجع إلى موضعه ليموت فيه وقد أيقن بالهلاك فنام، ثم انتبه فوجد راحلته كما هي فأخذ بخطامها»، ثم قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «إن الله أشدُّ فرحًا بتوبة عبده المؤمن من ذلك الرجل بتلك الراحلة».

فلما سمع «أسلاغورس» كلام الحكم بن هشام دمعت عيناه وأخذهم إلى دار ولايته وقال: والله لقد بان الحق وظهر الصدق! فأسلم وحسن إسلامه، وطلب جماعته فأسلموا بأجمعهم. ثم إنه طلب أكابر البلد وأخبرهم بإسلامه وقال لهم: إنِّي أريد منكم ما أريده لنفسي، وإن دين هؤلاء يعلو ولا يُعلى عليه فمن أسلم منكم أمن في الدنيا والآخرة! وهم قد نزلوا على آمد ولابد لهم من

ديار بكر جميعها فمن خالفهم وعصى نهبوا بلده، واستعبدوا أهله وولده، فإن أسلمتم لهؤلاء القوم أمنتم على أنفسكم وأولادكم. فقالوا: أيها الصاحب أمهلنا ثلاثة أيام حتى نرى ما لنا فيه من الصلاح فتركهم وانصرفوا من عنده، فلما كان الليل اجتمعوا وتحالفوا أن لا يسلموا للعرب أبدًا ولو هلكوا عن آخرهم وأصروا على القتال. فبعد ثلاثة أيام طلبهم فلم يأته إلا القليل، وأتت إليه العين الصافية وأخبرته بما عزم عليه أهل البلد، ثم لبسوا سلاحهم وأتوا إليه يقاتلونه فخرج إليهم بجماعة ومعه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقاتلوا قتالًا شديدًا، فلما جنَّ الليل. قال لهم: أرسلوا إلى أميركم ينجدنا فأرسل واحدًا منهم فما بعد عن البلد حتى سمع قرع حوافر الخيل، فلما تبيَّنهم إذ هم من عسكر الموحدين، وإذا هم خمسمائة فارس وعليهم ضبة بن عدي، وكان السبب في ذلك أن عياض بن غنم رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - في المنام وأخبره بقصة ميافارقين وما جرى لصاحبها من أهل بلده وأمره أن يرسل إليهم جيشًا فاستيقظ من نومه وأرسل إليهم ضبة بن عدي ومعه خمسمائة فارس وأذن الله للأرض أن تطوى لهم فوصلوا إليهم في تلك الليلة فأتى بهم إلى السر، وكانوا قد وكلوا به من يحفظه فنادى ففتحوا لهم، وإذا بصاحب البلد

قابلهم فأدخلهم، فقالوا له: من أعلمكم بقدومنا؟ فقال صاحب البلد: أعلمني بكم النبي - صلى الله عليه وسلم - رأيته، وقد نمت من ضيق صدري بقتال هؤلاء القوم أهل البلد فنمت فرأيت شخصه الشريف فبشرني بقدومكم.

فلما حصلوا بأجمعهم خرج للقتال أهل البلد فصاح بهم المسلمون: يا أعداء الله قد حل بكم البوار، وأحاطت بكم الأقدار، من أصحاب محمد المختار، ووضعوا فيهم السيف فولوا إلى منازلهم ودورهم ليتحصنوا بها، وقد علموا أنه قد نزل بهم ما لا طاقة لهم به فنادوا الغوث. فقال لهم: من أتى إلينا فهو آمن فخرجوا، فقال أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: قد أمناكم على جميع مالكم إلا السلاح. فأتوا بجميع ما عندهم من السلاح وسلموه للصحابة. فلما رأوا منهم صدق القول أسلموا إلا قليلًا منهم، وعملوا البيعة الكبيرة جامعًا، وأقاموا ثلاثة أيام وتركوا عندهم الحكم بن هشام ومعه عشرة من أصحابه ليعلموهم شرائع الدين، وأتى ضبة ومن معه إلى عياض وأخبره بما جرى ففرح بذلك.

ولم يفتح أهل آمد بابًا ولا باشروا قتالًا وضاق صدر عياض ومن معه من ذلك. ومكثوا خمسة أشهر وكان خالد بن الوليد كما ذكرنا على باب الماء وكان في كل يوم يركب بجيش الزحف ويدور حول المدينة، فإذا أتى الليل نزل في منزله! وكان غلامه همَّام يسير ذات ليلة فإذا هو بكلب قد دخل من مسرب للماء في جانب السور، فتركه همام وعاد. فلما أتى خالد من صلاته قال له همام: يا مولاي كان من الأمر ما هو كذا وكذا. قال خالد: يا همام أرني الموضع. فمضى همام أمام خالد وأراه الموضع الذي دخل منه الكلب، فلما رآه قال: الله أكبر فتح الله ونصر! وعاد وطلب أصحابه وأعلمهم بالقصة. وقال لهم: قد عوَّلت أن أدخل المدينة من مسرب الماء وأريد منكم مائة رجل يهبون نفوسهم لله تعالى، واختار من أصحابه مائة وأمرهم بلبس السلاح وركب إلى عياض وأعلمه بما عزم عليه من دخوله المدينة من المسرب وقال له: كن على أهبة إذا سمعت التكبير والتهليل. فقال: علمت ذلك وأنا على أهبة بحمد الله، امض أعانك الله ونصرك. فودعه خالد ورجع إلى أصحابه فوجدهم قد استعدوا فسار أمامهم وهم رجالة إلى أن أتى إلى باب المسرب وكان نصف الليل، وأمر الله سلطان النوم فاستولى على من كان على السور والحرس لأنه جل شأنه إذا أراد

أمرًا بلغه وهيأ أسبابه. فأول من دخل من المسرب خالد - رضي الله عنه - وتبعه عامر بن الأحوص وحذيفة بن ثابت وعمران بن بشر وتمام المائة - رضي الله عنهم -، وقد توسطوا المدينة.

وقصد خالد مطلع السور ومنع الناس من النزول وأخذتهم الأحجار! وأرسل خالد عشرة من أصحابه إلى الباب فكسروا الأقفال وفتحوه، وكان عياض قد ركب وأيقظ الناس وقد تهيأ للحرب، فلما كبَّر خالد ومن معه بادر عياض ومن معه إلى الباب فوجدوه مفتوحًا فدخلوا، وأقبل أهل المدينة يهربون إلى السور والليل قد غسق والظلام اتسق والقتام قد أطبق، فما بقي أحد يقوم من مرقده إلا والسيف قد رمى رأسه عن جسمه! وخالد ومن معه يكبرون وقد تقطعت بأهل آمد الأسباب وأحاط بهم العذاب. حتى إذا ولَّى الليل ونزع، والصباح عوَّل على أن يطلع، وخالد يصيح صياح السميدع، فنظر أهل البلد إلى ما حل بهم ونزل عليهم فأقبلوا إلى دار الإمارة يطلبون الملكة مريم فلم يجدوها. وكان السبب في ذلك أنها سمعت بأن الصحابة قد حصلوا على المدينة فعلمت أنها لا تخرج من أيديهم فأخفت نفسها ومن معها ونزلت في سرب في

دار الإمارة وأخذت ما تقدر على حمله وخرجت من ذيل الجبل وطلب بلاد الروم. فلما علم أهل المدينة أن ملكتهم هربت نادوا الغوث الغوث فرفعوا عنهم السيف وجمعهم الأمير إليه فاجتمعوا في ميدان المدينة. فقال لهم عياض: أما بعد: فإن الله تعالى قد نصرنا عليكم وصبرنا وظفرنا بكم ولولا أن الله جعل نبينا نبي الرحمة وأسكنها قلوب المؤمنين لأبدناكم بالسيف عن آخركم، ولكن قد أمرنا ربنا في كتابه بكظم الغيظ والعفو فقال الله تعالى: «وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّٰهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»، ثم من لم يسلم ضرب الجزية عليه من عامه.

قال الواقدي: وكان شاهد الجمع في فتح آمد زيد بن حالوك اليهودي، وكان عالمًا بدين اليهودية والنصرانية، وكان يزعم أنه من أولاد داود - عليه السلام - ، وكان بنو إسرائيل يعظمون شأنه ويأتونه بالهدايا والتحف، وأنه لما دخل عياض بن غنم - رضي الله عنه - إلى آمد وجمع أهلها في الميدان وتكلم المشايخ بما تكلموا به قام هو من وسط قومه، وكان اسمه مليا بن حنيتا وعرف المسلمين بمكانه وأنه مقدم على بني إسرائيل وأنه من ذرية داود. قال: أنتم

أصحاب نبي الرحمة وأن الله خلق الرحمة وأسكنها في قلوبكم، وأن الله فضلكم على سائر الأمم وقد أنزل في صحف إبراهيم وموسى يقول: إني أبعث في آخر الزمان نبيًا أميًا، وأجعل أمته أفضل الأمم، وأسكن الرحمة في قلوبهم وبهم أباهي ملائكتي وأبعثهم غرًّا محجلين من آثار الوضوء. فقال عياض: إن الله يحب العفو وقد عفونا عنكم. فقال أهل المدينة: فإذا عفوتم عنَّا نرجع إلى دينكم! فأسلم أكثرهم، وضربت الجزية على من لم يسلم في العام القابل على كل بالغ أربعة دنانير، وأخذوا سلاحهم، وحملوا لهم شطر أموالهم فحملها عياض - رضي الله عنه - وبنى البيعة المعروفة جامعًا، وأقام في آمد اثني عشر يومًا، وولَّى عليها صعصعة العبدي ومعه خمسمائة من بني عمه ومن العرب.

ذكر فتوح اليمانية وجبل الجودي

وارتحل عياض إلى الحصون وهي حصون الجبابرة وأنفذ إلى أهلها فأسلموا! وأرسل النعمان بن معرف إلى أهل أنكل فأسلموا وسميت باليمانية لأنها فتحت على يد حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه -. ومضى عياض إلى

الجابية ففتحها صلحًا ونزل إلى أهل جبل الجودي والسيوان وذي الفرض... فأخذوا من المسلمين صلحًا وعهدًا على تقرير بينهم.

وارتحل المسلمون حتى نزلوا على الهتاج فأبى أهله أن يسلموا، وعوَّلوا على القتال ونصبوا الرعادات والمجانيق فنظر عياض إلى ذلك فعظم عليه وقال: هذا حصن منيع ومتى تركناه ومضينا عنه أغاروا على أهل هذه البلاد وأذاقوهم الشر وقد لزمنا من أسلم ومن صالحنا ألزم لنا فلا نحيد عنه حتى نفتحه إن شاء الله تعالى! فقال خالد: انزلوا بنا عليه ولعل أن يأتي من عرضيات الأمور ما لم يكن في حساب. وكان صاحب الهتاج شيطانًا مريدًا جبارًا عنيدًا، وكان اسمه «يانس بن كليوس» وكان قد تزوج بـ «ميرونة ابنة بزيونة ابنة بريول بن كالوص» صاحب القلب والحصن الحديد وكانت قد زُفَّت إليه وأقامت عنده سنة، ثم إنها مضت إلى زيارة أبيها وأمها وأقامت عندهما شهرًا، فلما خرجت من عندهما ومضت إلى الهتاج فبينما هي في نصف الطريق إذ بلغها أن المسلمين قد نزلوا عليها فجلست في مكانها ولم تبرح! وكان عدو الله يحبها ولا يجد له عنها صبراً، فلما رأى المسلمين وقد نزلوا عليه علم أنه لا يقدر أن

يجتمع بالجارية فاتفق رأيه أن يصالح المسلمين حيلة منه ومكرًا وخديعة حتى تحصل زوجته عنده ويغدر ولا يعطي أحدًا طاعة، فأرسل إلى عياض يقول له: إنك لو أقمت علينا بقية عمرك لما قدرت علينا ولكن صالحنا سنة كاملة شمسية، فإن أنت فتحت ما بقي من ديار بكر فنحن نرجع إلى طاعتك وإن لم تقدر على فتح البلاد فلا طاعة لك علينا والسلام. وأرسل إلى عياض رجلًا من متنصرة العرب من ربيعة الفرس وكان ذلك الرجل مدبر بلاد الهتاج هو وبنو عمه، وكان اسمه مرهف بن واقد وكان ميله إلى العرب أكثر من الروم، فلما أتى بالرسالة إلى عياض أجابه إلى الصلح لئلا يطول مقامهم، فلما همَّ مرهف بالرجوع قال لعياض: أما والله أيها الأمير ما كنت بالذي أدع النصيحة للعرب وأستعملها للعلوج، وهذا العلج قد اتفق رأيه على كذا وكذا، فإن كنت ترحل وتكمن لزوجته وتأخذها ومن معها وتطلب منه البلد فإنه يسلم لوقته فافعل. فقال عياض: ما كنا نقول قولًا ولا نفي به ولعل الله ينظر إلى صدق نياتنا فيفتحه علينا.

فبينما مرهف يحدِّث عياضًا إذا بغبرة قد أقبلت فقال عياض لميسرة بن مسروق: اركب وانظر ما هذه الغبرة. فركب ومضى هو وجماعة من الصحابة وعاد ميسرة وهو يقول: أبشر أيها الأمير بالفتح! قال: وما الخبر يا ابن مسروق. قال: هذا جيش ابن هبيرة المازني قد أغار على البلاد وأتى بالأموال والرجال. فظهر البشر في وجه عياض وجعل يتطاول إلى قدوم ابن هبيرة حتى وصل وسلم على عياض وعلى المسلمين وعرض عليه الغنائم ومرهف بن واقد يتأملها إلى أن عرضت عليه جارية رومية تخجل الشمس منها! وعليها زي الملوك، فأطرق المسلمون إلى الأرض يستعملون الأدب مع الله في قوله: «قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ»، فلما نظر إليها مرهف قال: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله وأن دينكم الحق وقولكم الصدق. فقال له عياض: ما بالك أيها الرجل؟ قال: هذه زوجة يانس صاحب الهتاج وقد طرحها الله في أيديكم! فسجد عياض شكرًا لله فلما رفع رأسه قال: «وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ».

قال الواقدي: وكانت «ميرونة» قد خرجت من عند أهلها ومعها جماعة من بنات البطارقة فوافق طريق قيس بن هبيرة تلك الأرض فأخذها ومن معها وأتى بها إلى عياض. فقال عياض لمرهف: ارجع إلى يانس واكتم إسلامك وأخبره بما رأيت واستعمل النصح للمسلمين وقل له إن أراد أهله فليسلم لنا هذه القلعة ومهما أردنا منه. فرجع مرهف إلى يانس وحدثه بما جرى فعظم ذلك عليه وكبر لديه وقال لمرهف: ما الذي ترى من الرأي؟ قال: اعلم أن هؤلاء القوم ما قالوا قولًا إلا وفوا به وبذلك نصروا علينا ومن الرأي أن نسلم لهم القلعة ويعطوك زوجتك وجميع مالك، وأنا الضامن لك منهم ذلك. فقال يانس: انزل إليهم وائتني بعشرة رجال يحلفون لي على ما أريد فإن أجابوني إلى ذلك سلمت إليهم القلعة ولا تأتني إلا بمن يقبل قوله ويشكر فعله حتى أستوثق منهم لنفسي ولعله يكون الرجل الذي شاع ذكره بالشجاعة وفتح البلاد والشام - يعني خالد بن الوليد - وإنما أراد الملعون ذلك حتى يقبض عليهم ويخلص بهم زوجته.

فنزل إلى عياض وأخبره بذلك وبما قاله يانس. فقال عياض: يا مرهف يريد الملعون أن يخدعنا، ونحن ثمرة الخداع ونرجو من الله أن يرجع مكره عليه

ولديه، ثم قرأ «إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ». قال خالد: دعنا أيها الأمير نصعد إليه والله الموفق للصواب. فقال عياض: اعزموا على بركة الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي القدير العظيم، فنهض خالد والمقداد وعمار وسعيد بن زيد وعمرو بن معد يكرب والمسيب بن نجبة وقيس بن هبيرة وميسرة وضرار بن الأزور وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - رضي الله عنهم - أجمعين وساروا ومرهف أمامهم إلى أن وصلوا باب القلعة وكان رتب عدو الله غلمانه في دركات القلعة وأمرهم أن يأخذوا منهم سلاحهم ففعلوا ذلك إلا خالدًا وعبد الرحمن وضرارًا فقالوا: ما كنا نسلم عدتنا لغيرنا فإن أراد أن ندخل عليه بسلاحنا وإلا رجعنا من حيث أتينا فدخل مرهف عليه وقال: إن هؤلاء الثلاثة امتنعوا من إعطاء السلاح وما الذي يقدرون على أن يفعلوه! دعهم يدخلوا كيف شاؤوا فلو كانوا نارًا ما أحرقوا، ولا ترهم الجزع فيطمعوا. فقال: وحق المسيح لقد صدقت! دعهم كلهم يدخلوا بعددهم حتى يعلموا أننا لا نخافهم ولا نرهبهم وأيضًا لئلا تنفر قلوبهم منَّا! فرجع مرهف وأمر غلمانه أن يردوا إليهم أسلحتهم ودخلوا.

فلما توسطوا القلعة إذا بـ «يانس» واقف، فلما وقعت عينه عليهم دخل الرعب قلبه، لأنَّ من خاف الله خاف منه كل شيء! فجعل يهتز ويقع وكان قد قال لجماعته إذا رأيتموني قد قربت منهم وصافحتهم فدونكم وإياهم! فنظر خالد إليهم فعلم ما في قلوبهم فقال: أيها البطريق قف مكانك فإنَّا قوم لا نؤتى بحيلة ولا مكر لأنَّا قهرنا الملوك وأخذنا بلادهم بهذه الأشياء! ثم إنه انتضى سيفه وزعق بـ «يانس» فأدهشه وخيِّل له أن كل من في القلعة منهم، وتقدم إليه وضربه على حبل عاتقه فأطلع السيف من علائقه! فهجمت الصحابة على أهل القلعة ووضعوا السيف فيهم وتكاثر عليهم العدو وتزايد المدد.

وكان في داخل المدينة خلق من الرستاق من قرى الهتاج من فسطاس وقرساط وكان يانس قد جمعهم لقتال المسلمين؛ فلما قتل خالد يانسًا ونظروا إلى صبر الصحابة على قتال أهل القلعة قالوا لبعضهم: أنتم تعلمون أن العرب ما يسكتون عن أصحابهم، وقد فتحوا آمد والبلاد فلا يمتنع منهم الهتاج وغيرها فخذوا لكم عند المسلمين يدًا وقاتلوا معهم أهل القلعة. ففعلوا ذلك وجرَّدوا سيوفهم وضربوا منهم من كان في القلعة وسمع عياض الصياح فقال: أما والله

إن خالدًا ومن معه غُدِر بهم فبادروا إليهم أيها المجاهدون! فبادر أبو الهول وأصحابه ورجاله الأربعمائة فتفرقوا في الجبل وقصدوا القلعة فمن انهزم من الكفار وضعوا فيهم السيوف فما نجا منهم أحد، وما وصل أبو الهول إلى القلعة إلا وقد ملكها خالد واحتوى عليها.

وصعد عياض والمسلمون وأخذوا كل ما كان فيها وولَّى عليها مولاه سالمًا، وجعل عنده مائة رجل، وكتب إلى أهل فسطاس وفرساط ومن في القلعة أن لا يزنوا بامرأة أبدًا، وأشهد عليهم خالدًا والمقداد وعمارًا ومعاذًا وشرحبيل وعبد الرحمن بن أبي بكر وضرارًا؛ وأطلق عياض الأسارى الذين أتى بهم قيس بن هبيرة وارتحل يطلب ميافارقين. فلقيه في طريقه أهل تلك الجبال وأهل الجزيرة وقلب ومتنان وحزب الكلاب فأعطاهم الأمان وضرب عليهم الجزية وردهم إلى بلادهم. وأتى إليهم أهل ميافارقين للقائهم، وشكروهم على حسن سيرتهم وعدلهم، وأخرجوا لهم الضيافات والعلوفات، ونزل من جهة الميدان في سفح الجبل وأقام بها عشرة أيام ثم جمع أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – واستشارهم وقال: إني عولت على المسير إلى ديار أرمينية وإلى أرزن

الروم فأشيروا عليَّ يرحمكم الله أي طريق نسلك! فقالت رجل من المعاهدين ممن هو أعرف الناس بتلك البلاد: أيها الأمير أتأذن لي أن أتكلم؟ فقال: من كان له رأي فليتكلم. فقال: اعلم أنك إذا قصدت بلاد أرمينية يطول مكثك فيها، واعلم أن بالقرب منك حصنًا منيعًا يقال له حصن «لغوب» وغلب عليه اسم صاحبه وهو «يطالقون بن كنعان بن عيديوس» له جيش عرمرم يزيد على ثلاثة آلاف فارس.

ذكر فتح حصن لغوب

ثم قال: اعلم أيها الأمير أن تحت يده معاقل كثيرة، وربما رحَّل ركابه من هنا فوقع بهذه البلاد وشن الغارات على أهلها، ومن الرأي أنك لو وجهت إليه جيشًا لعل الله أن يفتح عليك، فإن أنت فتحت هذا الحصن مضيت حيث تريد وتكون طيب القلب على من تستخلفه من أصحابك. فقال عياض لأصحابه: ما تقولون فيما تكلم به هذا الرجل؟ فقال خالد: لقد تكلم بالحق ونطق بالصدق فاعزم وتوكل على الله! ثم انصرفوا من عنده وبات ليلته متفكرًا فيمن ينفذه إلى الحصن فوقع اختياره على «يوقنَّا» فدعاه وقال له: يا عبد الله! قد اتفق الرأي

عليك أن تمضي إلى الحصن فما الذي تراه؟ فقال «يوقنَّا»: أصلح الله الأمير قد بلغني أن الحصن منيع، وربما إذا نزلنا عليه طال الأمر وتنفد المدة وينقضي هذا الوقت ولا ندري ما يكون، ولكن أهب نفسي لله ولرسوله وآخذ مائة من بني عمي ونتزيا بزي الفلاحين ونأخذ نساءنا وأولادنا نتركهم على البقر وندخل في جملة أهل البلاد من الفلاحين، فإن حصلنا داخل الحصن نملكه إن شاء الله تعالى. فقال عياض: يا عبد الله قد اشتهر أمرك عند جميع أهل النصرانية ونخاف أن تسير فتغرر بنفسك ومن معك فيقبض عليكم والله تعالى يقول: «وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ»! قال: في ذا أبيت فائذن لي أن أشن الغارات على بلاد القوم. قال: قد أذنت لك. فخرج «يوقنَّا» ومن معه وهم ألف من قومه وساروا على أرزن وسرد وأسعرد وياباسا وحيزان والمعدن.

قال الواقدي: وكان من قضاء الله وقدره أن صاحب أسعرد وحيزان والمعدن وياتحلسا ويمهرد وطراجر وسلواس كان بينه وبين «يطالقون بن كنعان» حربًا، وكان يغير بعضهم على بعض وأخربوا المملكتين، فلما انتشرت الأخبار بقدوم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنهم على

ميافارقين جفل أهل تلك البلاد، وعلم بذلك «حرسلو» صاحب أسعرد وأن لا طاقة له بالعرب فأخذ هدية سنية وذهب بنفسه لـ «يطالقون» حتى يصطلح معه ويكونا يدًا واحدة على قتال المسلمين، فبينما هو سائر والهدية معه وقد نزل على قرية اسمها «أرغير» وهو معوِّل على المسير وإذ قد كبسهم «يوقنَّا»، وقد أحاط بالقرية وأخذ كل من فيها وأسر البطريق ومن معه وبات ليلته.

فلما أصبح استعرض الأسرى وقال لهم: إن الله قد ظفَّرنا بكم ونصرنا عليكم، واعلموا أني ملك من ملوك الروم ملكت البلاد وقدت الجيوش وأمرت ونهيت وعبدت الصليب وقربت القربان، فلما أتى الله بهؤلاء القوم خبرتهم ونظرت ما هم عليه فعلمت أن الحق معهم فتبعتهم وقلت بقولهم، وقد كنَّا بالشام تفزع منَّا ملوك العجم وكسرى بن هرمز والديلم والترك! وكان لنا كرة الأرض، وكنا لا نلتفت إلى العرب حتى خرجوا علينا فأذاقونا مُرًّا وذهبت شجاعتنا وملكوا معاقلنا وحصوننا واحتووا على ملكنا! ونصرهم رب الأرض والسماء علينا لأنهم يشيرون إليه بالوحدانية، فإن آمنتم بالله وحده كان لكم الربح في الدنيا والآخرة وأطلق سراحكم! وإن أبيتم قتلتكم عن آخركم. فقالوا:

اتركنا يومنا هذا إلى الليل ندبر أمرنا فتركهم واختلى بـ «حرسلو» البطريق وحدَّثه في السر وقال له: اعمل في خلاص نفسك ورقبتك من النار وأسلم وفاد نفسك حتى تنال ما تريد فقد بلغني من الوقائع بينك وبين صاحب الحصن.

فقال البطريق: لقد صدقت، فمن أعلمك؟ فقال له: ما السبب في العداوة بينك وبينه؟ فقال: إنه طلب أن يتزوج ابنتي وبعث إليَّ هدية فرددتها عليه، فصار عدوي وأغار على بلادي وأغرت على بلاده، والآن قدمت إليه بهدية حتى أكون أنا وإياه يدًا واحدة، فأتيت أنت إليَّ وأخذتني! فقال «يوقنًا»: إنِّي أريد لك من الخير ما أريد لنفسي ولست أجبرك على أن تترك دينك ولكن تعاهدني على أن لا تغدر وأنا أخلي سبيلك وتمضي إلى صاحب الحصن وتدني نفسك بين يديه وتقول: أيها الصاحب قد ندمت على ما كان مني إذ رددتك عن تزويج ابنتي وإني كنت أخذتها وزينتها وسقت معها أموالها على أنِّي أهديها لك، فلما كنت في قرية كذا وكذا خرج عليَّ قوم من العرب، فأخذوا المال والرجال! وقد نجوت إليك بنفسي لتأخذ بيدي وتستنقذ ابنتي من العرب! فإنه إذا سمع ذلك دعاه الطمع واستجره الأمل حتى يخرج إلينا ولعل الله تعالى أن يظفرنا به، فإذا

ملكنا الحصن إن شاء الله تعالى كنت أنت تبقى على بلادك آمنًا مطمئنًا، واعلم أن ذمامي هو ذمام العرب ومهما فعلته امتثلوه وأمضوه!

فلما سمع البطريق كلام «يوقنَّا» قال: أفعل ذلك ولكني أخاف من المسيح أن يغضب عليَّ إذا خامرت على أهل ديني! فقال «يوقنَّا»: أنا أحمل هذه الأوزار عنك، ودع عيسى ابن مريم يطالبني بذلك يوم القيامة. فقال البطريق: إن كان هذا الذي قلته، فأنا أفعل وليس يصعب عليَّ! ولكني أخاف إن فعلت ذلك الذي أمرتني به أن لا ينزل من الحصن وربما بعث معي بعض أصحابه فلا يحصل طائل من عدوكم. فقال «يوقنَّا»: وما يكون التدبير؟ فقال البطريق: الرأي عندي غير هذا. قال: وما هو؟ قال: تذهب مع أصحابك جريدة بالخيل، وأنا أكون معك فما نصبح إلا ونحن على الحصن، فإذا أشرفنا عليه تعطيني جوادي وسلاحي وأركض على فرسي في حال العجلة، فإني أجده في الميدان مع أرباب دولته فإذا وقعت عيني عليه ترجلت وحثوت التراب على رأسي وأصيح: أيها الملك! العرب قد أخذوا أصحابي وغلماني، ومن جاء معي برسمك! فإذا قال: وأين هم؟ أقول: على فرسخ من بلدك. فإنه إذا سمع قولي لا يمكنه التأخير عن

نصرتي ولا له إلا السرعة إليكم، واعلم أن أكثر جنده قد فرَّقهم على الحصون وما عنده إلا ألف فارس أو أقل. فلما سمع «يوقنَّا» ذلك من قوله وثق به وبعث الأسرى إلى عياض، فلما وصلوا إليه قال لهم: إن أطلقتكم أتعرفون لنا ذلك؟ قالوا: نعم وكيف لا نعرفه؟! فأطلقهم حتى تسمع أهل البلاد فينزلوا إلى طاعته.

وأما «يوقنَّا» فإنه سار جريدة بقية ليلته، فما برق ضياء الفجر إلا وقد أشرفوا على الحصن فعندها أطلق البطريق ووثق منه بالعهود وأعطاه جواده وسلاحه، وسار كأنه قد أفلت نفسه وسار على شوط واحد إلى الحصن، وكان بالقضاء المقدر أنه وجد البطريق «يطالقون» قد عبر إلى جانب أسعرد ومعه ألف فارس وألف راجل، وكان السبب في ذلك أن قومًا من أصحاب البطريق «حرسلو» قد أتوه وحدثوه بما تم عليهم من القوم، فعبر لعله يستخلصهم من يد «يوقنَّا»! فلما وصل إليه البطريق ترجل وصقع له وحدثه فرَّق له وقال: كيف تخلصت؟ قال: خلصت يدي من الكتاف وركبت هذا الفرس، فلما أحسوا بي ركبوا ورائي، وها هم في أثري بالقرب من «باياعا». فلما سمع ذلك «يطالقون» أمر بالركوب وسار من وقته طالبًا «يوقنَّا»، وقال: هذا الذي أردناه من أمر الجهاد قد قرَّبه الله

إلينا فدونكم والقوم. ولم يمهل بعضهم بعضًا، وتطاعنوا بالرماح وصبر «يوقنَّا» صبر الكرام ووقع الصائح من كل جانب، واستعان أصحاب «يوقنَّا» برب المشارق والمغارب، فبينما هم قد أشرفوا على المعاطب، إذ أشرفت عليهم غرر الخيل وهم يتسابقون، فنظر إليهم «يوقنَّا» وإذا هم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم ثلاثة آلاف فارس يقدمهم خالد بن الوليد - رضي الله عنه - وكان السبب في قدومهم أن عياضًا خاف على «يوقنَّا» وبني عمه، فأرسل إليهم في أثرهم خالدًا فوجدهم في القتال فأطلق عنانه وقال: يا أهل الإيمان، وحملة القرآن، دونكم وعبدة الصلبان، ارفعوا أصواتكم بذكر ربكم. ونظر «يوقنَّا» النصرة وقد أقبلت، فعظم شأنه والتقى بصاحب الحصن، وقد عرفه بزيه فتطاعنا طعنًا كافيًا وتضاربا ضربًا شافيًا إلا أن «يوقنَّا» طعنه فرماه إلى الأرض قتيلًا، وصنع فيهم خالد والصحابة - رضي الله عنهم - كما تصنع النار في الحطب! ولما قتل «يوقنَّا» صاحب الحصن قطع رأسه وجعله على سنانه ونادى: عمَّن تقاتلون وقد قتلنا صاحبكم؟! فلما رأوا الرأس ولى الباقون نحو الجبل، ووقع الصائح في الحصون بأن «يطالقون» قد قتل فولوا الأدبار.

قال الواقدي: وكان لـ «يطالقون» زوجة عاقلة لبيبة صاحبة رأي وتدبير، فلما رأت ما حل بزوجها وأن أهل الحصن قد قتل أكثرهم وتفرقوا بالهزيمة أيقنت بزوال ملكها وخراب بيتها، فجمعت المشايخ من أرباب دولتها، وقالت لهم: اعلموا أن الملك قد قتل وقد تفرَّق شمل من كان معه، وقد وصلكم ما صنع هؤلاء العرب مع ملوك دين النصرانية وبني ماء المعمودية، وكيف ملكوا الشام وأرض ربيعة وديار بكر وديار مصر، وقد دانت لهم الأمور وانتشر شرعهم وعلا ذكرهم ودخل في دينهم الملوك والبطارقة، وما نزلوا على حصن إلا ملكوه، ولا وافوا جيشًا إلا هزموه وقد دخلوا أرضكم، وحلوا ساحتكم فما ترون من الرأي الرشيد؟ قالوا: أيتها الملك ما تكلمت بشيء إلا فهمناه وعرفناه والأمر إليك! فقالت: الصواب أنَّكم تحقنون دماءكم، وتصونون حريمكم وأموالكم وتدخلون فيما دخل فيه أهل البلاد وتصالحون العرب فتأمنون على أنفسكم وتعيشون في ظلهم. فقالوا: هذا هو الصواب.

قالت: فلينطلق منكم رجال إلى هؤلاء العرب ويعقدوا لنا معهم صلحًا. فخرجوا من عندها وسار منهم ثلاثون رجلًا من خيارهم وعبروا الشط إلى

عسكر خالد، فلما رآهم خالد والمسلمون علموا أنهم من أهل الحصن فاستقبلوهم وسلموا عليهم ورحبوا به، ومشوا معهم إلى قبة خالد، وإذا هو جالس على التراب ووجوه أصحابه حوله وهم يكثرون من ذكر الله وليس لهم حاجب ولا بوَّاب! فسلموا عليهم فقرأ خالد «وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا»! فتقدم كبراؤهم وعلماء دينهم، وقالوا: أيكم الأمير نخاطبه؟ قال خالد: كم تبذلون لنا من المال؟ فقالوا: مهما أردتم امتثلناه. فقالوا: إنَّا لا نريد إلا ما ترضى به أهل الذمة الذين في البلد حتى تطيب قلوبهم ومن لا يَرحم لا يُرحم، ولقد سمعت نبينا – صلى الله عليه وسلم – يقول: «لا تنزع الرحمة إلا من قلب شقي». فلما سمع القوم ذلك تهللت وجوههم فرحًا وقالوا: لقد نصركم الله بحق وما نرى دينكم إلا حقًا! فأسلموا عن آخرهم وعادوا إلى قومهم واجتمعوا في كنيستهم وحدَّثوهم بما كان وبما رأوا من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وحسن سيرتهم. فقال أهل البلد: ما كنا بالذين نرفع أنفسنا عليكم لأنكم أولو الرأي والدين، وقد رضينا بما رضيتم به لأنفسكم فأسلموا إلا قليلًا منهم!

وأما الملكة فإنها لما سمعت ذلك طاب قلبها وبعثت بالإقامة والعلوفة إلى خالد وسألته أن يعبروا إلى جانبهم ونصبت لهم الجسر، فعبر خالد ومن معه ونزلوا بالبيعة بحيث تشرف الملكة عليهم وتنظر إليهم فرأت أقوامًا قد طلقوا الدنيا وطلبوا الآخرة... وليس فيهم من ينهر ولا يسفه ولا يخالف أخاه، قد اشتغلوا بالذكر! فلما نظرت إلى حسن عبادتهم نزلت إليهم، وأسلمت على أيديهم. فقال خالد: تقبل الله منك ورضي عنك، فالزمي قلعتك، فلا سبيل لأحد عليك! ونظر «يوقنًّا» إليها فقال: وددت لو كانت هذه أهلي! فأنفذ خالد يشاورها: فأجابت إلى ذلك! وبعث خالد إلى عياض يشاوره، فبعث إليه الجواب بأن زوِّجه ولا تترك من بلاد الحصن مكانًا إلا وتنزل فيه.

ذكر فتح طنز ويمهرد وأسعرد

فعوَّل على العبور إلى جانب أسعرد ويمهرد، إذ قدم عليه أهل حصن طنز للصلح وأن يكونوا طوعًا للمسلمين. فقال خالد: من أسلم منكم قبلناه وكان له ما لنا وعليه ما علينا، ومن بقي على دينه كانت عليه الجزية من العام القابل فأجابوه إلى ذلك! فكتب لهما عهدًا وعبر إلى طنز ويمهرد وأسعرد والمعدن

وأرزن، وقرروا صلحًا ورضوا به. وانقضت عدّة «جانوسة»صاحبة الحصن وتزوجها «يوقنَّا»، ولحق خالد بعياض فوجده على «سوقاريا» وهى مدينة جالوت، فلما وصل خالد إليه سلم الناس بعضهم على بعض وأقاموا هناك خمسة أيام وعوَّلوا أن يسيروا إلى بدليس وأخلاط وإذ قد جاءهم الخبر أن «طاريون» ابنة الملك وهي زوجة الغلام «يرغون» الذي فتح كفر توتا وكان من أمرها ما ذكرناه قد هربت إلى أبيها ورجعت إلى دينها. فصعب ذلك عليهم؛ إلا أنَّ«طاريون» لم تتنصر ولا عادت عن الإسلام، وإنما مضت إلى أبيها لتدبر عليه حيلة وتسلم البلد للمسلمين لأنها أرادت أن تصنع كما صنع زوجها «يرغون» بكفر توتا، فاتفق رأيها ورأي زوجها على ذلك. فقال «يرغون»: أمَّا أنا فلا أتبعك لأنني أفزع من أبيك أن يقبض عليَّ. فقالت له: الزم مكانك ولبست ثيابها وعوَّلت على المسير، وجعلت غلمانها في محل خلوة وقالت لهم: اعلموا أنِّي قد عزمت على أمر أفعله وأنا أبوح به إليكم! قالوا: أيتها الملكة ما على العبد إلا الطاعة لمولاه، فأوقفينا على سرك. قالت لهم: اعلموا أني كرهت المقام بين هؤلاء العرب، وأيضًا قد اشتقت إلى وطني وعولت على أن أخرج بكم إلى الصيد في الجبل، فإذا جنَّ الليل طلبنا أرضنا، فلما سمعوا قولها فرحوا، وقالوا:

نعم الرأي. فقالت: إني لست أكرهكم، فمن كان له رغبة أن يلبث هاهنا وهو مائل إلى هذا الدين، فليقم غير ملوم، ومن أراد الرجوع إلى وطنه فليعزم معي فإني أمضي في هذه الليلة، وحق ما أسير إليه لئن بلغني أن أحدًا منكم أفشى سري إلى يرغون أو غيره من الناس لأضربن عنقه، فمن كان عازمًا على صحبتي فليتبعني، فأجابوها إلى ذلك، فلما جنَّ الليل ودَّعت «يرغون» وخرجت ومعها اثنا عشر نفرًا كانوا لا يريدون الإسلام. وكان لها بكفر توتا اثنا عشر غلامًا قد رسخ الإسلام في قلوبهم وأحبوا المسلمين. وسارت نحو الجبل ومضت إلى أن تركت أرزن خلف ظهرها وأشرفت على بدليس، فنزل صاحبها إليها، وقدم لها إقامة وعلوفة وأقامت هناك بقية يومها.

ذكر فتوح بدليس وأرزن وأعمالها

وكان من قضاء الله السابق وقدره أنَّ عياضًا لما نزل على سوقاريا ولحق به خالد ومن معه ولحقهم «يوقنًّا» فرح المسلمون بسلامتهم وحدثه بما جرى فسجد لله شكرًا، ثم بعث «يوقنًّا» رسولًا إلى صاحب بدليس وكانت أرزن وبدليس وقف وأنظر وغيرها من القلاع لبطريق اسمه سروند بن بولص

والجارية «طاريون» نازلة هناك وسروند عندها، فلما علموا بقدوم «يوقنَّا» ركبوا إلى لقياه واختلت به «طاريون» وقالت له: يا عم لا تظن أني هاربة ولا إلى الروم طالبة وإنما أريد أن أنصح لله ولرسوله وللمسلمين وأريد أن أغدر بأبي وأقتله وأسلم معاقله للمسلمين، لكن يا عم أشر علي بما أصنع فأنت تعلم هذا الدرب لبدليس وأخلاط وعليه قلعة قف وأنظر، وإذا أرادت العرب العبور فليس لهم قدرة فما الذي تراه؟ وأخاف إن حصلت عند أبي أن لا أقدر على الرجوع إلى بعلي وإلى المسلمين. فقال لها «يوقنَّا»: اعلمي أنك إذا سرت بهذه النية فإن الله جل وعلا يفتح عليك أبواب الخير وامضي على ما أنت عليه وأنا لابد لي أن أمضي برسالة الأمير عياض إلى أبيك وها أنا أبكر فإذا حصلنا هناك كان لنا من التدبير ما يريده الله ونصل إن شاء الله إلى ما نريد وعلمها ما تصنع وودعته وعادت. فقالت: إن هذا العديم العقل يلح علي ويعذلني لأجل أن أرجع وأعود عما عزمت عليه من الرجوع إلى دين المسيح ولولا أنني أخاف ممن معه ومن صاحب هذا الحصن أن يعينه علينا لكنت قبضت عليه! ثم إنها ركبت وسارت تجد السير وأرسلت بعض غلمانها يبشر أباها بقدومها، فلما وصل البشير ارتجت المدينة وركب أبوها والبطارقة وأهل البلد لملتقاها فلقوها عند

خضريا. فلما رأت أباها ترجَّلت وترجَّل أبوها والعسكر جميعه وصقعوا بين يديها وضمها أبوها إلى صدره. وقال لها: يا ابنتي كيف كان أمرك؟ قالت: إن «يرغون» نصب عليَّ ووصل بي إلى عسكر المسلمين وأسلم فلم يمكنني ألا أن أطاوعه خيفة منهم إلى أن دخلوا ديار بكر فهربت إليك فصلب أبوها على وجهه وهنأها بالسلامة وركب وساروا والمواكب حولهم إلى أن دخلت البلد ودخلت دار المملكة فتلقاها الجواري والخدم وصقعوا لها وبكوا وبكت وأخرجت الصدقات والنذور للبيع والكنائس وباتت تحدثهم بما جرى لها وحديث شهرياض وكيف أخذت رأس العين. فقال أبوها: يا بنية كيف رأيتيهم في دينهم؟ قالت: أيها الملك! القوم يتظاهرون بالدين وأنهم يطلبون الدين والعدل حتى يرجع الناس إليهم، وليس والله دين أفضل من دين المسيح وقد نذرت نذرًا متى خلصت من يد العرب أن لا أقرب قربانًا ولا أشرب خمرًا ولا آكل لحم خنزير ولا أنغمس في ماء المعمودية حتى أتعبد في بيعة يوحنا شهرين كاملين فإذا أنا تطهرت من دينهم أقرب القربان وأقبل الصلبان ففرح أبوها بذلك، فلما كان الغد مضت إلى البيعة وأخلت لها موضعًا وجعلت تتصدق

على الفقراء وتظهر النسك والعبادة وأقامت تنتظر ما وعدها به «يوقنَّا» من القدوم بالرسالة إلى أبيها.

عن قيس بن هبيرة قال: كنت من أصحاب «يوقنَّا» حين سار بالرسالة إلى بدليس وتحدث مع «طاريون» وأنفذ صاحب بدليس إليه، وكان لما بلغه قدوم «يوقنَّا» صعد إلى حصنه فاستحضره وأنا معه فوجدناه على سرير مملكته فسلمنا عليه. فقال «يوقنَّا»: إن أمير جيوش المسلمين بأرض ربيعة وهو عياض بن غنم قد أرسلنا إليك ندعوك إلى توحيد الله ورسالة نبيه ولكم ما لنا وعليكم ما علينا واعتبر بمن تقدم من الملوك وأصحاب الأقاليم والعز فقد أصبحوا هالكين فما جوابك؟ فقال: أيها السيد إني قد كنت أردت أن أرسل رسولًا إلى أميركم في طلب الصلح وأعطيه شيئًا وأن أبقى على ديني، ومن أراد من أهل بلدي أن يرجع إلى دين القوم فلست أمنعه. فقال «يوقنَّا»: بكم يطيب قلبك أن تدفع في صلحك على بدليس وأرزن وما تحت يدك من البلاد فإني إذا أمضيت لك الصلح وقد رضيت به العرب. فقال: أيها السيد أعطيهم مائة ألف دينار وخمسمائة زردية وألف قوس وأن لا يولى على مملكتي غيري حتى أموت وأن

لا يبقى من قبلهم إلا رجل أو رجلان حتى يعلِّموا من أسلم شرائع الإسلام وأن يكون أمري نافذًا في مملكتي، ومن أسلم يكون أمره لمن يكون عندنا من قبلكم وما يكون لي عليهم حكم. فقال «يوقنَّا»: قد أمضينا صلحك وأتممنا عهدك وأنا أعطيك عهد الله ورسوله على ما ذكرته. قال وأعطاه عهد الله ورسوله وهادنه على الهيئة التي هادن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هرقل ملك الروم وحلف له عن المسلمين كلهم. قال وإن قيسًا ذهب إلى عياض فأعلمه بما استقر بينهم، فلما وصل كتاب «يوقنَّا» إلى عياض رحل من مكانه إلى أن نزل على بدليس فوجد البطريق قد أخرج ما وقع عليه الصلح، فلما قدم عياض نزل إليه البطريق وتلقاهم وحياهم بأحسن تحية وأنزلهم في أحسن منزل وقدم لهم الأموال وكتبوا بذلك عهدًا.

ونظر المسلمون من أهل اليمن وبادية العرب إلى البنات وحسنهن فمالت أنفسهم إليهن وشرب أكثرهم الخمر، فلما رأى عياض ذلك صعب عليه فأمر أن يؤتوه بمن فعل ذلك فأقام عليهم الحد وأخذ منهم حق الله وقال لهم: أكُفرٌ بعد إيمان؟! أبهذا أمرتم أم لهذا خلقتم؟! أما سمعتم ما قال من أمره بين الكاف

والنون... قال فتابوا بأجمعهم، فلما جن الليل اجتمع «يوقنَّا» بعياض وحدثه بأمر «طاريون» وما وافقته عليه وأنها قد وهبت نفسها لله تعالى ومضت تدبر كيف تعمل في تسليم البلد للمسلمين وإني وعدتها أن أسير إليها وأعينها على ذلك. فقال عياض: إذا كان الأمر كذلك فيجب علينا أن نطلع عليه خالدًا وأصحابه. فقال «يوقنَّا»: افعل ما فيه الصواب، فأرسل إلى خالد ومعاذ وقيس والمسيب بن نجبة وعمرو بن معد يكرب وعبد الرحمن بن أبي بكر - رضي الله عنهم - وحدثهم بالحديث وقال لهم: ما ترون من الرأي؟

ذكر فتح أرمينية وأخلاط وقف وأنظر

قال خالد: أصلح الله الأمير... إذا كان الأمر كذلك فابعث «يوقنَّا» رسولًا ونحن معه، فإذا حصلنا هناك يفعل الله ما يريد والحاضر يرى ما لا يراه الغائب. قال: فسيروا على بركة الله تعالى فتأهبوا وساروا وسار مع «يوقنَّا» خمسة وثلاثون من الصحابة وعشرون من أصحاب «يوقنَّا»، فلما وصلوا «أخلاط» ونظرت إليهم الروم والأرمن علموا أنهم رسل فأعلموا بذلك الملك وأنهم رسل من العرب، فأمر بإحضارهم فأتتهم الحجاب إلى باب رومية وهو باب

بدليس فرأوهم على خيولهم. فقالوا لهم: ادخلوا فأخذوهم إلى دار الإمارة وأعلموا الملك بوسطيوس بذلك فأمر بإحضارهم، فلما توسطوا الدهليز أراد الغلمان أن يأخذوا أسلحتهم.

فقال خالد: إنا قوم لا نسلم سيوفنا لغيرنا، وإن الله بعث نبينا بالسيف وقد قلدنا إياه ولسنا نزيل ما خصَّنا الله ورسوله به! فدخل الحجاب وأعلموا الملك بما قال خالد. فقال الملك: دعوهم يدخلوا كيف شاؤوا لئلا يظنوا أنا نخافهم وإنما ذاك ناموس الملك فدخلوا بهم، فلما رآهم وسلموا عليه جلسوا على الأرض كأنهم السباع وكل منهم قد جعل يده على مقبض سيفه! وقد بلغ الملك ما هم عليه من الدين والزهد في الدنيا، فأوصى أصحابه أن لا يأمروهم بأن يصقعوا له فإنهم لا يجيبونهم لذلك.

فلما استقر بهم الجلوس قال لهم ترجمانه: يا هؤلاء بما أتيتم إلينا؟ فقال «يوقنَّا»: إن أمير جيوش المسلمين بأرض بدليس قد بعثنا إليكم رسلًا ندعوكم إلى شهادة ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله أو تدخلوا فيما دخل فيه الناس وتؤدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون فأعلم الترجمان

الملك بما قاله «يوقنَّا». فلما بلَّغه الترجمان غضب وقال: وحق المسيح والإنجيل لا نعطيهم ولا ندخل في دينهم أو نموت عن آخرنا ولا يحسبوا أننا مثل من لاقوا من جيوش الروم ولنا الشدة والبأس والقوة والمراس، ونحن نرمي عن الأقواس بالنشاب والعرب تسميه قاطع الشهوات والأسباب وأنا أبعث إلى صاحب خوى وسلواس وأستنصر عليهم بأسراغوص ملك المرج ونردهم على أعقابهم ونستخلص منهم البلاد وليس عندنا جواب غير هذا! قال: فبلغهم الترجمان ما قاله فقال «يوقنَّا»: ليأذن لنا بالانصراف لنعلم صاحبنا بهذا الجواب. فقال الملك: بيتوا عندنا هذه الليلة وفي غد تنصرفون وأمر بهم أن ينزلوا في المكان الفلاني فخرجوا من عنده إلى المكان الذي أمر به فنزلوا به ينتظرون ما يكون من الجارية «طاريون».

ولما خرج الصحابة من عنده ركب من وقته إلى بيعة يوحنا واجتمع بابنته وقال لها: إن العرب قد وجهوا إليَّ رسولًا ومعه جماعة وقالوا لي كذا وكذا وأجبتهم بكذا وكذا فما ترين من الرأي. فقالت: أيها الملك أين هم؟ قال: عوقتهم هذه الليلة حتى أشاورك في أمرهم. فقالت: أريد أن أنظر من هم فإنه لا

يخفى علي أمرهم، إن كانوا من وجوه العرب النافذ أمرهم، فأمرني أن أتحدث معهم وأطيب قلبهم بأنك تصالحهم وأطمعهم بذلك، فإذا اطمأنوا بذلك أمرتك بالقبض عليهم واتركهم عندك حتى لا يكون لهم خلاص، فإذا قبضت عليهم ترسل إلى صاحبهم تقول له متى تقدمت إلينا مرحلة واحدة بعثت إليك برؤوسهم فإذا سمع ذلك لا يتقدم ويقع الصلح على أن نسلم إليه أصحابه وينصرك المسيح ويطول عمرك ويرفع قدرك وينصرفون عنك وما ثم رأي أوفق من هذا.

فقال لها: يا بنية المسيح يطيل عمرك ويرفع قدرك فقومي إليهم ودعي هذه البيعة والزمي البيعة التي في دارنا فإنك كلما أقمت ههنا كان أخوف بنا، وإن كان مقصودك العبادة ففي أي مكان كنت فيه فإن لك معبدًا، فلما سمعت قوله قالت: لست أبرح من هاهنا حتى يأمرني بترك هذا المكان فأرسل الملك وراء البترك، فلما حضر قام الملك له وعظمه وأجلسه إلى جانبه وحدثه بقصة ابنته. فقال البترك: قد أذنت لك أن تتعبدي حيث شئت وقد استوهبت ذنوبك مع المسيح وغفر لك! قال: فصلَّبت على وجهها ودعت لهم، وقدموا لها بعض مراكب

أبيها فركبت ومضت إلى المكان الذي فيه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يدخل فيه سواها وأبيها الملك، فلما رأت «يوقنَّا» فرحت واستبشرت وقالت له: أيها السيد إن أبي جاهل بكم غير عارف بقولكم وسوف أكشف له عن أموركم وحق ديني ما رأيت منكم إلا خيرًا وسوف أجازيكم على ذلك، ولولا محبة الأهل والوطن ودين المسيح ما كنت فارقتكم وخرجت هي وأبوها ومضت إلى القصر وقالت له: أبشر بما يسرك هؤلاء وجوه القوم وساداتهم والذي عليه زي الروم هذا «يوقنَّا» بطريق حلب الذي طرده المسيح عن بابه والرأي عندي أن نطلبهم عندنا إلى هذا القصر ونقبض عليهم بحيث لا يقف أحد على سرنا. قال ففرح أبوها بقولها وبعث حاجبه إلى الصحابة فأتى بهم وأنزلهم بعض حجر القصر.

قال الواقدي: وكان عمال أبيها من البطارقة والمقدمين على القلاع قد أتوا يهنئون أباها برجوعها إلى دين المسيح فقالت «طاريون»: من الصواب أن نمضي أنا وأنت إلى هؤلاء العرب ونجلس عندهم ونأكل معهم حتى يطمئنوا إلينا وأقول لهم إني أريد أن أشاور أهل بلدي وأرباب دولتي، فإما أن نصالحكم

ونؤدي إليكم الجزية أو نقاتلكم ونبعث إليهم طعامًا مبنجًا فإذا أكلوه وحكم فيهم البنج قبضنا عليهم ونفعل بهم ما نريد وأشير به عليك. فلما جن الليل أتت هي وأبوها عندها وتحدثوا ساعة ومضوا، فلما كان الغد جلس أبوها على سريره وعلمت ابنته أنه اشتغل بما هو فيه فأتت «طاريون» إلى الصحابة وقالت لهم: إذا جئت الليلة أنا وأبي فدونكم وإياه لا تمهلوه فقد اتفق رأيه على كذا وكذا فشكروها على فعلها ومضت عنهم، فلما كان الليل جاءت ومعها أبوها وتقدمت كأنها تحجبه وأشارت إليهم بأن لا تعجلوا وأمهلوه فأمسكوا عنه وتحدثوا ساعة وخرجا من عندهم.

فلما خلا مع ابنته قال لها: أما قولك نقبض على هؤلاء العرب فليس بصواب، وإني أريد أن أجمع بطارقتي وولاة أمري من الحصون والقلاع وآخذ عليهم عهدًا أن لا يخامروا عليك أبدًا وأن يطيعوك وأرسل المال والذخائر وما نخاف عليه إلى قلعة «يرقبوس» فإنها أمنع قلاع الأرض. قال الواقدي: وهذه القلعة التي ذكرت في وسط بحيرة أرجيس لا سبيل لأحد عليها. قال لها: وإذا وليتك عليها أطلق هؤلاء العرب فإنه ما سبقني أحد من الملوك إلى قبض

الرسل وأيضًا يتحدث عني أني فزعت من العرب وقد عولت على لقائهم، فإن نصرت عليهم فذاك هو المراد، وإن نُصروا عليَّ فلي أسوة بأمثالي من الملوك، وقد أرسلت إلى الملك «درفشيل» صاحب أرزن الروم بأن يأتي إليَّ بجنوده وعدَّته وعدده ووعدته أن أزوجه بأختك «فاروثة» فما ترين من الرأي؟ قالت له: أيها الملك إذا عزمت على هذا الأمر فلا تترك هؤلاء يمضون حتى يجتمع العسكر ويقدم الملك «درفشيل» بجيشه ولا يتخلف عنك أحد وبعد ذلك اترك هؤلاء، فإذا ساروا إلى صاحبهم فسر أنت في أثرهم بالجيوش واكبس عسكرهم.

فقال: يا بنية ليس من الرأي أن نطلقهم من أيدينا بل نبعث إلى صاحبهم نقول له إنهم مكرمون عندنا وقد رأينا أننا في يوم عيد ندبر فيه أمرنا فإما أن نصالحكم بأداء الجزية وإما أن نقاتلكم والله ينصر من يشاء ونأمرهم أن ينزلوا في مرج بطان فإنه مرج واسع يصلح لملتقى العساكر ونضرب معهم مصفًا، ونحن أخبر منهم بالبلاد ونمسك عليهم الحروب فما ينجو منهم أحد ونسير

إلى ديار بكر فنملكها ونأخذ أرض ربيعة ولا يبقى في هذه البلاد ملك سوانا. فقالت له «طاريون»: افعل ما تشاء. وتركته وانصرفت إلى مكانها!

فلمَّا عرفت أن أباها قد أغلق أبوابه أتت إلى الصحابة وعرفتهم بما قال أبوها فقال خالد: اللهم يسر لنا الأمر من غير تعب وإذا أراد الله أمرًا هيأ أسبابه. فقال «يوقنَّا»: وكيف ذلك يا صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –؟ فقال خالد: نعم! نحن أمورنا بحمد الله منوطة بالنصر وقد كفانا كل أمر، واعلموا أن هذا الرجل قد عوَّل أن يبعث ليجتمع ملوكه وجيوشهم ويحرضهم على قتالنا، والصواب أننا نصبر حتى يجتمعوا. فقالت «طاريون»: لقد نطقت بالصواب يا صاحب رسول الله ووفقت، ولعل أن يحصلوا كلهم في أيديكم إن شاء الله، فإن أبي لا يقدر أن يوليني إلا في البيعة بحضرة أصحاب القلاع والحصون ويأخذ لي عليهم العهد وبعدما يفعلون ذلك تثورون عليهم إن شاء الله، ولعل أن يكون في جملتهم صاحب أرزن ونرسل العبد الصالح «يوقنَّا» بزي صاحب أرزن فلعله يملكها إن شاء الله تعالى ونكون ظفرنا بالأرب! وخَرَجت من عندهم.

حدثنا صالح بن عمران أنَّه لما اتفق الرأي على الملك صاحب أخلاط على ما ذكرنا وأصبح الصباح أرسل وراء صاحب أعماله وولاة الحصون أن يحضروا عنده فأتوا بأجمعهم ولم يتخلف منهم أحد وأتى درفشيل من أرزن ومعه عسكره وكان اجتماعهم في ليالي عيدهم الكبير فزينوا البيعة وجاءت القسوس والرهبان من كل مكان ودخلوا البيعة وصلوا وقربوا القربان، فلما فرغوا من قربانهم وصلاتهم جلس الملك على سريره وابنته واقفة عن يمينه. فقال للملوك والبطارقة: اعلموا أنني ما جمعتكم إلا لأمر أعرضه عليكم وفيه سداد أمركم وملككم ودينكم وقد عوَّلت على أنني أولي أمركم الملكة «طاريون» فإنها كما علمتم من أصحاب العقل والرأي والتدبير في الحرب والشجاعة والبراعة فإن قضي علي فإنها تكون مالكة فما تقولون. فقاموا بأجمعهم وصقعوا له وقالوا: نعم الرأي الذي رأيته أيها الملك فأنجز أمرك فعندها وثب قائمًا وأزال التاج عن رأسه ووضعه على رأس «طاريون» وأمسك بيدها وأجلسها على السرير ووقف عن يمينها كأنه حاجب ووقف صاحب أرزن عن يسارها وصقعت لها الملوك وبايعوها وتقدمت القسوس والرهبان وأخذوا لها عليهم العهد والميثاق وأجابوا بالسمع والطاعة! وبعدها زوَّجوا

أخت «طاريون» بولد صاحب أرزن، وخرجوا من البيعة في خدمة «طاريون» إلى قصر الملك، وأكلوا السماط، وخلعت عليهم، وزينت المدينة، وضربوا خيامهم بظاهر البلد، وعوَّلوا على قتال المسلمين.

عن أبي الأحوص قال: بلغني أن عياض بن غنم لما وجه خالدًا إلى مدينة أخلاط واستبطأهم ساءت به الظنون عليهم فارتحل من بدليس إلى أرض أرزن ونزل بالمرج ووجه عيونه إلى أخلاط فغابوا عنه أيامًا وعادوا إليه وأخبروه أن الملك قد ولى ابنته «طاريون» على المملكة وقد عقد لها التاج على رأسها وبايعها الملوك وزينوا المملكة من أجل ذلك وقدم صاحب أرزن الروم وزوج أخت الملكة لابنه وأن القوم قد عولوا على لقائهم، فلما سمع عياض ذلك قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم غدروا أصحابنا. فقال المسلمون: كيف ذلك يا صاحب رسول الله؟ قال: لأن أصحابنا مضوا لأمر يرومونه وقد وفد عليهم. فقالوا: ثق بالله وتوكل عليه وأقام عياض على المرج عشرة أيام وحصل له مرض على أمر الصحابة فأتته الناس يعودونه. فقال: «إذا أراد الله بعبده خيرًا زاره الناس».

قال الواقدي: وعوفي عياض، فبينما هو قد ركب مع وجوه الصحابة وهم يسيرون وقلبه مشغول من قبل خالد ومن معه، وإذ قد أتاه سعيد بن زيد وهو ينادي: الوحا الوحا العجل العجل فأسرع إليه عياض وقال: ما بك يا ابن زيد يرحمك الله؟ فقال: الحق خالدًا ومن معه فقد وقعوا في بحر اللجاج وهم في وسطه! فلما سمع عياض ذلك قال: وكيف؟ قال: إن «طاريون» لما ولاها أبوها الملك وجعل العهد لها ظفرت بأبيها فقتلته وبعثت وراء الملوك على لسان أبيها، فلما جاؤوا إليها قتلتهم وإن بعض غلمانها اطَّلع على سرها فمضى إلى بقية البطارقة والولاة فأخبرهم بما صنعت فلبسوا السلاح وقعدوا على أهبة، فلما كان بالأمس ركبت هي في جيش أبيها إلى الميدان وركبنا نحن لركوبها فما علمنا إلا والقوم قد أطبقوا علينا وقالوا لنا: أظننتم أن المسيح غفل عن أمركم وأنه لا يؤاخذكم بذنوبكم، وقد أمكن الصليب منكم؟! وهمُّوا بأخذنا فقاتلناهم قتالًا شديدًا ما سمع أحد بمثله وملأنا الأرض من قتلاهم، فلما جنَّ الليل وضعت الحرب أوزارها وانفصل الجيش مع صاحب أرزن الروم وبقي مع الجارية نفر يسير من غلمانها وغلمان أبيها فأفاضت عليهم الخلع والنعم وبعثت إلى الأرمن تقول لهم: إنما فعلت ذلك شفقة عليكم وصونًا لحريمكم

لأنهم أرادوا أن يقبضوا على هؤلاء العرب ويقتلوهم فكان أصحابهم لا يتركون منكم مخبرًا! فلما بلغهم ذلك قال العقلاء منهم: والله لقد فعلت معنا كل خير! وأجابها من القوم خمسة آلاف رجل وإنِّي تركت المصف وجئت إليكم مستنفرًا! فلما سمع عياض كلام سعيد أمر الناس بالرحيل وسار سيرًا خفيفًا وخببًا إلى أن أشرفوا عليهم وإذا بالحرب قد قامت على ساقها فكبر عياض ومن معه فارتجت منهم تلك الأرض والجبال وحملوا وكان خالد وأصحابه قد أرضوا الله بقتالهم فقاتلوا قتالًا ما سمع على وجه الأرض بمثله ولم يزالوا كذلك حتى انقشع الغبار وانفصل القتال، وافتقدوا من قتل فوجدوا من قتل من بادية الأعراب مائة وعشرين رجلًا، وافتقد معاذ بن جبل ولده فلم يجده!

فلما جنَّ الليل دخل ومعه رجال من المسلمين إلى المعمعة فوجدوه يجود بنفسه وقد ناله جراحات فحملوه إلى رحله وجلس أبوه عند رأسه. فقال عبد الرحمن بن غنم -أخو عياض-: لما رأيته يجود بنفسه بكيت وانتحبت! فقال له: مه وهذه الغزوة أحب إليَّ من كل غزوة غزوتها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! وكان لما أذَّن المؤذن للظهر فما انصرف العسكر من صلاتهم إلا

وقد كفَّنه في دراعته، وهو متضمخ بدمائه، فجاءه الناس فوجدوه قد دفنه، فقالوا له: يرحمك الله هلا كنت انتظرتنا حتى نحضر جنازته. قال: ليس ذلك من السنة، فإن ذلك في الجاهلية، وقد كنا نشتهي أن نبطئ بموتانا ولكنَّا أمرنا بإنجاز موتانا! فلما دفنه في القبر ورجع إلى رحله غسل رأسه ولحيته واكتحل ولبس بُرديه وأتى إلى خيمة عياض وهو يكثر من الابتسام والتكبير، وليس به إلا ما يسليه عن ذلك، وقال: هنيئًا لك يا ولدي. فقال له عبد الرحمن: وماذا؟ قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «من مات له ابن وكان به ضنينا، وكان عليه عزيزًا فحسن عليه عزاؤه ولم ير منه شيء في قضاء الله إلا غفر له وللميت وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلًا خيرًا من أهله، وزوَّجه الله من الحور العين».

ولما طلع النهار ركب المسلمون وطلبوا الجهاد وإذا بخيل قد أتت وعليها فرسان بغير سلاح، فلما قربوا منهم ترجلوا وقصدوا الأمير فابتدر إليهم «يوقنَّا» وقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن أصحاب أرزن الروم وهذا مقدمنا، وأشاروا إلى شيخ منهم حسن الشيبة فراطنه «يوقنَّا». فقال: إن الله دلني عليكم وبت

الليلة على نية القتال فرأيت المسيح ابن مريم في النوم وهو يأمرني باتباع محمد، وقال لي: «إن نبي هؤلاء العرب هو الذي بشرت به فمن عدل عنه فليس مني»، فلما سمع «يوقنًا» قوله ترجَّل هو وجميع من كان معه ومشوا معه إلى عياض وحدَّثه بجميع ما جرى فقام له وصافحه هو والمسلمون، ثم أسلم هو ومن معه ففرحت بذلك الجارية «طاريون» وسلمت إليه أختها، وسار بها إلى أرزن وأرسلوا معه عشرة من المسلمين ليدعوا الروم إلى الإسلام ويعلموهم شرائع الدين.

قال الواقدي: وودع «درفشيل» أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وارتحل والعشرة معه حتى وصل أرزن ففرح أهل المدينة بهم وخرجوا للقائهم، فلما استقر الملك في مجلسه طلب أكابر الناس وحدَّثهم بما رآه وعرض عليهم الإسلام فأسلم أكثرهم وأقبل العشرة يعلمونهم شرائع الإسلام والقرآن، وسلم القلاع والحصون التي كانت في «أخلاط» للمسلمين، فمنهم من أسلم ومنهم من أقام على أداء الجزية من عامهم الآتي. وبعث عياض إلى خوى وسلواس وما يلي تلك الأرض فأسلم أهلها إلا القليل وبعث من

المسلمين رجالًا يعلمونهم الشرائع وأقر «طاريون» على «أخلاط»، والله تعالى هو الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.

ذكر فتح أرزن وأسعرد وجبل مارون

عن أبي إسحق الهمداني قال: إنه لما فتح الله ديار بكر وأرمينية وأخلاط على المسلمين على يدي عياض بن غنم بعد فتوح ربيعة أرسل وراء الغلام «يرغون» في كفر توتا، فلما قدم عليه قلَّده أمر أرمينية وأخلاط له ولزوجته «طاريون» وأخذ عليهما موثقًا من الله أن يعاملا الناس بالعدل وأن يتبعا الشريعة وأن يأمرا بما أمر الله ورسوله فقبلا ذلك، وارتحل عياض من أرض أرمينية بعد أن بعث أفلح مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع مائة رجل إلى بلاد العراق حتى يدعوا أهلها إلى الإسلام ووعدهم بالاجتماع هنالك. فانصرفوا بالرسالة، وأما عياض فإنه سار على طريقه التي ورد عليها إلى أرزن الروم وخرج منها إلى أسعرد إلى جبل مارون.

قال الواقدي: كان الذي أسسها السموأل بن عاديا، وكان قد سبق قبل ذلك الأبلق الفرد من أرض تيماء، ولما جاء وزير كسرى وطلبه هرب إلى هذه

الأرض وبنى له فيها هذا البلد، فلما نزل عياض عليها دعاهم إلى الإسلام فأجاب العقلاء منهم، ومن أبى أقر عليه الجزية وكتب لهم عهدًا ورحل حتى نزل على الشمطاء وأساوح فأجاب أهلها ولم تكن الجزيرة يومئذ محدودة وأن الذي بناها رجل من أهل برقعيد يقال له عبد العزيز بن عمرو وكانت دجلة قبل ذلك، فلما نزل عياض عليها زار هو ومن معه جبل الجودي وموضع السفينة، وكان بجنبها أخباث كثيرة فكانت أهل تلك البلاد تنزح الأخباث، وكان ملكها الجزيري صالح فأجاب وأطاع وكان يسكن بعاديا، وكانت تحت يده كواس والزعفران وقفير ودربيس وأماكن كثيرة ولما بلغته الرسالة أجاب صالح وأطاع وأقبل إلى عياض وأسلم وكتب لأهل بلده عهدًا وأنفذ لهم من يدعوهم إلى الإسلام.

ذكر فتوح الإسماعيليات

وارتحل عياض إلى الجانب الغربي ونزل على بلد فيها بديع القبطي فأجاب صلحًا على ما تقرر عليه؛ إلى أن نزل بالإسماعيليات، وبعث عمرو بن جند ليغير على الموصل وأعمالها فمضى وأغار وأخذ الغنائم ووقع الصايح

فخرجوا عليه وقاتلوه وانتزعوا منه الغنيمة وقاتل حتى قتل ودفن بالجانب الغربي، فلما بلغ عياضًا ذلك ارتحل من الإسماعيليات ونزل على الموصل فخرج إليه أهلها بالعدد والسلاح فكرَّ عليهم خالد بجيش الزحف فجعلهم حطامًا! ولم يكن عليها يومئذ سور يمنعهم فأخذها بالسيف، ونظر إلى نينوى فإذا هي مدينة قد أخذت السهل والجبل فقال: ما هذه؟ فقيل: هذه نينوى. فقال: لعلها مدينة يونس بن متى - عليه السلام -.

قال الواقدي: وكان ملكها يومئذ الملك «أنطاق» فكاتبه عياض فأبى فأنفذ إليه الجزيري صالح فقال: لئن لم تجب هؤلاء إلى ما أرادوه وإلا أذقتك شرًا ولا أترك لك عيشًا فكتب إليه يقول: إني أصالحهم إلى ستة أشهر حتى أرى ما يكون من أمر كسرى، فإن فتحوا بلده دخلت في طاعتهم. وكان هو تحت يد كسرى فأجابه المسلمون إلى ذلك وصالحوه على موجها ومرجها. وكتب عياض إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يعلمه بما فتح الله عليهم فكتب إليه يقول: بسم الله الرحمن الرحيم من عياض بن غنم الأشعري إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -. أما بعد: سلام الله عليك ورحمته

وبركاته فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - فالحمد لله الذي أيَّد الإسلام بنصره وأدحض الشرك بقهره، ولله الحمد على ما أولى ومنح وأزال وكشف ورفع وصرف من عظائم، وأخذ من غنائم، حمدًا يزيد الآمال انفساحًا، والصدور انشراحًا، وقد لانت الشدة من صلابتها ورقت الأيام بعد قساوتها ويسر الله تعالى أمرها، وقد أوردت الأعداء موارد المهالك، وضيقت عليهم المسالك فارتبكوا في زقاقهم، واشتركوا في وثاقهم، ولم يجدوا في الأرض نفقًا ولا في السماء مرتقى واشتد بهم الفرق وأزعجهم القلق وأنهم احتالوا وخايلوا وداهنوا وأرسلوا وأظهروا البعد عن الآثام والدخول إلى الإسلام والتنزه من الظلماء، والجنوح إلى السلم فأقررناهم على ذلك بعد أن أشرفوا على المهالك، فمنهم من أسلم وبايع، ومنهم من أقام تحت الذمة وتابع! وقد نشر الله أعلامنا، وأعزَّ ديننا، وقهر عدونا، وشد سيوفنا، وأعلى كلمتنا، وأظهر شريعتنا، وقد صرف الله سورتهم، وأخمد نارهم، وأزال نصرتهم، وكفى البلاد والعباد مؤنتهم، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته.

وبعث خمس ما تحصل من ديار بكر مع شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وضم إليه مائتي فارس وسلمه الكتاب وأمره بالمسير، وبعد أيام وصل إلى عياض من العراق عامر بن مزينة رسولًا من عند سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - يستنجد عياضًا على كسرى فأنفذ له نجدة ثم فتح الله العراق على يد سعد - رضي الله عنه -، وما جرى له من الحروب والوقائع نذكر من أمره ما كان والله الموفق.

ذكر فتوح العراق

قال الواقدي: أخبرني من أثق به، أنه لما وجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - بالجيوش إلى العراق لم يزل سائرًا حتى قدم أرض الرحبة واتصلت الأخبار بـ «اليعمور بن ميسرة العبسي»، وكان يومئذ ملك العرب بعد أياس بن قبيصة (النعمان بن المنذر) الملك من قبل كسرى بن أردشير فكتبا يعلمانه أن جيوش المسلمين قد أقبلت من المدينة، وقد وجهها عمر بن الخطاب إليك، وقد عوَّل على أخذ العراق فاستيقظ أيها الملك من غفلتك وانظر في مصالح دولتك واعلم أن هذا

الزمان هو الذي كنَّا نسمع به ولا نصدق، ونكذب به ولا نحقق، ولا نظن أن أحدًا يجسر علينا ولا يصل جيشه إلينا حتى جاء الوقت المقدور وولي المدينة عمر وهو صاحب الفتح ومصبح الملوك بشر صبوح، فقم على قدم الهمم وسر إلى أعدائك وتقدم، وقد أعلمناك لتكون على بصيرة من الأمر، وإياك أن تهمل الأمر! فرب صغير أمر عاد كبيرًا ويسير عاد عسيرًا والحرب أوله شرر وآخره نار تسعَّر والسلام! وبعثا الكتاب مع نجاب، فلما وصل به إلى كسرى وقرئ عليه انتفض لذلك واهتز على سريره وأحضر الأساورة والموابذة والديلم والسهارجة وقرأ عليهم كتاب الملوك. وقال لهم: ما ترون في هذا الأمر الذي قد وقفنا عليه وأشرفنا عليه؟ واعلموا أن هؤلاء العرب قد أخرجهم الجدب والجهد فهم ينظرون لهم مواضع يسكنون إليها وينزلون فيها، وقد أذاقوا الروم شرًا وأنزلوا بهم ضرًا وملكوا المدائن واحتووا على الخزائن.

وكانت الروم قد اجتمعوا عن بكرة أبيهم وما كان منهم أحد إلا أتى الشام وتلاقوا في الحرب بمكان يقال له «اليرموك»، وهذه شرذمة من العرب قد سرحوا بلادكم، وقد عوَّلوا على أن ينزعوا الملك من أيديكم ولا ينفعكم إلا

أن تكشفوا عن ساق العزم، وتتشحوا بوشاح الحزم وتذبوا عن أهليكم وأموالكم وأولادكم وحريمكم وبلادكم، واعلموا أن العرب لهم الطمع، وقد دخل في قلوبهم أن يملكوا بلادكم وحصونكم، متى رأوكم ناكلين عن قتالهم فاشلين عن نوالهم مالوا عليكم ميلة الأسود على فرائسها فاحسموا موادهم من أول يوم، وقد قيل في الأمثال: «من نظر في العواقب أمن غائلة النوائب»! ثم إنه فتح خزائن الأموال والخلع وخلع على الهرمزان وقدَّمه على خمسين ألفًا، وخلع على عطارد بن مهرود وقدَّمه على عشرين ألفًا، وخلع على قارين بن همام وقدَّمه على عشرين ألفًا، وأمرهم أن يضربوا خيامهم بأرض زرندان ففعلوا ذلك، وكتب من وقته إلى خراسان وما وراء النهر يستفزهم ومن معهم من الأجناد على قتال أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فلما وصلت الكتب إليهم أقبلوا يهرعون إلى العراق كالجراد المنتشر، وكان في جملة القوم شهريار بن كباد والفرحان الأهوازي والهزيل بن جسوم جاسر الهمذاني ومعهم أربعون فيلًا ووفد الجانيوس بن قتاد.

قال الراوي: فلما اجتمعت الجيوش خرج كسرى يحرضهم بأرض شهرطاق وفراشة، وكان رأس جيشه مهرمان فعرض الجيوش فإذا هي مائة ألف وخمسون ألفًا غير الأتباع وقدم الديلم والعجم وأمامهم الفيلة وعقدوا على ظهورها الأسرة بثياب الديباج وعلى كل سرير أربعون رجلًا مقاتلة، وهم يضربون بالطبول والصنوج في خراطيمها -أعني الفيلة- السيوف ليقاتلوا بها، وكان فيها فيل أعور كأنه الجبل العظيم وكان هو المقدم على الفيلة حيثما سار سارت وراءه، وإن وقف وقفت، وقد ربط وراء الفيلة عجل يحمل بيوت السلاح والأموال، فلما عولوا على المسير عاد الملك أزدشير إلى من ذكر من المقدمين. وقال: اعلموا يا أهل فارس أنكم ما زلتم ملوكًا وهيبتكم في قلوب الترك والديلم والروم والجرامقة وذلك لما كنتم عادلين في الرعية فادفعوا هؤلاء بالمال. فإن أبوا فدونكم والسيف وودعوه وساروا.

ذكر فتوح الخورنق وقتل النعمان بن المنذر وفتح الحيرة والقادسية

أخبرنا سليمان بن عامر قال: بلغني أن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قدم العراق في ثلاثين ألف فارس من بجيلة والنخع وشيبان وربيعة وأخلاط

العرب وما منهم من قدم العراق إلا بأهله وولده، وما قدم أحد من ملوك الفرس إلا بماله كله حتى يقاتلوا بجد وعزم وبذلك وصاهم الملك كسرى. وإنَّ سعدًا - رضي الله عنه - ارتحل من الرحبة إلى الحيرة البيضاء وكان هناك جيش النعمان بن المنذر وقد ضرب خيامه والسرادقات إلى ظاهرها، وقد أضاف إليه جميع العرب وهم من العراق في ثمانين ألفًا وقد أفاض عليهم النعمان النعم والخلع ووعدهم من الملك كسرى بكل جميل وقال لهم: إن هؤلاء عرب وأنتم عرب وهلاك كل شيء من جنسه، وهؤلاء مثلنا وليس لهم فضل علينا وقد جعلنا الأكاسرة مقدمي دولتهم حتى نكون لهم ركنًا وعلى أعدائهم عونًا وليس لأصحاب محمد فخر يفتخرون به علينا لكن نحن لنا الفخر عليهم وهم يزعمون أن الله بعث فيهم نبيًا وأنزل عليه كتابًا يقال له القرآن، ونحن لنا الإنجيل وعيسى ابن مريم وجميع الحواريين، ولنا المذبح، ولنا القسوس والناقوس والرهبان والشمامسة، وعلى كل حال ديننا عتيق ودينهم محدث فاثبتوا عند اللقاء وكونوا عند ظن الملك كسرى بكم. فبينما هو يقول ذلك إذ جاءه عمه إلياس وهو صاحب الحرس، فقال له: أيها الملك إن أعداءنا قد أنفذوا إلينا رسولًا. فقال: ائتني به، فأحضره وكان الرسول سعد بن أبي عبيد القاري.

فلما وقف بين يدي النعمان صاح به الحجاب والغلمان قبِّل الأرض للملك فلم يلتفت إليهم. وقال: إن الله أمرنا ألا يسجد بعضنا لبعض لا ولعمري إن هذه كانت العادة المعروفة في الجاهلية قبل أن يبعث الله نبيه محمدًا – عليه السلام –. فلما بعث جعل تحيته السلام، وكذا كانت الأنبياء من قبله. وأما السلام فهو من أسماء الله تعالى. وأما تحيتكم هذه فهي تحية جبابرة الملوك. فقال النعمان: لسنا من الجبابرة، بل نحن أجل منكم لأنكم توحدون في دينكم وتقولون إن الله واحد وتجحدون ولده عيسى ابن مريم. فقال سعد: أخبرني عن ابن مريم أكانت القدرة فيه حالَّة أم ربانية؟ وجرى بينهم كلام كثير. فأعجب النعمان كلام سعد وقال له: يا ويح قومك ما الذي جئت به؟ فقال: الأمير سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – وجهني إليك إذ أنت من العرب ويصل إلينا ما نقص عليك وهؤلاء القوم علوج ليس لهم شريعة يؤدونها ولا فريضة يتبعونها ونحن ندعوكم إلى شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله فيكون لكم ما لنا وعليكم ما علينا، فإن أبيتم فأدوا الجزية، فان أبيتم إلى ما دعوناكم إليه فائذنوا بحرب من الله ورسوله.

فلما سمع النعمان كلام سعد ضحك استهزاءً بقوله وقال: لقد حدثتكم أنفسكم بالأباطيل أظننتم أن الفرس مثل الروم! لا وحق المسيح، بل هؤلاء أثبت جنانًا، وأشد طعانًا، وأوسع ميدانًا، فليت شعري من نفخ في معاطسكم وحسن الأمل في أنفسكم حتى جئتم من قحط البلاد ترومون ملك الأساورة وأخذ بلاد الأكاسرة ودونه حرب تصطفق أجرامه وتشب ضرامه، وهذا الملك أزدشير قد أنفذ جيوشه وعساكره وكأنكم بهم وقد أقبلوا فينالون منكم ما يؤملون وما حدثتكم به أنفسكم تزيلونه من قلوبكم. فقال سعد بن عبيد: يا نعمان! لقد تشدقت بالباطل، وتفوهت بكلام غير عاقل، أما علمت أن العاقبة للمتقين، والله بكرمه يرفع عنا البأس، ويظفرنا بجميع الناس، وقال نبيه - صلى الله عليه وسلم -: «ستفتح على أمتي كنوز كسرى وقيصر». فأما كنوز قيصر فقد فتحها الله علينا وقد بقيت كنوز صاحبك. فقال النعمان: من أين كان لصاحبك العلم ومن أين ورثه، وقد بلغنا أنه كان لا يكتب ولا يقرأ؟! فقال سعد: بصرَّه الله بالعلم في القدم وعلم ما كتب في اللوح المحفوظ بالقلم. فلما سمع النعمان كلام سعد، قال له: يا ويح قومك ارجع إليهم فليس عندنا جواب إلا السيف. فركب سعد وعاد فوجدهم قد نزلوا بالقرب منه فحدث الأمير سعد بن أبي

وقاص - رضي الله عنه - بما جرى له مع النعمان بن المنذر وما كان من جوابه، وجعل الأمير سعد ينشد:

سأحمل فيهم حملة عربية ... ولا أنثني والله عنهم بعسكري

فإما نرى النعمان في القيد موثقًا ... وإما طريحًا في الدماء المعفر

ثم أمر الناس بالرحيل فرحلوا وساروا إلى أن أشرفوا على جيش النعمان. فلما رأوا جيوش سعد أمر الناس بالركوب فتبادرت العرب إلى خيولهم فركبتها وجنبت الجنائب وضربت الكاسات وتبادرت الأبطال ونشرت الأعلام، فلما وصل سعد - رضي الله عنه - ولقي القوم قد أخذوا أهبتهم رتب جيشه وصفهم وألفهم، وجعل في الميمنة سعد بن عبيد القارئ وفي الميسرة سعد العشيرة وفي الجناح الأيمن سعد بن نجبة وعلى الجناح الأيسر سعد بن الأقيس الهلالي وأقام الأمير سعد - رضي الله عنه - في القلب ومعه أبو محجن الثقفي وزهرة بن جويرية وشرحبيل بن كعب.

عن أبان عن الحسن قال: لما استوت الصفوف وترتبت كل قبيلة جعل الأمير سعد يتخلل الصفوف ويعظ من فيها من عرب بجيلة وطيء وبني هلال

والنخع وغيرهم ويقول: هذا يوم لا نرى بعده مثله أما بلغكم ما فعل إخوانكم بالشام لما تكاثرت عليهم جموع اللئام؟! فاستيقظ المسلمون بقول سعد - رضي الله عنه -. وقالوا: نحن نحمل عليهم بشدة العزائم ولعل الله أن ينصرنا عليهم، فصاحوا بخيولهم فخرجت كالرياح العواصف ولم يزالوا في القتال الشديد إلى أن توسطت الشمس في قبة الفلك، وقد ثبت أصحاب النعمان بن المنذر للضرب والطعان.

قال الواقدي: وإن القعقاع بن عمرو التميمي أو بشر بن ربيعة التميمي - أحدهما- التقى مع النعمان في كبكبة من الخيل والازدهارات على رأسه فحمل القعقاع -أو بشر- على الكبكبة ففرَّقها وعلى الكتيبة فمزَّقها ورمى النعمان بطعنة في صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره. فلما نظرت جيوش الحيرة إلى الملك النعمان مجندلًا ولَّوا الأدبار يريدون القادسية نحو جيش الفرس وغنم المسلمون رحالهم وأموالهم وباتوا فرحين وافتقدوا من قتل منهم فكانوا خمسمائة وثلاثين ختم الله لهم بالشهادة، وفي ذلك قالت خزانة بنت خالد بن جعفر بن قرط ترثي من قتل من المسلمين:

فيا عين جودي بالدموع السواجم		فقد شرعت فينا سيوف الأعاجم
فكم من حسام في الحروب وذابل		وطرف كميت اللون صافي الدعائم
حزنًا على سعد وعمرو ومالك		وسعد مبيد الجيش مثل الغمائم
هم فتية غر الوجوه أعزة		ليوث لدى الهيجاء شعث الجماجم

وإن المسلمين جمعوا الأموال واحتوى سعد - رضي الله عنه - على قصر الخورنق والسدير، وترك جميع ما أخذه بالحيرة، وترك عنده سالم بن نعيم بن مسروق معه مائة من أبناء المهاجرين والأنصار. وأما من انهزم من جموع النعمان بن المنذر فوردوا على القادسية وعليها جنود الفرس مع رستم زاده بن إسفنديار ومعه....

فلما رأوا المنهزمين من جيش النعمان، سألوهم عن أمرهم، فأخبروهم بقتل النعمان وأخذ الحيرة وقصر الخورنق والسدير وجميع ما فيها. فوقع التشويش في عسكر الفرس وتمكن الخوف من قلوبهم وكثرت الأراجيف، وأما رستم فإنه جمع الملوك والأساورة وملوك الديلم في خيمته وقام على سريره خطيبًا، فقال: اعلموا أن الدولة بالسياسة والناموس بالرياسة، وكأنكم بالعرب وقد أشرفوا عليكم فاخرجوا واذهبوا إليهم واركبوا. فخرجوا من عنده وأخذوا

أهبة الحرب، فبينما هم كذلك إذا بعسكر سعد - رضي الله عنه - قد أشرف عليهم وهم على الخيل المضمرة العربية وعليها الفرسان الإسلامية والطائفة المحمدية، فرتبوا الصفوف وجعل رستم ملوك الفرس عن يمينه، وملوك الديلم عن يساره، ووقف رستم في القلب ودارت به الأساورة.

فبينما هم كذلك إذ بعث الأمير سعد - رضي الله عنه - رسولًا إلى رستم وكان الرسول أبا موسى الأشعري، فقصد القلب، فلما رآه الحجاب أتوا إليه والترجمان معهم فقالوا له: يا عربي ما الذي تريد؟ قال: أنا رسول من عند صاحب الجيش، فبلغوا رستم ما قاله أبو موسى الأشعري... فقال: قولوا له ما لك وصول إلى المقدم ولكن أفصح لنا عما تريد حتى نأتيك بجوابه. فبلغه الترجمان ما قاله. فقال أبو موسى - رضي الله عنه -: قل له ندعوكم إلى الشهادة فإن أبيتم الإسلام فأدوا الجزية فإن أبيتم فالسيف أصدق شاهد، وقد قال الله في كتابه العزيز: «وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ»! فبلغهم الترجمان ذلك، ورجع أبو موسى إلى سعد - رضي الله عنه -، فلما جنَّ الليل هرب من عسكر رستم جماعة والتجؤوا إلى عسكر المسلمين، فلما أصبح رستم بلغه أن جماعة من

عسكره هربوا إلى عسكر المسلمين، فبعث رسولًا إلى سعد يطلب منه أن يرد عليه الذي هرب من الأساورة والمرازبة.

فقال سعد - رضي الله عنه -: إنَّا قوم لا نضيع ذمامنا ولا ننقض عهدنا، وقد أتوا إلينا مستسلمين وفي صحبتنا راغبين فيجب علينا أن نذب عنهم ولا نمكن أحدًا منهم فعاد الرسول إلى رستم وأعاد عليه الجواب، فغضب وأمر الجيوش بالزحف. وكان الذي هرب إلى جيش سعد شاور بن سليم ونسليك بن أكتم وضرار بن مكتال ومن تبعهم، فلما رأوا العساكر قد أقبلت تريد المسلمين قال القعقاع: أيها الأمير قد تقدمت الأعداء والفيلة أمامهم ولا مقام لخيل العرب عند رؤيتها وصياحها. فقال سعد - رضي الله عنه -: أخلصوا النيات وارضوا خالق الأرض والسموات، وارشقوا الفيلة بالنبل واقطعوا مشافرها بالسيوف. وكان أمام الفيلة فيل عظيم كأنه جبل وكان إذا سار سارت وإذا وقف وقفت، وأينما توجه كانت وراءه. فلما حملت الكتائب واضطربت المواكب، وجاءت الفيلة كأنها جبال وعلى ظهورها الأبطال، وقد أقبلت بالسيوف في خراطيمها فقتلت من عسكر المسلمين، ولم تثبت لها خيل المسلمين، فرفع سعد بن أبي

وقاص كفيه مبتهلًا بالدعاء لرب الأرض والسماء وقال: «رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

قال زهرة بن جويرية: فوالله لقد رأيت سعدًا يدعو وعيني مع الفيلة وإذا بالفيل الأعور قد ولى يريد المدائن والفيلة بأجمعها، والرجال لا يقدرون على ردها وهي سائرة على وجوهها، وكفى الله المؤمنين القتال من الفيلة، فلما ولَّت الفيلة غضب رستم وأقبل بعموده الذي من الذهب يضرب به وجوه الفيلة ويطمطم بفارسيته ويحرض قومه على القتال وهم يحملون خوفًا منه وهو يطلب من هرب من جيشه والخيل أمامه منهزمة والمسلمون لا يتبعون المنهزمين وأوقفوهم مواقفهم، وقد طابت قلوبهم بمعاملة الله، فطعنوا في صدور الأعداء وقد اطلع الحق على قلوبهم، فما وجد فيها غيره، فبينما الأمير سعد يحرض على القتال إذ لقيه الأسود العبسي وهو طائش العقل ذاهل اللب. فقال له: ما وراءك يا ابن قيس؟ فقال: أيها الأمير إياك أن تعبر هذا الصف، فإن فيه الموت الأحمر والضيغم القسور، وهو جبار من الفرس، وقد قتل من

المسلمين أربعة، ولقد قاتلته حتى كاد أن يأتي عليَّ ولولا أن منَّ الله عليَّ بخالد بن جعفر بن قرط لكان قتلني، لأن فيه شجاعة وبراعة.

فقال سعد: يا مسكين وأين المفر من المقدور وقد قدَّر الله الأقدار، أما سمعت قول الملك الجبار: «أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ»، ودخل الصف الذي ذكره الأسود، وإذ قد لقيه خالد بن جعفر، ولونه قد تغير. فقال له: ما وراءك يا ابن جعفر؟ فقال: الثعبان الأغبر، والأسد الغضنفر، أيها الأمير ارجع عن هذا الفارس، فإنه علج عنيد، وفي يده عمود من الذهب، يورث به خصمه العطب، وقد قتل الأقران، وأباد الشجعان، وقد كاد يقضي عليَّ لولا سعد العشيرة أدركني لكان أهلكني، فلما سمع سعد ذلك عظم عليه وقصد مكانه يريد أن يفدي الناس بنفسه وبروحه، ويبدد في سبيل الله مهجته، وهو يخترق الصفوف فلقي سعد العشيرة، فقال له: ما وراءك يا ابن لؤي؟ قال: ورائي جبار لا يقابل وبطل لا ينازل، ولولا بشر بن ربيعة لسقاني من عموده كأس القطيعة، فلما سمع قوله قصد نحوه، فوجد بشرًا مصفر اللون، فقال له: ما وراءك يا ابن ربيعة؟ فقال: ما قصَّر القعقاع أنِّي لولاه لكنت من

الهول على غرر، فسار سعد على طريق بشر وقد سلك سبيل توفيقه فلقي القعقاع وهو يفرق الكتائب ويصدم المواكب. فقال له: لله درك يا ابن عمرو أين فارس الفرس وكيف خلص من يدك؟! فقال: أيها الأمير لولا أنه دخل الصفوف لسقيته كأس الحتوف، وغاص في وسط الخيل ولم أبلغ منه النيل!

قال الواقدي: ولم يزل القتال بين المسلمين والكفار، إلى أن فرَّق الليل بينهم فرجعت كل طائفة إلى مكانها، فلما رجع رستم إلى سرادقه بعث غلمانه إلى مقدمي عسكره فحضروا. فقال لهم: لقد خذلتم ونزل بكم العار والبوار، فما الذي خذلكم وأي شيء شغلكم ونزل بكم وأنتم أولو البأس الشديد والأمر العتيد، وهؤلاء قوم كنا لا نعبأ بهم ولا تحدثنا أنفسنا عنهم بأمر، وقد خذلوا فرسانكم وأوردوهم موارد الهلاك وقتلوا منكم الصناديد، فبأي وجه ترجعون إلى المدائن وبم تحتجون عند الملك أزدشير، وإني أرى دولتكم قد انصرمت، وأيامكم قد انقضت؟! فقالوا: أيها السيد لقد بلينا بقوم لا يرهبون الموت، ولا يجزعون من الفوت، وكلما طعنا صدورهم تقدموا، وكلما قفلنا جموعهم صدموا. فقال رستم: ما أرى من الرأي إلا أننا في نصف الليل نكبسهم فلعلنا

نظفر بهم ويكون لنا عند الملك اليد البيضاء، فاستصوبوا رأيه وافترقوا لأجل أن يصلحوا شأنهم.

قال الواقدي: حدثنا عامر بن سويد قال: لما رجعنا من قتال العدو إلى خيمة سعد - رضي الله عنه - رأيناه جالسًا على التراب، فلما رآنا قال: مرحبًا بقوم هجروا الدنيا وطلبوا العقبى كيف كان يومكم؟ قلنا: لقد شفينا نفوسنا من الأعداء ونصرنا شرع نبينا المصطفى، ولقد رميت منا رجال كثيرة من المسلسلة بنشابهم. فقال سعد - رضي الله عنه -: اجمعوا إلي العسكر جميعه وأمروا غلمانكم أن يجمعوا الشيح والقيسوم فإني أريد أمرًا أرجو لكم به النجاة من الله، قال ففعل القوم ذلك. فقال للموالي: اجعلوا ما جئتم به من الشيح والقيسوم على ظهور الإبل ووجهوها نحو المسلسلة. فإذا قربتم منها فأضرموا النار في ظهور الإبل والذعوها بأسنة الرماح حتى تدوسهم، ونحن من ورائكم بسيوفنا. ففعلوا ذلك، فلما أتى الليل تقدموا أمام العسكر بالأموال والموالي من ورائهم إلى أن قربوا من المسلسلة وأطلقوا النار في الشيح ولذعوا الجمال بالأسنة، فلما رأت الجمال ما على ظهورها من النار وما حل بها من الأسنة داست صفوف

المسلسلة دوس الحصيد وحطمتها على وجه الصعيد وركب الأمير سعد - رضي الله عنه - مع الجيش ووضعوا السيف فيمن بقي من المسلسلة فبينما هم كذلك وإذا بعساكر الفرس قد أتوا وارتفع الضجيج، وعلا العجيج، وسميت تلك الليلة بليلة الهديرة ولم يزالوا في القتال إلى الصباح.

وسمعت قائلًا يقول: كفيناكم! فقلت: من أنتم؟ فقالوا: نحن من خزيمة النخع، ولم يزالوا يقاتلون حتى ما بقي منهم أحد ولا بقي لهم نسل، فلما طلعت الشمس وركب رستم بن إسفنديار وركب جيشه عن آخرهم ووقفوا بأجمعهم فاستقبلهم الموحدون وسعد - رضي الله عنه - يتخلل الصفوف ويعظهم ويوصيهم -أي الأمراء- وكان في الليل قد طاف على العسكر فرأى أبا محجن الثقفي يشرب الخمر، وقال له: عدو نفسه لقد محوت أجر جهادك وعبادتك والله لآخذن منك حق الله وجلده الحد وقيده.

عن طلحة ومحمد قالا: إن أول من فتح الحرب رستم وطلب البراز فخرج إليه نجبة فقتله فخرج زهير فقتله فأراد القعقاع أن يخرج وإذا بفارس قد أقبل إلى رستم وهو كالريح في هبوبها فصاح برستم صيحة أدهشته وطعنه في خاصرته

فأطلع السنان من الخاصرة الأخرى فنظر إليه سعد - رضي الله عنه - فإذا هو أبو محجن وقد صنع ذلك برستم، قال المتوكل عليه: سألتك بالله أن تتركه.

عن عبد الله بن المبارك قال: لما نزل سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - على القادسية وقاتل عسكر الفرس وانهزمت الفيلة إلى المدائن، وكان سعد - رضي الله عنه - يتنكر في الليل ويمشي في عسكره فمر في بعض الليالي برجال من ثقيف فوجد أبا محجن وهو يشرب ويترنم على خمرته فلما رآه غضب وقال له: لقد ذهب أجرك ونقص قدرك بعد جهادك للكافرين تتعرض لغضب رب العالمين، أترضى لنفسك بذلك ثم إنِّه حدَّه وقيده وجعل عليه من يحفظه! فلما كان من الغد ووقع الزحف وبرز فارس العجم وكان منه ما ذكرناه عاد إلى القيد، فلما قتل رستم بمشاهدة الناس أتى إليه سعد ليعلم حقيقة الأمر فوجده في القيد. فقال له يا أبا محجن: أنت صاحب الفيلة؟ فقال: الفضل لله ولرسوله! فأقسم عليه فحدَّثه بحديثه. فقال له: إذا كان هذا صنيعك فاذهب، فقد عفوت عنك، ومن عاد فينتقم الله منه! فقال أبو محجن: والله ما عدت أشربها أبدًا... وتاب.

قال الواقدي: حدثنا زائدة عن جده مروان بن أوس. قال: كنت بالقادسية، وشهدت فتحها فلما قتل رستم وولده عجزشير وولت الفرس على عقبهم لا يلتفت أحد منهم إلى ما وراءه من الأموال والأصحاب وما لهم قصد إلا السلامة لأنفسهم، وأتى نساء المسلمين ومعهم الماء فحزن بين القتلى والجرحى فمن وجدنه من المسلمين فيه الرمق سقينه الماء ونضحن على وجهه، وينقلن من قتل من العرب إلى العرب ويتركن رمم الفرس.

قال الواقدي: حدثنا سليمان بن بشر عن أم كثير امرأة همام بن الحرث قالت: شهدت القادسية مع سعد - رضي الله عنه -، فلما نزل النصر وانهزمت الفرس شددنا ثيابنا وأخذنا الماء وابتغينا القتلى فمن كان من المسلمين سقيناه ورفعناه، ومن كان من المشركين أخذنا ما عليه.

حدثنا الحرث عمن أدرك ذلك قال: لم يكن من قبائل العرب أكثر نساء من نساء بجيلة والنخع وكانوا في ألف وسبعمائة امرأة. وأخذ المسلمون عدة لم يروا مثلها وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد وسفيان بن سليم والمهلب بن غزوان والقادح بن عنبسة ونعمان بن نعيم وأربعون رجلًا من المهاجرين

والأنصار وسنذكر من قتل ممن كانوا يقرؤون القرآن إذا جن الليل كدوي النحل. قال وأخذ المسلمون من الأموال ما لم ير مثله، ولما كان بعد الفتح بيوم جاءت النجدة التي بعثها عياض بن غنم من أرض الموصل وجاء من شهد الفتوحات بالشام مع عامر بن الجراح، وكان الذين قدموا سبعمائة، فلما وصلوا إلى عين التمر استعجل للنصرة فترك الجيش وسار في سبعين فارسًا وأتت بقية السبعمائة بعد ذلك، وكان معه قيس بن عبد يغوث وقيس بن أبي حازم وسعيد بن نزار ومالك الأشتر النخعي فتقدم هاشم وقيس معه في السبعين.

عن سليمان بن أرقم أن عدة القتلى بالقادسية تسعة وثمانون رجلًا، وكان المشهور منهم قيس وعطارد وهشام ومذعور ومقرب الأسود وعمرو بن قيس والنعمان.

قال الواقدي: وبلغنا عن رجل من تميم عن امرأة منهم قالت: شهدت القادسية وضم للنساء لكل واحدة منهن ثلاثة وثلاثون مثقالًا من العنبر ومثلها مسك، وأما الكافور فما كنا نعبأ به إلا من عرفه، وكانت العرب تقول للسوقة: هل لكم من ملح طيب وكانوا يعطون كيل كافور بكيل ملح، وأن رجلًا من

العساكر عجن عجينًا وجعل فيه من الكافور وجعل يفرقه بعد خبزه ويقول: ما لهذا الملح لا يطعم في العجين؟! وأن رجلًا ممن له خبرة بالملح قال: أعطيكم جراب ملح يطعم طعمه. فأخذوه وأعطوه ملء جرابه كافورًا غال!

وأن سعدًا - رضي الله عنه - لما هزم الله العدو على يديه جمع الأموال كلها وكان الذي يقبض الأموال سليمان بن ربيعة. فكتب إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من العامل بالعراق سعد بن أبي وقاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. أما بعد: سلام عليك وإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - وإنا وصلنا إلى العراق والتوفيق يقدمنا، والنصر يؤيدنا، وقد اطلع الله على قلوبنا وامتحن خفي أسرارنا فما وجد فيها سواه، ولا نعبد إلا إياه، فوفى لنا بوعده إذ وفينا بصادق عهده، فلقينا العدو وهو شاكي السلاح، وغير راجع عن الطماح، وقد شمر لنا عن ساق الجد فدارت لنا عليه الدوائر فهزمنا كتائبهم ونزلنا مواكبهم، واستأصلنا شأفتهم، وقتلنا مقدمهم، فجرى بذلك سابق القدر «فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ» (القمر:٤٢)، وملكنا الحيرة والقادسية، وأنزل الله

بأعدائنا الرزية، فلما كان بعد الفتح بيوم قدم المرقال وهشام وسبعون رجلًا من الصحابة وبعده بثلاثة أيام قدم سبعمائة من الشام من جند أبي عبيدة ولم أسلم لأحد شيئًا من الغنيمة، ونحن ننتظر أمرك في ذلك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وعلى جميع المسلمين. وسلم الكتاب إلى زيد بن عمرو فركب نجيبه وسار نحو المدينة.

حدثني سابق بن مسلم قال: وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يركب كل يوم نجيبه ويقصد طريق العراق إلى قريب الظهر، وذلك لما بلغه أن رستم نزل على القادسية. فخرج على عادته إذ لقيه البشير وهو نوفل، فلما رآه نوفل أبرك ناقته وسلم على أمير المؤمنين، وقال له: أبشر بكل خير ودفع إليه كتاب سعد وهو يقول: قد هزم الله العدو ونصر الموحدين وملكنا الحيرة والقادسية بهم! فرقي المنبر وقرأ عليهم كتاب سعد، وقال: ألا وإن إخوانكم المسلمين يقرئونكم السلام، وقد اتبعوا الكتاب والسنة وحادوا عن طريق البدعة وأقاموا على شرائع الهدى، وأرادوا المشورة فيمن قدم عليهم، فأما

الجواب فالغنيمة لمن شهد الوقعة والمواساة لمن لحق بهم بعد الوقعة بثلاثة أيام.

ونزل عن المنبر وكتب إلى سعد: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه - صلى الله عليه وسلم -، وقد وصلني كتابك فحمدت الله كثيرًا بما فتح الله على أيديكم وإني قد أبليت بكم وأبليتم بي، وإني والله لا أحصي شيئًا من أموركم فأعلمه، وأما إذا اجتمع صلح فإذا أشفق الوالي ونصحت الرعية وعمل الإحسان وعلى الرعية الصبر والشكر، وأما الغنيمة فلمن شهد الوقعة والمواساة لمن أتى بعد ثلاثة أيام، ومن شهد حربكم من مملوك وعتيق بعد ثلاثة أيام فأشركوه والزموا الإحسان فيما فتح الله عليكم. وختم الكتاب وسلمه للرسول فسار يجد السير إلى أن أتى سعدًا - رضي الله عنه - ودفع إليه الكتاب، فلما قرأه كتب إليه بعد البسملة يعلمه بما تجدد. أما بعد: يا أمير المؤمنين فإني لم أر فارسًا مثل القعقاع بن عمرو التميمي - رضي الله عنه - فإنه حمل في العدو في يوم واحد ثلاثين حملة يقتل في كل حملة فارسًا ولم أر فارسًا مثل الحرث الكندي فإنه كان يحمل في

المواكب فيقصم عروقها. وأرسل الكتاب الثاني والخمس مع سعد - رضي الله عنه -، قال: ووصل المنهزمون من الفرس إلى المدائن ودخلوا الإيوان وحدثوا كسرى بما جرى وبقتل رستم وولده فاغتم لذلك وأيقن أن دولة الفرس قد انقرضت وانصرمت فاحتجب ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع مات لأنه حمل الهم على قلبه فقام بعده ولده يزدجرد ولم يكن له غيره.

حدثنا نعيم عن جده وحسان أحفظ الناس للفتوح. قال: لما وجه كسرى بن أزدشير رستم إلى قتال سعد - رضي الله عنه - أنفذ معه نصف بيت ماله، وهي ستمائة ألف ألف إلى المصف، فلما صفت الصفوف وضعها أمام الجيش، وقال: كل من قتل فارسًا كان له كذا وكذا! ومن قتل راجلًا فله كذا وكذا! فصار ذلك كله إلى المسلمين فأرسل الخمس مع سعد وهو مال كثير لا يحصى عدده لكثرته، فلما وصل المال لعمر بن الخطاب بكى، وقال: أف لمن يغتر بالدنيا أو يميل إليها ثم قرأ: «قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى»، فوالله لم يلتمس منه قليلًا ولا كثيرًا ولا درهمًا ولا دينارًا، فقالت له حفصة: يا أمير المؤمنين لو رفقت بنفسك وأكلت طعامًا أطيب من طعامك ولبست ثوبًا

أميز من ثوبك فقد فتحت لك الفتوح، وأتت الأموال فتمعَّر وجهه غضبًا، وقال لها: ناشدتك الله أخبريني عن أفضل ما اقتنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من بيت مال المسلمين؟ قالت: ثوبان كان يلبسهما يوم الوفد ويخطب فيهما يوم الجمعة والعيدين. فقال: أي طعام كان يأكل عندكنَّ؟ قالت: خبز الشعير، وكان عندنا في أسفل عكة دسم فإن تظاهر طعمه فيها يقول: قد زدتنَّ في الدسم. قال: فأي بساط كان يبسطه عندكن؟ قالت: كان لنا كساء نجعله في الصيف تحتنا، وفي الشتاء نفرش نصفه ونلتحف بنصفه. فقال يا حفصة: إن مثلي ومثل صاحبي كثلاثة نفر تتابعوا طريقًا فمضى الأول وقد زاد فبلغ، ثم تبعه الثاني فسلك طريقه فمضى إليه، ثم تبعهما الثالث فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما كان معهما وأن سلك غير طريقهما لم يجتمع معهما أبدًا.

ذكر فتح نهمشير

قال الواقدي: وإن عُمرًا - رضي الله عنه - بعث إلى سعد - رضي الله عنه - بأن يمضي إلى المدائن وأن يخلف النساء والأولاد في الحيرة وعندهم من الجند جماعة ويجعل لهم شركة في كل مغنم وكان مقام سعد - رضي الله عنه

- بعد الفتح بالقادسية شهرين، فلما استهل الشهر الثالث أنفذ على مقدمته زهرة بن جويرية وأتبعه بعبد الله وشرحبيل بن الشمطاء وأتبعهما بهاشم بن عتبة وخالد بن عرفجة صاحب الساقة وقسم الجيش معهم وقد غنموا ما كان في عسكر الفرس من مال وسل اح وكراع، وكان رحيلهم من القادسية لبضع أيام مضين من شهر شوال. ونزل زهرة بالكوفة بمن معه ولحق به عبد الله وشرحبيل بمن معهما وتتابعت الجيوش وارتحل زهرة وسار إلى بالس ونزل عليها وإذا بأناس من أهل السواد أتوا إليه وطلبوا منه أمانًا فأعطاهم وقال لهم: ما عندكم من خبر العدو. فقالوا: أيها الأمير استعمل الحذر جلبابًا والتيقظ بابًا، واعلم أن رجلًا من المرازبة قد ضمن لكسرى لقاءكم وردكم ومعه عسكر جرار. فقال زهرة: أبعد الله شره وجعل كيده في نحره، فبينما هو كذلك إذ أشرفت عليهم طلائع القوم وتبينت لهم البيارق والازدهارات فركب زهرة للقائهم ورتب أصحابه للحرب وهو يقول: «إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ» (آل عمران: ١٦٠)، قال الواقدي: ولما أشرفت الكتائب أطلقوا ألسنتهم بذكر الله وتسارعوا إليها فأوسعوا لهم الميدان وتقدمت الصناديد وتأخرت الرعاديد وضج المسلمون بالتكبير وطعنوهم في صدورهم ونحورهم وإذ قد وقعت عين

زهرة على فارسهم العتيد وبطلهم الشديد فقصده دون غيره وتطاعنا وتضاربا وتقاربا وتباعدا، ثم إن زهرة رماه بطعنة في صدره فأخرج السنان من ظهره فخر إلى الأرض صريعًا، فلما رأوه ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وكان فيهم رجل من أكابرهم ذو عقل سديد ورأي رشيد، فلما رأى ما حل بقومه أتى إلى زهرة طائعًا مختارًا وعقد له معه صلحًا فأعطاه أمانًا وسأله عن خبر جيوش كسرى. فقال: يا سيد قومه اعلم أن أكابر من انهزم منهم بالقادسية قد اجتمعوا وهم النهرجان والمهراق الداري والهرمزان. فقال لهم القيروان: بأي وجه تعودون للملك كسرى وقد أعطاكم الوظائف والعطايا والولايات فأقيموا هنا حتى تبيض وجوهنا عنده أو نهلك عن آخرنا.

فلما سمع زهرة وعبد الله وشرحبيل وهاشم وخالد انتظروا سعدًا حتى أتى وأعلموه. فقال: استعينوا بالله وتوكلوا عليه وكانوا قد ملكوا الجسر فعبروا عليه وعدوا إلى الجانب الآخر وأشرفوا على جموع القوم، فوقعت في الفرس الأراجيف وتمكن الخوف من قلوبهم، وكلما عين الهرمزان والقيروان جيشهما صفًا صفا انتقض بغيره فعلم أن ما فيهم خير وما كانت إلا ساعة حتى فرق الله

جموعهم وبدد شملهم وانطلقوا على وجوههم فمضى الهرمزان إلى الأهواز وكانت كنوز كسرى في جبل ظاهر الأهواز وكان عليها مقدمًا نهاوند، فلما بلغه هزيمة العسكر نهبها، وأما النهرجان ومهراق فإنهما قصدا المدائن وعبرا نهرشير وهي مدينة الذنب.

فلما حصلوا بالعدوة القصوى وقطعوا الجسر قصدوا الإيوان ويزدجرد هناك فدخلوا عليه وحدثوه بما جرى لهم مع العرب، فلما سمع ذلك أيقن بزوال ملكه، فلما كان الليل عوَّل على أن ينفذ أمواله وذخائره إلى نهاوند وتهيأ للحرب، وأما زهرة فإنه سار في أثر القوم حتى جاوز سوار ونزل وأتى بعده هشام والمرقال ونزلا عنده حتى تكامل الجيش ونزل سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – وارتحلوا إلى كوثاريا وأشرفوا عليها، فلما رأى الفرس عسكر المسلمين قد أشرف عليهم أخذوا أهبة القتال وتهيئوا ومقدمهم شهريار. فلما وصل إليهم زهرة ورآه شهريار وقع الرعب في قلوب أصحابه وماج بعضهم في بعض ولولا خوفهم من شهريار لولوا الأدبار ورتب زهرة أصحابه، فلما استوت الصفوف خرج شهريار للبراز وعليه زي الملوك والأكاسرة، وقال: أنا

شهريار فهل يبرز إلي فارس لفارس أو أربعة لفارس أو عشرة لفارس. فلما سمع زهرة كلامه قال: والله لقد أردت برازك غير أني لا أدع أحدًا يخرج إليك إلا عبدًا فإن قتلته فتكون قد قتلت عبدًا وإن قتلك فهو المراد! ثم إنه دعا مولاه أبا نباتة الأعوجي فقال له: دونك وهذا العلج واستعن عليه بالله! فخرج إليه أبو نباتة، فلما وصل إليه ونظره استحقره؛ لأن شهريار كان مثل البعير فألقى نفسه على أبي نباتة وقد جرَّد سيفه، فلما رآه أبو نباتة قد وصل إليه صادمه كأنه أسد وتضاربا بالسيوف حتى تكسرت فرمياها وتقابضا حتى سقطا إلى الأرض فوقع شهريار بأبي نباتة وهو يراوغه فوقعت إبهام شهريار في فم أبي نباتة فقطعها فارتخت أعضاؤه فانفلت وانقلب عليه فصار فوقه وجرَّد خنجره وطعنه به في نحره فقضى عليه وأخذ تاجه وسواريه وسلبه وفرسه وعدته وتوجه بها إلى المسلمين.

فلما نظر جيشه ما حل به ولَّوا الأدبار وأقام زهرة هناك إلى الصباح وأقبل بقية الموحدين فحدث زهرة سعدًا بما جرى لمولاه مع شهريار وكيف انهزم الفرس، ففرح سعد – رضي الله عنه – بذلك وأمر أن يحضر أبا نباتة فأحضره.

فقال سعد: عزمت عليك إلا لبست سواريه ودرعه وتاجه وركبت فرسه. قال ففعل فأعطاه السلب جميعه، وقال له: قد أفلحت فكان أول مسلم سوِّر بالعراق.

عن وائل بن غنم اليشكري قال: لما قدم سعد - رضي الله عنه - إلى كوثاريا نزل في المكان الذي سجن فيه إبراهيم الخليل - عليه السلام - فصلى فيه وحمد الله وصلى على رسوله - صلى الله عليه وسلم - وقرأ «وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ». وأقام سعد - رضي الله عنه - بمشهد كوثاريا أيامًا ثم دعا الناس إليه، وقال لهم: اعلموا أن الله تعالى قد نصركم في مواطن كثيرة وقد أراكم ما وعدكم نبيكم محمد - صلى الله عليه وسلم - لما قال: «ستفتح على أمتي كنوز كسرى وقيصر»، وقد ملكتم طرفًا من كنوز كسرى والتمام على الله، وقد عولت على العبور إلى المدائن من الجانب الغربي. فقالوا جميعهم: أيها الأمير ما منا من يخالف ولا يبخل بنفسه على الله ورسوله فاعزم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فلما سمع قولهم قدم زهرة برايته وجيشه وأمره أن يسير فسار في اثني عشر ألف فارس فما سار غير قليل إذ رأى بين يديه خيلًا

وعليها فوارس فأخذوا أهبتهم فإذا هم زهاء من مائتي فارس من الفرس فأرسلوا منهم فارسًا يعلم المسلمين أنهم أهل ساباط ومقدمهم يقال له سرزاد وهو يطلب لأهل بلده صلحًا وعهدًا. فقال له زهرة: ائتني بهم، فلما قربوا منهم ترجَّلوا وأتوا المسلمين فتلقوهم بالبشر والسرور. فقال لهم زهرة: من أنتم؟ قالوا: نحن أهل ساباط وهذا مقدمنا وقد أقبلنا نطلب صلحكم. فقال زهرة: من قصدنا قبلناه، ومن أراد صلحًا صالحناه ولسنا قومًا نريد الفساد في الأرض، ثم أمضى صلحهم على ما وقع عليه الاتفاق بينهم. وانطلق سرزاد إلى قومه ومعه جماعته فرحين بالصلح، ولما نزل زهرة في نهمشير وجد كتائب الفرس وعليها مقدم يقال له فيروز وهو فارس قومه ومعهم كبكبة كسرى التي يعتمد عليها في وقت شدته. واجتمعت جيوش الموحدين عند زهرة مع سعد وتأهبوا للقتال.

قال الواقدي: فلما ترتبت الصفوف كان أول من برز واشتهر وسما وافتخر فيروز ورطن بالفارسية، وقال: يا هؤلاء العرب لقد أطمعتم أنفسكم فيما لا تصلون إليه وساءت ظنونكم وزعمتم أنكم تملكون العراق وتأخذونه من أيدي الأكاسرة وهذا ظن لا يصير أبدًا، ونحن كتيبة كسرى أولو الشدة والبأس والقوة

والمراس وأنا مقدمهم والرئيس فيهم فليبرز إلي مقدمكم ويفعل مثل ما فعلت أنا من بين قومي. قال فما استتم كلامه حتى خرج إليه هاشم بن المرقال يجر قناته من ورائه وحمل عليه وحصل بينهما حرب يشيب منها الطفل، ثم إن هاشمًا طعنه في صدره فأطلع السنان من ظهره. قال فلما قتله هاشم ورجع إلى المسلمين قبَّله سعد بين عينيه، فترجل هاشم وقبَّل رجل سعد وقرأ «أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ»، وارتحلوا في أثرهم إلى أن نزلوا نهمشير وبقي كلما أقبلت قبيلة تكبر وتنزل إلى أن أحاطوا بهم من كل جهة فأظهر القوم الزينة والسلاح والعدد والمجانيق وهم على الأسوار.

وأقام سعد - رضي الله عنه - على نهمشير شهرين وبعث خيله للغارات على شط الفرات والدجلة، فأتوا ومعهم ألف فلاح فضمهم إلى سرزاد مقدم ساباط حتى يأتي الجواب فيهم من عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ويرجعوا إلى مقرهم، فكتب سعد إلى أمير المؤمنين يقول بعد البسملة: أما بعد: سلام عليك ورحمة الله وبركاته فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه، وأننا نزلنا على نهمشير بعدما لقينا فيما بين القادسية ونهمشير عسكرًا مع قرط

بن فيروز وظفرنا الله به وبمن معه، وأن فيروز قتله هاشم وانهزم من بقي معه ونزلنا بعد ذلك على نهمشير وبثثنا عساكرنا فأصابوا من الفلاحين ألف نفر فما رأيك فيهم؟ فأجابه أن من أتاكم من الفلاحين إذا كانوا مقيمين على عهدكم ولم يعينوا عليكم عدوكم فلهم أمانهم ومن لم يأتكم وهرب منكم وأدركتموه فشأنكم وإياه افعلوا فيه ما شئتم، فلما جاء الكتاب خلى سبيلهم وأرسل وراء الدهاقين فدعاهم إلى الإسلام أو الجزية فأجابوا إلى أداء الجزية.

وأما أهل نهمشير فشرعوا يرمون عسكر المسلمين بالسهام والحجارة والمنجنيق، فلما نظر سعد - رضي الله عنه - إلى ذلك دعا سرزاد وقال له: إن أهل هذا البلد لم يتركوا للصلح موضعًا وأريد منكم أن تصنعوا لنا مجانيق، ففعل سرزاد وعمل مجانيق فما مضت ثلاثة أيام حتى صنع له ذلك ونصب له على نهمشير أكثر من عشرين منجنيقًا فأشغلوهم بها عن قتال المسلمين، والعرب فرحت بذلك، فلما طال على البلد الحصار خرجوا يقاتلون المسلمين وتبايعوا على الصبر فقاتلهم المسلمون قتالًا شديدًا وترامت الفرس بنشابها والعرب بنبالها وقاتل زهرة بن الجويرية قتالًا يرضي الله ورسوله، ثم إن زهيرًا

قال لسعد: دعني أتقدم لعلي أرمي بنبلة أو أضرب بسيفي هذا ضربة، فتقدم ودخل العدو فتلقاه فارس اسمه شهرياض فحمل عليه وطعنه طعنة أخرج بها أمعاءه وقتله فاجتمعت عليه الأعاجم فقتلوه وانهزموا ودخلوا المدينة وأغلقوا الأبواب وصعدوا على الأسوار!

وبعدها أشرف علينا رجل منهم وقال: إن الملك يقول لكم هل لكم في الصلح على أن لنا ما بين دجلة إلى هنا ولكم ما يأتيكم من دجلة إلى خيلكم؟ فتقدم إليه أبو مقرة الأسود بن قطينة وقد أنطقه الله بما لا يدري ما هو، فأجابه بالفارسية وهو لا يعرف منها شيئًا ولا يحسنها. فرجع الرجل عن السور. فقلنا لأبي مقرة: ما قلت له؟ فقال: والذي بعث محمدًا بالحق ما أدري ما قلت له إلا أن الله أنطقني بشيءٍ، ولعل أن يكون فيه خير للمسلمين ولا زالوا يسألونه حتى سأله سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه -. فقال: والله يا أمير ما أعلم ولا أدري! فتعجب سعد من ذلك وأمر الناس بالزحف والرمي وأن لا أحد من أهل المدينة يظهر لهم ولا يبين. فقلنا: لعلهم أن يكونوا يكيدوننا بمكيدة!

وإذا نحن في اليوم الثاني برجل قد خرج إلينا وهو ينادي الأمان الأمان، فأخذناه وأتينا به إلى الأمير سعد - رضي الله عنه -. فقال له: ما الخبر؟ قال: إن القوم ليسوا في المدينة وقد هربوا. فقال سعد: ومن أي شيء هربوا؟ فقال الرجل: إن الملك بعث إليكم رسولًا يعرض عليكم الصلح فأجبتم أنه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبدًا حتى نأكل عسل أفريزيا نوح كونا! فلما بلغته هذه الكلمات منكم قال: واويلاه إن الملائكة تتكلم على ألسنتهم وترد علينا وتجيبنا عن العرب، ووالله لئن لم يكن كذلك وإلا فإنما هو شيء ألقي على فم هذا الرجل فابرزوا إلى القصوى! فخرجوا من البلد وقد تركوا المتاع والأموال والرجال ولم يكن لهم غنيمة إلا أنفسهم.

فلما سمع سعد ذلك من الرجل سجد لله شكرًا، وأمر المسلمين أن يدخلوا المدينة بالعدد خوفًا من الكمين ففعلوا وركب سعد وتقدم المجاهدون ودخلوا وداروا بالبلد فلم يجدوا في نهمشير أحدًا من الفرس، ووجدوا الأموال على حالها فاحتووا عليها، وأقام سعد بها ثلاثة أيام، وخرج إلى الشط وأراد أن يعبر بالناس إلى المدينة القصوى وهي «إسبانير» فلم يجدوا شيئًا من السفن! فأقام

أيامًا من شهر صفر والناس يحرضونه على العبور إلى ذلك الجانب وهو يأبى إشفاقًا على المسلمين، فبينما هو كذلك إذ جاءه أعلاج فوقفوا بين يديه ودلوه على مخاضة تخاض فأبى.

ذكر فتوح الإيوان ودخول المسلمين في الدجلة وفتوح إسبانير وهي المدينة القصوى

فلما دلوه على المخاضة أبى وقال: بحر عميق وما كنت أغرر بالمسلمين والله يصنع بهم ما يشاء! فبينما هو كذلك إذ أتوه بعلج وأثوابه تقطر بالماء فسأله سعد عن حاله فقال: كيف حالي والملك قد رأى في منامه أن المسلمين قد عبرت إليه وقد استشعر بزوال ملكه وهو معول على الهرب وأن يأخذ أمواله ويمضي إلى خراسان. قال فلما سمع سعد ذلك جمع المسلمين وحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس عدوكم قد استعصم منكم بهذه السفن، وكسرى قد عول على الهرب بأمواله ورجاله وإني قد عوَّلت على العبور إن شاء الله تعالى، واعلموا أنه ليس وراءكم من تخافونه، لأن الله قد ملككم معاقلهم وبلادهم، وقد رأيت من الرأي أن نقطع هذا البحر إليهم ونقدم عليهم فما أنتم

قائلون؟ فقالوا جميعًا: قوَّى الله عزمك على الرشد فافعل ما أراد الله به، فعندها قال سعد - رضي الله عنه -: رحمكم الله ونصركم أيكم يبتدئ أو يتقدم ويجس لنا المخاضة وينبش عليها من على الشط حتى تتلاحق به الناس فابتدر لها عاصم بن عمر وانتدب معه ستمائة من أهل النخوة ممن شاع ذكرهم ونما فخرهم وعلمت شدتهم وسار عاصم أمامهم حتى وقف على الشط ومعه الكتيبة الخرساء وهي كتيبة القعقاع بن عمرو - رضي الله عنه -.

عن يوسف بن عمرو قال: ابتدر عاصم وشرحبيل وأبو مقرن ومالك بن كعب الهمداني ومثل هؤلاء السادات - رضي الله عنهم - وركبوا خيولهم واقتحموا الدجلة واقتحم بعدهم الستون والستمائة في أثرهم وأول من نزل في الماء عاصم بن ولاد وأبو مقرن وشرحبيل ومالك بن كعب وغلام من بني الحرث، فلما رأتهم الأعاجم قد قربوا منهم وأعدوا للخيل التي تقدمت خيلًا منهم اقتحموا الماء، فأول من لقيهم من جيش سعد عاصم بن عمرو، فلما لقي خيل فارس في الماء صاح بأصحابه، وقال: أشرعوا رماحكم إلى الأعلاج واقصدوا أعينهم! فلما سمعوا كلام عاصم قصدوا عيون العدا وسقوهم كأس

الردى، فلما رأت الفرس ثبات العرب في الماء كثباتهم في الأرض للطعن والضرب ولَّوا الأدبار والمسلمون في أثرهم فقتلوا غالبهم وما نجا إلى الشط إلا القليل وملك المسلمون جانب الشط من جهة الفرس وتلاحق المسلمون، فلما علم سعد ذلك أذن للمسلمين بالاقتحام، وقال لهم: استعينوا بالله وتلاحق الجند ونزلوا الدجلة وهي ترمي بالموج والناس يجهدون في عومهم وهم لا يكترثون بالموج ولا بتلاطمه وكأنهم على وجه الأرض ونزل بأهل فارس ما لم يكن في حسابهم وقاتلوا قتالًا شديدًا.

قال الواقدي: حدثني من أثق به إن أول من عبر من الجيش ستون فارسًا خرجوا زمرًا، فأولى زمرة تسعة أولهم عاصم، والزمرة الثانية ثلاثة وثلاثون. قال عاصم بن عمرو: وقد اقتحمنا الدجلة خيلًا ورجالًا ودواب حتى نزلنا ولا نرى الماء من كثرة الناس وخرجت خيلنا وهي تنفض معارفها وتصهل على الشط إلهامًا من الله. ولما رأى الملك كسرى أن المسلمين قد عدلوا إلى الجانب الثاني أمر شهريار بن ساور أن يبرز للمسلمين ويقف على مقابلتهم ففعل وأخذ كسرى ما قدر على حمله من أمواله من الدر والجواهر واليواقيت

وما أشبه ذلك. وإن سعدًا ليخوض الماء خوضًا وهو يقول: «ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ».

قال الواقدي: حدثني النعمان بن عاملة الضبي عن أبيه عثمان أنهم سلموا عن آخرهم، وأن رجلًا من بارق ويقال له عرقدة زال عن فرسه وكانت شقراء وكأنِّي أنظر إليها وصاحبها غريق، فمضى إليه القعقاع بفرسه وأخذ بيده وجرَّه حتى عبر به. فقال الناس: عجزت النساء أن تلد مثلك يا قعقاع! ولم يذهب للناس في الماء شيء إلا قدحًا كانت علاقته رثة فانقطعت فذهب الماء بالقدح فقال صاحبه: والله لأجهدن عليه وما كان الله ليسلبني قدحي من بين العسكر! فلما عبروا أتى رجل من الناس ليغتسل وإذا بالأمواج قد رفعت القدح إليه فتناوله وأتى به إلى العسكر فعرفه صاحبه فأخذه.

حدثني عمرو بن تميم قال: بلغنا أنه لما عبر المسلمون تحامت الفرس وقاتلت قتالًا شديدًا وحمت أنفسها وعوَّلت على أن تقاتل إلى أن تموت وهم خواص الملك وأصحاب الإيوان والحصون والقلاع ومقدمهم «شهريار بن ساور»، فطعنه خالد بن نمير في عينه ففقأها وانثنى عليه بضربة بالسيف فقتله

وإذ فاجأتهم خيالة من نحو الإيوان وقالوا لهم: عمَّن تقاتلون، فإن الملك هرب بأمواله وأهله وخدمه؟! فلما سمعوا ذلك ولَّوا الأدبار ولم يكن بالمدائن أعجب من عبور المسلمين إليها! وسموا يوم عبورهم الدجلة «يوم الجراثيم» لأنه لم يكن أحد يعبر إلا ظهرت له جرثومة يسير معها وهي من القش المربوط حزمًا.

قال قيس بن أبي حازم: خضنا الدجلة وهي تطفح فلما توسطناها كان يصل الماء من الفرس للحزام. فلما نظرت الفرس إلى ذلك والمسلمون يعبرون من غير مشقة جعلوا يقولون بالفارسية: «ديمور» -يعني جاء الجن-، وقالوا: والله ما أنتم تقاتلون إنسًا إنما تقاتلون جنًا فانهزموا! وأراد المسلمون الدخول إلى الإيوان فمنعهم سعد من ذلك وقال لهم: إياكم والعجلة في الأمور، فإنها تورث الندامة وإني أخاف أنها من بعض مكايد العجم فلم يدخل إليه أحد. وتقدم سلام المجازي إلى سعد وكان غلامًا وقال له: أيها الأمير والله لقد أرضيت اليوم الله ورسوله وقتلت المقدم عليهم، ثم إنه استشهد بقية رفاقه الستين فلم يشهد له أحد منهم. فقال للغلام المجازي: والله ما قتلته فنكس الغلام رأسه وأراد أن

ينصرف وإذ قد وثب رجل من الصحابة اسمه هاشم بن عتبة وقال لسعد: أيها الأمير أنا رأيته وقد قتل مقدم الفرس فصدَّقه سعد وأعطى الغلام سلبه.

عن سليمان بن عامر قال: أخبرنا عبد الله أن يزدجرد الملك لما كان بأعلى الإيوان يوم خاض المسلمون الدجلة ورأى عبورهم والخيل لا ترجع والعرب لا تجزع والصحابة يتحدثون وهم في الماء كأنهم على الأرض أيقن بزوال ملكه وذهاب عزه فنزل وهو يبكي، وأخذ من بيوت المال والخزائن من الثياب والآنية شيئًا لا قيمة له ولا يعرف له ثمن وترك ما بقي عنده من عدة الحصار من الزاد والبقر والغنم ومن كل الأطعمة والأشربة، وكان أول من دخل «إسبانير» مسكن الملك؛ يعقوب الهذلي ومعه الكتيبة الخرساء كتيبة القعقاع بن عمرو فدخلوا يخترقون المدينة ولا يلقون أحدًا.

فعزم سعد على الدخول في المدينة القصوى وأمر زهرة بن الجويرية أن يذهب بعسكره ويتبع المنهزمين وسير كتيبة أخرى مع المرقال فلحق بحاجب بن حجاب بن كسرى فخاطبه بالفارسية. فقال: إن العرب قد عبرت إلينا ولم يعرفه فطعنه المرقال فقتله وأخذ غلمانه أسرى وموجوداتهم وأتى بهم إلى

سعد. ويقال إنَّ أحد مرازبة كسرى الكبار كان يوم دخول العرب المدينة داخلها وكان غير مكترث بهم فخرج إلى ظاهر داره ورجع يريد منزله وإذا بغلمانه وهم خارجون من الدار يهرعون وقد أخرجوا الأمتعة، فقال: ما لكم؟ قالوا: إن الزنابير قد غلبت على منازلنا فأخرجتنا بالقوة. واشتد الصياح والبكاء والعويل من أهل المدينة وهم يلطمون على وجوههم. فلما رأى المرزبان ذلك أخرج لامة حربه ولبسها وأتوه بجواده فشده وأسرجه فانقطع ثلاث مرات فمر به فارس من العرب فطعنه وقال: خذها وأنا ابن المخارق! ومضى عنه ولم يلتفت إلى سلبه.

ودخل سعد يطلب الإيوان. فلما دخل المدينة دخلها وهو يقرأ «وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ». فلما دخل الإيوان ترجَّل وصلى فيه صلاة الفتح ثمان ركعات لا يفصل بينها، واتخذه مسجدًا. وكان في الإيوان تماثيل وصور فتركوها على حالها. وأتمم سعد الصلوات من يوم دخل الإيوان. فإنه أراد المقام بها وجمع وكانت أول جمعة صليت بالعراق وبالمدائن في شهر صفر. ثم إنَّ سعدًا تحول من الإيوان بعد ثلاثة أيام إلى القصر الأبيض وأقام سعد على قبض أموال

الغنائم عمرو بن عمرو بن مقرن وأمره أن يجمع ما في القصور والإيوان والخزائن والدور والأسواق وأن يحصيها، وكان أهل المدائن لما رأوا العرب في أرض واحدة خرجوا فرارًا وأخذوا معهم ما قدروا على حمله وما انفلت أحد منهم بشيء إلا وأخذه منهم المسلمون وأتوا به إلى سعد فتسلمه عمرو وصيرها في جملة ما جمعوه من الأموال، وكان أول شيء جمعوه يومئذ بالقصر الأبيض، ثم منازل كسرى وسائر دور المدائن. قال جهد بن صبار: دخلنا المدائن فمررنا بأبيار عليها أغطية من رصاص فظننا أنها طعام ففتحناها فإذا هي أوان من ذهب وفضة ورأينا كافورًا كثيرًا فحسبناه ملحًا فما اعتبرناه.

وخرج زهرة في طلب المنهزمين فانتهى إلى جسر النهروان وإذا عليه كثير من الفرس بأعظم عدة وأحسن زينة وهم يزدحمون على الجسر. ووقع بغل في الماء فتكاثروا عليه وصاح بعضهم على بعض. قال ووقع منهم بغل آخر فصاروا في هرج ومرج. فلما رآه المسلمون، قال زهرة: إن لهذا البغل لشأنًا وما تكالب عليه القوم وصبروا مع ما في قلوبهم من الخوف إلا لأمر عظيم! وقال: احملوا عليهم وابذلوا فيهم السيوف. فحملنا عليهم حملة صادقة فقتلنا منهم

أناسًا كثيرة وولى الباقي منهزمين وأخذنا البغل، وإذا عليه حلة كسرى وثيابه ودرعه ووشاحه التي كان فيها الجوهر وكان يجلس بها للمباهاة فأتينا بها. قال سهل بن سابق: لما أخذنا البغل وأتينا به لم ندر ما عليه. وعن يعقوب عن جده: قال كنت مع من خرج في طلب المنهزمين، وإذ نحن ببغلين مع اثنين وهما يرميان كل من يقربهما بالنشاب ولم يجسر أحد أن يدنو منهما فقصدتهما وحملت عليهما وقتلتهما وأتيت بالبغلين إلى صاحب الأقباض وهو يكتب كل ما تأتي به العرب من سائر العراق، فلما أتيته بالبغلين، قال لي: على رسلك حتى ننظر ما معك. فحطيت عنهما. فإذا في الحمل الواحد تاج كسرى وجواهره وفي الحمل الثاني ثيابه وهي موشحة بالذهب منظومة بالدر!

وعن محمد بن طلحة والمهلب قالا: خرج القعقاع في طلب المنهزمين فلحق بفارس من الفرس، وهو يكر على قوم من المسلمين وقد جزعوا منه وما أحد منهم يدنو إليه فقصده القعقاع بشدة عزمه وقال له: دونك أيها الكلب اللئيم لقتالي! وطعنه فقتله ووجد معه عيبات مغلقات ففتحوها. فإذا بالعيبة الواحدة خمسة أسياف وفي الأخرى خمسة أسياف محلاة بالذهب ودروع كسرى من

أيام غزواته لهم، وأما السيوف فكانت سيف كسرى وسيف هرقل وسيف مهمود وسيف خاقان وسيف النعمان بن المنذر. فلما رآها سعد، قال: يا قعقاع خذ

أي سيف شئت وجاهد به العدو فأخذ سيف هرقل وأعطاه درع بهرام جور، وأما بقية الأسلاب فأعطاها للكتيبة الخرساء إلا سيف كسرى والنعمان فأمسكهما لأمير المؤمنين يرسلهما مع الخمس والتاج والثياب.

وعن رجل من الصحابة قال: كنت مع الناس في طلب المنهزمين من خيل كسرى، فبينما أنا على طريق إذا برجل ومعه حمار وكان راكبًا عليه، فلما رآني ترجل، وجعل يحث حماره على السير حتى انتهى إلى نهر قد خرب فلم يمكنه العبور فدنوت منه فأخذ يرميني بالسهام فزغت عن رميه وحملت عليه فقتلته وأخذت الحمار ووجدت آخر ومعه حمار فتركه وانهزم فأتيت بهما إلى صاحب الأقباض وإذا على أحدهما فرس مصوغ بالذهب والفضة، مرصع بالدر والجواهر، ولجامه كذلك وسرجه كذلك، وعليه فارس كذلك، وإذا على الحمار الآخر ناقة من فضة وعليها كور من الذهب مرصع ولها زمام من ذهب

وكل ذلك منظوم بالياقوت وعليها رجل من ذهب مرصع بالجواهر، وكان كسرى يضيفهما للتاج وكان يباهي بهما ملوك الأرض.

وعن أبي عبيدة الهبري. قال: لما هبط المسلمون بالمدائن وجمع صاحت الأقباض الغنيمة وبقي الرجل يأتي بما معه فيدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال صاحب الأقباض: ما رأينا مثل هذا قط. ثم قال الرجل الذي أتى بالحمارين: بالله عليك هل أخذت شيئًا منه؟ فقال: والله لولا الله لما أتيتكم بهما. فقالوا له: ومن أنت؟ فقال: والله لا أخبركم لتحمدوني، ولكن أحمد الله وأرضى بثوابه! ومضى، فتبعه واحد من موالي صاحب الأقباض فسأل عنه. فقالوا: هذا عامر بن عبد القيس. وبلغ الخبر سعدًا - رضي الله عنه - فقال: أحلف بالله الذي لا إله إلا هو أننا ما اطلعنا على أحد من أصحاب جيش القادسية يريد الدنيا ولقد اتهمنا ثلاثة نفر فاتبعناهم لعجزنا عن وصف أمانتهم وزهدهم، وهم طلحة بن خويلد الذي ادعى النبوة بعد النبي - صلى الله عليه وسلم -، والثاني عمرو بن معد يكرب، والثالث هو قيس بن هبيرة.

حدثنا من شهد فتح المدائن قال: خرجنا بعد فتح القصر الأبيض وكان قد تحصن به رجال من المرازبة، وكانوا أشد جلدًا وأقوى عزيمة من جميع الفرس وتحالفوا أنهم لا يسلمون أبدًا والذين حصلوا وتولوا حصارهم كتيبة الأهواز وهي كتيبة القعقاع. فلما رأينا عزمهم على الموت بعدنا عن نشابهم وحجارة مجانيقهم وطال علينا ذلك وشكونا ذلك إلى سعد، وقلنا له: قد حرمنا الجهاد بحصارنا لهؤلاء الأعلاج، فقال سعد لسلمان: تقدم إليهم ودبر شيئًا فيه مصلحة للمسلمين وأمنهم فتقدم إليهم سلمان وكلمهم بالفارسية فأمسكوا عن رميه، وقالوا له: من أنت؟ فقال: أنا رسول من المسلمين اعلموا أن الرجل يقاتل عن نفسه وماله وولده إذا رجا الخلاص وما أرى لكم من خلاص قط، وهذا الملك قد انهزم وأخذنا مملكته وخزائنه وما بقي في المدائن أحد غيركم فاتقوا الله في أنفسكم ولا تهلكوها وسلموا لنا هذا الحصن ولكم الأمان إلى أي جهة توجهتم لا يعارضكم منا أحد.

فلما سمعوا قوله قالوا: لا نسلم حتى نهلك عن آخرنا، ثم رموا سلمان بالنشاب فقرأ «وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ

الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا»، وأشار إلى النشاب بيده فذهبت السهام يمينًا وشمالًا ولم يصبه منها شيء! فلما رأوا ذلك قالوا: زنهار فبحق ما تشير إليه من أنت؟ قال: أنا روزنة وقد عمرت أربعمائة سنة ولحقت آخر أيام عيسى ابن مريم وطفت الأرض حتى لحقت بنبي هذه الأمة - صلى الله عليه وسلم -، فلما أتيته أكرمني وخدمته فعظمني حتى أنه جعلني من أهل بيته. فقال: «سلمان منَّا أهل البيت»، فلما سمعوا قوله وحققوا معرفته علموا أنه كان من عظماء أهل دينهم. فصقعوا له وقالوا: والله ما نخفي عليك شيئًا من أمرنا وسبب قتالنا ليس بسبب مال ولا متاع، وإنما الملك قد مضى يريد نهاوند ولم يقدر على أخذ ابنته معه وهي مريضة وقد سلمها إلينا فلزمنا عن أمرها ما لزم، فإن كنتم تعطون الأمان عليها سلمنا لكم وإلا نموت يدًا واحدة، فلما سمع سلمان منهم ذلك قال: دعوا هذا الأمر حتى أشاور الأمير، ثم عاد وحدث سعدًا بما سمعه. فقال: يا عبد الله إن المسلمين قد انتشروا في العراق ونخاف أن يقع بهم أحد فلا يبقى عليهم، ولكن قل لهم لكم علينا أن نذبَّ عنكم وتكونوا في ذمامنا حتى تجاوزوا أي جهة تريدونها، وبعد ذلك لا نضمن لهم ما يأتي عليهم.

فحدثهم سلمان بما قاله الأمير، فقال العقلاء منهم: لولا أن العرب على حق ما نصروا علينا ومن الرأي أن نرجع إلى دين هؤلاء العرب ونعيش في ظلهم، وأن القوم لا يريدون ملكًا وقد رأيت هذا الرجل وما ظهر لكم من كرامته! ففتحوا باب السر وخرجوا إلى العسكر وأتوا إلى سلمان فأتى بهم إلى سعد وأسلموا على يديه، فلما جرى ذلك بكى سعد وقال: اللهم انصر الإسلام وقرأ قوله تعالى: «وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ»، وبعث إلى صاحب الأقباض لأخذ جميع ما في القصر الأبيض من الأموال وخزانة الملك، فلما قسم الغنائم على المسلمين أعطى أولئك أوفى نصيب وأنزل كل واحد منهم في داره، فلما رأى أهل البلد ذلك منه وما صنع مع هؤلاء دخل في دين الإسلام منهم ألوف اقتداء بالقوم.

قال الواقدي: حدثنا موسى بن عبد الله عن عمرو عن جده يحيى. قال: بلغنا غير هذا، وذلك أن هاشم بن عتبة تبع المنهزمين من جنود الملك، فانتهى سيره إلى مرج حلوان فالتقى بكتيبة من أهل فارس بالعدد والسلاح والهوادج والخدم والجواري والمماليك وقد داروا بمحفة من العود الرطب وعليها من

الثياب الملونة المذهبة وأهلتها من الذهب مرصعة بالجواهر، وقاتلوا دون المحفة قتالًا شديدًا، وكانت المحفة لشاهران ابنة الملك يزدجرد بن كسرى، وكان السائر بها ساقر بن هرمز، فقتله وقتل أصحابه أكثر من كان مع ساقر... وولى الباقي منهزمين وتسلم هاشم المحفة وما حولها وأتوا بذلك كله إلى سعد وأعلموه بأن ابنة كسرى معهم، فقرأ سعد قوله تعالى: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ....»، ثم أشرف سعد على ما بقي من الخزائن فوجد صندوقًا عظيمًا ظاهره وباطنه بالديباج المذهب وفي داخله بساط كسرى وهو البساط الذي كان يفتخر به على الملوك ملوك الدنيا، كله ذهب منسوج بالحرير منظوم بالدر واليواقيت الملونة والمعادن والجواهر المثمنة والزمرد، وكان طوله ستين ذراعًا قطعة واحدة في جانب منه كالصور، وفي جانب كالشجر والرياض والأزهار، وفي جانب كالأرض المزروعة المقبلة بالنبات في الربيع، وعلى ذلك من الحرير الملون والمعادن على قضبان الذهب والزمرد والفضة، وكان الملك لا يبسطه إلا في أيام الشتاء في إيوانه إذا قعد للشراب، وكانوا يسمونه بساط النزهة والمسرات، فيكون لهم شبه الروضة الزهراء.

فلما رآه العرب قالوا: والله هذه قطيفة زينة! ولما قسم سعد على الناس الغنائم أصاب الفارس اثنا عشر ألف دينار وكلهم كانوا فرسانًا ولم يكن فيهم راجل، وأخرج للغائبين مع النساء والحريم في الحيرة نصيبهم، وقسم الدور بين الناس وكان قد ولى القبض عمرو بن عمرو المدائني، وولى القسمة سليمان بن ربيعة، وكان فتح المدائن في شهر صفر، وأخرج الخمس لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، وأراد أن يقسم البساط، فلم يدر كيف يقسمه، فقال سعد: معاشر المجاهدين إني رأيت من الرأي أن نرسله إلى عمر ليصنع فيه ما يختاره، فأجابوه على لسان واحد: نعم ما رأيت أيها الأمير، فردوه إلى صندوقه وأضافه إلى الخمس.

وكتب إلى عمر - رضي الله عنه - يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، من عامله على العراق سعد بن أبي وقاص، أما بعد: فسلام عليك وإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - على ما منحنا الله الظفر على العدو الذي أطاع شيطانه وأرخى في ميدان الغي عنانه، وقد أجرانا الله - سبحانه

وتعالى – على جميل العادة، وأخذنا الملك من يزدجرد بن كسرى في كثرة أطواره واحتزاز رؤوس أجناده الذين جاست الهيبة ديارهم، وضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم، «ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ»، وقد انهزم عدو الله بعدما قتلنا جنده وأخذنا ابنته وإننا منتظرون أمرك فيما يكون بعد هذا، ونحن مقيمون على المدائن، والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته، وسلم الكتاب والمال إلى بشر، وضم إليه خمسمائة فارس، وسلمه ابنة كسرى بمحفتها وخدمها، ثم إن سعدًا رأى رأيًا أن يسير بشيرًا يبشر عمر بفتح المدائن وبقدوم الخمس وبما أنعم الله على المسلمين ليكون أزيد هيبة وبهجة بالفتوح.

فأرسل جيش بن ماجد الأسدي أو ابن هلال والله أعلم فخرج على ناقته وقصد المدينة يجد السير. قال وكان عمر – رضي الله عنه – في كل يوم بعدما يصلي الصبح يقرأ ما تيسر، ويركب ناقته ويتوجه نحو طريق العراق ويرتقب ما يرد عليه من أخبار المسلمين. فخرج على حسب العادة وإذا هو بـ «جيش» قد أقبل على ناقة، فلما رآه عمر قصده وقال له: يا عبد الله من أين أقبلت؟ قال: من

المدائن يا أمير المؤمنين. قال: فما عندك من الخبر أقر الله عينك وغفر لنا ولك؟ قال: أبشر يا أمير المؤمنين بالفتح العميم والسعد الجسيم، وإن الله – سبحانه وتعالى – قد هزم جند المشركين وقطع دابر القوم المجرمين وأخلى منهم ديارهم وأخفى آثارهم، وزعزع مراكبهم وطحطح مواكبهم وكتائبهم، وشتت جموعهم، وأخلى ربوعهم، وقصم آجالهم، وفرق أحوالهم، وترك مساكنهم خالية وأوطانهم خاوية.

فلما سمع عمر – رضي الله عنه – هذا المقال حمد الله وأثنى عليه وقال: «خذلوا من مأمنهم» وسار وهو يحدثه بفتح المدائن حتى دخل المسجد وتسامع الناس، فأتوا حتى غص المسجد بالناس وأقبل جيش يحدثهم وهم يكثرون الثناء على الله ويصلون على النبي – صلى الله عليه وسلم –، وبعدها وصل بشر بالمال ومعه ابنة الملك كسرى ولباسه وسلاحه وبساطه، فلما نظر عمر إلى ذلك قال: إن الذي أهدى إلينا هذا لأمين! فقال علي كرم الله وجهه: «إنك عَفَفَت فعفَّت الرَّعية»، فحمد الله وأثنى عليه وأفرز من الخمس سهم من غاب من المسلمين وقسم الخمس في مواضعه، ثم قال: أشيروا عليَّ فيما أصنع

في هذه القطيفة -أعني البساط-. فقالوا: رأيك أعلى. فقال علي كرم الله وجهه: «لم يدخل عليك جهل ولا تقبل شكًا، وإنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت، ولبست فأبليت، وأكلت فأفنيت». قال: فوالله لقد صدقتني يا أبا الحسن!

ثم إنه قسم البساط قطعًا بين الناس، فأصاب كل رجل منهم قطعة فباعها بنحو العشرين ألف دينار، فلما فرغ من توزيعه وتوزيع مال الخمس، دعا بمحكم بن رواحة وكان من أجسم أهل المدينة وأجفاهم خلقة فألبسه زي كسرى ووشاحه وتاجه وسواريه ومنطقته وحلاه بحليته وعصابته وسيفه وسلاحه وعدته، ونظر الناس إليه كأنه كسرى في ملكه، فقال عمر - رضي الله عنه -: «اعتبروا بالدنيا وتقلباتها بأهلها وما يرى من مصائبها وعطبها، هذا كسرى ما زال يفتخر على ملوك الدنيا بكثرة أمواله وذخائره وجواهره وعزه وجنوده، ولم يقدم لنفسه شيئًا ينفعه عند الله وغرته الأماني الكاذبة، فأخذه الله من مأمنه وبقي مرتهنًا بما اكتسب في دينه ودنياه»، ثم قال: «أيها الناس هذا ملك المدائن، قد انتقل عن أصحابه وتوزع بين أربابه، أين تلك الحشمة والسلطان؟

أين الجنود والأعوان؟ أين الغلمان؟ أين المماليك والخدام؟ أين التاج والإكليل؟ أين الجيش والفيل؟ أين الصاحب والخليل»؟! وقرأ قوله تعالى: «قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ»، ثم قال: أيها الناس من له منكم يد سابقة فليقم فقام عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - فقال: أنا يا أمير المؤمنين ابن الصاحب والخليل وابن أول من آمن ووزر وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونصر، وأنفق ماله وتصدق، ودخل معه الغار وانتصر، وجاهد بين يديه وحاجج من كفر وجادل وافتخر، وأنزل الله فيه «لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ».

فقال عمر - رضي الله عنه -: والله لقد صدقت وبقليل من فضله قد نطقت. ثم أمر له بخلعة وعشرة آلاف درهم. ثم قال: أيها الناس من يقم منكم؟ فقام عثمان بن عفان وقال: أنا من جهز جيش العسرة وحفر بئر رومة وألف القرآن وجمعه وختمته في ركعتين وتزوجت الابنتين وصليت إلى القبلتين وأنفقت المال في حبه وأنزل الله في حقي «أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ». فقال عمر - رضي الله عنه -: أحسنت يا أبا الفتيان

فمثلك من رفض الكذب وأبان الحق وأمر له بعشرة آلاف درهم! ثم إنه نظر إلى الأخوين الزاهدين والغصنين النضرين، سيدي شباب أهل الجنة وريحانتي نبي هذه الأمة وقال لهما: يا حبيبي ما الذي أخركما من مثلكما يفتخر وقال: ألستما سبطي الرسول، أليست أمكما فاطمة البتول، أليس أبوكما سيف الله المسلول، أليس في بيتكما نزل التأويل، أليس كان سادسكما تحت العباء جبريل، أليس فيكما أنزل الله الجليل «مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ» (التوبة:٩١). فإن افتخرتما فلكما الفخر البليغ، ثم أمر لكل واحد منهما بعشرين ألف درهم فقال علي: لله درك يا عمر ومن مثلك تكلم ونشر ومدح أهل البيت وأثنى وذكر خيرًا وشكر، ثم قال: أيها الناس من كان لأبيه سابقة فليقم.

فقام عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - وقال: يا أبت أما أنا ابنك وأنت أبي؟! لك الفضائل والحمد والافتخار في الأمة، وذلك الوقار والرجاحة والفصاحة والنصاحة نصرت الإسلام والمرسلين، واتبعت سنن سيد المرسلين، وأنزل في حقك أرحم الراحمين «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ

اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (الأنفال: ٦٤)، وأنت الذي أظهرت الإسلام جهرًا وقلت: لا يعبد الله سرًا. فقال عمر: يا بني الشقي من يغتر بالدنيا الساحرة، والسعيد من يعمل للآخرة، وقرأ «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا»، ثم أمر له بألف درهم. فقال: يا أبت أنا هاجرت وأنفقت ونصرت وزعزعت مواكب الروم وما قصرت وتأمر لي باليسير من مال الله الكثير وتعطي هؤلاء ما أعطيت؟! فقال: يا بني اسلك طريق الإنصاف ولا تتبع الإسراف، وأنا أقول لك إن كان لك جد كجدهما أعطيتك أو أم كأمهما وفيتك، وإن كان لك أب كأبيهما أرضيتك! يا بني كل نسب يضمحل يوم القيامة ويخفى إلا نسب البتول!

ولما فرغ من ذلك أمر بابنة كسرى أن يوقفوها، فأوقفت بين يديه وعليها من الحلي والحلل والزينة والجواهر شيء كثير، وأمر أن ينادى عليها، فقال للمنادي: أزل عنها هذا القناع ليزاد في ثمنها، فتقدم إليها المنادي ليزيل عنها ذلك فامتنعت وضربته في صدره، فغضب عمر وهم أن يعلوها بالدرة وهي تبكي. فقال علي كرم الله وجهه: مهلًا يا أمير المؤمنين فإني سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: «ارحموا عزيز قوم ذل وغني قوم افتقر» فسكن

غضب عمر – رضي الله عنه – ونظر إليها فرآها تحدق بالنظر إلى الحسين بن علي – رضي الله عنه –. فقال عمر – رضي الله عنه –: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» وإني أرى هذه الجارية تحدق بنظرها إلى الحسين بن علي وما خفي عليَّ أنها أرادته من دون الناس أجمعين لأنه ليس فينا أصبح وجهًا منه، ثم قال: يا أبا عبد الله خذها هدية منِّي إليك! فشكره علي ومن حضر من المسلمين.

قال الواقدي: قال يونس بن عبد الأعلى حين قرأت عليه في المسجد الأقصى في شهر ربيع الأول سنة مائتين وتسعين من الهجرة حدثنا عدنان بن ماجد الغنوي قال: لما انهزمت الفرس من المدائن واستولى عليها سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – وكان من أمره ما ذكرنا استقر قراره بالقصر الأبيض، جلس حيث كانت الأكاسرة تجلس فلبس عند ذلك ثياب النسك والخشوع وتسربل بسربال الخضوع وعلم أن الدنيا أضغاث أحلام وأن الآخرة هي دار المقام، وكلما نظر إلى آثار الأكاسرة وملكهم ازداد يقينًا ودينًا على دينه. وأنشد عاصم بن عمر في ذلك بعد فتح المدائن يقول:

شـهدنا بعون الله أفضـل مشـهد | بأكرم مَن يقوى على كـل موكـب
ركبنا على الجرد الجياد سـوابحًا | بكـل قـنـاة بـل بكـل مـقضـب
وكـنـا بـعـون الله لا نـرعـوي إذا | تبـادر طعن كـالغمـام المشـطـب
وكـان جـهـاد قـد مـلـكـنـا بأمره | من الملك مسـتعلي البناء المذهب
تـرانـا وإنـا في الحـروب أسـودهـا | لـنـا العزم لا يخفى لكـل مجرب
نجول ونحمي والرماح شـوارع | ونطعن يوم الحرب كـل مخبب
قدمنا على كسـرى بشـدة حربنا | ومـا حربنا في النـائبات بمختبي

ذكر فتوح مدينة نشاور وهي آخر فتوح العجم والعراق

قال الواقدي: وكان من قضاء الله وقدره أن ابن كسرى لما انهزم من المدائن مضى إلى حلوان وانضاف إليه كل من وصل إليه من المنهزمين من الأساورة والمرازبة والدليم وغيرهم فقام فيهم خطيبًا وذكر زوال ملكه وأسر ابنته وخزائنه وأمواله وبكى وبكت أرباب دولته، ثم قال: يا أهل فارس إن الدنيا دنية الفعال، سريعة الزوال، قريبة الارتحال، وهذا ملككم قد زال، وعزكم قد حال، ودياركم قد سبيت، والعرب قد استولت على العراق ولابد لهم منكم ولا غنى لهم عنكم، وستنظرون خيلهم وقد طلبت خراسان والري وهمذان، وما بقي

لكم جهة تتوجهون إليها إلا بلاد آبائكم وأجدادكم فانتبهوا وانتهزوا الفرصة وأزيلوا الغصة وأدركوا ما بقي من أيامكم ولا ترتدوا على أدباركم، وقد بلغني أن «الدنوس العادي بن هر بن كيقباد بن يزدجرد» التقي هو و«الإسكندر بن القليس الرومي» ما زالا يقاتلان ويقتتلان حتى قتل أحدهما فشمروا أنتم عن ساق الجد ودونكم والقوم هذه الكرة إما لكم وإما عليكم فلعل النار والنور ينصرانكم وأنفق فيهم ما كان معه فاستعدوا للقاء، وأخذوا على أنفسهم وضربوا خيامهم في مرج حلوان وجاء علماء دينهم وأوقدوا لهم النار وقربوا لها القربان وتحالفوا أن لا ينهزموا ولو ماتوا عن آخرهم، ومضت نساؤهم وبنات ملوكهم وأبطالهم الذين قتلوا في الثياب ملطخات بالدماء وهن يستفزون الجيوش والعساكر من بلاد العجم وغيرها، وإن الحجاب والمرازبة والأساورة تعاهدوا على أن لا يفروا أو يموتوا عن آخرهم.

قال عبد الله بن جحفة: حضرت العرب وقد أخرجوا من إزاء القصر الأبيض من مصنع هناك للفرس الأكاسرة تمثالًا من الذهب على صفة الفارس، وقد سكبوا عليه الماء حتى غار في الأرض، وكانت ملوك الفرس يفتخرون

بذلك على سائر الملوك، فوالله لو قسم ذلك على عرب بكر بن وائل لكان يسد منهم مسدًا! وجاءت عيون المسلمين إلى سعد وأخبروه بما فعل القوم واجتماعهم في مرج حلوان في مائة ألف، وقد وجهوا أثقالهم وما يعز عليهم في الجبل وهم يطلبون لقاءكم، واجتمع المسلمون في الإيوان وقالوا: أيها الأمير إن العدو قد اجتمعوا بمرج حلوان وتعاهدوا على أن لا ينهزموا أبدًا ويموتوا عن دم واحد يريدون المدائن، فكتب سعد إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يعلمه بذلك ويقول له: إن أهل الموصل قد مات ملكهم «الأنطاق» وقد تولى عليهم «الشكان بن قالوص» وارتدوا عن صلحنا وعوَّل ملكهم على أن يكون عونًا لأهل فارس علينا والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته، فلما وصل الكتاب إلى عمر أرسل يقول له: يا سعد اعلم أن الله منجز وعده. وبعث إليه هاشم بن عتبة في اثني عشر ألف فارس؛ من المهاجرين والأنصار ألفان والبقية من العرب.

وإن ابن كسرى لما حصَّن حريمه وأمواله في الجبل أمر على العسكر مهران الداري ووصاه وسار مهران بالعسكر فركب معه ابن كسرى مقدار ميل وودعه

ورجع إلى حلوان والمدد يأتي من سائر بلاد العجم. قال ووصل مهران إلى مدينة نشاور ونزل بها في دار الولاية وأقام بها، فلما كان الغد ركب في وجوه قومه ودار بهم على أسوارها وأبوابها وأمر بتحصينها في علو سورها ونصب آلات الحصار بالعرادات والمجانيق وحفر خندقًا عميقًا وصنع حسكًا من الحديد وجعله حول المدينة والخندق وما خلى من أهل البلد صغيرًا ولا كبيرًا حتى استعمله في السور والخندق وادخر القوت وعلف الخيل وما يحتاجه للحصار واستوثق من أهل البلد الكبير والصغير منهم وأخذ رهائنهم وحلَّفهم على أن لا ينهزموا أبدًا. فلما اتفق ذلك كله أقام ينتظر قدوم المسلمين. وأما هاشم بن عتبة فإنه سار في اثني عشر ألف مجاهد حتى أشرف على مدينة نشاور فوجدها محصنة بالعدد والعدو قد أظهر الزينة والسلاح على الأبراج بالدروع والجواشن والمجانيق والعرادات والبيارق والأعلام ووضعوا في أركان المدينة على الأبراج قباب حديد ليضرموا فيها النار ويسجدوا لها ويستنصروا بها على العرب، فلما أشرف عليهم عسكر هاشم بن عتبة ضجوا بكلمة كفرهم وأشاروا إلى الشمس والنيران يسجدون لهما.

أخبرنا أحمد الطويل قال: لما نزل هاشم بن عتبة على مدينة نشاور بمن معه من المسلمين لم يلتفتوا إليهم ولم يكترثوا بهم وأروهم التجلد والشدة وجعلوا يطاولونهم ولا يخرجون إليهم فصعب ذلك على المسلمين والمدد واصل إليهم من عند يزدجرد بن كسرى فاشتدت قلوب أعداء الله فقالوا لمهران الداري: أيها الصاحب ما الذي تنتظر بنا في قعودنا ومقامنا من وراء السور، وقد اشتقنا إلى القتال فاخرج بنا إلى هؤلاء القوم فقد ضاقت صدورنا وضاقت بنا المدينة وهذه الشمس المنيرة تنصرنا وتظفرنا على أعدائنا وكذلك النار والنور، فلما رآهم معولين على القتال أمرهم بالخروج وجعل على خيله جوزان بن جهران وأمره أن يزحف بالجيش، فلما فتح باب المدينة وخرج الفرس فرح المسلمون بذلك وتبادروا إليهم بأسرار صافية وهمم وافية يطلبون القتال في مرضاة الله ذي الجلال، وأنفسهم لذلك مستبشرة نازحة وهممهم إلى الحرب مسرعة قادحة.

ولما ركب المسلمون جعل على مقدمة الخيل طلحة بن خويلد وبقي هاشم على الساقة. فقال: أيها الناس والله لا تنال الجنة إلا بحسن الأعمال

فاتركوا من قلوبكم الميل إلى دار اللهو والأهوال، والمقام في دار الزوال. جاهدوا لتدخلوا جنة عرضها السموات والأرض. قال وقد اصطفت عساكر العجم ودقت بوقاتها، ونشرت ازدهاراتها فهم كذلك إذ أقبل عليهم ملك الرقي في اثني عشر ألف فارس، فلما رأى هاشم ذلك قال: يا فتيان العرب لا تنظروا إلى كثرتهم وقلتكم فقد كان المصطفى - صلى الله عليه وسلم - يوم بدر في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، وقد كانت قريش في حدها وحديدها وعددها وعديدها، ونصر الله نبيه ورسوله، قال الله تعالى: «كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ»، وإذا بالخيل قد حملت عليهم كأنهم السيل. فقال هاشم: أخلصوا النيات ولا تولوا الأدبار، واعلموا أنه قد تولى عليكم الجبار.

وأطبق الناس بعضهم ببعض وساروا بين البسط والقبض وازدحمت الأمم وقامت الحرب على قدم، وقاتلت أبطال العجم وضربت بحرابها، ورمت بصفاحها، وفوقت بسهامها، وأظلم الجو من الغبرة في الآفاق، واعتمدوا على الضرب بالأسياف الرقاق، وطعنت العرب بالرماح الدقاق، وقلعت عرب

اليمن بنبالها الأحداق، ودنت الأعمار إلى المحاق، وبلغت الأرواح التراق، وعظم الأنين والزعاق، وصبرت الأعاجم على ما لا يطاق، وسامهم العرب من أسنة رماحهم كأس الفراق، ولم يزالوا في القتال إلى أن ذهبت الأنوار وجاء الليل ومضى نور النهار، وفي آخر يوم قدم القعقاع بن عمرو ومعه اثنا عشر ألف فارس فقويت قلوب المسلمين بقدوم عساكر الموحدين وأعلنوا بكلمة التوحيد فدوَّت من أصواتهم الجبال والتلال والرمال والحجر والشجر، فلما سمع أعداء الله ما نطقوا به ارتعدت فرائصهم، فاستقبلوهم بنيات صادقة، وهمم متوافقة، وأعلنوا بذكر كلمة الحق والصلاة على سيد الخلق فبذلوا صوارمهم في الأعداء، فوقعت الهزيمة على عسكر العجم وخذلهم الله وحمل المسلمون في آثارهم فقتلوا من قتلوا وأسروا من أسروا وهرب الباقون!

وأخذ المسلمون مدينة نشاور وغنموا ما فيها من الأموال، وكان شيئًا لا يقع عليه حصر وأقاموا فيها وبنوا الجامع وذكروا الله فيه ذكرًا كثيرًا وأكمل الله لهم فتوح العراق، وكتبوا بذلك كتابًا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يعلمونه بذلك وبعثوا الخمس فوصل ذلك إلى عمر بن الخطاب -

رضي الله عنه - فسر بذلك سرورًا عظيمًا فحمد الله تعالى كثيرًا وسرت المسلمون سرورًا زائدًا على ما فتح من بلاد كسرى وأعمالها على يد سعد بن أبي وقاص واستوطنوا البلاد - رضي الله عنهم - أجمعين.

ذكر فتوح البهنسا وأهناس وأعمالها

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. اعلم وفقك الله أن مدينة البهنسا ذكر بعض المفسرين أن الله - سبحانه وتعالى - ذكرها في كتابه العزيز بقوله - عز وجل - في حق عيسى - عليه السلام -: «وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ»، قال: هي أرض بهنسا، وكان من أمر عيسى - عليه السلام - ما ذكرناه إن شاء الله تعالى، واستشهد بها زهاء من خمسة آلاف من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منهم الأعيان والأمراء زهاء من أربعمائة، ويتبعهم من الأشراف والصحابة نفر كثير، منهم علي بن عقيل بن أبي طالب والحسن بن صالح بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي عمر جامعًا بها، وكان من أمره ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وأما فضائل البحر اليوسفي الذي تقع المدينة على جانبه فهو أكثر عجائب، منها أنه غزير البركة لأنه يفيض حتى يروي ما حوله من القرى والبلدان مع قليل من زيادة النيل. ومنها أنه إذا زاد النيل شيئًا قليلًا يزاد فيه شيء كثير. ومنها أنه إذا انقطع عنه مدد النيل تفجرت من أصله عيون فصارت نهرًا جاريًا وهذا لا يوجد بغيره أبدًا من الأنهار. ومنها أنه ينقسم بأرض الفيوم ماء يسير فيروي زراعات وأراضي شتى وضياعًا وهذا لا يوجد لغيره أبدًا. وكان لها من الأبراج والرساتيق ما لا يوصف.

ذكر خروج عيسى – عليه السلام – من مصر وإقامته بأرض البهنسا

قال الله تعالى: «وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ» وتقدم أنها البهنسا على اختلاف المفسرين. قال أصحاب التواريخ، وهم المسعودي وأبو جعفر الطبراني والواقدي وابن إسحق وابن هشام وأصحاب السير وأهل التفسير مثل سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وابن عباس، قالوا: كان مولد عيسى لمضي اثنتين وأربعين سنة من ملوك الطوائف وكانت الرياسة بالشام ونواحيها لقيصر ملك الروم وهرقل كما تقدم في فتوح

الشام وكان بالبهنسا «قنطاريوس» -والله أعلم باسمه- فلما سمع الملك «هيردوس» بخبر المسيح قصد قتله، وذلك أنهم نظروا إلى نجمه وقد طلع فعرفوا ذاك بحساب لهم في كتاب لهم فبعث الله ملكًا إلى يوسف النجار وأخبره بما أراد «هيرودس» وأن يعلم مريم أن تخرج إلى أرض مصر فإنه إن ظفر بولدك قتل، فإذا مات «هيردوس» فارجعي إلى بلادك فاحتمل يوسف مريم وابنها عيسى على حمار له حتى دخل مصر، وورد أرض البهنسا وهي الربوة التي ذكرها الله في كتابه العزيز «وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ»، وهناك بئر في المعبد يستشفون بمائها من الأمراض وهي التي كانت مريم وابنها يستقيان منها ويتوضآن منها للصلاة، وكان هناك سرب تحت الأرض قيل إن مريم لما دخلت بولدها أرض البهنسا وجدا بئرًا وليس عليها رشاء، فطلب عيسى - عليه السلام - الماء ليشرب بعد أن عطش عطشًا شديدًا وبكى فحزنت أمه فارتفع الماء من قعر البئر حتى شرب منه، وهي من ذلك اليوم تزيد ويعرف منها زيادة النيل فجعل النصارى لها عيدًا إلى يومنا هذا، وهناك دير وزراعات، والله أعلم.

ذكر فتح البهنسا وما فيه من الفضائل وما وقع فيه للصحابة - رضي الله عنهم -

قال الرواة بأسانيد صحيحة عمن حضر الفتح من أصحاب السير والتواريخ: وحضر ذلك الفتح معظم الصحابة وكبراؤهم مثل عبد الله بن عمرو بن العاص أمير الجيوش على مصر وأخيه محمد وخالد بن الوليد وابنه سليمان وقيس بن هبيرة المرادي والمقداد بن الأسود الكندي وميسرة بن مسروق العبسي والزبير بن العوام الأسدي وابنه عبد الله وضرار بن الأزور، ومن بني عم النبي - صلى الله عليه وسلم - مثل الفضل بن العباس وجعفر بن عقيل ومسلم بن عقيل وعبد الله بن جعفر ومن أبناء الخلفاء مثل عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأبان بن عثمان - رضي الله عنهم -، وقد اختصرنا في أسمائهم خوف الإطالة وكلهم حدثوا بما عاينوا من الفتوح وما شاهدوا من الوقعات وحدثوا بذلك أبناءهم - رضي الله عنهم -، وقد أخذنا هذه الفتوح على قاعدة الصدق لإثبات فضل رسول الله - صلى الله عليه وسلم

- والصحابة - رضي الله عنهم - إذ لولاهم ما كانت البلاد للمسلمين ولا انتشر علم هذا الدين.

قال: لما فتح عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مصر والإسكندرية والبحيرة والوجه البحري كله جميعًا كان بالصعيد نوبة وبربر وديلم وصقالبة وروم وقبط، وكانت الغلبة للروم. ثم استشار عمرو بن العاص أصحابه أي جهة يقصد وهل يسير بالجيوش شرقًا أو غربًا وما يصنع؟ فأشاروا عليه بمكاتبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فكتب إليه يقول: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمرو بن العاص عامل أمير المؤمنين على مصر ونواحيها إلى عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، سلام عليك ورحمة الله وبركاته: أما بعد، فإني أحمد الله وأثني عليه وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم -، والسلام على من بالمدينة من المهاجرين والأنصار والحمد لله قد فتحت لنا مصر والوجه البحري والإسكندرية ودمياط ولم يبق في الوجه البحري مدينة ولا قرية إلا وقد فتحت وأذل الله المشركين وأعلى كلمة الدين، وقد اجتمعت أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من السادات

والأمراء والأخيار من المهاجرين والأنصار يطلبون الإذن من أمير المؤمنين هل يسيرون إلى الصعيد أو إلى الغرب والأمر أمرك يا أمير المؤمنين فإنهم على الجهاد قلقون وباعوا نفوسهم لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم.

قال الواقدي: فلما فرغ عمرو بن العاص - رضي الله عنه - من الكتاب عرضه على أصحابه، ثم طوى الكتاب وختمه واستدعى برجل يقال له سالم بن بجيعة الكندي وسلم إليه الكتاب ودفع له ناقة عشارية فاستوى على كورها وخرج يريد المدينة. قال الواقدي: ولم يزل سائرًا ليلًا ونهارًا حتى قدم المدينة الطيبة الأمينة بعد صلاة العصر فدخل وأناخ ناقته على باب المسجد وعقلها بفضل ذمامها، ودخل في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسلم على قبره الشريف وصلى ركعتين بين القبر والمنبر، ثم تقدم فوجد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فسلم عليه. قال: فرد عليَّ السلام وصافحني، وكان لما رآني أقبلت وأنا فرحان قال: سالم جاء بكتاب من مصر مرحبًا به. ثم التفت وعن يمينه علي بن أبي طالب وعن شماله عثمان بن عفان وحوله من السادات

والمهاجرين والأنصار مثل العباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد وطلحة بن عبد الله وبقية الصحابة - رضي الله عنهم - حوله، ثم ناولته الكتاب.

فقال: ما وراءك يا سالم؟ فأنت سالم في الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالى. فقلت: الخير والبشرى والأمن يا أمير المؤمنين، فلما قرأ الكتاب فرح واستبشر وكانت تلك الغنائم قد وصلت إلى المدينة قبل ذلك بأيام، وقسمت على الصحابة - رضي الله عنهم -، ثم إنَّ عمر استشار علي بن أبي طالب ومن حضر - رضي الله عنهم - فأشار عليه علي بن أبي طالب أن لا يسير عمرو بن العاص بنفسه ليكون أهيب له في قلوب أعدائه وأن يجهِّز جيشًا عشرة آلاف فارس ويؤمر عليهم خالد بن الوليد - رضي الله عنه - فإنه سيف الله. فقال عمر: صدقت، وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «خالد سيف الله تعالى». وفي رواية «إن خالدًا سيف لا يغمد عن أعدائه». ثم بات سالم تلك الليلة، فلما أصبح صلى الصبح في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ثم أقبل على أمير المؤمنين عمر يسأله الجواب.

فعندها استدعى عمر - رضي الله عنه - بدواة وقرطاس، ثم كتب كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عامله على مصر ونواحيها عمرو بن العاص، سلام عليك ورحمة الله وبركاته. أما بعد: فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - ، والسلام عليك وعلى من معك من المهاجرين والأنصار ورحمة الله وبركاته، وقد قرأت كتابك وفهمت خطابك، فإذا قرأت كتابي هذا فاستعن بالله واربط الخيل وأرسل الأمراء لكل بلدٍ أمير ليقيموا شرائع الدين ويعلموا الأحكام، ثم انتدب عشرة آلاف من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمِّر عليهم خالد بن الوليد وأرسل معه الزبير بن العوام والفضل بن العباس والمقداد بن الأسود وعياض بن غنم الأشعري ومالكًا الأشتر وجميع الأمراء وأصحاب الرايات ينزلون على المدائن ويدعون الناس إلى الإسلام، فمن أجاب فله ما لنا وعليه ما علينا، ومن أبى فليأمروه بأداء الجزية، وإن عصى وامتنع فالحرب والقتال وأمرهم إذا حاصروا مدينة أن يشنوا الغارات على السواد، وإن بمصر مدينتين كما بلغني؛ إحداهما يقال لها أهناس قريبة من مصر، والثانية يقال لها البهنسا أمنع وأحصن وبلغني أن بها بطريقًا طاغيًا سفاكًا للدماء يقال له

«البطليوس» وهو أعظم بطارقة مصر كما بلغني، وأنه ملك الواحات فلا تقربوا الصعيد حتى تفتحوا هاتين المدينتين وعليك بتقوى الله في السر والعلانية، أنت ومن معك، وانصف المظلوم من الظالم، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر وخذ حق الضعيف من القوي، ولا تأخذك في الله لومة لائم، وأقم أنت بمصر، وأرسل الأجناد وإن احتجت إلى مدد فأرسل وكاتبني، وأنا أرسل لك المدد، والمعونة من الله - عز وجل -، وأسأل الله تعالى أن يكون لكم بالنصر والمعونة والفتح، والحمد لله رب العالمين.

ثم طوى الكتاب وختمه بخاتم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودفعه إلى سالم فأخذه وودع الصحابة وودع قبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد أن توضأ وصلى ركعتين وسار ولم يزل سائرًا حتى قدم مصر فوجد عمرًا والصحابة نازلين بأرض الجيزة، وكان زمن الربيع، وهو جالس في خيمته وأصحابه عنده، وهذه الخيمة كانت لملك القبط من الحرير الأزرق والأحمر والأصفر سعتها ثلاثون ذراعًا، وقد فرش فيها فرشًا كان للقبط، وهو جالس يتحدث مع المقداد وخالد والفضل وغنم والأمراء جميعهم - رضي الله عنه -

م وهو كأحدهم. قال سالم: فأنخت ناقتي فسمعت عَمْرًا يقول وأنا خلف الخيمة: قد أبطأ سالم! فقال خالد: كأنك به، وقد أقبل فهويت فأحس خالد بي من داخل الخيمة ولم يرني بعينه ولا غيره ولا علم بي، فقال: سالم؟ فقلت: لبيك يا أبا سليمان! فقال: مرحبًا بك يا سالم وحياك الله. ثم تقدمت وسلمت على عمرو وخالد وعلى بقية الأمراء.

ثم ناولته الكتاب فقرأه إلى آخره وفهم ما فيه. فلما سمع الأمراء ما فيه فرحوا بذلك فرحًا شديدًا. ثم إن عمرًا استشار الأمراء في ذلك، وكانوا لا يفعلون شيئًا إلا بمشورة بعضهم ولذلك مدحهم الله في كتابه العزيز بقوله – عز وجل –: «وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ» (الشورى ٣٨)، فأشاروا عليه أن يرسل خلف الأمراء والجنود المتفرقة في البحيرة شرقًا وغربًا وأن يرتب الجيوش ويقصدوا الصعيد ويتوكلوا على الله – عز وجل –.

قال الواقدي: وكانت الصحابة لما فتحت مصر والوجه البحري قد تفرقوا فمنهم في الإسكندرية وأمسوس ودمياط ورشيد وبلبيس، وكان أكثرهم بوسط البحيرة في المكان المعروف بالمنزلة مثل القعقاع بن عمرو التميمي وهاشم بن

المرقال وميسرة بن مسروق العبسي والمسيب بن نجبة الفزاري، فعندها استدعى عمرو - رضي الله عنه - بالنجابة والسعاة وعمرو بن أمية الضمري ومثل هؤلاء - رضي الله عنهم - أجمعين، وكتب الكتب وأرسلها للأمراء فعندها أجابوا بأجمعهم لأنهم - رضي الله عنهم - كانوا أشوق للقتال من العطشان للماء البارد الزلال، وتركوا في البلاد والمدائن من يحفظها أو يحرسها خيفة من العدو وأقبلوا نحو مصر مسرعين ونزلوا حولها وأخبر عمرو - رضي الله عنه - بقدومهم فدخل دار الإمارة، وهي قريبة من الجامع العمري، وأقبلت السادات والأمراء يسلمون عليه، وكان ذلك نهار الأربعاء عاشر شهر ربيع الأول سنة إحدى وعشرين من الهجرة النبوية، وقيل اثنتين وعشرين، والله أعلم.

قال: حدثنا محمد بن عبد الله. قال: حدثنا عبيدة بن رافع عن أبيه جحيفة عن جابر بن عبد الله الأنصاري، وحدث بذلك ابن سلمة - رضي الله عنه -. قالوا: لما قدمت الأمراء والأجناد من الصحابة - رضي الله عنهم - أقاموا الأربعاء والخميس والجمعة فخطب عمرو - رضي الله عنه - بالناس. فلما فرغ

من خطبته أمر الناس أن لا يتفرقوا حتى يقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. فقرأ عليهم الكتاب. فلما فرغ من قراءته تواثبوا كلهم كالأسود الضارية المشتاقة إلى فرائسها، وقالوا كلهم: سمعنا وأطعنا، ولأرواحنا في سبيل الله بذلنا، وللجهاد طلبنا، وفي الثواب رغبنا، وإلى الجنة اشتقنا، ففرح عمرو بذلك وقال: إن أمير المؤمنين قد أمرني أن أولي عليكم سيف الله، والنقمة على أعداء الله، صاحب القتال الشديد، والبطل الصنديد، خالد بن الوليد.

قال الواقدي: وكان خالد بن الوليد صديق عمرو في الجاهلية وأسلما في يوم واحد. ثم التفت عمرو إلى خالد، وقال: ادن مني يا أبا سليمان فدنا منه، فقال عمرو: يا معاشر أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، إنكم كلكم لكم الفضل وإني لست بأفضل وفيكم من هو ذو قرابة ونسب من رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وأنتم تعلمون ما فتح الله على يديه من البلاد، وما أذل الله على يديه من الأجناد. قال الواقدي: فوثب الفضل بن العباس – رضي الله عنه –، وقال: أيها الأمير، إنا بذلنا أنفسنا في رضا الله – عز وجل –، وما نريد بذلك إلا رفعة عند الله – عز وجل –، وإن خالدًا من أخيارنا ولو أمرت علينا عبدًا

حبشيًا لامتثلنا أمره في رضا الله - عز وجل - فناهيك بخالد، وهو سيد من سادات قريش عزيز في الجاهلية والإسلام! فتهلل وجه خالد وعمرٍ فرحًا، ثم أمرهم بالنزول جميعًا بأرض الجزيرة قريبًا من الهرم الشرقي، وأقبلوا يضربون خيامهم حوله حتى تكاملت العساكر - رضي الله عنه - م أجمعين.

قال الراوي: لما تكاملت الجيوش وذلك في ربيع الآخر من السنة المذكورة صلى عمرو بأصحابه صلاة الصبح، ثم قام من ساعته يمشي على قدميه وحوله جماعة من المسلمين، ومعه خالد بن الوليد والمقداد بن الأسود الكندي والزبير بن العوام الأسدي وبقية السادات حتى طلع على رابية وأشرف على الجيش، فلما رأى اجتماعهم سر سرورًا عظيمًا. ثم أمر بعض الجيش فتقدمت الأمراء أصحاب الرايات وصار كل أمير يعرض جيشه وبني عمه على عمرو بن العاص، فكانت عدتهم فيما ذكر، والله أعلم ستة عشر ألف فارس فانتدب منهم عشرة آلاف فارس كلهم ليوث عوابس وعليهم الدروع الداودية متقلدين بالسيوف الهندية، معتقلين بالرماح الخطية، راكبين الخيول العربية، من خيار أمة خير البرية.

فعند ذلك قال لهم عمرو: يا معاشر الأمراء أصحاب الرايات والسادات الأخيار إن خالدًا أمير عليكم فاسمعوا له وأطيعوا، وكونوا كلمة واحدة، ونازلوا المدائن والقلاع، وشنوا الغارات على السواد، ولا تقاتلوا قومًا حتى تدعوهم إلى شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فإن أبوا فأداء الجزية فإن أبوا فالقتال بينكم وبينهم «حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ» (الأعراف:٨٧)، وأرسلوا الطلائع ولا يكون في الطلائع إلا كل فارس كرار في الحرب والقتال وثبتوا أنفسكم ولا يغرنكم كثرة أعدائكم فأنتم الغالبون، فقد ذكر الله في كتابه المكنون المبين «كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ»، وأحسنوا نياتكم وثبتوا عزائمكم، فأنتم الغالبون والله معكم، وأنتم كلكم أهل الفضل والسابقة وأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقاتلتم بين يديه ولا تحتاجون إلى وصيتي بارك الله فيكم.

قال الراوي: ثم إنَّ عَمْرًا استدعى بأصحاب الرايات، فكان أول من تقدم بعد خالد الزبير بن العوام - رضي الله عنه - وهو راكب على جواده الأغر شاك سلاحه فسلمه الراية وأمره على خمسمائة، ثم استدعى بالفضل بن العباس،

وزياد بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وكان - رضي الله عنه - فارسًا عظيمًا وبطلًا صنديدًا، ثم استدعى من بعده عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وجعفر بن عقيل وأخاه الفضل والمقداد بن الأسود الكندي وعمار بن ياسر والعباس بن مرداس السلمي وأبا دجانة الأنصاري وغانم بن عياض الأشعري وأبا ذر الغفاري والقعقاع بن عمرو التميمي والمغيرة بن شعبة الثقفي وميسرة بن مسروق العبسي ومالكًا الأشتر النخعي وذا الكلاع الحميري والوليد وعقبة بن عامر الجهني وجابر بن عبد الله الأنصاري وربيعة بن زهير المحاربي وعدي بن حاتم الطائي ومثل هؤلاء السادات - رضي الله عنهم - وكل واحد يسلمه راية ويؤمِّره على خمسمائة فارس! فلما تكاملوا وتجهزوا خرج عمرو وأصحابه فودعهم وسارت الكتائب، وتتابعت المواكب يطلب بعضها وخلفهم الذراري والصبيان حتى أتوا الجيزة ونزلوا بمكان يعرف بالمرج الكبير قريب من تلك المدائن والقرى والرساتيق وتقدمت الطلائع يتجسسون الأخبار.

وقد كان بدهشور بطريق عظيم من قبل «مارنوس» صاحب أهناس، وكان فارسًا مكينًا وكلبًا لعينًا وكان يقول في نفسه أنه يناظر «البطليوس» في ولايته لكن «البطليوس» صاحب البهنسا -لعنه الله- كان أشد بأسًا، وأعظم مراسًا، وأكثر عددًا، وأقوى مددًا، وأوسع بلادًا فكاتبه في ذلك وكاتب روسال صاحب الأشمونين وكاتب أقراقيس صاحب قفط وكان يحكم على أخميم، وكاتب الكيكلاج وكان يحكم إلى عدن والبحر المالح إلى بلاد البجاوة والنوبة وحد السودان، وتسامع الناس بمسير العرب إلى الصعيد، وكاتبت الملوك بعضها بعضًا، وماج الصعيد بأهله إلى حد الواحات، ووقع الرعب في قلوبهم، فعند ذلك وثب مكسوج ملك البجاوة وحليف ملك النوبة وجمعوا ما حولهم من أرض النوبة والبجاوة والبربر وأتوا إلى أسوان.

وكان مع ملك البجاوة ألف وثلثمائة فيل عليها قباب الجلد بصفايح الفولاذ، في كل قبة عشرة من السودان، طوال القامة، عراة الأجساد، على أوساطهم وأكتافهم جلود النمور وغيرها، ومعهم الحرق والحراب والكرابيج والقسي والمقاليع والأعمدة الحديد والطبول والقرون، وكانت عدتهم عشرين

ألفًا، فلما وصلوا أسوان خرجوا إلى لقائهم بعسكرهم وأعلموهم بأمرهم وساروا إليهم بالملاقاة من الذرة والشعير والقصب ولحوم الخنازير والضباع وغيرها من الوحوش فأنزلوهم وضيوفهم ثلاثة أيام، ثم خرج بطريق أسوان ومعه جيش حتى وصلوا إلى ملك قفط صاحب القرية القريبة من قوص وعمل معهم مثل ذلك وسير معهم جيشًا وساروا حتى وصلوا إلى أنصنا، وكان بها بطريق عظيم وبطل جسيم، وكان منجمًا، وكان يحكم شرقًا وغربًا، وكانت مدينته عظيمة على شاطئ البحر وبها جند كثير وعجائب عظيمة ولها حصن عظيم من الحجر علوه ثلاثون ذراعًا ومن داخلها قصور ومقاصير وكنائس وقلاع على أعمدة الرخام وغيرها في المدينة.

فلما نزلت تلك العساكر على أنصنا خرج إليهم بطريقها جرجيس بن قابوس وتلقاهم وأرسل معهم ابن عم له يسمى «قيطارس»، وكان فارسًا شديدًا في أربعة آلاف فارس. ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا بواد البهنسا عند بطريق يسمى «قلوصا» من بطارقة «البطليوس»، فلما سمع بهم «البطليوس» خرج إلى لقائهم في عسكر عظيم زهاء من خمسين ألف فارس من البطارقة، وعليهم

الدروع المذهبة وأقبية الديباج المرقومة بالذهب الوهاج، وعلى رؤوسهم التيجان المكللة باللآلئ والجواهر، راكبين على خيول وبراذين مسرجة عليها سروج الذهب، والجنائب مغطاة بأغشية من الحرير الملون المرقوم بالذهب والفضة والخز، وكان معه خمسون صليبًا طول كل صليب أربعة أشبار من الذهب؛ تحت كل صليب ألف فارس، وعلى كل صليب رمانة من الذهب المنقوش، وهم في زي عظيم عجيب، وقد أكثروا من الطبول والزمور وضرب القرون والمعازف حتى ارتجت الأرض ومعهم الجمال والبغال والجاموس، فلما التقوا ترجَّلت الملوك والبطارقة للقائهم وسلم بعضهم على بعض وتكلموا فيما بينهم بسبب العرب!

فقال لهم «البطليوس»: لا تطمعوا العرب فيكم ولا في بلادكم فإنما مثل العرب كمثل الذباب إن تركته كلَّ وإن منعته فر وهلك فاثبتوا واصدقوا العزم فلقد كاتبت لكم سنجاريب ملك برقة وكاتبت ملك الواح وكأنكم بهم قد أتوا إليكم، ولولا أنني أخشى أن العرب يأتون إلى بلادي لما يسمعون أني خرجت إليهم فيشتغل جماعة بقتالكم وجماعة يأتون إلى بلادي فيملكونها، وليس فيها

من يذب عنها إذا خرجت معكم لكنت في خدمتكم فإنا نجد في الكتب القديمة أنهم إذا ملكوا البهنسا ونواحيها فلا تقوم لأهل الصعيد قائمة. قال كرماس الرومي -وكان ممن أسر بعد ذلك وحضر وحدث به-: يا معاشر الملوك والبطارقة إني قد اطلعت على الكتب القديمة وفيها أنهم إن ملكوا البهنسا ونواحيها فلا تقوم لأهل الصعيد بعد ذلك قائمة!

فلما سمع الملوك ذلك صقعوا له ثم انتدب من بطارقته عشرين ألفًا ممن عرفت شجاعتهم وبراعتهم وملَّك عليهم صاحب الكفور، وكان كافرًا طاغيًا، وكان اسمه بولص، وكان لعينًا، ودفع له صليبًا من الذهب وعلمًا من الحرير الأطلس الأصفر مرقومًا بالذهب فيه صورة الشمس، ودفع لهم ما يحتاجون له من الجنائب والقباب والسرادقات ومضارب الديباج الملون وأواني الذهب والفضة والصناديق المملوءة بالذهب والفضة والبراذين، والبغال وعليها أحمال الحرير الملون، وبعضها محمل بالأواني المذكورة والخيام والسرادقات، وسارت العساكر، وتتابعت الملوك بالمواكب يتلو بعضها بعضًا حتى قربوا من مدينة ببا الكبرى فخرج إليهم بطريقها «صندراس» وتلقاهم

وفعل معهم كما فعل «البطليوس» وأضافهم وجهز معهم جيشًا عشرة آلاف فارس من صناديد بطارقته وولي عليهم بطريقًا اسمه دارديس، وكان يناظر بطريق الكفور في الشجاعة والقوة والبراعة، وساروا حتى قربوا من مدينة برنشت فخرج إليهم بطريقها فتلقاهم، وكان يناظر البطريق الأعظم رأس بطارقة الكوة ولم يزالوا سائرين حتى ملؤوا الأرض شرقًا وغربًا هذا ما جرى لهؤلاء.

قال الراوي: وأما ما كان من أصحاب محمد – صلى الله عليه وسلم – فإنهم لما نزلوا قريبًا من دهشور كما ذكرنا، وكانت العيون من المسلمين من بني طيء ومذحج ينزلون ويتزيون بزي العرب المتنصرة يتجسسون الأخبار حتى اختلطوا بالعساكر المذكورة، وكانوا حذاقًا متفرسين، فلما رأوا ذلك هالهم أمره.

قال الراوي: حدثني سنان بن قيس الربعي عن طارق بن مكسوح الفزاري عن زيد بن غنم الثعلبي، وكان ممن حضر الفتوح وشهد الوقعة صحبة جيش خالد بن الوليد – رضي الله عنه – قال: بينما نحن جلوس نصلح شأننا بالمرج ونحن على أهبة السفر إذ قدمت الجواسيس فأخبروا خالدًا بقدوم العساكر.

فقال لهم: هل حزرتم الجيوش؟ فقالوا: نعم نحو مائتي ألف فارس وخمسين ألف راجل من النوبة والبربر والبجاوة والفلاحين وغيرهم، وهم في أهبة عظيمة، ومعهم ألف وثلثمائة فيل وعلى ظهورها الرجال كما وقع في يوم حرب العراق، فلما سمع الأمراء ذلك اضطربوا وثبتوا جنانهم، وقالوا: «قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا» (التوبة:٥١)، وقال خالد: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم قرأ «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» (آل عمران:١٧٣)، ثم قرأ «كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ»، ثم إن خالدًا قال لأصحابه: لا تهتموا لذلك واصبروا «وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ» (محمد:٣٥)، فليست جموعهم بأكثر من جموع اليرموك ولا من جموع أجنادين ومع ذلك فقد ملكتم مصرهم التي هي تاج عزهم وملكتم الوجه البحري وقتلتم مائة من ملوكهم وبطارقتهم، وقد صارت الشام واليمن والعراق والحجاز بأيديكم، وقد دانت لكم البلاد، وقد كنتم قليلًا فكثَّركم الله، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، وقاتلتم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونصرتم بالملائكة، ووعدكم على لسان نبيكم - صلى الله عليه وسلم - أنه يستخلفكم

في الأرض كما استخلف الذين من قبلكم، ومن قتل منكم كان له الجنة وتنتقل روحه إلى روح وريحان ورب غير غضبان! فلما سمعوا كلامه تهللت وجوههم فرحًا وقالوا: يا خالد نحن كلنا بين يديك، وقد وهبنا أنفسنا لله ابتغاء وجه الله ومرضاته.

قال الواقدي: ثم إن خالدًا وجه يزيد بن معرج التنوخي إلى عمرو بن العاص مسرعًا وأعلمه بذلك فترك في مصر ابن عمه خارجة، وكان رجلًا صالحًا وأخرج معه أربعة آلاف فارس وترك في مصر نحو أربعين فارسًا من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجاء إليهم أربعة آلاف فارس، فلما أقبلوا سلموا عليه وقالوا: كنا نحن نكفيك أيها الأمير. فقال لهم: أعلم ذلك ولكنكم في أول بلاد العدو وما ينبغي أن أقعد عنكم، ففرحوا بذلك وتأهبوا للقاء العدو. وكانوا كل يوم يخرجون الطلائع يتجسسون الأخبار، فلما كان في بعض الأيام، خرج الفضل بن العباس بن عبد المطلب وأخوه عبد الله بن العباس وجعفر بن عقيل وغيرهم، وتبعهم من السادات نحو أربعمائة سيد من أولاد الصحابة والأمراء أصحاب الرايات، وألف وستمائة من أخلاط العرب من المهاجرين

والأنصار ولبسوا دروعهم، وتقلدوا بسيوفهم واعتقلوا برماحهم، وتنكبوا بحجفهم وساروا إلى قريب من دير هناك بسفح الجبل يعرف بـ «دير المسيح» يكشفون الأخبار، فبينما هم كذلك إذا بغبار طلع إلى عنان السماء وانعقد، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: هذا غبار وحش، وقال بعضهم: لو كان كذلك لكان تقطع قطعًا وتفرق فرقًا، وإنما هذا عسكر جرَّار وإن الخيل إذا داست بحوافرها ارتفع الغبار.

. عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: بينما نحن نتحدث مع الفضل وإذا بالغبار قد قرب منا وانكشف عن عشرة آلاف فارس ومعهم الأعلام والصلبان، فلما رأونا رطنوا بلغتهم ثم لم يهملوا دون أن حملوا. وكان ضرار بن الأزور قد انفرد ومعه مائتان من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أهل النجدة، وساروا في طريق الجبل على غير الجادة، فبينما هم يسيرون إذا بالغبار قد ثار وانكشف عمن ذكرنا، فلما عاينوهم أيقنوا بالهلاك، فعندها وثب ضرار - رضي الله عنه - وقال: لا فرار من الموت! فلم يمهلوهم دون أن داروا عليهم، فرأوا أن لابد لهم من القتال، والتقت الرجال بالرجال، وصبروا صبر الكرام،

وأحاطت بهم الروم اللئام من كل جانب ومكان، فلله در ضرار لقد قاتل قتالًا شديدًا، فلم يكن غير ساعة حتى قتل من جماعة ضرار جماعة وكبا به جواده فأسروه وأسروا جماعة من أصحابه، وكان الذي قاتلهم رأس البطارقة صاحب «ببا الكبرى»، فأوثقوا ضرارًا وأصحابه كتافًا وربطوهم على ظهور خيولهم وأرسلوهم إلى العسكر، وانفلت من القوم مولى من موالي عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق يقال له سالم، فسار يجد في مسيره، حتى قدم على خالد وعمرو، فعند ذلك وثب المسيب بن نجبة الفزاري ورافع بن عميرة الطائي وأخذا معهما ألفًا من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وسارا ومعهما رجل أسلم من الجيزة يدلهم على طريق غير الجادة وكمنوا هناك عند الدير وقد سبقوا البطريق الذي أسر ضرارًا وأصحابه، وقد اختفى عنهم الأثر، فقال الدليل: أظنكم قد سبقتم القوم اكمنوا ههنا، وكان الذي مضى بضرار وأصحابه خمسمائة فارس.

قال الراوي: وكانت خولة بنت الأزور قد شق عليها أسر أخيها ضرار، فلما سار المسيب ورافع وجماعته في طلب أخيها، تهللت فرحًا وأسرعت في لبس

سلاحها وأتت إلى خالد وقد همَّ القوم بالمسير وقالت: أيها الأمير سألتك بالله إلا ما سيرتني مع هؤلاء عسى أن أكون مشاهدة لهم. فقال خالد للمسيب ورافع: أنتما تعلمان شجاعتها وبراعتها فخذاها معكما، فقالا: السمع والطاعة، ونزلوا بالمكان المذكور. فبينما هم كذلك كامنون إذا بغبرة قد لاحت لهم، فقال لهم رافع: أيقظوا خواطركم، فأيقظت القوم هممهم، فإذا بهم قد أتوا محدقين بضرار وهو متألم من كتافه، وهو ينشد ويقول:

ألا بلغا قومي وخولة أنني ... أسير رهين موثق اليد بالقيد
وحولي علوج الروم من كل كافر ... وأصبحت معهم لا أُعيد ولا أُبدي
فلو أنني فوق المحجل راكبًا ... وقائم حدّ العضب قد ملكت يدي
لأذللت جمع الروم إذلال نقمة ... وأسقيتهم وسط الوغى أعظم الكدِّ
فيا قلب مت همًا وحزنًا وحسرة ... ويا دمع عيني كن مُعينًا على خدّي
فلو أن أقوامي وخولة عندنا ... وألزم ما كنّا عليه من العهد
كبا بي جوادي فانتبذت على الوغى ... وأصبحت بالمقدور ولم أبلغنّ قصدي

فنادته خولة من مكمنها: قد أجاب الله دعاك وقبل تضرعك ونجواك، أنا خولة! ثم كبرت وحملت وكبر رافع والمسيب. قال جبير بن سالم وكنا إذا كبرنا

تصهل الخيول إلهامًا من الله تعالى، فما كان أكثر من ساعة حتى قتلناهم عن آخرهم وخلص الله ضرارًا وأصحابه، وأخذنا خيل القوم وأسلابهم وسلاحهم وكانت أول غنيمة. قال الراوي: ولما تخلص ضرار وأصحابه ركب جواده عريانًا وأخذ قناة كانت مطروحة، وحمل على القوم وهو يقول:

لك الحمد يا مولاي في كل ساعة ... مفرج أحزاني وهمّي وكربتي
فقد نلت ما أرجوه من كل راحة ... وجمعت شملي ثم أبرأت علّتي
سأفني كلاب الروم في كل معرك ... وذلك والرحمن أكبر همّتي
فيا ويل كلب الروم إن ظفرت يدي ... به سوف أصليه الحُسام بنقمتي
وأتركهم قتلى جميعًا على الثرى ... كما رمة في الأرض من عظم ضربتي

فلما فرغ ضرار من شعره إذا بالخيل قد أقبلت منهزمة، وكان السبب في ذلك أنه لما حملت الروم على الفضل بن العباس صاح هو وبنو عمه ولم يرعهم وصبروا صبر الكرام، واشتد القتال، وضربت الأعناق، وكان المسلمون لا يظهرون فيهم لكثرتهم، ولا يعرف بعضهم بعضًا إلا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير، فلله در الفضل لقد اصطلى الحرب بنفسه، فكان تارة يقلب الميمنة على الميسرة وتارة يقلب الميسرة على الميمنة ويقاتل والراية بيده، ولله

در مسلم بن عقيل وأخويه لقد قاتلوا حتى صارت الدماء على دروعهم كقطع أكباد الإبل، ولله در سليمان بن خالد بن الوليد.

قال محمد بن مسلمة الأنصاري - رضي الله عنه -: وقاتلنا قتال الموت، ولم نزل في قتال من ارتفاع الشمس حتى غربت، وقد قتل من الروم مقتلة عظيمة! وتقدم الفضل إلى بطريق عظيم راكب كأنه برج من ذهب، وطعنه في صدره فأخرج السنان من ظهره، فلما رأت الروم ذلك شجعوا أنفسهم وفشا القتال بيننا وبينهم، وقتل من المسلمين أربعون رجلًا وقتل منهم ثلثمائة لكن الرجل ما قتل منا حتى قتل جماعة من الروم، فبينما نحن كذلك وقد أيقنا أن الموت في ذلك الموقف ووطنَّا عليه نفوسنا، وإذا بغبرة قد طلعت والعجاج قد ارتفع وانقشع الغبار عن رايات إسلامية وعصابة محمدية، وفي أوائلهم فرسان أمجاد سادات أنجاد، أحدهم المقداد والثاني زياد والقعقاع بن عمرو، وشرحبيل بن حسنة ومعهم ألف فارس فلم يمهل المقداد دون أن حمل وخاض في الخيل، وحمل من بعده زياد بن أبي سفيان فغاص في وسط القوم فقلب الميمنة على الميسرة والميسرة على الميمنة وغاص في القلب فولت

الروم من بين يديه منهزمين. وهو يضرب بالسيف فيهم طولًا وعرضًا، ثم حمل من بعده القعقاع بن عمرو التميمي، ثم حمل من بعده شرحبيل بن حسنة وهو يقول:

ألا يا عصبة الإسلام صولوا ... على الأعداء بالسيف الصقيل
أذيقوهم حياض الموت جهرًا ... بلذع السمهرى الرمح الطويل
وموتوا في الوغى قومًا كرامًا ... شدادًا في المعامع والنزول

قال الراوي: ثم تتابعت الفرسان يتلو بعضها بعضًا، هذا وزياد غائص في القوم كما ذكرنا، وقصد البطريق الأعظم صاحب «ببا الكبرى» وضربه على عاتقه الأيمن بالسيف فأطلع السيف يلمع من عاتقه الأيسر، وقد أجابه المسلمون بتكبيرة واحدة، وكبرت الجبال وارتجت الأرض لوقع حوافر الخيل، وحمل كل أمير على بطريق فقتله فلم تكن إلا ساعة حتى ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار لا يلوي بعضهم على بعض، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى بلغت الهزيمة «جرزة» و«ميدوم»، فبينما ضرار وأصحابه مقبلون وإذا بالروم منهزمة كما ذكرنا وخيل المسلمين في أثرهم يقتلون ويأسرون ولم يعلموا ما جرى لضرار ورفقته، فلما رأوه سلموا عليه وهنئوه

وأصحابه بالسلامة فقص عليهم ما جرى لهم واجتمعوا بالمسيب وأصحابه وأروهم مكان المعركة ومكان القتلى، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا.

قال الراوي: وإنَّ عَمْرًا وخالدًا لما خرج الفضل وأصحابه قلقا عليهم، فقال خالد لعمرو: يا أبا عبد الله لقد غرر الفضل وأصحابه بمن معه من المسلمين وإني أخشى أن تكون للروم طليعة فيغيروا على أصحابنا. قال عمرو: كذلك هجس بخاطري يا أبا سليمان فما ترى من الرأي؟ قال خالد: الرأي عندي أن أرسل طليعة أخرى خلفهم. قال: نعم الرأي! ثم استدعى الزبير بن العوام وأبي ذر الغفاري - رضي الله عنه - ما وأعلمهما بذلك، وأراد خالد أن يركب معهما فمنعه الزبير وحلف لا يسير إلا هو وانتخب معه فرسانًا، فساروا حتى قربوا من القوم والتقوا بالمسلمين فوجدوهم قد كسروا الروم كما ذكرنا، ثم جمع المسلمون الأسلاب والسلاح والخيل ورجعوا إلى أصحابهم وهم فرحون بالنصر على أعدائهم. فلما رجعوا إلى العسكر، وكان معهم ستمائة أسير أعلن المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير فأجابهم المسلمون كذلك، ولما عاينوا الأسلاب والأسارى معهم فرحوا بذلك وسلم بعضهم على

بعض، وتلقاهم عمرو وخالد وباقي الأمراء وتفاءلوا بالنصر وقدموا الأسارى وعرضوهم على عمرو وخالد، وأوقدوا النيران بالمرج، وباتوا يقرؤون القرآن ويتضرعون إلى الله الواحد المنان، وليس فيهم إلا من هو راكع أو ساجد.

قال الراوي: هذا ما جرى لهؤلاء، وأما المنهزمون فإنهم مضوا إلى البطارقة والملوك وأخبروهم بما وقع من أمرهم فعظم عليهم من قتل، واستعدوا للقتال، وركبوا خيولهم وإبلهم وأفيالهم، وتزينوا بزينتهم، وساروا يجدون المسير، وقد أكثروا الطبول والزمور والصنوج.

قال قيس بن الحرث: وأقام المسلمون بعد الوقعة يومًا، فبينما نحن في اليوم الثاني بعد صلاة الصبح، وكان الأجاويد من الأمراء والأبطال في كل يوم يركبون ويستنشقون الأخبار، فبينما هم ينتظرون إذ ثار الغبار حتى تعلق بالجو وانكشف عن رجال وخيول كالجراد المنتشر، والسيل المنحدر، وارتجت الأرض من ازدحام الخيل وقعقعة اللجم، فرجعوا وأعلموا صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وصاح الصائح في العسكر: النفير النفير يا خيل الله اركبي إلى الجنة اركبي والثواب اطلبي، فتواثب المسلمون إلى قدومهم ولبسوا دروعهم

وإلى خيولهم فركبوها وإلى راياتهم فنشروها، ونفوسهم لله باعوها، فلم تكن إلا ساعة حتى استعدوا، وأقام خالد وعمرو يعبيان قومهما للقتال فجعلا في القلب أصحاب الطعن والضرب مثل الفضل بن العباس وبني عمه من سادات بني هاشم ومثل هؤلاء الأبطال، وجعل في الجناح الأيمن الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود الكندي والمسيب بن نجبة الفزاري، وجعل في الجناح الأيسر القعقاع بن عمرو التميمي وهاشم بن المرقال وعياض بن غنم الأشعري ومثل هؤلاء السادات - رضي الله عنهم -، وثبت خالد وعمرو في القلب ومعهما عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعقبة بن عامر الجهني وبقية الصحابة من الأمراء أصحاب الرايات ممن شهد الوقائع مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

. عن أبي أمامة - رضي الله عنه -، وكان من أصحاب الرايات قال: فبينما نحن كذلك إذا بأعلام المشركين قد انتشرت، وراياتهم قد ظهرت، وزينتهم وصلبانهم قد ارتفعت، ولغتهم بالكفر قد طمطمت، وأفيالهم قد أقبلت، ورجالهم للقتال قد تبادرت، فلما رأى المسلمون ذلك أخلصوا نياتهم، ولم

يهلهم ما رأوا من عدوهم، وتضرعوا بالدعاء لخالقهم، وقد استغاثوا بمالكهم، وأكثروا من الصلاة على نبيهم، ولم يزالوا سائرين حتى قربوا من القوم ورأوهم رأي العين، فعند ذلك أمسك المشركون أعنة خيولهم وسلاسل أفيالهم وألقى الله الرعب في قلوبهم، ثم خرج منهم بطريق من عظماء بطارقتهم كأنه برج مشيد من ذهب وهو لا يبين منه غير حماليق الحدق وتدوير المآق وبين يديه فارس من متنصرة العرب وهو يصيح بملء فيه: يا معاشر العرب أرسلوا إلى الملك أحدًا يكلمه، فأعلم المسلمون عَمْرًا وخالدًا بذلك، فأراد خالد أن يخرج إليه فمنعه الأمراء من ذلك، فعندها وثب المقداد بن الأسود وحلف لا يخرج إليه إلا هو بنفسه. فقال عمرو وخالد: يا أبا عبد الله انظر ما يكلمك به الأعلاج وادعهم إلى كلمة الإخلاص المنجبة يوم القصاص، فإن أبوا فالجزية عن يد وهم صاغرون، فإن أبوا قاتلناهم «حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ».

قال الواقدي: فعندها ركب المقداد جواده وسار حتى وقف بين يدي البطريق وكان ذلك «بولص» صاحب الكفور الطاغي اللعين بطريق «البطليوس» وقد أتى بإذن الملك والبطارقة، فلما رآه كلمه بلسان عربي مبين،

ثم قال: يا بدوي أأنت أمير قومك؟ قال: لا. قال: فإني لا أريد إلا الأمير حتى أسأله عما بدا لي لعل أن تكون فيه مصلحة بينكم وبيننا. فقال المقداد: سل عما بدا لك وما تريد فإنَّا قوم إذا فعل أحدنا أمرًا وفيه نصح للدين ومصلحة للمسلمين لا ينكر عليه ذلك ويجيز له الأمير ما فعل فأخبرني عن أمرك وشأنك. قال: لا يكلمني إلا أمير القوم، وإن كان عنده خوف مني ألقيت سلاحي. فقال المقداد وقد ضحك من كلامه: ويحك يا عدو الله لو كنت أنت وأمثالك بأسلحتهم ما فكرنا فيهم! وإن الواحد منَّا لو وقع في ألف منكم لتلقاهم بنفسه ولا أهمه ذلك والمعونة من الله تعالى، فإنَّا وطَّنا أنفسنا على الموت ونعلم أن هذه الدنيا فانية ولا يبقى إلا وجه الله تعالى فاسألني عما بدا لك. فقال له: لا أسمع إلا كلام الأمير فدع عنك كثرة المطاولة. قال المقداد: إن لنا أميرين: أحدهما متولي الأمر والآخر قائد الجيوش فأي أمير تريد؟ قال: أخبرني بأسمائهما. قال: أما الذي هو متولي الأمر فيسمى عمرو بن العاص والآخر يسمى خالد بن الوليد. قال: إني أريد خالدًا، سمعت عنه أمورًا وأحوالًا وأن الروم تتحدث عنه بعجائب كثيرة.

قال الواقدي: وكان الملعون قد سمع بذكر خالد وفراسته وقال في نفسه: لعلي أغدره فإني إن قتلته كان لي الفخر على جميع الروم وينكسر بذلك ناموس العرب وإن لم أقدر عليه أسمع ما يقول من خطابه، قال: فعند ذلك لوى المقداد عنان جواده ورجع إلى خالد، فعند ذلك قال خالد لأصحابه: إن المقداد قد رجع وإن عدو الله لا يريد إلا إياي، فإن طلبني مضيت إليه، وإن رأيت منه غدرًا أخذت روحه من بين كتفيه وأستعين عليه بالملك العلام.

فبينما خالد يتحدث بهذا الكلام إذا بالمقداد قد وصل وأعلم عمرًا وخالدًا بما وقع، فعندها خرج خالد - رضي الله عنه - مبادرًا عليه لامة حربه فعلق به أكابر أصحابه فحلف أنه لابد له من الخروج إليه، ثم خرج مبادرًا حتى وقف بين يديه، فلما رأى خالدًا قد وصل إليه احترز على نفسه وأراد أن يخدع خالدًا ويهجم عليه، فقال خالد: أيها البطريق ها أنا خالد سل حاجتك والذي جئت به، وإياك والمخادعة فإني جرثومة الخداع! فقال «بولص»: يا خالد اذكر لي الذي تريد وقرِّب الأمر بيننا وبينكم واحقن دماء الناس، واعلم أنك مسؤول عن ذلك وواقف غدًا بين يدي الله، فإن كنت تريد شيئًا من الدنيا فلن نبخل به عليكم

وندفعه صدقة منًّا إليكم، لأنه ليس عندنا في الأمم أضعف منكم حالًا، وقد علمنا أنكم كنتم في بلادكم قبل أن تفتحوا البلاد في قحط وجوع وتموتون هزالًا! وقد ملكتم بلادًا وشبعتم لحمًا وركبتم خيولًا مسومة، وتقلدتم بسيوف مجوهرة، وسعدتم بعد فقركم وفاقتكم، فإن طلبتم منا شيئًا أعطيناكم إياه بطيبة قلوبنا فلا تطمعوا في بلادنا كما طمعتم في غيرها واقنعوا منًّا بالقليل.

فلما سمع خالد مقالته قال: يا كلب النصرانية وأخس من غمس في ماء المعمودية! إنه قد بعث الله إلينا نبينا فهدانا من الضلالة وأنقذنا من الجهالة، وإننا قد ملكنا الله بأيدينا ما أغنانا به عن صدقتكم، وأحل لنا أموالكم، وأباح لنا نساءكم وأولادكم، إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإن أبيتم ذلك فتؤدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، فإن أبيتم ذلك فالسيف حكم بيننا وبينكم حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين والله ينصر من يشاء، وإن الحرب والقتال أحب إلينا وأشهى من الصلح، وإن كنتم تزعمون أنه لم تكن أمة أضعف منا عندكم فأنتم عندنا بمنزلة الكلاب، فإن الواحد منا يقاتل منكم ألفًا، وإنَّ هذا ليس بخطاب من يطلب الصلح، فإن كان هذا الطمع ترجو به أن تصل إليَّ

بانفرادي عن أصحابي فذلك منك بعيد، وإن أردت القتال فدونك فإني كفء لك ولأصحابك إن شاء الله تعالى، فلما سمع «بولص» كلام خالد وثب في سرجه وقال: ليس لك عندي إلا هذا السيف، ثم جرد نفسه ودنا من خالد - رضي الله عنه - وشابكه وضرب بيده في درعه ووثب كل منهما على الآخر واستغاث الملعون بأصحابه وقال لهم: بادروا إليَّ فقد أمكنني الصليب من أمير العرب فابتدر إليه البطارقة من كل جانب وخرج كردوس عظيم أكثر من مائتي فارس وجرَّدوا السيوف وأتوا إلى خالد - رضي الله عنه -. فلما رآهم مقبلين إليه وثب وثبة الأسد وصاح بجواده وانتزع نفسه من البطريق بعد أن أحاطت به الروم وجاء كردوس ثان وخالد يضرب فيهم يمينًا وشمالًا وعدو الله «بولص» يصيح ويقول: يا ويلكم خذوه قبل أن يفوتكم، قال: وكان ضرار والفضل بن العباس وعلي بن عقيل وعبد الله بن المقداد وسليمان بن خالد - رضي الله عنهم - على كثيب قريب من الروم، فلما رأوا الروم والسيوف بأيديهم وقد أحاطوا بخالد ركَّضُوا خيولهم، وكان أول من ابتدر للحرب ضرار بن الأزور - رضي الله عنه -.

.. عن نافع بن علقمة الربعي قال: كنت في القلب في عسكر عمرو يوم وقعة الروم بمرج دهشور. قال: بينما نحن ننظر إذ رأينا السيوف جذبت وأحاطت بخالد بن الوليد فخرجنا كردوسًا من أجاويد الرجال من طرف الميمنة وبادرناهم ولحقناهم، وإذا قد سبق من ذكرنا يعني ضرارًا والجماعة المذكورين، فكان أول من قدم على الروم ضرار وهو عريان بسراويله قابضًا على سيفه وهو يزأر كالأسد والقوم من ورائه يتبعوه حتى وصلوا وضرار أمامهم زاحف على «بولص» فارتعدت فرائصه. وقال: يا خالد دعني من هذا الشيطان واقتلني أنت ولا تدعه يقتلني فإني أتشاءم من طلعته. فقال: هو قاتلك لا محالة! هذا مبيد الأقران! هذا قاتل وردان وملك التركمان! ومبيد عبدة الصلبان ومن يكفر بالرحمن! فبينما هم في المحاورة وإذا بضرار قد أقبل وهز سيفه وصرخ: يا عدو الله لم تغن عنك خديعتك شيئًا ولا غدرك بصاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ثم أراد أن يضربه بسيفه فصاح به خالد: اصبر يا ضرار حتى آمرك بقتله، ووصلت إليه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكل يبادر إلى قتله، فقال لهم خالد: اصبروا. قال: ونظر «بولص» -لعنه الله- إلى ما حل به وقد جذبه ضرار من قربوس سرجه واقتلعه وجلد به الأرض فغشي عليه

فأشار بأصبعه وقال: الأمان يا خالد. فقال له خالد: يا كلب النصرانية لا يعطى الأمان إلا لأهل الأمان أنت رجل أردت أن تمكر وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ، فلما سمع ضرار ذلك لم يمهله دون أن ضربه بالسيف على عاتقه الأيمن، فأطلع السيف يلمع من عاتقه الأيسر فسقط عدو الله يخور في دمه وعجل الله بروحه إلى النار، وتبادرت أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ووضعوا السيف فيهم.

فلما رأى الروم ما حل بهم حملوا بأجمعهم وتقدمت أصحاب الفيلة وعلى ظهورها الرجال والتقى الجمعان واشتد القتال وعظم النزال واسودت السماء وثار الغبار، وقدحت حوافر الخيل الشرار، وقاتلت أصحاب الفيلة قتالًا شديدًا وقد قسموهم أربع فرق: فرقة مما يلي الميمنة، وفرقة مما يلي الميسرة، وفرقة مما يلي القلب، وفرقة مما يلي العسكر، وتصايحت النوبة والبجاوة والروم، فلله در خالد بن الوليد لقد قاتل قتالًا شديدًا، فكان تارة في القلب وتارة في الميمنة وتارة في الميسرة، وكذلك الأمير عمرو بن العاص والزبير بن العوام والفضل بن العباس الهاشمي والقعقاع بن عمرو التميمي وعياض بن غنم

الأشعري - رضي الله عنهم - على الساقة مع النساء والولدان والذراري والصبيان.

وانقطع عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وهاشم بن المرقال إلى كردوس ينوف على ألف فارس من الروم والسودان فغاصوا في أوساطهم، وكان فيهم بطريق من بطارقة الكورة اسمه «عرنان بن ميخائيل»، فلما رأى ما حل به وبأصحابه بادر إلى الصليب ليقبله وينظر إليه، ثم رطن الروم بلغتهم وأحاطوا بأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأرادوا أن يتمكنوا منهم، فعندها وثب عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - إلى ذلك البطريق فحمل عليه وكان عليه ديباجة صفراء من فوق درعه، وعلى رأسه بيضة تلمع كأنها كوكب وفي وسطه منطقة من الجوهر فتعاركا مليًا وتصادما سويًا، ثم إن عبد الرحمن ضربه بالسيف في نحره فأطاح رأسه عن بدنه، فلما رأى الروم ذلك حملوا على عبد الرحمن وأصحابه بأجمعهم حملة واحدة وصبر لهم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وكل منهم مشتغل بنفسه عن نصرة صاحبه، وأيقنوا بالهلاك. وخرج عبد

الرحمن وفي يده جرح هائل والدم يسيل عن درعه فتناول السيف بيده اليسرى وجعل يقاتل بها، وجرح هاشم بن المرقال أحد عشر جرحًا في يده وفي وجهه وهو يمسح الدم مرارًا فأيقنوا بالهلاك.

وكان الفضل بن العباس وبنو عمه تارة في الميمنة وتارة في الميسرة وحملوا في أعراض القوم حتى وصلوا الكردوس الذي فيه عبد الرحمن وعبد الله بن عمر وهاشم بن المرقال فوجدوا الروم قد أحاطوا بعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعقروا جواده من تحته وأصحابه يذبون عنه، وعبد الله بن عمر تارة يمنع عنه بالسيف وتارة بالرمح وجراحاته تتدفق دمًا، وقد جرح عبد الله بن عمر في يده ست جراحات هائلة، فلما رأى الفضل ذلك بادر هو وأصحابه وكانوا عشرين فارسًا وخرقوا الصفوف وضرب فارسًا ممن أحاط بعبد الرحمن على رأسه فقطع البيضة ونزل إلى أضراسه فانجدل صريعًا يخور في دمه وعجل الله بروحه إلى النار، فلما سقط عن جواده ابتدره عبد الرحمن وركب الجواد، وقاتلوا أولئك حتى دفعوهم عن أصحابهم.

وكانت جماعة من الأوس وهمدان مما يلي الجناح الأيسر فعطف عليهما كردوس من الروم والسودان فأزالوهم عن أماكنهم وكشفوهم عن مراتبهم وفروا بين أيديهم، فصاح بهم أبو هريرة - رضي الله عنه - وابنه عبد الله ومالك بن الأشتر: يا قوم لا تولوا فرارًا من الموت أتريدون أن تكونوا عارًا عند العرب فما عذركم غدًا بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟! أما سمعتم قول الله - عز وجل - «فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ...»، الله الله! الجنة تحت ظلال السيوف، والموعد عند حوض المصطفى. فلم يلتفتوا إليهم ولم يقبلوا كلامهم ووصلت الهزيمة إلى عياض بن غنم وأصحابه والنساء والصبيان، فلما رأت النساء ذلك صحن في وجوههم وفعلنَ كما فعلنَ يوم اليرموك وصرنَ يضربنَ وجوه الخيل بالأعمدة، وقاتلت خولة بنت الأزور قتالًا شديدًا!

فلما رأى عياض بن غنم ذلك، وكان معه قيس بن الحرث ورفاعة بن زهير المخزومي وخمسمائة فارس من أهل العدة والنجدة صاح عياض: النجدة يا

أصحاب رسول الله فتواثبوا إليهم وحملوا عليهم حملة واحدة بصدق نية وثبات، فلما رأوا ذلك ولوا منهزمين.

قال الواقدي: ولم يزل السيف يعمل في الرجال من أول النهار إلى وقت العصر وأنزل الله النصر على أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وكانت الأفيال والرجال الذين على ظهورها تضرب أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالنشاب فجاء مفرج بن عيينة الفزاري إلى فيل مقدم على أربعمائة فيل فطعنه في إحدى عينيه فاشتبك الرمح في عينه وما قدر أن يجذبه فبرطع الفيل هاربًا وألقى ما على ظهره من الرجال وداسهم برجليه فقتلهم، فتبعته الفيلة التي خلفه، وألقت ما على ظهورها من الرجال وداستهم بأرجلها فصاح مفرج: دونكم وخراطيمها ومشافرها فإنها قاتلة، فابتدر بنو فزارة وبنو قراد وبنو عبس يضربون مشافر الفيلة حتى قتلوا منها مائة وستين فيلًا، وقتلوا من على ظهورها من الرجال، ولم يزل القوم في الكر والفر والقتال الشديد حتى جاء الليل وحجز الفريقين، ورجعت الروم والسودان إلى أماكنهم!

وتفقد المسلمون من قتل منهم فإذا هم مائتان وأربعون رجلًا ختم الله لهم بالشهادة، وتفقد المشركون قتلاهم فإذا هم خمسة آلاف من النوبة والبجاوة والروم، فبات المسلمون يتحارسون إلى الصباح ويقرؤون القرآن ويدفنون قتلاهم. فلما أصبح الصباح وقاموا إلى إصلاح شأنهم إذا بالروم والسودان قد أقبلوا بعددهم وعديدهم، وقد أظهروا زينتهم واصطفوا خمسة صفوف، كل صف أربعون ألفًا، والمشاة بين أيديهم خمسون ألفًا.

قال قيس بن علقمة: لقد دخلت الشام والعراق ورأيت جنود كسرى والجرامقة واليرموك وأجنادين ووقعة مصر والقبط وفتح إسكندرية ودمياط فلم أر مثل كثرتهم في مرج دمنور، فلما رأيناهم وقد ركبوا ركب خالد وجعل يتخلل الصفوف ويقول لهم: «إنكم لستم ترون بمصر والصعيد جيوشًا بعد هذا اليوم مثل هؤلاء وإن كسرتموهم فلا تقوم لهم قائمة أبدًا، فاصدقوا في الجهاد وعليكم بالصبر، وإياكم أن تولوا الأدبار فتستوجبوا بذلك النار، وألصقوا المناكب ولا تحملوا حتى آمر بالحملة».

قال الراوي: وإن البطارقة لما رأوا أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد عوَّلوا على ضربهم شجع بعضهم بعضًا، وقال لهم «بطرس» أخو «بولص» المقتول: اعلموا أنكم إن انكسرتم لا تقوم لكم قائمة بعد هذا أبدًا! ويملكون بلادكم ويقتلون رجالكم ويسبون حريمكم، وعليكم بالصبر، ولتكن حملتكم واحدة، ولا تتفرقوا، وقدموا الفيلة أمامكم والرجالة خلف ظهوركم، واستعينوا بالصليب فهو ينصركم. وأما عمرو وخالد فإنهما قالا: نريد من يكشف لنا عن القوم ويعود، فوثب الفضل بن العباس رضي الله عنهما وقال: أنا، فسار حتى قرب من القوم ورأى زيهم وأهبتهم ورأى شعاع البيض والبيارق والرايات كأجنحة النسور، فلما رآه القوم قالوا: فارس قد طلع ولاشك أنه طليعة فأيكم يبتدره فابتدره ثلاثون فارسًا، فلما نظرهم ولى كأنه منهزم وركض قليلًا حتى بَعُدَ ثم لوى عنان الجواد نحوهم وطعن أول فارس والثاني والثالث فدخل رعبه في قلوبهم، فانهزموا وتبعهم وهو يصرع فارسًا بعد فارس حتى صرع منهم عشرين فارسًا، فلما قرب من الروم ولَّى راجعًا إلى المسلمين وأعلمهم بذلك، فقالوا له: غررت بنفسك يا ابن عم رسول الله! فقال: إن القوم طلبوني

وخفت أن يراني الله منهزمًا فجاهدت بإخلاص فنصرني الله عليهم، واعلموا أنهم لنا غنيمة -إن شاء الله تعالى-.

فأقبل عمرو وخالد يرتبان العساكر ميمنة وميسرة وجناحين كما تقدم في اليوم الأول، فجعل في الساقة زياد بن أبي سفيان بن الحرث في ألف فارس حول البنين والبنات والأموال، وكانت فيهم النساء اللاتي تقدم ذكرهن في أجنادين واليرموك، ممن عرفن بالشجاعة، فقال لهن خالد: يا بنات العرب لقد فعلتن فعالًا أرضيتن الله ورسوله والمسلمين بها، وقد بقي لكن ذكر يتحدث به جيلًا بعد جيل. وهذه أبواب الجنان قد فتحت لكنّ، وأبواب النيران قد فتحت لأعدائكنَّ، وإني أحرضكن إذا جاءت الروم والسودان إليكنّ فقاتلن عن أنفسكنَّ كما قاتلتن في يوم أجنادين ويوم اليرموك، فإن رأيتن أحدًا هاربًا فدونكن وإياه بالعمد وأشرفن عليه بولده وقلن له: إلى أين تولي عن أهلك وولدك وحريمك؟! وحرضن المسلمين على ذلك، فقلن: أيها الأمير ما يفرحنا إلا أن نموت أمامك. يا أبا سليمان! لنضربن وجوه الروم والسودان حتى لا يبقى لنا عذر. فشكرهن على ذلك.

ثم عاد خالد إلى الصفوف وجعل يدور بينها بجواده ويحرض الناس على القتال وهو يقول: أيها الناس انصروا الله ينصركم، وقاتلوا من كفر، واحبسوا أنفسكم في سبيل الله، واصبروا على قتال أعداء الله، وقاتلوا عن حريمكم وأولادكم ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة، ولتكن سهامكم تخرج من كبد قوس واحد، فإن السهام إذا خرجت جميعًا لم يخل أن يكون فيها سهم صائب، واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون... واعلموا أنكم لا تلقون بالوجه القبلي مثل هؤلاء اللئام فإنهم حماتهم وبطارقتهم وملوكهم، فقالوا: سمعًا وطاعة. وأقبل خالد ووقف في القلب مع عمرو بن العاص وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وقيس بن هبيرة ورافع بن عميرة الطائي - رضي الله عنهم - ونظائرهم من بقية الأمراء. ثم زحفوا بسكينة ووقار.

فلما رأى الروم ذلك والسودان زحفوا وكانوا ملء الأرض طولًا وعرضًا، فلما التقت الفئتان، وتراكم الجمعان، وقد أظهر أعداء الله في زينتهم الصلبان والأعلام، ورفعوا أصواتهم بالكفر والبهتان، فبينما الناس كذلك إذ خرج راهب كبير عليه جبة سوداء وقلنسوة وزنار فنادى بلسان عربي: أيكم أمير القوم

فيخاطبني ويخرج إليَّ؟ فخرج إليه خالد. فقال له: أنت أمير القوم؟ قال خالد: كذلك يزعمون مادمت على طاعة الله وسنة رسوله. فإن أنا بدلت أو غيرت فلا طاعة لي عليهم ولا إمارة. فقال القس: اعلم أنكم قد ملكتم بلادًا وقدمتم إلى بلاد ما جسر ملك من الملوك أن يتعرض لها ولا يدخلها، وإن ملوكًا كثيرة أرادوها فرجعوا خائبين وأفنوا أنفسهم عليها، وإن النصر لا يدوم لكم، وإن الملوك أرسلوني إليكم. فإن سمحتم نجمع لكم مالًا ونعطي لكل واحد منكم ثوبًا وعمامةً ودينارًا، ولك أنت مائة ثوب ومائة عمامة ومائة دينار، ولكل واحد حمل من البر وحمل من الشعير، ولك عشرة أحمال، ولصاحبكم عمرو عشرة آلاف دينار ومثلها ثياب ومثلها عمائم ومائة حمل بر ومائة حمل شعير وارحلوا عنا وأنتم موقرون أنفسكم، فإننا عدد الجراد ولا تظنونا كمن لاقيتم من الفرس والروم وأهل الشام والقبط! فإن في هذا الجيش من النوبة والبجاوة والسودان والروم وكبار البطارقة والأساقفة ونجمع عليكم ما لا طاقة لكم به من بلاد السودان والواحات وكأنكم بالنجدة قد وردت علينا وإن بقية الروم لم تأت إليكم، وإنما أرسلوا من يقاتل عنهم!

فقال خالد: والله ما نرجع عنكم إلا بإحدى ثلاث خصال: إما أن تدخلوا في ديننا أو تؤدوا الجزية أو القتال، وأما ما ذكرت أنكم عدد الجراد فالله قد وعدنا بالنصر على لسان نبيه - صلى الله عليه وسلم - وأنزله في كتابه. وأما ما ذكرت أنكم تعطوننا من الثياب والعمائم فعن قريب نلبس ثيابكم وعمائمكم ونملك بلادكم جميعها كما ملكنا الشام ومصر والعراق واليمن والحجاز والروم، فقال الراهب: أنا أرجع أخبر أصحابي بذلك. فإني قد أتيت من قبل «البطليوس» صاحب مدينة «البهنسا»، وقد أرسلني إلى صاحب «أهناس» واتفق الملوك والبطارقة وأرسلوني إليكم، وأنا أرجع إليهم وأخبرهم بجوابك. ثم إن القس لوى راجعًا من حيث جاء، فلما رجع إليهم وأخبرهم بذلك كاتبوا ملوكهم على ذلك وأرسلوا جوابهم بالقتال.

فلما وصلت الكتب تقدمت الروم والسودان وقدموا بين أيديهم الفيلة وأمامهم الرجالة بالقسي والسيوف والدرق والمزاريق؛ فصاح الفضل بن العباس وبجواره رفاعة بن زهير المحاربي والقعقاع بن عمرو التميمي وشرحبيل بن حسنة والمقداد بن الأسود الكندي ومعاذ بن جبل، وقال: معاشر

المسلمين اعلموا أن الجنان قد فتحت والملائكة قد أشرفت والحور تزينت وأشرفت من الجنان ثم قرأ «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ». ثم رتبوا الصفوف فتقدم خالد وقال: اقرنوا المواكب واثبتوا، واعلموا أن هؤلاء أكثر منكم بعشرة أمثالكم وأزيد فطاولوهم إلى وقت العصر فإنها ساعة النصر على الأعداء، وإياكم أن تولوا الأدبار، وازحفوا على بركة الله وعونه.

وتزاحمت السودان والبربر والنوبة والبجاوة، فلما تقارب الجمعان رمت أصحاب الفيلة نشابهم فكانت كالجراد المنتشر، فقتلوا رجالًا وجرحوا أبطالًا، وخالد تارة يضرب بسيفه في الميمنة وتارة في الميسرة، وكان في أصحاب الفيلة من السودان والبربر سواكن يسمونهم القواد شفاههم العليا مشقوقة وبها خزام من نحاس. فإذا كان وقت الحرب لا يخرجون القواد إلا إذا حمي الحرب واشتد الطعن والضرب، وكانوا سودًا طوالًا طول كل واحد منهم عشرة أذرع، فإذا أرادوا الحرب جعل في كل خزام سلسلة بطرفين في كل طرف واحد من البربر. فإذا وقع صلح بين الفريقين، وإلا زحفوا بهم وأطلقوا السلاسل، ودفعوا

لهم أعمدة من حديد طوالًا فيضرب الواحد الفارس والفرس فيقتلهما بضربة! ومنهم من يركب الفيلة ويقاتل على ظهورها.

فلما التقى الجمعان خرجت تلك القواد وعلى أجسادهم جلود النمور، وفوق أكتافهم مربوطة على صدورهم وفي أوساطهم مثل ذلك، وهم عراة الأجساد والرؤوس ليس عليهم غير ما ذكرنا، وبأيديهم الأعمدة والرجال يقودونهم بتلك السلاسل والجيوش ينتظرون متى يؤمرون بالحملة. فلما رأى المسلمون ذلك فمنهم من ثبت ومنهم من جزع. وبرز البطريق أخو «بولص» المقتول وهو راكب على جواد عال وعليه لحاف من جلود الفيلة وقاتل، فلما فعل البطريق ذلك ولت الأزد من بين يديه منهزمين، وإذا بفارس قد أقبل يركض بجواده، وهو عاري الجسد حتى قرب من القوم، وصاح الفارس: أنا ضرار بن الأزور، أنا قاتل ملوك الشام، أنا ضرار دين الإسلام، والمسلط على من يكفر بالرحمن، أنا قاتل «بولص» الكلب في الطغيان.

فلما سمعت الروم كلامه عرفوه فتقهقروا إلى ورائهم فطمع فيهم وحمل عليهم، فقال «بطرس»: من هذا البدوي الذي لم يزل عاري الجسد ويقاتل

بالسيف مرة وبالرمح مرة؟ قالوا: هذا ضرار بن الأزور فتغير الملعون، وقال: هذا قاتل أخي، ولقد اشتهيت أن آخذ بثأره، ثم عزم على الخروج إليه فسبقه «بولص» رأس بطارقة الكورة، وقال: أنا آخذ بثأرك. ثم حمل على ضرار فتجاولا طويلًا واعتركا مليًا فما كان أكثر من ساعة حتى طعنه ضرار طعنة صادقة في صدره خرقت الدروع، وخرجت من ظهره فانجدل صريعًا وعجل الله بروحه إلى النار، فقال «بطرس»: هذا جني وليس للإنسان أن يقاتل الجن، ثم لبس لامة حربه وتعصب بعصابة من اللؤلؤ الرطب ولبس فوق درعه مثل ذلك وخرج يطلب ضرارًا فسبقه «شذم أدرس» أحد بطارقة الكورة وحلف لا يخرج إليه غيره وحمل على ضرار، وقال: دونك والقتال! فلم يفهم ضرار ما يقول. ثم حمل عليه وأخرج صليبًا من الذهب كان معلقًا في عنقه فضحك ضرار عليه وقال: أنت تستعين بالصلبان وأنا أستعين بالملك الديان! ثم أرى كل منهما ما أدهش الناس من الحرب! فصاح خالد وبقية الأمراء: ما هذه الفترة يا ضرار والجنة قد فتحت لك، ولعدوك قد فتحت النار؟! فاستيقظ ضرار وحمل على البطريق وصاحت الروم بصاحبها وصاروا في حرب عظيمة وحميت عليهم الشمس، وثارت الحرب حتى كلَّ منهما الساعدان وعرق تحتهما الجوادان

فأشار البطريق إلى ضرار أن يترجل ويترجل البطريق معه شفقة على الجوادين، وإذا برأس بطارقة «أهناس» قد أخرج له جوادًا مجملًا بالحرير ليركبه.

فلما نظر ضرار إلى ذلك صاح بجواده: اثبت معي هذه الساعة وإلا أشكوك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -! فذرفت عين الجواد بالدموع وحمحم وجرى أكثر من جريه المعتاد وتلقى ضرار البطريق وحمل عليه وطعنه بعقب الرمح فأرداه وأخذ جواده وأراد قتله، وإذا بكردوس خرج من الروم ومعهم «شاول» أحد بطارقة «الأشمونيين» وأحاطوا بضرار وكان على رأس «شاول» تاج من الذهب الأحمر، فلما رأى الصحابة الكردوس الذي خرج على ضرار والتاج يلمع على رأسه قالوا لخالد: ما سبب قعودنا عن نصرة صاحبنا، وقد أحاطت به الروم؟! فعندها خرج خالد - رضي الله عنه - في عشرة من خيار قومه وهم الفضل بن العباس بن عبد المطلب وأخوه وعبد الله بن جعفر ومسلم وعلي أولاد عقيل وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن المقداد وقوَّموا الأسنة

وأطلقوا الأعنَّة وصبر ضرار للروم حتى وصلت إليه الأمراء، وقالوا: أبشر يا ضرار فقد أتاك النصر والفرج. فقال ضرار: ما أقرب الفرج من الله!

والتقت الرجال بالرجال، وطلب خالد صاحب التاج والعصابة، وضرار مع خصمه، فلما رأى «شاول» البطريق المسلمين قد أحدقوا به وما حل بجماعته اندهش وارتعد، هذا وضرار مع خصمه وقد أراد الهرب فألقى ضرار نفسه من على جواده وتبعه حتى لحقه. ثم رمى الرمح من يده وتواخذا بالمناكب وتصارعا وكان عدو الله كأنه قطعة من جبل وضرار نحيف الجسم غير أن الله أعطاه حولًا وقوة، فلما طال بينهما العراك ضرب ضرار بيده في بطن عدو الله فقلعه وجلد به الأرض، فصاح يستنجد بالبطارقة، وتصارخت الروم والسودان وأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم يمهله ضرار دون أن ركب عليه، وهو يعج كالبعير، فعندها أظهر ضرار سيفه ومكنه من نحره فقتله فزعق زعقة سمعها العسكران فحملت الروم والسودان!

هذا وضرار قد احتز رأسه وقام عن صدره وهو ملطخ بالدماء. ثم كبر المسلمون ودنا الفريقان بعضهم من بعض والتحمت الأبطال، وقوي القتال،

هذا وقد زحفت السودان، وعمرو بن العاص يحرِّض الناس على القتال، ويقول: «يا أيها الناس ويا حملة القرآن اذكروا غرف الجنان»، فسرَّ الناس بقوله ونشطوا، وصارت السودان يضربون الفارس مع الفرس بالعمد الحديد فيقتلونهما جميعًا، وكذلك أصحاب الفيلة يرمون بالنشاب، ويضربون بالحراب إلى أن جاء وقت العصر، وقد قتل من الفريقين خلق كثير، وظفر خالد بخصمه «شاول» -لعنه الله- وضربه بالسنان في صدره فخرج يلمع من ظهره ووقع على الأرض يخور بدمه وعجل الله بروحه إلى النار. ولما عظم القتال والبلاء، قام رفاعة المحاربي، وقد انتخب من بني محارب ولبيد ومالك خمسمائة فارس وقصد الفيلة، وقال: يا وجوه العرب دونكم وأعينها ودنا من الفيل الأبيض، وهو قائدها -وهي خمسمائة فيل- وتقدم إليه والسيف في يده، وهو ينشد ويقول:

يالك من ذي جثة كبيرة ... لقيت كل شدة خطيرة

اليوم قد ضاقت بك الحظيرة ... حتى تُرى ملقى على الحفيرة

ثم ضربه بالسيف فولى هاربًا. ثم برك وكان عليه عدة من السودان في قبة من الأديم فلما سقط الفيل إلى الأرض قام علج على ظهره وفي يده عمود

فضرب به رفاعة فزاغ عنه وضربه رفاعة على عاتقه الأيمن فأطلع السيف يلمع من عاتقه الأيسر فسقط عدو الله يخور في دمه وعجل الله بروحه إلى النار، فتلاحقت العرب بأعجاز الفيلة، وصاروا يطعنون الفيلة في أعينها كما ذكرنا فولَّوا منهزمين. قال: وقصد خالد والمقداد وأجواد الأمراء القواد الذين تقدم ذكرهم وطلبوا من الله النصر والثبات، وصاروا يأتونهم وهم فارس عن اليمين وفارس عن اليسار فيقتلون مساك السلاسل، ثم يمسكون أطراف السلاسل ويطلقون الأعنة فينقاد معهم كالبعير الشارد فيأخذون العمود من يده ويقتلونه شر قتلة، ولم يزل القوم في قتال ونزال وأهوال حتى جاء الليل وحجز بين الفريقين، وقد قتل من الفريقين خلق كثير؛ فأمَّا المسلمون فقد قتلوا منهم اثني عشر ألفًا من الملوك والبطارقة، وخمسة عشر بطريقًا وملكًا من السودان وغيرهما، وبات المسلمون يتحارسون إلى الصباح.

قال الراوي: وكان قد أثخن بالجراح جماعة من المسلمين في ذلك النهار! وكان المسلمون طائفة يدفنون القتلى، وطائفة يداوون الجرحى، وطائفة يقرؤون القرآن، وطائفة يصلون، وطائفة نيام من كثرة ما لحقهم من التعب،

وخالد بن الوليد والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - رضي الله عنهم - يدورون حول العسكر إلى الصباح، فلما لاح الفجر أذَّن المؤذنون وصلى عمرو بن العاص بالناس الصبح بسورة الفتح، ثم دعوا الله - عز وجل - أن يرزقهم النصر. ثم تبادروا إلى خيولهم فركبوها ورتبوا صفوفهم كما ذكرنا فيما تقدم بالأمس، فلما فرغ المسلمون من تعبية الصفوف أقبل الأمراء يحرضون الناس على القتال وقد جعلوا على الساقة رافع بن عميرة الطائي والحرث بن قيس ورفاعة بن زهير في خمسمائة فارس.

عن عبد الله بن هلال وكان في خيل رافع قال: لما رتبت الصفوف والتقى الجمعان وكثر القتال وكل واحد اشتغل بنفسه ونحن نذب عن النساء والصبيان، والنساء اللاتي تقدم ذكرهن يقاتلن أشد القتال إذ جاءنا كردوس عظيم من البطارقة والسودان والبجاوة ومعهم زهاء من ستمائة فيل وغافلونا ونحن مشغولون بالقتال واقتطعوا قطعة كبيرة من الإبل والرجال والنساء والصبيان زهاء من ألف بعير ومائتي امرأة وغير ذلك، وكان في ذلك زائد بن

رباح البكري وعباد بن عاصم الغنوي ومعهما مائتا فارس فقاتلوا قتال الموت حتى أثخنوا بالجراح!

وقاتلت النساء بالأعمدة والخناجر، فلله در عفيرة بنت غفار وسلمى بنت زاهر ونظائرهما من النساء لقد قاتلن حتى ضربن بالسيف على رؤوسهن وسالت الدماء على وجوههن وهن يقلن: الله الله يا نساء العرب قاتلن عن العسكر وعن أنفسكن وإلا صرتن بأيدي الأعلاج الغلف والسودان فقاتلن قتال الموت وقتل من المسلمين خمسة عشر نفرًا ختم الله لهم بالشهادة وساقوا النساء والصبيان. فرجع فارس إلى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأعلمهما بذلك وهم في أشد القتال فتصايح المسلمون وخرج جماعة من الأمراء من وسط المعركة وهم الفضل بن العباس وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وزياد بن أبي سفيان وعبد الله بن أبي طلحة وضرار بن الأزور وجماعة من الأمراء وتبعهم ستمائة فارس من العرب من صناديد القوم وأدركوهم عند أول الجبل وهم يريدون جهة الفيوم.

فعند ذلك زعق ضرار والفضل بن العباس: إلى أين يا أعداء الله؟ فتراجعت الروم والسودان عنهم واقتتلوا قتالًا شديدًا فابتدر ضرار إلى مقدم السودان وطعنه في صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره، وكذلك الفضل بن العباس تقدم إلى بطريق عظيم وطعنه في لبته فأطلع السنان يلمع من قفاه فانجدل يخور في دمه وعجل الله بروحه إلى النار. واستمروا يقاتلون حتى قتلوا مقتلة عظيمة، وساعدتهم النساء بالأعمدة والسيوف والخناجر، فكانت النساء يضربن وجوه الخيل بالعمد فيكبو الجواد بصاحبه فتتعلق المرأة بالفارس وتجذبه إلى الأرض فتجلد به الأرض ثم تضربه فتقتله حتى قتلن جماعة من الروم والسودان والبجاوة وغيرهم. فلما رأوا ذلك ولَّوا منهزمين من بين أيديهم وتبعتهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم نحو ستمائة أسير من الروم والسودان وزحفوا وقد غنموا أسلابهم وخيولهم.

قال الواقدي: هذا ما جرى لهؤلاء، وأما العسكر فإنهم لم يزالوا في قتال شديد وأمر عتيد وقاتلت الأمراء بالرايات وبربرت السودان بلغاتها ورفعت الروم أصواتها وضربت ببوقاتها، وكان شعار المسلمين: يا نصر الله انزل، وصبر

المسلمون لهم صبر الكرام، فلله در الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود والفضل بن العباس وعقبة بن عامر والمسيب بن نجبة الفزاري ونظائرهم من الأمراء فلقد قاتلوا قتالًا شديدًا وأبلوا بلاء حسنًا. وأما عمرو وخالد والقعقاع بن عمرو وسعيد بن زيد - رضي الله عنهم - فلقد كانوا يقاتلون قتال الموت وزحفت الفيلة برجالها وقاتلت الروم بأبطالها والسودان بأفيالها، وقد كانت أصحاب الفيلة تعطف على خيل العرب ويرمون بالنشاب فيخرج كالجراد المنتشر حتى قلعت أعين كثيرة في ذلك اليوم فما كنت تسمع إلا من يصيح واعيناه! والفيلة تحطم والسودان يرمون الأبطال!

فعندها وثب رفاعة بن زهير المحاربي وأتى إلى خالد وعمرو، وقال: أيها الأمراء إن دام الأمر هكذا هلكنا عن آخرنا! قالا: فما الرأي يا أبا حازم؟ قال: الرأي أن نجمع ثيابنا ونغمسها زيتًا ودهنًا ونجعلها على رؤوس الرماح ونجعل في أعلاها نارًا، ثم نأمر رجالًا يجمعون القيصوم وغيره ونجعله في غرائر على ظهور الجمال عريًا ونشغلهم بالقتال، ثم تأتي الفرسان تمانعهم وتساق عليهم الجمال فإنها إذا أحست بالنار حطمتهم فلا يصبرون على ذلك والمعونة من الله

تعالى! فاستصوبوا رأيه وأعدوا رجالًا لذلك وناوشوهم القتال فلم يكن إلا ساعة حتى تهيأت المكيدة، وجعلوا من الفرسان ألف فارس، وصبغوا تلك الثياب بالدهن والزيت وأطلقوا النيران برؤوس الأسنة، وحملوا الغرائر بالقيصوم وغيره وأشعلوا فيه نارًا ووضعوا الحراب في أجناب الإبل، فلما أحست بالحراب في أجسامها والنار في ظهورها حطمت الروم والسودان! فلما رأت الفيلة ذلك طارت عقولها وقطعت سلاسلها وداست قوادها ورمت ما على ظهورها من الرجال وداستهم بأخفافها، ورجعت خيل الروم وبراذينها، وهرب بغالها، وذابت قلوب رجالها، وضربت الأمراء في الأعداء بسيوفها، وطعنت برماحها، ورمت بنشابها.

قال المسيب بن نجبة: ولقد رأينا طيورًا أظلتنا في زي النسور وكان الطائر يرفرف بجناحه على وجه الكافر ورأسه، ثم يضع مخاليبه في عينيه فيرميه إلى الأرض فلم تكن إلا ساعة بعد صلاة العصر حتى ولت الروم الأدبار وركنوا إلى الفرار، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى جاء الليل وأظلم النهار، ووصلت الهزيمة إلى القرية المعروفة بـ «الدير» وإلى «اللاهون» وإلى «أهناس»

وإلى «ميدوم» وتبعهم المسلمون الليل كله إلى الصباح وقد تفرق شملهم، وشرد جمعهم، وأسر منهم جماعة كثيرة نحو خمسة آلاف، وقتل منهم ما لا يحصى.

قال رافع بن أزد الجهني: لما رجعنا إلى مكان المعركة وجدنا الأرض قد امتلأت من قتلى الروم والسودان والبجاوة وغيرهم واختلط جماعة من قتلى المسلمين بهم ما عرفناهم من الروم إلا أن الروم كان بأيديهم صلبان، والمسلمون ليس لهم ذلك فميزناهم منهم بذلك، وجمعنا جريد النخل والقصب ووضعنا على كل قتيل جريدة أو قصبة وذلك في مكان المعركة، ثم جمعناها وحصرناها فإذا قتلى الكفار تسعون ألفًا، وقتل في الجبال والطرقات ما لا يحصى، وتفقد المسلمون من قتل منهم فإذا هم خمسمائة وثلاثون رجلًا، وجمع المسلمون الغنائم والأموال ثم قسمت وأخرج عمرو منها الخمس وكتب كتابًا بالفتح وما جمعه من الخمس، واستدعى بالأمير هاشم بن المرقال - رضي الله عنه - وندب معه ثلاثين رجلًا من خيار الجند وأمره بالمسير إلى المدينة. وأقام المسلمون بالمرج بعد الوقعة خمسة أيام حتى استراحوا ورجع

من كان خلف المنهزمين، ثم اجتمعوا إلى عَمْرٍ واستأذنوه في المسير إلى الوجه القبلي فأذن لهم وودعهم ودعا لهم، وقال: يعزُّ عليَّ فراقكم ولو أن أمير المؤمنين لم يأمرني بالمسير ما فارقتكم! ثم رجع معه ثلاثة آلاف ومائة وعشرون، وكان جملة من قتل ثمانمائة وثمانين ختم الله لهم بالشهادة وقيل: ألف وقيل: تسعمائة وأربعون على اختلاف الرواة، والله أعلم أي ذلك كان.

قال الراوي: لما رجع المنهزمون إلى الملوك والبطارقة وأخبروهم بذلك وقع الرعب في قلوبهم وحاروا في نفوسهم ولم يدروا ما يدبرون وما يصنعون! فصعب على بطريق «أهناس» وعلى صاحب «البهنسا» ما صُنِع ببطارقتهما وعوَّلوا على الحصار وجمعوا الآلة وصاروا يخرجون ما يحتاجون إليه، وتيقنوا أن لابد للحرب من أرضهم، ووطنوا أنفسهم، وكذلك بطارقة الصعيد وملوكه، وضاقت نفوسهم مما حلَّ بهم.

قال الراوي: ووصل الكتاب إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ففرح بذلك فرحًا شديدًا وقرأ الكتاب على علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والعباس بن عبد المطلب - رضي الله عنهم - ففرحوا بذلك

فرحًا شديدًا، ثم قسِّمت الغنائم على أهل المدينة وقسم لنفسه كأحدهم - رضي الله عنه - وكتب جواب الكتاب ودفعه لهاشم، وقال له: قل لعمرو يحث الصحابة ويحرضهم على فتح الصعيد. وأما عمرو بن العاص - رضي الله عنه - فإنه لم يرجع إلى مصر حتى قسم الغنائم بين الصحابة وفضل أصحاب الولاء وأهل السابقة ورجع إلى مصر بعد أن جهَّز العساكر إلى الصعيد. ولما فارق عمرو بن العاص خالد بن الوليد والأمراء - رضي الله عنهم - استشار بعضهم بعضًا أي مكان يقصدون! فاتفق رأيهم أن يسيِّروا ألف فارس طليعة وأمَّروا عليهم قيس بن الحرث ومعه جماعة من أمرائهم، منهم رفاعة بن زهير المحاربي والقعقاع بن عمرو التميمي وعقبة بن عامر الجهني وذو الكلاع الحميري - رضي الله عنهم - وصاروا يسيرون في وسط البلاد وبقية العساكر قريبة منهم، فمن أطاعهم وطلب الأمان أمنوه وصالحوه ووضعوا عليه الجزية، ومن أبى قاتلوه، ومن أسلم تركوه.

وسار خالد ببقية الجيش يريدون «أهناس» فإنها كانت أعظم مدائن الوجه القبلي بعد «الكورة»، وكانت حصينة آهلة بالخيل والآلة والعدة! ولما أحس

بطريقها بمجيء الصحابة إليهم جمع البطارقة، وقد انكسرت جنودهم وخمدت نيرانهم وكلمتهم بانهزام جيوشهم وشاورهم في أمرهم، وقال لهم: خذوا أهبتكم وقاتلوا عن حريمكم وأموالكم وإلا صرتم عبيدًا للعرب يفعلون بكم ما يختارون، وإن شئتم صالحناهم؛ حتى يعلم ما يكون من بطارقته، فأجابوه وقالوا: لا نسلم البلاد حتى نغلب ونجمع أموالنا في هذه المدينة الحصينة ونقاتل، فإن غلبنا عولنا على الحصار واتفق رأيهم على ذلك، فكان الذي أجابهم إلى ذلك يخرج بنفسه وأمواله، ومن لم يجبهم إلى ذلك أقام. وكذلك بطارقة «البهنسا»: منهم من انتقل إلى «البهنسا» بماله وأولاده، ومنهم من أقام ببعض المدائن ممن عولوا على الإقامة والحصار والقتال.

وسار خالد بالجيش حتى قرب من «أهناس» وبين يديه الطلائع والأمراء وهم يشنون الغارات على السواحل والبلاد، فمن خرج إليهم وصالحهم وعقد معهم صلحًا صالحوه ولهم الميرة والعلوفة والضيافة، ومن أبي دعوه إلى الإسلام، فإن أبى طلبوا منه الجزية، فان أبوا شنوا عليهم الغارة حتى وصلوا قريبًا من «أهناس» وبلغ الخبر إلى عدو الله، فقال: لابد من لقائهم وقتالهم حتى

أنظر ما يكون من أمرهم! ثم خرج إلى ظاهر المدينة قريبًا من السور ولم يبعد عنها، وكان للمدينة أربعة أبواب، فأغلق ثلاثة وفتح الباب الشرقي، وأخرج الخيام والسرادقات وأكثر من العدة والزينة، وقال: إن دخلنا المدينة من غير قتال طمعت العرب في جانبنا. ثم فرَّق بطارقته وعرض جيشه فكانت عدتهم خمسين ألفًا، وقال اثبتوا وقاتلوا عن حريمكم ولا تكونوا أول جند أخذوا، وأقاموا يتأهبون للقتال وينتظرون قدوم الصحابة - رضي الله عنهم -.

قال الواقدي: وأما خالد فقد استدعى بالزبير بن العوام وضم إليه ألف فارس من الأمراء وغيرهم وأمره بالمسير، ثم استدعى بالفضل بن العباس وضم إليه ألف فارس وسار على أثره، ثم استدعى بميسرة بن مسروق العبسي وضم إليه ألف فارس وسار على أثره، ثم استدعى بزياد بن أبي سفيان وضم إليه ألف فارس وسار على أثره، ثم استدعى بمالك الأشتر النخعي وضم إليه ألف فارس وسار على أثره، وسار خالد ببقية الجيش.

عن رافع بن مالك العلوي قال: كنت في خيل الزبير بن العوام - رضي الله عنه - لما توسطنا البلاد وتعرضنا لأهلها وشننا الغارة على السواد فوجدنا

قطيعًا من الغنم ومعها رعاة، فلما أحسوا بنا تركوها ومضوا فسقناها، ثم سرنا قليلًا وإذا بنساء وصبيان مشرفة ونصارى من القبط وغيرهم، فلما رأونا فروا وكان معهم عشرون فارسًا من العرب المتنصرة من جذام، ومعهم بطريق من البطارقة عليه الزينة الفاخرة، فلما عاينونا فروا من بين أيدينا فأطلقنا الغارة عليهم، فما كان غير بعيد حتى أدركناهم وقبضنا عليهم وسألناهم فأجابوا بأنهم من قرى شتى وأنهم يريدون «أهناس» فعرضنا عليهم الإسلام فامتنعوا فأردنا قتلهم فمنعنا من ذلك الزبير – رضي الله عنه – وقال: حتى يحضر الأمير خالد ويفعل ما يريد.

وسرنا حتى قربنا من «أهناس» ورأينا المضارب والخيام والسرادقات، فأعلن الزبير بالتهليل والتكبير، وكبر المسلمون حتى ارتجت الأرض لتكبيرهم وخرجت الروم إلى ظاهر خيامهم ينظرون إلينا، وعدو الله «مارنوس بن ميخائيل» ينظر إلينا والحجاب والنواب وأرباب الدولة من البطارقة حوله، وعليهم أقبية الديباج وعلى رؤوسهم التيجان المكللة، وبأيديهم العُمُد المذهَّبة والسيوف وهم محدقون به عن يمينه وشماله. فلما أقبلنا عليهم تصايحوا

ورطنوا بلغتهم وأعلنوا بكلمة كفرهم واستقلونا في أعينهم، ولما قرب الزبير من القوم هزَّ الراية وأنشد يقول:

أيا أهل أهناس الطغاة الكوافر ... ويا عصبة الشيطان من كل غادر
أتتكم ليوث الحرب سادات قومها ... على كل مشكول من الخيل ضامر
فإن لم تجيبوا سوف تلقون ذلة ... ونقتل منكم كل كلب وفاجر

ثم نزلنا من القوم، فلم يكن غير قليل حتى أقبل الفضل بن العباس - رضي الله عنه - وحوله السادات الأماجد، فكبر وكبروا معه وهز الراية وأنشد يقول:

أيا أهل أهناس الكلاب الطواغيا ... أتتكم ليوث الحرب فأصغوا مقاليا
أقِرّوا بأن الله لا رب غيره ... وألا تروا أمرًا عظيمًا مدانيا
أقِرّوا بأن الله أرسل أحمدًا ... نبيًا كريمًا للخلائق هاديا

ثم نزل قريبًا من أصحابه، فلم تكن إلا ساعة حتى أقبل الأمير ميسرة بن مسروق العبسي وكبر هو والمسلمون فأجابه المسلمون فهز الراية وأنشد يقول:

أتينا لأهناس بكل غضنفر ... على كل صاهل من الخيل أجرد
فإن هم أطاعونا شكرنا فعالهم ... وإلا أبدناهم بكل مهند

ونخرب أهناسًا ونقتل أهلها إذا خالفوا دين النبي محمد

ونزل قريبًا من الفضل، ولما كان غروب الشمس أقبل زياد بن أبي سفيان – رضي الله عنه – بمن معه وكبر هو والمسلمون، وهز الراية وأنشد يقول:

هلموا إلى أهناس يا آل هاشم ويا عصبة المختار نسل الأعاظم
ودونكم ضرب السهام بشدة وقطع رؤوس ثم فلق جماجم
لننصر دينا للنبي محمد نبي الهدى المبعوث من آل هاشم

وبات المسلمون يقرؤون القرآن ويصلون على النبي – صلى الله عليه وسلم – وهم يتحارسون حتى لاح الفجر، ثم أقبل المقداد – رضي الله عنه – بأصحابه وكبر هو والمسلمون، ولما قرب من أصحابه هزَّ الراية وأنشد يقول:

أنا الفارس المشهور في كل موطن وناصر دين النبي محمد
لعل ننال الفوز عند إلهنا فيا فوز مَن أضحى نزيل المؤيد
ونقتل عباد الصليب جميعهم بأسمر خطى وعضب مهند

ونزل بإزاء الفضل، ولما رأونا ظنوا أن ليس وراءنا أحد. وقعدنا ذلك اليوم ولم نكلمهم ولم يكلمونا. فلما كان اليوم الثاني عند طلوع الشمس إذا بالغبار قد طلع والقتام قد ارتفع من خيول عادية وعليها فوارس حجازية، وكبر

المسلمون ورفعوا راياتهم الإسلامية وأعلامهم المحمدية، فسمع أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصياح فخرج الأمراء إلى لقائهم وإذا في أوائلهم خالد بن الوليد - رضي الله عنه - وإلى جانبه عياض بن غنم وأبو ذر الغفاري وأبو هريرة الدوسي وبقية الأمراء المهاجرين والأنصار، فلما رأت الروم ذلك من قريب دخل الرعب في قلوبهم ونزل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قريبًا من «أهناس» كل منهم في مركزه، وأقاموا ذلك اليوم. فلما كان اليوم الثالث جمع خالد الأمراء وأصحاب الرايات واستشارهم فيمن يمضي إلى بطريق «أهناس» فقال المقداد: أنا له. فقال خالد: أنت له فخذ من شئت. فأخذ معه ضرار بن الأزور وميسرة بن مسروق العبسي، وقال لهم خالد: ادعوه إلى الإسلام، فإن أبى فالجزية، فإن أبى فالقتال واحرصوا على أنفسكم.

قال الراوي: وساروا إلى القوم حتى قربوا من العسكر وهم يدوسون بخيولهم أطناب الخيام والسرادقات، فصاحت بهم الحجاب: من تكونون؟ فقالوا: نحن رسل. فأعلموا البطريق بذلك فأمر بإحضارهم، فلما حضروا بين يديه صاحت بهم الحُجَّاب والنواب أن قبِّلوا الأرض للملك، فلما يلتفتوا إليهم

ولم ينزلوا إلا على باب سرادق الملك ووقفوا على الباب فأذن لهم في الدخول فدخلوا وأمسكوا لجم خيولهم، فأراد الغلمان أن يمسكوها فامتنعوا من ذلك فأشار إليهم البطريق فتركوهم، ثم دخلوا عليه فإذا هو جالس على سرير من الذهب مرصع بالدر والجوهر، وحوله البطارقة جلوس، والحجاب والنواب وأرباب الدولة قيام، وبأيديهم السيوف والأعمدة والرماح.

فلما رآهم تغير لونه واندهش وأذن لهم بالجلوس فقالوا: لا نجلس على هذه الفرش فإنَّه حرام علينا! فأمر بالبسط الحرير فرفعت، حتى فرش أنطاعًا من الصوف ثم أشار إليهم فقالوا:

لا نجلس حتى تنزل عن سريرك. فرطنت الروم فأشار إليهم فسكتوا وأرادوا أن ينزعوا منهم سيوفهم فامتنعوا من ذلك، فتركوهم وكلمهم الملك فأبوا حتى ينزل عن سريره! فنزل وكلمهم بلسان عربي وسألهم عن حالهم، فأجابوا أنهم لا يفارقونه حتى يسلم هو وقومه، أو يؤدوا الجزية أو القتال فامتنع عن ذلك وقال: اذهبوا والموعد غدًا للقتال. وخرجوا من عنده على ذلك، ورجعوا إلى خالد وأعلموه بذلك فتأهب الأمراء للحرب. فلما أصبح خالد صلى بأصحابه

صلاة الصبح وبادروا للحرب والقتال وصاحوا: النصر النصر يا خيل الله اركبي وللجنة اطلبي، فركب المسلمون خيولهم وركزوا راياتهم واصطفوا ميمنة وميسرة وقلبًا وجناحين وخالد في وسط الجيش، وعلى الساقة ميسرة بن مسروق العبسي، ومالك الأشتر النخعي في خمسمائة فارس من المهاجرين والأنصار.

عن محمد بن مسلمة الأنصاري – رضي الله عنه – قال: لما أقبلت رايات القوم عددناها فإذا هي خمسون صليبًا، تحت كل صليب ألف فارس، فكان أول من افتتح الحرب بطريق عليه ديباجة حمراء وعلى رأسه بيضة، معصب عليها بعصابة من جوهر، فبرز إليه فارس من خثعم يقال له زيد بن هلال فقتله، ثم طلب البراز فبرز إليه عبد الله بن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – ولم يمهله أن ضربه بالسيف على عاتقه الأيمن فخرج يلمع من عاتقه الأيسر فانجدل عدو الله يخور في دمه وعجل الله بروحه إلى النار. وطلب عبد الله بن عمر البراز، فبرز إليه فارس من الروم فقتله، ثم آخر فقتله! وطلب الميمنة وشوَّش صفوفهم وقتل أبطالهم، ثم عاد إلى القلب! ثم خرج من بعده شرحبيل

بن حسنة وفعل كفعله، ثم حمل من بعده الفضل بن العباس، ثم حمل من بعده العباس بن مرداس، ثم من بعده أبو ذر الغفاري ثم تبادر المسلمون بالحملة، فلما رأى الروم ذلك أيقظوا أنفسهم في عددهم وعديدهم وتظاهروا بالبيض والدرع، ولم يزل القتال بينهم حتى توسطت الشمس في قبة الفلك.

فعندها حمل خالد بن الوليد وغاص في الميمنة فقلبها على الميسرة، وغاص في الميسرة فقلبها على الميمنة، وقاتلت العرب قتالًا شديدًا حتى جاء الليل وحجز بين الفريقين! وبات المسلمون يتحارسون وتفقد المسلمون بعضهم بعضًا، فإذا قد قتل منهم اثنان وأربعون رجلًا ختم الله لهم بالشهادة، الأعيان منهم ربيعة بن عامة الداودي وزيد بن ربيعة المحاربي وغنم بن نوفل المحاربي وصفوان بن مرة اليربوعي، والبقية من أخلاط الناس، وقتل من أعداء الله ألف وثلثمائة وأزيد. ولما خلا عدو الله بأصحابه تذاكروا ما وقع في الحرب وصعب عليهم ما لقوه من العرب فأراد الملك الصلح فغلب البطارقة عليه وأعدوا للحرب والقتال، فلما صلى المسلمون صلاة الصبح اصطفوا على ظهور خيولهم واصطفت الروم وبرزت البطارقة وأظهروا زينتهم وبرز بطريق

عظيم يقال له صاحب «طنسا» وعليه لأمة حربه وطلب البراز فبرز إليه الفضل بن العباس فتجاولا وتعاركا وتخالفا بضربتين فكان السابق بالضربة الفضل بن العباس فضربه بالسيف على رأسه فوصل إلى أضراسه فانجدل صريعًا يخور في دمه، وبرز بطريق ثان فقتله ولم يزل كذلك حتى قتل أربعة من خيارهم فحملت الروم حملة واحدة وحمل المسلمون، وعظم الخطب وكثر الطعن والضرب، وثار القتام حتى صار النهار كالظلام، وتراشقوا بالنبال واشتد القتال!

وجال خالد كالأسد وأرغى وأزبد، فعند ذلك رفع عياض بن غنم طرفه إلى السماء وقال: «يا عظيم العظماء أنزل علينا نصرك كما أنزلته علينا في مواطن كثيرة وانصرنا على القوم الكافرين» فأمَّنت جماعة من الأمراء على دعائه، فما كان غير بعيد حتى رأيت الرجال من الكفار يتساقطون لا ندري بماذا يقتلون! فلما رأى الروم ذلك فروا إلى الباب وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون والحجارة تأخذهم من أعلى السور وهم لا يلتفتون إلى ذلك، ودخلوا إلى الأبواب ودخل اللعين وصال عليهم خالد وجماعة من الأمراء واقتطعوا قطعة من الروم نحو خمسة آلاف، وكان المسلمون قريبين من اللعين فاقتتلوا

عند الباب ورموهم بالحجارة، فقتل المسلمون منهم نحوًا من ثلاثة آلاف وخرج من الباب نحو من ألف فارس وحملوا، ودخل الباقون وأغلقوا بابهم وطلعوا على الأسوار واشتد القتال والحصار ورموا بالحجارة والنبال حتى فرَّق الليل بينهم.

وأقام المسلمون على حصار «أهناس» ثلاثة أشهر، وفي كل يوم يناوشونهم بالقتال والأسوار رفيعة والأبواب منيعة، وقد قل عنهم المدد وضاقت أنفسهم وطمعت فيهم الصحابة! ثم إن خالدًا استشار أصحابه ماذا يصنعون وقد أعياه فتح الباب، فقال له المرزبان - رضي الله عنه - وكان من مرازبة كسرى وقد أسلم وخرج إلى الجهاد وحبس نفسه لله - عز وجل -: «إننا كنا في بلاد الفرس إذا حاصرنا مدينة ولم نقدر على فتحها أخذنا زيتًا وكبريتًا ووضعناه في صناديق من خشب، وجعلنا لها أعوادًا تحملها رجال، ورجال يذبون عنهم إلى أن يصلوا إلى الباب أو إلى قريب منه، ويجعلون في الصناديق نارًا ويولون، فتعلق النار في الأبواب، ويذوب الحديد فتفتح الأبواب، وتعلق النار في الحطب والخشب والحجارة فتهدمها»، فقال خالد: نفعلها إن شاء الله تعالى!

فلما أصبحوا فعلوا ذلك وأسرعوا في جمع ما ذكرنا ووضعوه في صناديق، وجعلوا في أطرافها أعوادًا طوالًا من أسفلها وحملتها الرجال وخرج خلفهم الفرسان يقاتلون والمرزبان أمامهم يعلمهم كيف يصنعون وهم مستترون بالدرق والحجف، والحجارة والنبال تتساقط عليهم من أعلى السور حتى وصلوا إلى أول باب من أبواب المدينة، وهو الباب الشرقي وهو أعظم أبوابها. فلما قربوا من الباب رفعوا الصناديق على الباب وألقوا النار في الزيت والكبريت ووضعوها وانقلبوا، فلم يكن أسرع من لحظات حتى تعلقت النار بحجارة الباب والأخشاب والحديد وثارت النار إلى أعلى السور حتى وصلت إلى البرج فسقط البرج بمن فيه من الروم وهلك منهم جماعة كثيرة، وتبادر المسلمون إلى الباب وملئوا قرب الماء وأطفئوا تلك النار، ودخلوا من الباب وقصدوا قصر الملك وكان حصينًا على أعمدة من الحجارة المنحوتة وكانوا أغلقوا أبوابه ففعلوا به كما ذكرنا!

ولما رأى الملعون ذلك لم يطق الصبر وأمر بفتح الباب وصاح الأمان ومعه جماعة من حشمه وخدمه وبطارقته فعرضوا عليهم الإسلام فأبوا فأمر خالد

بضرب أعناقهم، فمن أسلم تركوه ومن أبى قتلوه، واستغاثت بهم السوقة والرعية وقالوا: مغلوبون! فمن أسلم تركوه، ومن بقي على دينه ضربوا عليه الجزية، وهدموا دورًا وأماكن حتى صارت تلالًا، وغنم المسلمون أموالًا كثيرة من أواني الذهب والفضة والفرش الفاخرة، ووضعوا فيها عبادة بن قيس قيِّمًا ومعه ثلثمائة من المسلمين، وخرجوا بظاهر المدينة، ولم يبق إلا من أسلم ومن وضعت عليه الجزية، وعمروا بها مسجدًا!

ولما فرغ خالد من ذلك جمع الغنائم، وأخرج خمسها وأرسله إلى عمرو بن العاص يرسله إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في المدينة وأرسل لعمرو بن العاص سهمه ولأصحابه المؤمنين المقيمين بمصر ونواحيها، وأقام خالد بعد ذلك بـ «أهناس» هو وجماعته من الأمراء أربعين يومًا، واستدعى خالد بعدي بن حاتم الطائي - رضي الله عنه - وأضاف إليه ميمون بن مهران وضم إليه ألف فارس وأمرهم أن ينازلوا أول بلاد «البطليوس» -لعنه الله- وينازلوا أهل الكورة وإذا وصل إلى قيس بن الحرث يأمره بالمسير إلى قريب

البهنسا ويقاتل من يقاتله ويسالم من يسالمه ويصالح من يصالحه حتى يأتيه المدد!

ثم أرسل في أثره عياض بن غنم الأشعري - رضي الله عنه - وضم إليه ألف فارس فيهم الفضل بن العباس والمسيب بن نجبة الفزاري وأبو ذر الغفاري والمرزبان الفارسي وكذلك جعفر ومسلم وعلي وعبد الله بن المقداد وسليمان بن خالد ومحمد بن طلحة وعمرو بن سعد بن أبي وقاص وشرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال لهم خالد: سيروا حتى تصلوا إلى مدينة «البهنسا» وأنا في أثركم ما لم يحصل لي ولأصحابي مانع، ونازلوا المدائن وأقرنوا المواكب ولا تسيروا إلا يدًا واحدة، وفرقوا الكتائب وكونوا قريبين بعضكم من بعض غير متباعدين. فإذا وقعت كتيبة منكم بما لا طاقة لها به تبعث النفير، وثبتوا هممكم، وأخلصوا نياتكم وقووا عزائمكم، فإذا وصلتم إلى «البهنسا» التي هي دار ملكهم ومحل ولايتهم فأرسلوا إلى الملك وادعوه إلى الإسلام، فإن أطاع فاتركوه في ملكه، وإن أبى فالجزية عن يد وهم صاغرون، وإن أبى فالسيف حكم حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين، وبلغني

أنها مدينة كثير أهلها وأنها كثيرة الخيل وحولها مدائن وبلاد وقرى ورساتيق، فمن سالمكم وصالحكم فصالحوه، ومن قاتلكم فقاتلوه، وعليكم بالحزم وإخلاص النية وصدق العزيمة. قال الله تعالى في كتابه المكنون: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»، ثم استدعى بالمغيرة بن شعبة – رضي الله عنه – وكان معه زياد الأكبر أبو المغيرة جد زياد الذي هو بقرية ديروط بقرب طنبدا، واستدعى بسعيد بن زيد أحد العشرة – رضي الله عنهم – وأبان بن عثمان بن عفان وجدد عليهم الوصية وودعهم.

قال الراوي: وسار عدي بن حاتم الطائي وميمون حتى وصلا «ميدوم» وما حولها فوجدوا قيس بن الحرث قد صالح أهل تلك الأرض وعقد لهم صلحًا وأقرهم بالجزية ما عدا جماعة، وكذلك أهل «برنشت» بعد قتل بطريقهم، وكذلك أهل تلك البلاد إلى «دهشور» ونادى في ذلك الإقليم بالأمان، وجبوا له أموالًا عظيمة على الصلح والجزية، وعبر جماعة من المسلمين إلى البر الشرقي، وهم: رفاعة بن زهير المحاربي وعقبة بن عامر الجهني وذو الكلاع الحميري وألف من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وشنوا

الغارات من العقبة التي هي قريب من قبلي حلوان على تلك القرى والبلاد، فمن صالحهم صالحوه، ومن أبى قاتلوه حتى وصلوا إلى «أطفيح» ثم إلى «البرنيل».

وكان هناك بطريق يعرف بـ «صول» فخرج إليهم أهلها فصالحوهم على الجزية وعبروا من هناك، وسار عدي بن حاتم حتى اجتمع بقيس بن الحارث قريبًا من القرية المعروفة بـ «قمن» ونزل ميمون هو وجماعته بالقرية المعروفة بالميمون. فقال له قيس بن الحرث: لا تنزل هنا حتى يفتح لنا ما حولها من البلاد ويأتي خبر من الأمير خالد بن الوليد ويأذن لنا بما يريد، فأجاب إلى ذلك ونزل عدي بأصحابه بالقرية المعروفة ببني عدي ثم سار وترك ابنه حاتمًا وإخوته وأحاطوا بالقرية وسار قيس وأصحابه حتى وصلوا إلى القرية المعروفة «بنوس» والبلد المعروف بـ «دلاص» فخرج إليهم أهلها بعد قتل بطريقهم وصالحوهم وتوسطوا البلاد على ساحل البحر.

حتى نزلوا «ببا الكبرى»، وعياض بن غنم على أثرهم، وكان بها دير عظيم يعرف بدير أبي جرجا، وكان له عيد عظيم يجتمعون إليه من سائر البلاد فوافق

قدوم الصحابة قريبًا من عيدهم فجاءهم رجل من المعاهدين وأعلمهم بذلك فانتدب قيس بن الحرث - رضي الله عنه - ومعه جماعة من أصحابه خمسمائة فأمَّر عليهم رفاعة بن زهير المحاربي وأمرهم أن يشنوا الغارة على الدير قال: وكان جماعة من رؤساء الكورة من الروم والقبط والخيول المسومة حول الدير يحرسونهم وهم في أكلهم وشربهم وزينتهم وبيعهم وشرائهم فما أحسوا إلا والخيل على رؤوسهم فما قاتلوا إلا قليلًا وانهزموا ونهب أصحابه جميع ما في السوق من أثاث وغيره وساقوا الغنائم وأحاطوا بالدير فقاتلوا من على الدير، فقطعوا السلاسل والأقفال، وتعلق جماعة من الصحابة على الحيطان ودخلوا الدير وأخذوا منه أمتعة وأثاثًا وأواني من ذهب وفضة، وأسروا مائة أسير وساروا حتى توسطوا البلاد.

وكان بالقرب من البحر اليوسفي قرى كثيرة وبلدان، وكان فيها مدينة تعرف بـ «سحاق»، وكان بها بطريق من عظماء بطارقة «البطليوس»، فلما بلغه قدوم الصحابة جمع جنوده إلى البلد المعروف بـ «أقفهس» وإلى البلدين المعروفين بـ «شمسطا» و«اليسلقون» وإلى البلد المعروفة بـ «نشابة»، فلما بلغه قدوم

الصحابة جمع الخيل والروم والفلاحين والنصارى ستة آلاف وخرج يكشف بهم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقيس بن الحرث خرج إليه أهل ببا الكبرى وما حولها من السواد وكذلك أهل هوريت وعقد لهم صلحًا وساروا، فلما قربوا من القرية المعروفة الآن ببني صالح، فبينما هم سائرون إذا بالغبار قد طلع وانكشف عن ستة صلبان تحت كل صليب ألف، فلما رآهم المسلمون لم يمهلوهم دون أن حملوا عليهم واقتتلوا قتالًا شديدًا وثار الغبار وقدحت حوافر الخيل الشرار والتقى الجمعان واصطدم الفريقان، فلله در رفاعة بن مسروق المحاربي وعقبة بن عامر الجهني وعمار بن ياسر العبسي وميسرة بن مسروق العبسي.

قال الراوي: وقاتل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قتالًا شديدًا وصبروا صبر الكرام، وكان عدو الله «لاوي بن أرمياء» صاحب «شيزا» فارسًا شديدًا وبطلًا صنديدًا، فجال وصال وقتل الرجال، فعندها برز إليه فارس من المسلمين يسمى سنان بن نوفل الدوسي فقتله، فخرج إليه عمار بن ياسر العبسي فتجاولا وتعاركا وتضاربا وتطاعنا ووقعت بينهما ضربتان وكان السابق

بالضربة عمار فطعنه بالرمح في صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره فانجدل عدو الله يخور في دمه، فعندها غضب الروم لأجل قتل صاحبهم وحملوا على عمار في كبكبة من الخيل فعقروا الجواد من تحته، وتكاثروا عليه فقتلوه وقتل من المسلمين خمسة عشر رجلًا.

حدثنا سنان بن نوفل عن مالك عن غنم اليربوعي وكان في خيل رفاعة بن زهير المحاربي قال: نحن في القتال وقد عظم النزال ووطنا أنفسنا على الموت، ورفاعة ينشد ويقول:

يا معشر الناس والسادات والهِمم ... ويا أهيل الصفا يا معدن الكرم

فشدوا العزم لا تبغوا به فشلًا ... ومكنوا الضرب في الهامات والقمم

وخلفوا القوم في البيداء مطرحة ... على الثرى خمشًا بالذلّ والنقم

وجعل يحرضهم ويقول: يا معشر السادات والأقيال أبشروا فإن الروم لن تقم لهم قائمة أبدًا، وأبشروا بالحور والولدان في غرفات الجنان، وإن الجنة تحت ظلال سيوفكم. قال غنم: فبينما نحن في أشد القتال إذا بغبرة قد لاحت وانقشعت وانكشف الغبار عن ألف فارس في الحديد غواطس، عليهم الدروع

الداودية وعلى رؤوسهم البيض العادية المجلية معتقلين بالرماح الخطية، راكبين الخيول العربية، فتأملناهم فإذا هم سليمان بن خالد بن الوليد وعبد الله بن المقداد وعبد الله بن طلحة وأخوه محمد وزياد بن المغيرة والوليد ومحمد بن عتبة ومحمد بن أبي هريرة وجماعة من الصحابة والأمراء وأبناؤهم - رضي الله عنهم -، وكان عياض بن غنم جهزهم طليعة قدامه، فلما رأونا كبروا وكبرنا لتكبيرهم وخاضوا في أوساطنا وطلب كل واحد منهم بطريقًا من البطارقة فقتله!

فلما رأت الروم ذلك ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وتبعهم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقتلون وينهبون ويأسرون إلى البلدة «شيزا» وما حولها من السواد إلى «سلقوس»، فأسروا منهم نحو خمسمائة أسير وقتل منهم ثلاثة آلاف وهرب الباقون إلى القرى والبلاد، ولما قتل بطريق «شندا» خرج إليهم أهلها من النصارى والسوقة وعقدوا معهم صلحًا واتفقوا على أداء الجزية، وكذا من حولهم من القرى، ونزل هناك عمرو بن الزبير وجماعة من المسلمين وسار قيس بن الحرث أمام القوم حتى نزل قريبًا من طنبدا والبلد المعروف بـ «أسنا»، وكان بها بطريق يسمى «بولياص بن بطرس» وكان كافرًا

لعينًا فخرج إلى لقاء المسلمين هو وجماعته ومعه ميرة وعلوفة فكان ذلك مكيدة منه وعقد مع المسلمين صلحًا ووافقهم على أداء الجزية عن بلده وعن أسنا وكانت تحت حكمه، وارتحل قيس بن الحرث ومن معه، وتأخر زياد بن المغيرة ونزل بالقرية المعروفة بـ «دهروط»، فعقد مع أهلها صلحًا، ونزل سليمان بن خالد وعبد الله بن المقداد وجماعة قريبًا من البلد، ومنهم من نزل عند القرية المعروفة بأطينة، وصار جماعة يدخلون البلد ليلًا ثم يعودون خوفًا من المكيدة ولا حذر من قدر الله - عز وجل -.

قال الواقدي: وكان المتخلفون خمسمائة فارس، فجعلوا يسيرون على جانب البحر ويشنون -أي يغيرون- على أهل السواد، فمن صالحهم صالحوه ومن أسلم تركوه، وسار قيس بن الحرث حتى نزل بالبلد المعروف الآن بالقيس، وبه سميت وكان فيها بطريق من بطارقة «البطليوس» وكان من بني عمه اسمه «شكور بن ميخائيل» -والله أعلم باسمه-، فدخل أهل السواد كلهم البلد، وحاصرها المسلمون حصارًا شديدًا نحو شهرين، ثم أعانهم الله تعالى وحرقوا بابًا من أبوابها ففتحت ودخلوا إليها، وكان ذلك بعد وقعة جرت بينهم في مكان

يعرف بـ «كوم الأنصار»، فهزموهم هناك وحاصروهم وفتحوا المدينة وقتلوا البطريق ونهبوا الأموال وأخذوا جميع ما فيها بعد أن دعوهم إلى الإسلام فامتنعوا من ذلك، ثم شنوا الغارات على ما حولها من البلدان والبلد المعروف بـ «ماطي»، ثم إلى الكفور، فخرج إليهم بطريق كان ابن عم المقتول بدهشور وأخوه بطرس وعقدوا مع المسلمين عقدًا على الصلح وأعطوا الجزية، وسارت العرب إلى البلد المعروف بـ «الدير» و«سملوط» وما حولها من القرى، ونزل زهير وجماعة من العرب بالمكان الذي يعرف بزهرة، وأما بقية السواد الذي حول البهنسا شرقًا وغربًا، فلما تحققوا مجيء العرب هربوا إلى البهنسا بأموالهم ونسائهم وذراريهم وتركوا البلاد جميعها خرابًا، وكان «البطليوس» -لعنه الله- قد أرسل إليهم بطارقته فحملوهم إلى البهنسا واستعد للحصار وجمع عنده ما يحتاج إليه مدة الحصار.

قال الواقدي: هذا ما جرى لهؤلاء، وأما عدو الله «بولياص» صاحب «طنبدا» فإنه كاتب «البطليوس» يقول: «إني ما صالحت العرب إلا مكيدةً وإنِّي أريد الغدر بهم فجهز لي جيشًا من البطارقة على أن أظفر بجماعة من أبطال

المسلمين ونأخذ بثأر من قتل منكم قريبًا». وكان عدو الله كل يوم تأتيه الأخبار من العرب المتنصرة ومن غيرهم من أهل البلاد والسواد بما جرى للعرب وبأخبار من قتل من البطارقة وأخذ البلاد والأموال، فحمل همًّا عظيمًا ولم يظهر ذلك لأحد من بطارقته، وإنما كان يطيب قلوبهم ويقول: بلدنا حصينة وإن قاتلونا قاتلناهم وإن غلبونا دخلنا بلدنا، فلو جاءنا أهل الحجاز جميعهم ما وصلوا إلينا ولو أقاموا عشرين سنة!

فلما بلغ «البطليوس» مكاتبة عدو الله «بولياص» فرح بذلك فرحًا شديدًا. واستدعى ببطريق من بطارقته يسمى «روماس» وضم إليه خمسة آلاف فارس من الروم والنصارى وغيرهم من أهل القرى وأمرهم أن يسيروا تحت ظلام الليل فما جاء نصف الليل حتى وصلوا إلى طنبدا ودخلوا إلى بولياص ففرح بذلك فرحًا شديدًا واستعدوا للهجمة على المسلمين. وأصبح المسلمون وقد صلوا صلاة الصبح وإذا بالخيل قد أقبلت إليهم فنادوا: النفير هاجمونا وغدرونا! فركبوا خيولهم وساروا إلى قريب الدير، وإذا بالروم مقبلين في عشرة

آلاف فارس وكان أعداء الله قد كمنوا كمينًا قريبًا من قناطر كانت هناك ونهر يجري فيه الماء من النيل في أوانه عميق غربي الدير قريب من البلد.

قال الواقدي: ولما رأى المسلمون لمعان الأسنة والبيض وخفقان الأعلام وبريق الصلبان الذهب والفضة تبادروا إلى خيولهم فركبوا وأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير، وأقبلوا مسرعين نحوهم ولم يفزعوا من كثرتهم، وحرَّض بعضهم بعضًا على القتال، وكان الروم قد سبقوا إلى شرذمة من المسلمين كانوا نزولًا قريبًا من الدير ووضعوا فيهم السيف وأحاطوا بهم وجالوا واتسع المجال إلى قريب من «دهروط»، فخرج سليمان بن خالد وعبد الله بن المقداد وعامر بن عقبة بن عامر وشداد بن أوس وجماعة من الصحابة - رضي الله عنهم -، واشتد القتال، وعظم النزال، وأحاطوا بالمسلمين من كل جانب، فلله در سليمان بن خالد بن الوليد وعبد الله بن المقداد لقد أبليا بلاءً حسنًا! ولله در زياد بن المغيرة لقد كان يقاتل تارة في الميمنة وتارة في الميسرة وتارة في القلب! وأحاط بهم أعداء الله من كل جانب، وقد صار المسلمون بينهم

كالشامة البيضاء في جلد البعير الأسود وصبروا لهم صبر الكرام! وكان أكثر المسلمين قد أثخن بالجراح واشتد الكفار!

هذا وأعداء الله قد أحاطوا بهم وحجزوا بينهم وبين البلد، وقاتل سليمان وأصحابه قتالًا شديدًا ووطَّنوا أنفسهم على الموت وشجع بعضهم بعضًا وصار سليمان بن خالد يقول: الله الله الجنة تحت ظلال السيوف والموعد عند حوض النبي – صلى الله عليه وسلم – وقاتل قتالًا شديدًا حتى أثخن بالجراح، وقتل من المسلمين نحو مائتين وعشرين قريبًا من التل الذي هو غرب البلد المذكور، وما قُتل الواحد منهم حتى قَتل من أعداء الله خلقًا كثيرًا. ولما رأى سليمان بن خالد ما حلَّ بأصحابه صار تارة يكر في الميسرة وتارة يكر في الميمنة، وأعانه بالحملة عبد الله بن المقداد وبقية الصحابة، وتقدم سليمان بن خالد وطعن بطريق أسنا طعنة صادقة فأرداه عن جواده وغاص في القلب.

قال الواقدي: حدثنا أوس بن شداد عن علقمة بن سنان عن زيد بن رافع قال: كنت في الخيل صحبة سليمان بن خالد وقد حجزنا المشركين وتقهقروا من بين أيدينا ولم نشعر أنَّ لهم كمينًا إذ خرج الكمينُ علينا وقاتلناهم قتال

الموت وقتل منهم جماعة نحو ألفي فارس، وقَتَل سليمان بن خالد من الصناديد والبطارقة من خيارهم نحو ثلاثين فارسًا وكذلك عبد الله بن المقداد، فأحاط بسليمان بن خالد رضي الله عنهما كردوس نحو ألفي فارس وعقروا جواده من تحته، فضرب بالسيف فيهم حتى قطعت يده اليمنى! فتناول السيف بيده اليسرى فضرب بها حتى قطعت! فأحاطوا به، فلما تيقن بالقتل التفت وقال: يعزُّ عليك يا خالد بن الوليد ما حل بولدك ولكن هذا في رضا الله – عز وجل – ! وكان قد طعن في صدره نحو عشرين طعنة حتى قل حيله وسقط إلى الأرض، ثم تنفَّس وقال: الساعة نلقى الأحبة! ولما رآه عبد الله بن المقداد على ذلك المصرع صاح: «لا حياة بعدك يا أبا محمد والملتقى في جنات عدن»، ثم غاص يقاتل فأحاطوا به واشتبكت عليه الأسنة وضرب ضربات كثيرة في وجهه وهو يمسح الدم عنه حتى سقط به الجواد وصاح: «واشوقاه إليك يا مقداد! » ثم تبسَّم وقال: «مرحبًا»، ثم مات وأيقنَّا كلنا بالموت وأن القيامة هناك! وإذا بغبرة قد لاحت وانكشفت عن رايات إسلامية وعصائب محمدية وفي أوائل القوم القعقاع بن عمرو التميمي والمسيب بن نجبة الفزاري وسمرة بن جندب والفضل بن العباس وزياد بن أبي سفيان وبنو هاشم وبنو عبد المطلب وسادات

الأوس والخزرج، وعياض بن غنم الأشعري ومن معه من الأمراء والسادات، فلم يمهلوهم دون أن حملوا عليهم حملة رجل واحد حتى أجلوهم وقتل البطريق «بولياص» -لعنه الله- ومعه بطريق «البطليوس»، وانهزمت الروم واتبعتهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون حتى بلغت الهزيمة إلى البحر اليوسفي، ورموهم في البحر، وغرق منهم جماعة كثيرة وقتل منهم في المعركة نحو أربعة آلاف وأسروا نحو ألف ومائتي أسير وهرب منهم إلى «البطليوس» جماعة واختفوا إلى الليل ودخلوا على «البطليوس» وأعلموه بذلك، فضاقت عليه الدنيا وضاق صدره، وحار في أمره، واستعد للقاء المسلمين.

قال الواقدي: هذا ما جرى لهؤلاء، وأما أهل «طنبدا» وأهل «أسنا» وكانوا لم يخرجوا ولم يقاتلوا، فإنهم لما وردت عليهم الأخبار ومعهم البطارقة، سألوا بطريقهم القتال وكان نصرانيًا ولم يكن روميًا وكان اسمه «لوص» وبه سميت البلد فأبى! فلما انهزم البطارقة وخرج أهل «طنبدا» وأهل «أسنا» من السوقة والرعية وأولادهم وغيرهم بكوا في وجوههم وقالوا: نحن قوم رعية وكنا مغلوبين على أمرنا فإنَّا أهل ذمتكم ورعيتكم. قالوا: بشرط أن تدلونا على من

هربوا إليكم فأجابوهم إلى ذلك، وصاروا يأخذون المسلمين ويدخلون الدور والمساكن ويقبضون على الروم ويسلمونهم إلى المسلمين! وكان النصراني يقبض على الرومي ويأتي به إلى المسلمين، حتى قبضوا من طنبدا وأسنا على نحو من ألف وخمسمائة رجل من المطامير والأبيار التي كانوا يحبسون فيها الأسارى من المسلمين وغيرهم. ولما اجتمعت الأسارى من الروم والنصارى أمر عياض بن غنم بضرب رقابهم على تل هناك يعرف بـ «الكوم» ورجع المسلمون إلى مكان المعركة، فلما عاينوا القتلى ورأوا سليمان بن خالد وعبد الله بن المقداد وعبيد بن الداري، بكوا عليهم وعلى من قتل معهم من الأمراء - رضي الله عنهم - وحزنوا عليهم حزنًا شديدًا، وأنشد عمار بن ياسر ينعي سليمان بن خالد وعبد الله بن المقداد ومن معهما:

يا عين أذري الدمع منك الصبيب ثم اندبي يا عين فَقْدَ الحبيب
وانعي لمقتول غدًا في الفلا مجندلًا وسط الفيافي غريب
وابكي سليمان ولا تغفلي فأمره والله أمر عجيب
قد كان لا يفكر كل العدا إن سل من غمد السيف قضيب
وتحذر الأعداء من بأسه لو أنهم أعداد رمل الكثيب

فيا حمام الأيك نوحي إذًا على فتى قد كان غصنًا رطيب
وأعلمي بما جرى خالدًا لعله يبكي بدمع صبيب
وأخبري المقداد من بعده بأن عبد الله أضحى سليب
بل واندبي الأخيار من بعدهم وكل قرم للمعالي مصيب
لا يلتقي «البطليوس» خيرًا ولا أجناده أبناء أهل الصليب
قد كمنوا جيشًا لنا عامدًا يوم الوغى من كل كلب مريب
وحق مَن أعطى لنا نصره في كل وادٍ ثم فتحًا قريب
لنأخذنّ الثأر من جمعهم جهرًا ونطفي من فؤاد لهيب

قال الواقدي: وإنَّ ابن غنم - رضي الله عنه - جمع الشهداء ودفنهم في ثيابهم ودروعهم. وقال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «يحشر الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله يوم القيامة وجراحاتهم تقطر دمًا، اللون لون الدم، والريح ريح المسك». وأقام - رضي الله عنه - بعد أن دفن الشهداء قريبًا من التل، والأمراء يشنون الغارات على السواحل، وعدي بن جابر بن عبد الله الأنصاري وأبو أيوب والمسيب بن نجبة الفزاري في ألف فارس، فأغاروا على أهل «شرونة»، فخرج إليهم بطريق يعرف بـ «صندراس الجاهل» وبطريق

«أهريست» في خمسة آلاف فارس واقتتلوا قتالًا شديدًا عند سفح الجبل فبلغ الخبر عياضًا - رضي الله عنه - فأرسل إليهم كتيبة أخرى صحبة ابن المنذر والفضل بن العباس والمرزبان في ألف فارس. فلما رأى الروم ذلك وقع الرعب في قلوبهم وكانت بينهم حروب عظيمة، ثم إن الفضل بن العباس قصد البطريق الجاهل وضربه ضربة هاشمية على رأسه فقطع الخوذة والبيضة والرفادة، إلى أن سمع خشخشة السيف في أضراسه فكبر وكبر المسلمون لتكبيره فسقط عدو الله يخور في دمه.

وكان الفضل قد غاص في وسط المشركين وفتك فيهم! وحمل المرزبان على بطريق «شرونة» فقتله! وحمل ابن المنذر على بطريق «أهريت» فقتله! فلما رأى الروم ذلك ولّوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون إلى المكان المعروف بـ«الدير» و«أهريت»، وغرق منهم خلق كثير، وقتل منهم ألف وخمسمائة فارس، وأسر منهم ألف وخمسمائة، وتحصن منهم جماعة من الروم والنصارى في مدينة الجاهل، وكانت حصينة

فحاصرها المسلمون سبعة أيام وحرَّقوا الأبواب، وهدموا الجدران، وأخرجوهم من البيوت؟ وأخربوا تلك المدينة إلى يومنا!

وخرج إلى المسلمين نصارى من شرونة وأهريت وعقدوا معهم صلحًا، وأعطوا الجزية، وأنزلوا مُرَّة الكلبي في مائتين من أصحابه وغيرهم وابن عمرو بن العاص في المكان المعروف ببناء خالد في مائتي فارس، وعبر المسلمون البحر، ونزل عامر بالعرب في مائتي فارس قريبًا من طنبدا وإسنا وببا القرية، وارتحل عياض بن غنم – رضي الله عنه – ببقية الجيش، ولما تكامل المسلمون أرسل بين يديه المسيب بن نجبة الفزاري والعباس بن مرداس السلمي والفضل بن العباس الهاشمي وعامر بن عقبة الجهني وزياد بن أبي سفيان بن الحرث في ألف وخمسمائة فارس فساروا إلى مكان يعرف بـ «اتجرنوس»، وكان هناك قلعة ومرج للملك «البطليوس» وكان في زمن الربيع ينزل هناك بالخيام والمضارب حول القلعة وتجتمع عنده البطارقة ويقيم أشهرًا ثم ينزل على الإقليم ثم يعود إلى البهنسا. فأرسل «لوص» إلى «البطليوس» يطلب منه جيشًا صحبته بطريق

من بطارقته، فأرسل إليه بطريقًا كافرًا لعينًا اسمه «شلقم» وبه سميت البلد التي هي قريب من «البهنسا»، وكان الجيش عشرة آلاف فارس، والله أعلم.

عن طارق بن هلال، أنه كان في خيل العباس بن مرداس السلمي قال: بينما نحن نسير إذ رأينا غبرة قد ثارت وكان ذلك وقت الضحى، فتأملناها فانكشف عن عشرة أعلام وعشرة صلبان من الذهب الأحمر كل صليب يلمع كأنه كوكب، فتأهبنا الحملة وتأهبوا لنا، فلم يمهلونا دون أن حملوا علينا وحملنا عليهم وأحاطوا بنا وقاتلت الروم قتالًا شديدًا ورطنوا بلغتهم وأعلنوا بكلمة كفرهم، وصبرنا لهم صبر الكرام وقاتلنا قتال الموت، فلله در غنم بن عقبة والمسيب بن نجبة الفزاري والفضل بن العباس لقد قاتلوا قتالًا شديدًا! وعصب الفضل رأسه بعصابة حمراء، وكذلك فعل زياد بن أبي سفيان بن الحرث كما كان يصنع عمهما حمزة - رضي الله عنه - وقاتلا قتال الموت، فلم تكن إلا ساعة وقد قويت الحرب والقتال حتى أشرف علينا الأمير عياض بن غنم الأشعري مع بقية الجيش، فقوي قلبنا وكبرنا فأجابونا بالتهليل والتكبير، فتقدم الفضل بن العباس إلى بطريق شلقم وكان فارسًا شديدًا وعليه ديباجة

مفصصة بالذهب وفي وسطه منطقة بالذهب مرصعة بالجواهر، وقد عصب رأسه بعصابة من الجواهر وبيده عمود من الذهب طوله ثلاثة أشبار وأزيد، وهو تارة يضرب بالسيف وتارة يضرب بالعمود، فلما رآه الفضل ظنَّ أنَّه يريده، فحمل عليه وهو ينشد ويقول:

يا أيها الكلب اللعين الطاغيا   ومَن أتى لجيشنا معاديا
أبشر لقد وافاك ليث ضاريًا   بحدّ سيف في عداه ماضيا
كان له الرب العظيم واقيًا   من كل كلب إذ يكون طاغيا

فلم يفهم ما يقول الفضل وحمل عليه وتعاركا وتجاولا وضرب الفضل - رضي الله عنه - فحاد عنها وعطف عليه وانتزع العمود من يده وضربه ضربة هاشمية قرشية أبان بها رأسه عن بدنه ونظر إليه لم يسقط فعاد عليه وهو جثة بلا رأس فتلقاه فارس من المسلمين اسمه زهير فوجده مكلبًا بكلاليب في سرجه فنزع الكلاليب فسقط عدو الله كالطود بعد أن تضمخ تاجه ومنطقته دمًا. فقال له الفضل: إن السلب لي فخذه لك فقد وهبتك إياه. فقال: لا أعدمنا الله مكارمكم يا بني هاشم! وعطف على «لوص» فقتله، وقتل كل أمير بطريقًا غيره وحمل المسلمون حملة رجل واحد، فبددوا شملهم فولَّوا منهزمين بين

أيديهم، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون إلى أن وصلوا إلى البحر اليوسفي، والقوهم في مكان قريب من «شاقولة» فسميت القرية بذلك، وتحصنت جماعة بقلعة المرج فأحاط بها المسلمون وحرقوا الأبواب وهدموا الجدران واستخرجوا ما هناك وقتلوا من الروم مقتلة عظيمة نحوًا من ثلاثة آلاف، وأسروا نحوًا من ألف، وقتل من المسلمين ثمانية وأربعون رجلًا، من أعيانهم سيف الأنصاري - رضي الله عنهم - أجمعين، ودفن هو وأصحابه بمكان الوقعة، وكان زياد بن المغيرة وجماعته نزولًا في أماكنهم قريبًا من «طنبدا» كما ذكرنا حول البلد المعروف بـ «دهروط»، وكان زياد صديقًا للأمير سليمان بن خالد بن الوليد فكتب كتابًا للأمير خالد بن الوليد يعزيه في ولده سليمان ويقول:

يا خالد إن هذا الدهر فجعنا ... في سيد كان يوم الحرب مقداما
مجندل الفرس في الهيجا إذا اجتمعت ... وللصناديد يوم الحرب خصاما
لا يملك الضدّ من أبطالنا أملًا ... إن حاز ساعده القصاص صمصاما
يا طول ما هزم الأعداء بصارمه ... أنالهم منه تنكيسًا وإرغاما
كأنه الليث وسط الغاب إذ وردت ... له العدا وعلى الأشبال قد حامى

يا عين جودي بفيض الدمع منك دمًا بل واندبي فارسًــا قد كان ضــرغاما
والسـيد الفرد عبد الله قد حكمت بـه الـمـنـايا وحـكـم الله قـد داما
نجم الفتى العلم المقداد خير فتى قـد كـان في ملتقى الأعـداء هجّـامـا

ووصل الكتاب إلى خالد بن الوليد - رضي الله عنه - كان قريبًا من الدير ببقية الجيش وهو ينفذ السرايا، وأهل البلاد يأتونه بما صالحوه عليه من المال وغيره، وقد جهَّز عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعقبة بن نافع الفهري والزبير - رضي الله عنهم - بألف فارس إلى الفيوم، فلما ورد الكتاب على خالد سقط إلى الأرض وخرَّ مغشيًا عليه، ثم أفاق واسترجع، وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون»، ثم قال: «اللهم إني احتسبت سليمان إليك، اللهم اجعله فرطًا وذخرًا، وأعقبني عليه صبراً، وأعظم لي بذلك أجرًا ولا تحرمني الثواب برحمتك يا أرحم الراحمين»، ثم قال: «والله لآخذن فيه ألف سيد من ساداتهم ولأقطعنَّ ساداتهم وفرسانهم وإنني أرجو أن آخذ بثأره إن شاء الله تعالى، ولأقتلن «البطليوس» شر قتلة لعلي أشفي بذلك غليل صدري وحرارة كبدي،

وليكوننَّ على يدي خراب دياره وانهزام جيوشه وزوال ملكه»!، وهطلت مدامعه على وجنته أحرَّ من الجمر، ثم جعل يسترجع ويقول:

جرى مدمعي فوق المحاجر منهمل وحرّ فؤادي من جوى البين يشتعل
وهام فؤادي حين أخبرت نعيه فليت بشير البين لا كان قد وصل
لقد ذوّب الأحشاء وأجرى مدامعي صبيبًا وعن نار الفؤاد فلا تسل
سأبكي عليه كلما أقبل المسا وما ابتسم الصبح المنير وما استهل
وكان كريم العمّ والخال سيدا إذا قام سوق الحرب لا يعرف الوجل
أحاطت به خيل اللئام بأسرهم وقد مكّنوا منه المهند والأسل
وعيشك تلقاهم صراعًا على الثرى عليهم يسوق الوحش والطير محتفل
فوا أسفًا لو أنني كنت حاضرًا بأبيض ماضي الحدّ في الحرب مكتمل
وحق الذي حجّت قريش لبيته وأرسل طه المصطفى غاية الأمل
لأقتل منهم في الوغى ألف سيد إذا سلّم الرحمن واتّسع الأجل

وأقبلت الأمراء يعزُّون خالدًا ومدامعهم تفيض من عيونهم ويقولون: أعظم الله لك أجرًا، وأعقبك عليه صبرًا، وجعله لك غدًا في المعاد ذخرًا! والله لقد عدمنا القوى، وقد أبيد القلب من حشاشتنا واكتوى، ونحن لقتله ذاهلون «وإنَّا

لله وإنَّا إليه راجعون»! وكذلك يعزُّون المقداد في ولده عبد الله! وبلغ الخبر عمرو بن العاص بمصر وهو مقيم بها فكتب لهما كتابًا بالتعزية وبلغ الخبر المدينة لعمر بن الخطاب فاسترجع هو وبقية الصحابة مثل علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله - رضي الله عنهم -، ومن كان حاضرًا من الصحابة بالمدينة الطيبة وكتبوا إلى خالد والمقداد كتابًا يعزونهما، فلما وصل الكتاب إلى خالد والمقداد اطمأنا لما لهما من الأجر والثواب.

قال الواقدي: هذا ما جرى لهؤلاء؛ وأما «البطليوس» -لعنه الله- فإنه لما تحقق مجيء العرب إلى مدينة البهنسا فتح خزائن الأموال وفرق المال والسلاح والعدة من الملبوس والدروع وغير ذلك، وفرق على البطارقة وعلى غيرهم من الجند، ودخل الكنيسة وجلس على سريره وجمع حوله البطارقة فاستشارهم في أمره فقام شيخ كبير راهب وكان مطاعًا عنده مسموع الكلام كبير السن، وكان عمره مائة وعشرين سنة فقام وعليه جبة سوداء وعلى رأسه قلنسوة وفي يده عكازة من الأبنوس ملبسة بالعاج والذهب فقرب من الهيكل وتكلم بكلام لا يفهم ثم قال بعد ذلك: «يا أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية قد

كانت دولتكم قائمة وكلمتكم مسموعة ما دمتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتعدلون في الرعية، وتأخذون للمظلوم من الظالم، وتنصفون الضعيف من القوي، وتواسون الفقير، ولا تمدون أيديكم إلى شيء من أموال الناس، وتهابون الزنا، وكانت الدولة لكم وقلوب الرعية منجذبة إليكم وداعية لكم، وكان الملك فيكم! ولما لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر، وظلمتم الرعية وجُرْتُم في الأحكام وحكمتم بغير الحق، ومددتم أيديكم إلى أموال الرعية، وفشت فيكم المعاصي؛ تغيرت قلوب الرعية ومدوا أيديهم بالدعاء عليكم، ودعاء المظلوم مستجاب، وكثرة الظلم خراب، فيوشك أن تنزع هذه النعمة من أيديكم وتعود إلى غيركم بكثرة ذنوبكم وشؤم معاصيكم وبدعاء المظلومين عليكم، فلأجل ذلك سقطت عليكم العرب فملكوا بلادكم وقتلوا رجالكم ونهبوا أموالكم وسكنوا منازلكم واستولوا على معاقلكم فتيقظوا من غفلتكم وذبُّوا عن حريمكم وأموالكم ولا تمكنوا العرب من جانبكم وهذه مقالتي لكم جميعًا! »

فلما سمع «البطليوس» -لعنه الله- كلام القس وما تكلم به التفت إلى بطارقته وجماعته ونوابه، وقال: هل سمعتم ما قال أبوكم؟ قالوا: سمعنا. قال: فما عندكم من الرأي؟ قالوا: نحن معك وبين يديك ونقاتل العرب ولا نطمعهم فينا كما طمعوا في غيرنا، وإن غلبونا استعددنا للحصار وعندنا من الميرة والعلوفة ما يكفينا عشر سنين وأزيد وبلدنا حصين ولا نسلم أنفسنا وإلا يكون علينا عارًا عند الملوك. فشكرهم «البطليوس» على ذلك.

ووثب قس آخر، وكان يناظر ذلك القس في المعرفة واستخرج كتابًا معلقًا كان عنده في صندوق من الآبنوس مقفل بأقفال من الفولاذ وقال: «يا أهل دين النصرانية وبنى ماء المعمودية اسمعوا ما نعته لكم العلماء والكُهَّان والحكماء، أنه يبعث نبي في آخر الزمان يسمى محمد بن عبد الله من بني عدنان، يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه، يبعثه الله نبيًا إلى جميع البشر، مولده بمكة، ودار هجرته طيبة، ثم يقيم أعوامًا ويتوفاه الله - عز وجل -، ثم يتولى الأمر من بعده رجل يسمى أبا بكر وتزداد العرب به فخرًا ويجهز العساكر إلى الشام، ثم لم يلبث إلا أيامًا قلائل ويتوفاه الله تعالى، ويتولى الأمر من بعده الرجل الأصلع

الأحور المسمى بـ «عمر» وهو صاحب الفتوح ومصبح الأعداء بأشأم صبوح تفتح على يديه الأمصار ويبعث سراياه إلى سائر الأقطار، وإنا نجد في الكتب القديمة أن هذه المدينة تفتح على يد رجل أسمر وشجاع غضنفر فارس شديد وبطل صنديد يسمى بـ «خالد بن الوليد»، فإن سمعتم قولي وقبلتم فاعقدوا مع العرب صلحًا فإن الدولة لهم ودينهم الحق، ولو قاتلهم أهل المشرق والمغرب غلبوهم ببركة الله وببركة نبيهم محمد».

فلما سمع البطارقة كلامه غضبوا غضبًا شديدًا وأرادوا قتله فمنعهم «البطليوس» من ذلك وقال له: كأنك خفت من سيوف العرب! وأنا أعلم أن الرهبان والقسوس لا قلوب لهم لأنهم ليس لهم أكل إلا العدس والزيت والليمون والأشياء الرديئة، لا يعرفون اللحم، فلأجل ذلك ضعفت قلوبهم فلولا مقامك من قديم الزمان ورؤيتك للملوك القدماء لبطشت بك، ولئن عدت إلى مقالتك هذه لأقتلنك شر قتلة.

فسكت القس وخرج «البطليوس» من ساعته وجلس في قصره ذي الأعمدة، ثم استدعى ببطارقته وخلع عليهم، ورفع لهم الأعلام والصلبان،

وعُرض عليه جيشه فإذا هم ثمانون ألفًا غير السوقة المشاة؛ فسرَّ بذلك سرورًا عظيمًا، ثم استدعى ببطريق من بطارقته يدعى «قابيل»، وكان لا يقطع أمرًا دونه فخلع عليه ودفع له الثمانين ألفًا وأمره بملاقاة العرب، ثم استشار خواص مملكته في الإقامة في البلد أو الخروج إلى ظاهرها. فقال له ذوو الرأي من بطارقته: أيها الملك إنك إذا أقمت في البلد استضعفوا رأينا وأمرنا، وإذا كنت بجانب المدينة لا تجد العرب أن تصل إلينا ونجعل البلد خلف ظهرنا ونقاتل من خارج الأبواب ويساعدونا من فوق الأبراج، فإذا عظم الأمر فلا ندخل المدينة إلا من أمر عظيم! فاستصوب رأيهم.

ثم إنه أمر الفراشين أن يخرجوا الخيام والسرادقات والقباب بظاهر المدينة، وأخرجوا له سرادقًا عظيمًا سعته سبعون ذراعًا وارتفاعه مثل ذلك على أعمدة من الخشب المصفح بالذهب والفضة وهو من الحرير الملون: الأزرق والأحمر والأخضر والأبيض والأصفر والأسود، ومقصب بقضبان الذهب والفضة، مرصع باللؤلؤ، وفيه تصاوير من داخله ومن خارجه من جميع أجناس الطير والوحوش والكواكب، وفرش فيه من الفرش وبسط الحرير الملون،

ووضع فيه المساند والوسائد والأنطاع وأطناب السرادقات حرير ملون بأوتاد من عاج وآبنوس في حلق من ذهب وفضة وعلق فيه قناديل وسلاسل من ذهب وفضة. ووضع فيه سريرًا من خشب الساج المنقوش المصفح بالذهب الوهاج على قوائم بزمامين من ذهب وفضة طوله سبعة أذرع وعرضه مثل ذلك وارتفاعه مثل ذلك يصعد إليه بدرج من خشب مصفح بصفائح من ذهب وفضة، وعليه فرش من حرير ووسائد ومساند ونمارق، وحوله ثمانين كرسيًا مصفحة بالخشب الآبنوس يجلس عليها أرباب الدولة وأصحاب الصولة، وضرب حوله من الخيام والسرادقات ما لا يوصف له عدّ.

قال الراوي: حدثنا جماعة من الصحابة ممن شهد الفتح وعاين السرادقات أنه لما هرب الملعون ودخل المدينة وكان السرادق منصوبًا مقابل الباب البحري المعروف بـ «باب قندوس» أمر بطريقًا من بطارقته اسمه «سمعان» أن ينصب سرادقه الذي وهبه له عند باب «توما» وهو الباب القبلي وأمر بطريقًا اسمه «أصطافين» أن ينزل في الجانب الشرقي قريبًا من القناطر على ساباط

معقود على أعمدة من الحجارة، فأمره أن ينزل ومعه عشرة آلاف فارس حول القلعة.

قال هبار بن أبي سفيان أو سلمة بن هاشم المخزومي: ما نزلنا على مدينة من مدائن الشام ولا رأينا أكثر عددًا ولا أكثر زينة من مدينة البهنسا! ولا أقوى قلوبًا منهم، وأكثروا من الصلبان، ونصبوا السرادقات والمنجنيقات على الأسوار، وأسبلوا على الأسوار جلود الفيلة المصفحة بصفائح الفولاذ ورتبوا الرماة والمجانيق والسهام وغير ذلك.

قال الراوي: هذا ما جرى لهؤلاء، وأما الأمير عياض بن غنم الأشعري - رضي الله عنه -، فإنه لما قرب من البهنسا استشار أصحابه مثل أبي ذر الغفاري وأبي هريرة الدوسي ومعاذ بن جبل وسلمة بن هاشم المخزومي ومالك الأشتر النخعي وذي الكلاع الحميري - رضي الله عنهم - ومعهم ألفان من أصحابهم وأمرهم بالنزول في الجهة الشرقية وقال لهم: إن قاتلوكم قاتلوهم ونازلوا القلعة حتى تأخذوها، وعبر الأمير عياض من الجهة البحرية ومعه أصحاب الرايات والأمراء والطليعة من هؤلاء السادات وتتابعت الكتائب يتلو بعضها بعضًا

وعبروا إلى الجانب الغربي، فبينما هم سائرون وإذا بعدو الله قابيل قد أقبل بالبطارقة المتقدم ذكرهم، فلما التقى الجمعان عند سفح الجبل تحت المغارة أشار إلى أصحابه فأمسكوا عن المسير وتقدم إلى رابية عالية وإلى جانبه رجل من العرب المتنصرة وأمره بأن ينادي برفيع صوته: قربوا إلى البطريق رجلًا منكم ذا خبرة يكلمه فوثب إليه جرير الحميري وأتى إلى عياض وقال: أيها الأمير أتأذن لي أن أكلمه. قال: نعم إن طلبوا الصلح ورفعوا القتال صالحناهم حتى يحضر الأمير خالد بن الوليد ويفعل أمره، وأن أرادوا القتال قاتلناهم واستعنَّا بالله تعالى عليهم وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فعندها سار حتى وقف بإزاء البطريق وقال له: سل حاجتك. فقال له: أأنت أمير القوم؟ قال: لا، ولكني متكلم عن الأمير. فقال له: لم تركتم بلاد الشام والنعم العظام وأتيتم إلى هذه البلاد؟! وكنتم في بلاد الحجاز تقاسون جوعًا وعريًا فذقتم فواكه الشام وثمار الحجاز وخيرات اليمن؟! فلم يكفكم ذلك حتى أتيتم إلى مصر وقهرتم القبط وأتيتم إلى بلاد الفرس وقهرتم ملوكها، ولم تكتفوا حتى أتيتم إلينا وهجمتم علينا في بلدنا وقتلتم أبطالنا ونهبتم أموالنا ونحن

نتغافل عنكم ونهمل أمركم حتى غلظت شوكتكم وقصدتم مدينتنا التي هي دار ملكنا ومحل ولايتنا، ولقد طلبها من قبلكم من الفراعنة والجبابرة والقبط والقياصرة والأكاسرة والجرامقة ورجعوا خائبين، فقولوا لنا ما الذي تريدون منَّا؟ فإن كنتم تريدون مالًا وترجعون عنَّا، قمت أنا عن الملك بذلك وترحلون عنَّا وتردون لنا ما ملكتم من بلادنا، وأن الملك لا يخالف لي أمرًا فأخبروني ما الذي تريدون وما الذي تطلبون؟

فقال له جرير: أَفَرَغت من كلامك؟ فقال له: نعم. قال له جرير: خذ جوابك! أما قولك كنَّا في ضيق حال فهو كما ذكرت، ولكن أنعم الله علينا بالإسلام وهو أول نعمة، ثم أمرنا بالجهاد، وإن الله تعالى أباح لنا أموال المشركين ما داموا محاربين، وأمرنا أن نجاهدكم حتى تؤدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون أو تسلموا أو تقاتلوا «حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ». وأما قولك عن المال فليس هو غرضنا ولا متاع الدنيا شهواتنا، وإن بلادكم عن قريب تكون لنا وأموالكم غنيمة لنا نتقاسمها. فلما سمع البطريق

الكلام غضب غضبًا شديدًا، وقال: أنا كفء لكم دون الملك، ثم أمر أصحابه بالحملة على جرير.

قال جرير: فما لويت عنان جوادي إلا والخيل قد ركبتني، عندها تواثب المسلمون وتبادر الرجال وزمجر الأبطال والتقى الجمعان واصطدم الفريقان، فلله در المغيرة بن شعبة وعون بن ساعدة وعبادة بن تميم والفضل بن العباس - رضي الله عنهم -، لقد قاتلوا قتالًا شديدًا وأبلوا بلاءً حسنًا ولم يزل القتال يشتد من ارتفاع الشمس إلى الغروب. فعندها وثب عبد الله بن جعفر إلى قابيل وضربه ضربة فحاد عنها عدو الله وولَّى هاربًا وحمته جماعة نحو ثلثمائة فارس، ولم يزل الفريقان في قتال ونزال إلى أن غابت الشمس وافترق الجمعان، وقد قتل من المسلمين نحو خمسين رجلًا ختم الله لهم بالشهادة، وقتل من الروم نحو ألفي فارس.

واجتمعت الروم حول قابيل حين ولَّى هاربًا إلى أن وصل إلى «البطليوس»، فلما رآهم وبَّخهم وقال لهم: بأي وجه تفرون من العرب ولم تصبروا لهم وقد فشلتم وجزعتم؟! فقال له قابيل: أيها الملك ليس الخبر

كالعيان، وهؤلاء ليسوا بإنس وإنما هم جن في القتال، ولولا الأجل حصين ما عدت إليك! فغضب الملك وقال: اسْكُتْ! قد تمكَّن رعب العرب من قلبك وستنظر ما يكون من أمرهم! ثم بات في قلق شديد حتى أصبح الصبح ولم يأمر قومه بالركوب وقال: أمهلوا حتى أنظر ما يكون من أمرهم.

ذكر فتوح البهنسا ونزول الصحابة وقتل البطريق

قال الراوي: ولما أصبح المسلمون صلوا صلاة الصبح ثم تبادروا إلى خيولهم فركبوها فلم يجدوا لأعداء الله خبرًا ولا أثرًا وتيقنوا أنهم انهزموا ومضوا إلى مدينتهم، فسارت المسلمون إلى أن قربوا من البهنسا فلاحت لهم المضارب والخيام والسرادقات والأعلام.

قال الراوي: حدثنا قيس بن منهال عن عامر بن هلال عن ابن زيد الخيل قال: لما أشرفنا على مدينة البهنسا ورأينا تلك المضارب. قال عياض - رضي الله عنه -: «اللهم اخذلهم وانصرنا عليهم. اللهم احصهم عددًا واقتلهم بددًا ولا تبق منهم أحدًا واخزهم» «إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (آل عمران:٢٦)، وأمَّن المسلمون على دعائه. قال: فلما أقبلنا على مدينة البهنسا كبرنا وهللنا فخرجوا

إلى ظاهر الخيام وبأيديهم السيوف والدرق والقسي والنبال ورأينا خلقًا كثيرة على الأبراج وأراد جماعة من العرب الحملة عليهم فمنعهم الأمير وبقية الأمراء من ذلك وقالوا: لا حملة إلا بعد إنذار، ثم إنهم لم يأتوا إلينا ولا ناوشونا بقتال واستقلونا في أعينهم.

قال الواقدي: ونزل المسلمون بجانب الجبل عند الكثيب الأصفر قريبًا من البياض الذي على المغارة نحو المدينة هذا ما جرى لهؤلاء، وأما أبو ذر الغفاري وأبو هريرة الدوسي ومعاذ بن جبل ومسلمة بن هاشم ومالك الأشتر وذو الكلاع الحميري فإنهم ساروا حتى نزلوا قريبًا من القوم وباتوا تلك الليلة، فلما أصبحوا خرج أعداء الله للقائهم، فقال مالك الأشتر: «يا قوم إن أعداء الله خرجوا للقائكم فأشغلوهم بالقتال وأرسلوا جماعة منكم يملكون الجسر واستعينوا بالله». فعندها خرج المرزبان ومعه ثلثمائة فارس حتى وصلوا إلى الجسر والحجارة تتساقط عليهم من أعلى السور حتى ملكوا الجسر وجعلوا في أماكن المخاضات حراسًا بسيوف محدودة، واقتتل المسلمون وأعداء الله قتالًا شديدًا وثبتوا في القتال سبعة أيام، وكلما أتوا إلى مكان المخاضة وجدوه

مربوطًا بالرجال، وصار كل ليلة تهرب منهم جماعة من الروم ويهيمون على وجوههم يريدون الصعيد فيتلقاهم رافع بن عميرة الطائي ومعه سرية من أصحاب قيس بن الحرث عند البلد المعروف بـ «ادقار» وكانوا حوالي البحر اليوسفي يشنون الغارات على تلك السواحل.

فبينما هم كذلك يسيرون إذ سمعوا دوي حوافر الخيل فظنوا أنهم مسلمون فكلموهم فلم يرد عليهم أحد فلحقوهم وحملوا عليهم وكانوا ستمائة فارس، ففروا من بين أيديهم، فقتلوا منهم نحو مائتين وهرب الباقون، وقتل من المسلمين ثلاثة، وهرب الروم نحو المخاضة فغرق منهم مائة وأسر منهم مائتان وهرب الباقون، وسألوهم عن سبب خروجهم فأخبروهم أنهم يرودون، فعند ذلك أوثقوهم كتافًا وأتوا بهم مكتفين مع نفر من المسلمين إلى أن أوصلوهم إلى عياض بن غنم الأشعري فأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وأقبلوا نحوهم ففرحوا بالأسارى، ثم عرضوهم على الأمراء المتقدم ذكرهم فعرضوا عليهم الإسلام فأبوا فضربت أعناقهم والروم ينظرون إلى ذلك، ثم زحفت عليهم الصلبان واقتتلوا قتالًا شديدًا من ارتفاع الشمس إلى

وقت العصر، وفشا القتل في الروم، فلما رأوا ذلك ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وصعدوا على القلعة وغلقوا الأبواب واستعدوا للحصار ونصبوا آلات القتال.

وأمَّا الصحابة – رضي الله عنهم –، فإنهم نزلوا في سفح الجبل والوادي في المكان المتسع من الجهة البحرية والجهة الغربية، فلما جاء الليل أوقدوا نيرانهم، واجتمعت كل قبيلة ببني عمها يقرأون القرآن ويصلون على محمد أشرف ولد عدنان، وما فيهم إلا من هو راكع أو ساجد أو داعٍ لله – عز وجل – ، لعله أن ينصرهم على عدوهم. وبات الروم اللئام يشربون الخمر داخل المدينة وخارجها، وقد أعلنوا بكلمة كفرهم، حتى ضجت منهم أرض البهنسا واستغاثت إلى الله – عز وجل –.

ولما أصبح الصباح صلى المسلمون وجلسوا ينتظرون ما يكون من أمر الروم، وإذا بقسٍ قد أقبل راكبًا بغلةً وعليه مدرعة من شعر، وقلنسوة وزنار، وسار حتى وصل قريبًا من العسكر، ثم تكلم بلسان عربي وقال: يا مسلمون! أريد أمير العرب!

عن شداد بن أوس وكان من أصحاب الرايات قال: بينما نحن جلوس نتحدث مع الأمير عياض بن غنم إذ أقبل عبد الله بن عاصم وأخبر عن ذلك القس. فأذن له الأمير عياض بالدخول. فدخل القس فوجد الأمير عياضًا جالسًا في خيمته، على فراش من أدم وحشوه من ليف، وفُرُش المشركين التي اكتسبوها مطوية على جانب، وحوله السادات والأمراء - رضي الله عنهم - وهو كأنه أحدهم وسيوفهم على أفخاذهم، وعليهم هيبة ووقار! فلما دخل القس اندهش وحار وأخذه الانبهار، ثم التفت يمينًا وشمالًا وقال: يا قوم! أيكم الأمير حتى أكلمه؟ فأشاروا إلى الأمير عياض. فالتفت إليه وقال: يا فتى أنت أمير قومك؟ قال: كذلك يزعمون ما دمت على طاعة الله - عز وجل -. فقال له القس: إن الملك «البطليوس» قد أرسلني إليكم يريد ذا الرأي والخبرة ليسأله عن أمركم، فلعل أن يكون ذلك سبب حق الدماء بينكم وبينه! عندها التفت الأمير عياض إلى أصحابه وقال: ما تقولون فيما أتاكم به هذا القس؟ ومن ينطلق إليه ويخاطبه ويعود إلينا؟ فوثب المغيرة بن شعبة وقال: أنا أمضي إليه، وأريد معي عشرة رجال من الأمراء ذوي المروءة والبأس! قال له الأمير: اختر من شئت وفقك الله وسددك! وردك إلينا سالمًا غانمًا أنت ومن معك. فالتفت

وراءه وقال: أين سعيد بن عبد القادر؟ وأين أبو أيوب الأنصاري؟ وأين خالد بن زيد الأنصاري؟ وأين زيد بن ثابت الأنصاري؟ وأين مسعود البدري؟ وأين جرير بن مطعم؟ أين أبو يزيد العقيلي؟ وأين معاوية بن الحكم الثقفي؟ وأين عمار بن حصين؟ وأين زيد بن أرقم؟ فأجابوه بالتلبية. فقال لهم: خذوا أهبتكم وانطلقوا معي على بركة الله وعونه. فتبادر هؤلاء الأمراء السادات إلى خيامهم ولبس كل واحد درعه، وتنكبوا بحجفهم، وتقلدوا بسيوفهم، واعتقلوا برماحهم.

قال الواقدي: ثم إن المغيرة - رضي الله عنه - دخل إلى خيمته ولبس درعه وشد وسطه بمنطقته، وهي من الأدم وفيها خنجران، واحد عن اليمين وواحد عن الشمال. وتقلد بسيف من جوهر، واعتقل برمح أسمر وركب جواده الأدهم، وأخذ كل واحد منهم عبده راكبًا علي بغلته، وودعهم والتفت الأمير عياض وقال للمغيرة: اعرف يا شعبة ما تكلم به هذا الملعون فما عرفتك إلا مفلح الحجة فادعه إلى الإسلام، وما فرض عليه من الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، وما أبيح من الحلال، وما حرم من الحرام، فإن أبى فالجزية

في كل عام! فإن أبى فالقتال بحد الحسام، ونرجو النصر من الملك الديان. فقال المغيرة: أرجو من الله الملك الوهاب المعونة في رد الجواب! وسار الأمراء والقس أمامهم راكب على بغلته، وعبيدهم خلفهم على بغالهم، وكل عبد عليه لأمة حربه، وساروا وهم معلنون بالتكبير والتهليل والصلاة على البشير النذير!

قال زياد بن ثابت: فلما فارق القوم الأمير عياضًا نظرت إليه، وعيناه تذرفان بالدموع، حتى بلت دموعه لحيته، وهو يقرأ القرآن، فقلت له: أيها الأمير ما هذا البكاء؟! فقال لي: يا ابن ثابت هؤلاء والله أنصار الدين، فإن أصيب رجل منهم، فما يكون عذري عند الله - عز وجل -؟!

وسار المغيرة وأصحابه حتى أشرفوا على عسكر العدو، وإذا هو ملء الأرض، وهو نازل حول مدينة البهنسا، فصاح المغيرة ومن معه يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله. فبينما هم كذلك إذ أقبل إليهم بطريق ومعه رجل من العرب المتنصرة راكب إلى جانبه، ومعهما نحو مائة ألف فارس وساروا بين أيديهم حتى وصلوا إلى قريب سرادق الملك، ولاح «البطليوس» وهو جالس على السرير، فعند ذلك خرج لهم الحُجاب والنواب وأرباب الدولة والصولة،

وقالوا: قد وصلتم وبلغتم إلى سرادق الملك فانزلوا عن خيولكم وانزعوا سيوفكم. فقال المغيرة: أمَّا خيولنا فننزل عنها، وأمَّا سيوفنا فلا ننزعها فإنها عزَّنا وما كنَّا بالذي ينزع عزَّه، الذي يعتزُّ به دهره. فأخبر الحجاب الملك بذلك فقال: دعوهم يدخلون بسيوفهم. فناداهم الحجاب ادخلوا.

قال الواقدي: فعندها ترجل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن خيولهم وأمسكوها لعبيدهم، وأقبلوا يتبخترون في مشيهم ويجرون حمائل سيوفهم ويخترقون صفوف الكفار وهم لا يهابونهم إلى أن وصلوا إلى النمارق والفرش والديباج والملك جالس على سريره، ولما نظر المسلمون إلى ذلك عظموا الله تعالى وكبروه فارتج السرادق وتغيرت ألوان القوم وصاح بهم الحجاب: قبِّلوا الأرض للملك فلم يلتفتوا إليهم. قال المغيرة: لا ينبغي السجود إلا للملك المعبود، ولعمري كانت هذه تحيتنا قبل، فلما بعث الله تعالى محمدًا - صلى الله عليه وسلم - نهانا عن ذلك فلا يسجد بعضنا لبعض. فسكتوا. فأمر الملك بكراسي من ذهب وفضة فنصبت لهم فلم يجلسوا عليها، وكانوا من حين دخلوا أمروا بعض عبيدهم أن يطووا البسط من تحت أرجلهم

إلى أن وصلوا إلى فرش الديباج فشالوها على جنب، فقالت لهم البطارقة: قد أسأتم الأدب معنا إذ لم تسجدوا للملك ولم تمشوا على فرشنا! فقال المغيرة: إن الأدب مع الله تعالى أفضل من الأدب معكم والأرض أطهر من فرشكم لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»، وقال الله تعالى: «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى».

قال الواقدي: لم يكن بين «البطليوس» والصحابة ترجمان لأنه كان أعرف أهل زمانه بلسان العربية، فعند ذلك أمرهم بالجلوس، فقال المغيرة: إمَّا أن تنزل عن سريرك وتكون معنا على الأرض أو تأذن لنا بالجلوس معك على السرير لأن الله تعالى شرَّفنا بالإسلام. فأشار لهم بالجلوس معه على السرير بعد أن أزالوا تلك الفرش، وجلس المغيرة إلى جانبه فالتفت «البطليوس» إليهم وقال لهم: أيكم المتكلم عن أصحابه؟ فأشاروا إلى المغيرة - رضي الله عنه - والصحابة جلوس وأيديهم على مقابض سيوفهم فالتفت «البطليوس» إلى

المغيرة، وقال له: ما اسمك؟ فقال: عبد الله المغيرة. فقال: يا مغيرة إني أكره أن أبدأك بالكلام! فقال المغيرة: تكلم بما شئت فإن عندي لكل كلام جوابًا.

ثم إن «البطليوس» أفصح في كلامه وقال: الحمد لله الذي جعل سيدنا المسيح أفضل الأنبياء، وملكنا أفضل الملوك ونحن خير سادة! فقطع عليه المغيرة، فقالت الحجاب والنواب: لقد أسأت الأدب مع الملك يا أخا العرب! فأبى المغيرة أن يسكت وقال: الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وخصَّنا من بين الأمم بمبعث محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فهدانا به من الضلالة، وأنقذنا به من الجهالة، وهدانا إلى الصراط المستقيم فنحن خير أمة أخرجت للناس نؤمن بنبينا ونبيكم وبجميع الأنبياء، وجعل أميرنا الذي هو متولي علينا كأحدنا لو زعم أنه ملك وجار عزلناه عنا فلسنا نرى له فضلًا علينا إلا بالتقوى، وقد جعلنا الله نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونقر بالذنب ونستغفر منه، ونعبد الله وحده لا شريك له، ولو أذنب الرجل منَّا ذنوبًا تبلغ مثل الجبال فتاب قبلت توبته، وإن مات مسلمًا فله الجنة! فتغير لون «البطليوس» ثم سكت قليلًا، وقال: الحمد لله الذي ابتلانا بأحسن البلاء، وأغنانا من الفقر، ونصرنا على

الأمم الماضية، ولقد كانت جماعة منكم قبل اليوم يأتون إلى بلادنا فيمتارون البر والشعير وغيره ونحسن إليهم وكانوا يشكرونا على ذلك!

وأنتم جئتمونا بخلاف ذلك تقتلون الرجال وتسبون النساء وتغنمون المال وتنهبون المدائن والحصون والقلاع وتريدون أن تخرجونا من بلادنا وديارنا، وأنتم لم تكن أمة من الأمم أضعف حالًا منكم لأنكم أهل الشعير والدخن وجئتم بعد ذلك تطمعون في بلادنا وأموالنا وحولنا جنود كثيرة، وشوكتنا شديدة، وعصابتنا عظيمة، ومدينتنا حصينة، والذي جرَّأكم علينا أنكم ملكتم الشام والعراق واليمن والحجاز وارتحلتم إلى بلادنا وأفسدتم كل الفساد وخربتم المدائن والقلاع، ولبستم ثيابًا فاخرة، وتعرضتم لبنات الملوك والبطارقة وجعلتموهن خدمًا لكم، وأكلتم طعامًا طيبًا ما كنتم تعرفونه، وملأتم أيديكم بالذهب والفضة والمتاع الفاخر واللآلئ والجواهر، ومعكم متاعنا وأموالنا التي من قومنا وأهل ديننا، ونحن نترك لكم ذلك جميعه ولا ننازعكم عليه ولا نؤاخذكم بما تقدم من فعلكم من قتل رجالنا ونهب أموالنا، والآن فارحلوا عنَّا واخرجوا من بلادنا. فإن فعلتم فتحنا خزائن الأموال وأمرنا لكل

رجل منكم بمائة دينار وثوب حرير وعمامة مطرزة بالذهب، ولأميركم هذا ألف دينار وعشرة عمائم وعشرة ثياب، ولكل أمير منكم كذلك وللخليفة عليكم عشرة آلاف دينار ومائة ثوب حرير ومائة عمامة بعد أن نستوثق منكم بالأيمان أنكم لا تعودون إلى الإغارة على بلادنا!

هذا كله والمغيرة ساكت، فلما فرغ «البطليوس» من كلامه، قال له المغيرة: قد سمعنا كلامك فاسمع كلامنا. ثم قال: الحمد لله الواحد القهار الفرد «الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ»، فقال له «البطليوس»: نعم ما قلت يا بدوي! فقال المغيرة: أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المرتضى، ونبيه المجتبى. فقال له «البطليوس»: لا أدري أنَّ محمدًا رسول الله ولعله كما يقال حبيب الرجل دينه! ثم التفت إلى المغيرة، وقال:

يا عربي ما أفضل الساعات؟ فقال: ساعة لا يعصى الله فيها. قال: صدقت يا أخا العرب لقد بان لي رجحان عقلك، فهل في قومك من له رأي مثل رأيك وحزم مثل حزمك؟ قال: نعم في قومنا وعسكرنا أكثر من ألف رجل لا يستغنى عن رأيهم ومشورتهم وخلفنا أمثال ذلك وهم قادمون إلينا عن قريب. فقال

«البطليوس»: ما كنَّا نظنُّ ذلك منكم، وإنما بلغنا عنكم أنكم جماعة جهال لا عقول لكم! فقال المغيرة: كنَّا كذلك حتى بعث الله فينا محمدًا – صلى الله عليه وسلم – فهدانا وأرشدنا. فقال «البطليوس»: لقد أعجبني كلامك فهل لك في صحبتي؟ فقال المغيرة: يسرني ذلك إذا فعلت ما أقول لك. قال: ما هو؟ قال: تشهد ألا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله. قال «البطليوس»: لا سبيل إلى ذلك، ولكن أردت أن أصلح الأمر بيني وبينكم. قال المغيرة – رضي الله عنه – : الأمر إلى الله، وأما قولك لنا إنا أهل فقر وبؤس وضر فقد كنا كذلك وكنا أهل جاهلية لا يملك أحدنا غير فرسه وقوسه وإبله وكنا لا نعظم إلا الأشهر الحرم حتى بعث الله إلينا نبيه ورسوله – صلى الله عليه وسلم – وقد أمرنا أن نجاهد من كفر بالله واتخذ مع الله شريكًا جل ربنا وعلا، وهو واحد لا تأخذه سنة ولا نوم.

فمن اتبعنا كان من إخواننا وله ما لنا وعليه ما علينا، ومن أبى الإسلام فالجزية يؤديها عن يد وهو صاغر، وهي على كل محتلم في العام دينار وليس على من يبلغ الحلم جزية ولا على امرأة ولا على راهب منقطع في صومعته،

فمن أداها حقن الله دمه وماله، ومن أبى الإسلام والجزية فالسيف حكم بيننا وبينه والله خير الحاكمين. فقال «البطليوس»: لقد فهمت قولك عن الإسلام فما قولك عن الجزية عن يد وهو صاغر فإني لا أدري ما الصغار عندكم؟ فقال المغيرة - رضي الله عنه -: وأنت قائم والسيف على رأسك. فلما سمع البطريق كلام المغيرة غضب غضبًا شديدًا ووثب قائمًا ووثب المغيرة من موضعه وانتضى سيفه من غمده، وكذلك فعل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كفعله وهم يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

عن عبد الله بن رافع قال: كنا مع المغيرة وجذبنا السيوف ووثبنا على القوم وأخذتنا غيرة الإسلام وما في أعيننا من جيوش «البطليوس» شيء وعلمنا أن المحشر من ذلك الموضع! فلما رأى «البطليوس» منَّا ذلك وتبين له الموت من شفار سيوفنا نادى: مهلًا يا مغيرة لا تعجل فتهلك، وأنا أعلم أنَّك رسول، والرسول لا يقتل، وإنما تكلمت بما تكلمت لأختبركم وأنظر ما عندك والآن لا نؤاخذكم فاغمدوا سيوفكم. قال: فأغمدنا سيوفنا وتقدم المغيرة حتى صار في مكان «البطليوس» وزحزحه إلى آخر السرير، وكان المغيرة رجلًا جسيمًا

فاتكل عليه حتى كاد أن يخلع فخذه من موضعه. قال: ثم التفت إلى المغيرة وقال: ما قولكم في المسيح ابن مريم؟ قال المغيرة: عبد الله ورسوله. قال: فمن أي شيء خلق؟ قال: خلقه الله من تراب، ثم قال له كن فكان، ودل على ذلك القرآن العظيم قال - عز وجل -: «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون». قال: فما الدليل على أن الله واحد؟ فقال المغيرة: القرآن العظيم، قوله تعالى على لسان نبيه - صلى الله عليه وسلم -: «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ». فقال له «البطليوس»: ما رأيت مثل حذقك وجوابك يا أعور! وكان المغيرة - رضي الله عنه - قد أصيب في إحدى عينيه يوم اليرموك. فقال له المغيرة: إن ذلك لا يعيبني، ولقد أصيبت عيني في الجهاد في سبيل الله من كلب مثلك، وأخذت بثأري من الذي فعل بي ذلك فقتلته وقتلت جملة منهم، والثواب من الله - عز وجل - أعظم من ذلك. وفينا أهل العلم والرأي، ومن لا أساوي في علمهم شيئًا وأنا رجل بدوي؟ فلو رأيت علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المختار قاتل الكفار ومبيد الفجار والليث الكرّار البطل المغوار. قال: أهو معكم في هذا الجيش فقد سمعت بشجاعته وبراعته وأريد أن أنظر

إليه؟! فقال له المغيرة: قاتلك الله! إن الإمام عليًا كرم الله وجهه أعظم قدرًا من أن يسير إلى مثلك! قال: فهل أحد غيره؟ قال: نعم مثل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن وسعيد وسعد وأبو عبيدة بن الجراح - رضي الله عنهم - وأمراء متفرقين في الحجاز واليمن والشام والعراق ومصر كل أمير يقوم بألف مثلك في الشجاعة والبراعة وغير ذلك، وأما سيف الله الأمير خالد بن الوليد أمير هذا الجيش ومعه عصابة من الأمراء، فكأنك به وقد أقبل علينا برجال سادات شداد وأمراء أمجاد.

فقال له عند ذلك: إني أريد أن أصلح الأمر بيني وبينكم وأريد قبل الحرب أن أنظر إلى جماعة ممن ذكرت. وكأن عدو الله أراد أن يغدر بأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ففهم المغيرة منه ذلك. فقال: غداة غد آتيك منهم برجال تنظر إليهم. ثم وثب المغيرة وأصحابه وخرجوا من عند «البطليوس» وما صدقوا بالنجاة وركبوا خيولهم، وأمر «البطليوس» حجابه ونوابه أن يسيروا معهم إلى قريب من عسكرهم. ووصل المغيرة وأصحابه إلى الأمير عياض بن غنم الأشعري وحدَّثه بما جرى له مع «البطليوس». فقال عياض: وحق صاحب

الروضة والمنبر ما ترككم إلا خوفًا من سيوفكم، وهذا رجل حكيم إلا أن الشيطان قد غلب على عقله. ولم يناموا تلك الليلة إلا وقد أخذوا أهبتهم للحرب واستعدوا.

فلما أصبح الصباح أذَّن المؤذنون في عسكر المسلمين فأسبغوا الوضوء وصلوا الصبح، ثم ركبوا خيولهم وقد علموا أن العدو مصبحهم وقد عبوا صفوفهم، وكانت الجواسيس من العرب يدخلون في عسكرهم وينقلون الأخبار ووصلت جواسيس عياض بن غنم إليه وأعلموه بذلك، وأن الروم متأهبون للقتال فرتب جيشه ميمنة وميسرة، فجعل في الميمنة الفضل بن العباس، وجعل في الميسرة أبا أيوب الأنصاري، وجعل في القلب القعقاع بن عمرو التميمي. عن سعيد بن عمرو الغنوي قال: حضر أرض البهنسا عشرة آلاف عين رأت النبي – صلى الله عليه وسلم –، وفيهم سبعون بدريًا والأمراء وأصحاب الرايات نحو ألف وأربعمائة ودفن بأرض البهنسا من الصحابة والسادات نحو خمسة آلاف. وكان على الرجالة معاذ بن جبل، وعلى الساقة والنسوان والصبيان سعد بن عبد القادر والضحاك بن قيس. وسار الأمير عياض

يتخلل الصفوف ويقول: «الله الله الجنة تحت ظلال السيوف: يا أهل الإسلام! اعلموا أن الصبر مقرون بالفرج، وإِنَّ الله مع الصابِرِين، والصابرون هم الغالبون، وأن الفشل سبب من أسباب الخذلان، فمن صبر على حد السيف إذا قدم على الله أكرم منزلته وشكر سعيه والله يحب الصابرين»، وصار يقول ذلك لأصحاب الرايات. وما فرغ الأمير عياض من تعبية الصفوف إلا وعساكر «البطليوس» والروم قد أقبلت ومعهم النصارى والفلاحون والعرب المتنصرة، وأمامهم صليب من الذهب الأحمر زنته خمسة أرطال وفي أربعة جوانبه أربع جواهر كالكواكب.

عن شداد بن أوس وكان ممن حضر الفتوح إلى آخرها قال: وأقبلت الصلبان وأنا أعدها صليبًا بعد صليب حتى عددت ثمانين صليبًا تحت كل صليب ألف، ومعهم القسوس والرهبان وهم يتلون الإنجيل، وأكثر أعداء الله في عسكرهم من الرايات والأعلام؛ فبينما الناس كذلك إذ أقبل بطريق وعليه درع مذهب ولأمة حرب وهو يرطن بلغته وطلب البراز فبرز إليه القعقاع وتعاركا وتجاولا، ثم طعنه القعقاع في صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره،

فخرج علج آخر وقد غضب لقتل صاحبه وكان من أصحاب الجلوس على السرير مع الملك وطلب البراز فبرز إليه رجل من الأزد فمنعه الأمير عياض من ذلك وقال: اذهب فلستَ كفؤًا له. فبرز إليه المسيب بن نجبة الفزاري وضربه فتلقاها العلج بحجفته فطار السيف من يده وضرب العلج المسيب فضيعها، ونظر المسيب أن يناوله أحد سيفًا فلم يجد فأراد الرجوع وإذا بالقعقاع بن عمرو قد أقبل وبيده سيف، فناوله إياه فكرَّ راجعًا وضرب البطريق على عاتقه الأيمن فأطلع السنان من عاتقه الأيسر فانجدل صريعًا يخور في دمه!

فلما رأت الروم ذلك حملوا على المسلمين حملة واحدة واشتد القتال وعظم النزال وعدو الله «البطليوس» راكب على جواد أهداه له صاحب صقلية والبربر يساوي خمسمائة دينار، وكان أيام الحصار يصعد به ويرمح على أسوار المدينة، وعلى بدنه درع مذهب وفي وسطه منطقة من الجوهر وعلى رأسه تاج تلمع جواهره كالكواكب، والصلبان والأعلام مشتبكة على رأسه، وقد حمل كردوس من الروم على ميمنة المسلمين فصبروا لهم صبر الكرام، ثم حمل كردوس آخر، فلله در الفضل بن العباس وأخيه عبيد الله وأولاد عقيل وعبد الله

بن جعفر وسادات بني هاشم فقد قاتلوا قتالًا شديدًا وأبلوا بلاءً حسنًا، وتقدم الفضل إلى حامل الصليب وطعنه في صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره وسقط الصليب منكسًا إلى الأرض، فنظر إليه «البطليوس» فأيقن بالهلاك وهمَّ أن يأخذه، فلم يجد لذلك من سبيل.

فأحاط به المسلمون وصار الفضل وسادات بني هاشم يذبون ويرجِّعون الروم عن الصليب، ولما رأى الفضل ازدحام النصارى والروم حمل عليهم حملة منكرة وأسعفه بنو عمه بالحملة والأمراء فقهروا الروم وقتلوا منهم جماعة، وازدحم المسلمون على الصليب يريدون أخذه. فقال لهم الفضل: إنَّه لي دونكم، ثم عطف عليه ومال في ركابه وأخذ الصليب وكرَّ راجعًا إلى المسلمين وسلمه لعبد الله يسلمه لعبده مقبل، وكان راكبًا مع المسلمين، فأخذه ومضى إلى خيمته. وحمل الفضل بن العباس ثانيًا وحملت الأمراء واشتد القتال وعظم النزال وسالت الدماء وكثر العرق وازورَّت الحدق. ولما رأى عدو الله «البطليوس» ذلك حمل على المسلمين ومعه طائفة من البطارقة نحو

خمسة آلاف وكانوا على جناح الميسرة فقتلوا من المسلمين جماعة وجرحوا جماعة وصبروا لهم صبر الكرام.

هذا والفضل - رضي الله عنه - تارة يكر في الميمنة وتارة يكر في الميسرة وحمل الأمراء جميعهم، فلله در القعقاع بن عمرو التميمي والمسيب بن نجبة الفزاري والبراء بن عازب ومعاذ بن جبل وزيد الخيل لقد قاتلوا قتالًا شديدًا حتى بقي الدم على دروعهم كقطع أكباد الإبل، وتوسط المسلمون كتيبة منهم، فبرز بطريق عظيم الخلقة كأنه برج فحمل عليه سفينة مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأراد أن يضربه وسطا عليه، وإذا بضربة أتته من خلفه فأردته عن جواده وسقط والرمح مشتبك في أضلاعه، وهو ملقى على الأرض ونزل جماعة وأخذوا سلبه. فتأملنا من الذي ضرب البطريق فإذا هو زياد بن أبي سفيان - رضي الله عنه -. فلما رأى الروم ذلك حملوا حملة منكرة ولم يزالوا في قتال ونزال حتى غابت الشمس وافترق الجمعان، وقد قتل من المسلمين نحو مائتين وخمسين ختم الله لهم بالشهادة. وأوقد المسلمون النيران وأتوا إلى

مكان المعركة وميزوا القتلى، فلما رأى الأمراء ما حل بهم وبأولادهم بكوا وقالوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال الراوي: وقتل من المشركين نحو ألفين وخمسمائة، وقتل من خيارهم وعظمائهم نحو عشرين من أرباب الدولة وحاشية الملك أصحاب السرير، فلما رأى «البطليوس» ذلك صعب عليه وكبر لديه وجلس في سرادقه وحوله أكابر دولته من حجابه ونوابه وقدموا له الطعام والشراب فامتنع عن ذلك، ثم التفت إلى حجابه وبطارقته ووبَّخهم توبيخًا عظيمًا، وقال: مثلكم لا يصلح لخدمة الملوك فما هذا الخوف والفشل الذي دخل في قلوبكم وتريدون أن تصيروا معرة عند الملوك بفعالكم هذه! فقالوا: أيها الملك إن هذا اليوم ما أخذنا فيه أهبتنا، وما كنَّا نظنُّ أن العرب فيهم هذه الشجاعة! فقال: وما عندكم من الرأي، أترضون بالعار والذل ولاسيما وقد أخذ الصليب من أيديكم وخذلتموه؟! فقالوا: أيها الملك سوف ترى منَّا ما يسرك في غد! نكمن لهم كمينًا ونخرج لهم ونقاتلهم ويخرج عليهم الكمين، ونأمر جماعة يسلسلون أنفسهم وهم الرماة كعادة الروم أن يفعلوا ونقاتلهم ولا نمكنهم من مدينتنا ولو

قتلنا عن آخرنا. فاستوثق الملك منهم بقولهم، ثم كتب كتابًا وأرسله تحت الليل إلى بطريقي طنجة وقلعة الأبراج يسألهم النجدة وكانوا بطارقة شدادًا كل بطريق تحت يده عشرة آلاف بطريق من حملة السلاح، فلما ورد عليهم الكتاب جهزوا النجدة والأهبة.

وأصبح المسلمون فصلوا صلاة الصبح وتبادروا إلى خيولهم فركبوها، ثم صفوا صفوفهم ورتبوا مواقفهم كما ذكرنا أولًا، وسار الأمير عياض يحرِّض الناس وقد جعل في مكانه المغيرة بن شعبة، وعطف على أصحاب الرايات وقال لهم: أطلقوا الأعنة وقوِّموا الأسنة، وإذا لقيتم العدو فاحملوا حملة واحدة ولا تخافوا ولا ترهبوا. وركب الأمراء كاليوم الأول ولم يركبوا حتى دفنوا شهداءهم في ثيابهم وعمائمهم. فما شعرنا إلا والروم قد أقبلوا علينا ورطنوا بلغتهم علينا وابتدر منهم خمسة آلاف فنزلوا عن خيولهم وأرسلوها مع غلمانهم وحفروا لهم حفائر إلى أوساطهم ووضعوا غرائر النشاب - أي الصناديق بين أيديهم - وأقسموا بالمسيح لا يزولون ولو قتلوا عن آخرهم وكانوا ثلاثة صفوف.

عن عبد يغوث وكان من أصحاب الرايات قال: بينما نحن نتأهب للحرب إذا بالروم قد حملوا علينا حملة واحدة وحملت ميمنتنا واختلط القلب بالقلب ورمت المسلسلة بنشابها فكان يخرج منهم عشرة آلاف سهم كأنها تخرج من كبد قوس واحدة كالجراد المنتشر أو السيل المنحدر فجرحت رجالًا وقتلت أبطالًا وولت خيل العرب نافرة، وصبرت جماعة من الأمراء، وحمل الفضل بن العباس وأخوه وسادات بني هاشم، وكذلك زياد بن أبي سفيان وجميع الأمراء واقتتل الفريقان قتالًا شديدًا، وفشا القتل في المسلمين، وثبت القوم لقتال العرب، وعدو الله «البطليوس» تارة يكر في الميمنة وتارة يكون في الميسرة وتارة في القلب وحوله كتائب المشركين. فصبرنا صبر الكرام ووطنًّا أنفسنا على الموت والأمراء يحرِّضون على القتال، وقد قتل من الفريقين طائفة إلا أن القتل لم يبن في المشركين لكثرتهم، ولم نظن أنَّ للقوم كمينًا إذ خرج كمين من خلفنا والمسلسلة من بين أيدينا وأحاطوا بنا وصرنا بينهم كالشامة البيضاء في جلد البعير الأسود، وقتل جماعة من السادة والأمراء وأخلاط الناس، فلله در سادات بني هاشم وأبان بن عثمان بن عفان. فلقد قاتل أصحاب الرايات براياتهم، وقاتل عدو الله في القلب وأنكى في المسلمين وقتل رجالًا وجندل

أبطالًا، وكلما طلبه فارس من المسلمين لم يجده إلا وهو قد صار في وسط الروم. فعندها تقدم القعقاع والمسيب بن نجبة الفزاري، وقالا: قربوا الجمال في وجوه القوم يا وجوه العرب! فاستاقوا الإبل وجعلوها بين أيديهم تلقى النشاب، وحملوا على المسلسلة وداسوهم بالإبل وسنابك الخيل، وأقبلت الرجال والرماة يقتلونهم حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة. هذا والروم على حالهم، فلما رأى عدو الله ما حل بقومه من فعل المسلمين بهم ازدادوا طغيانًا ولم يزالوا كذلك حتى غابت الشمس، ثم أنزل الله نصره على المسلمين فتظاهروا عليهم، وتقدم جعفر بن عقيل إلى كتيبة من الروم وغاص في أوساطهم وطعن البطريق المقدم عليهم فقتله، فتكاثرت الروم عليه فقتلوه، وكذلك فعل أخوه علي فقتل منهم جماعة فقتلوه، وكذلك زيد بن زياد فقتل منهم جماعة فقتلوه، وعظم النزال واشتد القتال وألجؤوهم إلى ورائهم، فلما رأت الأمراء والسادات وبنو هاشم ما حل بهم تواثبوا كالأسود الضارية وحملوا على الروم وألجؤوهم إلى الأبواب، واقتتلوا قتالًا شديدًا عند باب الجبل والباب البحري.

قال الراوي: وكانت ليلة لم ير الصحابة - رضي الله عنهم - مثلها، فقد قتلوا ألوفًا وقُتل منهم جماعة بظاهر البلد نحو خمسمائة وعشرين من باب توما إلى باب قندوس ختم الله لهم بالشهادة، وكان شعار المسلمين تلك الليلة ينادون: يا محمد يا محمد يا نصر الله انزل وقتل جماعة من المسلمين عند الأبواب وعظم النزال، وكان يسمع ضرب السيوف على الدرق كالرعد وبريق السيوف كالبرق ولمعان الأسنة كالكواكب، وأحدق المسلمون بالروم وعدو الله يحمي قومه تارة يكون عند باب قندوس وتارة يكون عند باب توما في جماعة من قومه حتى دخل الروم جميعهم ولم يبق إلا من انقطع من قومه أو كبا به جواده ولم يزالوا كذلك حتى طلع الفجر فعلوا على الأسوار وضربوا بالنواقيس والبوقات والقرون وغلقوا الأبواب ورموا الأقفال.

فلما صلى المسلمون صلاة الصبح وأتوا إلى موضع المعركة وتفقدوا من قتل منهم وبكوا بكاءً شديدًا وكان أعظم الناس حزنًا الأمير عياض لأجل من قتل تحت رايته، وكان أكثر الشهداء الأعيان من قريش وبني هاشم وبني المطلب وبني نوفل وبني عبد شمس، فلما رأى مسلم بن عقيل إخوته وما حل

بهم، ولما رأى الفضل بن العباس وعبد الله بن جعفر وسادات بني هاشم ما حل ببني عمهم نزلوا عن خيولهم وعانقوا شهداءهم واسترجعوا في مصابهم، فعند ذلك أنشد همام بن جرير يقول:

يا عين ابكي لا تملّي البكى — سحّي دموعًا مثل سكب الغمام
وابكي على السادات من هاشم — وعصبة المختار خير الأنام
نوحي على الليث ابن عمّ النبي — هو جعفر المشكور ليث همام
وابكي على الشهداء لا تغفلي — ما لاح برق أو تغنى حمام
فلا لقي «البطليوس» خيرًا ولا — أجناده أهل الصليب اللئام
لنأخذنّ الثأر يا قومنا — بطعن خطى وحدّ الحسام

ووارى المسلمون شهداءهم، ثم إنّ الأمير عياضًا فرَّق الأمراء على الأبواب فنزل القعقاع بن عمرو التميمي والمسيب بن نجبة الفزاري وأمثالهم من الأمراء بألفي فارس على باب الجبل، والمغيرة بن شعبة وأبو لبابة والمهلب الطائي ونظراؤهم من الأمراء بألفي فارس عند باب توما. وعبى القوم آلات الحصار ورتبوها على الأسوار وأقاموا مدة شهر لا يقاتل بعضهم بعضًا، بل كل يوم يركب «البطليوس» لعنه الله جواده المتقدم ذكره ويلبس لأمة حربه ويطلع

بالجواد على أعلى السور وحوله المشاة من خلفه وقدامه وبأيديهم السيوف المحددة والدرق والدبابيس والأطيار المذهبة والقسي والنشاب، وكان عرض السور يمشي عليه خيالان متكاتفان باللبس الكامل.

هذا ما جرى لهؤلاء، وأما خالد فإنه أرسل عبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر إلى الفيوم وجرى بينهم وقعات وحروب اختصرنا ذكرها خوف الإطالة، فإن المقصود الذي عليه مدار هذا الكتاب هو فتح البهنسا وما وقع فيها والله أعلم، ثم إنهم ساروا حتى وصلوا إلى مدينة الفيوم وحاصروها أيامًا قلائل، ثم فتحوها وفتحوا الفيوم في أقل من شهر وأخذوا الأموال والغنائم ورجعوا إلى خالد - رضي الله عنه - وكان مقيمًا بالنورية كما ذكرنا. وأما أبو ذر الغفاري وأبو هريرة الدوسي وذو الكلاع الحميري ومالك الأشتر النخعي - رضي الله عنهم - فإنهم لما ضربوا رقاب القوم كما ذكرنا حاصروا القلعة نحو عشرين يومًا واقتتلوا قتالًا شديدًا.

عن أبي المنهال وكان من أصحاب مالك الأشتر قال: بينما نحن نحاصر القلعة، وقد تظاهروا علينا إذ نحن بغبرة وقت الفجر، وكانت ليلة مقمرة

فلاحت لنا خيل وقعقعة لجم فتبادرنا إلى خيولنا فركبناها، واتضح النهار وبان، وإذا عشرون صليبًا تحت كل صليب ألف فارس، وكان السبب في ذلك بطريق «طحا ذات الأعمدة» وبطريق قلعة «ذات الأبراج» وما حولهم لما بلغهم كتاب «البطليوس» تجهزوا بأنفسهم وجمعوا ما حولهم من الروم والنصارى وخرجوا أول الليل خوفًا من العرب! فما أصبحوا إلا على القلعة والنيل كان في أول زيادته، والمسلمون قد أخذوا المعابر والقناطر التي على البحر اليوسفي فقطعوها، وساروا حتى نزلوا على القلعة وكان بلغهم حصارها، فلم يشعر المسلمون إلا بهم وقد أقبلوا وهجموا عليهم وأتوا إلى نحو باب المدينة الشرقي فوجدوا الأمير زيادًا وأصحابه هناك.

قال مالك الأشتر: يا وجوه العرب اجعلوا البحر خلف ظهوركم وقاتلوا أعداءكم واستعينوا بخالقكم! هذا والروم صاحوا وطمطموا بلغتهم ورطنوا من أعلى السور، وكذلك أهل القلعة دقوا الطبول وضربوا بالنواقيس فلم يزالوا على المسلمين متقابلين وجاءت كتيبة من الروم إلى جانب البحر كما ذكرنا نحو ثلاثة آلاف، وكان الأمير زياد – رضي الله عنه – في نحو مائتين من أصحاب

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فحملوا عليه وصبروا لهم صبر الكرام، وقتل الأمير زياد رحمه الله تعالى وقتل معه جماعة من المسلمين ختم الله لهم بالشهادة وركب بقية المسلمين وقاتلوا قتالًا شديدًا. فسمع المسلمون وهم حول المدينة فأتوا إلى الجانب الشرقي فوجدوا السيوف مجذوبة والرايات مرفوعة، وقد قتل جماعة من المسلمين على شاطئ البحر نحو أربعين رجلًا فصاحت: ما فعلوا بنا؟! فعندها هجم القعقاع بفرسه البحر، وقال: «بسم الله وعلى بركة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! اللهم إنك تعلم أننا أفضل من بني إسرائيل عندك، وقد فَرَقْتَ لهم البحر» فسار ولم تبتل قوائم فرسه وانحدر إلى جانب القلعة، وكانت بقرب البحر فاقتحم البحر خلفه نحو من ألفي فارس إلى أن طلعوا إلى البر الشرقي، واقتتلوا قتالًا شديدًا.

قال: فبينما نحن في أشد القتال إذا بغبرة قد لاحت وانكشفت عن ألف فارس يقدمهم رفاعة بن زهير المحاربي وهم من أصحاب قيس بن الحرث وكانوا في بلد تسمى «بردوها» وكانوا صالحوا أهلها فجاءهم رجل من المعاهدين وأخبرهم بمسير أهل «طحا ذات الأعمدة» وصاحب «قلعة الأبراج»

لقتال المسلمين وعلموا أن البحر حاجز بينهم وبين أصحابهم فأتوا إلى الأمير قيس بن الحرث واستأذنوه حتى وصلوا وهم في القتال كما ذكرنا، فلما رأوا القوم كبروا فأجابوهم بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير. ثم حملوا عليهم وقاتلوهم قتالًا شديدًا، وكان الفضل بن العباس وزياد بن أبي سفيان ومسلم بن عقيل في جملة من عبر إلى البر الشرقي، فعندها وثب القعقاع بن عمرو التميمي على بطريق القلعة فقتله وكذلك الفضل بن العباس وثب على بطريق «طحا» فقتله وزياد بن أبي سفيان على بطريق عظيم فقتله!

فلما رأى الروم ذلك ولَّوا الأدبار وركنوا إلى الفرار، وهرب منهم جماعة فألجؤوهم إلى البحر فغرق منهم جماعة وأسر منهم نحو من ثلاثة آلاف وأتوا بهم إلى نحو السور قريبًا منه وضربوا أعناقهم، و«البطليوس» ينظر إليهم هو وأصحابه. ودفن الأمير زياد إلى جانب البحر تحت جدران القلعة، ورجع المسلمون ونصبوا الجسر بالأخشاب والأحجار تتساقط عليهم وهم لا يفكرون حتى عبروا إلى الجانب الغربي بأجمعهم واشتد الحصار وأقام المسلمون محاصرين مدينة البهنسا تسعة أشهر. وكان للمدينة باب سري تحت

الأرض من تحت باب الجبل من عند تل هناك يظن من رآه أنه مغارة أو حفر في الجبل وكان يخرج منه عيونه ومن يأتيه بالطعام وغيره سرًا تحت ظلام الليل إلى ذلك المكان ويخرج الرجل وفرسه على يده إلى ظاهر السرب فلأجل هذا لا يعجزهم الحصار وكان إذا احتاج إلى أمر مهم يخرج من يثق به من ذلك المكان ويوقد الشمع والفوانيس ليلًا ويخرج من يختار من ذلك الباب، وكان الملوك القدماء ما وضعوا ذلك الباب إلا لأجل الحصار وكانت عيونه تخرج وتأتيه بالأخبار، وكان خالد بن الوليد - رضي الله عنه - لما فتح الفيوم صارت الميرة والعلوفة والأرز والعسل وغير ذلك تأتي للصحابة من الفيوم، ومن الوجه البحري تأتي إليهم الميرة.

فأرسل الأمير عياض - رضي الله عنه - الأمير مياس بن حام وأرسل معه مائتين من المسلمين ومعهم جمال وبغال يأتونهم بما ذكرنا، وكان خالد قد أرسل يعلمهم بذلك وأنهم يرسلون إلى الفيوم ويأخذون ما يحتاجون إليه، وسار مياس حتى وصل الفيوم، وأوسقوا الجمال والبغال وأرادوا الرجوع إلى أرض البهنسا حتى وصلوا إلى دير هناك في الجبل. وأما عيون «البطليوس»

فأخبروه بذلك فاستدعى ببطريق من أصحاب السرير اسمه ميخائيل بن بطرس وكان معروفًا بالشدة والبراعة وأمره أن يأخذ معه ألفًا من الروم وينطلقوا إلى طريق الفيوم ويكمنوا لهم في الدير، ثم يخرجوا عليهم فخرجوا من باب السرب واحدًا بعد واحد في ظلام الليل وساروا حتى وصلوا إلى الدير وكمنوا هناك حتى رأوا المسلمين فخرجوا عليهم فالتقى الجمعان واصطدم الفريقان وقاتل المسلمون قتالًا شديدًا.

قال شداد بن أوس، وكان في خيل مياس: لما التقى الجمعان، وأحاطت بنا أعداء الله ظننا أن المحشر من ذلك المكان ووطنَّا أنفسنا على الموت، وقاتل الأمير مياس بعد أن سلَّم الراية لولده منيع حتى قتل، ثم قاتل من بعده منيع حتى قتل! ولم تكن غير ساعة حتى قتل من المسلمين نحو مائة فارس وأسروا الباقين! وكان في القوم عبد الله بن أنيس الجهني - رضي الله عنه - أحد سعاة النبي - صلى الله عليه وسلم -، فلما رأى ذلك خرج كالريح الهبوب وقام يجري وكان قد دعا له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو وعمرو بن أمية الضمري بالقوة والبركة في المشي، وكانا لا تدركهما الخيل العتاق ولا النجب

السوابق فسار حتى أشرف على العسكر وصاح: النفير النفير اركبوا يا مسلمون. فتواثبت الفرسان إليه وسألوه فقص عليهم القصة فتواثب المسلمون إلى خيولهم فركبوها وكلٌّ يقول أنا أمضي فعندها استدعى الأمير عياض بعبد الله بن جعفر الطيار أخي علي بن أبي طالب وضم إليه ألف فارس من الصحابة – رضي الله عنهم – من أهل الشدة وساروا أول الليل ومعهم رجل من المعاهدين يدلهم إلى أن قربوا من قرية هناك بسفح الجبل فكمنوا هناك إلى أن جن الليل إذ سمعوا حوافر الخيل فتواثبوا إلى خيولهم فركبوها، وإذا بالروم أقبلوا عليهم والأسارى معهم موثقون بالحبال على ظهور خيولهم، وكانت ليلة مقمرة فصاحت المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وحمل القوم واقتتلوا قتالًا شديدًا فعندها صاح عبد الله بن جعفر – رضي الله عنه –: يا قوم أيعجز أحدكم عن خصمه؟ فتواثب الأمراء والسادات – رضي الله عنهم – يقتلون ويأسرون وبادر عبد الله بن جعفر إلى مقدم الجيش، وكان عليه درع مصفح فطعنه في صدره طعنة قرشية هاشمية فأطلع السنان يلمع من ظهره وعجل الله بروحه إلى النار.

فلما رأى الروم ذلك انهزموا وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون، فما أصبح الصباح حتى قتل منهم نحو خمسمائة وأسروا الباقين وخلَّصوا المسلمين من الأسر، وغنموا سلاح الروم وأموالهم وخيولهم، وترك عبد الله بن جعفر الأسارى وخمسمائة من المسلمين عند القرية وأمرهم أن لا يبرحوا حتى يأتيهم، وأقر عليهم عبد الله بن معقل وساروا حتى أتوا إلى محل المعركة ووجدوا القتلى وعندهم نصارى من المعاهدين يبكون وحلفوا لهم أن لا علم لهم بذلك، فنزلوا عن خيولهم وأخرجوا لهم زادًا فأكلوا وواروا شهدائهم، وكر عبد الله راجعًا إلى أصحابه وحملوا رؤوس القتلى ورأس عدو الله ميخائيل أمامهم وجلبوا خيولهم وساقوا الأسارى حتى وصلوا إلى العسكر بالميرة والعلوفة ومعهم من العسل والسليط.

قال: وأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وأجابهم المسلمون إلى مثل ذلك، وانقلب العسكر والروم على الأسوار ينظرون ما الخبر فرأوا تلك الرؤوس على رؤوس الرماح وعدو الله ميخائيل أمامهم فصعب عليهم وكبر لديهم، ولطموا على وجوههم، وذهبوا إلى »البطليوس«

وأعلموه بذلك فصعب عليه واستدعى بجواده فركبه وصعد على السور حتى أشرف على المسلمين، فلما رأى ذلك عظم عليه، وقال: ما هؤلاء إنس وإنما هم جن! فلما رأى المسلمون «البطليوس» أتوا إلى الأمير فأعلموه بذلك فركب الأمراء معه حتى أتى إلى تل هناك عال مقابل باب قندوس واستدعى بالأسارى وعرض عليهم الإسلام فأبوا فضربوا رقابهم والروم ينظرون إلى ذلك فغضب عند ذلك «البطليوس» غضبًا شديدًا وحمل همًّا عظيمًا.

ثم إن عدو الله استشار أصحابه فيما يفعل وأنه يريد الخروج بنفسه والكبسة عليهم. فنهض إليه بطريق اسمه «كراكر»، وكان فارسًا شديدًا، وقال: أنا أيها الملك أكفيك هذا الهمّ وأكبس عليهم لعلي أن أنال منهم منالًا، وأريد معي جماعة شدادًا. فقال الملك: خذ من شئت! فانتدب معه عشرة بطارقة تحت يد كل بطريق ألف وجاؤوا إلى كنيستهم وفتحوا الإنجيل في وجوههم، وساروا إلى أن وصلوا إلى الأبواب و«البطليوس» يحرضهم ويوصيهم بالهجمة عليهم ماداموا على غفلة. ثم أمر الحراس بفتح الباب لهم وهو باب قندوس وكانوا ألف فارس بوابين على الباب، وكان للباب ثلاثة أبراج بين كل برجين باب

وشراريف وخرجوا وهم مستعدون لذلك، والمسلمون على غفلة مما دبر القوم لا يدرون ما يراد بهم، وكان على حرس المسلمين تلك الليلة من جهة باب قندوس زائد بن ثابت وعبيد الله بن عباس وعبد الله بن معقل والبراء بن عازب ومالك الأشتر وذو الكلاع الحميري.

عن مالك الأشتر، قال: بينما نحن نسهر تلك الليلة والمسلمون قد هجعوا في مراقدهم من شدة البرد وكثرة السهر ووضعوا أسلحتهم، ومنهم من له ورد يقرؤه ومنهم من يصلي إذ رأينا فتح الباب وخرجوا كالسلاهب وبأيديهم الفوانيس ومشاعل النار وحملوا على الجيش فتبادرنا إليهم وصحنا: النفير دهينا، يا مسلمون ثوروا فقد غدركم القوم! فلما سمع المسلمون الصياح تبادروا وثاروا من مضاجعهم كالأسود الضارية: هذا يأخذ سيفه، وهذا يأخذ رمحه، وهذا عاري الجسد لم يمهل حتى يلبس ثيابه، وهذا يشد وسطه بمئزره، وهذا عليه قميص واحد، وثاروا في صدور الرجال، هذا وعدو الله قد عطف على جماعة من المسلمين قبل أن ينتبهوا ووضع السيف في عراضهم فما أفاق بعض القوم إلا والسيف قد أطاح رأس هذا وقطع زند هذا وطعن نحر هذا

وهكذا، وكثر الصياح، وعظم البلاء، وكثر القتال، وعدو الله «كراكر» عليه ديباجة حمراء مقصبة بالذهب تلمع من فوق الدروع وعلى رأسه بيضة عليها جوهرة تضيء كالكواكب وهو يهدر كالجمل الهائج، وهو يرطن بلغته وخلفه جماعة، والذين على الأسوار يصيحون ويزعقون بشعارهم ويضربون بقرونهم وبوقاتهم وطبولهم وأوقدوا مشاعلهم من أعلى السور حتى بقي مثل النهار!

هذا وقد ثارت الأمراء أصحاب النجدة وذوو المروءات واعتقلوا بسيوفهم وركبوا خيولهم فمنهم من ركب جواده عريانًا، ومنهم من ركب بسرج بغير لجام، ومنهم من أسرع ماشيًا، فلله در الفضل بن العباس وابن عمه الفضل بن أبي لهب وعبد الله بن جعفر وزياد بن أبي سفيان والقعقاع بن عمرو ومثل هؤلاء السادات - رضي الله عنهم - لقد قاتلوا قتالًا شديدًا، وأبلوا بلاءً عظيمًا، وطعن جماعة من المسلمين وجرح جماعة منهم. وأما الذين هاجموهم في أول الوقعة فقتل منهم جماعة نحو المائتين وثمانين رجلًا واقتتل الناس قتالًا شديدًا، وأقبل الفضل بن العباس إلى البطريق «كراكر» -لعنه الله- فضربه بالسيف على عاتقه الأيمن فأطلع السنان يلمع من عاتقه الأيسر، فوقع يخور في دمه، وأتبعه بالحملة

ابن عمه عبد الله بن جعفر فقتل بطريقًا آخر؛ ولم تكن إلا ساعة وقد جاءتهم بقية الأمراء من على أبوابهم وتركوا مكانهم من يثقون به وساروا إلى أن وصلوا إليهم وحملوا عليهم حملة منكرة وقتلوا منهم نحوًا من ثلاثة آلاف من الروم والنصارى، فلما رأى الروم ذلك فروا نحو الباب وتبعهم المسلمون، فخرج كردوس عظيم من الروم وحموا المنهزمين، وأسر المسلمون من الروم نحو ألف ومائتين وخمسين وأتوا إلى مكان المعركة يتفقدون من قتل منهم. فإذا هم أربعمائة وخمسة وثلاثون رجلًا ختم الله لهم بالشهادة، فلما رأى المسلمون ذلك شقَّ عليهم وكبر لديهم، وأسرعوا تحت الليل وجمعوا الشهداء ودفنوهم في ثيابهم ودمائهم، في مكان يعرف بـ «البطحى» عند مجرى الحصى ومنقع السيل، فدفنوهم هناك كل اثنين وكل ثلاثة وكل أربعة وكل خمسة في قبر، وقدَّموا عليهم أهل السابقة وأصحاب القرآن، وكان يعرف ذلك المكان بقبور الشهداء الأخيار.

قال الواقدي: ما حدثت في هذا الكتاب إلا على قاعدة الصدق وأذكر ما وقع من الأمور وحدث عن أصحاب التواريخ وثقات المحدثين من أصحاب

السير ومن سماع كلامه كالدر، لم يجمع أحد مثله من أهل السير لما فيه من الأمثال والعجائب والأخبار الصحيحة المنقولة عن ثقات المحدثين يتلذذ بذلك المستمعون.

عن أبي لبابة بن المنذر وكان من أصحاب الرايات قال: ولما وارينا الشهداء ورجعنا إلى خيامنا وعدو الله «البطليوس» قد أغلق الباب وألقى الأقفال وعلوا على الأسوار. ولما رجع المنهزمون إلى «البطليوس» صعب عليه وكبر لديه وأظلمت الدنيا في وجهه وحمل همًّا عظيمًا على من قتل من بطارقته وجماعته ونوى المكايد والمصائب للمسلمين. وأما الصحابة - رضي الله عنهم - فإنهم اجتمعوا عند الأمير وتذاكروا ما حصل للمسلمين من «البطليوس» -لعنه الله- ، واتفق رأيهم أن يرسلوا إلى الأمير خالد بن الوليد - رضي الله عنه - ويسألوه أن يسير إليهم بنفسه وبمن معه وكتب كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عياض بن غنم إلى الأمير خالد بن الوليد، اعلم أيها الأمير أننا فتحنا الشام والعراق واليمن والحجاز ولم نجد في الترك والروم والفرس والديلم ألعن من هذا الملعون بطريق البهنسا «البطليوس»، ولا أكثر منه خداعًا ولا مكرًا

ولا حيلة، وأنها مدينة آهلة بالخيل حصينة بالرجال، وقد خدعونا مرارًا وقد قتلوا منا رجالًا، فأنجدنا بنفسك وبمن معك من المسلمين، والسلام ورحمة الله وبركاته عليكم، وطوى الكتاب وسلمه إلى عبد الله بن المنذر فأخذه وأتى به إلى الأمير خالد فوجده نازلًا على النورية، فسلم عليه ودفع له الكتاب، فلما قرأه وفهم ما فيه استرجع وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم التفت إلى عبد الله وقال: قل للأمير عياض إن الأمير خالدًا قادم عليك برجال وأي رجال! والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين من المهاجرين والأنصار. فرجع عبد الله ثاني يوم إلى البهنسا ورد الكتاب إلى الأمير عياض بن غنم.

ثم استدعى الأمير خالد بأبي عبد الله الزبير وضم إليه ثلثمائة فارس وأمرهم بالمسير إلى البهنسا وقال لهم: إذا وصلتم إلى أرض البهنسا فأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير. فسار الزبير - رضي الله عنه - فلما بعدوا دعا بالمقداد بن الأسود وضرار بن الأزور ودفع لهما مائتي فارس وأمرهما أن يسيرا على أثره وقال لهما: لا تنزلا حتى يدخل الزبير وابنه، ثم دعا بعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر - رضي الله عنهم - وضم إليهما مائتي فارس

وأمرهما بالمسير على أثر المقداد، ثم استدعى بسعيد بن زياد بن عمرو بن نوفل خال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعقبة بن عامر الفهري ودفع لهما مائتي فارس وأمرهما أن يسيرا، وبات الأمير خالد تلك الليلة، ولما أصبح صلى وسار معه بقية الأمراء من المهاجرين والأنصار الأخيار – رضي الله عنهم –.

قال الراوي: وسار الزبير – رضي الله عنه – بمن معه حتى أشرف على البهنسا فكبر وكبر معه المسلمون، وأشرفت الروم على أبواب المدينة ينظرون إليهم، فما لبثوا غير قليل حتى أشرف عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر – رضي الله عنهم – وكبر وكبرت المسلمون. ولم يزل كل أمير ينزل بجماعته حتى تكاملوا وتأخر الأمير خالد وبقية الأمراء الذين معه.

ولما بات أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصبحوا، قال ضرار بن الأزور والأمراء للأمير غنم: أظنكم أنتم المحاصرون وأعداؤكم في أكل وشرب فما هذا القعود؟ ثم رجعوا للأبواب، وتراموا بالسهام والمقاليع واقتتلوا قتالًا شديدًا فاشتدت حمية عتيد الروم، وجمع الملعون البطارقة من ذوي الشدة والبأس، وكان هو فارسًا شديدًا وبطلًا كما ذكرنا، وفتح باب الجبل

وخرج منه كأنه شعلة نار على جرائد الخيل والرماة بين يديه يرمون بالنشاب والمجانيق من أعلى الأبراج، واقتتلوا قتالًا شديدًا وجرح من المسلمين جماعة، وكانت مقتلة عظيمة وبقية الأمراء لا يعلمون وأنكى من المسلمين جماعة. فعندها ضجت الأمراء أصحاب الرايات وأقبل علج عظيم من البطارقة وطلب البراز، فبرز إليه المغيرة بن شعبة، فحمل عليه البطريق واقتتلا قتالًا شديدًا، فضربه المغيرة بالسيف فطاح من يده، وبادر عدو الله إلى المغيرة ليضربه، وإذا بفارس قد أقبل بيده سيف مجذوب فلوح به إلى المغيرة وإذا هو عبد الرحمن بن أبي بكر فأخذه المغيرة وضرب به البطريق فحاد عنها وقرب من المغيرة وتجاذبا، وكلما أراد المغيرة أن يسطو على العلج يمانع عن نفسه.

ونظر ضرار بن الأزور إلى ذلك فترجل عن جواده وسعى بين الصفوف حتى قرب من البطريق وضربه في حزامه فقطعه، فسقط عدو الله وهو جاذب المغيرة إلى الأرض فعندها تكاثرت الروم على ضرار والمغيرة فأرادوا قتلهما، وإذا بثلاثة فوارس قد أقبلوا واخترقوا الصفوف أحدهم عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، والثاني عبد الله بن عمر بن الخطاب، والثالث المقداد بن الأسود

الكندي - رضي الله عنهم -، فأزالوهم عن مراكزهم وقتلوا ثلاثة من الروم، وفرَّقوا الكتائب عنهم وضرب ضرار البطريق فقتله. ومال عبد الرحمن بن أبي بكر وركب ضرار جوادًا من خيل المقتولين وأخذوا الأسلاب، هذا وعدو الله «البطليوس» تارة يكر في الميمنة وتارة يكر في الميسرة وطلب البراز، فبرز إليه المقداد بن الأسود الكندي - رضي الله عنه - وتعاركا وتجاولا وتطاعنا. قال المقداد بن الأسود: قاتلت ملوكًا وفتحت قلاعًا ولاقيت حروبًا في الجاهلية والإسلام، فلم أر أخدع من «البطليوس» ولا أشد بأسًا ولا أصعب مراسًا منه، فتقاتلا حتى كلَّ الجوادان والتفت إليَّ وقال: ما أجرأ فرسك كيف تقاتل عليه وهو بثلاثة أرجل؟! قال المقداد: فمن شفقتي على جوادي طأطأت رأسي لأنظر إلى قوائمه فضربني بالسيف ضربة قوية فقطعت الخوذة والرفادة وأثرت قليلًا في رأسي، فظنَّ الملعون أن خصمه قد قتل، فلوى عنان فرسه، فاستيقظ المقداد وتبعه فساق جواده المتقدم ذكره وأحاط به أصحابه.

فبينما الناس في أشد القتال إذ أقبل الأمير خالد بن الوليد - رضي الله عنه - ومعه الأمراء المتقدم ذكرهم وأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير

النذير وفي أوائل القوم خالد. قال الراوي: ثم إن خالدًا – رضي الله عنه – حمل بمن معه واقتتلوا قتالًا شديدًا، وقاتل «البطليوس» -لعنه الله- قتالًا شديدًا، وقتل رجالًا وجندل أبطالًا، فعندها حملت الأمراء وأصحاب الرايات وذو المروءات واقتتلوا بين الجبل والباب قريب التل الأحمر قتالًا شديدًا، وعطف خالد على «البطليوس» وصال عليه، وكلما مر إلى الميسرة يراوغه إلى الميمنة ومن الميمنة إلى الميسرة، فعندها عطف خالد عليه وحازه بين الصفوف وحمل عليه، فعندها فر إلى القلب وأحاط به أصحابه وقومه ووضعت الأمراء السيوف فيهم، وتبعه الأمير خالد، فساق جواده إلى الباب واقتحمه، وتبعه قومه وانهزموا إلى الباب ودخلوه، وتبعهم المسلمون واقتتلوا عند الباب، وقتل من الروم نحو أربعة آلاف ودخلوا الباب وأغلقوه وأوثقوه بالأقفال وعلوا على الأسوار، وأسر المسلمون نحو ألف وخمسمائة فعرضوهم على الأمير خالد، وكان فيهم من كبار البطارقة فعرض عليهم الإسلام فامتنعوا فأمر بضرب رقابهم وافتقد المسلمون أصحابهم، فإذا قد قتل منهم مائتان وثمانون رجلًا ختم الله لهم بالشهادة.

قال الواقدي: هذا ما جرى لهؤلاء، وأما عدو الله «البطليوس»، فإنه حمل همًّا وحصل له ما لا ينبغي شرحه، وأمر بجمع البطارقة، فلما اجتمعوا شكا لهم أمر العرب وما لقوا من الحرب، وقال لهم: فما الرأي عندكم؟ فقالوا: كلنا بين يديك فإذا أمرتنا بالقتال قاتلنا على سور بلدنا! قال: سأدبر لكم أمرًا وهو تدبير من خاض الحروب وعرفها، ثم أمر باجتماع الناس خاصتهم وعامتهم، فاجتمعوا إليه إلا من بقي على الأبواب خوفًا من المسلمين.

فلما تكاملوا واجتمعوا قال: إني عزمت أن أهجم على القوم هذه الليلة وأكبسهم في أماكنهم والليل مدلهم، وأنتم أعرف بمسالك البلد من غيركم، فلا يبقى منكم أحد إلا ويتأهب ويخرج معي من بابه ونكبس القوم، وأخرج أنا بنفسي ومن معي من باب توما، وأرجو وصولي إلى مسرتي وإلا أموت بحسرتي، وأبيدهم أولا بأول لعلي أن أصل إلى أميرهم فآخذه أسيرًا وأبلغ مقصدي. قالوا: حبًا وكرامة، ثم بعث فرقة إلى باب الجبل، وفرقة إلى باب قندوس، وفرقة إلى الباب الشرقي، وانتدب معه سادات قومه ومن عرف بالشجاعة وأخذهم معه، ثم أقبل على القوم قبل انصرافهم وقال: سآمر صاحب

الناقوس أن يخفق لكم الناقوس خفقة عند خروجي من الباب فتخرجون جميعًا فامتثلوا ما أمرهم به وقاموا ينتظرون الإشارة، وأما صاحب الناقوس فاحتمله وصعد به على السور -أي البرج- وفعل ما أمره به «البطليوس»، فخرج القوم كالسلاهب وضج «البطليوس» في عشرين ألف فارس من الشجعان وهو يوصيهم وقال: أسرعوا في مشيكم فإذا وصلتم إلى القوم فاحملوا عليهم ومكِّنوا السيوف والخناجر من رقابهم، ومن صاح الأمان فلا تبقوا عليه إلا أن يكون أمير القوم، ومن أبصر منكم الصليب الذي أخذ منَّا فليأخذه ومن أتى به أكرمته.

ثم أمر صاحب الناقوس أن يضربه فضربه ضربة سمعها أهل الأبواب، ففتح البوابون وتبادروا للخروج، وخرج اللعين وسمع المسلمون الصوت، فبادروا من أماكنهم مسرعين يخفر بعضهم بعضًا وهم على يقظة، وتبادروا كالأسود الضارية المشتاقة إلى فرائسها، فلم تصل القوم إليهم إلا وهم على حذر إلا أنهم غير مرتبين، فتجاول القوم في ظلام الليل وسمع الأمير خالد ذلك منهم فصاح: واغوثاه وامحمداه وإسلاماه كيد قومي ورب الكعبة اللهم انظر إليهم بعينك

التي لا تنام وانصرهم على عدوهم ولا تسلمهم إلى شر خلقك، ثم سار خالد وهو مكشوف الرأس بلا خوذة، وألهته الزعقة عن لبس السلاح وسار في القوم.

ثم وصل إلى باب توما ومعه خمسمائة من السادات وأصحاب النجدة مثل الفضل بن العباس والفضل بن أبي لهب وزياد بن أبي سفيان بن الحرث وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب والمقداد بن الأسود - رضي الله عنهم - وعلت أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير والقوم من أعلى الأسوار قد رطنوا بلغتهم وتصارخوا عندما استيقظ المسلمون، وحمل خالد على القوم ونادى: يا مسلمون أتاكم الغوث من رب العالمين، أنا الفارس الصنديد والبطل المجيد، أنا خالد بن الوليد، ثم حمل في وسط الروم بمن معه فقتل رجالًا، وجندل أبطالًا وهو مع ذلك مشتغل القلب بالأمير عياض وبقية الأمراء الذين على الأبواب وهو يسمع صراخهم وزعقاتهم.

حدثنا جابر بن سنان عن عقبة بن عامر قال: كان الروم والنصارى من أعلى السور يرمون بالحجارة والسهام، ولقي المسلمون من عدو الله «البطليوس» أمرًا عظيمًا لم يروا قبله مثله، وكان أول من وصل إليهم «البطليوس» وقاتل

عدو الله قتالًا شديدًا، وقال: أروني الذي أخذ صليبي بالأمس؟ فلما سمع الفضل بن العباس صوته قصد جهته، وقال: ها أنا صاحبك وغريمك أنا مبيد جمعكم وآخذ صليبكم أنا ابن عم رسول الله – صلى الله عليه وسلم –! فعطف عليه «البطليوس» عطفة الأسد على فريسته وقال: إياك طلبت ثم انفرد له وصادمه فلم ير الناس في طول الأيام ضربًا كضربهما في تلك الليلة! ورأى الفضل منه شيئًا لم يره في طول عمره، ولم يزالا كذلك إلى أن مضى من الليل شطره، وكل قرم مع قرمه، ولم يزالا في كر وفر وضرب ورد لم ير أحد مثله، وصبر له الفضل صبر الكرام ولاح له من عدو الله ضربة فتلقاها في حجفته فانقطع سيف الفضل وطمع فيه عدو الله وظنَّ أنه يأخذه أسيرًا وإذا بفارسين قد أقبلا ومن ورائهما كتيبة من الفرسان قد هجموا على الروم وإذا بخولة بنت الأزور أخت ضرار قد حملت على فارسين من الروم فجندلتهما وهي تجندل في الأبطال وفرسانهم فلحقها فارسان أحدهما عبد الرحمن بن أبي بكر والثاني عبد الله بن جعفر وتبعهما آخر وهو أبان بن عثمان بن عفان، فخلَّصوا خولة بعد أن أحاطت الروم بها وعطفوا على عدو الله «البطليوس» فكرَّ راجعًا في كردوس من الروم حتى دخل مدينة البهنسا، وقاتلت الروم من أعلى الأسوار قتالًا

شديدًا، وكان خالد - رضي الله عنه - تارة يكر عند باب الجبل وتارة عند باب توما وتارة عند باب قندوس.

وكان عياض بن غنم عند باب الجبل في ذلك الوقت فلبس سلاحه ودنا من القوم بمن معه من الأمراء مثل المقداد وضرار بن الأزور وشرحبيل ومسلم وعقيل وزياد وعبد الله بن العباس - رضي الله عنهم - فعطفوا نحو الباب وكبروا وكبر القوم من ورائهم، فخرج إليهم بطريق عظيم ومعه عشرة آلاف فارس وكان اسم البطريق «يوحنا» فاقتتلوا قتالًا شديدًا، فتكاثر الروم على عبد الله بن عبادة بن الصامت فقاتل قتالًا شديدًا ورمي بحجر من أعلى الباب فقتله، وقتل من الأمراء وفرسان المسلمين عند الباب زهاء من مائتين، وقتل من الروم نحو ألف. وحمل عياض والأمراء والتقى القوم فصارت الأحجار والسهام تتساقط عليهم وهم لا يوَّلون عنهم، فلما ألجؤوهم إلى الباب واختلطوا بهم خشيت الروم أن يصيبوا أصحابهم بسهامهم وحجارتهم فأمسكوا أيديهم، وقتل من الروم مقتلة عظيمة. وأما خالد فقاتل قتالًا شديدًا ما رؤي مثله فبينما الناس كذلك إذ أقبل ضرار بن الأزور وهو ملطخ بالدماء وهو جامد عليه كأكباد الإبل.

فقال له خالد: ما وراءك من الأخبار يا ضرار؟ فقال: أخبرك يا أبا سليمان أني قتلت في ليلتي هذه مائة وستين رجلًا وقتل قومي ما لا يعد وقد كفيتكم من خرج من باب الجبل. وكانت ليلة لم ير الناس مثلها، وهجم الأمير عياض هو وأصحابه على من بداخل الباب، واقتتلوا قتالًا شديدًا ووصلوا إلى ساباط الباب، وكان له باب آخر فأغلق من دونهم على كردوس من الروم فقتلوا هناك، وتسلق المسلمون على البرج وقتلوا من فيه وكانوا خمسمائة، وقتل في تلك الليلة هناك نحو ألف.

وأما باب قندوس فكان عليه الزبير بن العوام وعقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو بن العاص والفضل بن أبي لهب والمغيرة وجماعة من الأمراء فتواثبوا إلى الباب واقتتلوا قتالًا شديدًا وقتل من المسلمين نحو مائة وعشرين رجلًا غير الأعيان! وأما باب توما فكان عليه خالد وخرج منه «البطليوس» فاقتتل الفريقان وقتل من المسلمين جماعة نحو مائتين وثمانين رجلًا في المكان المعروف بالمراغة، وغلَّقوا الأبواب واستعدوا للحصار وهذا كان أول الفتح.

قال الواقدي: حدثنا سنان بن مفرج العجلاني عن أبي محمد الشاكري عن زيد بن رافع عن أبي أمامة قال: وأقام خالد بعد الوقعة على البهنسا أربعة أشهر لا يقاتلهم ولا يناوشهم، فطال عليهم المكث وضجروا فأتوا إلى خالد وشاوروه في القتال فأذن لهم، وكان جملة من قتل في وقعة الأبواب نحو ستمائة فارس ختم الله لهم بالشهادة. فلما استأذن الصحابة خالدًا في القتال لم يقدر أن يمنعهم ولما أصبحوا اقتتلوا قتالًا شديدًا لم يسمع مثله فاشتد الحصار. فقام أهل البهنسا وقالوا للبطليوس: ما بقي لنا صبر على القتال والحصار! فقال لهم: اصبروا واثبتوا لعلي أكيد العرب بمكيدة! ولما اشتد الحصار عليهم أتوا إلى بطريق يسمى «توما» صاحب الباب وأتاه السوقة والنصارى والعوام وقالوا له: لقد ضاق علينا الحصار فنجعل لك مالًا وافتح لنا الباب حتى نأخذ لنا أمانًا من العرب فأجابهم إلى ذلك! فصبَّرهم إلى جانب من الليل وفتح لهم الباب فمضى نحو مائتين من تجار البلد وخرجوا من باب السر وأتوا إلى خالد وصالحوه على أن يفتحوا لهم الباب وجعلوا للمسلمين جعلًا معلومًا واتفقوا على ذلك وكتبوا أسماءهم ورجعوا.

هذا ما جرى لهؤلاء، وكان الكلب ابن عم «توما» حاضرًا واسمه «أرمياء» فمضى إلى «البطليوس» وأعلمه بذلك، فعندها أرسل «البطليوس» بطريقًا يقال له «حرفائيل» ومعه ألف بطريق وقال: اكمنوا وأتوني بالخبر على جليته! فمضوا وتفرَّقوا وهم مشاة قريبًا من باب «توما» وإذا بهم قد أقبلوا، فلما رأوهم عرفوهم وفتحوا لهم الباب فدخلوا، فعندها تواثبوا عليهم وأمسكوهم وسحبوهم إلى «البطليوس» -لعنه الله-، فلما رآهم وبَّخهم توبيخًا عظيمًا. وقال: ائتوني بالسياط، ونصب أخدودًا من حديد، ثم ضربهم ضربًا شديدًا، وأتى بالنار وأحرق جميع أموالهم، وأمر بإحضار البطريق فأحضر بين يديه فأخذه ومضى إلى القصر هو وجميع أعوانه واستدعى بالخشب وصلَّبهم على أعلى السوار وأقاموا هناك يوم وليلة، ثم أمر بضرب رقابهم وطرح رؤوسهم للمسلمين. قال الأمير عياض للأمير خالد: هؤلاء أهل ذمتنا، وقد قتلهم «البطليوس» لعنه الله!

قال الراوي: وأما الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فإنه قلق على المسلمين قلقًا شديدًا فأرسل كتابًا إلى عمرو بن العاص يقول فيه: ما سبب انقطاع كتبك عني وأنا في قلق على المسلمين وعلى خالد ومن معه. واعلم أنك

لا ترسل لي إلا بالفتح والغنائم وإن احتاج خالد إلى نجدة فأرسل إلى أبي عبيدة، فقد كاتبته بأن يرسل له جنودًا من الشام والسلام!

فلما وصل الكتاب إلى عمرو أرسله إلى خالد. فقال خالد: لا نطلب النجدة والمعونة إلا من الله تعالى! ثم إن خالدًا عظم عليه الأمر واشتد الحصار، وكان كل يوم يرجع إلى المدينة ويقاتل قتالًا شديدًا وفقد من المسلمين جماعة كثيرة قتلوا بالحجارة والنشاب، وهجم عدو الله على المسلمين وكادهم مرارًا، وقال خالد للأمير عياض وللمسلمين: لاشك أن لأصحابنا عيونًا وجواسيس، ثم إن خالدًا ركب ومعه الفضل بن العباس والمقداد وزياد بن أبي سفيان وعياض وطافوا حول العسكر وإذا برجل من العرب المتنصرة جالس على قطيفة خارج العسكر فأنكر أمره خالد وقال له: من أي العرب أنت؟ فسكت. فقال له الأمير عياض: انطق بالحقِّ من لك من الأهل هاهنا؟ فسكت. فقال له خالد: خذ الماء وتوضأ فلم يحسن ذلك. فقال له: صل فلم يحسن ذلك فضربوه فأقرَّ بأنهم خرجوا ثلثمائة من باب السر ورُدّوا وبقي هو فضرب عنقه، وانقطعت الجواسيس فكانوا يقاتلون قتالًا شديدًا.

وكان لخالد عبد في خيمته اسمه فلاح، فجاء كلب أسود عظيم من جهة البلد ومضى فتبعه العبد حتى أتى إلى سرب يخرج منه الماء يجري من البحر تحت الأرض إلى تحت سور المدينة من جهة القبلة ويدخل المدينة ويظهر من الجهة البحرية من خارج البلد، فلما رآه العبد رجع وأعلم الأمير خالدًا فمضى معه ورأى ذلك ففرح بذلك فرحًا شديدًا ثم أتى إلى الأمراء وأعلمهم بذلك وقال لهم: أريد منكم مائة رجل قد باعوا أنفسهم لله - عز وجل - فيمضون معي وجماعة شداد يكونون مقابل الباب. فإذا فتحنا الأبواب دخلوا إلينا فانتدب منهم مائة رجل من خيار القوم منهم عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وزيد بن ثابت وعقبة بن عامر ومسلم بن عقيل ومثل هؤلاء السادات.

ورتب خالد عبد الله بن جعفر والزبير بن العوام وابنه عبد الله والفضل بن العباس والفضل بن أبي لهب وضرار بن الأزور - رضي الله عنهم - ومثل هؤلاء مقابل الباب وصبروا إلى غروب الشمس وأتوا إلى ذلك السرب ودخلوا إليه في الماء. وتواثبت الأمراء المذكورون وأخفوا نفوسهم تحت الجدار إلى جزء من الليل فتبادروا إلى الباب فوجدوه موثقًا من داخله، فقتلوا كل من

وجدوه في دهليز الباب وكانوا ستين رجلًا، ثم علوا على السور وجماعة منهم أخذوا المفاتيح ففتحوا الباب وثاروا على الروم فقتلوا جماعة منهم في أعلى البرج وقتلوا بطريق البرج وأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير، فأجابهم المسلمون بمثل ذلك ودخلوا من الباب إلى سوى المدينة وتبادرت جماعة إلى القصر، فلما أحس عدو الله بذلك وأن المسلمين ملكوا عليه الأبواب وضع منديلًا في عنقه وخرج وهو يقول: الأمان الأمان وفعل جماعة كذلك، فأبى خالد ووضع السيف فيهم وقاده أسيرًا وقال له: يا عدو الله لا أمان لك عندي إلا أن تُسْلِم وقبض على جماعة من بطارقته ووضع السيف فيهم، وقتل من الروم نحو ثلاثة آلاف، وقتل من المسلمين في تلك الليلة في وسط البلد مائة وأربعة وثمانون رجلًا قريبًا من سور المدينة وعند الأبواب وعند القصر.

وجاء عياض ومعه جماعة من الأمراء فشكا إليهم أهل البلد، وقالوا: الأمان! فرقَّ لهم الأمير عياض وصار عدو الله يتملق بين أيديهم فغلبوا على رأي خالد حتى صالحهم على ألف مثقال من الذهب الأبريز، وألف أوقية

من الفضة البيضاء، وعشرة آلاف وسق من البر والشعير والجزية من العام القابل، وخالد لا يطمئن قلبه إلى شيء من ذلك وغلب الأمراء على رأيه وجاؤوه وقالوا له: لقد أضرَّ بنا المقام بهذا البلد، فما نراك إلا أشفق منَّا علينا ونرى من الرأي أن ترسل إلى عمرو وتعلمه بذلك وهذا الكلب وجماعته موثَّقون إلى أن يجيء الجواب!

فعندها كتب خالد كتابًا إلى عمرو يخبره بذلك. فلما بلغه ذلك رد لهم الجواب أنهم يستوثقون منه بالأيمان ويأخذون منه ما صالحهم عليه ويتركونه، ومن صاح الغوث الغوث فاتركوه وإلا نفر منكم أهل الصعيد ففعل خالد ذلك وقلبه نافر، وأطلقه بعدما استوثق منهم بالأيمان في كتبهم المذكورة وأطلقوه، وشرط عليهم أن لا ينزل عندهم أحد إلا من يقبض المال فخرجوا إلى ظاهر المدينة، وبقي عنده فضالة بن زيد السلمي وعون بن ساعدة الكندي ومقوم بن سعيد الجهني ومائتان من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأخرج الميرة والعلوفة. وصار البطليوس يركب كل يوم ويتودد إلى الأمراء ووهب وأعطى ولم يترك أميرًا إلا خادعه حتى طابت نفوسهم إليه إلا خالدًا والفضل

بن العباس والمقداد وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق والزبير بن العوام فإنهم لم تطب نفوسهم إليه وأقاموا شهرين على ذلك، وأرسل جميع الغلال إلى خزينته في هذا الزمن، وخزَّن ما يحتاج إليه، واستدعى بكبار قومه ومن يثق به واتفق رأيهم على قتل المسلمين والغدر بأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وصبروا إلى أن مضى جزء من الليل وهجم على المسلمين على حين غفلة في ألف بطريق وأوثقهم كتافًا وجعل في أفواههم الأكر، وفتح الأبواب، وأدخلهم المدينة، وهجم على المسلمين ووضع السيف فيهم وهم رقود فما انتبهوا إلا والسيف يقطع في نحورهم وكانت وقعة عظيمة.

وثار خالد بمن معه، وكان الزبير راقدًا فسمع الصياح فقال: دهينا ورب الكعبة! ثم ركب وركبت معه زوجته وقاتلت النساء قتالًا شديدًا وعدو الله تارة يكر ميمنة وتارة يكر ميسرة والسيف يعمل والرجال تقتل، وكانت ليلة شديدة وصار خالد يقول: يا قوم أما قلت لكم فما سمعتم لخالد!! والتجأ زياد بن أبي سفيان وأخوه هبار وميسرة بن مسروق وفضالة بن عبد شمس وعقيب بن يعقوب وعبادة بن تميم وجندبة الكلبي إلى تل هناك وأحاط بهم طائفة من الروم

من كل مكان فقاتلوا قتالًا شديدًا، وانحدر زياد - رضي الله عنه - من التل وتبعه أصحابه فأحدقت بهم الروم وداروا بهم كدوران السوار بالمعصم وقتلوا زيادًا وجميع من ذكرنا من الأمراء، وقاتلت نسيبة الأنصارية أم أبان وأسماء ابنة أبي بكر ونعمانة ابنة المنذر ونظائرهن في تلك الليلة قتالًا شديدًا، وقتل جماعة من المسلمين، وأتى خالد وحمل عليهم وجعل يقلب الميمنة على الميسرة والميسرة على الميمنة! وأطبق عليهم هو وجميع الأمراء فهزموهم إلى الأبواب وقد قتلوا منهم مقتلة عظيمة وهرب عدو الله وتحصَّن هو وقومه وغلَّقوا الأبواب.

ولما أصبح أمر بالحصار، وأمر بإحضار المأسورين وصعد بهم إلى أعلى البرج وضرب رقابهم، فشقَّ ذلك على المسلمين وصعب عليهم ما فعل عدو الله بأصحابهم! وأتى خالد - رضي الله عنه - ومعه بقية الأمراء إلى مكان المعركة فوجدوا الشهداء مطروحين ووجدوا زيادًا - رضي الله عنه - وفيه عشرون طعنة بالرمح وأربعون ضربة بالسيف، وإلى جانبه أخوه هبار وفي رأسه عشرون ضربة بالسيف وواحدة في فخذه فقطعته، فبكى خالد عليهم بكاءً شديدًا

وبكى عليهم سائر الأمراء وأبطال المسلمين ونعاهم الأمير خالد بهذه الأبيات وهي له خصوصًا:

هوام دموعي كالسحائب تهمع ... وقلبي من فَقْد الأحبة يفزع
وأظلمت الدنيا على نور عبرتي ... وكاد فؤادي بالجوى يتقطع
لفَقْد زياد أحرق البين مهجتي ... وغاب صوابي وهو في الأرض يصرع
لقد كان في بحر المعامع صائلًا ... يزلزل أركان العِدا ويضعضع
وقد كان مقدام الفوارس كلها ... بكل مكان للأعادي مقمع
لحى الله يومًا فيه حانت وفاته ... وأجفانه مع أسهم الدمع تدمع
أيا سيدًا من آل هاشم لم يزل ... له رتبة بالمجد والجود ترفع
يعزّ علينا أن نراك معفرًا ... ورأسك من فوق الجنادل تسفع
بجانبك الهبّار أضحى مهبّرًا ... طريحًا على رأس الثرى وهو مطبع
ألا لعن الرحمن بطلوس قومه ... وألعنه مع كل قوم تجمع
لقد غُدِرَ السادات من آل هاشم ... نجومًا وأقمارًا على الناس تطلع

وبكى المسلمون بكاءً شديدًا على من قتل منهم من الأمراء والأبطال وجمعوهم وصلوا عليهم وواروهم في حفرهم إلى جانب التل فإذا هم ثمانون أميرًا وثلاثمائة وسبعون رجلًا ختم الله لهم بالشهادة.

قال الواقدي: ولما طال الحصار والمكث على أهل البهنسا اجتمعت المسلمون عند خالد واستشاروه فيما يفعلونه وما يكون من الرأي فوثب عبد الرزاق الأنصاري وعبد الله بن مازن الداري وكعب بن نائل السلمي وأبو مسعود البدري وأبو سعيد البياضي وقالوا: يا قوم قد وهبنا أنفسنا لله - عز وجل -، ولعل أن يكون للإسلام فرج، فاصنعوا منجنيقًا واملؤوا غرائر قطنًا ويأخذ كلُّ واحد منَّا سيفه وحجفته ويدخل في غرارة قطن فإذا كان الليل ونامت الحراس فألقونا على أعلى السور واحدًا بعد واحد والمعونة من الله في فتح الباب كما فتحتم قصر الشمع بمصر ودير النحاس، وكما فعلتم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. فاستصوبوا رأيهم! فلما أصبحوا قطعوا الأخشاب وصنعوا منجنيقًا وصنعوا له حبالًا وأحضروا غرائر وملؤوها قطنًا والرجال داخلها وصبروا إلى الليل ودخل هؤلاء السادات - رضي الله عنهم - بعد أن

ضربوا بالمنجنيق حجرًا بعد حجر فسقط على أعلى السور والبرج فشرعوا في رميهم منهم أبو مسعود البدري وعبد الرزاق إلى أن رموهم جميعهم وصاروا فوق أعلى السور، ورتب خالد أصحابه على الأبواب.

وأما عبد الرزاق وأصحابه، فلما صاروا بأعلى الجدار نزلوا إلى البرج فإذا هو مغلق والحراس نيام، فنزلوا إلى الدهليز بين البابين فوجدوهما مغلقين موثقين فذبحوا البوابين عن آخرهم، ووجدوا المفاتيح تحت رأس كبيرهم في جانب سريره فأخذوها وفتحوا الأبواب، وإذا بالباب الثاني الذي ينتهي إلى القصر مسدود بالحجارة، فاحتالوا على قلع حجر بعد حجر فقلعوها ورموا الأحجار وفتحوا الأبواب، وكل ذلك في أقل من ساعة بمعونة الله - عز وجل - ، وصعدوا إلى البرج فعالجوه وفتحوه وقتلوا جماعة واستيقظ جماعة وثاروا عليهم، وخافوا على الباب أن يؤخذ منهم وأن يحال بينهم وبينه، وهو باب السور الذي بظاهر المدينة ففتحوه، فصاحت الروم واستيقظ «البطليوس» وركب جواده وكان على حذر، وركب المسلمون ودخلوا الباب، وخرجت

البطارقة و«البطليوس» من قصره وزحفت الروم إلى الباب، وكان أول من قتل في ذلك اليوم عبد الرزاق وعنان بن مازن وكعب بن نائل السلمي بداخل الباب.

عن أبي مسعود البدري، وكان أول من فتح الباب قال: ليس هو على هذه الصفة وأخبرنا سالم بن حامد عن أبي عبد الله عن أبي محمد الأنصاري عن عبد الله البدري قال: كان أبو محمد الحسني يقرأ هذه الفتوح بالجامع الغزي العمري على الشيخ أبي عبد الله حتى بلغ إلى هنا وذكر الفتوح وفتح الباب وأن الرجال وضعت في الغرائر. قال: يا بني ليس الأمر كذلك، فقد روي عن أبي مسعود وهو الصحيح عن فتح الباب قال: إنهم قطعوا أخشابًا ونصبوا سلمًا للتسلق عاليًا علو جدار المدينة وصبروا إلى الليل وأسندوه إلى الجدار وتسلق منهم أربعون رجلًا ومنهم السبعة المذكورون وفتحوا الباب كما ذكرنا! واستيقظ الروم وخرجوا إليهم بعد فتح الباب، فكان السابق إليهم عبد الرزاق - رضي الله عنه - فقتلوه وقتلوا معه من ذكرنا أولًا وتسابق المسلمون إلى الباب، فكان أول من دخل ضرار بن الأزور ثم دخل من بعده خالد ثم ذو الكلاع الحميري ثم الزبير بن العوام ثم عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ثم

عبد الله بن جعفر ثم الفضل بن العباس ثم الفضل بن أبي لهب ثم عياض بن غانم الأشعري ثم المقداد بن الأسود ثم أبان بن عثمان ثم مسلم بن عقيل ثم شرحبيل بن حسنة ثم القعقاع بن عمرو التميمي، ثم مالك الأشتر ثم عبادة بن الصامت ثم أبو ذر الغفاري ثم أبو هريرة الدوسي ثم ابنه عبد الرحمن بن معاذ ثم معاذ بن جبل ثم شداد بن أوس ثم قيس بن هبيرة ثم أبو دجانة الأنصاري ثم جابر بن عبد الله ثم البراء بن عازب ثم النعمان بن بشير ثم سعيد بن زيد أحد العشرة الكرام - رضي الله عنهم -، ثم الأنصار يتلو بعضهم بعضًا بهمم وعزائم. ثم خرجت الروم وقاتلت قتالًا شديدًا، وتواثبت جماعة من الأمراء مثل الزبير بن العوام وابنه عبد الله وعبد الرحمن بن أبي بكر إلى باب البحر واقتتلوا قتالًا شديدًا، وتقدم عبد الرحمن والزبير والفضل إلى الباب والروم على أعلى السور، وجعلوا السلاسل من فوق وصعدوا إلى أعلى البرج وهدموا الشرافات ووضعوا السيف في الحراس، وفتحوا الباب!

ووثب شرحبيل بن حسنة وأبو ذر الغفاري وأبو أيوب الأنصاري إلى باب قندوس، ووثب المسيب بن نجبة الفزاري والقعقاع بن عمرو والأمير عياض

بن غنم الأشعري إلى باب الجبل، وفتحوا الأبواب واقتتلوا قتالًا شديدًا، وقاتلت الروم قتال الموت إلى أن طلعت الشمس وارتفعت فاقتتلوا في الأزقة والشوارع وبين الأبواب، وقاتل عدو الله «البطليوس» قتالًا شديدًا، وتقدم خالد منه وهو يصيح: واثارات سليمان! وطعنه طعنة صادقة في صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره فوقع يخور في دمه وعجل الله بروحه إلى النار، فلما رأى الروم ذلك ولَّوا الأدبار، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون، وقتل من الروم نحو ثلاثين ألفًا بوسط البلد وأسر منهم عشرون ألفًا. وصار المسلمون يصعدون إلى البيت ويأخذون الرجال من بين حريمهم من الروم ويقتلونهم حتى كلَّت سواعدهم من الذبح، وجرى الدم في الأزقة، وصار القتلى في الشوارع والأسواق مطروحين، وخرجت إليهم النصارى والقبط وهم يبكون ويقولون: نحن أهل ذمتكم ونحن عوام وتجار وسوقة، وكلنا مغلوبون على أمرنا وقتل خيارنا بأسيافكم! وبقية الأمراء يقولون هؤلاء قد صاروا رعيتنا وليس لهم بطش فتركوهم، وقالوا: بشرط أن تدلونا على من أخفى نفسه في المغاير والمخابيء، ومن فرَّ من الباب الشرقي وغرق في الماء فدلُّوهم على الجميع، ولم يزالوا يقتلون ذلك اليوم كله. وفي اليوم الثاني استدعوا بنجارين

يعملون عربات لحمل القتلى من المسلمين، وأخذوا دواب أهل السواد من البقر تسحب العربات، والفلاحون عملوا عليها، وصاروا يضعون كل ستة وثمانية وعشرة في حفيرة ويردُّون عليهم الرمل حتى صاروا تلالًا! ورجعوا إلى قتلى أهل البلد فواراهم أهلهم في قبورهم.

وكان جملة من قتل من المسلمين في ذلك اليوم نحو أربعمائة وأزيد، الأعيان منهم صاغر بن فرقد وعبد الله بن سعيد وعبد الله بن حرملة وعبد الله بن النعمان وعبد الرزاق الأنصاري وعبد الرحيم اللخمي وأبو حذيفة اليماني وأبو سلمة الثقفي وأبو زياد اليربوعي وأبو سليمان الداراني وابن أبي دجانة الأنصاري وأبو العلاء الحضرمي وأبو كلثوم الخزاعي وأبو مسعود الثقفي وهاشم بن نوفل القرشي وعمارة بن عبد الدار الزهري ومالك بن الحرث وأبو سراقة الجهني والبقية من أخلاط الناس، وقتل عند سوق التمَّارين نحو عشرين ودفنوا هناك، وعند سوق الصابون جماعة كثيرة، وقريبًا من العطارين في جانب القبور نحو أربعين، وقريبًا من البحر اليوسفي جماعة عند السور - رضي الله عنهم -.

قال الراوي: ولما وارى المسلمون شهداءهم صعدوا إلى قصر «البطليوس» وإلى قصور البطارقة ودورهم ومقاصيرهم فوجدوا فيها من آنية الذهب والفضة، ومن المتاع والحلي والحلل واللآلئ والنمارق والجواهر والبسط والوسائد والمساند ما لا يوصف، واقتتلت الروم على بغلة محملة عند باب السر فغلبهم المسلمون عليها وأخذوها فإذا عليها صندوقان فيهما أحجار معادن، فاشترى رجل من المسلمين من بيت المال حجرًا بستة آلاف دينار فباعه على غشوميته بمائة ألف دينار! وأخذوا بساط «البطليوس» وكان مثل بساط كسرى سداه حرير وذهب مرصع بالمعادن فأرسلوه مع الخمس إلى المدينة، فجعل لعلي بن أبي طالب فيما حصل له من البساط عشرون ألف دينار، وغنم المسلمون غنائم كثيرة من أواني الذهب والفضة وغير ذلك.

قال الراوي: حدثنا عون بن عبيدة عن عبد الحميد بن أبي أمية قال: هدم المسلمون القصر والكنيسة وتلك الدور وفتحوا خزائن «البطليوس» واستخرجوا جميع ما فيها من الذهب والفضة وغير ذلك ولم يتركوا فيها شيئًا أبدًا، وقسم خالد الغنيمة بين المسلمين فكان للفارس عشرة آلاف مثقال من

الذهب وألف أوقية من فضة، ومن الثياب والملبوس وغير ذلك ما لا يوصف، ولما دخلوا الكنيسة ورأوا تصاويرها وقناديلها الذهب والفضة والستور والحرير المنقوشة والأعمدة وغير ذلك تعجبوا وقرأ خالد «وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ»، وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فصاح المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير، وقرأ الأمير عياض بن غنم «كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ»، وأخربوا تلك البيعة، وجعلوا بجانبها مسجدًا على أعمدة من الرخام مسقوف عليها بتلك الأخشاب وهو الجامع الأول قبل بناء حسن بن صالح هذا الجامع الآن، وبقية الأخشاب والحجارة جعلوا منها مساجد وربطًا.

قال الواقدي: حدثنا عبد الحميد عن قيس بن مهران عن أبي جعدة قال: بمدينة البهنسا أربعون رباطًا، ومن المساجد ما لا يعد، وأخربت الصحابة تلك المعالم وبنوا دورًا لأنفسهم واختطوا بها أماكن وشوارع، وأقام خالد ومن معه بمدينة البهنسا يصلحون المساجد والربط ويخرِّبون المعالم شهرًا كاملًا، ثم

أخرج الخمس وأرسله لعمرو بن العاص ومن معه من المسلمين وهو نازل بمصر على قدر سهامهم، وقال له: أرسل الخمس مع أبي نعيم الأنصاري والفضل بن فضالة وأبي دجانة إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو بالمدينة. فلما ورد الكتاب إلى عمرو بن العاص فرح بذلك فرحًا شديدًا، ثم كتب عمرو لعمر كتابًا مع أبي نعيم صحبة كتاب خالد وسيَّر معه ثلاثين صحابيًا حتى دخل المدينة، ودخل على عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فوجد عنده جماعة وقد أخرج لهم قصعًا ومناسف من ثريد، فلما رآنا عانقنا وتهلل وجهه فرحًا وجلسنا كلنا نأكل وهو قائم على رؤوسنا متكئ على عصا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فلما فرغنا من الأكل ناولته الكتابين، فقرأهما وفرح فرحًا شديدًا ونادى في الناس الصلاة جامعة! فخطب وحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقرأ عليهم الكتابين واستدعى بالصحابة وقسَّم عليهم الغنيمة، ولم يترك لأهله درهمًا ولا دينارًا ولا ثوبًا - رضي الله عنه -، وأخذني ومضى إلى بيته بيت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وأدخلني إليه؛ فإذا فيه فراش من أدم حشوه ليف ووسائد من صوف وقطيفة واحدة فجلست. فقال لأم كلثوم: هل عندك شيء من التمر؟

قالت: لا إلا اللبن الحامض. قال: ذلك لي، وإنَّ عندنا ضيفًا! فحضرت بعكة من سمن وقليل من عسل وفطير مع جارية فأكلت قليلًا من المذكور وأخرجت الباقي لأصحابي وشرعت أحدِّثه عن «البطليوس» وهو تارة يبكي، وتارة يضحك من فعله! ويبكي على من قتل من المسلمين والأمراء، وخرجنا إلى مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك وجاء الناس يهرعون ويسألون عن أهاليهم منَّا فأخبرنا عمن مات ومن قتل فضج الناس وأهل المدينة بالبكاء وعلت الأصوات على من قتل، وجاء الناس لعلي وعقيل وبني هاشم يعزوُّنهم فيمن قتل، وأقمنا بالمدينة سبعة أيام ورجعنا إلى مصر بكتاب عمر - رضي الله عنه - إلى خالد فأمره بالمسير إلى الصعيد.

قال الراوي: هذا ما جرى لهؤلاء؛ وأما خالد - رضي الله عنه - فإنه بعد شهر ترك أناسًا من الصحابة بأرض البهنسا من جميع القبائل وخرج بألفي فارس إلى أرض الصعيد، وكانت القبائل من بني هاشم وبني المطلب وبني مخزوم وبني زهرة وبني نزار وبني جهينة وبني مزينة وبني غفار والأوس والخزرج ومذحج وفهر وطيء وخزاعة، وكان الأمير عليهم مسلم بن عقيل

وأحاطوا بالمساكن، وجعلوا بالمدينة أسواقًا وشوارع وسكن أكثر الصحابة في جانب البحر اليوسفي وخلوا من الآخر إلى الجانب الغربي شارعًا واحدًا لأجل أن تسبح دوابهم في البحر، وأقام مسلم بن عقيل واليًا عليها إلى خلافة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - فتولى محمد بن جعفر بن أبي طالب بعده ومضى مسلم وترك أولاده وإخوته بها، ولم يزل في المدينة حتى قتل في خلافة الحسن في الكوفة - رضي الله عنه -، وأقام محمد بن جعفر إلى خلافة علي - رضي الله عنه -، وتولى عليها بعده علي بن عبد الله بن عبد الله بن العباس - رضي الله عنه - إلى خلافة معاوية، وكان عبد العزيز بن مروان الأموي واليًا وتولى بعده طاهر بن عبد الله، وكانت قريش والأشراف بالجهة الغربية ويقال لها حارة الأشراف، وكان لكل قبيلة حارة. قال أبو المنهال: لما فتحت مدينة البهنسا كانت آهلة بالجند فاجتمعت السوقة والمتسبّبون من أهل البلد وكانوا أربعين ألفًا. وخرج خالد بمن معه إلى الصعيد ولم يزل يفتح مدينة بعد مدينة إلى آخر الصعيد إلى عدن وسواكن، وليس مقصدنا في هذا الكتاب إلا فتوح البهنسا خاصة التي عليها مدار فضائل السادة الشهداء لأن بتربتها خمسة آلاف صحابي وحضر فتح البهنسا نحو سبعين بدريًا من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

قال المؤلف: ولقد وضعت في هذا الكتاب كل نادرة عجيبة وحكاية غريبة وهو كتاب كامل المعاني والبيان عظيم القدر والشأن لا يفهمه إلا ذوو البصائر والألباب، ولا يعقله إلا أهل الخطاب، ولا يقرؤه إلا أهل الذوق والمعرفة، فهو كالزَّهر في الرياض لمن اقتطفه، نفع به مالكه وكاتبه وقارئه ومستمعه، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين.

الفهرس

ترجمة المؤلف ١
مقدمة التهذيب ٤
الجزء الأول ١٣
إقبال الجند ١٣
وصية أبي بكر ١٩
وصية الصديق لعمرو بن العاص ٣٥
عمرو بن العاص في فلسطين ٤١
كتاب عمرو بن العاص إلى أبي عبيدة ٥٠
خالد بن الوليد في الشام ٥٦
معارك الشام ٨١
خولة بنت الأزور ١٠٠
معركة حول دمشق ١١٣
بطولة النساء ١٢١
نصيحة خالد ١٢٨
معركة أجنادين ١٤٥
كتاب أبو بكر إلى خالد ١٥٣

حول دمشق ١٥٥

بطولة المرأة.. ١٦١

القتال من فوق الأسوار.. ١٧٠

كتب خالد بالفتح ٢٠٥

تولية أبي عبيدة.. ٢١٠

ذكر حديث وقعة أبي القدس ٢١٧

معركة ضرار ٢٣٦

ذكر فتح حمص ٢٤٣

ذكر حديث سرية خالد بن الوليد ٢٤٧

ذكر فتح قنسرين ٢٥٠

جبلة يحارب خالدًا ٢٧٠

ذكر حديث نزول المسلمين على حمص ٣١٩

ذكر فتح الرستن.. ٣٣٤

معركة حمص.. ٣٥١

ذكر وقعة اليرموك.. ٣٥٨

جبلة بن الأيهم.. ٣٧٤

نساء المسلمين في المعركة ٤٤٩

الشعار ٤٧٦

ذكر فتح مدينة بيت المقدس ٥٣١

ذكر فتح مدينة حلب وقلعتها ٥٧٢

ذكر فتح عزاز ٦٤٤

ذكر غزوة مرج القبائل داخل الدروب ٧١٦

النَّجدة ٧٢٨

كتاب عمر ٧٣٧

فتح قيسارية الشام بساحل البحر ٧٤١

المعارك في فلسطين ٧٤٥

المعركة ٧٥٣

البطريق «قيدمون» ٧٥٧

فتح صور وعكاء وطرابلس الشام وقيسارية ٧٦٦

الجزء الثاني **٧٨٣**

ذكر فتوح مصر ٧٨٣

الاستعداد ٨٠١

ذكر فتح مدن مصر ٨١٢

كبسة الجيش ٨٣٤

نتائج المعركة ٨٥١

فتوح مدينة مريوط ٨٥٩

ذكر فتوح إسكندرية ٨٦٧
ذكر فتح مدينة دمياط وما والاها ٨٩١
ذكر فتح جزيرة تنيس ٨٩٨
ذكر فتوح الفرماء والبقارة والقصر المشيد ٩١٢
ذكر فتوح ديار بكر وأرض ربيعة ٩١٢
ذكر فتح القلعتين زبا وزلوبيا ٩١٥
ذكر فتح قرقيسيا ٩٢٩
ذكر فتح ماكسين والشمسانية ٩٤٦
ذكر فتوح قلعة ماردين ٩٤٧
ذكر فتوح الرّها وحرّان ٩٦٨
ذكر فتح قلعة رأس العين ٩٧٤
ذكر فتح دارا وبيرحا وباعماء ١٠١٤
ذكر فتوح ميافارقين وآمد ١٠١٦
ذكر فتوح اليمانية وجبل الجودي ١٠٣٣
ذكر فتح حصن لغوب ١٠٤١
ذكر فتح طنز ويمهرد وأسعرد ١٠٥٠
ذكر فتوح بدليس وأرزن وأعمالها ١٠٥٢
ذكر فتح أرمينية وأخلاط وقف وأنظر ١٠٥٧

ذكر فتح أرزن وأسعرد وجبل مارون ١٠٧١
ذكر فتوح الإسماعيليات ١٠٧٢
ذكر فتوح العراق ١٠٧٥
ذكر فتوح الخورنق وقتل النعمان بن المنذر وفتح الحيرة والقادسية ١٠٧٨
ذكر فتح نهمشير ١٠٩٩
ذكر فتوح الإيوان ودخول المسلمين في الدجلة وفتوح إسبانير وهي المدينة القصوى ١١١٠
ذكر فتوح مدينة نشاور وهي آخر فتوح العجم والعراق ١١٣٣
ذكر فتوح البهنسا وأهناس وأعمالها ١١٤٠
ذكر خروج عيسى - عليه السلام - من مصر وإقامته بأرض البهنسا ١١٤١
ذكر فتح البهنسا وما فيه من الفضائل وما وقع فيه للصحابة - رضي الله عنهم - ١١٤٣
ذكر فتوح البهنسا ونزول الصحابة وقتل البطريق ١٢٤٩
الفهرس ١٣٢١